

مدير المجلة ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات
العنوان: إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
تليفون: ٤٦٢١٢

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

بدل الاشتراك
٥٠ في مصر والسودان
٦٠ في الأقطار الإسلامية
٥ ثمن الجزء

الجزء الأول - القاهرة في غرة المحرم سنة ١٣٧٢ — ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٢ — المجلد الرابع والعشرون

فهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

كان ظهور الإسلام فتحاً لعالم جديد

نستطيع من غير أن نغضب المؤرخين أن نجعل ظهور الإسلام هو الفاروق بين عالم قديم كان يقاسي لهاث الموت ، وعالم جديد كان يستهل استهلال الحياة ؛ وأن نطلق الوصف بالجاهلية على العالم القديم كله شرقيه وغربيه ، والوصف بالإسلامية على العالم الجديد كله مسيحيته ومحمديته .

ومما يعزز هذا التقسيم أن الله جل جلاله قد أرسل رسوله محمداً بالهدى إلى الناس كافة ، وكانت سنته من قبل أن يرسل من اصطفاه إلى البلد الذى فسد ، والشعب الذى شرد . فلما عمت الجهالة ، وشاعت الضلالة ، وأوفت الإنسانية ، اقتضت حكمة الخالق أن تكون الرسالة عامة والدعوة شاملة . ومن طبيعة الشريعة العامة أن تكون كاملة لا ينالها النقص ، متجددة لا يعتريها البلى ، صالحة لكل نفس ولكل أفق ، حتى يكون فيها لكل داء علاج ، ولكل قوم منهاج . ولكل مشكلة حل . وتلك هى الخصائص المميزة للشريعة التى انقطع بعدها الوحى ، ولصاحبها الذى اختتمت به الرسل .

* * *

كانت الجاهلية العالمية ، التى سبقت الإسلامية العالمية ليلا موصول الظلام بالأزل ، مبسوط الهول على الأرض . ومن حقبة إلى حقبة كانت تضىء سماءه الداجية ومضات من عقل الإنسان فى طيبة وأثينا ، وأشعة من وحى الله فى سيناء وأورشليم . حتى إذا خبا نور العقل بحيوانية الرومان ، وخفت صوت الوحى بمادية اليهود ، أطبق الظلام فى كل سماء ، وغشى الضلال على كل أرض ، وسرت قافلة الحياة غوية تخبط فى مجاهل البيد ، يسوقها من الشرق الفرس ، ويقودها إلى الغرب الروم . ولم تكن الروم فى القرنين السادس والسابع للميلاد إلا دولة منحلة ألح عليها سرف الغنى وترف العيش وفساد العقيدة وتباين المذاهب ، حتى انتهى أمر دينها فى بيزنطة إلى خلاف مستحكم فى طبيعة المسيح ، وجدل متحكم فى صفات هذه الطبيعة . وآل أمر دنياها فى رومة إلى استغراق فى شهوات الحس ونزوات النفس كف كفت من سلطان العقل ، وطأطأت من إشراف الروح . وكان من هذا الدين المسيخ ومن هذه الدنيا الداعرة أن قام فى شطرى الامبراطورية الغاربة نظام من الحكم السفيه الفاجر أرهق الأمة بالضرائب ، وأفسد الحكومة بالرشا ، ولوث

المجتمع بالرذائل، وأشعر الناس مذلة الرق، فعظموا القادة. وقدسوا السادة، وألهوا القياصرة، حتى انحدر السيد والمسود، والعابد والمعبود، إلى هوة لا قرار لها إلا العدم.

كذلك لم تكن الفرس فى ذلك العصر نفسه إلا حطام دولة وغثاء جيل. منيت بما منيت به الروم من تحلل العقد، وتعفن الأخلاق، وسطوة الشهوات، وتفاوت الطبقات، وطغيان الملوك، وبطلان الدين. وأربت عليها بنشوء المذاهب المعوجة فيها، وغلبة الميول الشاذة عليها، فمن (رمزية) زرادشت، الذى مهد للمجوسية الحمقاء، إلى (عدمية) مانى، الذى حرم الزواج استعجالا للفناء، إلى (وجودية) مزدك الذى جعل الناس شركة فى الأموال والنساء، إلى حال من الاجتماع العفن والنظام البالى لا يعيش فيهما حر، ولا يدوم عليهما ملك.

وكان الناس من وراء هاتين الدولتين يعيشون على حال أسوأ من هذه الحال، وفى درك أسفل من هذا الدرك؛ فالعرب واليهود قد وصفهم الكتاب العزيز بما لا بيان بعده. والهنود وأهل الصين كانوا من البوذية والبرهمية فى وثنية إباحية لا حصر لأصنامها، ولا حد لأوهامها، ولا علاج لما ابتلتهم به من أدواء خلقية واجتماعية بعضها يبيد عالماً بأسره. أما الشعوب الأوربية فى الشمال والغرب فكانت لا تزال خارج الوجود المتمدن لا تشعر بأحد، ولا يشعر بها أحد.

* * *

على هذه الحال الأثيمة والقيادة المضلة كانت قافلة الحياة تسرى..! ظلام مخيم على الكون كله! فيه التهاويل التى تفزع كل نفس، والعراقيل التى تصدم كل قدم، والشياطين التى توسوس هنا بالفتنة، وتغرى هناك بالإثم، وتعيث هنالك فى الدين، وتستعين دائماً بحواء على إغواء آدم!.
وما كان الله - جل شأنه - ليكل ركب الخليقة إلى نفسه، فيعمهه فى هذا التيه وقد قضى عليه أن يقطع مراحل الدنيا ويبلغ غاية الأجل. لذلك أذن - وهو الرءوف الرحيم - لهذا الليل أن يصبح، وشاء - وهو الخبير العليم - أن يكون إسفار صبحه من غار حراء!

هنالك تجلى الله لجبل النور فأشرق الحجاز كله. ونزل الرسول المصطفى من الغار ونور الله يسعى بين يديه، وصوت الروح الأمين يتردد فى أذنيه، فدعا إلى الإسلام البداة الرعاة الذين اختارهم الله لهداية خلقه ورعاية حقه، ثم خرج بهم إلى القافلة البشرية وقد شردها الضلال، وأضناها الكلال، وأعوزها الهادى الذى يدل، والحادى الذى يرفه. فرد الشارد، وألف النافر، وجمع الشتيت، وطمأن السادرين اليائسين الهلكى بقول ربه: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم». فمنهم من آمن ومنهم من كفر. وحينئذ بدأ المجاهدون فى سبيل الله معارك التطهير والتحرير، فطهروا النفوس من الرجس،

وحرروا العقول من الشرك ، وثلّوا عرش قيصر ، وقوّضوا إيوان كسرى ، وشادوا على أنقاضهما مأذنة بلال ومنبر محمد . ثم طبقوا فى البلاد المطهرة المحررة شريعة الله التى تكرم الإنسان وتعلن حقوقه ، وتمحو فروقه ، وترفع شأنه . ثم حملوا فى الشرق والغرب شعلة المعرفة بما تجمع لهم من وراثة ما مضى من الديانات والثقافات والحضارات ، وأقبسوها أقواما لم يروا قبلها النور فى ذهن ولا ضمير .

ورثوا ديانات إبراهيم وموسى وعيسى ، وثقافات اليونان والعبران والهنود ، وحضارات المصريين والرومانيين والفرس ، ثم أخضعوا هذا الإرث الضخم لعبقرية الإسلام ومزية الجنس ، فانتفى منه الخبث ، وارتفع الخطأ ، وانجلى الغموض ، وكمل النقص ، وأصبح صالحا لتغذية العقول ، وتقوية القلوب ، وتنمية المدارك ، وتكوين مجتمع صحيح قوى حر ، لا يوجهه إلا الحق ، ولا يحكمه إلا الله .

ثم كان من فضل الله على الناس أن أظهر نوره فى مكان وسط بين قرنى الشمس ، ليعشو على ضوئه الضالون فى الشرق والغرب من المحيط إلى المحيط .

* * *

على أن نور الله لم يلبث أن غمر الشرق حتى بلاد الصين ، وطبق الغرب حتى بلاد الغال . ومن حرمه الله نعمة الانتفاع بهدايته وقيادته ، لم يحرمه فضل الاستمتاع بثقافته وحضارته . فالمسيحيون الأوربيون قد أخذوا ثقافة العرب عن طريق المغرب والأندلس فى فتوح الهلال ، وقبسوا حضارة المسلمين عن طريق مصر وفلسطين فى غزوات الصليب . ثم كان من أثر الفتح الإسلامى للقسطنطينية أن انتشر الدين المحمدى فى شرق أوربا ، وتفرق العلم المسيحى فى وسط القارة ، فكانت حركة (الإحياء) .

وما الإحياء إلا اختلاط الثقافة اللاتينية التى أطلقها محمد الفاتح من الأديرة والكنائس ، بالثقافة اليونانية التى بعثها محمد المأمون فى المساجد والمدارس ، ومن هاتين الثقافتين وما خالطهما من علوم الإسلام وفنون المسلمين كانت هذه الثقافة الحديثة والحضارة القائمة .

* * *

لم تكن الفتوح الإسلامية اذن فتوح استعمار وجباية ، وإنما كانت فتوح تحرير وهداية .

كانت فتوحا فى الأرض للحرية والعمران ، وفتوحا فى العقيدة للتوحيد والإيمان ، وفتوحا فى الشريعة للحق والعقل ، وفتوحا فى السياسة للإحسان والعدل ، وفتوحا فى اللغة للأدب والبلاغة ، وفتوحا فى العلم للإحياء والتجديد ، وفتوحا فى الفن للابتكار والطرافة .

وفى المقالات التى ستقرأها فى هذا العدد تفصيل لهذا الإجمال وتدليل على هذه الدعوى .

والله اللطيف بعباده هو المسئول أن يظهر دين الحق على الدين كله ؛ فإن الإسلامية هى الإنسانية ؛ وإن القرآن هو الفرقان ؛ وإن الإسلام هو السلام ؟

أحمد حسن الزيات

فتوح المجاهدين فى سبيل الله

سر الفوز العظيم فى الفتوح الإسلامية

للدكتور عبد الوهاب عزام
سفير مصر فى باكستان

١

يوم السابع عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة . اجتمع المسلمون ، يقودهم إمامهم ومعلمهم وقائدهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمشركون من قريش وألفافهم .

اجتمعوا فى سهل غير فسيح ، يعلو على وادى الصفراء المقبل من الشمال من جهة المدينة ، ويتصل به الخيف الأخضر الذى تتطلع منه ذرا النخيل إلى هذا السهل ، وتحد الطرف فيه أنى توجه الجبال ، إلا حيث يقبل وادى الصفراء . وإلا حيث يشرف كثيب عظيم من الرمل تجوزه السابلة إلى الغرب شطر البحر .

ذلكم بدر ، هناك اجتمعت فئة من المسلمين هى شعاع من الغيب يبشر بالصبح الصادق تتلوه شمس الضحى ، واجتمعت فئة من المشركين هى طليعة سواد الكفر فى أرجاء الأرض تريد أن تطبق ظلماتها على هذا الشعاع .

اجتمع المسلمون يحملون فى قلوبهم وعلى ألسنتهم وبأيديهم ، توحيدا وطهارة وشريعة ونظاما وطاعة . وقابلهم المشركون فى موكب من الوثنية والرذائل ، والعنجهية والفوضى .

جاء المسلمون وليس لهم مدد إلا إيمانهم وشريعتهم . وجاء المشركون كأمواج الظلام ، تمدهم كل ظلمة على الأرض ويصلهم كل باطل فيها .

كان العرب المشركون الذين لم يشهدوا الوقعة أنصار من شهدها من المشركين ؛ ولو استنجدهم هؤلاء لأنجدوهم ، ولو شهدوا لنصروهم . ووراء مشركى العرب كلٌّ دين للشرك ، وكل شريعة للباطل ، وكل مشوه مبدل من الأديان والشرائع . فلا حرج على متخيل أن يرى أمم العالم كافة مددا وراء مشركى قريش يوم بدر ، وأن يبصر رايات الشرك والظلم والباطل فى كل أرجاء الأرض محشورة بجانب راية قريش يوم بدر .

علم هذا رسول الله حين قال وهو قائم على هذه الصخور التى تشرف على موضع المعركة والتى تطل اليوم على الحفرة التى ثوى فيها الشهداء ـ قال يخاطب ربه الذى أرسله بالهدى ودين الحق : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض بعد اليوم » . وصدق رسول الله .

٢

وبعد عام سار سواد الكفر إلى المدينة يغزو هذه العصابة فى دارها ، يريد أن يطفىء الشعاع فى مصباحه ، يريد أن يسد النهر حيث ينبع . وكانت وقعة أُحد . وكاد السحاب

المتكاثف المظلم يطبق على نجم الصبح المتلألىء . ثم انقشع الغمام وبقى الكوكب فى لالائه .

وبعد عامين آخرين جاء سواد الشرك والباطل فى جحافل كثيفة لتأخذ المدينة من أقطارها ، واجتمعت سيول القبائل فى مجتمع الأسيال إلى الشمال والغرب من المدينة ، وسالت على مواطن أخرى . وخندق المسلمون على أنفسهم إذ لم تكن لهم طاقة بهذا السيل .

« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » .

والرسول يضرب بمعوله على صخور اعترضت الحافرين فيقدح نارا تضىء قصور الأكاسرة والقياصرة . وصدق رسول الله ، إن الضربات التى زلزلت العروش من بعد هى نسيبة ضربات المعول فى يد إمام المسلمين يوم حفر الخندق .

٣

وفتح المسلمون مكة ، ودخلها إمامهم ساجدا على رحله . فما كان انتصارهم إلا انتصار الحق العزيز، والعدل المسلط والرحمة القادرة والأخوة الجامعة ، والعفو الشامل : انتصار الإيمان بالحق والخير على العبودية للباطل والشر .

وبُعث المسلمون فى حنين فهزموا . فلو كان الأمر حربا وكيدا وخدعة ومباغتة ، وجندا وسلاحا ، لهزم العرب المشركون العرب المسلمين هزيمة ماحقة ، ولكن الجمع تفرق ، والجند فزع فانذعر ، وثبت الإيمان الذى اجتمع عليه الحشد ، والحق الذى أطاف به الجند ، ثبت محمد وإيمانه ودينه فانحاز إليـــه الفارُّون ، وأوى إليه المتفرقون . ثبت القطب حين البأس ولم يزل ، فدارت الرحى على هوازن . فانقلب انتصارهم هزيمة ، يقول القرآن للمسلمين « وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » .

٤

وهكذا تتابعت الحادثات حتى سير رسول الله جيشاً إلى أرض الروم ، فكانت بين شرذمة من العرب وجيش الروم وألفافهم من العرب موقعة مؤتة . ومتى كانت مؤتة ؟ كانت والروم فى أوج الانتصار والفخار ، كانت حين أتم هرقل هزيمة الفرس واسترد آسيا الصغرى والشام وتبع كسرى ابرويز إلى دار ملكه وقضى على كسرى وجيشه ورد الصليب الكبير إلى بيت المقدس ولكن الجند الذين شهدوا مؤتة كانوا يحملون من الحقائق ما هو أعظم من الروم والفرس وكل دولة فى العالم . فمن ارتاب فى هذا فليعلم أن مؤتة التى هزم فيها المسلمون وتهافت قوادهم فيها ، ولدت بعد سبعة أعوام وقعة اليرموك . ولم يكن المسلمون فى اليرموك منتصرين يتقدم بهم خالد إلى فتح بعد فتح ، أعظم من المسلمين القليلين فى مؤتة يتقهقر بهم خالد لينجو بهم من بأس الروم . فالحقائق التى حارب بها المسلمون فى مؤتة هى الحقائق التى حارب لها المسلمون فى اليرموك . دعوا الكثرة والقلة ، والانتصار والانهزام يا من ترون ظواهر الأمور ولا تبصرون بواطنها .

٥

ومن أطراف الجزيرة العربية إلى خليج

القسطنطينية شطر الشمال وإلى حدود الصين وما وراء نهر السند شطر الشرق ، وإلى بحر الظلمات حيث دفع عقبة فرسه فى البحر صائحا :

« لو علمت وراءك أرضا لسرت غازيا فى سبيل الله » ثم إلى نهر اللوار فى فرنسا وإلى أرجاء أخرى ، سار المسلمون ، قاتلين ومصالحين ، يفرقون الجيوش المجتمعة بالقهر على الباطل ، ليجمعوها بالعدل على الحق ، ويلقون الأقوام والألوان ، فى أخوة الإسلام .

كانت موقعة بلاط الشهداء سنة أربع عشرة ومائة موقعة امتحن فيها المسلمون وقتل كثير منهم وانتصر شارل مرتل على عبد الرحمن الغافقى .

وروى الراوون أن الناس لبثوا حقبة يسمعون الأذان ، أذان الشهداء فى بلاط الشهداء . لم يسمعوا فى الآفاق أو فى أنفسهم طبل الحرب ولا صلصلة السيوف ، ولا صياح المحاربين ، ولكنهم سمعوا الأذان شعار التوحيد والإيمان والصلاة والفلاح ذلكم كان مقصد هذه الوقائع وشعارها وسرها وعلانيتها .

أكتب هذه الكلمة فى « كراجى » من أرض السند ، لست بعيداً من أطلال مدينة « الديبل » ، مدينة الصنم الكبير الذى حطمه المسلمون فى السند ، كما حطموا « هبل » فى مكة وحطموا كل صنم من الحجر أو البشر بين مكة والديبل وفى أرجاء من الأرض كثيرة .

يقول المسلمون هنا كلما رأوا نخلا ـ والنخل كثير فى أمكنة شتى من هذه البلاد ـ هذه آثار العرب ، كانوا حيثما ساروا أو خيموا نبت النخل . قلت : ونبت الإيمان والحق والخير ومعان أخرى كثيرة .

٦

انظروا إلى العرب المسلمين يسيرون من بلادهم فى البر والبحر إلى المشارق والمغارب ، على بعد الشقة ، وضآلة العدد ، وعظم المطلب . يسيرون إلى المشارق والمغارب دعاة توحيد وأخوة ، ورسل شريعة عادلة وخلق كريم ، الله ربهم . والناس إخوانهم ، والأرض كلها ديارهم ، غلبوا ولم يذلوا ، وفتحوا ولم يخربوا ، وتسلطوا فساسوا بالعدل ، وواسوا بالحق ، وخلطوا الأمم بعضها ببعض فى أخوة الإسلام التى لا تميز بين الأقوام والألوان والأوطان . وذاع فى الأرض عدلهم ، وشاعت بين الناس سيرتهم ، فسالم من سالم وحارب من حارب ، قوماً أصحاب شريعة من العدل والرحمة ، دعوتهم الأخوة وسيرتهم مكارم الأخلاق ، قوما بيوتهم مساجد ورحالهم معابد ، يحاربون على شريعة ، ويسالمون على شريعة .

٧

ما الذى يسر للمسلمين الفتح ، ونشر سلطانهم فى المشرق والمغرب فى سنين قليلة ؟

الإيمان الذى ملأ قلوبهم فى مبدأ سيرهم ونهايته وصحبهم من بدر إلى بلاط الشهداء وحالفهم مشرقين ومغربين وهازمين ومهزومين ، والثقة بوعد الله فى فتح الأرض ، والسيطرة عليها بالحق والعدل .

يسر لهم الإيمان واليقين كل عسير ، وذلل لهم كل صعب ، وأصغر كل كبير ، وجمع كلمتهم وقلوبهم على الجهاد فى سبيل الله والصبر على

ما يلقون ، ولقاء الموت راضين مستبشرين .

وكذلك يسر لهم الفتح أنهم ساروا إلى الأمم على شريعة جامعة ، وقانون محكم ، لا يعتدون ولا يبغون ، ولا ينقضون العهد ، ولا يخفرون الذمة « تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم » .

وأنهم جماعة نظام ، وجند طاعة فى السراء والضراء والشدة والرخاء ، والحرب والسلم .

وأنهم لم يسيروا فى الأرض ابتغاء المال والملك والسلطان والجبروت ، ولكن دعاة دين وشرع قويم ، وخلق كريم ، ورسل عدل ورحمة وأخوة ومواساة . شعارهم الآية :

« وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدن »

عباد زهاد ، شعارهم الأذان ، وحداؤهم القرآن وما رأى الناس جيوشاً من العباد قبلهم سارت للدعوة إلى الحق ، وتمكين عدل الله فى الأرض .

بهذا طار ذكرهم ، وانتشر صيتهم . لقد أخرجوا عبادة الله من الصوامع إلى أرض الله الواسعة .

وأنهم سيطروا فأزالوا سلطان الجبارين عن الضعفاء والمساكين ، وأمنوا الناس على ما تعمله أيديهم ، وما يناله جدهم وسعيهم ، فاستبشر الزارع والصانع وأمن التاجر ، وشمل الناس الأمن مقيمين وظاعنين ، وبادين وحاضرين ، وعم الرخاء واستبحر العمران .

وكثير من الأمم انتظروا العرب ليفتحوا بلادهم ، وينقذوهم من الجبارين المسلطين عليهم ويشملوهم بما شاع عنهم من العدل والرحمة والأخوة والمساواة .

ساروا على الأرض قوانين من قوانين الله ، وسننا من سننه لا تعطل ولا يصدها عن غايتها شيء .

٨

وقال قائلون فضلوا وأضلوا - وكم منيت هذه الأمة بالمفترين ، يغضون من أقدارها ، ويهونون من مآثرها - قالوا : طلب القوت والطمع فى الغنائم نشر هؤلاء العرب فى أرجاء الأرض . قاس هؤلاء الدعوة الإسلامية على الاستغلال الذى يسمى الاستعمار فى حضارة هذا العصر . وكل شيء عندهم قهر وتسلط ، واستغلال ونهب ، وشره وحرص ، وتفريق بين الناس وعبادة المال من دون الله .

فقل لهؤلاء : إن الإنسان ربما يحارب على الخبز ولكنه لا يطلب الشهادة فى سبيله ، إن الإنسان يريد أن يظفر بالطعام ليعيش به ، لا أن يموت فى طلبه . فما بال هؤلاء العرب المسلمين طلبوا الموت حيثما ذهبوا ، وحقروا العيش أينما توجهوا .

ما بالهم وقد فتحت لهم مصر ورأوا الخصب فى أرضها ، ورغد العيش على حفاف نيلها ؛ جاوزوها إلى صحارى النوبة وسهوب أفريقية ؟

ما بالهم وقد فتحت لهم الأندلس ورأوا النعيم المقيم ، جاوزوا جبال البرانس ليستشهدوا فى بلاط الشهداء ؟

ما بالهم وقد دانت لهم فارس ، جابوا صحارى مكران إلى السند ، وعبروا نهر جيحون إلى ما وراء النهر ؟ ما بالهم يتركون النعيم والخير العميم ؟

٩

من مواقف البطولة الإسلامية في القتال

للأستاذ عبد الحميد العبادي
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة فاروق

إن من يطلع على تاريخ الحروب التى وقعت بين الفرس والروم فى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل السابع ، يرى إلى أى حد كانت هذه الحروب راجعة إلى الشهوات والأهواء الشخصية ، شهوات الأكاسرة تارة والقياصرة أخرى ، وإلى أى حد كان يحدوها حب المغنم والسلب والنهب ، وإلى أى حد كان يذكى أوارها حب التشفى والانتقام ، وإلى أى حد كان يصاحبها التخريب والتدمير ، ونقض العهود والمواثيق . الشهوة ،والغنيمة ، والانتقام ، والتخريب والغدر، تلك كانت الصفات الغالبة على تلك الحروب التى كادت تترك المشرق والمغرب خرابا يبابا .

والعجب العاجب أن هذه التقاليد المشئومة استمرت فى الغرب الذى يدين بالمسيحية السمحة طوال العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث ، ولعله لم يخل منها حتى يومنا هذا . ولنمثل لذلك بالحروب الصليبية التى ارتكب فيها الصليبيون فى مدن الشام عامة وبيت المقدس خاصة من أفاعيل تقشعر لهولها الأبدان ، وبما صنعه الملكان الكاثوليكيان الأسبانيان فردنند وإيزابلا ، بمسلمى غرناطة غداة استيلائهم على مدنهم صلحا ، من نقض للعهود المؤكدة ، والمواثيق المغلظة . وبالحروب المعروفة فى التاريخ الأوربى الحديث فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بالحروب

والعز المقيم فى الأرض التى سيطروا عليها ليجوزوا فيافى قاحلة ، ويحاربوا أقواما غلاظاً شداداً ، فى بلاد تنتظرهم فيها قبورهم ، إن الأمر لأعظم مما توهموا ، وأسمى مما قالوا .

٩

وبعد : فالحرب هى الحرب فى كل أرض وكل عصر . فيها قتل وفيها أسر وفيها غلب وسلب . وليس عجيباً أن يفرح المجاهد الذى شرى نفسه فى سبيل الله ، بغنيمة ينالها ، وليس بعيداً أن يكون فى سواد الجند من تكون الغنيمة همّه ، ولكن جيوش المسلمين سارت داعية الى الإسلام مجاهدة فى الله ، ترجو الشهادة قبل الغنيمة ، وتتهيأ للموت قبل الطعام .

إن النهر العظيم الذى ينحدر من منبعه إلى منتهاه يسير بالحياة والخصب ولكنه يجرف أرضا ويحمل غثاء ويغرق ناساً؛ ولكن الله أجراه للحياة والخصب لا ليسير بالكدر والغثاء ، ويهلك الأحياء .

فأعيدوا النظر أيها الضالون ، وأنعموا الفكر لعلكم تهتدون .

هذا سطر من كتاب ، وموجة من عباب ، والكتاب هو تاريخ الفتح الإسلامى على سعته وطوله ، والعباب هو مجد العرب المسلمين ، لايزال يعى الزمان صداه ، ويحلم التاريخ بذكراه . فمَن عبقرى عادل يفقه التاريخ ويكتب الكتاب ، ويصور فى السطور أمواج هذا العباب !

عبد الوهاب عزام

من مواقف البطولة الإسلامية في القتال

للأستاذ عبد الحميد العبادي
أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة فاروق

إن من يطلع على تاريخ الحروب التى وقعت بين الفرس والروم فى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل السابع ، يرى إلى أى حد كانت هذه الحروب راجعة إلى الشهوات والأهواء الشخصية ، شهوات الأكاسرة تارة والقياصرة أخرى ، وإلى أى حد كان يحدوها حب المغنم والسلب والنهب ، وإلى أى حد كان يذكى أوارها حب التشفى والانتقام ، وإلى أى حد كان يصاحبها التخريب والتدمير ، ونقض العهود والمواثيق . الشهوة ،والغنيمة ، والانتقام ، والتخريب والغدر، تلك كانت الصفات الغالبة على تلك الحروب التى كادت تترك المشرق والمغرب خرابا يبابا .

والعجب العاجب أن هذه التقاليد المشئومة استمرت فى الغرب الذى يدين بالمسيحية السمحة طوال العصر الوسيط ومطلع العصر الحديث ، ولعله لم يخل منها حتى يومنا هذا . ولنمثل لذلك بالحروب الصليبية التى ارتكب فيها الصليبيون فى مدن الشام عامة وبيت المقدس خاصة من أفاعيل تقشعر لهولها الأبدان ، وبما صنعه الملكان الكاثوليكيان الأسبانيان فردنند وإيزابلا ، بمسلمى غرناطة غداة استيلائهم على مدنهم صلحا ، من نقض للعهود المؤكدة ، والمواثيق المغلظة . وبالحروب المعروفة فى التاريخ الأوربى الحديث فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بالحروب

والعز المقيم فى الأرض التى سيطروا عليها ليجوزوا فيافى قاحلة ، ويحاربوا أقواما غلاظاً شداداً ، فى بلاد تنتظرهم فيها قبورهم ، إن الأمر لأعظم مما توهموا ، وأسمى مما قالوا .

وبعد : فالحرب هى الحرب فى كل أرض وكل عصر . فيها قتل وفيها أسر وفيها غلب وسلب . وليس عجيباً أن يفرح المجاهد الذى شرى نفسه فى سبيل الله ، بغنيمة ينالها ، وليس بعيداً أن يكون فى سواد الجند من تكون الغنيمة همّه ، ولكن جيوش المسلمين سارت داعية الى الإسلام مجاهدة فى الله ، ترجو الشهادة قبل الغنيمة ، وتتهيأ للموت قبل الطعام .

إن النهر العظيم الذى ينحدر من منبعه إلى منتهاه يسير بالحياة والخصب ولكنه يجرف أرضا ويحمل غثاء ويغرق ناساً؛ ولكن الله أجراه للحياة والخصب لا ليسير بالكدر والغثاء ، ويهلك الأحياء .

فأعيدوا النظر أيها الضالون ، وأنعموا الفكر لعلكم تهتدون .

هذا سطر من كتاب ، وموجة من عباب ، والكتاب هو تاريخ الفتح الإسلامى على سعته وطوله ، والعباب هو مجد العرب المسلمين ، لايزال يعى الزمان صداه ، ويحلم التاريخ بذكراه . فمَن عبقرى عادل يفقه التاريخ ويكتب الكتاب، ويصور فى السطور أمواج هذا العباب !

عبد الوهاب عزام

الدينية ، وأخيراً بما ارتكب فى الحرب العالمية الأخيرة من تدمير كان ختامه إلقاء القنابل الذرية على المدن اليابانية ، مما أودى بالآلاف المؤلفة من اليابانيين ، غدراً وبغياً وعدوانا .

ولنضرب صفحا عن وصف الحرب فى العصور الوسطى عند القبائل الجرمانية التى قضت على الدولة الرومانية ، وغمرت أوربا فى ظلام دامس طوال ألف سنة تقريبا ، وعند التتر الذين قضوا على الدولة العباسية ودكوا صرح الحضارة الإسلامية فى المشرق ، فقد يعتذر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم همج وبرابرة ليست لهم حضارة الفرس ولا نصرانية الروم ولا مدنية أوربا وأمريكا فى القرن العشرين .

ولكن كم لحوادث التاريخ وتصاريفها من أسرار جهد العلماء ولا يزالون يجهدون فى الوقوف عليها ! وكم لله من لطف خفى حارت فى كنهه الأفهام ! ففى وسط هذه الغياهب المدلهمة والظلمات الحالكة ، تبزغ شمس الدعوة الإسلامية فإذا الحرب المشروعة هى المنزهة عن شهوة السلطان ، وحب المغنم ، والسمعة ، والمبرأة من عوامل الغدر والخيانة والعدوان ، وإذا بها نظام من نظم العمران ، به يكف الظلم ويقمع الطغيان ، ويستأصل الفساد . وقد عبر شوقى عن كل ذلك فى قوله مخاطبا الرسول العربى :

والحرب فى حق لديك شريعة
ومن السموم الناقعات دواء

وإذا بهذه الحرب المشروعة تسمى « جهادا فى سبيل الله » أى كفاحا لإعلاء كلمته بما تشتمل عليه هذه العبارة من معانى العدالة والإصلاح فى الأرض وتحقيق المثل العليا . وإذا الجهاد أعظم مايتقرب به العبد إلى الله بعد الإيمان به تعالى وبعد بر الوالدين ، وإذا المجاهد له إحدى الحسنيين إما الظفر وإما الشهادة ، « وإذا الذين يقتلون فى سبيل الله غير أموات بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

كانت هذه المبادىء جزءا جوهريا من تعاليم الدعوة الإسلامية ، اعتنقها المسلمون الأولون وعملوا بها فى حروبهم ، فلا غرو أن حفلت هذه الحروب بذكر الأبطال ومواقف البطولة الصحيحة فى القتال . ونحن نورد ، فيما يلى ، على سبيل المثال لا الحصر ، بعضا من صور هذه البطولة ، سواء أكانت بطولة آحاد أم بطولة جيوش وجماعات .

١ — أبطال :

يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر يحرض الناس على القتال ، وقال « والذى نفسى بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة » ، فقال عمير بن حمام من بنى مسلمة ، وفى يده تمرات يأكلهن « بخ ! بخ ! ما بينى وبين الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء القوم ! » ، ثم قذف بالتمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل .

ويروى أنه عليه السلام يوم أحد أخذ سيفا فهزه وقال : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه عمر بن الخطاب فقال : أنا آخذه بحقه ، فأعرض عنه . ثم هزه الثانية وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه الزبير بن العوام وقال : أنا آخذه بحقه ، فأعرض عنه . فوجدا فى أنفسهما . ثم عرضه الثالثة وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام إليه أبو دجانة ، فقال وما حقه يا رسول الله ؟ : قال « أن تضرب فى العدو حتى ينثنى ! فأخذه منه ،

وأعلم نفسه بعصابة حمراء ومشى إلى الحرب ، وجعل يتبختر بين الصفين ، فقال الرسول « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى هذا الموطن ! ودخل أبو دجانة فى الحرب مبتدئا بالقتال ، فأبلى وأنكى .

ومما استدل به الفقهاء على جواز المبارزة مع التغرير بالنفس ما حدث فى حرب الخندق إذ دعا عمرو بن عبدود فارس قريش وبطلها الخنذيذ ، إلى البراز أول يوم ، فلم يجبه أحد ثم دعا إلى البراز فى اليوم الثانى ، فلم يجبه أحد . ثم دعا إلى البراز فى اليوم الثالث ، وجعل يعير المسلمين إحجامهم عن مبارزته . فقام على بن أبى طالب فاستأذن رسول الله فى المبارزة ، فاذن له على ضنه به ، وقال « اخرج يا على فى حفظ الله وعياذه ! . فخرج فتجاولا وثارت عجاجة أخفتهما عن الأبصار ، ثم انجابت عنهما وعلى يمسح سيفه بثوب عمرو وهو قتيل .

٢ — العفو عند المقدرة :

لما نقضت قريش هدنة الحديبية التى كانت بينها وبين الرسول ، عزم الرسول على غزوها وفتح مكة وذلك فى رمضان سنة ٨ فخرج من المدينة فى عشرة آلاف وبغت قريشا على غير استعداد ، فلم يسع ساداتها وكبراءها إلا أن يبادروا إلى أخذ الأمان لأنفسهم ولبلدهم ، وقد أعطاهم الرسول هذا الامان بعد أن أسلموا ونهى الجيش عن أن يقاتل إلا من قاتله ، وقال فى تأمين أهل مكة : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ودخل الرسول وجيشه مكة من أقطارها فلم يقع قتال يذكر ، واجتمعت قريش إليه عند الكعبة معلنة إسلامها ومبايعتها ، فخطبهم فقال « يا معشر قريش ماذا ترون أنى فاعل بكم ؟ فقالوا « خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ! » فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء ! هكذا عامل الرسول هذه القبيلة التى كذبته ، وآذته ، وأخرجته وأصحابه ، وحاربته أكثر من عشرين سنة ! فضرب بذلك أروع مثل للحلم والعفو عند المقدرة .

٣ — طلب الشهادة فلم يعطها :

كان زيد أخو عمر بن الخطاب ممن قتل فى وقعة اليمامة ، إحدى وقائع حرب الردة وذلك سنة ١١ فلما رجع الناس قال عمر لابنه عبدالله ، وكان معهم « ألا هلكت قبل زيد؟ هلك زيد وأنت حى ! الا واريت وجهك عنى ؟ فقال عبد الله « سأل زيد الله الشهادة فأعطيها ، وجهدت أن تساق إلى فلم أعطها ! » .

٤ — لا نامت أعين الجبناء :

لا شك أن خالد بن الوليد أعظم قائد فى الإسلام ومن أعظم قواد العالم على الإطلاق . ولقد سماه الرسول سيفا من سيوف الله ، وكفى بذلك شرفا له وتنويها بقدره . ظهرت عبقريته فى وقائع مؤتة والردة وفتوح العراق والشام . ولكن بطولته تظهر فوق ذلك فى تواضعه ، فعندما عزله الخليفة عمر بن الخطاب عن التقدم على جيوش الشام لمصلحة ارتآها ، نزل على أمر الخليفة ، وعمل راضيا تحت إمرة أبى عبيدة . وهى تتجلى بوجه أخص فى العبرة التى استخلصها من تجاربه وعبر عنها بألفاظ قلائل قالها عندما حضرته الوفاة ، قال : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية . وها أنذا أموت كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء » .

٥ — قائد محبوب :

كان المثنى بن حارثة الشيبانى يقاتل العجم بالعراق على شاطىء الفرات ، فاشتبك مع الفرس فى وقعة كبيرة تعرف بوقعة البويب وذلك سنة ١٣ هـ . وكان قد انضم إليه قبيل الوقعة جمع من نصارى تغلب حمية لصلة العروبة . وإلى القارىء ما تصف به الرواية هذا القائد وجيشه فى ذلك اليوم : « وأقبل الفرس يقودهم قائدهم مهران فى ثلاثة صفوف ومع كل صف فيل ولهم زجل ، فقال المثنى للمسلمين : « إن الذى تسمعون فشل ، فالزموا الصمت ! » وطوّف المثنى فى صفوفه يعهد إليهم ، وهو على فرسه الشموس ، وكان لا يركبه إلا لقتال ، فوقف على الرايات يحرضهم ويهزهم بأحسن ما فيهم ، ولكلهم يقول : « إنى لأرجو ألا يؤتى العرب من قبلكم اليوم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء إلا وهو يسرنى لعامتكم ، فيجيبونه بمثل ذلك . وأنصفهم من نفسه فى القول والفعل ، وخلط الناس فى المحبوب والمكروه ، فلم يستطع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا فعلا . وقال : « إنى مكبر ثلاثاً فتهيأوا ، ثم احملوا فى الرابعة ! » فلما كبر أول تكبيرة أعجلتهم فارس وخالطوهم ، وركدت خيلهم وحربهم مليا ، ورأى المثنى خللا فى صفوف بنى عجل ، فجعل يمد لحيته لما يرى منهم ، وأرسل إليهم يقول : « الأمير يقرأ عليكم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم ! فقالوا : نعم ! واعتدلوا . فضحك فرحاً » .

فلما طال القتال واشتد ، قال المثنى لأنس بن هلال النمرى : « إنك امرؤ عربى ، وإن لم تكن على ديننا ، فإذا حملت على مهران فاحمل معى ! فأجابه ، فحمل المثنى على قلب الجيش الفارسى فأزاله ثم أباده ، وقتل مهران ، قتله غلام من تغلب نصرانى . فلما رأت ذلك مجنبات المسلمين حملوا على مجنبات الفرس ، وجعل المثنى والمسلمون فى القلب يدعون لهم بالنصر ويرسل إليهم من يذمرهم ويقول لهم : « عاداتكم فى أمثالهم ! انصروا الله ينصركم ! » حتى هزموا الفرس .

ومات أناس من الجرحى ، منهم : مسعود أخو المثنى فصلى عليهم المثنى ، وقال : « والله إنه ليهوّن وجدى عليهم أن شهدوا البويب وأقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا » .

٦ — العفو عند المقدرة أيضاً :

من أفظع حوادث الحروب وأشنعها ما وقع من الصليبيين فى البيت المقدس غداة استيلائهم عليه فى سنة ٤٩٢ هـ . أجمعت على ذلك جميع المصادر الإسلامية والصليبية على السواء . فلنورد للقارىء مجملا لما حدث عند ما فتح صلاح الدين الأيوبى تلك المدينة فى سنة ٥٨٣ هـ

فبعد أن دحر صلاح الدين جيش الصليبيين فى وقعة حطين سار إلى عسقلان فافتتحها وأخذ يتأهب للزحف منها إلى بيت المقدس . وكان حريصاً على أن يجنب تلك المدينة ويلات الحرب والحصار ، فاستدعى وفداً من الصليبيين الذين كانوا بها وطلب إليهم تسليم تلك المدينة التى يقدسها المسلمون كما يقدسها الصليبيون ولكنهم صرحوا له بأنهم لن يسلموها طوعاً أبداً . عند ذلك أقسم لهم أنه لن يفتحها إلا بالسيف .

وتقدم صلاح الدين إلى بيت المقدس وأخذ فى مهاجمتها ، ونقب أسوارها ، وأوشكت جنوده أن تقتحمها . فلما رأى الصليبيون ذلك أنفذوا

الأمير بليان لمفاوضة صلاح الدين - فطلب هذا الأمير أن يمنح السلطان بيت المقدس عفوه الذى منحه مدنا صليبية أخرى . فلم يجبه السلطان إلى ما طلب مستمسكا بيمينه التى أقسمها . عند ذلك قال له بليان : إن فى المدينة ستين ألف مقاتل سيخرجون إليه بعد أن يقتلوا نساءهم وأطفالهم ويدمروا كل ما يسعهم تدميره ، ثم يقاتلونه حتى يقتلوا عن آخرهم . ولقد راع هذا التهديد صلاح الدين ، فاستشار من معه من الفقهاء فأفتوه بأن ما حدث من قتال حول المدينة كاف فى إبرار قسمه ، وأن فى وسعه أن يعتبر كل من فى المدينة من الصليبيين أسرى حرب ، له أن يضرب عليهم الفداء .

وقد أخذ صلاح الدين بهذا الرأى وتم الاتفاق على أن يكون الفداء عن كل رجل عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن كل طفل ديناراً واحداً ، وأن تكون المدة التى يؤدى فيها الفداء ويتم الجلاء أربعين يوماً . فمن وجد فى المدينة بعدها كان ملكا مسترقا للسلطان .

وفتحت المدينة أبوابها للسلطان وجيشه وذلك فى السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ﻫ ، وكانت الليلة ليلة المعراج الشهيرة ، وهى مصادفة عجيبة . وأقام صلاح الدين على الأبواب أمناء يتقاضون مال الفداء .

فخرج الأمير بليان ومعه سبعة آلاف فقير بعد أن أدى عنهم ثلاثين ألف دينار ، ثم تتابع خروج الصليبيين على الرسم المقرر ، ثم يأتى البطرك الكبير يجر من أموال الكنائس وتحفها وجواهرها ما لا يقدر بمال ، فلم يعرض صلاح الدين لشىء مما معه على الرغم من اعتراض أصحابه ، وأبى أن ينقض عهده ولم يأخذ منه غير الدنانير العشرة المقررة . وانقضت الاربعون يوماً ولا يزال فى المدينة آلاف كثيرة من فقراء الصليبيين لا يملكون فداء . يقول المؤرخ الصليبى « أرنول » ولعله كان حاضراً ذلك اليوم المشهود . فتقدم العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين وقال : « سيدى ! لقد أعتنك بحمد الله على فتح هذه البلاد وهذه المدينة وإنى أستوهبك ألفاً من أولئك الأرقاء » ، فأجابه السلطان إلى طلبه وعند ذلك أعتقهم العادل من فوره . ثم جاء بليان والبطرك وطلبا مثل الذى طلب العادل فوهبهم صلاح الدين ألف رقيق أطلقوا فى الحال ، وأخيراً يلتفت صلاح الدين إلى أصحابه ويقول : « لقد أدى أخى صدقته ، وكذلك صنع بليان والبطرك ، وقد بقى أن أؤدى أنا صدقتى » . ثم إنه أمر رجالا من حرسه أن ينطلقوا فينادوا فى جميع شوارع المدينة أن كل عاجز عن دفع الفداء له أن يخرج وأنه حر لوجه الله تعالى . يقول أرنول : « وقد استغرق خروج هؤلاء نهاراً كاملا من لدن شروق الشمس إلى أن خيم الظلام .

ثم يمضى المؤرخ المسيحى المذكور فيقول متحدثا عن أدب صلاح الدين ونبله ورقة قلبه : إن نساء من نساء فرسان الصليبيين كن قد لجأن إلى بيت المقدس بعد أن قتل أو أسر أزواجهن وعائلوهن فى الحرب . فاجتمعن بعد أن أدين الفداء وحضرن عند صلاح الدين باكيات معولات يشكون إليه سوء حالهن . فما كان منه إلا أن أطلق لكل من لها زوج فى حبسه زوجها ،

وأمر بمال من ماله الخاص لكل من لا عائل لها ، مما ألهج ألسنتهن بالشكر له والثناء عليه .

ويقول المؤرخ الانجليزى لين بول : « لو لم يكن لصلاح الدين من الأعمال الثابتة إلا أخذه بيت المقدس ، لكان ذلك كافيا فى عده أعظم الفاتحين فى عصره فروسية وأكبرهم قلبا ، بل لعله كذلك فى أى عصر من العصور » .

٧ — واإسلاماه !

اجتاح التتر أقاليم الدولة العباسية الشرقية ودمروها تدميراً ، ثم دخل زعيمهم هولاكو بغداد فى سنة ٦٥٦ وقضى على الخلافة العباسية ثم اكتسحت جيوشه الشام وأصبحت على أبواب مصر . ولقد أرسل هولاكو إلى سلطان مصر إذ ذاك وهو الملك المظفر قطز كتابا ملأه تهديداً ووعيدا وطلب إليه فيه المبادرة إلى الخضوع له والاستسلام إليه . فثارت حمية السلطان واستنفر الناس لجهاد التتار فتثاقلوا لما ثبت فى الأذهان إذ ذاك أن التتر لا يغلبون ولكن السلطان أعلن أنه سائر بنفسه للجهاد على أى حال وليصحبه من يشاء . عند ذلك نفر معه الأمراء بأجنادهم . فسار بالجيش إلى فلسطين مقدما أمامه الأمير بيبرس . وجرت بينه وبين التتار وقعة عظيمة عند عين جالوت وذلك فى رمضان سنة ٦٥٨ هـ .

يقول المقريزى فى وصف بلاء قطز وبيبرس والجيش المصرى فى ذلك اليوم العصيب : « فلما كان يوم الجمعة خامس عشر من رمضان التقى الجمعان ، وفى قلوب المصريين وهم عظيم من التتر ، وذلك بعد طلوع الشمس ، وقد امتلأ الوادى ، وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين ، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء ، فتحيز التتر إلى الجبل . فعندما اصطدم العسكران اضطرب جناح السلطان وانتقض طرف منه ، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأسه إلى الأرض ، وصرخ بأعلى صوته : « وا إسلاماه ! » ، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة ، فأيده الله بنصره . وقتل كتبغا مقدم التتر ، وانهزم باقيهم ..... وأبلى الأمير بيبرس أيضاً بلاء حسناً بين يدى السلطان » ، « ومر العسكر فى أثر التتر إلى قرب بيسان ، فرجع التتر وصافوا مصافا ثانياً أعظم من الأول ، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم ، وكان قد زلزل المسلمون زلزالا شديداً ، فصرخ السلطان صرخة عظيمة ، سمعه معظم العسكر وهو يقول : « وا إسلاماه » ثلاث مرات « يا الله ! انصر عبدك قطز على التتار » فلما انكسر التتار الكسرة الثانية ، نزل السلطان عن فرسه ومرغ وجهه على الأرض وقبلها ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى ثم ركب ، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم » .

هذه وقعة عين جالوت التى صد فيها الجيش المصرى سيل الغزو التترى الجارف ، واستنقذ بها الشام من أيدى التتار ، ورد عن مصر والمغرب الإسلامى كيدهم وجبروتهم ، وفوق ذلك فإنه وقى فى ذلك اليوم على غير علم منه أوربا وحضارتها الناشئة دماراً محققاً وذلك باعتراف مؤرخى أوربا أنفسهم .

وبعد فلعل القارىء يكون قد رأى من جميع هذه النصوص المتقدمة أن الإسلام قد شرع للحرب والجهاد منهاجا واضحاً قاصداً وسن آدابا جديدة حميدة ؟

عبد الحميد العبادى

رأى الإسلام فى القتال

لصاحب الفضيلة الدكتور محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

هذه إحدى « الثلاثيات » القرآنية .

وأعنى بتلك « الثلاثيات » طرازاً خاصاً من الأحكام ، يصدرها القرآن فى ثلاثة ألوان مختلفة من أساليب البيان : أسلوب « الإثبات » المجمل تارة ، و « النفى » المجمل تارة ، و « الإثبات والنفى » جميعاً تارة أخرى : مفصلا فى هذا الوضع الأخير مطالع الحكم ومقاطعه ، ومحدداً فيه منازل التشريع ومنازعه : مبيناً بذلك أنه ، حين يثبت مجملا وحين ينفى مجملا ، إنما يقضى فى شأنين مختلفين ، فيقرر فى كل شأن حكمه العدل ، ويقول فى كل مقام قوله الفصل .

ليس أخطر على الباحث فى الشريعة الإسلامية من الوقوف عند أطرافها المجملة : لأنه بذلك يدع نصوصها تتصادم وتتخاصم .. حتى إذا سعى فى الصلح بينها برأيه لم يأمن على نفسه الهوى والزلل فى تأويلها . وهذا شأن اتباع المتشابه الذى نهى الله عنه .

وإنما يستبين موقف الإسلام واضحاً جلياً فى هذا الضرب من المسائل ، حين يلتمس حلها فى تلك الآيات الجامعات ، التى تلتقى فيها الأطراف على قدر ، والتى يبرز بها التشريع الإسلامى فى وحدة لا تنقسم ، وعروة لا تنفصم . تلك هى الآيات المحكمات ، وهن أم الكتاب .

هذا الطراز من التشريع الثلاثى مفتاحه إذاً فى وسطه لا فى طرفيه ، وروحه فى قلبه لا فى جناحيه . وسنريك الآن : أين الأطراف ، وأين الأوساط فى موضوع حديثنا .

* * *

فانظر ها هنا ، فى أقصى الجانب الأيمن !

أليس يبرز الإسلام أمامك فى شعاب « مكة » ووديانها رافعاً راية السلام بيضاء نقية لا شية فيها ؟ أليس يبدو نبى الإسلام باسطاً جناحى رأفة ورحمة يفىء إلى ظلهما الوارف أنصاره وأعداؤه على السواء ؟ ألست تسمع كتاب الإسلام وهو يحدد مهمة حامله ؟ فإذا هى هداية وإرشاد ، وموعظة وتذكير ، وإنذار وتبشير . ويجمع ذلك كله فى كلمة واحدة : « بلاغ » .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ، « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » ، « وما أنت عليهم بجبار » ، « ادفع بالتى هى أحسن السيئة » ، « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » ، « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « فان تولوا فانما عليك البلاغ » . . .

وزد ما شئت من سماحة وكرم ، لا ترى فيهما شائبة لعنف ولا انتقام ، ولا أثارة من مقاومة أو اصطدام . . . الإسلام إذاً هو رسالة السلام .

ولكن هلم إلى أقصى الطرف الآخر !

ألست تسمع من قِبَل « المدينة » صيحات النفير إلى النزال ، وقعقعة السلاح فى ميادين القتال ؟ أو لست ترى هنالك أشلاء تتناثر ، وأطرافا تتطاير ، وأعناقا تدق ، ودماء تسفك ، وأرواحا تزهق ، وأسرى يشد وثاقهم ، وشهداء يهنأون بقبيل تضحياتهم، ويبشرون بعظيم أجورهم؟

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » . يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ؛ يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون » ، « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » ، « فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان » ، « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب . حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق » ، « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

الحرب إذاً شريعة إسلامية ، وفريضة محمدية . بل هى أعظم من ذلك ؛ إنها عنصر أصيل من عناصر الإيمان الصادق : « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا » ، « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . أولئك هم الصادقون » .

يا لله ! ما أبعد الشقة ، وأشد المفارقة ! . . . أمن السلام الأبيض الناصع ، الرحيم المتواضع ، إلى الثورة الحمراء القانية ، والحرب الفاتكة المهلكة ؟

تلك هى المشكلة التى فتحت باب التعليل والتأويل أمام الذين يأخذون الأمور من أطرافها . وما أكثر الفروض ، وما أبعد تشعب الظنون ، حين يتحرر المرء من قيود العيان والبرهان ! وما أشد إغراء الهوى لمن وقف فى محراب العلم وهو لمَّا يفق من نشوة نزعاته وعصبياته ، ولما يتجرد من سلطان عقائده وعوائده ! هنالك يطير خلف كل سانحة وبارحة من الرأى ، فيمسك بأيها كان أحب لقلبه ، أو أكثر تملقا لشعور قومه ، ثم يرسلها فى الناس باسم العلم وفلسفة التاريخ . وما هى من العلم ولا من التاريخ فى شىء .

ذلك مثل فريق من كتاب الغرب حين تفرقت بهم السبل فى معالجتهم لهذه القضية :

أكان محمد متعطشا للدماء بفطرته ، ولم يمنعه من سفكها إذ كان فى « مكة » ، إلا أنه كان من الأعوان فى قلة ، ولم يكن أعوانه فى عامة الأمر يومئذ إلا الضعفاء والمستضعفين ؛ فكان تسامحه حينذاك ضرورة ألجأه اليها العجز وفقد النصير حتى إذا واتته الفرصة فى موطنه الجديد اهتبلها ، وغمس يده فى الدماء إشباعا لغريزة الثأر والتشفى ؟

أم كان فى هذا الموقف الحربى متحركا بحركة قسرية لا يستملها من قرارة قلبه ، ولكنه دفع اليها دفعا ، وكان فيها تابعا لا متبوعا ؟ ذلك أنه وجد نفسه فى قوم عاشوا جل دهرهم على الغارات والحروب ؛ فما كان منه إلا أن نزل على إرادتهم وجرى فى تيارهم .

وهل أنا إلا من غزية ؟ إن غوت
غويت ؛ وإن ترشد غزية أرشد

لقد قلبوا وجوه الرأى وذهبوا فيها كل مذهب؛ ولكنهم حيثما ذهبوا لم يجدوا إلا برقا خلبا، وسرابا خادعا، يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا. نعم لقد اصطدموا بحقائق التاريخ فى كل مسلك سلكوه، وضلوا ضلالا بعيداً فى كل مثل ضربوه.

ذلك أن الذين درسوا منهم نفسية محمد فى مختلف أطواره: فى شبابه وكهولته، فى بأسائه ونعمائه، حتى فى أوج سلطانه، شهدوا بأن محمداً لم يكن يوماً ما فظ الطبع، ولا غليظ القلب، ولا خشن العشرة، ولا عاتى الحكم، ولا حامل ضغن على صديق أو عدو. ولئن كانت فى طباعه نزعة عاتبه الوحى فيها عتاباً بلغ حد اللوم والتثريب، لقد كانت تلك، على العكس، نزعته للصفح عن أعدائه، ومجازاتهم بالذنب غفرانا، وبالسوء إحسانا. وإن شواهد سيرته العطرة فى هذا كله لأشهر من أن ينبه عليها، وأكثر من أن يعد بعضها. ناهيك بمنه بالحياة على قريش وهم فى قبضته، بعد ما تآمروا على قتله.

وذلك أن الذين درسوا حياة محمد شهدوا فى الوقت نفسه بأنه لم يكن يوماً ما إمعة فى رأيه، ولا رخواً فى حكمه؛ وأنه لم يعرف عن أمة فى التاريخ أنها كانت أطوع لملك أو قائد أو زعيم من قوم محمد له: طاعة لا يمليها سوط ولا صولجان، ولكن يبعثها الحب والمهابة والثقة والإيمان؛ وأنهم بلغوا فيها إلى حدّ تفديته بأهليهم وآبائهم وأبنائهم وأنفسهم.

وكذلك شهد التاريخ أن خروج محمد من القرية الظالمة إلى دار الأنصار لم يكن سبباً فى تحول سياسته مع قريش من اللطف إلى العنف، ومن المسالمة إلى المقاومة، على الرغم من وضوح حقه فى هذا التحول وتمكنه منه؛ فقد بايعه الأنصار من قبل هجرته إليهم، وأعطوه المواثيق الغلاظ على مؤازرته ونصرته. فلو أنه فكر فى الثأر لرمى بهم فى وجه عدوّه من أول يوم، ولكانوا أطوع له من بنانه؛ ولكنه لبث فيهم زهاء عامين شغل فى أثنائهما شغلا مستغرقا بشعائر دينه، وشئون قومه، وكان كل شىء فى سيرته إذ ذاك يدل على أنه قد تناسى الماضى بحسناته وسيئاته، وأنه قد اطمأن الاطمئنان كله إلى حياته الجديدة: فها هو ذا قد استبدل داراً بدار، وأهلا بأهل؛ بل لقد استبدل شعاراً بشعار، وقبلة بقبلة: إذ أصبح يولى وجهه فى الصلاة شطر بيت المقدس بعد أن كان يستقبل الكعبة. وجملة القول: إن خوضه غمار الحرب لأول مرة كان حادثاً فجائيا حقا، لم تمهد له مقدمات من حياته بالمدينة، كما لم تمهد له مقدمات من ميوله ونزعاته، ولا من شخصيته ومنزلته فى قومه.

* * *

هكذا فشل كتاب الغرب فى محاولتهم تعليل هذا الموقف الجديد بأسباب وعوامل التمسوها فى المعسكر الإسلامى.

وكان الإنصاف العلمى يقضى عليهم أن يلتمسوها بعد ذلك فى الجانب الآخر؛ فلم يفعلوا. ولو أنهم

طرقوا هذا الباب لوجدوا من ورائه ضالتهم ، ولقبضوا من فورهم على جريمة الحرب فى مهدها ومولدها .

فالواقع أن أول حرب فى الإسلام لم يوقدها المسلمون ، بل كانوا وقودها ، وأن أعداء الإسلام هم الذين أشعلوا نارها ، وأطاروا شررها . لا أقول إنهم كانوا سببها البعيد فحسب ، بل كانوا هم معلنيها عمليا ، والمتسببين فيها من طريق مباشر : وما كان من المسلمين إلا أنهم قبلوا التحدّى ، وردّوا التعدّى .

لا تعجل أيها القارىء علىّ ردّا وإنكاراً ، ولا تنغض رأسك إلىّ دهشاً وعجباً : فإنى أعرف أنك تقرأ فى كتب التاريخ كلها أن أصحاب الرسول هم الذين أخذوا يتعقبون عير قريش وهى آمنة مطمئنة فى قفولها من الشام إلى الحجاز . أفلا يكونون إذاً هم البادئين بالمناوشة ... ؟ ألا فليعلم القارىء الكريم أن هذا الذى سطرته كتب التاريخ إنما هو الحلقة الثانية من قصة هذه الحرب ، وأن الحلقة الأولى ظلت صفحة منسية منعزلة ، لم تأخذ مكانها فى سلسلة السرد التاريخى لهذه الفترة من الزمان ، وأن مؤرخى العرب ومؤرخى الغرب كانوا سواء فى السكوت عنها : فحق عليك أن ترد هذه اللبنة المفقودة إلى مكانها من البنيان . وإليك جلية الخبر !

لقد بدأت قريش بعد هجرة النبى وأصحابه تغير أسلوب معاملتها للمسلمين المستوطنين فى « مكة » ، وهم أولئك الذين لم يجدوا سبيلا للحاق بإخوانهم المهاجرين . فبعد أن كانت حوادث عدوانها عليهم قبل الهجرة حوادث فردية ، متفرقة ، وكان يلطف من حدتها فى غالب الأمر مقام الرسول وعظماء أصحابه بين ظهرانيهم ، أخذت حين خلا لها الجو تهاجم جموعهم ، وتوالى التنكيل بهم ، وهى آمنة أن تلاقى لهم ولياً حميا تخشى غضبه ، أو يلاقيها شفيع متوسل تستحيى أن ترد سعيه . وما زال طغيانها عليهم يزداد يوماً بعد يوم ، حتى عيل صبرهم ، وطفح كيل بلائهم ، فهنالك أخذوا يجأرون إلى الله مستغيثين ، فى صرخات عالية ، تسمع دويها فى القرآن الكريم .. وهنالك فقط أمر الله المهاجرين والأنصار أن يخفوا لإغاثتهم ، فكان ذلك هو أول تحريض على القتال : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

لم تكن الغزوة الأولى إذاً حملة تحرش وبدء بالعدوان ، كما زعم الجاهلون ، فذلك ذنب خليق أن يعتذر منه لو وقع . ولم تكن دفعة ثأر وانتقام لجروح قديمة قد اندملت ، أو محاولة تعويض واسترداد لحقوق استولى عليها الأعداء من ديار المهاجرين وأموالهم ، كما قد يظن بادىء الرأى ؛ ولو فعلوا لكان حقا لهم تقره كافة الشرائع السماوية والوضعية ، ولكنه حق مشروع فحسب ، وكان من السائغ التنازل عنه . كلا ، لم تكن هذا ولا ذاك ، ولكنها كانت عملا أعلى من ذلك كله وأسمى : لقد كانت قياما بواجب منزه القصد مبرأ الغاية عن كل الأغراض والمنافع العاجلة ، واجب نجدة المظلوم ، وإغاثة الملهوف . فهى إذاً صفحة فخار جديرة أن تسجل فى أعلى

مكان من ديوان التضحية والإيثار ، وليست عملا عاديا يتطلب التبرير أو الاعتذار .

* * *

والآن وقد صححنا الوضع فى هذا الحادث التاريخى الذى ضلت به أفهام ، وزلت فيه أقلام ، نعود إلى سياق الحديث عن المبادىء العامة فنقول : إن أمثال هذه الضلات والزلات فى تحديد موقف الإسلام من الحروب مردها كما أسلفنا إلى تلك النظرات الجزئية الجانبية فى نصوص التشريع ، وإلى تلك الوقفات المترددة عند أطرافها المتباعدة . ولا ريب فى أن المقارنة بين الدعوة إلى السلام فى السور المكية ، وبين التحريض على القتال فى آيات من التشريع المدنى ، وهو آخر دورى التشريع الإسلامى ، كانت مثار شبهة وفتنة لكثير من النفوس المريضة ، فقد خيل إليها أن شريعة القتال جاءت قاعدة عامة ختمت بها الدعوة المحمدية ، وأنها تمثل انقلابا نهائيا محيت به آية السلام فى الإسلام . وإنه لمن العجيب والمؤسف حقاً أن أكثر الكتاب الغربيين لا يزالون إلى يومنا هذا يرددون صدى هذا الضلال القديم ؛ حتى إن بعض كبار المستشرقين [1] ، الذين عاشوا بيننا ، ودرسوا لغتنا ، وتولوا إدارات فنية فى دورنا العربية ، كتبوا فى الموسوعات الأوربية الحديثة فصولا مطولة عن الإسلام قرروا فيها هذه النظرية الخاطئة ؛ وكانت زلتهم كغيرهم أنهم نظروا فى التشريع القرآنى إلى طرفى خطيه المنفرجين ، ولم يحوموا حول رأس الزاوية التى يلتقى عندها الخطان .

وها نحن أولاء ندعو الباحثين المنصفين منهم أن ينتقلوا معنا من هذه الأطراف إلى الحد الوسط الذى كان وجوده فى القرآن حكمة بالغة ، وحجة دامغة ، تقطع عند نصوصها كل الفروض والظنون ، وتنهزم أمامها كل التعليلات والتأويلات ؛ فإنه متى ظهر النص بطل القياس ، ومتى طلع النهار زال كل لبس والتباس .

أجل إن القرآن الحكيم لم يكتف فى تعيين مراده بأنه كان يدعو إلى السلم فى ظروف وملابسات عادية توائمه ، ويأمر بالقتال فى ظروف وملابسات استثنائية تحتمه ، ولو أن القرآن نزل لأهل عصره وحدهم لكفاهم ذلك ؛ إذ كان واقع الحال فى كلا المقامين تفسيراً شافياً لموقع كل تشريع ، وتحديداً كافياً لمجال تطبيقه ، أما وهو دستور الإنسانية الخالد فقد كان من الحكمة السامية ألا يعتمد فى تحديد مقاصده على

---

(١) اقرأ البحث الذى كتبه المسيو فيست ، المدير السابق لدار الآثار العربية ، عن (الديانة الإسلامية) ونشره فى موسوعة « التاريخ العام للديانات » باللغة الفرنسية

Gaston Wist, La Religion Islamique. in Histoire générale des Raligions, PP. 347, 359-360 Quillet, Paris 1948.

فى هذا البحث يقرر المؤلف أن فكرة الشيخ محمد عبده فى قصر الحروب الإسلامية على الدفاع فكرة عصرية تمثل تطوراحديثا فى وجهة نظر المسلمين ، وأن النصوص تدل على عكس هذه النظرية ، ويستشهد على رأيه بآية القتال : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » . فالمؤلف كما ترى يتمسك بآية من آيات الأطراف ، نظرة عن الآيات الجامعة التى سنشير إليها . على أنه قد أخطأ فى فهم الآية التى أوردها نفسها . ولو قرأ آخرها لتبين له أنها فى التقاء الجيوش فى الحروب « حتى تضع الحرب أوزارها » ، وأنها فى حرب الدفاع والانتصاف « ولو يشاء الله لانتصر منهم » .

ظروف واقعية فى عصر نزوله ، لا تلبث أن تنسى إذا طال العهد بها ، وكان من الرحمة الشاملة أن يسجل أهدافه بنفسه فى نص صريح يضع كل تشريع فى موضعه ، ويكون مرجعاً للناس على مر العصور والأجيال ، ولاسيما فى قضية الأمن العالمى التى يرتبط بها مصير البشرية جمعاء .

ولقد قام القرآن بهذه المهمة على أدق وجه فى آيات جامعات ، استبان بها أن الحرب ليست هى القاعدة ، وإنما هى استثناء من القاعدة ، وأنها لا يخلقها الإسلام ، ولكن يخلقها أعداؤه بعدوانهم المسلح على دعوته السلمية ، وأنها ضرورة تقدر بقدر أسبابها ، وعقوبة تزول بزوال الجريمة التى استوجبتها ؛ وبالجملة أنها محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تتقدم عنه خطوة ، ولا تتأخر خطوة :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا . فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبيناً » « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ؛ إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

لقد أبطل الإسلام حروب العصبية الدينية : « لا إكراه فى الدين » « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » .

ومنع حروب التشفى والانتقام للإساءات الأدبية : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » ؛

وأنكر حروب التخريب والتدمير ، وحروب الفتح والتوسع والاستعلاء : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » ؛

واستنكر حروب التنافس بين الأمم فى مجال الضخامة والفخامة : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة » .

فهل كان يراد منه فوق ذلك كله أن يمحو حق الدفاع عن النفس والحيف ، وواجب الذود عن المستضعف والمظلوم ؟ كلا : إن الإسلام دين إحسان ولكنه إحسان لا يناقض العدل ، ولا يشجع الإجرام ، ولا يدع الحق مكبل اليدين إذا أراد الباطل أن يفتك به ؛ إنه ذو رحمة واسعة ، ولكنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين . فهو دين عدل وإحسان معا ؛ وبذلك فضل الشرائع السابقة التى فرقت بينهما . ولقد علمنا كيف ننزل بالحكمة كلا المبدأين فى منزلته ، وحذرنا أن نضع واحداً منهما فى موضع صاحبه ؛

فوضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

محمد عبد الله دراز

طبيعة الفتح الإسلامى

للأستاذ سيد قطب

يخيل إلى أحياناً أن طبيعة الفتوح الإسلامية وبواعثها وأهدافها الحقيقية ليست مجهولة من الغربيين فحسب ، ممن يحسبون المدّ الإسلامى كان حركة سيف ، وهجرة جنس ، ودفعة أطماع . بل إنها مجهولة كذلك من كثرة المسلمين ، الذين يحسبون مجرد التوسع فى الفتوحات العسكرية كسباً للإسلام ، ومأثرة للفاتحين فى جميع العصور .

هؤلاء وهؤلاء سواء فى البعد عن إدراك طبيعة الفتوح الإسلامية ، وبواعثها وأهدافها الحقيقية . وإنه ليحسن أن نصحح تلك الصورة المزورة أو المشوهة لا للفتوح الإسلامية ، بل للفكرة الإسلامية ذاتها فى النهاية .

قال تعالى : « لا إكراهَ فى الدين قدْ تبينَ الرُّشدُ منَ الغىّ » .

وقال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى . فمن فى سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

هذه النصوص الثلاثة من القرآن والحديث تكشف لنا عن طبيعة الحروب الإسلامية وطبيعة الفتوح الإسلامية إجمالا .

إن الإسلام يستبعد من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح ، بقصد إكراه أحد على الدخول فى الإسلام . وبذلك يستبعد جميع الحروب والفتوحات التى تثيرها العصبية الدينية بهذا المعنى ؛ والتى ذاق العالم من ويلاتها لا فى الحروب الصليبية المعروفة فحسب ، ولا فى الاضطهاد الأسبانى للمسلمين فى الأندلس فحسب ، بل فى كثير من بقاع الأرض ، وفى كثير من أدوار التاريخ ؛ والتى ما تزال البشرية إلى يومنا هذا تتجرع مرارتها ، وإن كانت تتخفى تحت عنوانات أخرى غير عنوان التعصب الدينى !

والإسلام يستبعد من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح بقصد سيادة عنصر أو تغليب جنس ، فالناس قد جعلوا شعوباً وقبائل ليتعارفوا ؛ لا ليستذل بعضهم رقاب بعض ، ولا ليسود جنس أو شعب . وبذلك يستبعد جميع الحروب والفتوحات التى تثيرها عصبية الجنس أو اللون أو اللغة . والتى ذاق العالم وما يزال يذوق ثمراتها المرة ، حتى فى العصور الحديثة ، التى يزعم الزاعمون أنها تحضرت ، وارتفعت على دوافع القبيلة !

كذلك يستبعد الإسلام من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح ، بقصد جر المغانم . وبذلك يستبعد كافة الفتوح الاستعمارية ، التى تكمن وراءها مطامع اقتصادية كفتح الأسواق واستجلاب الخامات ، واستغلال الموارد ؛

أو الحصول على مراكز استراتيجية ، وميزات عسكرية ؛ تلك الفتوحات التى عانت البشرية وما تزال تعانى من ويلاتها ، والتى تقوم الحضارة الغربية الراهنة على أساسها ، لأنها مقوم أساسى من مقوماتها .

وأخيراً يستبعد الإسلام من حسابه أن تقوم حرب ، أو أن يتم فتح ، بقصد اكتساب أمجاد شخصية للملوك والقواد ، أو إرضاء نزعات الاستعلاء والسيطرة والبروز ، التى تهيمن على أولئك الرجال ، فيسخّرون من أجلها الشعوب ، لإضافة شارة إلى تاج ، أو وسام إلى رداء !

ومن ثم يتعين باعث واحد ، وهدف واحد للفتح الإسلامى ، هو الذى يقول عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

إنها إذن فكرة هى التى يراد نشرها ويراد تحقيقها : أن تكون كلمة الله هى العليا . فما هى كلمة الله المعنية فى هذا الحديث ؟ ما طبيعتها ؟ وما حدودها ؟ إنه لابد لنا أن ندرك طبيعة هذه الفكرة وحدودها لكى ندرك طبيعة الفتح الإسلامى ، ولكى ندرك الفارق بينه وبين الفتوح العسكرية الأخرى . ثم لندرك أى الفتوح الإسلامية كان فى حدود الفكرة الإسلامية ؛ وأيها لم يكن ولو أنه تم على أيدى المسلمين .

قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » ، « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » .

فتحقيق كلمة الله وجعلها هى العليا يتضمن أن يصبح الإسلام لله هو دين البشرية كافة . الإسلام لله على إطلاقه بمعنى إخلاص القلب لله دون سواه . والنظرية الإسلامية تعتبر أن جميع الرسل قد جاءوا بالإسلام على هذا المعنى ، وأن جميع الرسالات قد قامت على أساسه ، وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - إنما جاء بالإسلام فى صورته الأخيرة التى ارتضاها الله للبشرية كافة ؛ وأن القرآن إنما جاء « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » ، ومن ثم ينبغى أن يفىء الناس كلهم إليه ، فتتحقق كلمة الله فى الأرض ، وتصبح كلمة الله هى العليا . وهذه إحدى معانى كلمة الله فى هذا السياق .

إلا أن الطريقة لأن يفىء الناس إلى هذا الدين الأخير لا يجوز أن تخرج على القاعدة الكلية التى قررها : « لا إكراه فى الدين » ؛ والمطلوب من رسول الإسلام ومعتنقيه أن يحاولوا هداية الناس إليه بالدعوة اللينة والموعظة الحسنة : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » .

فإذا وقفت قوة مادية فى وجه الدعوة السليمة فهنا فقط يجوز حمل السلاح ، لتقرير حرية الدعوة . كذلك إذا تعرضت هذه القوة للذين استجابوا للدعوة كى تفتنهم عن دينهم الذى ارتضوه بملء حريتهم . وذلك لتقرير حرية العقيدة : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » .

وفى مثل هذه الحالة يبدو واضحاً معنى القتال لتكون كلمة الله هى العليا . فكلمة الله هنا تعنى كذلك حرية الدعوة وحرية الاعتقاد . وكل قوة مادية تقوم فى وجه هاتين الحريتين أو إحداهما

هى قوة معتدية مضادة لكلمة الله الذى كرم الإنسان ، وجعله على نفسه بصيرة ، وجعل عقله هو الحكم ، وإرادته هى مناط التكليف : واعتبر الوقوف بالقوة فى وجه الدعوة ، أو استخدام القوة للإكراه على العقيدة ، معطلا لكلمة الله . فمن قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله .

وفى هذا السبيل كانت الحروب والفتوح الإسلامية فى عهدها الأول ، الذى نشر الإسلام وقرره فى مواطنه الرئيسية فى داخل الجزيرة أو خارجها . وقد سبقت الدعوة إلى الإسلام تلك الحروب والفتوح جميعاً ، ولم تتقرر الحرب إلا فى حالة من حالتين : الوقوف بالقوة المادية فى وجه الدعوة السلمية ، أو الاعتداء على حرية العقيدة وفتنة المسلمين عن دينهم أفراداً أو جماعات .

وإن كان هذا لا ينفى أن بعض من خرجوا فى هذه الفتوح كانت الغنائم والأسلاب والفىء حافزاً من حوافزهم ، ولكن العبرة فى هذه الحالة ليست بدوافع بعض الأفراد ، إنما العبرة بأهداف القيادة . فأنا لا أحاسب دولة دخلت الحرب بطمع أفراد من جيوشها فى مغانم وأسلاب ، أو مغامرات ومتاع ، إنما أحاسبها على الفكرة التى من أجلها دخلت الحرب ، والهدف المرسوم من ورائها .

وما من شك أن القيادة الإسلامية فى فتوحها الأولى على وجه التحديد ، وفى كثير من فتوحاتها المتأخرة كذلك ، ما كانت تهدف إلى أكثر من أن تكون كلمة الله هى العليا ؛ وأن يكون الإسلام هو دين البشرية كافة ؛ لا عن طريق الإكراه ، ولكن عن طريق الدعوة . وضماناً لحرية الدعوة ، ولحرية العقيدة ، ساقت الجيوش وخاضت المعارك ، وفتحت البلاد بعد أن قدمت الدعوة بين يديها ، وأعلنت أنها الغاية الأولى والأخيرة .

ومن ثم تتهاوى جميع الأباطيل والمفتريات ، التى تقوَّلها الغربيون على الفتوحات الإسلامية : طبيعتها وبواعثها ، والتى نشأ بعضها عن التعصب الدينى ضد الإسلام والمسلمين : ونشأ البعض الآخر عن سوء التفسير ، بسبب قياس المؤرخين الغربيين لفتوحات الإسلام على فتوحاتهم هم ، وقيـــاس بواعث الفتوحات الإسلامية على الفتوحات الامبراطورية الاستعمارية عندهم فى القديم والحديث !

وثمة مفهوم ثالث لجعل كلمة الله هى العليا ، مشتق من المفهومين السابقين ومكمل لهما :

إن الإسلام عقيدة وجدانية ، تنبثق منها شريعة قانونية ويقوم عليها نظام اجتماعى . نظام متميز عن سائر النظم الاجتماعية التى عرفتها البشرية ، ذو مقومات خاصة به ، قد تشترك معه فى بعضها بعض النظم الأخرى . ولكنه فى مجموعه يبدو متميزا عن سائر النظم بكل تأكيد .

من هذه الخصائص أنه نظام عالمى مبرأ من العصبية العنصرية ومن التعصب الدينى . ومن ثم فهو يسمح لكل إنسان أن ينضم إلى موكبه فى يسر ، وأن يتمتع فور انضمامه إليه بكافة الحقوق

التي يتمتع بها أول مسلم من أي جنس ومن أية قبيلة : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومنها أنه نظام عادل ، يضمن لجميع الأفراد حقوقاً متساوية ، ولا يجعل للحاكم أو الأسرة أو لطبقة أي حق زائد عن حقوق الفرد العادي . كما يضمن العدالة المطلقة في علاقات الطوائف والأمم فلا يقيم وزنا للعداوة والشنآن ، كما أنه لا يقيم وزنا للصداقة والقربى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى » : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى »

وحتى ما يسمونه في العصر الحديث باسم « مصلحة الدولة » فإنه لا يبرر في عرف الإسلام أن تحيد الدولة عن العدل المطلق في معاملتها مع الأفراد أو الجماعات أو الأمم . فمرد الأمر كله إلى تحقيق شريعة الإسلام لتكون كلمة الله هي العليا .

ومن ثم يدعو الإسلام أهله أن يكونوا هم الأمناء على تحقيق العدل في الأرض كلها ، ومنع الجور ، ورد الطغيان ، تحقيقاً لكلمة الله فحيثما كان ظلم وكان بغي فالمسلمون منتدبون لدفعه ورفعه ، دون نظر إلى من وقع منه الظلم والبغي ، أو إلى من وقع عليه الظلم والبغي ، في أية صورة ، وتحت أي عنوان سواء أكان ظلم فرد لفرد ، أم ظلم فرد لجماعة ، أم ظلم جماعة لفرد أم ظلم جماعة لجماعة . كله سواء لأن الناس كلهم سواء :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ؛ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا . إن الله يحب المقسطين » .

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

ومن رفع الظلم وتحقيق العدل كل ما يتعلق بتحقيق العدالة الاجتماعية . والإسلام فوق أنه يعد العدالة الاجتماعية في أدق صورها شريعة من شرائعه ، وتكليفاً من تكاليفه ؛ يعدها في الوقت نفسه عبادة من عباداته ينهض بها الفرد المسلم ، وتنهض بها الدولة المسلمة ، ابتغاء لثواب الله وتجنباً لعقابه ، ومن ثم يربطها بالدين فوق كفالتها بالقانون ؛ ويفرض القتال لتحقيقها إذا لم تكن ثمة وسيلة أخرى سوى القتال .

والنتيجة التي تخلص من هذه المقدمات كلها ، أن الحروب الإسلامية والفتوح ملحوظ فيها أن تحقق إلى جانب حرية الدعوة وحرية العقيدة العدالة المطلقة لجميع الناس ، فإذا هي لم تحمل هذه المقدمات معها لأهلها وللبلاد المفتوحة كذلك لم تكن حربا إسلامية ولا فتحاً إسلامياً . ولم تزد ثمرتها على ضم رقعة من الأرض إلى العلم الإسلامي . وزيادة رقعة الأرض لم تكن يوما ما ذات قيمة في حساب الإسلام . إنما القيمة كلها لتحقيق النظام العادل الكامل الذي يقوم على الشريعة الإسلامية المنبثقة من العقيدة الإسلامية . وهذا

هو الذى كان يضيف إلى الإسلام قلوبا وشعوبا .

وهذه هى غاية الفتح الإسلامى لا الأرض ، ولا الفيء ، ولا الغنيمة ، ولا الغلبة على البلاد والعباد .

جاء فى كتاب « الدعوة إلى الإسلام » تأليف . سيرت . و . أرنولد ، وترجمة حسن إبراهيم حسن وزميليه فى ص ٥٣ وما بعدها :

« وقد استطاع ميشيل الأكبر Micheal The Elder بطريق أنطاكية اليعقوبى أن يجد فيما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ما كتبه إخوانه فى الدين ، وأن يرى أصبع الله فى الفتوح العربية ، حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامى خمسة قرون . وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل : [وهذا هو السبب فى أن إله الانتقام ، الذى تفرد بالقوة والجبروت ، والذى يديل دولة البشر كما يشاء ، فيؤتيها من يشاء ، ويرفع الوضيع ، لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة ، فنهبوا كنائسنا ، وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم ، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة ، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب لتخليصنا على أيديهم من قبضة الروم . وفى الحق أننا إذا كنا قد تحملنا شيئا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا ، وإعطائها لأهل خلقيدونية ، فقد استمرت هذه الكنائس فى حوزتهم . ولما أسلمت المدن للعرب خصص لكل طائفة الكنائس التى فى حوزتها (وفى ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران) ومع ذلك فلم يكن كسبا هينا أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم ، وحنقهم العنيف ضدنا ، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام] .

« ولما بلغ الجيش الإسلامى وادى الأردن ، وعسكر أبو عبيدة فى فحل . كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البلاد إلى العرب يقولون : [يا معشر المسلمين . أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا ، أنتم أوفى لنا ، وأرأف بنا ، وأكف عن ظلمنا ، وأحسن ولاية علينا . ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا] .

وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم .

لقد كان الفتح الإسلامى فتحا فريدا فى تاريخ البشرية كلها ، لم تعرف له من قبل ولا من بعد نظيرا ، إنه لم يكن فتحاً للأرض وكنوزها ، إنما كان فتحاً لقلوب ساكنى الأرض ، وغرس بذرة العدل والتسامح والمساواة والإخاء فيها .

وإن أى إنسان مخلص للإنسانية ، يعرف طبيعة الفتح الإسلامى ، ويدرك أهدافه وبواعثه ليتمنى أن لو كان مد الإسلام الأول قد غمر الأرض جميعا ، والتى فيها تلك البذرة الطيبة الخيرة ، وإن الرجاء المعقود - بعون الله - على مد الإسلام الثانى . الذى أخذت بوادره تظهر فى يقظة العالم الإسلامى ، وانبعاث الفكرة الإسلامية ، أن يغمر الأرض ومن عليها .

سيد قطب

فتوح المجاهدين فى سبيل الله

العقيدة الإسلامية وأثرها فى سمو الإنسان

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد محمد المدنى
السكرتير العام المساعد للأزهر

تدل الدراسات النفسية للأفراد والجماعات على أن الإرادة تخضع إلى حد بعيد للقوة العقلية وتصطبغ فى الأفراد والجماعات بصبغتها ، فإذا اقتنع العقل بشىء وآمن به وجّه الإرادة إليه ، وبعث الرغبة فيه ، فكأن هذا الاقتناع هو القوة المحركة العاملة على وجود هذا الشىء أو بقائه ، ولذلك يحرص أصحاب الدعوات دائما على مخاطبة العقول وإقناعها بما يريدون ، لأنها متى اقتنعت استجابت ، ومتى استجابت كانت العزيمة والإرادة فالعمل ، ولا تجد الحذاق منهم يرمون إلى التسلط بالقوة والاعتماد عليها ، فإن القوة قد تفلح فى فرض شىء ما ، ولكنها لا تستطيع أن تكفل له بقاء مستقرا مثمرا ثمرات طيبة مهما كان تأثيرها ومداها .

ومن ثم كانت الأديان ذات تأثير قوى لا يغالب ، ذلك بأنها تصل بعقائدها وما تبثه فى العقول والقلوب إلى تكوين إيمان قوى تثير به العزائم إثارة قوية فعالة مكتسحة ، يظنها الناس إعجازاً ، وإنما هى سنة الله فى القلوب إذا آمنت إيمانا حقاً .

والأديان كلها متفقة فى أصول العقائد من الإيمان بالله والرسل والكتب واليوم الآخر والحساب والجزاء ، وقد سما هذا الإيمان بالإنسانية فى عهودها المظلمة إلى حد ما ، نعم إن الجهالة والبهيمية كانتا حينئذ أبعد أثراً وأكبر نجاحا فى التشبث ببقاء الإنسان فى حضيضه ، ولكن كانت توجد دائماً قلة مؤمنة حول الرسل ودعاة الإصلاح فى الأمم ، تبشر بالمستقبل المنتظر للإنسانية ، فلما بزغ شمس الرسالة المحمدية كان ذلك إيذانا بتغلب قوة الإصلاح والخير ، ومطلعا لعهد فريد من السمو بالإنسانية إلى أقصى ما ينبغى لها من مراتب الكمال والكرامة .

ومقال كهذا لا يمكن أن يستوعب جميع العقائد الإسلامية التى كان لها أثر فى السمو بالإنسان ، فحسبنا أن نضرب المثل ببعض الأصول التى امتازت بها الرسالة المحمدية فى ذلك ليعرف الناس أى جميل أسداه الإسلام للكرامة البشرية :

١ - كان رجال الأديان الأخرى يضربون نطاقا فولاذيا على الناس ، ويستبدون بشئونهم استبداداً عجيباً ، ولم يكونوا يكتفون بما جعلته إليهم نظم الحكم والسياسة ، من وجوب استئذانهم فى سائر التصرفات المادية ، من بيع وشراء وهبة وزواج ونحو ذلك ، بل جعلوا من أنفسهم وسطاء بين العباد ورب العباد ، فمن أراد أن يتوب إلى ربه فعن طريقهم ، إن شاءوا فتحوا له باب التوبة وإن شاءوا أغلقوه ، ومن أراد أن يدعو ربه فإليهم أولا يجب أن يرجع . وفى سبيل هذا

أو ذاك يجب أن تقدم إليهم القرابين ، وأن تملأ أيديهم بالذهب النضار ، وأن يدخل معهم فى مساومات يسيرة أحياناً ، وشاقة أحياناً تبعا لما اقترفه من ذنب صغير أو كبير .

وقد نزلت هذه الأوهام والأباطيل بالإنسان إلى مستوى العبودية لغير الله ، وجعلته ذليلا خاضعاً لحفنة من الناس الذين لا يمتازون عنه فى شيء ، وليس لهم عمل فى الحياة إلا أن يبتزوا ماله وثمرات سعيه بهذا الإيهام الكاذب ، كما أثر ذلك فى العقول فأصابها بالشلل والعقم والجمود ، ومن ثم لم يكن من العجب أن يظل البشر فى عماية عن الحقائق ، وجهل عميق بقيمة أنفسهم وبما يجب عليهم أن يقوموا به لأداء رسالتهم السامية فى عمارة هذا الكوكب الذى أسكنهم الله إياه ، وسخر لهم كل شيء فيه ، حتى إذا جاء الإسلام صرع هؤلاء الوسطاء الكاذبين صرعة لا قيام لهم من بعدها ، فأعلن فى صراحة أن الله قريب من عباده يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وأنه أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، وأنه لا يشترط فى قبول العبادة من الناس أو التوبة من الذنوب وساطة أحد أو شفاعة أحد ، فما على المرء إلا أن ينيب إلى ربه ، ويتوب من ذنبه ، دون أن يتذلل أو يتزلف أو يقدم القرابين .

بهذا كُرِّم الإنسان ، وصِينتْ عليه عزته ، وانفتحت أمامه أبواب الأمل التى كانت مغلقة ، وسما بعقله وتفكيره عن ذلك الضيق الذى قصر عليه ، وحبس فيه ، وعلى الجملة كان شعوره شبيهاً بمن كان تحت الوصاية ثم رفعت عنه قيودها ، وأصبح حراً طليقاً يفعل ما يشاء غير مُراقِب أحدا إلا ربه ، ولم تكن بركة هذه العقيدة قاصرة على الذين اعتنقوا الإسلام وآمنوا برسوله الكريم ، ولكنها سرت إلى أهل الأديان الأخرى سريانا عجيبا ، فلم تمض فترة طويلة حتى خرجوا على أحبارهم ورهبانهم وقسيسيهم فلم يعد أحد يؤمن إيمانا صادقا بوصايتهم أو وساطتهم إلا أن يكون ذلك صورة من الصور التقليدية يؤدونها وهم بها كافرون ، ولها كارهون ، فكأن الإسلام بذلك قد بذر للإنسانية كلها هذا البذر الطيب فأخرج نباته بإذن ربه .

٢ - وعقيدة « التوحيد » من العقائد المشتركة بين الأديان ، ولكن أمرها كان عجيباً فى أذهان المنتسبين إلى هذه الأديان حتى إذا قطعنا النظر عن اضطراب أهل التثليث فيها ، وما يحاولونه من حمل العقول على قبول نظرية الأب والابن والروح القدس ، كصورة من صور الوحدانية أو التوحُّد ، فالأحبار والرهبان - وساعدهم الملوك وأصحاب السلطة المادية - قسموا الناس طبقات ، وخيلوا لهم أن الدماء الآدمية تختلف ، فلهذه الطبقة من الحقوق ما ليس لتلك . ولهذا الدم أن يحكم وأن يورِّث الحكم فى أعقابه بأمر الله ، وليس لأحد من العامة أن يعترض وإلا كان جزاءه الطرد على يد الحكام من الحياة الدنيا بالموت ، والطرد على يد رجال الكهنوت فى الحياة الآخرة من رضوان الله ، وبهذا فترت الهمم ، وانحلت العزائم ،

وصار الناس يدورون فى فلك ضيق ، إن كانوا من الخاصة لم يكدوا ولم يكدحوا ولم يكلفوا أنفسهم أن يسلكوا فى الحياة سبيلا قويما لأنهم لا يخافون أن يضيع مجدهم أو ينزلوا إلى مرتبة العامة ، وإن كانوا من العامة لم تسم نفوسهم إلى حياة أرفع لأن هذه الحياة مستحيلة عليهم فى ظل هذا التقسيم الجائر الذى فرض على المجتمع، ومن ثم استرخى هؤلاء وهؤلاء ، وصار العز والرفعة ميراثا يصل إلى الأبناء عن آبائهم وأجدادهم ، كما صار الفقر والشقاء ميراثا لقوم آخرين لا يعدوهم .

وهذا نوع من الشرك بالله ، فإن الله هو الذى له العزة جميعا ، وعباده هم الفقراء إليه ، المحتاجون إلى فضله دائما ، فكيف يشارَك رب العزة فيما هو من خصائصه ؟ .

وشىء آخر فى هذا النظام الطبقى ، إنما هو نوع من الشرك ، ذلك هو ادعاء الأحبار والرهبان حق التشريع بالتحليل والتحريم ، وما كان التشريع والحكم إلا لله .

وهكذا كان الناس غارقين فى الشرك وإن انتسبوا إلى شرائع تنادى بالتوحيد .

ثم جاء الإسلام فكان منطقيا عمليا فى دعوته، فالناس جميعا لديه سواء كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد بدعوى أنه من هذه الطبقة أو من تلك ، ولا بدعوى أنه تجرى فى عروقه دماء معينة ، وفى ذلك يقول رسوله صلوات الله وسلامه عليه : « أيها الناس . إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، ويقول الله فى كتابه الكريم « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وفى هذا المبدأ الذى هو استواء الناس فى الحقوق والواجبات نتيجة لاستوائهم فى المربوبية لرب واحد وفى البنوة لأب واحد ، يصل السمو بالإنسانية إلى مرتبته الكاملة ، وفى جعل التفاضل والتمايز « بالتقوى » تقدير للقيم المعنوية ، وحفز للهمم والعزمات ، وما التقوى إلا سلوك طريق الرشاد فى كل ناحية من نواحى الحياة .

وقد كان من أثر هذه العقيدة التى أعلنها الإسلام وأوجبها أن استوى الناس فلا طبقات ولا متقمصين لسلطة التشريع والحكم « إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه » .

وعندما تولى الخليفة الأول كان مما أعلنه على رءوس الأشهاد قوله « إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، ولقد وددت لو أن أحدكم قام بهذا الأمر عنى ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى » .

ولم نر أحداً من أهل العلم أو الحكم يزعم أنه ذو حق فى التشريع والتحليل والتحريم ، وإنما هم ناظرون فى كتاب الله وسنة رسوله يستنبطون حكم الله ويبلغونه للناس أو يقومون عليه ، ولذلك يعتقد كل مجتهد أنه عرضة للخطأ والصواب ، ولم يرض أبو بكر حين بويع بالخلافة أن يُدْعى « خليفة الله » ، وقال : إنما أنا « خليفة رسول الله » ، ثم رأى عمر أن يزداد بعداً عن

مظنة التشريع والنيابة عن الشرع فسمى نفسه « أمير المؤمنين » .

٣ - وقد سما الإسلام بالإنسانية سموا آخر ، حيث جعل كل إنسان مسئولا عن نفسه ، محاسباً على ما يفعله هو من خير أو شر ، فلا هو بمسئول عما يأتيه غيره ، ولا هو بمنتفع بعمل أبيه أو جده « أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » ، « كل نفس بما كسبت رهينة » ، « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » ، « يا فاطمة اعملى فإنى لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

وبهذه العقيدة أدرك الإنسان قيمته ، وأحس بالمسئولية الملقاة على عاتقه ، واستثار كوامن قوته ومواهبه ليخطو فى الحياة معتمداً على نفسه مستمداً النجاح والفوز من ذاته وعمله ، وبهذه العقيدة أيضاً قضى على تلك السلطة الغيبية التى كان يزعمها رؤساء الأديان من أنهم يستطيعون أن يجعلوا العاصى طائعاً لو أرادوا ، وأن الجنة ملك لهم يقطعون منها ما يشاءون لمن يشاءون .

* * *

هذه أمثلة مما جاء به الإسلام من عقائد الحق التى سمت بالإنسان وحفظت كرامته ، ووجهته فى الحياة الوجهة الصحيحة المعينة له على القيام برسالته من عمارة الكون ، وعبادة ربه الأعلى .

وهناك عقائد أخرى تجرى فى هذا المضمار ، ولها تلك الآثار ، كعقيدة البعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال ، وعقيدة التآخى بين الدين والعلم ، على معنى أنه لا يمكن أن يختلف العلم الصحيح مع الدين ، والإيمان بالحكمة التامة فى كل ما يصدر عن الإله ، وبأن للكون سنناً لا تتبدل ولا تتحول ، وبوجوب البحث والنظر على كل مستطيع ، وبحرية العقل فيهما وعدم تكبيله والحجر عليه . . . الخ .

نعم إن الأديان الأخرى قد شاركت الإسلام فى بعض تلك العقائد ، ولكن أهلها - كما بينا فى عقيدة التوحيد - قد حرّفوها والتوَوْا بها عن أصلها ، وغفلوا عن لوازمها ومقتضياتها فكانوا بذلك مجافين لمنطقها ، وحائلين بينها وبين أن تؤدى إلى الغاية المقصودة منها ، أما الإسلام فأهدى للناس ما أهدى من ذلك صافياً لم تشبه الشوائب فكان حقاً وصدقا هو الحجة البيضاء ، ثم انفرد بما لم يشاركه فيه سواه ، فكان دين الإصلاح الكامل ، ومنهج السمو الذى ليس بعده سمو ، وكان جديراً بما قاله الله عز وجل حين أتمه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

محمد محمد المدنى

قال الله تعالى :

ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا .

الأسس التي قام عليها التشريع الإسلامي

لصاحب الفضيلة الأستاذ علي الخفيف
أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق

الشريعة الإسلامية أبعد الشرائع عن التأثر بالأهواء والاستجابة للأغراض الشخصية والمطامع الطائفية ، لا يأتيها الباطل ولا تجنح إلى التمييز ولا تجعل الناس طبقات بعضها فوق بعض . وإذا جاز لشريعة أن تنزع إلى تحقيق شهوة لملك ، أو أن تهدف إلى رفع طبقة من الناس ، أو أن تميل إلى تحقيق مصلحة حزبية أو فكرة مذهبية ، أو أن تزل في وضعها العقول وتضل في توجيهها الأفكار ، فلن يجوز ذلك على شريعة شرعها الحكيم العليم وأنزلها لهداية الناس أجمعين والوصول بهم إلى عيشة راضية ينعم بها الفرد ويسعد بها المجموع .

ويهدينا النظر في هذه الشريعة إلى أنها قد قامت على أسس حكيمة وقواعد متينة ، روعيت فيها الطبائع الإنسانية والنزعات النفسية ولوحظت فيها القوى البشرية وما يعرض لها من عوارض وما تتأثر به من أسباب وعوامل ، فحققت لذلك أغراضها وآتت أكلها . ولكن الناس قد صدوا عنها فأعقبهم ذلك انحطاطا في أخلاقهم وضعفاً في نفوسهم وانحلالا في وحدتهم وخرابا في أوطانهم فأصبحوا ، عبيداً أذلاء لغيرهم يسخرونهم في تنفيذ أغراضهم ويحكمونهم بأهوائهم .

قامت الشريعة الإسلامية على أسس عديدة أهمها أسس ثلاثة ، إليها يرجع كثير من قواعدها وأصولها وفيها تتدرج جميع الأغراض والحكم التي قصدت إليها في جميع نواحيها واتجاهاتها ، وهذه الأسس هي رعاية مصالح الناس والتيسير عليهم والعدل بينهم . فأما رعايتها لمصالح الناس فجماع أغراضها وأهم أهدافها ، لا تغفله في حكم ولا تتحول عنه في تشريع فحيث تكون المصلحة يكون حكمها ، وحيث تكون المفسدة ينتفي حكمها . وهذه حقيقة تضافرت عليها الأدلة حتى أصبحت علماً ضرورياً لا يرقى إليه شك ولا تقاربه ريبة ، يدل عليها ما وصف به الكتاب الحكيم الذي جاء بها وما نعت به الرسول الذي شرع للناس أصولها وبين لهم أحكامها ، فقد وصف الكتاب بأنه مبارك أنزل رحمة للعالمين وهدى وبشرى للمؤمنين ونورا وموعظة للمتقين وبصائر وشفاء للناس أجمعين : يقول الله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ويقول « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » ويقول « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ، ويقول في وصف الرسول : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » .

وغير ذلك من آي القرآن كثير معلوم ، وليس

بعد هذا صلاح يرتجى ولا خير يطلب. وليس فى الإمكان أن يأتى كتاب هذه بعض أوصافه بشريعة تسيم الناس الخسف وتهدر فيها الحقوق وتضيع معها المصلحة ويشقى بها أهلها، إذ لا يمكن أن يكون هدى وقد جاء بالضلال ولا أن يكون رحمة وفلاحا وقد أتى بالشقاء، ولا أن يكون شفاء وقد نزل بالمرض ولا أن يكون نوراً ورشداً إذا ضل به العقل وفشت به الجهالة. ثم أى شىء يكون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وحل الطيبات وتحريم الخبائث ووضع الأثقال وتحطيم الأغلال إذا لم تتوافر بذلك المصالح وتتحقق المنافع ويزول الضرر وتجتث أصول الشر.

وإذا كان صنيع الله فى خلقه أن هيأ للإنسان منافعه ويسر له حوائجه وأحضر له مطالبه فسخر له ما فى السموات وما فى الأرض وسخر له الليل والنهار وسخر له الشمس والقمر دائبين وسخر له الفلك وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة فهل يمكن أن يكون صنيعه فى شرعه على خلاف صنيعه فى خلقه ؟

لقد دل استقراء الشريعة والنظر فى أدلتها كلية وجزئية والبحث فيما انطوت عليه من الأغراض والحكم، على صحة هذه النظرية فكانت أدلة الشريعة كلها لا فرق بين خاصها وعامها ولا بين مطلقها ومقيدها ولا بين كليها وجزئيها، دائرة على رعاية المصالح فى جميع مناحيها ووقائعها حتى صار العلم بذلك علماً ضروريا وتبين أن رعاية المصالح قطب التشريع الإسلامى وأصله الذى لا متحول عنه.

كما دل استقراء تلك الأدلة على أن رعاية الشارع الإسلامى إنما كانت لمصلحة المجموع فكانت هى أساسه فى شرعه دون أن يكون لمصلحة الفرد أى اعتبار فى حكمه إذا عارضت مصلحة كلية. ولذا كان من قواعد هذه الشريعة تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة عند تعارض المصلحتين. وعلى هذا الأصل شرعت أحكام كثيرة، منها الحكم القاضى بأخذ الملك من صاحبه جبرا عنه لأجل مصلحة عامة كشق طريق أو توسيع مسجد، فعل ذلك عمر حين ضاق المسجد الحرام على الناس وكانت دور الناس يومئذ محدقة به من كل جانب عدا فتحات جانبية يدخل منها الناس إليه فاشترى عمر دورا منها وأبى عليه ذلك أصحاب الدور الأخرى فأخذها منهم جبرا وأدخل الجميع فى المسجد بعد أن أودع قيمة ما أخذ جبرا باسم أصحابه. وهذا حل سليم، لأن المصالح الفردية متضاربة متعارضة ليس فى الإمكان رعاية شىء منها إلا باطراح كثير غيره، وليست رعاية مصلحة فرد بأولى من رعاية مصلحة فرد آخر والضرر يجب أن يزال. وفى رعاية مصلحة المجموع رعاية لمصلحة كل فرد من ناحية أنه جزء منه ومصلحة عائدة إليه، فكان ذلك هو الواجب مراعاته دون نظر إلى ما قد يعارضه من المصالح الفردية. ومصالح الناس فى هذه الحياة تتكون من أمور هى لهم ضرورية تتوقف عليها حياتهم ويختل بفقدها وجودهم. وأخرى هم فى حاجة إليها ولكنها دون الأولى فى اعتماد الحياة عليها وصلاح الوجود بها فلا تختل بفقدها حياة الناس ولا يعمهم بسبب ذلك الفساد ولا تسود فيهم الفوضى ولكن يصيبهم عند فقدها حرج

ومشقة لا يبلغان مبلغ ما يكون من فساد وضرر عند فقد الأولى . وينضم إلى هاتين الطائفتين من المصالح طائفة ثالثة من أمور لا تدخل فى الطائفتين السابقتين لأنها دونهما ولكن تعتبر مكملة لها ويجمعها الأخذ بمحاسن العادات والعمل بما تتطلبه المروءات ورعاية أحسن المناهج فى العادات والمعاملات[1] فتتحقق للناس مصالحهم على أكمل وجه وتطيب معايشهم . وينعمون بحياتهم .

وقد بنى أمر هذه الحياة على اختلاط المصالح بالمفاسد والملذات بالآلام ، فلا يقع فى هذا الوجود نفع إلا مشوبا بضرر ، ولا لذة إلا مختلطة بألم ويعجزك الفصل بينهما إذا حاولته ويعييك الظفر بأحدهما وحده إذا أردته . ولهذا كان اتجاه الشارع الإسلامى فى شرعه إلى غلبة أحد العنصرين فهو يراعى ما غلب فيه جانب المنفعة ، ويدرأ ما غلب فيه جانب المفسدة ، وما قد يوجد فى الأمر من ضرر وحرج فإن الشارع لا يقصد إليه ولا يريده من شرعه ولا يجعل لوجوده اعتبارا نظرا إلى ما يصاحبه من نفع راجح وصلاح غالب .

ورعاية الشارع للمصالح ودرئه للمفاسد على هذا الوضع تتناول أمورا كانت هى الأخرى من أسس شرعه التى قام بها ومن قواعده التى بنى عليها كثيرا من أحكامه لما فى رعايتها من توفير الخير وتحقيق النفع .

من ذلك مراعاة ما جرى به عرف الناس فى تعاملهم وما اعتادوه فى تصريف شؤونهم مما ليس فيه ضرر غالب فإن الناس قد تدفعهم الحاجة وتقتضيهم الحياة أن يزاولوا أمورا يرون فيها استقامة أحوالهم وسداد حاجتهم فتصير جزءا من نظامهم وعرفا جاريا فيهم ، تقوم به حياتهم وتصلح أمورهم فلا يكون من الحكمة والمصلحة إحراجهم بحملهم على تركه دون أن يكون فى ذلك صلاحهم . وما جاءت الشريعة بحرج ولا شرعت الإعنات ومع هذا قد تدعو الناس أهواؤهم الجامحة وشهواتهم الطاغية إلى ارتكاب أمور أخرى يخدعهم زيفها ويغريهم بريقها فيتخذونها عبثا ولهوا وتصير محببة إلى نفوسهم السيئة ونزعاتها الآثمة فينغمسون فيها حتى تتمكن منهم وتفشو فيهم وتصير عادة عامة لهم . فى مثل هذه الحالة رأت الشريعة أن تطهرهم منها وأن تجنبهم آثامها وشرورها وأن تعالجهم من أمراضها بكل وسيلة تدعو إليها الحكمة مع الموعظة الحسنة .

وهذان نوعان من العرف أولها : عرف صحيح لأنه لا يعارض شرعا ولا يخل بصلاح . وقد راعت الشريعة الإسلامية ما يقضى به فأقرت فرض الدية على العاقلة ، واشتراط الكفاءة فى الزواج ، ومبدأ العصبية فى الإرث ، وتحريم الزواج بين المحارم من الأقارب ، وكثيراً من أنواع المعاملة والمبادلة ، كالسلم والعارية وغير ذلك مما كان معروفا لدى العرب قبل الإسلام . وثانيهما عرف فاسد لما يترتب عليه من ضرر وما يجر إليه من مفاسد . وقد حاربته الشريعة لحرمته

(١) ورعاية الشريعة لها على هذا الترتيب تهمل رعاية الطائفة الثانية إذا عارضت الأولى وتهمل الثالثة عند معارضتها الثانية وتراعيها جميعها عند عدم التعارض ورعايتها على هذا الوضع .

وفرضت العقوبات على مقترفه . ومن ذلك التعامل بالربا والميسر وشرب الخمر وغير ذلك من منكرات الجاهلية . ولذا لم تكن الشريعة الإسلامية شريعة مستحدثة جديدة فى جميع نواحيها بل كان كثير من أحكامها معروفا مقررا قبل مجيئها وكانت مهمتها فى الواقع إصلاح المجتمع وعلاجه . وذلك بإصلاح الفاسد وتكميل الناقص وتحريم الضار وإقرار الصالح .

وقد يتناول العرف ما بقى فى الناس من شرائع سابقة لم تعمل فيها يد الإفساد والتحريف فبقى على صلاحه وأصبح عرفا صحيحا راعاه الشارع الإسلامى لأنه موف بالغرض الذى قصد إليه من شرعه .

ويتصل بهذا الأصل أيضاً إقرار الشارع الإسلامى لما يراه المسلمون حسنا من الأفعال والأحكام ، فإن إسلامهم يمنعهم أن يروا الحرام حلالا والخبيث طيباً والفاسد صالحا ، فلا يرون الشىء حسناً إلا إذا كان خيراً أو وسيلة إلى خير ؛ وتلك أغراض توخاها الشارع فى شرعه وقصد إليها فى حكمه ؛ ويؤيد ذلك الأثر : «ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » ، وكانت هذه الفكرة إحدى الدعائم التى قامت عليها حجية الإجماع واعتضدت بها الشورى فى الإسلام .

وإذا كانت الشريعة كما بينا قد شرعت لتحقيق مصالح الناس وسد حاجاتهم فليس فى توفير المصالح ما هو أهم وألزم من درء المفاسد ودفع المضار ، ولذا حرمت الخبائث ونهت عن الجرائم وأمرت بالكف عن المحرمات والسعى إليها وكان شرع الله فى ذلك سبيلا إلى توفير النفع وتحقيق الخير العام دون نظر إلى ما قد يخالط ذلك من ضرر قد يصيب فرداً وقلة من الناس . وعلى هذا الأساس أمر الناس بالدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم ولو أدى ذلك إلى قتل النفس . وساغ للتاجر أن يرخص فى سلعته وإن ترتب على ذلك إعراض الناس عن سلع غيره[1] وأن يدفع الرجل عن نفسه ظلماً وإن رأى أنه يصيب عند ذلك غيره : قيل لحماد بن أبى سليمان : قد يتكلم الرجل فترفع عنه المظلمة وتوضع على غيره فقال إنما عليك أن تدفع عن نفسك فإذا وقعت على غيرك فلا نبالى إذ لا سبيل عليك إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق .

وقد يكون الضرر فى أمر من الأمور غالبا فيحرم لذلك ، ثم يعرض له فى بعض الظروف ما يجعل النفع فيه راجحا ، فيتغير لذلك حكمه ويصير جائزا أو مطلوبا بعد أن كان ممنوعا ، غير أن ذلك يجب أن يكون موقوتا ببقاء تلك الحالة واقتضاء ذلك الظرف وعلى قدر ما تستوجبه الضرورة فتقدر عند ذلك بقدرها ولا يجوز مجاوزتها وعلى هذا الأساس أحلت الشريعة كثيراً من المحظورات حسبما تقضى به الضرورات ووضعت القاعدة : الضرورات تبيح المحظورات . وعلى أساس ذلك أحل أكل الميتة لمن اضطر

(١) وحرم على الناس تلقى الركبان من التجار لأخذ السلع قبل دخولهم إلى الأسواق وبيع الحاضر للبادى قبل تعرف الأسعار وبيع السلاح لأهل الحرب والفتنة والسكوت عن المنكر .

فى مخمصة غير متجاوز ما يدفع عنه الهلاك . وأحل أكل مال الغير دفعا للهلاك عند شدة الجوع بقدر ما يدفع الضرر . وحل شرب الخمر للتداوى أو لدفع الظمأ الشديد الضار . وفى مثل ذلك نزل كثير من آى القرآن الحكيم قال تعالى بعد بيانه لبعض المحرمات : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » وقال فى موضع آخر : « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم » وفى موضع آخر « إلا ما اضطررتم إليه » ، وفى آخر « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » .

وعلى هذا الأساس شرعت العقوبات بجميع أنواعها ففيها صلاح الجانى فى كثير من حالاتها على الرغم مما يصيبه من ألم ، وفيها زجر غيره ممن تسول لهم أنفسهم أن يعتدوا على غيرهم أو يخرجوا على النظام أو يعبثوا به . وفيها صلاح المجتمع ، وهو غاية كل تشريع صالح وأمل كل مصلح ورجاء كل عاقل حكيم .

ويتصل بهذا الأصل قاعدة هامة من قواعد التشريع الإسلامى ، وهى قاعدة سد الذرائع وتتحقق عندما يكون الفعل الجائز فى نفسه ذريعة وطريقاً إلى ما هو شر فى نفسه . وإن شئت قلت عندما يكون فى مباشرة أمر فيه مصلحة إفضاء إلى مفسدة .

عند ذلك يكون للوسيلة حكم ما تفضى إليه من مفسدة حرمة أو كراهية . وقد حكمت هذه القاعدة فى كثير من أحكام الشريعة الإسلامية حتى جعلها ابن القيم أصلا لرابعها . وليست هذه القاعدة فى الواقع إلا تطبيقاً للأصل القاضى بدرء المفاسد على أتم وجه وأكمل وضع ، حتى لا يتورط الإنسان فى شر من حيث أراد الخير لنفسه ، فاقتضت إرادة الشارع الحكيم أن تكون لوسائل المفاسد وطرائقها من الكراهة والتحريم ما لعواقبها ، إذ لو أباحها لكان ذلك نقضاً لحكمه ورفعاً لتحريمه ولا نفتح على الناس باب المفاسد والشرور لا يصلح به حال ولا يقوم معه نظام ولا يسلم معه اجتماع .

ومما بنى على هذه القاعدة من الأحكام تحريم الخلوة بالنساء الأجنبيات وسفرهن مع غير ذى رحم محرم منهن . والجمع بين المحارم والزيادة على أربع زوجات . ومن ذلك قوله تعالى « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم » ، وغير ذلك كثير من الأحكام .

وأما قصد التيسير على الناس فهو مستبين فى جميع أحكامها واضح فى كل دلائلها ظاهر فى خلق من جاء بها وبينها وليس أدل على ذلك من قوله تعالى « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، فقد دل على أن إرادة اليسر إرادة عامة شاملة غير منقطعة لا تصاحبها إرادة العسر فى أى زمن أو أية حالة . ومن قوله تعالى لرسوله « ونيسرك لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى » ، أى نعدك ونهيئك للشريعة اليسرى السهلة الهينة التى لا تضنى ولا ترهق فذكر الناس بها . ولقد تمكن ذلك من نفسه حتى كان من أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، فيما ذكرته عائشة أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما وقد . روى عنه أنه واصل الصيام أياما ثم تركه ونهى عنه مخافة أن

يأتسى به الناس فى ذلك. وكان يترك العمل وهو يحب أن يعمله خشية أن يظن الناس وجوبه فيعسر عليهم فعله.

وقال: «خذوا من العمل ما تطيقون» وقال: إذا «أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم» إلى غير ذلك من أقواله وأفعاله التى تدل على أن التيسير على الناس من أهم أغراض الشريعة وأعظم قواعد الدين.

وعلى هذا الأساس كان التكليف فى الشريعة على حسب الوسع وكان الأمر فيها على قدر الطاقة وجانبت فى أحكامها الحرج والمشقة يدل على ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة «لا تكلف نفس إلا وسعها». «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» وفى سورة المائدة «لا نكلف نفساً إلا وسعها». «ما يريد الله ليجعل عليكم فى الدين من حرج» وفى الحج «وما جعل عليكم فى الدين من حرج» وفى سورة النساء «يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا» ويقول الرسول: بعثت بالحنيفية السمحة. أى المائلة عن الضلال السهلة اليسيرة التى بنيت على القصد والتوسط لا تنتهى بأهلها إلى الانقطاع عنها والوقوف دون غايتها عجزاً عن متابعتها. وعلى هذا الأساس روعيت فيها الأعذار الطارئة التى يشق معها الحكم ويتعاسر، فرفع أو استبدل بما هو أيسر منه. ولذا أبيح للمكره أن يتلفظ بالكفر وقلبه مطمئن بالإيمان. وأبيح أكل الميتة وشرب الخمر عند الضرورة. وأبيح الفطر فى السفر وعند المرض فى رمضان. وقصرت الصلاة فى السفر. وكان من قواعد هذه الشريعة «الضرورات تبيح المحظورات»، وعليها بنى كثير من الأحكام.

ومن مظاهر هذا التيسير والقصد، إليه التدرج فى بيان هذه الشريعة وفى تكليف الناس ببعض أحكامها حتى لا يرهقوا بتكاليفها دفعة واحدة، ولا يمنعهم مطالبتهم بترك ما اعتادوه مرة واحدة، فأنزل القرآن مفرقا على حسب الحوادث ومقتضيات الأحوال والظروف فى مدة بلغت ٢٢ سنة نزل فيها تباعا فيما يحدث من وقائع تتطلب حكما، أو أحوال تقتضى بيانا، وكذلك كان شأن السنة، لم يأتهم بها الرسول إلا مفرقة مجزأة على حسب مقتضيات الأحوال وتطلب الظروف. وكذلك روعى هذا التدرج فى التكليف ببعض الأحكام فلم تحرم الخمر على الناس من غير تمهيد لذلك التحريم، بل أعدت له النفوس قبل نزوله بأن بين أن إثمها أكبر من نفعها، ثم حرمت عند الصلاة، ثم حرمت بعد ذلك تحريما نهائيا. وبهذا التدرج لم يواجه الناس جميع التكاليف دفعة واحدة، ولم يطالب إليهم عمل شىء إلا بعد أن هيئت نفوسهم له واستعدت لامتثاله حتى لا يشق عليهم فعله.

وكان من مظاهر هذا التيسير أيضا قلة التكاليف فيها، فإذا نظرت فى القرآن رأيت أن ما يحويه من الأوامر والنواهى قليل العدد قليل التفصيل يسير التنفيذ لا يرهق تنفيذه ولا يشق احتماله. ولكيلا تكثر التكاليف بسبب المسألة والإلحاف فيها، نهى عن السؤال فقال: «يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم، عفا الله عنها والله غفور حليم. قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين» وقد نزلت هذه الآية

حين كان الرسول يبين للناس فريضة الحج فقام إليه رجل فقال: أكل عام يا رسول الله فأعرض عنه فكرر الرجل السؤال ثلاثا: وفى كل مرة يعرض عنه، حتى قال له فى الرابعة: « لا، والذى نفسى بيده لو قلت نعم لوجبت. ولو وجبت ما استطعتم، ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ».
وفى ذلك يقول الرسول أيضا: « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وعفا عن أشياء رحمة بكم لا عن نسيان فلا تبحثوا عنها ».

ومن مظاهر التيسير أيضا درء الحدود بالشبهات حتى لا يقام حد مع شبهة تشكك فى وجوبه لأن فى إقامة الحد مع الشبهة حرجا يثيره احتمال البراءة وعدم اطمئنان النفس إلى استحقاق العقوبة، ولذا قال الرسول « ادرءوا الحدود بالشبهات ما استطعتم » كما كان من آثاره احتمال الضرر لدفع ما هو أعظم منه، فإن فى دفعه إزالة ضرر لنا عنه مندوحة. على هذا الأساس بنيت أحكام كثيرة كإيجاب النفقة على القريب، وإجبار المدين على الوفاء، وإجبار الشفيع على تملك ما زاده المشترى فى العقار المبيع، وإلزام الزوجة بطاعة زوجها، وغير ذلك من الأحكام.

وأما العدل بين الناس فليس لأية شريعة منه مثل ما للشريعة الإسلامية فيه من حظ، فقد عنيت ببيان ما للناس من حقوق فحافظت عليها وسنت الأحكام الكفيلة بردها إلى أصحابها، حتى أمن الناس بها على أنفسهم وأعراضهم ودينهم وأموالهم وحقوقهم واطمأنوا إلى الاستمتاع بها فى حدود ما شرعت من أحكام، وما سنت من نظام وكان من أسسها التزام العدل فى جميع الأمور فى القول والفعل وفى المعاملة والمجازاة قال تعالى: « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » وقال « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى » وقال « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ».

وكان من آثار قيامها على العدل أن جعلت الناس أمامها سواء، فهم فيها سواسية غنيهم، وفقيرهم، وكبيرهم، وصغيرهم، وأميرهم، وسوقيهم، لا يرتفع فيها أمير على حكم ولا يفلت من جزاء، وفى ذلك يقول الرسول: « الناس سواسية كأسنان المشط » ويقول حين شفع إليه أسامة فى حد من حدود الله: « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ».

وبقيام الشريعة الإسلامية على هذه الأسس سايرت الزمن ووسعت التطور وصلحت لكل أمة ولاءمت كل وقت ولم ينب بها مكان، ولكن الناس جهلوا أصولها ولم يعرفوها على وجهها فانصرفوا عنها إلى غيرها فضلت بهم السبل فلم يصلوا إلى غايتهم المرجوة ولا إلى كمالهم المطلوب.

على الخفيف

مناهج الفقهاء الأئمة فى التشريع

لصاحب الفضيلة الدكتور أحمد أمين

اتفقت كلمة المشرعين على أن أصول الأحكام الكتاب والسنة والإجماع والقياس وإن اختلفوا فى الاعتماد والتفسير لبعض هذه المصادر . فتلا يعتمد الإمام أحمد بن حنبل على الحديث كل الاعتماد ، ويجمع فى مسنده نحو ستة آلاف حديث ، يبنى عليها أحكامه الفقهية ، على حين أن أبا حنيفة لم يصح عنده إلا نحو تسعة عشر حديثاً ، كما يخبرنا بذلك ابن خلدون . ويضيق الإمام مالك فكرة الإجماع ويقصرها على إجماع أهل المدينة ، على حين أن غيره من الأئمة يجعل الإجماع عاما لجميع المسلمين ، استناداً إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » ويتوسع أبو حنيفة فى القياس حيث يضيقه أحمد ابن حنبل . وهكذا تختلف منازعهم ، وإن اتفقوا على الأصول الأربعة . وعدا ذلك اختلفت منازع الأئمة فى التشريع . وكان لابد من اختلاف اتجاهاتهم فإن الأحكام الواردة فى القرآن والسنة أكثرها أحكام كلية ، مثل « لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده » ومثل « لا ضرر ولا ضرار » وهكذا . وقد واجه الأئمة بعد فتح الأمصار حالات كثيرة جديدة ، لم تكن معروفة فى جزيرة العرب . ففى العراق واجهوا مسائل الرأى الناشئة عن دجلة والفرات ، واجهها أبو حنيفة ، ثم من بعده تلميذاه أبو يوسف ومحمد . وفى مصر واجه الشافعى مشاكل الرأى الناشئة عن النيل ، هذا إلى مشاكل المعاملات والجنايات .

ولكل قطر عاداته فى المعاملات والجنايات . ومن أجل ذلك كان للشافعى مذهبان : قديم وجديد ؛ قديم قبل أن يدخل فى مصر ، وجديد استدعته أحوال مصر . ولذلك أود أن يتجه بعض الناشئين الباحثين ، فيقارنوا بين مذهبه القديم والجديد ، ليعرفوا إلى أى حد غيرت مصر من مذهبه القديم ، ويعرفوا الحالة الاجتماعية التى استدعت ذلك .

هذا إلى أن كثيراً من الأمم التى دخلت تحت حكم الإسلام كالفرس والروم كانت لهم عادات خاصة ، فلما دخلها الإسلام كان لابد أن يعرضوها على الأئمة ، ليعرضها هؤلاء بدورهم على الأصول الكلية للإسلام ، ويقروها أو يحكموا ببطلانها .

وأسباب الخلافات بين الأئمة ترجع إلى عوامل كثيرة . منها صحة حديث عند بعض الأئمة فى بعض الأقطار ، وعدم صحتها عند الآخر . ومنها فهم الإمام لآية وحديث حيث لا يفهم الإمام الآخر هذا المعنى منهما ، ومنها أن أحد الأئمة يشترط شروطا كثيرة فى قبول الحديث حيث لا يشترطها الإمام الآخر ، ومنها تأثر الإمام

إلى درجة كبيرة بالبيئة التي يعيش فيها ، حيث يتأثر الآخر ببيئة غيرها . ومنها ثقافة كل إمام وإن كان كلهم مثقفين ، إلا أنه مهما كانت ثقافتهم فإن كلا منهم يختلف عن الآخر في نوع الثقافة ومقدارها : فمثلا الإمام مالك متأثر ببيئة المدينة حيث كان يسكن رسول الله ، ومخالف للصحابة الذين كانوا يعيشون حوله ، وكان يقدرهم تقديراً كبيراً حتى جعل الإجماع الذي يعتد به هو إجماعهم . ووجوده في المدينة مكنه من معرفة الأحاديث الصحيحة التي اعتمد عليها في كتابه الموطأ . ولكن من ناحية أخرى ، كان وجوده هذا في المدينة سبباً في عدم اطلاعه على المدنيات الأخرى ومعاملاتها وجناياتها ، كالتي اطلع عليها أبو حنيفة في العراق والشافعي في مصر . والشافعي مثلا تلميذ الإمام مالك ، ومتأثر به ، ومطلع أكثر من الإمام مالك على المدنيات الأخرى التي رآها في مصر والعراق ، ومما امتاز به اهتداؤه إلى علم الأصول ووضعه له ، ثم استنباطه الأحكام على وفقه ، مما لم يصل إليه إمام آخر.

ولذلك كان مذهبه أكثر المذاهب انطباقاً على المنطق بعكس الأئمة الآخرين ، فإنهم كانوا يعتمدون على فهمهم لآيات الأحكام وأحاديثها ، وكان الاستنباط كالملكات في نفوسهم ، فجاء الشافعي ، فوضع تلك الأصول والتزمها والشافعي كما تدل عليه رسالته في الأصول يقدّر السنة تقديراً عظيما ، لأنها في كثير من الأحوال مبينة للكتاب ، مفصلة لمجمله . وقد نفعه في ذلك دراسته الموطأ على الإمام مالك ، وملاقاته مشاهير المحدثين في بغداد ومصر .

وملخص منهجه أنه إذا عرض له أمر ، بحث عنه في الكتاب ، فإن لم يجده بحث عنه في السنة ، وإذا وجده في الكتاب مجملا ، بحث عنه في السنة مفصلا . ولذلك يجعل الشافعي العلم بالسنة في مجموعها في مرتبة القرآن ، ويعني بذلك الحديث الذي ثبتت صحته ، إذ قيّد السنة التي في مرتبة القرآن بالسنة الثابتة ، فإذا لم يجد الحكم في كتاب ولا سنة اتجه إلى الإجماع ، فإن لم يجد إجماعاً ، التجأ إلى القياس . وقد عني الشافعي بدرس القياس وتحديده ، وقد حدده بالمثال ، ووضع قواعد معينة لاستعمال القياس .

أما أبو حنيفة فقد تشدد في الحديث الذي يقبله ، ولذلك قل اعتماده على الأحاديث كما ذكرنا ، واضطره ذلك إلى التوسع في القياس ، لأنه إذا لم يكن في المسألة العارضة حكم في الكتاب ولا في السنة ، اضطر إلى أن يلجأ إلى القياس ، فتوسع فيه أكثر من باقي الأئمة .

وأما أحمد بن حنبل ، فقد توسع في الحديث ما شاء الله أن يتوسع ، فلم يعتمد على القياس إلا قليلا ، ولم يتصور إجماعاً غير إجماع الصحابة.

وبجانب هؤلاء الأئمة الأربعة كان هنالك أئمة يتجهون اتجاهات مخالفة بعض الشيء . فمنهم من كان ينكر الحديث بتاتاً ، وقد حكى ذلك عنهم الإمام الشافعي نفسه في الأم . وأئمة رفضوا القياس بتاتاً ، ولم يعتمدوا إلا على النص . حكى عنهم ذلك الماوردي في كتابه « الأحكام السلطانية » ، كما فعل أهل الظاهر ، فأهل الظاهر

يرفضون القياس ولا يعتمدون إلا على النصوص. ويعتبرون أن النص إذا ذكرت علته، كان أخذ الحكم من هذه العلة بناء على النص لا بناء على القياس. ومع اعتمادهم جميعاً على الأصول الأربعة، وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، فإنهم واجهوا مسائل اضطروا فيها إلى الرجوع إلى العدالة، كما يقررها العقل، وهي التي كان يسميها القانون الروماني بقانون الطبيعة. وسماها كل إمام باسم خاص. فسماها بعضهم استحساناً، وسماها بعضهم استصلاحاً، وسماها بعضهم المصالح المرسلة.

وقد تعسف بعضهم فأرجعها إلى القياس، وسماها قياساً خفياً، مع أن العقل غير المتعسف يرى أنها ترجع إلى طبيعة المشرع في تقويم العدالة، وليست من قبيل القياس المعروف.

فنرى من هذا أن مناهج الفقهاء تكاد تكون متقاربة، لأن اختلافها إنما هو في التفصيلات لا في الأسس، على أنا لا ننكر أن السياسة لعبت دوراً كبيراً عند بعض الفقهاء، وأثرت في بعض آرائهم، فمثلا كان الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ رجلا كبير النفس، واسع العلم، ومع ذلك كان كثير الاتصال بالأمويين. فكان يسهل أحكامهم، ويمهد الأمور لسلطانهم. وربما كان يرى أن مسالمتهم وعدم الخروج عليهم، مما يجمع أمر المسلمين، ويوحد كلمتهم. وكان كثيرون يرون أن سوء العقيدة مع العمل والقوة خير من صحة العقيدة مع الضعف والظلم.

أما في الدولة العباسية فتدخلهم في التشريع ظاهر أكثر من ظهور ذلك في الدولة الأموية، فأولا رويت الأحاديث الكثيرة عن عبد الله ابن عباس، وأعلى شأنه كثيراً، وثانياً ظهر في التشريعات أشياء كثيرة، تخدم سياستهم التشريعية، كالتشديد على النصارى بلبس الزنار، وتميزهم بالملابس الخاصة، يدرك ذلك من دقق النظر في كتاب «الخراج» لأبي يوسف. وهذا التدخل السياسي في التشريع هو الذي كان السبب في رفض كثير من الأئمة تولي القضاء، وإن عذبوا وأهينوا، لأنهم متى قبلوا القضاء، فقد خضعوا للسلطة السياسية، وجاروها، وعملوا حسب رأيها.

على كل حال قد أفاد هؤلاء المشرعون بمناهجهم الإسلام فائدة كبيرة. والذي يريد أن يدرس فلسفة المسلمين الأصيلة وبعد نظرهم، وجدهم المضني، فليدرس المشرعين وتاريخهم، وفقههم، وأصولهم، فهنا يجد الإصالة التامة، حيث لا يجد ذلك في دراسته للفلسفة والفلاسفة المسلمين، فإنها تقليد لليونانيين، وليس فيها من الإصالة ما للمشرعين. ولو ظل باب الاجتهاد مفتوحا طول العصور، لرأينا العجب العجاب من نمو الفقه وتطوره، بما يناسب كل عصر؛ ولكنهم جازاهم الله على عملهم، ضيقوا في الدين واسعا، وحرموا على أنفسهم ما أحله الله. فكان كلام الخلف ليس إلا ترديداً لما قاله السلف. حتى في الأمثلة.

وليسوا يبيحون لأنفسهم أن يواجهوا مسألة جدت ولم يكن لها في الماضي نظير، ولا أن

اليوم أكملت لكم دينكم

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمود شلتوت
عضو جماعة كبار العلماء

قد رأينا أن تكون الآية التي نكتب عنها في العدد الأول بعد عيد الأضحى، هذه الآية الكريمة التي تعتبر أعظم ذكريات عيد الأضحى، الذي نزلت فيه والنبي صلى الله عليه وسلم يحج بالمسلمين حجة الفريضة وهي حجة الوداع التي لبّى بعدها نداء ربه.

والكلام عليها يتقاضانا نظرتين: إحداهما في تصوير الوقت والحال اللتين نزلت فيهما. وثانيتهما في بيان المراد من إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضاء الله الإسلام ديناً للمؤمنين.

وقياما بحق النظرة الأولى يجدر بنا أن نرجع إلى الوراء ونشير في إجمال إلى مراحل الدعوة المحمدية من جهة البيان والتشريع. ومن جهة النفوذ وإقرار السلطان.

بدأت الرسالة المحمدية بدعوة النـــاس إلى الإيمان بالله، وتطهير القلوب من الشرك والوثنية، وعبادة ما لا يسمع ولا يبصر، وإلى الإيمان بالوحي الذي ينظم به الله حياة الإنسان منفرداً ومجتمعاً، ويرسم له طرق القربى إليه، ويجمع هذا الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين، وإلى الإيمان باليوم الآخر، يوم البعث والجزاء الذي يحاسب فيه المرء على ما قدم من خير أو شر، والذي يخلق في الإنسان. معنى الضمير

يقدروا عمـــل الزمان في تغيير الأحداث والأحكام، فنحن أحوج ما نكون إلى طائفة مجتهدة تماشي العصر، وتشرع للزمان.

لقد ملىء العالم بانقلابات خطيرة في الصناعة، كالطيارات والغواصات والقطارات، والقنابل الذرية، والراديو والتليفزيون، وغير ذلك من آلاف المخترعات، وكلها تتطلب تشريعات جديدة، فمثلا الطائرات تقتضي بحثا في مدى ملكية الأمة اسمائها، وهل يجوز لطائر من أمة أن يطير بطائرته في سماء أمة أخرى من غير إذنها، ونحو ذلك من مشاكل. وكثيرا ما كان الشيخ محمد عبده رحمه الله يستفتى في مسائل جديدة تواجه المسلمين، كلبس البرنيطة وإيداع المال في صناديق التوفير، وأكل ذبائح النصارى، ونحو ذلك، فكان يجتهد، ويشنّع عليه في اجتهاده. ولولا اجتهاده هذا لحار المسلمون في أمرهم.

أما هذا الجمود، وإغلاق العين عما يحصل، فنتيجته إهمال الساسة الفقه الإسلامي، والاتجاه إلى غيره من القوانين الغربية. كما حدث في عهد الخديو إسماعيل، فقد روى أنه طلب من جمهرة من العلماء أن يجمعوا له الأحكام من سائر المذاهب المختلفة، ولا يتقيدوا بمذهب واحد، وأن يعدلوا عن بعض المسائل في مذهب إلى غيرها أصلح منها في مذهب آخر، فلم يقبلوا، فاضطر إلى التشريع على أساس القانون الفرنسي، وإنشاء المحاكم الأهلية. فكان ذلك ضربة كبرى على التشريع الإسلامي.

ولو كان مصطفى كمال قد رأى من علماء المسلمين مرونة واجتهاداً ما التجأ إلى القوانين الأوروبية ينقلها بحذافيرها من غير مراعاة لوطنه.

ومن هذا نرى أننا نحتاج إلى ثورة فقهيـة، وثورة أدبية بجانب الثورة السياسية والله الموفق.

أحمد أمين

اليوم أكملت لكم دينكم

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمود شلتوت
عضو جماعة كبار العلماء

قد رأينا أن تكون الآية التى نكتب عنها فى العدد الأول بعد عيد الأضحى، هذه الآية الكريمة التى تعتبر أعظم ذكريات عيد الأضحى، الذى نزلت فيه والنبى صلى الله عليه وسلم يحج بالمسلمين حجة الفريضة وهى حجة الوداع التى لقى بعدها نداء ربه.

والكلام عليها يتقاضانا نظرتين: إحداهما فى تصوير الوقت والحال اللتين نزلت فيهما. وثانيتهما فى بيان المراد من إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضاء الله الإسلام ديناً للمؤمنين.

وقياما بحق النظرة الأولى يجدر بنا أن نرجع إلى الوراء ونشير فى إجمال إلى مراحل الدعوة المحمدية من جهة البيان والتشريع. ومن جهة النفوذ وإقرار السلطان.

بدأت الرسالة المحمدية بدعوة النـــاس إلى الإيمان بالله، وتطهير القلوب من الشرك والوثنية، وعبادة ما لا يسمع ولا يبصر، وإلى الإيمان بالوحى الذى ينظم به الله حياة الإنسان منفرداً ومجتمعاً، ويرسم له طرق القربى إليه، ويجمع هذا الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين، وإلى الإيمان باليوم الآخر، يوم البعث والجزاء الذى يحاسب فيه المرء على ما قدم من خير أو شر، والذى يخلق فى الإنسان. معنى الضمير

يقدروا عمـــل الزمان فى تغيير الأحداث والأحكام، فنحن أحوج ما نكون إلى طائفة مجتهدة تماشى العصر، وتشرع للزمان.

لقد ملىء العالم بانقلابات خطيرة فى الصناعة، كالطيارات والغواصات والقطارات، والقنابل الذرية، والراديو والتليفزيون، وغير ذلك من آلاف المخترعات، وكلها تتطلب تشريعات جديدة، فمثلا الطائرات تقتضى بحثا فى مدى ملكية الأمة لسمائها، وهل يجوز لطائر من أمة أن يطير بطائرته فى سماء أمة أخرى من غير إذنها، ونحو ذلك من مشاكل. وكثيرا ما كان الشيخ محمد عبده رحمه الله يستفتى فى مسائل جديدة تواجه المسلمين، كلبس البرنيطة وإيداع المال فى صناديق التوفير، وأكل ذبائح النصارى، ونحو ذلك، فكان يجتهد، ويشنع عليه فى اجتهاده. ولولا اجتهاده هذا لحار المسلمون فى أمرهم.

أما هذا الجمود، وإغلاق العين عما يحصل، فنتيجته إهمال الساسة الفقه الإسلامى، والاتجاه إلى غيره من القوانين الغربية. كما حدث فى عهد الخديو إسماعيل، فقد روى أنه طلب من جمهرة من العلماء أن يجمعوا له الأحكام من سائر المذاهب المختلفة، ولا يتقيدوا بمذهب واحد، وأن يعدلوا عن بعض المسائل فى مذهب إلى غيرها أصلح منها فى مذهب آخر، فلم يقبلوا، فاضطر إلى التشريع على أساس القانون الفرنسى، وإنشاء المحاكم الأهلية. فكان ذلك ضربة كبرى على التشريع الإسلامى.

ولو كان مصطفى كمال قد رأى من علماء المسلمين مرونة واجتهاداً ما التجأ إلى القوانين الأوربية ينقلها بحذافيرها من غير مراعاة لوطنه.

ومن هذا نرى أننا نحتاج إلى ثورة فقهية، وثورة أدبية بجانب الثورة السياسية والله الموفق.

أحمد أمين

الديني الذي يحول بينه وبين ارتكاب الفسوق والعصيان ، إن لم يكن خوفا من جلال الله وجماله ، فطمعاً في وعده وثوابه ، أو خشية من غضبه وعقابه ، وبالدعوة إلى مكارم الأخلاق التي تحقق معنى الإنسانية الفاضلة التي تربط الناس بروابط المحبة والرحمة والتعاون والتواصي بالحق والتواصي بالصبر . وما إلى ذلك من الخلال التي تفتح للناس أبواب الخير والسعادة ، وتسد دونهم منافذ الشر والشقاء .

عني الرسول (ص) وهو في مكة بتطهير الباطن وإصلاح النفوس عن هذا الطريق حتى إذا ما كمل له ذلك تتابع عليه الوحي بالتشريعات العملية ، التي تنظم الأسر ، وتنظم شئون المجتمع ، وتحفظ كيان الدولة من التأثر بمكائد الأعداء وعدوانهم على الحق والفضيلة . وقد هاجر في سبيل ذلك إلى المدينة التماساً للتربة الخصبة التي ينمو فيها غرسه ، ويثمر ثمراته الطيبة ، وما زال يجاهد ويكافح حتى هيأ الله له فتح مكة ، فعاد إليها هو وصحبه بعد أن أخرجوا منها ، ودخلوا المسجد الحرام بعد أن صدوا عنه ، وحالفهم نصر الله وتأييده فيما حصل بعد الفتح من وقائع وحروب حتى كانت السنة التاسعة من الهجرة فأمّر عليه الصلاة والسلام صاحبه أبا بكر على المسلمين في أداء فريضة الحج لأول مرة يؤدونها بصفة عامة بعد أن خلص لهم السلطان على مكة وعلى مشاعر الحج كلها ، وكانت فلول المشركين المتفرقة في شبه الجزيرة لا تزال تقصد بيت الله الحرام لتؤدي مناسكها على منهاجها الجاهلي : شرك في السجود ، شرك في التلبية ، عُري في الطواف .

ولذلك كان من غير الممكن ان يخرج الرسول وهو مقوّض دعائم الشرك والوثنية ، والداعي إلى التوحيد ، والمكلف من قبل ربه بتطهير البيت من نداء غير الله ، ومن مخالفة أوامر الله ، وبالتزام المناسك التي شرعها الله . فكان لابد من العمل أولا على تطهير البيت من هذه العبادة الشركية التي زل بها العقل البشري ، وأودت بكرامة الانسان ، والتي كانت في حقيقتها ومعناها تمثل بما لها من تقاليد فاسدة ، وعادات منكرة أخس نظام عرفه البشر إلى يومنا هذا ، كان فيه وأد البنات وإكراههن على البغاء ، وعضلهن عن التزوج طمعا في مالهن ، كان فيه استغلال حاجة المحتاجين في أقبح صور الاستغلال ، كانت فيه الإباحة الخلقية والجنسية إلى غير حد تخجل منه الانسانية . ولاريب أن الشرك بما يحمل في طياته من هذه الشرور والمآثم ثورة جامحة على الإيمان وما يحمل في طياته من خير وصلاح . وليس من المعقول أن يبقى منبع الشر إزاء منبع الخير العام ، وإلا اضطرب الخير واستهدف لتيارات الشرك ، والتوت به طرق الهدى والصلاح .

كما أنه ليس من المعقول وقد وقف المشركون مع المؤمنين الموحدين هذه المواقف الشديدة التي قصها التاريخ علينا - والتي كان منها صدهم عن المسجد الحرام ، والسخرية منهم في عبادة الواحد ، - أن يتركوا ينفثون غازاتهم السامة في جو الإيمان الطاهر النقي ، ومن ذلك كان لابد أن يسبق خروج النبي لأداء فريضة الحج عملية

التطهير والقضاء على مظاهر الفساد ، وانتزاع أصول الشر حتى تسلم الكلمة لله ، ولأولياء بيته الحرام « وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ، إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون . وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » .

ولهذا اقتضت الحكمة أن يخرج أبو بكر رضى الله تعالى عنه فى السنة التاسعة على رأس المسلمين لتأدية فريضة الحج ، ولم يكد يصل إلى أماكن المناسك حتى نزلت أوائل سورة براءة تعلن كلمة الإسلام النهائية فى علاقة المشركين بمكة وفى زيارة بيت الله الحرام ، فيرسل النبى صلى الله عليه وسلم ابن عمه عليا ليبلغ الناس عنه هذه الآيات ويؤذن بها فيهم يوم الحج الأكبر ، فيلحق علىّ بأبى بكر ويجتمع بالناس فى يوم النحر عند جمرة العقبة بمنى ، وينادى : يا أيها الناس إنى رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم ، فيقولون : بماذا ؟ فيقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية هى أوائل سورة التوبة ، ومنها : إعلان التصفية النهائية بين أهل التوحيد والشرك ، وبين أهل العدل والظلم ، وبين أهل الوفاء والخيانة ، وفيها رفع العصمة عن المشركين فى أنفسهم وأموالهم ، وقطع ما بينهم وبين الله من صلات « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » .

« يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ، إن شاء إن الله عليم حكيم » . وفى هذه الآيات الإهابة بالمؤمنين إلى قطع ما بينهم وبين المشركين من ولاية القربى وصلات الرحم ، إيثارا للحق على الباطل ، وإيثارا لرضا الله عن مقتضى العاطفة والهوى فتسلم الدعوى ، ولا ينفذ إلى صفوف المسلمين شىء من عوامل التفرق والانقسام .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ؛ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » . ثم لا يفوت الآيات وهى تركز للمؤمنين شأنهم وتضع لهم قواعد العز والسيادة ، أن تحذرهم من مجاراة غيرهم فى الاغترار بزخارف الدنيا وأكل أموال الناس بالباطل ، والضن بإنفاقها فى سبيل الله ، فتوجه إليهم هذا الخطاب المصحوب بالإنذار الشديد لمن يسلك منهم هذا السبيل « يا أيها الذين

آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هـذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

يتلو عليٌّ هذه الآيات على حجاج بيت الله مسلمهم ومشركهم إنذاراً وتحذيرا ، وتعليما وإرشاداً ، ثم يقول : أمرت بأربع : لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته . وبذلك التبليغ أعلنت حكمة الإسلام النهائية فى شبه الجزيرة ، وتمت التصفية بين الشرك والإيمان ، وتركزت قوى الخير ، وولت قوى الشر ، مبعثرة فى الفيافى والقفار تتوارى من ضغط الحق وسلطانه . وقد أثمر هذا التبليغ ثمرته الطيبة المباركة من الجهة الإيجابية ، فلم يكد يرجع الناس إلى بلادهم وينتشر بواسطتهم أمر هذا التبليغ ، ويصل إلى أطراف البلاد ، حتى ازدحمت المدينة بوفود القبائل الباقية على الشرك ، معلنة إسلامها وانضواءها تحت راية التوحيد والعدل . وبهذا تمت حكمة ربك للموحدين ، وهكذا يفعل الحزم ، وتفعل أوامر الحازمين ، القادرين على تنفيذ ما رسموا لصالح الإنسانية ، وحسبهم أن يعلنوا أمرهم ، وإن فى إعلان الأمر من المؤمن الحازم لأعظم غناء عن توقيع العقوبة التى يكفى إعلانها فى تطهير الجو من أسبابها .

بهذا شرح الله صدر رسوله ، واطمأن قلبه على أن بلغ رسالة ربه ، وتوجهت نفسه الكريمة إلى زيارة البيت الحرام ، ليقدم الشكر والقربان بنفسه ، ويتعلق بأستار مولاه الذى نصره وأعزه وعصمه ، حتى أوفى على الغاية ، وكأنه عليه الصلاة والسلام أراد بعد أن أدى رسالة ربه ، وقام بمهمته ، أن يعود فيقف بين يدى مولاه واضعاً نفسه تحت أمره وتصريفه ، فيخرج على رأس جمع من المسلمين ، ويحرم للحج ، وينطلق صوته بالتلبية : لبيك اللهم لبيك . لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . ثم يطوف بالبيت ويستلم الحجر الأسود ، ويصلى ركعتين عند مقام ابراهيم الذى كان البيت أثراً من آثاره ، وكانت بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم أثرا من آثار دعوته « وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » . ثم يسعى بين الصفا والمروة ويقول كلما صعد الصفا : « لا إله إلا الله

الله أكبر ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

ثم يتوجه إلى عرفات ويقف على رأس الحجيج خاشعا ضارعا ، وداعيا ملبيا ، وفى هذه الوقفة التاريخية فى حياة الإسلام خاصة ، وفى حياة الإنسانية جميعا ، يقف محمد وقد بلغ ما أراد الله بصبره وجهاده وإخلاص المؤمنين معه ، فيخطب الناس هذه الخطبة الجامعة التى توج بها تبليغه لرسالة ربه وأحكام دينه ، وكان مما جاء فيها :

أما بعد أيها الناس ، اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا .

أيها الناس . إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

أيها الناس . إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس . إن لنسائكم عليكم حقا ، ولكم عليهن حقا ، ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن ، وتهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

أيها الناس . إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد . فلا ترجعن بعدى كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله . ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

أيها الناس . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

وهكذا أخذ يلقى عليهم ما يفيض الله به عليه من مبادىء الحياة الطيبة ، والسعادة الخالدة ، ومعانى العزة والكرامة . وأين من هذه الخطبة وما احتوت عليه من حقوق الإنسان ما يطنطن به اليوم قادة الشعوب ، وفلاسفة الاجتماع مما يسمونه « حقوق الإنسان » ، ويعقدون لبحثها المؤتمرات ، وتهتز بها الأسلاك ، والإنسان هو الإنسان منه الظالم الفاتك ، والمتجبر الطاغى ، والغنى الكنود ، منه المظلوم الضعيف ، والمستخذى أمام الجبروت ، والمتضور جوعا يلتحف السماء ويفترش الغبراء .

هذه هى حقوق الإنسان ، كما رسمها الله لنبيه محمد ، وأعلنها منذ أربعة عشر قرنا فعليهم إن كانوا جادين فى قيادة الشعوب إلى الرخاء والسلم أن يتدبروها ، وأن يعلنوها للناس مرة أخرى بنصها وأبحاثها ، مقترنة بالعزيمة الصادقة ، والقوة الحازمة ، فينعم الناس بخيرها ، وتذكرهم الإنسانية عند ربها ، ويكونوا بحق ، قادة الأمم

والشعوب ، وبدون هذا سيظلون يخطبون ويسكتون ، ويجتمعون وينفضون ، ولا رائد لهم سوى مصالحهم الشخصية . أو الجنسية ، والإنسان هو الإنسان ، منه الظالم ومنه المظلوم .

فى هذا الجو الذى اتصلت به رحمة السماء بالأرض ، وكثر فيض الله على عبده محمد ، بما ينظم به الناس حياتهم ، ينزل عليه قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » . وفيها يروى أئمة الحديث أن اليهود قالوا لعمر : إنكم تقرءون آية فى كتابكم لو علينا معشر اليهود أنزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال عمر : وأى آية ؟ قالوا : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » قال عمر : إنى والله لأعلم اليوم الذى نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه والساعة التى نزلت فيها ، نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة ، والحمد لله الذى جعله لنا عيدا واليوم الثانى يوم النحر .

هذه هى النظرة الأولى التى تصور لنا الوقت والحال اللتين نزلت فيهما الآية الكريمة . وبها يتبين أنها نزلت بعد أن تمت مراحل الجهاد المحمدى فى نشر الدعوة وتبليغ الرسالة ، وبعد أن تغلغلت هذه الدعوة فى قلوب من وصلت إليهم ودخلوا بها فى دين الله أفواجا ، وبعد أن توج محمد رسالة ربه بهذه الخطبة الجامعة لكثير من الأحكام والشرائع التى لابد منها فى سعادة الناس ، وطيب حياتهم وحصولهم على رضا الله وقبوله . ونحن إذا نظرنا إلى الآية التى قبلها وهى قوله تعالى : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون » ونظرنا إلى السورة التى نزلت فيها لوجدنا شواهد تعيين الوقت والحال اللتين نزلت فيها الآية بينة واضحة ، وكثيرة متعددة . فالآية التى قبلها تقرر يأس المشركين من أطماعهم فى فتنة المسلمين عن دينهم ، وفى وقوف دعوتهم ، وفى رجوعهم إلى ماهم فيه من الشرك والوثنية ، وعبادة غير الله ، والسورة من جهة أخرى تعنى عناية تامة بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين خاصة فى ستة عشر موضعاً ، تقرر فى كل نداء حكما من الأحكام ومبدأ من المبادىء التى يأخذ المسلمون بها أنفسهم فى خاصة حياتهم ، وفى علاقتهم بمن يجاورون من أهل الكتاب ، ولا تعرض فى شىء مما اشتملت لذكر الشرك والمشركين ، كما لا تعرض لذكر قتالهم ، ولا معاملاتهم ، ولا ريب أن كل ذلك مما يدل دلالة واضحة على أن الجو الذى نزلت فيه هذه الآية « اليوم أكملت لكم دينكم » هو جو القوة والسيطرة العامة ، وخلوص الأمر للمسلمين ، والبلوغ برسالة الله إلى أقصاها . ومن هنا كان يوم نزولها عيداً عند المسلمين وأى عيد ؟ يذكرون بها فضل الله عليهم فى التمكين والتشريع .

أما النظرة الثانية وهى النظرة الجوهرية المتعلقة بمعنى إكمال الدين وإتمام النعمة ، فوعدنا بها العدد المقبل إن شاء الله ،

محمود شلتوت

جهود الفقهاء فى التشريع

لصاحب الفضيلة الأستاذ عبد الوهاب خلاف
أستاذ الشريعة بكلية الحقوق

أول ما يسترعى النظر من تاريخ المسلمين فى فجر الإسلام أن كل مسلم كان يعد نفسه جندا لخدمة الإسلام والمسلمين فى الميدان الذى يشعر أنه أهل للقيام بالواجب فيه. وكان كل مسلم جنديا فى ميدانه متطوعا يقوم بواجبه بوازع من دينه وضميره لا بتكليف من غيره. وبهذا الشعور كانت ميادين العمل وكل مصالح الدولة مليئة بالعاملين. ولم يخل ميدان من ميادين الإصلاح والنهوض من أيد مجندة تتسابق فيه. وبهذا خطت الدولة الإسلامية فى سنوات قليلة خطوات بعيدة المدى فى ميادين المجد السياسى. والعلمى. والاقتصادى. فبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم شعر المسلمون أن عليهم واجبا أن ينشروا دعوته. وأن يواصلوا سعيه وجهوده لإعلاء كلمة التوحيد وهداية الناس بهدى الإسلام.

فأهل البسالة والقوة والحرب والقتال منهم تجندوا فى ميدان الغزو والجهاد وكوّنوا الجيوش الإسلامية لدعوة الناس إلى الإسلام والدفاع عن المسلمين. وأهل العلم والفقه والقرآن والسنة منهم تجندوا فى ميدان الاجتهاد والاستنباط والتشريع والتقنين. وأهل الولاية والإمارة والسياسة منهم تولوا تدبير الشئون الإدارية والمالية فى الأمصار. وكل من آنس من نفسه أهلية وكفاءة للقيام بواجب للإسلام والمسلمين تصدى للقيام به، حتى كانت نهضة المسلمين فى القرون الهجرية الأول والثانى والثالث ظاهرة عجيبة حار فى تعليلها المؤرخون وبلغ المسلمون فيها إلى غاية فى المجد السياسى والعلمى والمالى لم تبلغها دولة غيرها. وكانت فتوح الجيوش فى الاستيلاء على البلدان وفى بسط السلطان يسايرها فتوح علماء الفقه والتشريع فى الاجتهاد والتقنين، وفتوح الولاة والأمراء فى تنمية موارد الدولة ووفرة الثراء. وكان الانتصار فى كل ميدان من هذه الميادين انتصارا فى الميادين كلها. وقادة كل ميدان يشعرون أنهم أعوان متضامنون مع قادة الميادين الأخرى.

يتجلى هذا من النظرة فى تاريخ المسلمين بعد وفاة الرسول، ففى ميدان الغزو والجهاد كانت جيوش المسلمين تواصل فتوحها بقيادة أبى عبيدة وخالد بن الوليد والمثنى بن حارثة وسعد بن أبى وقاص وعمرو بن العاص ويتلقى راية القيادة قائد بعد قائد، حتى وصل عبد الله بن عامر والى البصرة وقتيبة بن مسلم شرقا إلى حدود الصين، ووصل موسى بن نصير وطارق بن زياد غربا إلى جبال أسبانيا، واستولى المسلمون على جزر البحر الأبيض المتوسط وصار هذا البحر بحيرة إسلامية.

وهذه الفتوح السياسية كانت تسايرها فتوح تشريعية وحركة اجتهادية بقيادة الخلفاء الراشدين وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت ثم سعيد ابن المسيب وأقرانه بالمدينة . وبقيادة عبد الله ابن عباس ثم تلاميذه بمكة . وبقيادة عبد الله ابن مسعود ثم تلاميذه بالكوفة . وعبد الله ابن عمرو بن العاص ثم تلاميذه بمصر . وكانت ميادين الغزو عامرة بالانتصار تلو الانتصار . ومساجد الأمصار عامرة بالعلم والفقه والتشريع والاستنباط ، فقادة الجيوش بسطوا سلطان الإسلام ورفعوا رايته على كثير من البلدان ، وقادة التشريع سدوا حاجات المسلمين وسايروا مصالحهم ، وأقاموا البراهين على أن الإسلام لا يضيق بحاجة ولا يقصر عن مصلحة وأنه كلما اتسعت فتوح المسلمين اتسع التشريع الإسلامى وان اختلفت الأجناس والبيئات والنظم والمعاملات وإن نمت موارد الدولة وزاد ثراؤها . وبهذا التعاون والتضامن بين جيوش الميادين الثلاثة عزت الدولة ونهضت وتوافرت لها الدعامات التى تقوم عليها نهضة الأمة وهى : القوة والعلم والمال .

وهذه كلمة موجزة فى ميدان التشريع الإسلامى وبعض جهود الأئمة المجتهدين فيه .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته مرجع المسلمين فى جميع شئونهم الدينية يستفتونه فى وقائعهم ويسألونه عما يعرض لهم . ويقضى بينهم فى خصوماتهم . ولما توفى لم يكن أصحابه كلهم أهلا للفتيا . ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم بل كان فيهم الخاصة العارفون بالقرآن والسنة الفاهمون روح التشريع بما تلقوه من رسول الله وما شاهدوه من قضائه وفتاويه . وفيهم العامة الذين يحتاجون إلى من يستفتونه ويسألونه . وكذلك لم يكن القرآن مدوناً ومنشوراً بحيث يتيسر لكافة المسلمين الرجوع إليه، بل كان مدوناً فى صحف محفوظة عند أبى بكر ثم عند عمر ثم عند حفصة . والسنة لم تكن مدونة أصلا. وقد حدثت للمسلمين بعد الرسول وقائع ووقعت حوادث لا نص على أحكامها فى القرآن أو السنة ، لهذه الأسباب رأى علماء الصحابة أن عليهم واجباً تشريعيا أن يخلفوا رسول الله فى إفتاء المسلمين والقضاء بينهم وأخذ الدين عنهم ، فتصدوا لبيان نصوص القرآن والسنة ، والإفتاء فيما لا نص فيه. ولم يكتسبوا هذا السلطان التشريعى من تعيين من الخليفة أو انتخاب من الأمة ، وإنما كسبوه بما امتازوا به من طول صحبتهم الرسول وحفظهم القرآن وروايتهم السنة ومشاهدتهم كثيراً من أقضية الرسول وفتاويه ومن مواهبهم فى العلم والفهم ، فلهذه المميزات تصدروا لتولى السلطة التشريعية ودان المسلمون لهم بهذا وتفرقوا فى أمصار المسلمين لأداء هذا الواجب التشريعى فكان فى كل مصر إسلامى رءوس من الصحابة هم مرجع الولاة والأفراد والجماعات فى معرفة حكم الشريعة فيما يعرض وما يحدث من الوقائع وفى كل مصر التف حول من فيه من أهل الفتيا من الصحابة رءوس من التابعين أخذوا عنهم القرآن ورووا عنهم السنة ومارسوا

استنباطهم الأحكام فيما لا نص فيه وخلفوا الصحابة فى القيام بهذا الواجب وتصدوا لإفتاء المسلمين والتشريع فيما يعرض لهم . والتف حول أهل الفتيا من التابعين رءوس من تابعى التابعين أخذوا عنهم علمهم وفقههم وتصدوا للتشريع والتقنين . وعن هؤلاء أخذ الأئمة المجتهدون فى القرنين الهجريين الثانى والثالث ، فكان رجال التشريع فى الأمصار يخلف خلفهم سلفهم ، وبعد كل طبقة منهم تلاميذ لمن قبلهم وأساتذة لمن بعدهم ، والمسلمون واثقون بهم ويأخذون عنهم طيبة نفوسهم وما شعر مسلم بقصور شريعته عن مصلحة من مصالحه . وما ضاقت هذه الشريعة عن حاجات المسلمين مع تعدد أجناسهم وبيئاتهم وبلدانهم ومع تعدد ما خلفته امبراطورية الفرس والرومان من نظم وعقود ومعاملات .

ففى المدينة أشهر أساتذة التشريع من الصحابة عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله ابن عمر وزيد بن ثابت . وأشهر تلاميذهم من التابعين ، سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وسائر فقهاء المدينة السبعة وأشهر تلاميذ هؤلاء ، محمد بن شهاب الزهرى ويحي بن سعيد . وأشهر تلاميذ هؤلاء ، مالك بن أنس وأقرانه ، وفى مكة أشهر أساتذة التشريع من الصحابة ، عبد الله بن عباس وأشهر تلاميذه من التابعين عكرمة وعطاء ومجاهد ، وأشهر تلاميذهم سفيان ابن عيينة ومفتى الحرم مسلم بن خالد . وأشهر تلاميذ هؤلاء محمد بن إدريس الشافعى .

وفى الكوفة أشهر أساتذة التشريع من الصحابة عبد الله بن مسعود وأشهر تلاميذه ، علقمة بن قيس وسعيد بن جبير والقاضى شريح . وأشهر تلاميذهم ، إبراهيم النخعى وأشهر تلاميذه حماد ابن أبى سليمان أستاذ أبى حنيفة وأصحابه .

وفى مصر أشهر أساتذة التشريع من الصحابة ، عبد الله بن عمرو بن العاص ، وأشهر تلاميذه مفتى مصر يزيد بن حبيب ، وأشهر تلاميذه الليث ابن سعد وأقرانه من بنى عبد الحكم . وأشهر من خلفهم محمد بن إدريس الشافعى فى المرحلة الأخيرة من حياته ، وكذلك كان فى دمشق وبغداد وفى كل من أمصار المسلمين أئمة للتشريع من الصحابة والتابعين وتابعيهم وتلاميذهم ومن هذا يتبين أن كل مصر من أمصار المسلمين كانت فيه مدرسة تشريعية ، وأن الأئمة الاربعة المجتهدين كانوا فى أمصارهم تلاميذ لمن سبقوهم وفروعا من شجرة تشريعية أصلها من رءوس الصحابة والتابعين.

وما كان الاجتهاد والتشريع فى طبقة الأئمة الاربعة خاصا بهم ، وإنما كان لهم أقران اجتهدوا وأفتوا واستنبطوا ، كما اجتهد الأئمة الاربعة واستنبطوا. ولكن لم يقدر لفقههم واستنباطهم الذيوع والتدوين والبقاء وكثرة الاتباع كما قدر لفقه الأئمة الاربعة . من أولئك الاعلام عبد الرحمن الاوزاعى إمام أهل الشام . والليث بن سعد إمام أهل مصر. وأبو داود الظاهرى وسفيان الثورى ومحمد بن جرير الطبرى وأقرانهم .

وأهم العوامل التى توافرت للأئمة الاربعة وجعلت من جهودهم التشريعية فتحا مبينا وآثاراً خالدة هى ما يأتى :

أولا ـ أن الأئمة الأربعة كانوا فى القرنين الثانى والثالث الهجريين، وهذا هو العهد الذهبى للدولة الإسلامية الذى اتسعت فيه رقعة الدولة وامتدت الفتوح شرقا وغربا ودخل فى الإسلام وفى رعاية الدولة الإسلامية شعوب وأمم وبلدان مختلفة النظم والعادات والمعاملات، كثيرة المصالح والحاجات، فكان لابد من جهود تشريعية تساير هذا النهوض وتفى بهذه الحاجات. وقد بذل الأئمة الأربعة فى بيئاتهم هذه الجهود وبحثوا وشرعوا واستنبطوا ووفوا بحاجات الناس أفراداً وجماعات ووفوا بحاجات الولاة والحكام وما شعر فرد أو جماعة أو وال أو حاكم بقصور التشريع الإسلامى عن تحقيق أى مصلحة أو إقامة العدل فى واقعة مدنية أو تجارية أو جنائية أو غيرها بل استنبط الأئمة أحكاما لوقائع فرضية وخصومات محتملة فكان النشاط السياسى يسايره الأثر التشريعى.

وثانيا ـ أن الأئمة الأربعة وجدوا بين أيديهم ثروة تشريعية خلفها لهم سلفهم من رجال التشريع من الصحابة والتابعين وتابعيهم؛ فالقرآن مدوّن ومنشور بين الكافة وكذلك المأثور عن الصحابة والتابعين فى تفسيره وتأويله، والسنة مدوّنة، وفتاوى الصحابة والتابعين وتابعيهم متوارثة فهم انتفعوا بهذه الثروة ونموها وكملوها بما أثمرته مواهبهم وعقولهم من استنباطات اقتضتها بيئاتهم، فبجهودهم حفظت ثروة سلفهم وبمجهودهم كملت ووفر إنتاجها.

وثالثاً ـ أن الأئمة الأربعة وجدوا فى عصر دخلت فى بلاد الإسلام فيه علوم كثيرة من علوم الفرس واليونان وغيرهما، ودخل فى الإسلام فيه علماء كثيرون من غير المسلمين وتبادل البحث والنظر فى هذه العلوم. ومع هؤلاء العلماء توجه الفقهاء إلى الصنعة العلمية، فبعد أن كان الفقه الإسلامى مجرد حلول جزئية وفتاوى فى وقائع من غير تعليل ولا تحليل، اتجه الأئمة إلى تعليل الأحكام والاستدلال عليها وجمعها فى ضوابط كلية وبهذا صار الفقه علماً ذا ضوابط ووضعت فيه مصطلحات لم تكن من قبل. وصار البحث فيه بحثاً علمياً لإثبات الأحكام بأدلتها واستنباط عللها وحكمها. ولهذا عنى بتدوينه فدوّن محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة، كتب ظاهر الرواية والسنة ودوّن سحنون القيروانى معاصر الإمام مالك، المدونة فى فقه مالك بن أنس، وأملى الإمام الشافعى فقهه فى كتاب الأم. وجمع ابن قدامة فقه أحمد فى كتابه المغنى وتتابع التدوين والتأليف كما هو الشأن فى كل علم.

ورابعاً ـ أنه فى عهد الأئمة الأربعة وجدت مدرستان تشريعيتان مدرسة الحجازيين ومدرسة العراقيين. والتنافس بين أساتذة المدرستين أنضج كثيراً من البحوث التشريعية ووسع دائرة الاستدلال. وهذه التوسعة فى الاستدلال والنظر فى الأدلة أدى إلى العناية بأصول الفقه فدون فيه أبو يوسف، ولم يصل إلينا مادوّنه، ودوّن فيه الإمام الشافعى رسالته وهى أول مدوّن فى أصول الفقه بين أيدينا. وبهذا أخذ الفقه صبغة علمية تستند أحكامه إلى أصول وتتسع أصولها لكل جزئية.

عبد الوهاب خلاف

مقارنة بين شريعة الله وشرائع الإنسان

لصاحب الفضيلة الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة المساعد بكلية الحقوق

١ - أرسل الله رسوله المصطفى بدين الإسلام بعد أن أدَّت كل من الديانات السابقة غرضها ، وصارت الإنسانية فى حاجة ملحة لدين جديد تجىء به رسالة إلهية جديدة تكون خاتمة الرسالات السماوية جميعا .

والإسلام نظام عام : عقيدة ، وتشريع ، واجتماع . ولا تتسع الصفحات القليلة ، المخصصة من هذا العدد الخاص لهذه الكلمة ، لبحث مقارن بين شريعة الله العليم الحكيم وبين شرائع الإنسان التى عرفها العالم قبل الإسلام وبعده إلا إذا كان موضوع المقارنة مسألة واحدة من مسائل الفقه الهامة .

لذلك رأينا أن نتناول أولا بالبحث الطابع العام للشريعة الإسلامية ، مقارنا بما نعرف من الطابع للشرائع الوضعية ؛ فإن هذا الطابع لكل شريعة هو الذى يحدد مقاصدها ، وهو الذى يستلهمه الفقهاء فيما يقررون من أحكام ، ومن هذه المقارنة ، نعلم أن الإسلام كان فى ناحية التشريع ، كما هو فى سائر النواحى الأخرى ، فتحا أى فتح !.

ثم ، من باب التطبيق ، نبحث مظهر وأثر هذا الطابع العام لشريعة الله فى مسألة واحدة ، وهى مسألة « الحق » ؛ أى مدى ما لصاحبه من سلطان فى الانتفاع به واستعماله ، وما يكون من تقييد الشارع له بألا يضر هذا الاستعمال الغير ، مقارنين الشريعة الإسلامية فى هذه الناحية بالقانون الرومانى والقانون الفرنسى ، وهذه المسألة هى ما نعرف بنظرية « سوء استعمال الحق » .

٢ - لقد واجه الإسلام حين جاء دولة الروم ودولة الفرس ، وفى كلتيهما كان الفساد قد بلغ مداه ، وشارفت الأمة نهايتها المحتومة . وفى كلتيهما كانت القوانين والنظم العامة تهدف إلى تمكين السادة والأقوياء ، على حساب الرعية والضعفاء ، وبلغ الأمر إلى درجة تقديس القياصرة والأكاسرة وتقديم الرعايا لهم فروض العبادة .

أما فى دولة الروم ، فقد كانت المسيحية قد تحولت من ديانة سماوية تأمر بعبادة الله وحده ، إلى دين زعم رؤساؤه أن الله هو المسيح بن مريم ، بل نادوا بعد هذا بعبادة القديسين معه ، فلا عجب أن يكون الإمبراطور موضع تقديس وعبادة أيضا . وفى هذا يقول مؤرخ إنجليزى معروف : « وهنا التقت الكنيسة ، على وجه الخصوص ، وجها لوجه مع مذهب عبادة الامبراطور » (١) .

وأما فى فارس ، فقد كان الأكاسرة يزعمون أن دماً إلهيا يجرى فى عروقهم ؛ ومن ثمَّ كانت الرعية تنظر إليهم كأنهم آلهة ، فكانت تكفِّر لهم وتتحمل فى هذا السبيل مالا تطيق . والمستمع

---

(١) الامبراطورية البيزنطية ، تأليف نورمان بينز وترجمة الدكتور حسين مؤنس وآخر ، مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٥٠ ص ٩٧

إلى محمد بن جرير الطبرى يقص علينا هذا الخبر ، ومنه نرى كيف كانت منزلة قائد من قواد كسرى - لا كسرى نفسه ! - من الرعية ومنزلة الرعية منه ، حين يقول : (١)

« لما جاء المغيرة [بن شعبة] إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس ، أجلسوه واستأذنوا رُسْتم [وكان قائدهم فى حرب المسلمين] فى إجازته ... ، فأقبل المغيرة - وله أربع ضفائر - يمشى حتى جلس معه على سريره ووسادته ، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه ، فقال : كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم ، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا إلا أن يكون محارباً لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ... اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون . وإن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » .

٣ - وهذه النزعة الفردية المطلقة التى كانت تسود فى النظم الاجتماعية لدى الروم والفرس ، من قمة المجتمع إلى آخر درجاته منزلة ، تراها تسود فى نُظُمهم القانونية أيضا ؛ فما القانون - فى رأينا - إلا التقاليد والعادات العامة تتأصل فى النفوس ثم تتبلور حتى تأخذ أوضاع القانون ، أو - على الأقل - تعتبر هذه التقاليد والعادات والأعراف مصدراً له خطره من مصادر القانون .

من أجل ذلك نجد القانون الرومانى (٢) فى مراحله الأولى ينبنى على فكرة استبداد صاحب الحق بما يزعمه من حقه الذى يملكه ، سواء فى ناحية الأسرة أو ناحية المعاملات .

« ففى الأسرة كان لرب العائلة حقوق مطلقة على جميع أفرادها ؛ كان له حق الحياة أو الموت على زوجه وأولاده وعبيده ، فلم يكن للزوجة حقوق ولا أموال ، وكان الولد معرَّضا للبيع ، والعبد للترك والقتل . وفى المعاملات كان للدائن سلطة مطلقة على مدينه ، فكان المدين يباع أو يقسم بين دائنيه » (١) .

بل إن قوانين « جُستِنيان » ، وهو المشرع الرومانى الأكبر ، قد حرمت على من لم يكونوا تابعين للمذهب الرسمى للدولة - وهم مسيحيون مع ذلك - الاشتغال بالمهن الحرة ، وأغلقت دونهم الاجتماعات العامة ، وجعلت وصاياهم لاغية ، ومنعتهم الحق فى أن يرثوا شيئاً من ذويهم . (٢)

٤ — وفى مقابل هذا الطابع الفردى المقيت للقوانين والنظم الرومانية ، نجد الطابع الجماعى للتشريع الإسلامى الإلهى . ذلك بأن الإسلام لم يجىء لإسعاد الملوك والسادة على أنقاض الشعب ؛ فهو الدين الذى لا يعرف فضلا لأحد إلا بمقدار حظه من تقوى الله ، ورسوله ينادى بأنه ليس إلا بشراً كسائر البشر ، وبأنه ابن امرأة كانت تأكل القديد ! وهو الدين الذى جاء ليحقق العيش الكريم والسعادة للفرد والمجتمع معا ، بل للإنسانية عامة ولا فرق بين عرب وعجم وبيض وسود .

---

(١) حـ ٤ : ١٠٨ من كتابه الكبير فى التاريخ .

(٢) نكتفى هنا فى المقارنة بالقانون الرومانى التى أخذت عنه أكثر دول الغرب قوانينها الحديثة .

(١) الدكتور أنور سلطان ، مجلة القانون والاقتصاد ، عدد مارس سنة ١٩٤٧ ، ص ٧٧ - ٧٨

(٢) الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٧ - ١٠٨

وهذا الطابع الجماعي للشريعة الإسلامية ، له أثره ومظهره بلا ريب في التشريع والفقه العملي أو المعاملات ، كما له أثره الواضح فيما فرض الإسلام من عبادات ، وله بعد هذا وذاك أثره القوى في تحديد مدى ما يكون لصاحب الحق في استعماله .

على أن من الواجب أن نضيف لذلك اعتباراً آخر . وهو أن أي قانون وضعي يعتبر حقوق الفرد حقوقا طبيعية له ، فهو يعمل على حمايتها له وتمكينه من الانتفاع بها على ما يشاء ، ما دام يتصرف في زعمه في خالص حقه . أما الشريعة الإلهية فتقرر من أول الأمر أن الإنسان وكل ما يملك ملك لله وحده ، والله لا يمنح الفرد ما يمنح من ملك وحق إلا ليتصرف فيه وفقاً لمقصد المشرع العليم الحكيم ، نعني لتحقيق مصلحة الفرد والجماعة معا ، ومن ثم نجد تقييد استعمال « الحق » من نواح عديدة ، ولنضرب لذلك بعض المثل :

(ا) من حق الأب أن يشرف على تربية ولده ، وأن يؤدبهم على ما قد يكون منهم مما يستحق الأدب شرعا ، وكذلك من حق الزوج أن تطيعه زوجته وتكون تحت ولايته ، فلا تخرج من بيته بلا إذنه ولا تُدخل داره أحدا لا يرغب فيه ، ولكن هذه الحقوق ، وأمثالها ، التي للأب والزوج مقيدة كلها بعدم الضرر بالأولاد والزوجة ، وإلا تدخل القضاء ، لأنه لا ضرر ولا ضرار .

(ب) للمالك الحق في أن يتصرف في ملكه كما يريد بأي نوع من التصرفات ، ومن ذلك البيع لمن يشاء ، ولكن الشريعة التي عنيت بتأكيد ما للجار من حقوق على جاره ، حتى جاء في هذا كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول ، أوجبت للجار حق الشفعة فيما يبيعه جاره ، كما منعت الجار المالك - وهو مذهب الإمام مالك رضي الله عنه [١] - أن يتصرف في ملكه تصرفا يضر ضرراً فاحشا بجاره . وذلك كله تطبيقا لقاعدة : « لا ضرر ولا ضرار » وقاعدة دفع أكبر الضررين بأيسرهما ، وفي هذا الخير لصاحب الحق وللجار معاً .

(ج) ولرعاية هذه المصلحة التي تكون للغير وقد تكون مصلحة جماعة لا مصلحة فرد واحد نرى الشريعة الإسلامية تقرر للغير على صاحب الماء ما يسمى بحق الشفة وحق الشرب ، ويراد بالحق الأول حق شرب الإنسان ودوابه من عين أو قناة مملوكة للغير ، ويراد بالثاني حق سقي زرعه من ماء يمر بأرض لغيره ، مع أن من خواص الملكية حرية المالك في ملكه يتصرف فيه كما يشاء ويهوى .

وتطبيقا للحق الأول يروى الإمام أبو يوسف أن قوما مروا بماء وهم في سفر ، فأرادوا أن يستقوا منه لأنفسهم ودوابهم فمنعهم أهله ، فقالوا لهم إن أعناقنا وأعناق مطايانا كادت تنقطع عطشا ، فأبوا أيضا ، وحين رجعوا ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب ، الفاروق بحق ! فقال لهم هلا وضعتم فيهم السلاح ! [٢] :

---

(١) وذهب إلى ذلك أيضا غيره من الفقهاء ومنهم بعض الأحناف المتأخرين .

(٢) كتاب الخراج طبع المطبعة الأميرية ، ص ٥٥

وتطبيقا للحق الثانى ، تجعل الشريعة للمرء أن يحفر مجرى ماء فى ملك غيره ليصل الماء لأرضه البعيدة عن مصدر الماء ، فإن أبى ألزمه ولى الأمر أو القضاء.

وفى هذا يروى يحيى بن آدم القرشى بطرق مختلفة فى كتابه الخراج ، أنه كان للضحاك بن خليفة الأنصارى أرض بعيدة عن مجرى الماء فلا يصل إليها إلا إذا مر ببستان لمحمد بن مسلمة ، ولكن محمدا هذا أبى أن يمر الماء بأرضه ، فألزمه عمر بن الخطاب بإمداده بعد أن تبين له أنه لا ضرر عليه منه . وكان من كلامه فى هذا أن قال : والله لو لم أجد له ممراً إلا على بطنك لأمررته [1] !

(د) وأخيراً ، مما لا شك فيه أن للفاتحين لأرض من أراضى الأعداء أربعة أخماس الغنيمة والخمس الباقى يصرف فى مصارفه التى حددتها آية الأنفال : « واعلموا أن ماغنمتم من شىء فأن لله خمسه » الآية .

غير أن حق ملكية الفاتحين لأربعة أخماس ما فتح الله عليهم به ، قد يكون فيه ضرر بالجماعة وبالمسلمين الذين يأتون بعدهم ، ولهذا رأى عمر ابن الخطاب أيضا عدم التسليم بهذا الحق للمحاربين بإطلاق فى بعض الحالات ، ومعنى هـــذا تقييد « الحق » لمصلحة الجماعة ودفعا للضرر عنها .

ذلك أنه لما تم فتح العراق والشام وغيرهما من الأقطار فى عهد عمر ، رأى ألا تقسم بين الفاتحين ، بل تبقى خراجية ينتفعون بها هم ومن يجىء بعدهم من المسلمين ، وكان من كلامه فى هذا : كيف بمن يأتى من المسلمين فيجد الأرض قد قسمت وورثت عن الآباء ! ما هذا والله برأى ، واستشهد بآيات من سورة الحشر [1]

لكن المعارضين ذكروا أنه كيف يقف عمر ما أفاء الله عليهم بأسيافهم على قوم لم يحضروا الحرب ، ثم على أبنائهم وذرياتهم من بعدهم ! ولما اشتد الخلاف ، حكم الخليفة عشرة من الأنصار ، رغبة ـ كما قال ـ فى أن يشركوه فى الأمانة التى حملها . فلما اجتمعوا وتكلم مخالفوه بما يرون من رأى وحجة . قال فيما قال بأنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد رأيت بعد صرف الخمس فى وجوهه أن أحبس الأرض بعلوجها وأضع عليهم الخراج وفى رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فيئا للمسلمين الحاضرين ولمن يأتى بعدهم . ثم قال : أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها ! أرأيتم هذه المدن العظام ، كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر ، لا بد لها أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض والعلوج ؟

وكانت النتيجة أن أعطى المحكمون ، بعد وزن كل رأى ودليله ، الرأى لعمر ، ولم يسع المخالفين إلا الرضا والتسليم ، وكان هـذا إلهاماً من الله العليم الحكيم ، وتوفيقاً للخير العام فى العاجل والآجل من الزمان .

هذه المثل ، ولو شئنا لأتينا بكثير غيرها ، تشهد بلا ريب بالطابع الجماعى لشريعة الله ،

(١) كتاب الخراج طبع المطبعة السلفية ، ص ١١١ ـ ١١٢

(١) الآيات ٨ ـ ١٠

وبأنه من أجل هذا الطابع قيدت استعمال المرء لما يظنه حقه بألا يكون فى استعماله ضرر لغيره ، بل إنها منعت أحيانا - رعاية لمصلحة الجماعة والأمة عامة - إعطاء بعض الأفراد ما يزعمون أنه لهم من حقوق ، ومن هذا الباب ، المثال الأخير .

(هـ) أما القوانين التى صنعها البشر لأنفسهم ، فلم تلاحظ شيئاً من هذه النظرة الجماعية الإنسانية إلا بعد زمن طويل ، ثم لم تبلغ بعد شأو الشريعة الإسلامية فى هذه الناحية ، بل لم تقاربها .

ولنأخذ مثلا لذلك القانون الفرنسى الذى صدر عام ١٨٠٤ م ، لقد كان هذا القانون وليد الثورة الفرنسية التى قامت لتحطيم سلطان الملوك والسادة وإعلان أن للإنسان ، باعتباره فرداً ، حقوقاً طبيعية مقدسة ليس لأحد المساس بها مطلقا ، ومن ثم ساد هذا القانون روح فردى قوى يلتئم مع الروح الذى أملى إعلان حقوق الإنسان ، وهو تدعيم حقوق الأفراد وحمايتها ، وينظر إلى الفرد باعتباره العنصر الأهم فى الحياة لا باعتباره جزءاً من كل هو الجماعة ، ولقد كان من نتائج ذلك أن أتى وقت اعتُبرت فيه الحقوق مطلقة المدى ، وأن صاحب الحق فى استعماله سيد لا يُسأل عما يترتب على هذا الاستعمال من الأضرار التى تحيق بغيره (١)

وقد حدث بعد ذلك أن اضطربت القوانين الحديثة للتطور تبعا للتطورات الاجتماعية العامة ، فأخذت فى تقييد حرية الفرد فى استعمال حقه حتى لا يسىء استعماله ويضر غيره بهذا الاستعمال السىء ، إلا أنه من الثابت أن نظرة الشريعة الإسلامية - التى سبقت هذه القوانين بقرون طويلة - لمصلحة الجماعة وتقييد حرية الأفراد فى استعمال حقوقهم - ظلت أوسع مدى وأبعد أثرا من نظرة القوانين الحديثة فى هذه الناحية (١)

ونعتقد أن السبب فى هذه التفرقة الواضحة بين طابع شريعة الله وطابع شرائع الإنسان ، هو ما سبق أن ذكرناه من التفرقة الأساسية بين أصل حقوق الفرد فى كل من هذين النوعين من التشريع .

هذا ، وفضل الشريعة الإسلامية فى تقرير نظرية سوء استعمال الحق ، حتى لا يضار أحد باستعمال صاحب الحق حقه ، فضل غير مسبوق وغير منكور من رجال القانون المحدثين وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور عبد الرازق السنهورى واضع التشريع المصرى الحديث (٢)

إن لنا ، بعد ذلك ، أن نتوجه إلى أولى الأمر فى الأزهر بالعناية بدراسة الفقه الإسلامى دراسة جدية مقارنة ، وإلى أولى الأمر فى الدولة بالعمل على إحياء تراثنا الإسلامى ، والإفادة منه قبل أن نولى وجوهنا شطر الغرب ؛ والله المستعان ؟

محمد يوسف موسى

---

(١) انظر مدى استعمال حقوق الزوجية وما تتقيد به فى الشريعة الاسلامية والقانون المصرى الحديث ، للدكتور السعيد مصطفى السعيد الأستاذ بكلية الحقوق - فؤاد ، ص ٥

(١) مدى استعمال حقوق الزوجية ، للدكتور السعيد مصطفى السعيد ، ص ٤٣

(٢) الدكتور أنور سلطان الأستاذ بكلية الحقوق ، المرجع السابق ذكره له ، ص ٧٧ ، ٩٠ ، ١٣٥ ، ١٣٦ الدكتور السنهورى ، مجلة المحاماة سنة ١٩٢٢ ، ص ٤١٩

فتوح الإسلام فى العقيدة والتشريع

القرآن واللغة

للأستاذ عباس محمود العقاد

منذ أربعة عشر قرنا تغيرت لغات كثيرة ، بل تغيرت جميع اللغات التى كانت تحسب يومئذ من اللغات الحية ، فانتقلت من ميدان الحياة إلى سجلات الآثار والمحفوظات ، أو إلى المراجع التى يتخصص لها علماء اللغات المهجورة . إلا اللغة العربية ، فإنها نشأت منذ أربعة عشر قرنا نشأة جديدة ، وتقدمت أشواطا بعد أشواط ، وأخذت من إكسير الحياة ما يضمن لها طول البقاء .

وذلك بفضل القرآن الكريم ، لأنه جعلها لغة العقيدة الإسلامية ولغة الثقافة الإسلامية فى وقت واحد ، بل جعل لها فضلا على الثقافة الإنسانية عامة ، فحفظت إلى حين ما كان وشيك الضياع .

فلولا القرآن الكريم لكان من المشكوك فيه كثيراً أن يتوفر العلماء على وضع علم النحو وعلوم البلاغة واستقصاء المفردات وتحرّى مصادر الفصيح والدخيل وضبط المعجمات التى لم تسبق فى لغة من اللغات .

والأرجح فيما نعتقد أن البحث فى الصفات والقضاء والقدر ، كان مصدر علم الكلام فالحكمة الإسلامية فالدراسات المنطقية التى تتصل بها وتعين عليها . ولا يخفى أن هذه الدراسات هى التى أنقذت الفلسفة القديمة من الدثور والإهمال ، فدبت الحياة فيما استحق الحياة من فلسفة يونان وعلومها ومباحثها ، واتصلت الثقافة الإنسانية منذ أقدم العصور إلى العصر الحديث فى هذا الاتجاه .

ومما لا خلاف عليه أن اللغة العربية نشطت هذا النشاط وتقدمت هذا التقدم لأنها لغة كتاب مقدس يدين به المسلمون ، وهو القرآن الكريم .

ولكن اللغات التى كتبت بها الأسفار المقدسة كثيرة ، منها العبرية لغة التوراة ، والآرية القديمة لغة الزندافستا ، ولغات آرية أخرى فى الهند كتبت بها الأسفار التى يقدسها الهنود الأقدمون والمعاصرون .

إلا أن اللغة العبرية أصبحت إحدى اللغات التى لحقت بسجلات الآثار أو سجلات المراجع والدراسات ، وقد كتبت بعض أسفار العهد القديم باللغة الآرامية فى حياة اللغة العبرية وإبان نشأتها ، وقد ترجمت أسفار العبرية والآرامية جميعا إلى اللغة اليونانية قبل ألفى سنة ، ولا تزال هذه الأسفار كتبا مقدسة عند اليهود . وهم لا يطلعون عليها فى لغتها ولا يتكلمون تلك اللغة إلا بالإضافة إلى لغة أخرى هى لغة الحياة أو لغة كل يوم ، أما اللغة العبرية فهم يستحيونها من طوايا التاريخ ويفهمونها كما يفهم الأثرى نقوش الهيكل أو البردى العتيق .

وانتهت حياة اللغات التى كتبت بها أسفار

المجوس والبراهمة ، وأصبحت مجهولة عند من يدينون بها ولا يؤمنون بشيء منها ...

إذن ليس مجرد الإيمان بكتاب مقدس كفيلا بحفظ اللغة وعصمتها من الزوال أو الانتقال من ميدان الحياة إلى المراجع المهجورة .

ولا بد من فضل خاص للقرآن الكريم ميزه بين الكتب الدينية وجعل له من الأثر فى استبقاء اللغة العربية ما لم يكن لكتاب آخر فى اللغات السامية ، أو اللغات الآرية ، وقد كانت العبرية والآرامية من اللغات السامية ، وكانت لغة المجوس والبراهمة من صميم اللغات الآرية ، أو الهندية الجرمانية كما يقولون عنها فى علوم اللغات ، فما هو سر هذا الفارق بين كتاب وكتاب وبين اعتقاد واعتقاد ؟

سره أن القرآن العربى قد جاء برسالة عامة إلى الناس كافة ، ولم يكن رسالة خاصة ببنى إسرائيل أو بالطبقة الحاكمة بين الهنود ، ولو كان عربياً للعرب دون غيرهم لما كان له هذا الشأن الذى امتاز به على كل شأن لكتاب من كتب الأديان .

فالتوراة كتاب يؤمن به بنو إسرائيل ولكنه لم يحفظ اللغة العبرية بين أهلها فضلا عن حفظها بين الغرباء عنها ، لأن بنى إسرائيل أنفسهم قد هجروا لغتهم وانساقوا فى التيار الذى يشمل الأمم الإنسانية بأجمعها .

وكتب البراهمة أسفار يدين بها أتباعها ، ولكنها كذلك لم تحفظ لغاتها التى كتبت بها من قديم الزمن ، لأن البراهمة كانوا سادة يفرضون دينهم على عبيد مسخرين ، لا يعاملونهم معاملة الإخاء والمساواة ، ومن ثم هذه الطوائف المنبوذة التى تعد بعشرات الملايين ، ومن ثم هذا التفاوت بين طبقة وطبقة ، وصناعة وصناعة ، بل من ثم هذه الأعجوبة فى تاريخ الهند الحديث من ناحية اللغات والتفاهم بها بين أقاليم الهند على تباعد مواقعها ، فقد أصبح التفاهم بين أهل الشمال وأهل الجنوب باللغة الإنجليزية أسهل من التفاهم بين الجيران فى الإقليم الواحد بلغة الكتب المقدسة التى انقضى عليها ثلاثون قرناً على أقرب تقدير .

وهذا هو الفارق العظيم بين كتاب وكتاب ، ولغة ولغة ، فإن العقيدة وحدها لا تحمى لغتها ، ولا تحمى أمتها إذا جاءت منعزلة عن الدنيا مقصورة على عصبية واحدة ، وإنما تبقى اللغة مع بقاء العقيدة إذا تفتحت أبوابها للأمم كافة بغير عصبية ولا عزلة قومية أو جنسية ، ولهذا خصت العربية بظاهرة ، قل نظيرها فى لغة من لغات الكتب المقدسة أو غير هذه اللغات ، فإن خدامها من الفرس والأمم الآرية لا يقلون عن خدامها من أبناء الأمة العربية ، وإن البلاد التى انتقلت إليها العربية من مهدها تخرج من المشتغلين بها ، والعاكفين على آدابها وفنونها أضعاف من يتخرجون فى بيئتها الأولى .

ويبدو لنا أن هذه اللغة الجميلة مستعدة بطبيعتها للعموم والشيوع والنهوض بالأمانة الإنسانية ، لأنها كلها انتقلت من تربة إلى تربة أخرى ترعرعت فى تربتها الجديدة وسمقت لها فيها فروع كالأصول بل أثبت وأبقى .

فاللغة فى عهد العرب المستعربة أصح وأفصح

بما كانت عليه فى عهد العرب العاربة ، وهى فى عهد العرب العاربة تقترب فى فصاحة اللهجة واستقامة القاعدة وتبتعد من الحميرية التى تشبه الرطانة الأعجمية ، وقد اطرد هذا القياس زمنا فاستفادت العربية بالعموم والشيوع ، وما زالت كلما قادها العموم والشيوع إلى شىء من الإسفاف و « العامية » وجدت مرساة الأمان فى القرآن الكريم ، فلم تنقطع الآصرة بينها وبين أصولها ولم تنقطع كذلك عن مجاراة الزمن والاحتفاظ بالمزية الإنسانية : مزية العموم والشيوع .

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

نعم ويصدق ذلك على اللغة التى تقوم بها الرسالة كما يصدق على الرسول الذى يؤديها إلى بلاغها ، فتمضى الرسالة إلى غايتها ببلاغة اللغة وبلاغ الرسول .

وتتضح هذه الحقيقة من الموازنة بين العربية والعبرية واللغات الآرية والمجوسية ، فإن العربية قد انتهت إلى عصر الدعوة الإسلامية وهى تزدهر وتتسع للنظم المتين والخطابة المبينة والحكمة المأثورة ، ولم يعرف عن لغات الكتب الدينية كالعبرية أو الآرية القديمة أنها وعت إلى جانب الآيات الدينية شيئا من روائع البلاغة التى يتفاهم بها الناس فى مطالب الفن والأدب ، فلم ترزق من الحياة ما يعبر عن الحياة ، وانقضت مهمتها ولما تجاوز نطاقها المحدود من عصبية القبيل والإقليم .

وهذه البلاغة العربية التى نضجت وسرت فى سليقة الناطقين بها مسرى الوظيفة الحية قد كانت حصنا للعقيدة كما كانت حصنا للغة ولهجاتها وأساليبها ، فلما انتشر المبشرون بالمذاهب المختلفة فى بلاد المسلمين أخفقوا واعترفوا بالإخفاق وقرروا أن المسلم لايخرج من دينه إلى دين آخر وأن نسبة الصابئين عن دينهم من المسلمين لاتزيد على الآحاد فى الملايين ، وبعضهم يتحولون لمنفعة أو غواية وعلى غير اقتناع وإيمان ، ومهما يكن من ثبات العقيدة الدينية فلا يقال إن المبشر المدرب على التبشير يعجز عن إقناع جاهل أوساذج بما حذقه من وسائل التشكيك والتأثير وإنما العصمة حق العصمة أن بلاغة القرآن حتى فى مسامع الجهلاء قد عودتهم نمطا من الكلام العذب المستساغ يرفضون كل ما عداه ولايحسون فيه الروحانية الإلهية ، فيصعب إقناعهم بكلام على غير ذلك النسق البليغ .

ولقد مضى أربعة عشر قرنا على اللغة العربية فى تجددها وارتقائها بعد نزول القرآن الكريم ، وقد زالت كما أسلفنا لغات كانت تحسب من اللغات الحية عند انتشار الدعوة الإسلامية ، وقد بقيت اللغة العربية لغة عقيدة ولغة ثقافة ولغة خطاب بين المتعلمين من أبنائها ، ولغة فهم بين غير المتعلمين منهم ، ولكن المعجزة القرآنية لم تقف ولن تقف عند هذه الغاية ، فبفضل هذه المعجزة يرجى أن تكون هذه اللغة بعد قرن من الزمان لغة الملايين ممن لم يتكلموها حتى الآن ، وفى طليعتهم أهل الهند والملايو المسلمون ، ومعهم فى آسيا وأفريقية شعوب تنمو وتزداد صلة بلغة القرآن على مر السنين .

عباس محمود العقاد

جهود المسلمين فى النحو والبلاغة

لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد عرفه
عضو جماعة كبار العلماء

للعرب جهود موفقة فى ابتكار علمى النحو والصرف، جهود نذكرها مع الإعجاب والإجلال.

نعجب بهم لأنهم أحاطوا باللغة العربية إحاطة شاملة كاملة.

ولأنهم استوعبوا شواردها والنادر منها، فتراهم يجمعون فى الموضع الواحد ما يمكن أن تستنتج منه قاعدة، ويجمعون ما خرج عن هذه القاعدة ويحكمون عليه بالشذوذ والندور.

ونعجب بهم لأنهم تعمقوا فى البحث وأدركوا العلل والأسباب وحسن تهديهم إلى القياس.

ونجلهم لأمانتهم وحرصهم على أن يصلوا إلى الحقائق وخوفهم من أن يقولوا فى اللغة بغير علم كأنما هى دين لا يجوز فيه التهاون والتسامح بل يجب أن يفرغ المرء جهده ليصل إلى الحق ولا يجوز أن يثق المرء بأول خاطر أو يسكن إلى الراحة والدعة.

إن ابتكار العلوم يقتضى أموراً لا بد من وجودها ليمكن الابتكار:

أولها - عقل مبتكر منطقى يبحث عن العلل والأسباب ويقيس الامور بأمثالها.

ثانيها - حب للبحث والاستقصاء والابتكار وإيثار له على جميع حظوظ الدنيا وما فيها من متع وزخارف.

ثالثها - إيمان بجدوى هذه البحوث وبأنها تهدف إلى غرض معين وتوصل إلى فائدة مطلوبة.

رابعها - بيئة تقدر العلم والعلماء وتبحث عن مبتكرات القرائح وثمرات القرائح وترى فيها غذاء عقلياً لا تقل حاجتها إليه عن حاجتها إلى غذاء الأجسام، والبيئة الإسلامية فى البصرة والكوفة فى عهد وضع النحو والصرف كانت تستكمل هذه العناصر.

أما العقول المبتكرة الخصبة التى كانت تعلل وتقيس لتهتدى إلى المجهول العقلى، فقد وجد منها فى هذا العصر عدد ليس بالقليل، فهذا الخليل ابن أحمد الفراهيدى كان عقله آية فى البحث والابتكار والتعليل والقياس، وكان عنده من هذه الملكة ما كان عند أمة اليونان فى عهد ازدهار العلوم فيها، كان مثل أرسطو وأفلاطون وسقراط إلا أنه صرف هذه الملكة إلى معرفة مقاييس العربية وتعليلها ولو صرفها إلى علوم الطبيعة والاجتماع والاخلاق لما قل شأنه عن هؤلاء الأفذاذ فى التاريخ من اليونان.

وقد بلغ الخليل بن أحمد الغاية القصوى فى معرفة قوانين العربية قوانين مفرداتها ومركباتها. وقد كان ككل العلماء المبتكرين إنما يعنيه الابتكار ويشغله البحث ولا يعنى بالتأليف والتنظيم. وقد كان تلميذه سيبويه ممن رزق ملكة التأليف والتنظيم فأخذ علم الخليل ونظمه وأخرج

الـكتاب في النحو ، فطارت شهرته في الآفاق وذهب سيبويه بفخره ، فلما رأى الخليل ذلك أراد أن يصنع علماً ينسب إليه ويختص به فوضع قوانين الشـــعر العربي وحصرها وبين علله وأعاريضه وما يصح منها ومالا يصح وقد وضع كتابا في اللغة سماه كتاب العين هو الأصل لـكل القواميس التي ألفت بعده وكان يظهر عقله للباحث إذا اجتمع به .

يروى أنه اجتمع مع عبد الله بن المقفع ثم افترقا فسئل كل منهما عن صاحبه فقال الخليل عن ابن المقفع : علمه أكبر من عقله . وقال عبد الله ابن المقفع عن الخليل : عقله أكبر من علمه . وكذلك كان كل واحد منهما ، فلو تتبع العالم الباحث آثارهما ودرسهما أزمانا متطاولة لـكانت خلاصة بحثه هذه النتيجة .

انظر إلى آثار ابن المقفع تجدها ترجمة لحـكم الأولين وأمثالهم وقد يأتي ببعض الحكم ولـكنه يراه مشتقاً من كلام الأولين .

ونرى ملـكته التقليدية ظاهرة في أوائل كتبه . اقرأ قوله في أول كتابه الأدب الصغير « ومن أخذ كلاما حسناً من غيره فتكلم به في موضعه وعلى وجهه ، فلا ترين عليه في ذلك ضؤولة ، فإنه من أعين على حفظ كلام المصيبين وهدي للاقتداء بالصالحين ووفق للأخذ عن الحكماء ـ ولا عليه ألا يزداد ـ فقد بلغ الغاية ، وليس بناقصه في رأيه ولا غامطه من حقه ألا يكون هو استحدث ذلك وسبق إليه » تجده يدل على أن همه مصروف إلى جمع العلوم والحكم والاستكثار منها . ويرى أن من فعل ذلك فقد بلغ الغاية ولا يضيره ألا يكون استنبط واستحدث . وانظر إلى آثار الخليل تجدها كلها تعليلا وقياساً واستنتاجا وابتكاراً .

وقد يعجب المرء كيف توجد هـذه العقول الخصبة في أوائل الدولة الإسـلامية ولم تمر بالأدوار التي تمر بها الأمم من طفولة وشباب واكتمال مما يقتضي أحقابا طوالا حتى تصل إلى سن ابتكار العلوم ولو علم المرء أن الإسلام جاء إلى أمم كانت قد مرت بأدوار الصبا والطفولة ووصلت إلى حـد الاكتمال فلم ينشئها الإسـلام إنشاء وإنما جاء فأصلح من عقائدها وأخلاقها واجتماعها ، نقول لو علم الباحث ذلك لزال منه العجب . إن الإسلام دخل في أمة الفرس والروم والسريان وقـد كانت أمما ذات ثقافة ومدنية بل العرب أنفسهم جاءهم الإسـلام بعـد أجيال وأجيال من منشئهم فلا عجب أن تظهر فيهم ملـكة الابتكار والاستنباط التي لا تظهر في الأمم إلا في دور نضوجها واستكمالها .

أما حب البحث والابتـكار حبا يصل إلى درجة العشق والهيام وإيثاره على كل شيء عداه ، فيحدثنا التاريخ بأعاجيب منه . وحسبنا أن نذكر هنا الحادثتين الآتيتين : يروى عن أبي عمرو بن العلاء قال : كنت هاربا من الحجاج بن يوسف وكان يشتبه علي « فرجة » هل هو بالفتح أو بالضم فسمعت قائلا يقول :

ربما تجزع النفوس من الأمـ ـر له فرجـــة كحل العقـال

بفتح الفاء من فرجة ثم قال : ألا إنه قد مات الحجاج . قال أبو عمرو : فما أدري بأيهما كنت

أشد فرحا بقوله «فرجة» أم بقوله مات «الحجاج».

فأنت تراه قد فرح باستفادته حرفا واحداً من اللغة فرحا يعدل الأمن بعد الخوف، والظهور إلى الناس بعد الاستخفاء. وأما الحادثة الثانية فهي أن سليمان بن علي وجه إلى الخليل بن أحمد، من الأهواز لتأديب ولده فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً وقال: كل فما عندي غيره وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان. فقال الرسول: فما أبلغه؟ فأنشأ يقول:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة
وفي غنى غير أني لست ذا مال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه
ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

وما أحسب الخليل آثر الإقامة مع فقره وإقلاله على الرحلة مع ما فيها من غنى ويسار إلا لأنه كان في بيئة يفهمها وتفهمه ويبتكر لها فتعجب بابتكاره وتناقشه فيسر لهذه المناقشة. وكان لذلك في سعادة نفسية يتمنى جزءا منها الأغنياء والموسرون. وستفوته هذه السعادة إذا ذهب إلى الأهواز وشغل بتعليم ولد سليمان وفاته تلاميذه الذين كان يأنس بمحاوراتهم ومساجلاتهم كسيبويه والنضر بن شميل ومؤرج السدوسي وعلي بن نصر الجهضمي.

وكان النضر بن شميل يقول: أكلت الدنيا بعلم الخليل بن أحمد وكتبه وهو في خص لا يشعر به. ولم تؤكل الدنيا بعلمه في زمنه فحسب، بل أكلت الدنيا بعلمه في جميع الأزمان بعده إلى اليوم. ولا يزال للخليل فضل جسيم على معلمي العربية اليوم في الأزهر ووزارة المعارف والجامعة، فبعلمه يرزقون وبعلمه كان لهم الجاه والشرف والمثالة في قومهم، كل ذلك كان من صوفيته في العلم التي كان يراها عبادة وزهادة، ولذلك كان يقول: إذا لم تكن هذه الطائفة - يعني أهل العلم - أولياء الله تعالى فليس لله ولي. ولعلمه وزهده وعفته ورغبته عما في أيدي الناس كان سفيان يقول: من أراد أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد.

بمثل هذا العشق والهيام بالبحث يستنبط العلم وتكتسب المعرفة.

أما أنهم كانوا يؤملون من وراء بحثهم غرضاً عزيزاً لديهم ويرونهم في أشد الحاجة إلى تحصيله فلأنهم كانوا يريدون المحافظة على كتاب الله أن يتطرق إليه اللحن وفساد الإعراب. وكانوا يخافون على اللغة العربية أن يذهب نظامها بمخالطة الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام، فقد كانوا يسمعون اللحن في القرآن فيسوءهم ذلك. وأشد ما ساءهم أن قارئاً قرأ: إن الله بريء من المشركين ورسوله بالجر فقيل معاذ الله أن يبرأ من رسوله. وقد هرعوا إلى وضع النحو بعد هذه الحادثة. وقد كانوا يرون اللحن في لغة العرب فيقودهم ذلك إلى وضع قوانين فيما كان فيه اللحن.

يروى أن أبا الأسود قالت له ابنته: ما أحسنُ السماء. فقال لها: يابنيّ نجومها. فقالت: إني لم أرد هذا وإنما تعجبت من حسنها فقال لها: إذن فقولي ما أحسنَ السماء. ووضع باب التعجب.

وما أظن أنهم غاروا على اللغة العربية، هذه الغيرة إلا من أجل القرآن، وإلا فإن أمما

كثيرة تركت لغتها تتطور وتتفرع إلى لغات كثيرة دون أن تعنى بضبطها والوقوف فى سبيل تطورها ، ولكن علماء الإسلام عنوا بضبط لغتهم من أجل المحافظة على القرآن، فنشأت هذه الظاهرة العجيبة ، وهى أنه لو قدر أن يحيا اليوم رجل مات منذ ألف سنة ، فسمع المتحدثين بالعربية لما أنكرها ولفهمها ، أما اللغات الأخرى فليست كذلك . فلو أن فرنسيا مات منذ مائتى سنة وبعث اليوم ، لما فهم اللغة الفرنسية التى يتحدث بها أهل هذا العصر لتطورها ومطاوعتها للأحداث الجارية عليها .

وقد بلغ من حرصهم على صحة اللغة وسلامة إعرابها أن أحدهم كان يخجل من اللحن ويراه سوءة لا ينبغى أن يعلمها أحد عنه .

يروى أن الحجاج بن يوسف قال ليحيى بن يعمر العدوانى : أتجدنى ألحن؟ فقال : الأمير أفصح من ذلك . فقال : عزمت عليك أتجدنى ألحن ؟ فقال يحيى : نعم ، فقال له : فى أى شىء ؟ فقال : فى كتاب الله تعالى ، فقال : ذلك أشنع ، ففى أى شىء من كتاب الله تعالى ؟ قال : قرأت « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم » فرفعت أحب وهو منصوب . فقال له الحجاج : طول لحيتك دفعك ـ وكان طويل اللحية ـ لا تساكنى فى بلد أنا فيه ونفاه إلى خراسان .

وأما البيئة العربية فى ذلك الحين ، فقد كانت تشجع أعظم التشجيع ، على البحث والدرس ، فقد كان الناس يعظمون العلماء ويستفيدون منهم ويرحلون إليهم . وكان الخلفاء والأمراء يجزلون صلات العلماء بحرف واحد من اللغة يستفيدونه منهم ، كما يحكى أن المأمون قال بحضرة النضر بن شميل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها ، كان فيها سداد من عوز ، فأورده بفتح السين . فقال النضر : سداد بكسر السين . فقال المأمون : وما الفرق بينهما ؟ فقال النضر : السداد بالفتح القصد فى الدين والسبيل والسداد بالكسر المبلغة ، وكل ما سددت به شيئا فهو سداد ، قال العرجى :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا
ليوم كريهة وسداد ثغر

ثم أمر له المأمون بخمسين ألف درهم وأمر له الفضل بثلاثين ألفا .

هذه العناصر الاربعة التى ذكرنا أنها تدعو إلى استنباط العلوم وابتكار قوانين اللغة كانت موجودة فى البصرة والكوفة ، ولذلك بدأ النحو فى هذين المصرين ثم انتشر بعد ذلك فى الأمصار الإسلامية ، فليت شعرى ما الذى فقدته الأمصار الإسلامية ، كمصر ، والشام ، والحجاز ، من هذه العناصر الاربعة فلم يظهر فيها النحو ولم تستنبطه وكانت عيالا فيه على نحو البصرة والكوفة ! وليت شعرى ما الذى تنقصه الممالك الإسلامية الآن من هذه العناصر فعجزت عن استنباط العلوم ومجاراة الأمم فى بناء هيكل العلم المقدس ؟ هذا موضوع حقيق بأن يبحث مستقلا لأنه لا يخلو من طرافة ، ولا يخلو من فائدة أيضا ؟

محمد عرفه

فتوح العقلية الإسلامية فى العلم والفلسفة

فضل العرب على فلسفة اليونان

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

نحسب أنه قد جاء الأوان الذى نكتب فيه فلسفتنا بأيدينا ، وأن نؤرخ لها بأقلامنا ، بعد أن سجل المستشرقون رأيهم فيها ، وأعلنوا أن الفلسفة الإسلامية ليست شيئاً آخر إلا الفلسفة اليونانية دوّنت بحروف عربية . بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا : إن علم الكلام ، والفقه ، والنحو ، وغيرها من العلوم ، يونانية .

ولن نذهب مذهب هؤلاء القوم من الغلو فى تقدير اليونان والحط من شأن العرب ، أو نتطرف على العكس فى رفع قيمة العرب وتجريد غيرهم من كل شىء . ولكننا نقول كما قال أرسطو فى أوائل كتاب ما بعد الطبيعة : إنه ينبغى أن نشكر السابقين لأنهم مهدوا الطريق . ولم يفته أن يسجل الفضل للمصريين بوجه خاص لامتيازهم فى العلم الرياضى . وقد صاغ الكندى هذا الرأى فى كتابه إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى فقال : « فينبغى أن يعظم شكرنا للآتين بيسير الحق فضلا عمن أتى بكثير من الحق ، إذ أشركونا فى ثمار فكرهم ، وسهلوا لنا المطالب الحقية الخفية . فإنهم لو لم يكونوا لم يجتمع لنا مع شدة البحث فى مددنا كلها هذه الأوائل الحقية ، التى بها خرجنا إلى الأواخر من مطلوباتنا الحقية . فإن ذلك إنما اجتمع فى الأعصار السالفة المتقادمة عصراً بعد عصر إلى زماننا هذا ... »

وقد كان من الخير أن تنتقل حضارة الإغريق على يد المترجمين إلى أرض جديدة ، وتدرج إلى عقول جديدة ، لأنها كانت كالحب الذى ينبت فى غير وطنه فيعطى ثمراً يختلف فى طعمه عن الثمر الأصلى . بل وفى شكله . فلما تمثل العرب فلسفة اليونان ، اختلطت بأقوى عنصر من عناصر الحضارة الإسلامية ، وهو الدين الذى يعتمد على أصل ثابت من الكتاب الكريم ، لا ريب فيه ، ولا مبدل لكلماته ، هدى للمتقين .

ولم تكن الفلسفة اليونانية غريبة عن الدين ، ولكنه دين أساطير يؤله البحر والسماء والشمس والقمر ويتخذ آلهة كثيرة ، ولم يستطع فلاسفتهم المبرزون مثل أفلاطون وأرسطو أن يخلصوا من أثر تلك الأديان . وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن فلسفة أفلاطون متأثرة تأثراً شديداً بالنحلة الأورفية . ومَنْ أراد من فلاسفتهم أن يتحرر من سلطان الدين ، وأن ينظر إليه بعين العقل ، لقى من غضب الشعب ما يقسره على الخوف ، وكتم الرأى ، ومسايرة الجماعة . فقد اتهم سقراط بإنكار آلهة اليونان ، وحوكم من أجل ذلك وأعدم . واتهم أرسطو بتهمة شبيهة بذلك لأنه نظم قصيدة رثاء عند موت صديقه الملك هرمياس ، وكان الشعر وقفاً على الآلهة فقط ، وهرب أرسطو خوفاً على مصيره . وقد جرد أرسطو الإله من كل شىء ، فهو عنده « المحرك الذى لا يتحرك » ، مفارق للعالم ، لا يُعنى به ، ولا يعلم عنه شيئاً . وتختلف هذه النظرة اختلافاً شديداً عن نظرة الأديان

السماوية ، كاليهودية والمسيحية والإسلام ، ولذلك عدل المسيحيون والمسلمون عن رأى أرسطو فى الله ، واصطنعوا فلسفة أخرى تتلاءم مع الأديان السماوية .

ومع ذلك فقد نصب فلاسفة المسلمين أقلامهم للدفاع عن فلسفة اليونان الدينية ، وذهب الشهرزورى فى كتاب نزهة الارواح ، بعد أن حكى آراء الفلاسفة الطبيعيين ، إلى أن نظرياتهم كانت «رمزاً» ، أما الحقيقة فإنهم كانوا من المؤلهة .

فإذا كانوا مؤلهة على الحقيقة ، فإنما رمزوا خشية ورهبة . والواقع أن الفلسفة اليونانية لم تكن تمتاز بالتصريح العلانية ، حتى فى أزهى عصورها . فهذا أفلاطون لم يدون دروسه فى «الأكاديمية» ، أما محاوراته فقد كتبها للجمهور لا للفلاسفة . وكان أرسطو يلقى دروساً للخاصة من تلاميذه ، وأخرى فى المساء لجمهور المستمعين . وكتبه التى وصلت إلينا هى «المذكرات» التى كان يلقى منها دروسه ، وهذا سر غموضها وعلة تركيزها ، ويسميها العرب «التذاكير» .

ولم يكن فى الفلسفة الإسلامية سر تخفيه عن الناس ، أو علم يستأثر به الفلاسفة دون العامة والجمهور . وهذا كتاب «الشفاء» لابن سينا يعد موسوعة كبرى حوت جميع أبواب الفلسفة ، ولم يكن الكتاب مقصوراً على فئة دون فئة ، بل لقد يسر الشيخ الرئيس قراءته للناس فاختصره فى كتاب «النجاة» ليكون أيسر تداولا .

فأول فضل للعرب على فلسفة اليونان ، هو هذه النزعة الديمقراطية ، التى أنزلت الفلسفة من السماء إلى الأرض على الحقيقة ، ويسرت لكل «إنسان» أن يفكر فيها ، باحثا ومبتكرا ، مؤيدا ومعارضا .

الدين الجديد :

وإنما جاءت هذه النزعة من طبيعة الدين الجديد . فهو دين عقل وتجديد لا دين رسوم وتقليد . والقرآن خطاب للناس كافة دون تمييز بين جنس وجنس أو طبقة وأخرى ، وفى الأثر «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى» .

وقد جاء الإسلام بعدة أصول عامة مما يتعرض لها الفلاسفة ، ولكنه نظر إليها بطريقة خاصة تختلف عن طريقة الحكماء . هذه الأصول هى وجود الله ، ووحدانيته ، وخلق العالم ، ثم الصلة بين الله تعالى والعالم جملة ، وبالإنسان ومصيره بوجه خاص .

وليس بين فلاسفة الإسلام من أنكر وجود الله ، أو قال بالتعدد مثل فلاسفة اليونان ؛ وأدلتهم على الوجود والوحدانية متأثرة تأثراً شديداً بالإسلام ، وتختلف اختلافاً بيناً عن أدلة اليونانيين وعن أدلة أفلوطين صاحب الأفلاطونية الجديدة ، والذى نقل كتابه التاسوعات ونسب خطأً إلى أرسطو باسم «الأثولوجيا» أو «الربوبية» وقيل إنه أثر فى الفلسفة الإسلامية أبلغ الأثر . ونحن لا ننكر ذلك فى تفصيلات كثيرة ، ولكن النظرية العامة لأفلاطين تختلف عما ذهب إليه فلاسفة المسلمين .

وعند الكندى : الله هو «المدبر» الأول . ويعتمد فيلسوف العرب فى إثبات وجود الله ،

على البرهان الغائى ، وفكرة التدبير ، بل لفظ التدبير ، مما ورد فى القرآن الكريم .

وعند الفارابى : أن الله هو « مبدع » الكل .

وهنا ينظر المعلم الثانى فى وجود الله إلى العلة الأولى ، وإلى الإبداع ، طبقاً لما جاء فى محكم التنزيل من أن الله تعالى بديع السموات والأرض .

ويرى أبو على بن سينا أن الله «واجب الوجود» وذلك بعد قسمة الموجودات إلى واجب وممكن ومستحيل . وهذه قسمة تعتمد على المنطق ، وقد درجت فى براهين المتكلمين فيما بعد ، حتى لقد أورد محمد عبده فى رسالة فى التوحيد هذا البرهان .

أما أبو يوسف وأبو نصر فقد كانا أدنى إلى روح الإسلام وأقرب من نصوصه . وكان أبو على فى برهانه فيلسوفاً مستقل الفكر لم يأخذ عن اليونان ، ولم يتأثر بالإسلام ، ولذلك هاجمه أبو حامد الغزالى فى التهافت هجوماً شديداً .

ومن الطبيعى وقد برهن الفلاسفة على وجود الله أن يبرهنوا كذلك على الصلة بينه وبين العالم وأن يفسروا الظاهرة التى تعد أساس الأديان السماوية وهى النبوة والوحى .

وهذا كله هو موضوع التوفيق بين الدين والفلسفة . وقد زعم المستشرقون أن فضل الفلسفة الإسلامية يقف عند هذا التوفيق ولا يتعداه ، وسوف نبين أن لها أفضالا كثيرة خلاف ما فطنوا إليه . وكان عمادهم فى تصوير هذا التوفيق ما سجله أبو الوليد فى كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» ، وسبقه أستاذه أبو بكر بن طفيل فصور هذه المشكلة تصويراً قصصياً فى كتابه «حى بن يقظان» الذى نقل إلى أوربا وأثر فى أهلها تأثيرا كبيرا .

العلم والفلسفة :

وإذا كانت الفلسفة قد اتصلت بالدين من جهة ، فقد اتصلت بالعلم من جانب آخر ، ولا نعدو الصواب إذا قلنا إن العلوم المختلفة ، كالحساب والهندسة والطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب كانت فروعا من شجرة الفلسفة .

حقا نقل العرب فلك بطليموس ، ورياضة أقليدس ، وطب أبقراط وجالينوس ، ولكن هذه العلوم كانت قد تفرقت ، واختص بكل فرع منها قوم ، حتى جاء العرب وسن لهم أبو يوسف يعقوب الكندى سنة الجمع بينها ، فكانت له رسائل فى الفلك والهندسة والكيمياء كما كتب فى الفلسفة . وبذلك أصبحت الفلسفة هى المعرفة الشاملة بجميع العلوم . ولم يقتصر فلاسفة الإسلام على الفلسفة وحدها ، بل كان معظمهم « علماء » إما فى العلم الرياضى وإما فى العلم الطبيعى . وهذا هو سبب نهضة الفلسفة الإسلامية ، وارتفاع شأن ممثليها ، كالحال فى ديكارت وليبنتز ، ولكل منهما نظريات رياضية جديدة . ولا تزال هذه السنة قائمة حتى الآن ، فهذا بوانكاريه وبرجسون وبرتراند رسل وهوايتهيد وأينشتين وغيرهم لم تصبح لهم كلمة فى الفلسفة مسموعة إلا لامتلاكهم ناصية العلم الرياضى أو الطبيعى .

ومن الغريب أن يقال إن الفلسفة الإسلامية اقتصرت على نقل علوم اليونان والوقوف عند شرحها . فهذا أبو نصر الفارابى ابتكر علم

الموسيقى ، حتى لقد وصفه ابن قيم الجوزية فى كتابه إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، بأنه سمى « المعلم الثانى » لأنه وضع التعاليم الصوتية كما وضع أرسطو المنطق فلقب بالمعلم الأول . وكان الفارابى إلى ذلك صاحب معرفة شاملة ، وهو صاحب « إحصاء العلوم » ، وقد أراد صديقنا الدكتور عثمان أمين أن يفسر تسميته بالمعلم الثانى من أجل ذلك . وذهب الأستاذ زكريا يوسف فى مهرجان ابن سينا الذى أقيم فى بغداد إلى أن الشيخ الرئيس هو أول من وضع علم الموسيقى .

ولا نريد أن نخوض فى تفصيل العلوم واحداً واحدا فنبين فضل فلاسفة العرب على علم الفلك ، والرياضة ، والنبات والحيوان ، والكيمياء وغير ذلك ، فكتبهم التى نقلت إلى اللاتينية فى العصر الوسيط هى التى عوّل عليها الأوربيون فى نهضتهم العلمية . غير أننا نريد الإشارة إلى هذا المعنى ، وهو أن فلاسفة المسلمين هم الذين سنوا سنة الجمع بين الحكمة والعلم ولعل لفظ « الحكيم » الذى يعنى به العامة « الطبيب » إنما يرجع إلى أن أطباء الإسلام كانوا فلاسفة وحكماء فى الوقت نفسه . ولا غرابة بعد ذلك أن تجد سيرة الفلاسفة فى كتاب « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » لابن أبى أصيبعة .

نظرية المعرفة :

ومن المسائل التى تضرب فى الفلسفة إلى الصميم ، بل التى تعد جوهر الفلسفة ، هذه المسائل التى يسميها المحدثون نظرية المعرفة ، والتى سماها القدماء « العلم » . وإنما عدلنا عن لفظ « العلم » إلى « المعرفة » لأن العلم (Science) فى العصر الحاضر إصطلاح خاص يقصد به مجموعة القوانين العامة المستمرة من المشاهدات والمؤيدة بالتجارب.

ولفلاسفة الإسلام رأى فى المعرفة ، ولعلماء الكلام رأى كذلك ، حتى لقد أفرد المتأخرون منهم بابا خاصا باسم العلم ، كما هو الحال فى « المواقف » للإيجى مثلا . ولعلك تقول : وما شأن المتكلمين بالفلاسفة وكيف تخلط بين هؤلاء وأولئك ؟ كان ذلك صحيحا فى القرن الثالث وابتداء الرابع ، حتى إذا كنا فى القرنين الخامس والسادس ، اختلطت مباحث الكلام بالفلسفة ، وذلك باعتراف المتكلمين أنفسهم ، ويكفى أن تقرأ استهلال كتاب « العقائد » للنسفى الذى يقول فيه « قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسفسطائية . . . . لتحس أنك بإزاء كتاب فى الفلسفة لا فى علم الكلام. وفى رأى الكثيرين أن الغزالى يعد بسبب كتابيه المقاصد والتهافت من الفلاسفة لا من المتكلمين أو الفقهاء أو الصوفية . وهذا هو رأينا أيضا .

على أن نظرية المعرفة عند المتكلمين تلائم أغراضهم من إثبات الحقائق الدينية التى وردت فى الشرع ، أما الفلاسفة فقد نظروا إلى المعرفة نظراً حراً من كل تأثير دينى .

ما هى طرق المعرفة ؟ أهى الحواس أم العقل؟ أم يوجد طريق آخر غير الحواس والعقل ؟ وكيف نصل إلى تكوين المعانى الكلية

وإلى القضايا التى نحكم فيها بمعنى على معنى ؟ وهل المعرفة كلها مكتسبة أو نظرية ، أو بعضها نظرى وبعضها الآخر مكتسب ؟ .

لقد نظر فلاسفة اليونان فى هذه المشكلات ، أو فى بعضها على الأقل ، ولكنه نظر لا يغنى . فهذا أفلاطون يحدثنا عن الجدل الصاعد من المحسوس إلى المعقول ، ثم الجدل النازل من المعقول إلى المحسوس ، ولكن رأيه شديد الغموض ، أما فلاسفة الإسلام ، فلأنهم اشتغلوا كما ذكرنا بالعلم الرياضى والطبيعى وكانوا أطباء يعولون على المشاهدة والتجارب ، فقد تأثروا بالمنهج العلمى . ونحن نجد نواة نظرية المعرفة عند الفارابى الذى جمع بين المعلومات المكتسبة من الحواس وبين العقل . ولكن الفارابى فيلسوف مركز ، يكتب على طريقة « الفصوص » . حتى إذا جاء أبو على بن سينا بسط هذه النظرية فى إفاضة . فالكليات تكتسب بتجريدها من المحسوسات الجزئية ، والأحكام العامة مستفادة من التجربة مثل « أن السقمونيا مسهل للصفراء ، وذلك لمشاهدتنا ذلك كثيراً » كما حكى الشيخ فى « النجاة » . ونحن نجد هنا أن الرأى للطبيب لا للفيلسوف . ولكن ابن سينا يحدثنا إلى جانب ذلك أن العقل البشرى فيه « أوليات » أو « بديهيات » مثل أن الكل أعظم من الجزء ، وأن الأشياء المساوية لشىء واحد متساوية وهذه من طبيعة العقل لا تستفاد من مشاهدة أو تجربة .

لا نود أن نعرض هنا بالتفصيل لمذهب ابن سينا ، ولكننا نشير إلى أن النجاة والشفاء قد ترجما إلى اللاتينية ، ولا نستبعد أن يكون ديكارت وكانط قد تأثرا بالشيخ الرئيس فى كثير من آرائهما ، كما بينا ذلك فى بعض مباحثنا .

ويضيف المتكلمون إلى طرق المعرفة طريقا جديداً ، هو « الخبر الصادق » ويذهب الفارابى إلى أن العلم إما أن يكون ربانيا وإما أن يكون إنسانيا . فالعلم الربانى يحصل بالكشف والذوق والعلم الإنسانى يتم بالمشاهدة والتحصيل .

الأسباب والمسببات :

وهذه مسألة من أخطر المسائل الفلسفية نعنى بها نظرية السببية . وقد فتح بابها الغزالى ولا تزال المشكلة معروضة على بساط البحث حتى اليوم خاض فيها هيوم ، وكانط ، كما عرض لها المحدثون المعاصرون .

يقول الغزالى إن النار إذا اقتربت من القطن أحرقته ، فيذهب الفلاسفة إلى أن النار « علة » الإحراق . فما معنى العلة أو السبب ، أذلك فى الأشياء الطبيعية ، أم فى عقولنا ؟ فإن كانت الأسباب فى الأشياء الطبيعية فإنها عادمة للعقل وتحتاج إلى مدبر يدبرها . وإن كانت السببية فى عقولنا ، فإن مرجع ذلك إلى « العادة » التى ألفنا فيها النظر إلى تكرار وقوع الاحتراق بعد اقتراب النار من القطن . ويخلص الغزالى من ذلك كله إلى مسبب الأسباب وهو الله تعالى

وهذا الذى يقوله الغزالى يشبه إلى حد كبير ما يقوله : « مالبرانش » تلميذ ديكارت ، حين يذهب إلى أن الأسباب الظاهرة إن هى

إلا « مناسبات » تبرز فيها الإرادة الإلهية .

أما هيوم ، فإنه أرجع السببية إلى قانون ارتباط المعانى فى الذهن . وكان لهدمه مبدأ السببية أثر عظيم فى فلسفة كانط ، الذى رأى فى هدم السببيه هدماً للعلم ، فذهب إلى أن السببية من جملة الصور الموجودة فى العقل البشرى والتى تفرض فرضاً على الأشياء . ولم يجد برتراند رسل فى كتابه الأخير « المعرفة الإنسانية » أدلة فلسفية يمكن أن تنطع بالاعتقاد فى السببية ، ولكنه أجازها ، لأن العلم لا يقف على قدميه إلا على هذا المبدأ . وهكذا نرى أن موقف الغزالى وبراهينه ونقده القوى ومناقشته العميقة كل ذلك لا يزال فتحاً جديداً فى عالم الفلسفة . وهذا من فضل العرب على فلسفة اليونان ، بل على الفلسفة الحديثة .

العقل والنفس :

وقد نظر فلاسفة اليونان إلى العقل والنفس . ويعد كتاب النفس لأرسطو مرجعاً فى هاتين المسألتين . وقد نقل اسحاق بن حنين هذا الكتاب إلى العربية ، وشرحه الإسكندر الأفروديسى ، وعرف العرب الأصل والشرح . ولكن مقالة أرسطو فى العقل كانت أشبه بالرموز المستغلقة ، وهى إلى ذلك شديدة الإيجاز ، وأشار فيها إلى خلود العقل ، ومفارقته ، مما يتنافى مع مذهبه الطبيعى العام مما جعله يلحق علم النفس بالعلم الطبيعى .

ونحن نجد لفلاسفة الإسلام البارزين آراء فى العقل والنفس ، مثل الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد .

وأوضح هؤلاء جميعاً ، وأبعدهم أثرا فى تاريخ الفلسفة ، سواء فى الشرق أو فى الغرب . هو ابن سينا .

وقد ميز الشيخ الرئيس بين النفس والعقل ، فالنفس الإنسانية حين اتصالها بالبدن تسمى النفس ، فإذا فارقته بعد الموت تسمى العقل .

وساق ابن سينا أدلة كثيرة على وجود النفس وامتيازها عن البدن ، منها برهان « الأنا » حين تقول أنا فعلت كذا أو كذا . وبرهان الرجل الطائر الموجود فى الشفاء وبرهان الشعور بالأحوال النفسية واستمرارها . وقد تنبه المستشرقون إلى أن ديكارت متأثر فى برهانه المشهور ، « أنا أنكر ، إذن أنا موجود » ببراهين ابن سينا ، ولا سيما وقد كانت كتبه مترجمة إلى اللاتينية ومتداولة فى أوربا . وكذلك تلتقى آراء الشيخ بآراء وليم جيمس وبرجسون فى العصر الحديث .

إلا أن المسلمين بعد ابن سينا ، لم يجددوا مع الأسف فى الفلسفة ، ولم يتابعوا النهضة التى بدأها الكندى وسار على هداها الفارابى حتى انتهت إلى المعلم الثالث .

وانتقلت الفلسفة إلى أوربا ، وشقت طريقها ، وظلت تتقدم حتى اليوم .

وليس ببعيد أن نرى الفلسفة تعود مرة أخرى إلى الشرق ، فتتبوأ ما كان لها من منزلة على يد المعلمين الثانى والثالث .

أحمد فؤاد الأهوانى

تدعيم الإسلام للأسرة

للدكتور على عبد الواحد وافى

تتأثر شئون المجتمع تأثراً كبيراً بمقومات الأسرة وما تعتمد عليه من دعائم. فإذا قامت الأسرة على أسس قوية سليمة استقرت أحوال المجتمع وتوطدت أركانه: وإذا وهنت قواعدها اضطربت حياته واختل توازنه. فالأسرات، كما يقول «أوجيست كونت» منشىء علم الاجتماع، هي الخلايا الأولى التي يتألف منها جسم المجتمع، فبصلاحها يصلح هذا الجسم، وبفسادها يدب إليه السقم والانحلال.

ولذلك وجه الإسلام قسطاً كبيراً من عنايته نحو تدعيم نظام الأسرة، وتخليصها من شوائب الضعف، وإحاطتها بما يكفل لها الصلاح والاستقرار. فلم يغادر أية ناحية من نواحيها إلا أقامها على نظم رشيدة، وقضى على ما كانت تسير عليه عند العرب وغيرهم من طرائق معوجة فاسدة. ذلك كان موقفه في شئون الخطبة، واختيار الزوج لزوجه، ومراعاة الكفاءة بين الزوجين، ونظام المهور، وإجراءات عقد الزواج وإشهاره، وما أضفاه على هذا الميثاق من قدسية وجلال، وما قرره في حقوق كل من الرجل والمرأة والأولاد والأقرباء وواجباتهم بعضهم حيال بعض، وتنظيمه لاقتصاديات الأسرة وتوزيع وظائفها وأعبائها بين أفرادها، وتحديد الشخصية المدنية لكل منهم، ومبلغ ما يتمتع به من حرية في التملك والتعاقد والالتزام، ومدى مسئوليته عن تصرفاته وأعماله وعن أعمال غيره من بقية أفراد أسرته الخاصة وأسرتيه العامتين وهما عاقلته أو عصبته وذوو أرحامه أو أقرباؤه من جهة الأب ومن جهة الأم، والنظم الحكيمة التي قررها بصدد الأرقاء والموالي من الجنسين وعلاقتهم بأسيادهم وحقوقهم وواجباتهم وشئون أسراتهم الخاصة والعلاقة بين السيد ورقيقاته وأولاد الجواري من أسيادهم ومن غيرهم، والأسس التي أقام عليها شئون البنوة والقرابة والنفقة والرضاع والحضانة وتعدد الزوجات والصلح بين الزوجين والتحكيم فيما ينجم بينهما من خلاف والطلاق والميراث والوصية.. وهلم جرا.

وغني عن البيان أن المقام لا يتسع للكلام على ما جاء به الإسلام من نظم في جميع هذه الشئون. هذا إلى أن معظمها قد قتله العلماء بحثاً في مؤلفات الفقه والشريعة المقارنة وتاريخ النظم الإسلامية، وأصبح الكلام فيه من نافلة القول. ولذلك سنقتصر في مقالنا على بيان ما جاء به الإسلام من تدعيم لنظام الأسرة في أربعة مواقف لم يوجه إليها الباحثون من قبلنا عناية كبيرة، ولم يوفوها حقها من الدراسة، ولم يبينوا ما لها من آثار خطيرة في هذا الصدد: وهي مواقفه حيال نظام «التبني»، ونظام «الاعتراف بالولد» ونظامي «الادعاء»، و «الخلع» في القرابة.

١ - أما نظام « التبنى » فيجيز للإنسان أن يتخذ فردا غير منحدر من صلبه ولداً له ؛ فيعامل هذا الغريب معاملة أولاده أمام القانون والمجتمع وينعم بحقوقهم ، وتقع عليه أعباؤهم وواجباتهم .

وقد عمل بهذا النظام كثير من الأمم فى العصور القديمة والوسطى بشروط وأوضاع تختلف باختلاف الأمم التى أخذت به . وكان العرب فى الجاهلية يطبقونه فى نطاق واسع ؛ حتى لقد كان يندر أن نجد من بين سراتهم وأوساطهم من ليس له ولد أو أولاد بطريق التبنى . ولقد تبنى الرسول عليه الصلاة والسلام نفسه قبل رسالته زيد بن حارثة ، مع أنه كان معروف الأب والأم . وذلك أن أم زيد هذا قد خرجت به لزيارة أهلها ، فسطا عليها بعض الأعراب وخطفوا منها ابنها ؛ وكان الخطف رافدا من روافد الرق فى الجاهلية . فباعوه بيع الأرقاء مع أنه معروف النسب ومن أسرة عربية عريقة . وظلّ ينتقل من يد إلى يد حتى وقع أخيرا فى يد خديجة . وقد وهبته خديجة لزوجها محمد بن عبد الله ، فأعتقه وتبناه قبل الرسالة .

ولا يخفى ما يؤدى إليه نظام التبنى من اختلاط فى الأنساب ، وتوهين لحرمة القرابة ، وإضعاف لوشائج الدم ، وإفساد لمقومات الأسرة ، وإثارة لعوامل الفتنة والضغينة ، وإضرام لنار الشقاق والنزاع بين العشائر والأسرات .

ولذلك حرمه الإسلام تحريماً قاطعاً ، وأنكره القرآن فى عبارات قوية تنمّ على شدة تعارضه مع الدعائم السليمة التى ينبغى أن يقوم عليها نظام الأسرة الإنسانية : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه . . . وما جعل أدعياءكم[1] أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط[2] عند الله ، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم »[3] .

ولحرص الإسلام على القضاء على هذا النظام ، وإزالة جميع آثاره ، ولقوة تأصله فى نفوس العرب لم يكتف بإلغائه بالقول ، بل رأى أن يمحوه كذلك بطريق عملى وبفعل الرسول نفسه ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه أن يتزوج مطلقة زيد بن حارثة الذى كان قد تبناه قبل الرسالة ، ليبين للناس بطريق عملى أنه لا تبنى فى الإسلام ، وأن الدين الجديد قد قضى على هذه القرابة المصطنعة ، ومحا جميع آثارها ، وأحل ما كانت تحرمه ، ومن ذلك زواج الرجل بمطلقة من تبناه ، وذلك أن العرب فى الجاهلية ، لإنزالهم الدعى منزلة الابن من جميع الوجوه ، كانوا يحرمون على من تبناه أن يتزوج بمطلقته كما يحرم على الأب الزواج بمطلقة ابنه من صلبه . فجاء زواج الرسول عليه السلام بمطلقة زيد تقريرا عمليا لإلغاء هذا النظام وما يترتب عليه .

هذا ، وقد تخبط كثير من المؤرخين والمفسرين تخبطا كبيراً فى بيان الأسباب التى دعت الرسول إلى الزواج بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة

(١) المقصود بالأدعياء فى الآية : الذين كان الناس يتخذونهم أولاداً بطريق التبنى .
(٢) أعدل .
(٣) سورة الأحزاب آيتى ٤ ، ٥ .

مع أن القرآن نفسه بيّن بصريح العبارة أن السبب في ذلك حرص الشارع على القضاء على نظام التبني ومحو آثاره بطريق عملي بفعل الرسول نفسه . وذلك إذ يقول : « فلما قضى زيد منها وطراً [١] زوجناكها ، لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا [٢] » ، ولتوكيد هذا الحكم يقول الله تعالى في الآية التي بين فيها من يحرم الزواج بهن : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت .. وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » [٣] : أي إن الأبناء الذين يحرم على الآباء الزواج بمطلقاتهم هم الأبناء الذين ينحدرون من أصلابهم لا الذين يجيئون عن طريق الادعاء والتبني الذي قضى عليه الإسلام .

ولم تستثن الشريعة الإسلامية من ذلك إلا حالة واحدة وهي حالة اللقيط الذي لا يعرف نسبه ؛ فتبيح أن يلتحق نسبه بمن التقطه إذا قبل أن يلتحق نسبه به أو بأي شخص آخر يدعيه إذا لم يدعه الملتقط نفسه (أما إذا ادعاه الملتقط وادعاه في الوقت نفسه شخص آخر فالملتقط أولى به) ؛ ويصبح في جميع هذه الأحوال من أولاد من ادعاه، سواء أكان الملتقط أم غيره ويعامل معاملتهم من معظم الوجوه [٤] .

(١) كناية عن طلاقه إياها .

(٢) سورة الأحزاب آية ٢٧

(٣) سورة النساء آية ٢٣

[٤] انظر في ذلك الميداني على القدوري [المطبعة الأزهرية سنة ١٩٢٧] صفحة ١٩٦ وبدائع الصنائع للكاساني [مطبعة الجمالية سنة ١٩١٠] الجزء السادس صفحة ١٩٨ .

وقد قصد الإسلام بهذا الاستثناء أن يشجع الناس على حماية اللقطاء وأن يحقق لهؤلاء من رعاية الأسرة وألفة القرابة والتنشئة الصالحة والحقوق المدنية ما لا يمكن أن يتحقق لأمثالهم بدون هذا الإجراء .

* * *

٢ — وأما نظام « الاعتراف بالولد » فيقضي ألا يلتحق نسب الولد بأبيه الشرعي إلا إذا اعترف به اعترافاً صريحاً ورضي أن يلتحق نسبه به . وكان هذا النظام سائدا عند كثير من الأمم في العصور القديمة والوسطى . فعند قدماء الرومان مثلا كان إذا ولد لعميد الأسرة ولد من زوجه الشرعية وجب تقديمه له ، بأن يوضع على عتبة حجرته ؛ فإذا قام وضمه إلى صدره كان ذلك اعترافا منه ببنوته ، وإذا تركه ملقى على العتبة اعتبر أجنبيا عنه وعن أسرته [١] . وكذلك كان شأن العرب في الجاهلية . فكانت البنوة في كثير من عشائرهم لا تثبت لمن يجيء من الزوجة الشرعية إلا باعتراف صريح من الأب .

ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا النظام من استهانة بحرمة الزواج ، واستخفاف بميثاقه ، واستبداد بشؤون الأسرة ، وإخضاعها لأهواء الأزواج ونزواتهم ، ونيل من كرامة الزوجات . وتعريض الأولاد للضياع ، وحرمانهم من أعز الحقوق الإنسانية وألزمها للحياة ، وتفرقة ظالمة بين الإخوة والأخوات ، وزلزلة عنيفة لدعائم النظام

[١] انظر في كتابنا في « الأسرة والمجتمع » صفحتي ١٣ ، ١٤ من الطبعة الثانية .

العائلي ومقوماته على العموم .

ولذلك حارب الإسلام هذا النظام فى جميع مظاهره ، ولم يأل جهدا فى القضاء عليه فقرر أن « الولد للفراش » [١] ، أى إن من يجيء من الأولاد ثمرة لفراش صحيح قائم على عقد الزواج يلتحق نسبه بالزوج من غير حاجة إلى اعترافه به اعترافا صريحا . وأخذت الشريعة الإسلامية بهذا المبدأ حتى فى الحالات التى يبدو فيها تعذر اتصال الزوج بزوجه ، كما إذا عقد مشرقى على مغربية بدون أن يتصل أحدهما اتصالا ظاهرا بالآخر ، وظل كل منهما مقيما فى بلده ، ثم جاءت الزوجة بولد بعد انتهاء مدة الحمل الشرعية فإنه يثبت نسبه من الزوج بدون حاجة إلى اعترافه به اعترافاً صريحاً [٢] .

ولم تستثن الشريعة الإسلامية من ذلك إلا من تجيء به الرقيقة التى لم يزوجها سيدها لشخص آخر ؛ فإنه لا يثبت نسبه من سيدها ولا يعتبر ولده إلا إذا اعترف به اعترافا صريحا [٣] . والسبب فى ذلك أن صلة الجارية بمولاها ليست صلة زوجة بزوجها بل صلة مملوكة بمالكها ، وأن هذه الصلة ليست قائمة على ميثاق وتعاقد بل قائمة على ملك اليمين ، وأنه ليس مفروضا دائما أن يعاشر السيد جاريته ويستمتع بها كما هو الشأن حيال زوجته الشرعية ، بل يجوز له ذلك ، ويجوز له أن يزوجها لرقيق مثلها أو لحر [١] ، كما يجوز له أن يقصرها على شئون الخدمة والعمل . فكان من العدالة إذن ألا يلتحق نسب ولدها به إلا بادعائه أى باعترافه اعترافا صريحا بمعاشرته إياها وبأن الولد من صلبه . وقد كان السيد ملزما ديانة ، أى فيما بينه وبين ربه ، أن يعترف بالولد الذى يجيء من معاشرته لرقيقته .

* * *

٣ ، ٤ - وأما نظاما « الادعاء » و « الخلع » فى القرابة فيجيز أولهما لعميد العشيرة أو لمجمع شيوخها أن يضم إليها بطريق الادعاء فردا غريبا عنها فيصبح عضوا فيها ويشارك أفرادها فى مختلف حقوقهم وواجباتهم ، ويبيح له ثانيهما أن يخلع أحد أعضائها الأصليين عن ذمتها ويقطع صلتها به ، فيصبح « خليعا » أجنبيا عنها من جميع الوجوه .

وقد أقر هذين النظامين أمم كثيرة فى العصور القديمة والوسطى بشروط وأوضاع تختلف باختلاف اتجاهاتها فى التشريع . وكان العرب فى الجاهلية يطبقونهما فى نطاق واسع . وقد شاع

---

[١] حديث نبوى ونصه « الولد للفراش وللعاهر الحجر » وقد ورد فى خطبة الوداع للرسول عليه السلام . ومعنى الجملة الثانية من الحديث أن من يثبت عليها الزنا بالأدلة القاطعة التى قررها الاسلام ينتفى نسب ولدها من زوجها ويجب رجمها بالحجارة .

[٢] انظر فى ذلك مقالا قيما لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت فى عدد ٥/١/٤٥ من جريدة المصرى .

[٣] انظر الميدانى على القدورى صفحة ٢٦٧ ، وبدائع الصنائع ، جزء رابع ، صفحة ١٢٥ .

---

[١] وفى هذا يقول الله تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » [سورة النور ، آية ٣٢] والفعل فى الآية بهمزة قطع من الرباعى بمعنى زوجوهم .

لديهم على الأخص نظام « الخليع » ، وكانوا يلجئون إليه فى الغالب لمجازاة أحد أفراد العشيرة لخصال أو أعمال تتعارض مع عرفها أو نظمها أو آدابها أو عقائدها فإذا وقع عليه هذا الجزاء أصبح « خليعا » غريبا عن عشيرته لا تعده من أفرادها ، فلا تؤخذ بجرائر أعماله ولا تثأر له إذا قتل . وقد طلب كفار قريش الذين ضاقوا ذرعا بمحمد عليه السلام وبدينه الجديد إلى عمه أبى طالب أن « يخلعه » حتى يستطيعوا قتله بدون أن يخشوا مطالبة بنى هاشم بثأره [١] .

وجميع ماقلناه فى مثالب نظامى « التبنى » و « الاعتراف » وآثارهما الهدامة وتقويضهما لدعائم الأسرة واعتدائهما على الكرامة والحقوق وإضرامها لنار الفتن والشقاق يصدق أكمل صدق على نظامى « الادعاء » و « الخلع » فى القرابة .

ومن أجل ذلك حرمهما الإسلام تحريماً باتاً كما حرم النظامين الأولين ، وقرر أن القرابة ليست هبة تمنح ولا رداء يخلع ، وليست خاضعة لإرادة الناس ولا لأهوائهم ، وإنما هى وشيجة دم لا يلقاها من لم تعطها له الطبيعة ، وعروة وثقى تنبعث عن لحمة النسب ولا تنفصم عمن امتزجت به .

ولم تستثن الشريعة الإسلامية من ذلك إلا حالتين ، أوجبت فى إحداهما قرابة غير قائمة على صلات الدم ، وأجازت فى الأخرى هذا النوع من القرابة ، مراعية فى هذه وتلك صالح الأفراد والصالح العام .

وأما إحداهما فتتمثل فى نظام « مولى العتق » ، وهو الذى يصبح بمقتضاه العبد بعد عتقه ، فى نظر الإسلام ، عضواً فى أسرة سيده يشترك مع أفرادها فى كثير من حقوقهم وواجباتهم ، حتى لقد كان يجب عليها أن تدفع عنه الدية ، إذا ارتكب جناية توجب الدية ، كما تفعل ذلك حيال أعضائها الأصليين ، وكان سيده يرثه إذا مات ولم يترك عصبة . وقد قصد الإسلام من ذلك إلى غرض إنسانى سام وهدف عمرانى نبيل ، وهو أن يكمل نعمة الحرية للعبد بعد تحريره ، فيجعله مساويا فى الحقوق والواجبات لأفراد الأسرة التى كانت تملكه ، ويجعل له من هذه الأسرة درعا تحمى حريته الطارئة وتدرأ عنه ما عسى أن يوجه إليه من عدوان ، ويسبغ عليه فوق هذا وذاك صفة من أهم الصفات الاجتماعية التى يمتاز بها الحر عن العبد إذ لا يعتد الأول عضواً فى أسرة وعشيرة بينما يعد الثانى فرداً لا أسرة له ولا عشيرة . [١]

وأما الأخرى فتتمثل فى نظام « مولى الموالاة » وذلك أن الشريعة الإسلامية تجيز لغير العربى إذا كان مجهول النسب أن يتخذ له وليًّا من أسرة

---

[١] لم يذعن أبو طالب لرغبتهم هذه . ولما علموا ببيعة الأنصار له اتفقوا على أن يختاروا من كل قبيلة فتى جلدا ويذهب هؤلاء الفتيان إلى محمد ويقتلونه معا ، وبذلك يتفرق دمه بين القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على محاربة جميع العرب . ولكن الله تعالى كتب لرسوله النجاة ولدينه البقاء بهجرته مع صاحبه إلى المدينة فى اليوم نفسه المحدد لتنفيذ جرمهم .

[١] أنظر فى موضوع « مولى العتق » الميدانى على القدورى ٢٧٤ - ٢٧٦ ، والبدائع الجزء الرابع ١٥٩ - ١٧٠

معروفة ، يرتبط معه بعقد صريح ، فيصبح بمنزلة عضو فى أسرة هذا الولى ، يدفع عنه الولى الدية إذا ارتكب جناية توجب الدية ويرثه إذا مات ولم يترك وارثاً . ويسمى من يكتسب قرابته عن طريق هذا العقد « مولى الموالاة »[١] . - وقد قصد الإسلام من هذه الرخصة أن يحقق للمستضعفين من الناس سنداً وحماية فى المجتمع الذى يعيشون فيه . ولذلك لم يبحها إلا لشخص غير عربى مجهول النسب ، لأن العربى ليس فى حاجة إلى هذه الحماية ، لأنه يحمى بعشيرته وذو النسب المعروف من غير العرب ليس فى حاجة إليها كذلك ، لأنه فى ظلال أسرته ، وانتماؤه لغيرها يؤدى إلى اختلاط الأنساب واضطراب الأسس التى يقوم عليها نظام القرابة .

على عبد الواحد وافى

[١] انظر فى موضوع « مولى الموالى » : الميدانى على القدورى ٢٧٦ ، والجزء الرابع من البدائع ١٧٠ - ١٧٣

جهود العلماء المسلمين فى ميدان العلوم

للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن

الرأى عند الثقات أن العلم الإسلامى قد بلغ أوج ازدهاره فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى . وهم يدللون على ذلك بكثرة العلماء الفطاحل فى ذلك العصر وقوة الابتكار التى تظهر فى أعمالهم ، وفى تميز نتاجهم العلمى عن علوم اليونان والهند وغيرها من الأمم السالفة التى كان العرب ينقلون عنها فى مبدأ الأمر . ومعنى ذلك أن العلم الإسلامى كان قد تأصل فى بيئته وأينع وأثمر ولم يعد عالة على غيره وغدا قائما بنفسه مبدعا بذاته .

وربما يتساءل المرء عن القيمة الحقيقية للتقدم العلمى عند العرب ، وخاصة إذا قورن بالعلم الحديث ، فكلنا يعلم أن العلم الأوربى الحديث قد أنتج للبشرية الكهرباء والطائرات والراديو وأنواع العلاج الطبى والمستحدثات الزراعية والصناعية ووسائل الترفيه والتسلية وأدوات الهلاك والدمار. فلنا أن نسأل هل أنتج العلم العربى قديما ما يقارن بمستحدثات العلم الحديث ؟ والجواب بالنفى . ولكن يلزم أولا لتقدير قيمة العلم العربى الحقيقية أن نوضح الفرق بين العلم القديم والحديث .

١ - العلم قديماً وحديثاً :

إن العلم الحديث أشبه شىء بجبل الثلج الطافى الذى يظهر منه فوق سطح الماء جزء ويختفى منه تحت الماء تسعة أجزاء ، فالناس عامة يرون من العلم الاختراعات والابتكارات والمستحدثات التى تتصل بحياتهم اليومية أو بثقافتهم العادية وهذا هو العشر الظاهر ، أما الذى لا يظهر لهم فهو الأسس النظرية والعملية للمعرفة العلمية والجهود المضنية التى يبذلها مئات العلماء فى خلال عشرات السنين فى البحث والدرس والتنقيب وإعمال الفكر وعصر الذهن ، سعياً وراء المعرفة وتجميعاً لكل دقيق من خيوطها والعمل الأخير - وهو الأهم فى العلم - لا يقدره الناس عامة حق قدره ، لأنه غير ظاهر أمام أعينهم ، فلو قلت لهم مثلا إن عالما جليلا فى معهد علمى أجنبى قضى طيلة حياته يدرس طبائع نوع واحد من أنواع الحشرات وأنه أصبح حجة فى هذا الفرع وأنه منح لذلك أكبر الجوائز العلمية ، إذا قلت ذلك فللقارىء العادى أن يعجب من غرابة أطوار

معروفة ، يرتبط معه بعقد صريح ، فيصبح بمنزلة عضو فى أسرة هذا الولى ، يدفع عنه الولى الدية إذا ارتكب جناية توجب الدية ويرثه إذا مات ولم يترك وارثاً . ويسمى من يكتسب قرابته عن طريق هذا العقد « مولى الموالاة »[1] . - وقد قصد الإسلام من هذه الرخصة أن يحقق للمستضعفين من الناس سنداً وحماية فى المجتمع الذى يعيشون فيه . ولذلك لم يبحها إلا لشخص غير عربى مجهول النسب ، لأن العربى ليس فى حاجة إلى هذه الحماية ، لأنه يحمى بعشيرته وذو النسب المعروف من غير العرب ليس فى حاجة إليها كذلك ، لأنه فى ظلال أسرته ، وانتماؤه لغيرها يؤدى إلى اختلاط الأنساب واضطراب الأسس التى يقوم عليها نظام القرابة .

على عبد الواحد وافى

[1] انظر فى موضوع « مولى الموالى » : الميدانى على القدورى ٢٧٦ ، والجزء الرابع من البدائع ١٧٠ - ١٧٣

جهود العلماء المسلمين فى ميدان العلوم

للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن

الرأى عند الثقات أن العلم الإسلامى قد بلغ أوج ازدهاره فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى . وهم يدللون على ذلك بكثرة العلماء الفطاحل فى ذلك العصر وقوة الابتكار التى تظهر فى أعمالهم ، وفى تميز نتاجهم العلمى عن علوم اليونان والهند وغيرها من الأمم السالفة التى كان العرب ينقلون عنها فى مبدأ الأمر . ومعنى ذلك أن العلم الإسلامى كان قد تأصل فى بيئته وأينع وأثمر ولم يعد عالة على غيره وغدا قائماً بنفسه مبدعاً بذاته .

وربما يتساءل المرء عن القيمة الحقيقية للتقدم العلمى عند العرب ، وخاصة إذا قورن بالعلم الحديث ، فكلنا يعلم أن العلم الأوربى الحديث قد أنتج للبشرية الكهرباء والطائرات والراديو وأنواع العلاج الطبى والمستحدثات الزراعية والصناعية ووسائل الترفيه والتسلية وأدوات الهلاك والدمار . فلنا أن نسأل هل أنتج العلم العربى قديماً ما يقارن بمستحدثات العلم الحديث ؟ والجواب بالنفى . ولكن يلزم أولا لتقدير قيمة العلم العربى الحقيقية أن نوضح الفرق بين العلم القديم والحديث .

١ - العلم قديماً وحديثاً :

إن العلم الحديث أشبه شىء بجبل الثلج الطافى الذى يظهر منه فوق سطح الماء جزء ويختفى منه تحت الماء تسعة أجزاء ، فالناس عامة يرون من العلم الاختراعات والابتكارات والمستحدثات التى تتصل بحياتهم اليومية أو بثقافتهم العادية وهذا هو العشر الظاهر ، أما الذى لا يظهر لهم فهو الأسس النظرية والعملية للمعرفة العلمية والجهود المضنية التى يبذلها مئات العلماء فى خلال عشرات السنين فى البحث والدرس والتنقيب وإعمال الفكر وعصر الذهن ، سعياً وراء المعرفة وتجميعاً لكل دقيق من خيوطها والعمل الأخير - وهو الأهم فى العلم - لا يقدره الناس عامة حق قدره ، لأنه غير ظاهر أمام أعينهم ، فلو قلت لهم مثلا إن عالما جليلا فى معهد علمى أجنبى قضى طيلة حياته يدرس طبائع نوع واحد من أنواع الحشرات وأنه أصبح حجة فى هذا الفرع وأنه منح لذلك أكبر الجوائز العلمية ، إذا قلت ذلك فللقارىء العادى أن يعجب من غرابة أطوار

العالم ولعله يحكم عليه بالشذوذ أو الجنون ، ولعله يأسف على ما بذل من جهد وما ضاع من مال سعياً وراء طبائع إحدى الحشرات . ولكنك إذا قلت له بعد ذلك إن تلك الحشرة عندما درست حياتها كشفت الطريق أمام الباحثين فعرفوا المبيدات الحشرية وأنقذوا محاصيل زراعية تقدر بمئات الملايين من الجنيهات ، عندئذ لا يستكثر المرء أى جهد ولا يستقل أى نتيجة يصل إليها العلماء ، فالعلم الظاهر للجمهور يسبقه ويرتبط به علم كثير لا يقدره الجمهور .

والآن نرجع إلى العلم الحديث فنقول : إنه سريع التطور والارتباط بالمجتمع ، بينما العلم القديم كان بطىء التطور ضعيف الارتباط بالمجتمع . انظر مثلا إلى (أبى سهل الكوهى) عندما يكتب إلى (أبى إسحاق الصابىء) قائلا :

« وأما مراكز الأثقال فيبقى منها شىء يسد حتى يتم ست مقالات متوالية ، أربع منها عملتها هاهنا بالبصرة ، واثنتان ببغداد . أما فى أربع المقالات التى عملتها هاهنا فقد ظهر لنا فيه أشياء عجيبة يدل كلها على نظم أفعال البارى عز وجل . منها . . . ثم يسترسل فى بيان مراكز أثقال الأشكال المسطحة والمجسمة المختلفة بنتائج بديعة إنها نتائج علمية صحيحة كانت مبتكرة فى حينها واعتبرت أساساً لكل البحوث التى أتت من بعدها إلى العصر الحديث . ولكنها بحوث لم تؤد حينئذ بذاتها إلى أى اختراع عملى ، فلم تظهر قيمتها للعامة . ولكن العلماء يقدرونها حق قدرها وهى اليوم من أسس علم الميكانيكا وتوازن الأجسام الذى هو بدوره ركن من أركان الحضارة الحديثة كلها .

فالحق يقال إن أبا سهل الكوهى قد أضاف نتائج من ابتكاره إلى حقائق علم مراكز الأثقال وإنه بذلك قد ساهم فى وضع أساس علم توازن الأجسام الحديث الذى يستعمل كل يوم فى صناعة الطائرات والسفن وكل قائم أو دائر من الآلات والمنشآت .

وهذا بيان ما نقوله بأن العلم القديم كان بطىء التطور ضعيف الرابطة بالمجتمع المعاصر له ، أما إذا نظرنا إلى العلم الحديث ، فإننا نجد مثلا أن فطر (البنسيلين) يعرف فى المخترعات العلمية وتتضح خصائصه الحيوية ، ثم لا تمضى بضعة سنوات حتى يكون منها دواء شاف يستعمله الناس آمن به الفائدة ويصير اسمه على كل لسان ، ذلك أن العلم فى المجتمع الحديث سريع التطور قوى التفاعل وثيق العرى ، ولم يكن الأمر كذلك من قبل .

فإذا تكلمنا اليوم عن العلم الإسلامى أو العلم اليونانى نكون قد حدنا عن جادة الصواب إذا سلكنا فى تقديره سبيل البحث عن الاختراعات والابتكارات التى نتجت عنه . فالزراعة والطب والهندسة والملاحة عند العرب وهى كلها فنون عملية كانت لا تعتمد على نتائج العلم المعاصر لها فى أغلب الأمر ، إنما كانت تستمد معرفها من العلم القديم الذى سبقها بعشرات القرون وكان قد تأصل فى المجتمع كحزمة يتوارثها أصحاب الصنائع والحرف .

وأولى بنا أن ننظر إلى علم الأقدمين لنقدر ما فيه من قدرة عقلية على الابتكار وما فيه من جهد ذهنى وتفكير صحيح .

ولما كان العلم القديم منفصلا عن التطبيق العملى إلى حد كبير ، فإنه كان يقوم إما على رغبة

العلماء أنفسهم فى الانقطاع له والعكوف عليه دون انتظار جزاء أو أجر، أو كان يقوم على تشجيع الأمراء والخلفاء ونصراء العلم والمعرفة. فلم يكن الانقطاع للعلم حرفة يتكسب بها المرء عن سعة إلا إذا تلقفته أيدى الأمراء وأولى النفوذ من الحكام والولاة. وبذلك نشأ علم (البلاط) أى العلم الذى يتحايل به العلماء للبقاء فى حاشية الأمراء. فكان من العلماء من يدرس التطبيب ومنهم من يدرس التنجيم ومنهم من يسعى وراء إكسير الحياة أو حجر الفلاسفة، وكل هذه مباحث زائفة ولكنها محببة إلى الولاة والأمراء الذين يبغون طالعاً سعيداً أو كنوزاً من الذهب أو هبة تطيل العمر وتمد لهم فى حبل الحياة.

وهكذا اختلط العلم القديم دائماً بعلوم زائفة، فاختلط الطب الصحيح (بفوائد) سحرية وأحجبة وتمائم، واختلط علم الفلك الصحيح بالتنجيم والكشف عن الغيب ومعرفة الطالع، كما اختلط علم المعادن والكيمياء بأبحاث إكسير الحياة وحجر الفلاسفة الذى يحيل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة (*).

وخلاصة القول أن على الباحث فى علم الأقدمين أن يقدر أنه علم منفصل عن المجتمع الذى يعاصره وأنه حينما يتصل بالمجتمع يختلط به علم فاسد كثير، فإذا قدر هذا كله واستصفى ما تبقى فإنه يجد كنوزاً من المعرفة الصحيحة ودرراً من العلم فريدة. جعلت الثقات من العلماء يعترفون بلا مراء أن التراث العلمى عند العرب لمما تعتز به الحضارة وأنه بلغ أوج ازدهاره فى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى.

[*] ولا يحسبن المرء أن الأقدمين وحدهم هم الذين خلطوا العلم الصحيح بعلم فاسد، إذ أننا نجد فى عصرنا الحاضر حكاماً أذلوا العلم وأفسدوه أيما إفساد. وأقرب مثل على ذلك نظرية الجنس والدم الآرى التى أوجدتها النازية على غير أساس صحيح تدعيما لمبادئها السياسية.

٢ — العلم عند العرب :

إن العالم المبتدىء إذا رغب اليوم فى بحث موضوع يبدأ أول ما يبدأ فى الاطلاع على بحوث من سبقوه فى دراسة نفس الموضوع، فإذا حصل على ذلك زاد على علمهم وأضاف إلى نتائجهم. وهذا هو المنهج الذى تبعه علماء العرب، فقد بدأوا بالاطلاع على كتب الأقدمين، وخاصة اليونان والهنود الذين كانت لهم حضارة علمية زاهرة سابقة على عهد العرب بقرون عدة وكانت تلك المؤلفات بلغات غير اللغة العربية، ولذلك لزم ترجمتها وتعريبها، فكانت المرحلة العلمية الأولى عند العرب هى الترجمة والنقل. ولا ضير فى هذا، بل هذا هو عين الصواب. وقد تم النقل فى صور مختلفة؛ فوجدت مدارس للترجمة فى صدر الدولة العباسية وأرسلت البعوث إلى بيزنطة غرباً والهند شرقاً لتستحضر نفائس المخطوطات للتعريب.

وكانت الترجمات الأولى فى الغالب ركيكة الأسلوب، سقيمة معقدة غير واضحة، ولم يكن المترجمون أنفسهم فى العادة قادرين على استيعاب ما فيها أو مناقشته، فكثرت فيها الأغلاط ولزم إعادة ترجمتها وشرحها شرحا وافياً (*).

[*] حكى عن الفارابى أنه قرأ كتاب النفس لأرسطو مائتى مرة وذكر ابن سينا عن نفسه أنه قرأ كتاب ما بعد الطبيعة أربعين مرة من غير أن يفهم ما فيه.

وكان العلم عند العرب يكتب للخاصة ممن يتدارسوه، وكانت المخطوطات تنسخ وتجلد لتوضع كالنفائس والدرر فى خزائن كتب الأمراء، فراجت تجارة استجلاب المخطوطات الصحيحة والزائفة سواء بسواء، بل إن الكثيرين من الكتاب والمؤلفين كانوا يصنعون الكتب بأنفسهم وينسبونها إلى علماء من الهنود أو إلى حكماء اليونان حتى يزيد قدرها فى سوق المعرفة وتنال حظوة ويسعى إليها الساعون. والمؤلفات المنسوبة إلى هرمس الحكيم وحده دليل على ذلك.

وهكذا ضاعت معرفة كثيرة من التى نقلت نظراً لعقم الترجمة وكثرة الأخطاء، كما ضاعت معرفة كثيرة مبتكرة كان الفضل فيها للعرب بأن نسبت إلى حكماء أقدمين اكتساباً للشهرة والتجارة.

ثم انتهى دور النقل والاتباع وجاء دور الإنتاج والإبداع. فوضعت الشروح لأمهات الكتب العلمية وكانت تلك الشروح تتضمن عادة الكثير من المعرفة المبتكرة، وانتشر العلماء فى الدولة الإسلامية فكانت منهم فئة بالأندلس وأخرى بالقاهرة وثالثة بالشام ورابعة ببغداد والبصرة وأخرى فى فارس وبلاد المشرق الإسلامى، وكان العلماء يتنقلون بين كل هذه العواصم وإن الثقافة الإسلامية كانت تجمعهم معاً وكانوا يتراسلون فيما بينهم ويتطارحون المسائل العلمية ويتبادلون المؤلفات والمحفوظات فكانت وحدة إسلامية علمية على الرغم من تفكك الدولة ذاتها وانقسامها إلى خلافات متنافرة ودويلات متناصرة.

وقد بقى منار العلم مضاء فى الدولة الإسلامية خمسة قرون أو تزيد، ثم خبا نوره وتلقفه منهم الإفرنجة فى أوروبا. وقد بدأ الأوربيون نهضتهم العلمية بالطريقة التى بدأها بها العرب، أى بالنقل والترجمة عن العرب والاطلاع على الكتب القديمة. ومما يسر لهم ذلك اتخاذهم اللاتينية لغة للتخاطب فيما بينهم ودراستهم اليونانية كلغة أصلية لمصادر علمية كثيرة.

ولكن علماء أوروبا منذ أواسط القرن السابع عشر، كانوا قد انتقلوا إلى مرحلة جديدة من مراحل العلم، هى ارتباطه بمسائل المجتمع والحياة وازدياد ترابطه بها وتفاعله معها، وفى تلك المرحلة تقدم العلم تقدما كبيرا وارتقى رقيا مضطردا لا زلنا نلمس آثاره كل يوم حتى الآن.

أما العلم عند العرب فقد بلغ القمة بعد أن كانت الدولة ذاتها قد أخذت فى التدهور والانحدار وبدأ الترك والتتار فى المشرق والإفرنجة والبربر فى المغرب ينتقصون من أطراف تلك الدولة وهؤلاء لم يكونوا أصحاب ثقافة قديمة ولم تكن لهم بالعلم حاجة ولم يكنوا له من التقدير والإجلال مثلما كان يفعل الأمراء والخلفاء فى عهد الدولة الإسلامية (*) لذلك خبا نور العلم ولم يدخل فى مرحلة التطبيق العلمى والتفاعل مع المجتمع كما حدث للعلم الأوربى الحديث.

والناظر فى تاريخ المعارف اليونانية قد يجد شبيها بذلك، إذ أن العلم الإغريقى بلغ الذروة فى

[*] كان العلماء العرب لا يسمح لهم بالرصد إلا إذا أقسموا يمينا بأن يكونوا أمناء فيها صادقين فى إثبات المشاهدة.

فى التقدم ، بعد أن كانت الدويلات الإغريقية ذاتها قد بدأت تنهار سياسياً أمام سطوة الرومان ذوى البطش والجبروت الذين عندما دانت لهم البلاد لم يساهموا هم أنفسهم بكثير أو قليل فى الحركة العلمية ذاتها وبقيت مراكز العلم القليلة قائمة فى الإسكندرية وفى جزائر البحر الأبيض وهى كلها معاقل متفرقة للمعرفة اليونانية لم تلبث طويلا حتى لحقها طوفان الرومان فعفت آثارها واندثرت من الوجود .

نذكر هذه الأمثال لنبين للقارىء أن تقدم العلوم عند العرب كان تقدما حقيقيا لا شك فيه ، وأنه كان عظيم الأثر فى تطور العلم وانتقاله إلى أوروبا وأن العلم الأوروبى الحديث عندما بدأ اتخذ عين الخطة التى انتهجها علماء العرب والإغريق من قبل وهى النقل والاستيعاب ، وأخيرا أن أهم ما يميز العلم الأوروبى الحديث عن العلم فى مراحله القديمة هو سرعة تطوره وارتباطه الوثيق العرى بواقع الحياة وتفاعله مع المجتمع. الشىء الذى لم يهيأ من قبل لا للعلم الإغريقى ولا للعلم الإسلامى .

ولكن يقتضينا واجب الإنصاف أن نزيد أن العلم العربى اتصل بالمجتمع وتفاعل معه فى بعض النواحى مثل الفلك والجبر والطب ، ففى الفلك درست مواقيت الصلاة والملاحة البحرية واستمدت العرب فى هذا العلم معرفة كانت تطبق فعلا فى أغراض عملية وكانت ضرورة تحديد المواقيت وتنظيم الأعياد فى ذاتها حافزاً للعلماء للتبحر فى هذا العلم .

أما الجبر والحساب فلعل الباحث يجد نشأته فى مسائل المواريث وهى ضرورة دينية جعلت العلماء يبتغون سبيلا إلى حل مسائلها العويصة فوجد علم الرمز ثم الجبر والمقابلة . وفى الطب استخدم العرب نباتات كثيرة لم تكن معروفة لدى الإغريق أو السريان ، ونقلوا معرفة الهند الطبية وتبحروا فى الرمد وجراحة العيون خاصة نظراً لانتشار أمراض العين فى بيئتهم الصحراوية .

وهذه الملاحظات على صحتها لا تغير مما سبق أن أوردناه من أن العلم العربى إذا قورن بالعلم الحديث يبدو منفصلا عن الحياة الاجتماعية .

٣ — أكبر علماء العرب :

ونورد فيما يلى تراجم مختصرة لأربعة من فطاحل علماء العرب فى صدر القرن الحادى عشر الميلادى الذى كان بحق العصر الزاهر للعلم العربى . وكانت الخلافة الفاطمية بمصر ، بينما قامت الدولة الإسلامية فى الأندلس ودويلات وإمارات بنى بويه والغزنويين وغيرهم فى المشرق وفارس .

(١) ابن يونس المصرى

أما من القاهرة فبزغ نجم ابن يونس الذى ولد فى مصر وتوفى فيها عام ١٠٠٩ ميلادية . وهو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفى المصرى . اشتغل بالفلك فى مرصد بنى له على جبل قرب الفسطاط وجهز بكل مايلزم من الآلات والأدوات ، وأمره العزيز أن يصنع زيجاً ، فبدأ به فى أواخر القرن العاشر للميلاد وأتمه فى عهد الحاكم بأمر الله وسماه

(الزيج الحاكمى) وصفه ابن خلكان بأنه « زيج كبير رأيته فى أربعة مجلدات ولم أر فى الأزياج على كثرتها أطول منه » ورصد ابن يونس الخسوف والكسوف واقتران الكواكب وأثبت بالرصد تزايد حركة القمر .

وينسب إلى ابن يونس أنه أول من استعمل (الخطار) بندول الساعة الدقاقة ، وبذلك سبق غاليليو بستة قرون . وبرع فى حساب المثلثات وقد حل أعمالا صعبة فى المثلثات الكروية وحسب جداول ستينية واخترع حساب الأقواس وكذلك اخترع آلة الربع ذى الثقب .

ويقول عنه بعض معاصريه إنه كان شاذ الطباع يضع رداءه فوق عمامته إذا ركب ضحك منه الناس لسوء حاله وشذوذ لباسه ، ولكن كان له مع هذه الهيئة إصابة بديعة غريبة فى النجامة لا يشاركه فيها غيره ، وكان متفننا فى علوم كثيرة كثير التصنيف وافر التزهد . . .

وجاء فى كتاب تراث الإسلام « إن علم البصريات وصل أعلى درجة من درجات التقدم بفضل ابن الهيثم » وقد درس الأستاذ مصطفى نظيف ، أخيرا حياة ابن الهيثم العلمية دراسة مستفيضة فى مجلدين نالا تقدير العلماء فى مصر والخارج ، وكشف فيها عن مقدرة ابن الهيثم العلمية ، وبحوثه المفيدة التى بقيت نبراساً لعلماء أوربا خمسة قرون متوالية .

(٢) ابن الهيثم

هو أبو على الحسن بن الحسن بن الهيثم . ولد عام ٩٦٥ بالبصرة ، وعاش فى مصر فى خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمى (٩٩٦ - ١٠٢٠) وتوفى بالقاهرة عام ١٠٣٩ ويعتبر بلا منازع أكبر علماء الطبيعة فى الإسلام ومن أعظم الباحثين عن علم الضوء فى تاريخ البشرية جمعاء ، اعترف بالفضل له المحدثون والقدماء على السواء . قال ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء :

« كان ابن الهيثم فاضل النفس قوى الذكاء متفننا فى العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلم الرياضى ولا يقرب منه . وكان دائم الاشتغال

جاء فى كتب التاريخ أنه نقل إلى حاكم مصر أن ابن الهيثم وهو فى البصرة قال « لو كنت بمصر لعلمت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان . . . »

فازداد الحاكم شوقا وسير إليه سراً جملة من المال ورغبه فى الحضور ، فسافر نحو مصر ولما أتاها ودرس أحوال النيل تحقق لديه أن ما يقصده غير ممكن ففترت عزيمته وانكسرت همته « ووقف خاطره ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبلى مدينة أسوان وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل ، فعاينه وباشره واختبره من جانبيه فوجد أمره لا يمشى على موافقة مراده ، وتحقق الخطأ فيما وعد به وعاد خجلا منخذلا واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه . . . » ثم بعد ذلك أحيطت حياته بصعوبات كثيرة ، وخشى الحاكم بأمر الله الفاطمى « الذى كان مريقاً للدماء بغير سبب أو بأضعف سبب من خيال يتخيله . . » فتظاهر بالجنون والخبال . . ولم يزل على ذلك إلى أن تحقق من

وفاة الحاكم فأظهر العقل ، وعاد سيرته الأولى وخرج من داره واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر مشتغلا بالتصنيف والنسخ والإفادة .

وأهم مؤلفات الحسن بن الهيثم هو كتاب المناظر، الذي درس في أوروبا قرونا عديدة وتأثر بتعاليمه باكون وكبلر وغيرهما من كبار العلماء الأوروبيين الأوائل . وتعتبر دراسته في تركيب العين وكيفية الإبصار أهم ما عرفته الإنسانية في حقبة طويلة تمتد حوالى العشرين قرنا .

وقد حاول مقياس ارتفاع جو الأرض بدراسة الشفق عند الفجر وعند الغسق، وحل مسائل رياضية معقدة بطرائق مبتكرة وشرح ظاهرة قوس قزح وظواهر ضوئية كثيرة . وله دراسات فلكية في الانكسار وأرصاد مختلفة متنوعة . وفي أواخر أيامه كان يعتكف في قبته أمام الأزهر ينسخ كتبه ويبيع منها بما يقيم أوده وييسر له العيش .

(٣) البيروني

هو محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني الخوارزمي ولد في خوارزم عام ٩٧٣ ميلادية ثم التحق بشمس المعالي قابوس وأصبح بعد ذلك ذا حظوة لدى بني مأمون ملوك خوارزم، ثم ارتحل إلى الهند . ويقال إنه مكث فيها أربعين سنة . واستفاد البيروني من فتوح الغزنويين للهند والمرجح أنه توفي في خوارزم عام ١٤٠٨ م .

والبيروني أقرب مثل لشخصية العلماء الباحثين الموفقين ، فقد كانت حياته كلها بحث وملاحظة وتنقيب ، اشتغل بالرياضيات والفلك وبالتاريخ وبالجغرافية وبعلم المعادن والطبيعة . وله أعمال في التاريخ الطبيعي والجيولوجي وكانت ثقافته العلمية واسعة وقدرته عظيمة وكان يحسن السريانية والسنسكريتية والفارسية والعبرية عدا العربية كان حر التفكير راغباً في المعرفة يقبل على الدراسة . سافر إلى الهند فكتب عن تاريخها وجغرافيتها ونباتها وأنهارها وأهلها ودرس الفلسفة الهندية دراسة عميقة كاملة ، فكان أول من عني بذلك من علماء الإسلام ، فكأنه كان وحده بعثة علمية كاملة أحاطت بكل علم الهند وما فيها . فسبق بذلك نابليون عند ما قدم إلى مصر واصطحب معه بعثة من أكبر علماء فرنسا مسحت مصر وسجلت مشاهداتها العلمية في سفر جليل عرف باسم (وصف مصر) لا زال حتى اليوم من أعظم مفاخر العلم الفرنسي ومن أهم مراجع العلم والثقافة في مصر .

يقول سخاو العالم الألماني : إن البيروني أكبر عقلية عرفها التاريخ ، واعتبره سارطون أعظم العلماء في عصره قاطبة ، ووضعه في مركز الصدارة بين علماء القرن الحادي عشر ومن بعده الرئيس ابن سينا وابن الهيثم وابن يونس والكرخي وغيرهم ولا يتسع المجال هنا لتفصيل كل كتابات البيروني ومؤلفاته العديدة التي يربى عددها على المائة والعشرين . وقد أوضح فيها كيف أخذ العرب الترقيم عن الهند وهي الأرقام التي عرفت عند العرب بالأرقام الهندية ، ثم انتقلت إلى أوروبا حيث تعرف حتى اليوم بالأرقام العربية تمييزاً لها عما سبقها من أرقام لاتينية كانت مستعملة قديماً .

(٤) ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسن بن عبد الله ابن سينا . ولد في بخارى عام ٩٨٠م وتوفي في همذان

عام ١٠٣٧م . فكان معاصراً للبيرونى وكان بينهما اتصال وتراسل . ويعرف ابن سينا بأنه فيلسوف العرب الأول وأرسطو الإسلام . وهو مؤلف كتاب الشفاء الذى يقع فى ١٨ مجلداً ضخماً ، ثم يعرف بموسوعته الكبرى الطبية المعروفة باسم (القانون) وهو مؤلف ضخم فيه أكثر من مليون كلمة (أو أكثر من ٢٥٠٠ صفحة من قطع مجلة الأزهر) جمع فيه كل المعارف الطبية ونقل إلى اللغة اللاتينية وبقى مرجعا للبحث والدراسة هناك حتى القرن السابع عشر . وله مقالات عديدة وكتب فى الرياضيات وفى الفلك وفى الطبيعة والموسيقى والتقاويم وآلات الرصد وخراج الممالك وتدبير الجند وأرزاقهم (أى المالية والإدارة الحربية) وقد ضرب بسهم وافر فى كل فرع من هذه الفروع .

وكان ابن سينا فيلسوفا ينظر إلى كليات المسائل وينظمها نظاماً منطقياً فلسفياً ترضاه نفسه ويستريح إليه فؤاده ، فلزم أن يكون محيطاً بالمعرفة ولذلك كتب موسوعات كاملة فى الطب والفلسفة والعلوم ولكنه إذا قورن بالبيرونى فى المسائل العلمية يبدو أقل اهتماما بالتعرف على الحقائق والتقيب عن المعارف وأكثر اتجاها إلى تقنين المعرفة وتركيبها معاً تركيباً نظامياً منطقياً . بينما كان البيرونى منقبا عن دقائق الأشياء محباً للكشف والمخاطرة شغوفا بالمسائل الفرعية يحللها تحليلا كاملا .

٤ — خاتمة

من هذا يتضح أن علماء القرن الحادى عشر الميلادى من المسلمين كانوا فى مقدمة علماء عصرهم وأنهم إذا قورنوا بفطاحل العلماء فى تاريخ العالم تكون لهم المكانة المرموقة ومركز الصدارة ، وأنهم بذكائهم واجتهادهم قد أحاطوا بالمعارف السابقة إحاطة شاملة ، ثم صنفوا التآليف المطولة المفصلة التى بقيت بعدهم مرجعاً لكل باحث وقرآناً لكل عالم خمسة قرون أو أكثر ، حتى استرجعت أوروبا فى نهضتها علم العرب والإغريق وبدأت تزيد عليه زيادات كبيرة .

فالقول بأن العرب لم يكونوا سوى نقلة للعلوم القديمة وحفظة لها من يد الضياع قول مردود . والدليل على ذلك ، تلك الإضافات والبحوث المبتكرة التى تزخر بها المؤلفات العلمية الإسلامية الكثيرة التى لم تدرس بعد كلها دراسة وافية . وما درس منها يكشف دائما عن إضافات مبتكرة وحقائق كانت خافية . ولعل واجب الأمانة أو الرغبة فى اكتساب قدسية القوم كانت تفرض على علماء العرب ألا يبخسوا القدماء حقهم من الذكر عند تحرير مؤلفاتهم ، فالمتصفح لها قد يبدو له لأول وهلة أن معظم ما فيها منقول عن السابقين والأمر فى الحقيقة بخلاف ذلك .

ويجدر بنا أن نقول : إن الإسلام كدين لم يكن عائقا أمام هؤلاء العلماء فى طريق العلم والمعرفة ، وأن الحضارة الإسلامية كانت تقبل بل وتشجع كل معرفة وثقافة ، فالذين يودون اليوم نهضة علمية فى البلاد ، لهم أن يطمئنوا إلى أن الإسلام الصحيح لا أثر فيه للرجعية فى التفكير ولا يحد العقل عن الانطلاق .

ابراهيم حلمى عبد الرحمن

فتوح الذوق الإسلامي في الفنون

خصائص العمارة الإسلامية

للأستاذ حسن عبد الوهاب
المفتش الأول للآثار العربية

كانت الفتوحات الإسلامية سبباً في نشأة العمارة الإسلامية. ولقد نجح العرب في تعريب الأقطار التي افتتحوها حيث اندمجوا في أهل البلاد وتعلموا منهم الزراعة والصناعة وذلك بعكس ما اتهموا به من أنهم لم يمارسوا زراعة ولا صناعة. ويدحض هذا الرأي إجابة عمرو بن العاص على سؤال عمر بن الخطاب حينما سأله من أين لك هذا « ... وإني أعلم أمير المؤمنين أني بأرض السعر فيه رخيص وإني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج اهله ».

ولا شك في أن المسلمين في صدر دولتهم استعانوا بعباقرة الصناعة وغيرها ممن وجدوهم في الأقطار التي افتتحوها ، كما أنه كان من بينهم عدد من ذوي الصناعات لأنهم لم يكونوا كلهم من البادية كما توهم الكثير . بل كان منهم من اليمن والشام . وهي بلاد لها حضارات عريقة .

ويبدو لي أن استعانتهم بصناعي تلك البلاد في مستهل فتوحاتهم كان غالباً في المنشآت المدنية . ولذلك نرى كل المساجد الجامعة عند نشأتها في صدر الإسلام كانت مثالا للبساطة لا أثر للفن المعماري فيها . فلا زخرف ولا حجارة ولا بياض ولا بلاط ولا محاريب . ولكنها لم تلبث طويلا حتى سايرت سنة التطور . وهذا نلمسه جلياً فيما سأذكره عن نشأة المسجد النبوي وعن جامع عمرو بن العاص وهما مثالان للمساجد الجامعة في الأمصار عند نشأتها .

المسجد النبوي :

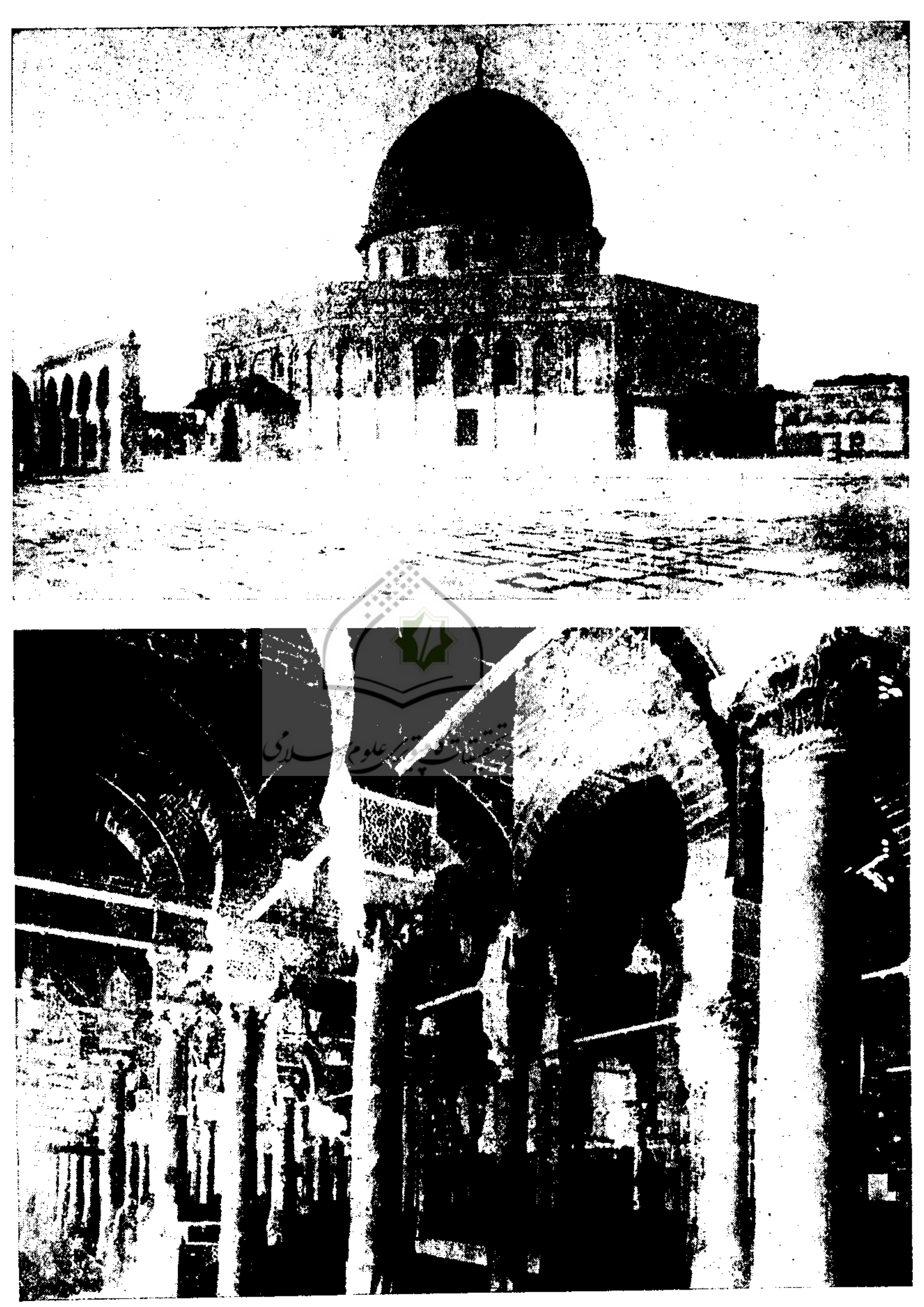
بني هذا المسجد عند إنشائه باللبن على أساس من الحجارة برسقف بالجريد واتخذت عمده من جذوع النخل . وظل على بساطة هذا رغم توسيعه إلى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد هدمه وأعاد بناءه بالحجارة وبيضه بالجص واتخذ له عمدا من الحجارة وسقفه بالساج وزاد فيه .

وفي سنة ٨٨ هـ ٧٠٦ م أمر الوليد بن عبد الملك بهدم المسجد وتجديده بما يتفق مع أهميته وبعث اليه بالرخام والفسيفساء مع صناع من مختلف الأقطار مصر والشام والآستانة فهدمه عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز وأعاد بناءه بالحجارة المنقوشة وكسا جدرانه بالفسيفساء والرخام . وعمل سقفه بالساج المموه بالذهب . وأقام به أربع منارات .

ثم توالت العناية على المسجد مسايرة للنهوض المعماري حتى بلغ منتهى الروعة في القرن الثالث وتمثلت فيه أرقى نماذج العمارة وفنونها .

جامع عمرو بن العاص بالفسطاط :

ومثله جامع عمرو بن العاص فانه لما أنشىء بمصر سنة ٢١ هـ ٦٤١ م كانت مساحته ٥٠ × ٣٠



(١) قبة الصخـــرة (٢) داخل مسجد الزيتونة

ذراعا فرشت أرضه بالحصباء وبنى باللبن وسقف بالجريد والطين واتخذت عمده من جذوع النخل ولم يجعل له مئذنة ولا محرابا مجوفا ولا منبراً .

ثم تدرجت أعمال الإصلاح مع الزيادة تبعا لاطراد التقدم والعمران . وهذا ما كان يبدو أثره عاما فعاما فى تلك المنشآت ، فما انتهى القرن الاول إلا وكان الجامع هدم وأعيد بناؤه أكثر من مرة مع الإضافة والتجميل ، فقد هدمه فى سنة ٩٠ هـ ٧٠٨ م قرة بن شريك والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك وأعاد بناءه وأحدث فيه المحراب المجوّف اقتداء بالمحراب الذى أحدثه بالحرم النبوى الامير عمر بن عبد العزيز سنة ٨٨ هـ ٧٠٦ م وأقام به منبراً خشبياً جديداً سنة ٩٤ هـ ٧١٢ م وأحدث فيه المقصورة .

ومن ثم سار الجامع فى درجات الكمال ومسايرة التقدم المعمارى فى زخرفة المساجد وتذهيبها وكسوتها بالرخام والفسيفساء وهذا أكبر برهان على نهوضهم بالعمارة والصناعة . فانهم ما إن تم لهم تمكين مكانهم الجديد وتوطيده ، وما إن ألقوا عصا التسيار واطمأنت بهم الدار ، حتى نشطوا للفتح الثانى وهو الفتح العلمى والصناعى ، فأتوا فى الفتحين على قصر المدة بما لم يسبق له مثيل مما أثار الإعجاب .

وكان من أثر ذلك أنهم ملكوا ناصيتى العلم والصناعة كما ملكوا ناصية العالم وأحدثوا لهم مدنية خاصة صبغوها بصبغتهم فى كل مظهر من مظاهرها ، وأبقوا لهم الأثر البين فيما نقلوه من علوم الأوائل إما بالتنقيح والتهذيب أو الزيادة والاختراع . فكان للصناعة والعمارة نصيب موفور تجلىّ فى منشآتهم من مساجد وقصور وغيرها .

وخير دليل على عصبيتهم وميلهم لطبع كل شىء بطابعهم أنه ما انتهى القرن الاول الهجرى إلا والدواوين عرّبت والنقود ضربت باللغة العربية ، وأخذت الفنون والصناعات فى الازدهار والانطباع بطابعهم .

نعم إن العمارة الإسلامية فى نشأتها تأثرت بالبيئة التى نشأت فيها ، إلا أن تلك التأثيرات مع الآثار التى وقعت عليها ، زال غالبها من الوجود ، اللهم إلا بقايا تأثيرات جزئية فى الزخارف وعلى بقايا القصور فى بادية الشام وشرقى الاردن والعراق وبخاصة فى التخطيط وفى التصوير والفسيفساء . وهى تأثيرات بيزنطية وفارسية فى سوريا وساسانية فى العراق وهللينستية وبيزنطية فى مصر ، كما كانت الشام أيضاً ملتقى لتيارات مختلفة من الأساليب الفنية الهللينستية والساسانية المصرية .

وبالرغم من التأثيرات التى وقعت عليها فانها تغلبت عليها وطبعت بطابع عمارى إسلامى جديد .

ومما لا شك فيه أن للدولة الاموية فضل النهوض بالعمارة الإسلامية والوصول بها إلى مدارج الكمال بما أنشأوه من قصور فى المدن وفى البادية . وبما شيدوه وجددوه من مساجد النبوى والاموى والاقصى والصخرة والمعتبرة دعائم للفن الاسلامى .

ولا عجب فالدولة الاموية دولة بناء وتعمير

كان من أهم أهدافها مناهضة الشعوب المسيحية وإقناعها بأن المسلمين على قصر مدة حكمهم قادرين على تكوين حضارة عمارية تضاهى حضارتهم ، وإن مساجدهم فاقت معابدهم فخامة وزخرفا حتى لا يتيهوا على المسلمين

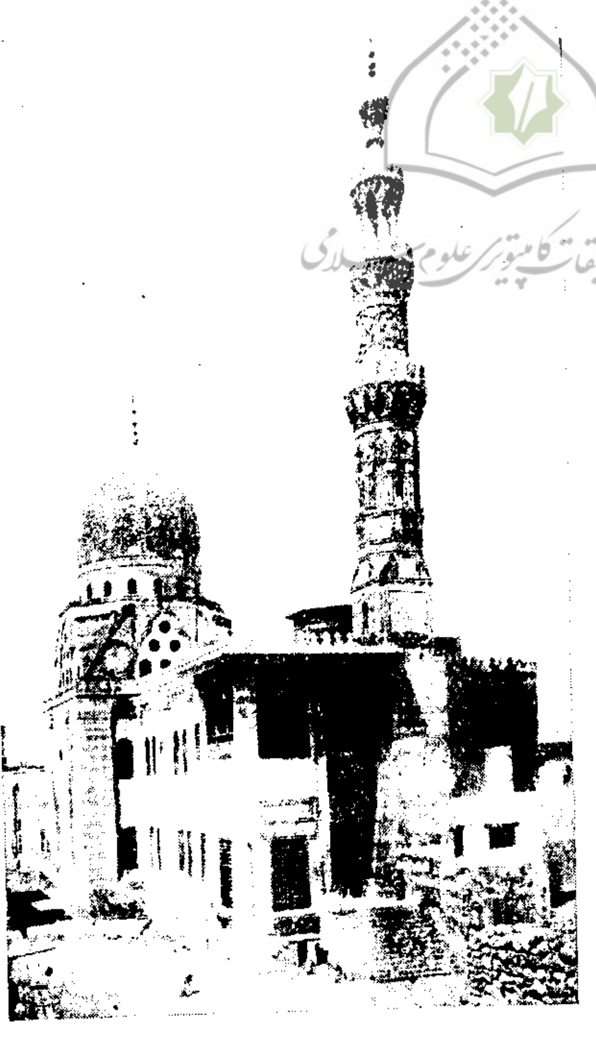
ولذلك ينسب إلى الوليد أنه قال لأهل دمشق « إنى رأيتكم تفخرون بمائكم وهوائكم وفاكهتكم وحماماتكم فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس » .

وقد تجلى هذا الهدف السامى فى مراقبة الوافدين من الأجانب لزيارة المسجد الأموى ومعرفة رأيهم فى المسجد دون علمهم . وحينما نقلوا اليه آراءهم المليئة بالدهشة والإعجاب من فخامة بنائه ورخامه وفسيفسائه قال « لا أرى مسجد دمشق إلا غيظا على الكفار » .

وحينما عرض عليه عمر بن عبد العزيز أن ينقل ما فى محراب مسجد دمشق من ذهب كى لا يشغل المصلين ، عرض عليه فى هذا الوقت رأى زوار آخرين بأنهم حينما وقفوا تحت قبة المسجد سأل كبيرهم . كم للإسلام ؟ قالوا مائة سنة قال فكيف تصغرون أمرهم ، مابنى هذا البنيان إلا ملك عظيم » قال : إذا غايظ العدو فدعه .

ولما زار الرحالة أبو عبد الله محمد بن أحمد البشارى الجامع الأموى فى القرن الرابع الهجرى وفتن بما رآه فيه من وزرات رخامية وفسيفساء مذهبة تكسو جدرانه وعقوده وبها صور الأشجار والأمصار والكتابات ، ومصاريع مصفحة بالنحاس وغير ذلك من روائع الصناعة قال لعمه يا عم « لم يحسن الوليد حيث أنفق أموال المسلمين على جامع دمشق . ولو صرف ذلك فى عمارة الطرق والمصانع ورم الحصون لكان أصوب وأفضل » ، أجابه : « يا بنى إن الوليد وفق وكشف له عن أمر جليل ، ذلك أنه رأى الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد افتن فى زخارفها وانتشر ذكرها كالقيامة وبيعة لد والرها فاتخذ للمسلمين مسجداً شغلهم به عنهن وجعله أحد عجائب الدنيا . ألا ترى أن عبد الملك لما رأى عظم قبة القيامة وهيأتها خشى أن تعظم فى قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبة على ما ترى » .

وخير دليل على أن الأمويين نهجوا فى تشييد منشآتهم نهجاً عمارياً جديداً طبع بالطابع



مدرسة السلطان قايتباى

الإسلامى ، تصريح الخليفة المأمون عقب زيارته للجامع الأموى « إن بنيانه على غير مثال متقدم » .

وقد نهجت الدولة العباسية سبيل المنافسة فى تشييد المنشآت العمارية من مساجد وقصور وأبدعوا فيها أيما إبداع ، وكان هدفهم أيضاً هو هدف الدولة الأموية . ذلك أن المأمون رد على من انتقد إسرافه فى بهرجة قصوره . وبعد حوار معه ألزمه فيه الحجة قال :

« هذا البناء ضرب من مكايدنا نبنيه ونتخذ الجيوش ونعد السلاح والكراع وما بنا إلى إلى أكثره حاجة » .

ومنذ القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى أخذت العمارة الإسلامية تتخلص من المؤثرات القديمة وما بقى منها بقى فى عناصر قليلة فى الزخرف حورت أيضا وأصبحت التأثيرات التى تقع على العمارة تأثيرات إسلامية جزئية بين الأقطار الإسلامية وبعضها ، تنوعت بتعاقب الدول .

ومن خصائص العمارة الإسلامية أنها هيأت منشآت عادية لمختلف الأغراض . فإنها بجانب ما أعدته من منشآت مدنية تناسب طقس كل قطر فانها أعدت بجانبها منشآت دينية كالمساجد والمشاهد والزوايا والربط . وثقافية كالمدارس والخوانق والكتاتيب ، ساعدت المساجد فى رسالتها الثقافية . ومالية بإنشاء بيوت المال فى مساجدها الجامعة ومنها ما هو موجود إلى الآن فى مسجد دمشق وحماه . واجتماعية كدور كفالة المرأة وإيواء الفقراء والمنقطعين . وصحية كالمستشفيات والحمامات . وتجارية كالوكالات والأسواق والخانات . وحربية كالأسوار بأبوابها وأبراجها والحصون . ومائية كالقناطر ومقاييس النيل والموانىء .

وكما اختلفت طرز العمارة عن بعضها فى الأقطار الإسلامية ، حتى أصبح كل طرز علما على دولته ، فانها اختلفت كذلك فى طريقة الانتفاع ببعض تلك المؤسسات ، فالمدرسة التى شيدت فى مصر لتؤدى وظيفة المسجد وإقامة الجمعة والأوقات الخمسة حيث أقيم بها منارة ومنبر أو لحق بها سبيل وكتاب ومدفن للمنشىء ومساكن للطلبة وحوض لشرب الدواب ، نراها فى فاس ومكناس وبغداد ، أنشئت كى تلقى بها الدروس فقط وتؤدى بها الأوقات الخمس دون الجمعة ، ولذلك لا نرى بها منارة ولا منبراً ولا بقية الملحقات .

وإذا كانت المدارس بمصر والعراق وشمال إفريقيا هيئت للتعليم ومنها علوم القرآن فإن سوريا امتازت بإنشاء دور القرآن لدراسة علوم القرآن خاصة ، والمنبر فى مصر والعراق والشام ثابت فى مكانه بجوار المحراب بينما هو فى كثير من بلدان شمال إفريقيا - تونس ، والجزائر ، وفاس - لا يظهر إلا يوم الجمعة حيث يخرج على عجل من الحجرة الخاصة به بجوار المحراب .

وكما عرف كل قطر بما يجلب منه من طرائف وسلع فإنه عرف كذلك بأهم عمائره بل أصبحت من أهم خصائصه وعلما عليه .

فمن خصائص دمشق المسجد الأموى ، وقبر صلاح الدين ، والمدرسة الظاهرية ، وقصر الحير وحصونها . ومن خصائص الأندلس - مسجد قرطبة[1] ، وقصر الحمراء بغرناطة ، ومنارة الجامع

(١) وترى صورته من الداخل على غلاف هذا العدد .

الكبير (الجيرالدا) وقصر بنى عباد بأشبيلة .

ومن خصائص القدس : المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، وقصر هشام بخربة المفجر ، والقصور الأموية فى شرق الأردن .

ومن خصائص العراق : المنارات الملوية ، وزخارف القصور فى سامرا ، وقصر الأخيضر ، والعتبات الشريفة : الكاظمية فى بغداد ، والإمام العسكرى بسر من رأى ، والإمام الحسين بكربلاء ، والإمام على بالنجف ، تلك المشاهد الغنية بأنواع الزخرف والمكسوة قبابها ومناراتها برقائق الذهب وبالقاشانى ومقرنصات البلور والزخرف المتخذ من قطع المرايا . وصناعة الطابوق (الآجر) المنقوش بشتى أنواع الزخرف . والقباب المخروطة .

ومن خصائص مصر : مقياس النيل ، والجامع الطولونى ، والجامع الأزهر ، وأبواب القاهرة ، ومدرسة السلطان حسن ، ومدرستا السلطان قايتباى والغورى .

ومن خصائص شمال أفريقيا : مسجد القرويين فى فاس ومدرسة أبو عنان وأسواقها ، ومسجد الزيتونة بتونس ، وعقبة بالقيروان ، وأبو مدين بتلمسان ، وهكذا بقية الأقطار .

ولكل قطر خصائص أيضاً فى تفاصيله المعمارية وخاصة القبة والمنارة وهما أبرز عنصر يميز لعمارة كل قطر .

ولما كانت القاهرة أغنى الأقطار الإسلامية وأسعدها حظاً فى المحافظة على تراثها المعمارى ، فإنها كذلك امتازت بخصائص لا توجد فى غيرها ، فقد تمثلت فيها الحضارات المتعاقبة عليها ممثلة فى شتى التفاصيل المعمارية من جص وأحجار ورخام ونحاس وأخشاب ما بين خرط وتطعيم وتجميع وحفر وفسيفساء ونقش ، وببراعة الخطاطين وتكوينهم للعناصر الزخرفية فى الخط الكوفى ما بين نباتية وهندسية .

هذا عدا التنوع فى تصميم المسجد والمدرسة ، وفى تصميم وجهات المساجد والمدارس ، وتنوع أشكال المقرنصات والزخارف .

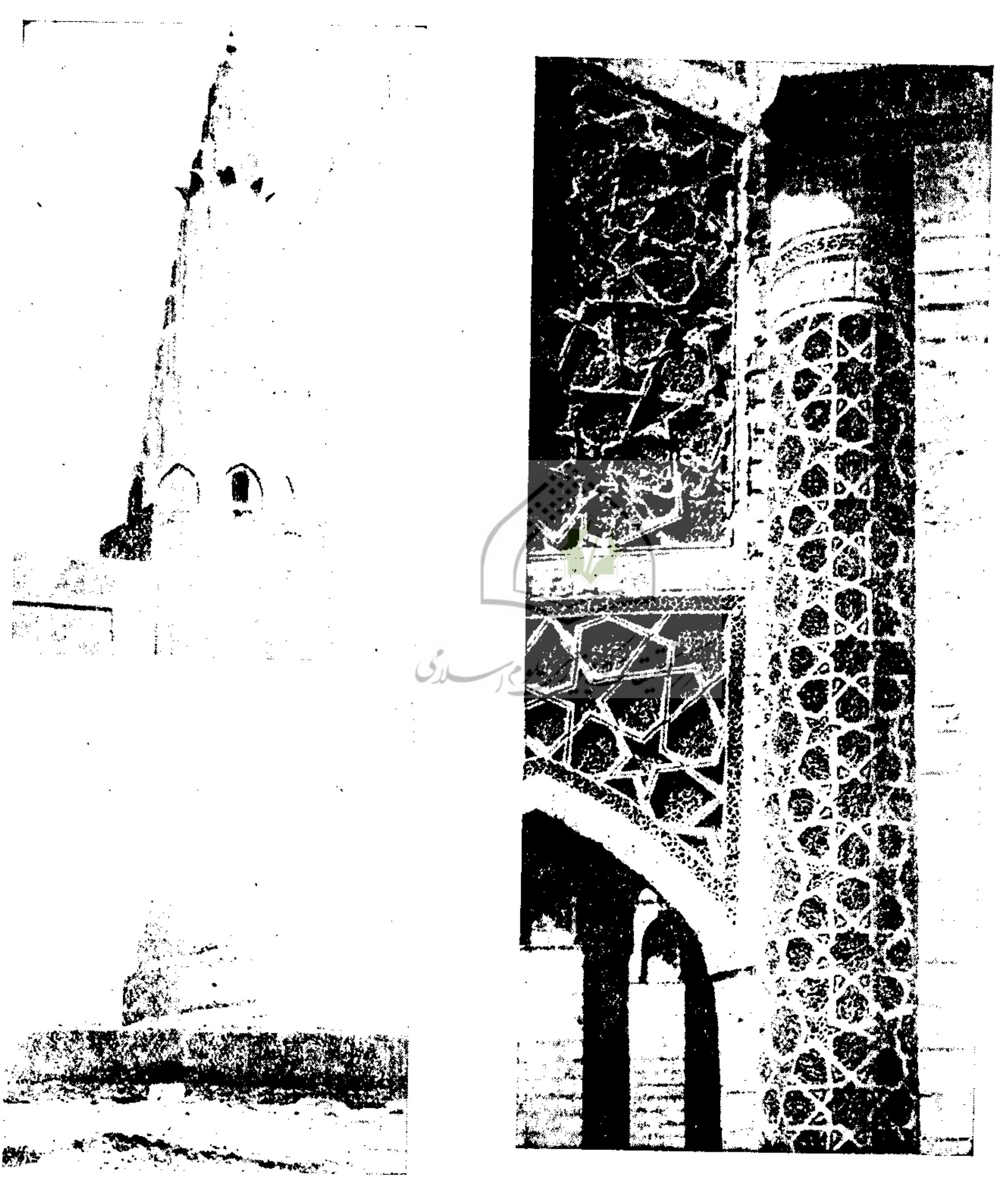
وثمة خاصة أخرى انفردت بها وهى تكسية الزخارف الجصية الملونة برقائق الزجاج ، ومنها أنموذج وحيد بمصر فى رباط أحمد بن سليمان .

ومن أبرز خصائصها جمال ورشاقة القبة والمنارة فكلاهما بلغ القمة فى جمال التناسق ، ودقة النقش وخاصة فى دولة المماليك الجراكسة .

وعلى ذكر القبة أذكر أن مصر لها فضل السبق فى إنشاء القبة ذات المثمن ، وفى أن مهندساً سبق عصر برونيلسكى سنة ١٤٢٠ م الذى ينسب إليه فى وقت ما اختراع هذا النوع من القباب بمدينة البندقية .

وإذا أردنا الإشارة إلى خصائصها فى طرائف كل عصر ، فهذا ما لا يتسع له المجال ويكفى أن نفتخر بالجامع الطولونى وزخارفه المتنوعة طولونية وفاطمية ، وبالجامع الأزهر وبغيره من منشآت الدولة الفاطمية الغنية بدقائق صناعة الجص والحفر فى الخشب ومثلها الدولة الأيوبية . وبمنشآت المنصور قلاون وأفراد أسرته فى هذا العصر الزاهر الذى تركزت فيه قواعد العمارة

فى مصر ، وكفاه فخراً مدرسة السلطان حسن إحدى عجائب العمارة الإسلامية فى العالم . ومنشآت أمرائه أمثال الأمير لجاس الاسحاق ، وأبو بكر مزهر ، ثم منشآت السلطان الغورى



الزخارف فى الآجر بالمدرسة المستنصرية بالعراق ببغداد

(١) قبة عمر السهروردى فى بغداد (٢) المنارة الملوية بسامرا

ثم منشآت دولة المماليك الجراكسة ، تلك المنشآت التى أخذت زخرفها وازينت ، وكفاها فخراً منشآت السلطان قايتباى وخاصة مدرسته بالصحراء وهى خاتمة خصائص العمارة الإسلامية فى مصر وكانت حسن الختام .

حسن عبد الوهاب

جهود المسلمين فى الموسيقى

للدكتور محمود احمد الحفنى
المراقب العام للموسيقى بوزارة المعارف

عصر صدر الاسلام :

أشرق الإسلام على الدنيا بنوره الساطع وضرب المثل العالية الرفيعة لتحقيق أسمى مبادىء الاجتماع البشرى المؤسسة على مكارم الأخلاق والرقى النفسى والكمال الإنسانى ، فكان لزاماً أن تنهض الموسيقى فى أحضانه ، وتزدهر فى ظل سلطانه ، وترقى حتى تكون ثقافة تثمر فى كنفه ، ذلك بأن الموسيقى هى الباعث للكمال الأدبى فى الإنسان بترقية طباعه وتهذيبه ، فإن سماع الأنغام يوقظ المشاعر ، ويلهب الحس ، فيدفع بالعاطفة نحو السمو ، وبالعقل نحو التفكير وبالخيال نحو دنيا الروح ، على حد قول أرسطو « أثر الموسيقى أسمى من أن ينحصر فى نشوة الحواس بحلو النغم ومجرد اللهو بها ، إنما هو فى تطهير النفس والتخفيف عنها » . وعلى الجملة فإن الموسيقى الجيدة تكبت الشهوات الجسدية فيسود العقل الراجح والعاطفة النبيلة والروح المشرقة الصافية جميع غرائز النفس ونزواتها .

وما نعدو الصواب حين نقرر أن الموسيقى فى صدر الإسلام قد لبست ثوبا دينياً ناصعاً يوم سرت تلاوة القرآن الكريم بالصوت الجميل فى أنفس الناس سريان العافية فى الجسم السقيم . وآية ذلك ما بين أيدينا من أحاديث مأثورة عن مشهورى الصحابة فى مدح قارئ القرآن إذا كان جميل الصوت لم يخرج عن حد المعقول فى القراءة والأدب الواجب للقرآن . وهنا رفع القرآن الكريم علم الموسيقى عاليا بين العرب ، ونشأ علم التجويد .

ومن إعجاز القرآن نظمه الموسيقى الرائع الذى يسيطر على مستمعيه ، ولو كانوا غير مسلمين ؛ حتى قال بعض الأجلاء « إن قوانين الموسيقى قد لحظت فى القرآن تامة مكتملة » . وكذلك الشأن فى بعض شعائر الدين الأخرى كالأذان للصلاة عامة وصلاة العيدين وتلاوة التكبيرات فيهما فى لحن موسيقى رائع ، مما يرقق حاشية الروح ، ويهيىء الناس لتلقى النفحات الإلهية فى بهجة وانشراح .

وقد اشتهر فى صدر الإسلام من المغنيات كثير من القيان ، نذكر من بينهن سيرين مولاة حسان بن ثابت ، وهى إحدى الجاريتين المصريتين اللتين أهداهما المقوقس فى العام التاسع الهجرى (عام ٦٢٠ م) إلى النبى صلى الله عليه وسلم وعنها أخذت عزة الميلاء الاستاذة الأولى لمدرسة الغناء العربى التى درج عليها من عاصرها أو جاء بعدها ، فقد حدث صاحب الأغانى أن عزة كانت تغنى من أغانى سيرين . وبهذا تكون الموسيقى المصرية القديمة قد وجدت طريقها إلى الجزيرة العربية منذ فجر الإسلام

فى حنجرة سيرين وتلميذاتها ، فوضعت بذلك نواة الصلة الفنية بين مصر والموسيقى العربية .

وكان عمر بن الخطاب على الرغم مما عرف عنه من شديد زهده فى الدنيا ، راضيا عما يعفو الله عنه من الغناء . فقد نقل صاحب العقد الفريد أن عمر قال للنابغة الجعدى أسمعنى بعض ما عفا الله عنه من غنائك ، فأسمعه كلمة له ، قال وإنك لقائلها ؟ قال نعم . قال لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب .

وكان عمر يكره . من الموسيقى الغناء المخنث الذى يبعد الشعب عن الجهاد والتخشين ويسلمه إلى الرفاهية والطراوة ، وما كان ذلك من طبيعة الإسلام ، ولا من سجية عمر ، ولا مما يأذن به الخلق القويم .

وما كاد يقبل عصر عثمان رضى الله عنه حتى سجلت أخبار المدينة أن رائقة المغنية وتلميذتها الفتية عزة الميلاء وغيرهما كن يقمن فيها حفلات موسيقية يحضرها أشراف القوم وفنانوهم .

وقد كان فى اتساع الفتوحات التى تمت فى عهد عثمان وفى عهد سلفه والممالك التى دانت للإسلام والأسرى الذين قدموا إلى الديار العربية ما جعل تيار مدنيات هذه البلاد ، وبخاصة المدنيات المصرية والفارسية واليونانية ، ينتشر فى البلاد العربية . وأخذ المسلمون ينظرون إلى أمور دنياهم ، فقللوا من غلواء نظرتهم إلى الموسيقيين ، وحفلت بهم بيـــوت الأمراء والأشراف ، وأخذت الموسيقى مكانها فى مجالسهم بجانب الشعر والأدب .

وما كاد ينقضى عصر الخلفاء الراشدين حتى أخذت الموسيقى تسلك سبيلها إلى وجهتها الفنية الواضحة . وأورقت تلك الدوحة التى بدأت نواتها منذ قريب لتمتد ظلالها وتستكمل نضج ثمارها فى عصر بنى أمية .

عصر بنى أمية :

كان الروح العربى الموسيقى روحا فنياً رياضياً غير متعصب ولا جامد ، فما كاد ينبثق فجر الدولة الأموية ويزداد اتصالها بالمدنيات المصرية والفارسية واليونانية حتى تشرب الروح العربى تلك المدنيات ونقل غناءها إلى غناء العرب وآلاتها إلى آلات العرب .

وكان للموسيقى فى الدولة الأموية حظ العلوم والفنون الأخرى ، فازدهرت وأينعت وظهر من مشهورى المغنين والمغنيات من يجدر بنا أن نطلق عليهم وعلى فنهم : المدرسة الحديثة .

ويعتبر سائب خاثر نواة النهضة الموسيقية فى البلاد العربية ، وأول من نقل الغناء الفارسى وأسبغ عليه الطابع العربى وعرف بعد ذلك بالغناء « المتقن » . وهذا النوع المستحدث يقابل غناء « الركبان » الذى يمثل روح العصر الجاهلى وطابع البادية . ولقد كان من عادة المغنين من العرب حتى ذلك الوقت أن يستعملوا فى غنائهم القضيب ، وكان سائب خاثر يستعمله كذلك ، إلى أن رأى نشيطاً الفارسى يستعمل فى غنائه العود فاستعمله هو أيضاً فى أغانيه ، فكان أول من غنى فى المدينة مستعملا العود . ونبغ ممن أخذ الغناء عن سائب خاثر أربعة عدوا أعلام الغناء وهم : عزة الميلاء وجميلة زعيمتا النهضة

الموسيقية العربية ، وابن سريج ومعبد .

وكان ابن مسجح - وهو أحد فحول المغنين فى العصر الأموى - أول من نقل غناء الفرس إلى غناء العرب بمكة فى حداثته . وقد أتقن محاسن النغمات لحذقها وأصبح له فى الغناء مذهب خاص وطريقة تبعها الناس بعده . وقد أخذ عنه ابن محرز ومعبد وابن سريج والغريض .

وإننا لنرى الموسيقيين يرتفع مقامهم شيئا فشيئا ويصبحون موضع الاحترام والتقدير ، ويسلكون نهجهم رويداً حتى يصلوا إلى قصور الخلفاء وينالوا الحظوة عندهم ، فلا نكاد نذكر خلفاء بنى أمية فى أول عهدهم بالحكم حتى نرى الخليفة عبدالملك بن مروان يشجع أهل هذه الصناعة، بل نراه هو نفسه موسيقيا وملحنا ، عارفا بأنواع الغناء ، يسأل ابن مسجح وهو فى حضرته : هل يغنى غناء « الركبان » وهل يغنى الغناء « المتقن » ؟

وكان سليمان بن عبد الملك يجرى المسابقات بين المغنين ويجزل لهم العطاء . وبلغ من تقدير يزيد بن عبد الملك للموسيقى أنه ما كاد يتولى الخلافة حتى اشترى حبابة المغنية بأربعة آلاف دينار ، وظلت موضع إكرامه حتى وفاتها .

ورأينا الوليد بن يزيد يعظم الرعاية للموسيقى وأهلها ، وقد بلغ من إكرامه لمعبد ، أنه عند ما مرض تولى أمره وآواه فى قصره ، فلما مات شيعه بنفسه إلى مثواه . بل كان الوليد كذلك عالما بصناعة تأليف الألحان ، وله فيها أصوات مشهورة ، كما كان يضرب بالعود ويوقع بالطبل والدف .

ولم تقتصر معاضدة أهل هذه الصناعة على الخلفاء بل سرت إلى الأشراف والنبلاء والسراة . وقد كان لعبد الله بن جعفر مجالس طرب عظيمة يدعو إليها مشهورى المغنين ، وكان سائب خاثر ونشيط منقطعين إليه ، كما كانت السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما ترتاح إلى سماع الموسيقى ، وكان الغريض المغنى المشهور فى خدمتها منقطعاً لها منشداً مراثى أهل البيت ونائحاً عليهم ، وكانت عند ما يجتمع عندها المغنون تأذن للناس فى دخول بيتها إذنا عاما .

ولقد وضح من أنباء المغنين والمغنيات اطراد ظهور أثر الموسيقى الفارسية فى موسيقى العرب ، حتى دخل فى اللغة العربية كثير من الألفاظ ، والمصطلحات الفارسية مما كان دليلا على عظم هذا الأثر . كذلك تأثرت الموسيقى العربية بنظريات الموسيقى اليونانية تأثراً كبيراً . وكثيراً ما كان يرد ذكر علماء هذا الفن من اليونان فى مصنفات العرب وكتبهم . غير أنه مما يجب الإقرار به أن فلاسفة العرب ومغنيهم وإن أخذوا العلوم الموسيقية وفنونها عن اليونان والفرس ومصر ، فقد احتفظوا فيها إلى حد كبير بطابعهم العربى الذى ميز موسيقاهم وجعل لها صبغة خاصة .

ومما يذكر بالفخر لذلك العصر أنه بدىء فيه بوضع أول تصانيف عربية فى أخبار الموسيقى والغناء ، فقد وضع يونس الكاتب « كتاب النغم » و « كتاب القيان » فكانا نواة لما صنف بعد ذلك فى هذا الباب .

عصر الدولة العباسية :

جاء العصر العباسى فدخلت الموسيقى العربية فى عصرها الذهبى وخطت خطوات سريعة نحو الكمال ، حتى بلغت أوج مجدها وذروة علاها . وزادت المقامات وطرائق الإيقاع حتى تعددت فى اللحن الواحد . وكثرت الآلات وتنوعت وشاع استعمالها حتى عزفت مائة قينة معا . وسما قدر أهل الموسيقى حتى اتخذ الخليفة منهم مسامراً له وجليسا .

ولقد بدت فى العصر ظاهرة جديدة ، فلم يعد العرب ينظرون إلى الموسيقى بشطر العين ، أو يتأبون احترافها بل إن من أبناء أشرافهم من دخل فى زمرة أهل هذه الصناعة ، فمن أساطينها ابن جامع الذى يتصل نسبه بقريش . بل لقد زاول هذه الصناعة بعض أمرائهم ، كإبراهيم ابن المهدى .

كذلك كان الخليفة الواثق موسيقيا من كبار الموسيقيين ومن أعلم الخلفاء بالغناء . بلغت صنيعته فيه مائة صوت (لحن) وروى أنه كان أحذق من غنى وضرب على العود ، وكان كثير التقدير للموسيقى وأهلها ، وإن قوله فى إسحق الموصلى لدليل على ما يكنه خلفاء هذا العصر من احترام هذه الصناعة وأهلها إذ قال :

« ما غنانى إسحق قط إلا ظننت أنه قد زيد لى فى ملكى ، وإن إسحق لنعمة من نعم الملك التى لم يحظ بمثلها ، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يشترى لاشتريتهن له بشطر ملكى » .

ولقد أعطى الخليفة الهادى إبراهيم الموصلى مائة وخمسين ألف دينار فى يوم واحد حتى قال :

« لو عاش الهادى لبنينا حيطان دورنا بالذهب والفضة » .

ولقد أسست فى العصر أول جامعة عربية لدراسة العلوم والفنون ، بناها المأمون فى بغداد وأسماها « بيت الحكمة » فاشتغل فيها فطاحل العلماء ، ومنهم يحيى بن منصور وبنو موسى وغيرهم ، بترجمة علوم اليونان التى كان من بينها العلوم الموسيقية . ونسج الخلفاء بعده على منواله فشجعوا الفلاسفة والعلماء لاستقراء كنوز العلوم اليونانية والوقوف على أسرارها وترجمة عيون مصنفاتها .

ومما يسجل لهذا العصر بالفخر، أنه ظهرت فيه عناية خاصة بإثبات قواعد الموسيقى ونظرياتها . فكان الخليل بن أحمد أول من عنى بهذه الناحية بعد يونس الكاتب الاموى، الذى سبقت الإشارة إليه ، فوضع « كتاب النغم » و« كتاب الإيقاع » فكانا بحق أول مؤلفات علمية فى الدولة العباسية واستكمل إسحق الموصلى هذه المؤلفات . ثم جاء بعدهما من بزَّهما فى هذا النوع من التأليف وهو إسحق بن يعقوب الكندى فكتب ما يربى على سبعة مؤلفات فى العلوم الموسيقية ونظرياتها . وجاء بعده أبو نصر محمد الفارابى ، فكان من أكبر فلاسفة العرب دراية بعلوم اليونان ، وكان موسيقيا خايما يجيد العزف بالعود ، وقد وضع كثيراً من الكتب فى هذا الفن . أما الرئيس ابن سينا فقد جال فى علوم الموسيقى حتى صار إمام عصره فيها مشرقا ومغربا . وقد احتوت

موسوعتاه « الشفاء » و « النجاة » على تصنيف موسيقى مبتكر .

ومن أساطين من اشتهروا من الموسيقيين فى ذلك العصر : حكم الوادى وإبرهيم الموصلى وزلزل وفليح بن أبى العوراء ومخارق ، ومن المغنيات : بذل ودنانير ومتيم الهشامية .

وقد نسب بعض علماء الموسيقى إلى العرب إهمالهم تدوين ألحانهم ، غير أن هذا مخالف للواقع فإن دقة الكندى فى تدوين الموسيقى بالحروف فى كتابه « رسالة فى خبر تأليف الألحان » وما أورده صفى الدين عبدالمؤمن الارموى من طرائق التدوين فى كتابيه « الشرفية » و « الأدوار » لأكبر دليل على عناية كتاب العرب بهذه الناحية واسبقيتهم لمعاصريهم .

وفى ذلك العصر الذهبى انتخبت مائة الصوت المختارة ، فقد كلف هارون الرشيد إبرهيم الموصلى وإسماعيل بن جامع وفليح بن أبى العوراء أن يختاروا له من ألحان العرب كلها مائة صوت ، ثم أمرهم أن يختاروا عشرة منها ، ثم أمرهم أن يختاروا ثلاثة من العشرة فكانت تلك الأصوات الثلاثة لحناً لمعبد ، ولحناً لابن سريج ، ولحناً لابن محرز .

عصر الأندلس :

انبثق فجر المدنية فى بلاد الأندلس عند ما فتحها بنو أمية ، وسطر العرب لها على صفحات التاريخ آيات بجدظلت مضرب الأمثال ، وتوجت رأس العلوم والفنون بأفخر تيجان الرقى . وظلت عندئذ تفيض بنورها على أوربا التى لم تكن بعد قد أفاقت من سباتها العميق ، فكانت قرطبة حاضرة الأندلس موطناً لأساطين العلماء ، كما كانت إشبيلية أعظم مركز للموسيقى والشعر وصناعة الآلات الموسيقية . قال ابن خلدون « حينما كان يموت عالم فى إشبيلية ويراد أن تباع كتبه بثمن عظيم ترسل إلى قرطبة ، وإن مات موسيقى فى عاصمة الأندلس كانوا يرسلون آلاته الموسيقية ومخطوطاته إلى إشبيلية التى نمت فيها الموسيقى وولع بها أهلها أشد الولع » .

وكان اهتمام خلفاء الأندلس بالثقافة عظيما وكلفهم بالعلوم شديداً ، حتى إن الحكم الثانى جمع فى عهد خلافته من البلاد العربية ما يربى على أربعمائة ألف مجلد . ولقد كانت الموسيقى فى طليعة هذه العلوم والفنون التى عنى بها خلفاء الأندلس فارتفعت وذاع انتشارها ، حتى إنها لم تعد مقصورة على فئة خاصة بل غدت ثقافة عامة يشترك فيها جميع طبقات الشعب .

ونقل العرب إلى الأندلس كل ما سبق لهم معرفته من الآلات الموسيقية ، ثم افتنوا فيها وزادوا عليها ، فأصبح لديهم منها عدد جم ، إذ استعملت الأندلس من الآلات الوترية : العود القديم ذا الأوتار الأربعة ، والعود الكامل ذا الأوتار الخمسة ، والشهرود ، وهو نوع من العود ، والطنبور ، والقيثارة ، والمزهر ، والكنارة ، والقانون ، والنزهة ، والرباب ، والكمنجة ، والشقرة (أو المشقر) . ومن آلات النفخ المزمار ، والسرنا (السرناى) والناى ، والشبابة واليراع ، والزمارة ، والقصبة ، والموصول ، والصفارة . ومن الآلات النحاسية : البوق ،

والنفير . ومن آلات النقر : الدفوف ، والغربال والبندير ، والصنوج ، والكاسات ، والمصفقات ، والقضيب ، والنقارة ، والقصعة ، والطبل .

ولم يكن افتنان العرب فى الأندلس مقصوراً فى الموسيقى على آلاتها بل افتنوا كذلك فى التأليف الموسيقى وأنواعه ، وسايروا بها ارتقاءهم فى مدارج المدنية ، فاستحدثوا الجديد فيها . من ذلك «النوبة» ، وهى أهم أنواع الموسيقى والغناء فى الأندلس . كذلك ابتدعوا الزجل والموشحات خدمة الموسيقى واستجابة إلى دواعى حاجتها إلى أوزان جديدة مبتكرة . وانتقلت هذه الأنواع إلى بلاد المغرب وإلى مصر فبلاد العرب ، وأخذ الأبناء يتناقلونها عن الآباء .

وكان من أقدم السابقين إلى ابتداع فن الموشحات فى الأندلس مقدم بن معافر ، ثم تبعه أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، ثم عبادة القزاز شاعر المعتصم صاحب المرية من ملوك الطوائف . وكذلك الأعمى الطليطلى . وأول المحسنين فى هذا الفن من المشارقة : ابن سناء الملك .

ومن أهم من اشتهر من الموسيقيين فى الأندلس زرياب وابن باجة الطبيب وعبد الوهاب بن جعفر الحاجب وولادة بنت المستكفى . ومن القيان عازفة وفضل ومتعة وهند جارية أبى محمد عبد الله .

ولقد ظلت الأندلس زهرة أوربا اليانعة طوال خمسة قرون تنشر عليها أريجها من كل علم وفن . وأرسلت أوربا إلى جامعاتها بالبعوث لارتشاف العلوم العربية ودراستها على أئمة العرب وأساطين علمائها . وكانت الموسيقى أولى هذه العلوم التى وفدت البعوث لدراستها وترجمة كتبها . وممن اشتهروا من أعضاء البعوث إلى بلاد الإسلام وصاروا أعلاماً فى أوربا بعد عودتهم إليها : جربرت وهرمان كنتراكت وجين الإشبيلى وقسطندى الإفريقى وقد تعلم فى تونس ومصر وبغداد . وقد نقل هؤلاء وزملاؤهم الكثير من كتب العرب فى الموسيقى كمؤلفات الكندى وثابت بن قره وزكريا الرازى والفارابى وإخوان الصفا وابن سينا وابن باجة .

وقد انتشرت فى ممالك أوربا ولا سيما البلاد الجنوبية منها آلات الموسيقى العربية ، وكثير من هذه الآلات قد انتقل إليها بأسمائه التى تنم فى اشتقاقها عن أصل عربى كالعود والقيثارة والنقارة والرباب والطنبور . والواقع أن أوربا ظلت تحت تأثير غزو الموسيقى العربية عدة قرون طويلة حتى بعد عصر الإصلاح .

عصر الدولة الفاطمية :

وكذلك تدرجت الموسيقى العربية فى مصر فى مدارج الرقى منذ أن فتحها العرب فى عهد الخلفاء الراشدين وتعاقبت عليها المدنيات العربية المختلفة حتى بلغت عصر الفاطميين ، فكانت حضارتها فيه حلقة من حلقات تلك الحضارات الزاهرة اليانعة ، بل صارت مصر حتى منتصف القرن الثالث عشر ملتقى المدنيتين العربيتين الشرقية والغربية (الأندلسية) تربطهما وتوحد بينهما .

وكان المعز لدين الله أول الخلفاء الفاطميين ، ومنشىء القاهرة ، مشغوفا بالفنون الجميلة عظيم

الرعاية للموسيقى ، كما كان ابنه وخليفته العزيز مولعاً بها ، بل لقد كانت الموسيقى موضع عناية خلفاء تلك الدولة حتى المتصوفين منهم ، فإن الحاكم بأمر الله برغم تشدده كان يشجع علماء الموسيقى على التأليف فى علومها وجمع أغانيها .

ورعايته لابن الهيثم الموسيقار الرياضى دليل على ذلك ، فقد شجعه على وضع كثير من الكتب القيمة صنف منها فى الموسيقى كتابه « رسالة فى تأثير اللحون الموسيقية فى النفوس الحيوانية » . وكان للمسيحى أحد كتاب الحاكم وولاته المقربين مجموعة فى « مختار الأغانى ومعانيها » .

وكذلك كان الخليفة الظاهر بن الحاكم من هواة الموسيقى ، كما كان الخليفة المنتصر والآمر وباقى من تبعهم من خلفاء الدولة الفاطمية يبذلون الطائل من الأموال فى سبيلها ويجزلون العطاء للمغنين .

وكان أبو الصلت أمية ، وهو من أكبر فلاسفة هذا العصر وأساطين علمائه ، واسع الدراية بالعلوم الموسيقية ، مجيداً للعزف بالعود ، وكان بين مصنفاته ، رسالة فى الموسيقى ، وكذلك كان ابن أبى القاسم من أعلام صعيد مصر فى أوائل القرن الثانى عشر معنيا بالعلوم الموسيقية ، ومن أكبر معاصريه ابن القفطى المؤرخ الكبير الذى يعد مرجعاً لحياة الموسيقيين .

* * *

هذه هى جهود المسلمين فى عصور الرقى والازدهار ، وفى الممالك التى تجلت بها مدنية الإسلام فكانت ذات تاريخ مشرق الصفحات .

وإذا كانت هذه جهودهم فى الحجاز وفى دمشق وبغداد ، والأندلس ومصر ، فليس معنى ذلك أن تلك الجهود كانت مقصورة على ما ذكرنا من جهات أو من عصور . فلقد كان للمسلمين جهود مثمرة سمحت بها الموسيقى واتسعت آفاقها فى الشعوب الهندية والفارسية ، وما وراء النهر وتركيا ، فى أزمنة تناولتها عوامل المد والجزر والتقدم والتخلف ... وكذلك مصر أيضا وقد حملت العبء الأكبر فى نهضتها الحديثة وقامت للموسيقى بأعظم دور إنشائى جعلها تقف على قدم المساواة مع بقية العلوم والفنون .

كل ذلك حق لا ريب فيه . ولكن المجال لا يستوفيه مقال ، وقد أغنى عن التفصيل هذا الإجمال . وفى هذه الصحيفة من التاريخ وتلك الصورة من الوقائع والحوادث والأطوار التى اجتازت الموسيقى العربية مراحلها ، فكرة وإن تكن موجزة فهى سجل شرف وفخار لجهود المسلمين فى خدمة الموسيقى تصنيفاً فى فنونها وابتكارا فى أنغامها وتجديداً فى آلاتها وتبويبا لمختلف مناحيها وتدوينا لشتى مآثرها .

والأمل عظيم والرجاء وطيد فى أن تكون هذه الصحائف باعثة لعزائمنا ولهمم الأجيال من بعدنا على إضافة صحائف أخرى إلى سجل جهود الأمم الإسلامية فى الموسيقى ، تكون أعظم إنشاء وتجديداً وأسمى فى الزمان بقاء وتخليدا ؟

دكتور محمود أحمد الحفنى

أثر الإسلام في الفنون الزخرفية

للأستاذ الدكتور أحمد موسى

كان العرب في جاهليتهم أهل بداوة وأمية ، يسكن أكثرهم الخيام ، ويترحلون في طلب الماء والعشب ، ويغير بعضهم على بعض ، ومن هنا كثر بينهم الفرسان والخطباء والشعراء ، في حين لم يكن لهم شأن يستحق الذكر في العلوم والفنون .

وبقي العرب وهذا شأن السواد الأعظم منهم حتى ظهر الإسلام في بلادهم فأخذ بأيديهم إلى ماوراء الصحراء من أمصار ومدائن بلغت شأواً بعيداً من الحضارة والعمران ، فسلكوها وبسطوا عليها سلطانهم ، وانتفعوا ونفعوا العالم أجمع بما أخذوه عنها من مختلف العلوم والفنون بعد أن طبعوها بطابعهم الخاص .

على أن الطابع المميز للفنون العربية الإسلامية لم يبلغ غايته ويجمع تحت لوائه مختلف الاساليب والمدارس الفنية المحلية في البلاد التي فتحها العرب المسلمون إلا بعد أجيال عدة ، استمرت طيلة القرن السابع الميلادي وشطراً كبيراً من القرن الذي تلاه .

ولا مندوحة لنا عن التنبيه إلى اتجاه الفنون الإسلامية منذ البداية إلى الزخرفة والنقش على اختلاف أنواعهما ، مع تجنب النحت وتصوير الكائنات الحية ، نظراً إلى ما ساد من اعتقاد أن الإسلام وقد حطم الأصنام ونهى عن عبادة الصور وما إليها[1] يحرّم إقامة التماثيل والتصوير ، وعلى هذا خلت المساجد وهي أهم مظاهر العمارة الإسلامية مما حفلت به المعابد القديمة والكنائس من التماثيل والصور التي تفسر الأحداث الدينية ، وتركزت عناية الفنانين المسلمين في تجويد الزخارف والنقوش ، فأتوا فيها بالأعاجيب ، سواء أكانت على الجدران والسقف ، أم كانت على الأواني المعدنية والخزف والزجاج والخشب والجلود .

وغني عن البيان أن هذا الاتجاه قيد الفنان المسلم وضيق من الدائرة التي يعمل فيها ، فلم يتح له ما أتيح للفنانين الغربيين من الانطلاق في سبيل محاكاة الطبيعة وإبراز معالم الحسن والروعة

---

[1] (أ) حدثنا آدم (قال) حدثنا ابن أبي ذئب عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس عن أبي طلحة رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تصاوير .

(ب) حدثنا الحميدي (قال) حدثنا سفيان قال حدثنا الأعمش عن مسلم قال : كنا مع مسروق في دار يسار ابن نمير فرأى في صفته تماثيل ، فقال سمعت عبد الله قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة المصورون .

(ح) حدثنا ابراهيم بن المنذر (قال) حدثنا أنس ابن عياض عن عبيد الله عن نافع أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم . [صحيح البخاري ، الجزء السابع ص ٦٠ ، ٦١ طبعة بولاق سنة ١٢٩٦ هـ] .

فى المرئيات المجسمة ، وخلت منتجاته الفنية من آثار الابتكار والإبداع الصادر من أعماق نفسه والمعبر عن مشاعره .

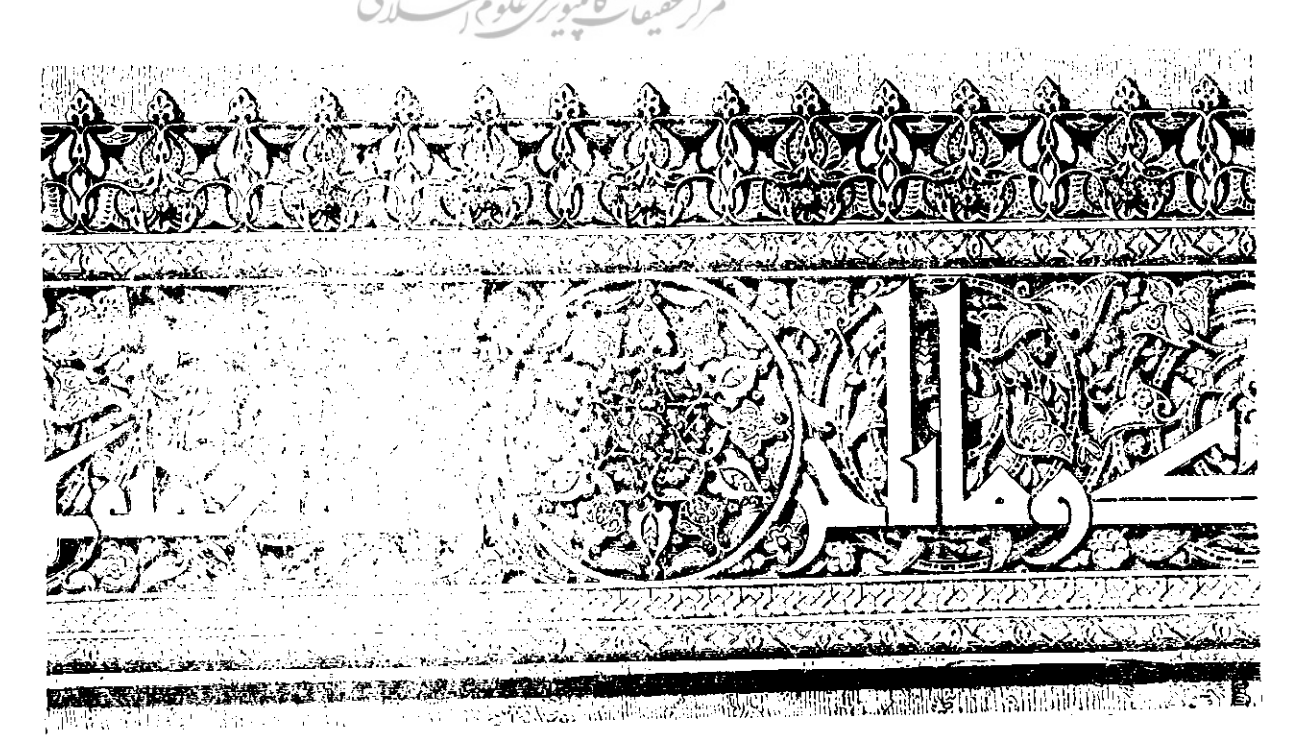
وكذلك كان هـذا الاتجاه نفسه مما اضطر كثيراً من الفنانين المسلمين إلى الإعادة والتكرار فيما ينتج من أشكال زخرفية لملء فراغ المساحات المراد زخرفتها .

وأيا ما كان الأمر ، فلا مشاحة فى أن الفن الإسلامى أوسع الفنون انتشاراً وأطولها عمراً ، فهو قد امتد عبر الامبراطورية الإسلامية الكبرى من حدود الصين شرقا إلى الأندلس غرباً ، ومن آسيا الوسطى شمالا إلى صحارى السودان والمحيط الهندى جنوباً وما زال قائماً منذ القرن السابع الميلادى حتى الآن ولو بقسط .

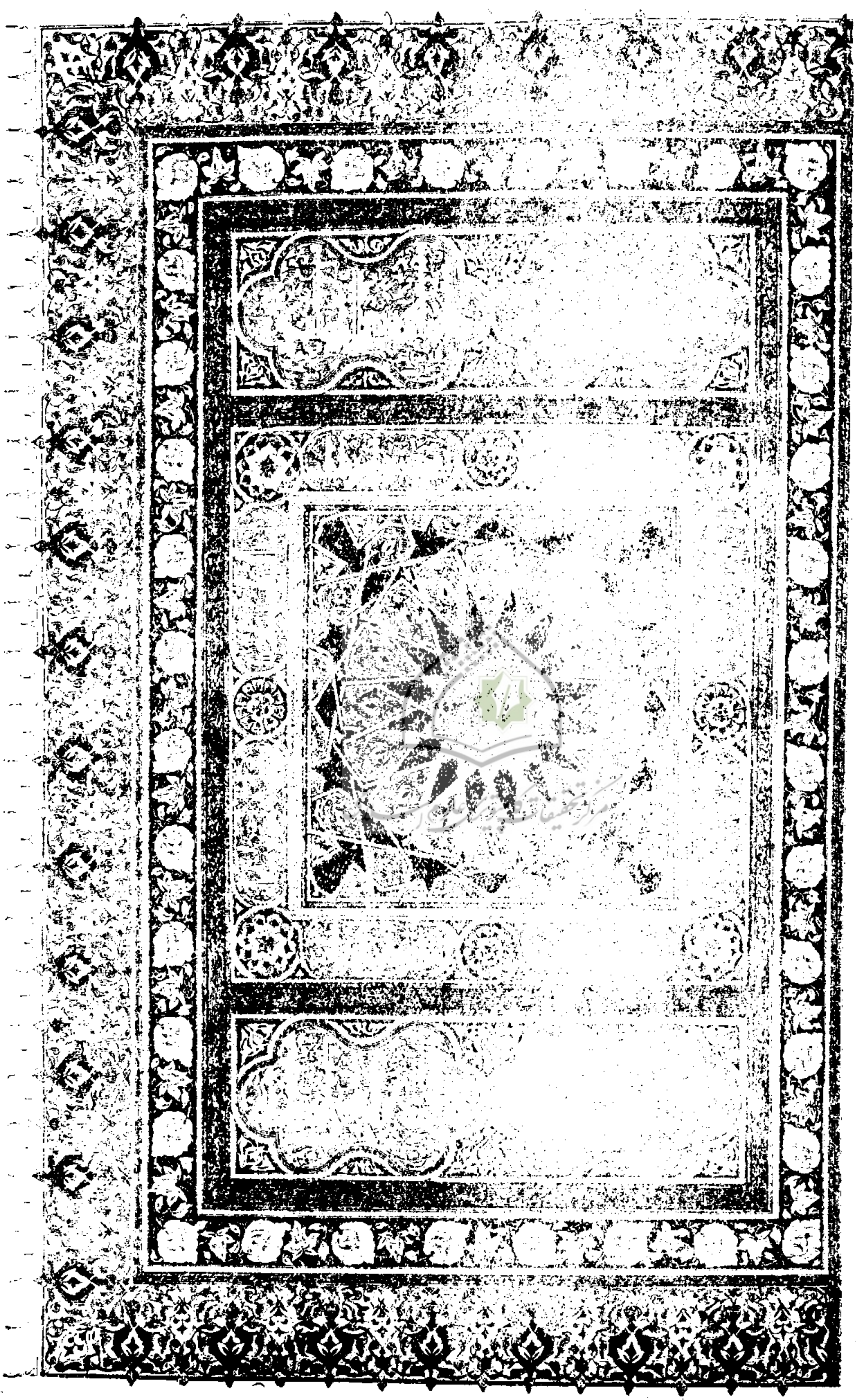
على أن العصر الذهبى للفن الإسلامى هو العصر الذى بلغ فيه أوج مجده فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، سواء فى العمائر الفخمة الضخمة وما اشتملت عليه من زخرفة هندسية ونقوش وكتابات تسترعى الإعجاب ، أم فيما اتخذ لتزيين الأدوات المنزلية والمنسوجات والكتب وغيرها .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الفنون الإسلامية وإن اتخذت طابعاً واحداً مميزاً عرفت به على اختلاف العصور والأمصار ، كانت تختلف من حيث طرزها وأساليبها من عصر إلى عصر ، وطبقا لخصائص الإقليم التى هى فيه ، غير أنه ليس من الميسور تحديد تاريخ دقيق لنشأة طراز بعينه من تلك الطرز أو لزواله ، ذلك لأنها كانت فى تطورها المستمر تتداخل وتمتزج ويقتبس بعضها من بعض ، دون أن يكون لأحدها استقلال تام لوقت طويل .

وليس ثمة من شك فى أن الطرز الإيرانية



كتابة كوفية مزخرفة على أرضيته بزخارف نباتية هندسية من جامع السلطان حسن بالقاهرة



صفحة من القرآن الكريم ـ عصر السلطان شعبان مقسمة على مناطق يتوسطها شكل نجمي ويحيط بها شريط من زخارف نباتية ثم إطار حافل بالزخارف

للفنون الإسلامية قد امتازت بالتنوع وتناول الكائنات الحية بالتسجيل ، ولكن الطرز التى ازدهرت فى مصر والشام لهذه الفنون تعد أعظم قدراً لما امتازت به من بساطة محببة هى أولى قوانين النجاح الفنى إلى جانب الذوق الخالص الرفيع .

ويُعد الخط العربى فى مقدمة الفنون الإسلامية الرائعة ، وقد بدأ بسيطاً خالياً من التحلية ، ثم تدرج وتطور على تعاقب العصور حتى بلغ مرتبة فنية سامية لم يبلغها أى خط آخر سواه . وكان لليونة حروفه ومطاوعتها واختلاف رسومها وأشكالها من تقوس وانبساط واستقامة عمودية أو أفقية خير معوان للفنان على جعله عنصراً من عناصر الزخرفة والتجميل . ولا تزال الكتابات الزخرفية العربية التى ازدانت بها واجهات المساجد والأضرحة الإسلامية من أبرز معالم الفنون التى امتاز بها العرب والمسلمون وأحفلها بالروعة والإبداع باعتراف أهل الفن من غربيين وشرقيين .

ولهذه الكتابات العربية الزخرفية عدا ذلك فوائد ومزايا عديدة ، من بينها أنها تسجل تاريخ ما نقشت عليه من بنايات أو أدوات ، وتحدد الأسلوب الفنى للعصر أو الإقليم الذى وُجدت فيه ، كما أنها كانت وسيلة إلى تجنب الفنان المسلم ذلك التكرار الممل الذى كان مضطراً إليه فيما يرسم من وحدات زخرفية ، بحكم عدم استطاعته ملء فراغ المساحات التى لديه بصور الأحياء .

هذا إلى أن الخط العربى كان يفصح بطريقة كتابته عن البلد الذى نشأ فيه [1] فتجد خطاً مكياً وآخر مدنياً إلى جانب خط الأنبار والحيرة [2] والكوفة [3] . وكانت النتيجة المحتومة لهذا أن الفنانين من الخطاطين الذين بدأوا خطهم فى معظم الأحوال بالحفر على الحجر أو الخشب أخذوا يكثرون من استعمال الخطوط المستقيمة والتقليل من الخطوط المقوسة ، وبذلك أصبح الخط العربى فى أول أمره كثير التضليع يابسا جافا ، لجاء « هندسيا » كما هو الحال فى أول أنواع الخط الكوفى الذى انتشر فى العالم الإسلامى كله .



إناء بنقوش عربية من وضع هانس هولباين فى سنة ١٥٣٧م عن كونل

[١] انتشار الخط العربى فى العالم الشرقى والعالم الغربى لعبد الفتاح عبادة ، القاهرة ١٩١٥

[٢] تاريخ أدب اللغة العربية لحفنى ناصف ، القاهرة (ج ٢ ص ١٢٤ وما بعدها) .

[٣] تاريخ التمدن الاسلامى لجورجى زيدان (ج ٣ ص ٥٤) .

ثم كان من أثر كثرة المكاتبات فى المعاملات والمراسلات تبعاً لتقدم الحياة الإسـلامية وتطورها،أن تحرر الخط العربى من جفاف تلك الخطوط المستقيمة ، وصارت الكتابة العربية مدورة لينة مرنة . ولا يمكن اعتبار هذا الاتجاه ضعفاً فنياً أو تخلصاً مما يطلبه فن الكتابة الكوفية من جهد ووقت ، ذلك لأن الطرازين : طراز للكتابة الفنية الكوفية وطراز الكتابة المدنية السريعة ، عاشا وأقاما وانتشرا جنباً إلى جنب منذ بداية التمدن الإسلامى .

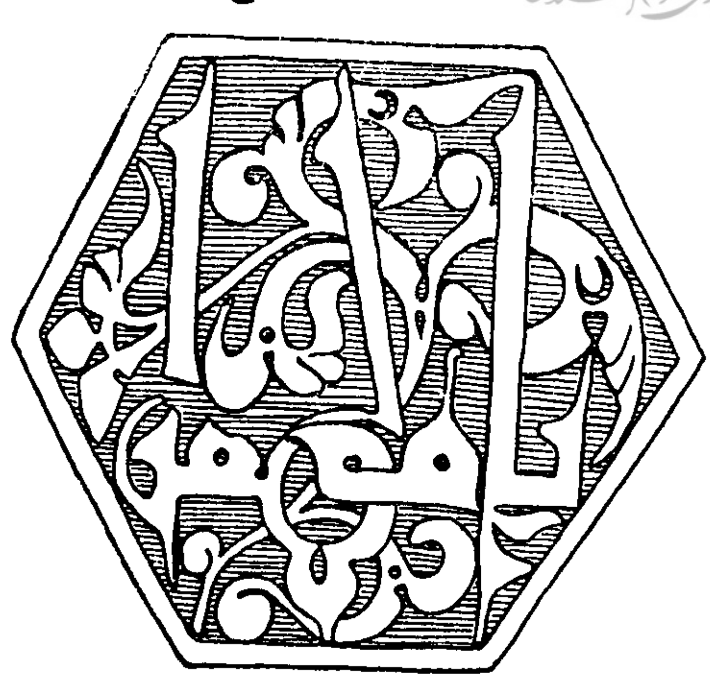
وهنا نذكر ما للقرآن الكريم من فضل عظيم على الفن الإسلامى والفنانين المسلمين ، فإن الاشتغال بكتابة المصاحف مع التفانى فى إظهارها بمظهر فاخر باهر ، يتناسب مع جلالها ومكانتها العظيمة .كان .نبعاً فياضاً ومجالا فسيحاً لإبراز المقدرة الفنية فى رسم الخط العربى وتجويده وزخرفته .

وكذلك كان لكتب الأدب ودواوين الشعر فضل مشكور فى تقدم فن الكتابة الزخرفية ،كما يمكن القول بأن كثيراً من الفضل فى عناية الفنانين من الخطاطين بذلك التجويد يرجع إلى ما جرت به العادة من تسجيل كل منهم اسمه تحت ما يكتبه ، مما لم يعهد فى غير الخط من الفنون إلا نادراً .

وقد ظهرت فى الأفق الفنى أساليب جديدة فى كتابة الخط العربى سميت بالخط النسخى والثلث والريحانى والتعليق ثم جاء بعدها خط الرقعة والخط الديوانى وغيرهما مما لا يتسع المجال للإفاضة فى الحديث عنه [1] .

ولئن كانت الفنون القديمة السابقة للفنون الإسلامية، قدعرفت كثيراً من الرسوم والنقوش الهندسية أو الزخرفية ، فالواقع أن استعمالها فى تلك الفنون القديمة لم يكن مقصوداً لذاته ، بل كان من قبيل الاستعانة بها على تكملة الموضوع،أى أنها كانت شيئاً ثانوياً وليست فى صميم الفن وجوهره ، كما هو شأنها فى الفنون الإسلامية حيث تكون العنصر الأساسى فيها جميعاً بلا استثناء .

ومن أجل ذلك كان طبيعياً أن امتاز فن الزخرفة الإسلامية بما وضع له من أصول وقواعد ، وبما عُنى به أساطين البحوث الفنية من تحليل هذه الزخرفة وإرجاع خطوطها ومعالمها



كتابة كوفية مزخرفة من إيران ـ القرن الثانى عشر ـ عن كوفل

[١] فنون الاسلام للدكتور زكى محمد حسن ص ٢٣٧ وما بعدها .

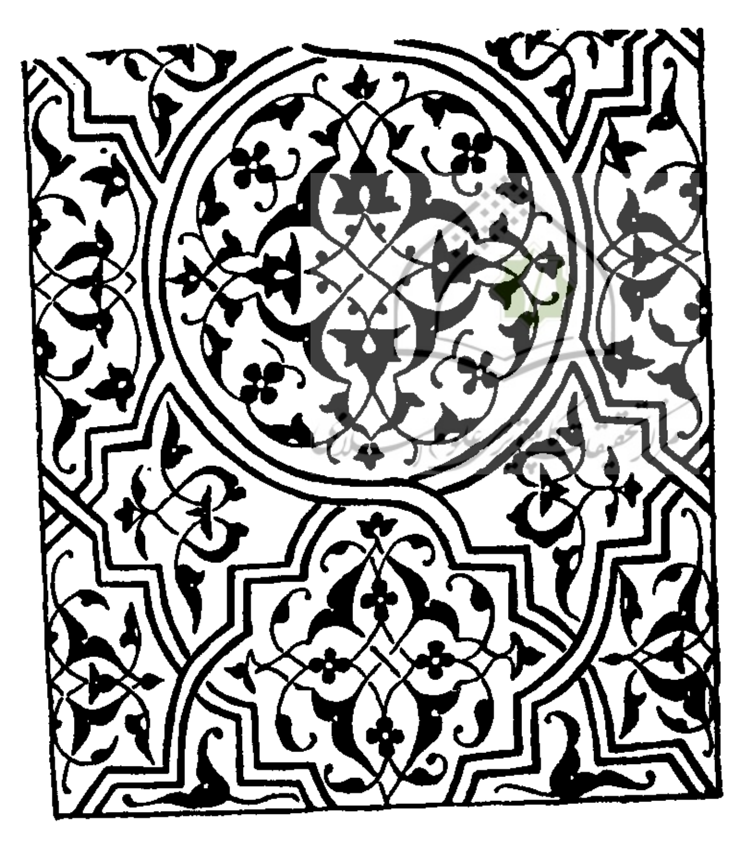
المركبة إلى أصولها البسيطة أو إلى الخطوط والأشكال الهندسية الأولية التى تألفت منها .

وقد أثبتت هذه البحوث التحليلية الفنية بما لا يدع مجالاً للشك أن الفنانين المسلمين بلغوا درجة عظيمة لم يبلغها غيرهم من حيث الخبرة التامة بالرسم الآلى الهندسى وتقسيم الدوائر واستعمال الفرجار .

ويمكن القول بأن هذه الرسوم الهندسية العربية استمر تطورها وتقدمها على مر العصور حتى بلغت قمة الإبداع والروعة فى مصر أثناء حكم المماليك ، حيث كانت تستخدم لزخرفة المصنوعات الخشبية والمعدنية ولتحلية المصاحف والكتب فضلا عن استخدامها فى تزيين المساجد والأضرحة والمدارس وما إليها من البنايات الدينية والمدنية .

وبلغ من إعجاب الفنانين الغربيين بالفنون الزخرفية الإسلامية وما اشتملت عليه من بدائع الرسوم والأشكال الهندسية أن تأثر بها كثير من أساطين الفن عندهم ؛ فجاءت بعض لوحات «ليوناردو دافينشى» الفنان الإيطالى الكبير مشتملة على زخارف إسلامية ، كما وجد بعض هذه الزخارف مسجلاً طبق الأصل فى بعض ما أنتجه الفنان العظيم «هانس هولباين» ، كما ثبت اقتباس كثير من الزخارف الإسلامية فى اللوحات النحاسية التى كان يحفرها الفنانون الألمان بأيديهم فى منتصف القرن السادس عشر .

بقى أن نشير إلى ميزة أخرى لفن الزخرفة الإسلامية ، وتلك هى ما يلاحظ آثارها الماثلة للعيان حتى الآن من توافر الوحدات النباتية دون التقيد بالطبيعة أو تقليدها تقليداً تاماً ، ففى كثير من هذه الآثار نجد منتجيها من الفنانين المسلمين قد استخدموا فى الزخرفة أجزاء يسيرة من المرئيات الطبيعية كجذوع الأشجار وأوراقها وثمارها ، ثم اتخذوا منها نماذج أو وحدات كرروها لملء فراغ المساحات التى يزخرفونها



زخارف نباتية من كتاب بليجرينو فى سنة ١٥٣٠ عن كوفل

مع التفنن فى هذا التكرار ، بوضعها متقابلة أو متناظرة تارة ، ووضعها متجاورة أو متعاكسة تارة أخرى ... وهلم جرا .

ومن هنا نشأ ما أطلق عليه الأوربيون اسم «أرابسك» منذ عصر النهضة الإيطالية ، وأطلق



إحدى صفحات المصحف الشريف من عصر السلطان المؤيد

آراء وأحاديث

مجـــــلة الازهر

للاستاذ عبد الله أمين

صدر العدد الأول من مجلة الأزهر فى عهدها الجديد ، فى غرة شهر رمضان لسنة ١٣٧١ هـ ، فإذا به فى ورقه وغلافه وطبعه وضخامته ، فى الذروة العليا من المجلات التى تصدر بالعربية فى مصر وغيرها ، وإذا حقق رجاؤها - ونرجو أن يحقق - فستكون فى الأعداد التالية أجمل وأجود.

أما كتّاب هـذا العدد فهم الصفوة المختارة من رجال العلم والأدب ، فى العالم العربى كله ، ومنهم من ملأت شهرتهم المشارق والمغارب ، وهؤلاء أنفسهم هم الذين تتهافت عليهم جميع المجلات والصحف المصرية لتظفر من أحدهم بمقال تزين به جيدها ، وتضمن به تهافت القراء عليها ورواجها .

وأما ما كتبه كل منهم فى هـذا العدد فهو من خير ما كتب ، ومن خير ما تزدان به المجلات والصحف ، وحَسْبُ هذا العدد مقال حضرة الاستاذ مدير المجلة ورئيس تحريرها الأستاذ أحمد حسن الزيات وهو (عهد جديد) ، فهو جدير بأن يوزن العدد كله من أجله بالجواهر . إنه من أجود الكلام معانى ومبانى وترتيباً .

لا شك أن هذا العدد غزير المعانى ، جليل القدر ، منقطع النظير ، والمأمول فى همة مدير المجلة ورئيس تحريرها ، ولباقته وخبرته أن يطّرد تقدمها على يديه ، حتى تبلغ ما يرجى لها من كمال ، ولن تبلغ هذا الكمال المرجو بدون أن تفسح صدرها للنقد .

ولهذا أقول : إن ما يشعر به القارىء حين يطلع على هـذا العدد لأول نظرة أنه يسابق المجلات المصرية فى ميدان واحد ، وإن كان هو المجلىّ فيه ، فكتابه هم كتابها ، وإن اجتمع فيه منهم من لم يجتمع فى عـدد آخر من المجـلات الأخر ، وأساليبهم ومعانيهم ومناحيهم هى هى ، مع شىء من العناية اللائقة بمجلة الأزهر ، وإذا أردنا أن نرى فى هذا العدد صورة بعينها ، رأينا صورة الجامعة

عليه الألمان منذ عصر نهضتهم الفنية اسم «ماريسك» Maureske وجعلوه علماً على كل الزخارف المؤلفة من الفروع النباتية المتشابكة وما إليها .

وإلى جانب هـذه الوحدات النباتية التى استخدمها الفنانون المسلمون فى الزخرفة ، استخدم بعضهم أيضاً رسـوم بعض أنواع الحيوان والوحوش والطير والحشرات ، كالأسود والفهود والظباء والأرانب والحمائم ، ولعل هؤلاء الفنانين المسلمين قد اقتبسوا هذه الرسوم من البلاد الشرقية التى دخلها الإسلام كالصين وإيران وغيرهما حيث كان الفنانون هناك يرسمون صور الحيوانات خرافية مثل التنين أو البراق (فرس له وجه آدمى) . وقد استخدم رسم البراق هذا كثيراً فى زخرفة القصص المكتوبة عن المعراج ، كما رسموا بعض الأفاعى والحيات والعقارب تحت أقدام بعض الواصلين من المشايخ .

أحمد موسى

عليه الألمان منذ عصر نهضتهم الفنية اسم «ماريسك» Maureske وجعلوه علماً على كل الزخارف المؤلفة من الفروع النباتية المتشابكة وما إليها .

وإلى جانب هذه الوحدات النباتية التي استخدمها الفنانون المسلمون في الزخرفة ، استخدم بعضهم أيضاً رسوم بعض أنواع الحيوان والوحوش والطير والحشرات ، كالأسود والفهود والظباء والأرانب والحمائم ، ولعل هؤلاء الفنانين المسلمين قد اقتبسوا هذه الرسوم من البلاد الشرقية التي دخلها الإسلام كالصين وإيران وغيرهما حيث كان الفنانون هناك يرسمون صور الحيوانات خرافية مثل التنين أو البراق (فرس له وجه آدمي) . وقد استخدم رسم البراق هذا كثيراً في زخرفة القصص المكتوبة عن المعراج ، كما رسموا بعض الأفاعي والحيات والعقارب تحت أقدام بعض الواصلين من المشايخ .

أحمد موسى

آراء وأحاديث

مجـــــلة الأزهر

للاستاذ عبد الله أمين

صدر العدد الأول من مجلة الأزهر في عهدها الجديد ، في غرة شهر رمضان لسنة ١٣٧١ هـ ، فإذا به في ورقه وغلافه وطبعه وضخامته ، في الذروة العليا من المجلات التي تصدر بالعربية في مصر وغيرها ، وإذا حقق رجاؤها ـ ونرجو أن يحقق ـ فستكون في الأعداد التالية أجمل وأجود.

أما كتّاب هذا العدد فهم الصفوة المختارة من رجال العلم والأدب ، في العالم العربي كله ، ومنهم من ملأت شهرتهم المشارق والمغارب ، وهؤلاء أنفسهم هم الذين تتهافت عليهم جميع المجلات والصحف المصرية لتظفر من أحدهم بمقال تزين به جيدها ، وتضمن به تهافت القراء عليها ورواجها .

وأما ما كتبه كل منهم في هذا العدد فهو من خير ما كتب ، ومن خير ما تزدان به المجلات والصحف ، وحَسْبُ هذا العدد مقال حضرة الاستاذ مدير المجلة ورئيس تحريرها الأستاذ أحمد حسن الزيات وهو (عهد جديد) ، فهو جدير بأن يوزن العدد كله من أجله بالجواهر . إنه من أجود الكلام معاني ومباني وترتيباً .

لا شك أن هذا العدد غزير المعاني ، جليل القدر ، منقطع النظير ، والمأمول في همة مدير المجلة ورئيس تحريرها ، ولباقته وخبرته أن يطّرد تقدمها على يديه ، حتى تبلغ ما يرجى لها من كمال ، ولن تبلغ هذا الكمال المرجو بدون أن تفسح صدرها للنقد .

ولهذا أقول : إن ما يشعر به القارىء حين يطلع على هذا العدد لأول نظرة أنه يسابق المجلات المصرية في ميدان واحد ، وإن كان هو المجلّي فيه ، فكتابه هم كتابها ، وإن اجتمع فيه منهم من لم يجتمع في عدد آخر من المجلات الأخر ، وأساليبهم ومعانيهم ومناحيهم هي هي ، مع شيء من العناية اللائقة بمجلة الأزهر ، وإذا أردنا أن نرى في هذا العدد صورة بعينها ، رأينا صورة الجامعة

من الجامعات المدنية أو لغيرها، أما الجامعة الأزهرية التى صَدَر عنها و باسمها فلا يمكن أن يكون مرآة صادقة لما تتجلى فيها صورتها على حقيقتها .

إنما تكون مجلة الأزهر مرآة صادقة للأزهر، حين يكون جميع محرريها من أبناء الأزهر لحماً ودماً وروحاً ، أى ممن تعلموا فيه وأصبحوا معلمين فيه ، ووقفوا كل حياتهم وجهودهم على تفهم رسالته والعمل بها ، وعلى تأدية هذه الرسالة ، وحين يكون كل ما يكتب فيها ، فى هذه الرسالة نفسها ، ولا ينقض هذا وذاك ، أن تنشر المجلة لبعض النابهين من غير أبناء الأزهر ، من أمثال كتاب هذا العدد شيئا ما فى هذه الرسالة أو فيما يتصل بها من قرب أو من بعد .

وما رسالة الأزهر التى يجب أن تكون القبلة التى يتوجه إليها جميع طلابه وأساتذته، وألا تتحول عنها أبصارهم وقلوبهم ونفوسهم قيد شعرة ؟ إنى لا أبالغ ولا أتجنى إذا قلت : إن هذه الرسالة غير محدودة ، وبعبارة أخرى غير واضحة المعالم . ولقد آن الأوان لوضع حدودها ، وتبين معالمها ، فى هذا العصر الذى تكاثرت فيه وقويت عوامل الإلحاد والإباحة ، والتحرر من قيود الأديان واشتدت فيه حاجة البشر إلى الدين النظيف الخالص الذى يستولى على عقولهم وقلوبهم ، وينقذهم مما هم مشرفون عليه من الشقاء والدمار .

إن رسالة الأزهر هى رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت هذه الرسالة الحكيمة الرحيمة الفذة ، وتحتوى بلا شك على أقسام الدين الأربعة وهى :

١ - العقائد ، وهى الإيمان بالله ورسله وبعالم الغيب ، من الملائكة والجن والحياة الآخرة .

٢ - العبادات ، وهى الصلاة والصوم والزكاة والحج .

٣ - الفضائل والآداب ، ويجمعها تزويد الجسوم والنفوس والعقول بما ينميها ويقويها ويزينها ويطهرها مما يشينها .

٤ - المعاملات ، وتجمع كل الأمور القضائية ، والسياسية ، والإدارية ، والحربية ، والصحية ، وغيرها من الأمور التى تنظم حياة الجماعات .

غير أن الجزء الأكبر من عناية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن جهوده ، إن لم تكن كلها كانت ، موجهة فى عهد الرسالة كلها وهو ثلاث وعشرون سنة ، إلى تحرير العقائد والعبادات ، من عقائد الشرك وعباداته . وذلك لأن العقائد والعبادات هى الدين المحض ، فهما كما جاء فى مجلة المنار الإسلامى يكملان أمور الإنسان الروحية وينظمان علاقته بربه ، ويفضيان به إلى سعادة الدار الآخرة ، وفيهما مع ذلك ناحية دنيوية ؛ لأنهما يحرران العقول من الأوهام والخرافات ، والنفوس من الرذائل والضلالات ، وفى ذلك التحرير سعادة البشر فى الدنيا أيضاً .

وهما اللذان قال فيهما سبحانه وتعالى « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، ولذلك يجب أن تلتزم فيهما الحدود التى حدها الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول والعمل ، وجرى عليها الصدر الأول من الصحابة ، بلا زيادة ولا نقص ، لا بقياس ،

ولا بدعوى إجماع لمن بعدهم ، ولا لمصلحة ، ولا لغير مصلحة ، ولا لغير ذلك من العلل والأسباب .

هكذا كان هم الرسول صلى الله عليه وسلم ، مصروفا كله إلى تصحيح العقائد والعبادات ؛ لأنهما الدين المحض ، ولأن المشركين كانوا منغمسين إلى الأذقان فى الشرك وفيما يتفرع منه من الأوهام والخرافات ، والرذائل والضلالات ، وهذه وتلك المصدر الأكبر الأول لشقاء البشر وتعاسته فى الدنيا والآخرة جميعاً ، ولن يستقيم له أمر فيهما ما لم يرد إلى العقائد والعبادات النظيفة ، وهى الإسلامية حقا .

وما حال المسلمين والمشركين الآن ، وغداً وبعد غد ، وإلى أن تقوم الساعة ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، ومنها مصر العزيزة مقر الأزهر الشريف ، بأحسن من حال المشركين حين الرسالة : فالناس هم الناس فى كل زمان ومكان ، إنهم عبيد التراث القديم الذى ورثوه منذ آلاف السنين عن الآباء والأجداد ، وعما أحاطهم من ملابسات ومؤثرات ودرجوا عليه وطبعوا بطابعه . إنه ملىء دائماً بالجهالة والضلالة لا يتحررون من فساد العقيدة ، ولا من فساد العبادات ، وهما أصل شقائهم ومصدر بلائهم . فهم دائماً فى حاجة ملحة إلى حرب عنيفة شعواء واسعة النطاق ضد عقائد الشرك وعباداته ، وأصل هذا الفساد كله دعاء غير الله الواحد القهار ، فى الحديث الصحيح : « الدعاء مخ العبادة » .

فلا يمكن أن يعد الأزهر حاملا لواء الرسالة المحمدية العليا ، إذا لم يرفع علم هذه الحرب عالياً خفاقا ضد البــدع والخرافات ، والأوهام والضلالات ، فى كل مكان ، وفى مجلة الأزهر .

فمتى يعلنُ هذه الحرب ؟ إن جميع الأحوال الآن تدل دلالة قاطعة على أن وقتنا هـذا هو الوقت الملائم لشن هـــذه الحرب ؛ فالبلاد الإسلامية وفى مقدمتها مصر تسابق الريح بل الأمواج الكهربية ، طائعة أو مكرهة ، فى سبيل الأخذ بأسباب المدنية الحديثة التى تكاد تقضى على الأديان كلها ، وفى الأزهر الآن نخبة من العلماء الذين يؤمنون بالدين الخالص ، ويعتقدون أن كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار ، ويمقتون هذه البدع أشد المقت .

وفى مقدمة هؤلاء : الحبيب العزيز القديم حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الإمام الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر ، بقية السلف الصالح ، وإذا تم فى عهده الميمون إنشاء المعهد الحديث للدعوة الإسلامية — ونرجو أن يتم إنشاؤه قريباً إن شاء الله تعالى — كان إنشاؤه الخطوة الأولى التى لا بد منها لتحرير العقائد والعبادات ، وهما الدين المحض ، مما علق بهما .

فلا نزاع أن أساس الدراسات فى هذا المعهد ستكون الدين الخالص ، والفصل بينه وبين غيره من الأديان ، ومما أضافته إليه الأمم من عقائد الشرك وعباداته ، وأن العلماء الذين يتمون الدراسة فيه سيقفون جنبا إلى جنب مع العلماء الذين أتموا الدراسة فى قسم الوعظ والإرشاد وغيرهم من العلماء الذين يجيدون الوعظ والإرشاد ، فيكتمل للأزهر بهؤلاء وهؤلاء القيام بالرسالة كلها ؛ فإن رسالة

الوعظ والإرشاد، الدعوة إلى: (١) الفضائل والآداب (٢) تقويم المعاملات بين الناس فهى تحي القسمين الثالث والرابع من أقسام الدين.

وهذان القسمان كما جاء فى مجلة المنار الإسلامى دنيويان؛ لأنهما مدنيان اجتماعيان منظمان لشؤون الإنسان فى الدنيا، وعلاقته بأهــله وبقومه وبغيرهما من خلق الله سبحانه، فيسعد بهما هو ومن يتصل به فى الدنيا.

وفيهما مع ذلك ناحية دينية: لمـا ورد فيها من نصوص فى الحلال والحرام تجب طاعتها والعمل بها، وفى هذه الطاعة، وفى هذا العمل زلفى إلى الله سبحانه وحسن مآب؛ لما فيهما من نفع، وتربية للنفس، وفى عصيانهما ومخالفتهما بعد من الله وسوء مآب، وفى إحلال حرامهما، وتحريم حلالهما عمداً كفر. وهذا ما يؤيد أنهما دينيان من ناحية.

وهنا فى هذين القسمين مجال للزيادة بالقياس وبالإجماع فيما لم يرد فيـه نص فيهما، وهذا موكول لأولى الأمر، وفى أولى الأمر كلام يطلب فى مواضعه.

فللأزهر رسالة أخذ بالشطر الثانى منها، وأعد لهـا عدتها وقام ويقوم بها، أما الشطر الأول من هذه الرسالة فهو يتهيأ له الآن، ونطالبه به.

إن هذا الشطر الأكبر الأول بل الأزهر كله أمانة للإسلام والمسلمين بين يدى حكيم خبير من أبناء الأزهر، هو شيخه الإمام الجليل، ومجلة الأزهر هى الأخرى أمانة للأزهر بين يدى أجدر الصحفيين بحمل هذه الأمانة، وهو حضرة الأستاذ مديرها ورئيس تحريرها أحمد حسن الزيات، ووفاؤه بهذه الأمانة لا يكون إلا بأن يعمل جاهداً على إحلال أبناء الأزهر من العلماء المؤمنين بالرسالة على النحو الذى شرحته هنا فى تحرير المجلة محل المختارين لتحريرها من غيرهم وذلك بالتدريج فى مدة لا تتجاوز بضع سنين على أن يكون هو آخر من يتخلى عن المجلة ويدع إدارتها ورياسة تحريرها لمن يختاره هو منهم لها - والله ولى التوفيق - بعد كتابة هذا المقال صدر عدد شوال سنة ١٣٧١ من المجلة فإذا به كعدد رمضان.

عبد الله أمين

تعقيب:

وافق الأستاذ على جملة قوله، ولا أعقب إلا على رأيه فى تحرير المجلة.

المسألة ياسيدى الأستاذ واحدة من ثلاث: إما أن تخرج المجلة بيضاء؛ وإما أن أكتبها كلها بقلمى؛ وإما أن استكتب لها الكتاب. فالأولى غير معقولة، والثانية غير مقبولة، والثالثة فيها كلام.

توليت إدارة هذه المجلة وليس فيهـا محرر ولا مترجم ولا موظف يعين على التحرير والترجمة، فلم أجد بداً من الاستعانة بالكتاب الذين حملوا أمانة العلم وفهموا ثقافة الإسلام. وكان من أول هؤلاء وأولاهم كتاب الأزهر، ولكن معرفتى بأكثرهم قليلة. وهم لم يتكرموا بالتعارف ولم يتقدموا بالمعونة، فلجأت إلى من أعرف من الأزهريين والجامعيين والمجمعيين. وخرج عدد رمضان على النحو الذى عرفت. ولم تتغير الحال فى عدد شوال فصدر على الوضع الذى رأيت.

الفتـــــح المبين

حديث من أحاديث الاذاعة المصرية ألقاه صاحب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت فى ذكرى الفتح ، فرأينا أن ننشره فى هذا العدد الخاص بالفتوح استزادة من صحائف المجد واستفادة من أدب الأستاذ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

فى السنة السادسة من الهجرة رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين ، محلقين رءوسهم ومقصرين . وأخبر المسلمين بهذه الرؤيا . وثقة بما أراه ربه - وهو لا يريه إلا حقاً - توجهت نفسه إلى تحقيق هذه الرؤيا ، فاستنفر أصحابه واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه ، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته ، اعتذروا وتعللوا ، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار معلنا أنه لا يريد حربا ، وإنما يريد عمرة ونسكا . وعلى الرغم من ذلك جاءته الأنباء بأن قريشاً أجمعوا على منعه من دخول مكة وصده عن المسجد الحرام وأنهم تجهزوا فعلا لقتاله ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ، تفاديا للقتال الذى لا يريده ، غير طريقه الذى ترصدوا له فيه ، وتحول بأصحابه إلى جهة تعرف باسم الحديبية ، قريبة من مكة . وفى هذا المكان جاءه سفير من قريش يتحدث معه فيما يريد ، واتصلت المفاوضة بينه وبين قريش حتى بعث إليهم عثمان بن عفان يوضح لهم مقصده ، وأنه لا يريد قتالا . ولما أبطأ عثمان ابن عفان فى مكة ، شاع فيما بين المسلمين أن قريشا قتلته ، وهنا قال الرسول : لا نبرح حتى

وفى عدد المحرم الذى بين يديك اختلاف الأمر بعض الاختلاف . لم أجد بعد ثلاثة أشهر مسوغا لانتظار التعارف أو التعاون ، ففزعت إلى لجنة من صفوة العلماء الأصدقاء فى الأزهر ومعى خطة لهذا العدد الخاص مبينة المعانى معينة الأغراض ، وسألتهم أن يختاروا لهذه الموضوعات كتابها من رجال الأزهر ، فاختاروا طائفة من أعيانهم كتبت إلى كل منهم رسالة بموضوعه وموعده . ثم انتظرت ونظرت فإذا الأساتذة جميعاً لا يكتبون ولا يعتذرون ، ما عدا الأستاذ الشيخ محمد عرفه ، وكان الوقت قد ضاق عن استكتاب غيرهم ممن يكتبون أو يعتذرون فنزلنا مضطرين على حكم الواقع ، فإذا رأيت يا سيدى الأستاذ فى هذا العدد خللا لم يسد وفجوة لم تملأ ، فأرجع هذا إلى ذاك .

ورأيى قبل هذا أن الأزهر فكرة ؛ فكل من أخذ بها وعبر عنها ودعا إليها فهو أزهرى وإن لم يخرجه الأزهر . أما رأيى بعد هذا ، فهو أن العبء باهظ والجو خانق والعدة ضعيفـــة والمعاونة قليلة والسن متقدمة والصحة متأخره . وما أطمعت فضيلة الشيخ الأكبر الإمام عبد المجيد سليم فى تولى هذه المجلة إلا لأرسم الخطة وأضع النموذج . وفى اعتقادى أن فى الأعداد الثلاثة التى صدرت على علاتها ما يكفى .

ولك يا سيدى الأستاذ أجزل الشكر على جميل رأيك وحسن ظنك .

مدير المجلة

الفتـــــح المبين

حديث من أحاديث الاذاعة المصرية ألقاه صاحب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت فى ذكرى الفتح ، فرأينا أن ننشره فى هذا العدد الخاص بالفتوح استزادة من صحائف المجد واستفادة من أدب الأستاذ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

فى السنة السادسة من الهجرة رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام آمنين ، محلقين رءوسهم ومقصرين . وأخبر المسلمين بهذه الرؤيا . وثقة بما أراه ربه - وهو لا يريه إلا حقاً - توجهت نفسه إلى تحقيق هذه الرؤيا ، فاستنفر أصحابه واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ليكونوا معه ، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته ، اعتذروا وتعللوا ، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار معلنا أنه لا يريد حربا ، وإنما يريد عمرة ونسكا . وعلى الرغم من ذلك جاءته الأنباء بأن قريشاً أجمعوا على منعه من دخول مكة وصده عن المسجد الحرام وأنهم تجهزوا فعلا لقتاله ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ، تفاديا للقتال الذى لا يريده ، غير طريقه الذى ترصدوا له فيه ، وتحول بأصحابه إلى جهة تعرف باسم الحديبية ، قريبة من مكة . وفى هذا المكان جاءه سفير من قريش يتحدث معه فيما يريد ، واتصلت المفاوضة بينه وبين قريش حتى بعث إليهم عثمان بن عفان يوضح لهم مقصده ، وأنه لا يريد قتالا . ولما أبطأ عثمان ابن عفان فى مكة ، شاع فيما بين المسلمين أن قريشا قتلته ، وهنا قال الرسول : لا نبرح حتى

وفى عدد المحرم الذى بين يديك اختلاف الأمر بعض الاختلاف . لم أجد بعد ثلاثة أشهر مسوغا لانتظار التعارف أو التعاون ، ففزعت إلى لجنة من صفوة العلماء الأصدقاء فى الأزهر ومعى خطة لهذا العدد الخاص مبينة المعانى معينة الأغراض ، وسألتهم أن يختاروا لهذه الموضوعات كتابها من رجال الأزهر ، فاختاروا طائفة من أعيانهم كتبت إلى كل منهم رسالة بموضوعه وموعده . ثم انتظرت ونظرت فإذا الأساتذة جميعـــاً لا يكتبون ولا يعتذرون ، ما عدا الأستاذ الشيخ محمد عرفه ، وكان الوقت قد ضاق عن استكتاب غيرهم ممن يكتبون أو يعتذرون فنزلنا مضطرين على حكم الواقع ، فإذا رأيت يا سيدى الأستاذ فى هذا العدد خللا لم يسد وفجوة لم تملأ ، فأرجع هذا إلى ذاك .

ورأيى قبل هذا أن الأزهر فكرة ؛ فكل من أخذ بها وعبر عنها ودعا إليها فهو أزهرى وإن لم يخرجه الأزهر . أما رأيى بعد هذا ، فهو أن العبء باهظ والجو خانق والعدة ضعيفـــة والمعاونة قليلة والسن متقدمة والصحة متأخرة . وما أطعت فضيلة الشيخ الأكبر الإمام عبد المجيد سليم فى تولى هذه المجلة إلا لأرسم الخطة وأضع النموذج . وفى اعتقادى أن فى الأعداد الثلاثة التى صدرت على علاتها ما يكفى .

ولك يا سيدى الأستاذ أجزل الشكر على جميل رأيك وحسن ظنك .

مدير المجلة

تناجزهم الحرب. ودعا أصحابه للبيعة على القتال فبايعوه تحت شجرة هناك ، عرفت بشجرة الرضوان. ولما ذاع نبأ تلك البيعة ، ووصل قريشاً أمرها ، وهم يعرفون قيمة البيعة عند المؤمنين ، لجأوا إلى المسالمة ، وأرسلوا إلى الرسول عليه السلام من يعرض عليه الصلح. وقد تم الصلح بشروط قبلها النبي صلى الله عليه وسلم ، ورأى فيها بعض أصحابه غبناً شديداً على المسلمين ، فتلكأوا به بعض الوقت في تنفيذ ما أمرهم به النبي من التحلل والرجوع ، ثم سارعوا إلى الامتثال حينما رأوه يباشر فعلا عملية التحلل بالنحر والحلق ، فتحللوا ورجعوا إلى المدينة وفي قلوبهم ما فيها من آلام الموقف. ولكن الله العليم بخير هذا الصلح على المسلمين وما يثمره من الثمرات الطيبة في نشر الدعوة بادرهم بإنزال تلك السورة العظيمة وهم في طريقهم إلى المدينة ليكشف لهم الغطاء عما لم يدركوا من أسرار توجيه النبي عليه السلام وأكد لهم أن ما حصل ليس كما يظنون « غبنا ودنية ».

وإنما هو فتح ، وفتح مبين : فتح للعقول لتدرك سمو الإسلام ، وفتح للقلوب لتخالطها بشاشة الإيمان ، وفتح لمكة وغيرها من القرى والمدن التي ستعلو فيها كلمة الحق والعدل ، ويندك بها صرح الباطل والظلم ، وأنه بهذا الفتح سيطهر قلب النبي صلى الله عليه وسلم من الحرج واستبطاء نصر الله له الذي كان يحسه في مواقف الشدة ، ويظفر بإتمام نعمة الله عليه وإكمال دينه بالتشريع والبيان ، وبهدايته هداية عملية واقعية ، إلى صراطه المستقيم ، وبالنصر الذي لا تعتريه هزيمة ، ولا يلحقه غلب « إنا فتحنا لك فتحاً مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصراً عزيزا ».

ثم يمتن الله في السورة على المؤمنين بموقفهم في الانقياد للنبي صلى الله عليه وسلم وأمره إياهم بالرجوع معه إلى المدينة ، وأن ذلك لم يكن إلا بطمأنينة ملأ الله بها قلوبهم « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ». وأن الله تعالى كان قادرا على أن يشرد بأعدائهم - بما له من جنود السموات والأرض - دون أن يكون للمؤمنين دخل في هزيمتهم ، وتمزيق قوتهم ، ولكنه سبحانه رتب الأمر هكذا وجعله بأيدي المؤمنين لينالوا ما أعد لهم من نعيم ، ولينكشف المنافقون والمشركون ، وينزل بهم ما يستحقون من جحيم ، وقد نوهت السورة بعد ذلك بالمبايعة التي حصلت تحت الشجرة ، « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا ». كما فضحت أسرار المنافقين الذين لم يخرجوا معه. وفي ذلك يقول « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ». « وسيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ، ذرونا نتبعكم ، يريدون أن يبدلوا كلام الله. قل لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل ». وفي بيان الحكمة في قبول الصلح وعدم القتال ، وأن ذلك

لم يكن ضعفا ولا عجزا من المؤمنين ، تقول السورة « ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار، ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا » . وتقول « وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم» وتقول « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم » .

ولقد كان من بركة هذا الموقف أن اعترفت قريش للمؤمنين بدولة ، لها كيانها ، ولها سفراؤها ، ولها قوتها ، وأنه مهد لكثير من العرب : قريش وغيرها ، أن يختلطوا بالمسلمين فيعرفوا عن كثب حقيقة الإسلام ، وما يدعو إليه من فضائل وأخلاق ، وقد مهد كل هذا للفتح الأكبر الذى به سقطت دولة الظلم ، وتحطمت أصنامه ، وبه تحققت رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم . وفتح المسلمون مكة ، ودخلوا المسجد الحرام « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا» .

ثم أكدت السورة ضمان حسن العاقبة للرسول ، وأن الله سيظهر دينه على الدين كله ، وذكرت أصحابه عليه السلام بالتراحم فيما بينهم ، والإخلاص لله ، وذكرتهم بالشدة على الكفار والغيرة على الحق « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » .

ثم سجلت لهم ، ولكل من سار على نهجهم فى قوة الإيمان والعمل الصالح ، هذا الوعد الكريم « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » .

هذا هو الفتح المبين ، وهذه هى سورة الفتح ، ومن العبر التى توحى بها هذه السورة الكريمة والتى يجب علينا أن نستخلصها لننتفع بها فى حياتنا الراهنة ، أن القائد لابد لنجاحه فى تكوين أمته ، وتركيز قوى الخير فيها ، من أن يبذل جهده فى تعرف جانب الحكمة والسداد فى الرأى ، وأن يعتمد على من عرف إخلاصهم ، وصدق إيمانهم ، وأن الجيش المظفر هو الجيش الذى يطهر نفسه من عناصر التخذيل والضعف ، وأرباب الغايات المادية الفانية ، التى لا تتصل بشرف الذمة ومجدها ، وأنه يجب تنحية المنافقين الذين لا يقصدون من القتال سوى تلك الغنائم المادية.

وبسداد الرأى ، وقوة العزيمة ، وصدق الإيمان ، وطهر الجيش ، وسمو هدفه ، يكون النجاح والظفر ، وتكون العزة والمناعة .

نسألك اللهم أن تكلل عمل المجاهدين المخلصين بالنصر والتأييد ؟

محمود شلتوت

ما يقال عن الإسلام

رأينا أن نختار لهذا العدد من مجلة الأزهر ما يلائم فكرته ، ولذلك لم نقتصر على ما يقوله المعاصرون فى صحفهم ومؤلفاتهم .

* * *

بعض ما يقوله المؤرخ الانجليزى جيبون

تعرض هذا المؤرخ الشهير لظهور الإسلام فى كتابه الضخم « اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » الذى طبع سنة ١٧٨٨ ، ولقد كان متأثراً فيما كتب عن الإسلام بما كان يسود أوربا يومئذ من التعصب والسخط على هذا الدين ، ولكنه كان ينسى تعصبه أحيانا إذ تتغلب عليه نزعة المؤرخ : قال يصف جانبا من حياة الرسول صلوات الله عليه « إن سمو إحساس محمد جعله يحتقر بهرج الملك ؛ وكان رسول الله يخضع نفسه لما تتطلبه حياة الأسرة من عمل ؛ فقد أوقد النار وكنس المنزل وحلب الشاة ، وخصف بيديه نعليه ورتق ثوبه ، ولقد كان قانعا يأكل كما يأكل العربى والجندى ؛ وكان فى مناسبات قليلة يولم لرفاقه فى سعة ، ولكن الأسابيع الكثيرة كانت تنقضى ولا يوقد فى بيته نار لطعام ؛ وكان يحرم الخمر كما يقضى بذلك الدين ؛ وكثيرا ما كان يخفف وطأة الجوع بكسرة من خبز الشعير » .

وقال هذا المؤرخ يصف جهاد المسلمين فى غزوة مؤتة « أعطى لواء المعركة لزيد ، فإذا مات خلفه جعفر ، وإذا مات جعفر خلفه عبدالله ، وبعد ذلك يختار المسلمون من يقودهم ؛ ولقد مات القواد الثلاثة فى معركة مؤتة أول المعارك التى امتحن فيها حماس المسلمين أمام عدو أجنبى ؛ أما زيد فقد سقط كما يسقط الجندى فى مقدمة الصفوف ، وأما جعفر فقد مات موتة البطل ، فقد قطعت يمناه ، فأمسك اللواء بيسراه ، فذهبت يسراه فاحتضن اللواء بعضديه النازفين ، ثم سقط وفى جسده خمسون جرحا مشرفا ؛ ونادى عبد الله وقد التقط اللواء : تقدموا فإما النصر وإما الجنة ، فأردته حربة رومانية فتقدم خالد فاتح مكة ، فرفع اللواء وقد تكسرت فى يده عشرة سيوف ؛ ومكنته بسالته من الوقوف وحده فى وجه مكاثريه من العدو بل وردهم » .

* * *

ه . ج . ولز وخصائص الاسلام

كتب ولز فى كتابه « مختصر تاريخ العالم » إن المؤرخ المتنبىء فى أوائل القرن السابع الميلادى

كان يستطيع أن يقول بحق إنه ما هى إلا قرون ثم يغزو العالم المغول فيحكمون ما بين المحيط الهادى والطونة وذلك لأن الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية كانتا تعانيان الانحلال ، وكانت الهند مقسمة ، وكانت الصين تمتد فى رقعتها الفسيحة ، وكانت الشعوب التركية فى وسط آسيا تفعل مثلما تفعل الصين .

ثم يقول هـذا المؤرخ الإنجليزى والقصصى الذائع الصيت « إنه إذا كان ثمة من خطأ يقع فيه ذلك المتنبىء فمصدر هـذا الخطأ هو الصحراء العربية ، فإن بلاد العرب كانت تبدو له كما هى حالها من زمن سحيق موطناً لقبائل صغيرة من البدو الرعاة .... ولكن هؤلاء البدو انبعثوا فجأة ، وبلغوا فى قرن قصير غاية الرفاهية ، فلقد نشروا حكمهم ولغتهم مابين أسبانيا وبلاد الصين . ولقد أمدوا العالم بثقافة جديدة ، وخلقوا ديناً لايزال حتى اليوم قوة من أهم القوى الحيوية فى هذه الدنيا » ثم لخص ولز حياة الرسول وقال عن دينه « إن فى ذلك الدين الذى نشره محمد فى العرب كثيراً من أسباب القوى والوحى ، ومن أبرز خصائصه ، الوحدانية المطلقة التى لا تعرف هوادة . وعقيدته السهلة المتحمسة فى الله وحكمه ؛ وخلوه من التعقيد المذهبى . والتحرر المطلق من الرهبنة والمعبد ، وثمـة عنصر هام من عناصر القوة فى الإسلام ذلك هو تأكيده الإخاء والمساواة بين المسلمين أمام الله مهما تكن ألوانهم وأجناسهم وأوضاعهم .... تلك هى الخصائص التى جعلت للإسلام قوة فى شؤون هـــذه الدنيا » .

جيته والاسلام

للشاعر الألمانى العظيم جيته كلمات طيبات عن الإسلام تتناثر فى أحاديثه وكتاباته ، وإعجاب روحى يظهر فى بعض أعماله الفنية مثل « الديوان الشرقى » ؛ ومن أشهر ما قاله جيته عن الإسلام عبارته « إذا كان المراد من الإسلام أن يسلم المرء وجهه لله ، فإنا على الإســـلام نحيا جميعا ونموت جميعا » .

ولقد قال جيته لصديقه المستشار فون ملر سنة ١٨١٩ « إن الإذعان والاستسلام هما فى كل دين القاعدتان الحقيقيتان ؛ أعنى الخضوع لإرادة عليا مهيمنه على كل شيء ، لا تستطيع عقولنا إدراكها لأنها فوق مداركنا ، وفى هذا يعظم الشبه بين الإسلام والبروتستنتية » .

ويجعل جيته التقوى والإسلام شيئا واحدا فيقول « إننا حين تطهر أرواحنا نحس رغبته قوية متأججة فى أن نسلم أنفسنا طوعا لموجود لا ندركه أعلى وأطهر منا نحمده ونشكره ، وبهذا نصور لأنفسنا هذا الأزلى الذى لا تدركه العقول ، وتلك هى التقوى ، وإذا كان الإسلام هو هذا التسليم فكلنا مسلمون » .

الكونت هنرى دى كاسترى وخواطره عن الاسلام

ألف الكونت كتابه سنة ١٨٩٦ ؛ وقد عربه المرحوم أحمد فتحى زغلول باشا ؛ ومن آراء المؤلف فى سر انتشار الإسلام قوله « جند

الإسلام قسما عظيما من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها فى خمس صلوات فى كل يوم ، وبما اشتمل عليه من الرفق بطبيعة البشر حيث أتاح للناس شيئا مما يشتهون ؛ وأعظم عامل فى انتشار الإسلام وبخاصة بين الأمم البدائية ، بساطة مذهبه وسهولة تعاليمه وهو سبب موجود فى القرآن نفسه فهو بذلك يلائم طباع الذين لم يعرفوا دينا من قبل ؛ إنه دين لا أسرار فيه وكلمته أو كلمة الشهادة يعتاض عنها عند الاختصار بإشارة تدل عليها كرفع السبابة إلى السماء إشارة إلى وحدانية الله تعالى ، فكلما وجد الرجل الجاهلى أمامه دينين متحدين فى حقيقتين : وحدانية الله ، وخلود الروح . وهما الإسلام ودين عيسى ، يختار الدين الذى لا يزيد شيئا عن تينك الحقيقتين ، ويعتنق الاسـلام بلا محالة ؛ وهى قوة يفضل بها الإسلام المسيحية فى الانتشار » .

وقال المؤلف « ولانتشار الإسلام وخضوع الأمم لسلطانه سبب آخر فى آسيا وأفريقيا الشمالية هو استبداد القسطنطينية فإنه كان قد بلغ منتهى العسف ، ووصل جور الحكام إلى درجة أزهقت النفوس ، فلما جاء الإسلام تراموا إليه هربا من الضرائب الفادحة واستلاب الأموال لأنه كلما أسلمت عشيرة رفع عنها أثقال المغارم ، ورد إليها مالها المسلوب ، ومن لم يقبل شريعة القرآن عومل هذه المعاملة عينها بلا قيد غير أداء الجزية ، وكانت شيئا يسيراً أوجزءاً من اثنى عشر . وبذلك أمنوا فى ظل الدين الجديد ، ولم يتعرض إليهم أحد من دعاته فى دينهم ولم يفرق بين أصلى فى المسيحية ومنشق عنها وهذه المعاملة هى التى جاء بها القرآن وجرى عليها الخلفاء الأولون ، فكان اليهود والمسيحيون يسمون ذميين » .

وقال عن الأندلس : « ولقد زادت محاسنة المسلمين للمسيحيين فى بلاد الأندلس حتى صاروا فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين . ويقول (دوزى) إن هذا الفتح لم يكن مضرا بالأندلس ، وما حصل من الاضطراب والهرج بعده لم يلبث أن زال باستقرار الحكومة الإسلامية المطلقة فى تلك البلاد . وقد أبقى المسلمون سكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش ، وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقـلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين ... ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً إلا وأعملوا السيف فى يهودها ومسلميها ، وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجيراً فى الإسلام ، فإن كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم لا إلى مايوجد بين الاثنين من الجامعة فى الأصل والجنس واللغة والدين ... ولم يطالب المسلمون من مسيحى الأندلس إلا ما فرضوه على غيرهم وهو الجزية » .

كارليل يشيد بالاسلام

كتب الفيلسوف كارليل فصلا عن محمد فى كتابة « الأبطال وعبادة البطولة » ، وقد اختار نبي الإسلام للبطل فى صورة نبي ، وقد اختتم هذا الفصل البليغ بقوله عن الإسلام « لقد ظل الإسلام مدة اثنى عشر قرنا دينا وهاديا فى الحياة لخمس الجنس البشرى كله ، ولقد كان فوق كل شيء دينا مصدقا من أعماق القلوب ؛ إن هؤلاء العرب يصدقون بدينهم ويعيشون به ؛ ولم يكن ثمة من مسيحيين منذ العصور الأولى ، أو منذ البيوريتان الإنجليز فى الأزمنة الحديثة آمنوا بدينهم كما يؤمن المسلمون بالإسلام ... الله أكبر! هذا ما يهز به الإسلام أرواح هؤلاء الملايين وما يملأ به حياتهم اليومية ...

لقد كان الإسلام للأمة العربية بمثابة الميلاد : الخروج من الظلمة إلى النور ؛ كانوا قبائل فقيرة من الرعاة يتنقلون فى جزيرتهم لا يعلم بهم أحد ، فأرسل إليهم بطل نبي بكلمة استطاعوا أن يصدقوها ؛ فانظر إلى أولئك المجهولين يلفتون أنظار الدنيا ، وإلى تلك القلة تعظم حتى تملأ العالم ؛ لقد أصبحت بلاد العرب فى قرن تمتد إلى غرناطة من ناحية وإلى دلهى من الناحية الأخرى . هؤلاء العرب وهذا النبي محمد وهذا القرن من الزمان ! أليس ذلك كما لو نزلت شعلة ، شعلة واحدة على عالم يبدو رمالا مجهولة سوداء ؛ ولكن ها هو ذا الرمل يصبح مادة متفجرة ثم يتوهج مطاولا السماء من غرناطة إلى دلهى !

لقد قلت إن الرجل العظيم كان أبدا كالبرق ينبعث من السماء ، وإن بقية الناس إنما ينتظرونه كالوقود وعندئذ تراهم كذلك يشتعلون » .

* * *

المستشرق جب ورسالة الاسلام

يقول المستشرق الأستاذ جب فى كتاب « وجهة الإسلام » الذى عربه الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة سنة ١٩٣٣ : « لا يزال الإسلام فى العالم العربى يسلك سبيلا وسطا بين المتناقضات الشديدة ؛ وهو على معارضته لفوضى القومية الأوربية وللنظام العسكرى لروسيا الشيوعية ، لم يقع بعد فريسة للهجمات الاقتصادية الملحة التى تمتاز بها أوربا وروسيا ، وقد لخص الأستاذ ماسينيون الأخلاق الاجتماعية فى الإسلام تلخيصا يدعو إلى الاعجاب حيث قال « للإسلام الفضل فى أنه يمثل لنا فكرة عادلة عما يقوم به كل فرد من أبناء الوطن بدفع عشر ريع الأرض للخزانة العامة ؛ إنه يشن الغارة على المبادلة المطلقة ورأسمالية المصارف وقروض الدولة والضرائب غير المباشرة على الأشياء ذات الأهمية الجوهرية ؛ ثم هو يؤكد حقوق الأب والزوج والملكية الفردية ورأس المال التجارى ، ونراه هنا يقف مرة أخرى فى مكان وسط بين الرأسمالية البرجوازية وبين الشيوعية البولشفية »

ولكن لا تزال للإسلام رسالة يؤديها من أجل الإنسانية ؛ إنه يقف برغم كل شيء أقرب من أوربا إلى الشرق ، وله ماض مجيد من تفاهم الأجناس وتعاونها ، ولا يوجد مجتمع سجل له من النجاح فى أن يجمع بين كثير من الأجناس المختلفة وأن يسوى بينهم فى العمل والمكانة وتهيئة الفرص كما سجل للإسلام . وإن الجماعات الإسلامية العظيمة فى أفريقية والهند وإندونسيا والجماعات الإسلامية الصغيرة فى الصين والجماعة الصغرى فى اليابان لتبين جميعاً أنه لا تزال للإسلام القوة على أن يتألف العناصر التى لا سبيل إلى التوفيق بينها بسبب الجنس والتقاليد ؛ وإذا لم يكن بد من أن يحل التعاون محل الشقاق بين المجتمعات العظيمة فى الشرق والغرب ، فإن وساطة الإسلام شرط لا بد منه ، لأن فى يده إلى حد كبير حل المشكلة التى تواجه أوربا فى علاقاتها مع الشرق ؛ وإن اتحدا زاد الأمل زيادة لا حد لها فى بلوغ نتيجة سلمية ؛ أما إذا قذفت أوربا بالإسلام بين أذرع خصومها ورفضت التعاون معه ، فلا بد أن تكون النتيجة كارثة للجانبين » .

* * *

رأى آخر للمستشرق جب :

وتحدث هذا المستشرق فى كتاب حديث له هو « النزعات الحديثة فى الإسلام » ، وهو بصدد الكلام عن الإسلام اليوم فى العالم ، فتعرض لعلماء الدين الإسلامى ، وعن عدم مجاراتهم العصر فى تفكيرهم وفى لغتهم وصيغ أفكارهم ؛ وقال إن هذا قد يعطى حجة للذين يرمون الدين الإسلامى بأنه دين تحجر ؛ ورد جب على هذه التهمة بقوله : « ولكن هذه التهمة باطلة فإن الإسلام دين حى يبعث الحيوية ، تستجيب له قلوب عشرات ومئات الملايين وعقولهم وضمائرهم ؛ ويمدهم بالمثل الذى يريهم كيف يعيشون به عيشة الأمانة والوقار والتقوى » ، ويختم جب هذا الفصل بقوله « إنه لواجب على المسلمين أنفسهم أن يرسموا أساليب تفكيرهم وتصرفهم العملى المترتب على ذلك . وهذا عمل لن يتم إلا فى عدة أجيال وربما احتاج إلى صراع . إن الحق ينبغى أن يكافح أبدا عن وجوده ، وليس من المقدر دائماً أن يظفر فى الجولة القصيرة » .

من الادارة

بهذا العدد الخاص بالفتوح الإسلامية تفتتح المجلة عامها الرابع والعشرين . وهى بهذه المناسبة تقدم إلى العالم الإسلامى أخلص التهنئات وأصدق الأمانى ، وترجو من مشتركيها ومتعهديها أن يجددوا الاشتراك ويسددوا المتأخر ولهم الشكر ؟

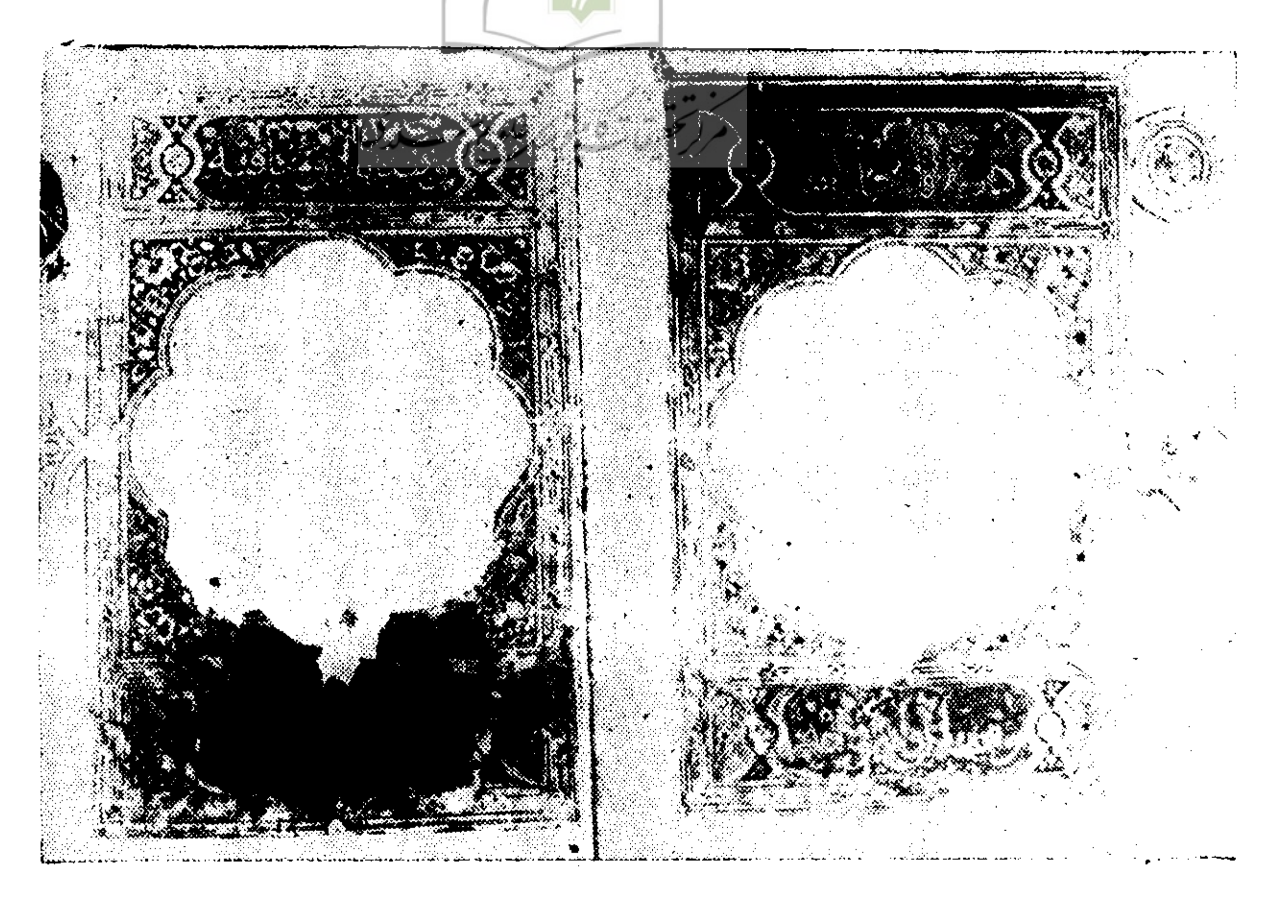
مخطوط فريد :

كشف جديد فى تاريخ الدعوة العباسية

الأستاذ عبد الفتاح السرنجاوى

عثرت فى خزانة الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ببغداد على مخطوط يقع فى ٢٠٤ ورقة من القطع الكبير ، فى موضوع له أهميته الكبيرة فى مجرى التاريخ الإسلامى ، هو حركة الدعوة العباسية ، ومذ عرفت هذا المخطوط وأنا عاكف حتى اليوم على دراسته وتصحيح أخطائه وتعليق حواشيه حتى صار شغلى الشاغل فى السنوات الثلاث الماضية ، وكنت قد انتسخت لنفسى نسخة من الكتاب ساعدنى على انتساخها زميلى السيد ناجى معروف ووعدنى بالمعاونة فى التعليق على الكتاب .

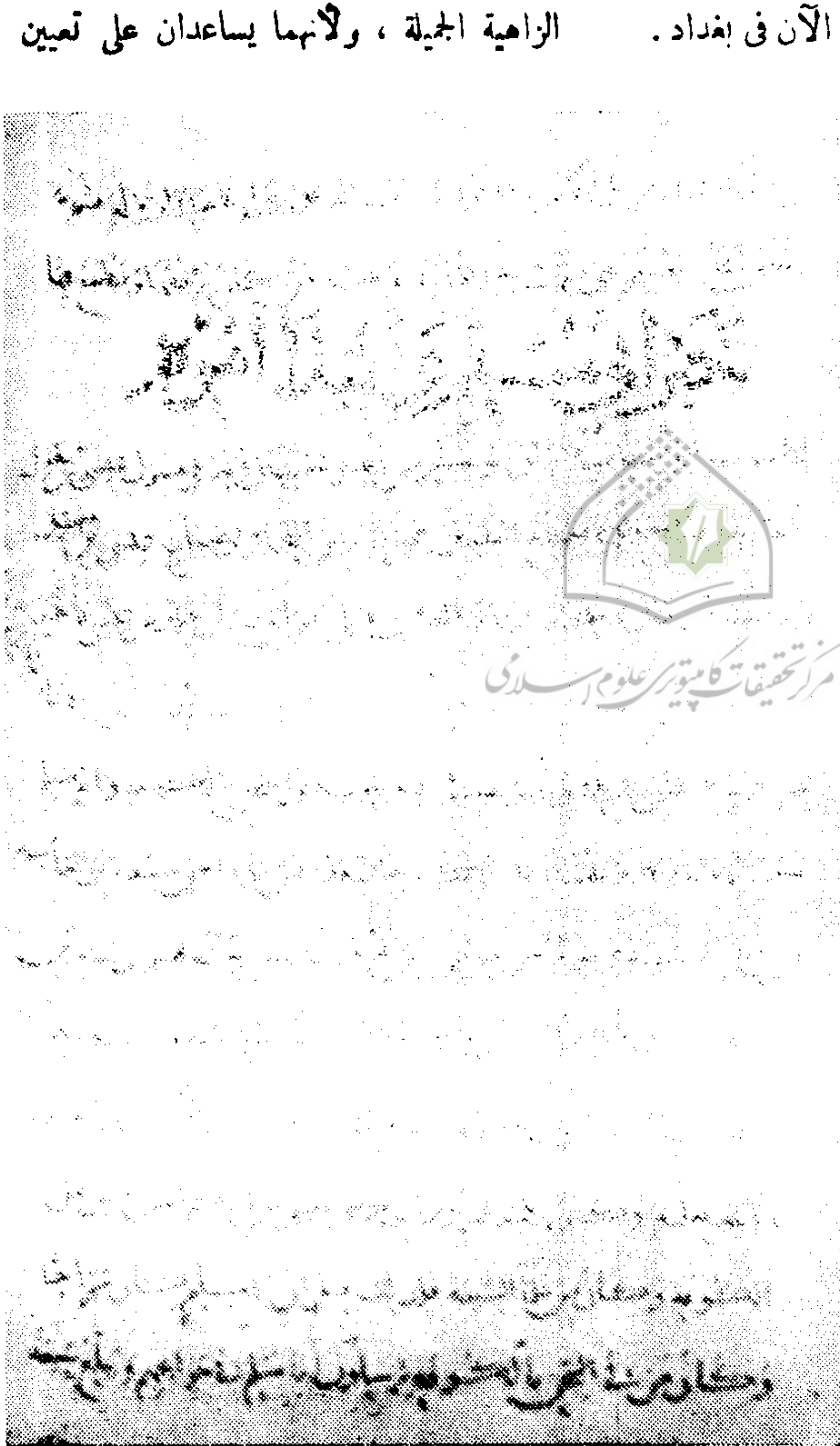
وقد لاحظت أن هذا الكتاب لم يقسم إلى أبواب وفصول وإنما جعلت عناوين الموضوعات



يتلو بعضها بعضاً ، وهى مكتوبة بالخط النسخ المذهّب ، وأول عنوان يصادفك «موت العباس» وهذا جعل الكتاب يعرف فى قوائم الخزانة بهذا الاسم ، وبقى كذلك حتى استطعنا كشف اسم آخر للكتاب يعرف به الآن فى بغداد .

واستطعت بعد اختبار وتمحيص طويلين أن أتأكد من أن المخطوط غير منقوص من آخره ، أما من أوله فقد ضاعت ثلاث كراسات أى ثلاثون ورقة كانت قد جعلت لتتبّع الأصل الأول للدولة العباسية والكلام عن حياة العباس بن عبد المطلب .

ومن الغريب أن الصحيفتين الأولى والثانية من الكراسة الأولى المفقودة ، وعليهما زخارف هندسية ونباتية مذهّبة وملونة لا تزال فى صدر المخطوط الحالى ، وأقصد بذلك أن مقتنى المخطوط وجد هاتين الصحيفتين قد تآكلت من أطرافهما ووسطهما فهذب هذه الأطراف المتآكلة وقص وسطهما ولم يُبق إلا الزخارف ثم لصقهما على ورقتين متقابلتين فى صدر الجزء الباقى من المخطوط ، وهاتان الصحيفتان لهما أهمية أثرية عظيمة ، وهما بحق جديرتان بالبقاء لدقة نقوشهما ذات الألوان الزاهية الجميلة ، ولأنهما يساعدان على تعيين



عصر هذه النسخة تعيينا واضحاً من حيث الخط والموضوعات الزخرفية ، ولعل أهم ما فيهما من حيث الدلالة على موضوع المخطوط ما كتب فى أعلى الصحيفة الأولى وسط الزخارف المذهّبة الملونة بالخط النسخ الجميل ، واستمر فى رأس الصحيفة الثانية ثم انتقل إلى أسفل الصحيفة الاولى فالثانية وهذا نصه :

« كتاب فيه أخبار العباس وفضائله ومناقبه وفضائل ولده ومناقبهم ومآثرهم رضى الله عنهم أجمعين »

إلى هنا لم نعرف اسم الكتاب الحقيقى ، لان موضعه الأول كان فى الدائرتين المزخرفتين اللتين قص وسطاهما وألصقتا على ورق جديد (شكل ١) وبقى الوسط فى كلتيهما خلواً من الكتابة إلى الآن ، وقرأت الكتاب كله فلم أجد فيه مايدل على اسمه أو اسم مؤلفه وأخيراً وجدت على الحافة العليا للكتاب آثار كتابة لا تكاد تبين قرأتها بعد جهد فإذا هى :

المرائع الأنسية

فى أخبار الدولة العباسية

فهل هـذا هو الاسم الحقيقى الأول للكتاب ؟ وإذا كان كذلك ، فلماذا لم يكتبه مفتنى الكتاب فى هاتين الدائرتين فى صدر المخطوط ؟

هل كانت الكتابة التى قصها من الوسط هى عنوان الكتاب فقرأها واكتفى بكتابتها على حافة المخطوط العليا ؟ ولماذا لانذهب مذهباً آخر هو أنه لم يستطع تبين هذه الكتابة فأغفلها ولم يستطع معرفة اسم الكتاب فوضع له هـذا



تاريخ خلافة المسترشد بالله سنة اثنتى عشرة وخمسمائة
تاريخ خلافة الراشد بالله سنة تسع وعشرين وخمسمائة
تاريخ خلافة المقتفى لأمر الله سنة ثلاثين وخمسمائة
تاريخ خلافة المستنجد بالله سنة خمس وخمسين وخمسمائة
تاريخ خلافة المستضىء بأمر الله سنة ست وستين وخمسمائة
تاريخ خلافة الناصر لدين الله سنة خمس وسبعين وخمسمائة
تاريخ خلافة الظاهر بأمر الله سنة اثنتى عشرة وستمائة
تاريخ خلافة المستنصر بالله سنة ثلاث وعشرين وستمائة
تاريخ خلافة المستعصم بالله سنة أربعين وستمائة

الاسم وكتبه على الحافة العليا ليعرف به الكتاب ويسهل عليه إخراجه من بين الكتب الأخرى .
- ومما يحملنى أفترض هذا - ولو أننى لا أجزم به - أن المخطوط لم يتناول تاريخ الدولة العباسية ، وإنما تناول تاريخ الدعوة وحدها ووصل بها إلى موت إبراهيم الإمام ووصول وصيته إلى أبى العباس الذى خرج بمن معه قاصداً الكوفة . وهنا ينتهى الكتاب دون أن يجاوز هذا إلى إجلاس أبى العباس على عرش الخلافة ، فكيف يكون هذا فى أخبار الدولة العباسية ؟ الحق أن اسم الكتاب ما زال يخامرنى فيه شىء من التردد ، وعلى الجملة فقد عرف هذا المخطوط الآن بهذا الاسم فى بغداد بعد أن تهيأ لنا كشفه وإذاعته .

أما عصر المخطوط ، فقد وجدت فى آخره نصاً صريحاً يدل على أنه يرجع إلى القرن الثامن الهجرى ، ذلك أن الورقات الثلاث الأخيرة رقم ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ من المخطوط فيها قوائم بتسمية وتواريخ الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس ، فإذا وصلنا فى سياق التسمية إلى المستعصم بالله آخر خلفاء بغداد ، جاءت أسماء الخلفاء من بنى العباس فى مصر حتى خلافة الإمام المتوكل على الله أبى عبد الله محمد فى سنة ثلاث وستين وسبعمائة ، وهنا تذكر العبارة الآتية :

« فسح الله فى أجله وهو الخليفة القوام بعصرنا هذا أدام الله أيامه » . (شكل ٣)

وهى تدل دلالة صريحة على أن المخطوط يرجع إلى هذا التاريخ ، ولكن هل يرجع إلى هذا التاريخ فى انتساخه أو فى تأليفه ؟ هذه مشكلة أخرى أفردت لها بحثاً عن تاريخ الكتاب معتمداً على أسلوب الكتابة ورجال السند وعناصر أخرى فى منهج البحث العلمى .

بقيت مسأله أخرى : هل لهذه النسخة من الكتاب نظيرة أو نظيرات ؟ لقد استقصيت فى هذا الأمر وأنا أدور آفاق العراق حيث زرت كثيراً من ألوية الشمال مثل : السليمانية وأربيل وكركوك ، وأخيراً علمت أن فى البصرة خزانتين للمخطوطات القيمة : إحداهما خزانة آل باش أعيان العباسية . والثانية خزانة المحامى محمد أحمد ، فلما زرت البصرة انتسخت نسخة لقوائم الكتب الخطية فى الخزانتين بمساعدة الأستاذ محمد ناصر الصانع مدير المعارف فى منطقة البصرة جزاه الله أحسن الجزاء .

وفى بغداد خبير حجة فى شئون المخطوطات هو الأستاذ عباس العزاوى المحامى ، جمعتنى به ندوة علمية تقام فى بيت السيد إبراهيم الواعظ رئيس محكمة استئناف بغداد ، فسألته عن هذا المخطوط وهل توجد منه نسخة فى خزانته أو أية خزانة يعرفها ؟ وبحثت فى مكتبات مصر ، وتهيأت لى زيارة طهران فوجدت بها مكتبة حافلة بالمخطوطات الفارسية والعربية فى جميع الفنون ، هى (كتابخانه مجلس شوراى ملى) وطلبت الاطلاع على فهارس المخطوطات فسارع مدير المكتبة إلى إهدائى المجلد الثالث من الفهرست وهو خاص بالمخطوطات ويقع فى ٨١٤ صحيفة رتبه ابن يوسف شيرازى وفرغت مطبعة المجلس من طبعه فى سنة ١٣٦٠ هـ فلم أجد بين دفتيه اسم مخطوطنا هذا ، كذلك بحثت بنفسى فى مكتبات أصفهان وقم وغيرهما من مدن إيران ، وكنت

أود زيارة استانبول فى الربيع الماضى والبحث فى مكتباتها ولكن عدتنى العوادى عن إتمام ذلك ، ولا يزال يحدونى الأمل فى أن أجد هدى فى أمر هذا المخطوط القيم ، وإلى وقت كتابة هذه السطور أستطيع القول فى هذه الحدود بأن المخطوط فريد لا نظير له ، وهذا يجعل له أهمية كبيرة. وفقنى الله إلى إذاعة البحوث الأخرى عن عصر المخطوط وقيمته من الناحية العلمية .

التفسير الواضح

للأستاذ محمد محمود حجازى

المدرس بمعهد الزقازيق

تفسير يصور المعنى أمام القارىء بأوضح أسلوب وأجلى بيان ، فهو يرشد إلى تفهم كلام الله من أقرب الطرق بغير عناء ولا إجهاد.

قد اشتمل على بحث المفردات وتوضيح الغريب منها بالمألوف من الألفاظ .

قد ربط الآيات ، وذكر المناسبات ، بما يجعل القرآن الكريم عقداً أحكم نظامه ، وأبدع تنسيقه.

قد امتاز بالعنوان المناسب لكل موضوع ، مع تحديد الغرض ، وما تشير إليه الآية الكريمة.

وقد عنى هذا التفسير بالآيات التى تعالج أمراضنا ، وتصف أدواءنا عناية خاصة تظهر فيها حاجة الفرد والجماعة إلى هذا العلاج .

وأما الأحكام الفقهية فعرضت عرضا مناسبا مع بيان حكمة التشريع ، وأنها ضرورية للأمة .

وهو تفسير تستفيد منه العامة والخاصة .

وقد نفدت الطبعة الأولى للأجزاء الأربعة الأول وأعيد طبع الجزء الأول والثانى ، وقد ظهر منه إلى الآن ثمانية أجزاء .

كتب إفرنجية

تعالج موضوعات إسلامية وشرقية

****

تطور مصر من ١٩٢٤ الى ١٩٥٠

L'Evolution de L'Egypte, 1924-50

تأليف مارسيل كولومب

من نشر دار (ميزون نونو) بباريس .

حاول المؤلف فى هذا الكتاب النافع أن يدون تاريخ مصر الحديث تدوينا يشمل الأحداث التى مرت بها خلال العشرين عاما الأخيرة .

والمؤلف معروف ببحوثه عن العرب والإسلام وقد تولى منصب الأمين العام لمعهد الدراسات الإسلامية بباريس .

ويعترف المؤلف بأن معالجته لتاريخ مصر الحديث لا تكتفى بمؤلف واحد ، وإنما تحتاج إلى مجلدات .

ومع أن هذا المؤلف الفرنسى يغمط الحركة القومية المصرية حقها فى بعض الحالات والحوادث إلا أنه يحاول أن يدين السياسية الإنجليزية فى مصر ويلزمها تبعة بعض التطورات العنيفة التى مر بها الشعب المصرى منذ أزمة نوفمبر عام ١٩٢٤ .

ومن مزايا هذا الكتاب أنه لا يقتصر على تسجيل الحوادث والتطورات السياسية ، وإنما يخصص بعض الفصول لتسجيل التطور الفكرى فى الثقافة العربية إجمالا ممثلة فى مصر زعيمة الفكر العربى . ولا يترك المؤلف مشاكل مصر الاجتماعية دون أن يلقى عليها بعض الضوء .

وفى ذيل الكتاب فهارس وافية وسجل للوزارات التى تتابعت على حكم مصر خلال العشرين عاما الماضية ، وقائمة بأسماء المراجع العلمية عن مصر .

****

العراق المستقل :

Inqependent Iraq

من تأليف الأستاذ مجيد خضورى

من نشر مطبعة جامعة اكسفورد

٢٩١ صفحة والثمن ٢١ شلنا .

السيد مجيدى خضورى أديب عراق اختار الإقامة فى أمريكا ويشتغل بالتعليم فى جامعتها عن شؤون الشرق العرب .

وقد ظهر له فى المجلات العلمية الغربية بحوث عديدة عن حاضر العالم الإسلامى عامة والشرق العربى بصورة خاصة .

ولعل الرغبة فى إرضاء القارئ الأوربى والأمريكى هى التى دفعت الأستاذ خضورى لأن يفسر تاريخ العرب والإسلام المعاصر تفسيرا يتمشى مع الصور الخاطئة الى يحملها الغرب عن هذا الجزء من العالم : صور تحمل فى ثناياها مزيجا من الخوف والاستهتار فى التطورات الفكرية والسياسية التى ألمت ولا تزال تكتنف بلاد العروبة والإسلام .

وكتاب السيد خضورى الجديد عن حاضر العراق سجل واف للتطورات السياسية والتشريعية والفكرية التى مر بها العراق منذ أن انتزع استقلاله الداخلى من اليد البريطانية .

وفائدة هذا الكتاب للقارئ العربى أهم من فائدته للقارئ الغربى ، وذلك لأن الأستاذ خضورى أستعان بالمراجع العربية التى لا تتوفر للناس فى أوروبا وأمريكا .

****

الأفغان ـ دراسة فى التطور السياسى فى آسيا الوسطى :

Afganistan : Astudy in Political Developnnt Central Asia.

المؤلف : و . ك . فريز ـ تايلور

الناشر : مطبعة جامعة اكسفورد

الثمن : ٥ دولارات

هذه دراسة طيبة وضعها وزير بريطانيا المفوض فى كابول سابقا . واستعرض فيها تاريخ الأفغان فى مختلف عصوره . وخص المؤلف حاضر الأفغان بجزء واف من الكتاب .

ويعتقد هذا المؤلف بأن الأوساط الدولية مغفلة للقيمة الاستراتيجية التى تحتلها الأفغان فى ميزان القوى العسكرية فى آسيا الوسطى . وأهمية الأفغان الاستراتيجية لا تعود إلى قوة جيشها أو وفرة مواردها الطبيعة ، وإنما تعود إلى الموقع الجغرافى الممتاز التى تحتله كنقطة حياد بين الاتحاد السوفيتى ومناطق النفوذ الانجلوسكسونى فى جنوبى آسيا الوسطى .

وفى الكتاب فصل عن العلاقات بين الأفغان والباكستان يشرح المشاكل التى أدت إلى نوع

من القطيعة السياسية بين هــذين البلدين الإسلاميين ، والتى خفت حدتها فى الأزمنة الأخيرة بعد أن تدخل المؤتمر الإسلامى العالمى بين الدولتين الشقيقتين .

****

الرحلة العربية ورحلات صحراوية أخرى:

Arabian Journey and other desert travels.

من تأليف الكولونيل جرالد دى جورى

الناشر : دار هاراب بلندن .

الثمن ½١٢ شلنا .

مؤلف هذه الرحلة أحد العملاء الإنجليزيين الذين اعتادوا التجوال فى الجزيرة العربية متخطين آثار لورنس، الداهية الإنجليزى المعروف.

والكولونيل دى جورى ضابط فى الجيش البريطانى أنفق سنوات عديدة فى الجزيرة العربية يعالج مشاكل القبائل بالتعاون مع السلطات البريطانية فى المحميات .

ويصف الكاتب رحلاته العديدة التى قام بها إلى نجد وعسير ضيفا على جلالة الملك عبد العزيز آل سعود.

وبالإضافة إلى الناحية الفنية فى الكتاب فإنه طافح بمعلومات عن حاضر بلاد العرب قل أن تجد لها مثيلا فى المكتبة العربية .

****

صاحب الجلالة البترول

Sa Majesté le petrole

من تأليف جورج لو فيفر .

ومن نشر دار هاشيت بباريس .

هذا بحث طريف صدر بالفرنسية واختص الشرق الأوسط بجزء واف ، فقد أصبح البترول علماً على الشرق الأوسط فى الأيام الأخيرة .

وهذا الكتاب لا يتعمد الدراسة التحليلية بقدر ما يرمى إلى وصف الأوضاع فى مناطق البترول فى قالب طريف ظريف لا يحسنه إلا الفرنسيون .

وفى صفحات الكتاب عدد من الطرائف والأقاصيص الفكهة التى عكس فيها المؤلف ما ألم بالشرق الأوسط من تطورات ، بعد أن طغى النفط على الصحارى والقفار وقلب الأوضاع الاجتماعية للسكان الوطنيين رأسا على عقب .

****

استعراض الأوضاع الاقتصادية فى الشرق الأوسط

Review of economic conditions in the Middle east.

من منشورات الأمم المتحدة .

فى ١٠٠ صفحة من الحجم الكبير (خرائط وبيانات إحصائية) .

تنشر دائرة الشئون الاقتصادية التابعة للأمانة العامة لهيئة الأمم فى كل عام دراسة مسهبة عن الأوضاع الاقتصادية فى مختلف مناطق العالم ومنها الشرق الأوسط .

ومن مزايا هذه الدراسة أنها تشمل كثيرا من الإحصاءات والمعلومات التى لا تتوفر للباحث الاقتصادى فى دور العلم وبيوت النشر التجارية .

وتحصل دائرة الشؤون الاقتصادية فى هيئة الأمم على معلومات من الحكومات ومن مصادر أخرى .

العيد الفضى للجزيرة العربية

Arabian Jubilee

نشر دار Robert Hale بلندن والثمن ٣٠ شلنا

الحاج عبد الله فيلبي (واسمه بالإنجليزية هـ. القديس حنا فيلبي) شخصية معروفة فى أوساط الرياض ومكة والطائف وشبه الجزيرة العربية إجمالا. وقد سبق لفيلبي أن خدم فى السلك الحكومى البريطانى كمبعوث إخصائى فى الأوضاع العربية فى الحجاز ونجد وخليج العجم. وهو الآن فى سن الشيخوخة وله نشاط فى أعمال الحفريات فى الربع الخالى. وله بعض النشاط التجارى المحض. ولفيلبي مؤلفات كثيرة عن العرب وجزيرتهم. والكتاب الذى نراجعه هنا هو فى معظمه ترجمة لعاهل الجزيرة جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، وتسجيل للتطور الحديث الذى ألم بالجزيرة العربية فى عهد جلالته. وفيلبي لا يبخل بعاطر الثناء والمديح على جلالة العاهل السعودى ويسجل له طرائف وحوادث تزيد من المجموعة التى يحفظها الناس عن جلالة ملك نجد والحجاز وملحقاتهما. وقد وضع فيلبي هذا الكتاب ليوافق العيد الفضى لتأسيس العهد السعودى فى نجد والحجاز. فهو إذن قصيدة مدح لآل سعود ولمليكهم المعظم.

وقد تطرف فيلبي فى كتابه إلى دراسة بعض الأوضاع الناجمة عن تلاقى الحياة الصناعة (فى منشآت البترول) مع الحياة البسيطة التى يعيش عليها المجتمع النجدى خاصة والمجتمع العربى فى شبه الجزيرة عامة. ويبدو أن فيلبي يلمس بعض السوء فى سرعة التطور واحتكاك الصناعة الغربية بنماذج السلوك التقليدى المحافظ فى شبه الجزيرة، وقد عالج فلبي هذا الاحتكاك فى نظرة قاتمة إلا من إيمان بمقدرة العقلية العربية على أن تتلاءم مع التطور فى المراحل النهائية مهما كانت طبيعة هذا التطور وعوامل هذا الاحتكاك.

الأديان العالمية وآمال العالم:

World religions and the hope for peace

تأليف: W. D. R. Williams.

الناشر مطبعة بيكون. بيوسطن (الولايات المتحدة).

الثمن دولاران وثلاثة أرباع الدولار.

هدف هذا الكتاب دراسة الأديان السماوية ودراسة مقارنة عن طرائق الأنبياء الذين بشروا بها. وللرسول العربى عليه الصلاة والسلام مكانة ملحوظة فى هذه الدراسة. ولمؤلف هذا الكتاب هدف آخر، وهو الدلالة على أن فى الأديان السماوية قوى دافعة إذا أحسن توجيهها استطاعت أن تتغلب على شذوذ السياسة وجنون الحرب بإذكاء العناصر الروحية السامية التى تعيش فى المرء حيث يخلص لعقيدته الدينية إخلاصا منزها عن الأهواء.

وجدير بالذكر أن مؤلف الكتاب لاهوتى مسيحى يؤمن بالنظرة الحرة إلى الأديان السماوية ولا يتقيد بالتفسير المسيحى لها.

والواقع أن القارىء المسلم لهذا الكتاب لا يسعه أن يقبل تصنيف «الأنبياء» على النحو

الذى صنفه المؤلف ، فتحت هـذا التصنيف شخصيات ليس لها فى الأديان السماوية التوحيدية ذكر أو صلة ، أمثال غاندى والقديسة فرنسيس مؤسسة رهبنة الساليزيات ، وبعض القديسين الـكاثوليك الآخرين ، وطائفة من كبار أتباع فلسفة كنفيوشوس الصينية . حتى كارل ماركس الشيوعى له فى هذا التصنيف مكانة ؛ وإن كانت هذه المكانة مدرجة فى مستوى الشر لا مستوى الخير . والفصل الخاص بالإسلام فى هذا الكتاب لا يتعدى مجرد استعراض تاريخى وتحليل سطحى للتعاليم الإسلامية . ومن الطريف أن هذه المعالجة للأديان من لاهوتى مسيحى الأسلوب والتفكير له فى الثقافات الانجلو سكسونية تلامذة وأتباع .

ولعل هذا ما يفسر البلبلة الروحية التى تعترى اللاهوتى المسيحى (والبروتستانتى على وجه الخصوص) حين يحاول أن يستعيد القوة على توجيه المجتمع توجيها روحيا يتغلب على أزمة النفس والعقل والروح فى العالم الغربى المعاصر .

دم وزيت ورمال :

Blood, oil and sand

من تأليف : راى بروك

من نشر World publishing Co

٢٤٦ صفحة والثمن ٣½ دولارات

مؤلف هذا الكتاب مراسل عاش فى الشرق الأوسط سنوات الحرب العالمية الأخيرة ، ثم عاد إليه فى الآونة الأخيرة لينقل إلى قرائه الأمريكان بعض ما يعترى المجتمع الإسلامى من انفعالات إزاء العالم الغربى .

والكتاب لا يعالج التيارات الثقافية والفكرية فى العالم الإسلامى وإنما يكتفى بتسجيل الاتجاهات والانفعالات السياسية والتقلبات الاقتصادية التى أحدثتها الثورات الصناعية التى ألمت ببعض أجزاء الشرق الإسلامى من جراء انتشار صناعة البترول وحركات التصنيع فى مصر وسوريا .

وفى الكتاب صرخة مداوية للحكومة والشعب الأمريكى الاهتمام بمشاكل العالم الإسلامى ، الذى يلتهب بنار الغضب والاستياء من غباوة الأمريكان وتجاهلهم حقيقة المصالح فى الشرق الأوسط .

ويعتقد مؤلف الكتاب بأن الحكومة السوفيتية تتبع فى سياستها إزاء الشرق الأوسط أسلوبا جديداً يشجع القوميات العنيفـة فى الشرق الإسلامى ويجعل من عدائها للاستعمار الغربى غذاء لأوربا جديدا يرمى إلى القضاء على البقية الباقية من سمعة الأمريكان والبريطانيين والفرنسيين فى هذا الجزء الهام من العالم .

ولما كان هذا الكتاب موجها للقارىء الأمريكى فإن التحيز فيه لليهود تحيز سافر .

المسألة السودانية :

The Sodanese Question

تأليف السيد مكى عباس

الناشر Fader aqn Fader بلندن

٢٠١ صفحة والثمن ٢١ شلنا

مؤلف هذا الكتاب سودانى من خريجى كلية غوردون وجامعة أكسفورد ومن رجال البعثات

الحكومية القليلة العدد التى ترسلها الإدارة البريطانية فى السودان إلى معاهد العلم البريطانية لتجعل منها نواة للعهد «الاستقلالى» الذى تحاول تنفيذه فى السودان معرضة عن وحدة شطرى الوادى، وهذه الروابط الدينية واللغوية والطبيعية التى تؤكد وحدته.

وقد أعلنت الدار البريطانية التى نشرت هذا الكتاب بأنه عرض لوجهة النظر السودانية فى النزاع المصرى - البريطانى والصواب أنه عرض لوجهة نظر فريق معروف من السودانيين عرفت كيف تدربهم كلية غوردون والإدارة البريطانية فى السودان على تفهم الاستقلال وحدود الحكم الذاتى. ويبدو أن البرودة البريطانية لم تجد تربة صالحة فى هذا المؤلف السودانى، وأن لغته الإكسفوردية لم تسعفه فى تفادى بعض الانفعالات العاطفية التى تشوب طابع الكتاب برغم أن مؤلفه قد راعى الناحية العلمية فى التأليف واستند إلى عدد طيب من المصادر العربية والأجنبية والبريطانية بوجه خاص، ولجأ إلى أسلوب الكتابة البريطانى الذى يحاول أن يحمل الجملة أكثر من معنى واحد.

وقد تعمد المؤلف أن يتجاهل وجهة النظر المصرية القديمة التى أدت إلى فشل المفاوضات حول مستقبل السودان، هذه المفاوضات التى جرت منذ أكثر من ثلاثين عاما.

ويحاول السيد عباس أن يبرز جوهر الخلاف بين وجهتى النظر البريطانية والمصرية وأثره على شعور السودانيين، أو بالأحرى ذلك النفر من السودانيين الذين يطالبون بالاستقلال الداخلى دون أن يتقيدوا بالوحدة السياسية والاقتصادية التى ربط بها النيل شطرى واديه.

ومن أمثلة التحليل التى يعالج بها المؤلف وجهة النظر المصرية، ما أشار إليه عند تبريره مناورات بريطانيا للانفراد بالحكم وإقصاء المصريين عن السودان بعد أن أرغمت القوات المصرية على الجلاء فى عام ١٨٨٤، فيقول: «عندما تتم الشركة بين طرفين فى مشروع من المشروعات فإن من الصعب تقدير نصيب كل منهما فى إدارة المشروع والنتائج المتولدة عنه»؛ وبمعنى آخر فإن صاحبنا على رغم ثقافته الإكسفوردية يضرب بالاتفاقات الثنائية والمواثيق القانونية عرض الحائط.

وفى رأى السيد عباس أن الرشوة والإغراءات المادية تلعب دورا كبيرا فى النزاع المصرى - البريطانى حول السودان وموقف السودانيين أنفسهم منه. ويؤكد بأن النقود تتكلم بلغة أقوى وأصلح من لغة السياسة والأحزاب. وسيقدر لها أن تلعب دورا فاصلا فى مستقبل هذا الجزء من الوادى وموقف السوادنيين من علاقاتهم بمصر حكومة وشعبا.

وفى للكتاب لون من النقد الخفيف لبعض مساوىء الحكم البريطانى فى السودان. والمؤلف لا يصفع وإنما يمس السلوك البريطانى فى السودان مسا رقيقا شبيها بمداعبة الغانية لمعشوقها فى حالة من حالات الانفعال الطارىء؛ فهى لا تضربه بالمسدس وإنما ترميه بمروحتها الرقيقة التى تلطف بها حرارة الجو.

دكتور عمر حليق

الأدب والعلوم في شهر

الدراسات الإسلامية في كندا :

أنشأت جامعة « ماك جيل » كبرى جامعات كندا معهداً جديدا للدراسات الإسلامية أسندت رياسته إلى الدكتور « ويلفرد سميث » أحد خبراء الثقافة الإسلامية فى كندا .

وستتألف هيئة التدريس فى هذا المعهد من أساتذة هم : البرفسور « هوارد ريد » والدكتور « إسحق موسى الحسينى » والبرفسور « فضل الرحمن » والدكتور « نيازى بركس » .

أما البرفسور « ريد » فهو نجل المستشرق الأمريكى المعروف « كاس ارثر ريد » رئيس الكلية العالمية فى أزمير وهى إحدى مؤسسات التبشير البروتستانية . وقد خدم البرفسور ريد كضابط استخبارات مع الأسطول الأمريكى خلال الحرب العالمية الأخيرة .

والدكتور « إسحق موسى الحسينى » أديب فلسطينى معروف وكان قبيل التحاقه بمعهد جامعة « ماك جيل » الكندية يقوم بتدريس اللغة العربية فى جامعة بيروت الأمريكية ، وقد اشتغل الدكتور الحسينى بالتدريس فى معاهد فلسطين قبل الكارثة التى حاقت بهذا البلد الإسلامى .

والبرفسور « فضل الرحمن » عالم باكستانى اشتغل بتدريس الثقافة الإسلامية فى جامعات بريطانيا والبنجاب .

أما الدكتور « بركس » فهو أستاذ تركى فى جامعة أنقرة .

وقد وضع المعهد الجديد فى جامعة « ماك جيل » برنامجاً لدراسة « الإسلام فى حاضر العالم » يستغرق تدريسه ٥ سنوات .

اليونسكو وثروة العالم الثقافية :

تقدم اليونسكو (مؤسسة التربية والعلوم والثقافة العالمية) بإعداد مشروع اتفاقية دولية لتنظيم وسائل حماية الثروات الثقافية فى مختلف مناطق العالم . وكان المؤتمر العام لمؤسسة اليونسكو عام ١٩٥١ قد أقر توصيات تقضى بأن تقوم كل دولة على حدة باتخاذ الإجراءات الكفيلة بصون منشآتها الثقافية ، كما أوصى المؤتمر - بناء على اقتراح قدمته حكومة إيطاليا - بأن تذيع كل دولة إعلانا خاصاً بها يؤكد حمايتها لمرافقها الثقافية .

وقد أعلنت حكومة العراق مؤخراً تعهدها بتنفيذ هذا القرار والامتثال لهذه التوصية .

وقد أرسلت العراق نص هذا التعهد إلى المركز العام لمؤسسة اليونسكو بباريس .

علم النفس الاجتماعى ومشاكل السلم والحرب

عقدت فى باريس فى أواخر شهر أغسطس حلقة علمية تحت إشراف اليونسكو مكونة من ١٣ عالماً من أساتذة علم النفس الاجتماعى لدراسة المساهمة الجدية التى يمكن لعلم النفس الاجتماعى أن يعين بها صناع السياسة الدبلوماسيين والحكومات والأوساط الشعبية الواعية للتغلب على الاتجاهات العنيفة التى يبدو أنها تقود العالم إلى حرب عالمية جديدة .

وقد سبق لهؤلاء العلماء فى العام المنصرم أن اجتمعوا فى ستوكهولم ، عاصمة السويد ودرسوا هذا الموضوع وقرروا عرضه على مؤسسة اليونسكو للإشراف على دعوة حلقة لدراسته المفصلة يكون لها الطابع الدولى الذى تتمتع به اليونسكو . وهذه هى مواضيع البحث فى هذه الحلقة :

١ ـ ما هى الصورة (الخاطئة أو الصادقة) التى يحملها شعب ما عن الشعوب الأخرى التى تشاركه فى العائلة الإنسانية .

٢ ـ النواحى النفسية فى التطور الفنى الذى يلم بالمجتمعات التقليدية والمجتمعات التى لم يكتمل نموها الاجتماعى .

٣ ـ التوتر الداخلى فى دولة ما ، وعلاقته بسياستها الخارجية خاصة ، والتوتر الذى يعترى العلاقات الدولية عامة .

٤ ـ العوامل النفسية فى سياسة الوساطة ، والمفاوضات السلمية ، والعلاقات الدبلوماسية .

وجدير بالذكر أن هذه الموضوعات تتخطى الفائدة العلمية وتتصل اتصالا مباشراً بالناحية العملية والتطبيقية فى السلوك السياسى فى نطاقه الدولى .

طباعة الكتب الروسية فى أمريكا :

خصصت مؤسسة فورد الخيرية (صاحب مصانع السيارات المعروفة بهذا الاسم) مبلغاً كبيراً من المال لطباعة أمهات الكتب الروسية الأدبية والعلمية باللغة الروسية فى المطابع الأمريكية ، لتوزيعها على المتخصصين بدراسة الشؤون والثقافة الروسية فى الجامعات وألسنة الرأى العام ، ولكى توزع هذه الكتب على المهاجرين الروس الذين يعيشون خارج الاتحاد السوفييتى .

النقد الأدبى قديما وحديثا :

أصدرت جامعة شيكاغو فى الولايات المتحدة الأمريكية مجموعة جديدة لبحوث عميقة بأقلام عدة من أقطاب الأدب الأمريكى ، يعالجون فيها فلسفة النقد الأدبى وتطوره فى تاريخ الأدب

القديم والحديث . والغاية من هذا المؤلف الجديد هو توجيه الناشئين من النقاد بحيث يتفادون الأخطاء التي ينزلق إليها كل من آنس في نفسه مقدرة على التطرف إلى النقد الأدبي ، غير مدرك لمسؤوليته وأثره في الإنتاج الأدبي وفي النمو الثقافي للشعوب الحية .

ويكاد يجمع هؤلاء الأقطاب الذين اشتركوا في وضع هذه المجموعة على الحط من القيمة الفنية للكثرة من النقاد المعاصرين الذين أغراهم اتساع تجارة الكتب والمجلات إلى معالجة الإنتاج الأدبي دون استعداد عقلي وثقافي لهذه المهمة .

ذكرى جوركي الكاتب الروسي المعروف :

أقام سكان مدينة « جوركي » الروسية احتفالا تذكاريا لهذا الكاتب الروسي الشهير وأصدرت المطابع الروسية سجلا لهذا الاحتفال .

وهذه المدينة حديثة العهد إذ أن الحكومة السوفيتية قد أنشأتها تخليداً لذكرى هذا الأديب الذي سبق الحركة الشيوعية الروسية في انتقاد مساوئ الحكم وفقدان العدالة الاقتصادية ، والاجتماعية في المجتمع الروسي . وجوركي من الأدباء الروس القلائل الذين أبقت الحكومة الروسية على ذكراهم بعد أن توطد الأمر للحزب الشيوعي في السيطرة على مقومات الحكم والحياة في البلاد الروسية .

ذكرى انقضاء ١٦٠ عاماً

على ميلاد « شللي » الشاعر الإنجليزي

احتفلت الأوساط الأدبية في كثير من بقاع العالم بذكرى انقضاء ١٦٠ عاماً على ميلاد الشاعر الإنجليزي العبقري « برسي شللي » وتراث هذا الشاعر يمتاز بالروح الحرة الطلعة الوثابة ، التي ثارت على الأوضاع القاسية في المجتمع وصاغت هذه الثورة في عقد من القصيد الرقيق . وكان المقدر لهذا الشاعر الإنجليزي أن يزيد من تراث الشعر العالمي أضعاف ما خلفه في حياته القصيرة فقد مات شللي في عنفوان الشباب .

الإخلاص والمقدرة

على التعبير عن الحقائق في أدب التراجم

عالج الكاتب الهنغاري « مانس سبربر » أدب التراجم الشخصية في عدد ٦ يولية سنة ١٩٥٢ في الملحق الأدبي لجريدة نيويورك تايمس بمناسبة الظاهرة الطارئة على الإنتاج الأدبي في أمريكا وأوروبا الغربية في الإكثار من أدب التراجم و « الاعترافات » التي أغرم بها الكتاب مؤخرا والتي تقبلتها الأسواق الأدبية قبولا حسناً .

ويعتقد المسيو سبربر أن أدب التراجم يروج في الفترات التاريخية التي تكثر فيها الحروب ويزداد فيها القلق ، وتنتشر فيها الانقلابات والثورات وما يترك ذلك كله من أثر مباشر على حياة الناس واتجاهات المجتمع . ففي هذه الفترات

تزداد الرغبة بين الناس فى التعرف على خفايا الحوادث وما استتر فيها من هذه « المعاملات » السياسية والمساومة الدبلوماسية وما إليها من أوجه العلاقات بين الدول وبين الأفراد والهيئات ، فاشتداد الرغبة بين الناس فى التعرف على هذه الخفايا يخلق فى الكتاب وأولى الزعامة الفكرية والسياسية ، والذين ساهموا فى حـــدث من أحداث التاريخ المعاصر ، اتجاها لرى هذا الظمأ وتعريف الناس هذه الخفايا كما اختبروها عن كثب فى حياتهم الخاصة أو فى مشاركتهم فى الشؤون العامة التى أولدت هذه الأحداث التاريخية وهذه التيارات الفكرية .

ويشير هذا الكاتب الهنغارى إلى أن النقطة الجوهرية فى موازنة أدب مترجم هو التفرقة بين إخلاص الكاتب وبين الحقيقة المجردة التى يحاول أن ينشرها فى الناس على لسانه وحسب اختباره لها وتفهمه لجوهرها .

وهذه نقطة تؤلف محور النقد والتحليل الذى يعالج به النقاد والقراء أدب التراجم ، فقد سبقت لجان جاك روسو فى « اعترافاته » الشهيرة أن لمس دقة هذه النقطة . فقال فى المقدمة الأصلية « لاعترافاته » - وهى مقدمة لم تنشر فى النص المتداول : لا يستطيع أحد أن يصف حياة امرىء غير هذا المرء نفسه ، فحقيقة تلك الحياة وأسرارها الدفينة شىء لا يقوى على معرفتـه إلا ذلك المرء نفسه .

ولكن المرء حين يسعى لوصف حياته يتجه من غير وعى لإخفائها - أو على الأقل إخفاء جزء منها - لا يسر اطلاع الناس عليه . فهو لا يصف نفسه كما هى على حقيقتها السافرة ولكن كما يريد أن يعرف بها بين الناس . وحتى لو أخلص الكاتب فى اعترافاته أو ترجمة حياته الشخصية فلا مفر من أن يستر - عن وعى وعن غير وعى - ألوانا من هذه الحياة لا يستطيع اطلاع الناس عليها لا لأنه يخشى ذيوع ذلك ولكن لأنه لا يدركها هو نفسه حين يسجل فى اعترافاته هذه الألوان .

ويحاول المسيو سيربر أن يحلل أسباب هذا التناقض بين الإخلاص فى التعبير وبين نشر الحقيقة المجردة فى أدب الاعترافات والتراجم فيقول : إن المرء حين يكتب عن نفسه يصبح أشبه بالرجل الذى يشاهد نفسه فى المرآة . فهو لا يرى نفسه كما هى ولكن يشاهد بعينيه خيالا لنفسه فى موقف محرج . فالنظر فى المرآة حالة من حالات العزلة النفسية . وعقل المرء فى عزلته النفسية أقل خصوبة منه فى الحالات التى يتصل فيها عن كثب بالحياة والمجتمع .

وسبب آخر لا يزكى الحقيقة فى أدب التراجم الشخصية والاعترافات . وهو أن الذى يدون اعترافاته ويكتب سيرة حياته هو فى الواقع إنسان ارتكب محرما أو خطيئة فجاء يطلب الصفح والمغفرة عن طريقة الاعتراف وكتابة سيرته الخاصة .

ومن أسباب التناقض بين الإخلاص والحقيقة

فى أدب السير الشخصية والاعترافات ، كون الذين يلجأون إلى هذا النوع من الكتابة مشدوفين بالتطلع إلى ما ودوا لو كان لهم ، والنفور مما كان لديهم . فهم والحالة هذه عاجزون عن إدراك ما هم فيه الآن .

فالإخلاص فى القيام بعمل ما أدبياً كان أم ماديا لا يعنى المقدرة على اكتشاف الحقيقة ، فالإخلاص شىء والمقدرة على بلوغ الحقائق والتعبير عنها شىء آخر .

إعادة كتابة التوراة والانجيل :

يشتغل رجال الكهنوت فى أمريكا فى إعادة كتابة « الكتاب المقدس » مبتدئين بالعهد القديم (التوراة) ومنه إلى العهد الجديد (الانجيل) .

فقد أعلن مجمع الكنائس البروتستانية الأعلى فى الولايات المتحدة الأمريكية بأن لجنة من أهل الاختصاص فى اللاهوت و اللغات الشرقية القديمة قد تفرغوا منذ سبعة أعوام إلى إعادة كتابة التوراة والإنجيل فى لغة عصرية مجردة من التعابير القديمة التى يحتويها الكتاب المقدس فى ترجمته الحالية المعمول بها فى العالم البروتستانتى . وستصدر الطبعة الجديدة من الكتاب المقدس فى صورته المعدلة فى أوائل الشتاء المقبل .

وقد كلفت سيدة من المتبحرين فى اللغة الانجليزية بالإشراف على طبع النسخة الجديدة من التوراة والإنجيل .

وفى نفس الوقت أعلن مركز البابوية الكاثوليكية فى الفاتيكان بأن النسخة المتداولة حاليا من التوراة والإنجيل فى البلدان الكاثوليكية التى تتكلم اللغة الانجليزية قد عدلت ، وأن الكتاب المقدس سيظهر قريبا فى طبعة معدلة يراعى فيها التطور الذى ألم باللغة والفكر الانجلوسكسونى المعاصر .

وغرض الأوساط الكاثوليكية من هذا التعديل فى لغة التوراة والإنجيل هو تسهيل القراءة واستيعاب الحكم والعظات فى الكتاب المقدس على النشء الجديد من الكهنوت والرعية . وستشرف على طبع هذه النسخة الكاثوليكية المعدلة من الكتاب التوراة والانجيل رئيسة إحدى أديرة الراهبات الكاثوليكية .

وقد سبق للمجمع الحاخامى اليهودى العالمى فى عام ١٩١٧ أن أدخل تعديلات جمة على الترجمة الانجليزية لتوراة اليهود (وهى العهد القديم فى الكتاب المقدس الذى يستعمله المسيحيون) .

ويحاول اليهود حمل المراجع المسيحية على إزالة بعض الآيات من العهد الجديد التى تمس باليهود وتعذيبهم للسيد المسيح .

السرطان والطب العربى :

أذاعت وكالة أنباء الشرق من بيروت الخبر التالى :

زار وكالة أنباء الشرق السيد محمد سعيد النحيلى من سكان شارع حيرا فى بيروت وروى القصة التالية :

إننى مصاب بداء السرطان فى قصبة رجلى اليسرى وقد أجريت لى عملية جراحية فى مستشفى الصنائع ثم جلسات كهربائية فى مستشفى أوتيل ديو، فلم أحصل على فائدة .

وقد توالى نزيف الدم حتى هزل جسمى وساءت صحتى ولزمت الفراش وقد أصابنى فقر شديد فى الدم .

وقد تقدم مؤخراً لمعالجتى بواسطة العقاقير العربية السيد محمد معاذ فوقف نزيف الدم بعد أربعة أيام من بدء المعالجة وبدأت الكتلة السرطانية تتقلص والدرنة السرطانية تنكشف من جميع جهاتها ما عدا جهة العظم وقد خف سريان الماء والروائح الكريهة المنبعثة من السرطان .

هذه هى القصة كما رواها المصاب حرفياً .

واستطردت وكالة الأنباء توضح ما يأتى :

وزيادة فى التثبت من صدق هذه القصة استدعت الوكالة السيد محمد معاذ الذى أكد صحة ما رواه المريض وأطلعنا على إفادات مسلمة إليه من الدكتور عفيفى بربير طبيب المؤسسة الفرنسية لمكافحة السرطان فى بيروت .

دموع الشفاء :

يقول صحفى فرنسى زار إيران مؤخرا : إنه دهش لنجاح الطريقة التى يعالج بها بعض الإيرانيين مرضاهم بالدموع واعتقاد هؤلاء بأن الدموع تشفى من الأمراض المزمنة .

ويقول هذا الصحفى إن بعض مآتم الإيرانيين تخصص لجمع الدموع ، إذ يعطى النائحون قطعا من الإسفنج لالتقاط دموعهم المسكوبة على خدودهم فى فترات الانفعال النفسى العنيف الذى يجرى فى هذه المآتم .

وتؤخذ قطع الإسفنج المبللة بالدموع إلى أحد الرؤساء الروحيين للجماعة فيعصر الدموع الراسبة فيها فى قوارير صغيرة تخزن للاستعمال عند الحاجة .

وهذه عادة تعود إلى ألوف السنين وقد أشار الصحفى الفرنسى إلى أن التوراة قد سجلت هذه العادة فى المزمور الخامس والعشرين إذ يقول داوود : « قد عودت مهاجراتى فادخر دموعى فى كنوزك أو ليست فى سفرك » .

أول من اخترع اللاسلكى

كتب أحد علماء الفيزياء الأمريكان يجادل القول بأن ماركونى الإيطالى هو أول من اخترع الراديو .

ويدعى هذا العالم الأمريكى أن أول من اخترع الراديو هو مزارع أمريكى فى بلدة موارى فى ولاية كنتاكى فى الولايات المتحدة الأمريكية واسمه ناتان سبتفيلد . وذلك إثر تجربة قام بها فى سنة ١٨٩٢ ، أى قبل تجربة ماركونى بثلاث سنوات .

وتجربة المزارع الأمريكى كانت باستعمال سلك عادى استطاع أن يحمل حديثه إلى مسافة طولها أكثر من ميل .

وقد سجل هذا المزارع اختراعه في سنة ١٩٠٨ وحصل على امتياز لإنتاجه على شكل أدق بمعونة أحد الشركات التجارية .

ويقول العالم الأمريكي إن بعض المحتالين استطاعوا سرقة سر اختراع المزارع الأمريكي فذهب ضحية هذا الاحتيال وأنفق بقية حياته منعزلا في قرية نائية يلهو بتجاربه اللاسلكية .

معالجة السل بعقاقير جديدة

نجحت الدوائر الطبية في أمريكا في اكتشاف دواء جديد للسل ، فقد كانت الوسائل الطبية المألوفة في معالجة مرض السل على ثلاثة أنواع :

١ — مناخية وغذائية .
٢ — جراحيـــة .
٣ — عقاقيرية .

والدواء الجديد يستند إلى المعالجة العقاقيرية . فالمعالجة العقاقيرية تهدف إلى قتل الجرثومة أو تقوية مكافحة الجسم لها بواسطة أملاح الكلس والذهب والحـــديد ، وكان الأطباء يقترحون للمعالجة مادة (الستربتومايسين) و (الاسيد بارميند سكيسيليك) .

أما الدواء الجـــديد فمشتق مباشرة من (الأسيد نيكوتينيك) أحد فروع الفيتامين ب . وهو يستخرج بكميات كبيرة وبسهولة ونفقات رخيصة من الفحم الحجرى ومشتقاته .

وقد أخذت المعامل الكيماوية الأمريكية تخرجه في شكل أقراص بيضاء كأقراص الاسبيرين تحت ثلاثة أسماء .

نايدرازايد — ذريميفون — مارسيليد .

وهذه الأقراص تؤخذ بطريق الفم ولها تأثير سريع على المرضى وليست لها خاصية التسمم . وأثمانها معتدلة .

وقد أثبتت التجارب التى أجريت على مرضى السل بواسطة هذا الدواء الجديد أن جرثومة السل لم تظهر مقاومة قوية ضد هذه الأقراص . وقد أولدت هذه التجارب نتائج عجيبة . فقد ثبت أن تأثير هذه الأقراص على المرضى الذين قطع منهم أمل الشفاء كان من قبيل المعجزات .

وهذا التأثير النافع حدث للمرضى من جميع الأعمار والأجناس وفي الحالات المزمنة .

ومن ظواهر مفعولية هذا الدواء الجديد ماأثبتته النتائج الأولى وهى هبوط حرارة المريض إلى الحد الطبيعي بعد أن كان ارتفاعها - قبل استعمال الدواء ، يصل إلى ١٠٣ أو ١٠٥ درجات .

وقد تضاعفت قابلية الأكل والنشاط عند المرضى بشكل ملحوظ وزادت أوزانهم زيادة سريعة ، وهذه النتائج السريعة على غاية من الأهمية كما يشهد بذلك الاهتمام البالغ الذى تظهره الأوساط الطبية نحو هذا الدواء السحرى .

ولن تستطيع الأوساط الطبية أن تعطى حكمها النهائى على مفعول هذا الدواء الجديد قبل مضى أشهر أو سنوات ليتأكد الأطباء من شفاء المريض شفاءا تاما والتيقين من ظواهرها التى هى ظواهر عارضة ليس إلا .

دكتور عمر حليق

العالم الإسلامي في شهر

وثبة الجيش المصرى على الطغيان :

لقد مر زهاء شهرين وهذا العدد فى أيدى القراء، على تلك الحركة المباركة ، ألا وهى وثبة الجيش المصرى على الطغيان .

وإن هذه الحركة الموفقة لما يؤرخ به فى مصائر الأمم ، ذلك أنها نقلت تاريخ مصر من فصل إلى فصل شأنها فى ذلك شأن الحركات القومية الكبرى .

ولسوف يكون لهذه الحركة الميمونة أثرها البعيد فى مستقبل الشرق الأوسط كله فيما نعتقد ، فإن مثل هذه الحركات الخطيرة العظيمة الأهداف لن يقف أثرها عند البلد الذى انبعثت منه وبخاصة فى هذا العصر الذى عظمت فيه أسباب الاتصال بين الأمم والذى ازدادت فيه أواصر القربى بين مصر وجاراتها .

لقد ظلت مصر سنوات طويلة بعد وثبة سعد على الاحتلال ، تعانى من أصناف البلاء وضروب المساوىء ما نفد معه صبرها ؛ ذلك أن سادتها وكبراءها ، قد اقتنعوا من الإصلاح بالخطب والكتابة ، حتى مجت الأسماع والأذهان دعوة الإصلاح ورأت مصر أن الفاقة والجهل والمرض توبق أرواح بنيها ، أن غاية الحاكمين من الحكم هى المغانم وهم فى ذلك سواء مهما تغيرت الوجوه والأسماء اللهم إلا فئة قليلة ممن يبغون الخير ولكنهم لا يجدون إلى غايتهم سبيلا .

وكانت بلية مصر بملكها أعظم من بلينها بزعمائها وحكامها ؛ فلقد أمعن هذا الملك فى اللهو وأسرف فى التبذل ، وراح يجمع المال ولا يقنع ، ويأكل بالباطل ولا يشبع . وليت أمره اقتصر على فساد شخصه ؛ بل لقد عمد هذا اللاهى الهازل إلى إذلال شعبه ما وسعه الإذلال ، لا يعبأ بما يصيب أمته ما دامت كلمته هى العليا ، وما دام ينظر إلى الناس جميعا فى تبطله ولهوه نظرته إلى عبيده .

وأحاط اليأس بالناس ، فإذا اجتمع الأحرار تهامسوا يتساءلون كيف الخلاص ، والعدو الأجنبى يتربص بمصر الدوائر ، وقادتها قد أحنوا رؤوسهم للطاغية العابث ؟ ثم ينصرف المتهامسون وفى قلوبهم حسرات ومن حولهم ظلمات .

ولكن الأحرار لم يكونوا يعلمون أن الله قد كتب لمصر النجاة على يد جيشها الباسل ، فقد تحرك الجيش لا كما تتحرك جيوش الطاغين ليضرب الشعب بل تحرك ليبعد عن مصر من أذل ذلك الشعب .

وتطلعت مصر فإذا بها ترى الرجل الذى حلمت به طويلا حقيقة ماثلة أمامها . وقد رأت مصر القائد « محمد نجيب » يفعل ولا يتكلم ، فيتقدم باسم الشعب المصرى إلى الطاغية فيطلب إليه

فى اليوم السادس والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ أن ينزل عن عرشه لولى عهده قبل الساعة الثانية عشرة ، وأن يغادر البلاد قبل الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم .

وتم للقائد الذى ادخره الله لهذا اليوم المشهود ما أراد ، وانقضى أمر الطاغية كما كانت تنقضى ليلة من ليالى فسوقه !

وجاءت هــــذه الثورة الجليلة النبيلة متممة لثورة القائد أحمد عرابى ، فإن عرابيا قـد دهمه الاحتلال فلم يحقق ما أراد من إصلاح ؛ وظلت مصر مغلوبة على أمرها حائرة بين الظلام والنور حتى أهل هذا الفجر الجديد وأخذ القائد المظفر وأعوانه من العاملين المخلصين يضعون فى سرعة تدعو إلى الإعجاب أسس الإصلاح التى طالما تحرقت إليها البلاد .

وحل النهوض والتطهير محل القعود والفساد ؛ وافتتح فى تاريخ مصر عهد وتم لها فى مدى شهرين ما لم تكن لتبلغه فى عشرات السنين ؛ فها هى ذى التشريعات والقوانين التى كان يظنها النـاس أحلاما ، ترى بعضها فى إثر بعض ، ومن أهمها قانون تحديد الملكية ، وكلها مؤدية بعون الله إلى بعث جديد . ورأت مصر وزراءها يتنافسون فى العمل المثمر ، يحسون إحساس الشعب ولا يجعلون بينهم وبينه حجابا ورائدهم فى ذلك قائدهم المخلص الباسل الذى قوض دعائم الفساد والظلم .

ولن يقتصر أثر هـــذه الحركة المباركة على الإصلاح المـادى وحده ، فإن خطرها الأدبى لعظيم ، وحسبنا أن تصرف اليأس عن القلوب ، وأن تبث الثقة فى النفوس ، وأن تربط بين الحاكم والمحكوم بروابط المحبة ، وأن تجعل النـاس يؤمنون بالعدل ويسمون بأنفسهم فلا يرتضون بعد اليوم ذلا ولا يخافون ظلماً ولا هضما .

ولهذه الحركة الموفقة أثرها بعون الله فيما بيننا وبين الدول الأجنبية ، فقد آمن من لم يكن يؤمن أن مصر جادة لن يعوقها عما تطلب لنفسها من مكانة بعد اليوم عائق ، ولن يصدها عن سبيلها مدع ولا عائب ، والله موفقها إلى ما تريد .

لبنان وحركة الاصلاح والتطهير :

فى لبنان اليوم حركة تهدف إلى الإصلاح الشامل والتخلص من مساوىء المـاضى وما أشبه ما يطلبه لبنان بمـا ظفرت به مصر ؛ وهكذا أخذ يتجاوب الشرق بأصداء الحركة المصرية .

تقدمت الجبهة الشعبية المؤلفة من الكتائب والهيئة الوطنية والمؤتمر الوطنى إلى رئيس الجمهورية تطلب إليه أن يسند الحكم إلى شخصيات نزيهة لم يسبق لها الاشتراك فى الحكم ، بحيث تتألف منها وزارة شعبية قوية ، هدفها الإصلاح الحق والتطهير الشامل ، من الفساد والرشوة واستغلال النفوذ .

وكان رئيس الجمهورية قد أعد برنامجا شاملا للإصلاح أقرته عليه وزارة سامى الصلح . ولكن نواب المعارضة حملوا حملة قوية على رئيس الجمهورية ووصفوا برنامجه الإصلاحى بأنه برنامج سطحى

لا يحقق رغبات الشعب ؛ وأصروا على وجوب إقصاء كل من كان له يد فى فساد الحكم منذ سنوات عديدة .

ولم يسغ السيد سامى الصلح هذه المطالب ؛ ورفض أن يستقيل من الحكم وأعلن أنه يطلق قنبلة سياسية إذا أصر رئيس الجمهورية على إقصائه من منصبه .

وفى التاسع من هذا الشهر اشتدت الأزمة اللبنانية ، فقد استقال أعضاء الوزارة فلم يجد رئيس الجمهورية بدا من إعفاء السيد سامى الصلح من منصبه ، ثم عهد إلى مجلس وزراء مؤقت مكون من ثلاثة أعضاء للقيام على شؤون الحكم حتى تؤلف وزارة جديدة ، ولا شك أن صفاء الجو رهين بما يعتزمه رئيس الجمهورية حيال مطالب الشعب ، وعلى مبلغ ما تحققه أية وزارة من هذه المطالب ، فلم تعد ترضى الشعوب إلا بالعمل الحاسم الذى يقضى على ما تحملته طويلا من ضروب الفساد والعدوان . وقد جاءت الأنباء اليوم بأن الجيش اللبنانى أرغم رئيس الجمهورية السيد بشاره الخورى على الاستقالة وقدر أنه تولى الحكم

مشكلة تونس

لا يرى الوطنيون فى تونس هدفا لهم إلا الاستقلال التام عن فرنسا ؛ أما ما تتقدم به فرنسا من مقترحات للإصلاح فما هى فى نظر الوطنيين إلا من ألاعيب السياسة ؛ ولقد أشرنا فى العدد الماضى إلى أن فرنسا لم تتقدم بهذه الإصلاحات إلا حين أرادت أمريكا أن تخرج من حرج موقفها بعد أن امتنعت عن التصويت حينما أريد عرض قضية تونس على مجلس الأمن إذا لم تنفذ الحكومة الفرنسية برنامج إصلاح داخلى فى تونس .

وقد تقدمت فرنسا فعلا بما تراه من إصلاح ؛ ولكن الأزمة التونسية قد دخلت مرحلة حرجة ، فلقد أرسل جلالة باى تونس إلى رئيس الجمهورية الفرنسية كتابا رفض فيه مشروع قانون الإصلاح الفرنسى لأنه لا يتفق مع الأمانى القومية للشعب التونسى .

مشكلة البترول فى ايران

عادت إنجلترة وأمريكا تحاولان بعد حكم محكمة العدل الدولية فى مصلحة إيران ، أن تحملا إيران على حل هذه المشكلة عن طريق المقترحات والمفاوضات ، فتقدمتا إلى الدكتور محمد مصدق باقتراحات جديدة ، وقد وصفها الدكتور مصدق بأنها أسوأ ما قدم إليه من مقترحات لحل هذه المشكلة منذ قيامها ، وأبدى عجبه من هذه الأساليب الاستعمارية التى لا تملها إنجلترة ، ثم قال « إن المقترحات التى قدمها ترومان وتشرشل لحل مشكلة الزيت الإيرانى توحى بأن الحكومة البريطانية ما برحت تتبع سياستها القديمة تحت ستار ألفاظ وتعبيرات جديدة ، وأنه ليس

طرائف علمية وأدبية

البيان والبديع فى القرآن

محاورة بين أبى بكر بن دريد وأبى حاتم السجستانى

****

روى العلامة المحدث الرحالة أبو عبد الله محمد ابن رشيد الفهرى السبتى فى رحلته (ملء العيبة) (الجزء الثانى ، وهو بخط المؤلف ، من النسخة الوحيدة المحفوظة بالاسكوريال) عن العلامة الأديب الناقد أبى بكر محمد بن حسن بن حبيش اللخمى التونسى بسنده إلى الإمام أبى أحمد الحسن ابن عبد الله بن سعيد العسكرى مما تضمنه كتابه المسمى « بالحكم والأمثال » قال : أخبرنا أبو بكر ابن دريد قال : قلت لأبى حاتم سهل بن محمد السجستانى : إن الشعر يتضمن من محاسن البيان ما لا يكاد يوجد إلا فيه ولا يؤخذ إلا منه . فقال : لا أعلم شيئاً مما تومىء إليه إلا وقد اشتمل القرآن عليه ووجد فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم مثله ، وجاء فى فقر الصحابة عدله . فإلام تشير ؟ فقلت : الاستعارة كقول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

فى تلك المقترحات أية مراعاة لشعور الشعب الإيرانى » .

ولم تر إيران بدأ من رفض هذه المقترحات الجديدة ، وسيمضى الدكتور مصدق فى سياسته الوطنية الحازمة غير عابىء بما تضعه إنجلترة فى طريقه من عقبات سياسية واقتصادية ؛ ولا تألو حكومة الدكتور مصدق جهداً على الرغم مما يواجهها من صعاب ، فى العمل على تذليل الصعوبات الاقتصادية التى ترتبت على هذه المشكلة وهى تستعين فى سياستها باستشارة الخبراء الاقتصاديين العالميين .

وقد أراد الدكتور مصدق أن يستوثق من مكانة وزارته قبل أن يقدم على أى عمل جديد بسبب هذه المشكلة ؛ لذلك قرر أن يطرح على مجلس النواب الثقة بوزارته بعد أن يفضى إليه بأسباب رفضه هذه المقترحات ؛ وقد يلجأ الدكتور مصدق إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين إيران وإنجلترة .

وقد علق الزعيم الدينى آية الله كاشانى على تلك المقترحات الثنائية بقوله : إنها امتهان لكرامة إيران وندد بتدخل الدولتين فى النزاع بين إيران وشركة البترول قائلا : إنه يعد تدخلا فى الشئون الداخلية لدولة مستقلة .

محمود الخفيف

طرائف علمية وأدبية

البيان والبديع فى القرآن

محاورة بين أبى بكر بن دريد وأبى حاتم السجستانى

****

روى العلامة المحدث الرحالة أبو عبد الله محمد ابن رشيد الفهرى السبتى فى رحلته (ملء العيبة) (الجزء الثانى ، وهو بخط المؤلف ، من النسخة الوحيدة المحفوظة بالاسكوريال) عن العلامة الأديب الناقد أبى بكر محمد بن حسن بن حبيش اللخمى التونسى بسنده إلى الإمام أبى أحمد الحسن ابن عبد الله بن سعيد العسكرى مما تضمنه كتابه المسمى « بالحكم والأمثال » قال : أخبرنا أبو بكر ابن دريد قال : قلت لأبى حاتم سهل بن محمد السجستانى : إن الشعر يتضمن من محاسن البيان ما لا يكاد يوجد إلا فيه ولا يؤخذ إلا منه . فقال : لا أعلم شيئاً مما تومىء إليه إلا وقد اشتمل القرآن عليه ووجد فى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم مثله ، وجاء فى فقر الصحابة عدله . فإلام تشير ؟ فقلت : الاستعارة كقول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

فى تلك المقترحات أية مراعاة لشعور الشعب الإيرانى » .

ولم تر إيران بدًّا من رفض هذه المقترحات الجديدة ، وسيمضى الدكتور مصدق فى سياسته الوطنية الحازمة غير عابىء بما تضعه إنجلترة فى طريقه من عقبات سياسية واقتصادية ؛ ولا تألو حكومة الدكتور مصدق جهداً على الرغم مما يواجهها من صعاب ، فى العمل على تذليل الصعوبات الاقتصادية التى ترتبت على هذه المشكلة وهى تستعين فى سياستها باستشارة الخبراء الاقتصاديين العالميين .

وقد أراد الدكتور مصدق أن يستوثق من مكانة وزارته قبل أن يقدم على أى عمل جديد بسبب هذه المشكلة ؛ لذلك قرر أن يطرح على مجلس النواب الثقة بوزارته بعد أن يفضى إليه بأسباب رفضه هذه المقترحات ؛ وقد يلجأ الدكتور مصدق إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين إيران وإنجلترة .

وقد علق الزعيم الدينى آية الله كاشانى على تلك المقترحات الثنائية بقوله : إنها امتهان لكرامة إيران وندد بتدخل الدولتين فى النزاع بين إيران وشركة البترول قائلا : إنه يعد تدخلا فى الشئون الداخلية لدولة مستقلة .

محمود الخفيف

علىّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بجوزه
وأردف أعجازاً وناء بكلكل

وكقول أوس :

وإنى امرؤ أعددت للحرب بعد ما
رأيت لها نابا من الشر أعصلا

فقال : أبو حاتم قال الله عز وجل : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » وقال تعالى : « واشتعل الرأس شيباً » وقال عز اسمه : « أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » وقال : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : ضموا فواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء ، وقال : خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله كلما سمع هيعة طار إليها . وقال صلى الله عليه وسلم : دب إليكم داء الأمم قبلكم البغضاء والحسد ، وهى الحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر . وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه : السفر ميزان القوم ، وسأل عليه السلام كبير فارس عن الغالب على أنوشروان فقال : الحلم والأناة ، فقال أمير المؤمنين : توأمان ينتجهما علو الهمة . ووصف أعرابى قومه فقال : إذا اصطفوا وأسفرت بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف فغر (فاه) الحمام .

قال أبو بكر : فقلت حسبى . فالمجانس كقول جرير :

وما زال معقولا عقال عن الندى
وما زال محبوساً عن المجد حابس

وكقول زياد الأعجم :

رأيتهم يستنصرون بكاهل
وللؤم فيهم كاهل وسنام

وكقول العبسى :

أبلغ لديك بنى سعد مغلغلة
إن الذى بيلنا قد مات أو دنفا
وذاكم إن ذل الجار حالفكم
وإن أنفكم لا تعرف الأنفا

فقال أبو حاتم : قال الله جل ذكره : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » وقال : « فأقم وجهك للدين القيم » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عصية عصت الله ورسوله ، وغفار غفر الله لها [1] وقال : الظلم ظلمات . وقال معاوية لابن عباس : مالكم تصابون يا بنى هاشم بأبصاركم ؟ قال ابن عباس : كما تصابون ببصائركم ، ومات لصدقة بن عامر المازنى سبعة بنين فى يوم واحد بالطاعون فقال : اللهم إنى مُسلِمٌ وَمُسَلِّمٌ .

قال أبو بكر : فقلت : حسبى . فالمطابقة كقول زهير :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا
ما الليث كذب عن اقرانه صدقا

وكقول الفرزدق :

يستيقظون إلى نهاق حميرهم
وتنام أعينهم عن الأوتار

فقال أبو حاتم : قال الله عز وجل : « ولكم فى القصاص حياة » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار : إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع . وقال الحسن : ما رأيت يقيناً لا شك

(١) فى طرة الأصل بخط المؤلف : يذكر أسلم فى هذه الرواية ، وذلك لأنه ورد فى رواية أخرى بلفظ أسلم سالمها الله . وغفار غفر الله لها . وهى أيضاً صالحة الاستشهاد بها وعصية ، وغفار ، وأسلم ، قبائل من العرب .

فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت ، وقال رحمه الله وقد عوتب على تخويفه الناس بوعظه : إن من خوفك حتى تلقى الأمن ، خير من من أمنك حتى تلقى الخوف .

قال أبو بكر : فقلت : حسبي فرد إعجاز الكلام على صدوره كقوله :

غريب بنى سليم أقصدته
سهام الموت وهى له سهام

فقال أبو حاتم : قال الله عز وجل : « لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » . وفى الحديث : من مقت نفسه أمنه الله من مقته .

قال أبو بكر : فالالتفات من الكناية إلى المخاطبة كقول جرير :

متى كان الخيام بذى طلوح
سقيت الغيث أيتها الخيام

وكقوله :

طرب الحمام بذى الأراك فهاجنى
لا زلت فى غلل وأيك ناضر

قال أبو حاتم : قال الله عز وجل : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » . وقال : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » . ثم قال : « وبرزوا لله جميعاً » .

فقال أبو بكر : حسبي أنك لا تكاثر !

****

الزكام

الزكام مرض خفيف عادى لكنه من أغرب الأمراض التى تطرأ على الإنسان ، ولم يهتد الطب حتى الآن إلى علاج فعال له ، وقد صرح أحد مشاهير الاطباء وهو الدكتور أندروز فى محاضرة عن الزكام ألقاها منذ نحو ثلاث سنوات أمام جمعية الفنون الملكية بلندن بقوله : « سأحدثكم عن جهلنا بالزكام أكثر مما أحدثكم عن معرفتنا به » . والدكتور أندروز كان رئيس لجنة من الأطباء عهدت إليها المراجع الصحية فى بريطانيا إن تدرس الزكام دراسة علمية مستفيضة ، ولكنها لم تصل إلى نتيجة حاسمة .

أما الأدوية التى توصف للزكام فلا تحصى لكثرتها وقد سجل حتى اليوم بلندن وحدها فى دائرة تسجيل الاكتشافات والاختراعات نحو عشرة آلاف دواء للزكام ولكن بدون جدوى .

والسبب الرئيسى الذى يعيق دراسة مرض الزكام هو أن جرثومته صغيرة جداً من نوع الفيروس حتى إن المجهر الالكترونى رغم قوته الكبيرة لا يستطيع أن يظهرها . وهذا الصغر لا يمكن العقل أن يحده ولا أن يتصور كيف تعيش هذه المخلوقات المتناهية فى الصغر .

ويؤخذ من أبحاث تلك اللجنة أى المنديل الذى يستعمله المزكوم تتناثر منه نحو ١٥ ألف ذرة وفى كل ذرة عدد كبير من فيروس الزكام ، وإن السعلة الواحدة تنثر نحو أربعمائة من هذه الذرات . أما العطسة فتنثر نحو مليون .

فكرة هذا العدد

بمناسبة العام الهجرى الجديد أصدرنا هذا العدد خاصاً بفكرة الفتوح الإسلامية . ومدارها على أن ظهور الإسلام كان فتحاً لعالم جديد . كان فتحاً فى الأرض للعمران والإصلاح ؛ وكان فتحاً فى التشريع للنظام والعدل ؛ وكان فتحاً فى الأدب للابتكار والتجديد ؛ وكان فتحاً فى العلم لتصحيح الخطأ ونشر المعرفة ؛ وكان فتحاً للذوق فى ازدهار العمارة والزخرفة والموسيقى ؛ فهو كتاب قيم يلخص فضل العرب والمسلمين فى كل باب من أبواب الثقافة وفى كل فن من فنون الحضارة .

١١٢

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

رئيس التحرير
محب الدين الخطيب

بدل الاشتراك
٥٠ في مصر والسودان
٦٠ في الأقطار الإسلامية
٥ ثمن الجزء

مدير المجلة
محمد عرفه
من جماعة كبار العلماء

العنوان
إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون ٤٦٩٩٥

الجزء الثاني - القاهرة في غرة صفر سنة ١٣٧٢ — ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٥٢ — المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة الأزهري

في عهده الجديد

لو لم يكن لأحد في هذه الأرض رسالة قدسية عليا يؤمن بها ، ويعيش لها ، ويتصرف في جميع أموره - الخاصة والعامة - بمبادئها وسننها ، لكان ينبغي أن يكون ذلك لربيب الأزهر ، لأنه مسلم يؤمن برسالة الإسلام ، وبها يحيا وعليها يموت .

ولو جاز لمسلم أن يجهل بعضَ شعب الإيمان في رسالة الإسلام ، لكان ينبغي لربيب الأزهر أن يكون بمنجاة من هذه النقيصة ، لأنه — ولله الحمد — عالم برسالة الإسلام ، وواقف على تفاصيل شُعبها ، وقد ارتفع به علمه بهما إلى منزلة يحسده عليها كل ذى نعمة في الأرض ، وهي منزلة الوراثة لمقام النبوة ؛ والأزهري من أعرف العارفين بما لهذا المقام من مزايا ، وما على صاحبه من أعباء ومسئوليات .

والأزهريُّ ضمير طالما كان يناجيه في خلواته ، ويتحدث اليه — بين الفينة والفينة — بما حمّله الإسلام من تلك المسئوليات والأعباء ، منذ تأهل لنصيبه في الوراثة من مقام النبوة ، إلا أن بعض الذين يؤثرون العافية في حاضرهم ، كانوا يجدون لأنفسهم ما تعتذر به إلى ضمائرهم يوم كانت تناجيهم بما عليهم من أعباء الميراث الأعظم : كيف لا والنظام الذى

كان قائماً فى هذه الناحية من دنيا المسلمين ، أسسه لنا الأغيار على أنه سِلْم للإسلام فى ظاهره بينما هو حرب عليه فى مقوماته وحقائقه الجوهرية وأهدافه الإنسانية القصوى ، فكان ذلك النظام يحاول — بأساليبه المرنة وأنامله الناعمة — أن يحمل الإسلام على أن يبقى قابعاً فى المسجد فلا يخرج منه بعباداته وسننه إلى ساحات المجتمع ، وأندية الناس ، وأسواق التعامل ، ومدارس التثقيف ، فضلا عن محاكم القضاء ودواوين الحكم . ومن هنا كان بعض حملة رسالة الإسلام يجدون لأنفسهم بعض العذر بأن أمام هذه الرسالة عقبات تعترضها ، وتحول بينهم وبين العمل بها .

ولا ينكر أحد على ورثة الأنبياء أن فيهم طائفة لم تكن تبيح لنفسها الإسراف فى هذه المعاذير ، لأن الله جل وعز وهبهم من مضاء العزيمة وسعة الأفق وحكمة التصرف ما يصل ماضى هذه الأمة بحاضرها ، ويلوح به النور فى أهدافها نحو المستقبل .

والآن وقد أكرم الله الإنسانية بهذا الانقلاب العظيم الذى وقع على مرأى منا ومسمع فى الثلاثة الأشهر الأخيرة ، فإنه ساوى بين العلماء فى موقفهم من رسالة الإسلام . وكما ذهب الانقلاب بذلك النظام الجاهلى الفاسد فقوضه تقويضاً ، فإنه قد ذهب كذلك بالمعاذير التى كان بعض ورثة الأنبياء يعللون بها موقفهم من العمل برسالة الإسلام إذا ناجتهم ضمائرهم بما حمّلهم الله من أعبائها .

ويشاء الله أن تبدأ السنة الدراسية فى معاهدنا الأزهرية ومدارسنا الرسمية وجامعاتنا بعد استتباب هذا الانقلاب المبارك ، فيقف المدرس من أبنائه الطلبة موقف الأمين على أثمن ما ائتمن الله الأمناء عليه فى الأرض ، وإنها لأمانة مزدوجة : أمانة العلم ، وأمانة الجيل . بل أمانة الملة ، وأمانة الوطن .

إن النظام الذى أقامه الأغيار لنا فى الجيل الذى مضى قد صرف النفوس عن تضامن الجماعة وتعاونها بالمبادىء الإنسانية الكريمة ، والسنن الإسلامية الحكيمة ، بما أيقظ من أنانيات ، وما هيج من شهوات ، وما أحدث من عصبيات وحزبيات ، وما ترتب على ذلك من فرقة وتشتت ، حتى صرنا إلى ما ضجت من شناعته الأرض والسماء ، وتحولنا به عن إنسانيتنا المتراحمة إلى مالا يرضاه لنا إلا العدو . وأفدح مامنينا به فى عشرات السنين الأخيرة اختلاف قلوبنا عما أراد لها الإسلام أن تكون عليه ، وقد سرت عدوى ذلك من طبقة إلى طبقة ومن جيل إلى جيل ، حتى وصلنا إلى بداية السنة الدراسية لهذا العام ، وإذا

أمانة الجيل الآتى كلها بين يدى المدرس أزهريا كان أو فى المدارس الأخرى والجامعات . وإن الدولة بجميع قواها قائمة الآن بمهمة التطهير ، ومهمتها هذه تتناول آثار ما أفسد الدهر من قلوب الخاصة ، وهاهى ذى قلوب الخاصة نفسها ممن سيتولون بعد سنوات قريبة جميع أمور الأمة — من صغيرها إلى كبيرها — قد وضعها الله أمانة بين أيدى القائمين بالتدريس ، وهم مكلفون من الله ، ومن روح النظام القائم ، ومن حاجة الأمة الملحة ، بأن يعنوا بقلوب تلاميذهم فيعدوها للطهر والفضيلة والشهامة والرجولة ومكارم الأخلاق .

وأول ما يكون ذلك بالقدوة والأسوة . والتلميذ الناشىء يتعلم مما يرى بعينه أكثر مما يتعلم مما يسمع بأذنه ، والدعوة بالقدوة والأسوة هى التى تمت بها أعظم معجزة عرفتها مصر فى ألوف مؤلفة من السنين ، وذلك يوم تحولت عما كانت عليه إلى ما رأت بعينها آثاره الباهرة فى سيرة أبى عبد الله عمرو بن العاص السهمى وصحبه الأكرمين ، بل هى تنازلت حتى عن لغتها إلى لغة هؤلاء الفضلاء الرحماء الطاهرى القلوب العاملين بسنن الأنبياء من إبراهيم إلى موسى فالمسيح فخاتم النبيين وإمام المصلحين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه . فبالقدوة تحولت مصر والشام والعراق وشمال إفريقية عن دياناتها إلى دين الإسلام فى عشرات قليلة من السنين ، وبالقدوة وحدت قومياتها بقومية هؤلاء الانسانيين السائرين على قدم الأنبياء ، وانصرفت عن ألسنتها إلى لسانهم ، فكانوا جميعاً أمة الحق والخير ، وبالقدوة يستطيع مدرسو الأزهر والمدارس الاخرى كلها أن يطهروا قلوب أبنائهم رجال الجيل الآتى ، فيحدثوا فيها انقلابا — كالانقلاب العسكرى — فى أقل من سنة ، بل من الحصة الاولى التى يلقون فيها أبناءهم الطلبة ويتطمون معهم العهد أمام الله على أننا عزمنا على أن نكون أمة صدق وحياء وجد وعمل ، تقيم الحق حيثما يكون ، وتعين على الخير ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

يقول أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمى (تلميذ أميرى المؤمنين عثمان ابن عفان وعلى بن أبى طالب وأضرابهما من علماء الصحابة كعبد الله بن مسعود وزيد ابن ثابت وأبى بن كعب) : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن — كعثمان بن عفان وعبدالله ابن مسعود وغيرهما — أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً »

وهذا معنى قول أم المؤمنين عائشة يوم سألها التابعون عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « كان خلقه القرآن » ، أى أنه وأصحابه كانوا كلما حملت رحمة الله إلى إنسانية الأرض آية فى تقويم الأخلاق وتهذيبها تخلقوا بها بالعمل ، حتى تكون خلقهم الأصيل ، وحتى تصدر أعمالهم كلها عن ذلك الخلق كما أراده الله لعباده . فالعلم حجة على صاحبه حتى يصحبه العمل ، والعلم بلا عمل أضر على صاحبه من الجهل البسيط ، ولذلك استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من علم لا ينفع . ولا ينتفع التلميذ بمعرفة المبادىء إلى درجة أن يعمل بها وتكون سنة له فى الحياة إلا إذا تلقى ذلك بالقدوة ، ورأى تطبيقه وتنفيذه فى تصرفات أبيه فى الروح ، وهو المعلم الذى ائتمنه الله على فلذات أكباد الناس ، وعلقت الدولة آمالها عليهم فى إقامة الحق والخير للوطن ، بعد أن تستريح هى من عناء التطهير فيما أفسدته الأجيال التى عاصرناها والتى سبقتنا .

إن القيام بمهمة « التطهير » له ناحية رسمية تتعلق بموظفى الحكومة والذين يتصل سلطانهم ونشاطهم بأمانات الدولة والمصالح العامة ، وهؤلاء قد رسمت الدولة خطتها الحكيمة فى تمحيصهم ، واستخلاص ذوى الأيدى الطاهرة منهم ليحملوا بها تلك الأمانات ، وليؤدوا بها ما نيط بهم من مصالح . وهنالك ناحية أخرى للتطهير تتصل بقلوب الأمة ونفوسها ، والقيامُ بذلك من واجب ورثة الأنبياء حيثما كانوا وحيثما يكون الناس . فالعالم المسلم إذا بدأ فطهر قلبه ، وأخلص لله نفسه ومداركه وجوارحه ، جعل الله له على قلوب الناس ومداركهم وجوارحهم سلطاناً يصوغها به على ما يرضى الله فى كل ما يصدر عنه من توجيه وإرشاد ، وأخطر من ذلك سلطان المدرس الأزهرىّ على قلوب أبنائه الطلبة ونفوسهم ومداركهم وجوارحهم ، لأن سلطانه مستمد من هدى الله ، ومكتسب من مواريث النبوة ، وما أعظمه من سلطان ، وما أغلاها من مواريث !

إنها مهمة خطيرة ، وإذا كان المدرس فى غير المعاهد الأزهرية مكلفاً بها من الدولة ، ومن نداء الوطن ، فالمدرس الأزهرى مكلف بمثل ذلك وبما هو أعظم منه ، من الدولة وممن هو أعظم من الدولة ، ومن الوطن وممن هو أعز وأجل من الوطن ، وهو الله تباركت آلاؤه وعز سلطانه .

محب الدين الخطيب

تحديد الملكية في الإسلام

لقد تغيرت أوضاع، وتبدلت نُظم، وسُنت قوانين في هذا العهد الجديد، ومن القوانين التي سُنت. قانون تحديد الملكية الزراعية، والناس يتساءلون عن رأي الفقه الإسلامي فيه وهل في ذلك شيء سلف عن الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين؟

ونحن سنبين هنا أن الإسلام يمنع التفاوت الكثير في الأرض الزراعية ويحرص على ألا تتجمع الأرض في جانب من الأمة فيكون فيه الغنى والعزة والقوة، وتحرمها الجوانب الأخرى فيكون فيها الفقر والعجز والضعف، وما وقع في مصر إلى الآن من الملكيات الكبيرة حتى صار رجل واحد يملك آلاف الأفدنة وعنده من عبيد الأرض مثل هذا العدد يزرعونها له ويؤدون له غلاتها، لم يكن بإذن الإسلام، وعلى الرغم من تعاليمه وقع.

سوء توزيع الأرضين مما يمقته الإسلام ويقي الأمة إياه قبل أن يقع، لأن الوقاية خير من العلاج، ويعالجه إذا وقع. وقد عالجه الإسلام قديما بمثل ما عالجته الدولة اليوم فالتاريخ يعيد نفسه.

قد يستغرب السامع هذا الذي أقوله من أن الإسلام نزع بعض الأرضين من أيدي ما لكيها بعد أن رآها تتجمع في جانب من الأمة وتصفر منها جوانب أخرى، ومن أنه منع ذلك قبل أن يقع، ولكن الغرابة ستزول عند ما نورد من الآثار ما يدل على ذلك.

روى عن يزيد بن أبي حبيب أن عمر كتب إلى سعد بن أبي وقاص يوم افتتح العراق «أما بعد فقد بلغني كتابك أن الناس قد سألوا أن تقسم بينهم غنائمهم وما أفاء الله عليهم، فانظر ما أجلبوا به عليك في العسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين، واترك الأرضين والأنهار لعمالها، ليكون ذلك في أعطيات المسلمين، فإنا لو قسمناها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء [1]».

علم من قواعد الإسلام ومن عمل الرسول أن ما غنمه المسلمون من مال وأرض يقسم أربعة أخماسه على المجاهدين، وقد قسم رسول الله أربعة أخماس أرض خيبر على المجاهدين

(١) ص ٥٩ كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، و ص ٢٤ كتاب الخراج لأبي يوسف، و ص ٢٧ و ٤٨ كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي. ويزيد بن أبي حبيب راوي هذا النص هو عالم مصر وإمامها. قال فيه الليث بن سعد: «يزيد عالمنا وسيدنا» توفي سنة ١٢٨.

فلما فتح المسلمون العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص سأل المقاتلون سعدا نصيبهم فى الارض وطلبوا أربعة أخماسها فمنعه عمر وقال : أما ما غنموه من منقول فاقسمه بينهم وأما الارض والأنهار فلا تقسمها واتركها بأيدى عمالها ليزرعوها ويؤدوا خراجا يقسم على المسلمين . وعلل عمر ذلك بأنه لو قسمها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء فجعلها باقية على حالها يملكها المسلمون جميعا وقسم خراجها بين المسلمين مخافة أن يحوزها المقاتلون فلا يبقى شيء لمن يأتى بعدهم من المسلمين . فأنت تراه قد منع من تكدس الأرض فى جانب من المسلمين وإخلاء الجانب الآخر منها قبل أن يقع .

وورد هذا المعنى فى حديث آخر عن ابراهيم التيمى قال : لما افتتح المسلمون السواد قالوا لعمر قسمه بيننا فإنا افتتحناه عنوة قال فأبى وقال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين وأخاف إن قسمته أن تفاسدوا بينكم فى المياه . قال فأقر أهل السواد فى أرضيهم وضرب على رؤسهم الجزية وعلى أراضيهم « الطسق » أى الخراج ولم يقسم بينهم (١) » .

ولم يكن ذلك بأرض السواد بالعراق فحسب بل وقع مثله فى أرض مصر نفسها وحدث سفيان بن وهب الخولانى قال : لما افتتحت مصر بغير عهد ، قام الزبير . فقال : يا عمرو ابن العاص اقسمها . فقال عمرو : لا أقسمها . فقال الزبير : لتقسمنها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر . فقال عمرو لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين . فكتب إلى عمر فكتب إليه عمر أن دعها حتى يغزو منها حبل الحبلة » . قال أبو عبيد القاسم بن سلام الذى روى هذا الحديث فى كتابه الأموال : أراه أراد أن تكون فيئا موقوفا للمسلمين ما تناسلوا يرثه قرن عن قرن فتكون قوة لهم على عدوهم (٢) .

فهذه روايات متضافرة على معنى واحد ، وهو أن عمر منع المقاتلة ما كانوا يرونه حقا لهم بمقتضى الكتاب وعمل الرسول من قسمة أربعة أخماسها عليهم لئلا يحوزها الحاضرون ولا يبقى منها شيء لمن يأتى بعدهم .

ولم ينفرد بذلك عمر ، بل روى مثله عن على ومعاذ بن جبل « روى عن عبد الله ابن قيس الهمدانى قال : قدم عمر الجابية فأراد قسمة الأرض بين المسلمين . فقال له معاذ : والله إذن ليكونن ما تكره إنك إن قسمتها صار الريع العظيم فى أيدى القوم ، ثم يبيدون

---

(١) صـ ٥٧ كتاب الاموال لابى عبيد . (٢) صـ ٥٨ المصدر نفسه .

فيصير ذلك إلى الرجل الواحد أو المرأة ، ثم يأتى من بعدهم قوم يسدون من الإسلام مسداً وهم لا يجدون شيئاً فانظر أمرا يسع أولهم وآخرهم »[١] .

وأشار بمثل ذلك على حين استشاره عمر ، فهؤلاء النفر من جلة الصحابة : عمر وعلى ومعاذ ابن جبل ، اتفقوا على منع المقاتلة عن قسمة الأرض بينهم رعاية لمصلحة بقية المسلمين لئلا يحوزها المقاتلة ولا يبقى شيء لمن يجيء بعدهم وقد وافقهم الصحابة وجرى العمل عليه فى أيام عمر والخلفاء من بعده فقد منعوا التفاوت الشديد فى امتلاك الأرض قبل أن يقع .

وأما أنه عالجه بعد أن وقع ، فقد ورد عن قيس بن أبى حازم قال : كانت بجيلة (وهى قبيلة من المسلمين) ربع الناس يوم القادسية ، فجعل لهم عمر ربع السواد ، فأخذوه سنتين أو ثلاثا. فوفد عمار بن ياسر إلى عمر ومعه جرير بن عبد الله البجلى فقال عمر لجرير : يا جرير لولا أنى قاسم مسئول لكنتم على ما جعل لكم ، وأرى الناس قد كثروا فأرى أن ترده عليهم . ففعل جرير ذلك فأجازه عمر بثمانين دينارا »[٢] .

وورد أن امرأة من بجيلة يقال لها أم كرز قالت لعمر : يا أمير المؤمنين إن أبى هلك وسهمه ثابت فى السواد وإنى لم أسلم . فقال لها يا أم كرز إن قومك قد صنعوا ما قد علمت - أى من تسليم الأرض - قالت : إن كانوا قد صنعوا ما صنعوا فإنى لست أسلم حتى تحملنى على ناقة ذلول عليها قطيفة حمراء وتملأ كفى ذهبا . ففعل عمر ذلك ، فكانت الدنانير نحوا من ثمانين ديناراً »[٣] .

وحادثة قبيلة بجيلة تشبه ذلك القانون الذى أصدرته الدولة بتحديد الملكية الزراعية فهما يجتمعان فى أنهما أخذا الأرض ممن كانت تحت أيديهم بعوض يؤدى لهم نظرا لمصلحة المجتمع ، فقد قال عمر لولا أنى قاسم مسئول لكنتم على ما جعل لكم ؛ وأرى الناس قد كثروا فأرى أن ترده عليهم مع شيء من الفوارق :

منها أن عمر نزع الأرض كلها . والقانون نزع ما زاد على مائتى فدان وأبقى له مائتين ، وهذا الفرق لا يؤثر لأنه إذا جاز أن تنزع الأرض كلها ممن هى بيده ، فلأن يجوز أن ينزع بعضها ويبقى بعضها من باب أولى ، ومنها أن عمر جعلها وقفاً على المسلمين يزرعها من يزرعها على خراج يؤديه يصرف على المسلمين ، أما القانون فقد ملكها لغيرهم من الفقراء ، ومنها أن عمر فعل ذلك والعهد قريب . والتراحم والإيثار بين المسلمين ، وهذا يجعل مهمته سهلة ، أما القانون فيفعل ذلك وقد بعد العهد وفنى عليه الكبير ونشأ عليه الصغير ، وقد تغيرت

---

(١) ص ٥٩ المصدر نفسه .

(٢) ص ٦١ كتاب الأموال ، و ٣١ الخراج لأبى يوسف .

(٣) ص ٦٢ كتاب الأموال .

نظرة المسلمين بعضهم لبعض فصارت نظرة استغلال لا نظرة أخوة وتعاون ، وهذا ما يجعل المهمة شاقة ، ولعل فى هذا التدرج الذى جعل تنفيذه على خمس سنوات ما يخفف من وقعه ، ولعله إذا فهم الإقطاعيون أن هذه الكظة كانت تضر بهم ولا تنفعهم وكانت تحرم كثيراً من إخوانهم ما خلقه الله لهم ، خف وقعه وزال ألمه .

تأملوا فى هاته الوقائع التى تتعلق بالأرض تتبينوا المبادىء الإسلامية من خلالها ، تلك المبادىء التى غرست فى نفوس المسلمين الاولين وظهرت منهم أعمالا حكيمة وقضايا عادلة .

يرى الإسلام أن المجتمع الإسلامى كأسرة واحدة ، وليس من العدل أن يختص بعض الأسرة بالأرض ويحرم الباقون . وقد فهم ذلك عمر ، بل إنه لم ينظر لمن حضر فقط بل نظر للحاضر ولمن تلده الأرحام . انظر إليه حين يقول : فما لمن يأتى بعد ؟ كره أن يحوز الأرض المقاتلة الذين بذلوا دماءهم وأموالهم فى الجهاد حتى دانت لهم الأرض فيولد من يولد ويدخل فى الإسلام من يدخل فيجد الأرض قد حازها من حازها ولا يجد ما يملكه .

ماذا يكون حكم عمر حين يجد قوما لم يجلبوا عليها بخيل ولا ركاب إنما ملكوها إقطاعا غير شرعى أو ورثوها عمن ملكها كذلك ، وحازوها ومنعوها عن بقية المسلمين وقد أساءوا التصرف فيها فلم يراعوا حق الله ولا حق الفقراء فى هذه الأموال .

وقد بقى أن يقال : كيف يخالف عمر عمل رسول الله فى خيبر من قسمة الأرض أخماساً وجعل الخمس لله وللرسول والفقراء ، وأربعة أخماسها فى المقاتلة ، ويذهب إلى حرمانهم وجعلها ملكا للأمة يزرعها من يزرعها على خراج يؤدى ينفق منه على المسلمين ؟ قلنا فى ذلك وجوه :

منها أن عمر ربما علم أن ما فعله الرسول كان على التخيير لا على طريق الإلزام .

ومنها أن عمر تأول آية الفىء على ما ذهب إليه وهى قوله :

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك

هم المفلحون . والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » .

وقد قال حين ذكر الأموال وأصنافها والآيات الدالة عليها : استوعبت هذه الآية الناس .

ولعل عمر ذهب إلى المصلحة المرسلة ، ورفع الضرر ، وقد علل بذلك فيما روينا عنه .

ورحم الله عمر بن الخطاب فقد كان يعرف الأغراض العظمى للإسلام ويحافظ عليها ، وقد كان يعلم أن الشريعة عدل وإنصاف فحيث وجد العدل والانصاف فثم شرع الله . وربما رأى فى النص والحادثة تقييداً بالزمان والمصلحة وما لابسها من حوادث ، وكان يراعى المصلحة ورفع الضرر عن الأمة ، ولا أعلم ضررا أبلغ من التفاوت الكثير فى الملكية الزراعية . وحسبنا أن ننظر إلى آثاره السيئة عندنا فقد جعل فى الأمة طبقتين طبقة أصحاب الأرض المالكين وفيهم الغنى والقوة ، وفيهم ما ينتجه الغنى من الترف والكبر والأشر والبطر والاستعلاء وغمط الناس . وطبقة الفلاحين وهم الكثرة الكاثرة من الأمة وفيهم الفقر والحاجة ، وتتبعه آثاره من الجهل والمرض والذلة والضعة والمهانة والاستخذاء وخلق العبيد من الجبن والخور والصغار .

ومثل هؤلاء لا يأبون الضيم ولا يحمون الذمار ولا يدفعون العار .

وإنما تولدت فيهم هذه الرذائل وما يتبعها لأنهم يرون أن رزقهم وحياتهم وعزهم وذلهم بيد صاحب الأرض إن شاء أبقاهم وإن شاء أخرجهم فرمى بهم إلى الطرقات حيث الجوع والعرى والموت فيذلون له ويخضعون .

وهذه النفوس المريضة لا ينفع فيها علاج ، لأنه كلما رفع المربون والعلماء من نفوسهم ، وراضوهم على العزة ، طغى على ذلك كله ما هم فيه من حالة اجتماعية فاسدة ومن وضع يجعلهم محتاجين لمخلوق مثلهم ، ماذا تنفع العظات والعبر إذا كانت تبنى والواقع يهدم وإذا كانت تدعو الى العزة وواقع الحياة يدعو الذلة ؟ !

أما الآن فإننا نأمل أن يصلح الله بتحديد الملكية الحالة الاجتماعية ، وأن يحقق الله به كثيرا من العدل فى الجماعة ، وأن يرفع مستوى المعيشة لكثير من الفلاحين فيتعلموا بعد جهل ، ويصحوا بعد مرض ، ويأمنوا بعد خوف ، وأن يشعروا بالعزة والقوة والحرية ، وأن تربى فيهم اخلاق الأحرار من الغضب للحق ، والإباء للظلم ، والكراهية للاستعباد . فإذا استنصروا نصروا ، وإذا استنفروا نفروا ، وإذا أتاهم عدو مغير طاروا إليه زرافات ووحدانا .

محمد عرفه
عضو جماعة كبار العلماء

مشيخة الأزهر الشريف

فى أكمل ما شهدناه من عهودنا

إذا أراد الله بطبقة من أهل هذه الملة الإسلامية خيراً ، هيأ لمستقبلهم القريب الحكم الصالح ، ويسر لهم الإمام الذى انطوت سيرته النقية الطاهرة فى جميع أدوارها على ما تستقيم لهم به القدوة ، وتحسن به الأسوة ، وتشيع به عدوى الإخلاص لله عز وجل فى السر والعلن والقول والعمل .

وأحسب أن طلبة الأزهر الشريف لهذا العهد سيكون منهم لهذه الملة فى مستقبلها القريب الخير الكثير ، ولذلك كان من حظهم أن قيّض الله لهم الحكومة الصالحة التى تتحرّى للولاية أكفاءها ، كما قيض لهم القدوة والأسوة فى سيرة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر مدّ الله فى عمره وأدام النفع به .

إنهم الآن ليسوا أمام مركز رسميّ تولاه كفؤه بالعلم والسابقة والصلاح فحسب ، بل هم أمام مَثلٍ أعلى للمسلم الكامل الذى ابتدأ حياته بنية الكفاح عن الإسلام وأهله ، والاضطلاع برسالته ، وتحمّلِ أماناته كاملة وافية . و « النيّة » هى الإبرة المغناطيسية التى يتوجه بها المسلم إلى هدفه من الحياة . ولذلك قال معلم الناس الخير صلوات الله وسلامه عليه « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » ، والحياة وتصرّفات المرء باتجاهاته فى جميع أدوارها هى جماع الأعمال ، فهى أحوج إلى النية الوثيقة الثابتة الصادقة ليكون ما يصدر عن الإنسان من الأعمال فى حياته تبعاً لها لا يحيد عنها مهما غالبته الظروف ، ولا ينحرف عن اتجاهها ما استطاع ، وإن انحرفت به الأهواء والمؤثرات . وطالب العلم الإسلاميّ إذا نوى من بدء حياته أن يقتصر فى حياته على مطالب العيش ومتاع الدنيا بقى هدفه محدداً بهذا النطاق الضيق ، وعاش على هامش الحياة عيشة تتناسب مع نيته ، وكان فى نظر نفسه — ثم فى أنظار الناس — موزونا بهذا المقدار ، لا ينخدع به الناس بأكثر من ذلك ، ولا يستطيع أحد أن يخدعه عن نفسه بأنها فوق ذلك . أما إذا نوى طالب العلم الإسلامى أن يعيش مكافحاً عن حقائق الإسلام — مهما كانت — وعن حقوق المسلمين حيثما كانوا ، فان حياته كلها تصبح حينئذ

حياة عبادة ، ويكون قدره عند الخالق والخلق متناسباً مع قدر النية القدسية التى عاش على ضوئها ، وعوّل على السير فى الحياة بتوجيهها .

يقول فضيلة الأستاذ الأكبر شيخنا السيد محمد الخضر حسين متعه الله بالقوة والعافية والتوفيق :

ولولا ارتياحى للنضال عن الهدى لفتشت عن وادٍ أعيش به وحدى

ونحن تلاميذه . ومعنا إخواننا من طلبة الجامع الأزهر وكلياته ومعاهده الذين يعدون بالالوف ، ينبغى لنا أن يكون لنا فى حياة شيخنا القدوة الصالحة ، وأن تكون لنا فيه الأسوة الحسنة ، فيكون أول ما نرتاح إليه هو النضال عن الهدى ، ولا يناضل عن الهدى إلا الذى تحرى معرفته ، وتتبع ما جل أو دق من علوم أئمته وتراث علمائه وجعل من نفسه حلقة متواضعة فى سلسلته الذهبية التى أولها عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم بإحسان ، وآخرها عند شيخنا الجليل إمام الهدى السيد محمد الخضر حسين بارك الله فى جهاده .

إنه أحسن النية لله منذ البداية فاتخذ منها إبرة المغناطيس التى توجه سفينة حياته فى سيرها ، فما تعارضت دنياه وآخرته إلا اختار ما يبقى له فى آخرته على ما هو زائل من بهرج دنياه . ومن عادة الله فيمن يؤثر الآجلة على العاجلة أن يجعله راضياً عن نصيبه فى دنياه ، وقد يعلن الله كرامته لاوليائه بمكافأتهم حتى فى إعلان مقامهم فى الدنيا جزاء إيثارهم ما يرضاه لهم فى يوم الدين .

أيها الطلبة الازهريون ، إنكم تستقبلون فى أول سنتكم الدراسية المباركة إن شاء الله مناهج لتثقيف عقولكم بعلوم الشريعة التى تقوم عليها رسالة دينكم ، وما يعين عليها من علوم العربية والسنن الكونية . ثم إنكم تستقبلون فى هذا العام ما لا يفترق عن هذا ، أعنى به خلاصته ، وثمرته الناضجة ، وغايته العليا ، وهو الاخلاق المحمدية ممثلة بسجايا أستاذنا الأكبر وسيرته فى أكثر من سبعين عاماً ، وكفاحه فى سبيل حقائق الإسلام وحقوق المسلمين وتستقبلون مع هذا وهذا ، عهداً يتحرى الحق والخير ، والحق والخير جناحا الإسلام ومادة رسالته . فهنيئاً لكم سنتكم الجديدة ، وبارك الله لنا ولكم بحياة شيخنا وشيخكم ، وكونوا فى عهد الحق والخير من خاصة أهلهما ، ومن أنشط الاعوان على تأهيل هذا الشعب للإفادة منهما ، وبذلك نكون إن شاء الله أمة صالحة ، وبذلك نكون من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، والله يتولى الصالحين .



حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر
السيد محمد الخضر حسين

طالعت جريدة الأهرام في صباح يوم الأربعاء ٢٧ من ذي الحجة سنة ١٣٧١ (١٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢) وفي صدرها المقال الآتي:

كانت مفاجأة حين خرج ثلاثة من حضرات الوزراء: هم السادة فتحي رضوان وأحمد حسن الباقوري وعبد العزيز علي، من مجلس الوزراء أثناء انعقاده، وتوجهوا إلى جهة لم يشاءوا ولم يشأ أحدهم أن يذكر عنها شيئاً، ولكن الصحفيين رأوا أن يقتفوا أثرهم، ولشدَّ ما كانت دهشتهم بالغة حينما رأوهم يدخلون بيتاً صغيراً من البيوت الواقعة في شارع خيرت، ويطرقون باب شقة متواضعة يسكنها فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الخضر حسين عضو جماعة كبار العلماء ورئيس تحرير مجلة الأزهر سابقاً. ولئن كانت هذه المفاجأة قد أدهشت الصحفيين، فإن فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد الخضر حسين كان أكثر منهم دهشة حين تحدث إليه الوزراء الثلاثة وعرضوا عليه مشيخة الأزهر باسم مجلس الوزراء واسم الرئيس اللواء محمد نجيب.

ويقول مندوب «الأهرام» الخاص: إن فضيلة الشيخ قد قبل منصب المشيخة الجليلة ورجا أن يوفق في تحمل أعبائها.

وقد أردت أن أقف من فضيلته على ما إذا كان له برنامج معين، فقال: إنها مفاجأة لم أتمكن حيالها من أن أضع برنامجاً معيناً أو أرسم سياسة خاصة.

فسألت فضيلته: وهل لكم رأي معين في كبار علماء الأزهر الذين يشغلون مناصب هامة؟

فقال: ليس لي رأي معين في واحد من حضراتهم، وكلهم موضع إجلالي واحترامي وتقديري

فقلت: وما رأيكم في المطلب الخاص بإقصاء أربعة من كبار العلماء الرسميين الازهريين عن مناصبهم؟

فقال وهو يبتسم: طبعاً لن يكون هناك إقصاء، ومن رأيي أن تؤخذ المسائل بالرفق واللين

قلت: ومتى أخذتم الجنسية المصرية؟

فقال فضيلته : أخذتها فى نحو سنة ١٩٣٨

قلت : إن العالم الإسلامى يسره كثيراً أن تسند مشيخة الأزهر إلى رجل جليل مثلكم بعيد عن التيارات المختلفة ، فهل لكم كلمة تتوجهون بها إلى هذا العالم فى هذه المناسبة ؟

فقال : إن الكلمة التى أتوجه بها إلى العالم الإسلامى هى أننى أرجو المعونة من الله أن يحقق أمل المسلمين فى الأزهر الشريف .

قلت : وهل تقصدون غداً (اليوم) إلى مشيخة الأزهر ؟

فقال : إن فضيلة السيد أحمد حسن الباقورى سوف يحضر إلى غداً (اليوم) لاتوجه معه إلى دار الرياسة حيث أقابل الرئيس اللواء محمد نجيب .

من تاريخ حياته :

وقد ولد فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين فى بلدة « نفطة » من أعمال تونس فى سنة ١٢٩٣ هجرية ، فعمره الآن ٧٨ عاماً ، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره انتقل إلى تونس والتحق بجامعة الزيتونة وحصل منها على شهادة العالمية فى العلوم الدينية والعربية .

وقد استهل فضيلته حياته العملية بالعمل فى الصحافة حيث أنشأ مجلة « السعادة » وراح يدبج فيها الفصول القيمة يعالج بها الشئون الدينية والأدبية .

ثم تولى القضاء فى بلدة « بنزرت » والبلاد المجاورة لها ، ولبث يمارس القضاء حتى سنة ١٣٢٤ هـ ، ثم عين مدرساً للعلوم الدينية والعربية فى جامعة الزيتونة ، وكذلك تولى التدريس فى المدرسة الصادقية وهى المدرسة الثانوية الوحيدة فى تونس

يحكم عليه بالإعدام !

وقد اشتهر بعدائه للسياسة الفرنسية إذ كان يهاجمها فى مجلته ، وكان يبث روح العداء لها فى تلاميذه ، يريد بذلك أن يغرس فيهم الروح الوطنية والحرية الإنسانية التى يدعو إليها الإسلام ، فحقد عليه ساسة الفرنسيين وأكنوا له الحفيظة ، ودبروا له مكيدة سياسية قدموه من أجلها إلى المحاكمة حيث حكم عليه غيابياً بالإعدام ، فهاجر فضيلته إلى الشام ومعه عائلته وفيها تولى تدريس العلوم العربية والدينية فى المدرسة السلطانية .

وقد أوفده أنور باشا وزير الحربية التركية يومئذ إلى ألمانيا فى مهمة سياسية ، فقضى فيها نحو تسعة أشهر ، رجع بعدها إلى الشام ، وتولى التدريس فى تلك المدرسة ، حتى رؤى الانتفاع به فى وزارة الحربية التركية فعين محرراً عربياً فى ديوان تلك الوزارة .

شيخ الأزهر يتحدث إلى الأهرام

وكتب مندوب جريدة « الأهرام » الخاص فى عددها الصادر يوم الخميس ١٢ المحرم سنة ١٣٧٢ هـ (٢ أكتوبر سنة ١٩٥٢) يقول :

لا يزال فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر يحتفظ ببساطته فى كل مظهر من مظاهر الحياة العامة والخاصة ، ومع أنه يشغل الآن منصباً دينيا خطيراً ، فلا تزال هذه البساطة التى درج عليها وألفها الناس عنه منذ وفد إلى مصر تلازمه ، إن مجالسه لا يزال كما كان ، يغشاه كل محب له وكل مريد للعلم كيفما كان مظهره ومخبره ، ولقد أردت أن أقف على آراء فضيلته فى طائفة من المشاكل الأزهرية التى تواجه المسئولين عادة فى مستهل كل عام دراسى ، ولما أفضيت إلى فضيلته بهذه الرغبة لم يشعر بالحرج الذى يشعر به الرسميون والمسئولون عادة فى مثل هذا الموقف ، بل آثر أن يكون صريحاً على سجيته ، واضحاً كما عرفته منذ نيف وعشرين عاما .

وروى مرة أخرى أن يعود إلى ألمانيا فى مهمة سياسية كذلك . فذهب إليها وقضى فيها نحو سبعة أشهر . ولما رجع إلى تركيا رأى ولاة الأمور فيها ـ بالاتفاق معه ـ أن يعود إلى الشام لمتابعة دروسه هناك ، ولكنه حين رجع إلى هذه البلاد وجد الفرنسيين قد احتلوها ، فهرب إلى مصر لاجئاً سياسياً ، وظل فيها منذ سنة ١٩٢٢ م يشتغل بالكتابة والتحرير والدرس حتى سنة ١٩٣١ م إذ رأى فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى أن ينتفع به فى تحرير مجلة الأزهر ، وكانت تسمى وقتئذ مجلة « نور الإسلام » فعينه رئيساً لتحريرها وقد لبث فى هذه الوظيفة حتى عين فيها الأستاذ محمد فريد وجدى ، فانتقل فضيلته إلى رياسة تحرير مجلة « لواء الإسلام » التى يصدرها الأستاذ أحمد حمزة وزير التموين السابق .

فى جماعة كبار العلماء :

وقد قدم فضيلته رسالة علمية [1] نال بها العضوية فى جماعة كبار العلماء .

---

(١) هى رسالة « القياس فى اللغة العربية » نشرتها المطبعة السلفية بالقاهرة .

شيخ الأزهر يتحدث إلى الأهرام

وكتب مندوب جريدة « الأهرام » الخاص فى عددها الصادر يوم الخميس ١٢ المحرم سنة ١٣٧٢ هـ (٢ أكتوبر سنة ١٩٥٢) يقول :

لا يزال فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر يحتفظ ببساطته فى كل مظهر من مظاهر الحياة العامة والخاصة ، ومع أنه يشغل الآن منصباً دينيا خطيراً ، فلا تزال هذه البساطة التى درج عليها وألفها الناس عنه منذ وفد إلى مصر تلازمه ، إن مجالسه لا يزال كما كان ، يغشاه كل محب له وكل مريد للعلم كيفما كان مظهره ومخبره ، ولقد أردت أن أقف على آراء فضيلته فى طائفة من المشاكل الأزهرية التى تواجه المسئولين عادة فى مستهل كل عام دراسى ، ولما أفضيت إلى فضيلته بهذه الرغبة لم يشعر بالحرج الذى يشعر به الرسميون والمسئولون عادة فى مثل هذا الموقف ، بل آثر أن يكون صريحاً على سجيته ، واضحاً كما عرفته منذ نيف وعشرين عاما .

ورؤى مرة أخرى أن يعود إلى ألمانيا فى مهمة سياسية كذلك . فذهب إليها وقضى فيها نحو سبعة أشهر . ولما رجع إلى تركيا رأى ولاة الأمور فيها ـ بالاتفاق معه ـ أن يعود إلى الشام لمتابعة دروسه هناك ، ولكنه حين رجع إلى هذه البلاد وجد الفرنسيين قد احتلوها ، فهرب إلى مصر لاجئاً سياسياً ، وظل فيها منذ سنة ١٩٢٢ م يشتغل بالكتابة والتحرير والدرس حتى سنة ١٩٣١ م إذ رأى فضيلة الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى أن ينتفع به فى تحرير مجلة الأزهر ، وكانت تسمى وقتئذ مجلة « نور الإسلام » فعينه رئيساً لتحريرها وقد لبث فى هذه الوظيفة حتى عين فيها الأستاذ محمد فريد وجدى ، فانتقل فضيلته إلى رياسة تحرير مجلة « لواء الإسلام » التى يصدرها الأستاذ أحمد حمزة وزير التموين السابق .

فى جماعة كبار العلماء :

وقد قدم فضيلته رسالة علمية [1] نال بها العضوية فى جماعة كبار العلماء .

---

(١) هى رسالة « القياس فى اللغة العربية » نشرتها المطبعة السلفية بالقاهرة .

تنظيم البعوث الإسلامية :

قلت : إن البعوث الإسلامية لا تزال قائمة ، ولعل هذه المشكلة تكون هامة إذا عرفنا أن هذه البعوث إنما هي أداة صالحة للدعاية الإسلامية لمصر فى مختلف الأمم التى تدين بالإسلام . فهل تزمعون فضيلتكم أن تعملوا على أن تكون هذه البعوث الإسلامية فى نظامها الحاضر وفى طريقه إعدادها متمشية مع ما نرجوه منها وما نؤمله فيها ؟

فقال فضيلته :

لا شك أننى أقدر الرسالة التى يصح أن يضطلع بها طلاب البعوث الإسلامية فى الأزهر تقديراً خاصاً ، فهم رسلنا لدى أممهم ، وهم ألسنتنا المعبرة عن أمانينا وآمالنا . بل لا أبالغ إذا قلت : إنهم المرايا التى تصورنا عند أممهم وشعوبهم بما فينا من خصائص ومزايا ومناقب أصدق تصوير . وإذا كان الأمر كذلك ، فإن العناية بهم وبإعدادهم يجب أن تشغل حيزاً كبيراً من أوقاتنا . إننى أعنى فى هذه الأيام بوضع نظام خاص بإعدادهم إعداداً قوياً يمكنهم من أن يؤدوا رسالة الخير والسلام على خير الوجوه . إنى أعد الأزهر فى مصر بمنزلة الكعبة الشريفة التى يحج إليها المسلمون على مختلف أجناسهم ومذاهبهم ليؤدوا فريضة دينية ، والواجب يقتضى أن نعنى بكل ما يعود بالخير على الأزهر ، لأنه يعود بالخير نفسه على مصر وعلى الإسلام . ولا أذيع سرا إذا قلت إنى كنت أسمع الكثير من الأنباء التى تحز فى نفسى وتؤلمنى ، لأنها كانت تمثل العلاقة بين طالب البعوث وشيخ رواقه تمثيلا لا أحبه ولا أرضاه . لذلك عنيت كل العناية بأن أعمل على أن تقوم بين الاثنين علاقة روحية قوامها الحب والمودة والإخاء والخير ، وأعتقد أن هذه العلاقة سوف تقوم وتتوطد منذ الآن ، فلا أعود أسمع مرة أخرى أن شيخاً ظلم تلميذاً له ، أو أن تلميذاً لم يوقر شيخه التوقير الذى يليق به .

المكتبة الأزهرية :

قلت : والمكتبة الأزهرية . ألا ترى فضيلتكم أنها اسم على غير مسمى ، وعنوان لا موضوع له . ؟ وما هى الفائدة من أن يقال « المكتبة الأزهرية » أى المكتبة التى تمثل أقدم جامعة دينية فى العالم ، ثم تعطل وظيفتها فلا ينتفع بها طالب ولا عالم ، ولا أجنبى ولا وطنى ، ولم لا تكون مكتبة عامة على غرار دار الكتب . ؟ ولم لا تنشأ فيها غرفة للمطالعة وأخرى للبحوث والدراسات ؟ !

فقال فضيلته :

إن من الحقائق الثابتة أن المكتبة الأزهرية تشغل مكانا غير لائق بها ، ويسمح لطلاب العلم والبحث والمعرفة بالانتفاع من كنوزها النفيسة وذخائرها العلمية التى لا يوجد لها مثيل فى جميع مكتبات العالم ، إنها تشتمل على آلاف من الموسوعات العلمية والدينية ذات القيمة الخاصة فى عالم البحث والمعرفة ، وإن الأجانب الذين يترددون على الأزهر من العلماء والمستشرقين لا يعرفون كيف ينتفعون بما تشتمل عليه من النفائس والذخائر . ولذلك فإنى أعمل الآن على تدبير مكان صالح لها ، على أن تتوافر فى هذا المكان الشروط التى يجب أن تتوافر فى مكتبة تاريخية عامة تكاد تكون عالمية كمكتبة الأزهر ، فيكون فيها نظام الإعارة على نظام جديد ، وأن ينتفع بها الطالب والعالم والباحث على الطريقة العلمية الصحيحة . وقد أفرغ من دراسة هذا النظام فى وقت قريب إن شاء الله ، وسوف يكون من شأن هذا النظام أن توحد المكتبات الأزهرية التى توجد فى مختلف الأروقة وتجمع كلها فى المكتبة الأزهرية الكبرى ، فيشرف عليها مدير واحد ، ويكون نظامها واحدا .

المعاهد الدينية :

قلت : أعرف أن فضيلتكم تشتغلون الآن فى إعداد حركة تنقلات بين أصحاب الفضيلة شيوخ المعاهد ، فهل انتهيتم إلى رأى فى هذا الموضوع الهام وقد أصبحنا فى مستهل السنة الدراسية ؟

قال فضيلته :

إنى أعتقد أن شيخ المعهد فى الأقليم هو مظهره ورأسه المدبر ، وعنوانه بين مختلف الطوائف والطبقات فى هذا الإقليم ، وأعتقد أن العناية باختيار شيخ المعهد تحتاج إلى البحث عن صفات وشروط خاصة فلا يصح أن يختار شيخ المعهد بدرجته أو أقدميته ، وإنما يجب أن يختار بكفايته وأهليته ومكانته ، سواء من ناحية العلم والخلق والكرامة ، أو من أية ناحية أخرى . ولذلك فانى استضىء فى بحثى بهذه الاعتبارات ، لأنى أحرص على اختيار شيوخ يتسمون بالخلق والكرامة والأهلية والكفاية مع الغيرة الدينية ، ليكونوا قدوة حسنة لأبنائهم من الطلاب ، وليكون شيخ المعهد فى إقليمه خير سفير يمثل المسلمين فى هذا الإقليم . وإنى لأرجو أن أنتهى من هذه المسألة فى وقت قريب جدا ، أو فى أيام قلائل ، ليكون كل شيخ على رأس المعهد الذى يعين شيخا له فى مفتتح العام الدراسى .

مدير مجلة الأزهر :

قلت : ولا زلت أرى أن مجلة الأزهر فى حاجة قصوى إلى أن يوضع لها نظام صحفى يمكنها من أن تساير النهضات الاجتماعية فى مختلف مرافق الحياة ، وقد قرأت أن فضيلتكم قد قبلتم استقالة مديرها السابق الأستاذ أحمد حسن الزيات .

وهنا قاطعنى فضيلة الأستاذ الأكبر وقال بصوت خفيت :

إننى سوف أختار لهذه المجلة عالما أزهريا يجعل طابعها أزهريا ويمثل فيها الأزهر ببحوثه ، أو بالبحوث التى ينشرها فيها . ولا شك أننى أرمى من وراء ذلك إلى أن تكون هذه المجلة اللسان المعبر عن نزعات الأزهريين المختلفة ، وآرائهم فى مختلف البحوث التى تتصل بالإسلام أو بالحياة الإسلامية ، فتنير الطريق أمام قرائها سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين فى أمهات المشاكل ومعضلات المسائل العامة التى تكون موضع أخذ ورد بين الناس ، وبهذا تكون المجلة قد أدت رسالتها على نحو سليم صحيح . وأنت تعرف أننى قد تحملت أعباء العمل فى هذه المجلة بضع سنوات فعرفت مواطن الضعف فيها ومكان النقص فى رسالتها ، ولذلك فإنى أسترشد بما لمسته من الحقائق ، وأرجو أن يكون رائدى فيما اعتزمه من العمل ، على أن يوضع لها النظام الذى يكفل لها الحياة والنمو والبقاء .

الأزهريون عنوان الخير والمحبة والسلام :

قلت : وهل لفضيلتكم كلمة تستقبلون بها أبناءكم من العلماء والطلاب فى مناسبة افتتاح السنة الدراسية ، اننى قد رأيت فى الأيام الأخيرة أن هناك اتجاهات متناقضة تصور بعض الأزهريين على أن بينهم خلافا مستحكما ؟

فقال فضيلة الأستاذ الأكبر :

أنا أميل بطبعى إلى الخير والسلام ، ولم أكن فى يوم من أيام حياتى متحزبا ولا متعصبا ، بل كنت دائما أكره التحزب والتعصب ، وأوثر أن آخذ الأمور باللين والرفق والهوادة ، وأنت تعلم أن شيخ الأزهر هو الذى يمثل الأزهر ، ودعوة الأزهر إنما تقوم على تحقيق معانى الخير والتواد والتحاب بين الناس أجمعين ، والأزهريون بحكم وضعهم ووصفهم هم الذين يبصرون الناس فى أمور دينهم ودنياهم ، ولذلك كان طبيعيا أن يكونوا عنوانا للخير والمودة والمحبة والسلام ، وأن يكونوا إخوانا متحابين فى الله متساندين لتكون لدعوتهم صداها وأثرها فى التوجيه والإرشاد فى مختلف الأمم الإسلامية ، إن علماء الأزهر هم أقرب

الدين والقوة وسيلتان إلى غاية واحدة

العوامل ذات الأثر فى نظام المجتمع لا تعدو أن تكون أدبية ومادية ، وليس من قصدى أن أعرض لكل ما ينضوى تحت هذين النوعين ، فذلك اتجاه قد لا أبلغه ، وإنما أقصد — فى إجمال — إلى ما شرع الله لحماية المجتمع ، من دين وقوة ، فكلاهما وسيلة تلتقى مع الأخرى عند غاية واحدة : هى (أولا) تهذيب الإنسان حتى يكون فى الوضع الذى امتاز به بين الكائنات ، خليفة عن الله سبحانه فى عمارة دنياه « إنى جاعل فى الأرض خليفة » (ثانيا) إحاطته بما يسبغ الله من الخير ، حتى تتجلى أنعم الله على خلقه ، فيشكرها من يقدرها ، ويسعد بها فى حياته الاولى والآخرة ، وهذا مظهر الألوهية فى عظمتها ، وذلك تقدير العزيز العليم :

الناس إلى معرفة أوامر الله ونواهيه ، وهم من الأمة فى مقام الأئمة والهداة ، ومن أجل هذا وجب عليهم أن يكونوا حريصين على كل ما يرضى الله وما يحقق الخير لهم وللناس ، وأنت تعلم أن الصفح والعفو والمغفرة من صفات الرجل المؤمن بالله العالم الإمام الحذق ، وأن من أحب الأمور إلى أن تجتمع قلوبنا على ما يكون ، وأن نستقبل الأيام بروح التسامح والمحبة حتى نصل إلى ما يرضى الله ويحقق الصالح العام ، والله وحده يهدينا إلى سواء السبيل .

ترجمة تفسير القرآن

قلت : هل أستطيع أن أقف على رأى فضيلتكم فى ترجمة معانى القرآن ؟

فأجاب فضيلته :

هل تريد ترجمة معانى القرآن أم ترجمة تفسير القرآن ؟ إن هناك فرقا بين ترجمة معانى القرآن وترجمة تفسيره ، وعلى كل فإنى أرى أن نرجىء الكلام فى هذا الموضوع حتى أتمكن من الاطلاع على ما سبق أن وضع من التقارير والمذكرات فى هذا الموضوع ، وإلى فرصة قريبة إن شاء الله .

* * *

وهنا شعرت أنى أطلت على فضيلة الأستاذ الأكبر ، بل أثقلت عليه ، فاستأذنت فضيلته فى نشر هذا الحديث ، فتفضل وأذن مشكوراً .

الدين والقوة وسيلتان إلى غاية واحدة

العوامل ذات الأثر فى نظام المجتمع لا تعدو أن تكون أدبية ومادية ، وليس من قصدى أن أعرض لكل ما ينضوى تحت هذين النوعين ، فذلك اتجاه قد لا أبلغه ، وإنما أقصد — فى إجمال — إلى ما شرع الله لحماية المجتمع ، من دين وقوة ، فكلاهما وسيلة تلتقى مع الأخرى عند غاية واحدة : هى (أولا) تهذيب الإنسان حتى يكون فى الوضع الذى امتاز به بين الكائنات ، خليفة عن الله سبحانه فى عمارة دنياه « إنى جاعل فى الأرض خليفة » (ثانيا) إحاطته بما يسبغ الله من الخير ، حتى تتجلى أنعم الله على خلقه ، فيشكرها من يقدرها ، ويسعد بها فى حياته الاولى والآخرة ، وهذا مظهر الألوهية فى عظمتها ، وذلك تقدير العزيز العليم :

الناس إلى معرفة أوامر الله ونواهيه ، وهم من الأمة فى مقام الأئمة والهداة ، ومن أجل هذا وجب عليهم أن يكونوا حريصين على كل ما يرضى الله وما يحقق الخير لهم وللناس ، وأنت تعلم أن الصفح والعفو والمغفرة من صفات الرجل المؤمن بالله العالم الإمام الحذق ، وأن من أحب الأمور إلى أن تجتمع قلوبنا على ما يكون ، وأن نستقبل الأيام بروح التسامح والمحبة حتى نصل إلى ما يرضى الله ويحقق الصالح العام ، والله وحده يهدينا إلى سواء السبيل .

ترجمة تفسير القرآن

قلت : هل أستطيع أن أقف على رأى فضيلتكم فى ترجمة معانى القرآن ؟

فأجاب فضيلته :

هل تريد ترجمة معانى القرآن أم ترجمة تفسير القرآن ؟ إن هناك فرقا بين ترجمة معانى القرآن وترجمة تفسيره ، وعلى كل فإنى أرى أن نرجىء الكلام فى هذا الموضوع حتى أتمكن من الاطلاع على ما سبق أن وضع من التقارير والمذكرات فى هذا الموضوع ، وإلى فرصة قريبة إن شاء الله .

* * *

وهنا شعرت أنى أطلت على فضيلة الأستاذ الأكبر ، بل أثقلت عليه ، فاستأذنت فضيلته فى نشر هذا الحديث ، فتفضل وأذن مشكوراً .

(ا) يسلك الدين إلى تلك الغاية سبيل الدعوة السلمية فى تنشئة الفرد على نمط يهيء له أن يكون لبنة صلبة فى بناء رصين ، ووحدة سليمة فى مجتمع قوى ، ثم يتجه إلى تكوين الجماعة من أولئك الأفراد الصحاح ، ويضع هذه الجماعة الآخذة به الراضخة لسلطانه ، فى إطار من النظام الجماعى : تخيره من يعلم الخير والشر ، وماز الخبيث من الطيب .

يوقظ الدين فى المرء إرادته ، وينبه فكرته ، ويحترم عقليته ، ويدعوه إلى الجادة المثلى الواضحة المعالم ، دعوة مقرونة بالإقناع ، ويحضه على التقرب إلى ربه بما شرع له ، ويشد أزره بالترغيب فيما عنده ، ليغالب نفسه ، ويهتدى بعقله ، ويستجيب لضميره ، وينأى عن الغى ، ويجنح إلى الرشد .

وما كانت العبادات على تعدد أنواعها ، والتأكيد لشأنها ، وترتيب الثواب عليها إيجابا ، والعقاب عليها سلبا ، إلا سببا بين العبد وربه ، وعروة وثقى فى الصلة به ، لا لمجرد أنها تكليف ؛ ولكن لأنها نماذج للنظام الفردى والجماعى ، والله بديع السموات والأرض يحب من عباده أن يقتدوا بنظامه فى ملكه فيما يخصهم ، وفيما يعمهم ، ففى العبادات تحديد للموعد ، ووفاء بالوعد ، وحفاظ على العهد ، وفيها عزوف وكبح للنفس عما تهوى من المآثم ، وفيها تعاطف ومعونة ، وتضحية بالمال وبالنفس عند الاقتضاء ، وفيها على الإجمال طموح إلى الإنسانية فى أوجها الرفيع .

وهذا النمط الذى تبدو فيه علاقة المرء بربه لم يقف به فى دائرته الفردية ، وإنما يرافقه بين الجماعة ، ويربطه بها ربطا وثيقا ، حتى ليجعل عبادة الفرد أحيانا مقرونة صحتها بالاشتراك مع غيره ، كما جعل من حياة الجماعة تكميلا لحياته وفى نظامها صيانة لشخصيته وحماية لوجوده .

وإذ يكون بمقتضى هذا جزءا لا ينفصل عن جملتها لم يسلبه الدين حقه كفرد له دائرته الخاصة به فى هذا الحشد الزاخر .

وسبيل الدين فى ذلك تنظيم الحكم ، وتحديد السلطة ، وتوثيق الأنساب ، وضبط المعاملات المالية فى أوضاع لا تشذ عن المصالح ، وربط السياسة الداخلة فى حيز الدولة وسياسة الدولة مع أخرى ، بأصول قائمة على العدالة الاجتماعية ، وعلى الحزم ورعاية الأحكام .

بهذا الإيجاز تتبين الوسيلة الدينية وما تنتهى إليه من غاية فى كفالة الفرد من الطغيان وفى كفالة المجتمع من الشرور ، والجرائم التى تهد من كيانه ، أو تسلبه الاستقرار فى محيطه .

وبهذا التصوير تتشخص الحياة المثالية التي يرتضيها الدين الإسلامي لأهله، ويهدي إليها القرآن وآياته البينات، والتي انتهجها النبي ﷺ وصحبه وجاهدوا فيها، ولكن هل يكفي ذلك التشريع الرحب الفضفاض لإرضاء النفوس الجوامح، ورياضتها على الطاعة، وإسلاس القياد فيمن يتملكه الشذوذ عن الجماعة ؟.

إن الذي خلق النفوس لم يشأ لها أن تكون على غرار واحد، ولم تقتض حكمته أن تكون سواسية في الهدى «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة» . «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها».

(ب) وهنا تشتد حاجة الدعوة الدينية الى القوة المادية ماثلة في الجيش، لتقمع الخوارج، وترجع بالشواذ إلى حظيرة الجماعة، وتفتح الآذان الموقورة لسماع دعوة الأذان إلى الفلاح، وتنفذ إلى القلوب الغلف بنور السماء لمن شاء الله أن يهديه.

تشتد حاجة الدعوة إلى القوة لتحمي الأخلاق مما ينتابها، وتصون الكرامات مما يثلمها وتناصر الدعوة في كفاحها، وتوفر لها الأمن في وطنها، وتشق لها طريقها لتسعى قدما الى غايتها:

لا ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجـــر

ومن هنا اتفق في حكمة الله أن تكون الرسالة الدينية في الإسلام قائمة على الدعوة والقوة جميعاً، إذ الإسلام دين ودولة، وهو يعتمد في دولته على الدعوة أولا، ثم يلجأ إلى القوة إذا تمردت عليه الجهالة، أو وقف في سبيله العداء الموروث. ومنهج القرآن في تنظيم الأمة جاء على ذلك، وبه نهضت للمسلمين دولة في أرض موحشة، وبين خصوم جبارة، ثم اتسعت لهم الرقعة، وتركزت لهم السيادة بتآزر الدعوة والقوة، وتلك سنة الله لم تتخلف بعد إلا عمن تخلف عنها، ولم تتغير إلا بقوم غيروا ما بأنفسهم.

غير أن الدعوة لا ترتكز على القوة الغاشمة المطلقة عن القيود؛ فإن هذه تكون ضراوة وحشية، تزيد في الفوضى أولا ولا تجدي في العلاج، وتعود بالنقض على أغراض الدعوة السلمية.

إذا استشفيت من داء بداء فأقتل ما أعلك ما شفاكا

وإنما تعتمد على القوة المصقولة بصقال الدين، المشربة بروحه، وإنسانيته، وتلطفه، النازلة على حكمه فيما لها أو عليها مع أولياء الدين أو خصومه.

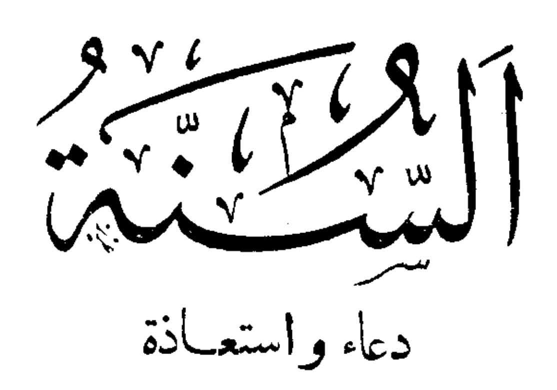
ومن أجل ذلك كان الإسلام رحمة بالناس، حتى فى خصومته وحروبه ، وفيًّا بعهده كريماً فى هدنته، ومن لم يهد بقصص القرآن ، ومن لم يؤمن بما يؤيده من أحداث التاريخ فله شأنه :

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

وبعد : فإن لدينا فى مصر أصدق العبر - ومصر هى البلد العريق فى إسلامه وفى عروبته ، وبلد الخلافة يوم أوت إليها مهيضة فآوتها ، وهى بلد الأزهر قديماً ودائماً - إن شاء الله - إذ دخلتها دعوة الإسلام تؤازرها القوة ، وخفقت على شرفاتها راية الإسلام فى ظل القوة ثم وهنت قوتها أخيراً بفعل الزمن وأعاصير السياسة ، فوهنت دعوة الدين نوعا واعتورتها سهام الإلحاد ، وزاحمتها المجانة ، وطغت عليها نوازع الشر ، واتسعت الهوة بين دعوتها ، وجيشها ، ولم يبق إلا الأزهر وحده قائما على دعوته ، ولكن فى شىء من الجهد ، لكثرة ما افتتن الناس به من مغريات زحفت علينا ، حتى أصبح الأزهر فى وطنه كالدخيل على غير أهله ، يتعرفه واحد ويتجاهله آخرون ، وحتى خشى الأزهر أن تتأصل وتعيش حوله تلك المخازى ، فتتحيف من شأنه ومكانته ، بل لقد رأى الأزهر أثراً لذلك الذى يخشاه فى أفراد أحاطت بهم عوامل السوء فلانت قناتهم فى يد الفتنة ، مما يشتد لهوله الأسى ، وتتقد له الحسرة بين الضلوع .

وكأن هذا فى علم الله إيذان بانتهاء المحنة ، وتقلص الفتنة ، واستعادة الدين لصولته ، وانتعاش الأزهر فى رسالته ، إذ بعث من معاقل الجيش المصرى همة فى كبريائه ، وغيرة فى إبائه ، بعث من معاقل الجيش حماسة ابن الخطاب ، ماثلة فى إقدام ابن العاص ، وجدد وفاء السابقين من أبطال الأمس ، فى نجيب وصحبه من أبطال اليوم ، فدالت دولة الفساد والظلم والإلحاد فى ساعة ، وتجددت للوطن كرامته ، وللدين قداسته ، وللشعب بهجته ، وستظل - برعاية الله ، ومعونته - هذه النهضة على قدم وساق . ولعل من الفأل الحسن أن تقترن هذه الوثبة باستقبال الأزهر لشيخ تقى يستعين بالله حتماً ، ولا يقول إلا صدقا ، وهو بعد ، لا تخدعه الزلفى ، ولا يغره الثناء ، وعلى مثل هذا الشيخ يتوكأ الأزهر وينهض ويستفيد ويفيد ، والله المستجيب .

محمد عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء



دعاء واستعاذة

عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . كان يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر . اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها ، أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » رواه مسلم .

للدعاء فى الإسلام ، وهدى النبى عليه الصلاة والسلام ، شأن عظيم ومقام كريم . ألم تر إلى فاتحة الكتاب : أم القرآن وأعظم سورة فيه ؟! شطرها الأول ثناء ، وشطرها الآخر دعاء . أولم تر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ؟! لم يكتف بأن يحدثنا أن الدعاء أكرم شىء على الله تعالى ، حتى حدثنا أنه هو العبادة أو هو مخ العبادة [1] .

والعبادة هى منتهى الخشوع والخضوع لله رب العالمين . وبحسب إخلاص العبد فيها واستقامته عليها ، ترتفع درجته ، وتشرف عند الله مكانته .

وفى هذا الحديث الذى استخرنا الله تعالى أن يكون فاتحة المجلة - وقد عادت إلى السنة - يستعيذ النبى صلى الله عليه وسلم ، ويعلم أمته أن تستعيذ من خمس آفات مهلكات ، كلهن شر يتقى ، وبلاء يستعاذ بالله منه ! ثم يستعيذ صلوات الله وسلامه عليه من عذاب القبر ، وكأنه عاقبة محتومة للآفات السابقة ، ونذير سوء لما بعده من عذاب الآخرة ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، ثم يضرع إلى الله تعالى أن يؤتيه ومن اتبع هداه التقوى ، وأن يطهره من هذه الآفات وما إليها ، ويقرن هذه الضراعة بالثناء عليه بما هو أهله ، ثم يتحصن به - وهو نعم الملجأ - من أربع بلايا من كفيهن فقد كفى الشر كله ، وضرب فى الخير بسهم وفير .

وقد زاوج النبى صلى الله عليه وسلم بين كل اثنين من هذه البلايا التى عاذ بالله منها

---

(١) إشارة إلى ثلاثة أحاديث رواها الترمذى وغيره : الأول عن أبى هريرة ، والثانى عن النعمان بن بشير ، والثالث عن أنس رضى الله عنهم .

لمشاكلة بينهما . فتعوذ أول ما تعوذ من العجز والكسل ، وكلاهما داء وبيل ومرض قاتل للحياة الروحية والاجتماعية ، بل للحياة الطيبة فى الآخرة والأولى . ويتفقان كلاهما فى صفة سلبية وهى التخلى عن العمل ، وإن كان منشأ التخلى فى العجز عاهة أو نحوها ، ومنشأ التخلى فى الكسل التقاعد والتثاقل عن العمل مع القدرة عليه ، إيثارا لراحة البدن أو حظ من حظوظ النفس وأهوائها . ويختلفان فى أن الكسلان مذموم ملوم لا عذر له ، لأنه ساقط الهمة خائر العزيمة متخاف عن الركب ، بضاعته الأحلام والأمانى « وبئس للظالمين بدلا » أما العاجز فهو معذور إلى أمد بعيد ، ولا سيما عجز بمحض القضاء والقدر لا يد لصاحبه فيه كالذى يولد كذلك أو الذى يصاب من حيث لا يحتسب ؛ فأما من جنى على نفسه حتى أعجزها ، أو حاد بها عن طريق الجادة حتى أتلفها فهو أعظم من الكسلان جرما وأقبح إثما وذما ! فليتق الله امرؤ فى نفسه ، وليجنبها بواعث العجز والكسل ، وإلا فهو عضو فاسد يجب النظر فى إصلاحه أو بتره قبل أن يعدو فساده على المجتمع .

* * *

وتعوذ صلى الله عليه وسلم من الجبن والبخل ، وكلاهما منع وشح ، غير أن الأول شح بالنفس ، والثانى شح بحبيب النفس ، وهما قرينان لا يكاد يذكر أحدهما دون صاحبه ، وكذلك ضداهما : الشجاعة والكرم . ومن أمثلة الاستدراك فى مبادىء النحو : فلان شجاع لكنه بخيل ، وذلك لأنه لا تخطر الشجاعة بالبال إلا ومعها الكرم . وتعليل ذلك هين ، فإن الكرم ضرب من ضروب الشجاعة .

ومرد الشجاعة بجميع صنوفها إلى الثقة بالله أولا ثم بالنفس ثانيا ، ومن هنا كان الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أشجع الناس وأكرم الناس ، لأنهم أوثق الناس بالله عز وجل . وجود الخليل والحبيب بالنفس والمال ليس موضع ريبة ولا جدال . وكذلك ورثة الأنبياء من بعدهم ، وكم ضحوا بالنفس والنفيس فى سبيل الله وسبيل أوطانهم ، لا يبتغون إلا وجه الله ولا يخشون أحداً سواه ، فأما الجبناء والبخلاء فليسوا من ورثة الأنبياء فى شىء .

* * *

وتعوذ صلى الله عليه وسلم من الهرم وعذاب القبر .

والهرم أقصى السن وأرذل العمر ، والهرم على هذه الحال كل ثقيل على الأهل والولد ، وبالحرى غيرهم . وكبر السن مع ثقل الظل داء يستعاذ بالله منه ، فأما مجرد الكبر ، ولو جاوز المائة ، مع سلامة العقل وهدوء النفس واستقامة العمل فذلك خير يطلب المزيد منه . فإذا

اجتمع إلى تلك الصفات حنكة وتجربة وسداد فى الرأى ورشد فى السياسة ونور فى البصيرة وخشية لله وحده ، فذلك الإمام المقتدَى به ، والسراج الذى يستضاء بنوره ، وفى مثل هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن بشر رضى الله عنه : « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » .

* * *

وعذاب القبر ونعيمه كلاهما حق ، تضافرت الأدلة عليه ، وصحت الرواية فيه عن جماعة من الصحابة رضى الله عنهم فى مواطن كثيرة ، ولا يأبى دستور العقل أن يعيد الله تعالى حياة العبد فى جسده أو فى جزء منه ، وأن يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، ويقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة . وقاعدة أهل السنة والجماعة أن شيئاً ورد به نقل قويم ولم يمنع منه عقل سليم ، وجب قبوله واعتقاده والإيمان به . وكم من شىء أثبته العلم الحديث فى عالم الأحياء ، بعد أن أنكره قليلو البضاعة من أشباه العلماء ، فكيف بهم فى عالم الأموات وبضاعتهم فيه مزجاة ؟! ألا إن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، فليعد امرؤ قبره كما يشاء ويختار ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

بعد أن تعوّذ صلى الله عليه وسلم من هذه الآفات التى تهلك من يبتلى بها ـ فردا كان أو جماعة ـ ضرع إلى الله سبحانه أن يمنح نفسه تقواها له وخشيتها منه ، وأن يزكيها ويجملها لأنه القادر على ذلك وحده ، فهو مالك أمرها ومدبر شأنها والقائم على كل نفس بما كسبت ، لا يسوق الخير غيره ولا يكشف الضر أحد سواه . إن ضراعته هذه بعد استعاذته ، من قبيل التحلية بعد التخلية ، أو من قبيل الصحة بعد العافية .

وتزكية النفس : تطهيرها سراً وعلانية من الخبث والدنس ، فى عقيدة المرء وسلوكه ومعاملته ، لنفسه أو لربه ، أو لأهله وعشيرته ، أو لوطنه وأمته والعالم أجمع .

ولقد قام الإسلام على قواعد التطهير العام الشامل : فدعا إلى تطهير العقائد من دنس الشرك والكفر وعبادة غير الله عز وجل ، وإلى تطهير العقل من الخشوع والخضوع للخرافات والأوهام والأضاليل ، وتقليد الآباء والكبراء على غير هدى وبصيرة ؛ وإلى تطهير القلب من الحقد والحسد والغل والشحناء والبغضاء وما إلى ذلك من أمراضه الذاهبة به وبصاحبه : ودعا إلى تطهير المعاملات من الكذب والزور والرشوة والربا ، والحرص والجشع والخداع والطمع وما إليها من أكل أموال الناس بالباطل والعدوان عليهم فى المال أو العرض أو النفس .

بنى الإسلام - ولا نقول سبق - على هذا التطهير العام الشامل الذى لم يدع رذيلة إلا هدمها ، ولا نقيصة إلا محاها ، ثم شيد على أنقاض هذه الرذائل مدرسة قوية الأركان ، عتيدة البنيان ، منهاجها الكتاب المبين ، وإمامها خاتم النبيين ، وبنوها خير أمة أخرجت للناس .

وليس التطهير الذى تقوم به الحكومات الرشيدة فى عهودها المباركة إلا شيئاً قليلا مما حمل الإسلام عبئه . وإذا كان الدين خير ظهير للحكومات ، يحميها ويؤيدها ويأخذ بيدها إلى ما ترجو من عزة وسعادة ومجد ورفعة . فما أجدرها أن تبادله معونة بمعونة ، فتكون له خير نصير ، تؤيده وتظاهره ، وتثبته وتنصره ، وتتخذه فى كل عمل من أعمالها منهاجا لها وإماما .

فعلى بركة الله سيرى أيتها الحكومات السديدة مطهرة ومربية ، ومعلمة ومزكية ، موقنة بأن الله هو القيوم الديان ، وأنه يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

* * *

ولما كان النبى فى أمته ، والإمام فى رعيته ، والقائد فى جنده ، كالطبيب الشفيق الناصح ، وكان أخوف ما يخاف على مريضه الانتكاس والعياذ بالله تعالى ، عاذ صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله من أربع آفات أخرى فيهن فساد المرء ودنسه ، ومنهن يكون بلاؤه وانتكاسه . على أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ أحيانا من هذه الأربع على حدة ، فقد روى الاستعاذة منها فى حديث مستقل الترمذىّ والنسائى عن ابن عمرو رضى الله عنهما ، وكذلك أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه :

الآفة الأولى : علم لا ينفع ، لأنه شر من الجهل ، فإن الجاهل قد يعذر بجهله ، وأما العالم الذى لم ينفعه الله بعلمه فهو فتنة للناس ومضلة لهم لأنه فى موضع القدوة منهم ، لا جرم أن علمه حجة عليه لا له وأنه أشد الناس خزيا ومقتا فى الدنيا والآخرة « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » .

الآفة الثانية : قلب لا يخشع ؛ لخلوه من الإيمان واليقين ، ولفساده باجتراح السيئات والمعاصى ، طبع الله عليه فلم يلن لذكر الله ولم يتعظ بمواعظ الله ، ثم انتقل فساده إلى الجوارح لأنه المهيمن عليها والمحرك لها . وفى حديث الصحيحين المعروف « ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

الآفة الثالثة : نفس لا تشبع ؛ لجشعها وطمعها فهى وبال على صاحبها ومتعبة له ، لا تدعه يتمتع بما أوتى من نعمة ومتاع ، لا يتمتع بنعمة عاجلة لأنه مشغول عنها بالآجلة ، ولا يتمتع بنعمة آجلة لأنها لم تأت بعد ، لا جرم أنه الشقى المحروم الذى سلب نعمة الرضا وملئ قلبه بحب الدنيا . وحب الدنيا رأس كل خطيئة .

الآفة الرابعة : دعوة لا يستجاب لها ، أو « دعاء لا يسمع » كما فى الرواية الأخرى ؛ لأن عدم الاستجابة أمارة إعراض الله عن العبد لإعراض العبد عنه . وينبغى أن يعلم أن تأخير الإجابة ليس دليلا على رد المسألة ، فقد تؤخر لأسرار إلهية ، منها أن الله يحب أن يسمع صوت الداعى وتضرعه ، كما أنه ليس من شرط الإجابة أن تقضى حاجة العبد نفسها ، فربما ادخرها الله له فى الآخرة ، وربما صرف عنه من السوء مثلها . فلا ييأس العبد من رَوح الله وليدْعُ ربه صادق النية حاضر القلب طيب الكسب موقنا بالإجابة . وقد بسطنا القول فى أدب الدعاء [1] فى شرح حديث الصحيحين « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل » فلا حاجة بنا إلى إعادته .

ذلك ، وينطوى الحديث على لطائف جمة ، وإشارات كريمة ، إذا لم يتسع المقام لتفصيلها كلها فلا أقل من التنبيه على بعضها .

فمنها : أن التحصن من الآفات والبلايا ، بالدعوات والاستعاذة ، بمنزلة الوقاية منها قبل وقوعها . ومثل الأمراض الروحية والاجتماعية كمثل الأمراض الجسمية ، الوقاية فى كل منها خير من العلاج . فاذا وقع شىء من هذه الأدواء ، وجد إلى جانبه الأدوية التى أنزلها الحكيم الخبير ضامنة للشفاء . ومتى أصاب الدواء موضع الداء برأ بإذن الله . وما مثل الضمان الاجتماعى الذى تتباهى به الأمم بجانب هذا الضمان الإلهى إلا كمثل القشر من اللب أو كمثل الزَّبد من الزُّبد . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

ومنها شدة الصحابة رضى الله عنهم فى تحرى الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخذاً من قول زيد رضى الله عنه : لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . . وحسْبُ زيد شرفا وتحريا أن الله تعالى صدقه لما رفع إلى النبى صلى الله عليه وسلم قول عبد الله بن أبىّ رأس المنافقين : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، وقد أكذبه ابن أبى وحلف ، فأنزل الله تصديقه : وأخذ صلى الله عليه وسلم بإذنه وقال : « وفت أذنك يا غلام » ، ولبسط القصة مقام آخر غير هذا المقام .

ومنها الإشارة إلى فضل الدعاء والاستعاذة ، وعظيم أثرهما فى تزكية النفس وتربيتها ، وصلتها بربها ومالك أمرها وناصيتها ، ولا سيما مع الدوام الذى تشير إليه صيغة « كان . . . »

فاللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة ، وهذا الجهد وعليك التكلان . اللهم اهدنا لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، وقنا سيء الأعمال وسيء الأخلاق لا يقى سيئها إلا أنت « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا » .

طه محمد الساكت

(١) بالجزء العاشر من المجلد الرابع عشر .

فى الفقه الإسلامى
نشأته - خصائصه

تمهيد :

١ — لكل مجتمع ، مهما كانت درجته من الفكر والحضارة ، حظه من قواعد وأصول تحكم تصرفاته ومعاملاته وسائر شئونه ، والمجتمع العربى قبل الإسلام لم يشذ عن هذا الأساس الذى يقوم عليه بقاء الشخص والنوع والاجتماع والعمران .

لذلك ، نجد العرب عرفوا كثيراً من ضروب المعاملات ، كالبيع والمضاربة والشركة والإجارة ، وأقر الإسلام - على لسان رسوله وفعله وتقريره - ما وجده صالحا منها ، وحرم ما رآه غير صالح ولا يقوم عليه مجتمع سليم .

جاء فى سنن أبى داود عن رسول الله ﷺ أنه قال للسائب بن أبى السائب : « كنت شريكى ، فنعم الشريك ! كنت لا تدارى ولا تمارى » ومعروف أن السيدة خديجة بنت خويلد كانت امرأة تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم [(١)] .

كما عرفوا أيضا عقد « السلم » ، ولذلك نجد الرسول حين ينهى عن بيع « الغرر » يستثنى السلم لما فى منعه من الحرج على الناس . وفى هذا روى البخارى أن النبى ﷺ قدم المدينة وهم يُسلفون فى الثمار السنة والسنتين ، فقال : من أسلف ، فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم ، ومعنى هذا ، إقرار ذلك العقد ، مع بيان الشروط الضرورية لصحته .

٢ — إلا أنه لا يستطيع أحد أن يزعم أن العرب فى جاهليتهم وصلوا من ذلك إلى بعض ما تصلح به أمة للحياة : إن ما عرفوه فى هذه الناحية لم يكن إلا قواعد أو مبادىء متفرقة فى غير شمول ولا كفاية ، ومن أجل هذا وغيره كانت الحاجة ماسة للإسلام وشريعته .

أجل ! ظهر الإسلام والعرب ، بل العالم كله ، فى أشد الحاجة إليه ، فأعطاهم العقيدة الحقة ، والنظم التى يقوم عليها المجتمع والأمة ، وكان من هذه النظم الحكيمة . ما نسميه اليوم « بالفقه » . وهو ما نرجو أن يوفقنا الله تعالى — فى هذه الكلمات — للتعريف بنشأته وخصائصه ، وبيان الطريق للإفادة منه ليكون القانون العام الشامل ، بدل

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ، نشر المكتبة التجارية سنة ١٩٣٧ ، ج ١ : ٢٠٣

ما نستجلبه من أمم أجنبية عنا بحضارتها وأهدافها فى الحياة فليس كل ما يصلح لها يصلح لنا ، وبالله العون والتوفيق والسداد .

نشأة الفقه

٣ — لم ينشأ الفقه الإسلامى ، كما نعرفه اليوم ، كاملا مرة واحدة ، بل تدرج فى مراحل مختلفة حتى بلغ ما قدر له من نضج وكمال ، شأنه فى هذه الظاهرة شأن كل شىء وجد وعرف نور الحياة ، على أن الرسول ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى ، حتى كان الفقه قد استكمل أصوله التى قام عليها واستوى فيما بعد ؛ إذ انقضى بوفاته عهد وضع الشريعة فى أسسها وأصولها ، فلم يبق للفقهاء بعده إلا الاستنباط والتفريع والتطبيقات .

وكان من الطبيعى أن يكون عماد الفقه فى الفترة الأولى من حياته الخالدة ، على القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة ، وقد استمرت هذه الفترة طوال حياة الرسول ، وفيها نزل القرآن مفرقا فى مكة والمدينة ، وكان ما نزل بمكة نحو ثلثيه والباقى بالمدينة ، وقد اشتمل ما نزل بالمدينة على الجانب الأكبر من التشريعات الفقهية التفصيلية . أما ما نزل بمكة ، فقد كان مقصده الأول الدعوة إلى الله وتوحيده ، والتدليل على ذلك وعلى وجود الدار الأخرى .

٤ — ولا عجب أن يكون هذا هو منهج القرآن مكيه ومدنيه . فالمهم الأول كان صرف الناس عن الأديان والاعتقادات الباطلة ، وتوجيههم للدين الحق . وبعد أن تم للرسول النصر ولدين الله الفوز والثبات ، ودخل الناس فى الإسلام أفواجا ، كان قد آن أن ينزل القرآن بالتشريعات التفصيلية الواجبة لتنظيم حياة المسلمين ومجتمعهم ، وبخاصة وقد صار الإسلام دولة بالمدينة تتطلب ما تقوم عليه من شرائع ونظم متعددة تحكم الحياة فى نواحيها المختلفة .

ومن حكمة الله أن نزل القرآن بتكاليفه وأحكامه على التدريج ، رحمة بالناس وأخذاً لهم باليسر . وكان بعض ما نزل به إجابة على أسئلة واستفتاءات يتقدم بها هذا أو ذاك من المسلمين ، ولذلك نجد فى القرآن خمس عشرة آية مصدرة بكلمة : « يسألونك » ، وآيتين مصدرتين بكلمة : « يستفتونك » ، ومن الضرب الأول ثمان آيات كان السؤال فيها عن بعض ما يتناول الفقه من موضوعات ، وكلها بسورة البقرة ما عدا واحدة بالمائدة وأخرى بالأنفال .

٥ — وكان الرسول إذا سئل عن مسألة ، أو جدت حادثة تقتضى حكم الله تعالى ، ينتظر الوحى السماوى ؛ فإن نزل بالمراد كان بها ، وإلا كان هذا إيذانا من الله بأنه وكل إلى رسوله أن ينطق بالتشريع اللازم ، ومعلوم أنه لا ينطق عن الهوى . ومن أجل ذلك ، يجب أن نجزم بأن كل التشريعات التى ظفر بها الإسلام فى عهد المصطفى ، هى تشريعات وأحكام إلهية ؛ إما عن طريق مباشر بنزول القرآن بها ، وإما عن الرسول ويقرّه الله عليها .

وهنا ، ينبغى أن نلاحظ أن القرآن كثيراً ما كان يأتى بالتشريعات والأحكام بصفة عامة إجمالية ، وكان على الرسول — فى هذه الحالات — تفصيل هذا الإجمال . ولا عجب فى ذلك ، فإن مهمة الرسول دائما هى البيان لرسالته بكافة طرق البيان ، بما يرشد إلى مقاصد صاحب الرسالة الأعظم وهو الله تعالى . وقد يكون لنا أن نقرر فى إيجاز أن دور الرسول هو دور المفسر والشارح للمتن الذى هو القرآن : إلا أنه شارح ملهم من الله ، مصحوب بتوفيقه .

وكان من ذلك ، أن مر الفقه بدور الشباب ، ثم دور النضج والكمال ، وأخيرا دور الشيخوخة بسبب التقليد ، ونرجو أن يستعيد من جديد فتوته وقوته وحيويته الدائمة .

وقيام الرسول ببيان وتفصيل ما جاء به القرآن من أحكام وتشريعات ، له مثل كثيرة : فى الصلاة والصيام والزكاة والحج ،[1] وفى غير ذلك كله من ضروب المعاملات ، وهكذا كانت السنة مبينة للقرآن ، وكان الرسول مشرعا بقوله وفعله وتقريره — وإن كان الله هو المشرع الأعظم فى الحقيقة — باستلهامه القرآن دائما : نصه ، وروحه ، ومقاصده التى ترمى دائما للصالح والخير العام .

٦ — هذا ، والذى يقرأ القرآن بتدبر وملاحظة لما فيه من أبواب الفقه ، يجد أن لكل من فروع القانون التى نعرفها اليوم آيات خاصة تبين أحكامه . ففى القرآن نحو سبعين آية فى الأحوال الشخصية . وفى المعاملات أو القانون المدنى نحو هذا القدر ؛ وفى باب العقوبات وإجراءات التحقيق نحو ثلاثين آية ، وفى باب القضاء والشهادة وما يتصل بذلك من مرافعات نحو عشرين آية والذى يتتبع فقه السنة ، يجد أيضا أن فى كل من هذه الأبواب كثيرا من الأحاديث ، منها ما يبين ما جاء فى القرآن مجملا ، ومنها ما يجىء بما سكت عنه . وكل

---

(١) لم نجد ضروريا أن نطيل بذكر الآيات التى شرعت بإجمال هذه العبادات والأحاديث التى تناولتها بالتفصيل ، فذلك معروف ألم بشىء شيا من علوم القرآن والحديث .

هذا وذاك ، قد كمل بما قرره القرآن والرسول من الأصول الكلية التشريعية ، وبذلك ظفر الإسلام حال حياة الرسول بتشريعات كاملة وافية بحاجات المسلمين الكثيرة المتنوعة والمتجددة في كل زمان ومكان [1] .

ثم إن بعض رجال الحديث ، رضوان الله عليهم ، قد رتبوا ماصح عندهم من الأحاديث على أبواب الفقه ، بحيث يسهل للباحث معرفة مدى أثر السنة في الفقه الإسلامي بجانب القرآن الذي هو المصدر الأساسي الأول لكل تشريع .

٧ — وبعد لحاق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى ، أخذ الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية يمتد إلى أقطار الأرض كلها ، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، إذ فتح الله على المسلمين العراق والشام ومصر وشمال إفريقية والهند وغيرها . ولكل من هذه البلاد حضارتها وتشريعاتها المختلفة ، ولكل منها أيضا تقاليدها وعاداتها وأعرافها التي تعتبر من مصادر التشريع . وكان من هذا كله ، أن كثرت الحوادث والنوازل التي تتطلب أحكام الله تعالى ، وأن أصبح المأثور من قضاء الرسول وأحكامه لا يفي بهذه الحوادث والواقعات التي تزيد وتتجدد في كل آن .

وثمة عامل آخر كان له أثره في الفقه في هذه الفترة وما تلاها ، وهو هجرة كثير من الصحابة بعد عهد عمر ، رضوان الله عليه ، إلى هذه الأقطار ، فشاع التحديث عن الرسول ﷺ وكثر استنباط الأحكام من القرآن ومما يرونه صحيحاً من أحاديث الرسول . وطبيعي أن يكون لكل هذه العوامل ، وتلك ، أثرها في الفقه والتشريعات ، وفي كثرة الاجتهاد والمجتهدين .

وهكذا ، بدأ الفقه الإسلامي يتسع ويزدهر ، وأخذت أصوله تعرف وتتميز ، من الكتاب والسنة والإجماع والقياس وغيرها كالمصالح المرسلة ، وبدأت أعراف البلاد المختلفة - التي أصبحت تكون جسم الدولة الإسلامية - تؤثر في الفقهاء والفقه أثراً غير قليل ، إلا أن هذا الأثر يكاد ينحصر في إثارة مشاكل لم يعرفها المسلمون من قبل ، فكانت ميداناً لاجتهاد المجتهدين .

٨ — وبعد فقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، إذا سئل أحدهما عن مسألة ، يلجأ أولا إلى الكتاب والسنة ، فإن وجد الحكم الذي يريد فذاك ، وإلا لجأ إلى الصحابة ويقضي

---

(١) ولذلك ، يقول الله تعالى في أواخر حياة الرسول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » .

مما يجد عند أحدهم عن الرسول . فإن أعياه الأمر ، استشار أهل الرأى والعلم وقضى بما يجتمعون عليه ، إلا أن عمر كان يرجع ، بعد الكتاب والسنة ، إلى رأى الصديق إن كان له رأى فى الحادثة ، قبل أن يلجأ إلى استشارة ذوى الرأى والعلم من الصحابة جميعاً .

ومع ذلك ، فقد كان لكل منهما اجتهاده فى بعض المسائل التى جدت فى أيامهم ، كما كانا يستعملان القياس أحيانا فيما لا نص فيه . لكن عمر كان يتخوف على الناس أن يجتهدوا فلا يوفقوا دائما لحكم الله . ومن ثم ، تجده يكتب لشريح ، حين ولاه قضاء الكوفة فيقول : « إذا حضرك أمر لا بد منه ، فانظر ما فى كتاب الله فاقض به ، فإن لم يكن ففيما قضى به رسول الله ﷺ ، فإن لم يكن ففيما قضى به الصالحون وأئمة العدل ، فإن لم يكن فأنت بالخيار ، فإن شئت أن تجتهد رأيك فاجتهد رأيك ، وإن شئت أن تؤامرنى ولا أرى مؤامرتك إياى إلا خيراً والسلام »[1] .

٩ — وإلى تشدد الصحابة فى الاجتهاد بالرأى ، مخافة القول على الله ورسوله بلا علم ، ينبغى أن نضيف أن الشيخين بخاصة كانا يتشددان فى الإكثار من الرواية عن الرسول خوف الوقوع فى الكذب وانصراف الناس عن الاستنباط من القرآن .

روى الحافظ الذهبى أن الصديق جمع الناس بعد وفاة النبى وقال : « إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها ، والناس بعدكم أشد اختلافا ، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئا ، فمن سألكم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه »[2] . وروى أيضا عن قرظة بن كعب قال : لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا ، وقال : أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا : نعم مكرمة لنا ، قال : ومع ذلك ، إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم . جردوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله وأنا شريككم . فلما قدم قرظة ، قالوا : حدثنا ، فقال : نهانا عمر ! »[3] .

١٠ — وما ينبغى لنا أن نظن من ذلك عدم اعتبار الصحابة للسنة مصدرا من مصادر التشريع بعد القرآن ؛ أنهم كانوا بلا ريب يعتبرونها كذلك ، ولكنهم كانوا يتشددون فى الرواية للحديث ، كما قلنا ، خشية الكذب أو الخطأ ، وهكذا كان الشك فى الحديث

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ، طبعة منير الدمشقى ، ج ١ : ٧١ .

(٢) تذكرة الحفاظ ، ج ١ : ٣ (٣) نفسه ، جـ ٧ .

فيما بعد من عوامل ظهور الرأى فى الفقه ، إلى درجة أن ظهر فى الفقه فى عصر متأخر قليلا عن هذه الفترة ، مدرستان : مدرسة أهل الحديث ، ومدرسة أهل الرأى .

وليس ضروريا أن نأتى بشيء من الأدلة على اعتبار الصحابة السنة مصدرا من مصادر التشريع ، فذلك معروف وبدهى ، ولكن نذكر - مع ذلك - مثالين فى هذه الناحية . فقد جاءت جدّة إلى أبى بكر تسأله ميراثها ، فقال لها لا أعلم لك فى كتاب الله أو سنة رسوله شيئا ولكن نسأل الناس ، فقال المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة بأن الرسول يعطيها السدس ، فقضى أبو بكر به . وكذلك استشار عمر فى سقط المرأة إذا نزل بتعد من واحد من الناس ، فشهد هذان أيضا بأن الرسول قضى فيه بغرة [الغرة عبد أو أمة] ، فما كان من الفاروق إلا أن أمضى ذلك القضاء .[1] ومن هذين المثالين - وغيرهما كثير - نعلم مقدار احترام الشيخين لسنة الرسول ﷺ ، كما نعلم أنهما لم يكونا يتهمان أحدا من الصحابة بالكذب على الرسول ، حينما طلب كل منهما شاهدا يسند راوى حديث فى ميراث الجدة وحديث سقط المرأة ، ولكن هو الاحتياط فى الشريعة والرغبة فى التثبت .

١١ — وهنا ، تظهر لنا مشكلة تشريعية تتطلب الحل . لقد رأينا أن الصحابة كانوا يلجأون إلى الرأى بعد الكتاب المحكم والسنة الثابتة ، وكان الحكم الذى يجمعون عليه يعتبر حكما ليس لأحد أن يخالفه ، فهل الأمر كذلك فى قول الصحابى الواحد ؟ أى هل يعتبر قوله حجة لا يجوز أن نحيد عنه ؟ ويحسن بنا ، فى طريق حل المشكلة ، أن ننظر لعامل الزمن والتاريخ .

إذا رجعنا لأقاويل الصحابة أنفسهم ، حين كان الواحد منهم يفتى باجتهاده ، نجد المفتى منهم لا يرى أن يكون رأيه ملزما ، لأنه يحتمل الخطأ كما يحتمل الصواب ، وليس لأحد حمل الناس جميعا على رأى فيه هذا الاحتمال .

لقد كان الصديق إذا اجتهد وبان له الرأى الذى يعتقده حقا ، يقول : هذا رأيى ؛ فإن يكن صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى وأستغفر الله ، وكذلك كان صنيع عمر ، فقد كتب كاتب له : هذا ما رأى الله ورأى عمر ، فقال له : بئسما قلت ! هذا ما رأى عمر ؛ فإن يكن

(١) راجع تذكرة الحفاظ ، ج ١ ص ٣ ، وص ٨

(٢) إعلام الموقعين ، ج ٤ ، ١٠٣ وما بعدها .

صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر . وقال : السنة ما سنه الله ورسوله ، لا تجعلوا خطأ الرأى - لعله يريد الرأى الذى قد يكون خطأ - سنة للأمة .

١٢ — هذا . ما كان يراه الصحابة وكبار التابعين ، عند ما يفتون بالرأى عن اجتهاد ، فلا يرونه ملزما للأمة وحجة على الناس جميعا لاحتماله الخطأ . أما إذا طوينا الزمن ، وانتقلنا إلى العصر الوسيط ، فإننا نرى مثلا الإمام ابن القيم المتوفى عام ٧٥١ هـ يعقد لقول الصحابى برأيه فصلا يقول فيه ما نذكره باختصار :

« إذا قال الصحابى قولا وخالفه مثله ، لم يكن قول أحدهما حجة على الآخر . وإن خالفه أعلم منه ، كما إذا خالف الخلفاء الراشدين أو بعضهم غيرهم من الصحابة ، فالصحيح أن الجانب الذى فيه الراشدون أو بعضهم أرجح وأولى أن يؤخذ به ، فإن كان الأربعة فى شق فلا شك أنه الصواب . وإن كان أكثرهم فى شق فالصواب فيه أغلب ، وإن كانوا اثنين اثنين فجانب أبى بكر وعمر أقرب إلى الصواب ، فإن اختلف هذان فالصواب مع أبى بكر . وهذه جملة لا يعرف تفصيلها إلا من له خبرة واطلاع على ما اختلفوا فيه ، وعلى الراجح من أقوالهم ، ولا يعرف للصديق خلاف نص أبدا ، ولا يعرف له حكم ولا فتوى مأخذها ضعيف أبدا ، وهو تحقيق لكون خلافته نبوية .

وإن لم يخالف صحابى صحابيا آخر ، واشتهر قوله فى الصحابة ، فالذى عليه جماهير الطوائف الفقهاء أنه إجماع وحجة ، وقالت طائفة منهم هو حجة وليس بإجماع ، وقالت شرذمة من المتكلمين وبعض الفقهاء المتأخرين لا يكون إجماعا ولا حجة .

وإن لم يشتهر قوله ، أو لم يعلم هل اشتهر أم لا ، فالذى عليه جمهور الأمة أنه حجة ، وهو قول جمهور الحنفية ، ومذهب مالك وأصحابه ، ومنصوص الإمام أحمد واختيار جمهور أصحابه ، ومنصوص الشافعى فى القديم والجديد »[1] .

من ذلك كله ، نرى أن المتأخرين قد أعطوا لقول الصحابى برأيه مجتهدا فى الفقه قيمة أكثر مما كان يعطى الصحابة أنفسهم لآرائهم فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة ، ونعتقد أن هذا أمر طبيعى ، فإن الصحابة لاتصالهم بالرسول ﷺ ، ولقدرتهم على الاجتهاد ، كان الواحد منهم لا يرى حمل الناس على رأيه ، أما فى العصور التى جاءت بعدهم ، فخفى الحق عرفان قدرهم تماما لهم ، ووجوب العمل بآرائهم التى لم يقولوا بها إلا ولها سند من كتاب الله أو سنة رسوله ، وقد كانوا بلا ريب أقرب إلى فهم ذلك فهما حقا لمن جاء بعدهم إلى هذه الأيام التى نعيش فيها ؟

محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة بكلية الحقوق - بجامعة فؤاد

---

(١) إلى آخر ما قال ، فإنه قيم حقا على طول فيه .

كلمة فى الاجتهاد والتقليد

من نحو ست سنوات ندبتنى وزارة العدل فى سورية إلى إعداد مشروع لقانون الأحوال الشخصية ، وكان العمل فى محاكم الشام الشرعية (ولا يزال) بالراجح من مذهب أبى حنيفة إلا ما نص على غيره فى قانون العائلة الذى أصدره العثمانيون قبل الحرب الأولى وعدلوا فيه طائفة من الأحكام تشبه فى الجملة ما اشتملت عليه القوانين التى صدرت فى مصر قبل سنة ١٩٣٠ ، وبقى العمل بهذا القانون إلى الآن ، فكان المرجع القانونى للقضاة فى الأحكام الموضوعية قانون العائلة ، فإن لم ينص فيه على حكم رجع إلى كتاب الأحكام الشرعية لقدرى باشا رحمه الله ، وإلى كتب الفتوى فى المذهب كحاشية ابن عابدين وتنقيح الحامدية وجامع الفصولين وأمثالها من كتب المتأخرين .

فلما شرعت بإعداد المشروع جعلت كتاب قدرى باشا هو الأصل ، ووضعت أمامى قانون العائلة والقوانين المصرية ، وكتب المذهب والمذاهب الثلاثة الأخرى ، وغيرها من الكتب الفقهية ككتب الشوكانى وابن حزم وابن تيمية وابن القيم وفقهاء الجعفرية . ونظرت فعرضت لى مشكلة : هل ينبغى الوقوف فى الترجيح عندما رجحه الفقهاء المتأخرون وعلى رأسهم الإمام ابن عابدين جزاه الله خيراً ؟ ثم جاوزت ذلك فسألت نفسى : هل يجب أن نقتصر فى التقليد على المذهب الحنفى ؟ ثم سألت : هل من الواجب علينا التقيد بالمذاهب الأربعة الرسمية ؟

وإذا أردنا أن نأخذ من غيرها ، هل نصنع كما صنعت مصر ، فنعين أولا الحكم الذى نراه أوفق للمصلحة ثم نفتش عن قائل به[1] ، سواء علينا أكان هذا القائل معروفا أم كان مجهولا ، وكان هذا القول مروياً بالسند المتصل أم كان مذكوراً عرضاً أو منقولا على لسان المخالف للرد عليه ! أم ننظر فى الدليل ، فإن قام دليله أخذناه ، وإلا نبذناه ؟

وجرتنى هذه الأفكار إلى تحديد موقفى (كما يقولون اليوم) من مسألة الاجتهاد والتقليد — ولما كنت قد نشأت نشأة غريبة ، فواليت الدراسة فى المدارس النظامية

(١) انظر كلمة الأستاذ المراغى رحمة الله عليه فى ضبط الجلسة الأولى للجنة الأحوال الشخصية ، وهو فى إدارة التشريع فى وزارة العدل المصرية .

الابتدائية والثانوية والعالية ، وكنت مع ذلك أتردد صباحا ومساء على المشايخ ، وأجلس في حلقاتهم وآخذ عنهم العربية والفقه على الأسلوب القديم ، وكنت قريباً من جوهم إذ كان والدي من أعيان علماء الشام وكانت إليه أمانة الفتوى في دمشق ، فكان أول ما استقر في ذهني أن الاجتهاد سد بابه من قرن كذا (نسيت الآن من أي قرن سدوه) ، وأن القائلين بفتحه مبتدعة ووهابية لا يعتد بهم ، ولا يلتفت إليهم ، وأن للفقهاء طبقات في التقليد ، عدها ابن عابدين في أول الحاشية ، وأن علماءنا الأحياء من الطبقة الدنيا منها ، وأنهم ليسوا أهلا للتخريج أو الترجيح فضلا عن الاجتهاد .

ولكني فكرت في هذا المبدأ بحكم دراستي النظامية ونقدته بعقلي الآخر الذي كونته المدارس وعلومها ، فوضح لي أن هـذا المبدأ صحيح إن كان المراد بالاجتهاد أن نلغي كل ما وصل إليه فقهاء المذاهب الأربعة ، ونؤسس مذهباً خامساً من جديد ، نضع له أصولا جديدة ونبني عليها الفروع الجديدة ، فنكون كمن يهمل كل ما وصلت إليه صناعة الطيران ويعيد محاولة العباس بن فرناس ليضع طيارة يطير بها . أما إن كان المراد منع الاجتهاد إطلاقاً فليس بصحيح لأنها قد تجد أحداث لم تكن على عهد ابن عابدين ، ولا بد من بيان حكم الله فيها ، كثبوت رمضان بالبرق أو الهاتف (التليفون) ، وكصحة الجمعة بخطبة من الراد (الراديو) بدل الخطيب والكلام فيها ضرب من الاجتهاد ، ثم إن سد باب الاجتهاد بالكلية حظر على الله أن يخلق كأبي حنيفة ، وهذا محال .

فلما توثقت عرى المودة بعد ذلك بيني وبين العالم النبيل الشيخ محمد بهجة البيطار وهو ممثل مدرسة المنار في دمشق (إن صح هـذا التعبير) بلغتني مقالة له يقول بمنع التقليد ، ووجوب الاجتهاد على جميع المكلفين ، وأعجبتني هذه المقالة لجدتها ، ولأنها حررتني من تلك التي كنت أشك فيها وأشكو منها . ولكني لما أنعمت فيها النظر ، وجدتها أكثر إمعانا في الخطأ من تلك وأبعد عن الصواب .

فحاولت أن أبعد عن ذهني أقوال الطرفين ، وأن أجد السبيل إلى الحق بينهما ، فرجعت إلى أدلة الشرع فلم أجد نصاً في المسألة ، ووجدت أن الصحابة كان يفتي منهم أقل من ثلاثين ويرجع الباقون إليهم ، ويأخذون بأقوالهم ، ولكن من غير التزام لمذهب واحد منهم بعينه ، أو تسمية لمقلد ومجتهد ، أو ذكر لاجتهاد وتقليد .

فلما لم أقع على نقل في المسألة يوقف عنده رجعت إلى العقل ، فوجدت أن لكل علم من العلوم منقطعين إليه مشتغلين به ، وغرباء عنه زاهدين فيه جاهلين بأحكامه .

فإذا كانت لك قضية فى المحكمة ولم تكن من أهل القانون اضطررت إلى الرجوع إلى المحامين و (تقليد) أحدهم فيما يؤدى به إليه (اجتهاده) ، وإن عزمت على بناء دار رجعت إلى المهندسين ، وإن مرض ولدك راجعت الأطباء ، فإن رأى الطبيب الذى درس فى فرنسا شفاء الولد فى علاج ، ورأى الطبيب الذى تخرج فى أمريكا مضرته فى هذا العلاج ، ولم يكن بد من (تقليد) أحدهما ، ولم يكن لك طريق إلى ترجيح واحد من القولين فماذا تصنع ؟

تستفتى قلبك - وتميل إلى ما يميل اليه !

وهذا هو حال المقلد العامى فى أمور دينه ، فلا بد إذن من التقليد فى علم الدين وفى علوم الدنيا ، لأنه يستحيل أن يكون كل إنسان عارفاً بكل علم ، له فيه رأى وبحث واجتهاد .

لكن إذا كنت تفهم شيئاً من أحوال هذا المرض - كأن سبقت لولدك الإصابة به وجرب العلاج وعرف أثره ، فإنه لا يمنعك من الترجيح ومن الرد على أحد الطبيبين أنك لست طبيباً ولا عالماً بالطب ، ولست عارفاً بأحوال الأمراض كلها .

وكذلك من بحث فى مسألة من مسائل الفقه ونظر فى أدلة من تكلم فيها - وكان له معرفة بعلم الأصول ومقدرة على فهم كلام العرب - لا يمنعه من أن يكون مجتهداً فيها أنه لا معرفة له بغيرها ، ولا يسعه تقليد من يقول بعكس ما أوصله إليه اجتهاده .

فإذا كنت أديباً متمكناً من العربية وراجعت فى مطولات كتب الفقه باب القراءة خلف الإمام - ونظرت فى أدلة كل فريق ورجعت إلى كتب الحديث فعرفت درجة كل حديث منها ، ومبلغه من الصحة - وكان لك إلمام بالأحوال - ورأيت أن الحق مع المالكية فى الإنصات عند جهر الإمام ، والقراءة عند إسراره ، كنت مجتهداً فى هذه المسألة ، ولم يجز لك أن تقلد فيها أبا حنيفة وإن كنت حنفياً ، بعد هذا الاجتهاد .

وفكرت بعد ذلك فى التلفيق - هل يجوز ؟ .

فرأيت أنه لا بد من التفريق بين التلفيق عن هوى ، أو عن نظر واجتهاد ، وبين أن يكون من العامى أو من العالم .

أما التلفيق عن هوى ، أو من العالم بأنه تلفيق فلا يجوز ، وأما التلفيق عن بحث ونظر ، أو من العامى فجائز ، لأن العامى لا مذهب له ، ومذهبه مذهب مفتيه .

هذا كله للفرد الواحد ، ليقيم أمر دينه ، ويبرىء ذمته . أما فى التشريع للناس ، فلا بدّ مع النظر فى صحة الدليل ، من معرفة حاجة الناس ، وجعل العرف (إن كان عاماً) ومصلحة

الناس من جملة الأدلة ، وهذا ما جرى عليه علماؤنا حين جعلوا من الأدلة رفع الحرج ، وعموم البلوى ، والعرف ، وبنوا على ذلك فروعا كثيرة معروفة ، وقواعد منها أن للإمام أن يأمر بالمباح فيصير واجبا (ذكر ذلك فى الحاشية والأشباه) ، وأن يأمر الحكام باتباع أحد القولين .

ولقد وجدت خلال اشتغالى بوضع مشروع القانون أن فى المذهب أحكاما ثابتة بالنص القطعى كمنع الوصية للوارث ، ولا أزال أعجب كيف خالفتها مصر ، ولا أجد لها وجهاً برغم المباحث والمناقشات الطويلة التى كانت بينى وبين الأستاذ العلامة الشيخ فرج السنهورى فى داره العامرة فى مصر وفى مكتبه فى وزارة العدل .

وأحكاماً فيها نص ، ولكن النصّ فيها كالفقرة الحكمية المبنيـة على (حيثيات) . أخذ قوم بالحكم وحده (وهم الذين كانوا يسمون بأصحاب الحديث) وقوم كانوا أبعد نظراً ، وأدق فهماً ، نظروا إلى (الحيثيات) والأسباب ، فلم يجعلوا الصاع من التمر فى مسألة المُصَرّاة هو القاعدة ، بل ثمن اللبن الذى أخذه المشترى من الضرع ، لأن النبى ﷺ ماحدد الصاع إلا لأنه كان عدلاً له ، ولعلّ من ذلك (فى رأيى) حكم الربا ، فى مبادلة القمح بالقمح مع الفضل ، فلقد كان ملاحظاً فيه أن القمح كله نوع واحد ، أفلا يتغير الحكم إن ثبت اليوم بالعرف العام أن القمح أنواع مختلفات بالخصائص والأثمان ؟

وأحكاماً مبنية على استقراء ، كتحديد أكثر الحمل بسنتين عندنا ولا يمنع مانع من تبديل هذه الأحكام إن ثبت بالاستقراء التام غير ما ثبت لدى الأولين بالاستقراء الناقص .

وأحكاماً مبنية على نص ، بوصف من الأوصاف ، لكن النص لا ينطبق عليها بوصف غيره ، كابن المحروم لا يرث من جده مع وجود الأعمام ، ولكن يعطى مثل نصيب أبيه (فى حدود الثلث) بوصف ذلك وصية واجبة .

وقد كان فى نفسى من ذلك شىء : كيف يحرم الله هذا الحفيد ونعطيه نحن ؟ وترددت قبل وضع هـذا الحكم فى مشروعى ، وجادلت الأستاذ السنهورى فيه جدالا طويلا ، ثم شرح الله صدرى ، حين ذكرت أن المسلمين الأولين كان يكفيهم الندب لإعطاء هذا الحفيد ، فلما قصر الناس فى أداء المندوبات ، كان من المصلحة أمر الحاكم الناس به . وكان فى ذلك تحقيق الإعطاء الذى أراده الشارع حين ندب إليه .

وأحكاماً مبنية على نص يقابله نص آخر ، وليس من مانع من الرجوع إلى النص الآخر ، كمسألة طلاق الثلاث بفم واحد .

وأحكاماً مبنية على اجتهادين : اعتبار مدلول اللفظ أو قصد المتكلم ، كمسألة الحلف بالطلاق أو استعماله للحث على فعل أو المنع منه ، ولا وجه لإيجاب أحد الاجتهادين حتما ، ومنع الآخر حتما .

وأحكاماً لم ينص عليها ، نستطيع أن نقرها سداً للذريعة كمنع المتزوج من الزواج مرة ثانية إلا بعد إثبات مقدرته على الإنفاق عليهما معاً ، وذلك خير من الإذن له بالزواج ثم الطلاق عليه لعدم الإنفاق ، أو تحقيقاً للمصلحة ، كمراعاة الكفاءة فى السن بين الزوجين ، وعدم الإذن بالزواج إن كان الفارق بينهما فاحشاً أربعين أو خمسين سنة مثلا ، أو إيجاباً لمندوب كأن تلزم من يطلق زوجته طلاقاً تعسفياً يؤدى بها إلى العوز والفاقة بتعويض فوق المؤجل يقدره القاضى .

* * *

هذه خواطر ما أردت بها الإحاطة بالموضوع ، ولكن فتح باب البحث فيه .

على الطنطاوى

قاضى دمشق

أهل الفتوى الأولون

قال ابن القيم فى أعلام الموقعين (١ : ٩) :

الذين حفظت عنهم الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ مائة ونيف وثلاثون نفساً ما بين رجل وامرأة .

وكان المكثرون منهم سبعة : عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود وعائشة أم المؤمنين ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر .

قال أبو محمد بن حزم : ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سفر ضخم . قال : وقد جمع أبو بكر محمد بن موسى بن يعقوب ابن أمير المؤمنين المأمون فتيا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى عشرين كتابا . وأبو بكر محمد المذكور أحد أئمة الإسلام فى العلم والحديث .

شعار المؤمن

السمع والطاعة للحق والعدل

بسم الله الرحمن الرحيم .

« يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم » .

آيتان محكمتان ، صـدرت بهما طائفة من الآى الكريمة ، هى فى جملتها رسالة الرحمة ، توجهها السماء إلى أهل الأرض ، مناشدة إياهم أن يفيئوا من السلام إلى ظل ظليل ، يمحو من بينهم أسباب النزاع والخصام ، ومذكرة إياهم برباط الوحدة الإنسانية ، التى تسمو على فوارق الأحساب والأنساب ، والأجناس والألوان «كان الناس أمة واحدة» .

ولقد كان من بالغ الحكمة وجميل التلطف فى أسلوب هذه الدعوة ، أنها قبل أن ترقى إلى هذا الأفق العالمى الرفيع ، صعدت إلى منتصف الطريق ، فاختارت من بين الأسرة العالمية الكبرى ، أسرة كبيرة هى أحق بالترابط والتراحم فيما بينها ، تلك هى أسرة المؤمنين بالأديان السماوية ، الذين يجمعهم مبدأ الإيمان بالله واليوم الآخر ، نظمتهم الآية الكريمة فى سلك واحد ، وجعلت تناشدهم أن يلموا شعثهم ، ويضموا صفوفهم تحت لواء السلام الشامل « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » .

° ° °

أول ما يعنى الباحث هاهنا ، هو الكشف عن حقيقة هذا السلام الشامل الذى يدعو القرآن إليه أهل الإيمان .

فنحن نفهم فى العادة من كلمة « السلم » معنى : كف الأذى ، وترك الشغب والفتنة ، ونبذ الحروب والخصومات ، وبالجملة معنى المسالمة فى معاملة الناس بعضهم بعضا ؛ وهذا معنى صحيح فى ذاته ، غير أنه لا يمثل من السلام إلا عنصره السلبى ، ولا يصور منه إلا قشرته السطحية ، ومظهره الخارجى ، وكثيرا ما كان هذا المظهر طلاء خادعا ، يخفى وراءه الداء الدفين ، والضغن الكمين ، وإنما السلام الحقيقى هو الذى يتقرر فى الآراء والعقائد ، قبل أن تحرر مواثيقه فى صكوك المعاهدات ، وقبل أن تطبق قواعده فى البر والبحر .

وكلنا نعلم أن القرآن الكريم ليس رسالة مدنية فحسب ، وأنه ليس كل همه تنظيم صور الحياة ومظاهرها ، وإنما هو قبل كل شىء تربية للعقول بالعقائد السليمة ، وتزكية

للقلوب بالمبادىء الفاضلة ، التي متى نبتت بين الجوانح ، أينعت ثمراتها الطيبة على اللسان والجوارح. أجل إنه ليس من سنة القرآن أن يكتفي في معالجة الأمور بذلك النوع من العلاج السطحي الجانبي ، ولكنه دائماً يأتي البنيان من قواعده ويسوس الأمر من باطنه وأعماقه : يمكن للخيرات والفضائل بغرس بذورها ؛ ويكافح الشرور والرذائل ، باقتلاع جذورها .

السلام الذي يدعو اليه القرآن ههنا ، هو إذاً شيء آخر ، أعمق من كل هذه المظاهر المادية : إنه فكرة حية ، وحقيقة روحية ، هو عقد وميثاق بين المرء وقلبه ، يلتزم فيه كل امرىء أن يكون متجاوبا حقا وصدقاً مع المثل العليا التي يؤمن بها ، بحيث لا يثور تمرداً على تلك المبادىء إذا خالفت هواه ، ولا يعرض عنها كلما تعارضت مع ميوله ورغائبه ، فالدخول في السلم هو الثبات تحت راية الحق في خضوع واستسلام ، والانقياد لقانون العدل ، في طاعة ونظام « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن » ، « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى » .

هذا هو لب المعنى وجوهره في لغة العرب ، وهذا هو حقيقة السلم ، وحقيقة الإسلام ، في لغة القرآن ، وهذا هو الدين الذي دعا إليه جميع الأنبياء ، وهذا هو الطريق الوحيد لنشر لواء الأمن والسلام بين الأمم والأفراد .

ذلك أنه لا يستقر أمن إلا في ظل الألفة والترابط ، ولا تدوم ألفة إلا على أساس مبدأ واحد ثابت ، ولا وحدة ولا ثبات إلا لمبدأ الحق الذي لا يتحول ولا يتعدد . وبضدها تتميز الأشياء . فليس على وجه الأرض فتنة وخصومة ، إلا كانت وليدة اختلاف ؛ ولا اختلاف يورث الخصام إلا أن يكون مبعثه تشعب الأهواء وتناقضها ، ولا تتشعب الأهواء وتتناقض إلا بمقياس بعدها عن جادة الحق ، وطريقه القويم : « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن » .

هذا ولقد علمتنا التجربة والملاحظة المتكررة ، أن كثيراً ممن عندهم أصل الإيمان ، لا يعوزهم اعتناق المبادىء ، ولكن يعوزهم الثبات عليها ، وأنهم لا يتقم عليهم رفض مبادئهم والارتداد عنها ، بقدر ما يؤخذ عليهم تجزئة هذه المبادىء وتفتيتها ، وتركهم الميول والأهواء تعترض سبيلها ، وتقيم الحواجز أمام تطبيقها على عمومها : « يحلونه عاما ، ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله » .

ومن هنا يعرف السر فى أن القرآن لم يكتف بمجرد الدخول فى السلم ، بل طلب أن يكون « كافة » عامة ، وأن يكون الإذعان لأمره إذعانا كليا ، شاملا كاملا ، لا قيود له ولا حدود ، ولا التواء فيه ولا استثناء . فتلك هى أنصاف الحلول التى يأباها القرآن ، وذلك هو مناط الذم ، الذى وجهه إلى كثير من أهل الأديان ، فنحن نراه - حين يضرب للناس أمثالهم - يعرف لنا المؤمنين الصادقين بأنهم هم الذين يعتنقون الحق جملة واحدة « : يؤمنون بالكتاب كله ولا يفرقون بين الله ورسله ؛ وهم الذين إذا شرعت لهم القوانين العادلة لم يتبرموا بها ، ولو كان فيها ما تكرهه نفوسهم . ولم يتهربوا منها ، ولو كان من ورائها نقص شىء من حظوظهم وأمانيهم « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا : سمعنا وأطعنا » وفى ذلك يقول الرسول الكريم : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية » .

أما الذين فى قلوبهم زيغ ، فقد وصفهم القرآن بأن كل شىء عندهم منقسم : عقائدهم ، ومعاملاتهم ، وأحكامهم ، فأما فى عقائدهم فإنهم يؤمنون ببعض الحق ، ويكفرون ببعضه ، وكلما جاءهم داعى الحق بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، ففريقاً كذبوا ، وفريقاً يقتلون . وأما فى معاملاتهم فإنهم إذا لزمهم الحق لم يؤدوه إلا مكرهين ، « وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين » . وأما فى حكمهم على الأشياء وعلى الناس ، فإنهم لا يحمدون إلا الناحية التى يهب عليهم منها ريح الغنيمة : « فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » .

على أن الذى يذعن للحق فيما يرضيه ، ويعرض عنه فيما يسخطه ، ليس فى الحقيقة مذعناً له فى واحدة منهما ، ولكنه مستسلم لهواه فى كلتا الحالين .

ومهما يكن من أمر ، فإن التمرد على الحق كلا أو بعضا ، لا يمكن أن يكون نزعة من نزعات الإيمان ، وإنما هو نزغة من نزغات الشيطان ، لا جرم حذرنا الله منه أشد تحذير ، حيث قال - جل شأنه - : « ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، إنه لكم عدو مبين » ، فكان صدر الآية تبصيراً بطريق الهداية ، وعجزها تحذيراً من طرق الغواية .

وهكذا كل قيادة حكيمة ، تبدأ بالبيان والإرشاد ، وتثنى بالنصح والتحذير ، فإذا أصر الناس على العناد بعد أن تبين لهم الرشد من الغى ، لم يبق إلا أن يؤخذوا بالحزم والعزم ، وآخر الدواء الكى : « فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ، فاعلموا أن الله عزيز حكيم » . وصدق الله العظيم .

محمد عبد الله دراز
عضو جماعة كبار العلماء

من صور القوة في القرآن

ما أعذب الماء البارد على شدة الظمأ ! وما أجمل القوة العادلة عندما تنساب برداً وسلاما فتحسم المظالم النازلة على الأفئدة الكسيرة ، وتطفىء الآلام التى برحت بالمظلومين والمستضعفين . . .

إنه لا يعرف فضل القوة المؤيدة للحق إلا من شقى تحت وطأة الطغيان دهراً طويلا ، إنه يستقبل طلائعها استقبال المقرور للدفء ، واستقبال الحيران للإلف ، إنه يعتبر زحفها بوارق الصبح تشق جنح الظلام ، ومعالم اليقظة تغزو البصائر والابصار . . .

وسلنا نحن — الذين طالما ناشدنا المستكبرين أن يتواضعوا ، والغاوين أن يرشدوا — سلنا نحن — الذين طالما ناشدنا الظالمين أن يعدلوا ، والعابدين لانفسهم وهواها أن يوقروا ربهم ودينه — سلنا نحن — الذين بحت أصواتنا فى التذكير بآيات الله والحكمة ، فلم نجد إلا صداً وعلوا ، وحمقاً وعتواً — سلنا : كم تكون الفرحة ملء جوانحنا حينما نجد السيف قد قوم الصعر ، وأدب البطر . . . وأكره الطاغوت أن يتضاءل ويتطامن ، ويستمع للحق الذى كان يصم أذنيه عنه ، ويستسلم للقصاص الذى كان فى منجاة منه . . .

ما أنبل القوة العادلة عندما تحق الحق وتبطل الباطل ، بعد ما كادت النفوس تزهق من باطل لبس مسوح الحق ومشى فى الأرض مطمئناً ، ومن حق علته زراية الباطل فتوارى عن الأعين مخذولا ضائعاً . . . !!

إن القوة التى تقيم بين الناس الموازين القسط هى ما أمر الإسلام بإعداده ، وحض على بذل النفس والنفيس فيه .

وفى القرآن سورة يصح أن توضع آياتها فى إطار من المدافع المتشابكة والقذائف الملتهبة . لانك تلمح فى كلها القوى صورة الصراع الدامى بين جند الرحمن ، وجند الطغيان ! وترى الفريقين وقد ارتجت من تحتهما الارض ، وثار من فوقهما النقع ! ثم انجلى القتال بعد ما كتب النصر لاهدى الفئتين وأرضاهما لله ، فتذكر قول الشاعر :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر ... وأمدكم فلق الصباح المسفر !

وجنيتم ثمر الوقائع يانعا ... بالنصر من ورق الحديد الأخضر !

أما هذه السورة فهى سورة (العاديات) .

بدأت بوصف رائق لخيل المجاهدين وهى تنطلق بأصحابها إلى الميدان ! إنها تركض حثيثا إلى غايتها ، تنهب البر وتخرق الريح ، وبصدورها علو وهبوط من تتابع الأنفاس واطراد العدو ، وفوقها فرسانها المغاوير يتسابقون إلى لقاء العدو ...

كأنهم فى ظهور الخيل نبت ربا   من شدة الحزم لامن شدة الحُزُم

ذاك ما أخذت السورة تصفه . فجاءت آياتها على هذا النسق « والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحا . فالمغيرات صبحاً . فأثرن به نقعا . فوسطن به جمعاً » .

فإذا أحسست ضبح الخيل من طول لهثها ، أحسست كذلك انقداح الشرر تحت سنابكها وهى تضرب الصخور فى طريقها إلى ضرب المبطلين ، وتورى النار التى سوف تحرق وتضيء ، تحرق جلود الطغاة ، وتضيء سبل المعذبين المقهورين .

ثم تجيء بعد ذلك غارة الصباح ، وماغارة الصباح ؟ إنها الضربة المفاجئة تنزل بالغاوين على حين غرة فيستيقظون من غفلتهم على مس العقاب ، ولات حين مناص .

إنهم ظنوا أن الدنيا دانت لهم ، وأن الأوضاع استقرت تحت أقدامهم ، وأن الفضائل التى طاردوها لن تجد من يحميها ، وأن الرذائل التى ألفوها لن تجد من يدوسها ، فناموا ، وهم آمنون ! بيد أن للحق حراساً تسهدهم الآلام ، ويؤرقهم مايلقاه الحياة من عبث الطواغيت بأقدار العباد والبلاد ، إنهم يتحينون الفرص ، حتى إذا سنحت انقضوا على المجرمين انقضاض الصواعق ، فإذا الليالى تتمخض عن المغيرات صبحا ، يطالع الناس أنباءها مع مطالع الفجر .

حدث قديما قتال بين المسلمين واليهود . فزحف النبي ﷺ ليلا بجيشه على حصون خيبر ، فصحا اليهود مع الفجر ، ورأوا الصحابة محيطين بهم . فقالوا : محمد والخميس ! فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، هلكت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين !

إن العاديات المغيرات مع الصباح ليست جيوش استغلال ونهب ! إنها القوة جاءت مع موكب النور لتحرير العبيد من أوهام الظلام ، ولتحقق الهدف الأسمى من نزول القرآن « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، بإذن ربهم ، إلى صراط العزيز الحميد الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض » .

وإذا انطلقت القوى العادلة من مكامنها لتؤدى رسالتها فإن الاصطدام بالجموع المتألبة المتحزبة ، وثوران النقع فى جو المعركة هو أول ما يتبادر إلى الذهن ، ذلك أن الباطل المستعلن بفجوره ، المستغرق فى غروره ، لا يتخلى عن ضلاله القديم بسهولة ، وربما تفانى فى التشبث بآثامه وأوزاره !

ومن ثم فلن يستطيع تأديبه إلا رجال لهم جرأة فى الحق تربو على جرأة عدوهم فى الباطل ، ولديهم حرص على التضحية فى سبيل الله أشد من حرص أعدائهم على المغامرة والسطو ، والاحتفاظ بمكاسبها الحرام ...

ونحن إذا راقبنا سير الطغاة فى الأرض وجدنا السيادة التى يظفرون بها أول أمرهم لا تعود إلى خصائص القوة فى أنفسهم قدر ما تمدد إلى آثار الوهن فى صفوف غيرهم ...
حتى إذا رزقت المثل العليا بأتباع من أولى النجدة والفداء ، لم تلبث الحياة أن تعود إلى رشدها ، ولم تلبث الأصنام المقدسة أن تستحيل إلى أنقاض مبعثرة فى الرغام ... !!

وكيف تتم هذه الآيات الباهرة ؟ تتم بالقوة وحدها حين تنجد الحق المهزوم والخير المكلوم ... فلا عجب إذا أقسم القرآن بأدوات هذه القوة ومجد طريقة عملها « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا ، فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا » ...

إنه أقسم بصرامة الدواء على شدة الداء . أجل . فربما كان استخدام القوة عملا ينطوى فى ظاهره على خشونة وقسوة . لكن هذه الخشونة وتلك القسوة تعتبران برا كريما وفضلا عظيما يوم تكونان علاجا للكنود والعدوان والتبجح ، وكم ابتليت الحياة بمن ملأ فجاجها بهذه الخلال الخسيسة فحولها جحيما تشقى فيها الأفراد والجماعات ...
فكيف النجاء من هذه الكروب إلا بالقوة العادلة ، القوة التى تجعل الشاعر يقول :

إذا الملكُ الجبار صعَّر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه !

وعلاج الجبروت بالسيف عدالة تحمد لأصحابها فى الأرض والسماء .

وقد أقسم الله بالعاديات وما وراءها على هذا المعنى إذ قال : « إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد » جحود حق الله ، والمغالنة بذلك ، والاستئثار دون الناس بالخير : هذه هى أسباب الفساد التى يجب أن تستأصل . ولن تستأصل بالنصح والإرشاد إلا إذا كانت رذائل فردية هينة ، أما إذا قام لها ملك ، وشرعت لتدعيمها رماح ، فلا يفل الحديد إلا الحديد .

وكان الإسلام يود لو أنصف الناس من أنفسهم بالعقل والحكمة ، بدل أن يلتزموا الإنصاف بالقهر والعنف ، غير أن غرائز السوء غلبت فلم يبق من قمعها بدٌّ .

والأديان لا تحمل السلاح إلا مكرهة ، وأنبياء الله كافة كانوا يتمنون لو استمسك الناس بفضائلهم ، وتعرفوا إلى ربهم وكرسوا حياتهم فى شكر أنعمه ، وأحيوا ضمائرهم بمراقبته ، وأحسنوا الاستعداد للقائه .

فلا غرو إذ اختتمت هذه الصورة العسكرية بمناشدة الإنسان أن يلتزم هذه المعانى الطيبة النبيلة . « أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور . وحصل ما فى الصدور . إن ربهم بهم يومئذ لخبير » .

والحق أنه لو توفرت بين الناس الصدور السليمة ، وتركزت فى قرارة أفئدتهم حدود الثواب والعقاب ، فإنه لن يكون ثم مكان للحرب والضرب ، أما مع طغيان الأثرة وانفلات الزمام فسيبقى العالم محتاجا إلى القوة التى تقر العدالة ، العدالة والنظام ، مثل حاجته إلى الشراب والطعام ! ! وسنرى أنفسنا منساقين إلى تمجيد هذه القوة الكريمة ؟

محمد الغزالى

من التوجيه المحمدى :

المسلمون كما يريدهم الإسلام

فى كتاب البر والصلة والآداب من صحيح مسلم (٨ : ١٠ الطبعة السلطانية) من حديث أبى سعيد مولى عامر بن كريز عن أبى هريرة قال :

قال رسول الله ﷺ : « لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا .

« المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره .

« التقوى هاهنا (ويشير ﷺ إلى صدره ثلاث مرات) . بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم .

« كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » .

الحديث النبوي
مقاصده ، ألفاظه ، معانيه

أردت أولا أن أجعل موضوع هذا البحث (البلاغة النبوية) فقط ، ولكني رأيت ذلك لا يشمل الحديث عن مقاصد الكلام النبوي الكريم ، وما فيه من توجيه صالح وثقافة تهذيبية وإرشاد سام يشبه النفس العظيمة التي صدر عنها ، ويرتفع بمستوى النفس البشرية عن كل رعونتها ، حتى يصل بينها وبين السماء بأقوى وصلة وأحكم رباط . وذلك شيء يفوت عليّ وعلى القارىء الكريم فرصة حبيبة إلى كل نفس مسلمة ، فإن الحاجة إلى التأنق بين رياض الإسلام ومقاصده الشريفة يتجلى في موضوعات حديث صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، ليست أقل من الحاجة إلى معرفة البلاغة النبوية على سمو هذه المحاولة فإنها ناحية فنية كمالية لا يتطرق العوز بها إلى كل شخص ، فأما مقاصد الإسلام فإنها ضالة كل إنسان في الوجود ، والتعريف بها ولو على وجه كلي مجمل توجيه إلى كل فرد وكل جماعة وكل أمة كيف تسلك سبل النجاة والرفعة في دينها ودنياها من أقرب طريق وعلى أصح وجه .

وأظن أن القارىء الكريم في غير حاجة أن يعلم أن معنى البلاغة النبوية شيء خاص يرجع إلى دراسة الألفاظ ومزاياها في دلالتها على معانيها وما فيها من صفات وجازة أو بسط ، وتقديم في الأسلوب أو تأخير أو حذف وفصل بين الجمل أو وصل ، وما إلى ذلك من أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال كما يقولون . وذلك شيء في ذاته يجرى مع كل عرض سما أو نزل . ويقع في الهجر والإثم كما يتحقق مع الحق والحكم ، ويكون مع الحطيئة والفرزدق أقوى مما يكون مع الحسن البصري أو الحسن بن علي أحيانا .

لهذا جعلت موضوع هذه المحاولة (الحديث النبوي) من جميع نواحيه سواء منها ما يتصل بأغراضه ومقاصده ، وما يتصل بألفاظه وبلاغتها ، وما يتصل بمعانيه وامتيازها في لطفها مع بساطتها ، وعلوها مع دنوها ، ويسرها مع اعتياصها على محاولها . وسترى تصوير ذلك كله مقربا ميسرا إن شاء الله .

فأما موضوع الحديث النبوى ومقاصده ، فإنها رسالة الإسلام العظمى التى قامت على هداية الناس ودعوتهم إلى ما يرفع مستواهم ، ويصلحهم فى دينهم وآخرتهم ودنياهم من أقرب الطرق وعلى أصح الوجوه ، ذلك هو سبيل الكلام النبوى الشريف : لا ينطق عن الهوى ، ولا يلفظ العوراء ، ولا يقرب الخنا حتى إنه كان إذا مزح لا يقول إلا حقاً ، وإذا أراد إخفاء أمر عرض فى قوله فكان صدقا ، يقول فى بعض حديثه « إن فى المعاريض مندوحة عن الكذب » .

لقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، فكان الخير يتضوع من جميع جوانبه ونواحيه ويتمثل فى قوله كما يتجلى فى فعله . وكان يأبى إلا أن يكون مشرعا أميناً وناصحاً مبيناً . فهو يتوقف عما لم يوح به إليه فى مقام التعليم ، ويقول لمن سأله عن الحجج : أفى كل عام يا رسول الله ؟ « لو قلت نعم لوجبت ولم تستطيعوا . إذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، فإنما أهلك من قبلكم كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم » .

وليس معنى ذلك أن كلام النبى صلى الله عليه وسلم كان وحيا كله ، ولا أنه كان تشريعاً فى جملته وتفصيله ، فإنه صلى الله عليه وسلم كانت له ناحية البشرية التى تحقق له بعض الملذات وتمتعه أحيانا بالطيبات ، يقول القول أحيانا فلا يمضيه لأن الله يصرفه عنه إلى ما هو خير منه . وذلك هو معنى العصمة فى جانبه صلى الله عليه وسلم ، ولهذا يقول صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى رواه مسلم وغيره عن رافع بن خديج : « إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من دنياكم فإنما أنا بشر » .

وهذا شىء لا أريد أن أخوض فى تفصيله ولا هو من شأنى الآن ، إنما أريد أن أصور أن حديث رسول الله فى جوانب الخير ونواحى الإصلاح ، وأنه لم يكن يتناول من الموضوعات إلا ما يتفق مع سمو شخصه ، ويتناسب مع رسالته . وإنه وصف فى التوراة والإنجيل بما يحقق فيه الأسوة الصالحة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، لا يقابل السيئة بمثلها ولكن يعفو ويصفح . ووصف فى القرآن الكريم بقول الله سبحانه « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » . ووصف فى السنة بأن مجلسه لا تؤبن فيه الحرم . وأنه لا يسمع القبيح ولا يقره ، فحال أن يصدر عنه . ومن

شاء فليتابع كل ما نقل عنه الناقلون فى أخباره وسيرته ، هل يرى فيها إلا ما يشبه رسالته ويناسب صفته ، من قول صالح وعلم نافع .

موضوع السنة النبوية الكريمة إذاً هو كل ما تشتهيه النفوس السليمة مما يدعو إلى تقوى الله ، وصلاح المجتمع ، ومقاومة كل رعونة فى الأرض من ظلم وبغى ، أو حسد ، أو مكر أو سقم فى العقل ، تقع فيه روضات فيح وجنات ، وتزكية من الضلالات ، فإنك فى حديثه ومع سنته كصاحب المسك : إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد ريحاً طيبة .

وإليك بعض الصور من تلك من المقاصد السامية والأغراض الكريمة :

من أغراض السنة الكريمة بيان دعوة المرسلين جميعاً من عبادة المستحق للعبادة وهو الله وحده . وإفراده سبحانه بكل مظاهر التعظيم ، وإخلاص الأعمال كلها لوجهه .

فما جاء فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا » ، « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » .

وعن مالك بن عوف الأشجعى قال : « كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ألا تبايعون رسول الله ؟ فبسطنا أيدينا وقلنا : علام نبايعك يا رسول الله ؟ قال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلوا الصلوات الخمس (وأسر كلمة فى خفية) قال : ولا تسألوا الناس شيئاً . فلقد رأيت أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه » . وهذا الغرض أساس الإسلام ومحور الدين الكريم .

ويتصل بذلك الدعوة إلى عزة الإسلام ، وعدم الخضوع والذلة لمخلوق أيا كان .

وفى ذلك يقول صلى الله عليه وسلم لابن عباس « يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو أجمعت على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك .

ومن أغراضه الكريمة مقاومة خرافات الجاهلية وجهالاتها من التفاوت بين الناس ، ونظام الطبقات ، واعتداء القوى على الضعيف ، وما إلى ذلك مما أشاعته الفوضى والجهالة بلا عقل سليم ولا منطق مفهوم ، وما أكثر هذا الغرض فى السنة ، كقوله صلى

الله عليه وسلم « أنها كم عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، ووأد البنات ، ومنع وهات ، إن الله تعالى قد رفع عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، دعوا دعوى الجاهلية ذميمة . لا حمى إلا لله ورسوله ، لا عدوى ولا صفر ولا هامة ، من أتى منجماً أو كاهناً أو عرافا فقد كفر بما أنزل على محمد . من حلف بغير الله فقد أشرك . الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

ومن أغراضه الكريمة الدعوة إلى مكارم الأخلاق من العدل والإحسان بين الأخ وأخيه وبين الراعى والرعية وتعهد بعض الناس لبعض بمعونة الضعيف وإغاثة اللهفان ، وإطعام الجائع وكسوة العارى ، ومن بسطة الوجه وحسن الخلق وتوطئة الأكناف وكل ما يبعث على المحبة ويغرس الألفة والمودة ، حتى يعيش الناس إخوانا متصافين يشيع فيهم السلام والوئام فيعبدوا الله ، ويسعدوا فى هذه الحياة ، مما لو أخذ العالم ببعضه لكانت الدنيا جنة لأهلها . لا جحيما كعهدك اليوم بها .

وإليك بعض ما فى السنة الكريمة من ذلك :

« كل سلامى من الناس عليه صدقة . كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة وتعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، ودليل الطريق صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » .

ألا بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما تركت بابا من الخير فيه سعادة إلا وجهت إليه ، ولا تركت بابا من الخير فيه مساس بإنسان أو حيوان إلا نهيت عنه .

وفى الصحيح أيضاً « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

« ما من مسلم يزرع زرعا أو يغرس غرسا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة » .

« إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فليسعهم منكم بسطة الوجه وحسن الخلق » .

« إن أحبكم إلى وأقربكم منى منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون . وإن أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون » . وما أكثر ذلك الإرشاد والرشاد فى السنة المحمدية .

وهو صلى الله عليه وسلم يحث على احترام حقوق المسلم ، ويحرم دمه وماله وعرضه ويقول : « من قطع رجاء أخيه قطع الله رجاءه » . « إذا أشار الرجل على أخيه بالسلاح فهما على حرف جهنم » .

وهو صلى الله عليه وسلم يوصى بالمرأة ، وينفى ما كانت عليه الجاهلية من إهدار آدميتها ، ويرفع من شأنها ، ويأمر بمراقبة الله فيها فيقول فى بعض ما يحدث :

« ألا فاستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان ، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » .

ومن أغراضه الكريمة التزهيد فى الدنيا حتى تصفو النفس وتستقبل المكارم ، وحتى يتحاب الناس ويعرف بعضهم حق بعض . فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك . ابن آدم لا بقليل تقنع ولا بكثير تشبع . ابن آدم إذا أصبحت معافى فى بدنك آمناً فى سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء . ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس » .

ولو أننى ذهبت أتتبع ما جاء من أغراض فى التشريع الصالح ، والإرشاد المنقذ الشامل ، لخرجت عن القصد ، ولما استطعت . فإن موضوع ذلك الأسفار الضخام من كتب السنة الكريمة . ولكننى بصدد الإشارة بسمو غرضه ، والإشارة إلى بعض اتجاهه وتوجيهه ، وبيان أن كلامه صلى الله عليه وسلم أسمى كلام فى مقاصده ، كما أنه أسمى شىء بعد كلام الله فى بلاغته . فلأدع المجال للتحدث عن سمو لفظه ومعناه . فى مقام آخر إن شاء الله .

محمود النواوى

العربية بين الجزر والمد

تتصارع اللغات وتتطاحن كما يتصارع الأفراد ويتطاحنون سواء بسواء ، ولكن صراعها وتطاحنها لا يكون عادة واضح المعالم سريع النتائج ، بل هو صراع بطيء هين فى سريانه رغم عنفه وجبروته . طبيعة ركبت فى اللغة كما ركبت فى الأفراد ! ولا غرو فان حياة اللغة رهينة بحياة الأفراد .

وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة أن المنازعات والحروب التى تقوم بين الشعوب والجماعات هى السبب فى ذلك الصراع الذى يقوم بين اللغات . وهذا فى الواقع صحيح ولكنه ليس كل السبب ، بل هو سبب يصح أحياناً ولا يصح أخرى ، والمرجع فى ذلك إلى مدى قوة اللغتين المصطرعتين : لغة الغازين ولغة المغزوين . والمد الذى حدث للغة العربية فى فارس ومصر أوضح مثال على ذلك ؛ فالعربية - وإن تفاعلت مع الفارسية تفاعلا لم يمح الفارسية شخصيتها (نحوها وصرفها وتركيب عبارتها) - قد استطاعت فى مصر وفى زمن وجيز نسبياً أن تطغى على لغة المصريين طغياناً عارماً وأن تفرض نفسها عليهم .

ولكن يبدو أن هذا هو أوضح ألوان الصراع بين اللغات . وسببه المباشر هو الحروب ، غير أن هناك أسباباً أخرى غير الحرب تؤدى إلى ذلك الصراع بين اللغات ، وهى أسباب مادية جديرة بالملاحظة ، وهى تعمل عادة فى شبه خفاء ، وهى بطيئة الأثر بطيئة النتائج . ولعل السبب فى هذا البطء أن صراع اللغات الناشيء عن صراع الأفراد يقطع مرحلة حاسمة على أيدى المصطرعين أنفسهم ، فيفرض الغازون لغتهم على المغزوين مثلا أو يستدرجونهم إليها بشتى الوسائل .

أما فى حالة الصراع الناتج عن غير ذلك من الأسباب ، فإن عملية الفرض هذه أو الاستدراج لا يكون لها وجود ، وتكاد تقف اللغتان المصطرعتان وحدهما فى الميدان دون عامل خارجى ملزم من الأفراد . وهنا يكون التطاحن اللغوى بالمعنى الصحيح . وهنا تتغلب اللغة أو تنهزم وتفتح صدرها للغة الغازية تبعا لمدى قوتها ومدى إمكانياتها العقلية والمادية على السواء .

ولعل من أهم أسباب اصطراع اللغات ، الحالة الفكرية والاقتصادية والدينية والاجتماعية للشعوب المصطرعة لغاتها ، فتقدم الحياة العقلية فى أمة من الأمم عامل كبير فى نشر لغتها وتسربها بين صفوف اللغات الأخرى فى الأمم التى تقل عنها فى مستوى الحياة العقلية . واليونان والرومان شاهد على ذلك ؛ فقد كان اليونان فى الذروة من التقدم الفكرى ، بينما كان الرومان فى مستوى فكرى منحط ، ولذلك فإن أثر العقل اليونانى فى العقل الرومانى

واضح لا ينكر ، ومن الشائع فى كتب التاريخ والحضارة أن الرومان فتحوا اليونان عسكريا بينما غزاهم اليونان عقليا . وهنا يتضح لنا إلى أى مدى يصح القول بأن الحروب هى السبب كل السبب أو السبب الأصيل فى تغلب لغة على أخرى ، فقد رأينا المغزوّين ينهزمون أمام الغازين فى ميدان الحرب حقا ، ولكنهم ينتصرون عليهم فكريا .

وأما الحياة الاقتصادية فان عامل التجارة له أثر لا يخفى فى احتكاك لغة المتّجرين ، وإذا تصورنا بلداً قفراً مجدبا يعتمد أهله على ما تنتجه البلدان الأخرى ، وإذا تصورناهم يرحلون إلى هذه البلدان يشترون ما يلزمهم ، فإنه يكون من السهل علينا أن نتصور أيضا إلى أى حد تشيع لغة أهل هذه البلدان فى لغة أهل ذلك البلد . ذلك أنهم سينقلون إليهم البضائع بأسمائها كما وضعها أهلها .

وإذا تصورنا هذه البضائع لا على أنها الأشياء التى تؤكل فحسب بل على أنها كل مايلزم الإنسان فى حياته من أدوات منزلية ، وفى حقله من آلات زراعية ، وفى حربه من معدات حربية ، وما يلزمه لحياته الصحية من أدوية وعقاقير ، وما يلزم حياته المترفة من وسائل الترفيه . . . الخ ، إذا تصورنا ذلك سهل علينا أيضا أن نتصور كمية الألفاظ التى يستخدمها المستوردون بالضرورة من لغة المستورد منهم . وإذا عرفنا أن تفكيرنا دائما يحتاج إلى المحسوس يركب منه صوره العقلية ، وأن يختار هذا المحسوس من الأشياء الواقعة بيننا الملابسة لحياتنا ، استطعنا أن ندرك مدى خطورة العامل الاقتصادى فى صراع اللغات .

ثم يأتى عامل الدين ؛ وهو عامل لا يقل عن العاملين السابقين أثرا فى صراع اللغات . فلكى يفهم الإنسان دينا من الأديان يحسن به أن يعرف لغته ، ولكى يدخل الإنسان فى دين من الأديان يعتقد عقائده ويؤدى شعائره ، يتحتم عليه أن يتقن لغته . وهل كسبت العربية من غلبة وانتشار فى الشرق والغرب ، وما زالت تمارس هذا الكسب ، بغير عامل الدين ؟

وفيما يختص بالعامل الاجتماعى فإن اللغة ظاهرة اجتماعية من الطراز الأول ، وحياتها من حياة المجتمع الذى تعيش فيه ، تصطبغ بكل ما يطغى عليه من مبادىء وما يجرى فيه من تيارات . والمجتمع الزاخر بشتى ضروب الحياة ، الذى تأصلت فيه الطبائع واستقرت فيه العادات ورسخ فيه العرف ، يمنح لغته نوعا من التماسك والقوة والثبات ، لا يمنحه المجتمع المتهافت المفكك المختلف العناصر المتضارب المشارب للغته .

والعرب حين فتحوا الأندلس مثلا لم يكن فيها شعب واحد من جنس واحد وديانة واحدة . . . بل كان هناك أجناس مختلفة وعقائد مختلفة وألسنة مختلفة ، فلم يكن بينها تماسك ، ولم تكن وحدة سياسية متعاونة متآزرة . ولذلك سرعان ما استقرت لغة العرب هناك وظهرت غلبتها .

وأيا ما كان الأمر فإن صراع اللغات وإن اعتمد على مثل هذه العوامل والأسباب التى تعد خارجية بالنسبة للغة ، أى خارجة عن نطاق اللغة ، فإن الذى لا شك فيه أن هناك أسبابا أخرى تنبع من طبيعة اللغة ذاتها التى تنزل الميدان . وطبيعة اللغة هنا هى بعبارة أخرى عبقرية اللغة . وعبقرية اللغة هى مجموعة الصفات والخصائص التى تتميز بها لغة عن أخرى . وتتحدد هذه الصفات فى نحو اللغة وصرفها وتركيب عباراتها وفى تاريخ تطورها . ثم هناك صفات أخص من هذه وإن لم تكن تقل أهمية عنها كالناحية الصوتية (نظام المقاطع والحروف وعددها فى الكلمة وعدد الأصوات المستخدمة سواء من الحروف المفردة كالحرف S فى الإنجليزية مثلا ويقابله حرف السين ، أو المركبة كالحروف Sh فى الإنجليزية و Sch فى الألمانية وهى تقابل حرف الشين فى العربية) . وهناك أيضاً الناحية الفنية وهى ما نستطيع تسميتها بذوق اللغة . فهذا الذوق يقبل أن يرفض من الألفاظ الطارئة ما يتماشى معه أو ينبو عنه . فإذا كنا نجد الأذن الألمانية مثلا ترتاح لصوت حرف الـ G المتكرر ثلاث مرات فى كلمة قصيرة مثل Gegangen (ججانجن) فإن الأذن العربية تنبو عنه وتنفر منه ولا تفكر فى استخدامه .

هذه العوامل الداخلية ، أى التى تنبع من صميم اللغة هى ما سميناه بإمكانيات اللغة فى بداية هذا البحث . وهذه العوامل الداخلية متضافرة مع العوامل الخارجية التى سبق بحثها من فكرية واقتصادية ودينية واجتماعية هى التى يجب مراعاتها وبحثها عندما نحاول الكلام عن تاريخ الصراع الذى قامت به لغة من اللغات جزراً ومداً .

واللغة العربية كما نعرفها لها نشاط واسع النطاق بعيد التاريخ فى ميدان الصراع اللغوى ، ويكفى أن نعلم - وهو بلا شك معلوم لدى الجميع - أنها هى الخلاصة التى نتجت عن صراع محلى ، هو ذلك الصراع الذى شهدته اللهجات العربية المختلفة التى كانت سائدة فى شبه الجزيرة قبل الإسلام ، وهذا الصراع المحلى لا يختلف فى عوامله وأسبابه عن ذلك الصراع الخارجى أو العالمى للغات ، ولكن ربما لا يكون معلوما لدى الجميع أن فى هذه اللغة ، مأثوراً كبيراً دخل إليها فى حالة من حالات الجزر التى تصيب اللغة ، وهذا المأثور لا يقتصر على المفردات كما قد يتبادر إلى الأذهان بل يمتد إلى أركان الجملة . وهناك محاولات جريئة يقوم بها الدكتور فؤاد حسنين تقوم على المقارنة بين اللغات السامية القديمة السابقة للعربية فى صورتها الأخيرة لتبين مدى ما أخذته اللغة العربية من تلك اللغات من خصائص وصفات ، وقد حاول جويدى Guidi فى كتابه « بلاد العرب قبل الإسلام

L'Arabie Antéislamique ، أن يقدم أمثلة على مدى أخذ العربية من اللغات الأخرى . فهو يذهب إلى أن حضارة البيزنطيين والفرس وبذخهم أيضا كانا متغلغلين فى شبه الجزيرة يؤكد ذلك ما اصطنعه العرب عن هذين الشعبين من كلمات ، ولكن اللغة العربية لها خاصية عجيبة فى تعريب الكلمات الأجنبية ، فكلمة صلدى Soldi (Sous) الإيطالية تجمع على صلادى ، وهى صيغة عربية خالصة ، من الصعب أن تعرف منها الكلمة الأجنبية ، وهذا يدلنا فى الواقع على استقرار نظام الصرف فى هذه اللغة بحيث لا يؤثر فيها نظام صرف اللغة المأثورة . فإذا كانت الكلمات الطارئة من أصل سامى شديد الشبه بالعربية تضاعفت صعوبة القول بما إذا كانت دخيلة أم أصلية .

ويذهب جويدى إلى أن العرب البدو كانوا يحقرون الزراعة ، ومن هنا كانت الكلمات التى تتعلق بالزراعة من أصل آرامى ، ومن أمثلتها كلمة « نير Nîr » أى مقرن البقر وكلمة « ناطور » أى حارث الكروم وهى فى الآرامية Natorâ وكلمة « فدان » وغيرها . ومما ورد إلى العرب من الخارج كلمة « بندق » وهم يجمعونها على بنادق كأنها أصيلة فى العربية وليست هى غير النكس بنتيكا وتكتب Nux pontica المعروف فى مملكة بنت ولذلك سمى باسم إقليمه الأصلى ، وقد صارت بنتيكا فى الآرامية إلى بنداق وفى العربية إلى بندق ، ومثل ذلك كلمة «زيتون» جاءت عن الآرامية ، وعنها أيضا جاءت كلمة قنديل وأصلها اللاتينى Candela صارت عند الإغريق كانديلا ، ومثل ذلك كلمة سراج وكلمة نبراس .

وهذا كله يدلنا على الأثر الاقتصادى فى حياة اللغة العربية وفى تاريخ صراعها ، حتى إذا تبلورت العربية فى صورتها الأخيرة وأصبحت اللغة السائدة ، وتم لها نظام نحوى وصرفى ومحصول لغوى كامل ، امتدت مع فتوحات المسلمين شرقا وغربا واستقرت فى البلدان المفتوحة بفضل الدين الجديد وبفضل أهلها ، وإن انتهى بها هذا الصراع إلى أن تتشكل فى كل أمة إلى حد كبير بحسب مزاجهم اللغوى واستعدادهم ، ولم يعد العرب - كما يقرر جويدى - يتطلبون عند الشعوب الأخرى لا الأفكار الدينية ولا الحياة المترفة ولا المنتجات الصناعية ، ولكنهم يتطلبون لديهم شيئاً واحداً هو العلم اليونانى ، وينتقل هذا العلم إلى العرب فى عهد المنصور وهارون الرشيد ، وعلى وجه الخصوص فى عهد المأمون ، ينقله العلماء السريان الذين كانوا همزة الوصل « مثل حنين بن اسحق وقسطا بن لوقا » وغيرهم . وقد عمل تأثيرهم الفكرى فى علماء المسلمين بسهولة ، وذلك بفضل التسامح الذى كانوا متمتعين به بمقتضى الذمة ، مما سهل اتصالهم بالمسلمين ، وصارت الرياضة والنجامة والطب والفلسفة موضع

دراسة العلماء العرب . وشخصيات الكندى والفارابى وابن سينا والرازى والفرغانى والبتانى وابن رشد مشهورة فى الشرق كما فى الغرب الذى صارت فيه أسماؤهم :

Alfraganus, Rhasé's, Avicenne Averrhoe's, Albatignius.

ويؤثر العرب الآن بدورهم فى أوربا نفسها التى أفادت من مؤلفاتهم مثلما أفادت من منتجاتهم الصناعية : فقد أدخلوا فى إسبانيا وصقلية كثيرا من النباتات النافعة ، كما أرسلوا إلى الغرب الأقمشة والمنتجات الثمينة المعروفة بأسمائها العربية. وكلمة « قصر » العربية هى Castrum اللاتينية صارت إلى كاسترون اليونانية ثم صارت إلى قسطرا فى السريانية وإلى قصرا فى الآرامية الغربية ، ومنها «قصر» العربية . ثم تنتقل قصر العربية إلى كيرسرو Cassera فى الإيطالية وألكازار Alcazar فى الاسبانية .

والكلمات التى من أصل عربى كثيرة فى اللغات الأوربيسة المعاصرة . ومن أمثلتها كلمات : Alcôve وهى فى العربية القبة ، وموسلين Mousseline هو اسم الحرير المنسوب للموصل ، وكلمة Drogman « هى » ترجمان العربية ، وكلمة Cup هى « كوب » العربية .. الخ .

حدث كل هذا فى فترة المد اللغوى للعربية . ولكن الذى لاشك فيه أن هـذا المد قد توقف منذ عدة قرون ، فتوقفت الحياة العقلية أو كادت وأصاب اللغة ركود وخيم وصلت فيه الى حالة من الجزر والانحسار والانقطاع عن العالم لا ترضى بحال . وقد كان نتيجة التدهور الفكرى والاقتصادى والدينى والاجتماعى فى شعوب العربية فى هذه القرون أن أصبحت اللغة فى الوقت الحاضر واقعة تحت تأثير المد الخارجى لما نالته الأمم الأجنبية من تقدم ملحوظ فى هذه الميادين المختلفة : نشاطها الفكرى يزحمنا ، ونشاطها الاقتصادى يتقاذفنا ، وتقدمها السياسى يفرض نفسه علينا ، وإنتاجها فى ميادين الصناعـة والحرب يعيش بيننا بأسمائه الأجنبية التى أصبحنا نستخدمها كما لو كانت عربية أصيـلة : الترام والتليفون والأوتوبيس وأسماء الأقمشة وأسماء العقاقير والأدوية والبرلمان والديمقراطية وغيرها كثير كلها من أصل أجنبى ، فضلا عن المذاهب العلمية والفلسفية والفنية التى تتمثل بين طبقة المثقفين .

وهكذا تقف العربية الآن فى موقف الانحسار والجزر كما يقف أهلها سواء بسواء . ولكنه الانحسار والجزر الذى يتلوه مد .

سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

عز الدين اسماعيل
معيد بكلية الآداب بجامعة ابراهيم

مد العربية وجزرها

عالج الأستاذ السيد عز الدين إسماعيل ، فى مقاله المنشور قبل هذا ، موضوعاً جديراً بعناية الباحثين ، وهو اصطراع اللغات بوجه عام ، ومد العربية وجزرها بوجه خاص ، وأثر الحروب والتقدم الفكرى والحياة الاقتصادية والاجتماعية فى امتداد اللغة أو تقلصها .

وكنا نتمنى لو أن وقفة الكاتب كانت طويلة عند أعظم حادث وقع فى تاريخ مد اللغات وجزرها ، وأعنى به دخول مصر والشام والعراق وشمال إفريقية فى أسرة العروبة ، وانصرافهن عن لغاتهن الأولى إلى لغة القرآن : فى المنزل ، والسوق ، والمجتمع ، ودواوين الحكم . بأقل مدة عرفت فى التاريخ .

إن لهذا الحادث التاريخى المفاجىء - الذى لا يكاد يعرف له نظير - أسبابا يلاحظها المشتغلون بالتاريخ ، وأخرى تستحق العناية والدرس من العلماء بتطور اللغات .

والذين كانوا يزعمون أن العربية تحولت إلى لغة وطنية فى خارج جزيرة العرب من طريق الفرض والاستدراج ، قد سقطت دعواهم بما حاوله الاستعمار فى الجزائر من سنة ١٨٣٠ إلى الآن ، ثم فى القطرين المجاورين للجزائر شرقا وغرباً ، وما استخدمه لذلك من وسائل الحضارة الحديثة وفى طليعتها الطباعة والصحافة والمدرسة والجندية وضرورات المعايش وأحدثها السينما والإذاعة ، فضلا عن الوسائل الأخرى غير المشروعة ، فباء الاستعمار بعد كل ذلك بالفشل ، واعترف بلسان حاله ولسان مقاله بأن ما تم فى إفريقية الشمالية لما تعربت قبل ثلاثة عشر قرنا لا يزال من المعجزات التى اختص بها نظام العروبة والإسلام ، وأن الأمم الأخرى من قبل العرب كاليونان والرومان ، والذين جاءوا من بعدهم كالترك ودول الاستعمار الغربى ، لا يكاد يتقلص ظل سلطانهم عن الأوطان التى حكموها مئات السنين حتى يذهب الدهر بلغاتهم وآثارها كأن لم يكونوا هنالك من قبل .

نعم إن عرب الإسلام الأولين استهووا سكان الأقطار التى فتحوها - كمصر والشام والعراق وشمال إفريقية - وذلك بما كانوا عليه من فضائل النفس ومعادن الخير والاستقامة على الحق والتعامل بسنن الإنسانية الخالصة من شوائب الأنانية والبغى ، فرأى المصريون والشاميون والعراقيون والمغاربة أن هذا الذى جاء به العرب الفاتحون من أكمل رسالات

الله بل هو أكلها . وكان الفاتحون يدعون إلى ما هم عليه من حق وخير بأعمالهم وسيرتهم ، لا بالمحاضرات فى الأندية ، ولا بالإغراء فى المستشفيات ، ولا بالتسلط على عقول الأحداث القاصرين، فرأى الناس دعوة المسلمين مترجمة بتصرفاتهم ، ومعروضة على الأنظار فى معاملاتهم، فلما أراد أذكياء الناس وعقلاؤهم أن يشاركوا الفاتحين فيما حملوه إليهم من خير ، وحاولوا أن يتعرفوا إلى تفاصيله ليؤمنوا بها ، ولا يبعد أن يكونوا رغبوا فى أن تترجم لهم دعوة الإسلام وأن تنقل إليهم نصوصه وقواعده وأحكامه بلغاتهم ، اصطدموا بسياسة الإسلام فى الدعوة ، وهى قائمة على « أن تنتقل الأمم إلى الإسلام ، لا أن ينتقل الإسلام إلى الأمم » ، ومعنى ذلك أن على من أراد أن يتعرف إلى الإسلام ويتصل به ويأخذ بأحكامه أن يعرف لغته ، ويغترف من ينابيعه مباشرة ، إلى أن يكون من أهله الأصلاء ، لا أن يكون للدين أصحاب يحتكرونه ثم يكون الدخيل عليهم تبعاً لهم فيه . وسياسة الإسلام هذه فى الدعوة إليه كانت السبب الأول فى « انتشار العربية » ، لأنها مفتاح الدين وبابه والطريق إليه ، وفيما بين زمن عمرو بن العاص وزمن الليث بن سعد مولى بنى فهم المولود سنة ٩٤ ﻫ كانت مصر قد امتلأت بالأئمة الأعلام من المصريين أنفسهم ، فكانوا الرءوس فى الشريعة على تفاوت أقدارهم فى العلم ، والذى لم يكن منهم فى الأصل عربيا صار لا يعرف لنفسه لغة غير العربية ، وصار بيانه بالعربية مضرب الأمثال فى فصاحتها وبلاغتها ، كما أن فقهه فى الشريعة مضرب الأمثال فى التأصيل والتفريع بحيث تضرب إليه أكباد الإبل من مختلف الأقطار للتتلمذ عليه والتأدب بأدبه والرواية عنه والعمل بفتاويه . والذين تحدثوا من الافرنج ومقلدتهم عن نظام الولاء فى الإسلام استشهدوا بأحقاد الشعوبيين الذين « لبسوا الإسلام على أبدانهم ولم ينفذ شىء منه إلى قلوبهم » ، فصوروا العلاقة بين عرب الأنساب وعرب الثقافة الإسلامية على غير حقيقتها ، ولو نظروا إليها من ناحية العلماء وأئمة الدين الذين أسلموا وتعربوا وحسن إسلامهم وصاروا من أعلام هذه الأمة فى دينها وأدبها وبلاغتها ، لعلموا أن الإسلام يعد مولى المرء منهم ، وأن نظام الولاء هو نظام الاتحاد بالأسرة والانضمام إلى أخوتها ونصرتها .

وإن مثل الإمام محمد بن عبد الله البخارى كان يرتاح قلبه وتفتخر نفسه بأن ينسب إلى ولاء قبيلته اليمنية من جعفى ، لأن فى ذلك عنده ذكرى دخول سلفه فى هداية الإسلام على أيدى تلك القبيلة ، وأنهم هم الذين أخذوا بيده إلى هذا الخير الذى صار إليه ، وضموه اليهم فاتخذوه واحداً منهم ، ولذلك أحكام فى الفقه تفقأ عيون الشعوبيين وتميتهم من الغيظ . والعروبة

فى الإسلام « أخلاق » . فالذى يتكلم فى بيته بلغة العرب ويتخلق فى نفسه بأخلاقها ، يفضله الإسلام وتقدمه العروبة على الجلف الجافى الذى عرى من تلك الأخلاق ولم يتجمل بها .

وهذه القواعد فى نظام المجتمع الإسلامى الرفيع هى التى « نشرت العربية على مدى انتشار الإسلام » . ولما كانت الأمم الأخرى - وأحدثها عهداً دول الاستعمار - لم يكن لها مثل هذه القواعد الإنسانية العليا فى اتصال الأمم بعضها ببعض فشلت فيما حاولته من تقليد العروبة فى انتشار لغتها يوم زحف الإسلام لنشر دعوته فى قارات الأرض المعمورة يومئذ .

وإذا تحولنا عن الأسباب التاريخية فى تأثير سياسة الإسلام على انتشار العربية ، نجد أمامنا ناحية أخرى من أسرار التاريخ فى هذا الموضوع ، وهى ناحية القرب أو البعد بين العربية واللغات التى اصطرعت معها أو ذابت فيها . فالعراق والشام من صريح البلاد السامية التى كانت تتكلم بالآرامية والسريانية وبقايا الكنعانية ، وكلها أخوات ضعيفة ساذجة للغة العربية التى تعد البنت البكر للغة السامية الأولى المنقرضة ، والعربية لعراقتها فى القدم قبل كل أخواتها الساميات اجتازت جميع أطوار التكون والنمو ، حتى بلغت ذروة الكمال وتمام النضوج والازدهار ، فكانت أهلا لأن تلتهم أخواتها المتخلفة عنها فى النضوج اللغوى . وإذا اعتبرنا أن للغات السامية أُمّاً قديمة تفرعت عنها هذه اللغات وكانت لهجات لها ، ثم حلت هذه اللهجات محل أمهن القديمة فزالت بوجودهن ، يمكننا حينئذ أن نتصور أن الأمم السامية كانت لهن وحدة لغوية قبل ظهور اللهجات - أو اللغات - السامية ، وأن لغة الوحدة زالت بظهور هذه اللهجات التى ما زالت تفترق وتختلف حتى صارت لغات ، فحرمت الأمم السامية من وحدتها بزوال اللغة الأولى وحلول اللغات الفرعية محلها ، فلما ظهر الإسلام ، وانتشر أولا فى البلاد السامية ، فانتشرت بانتشاره اللغة العربية وهى فى إبان كمالها ، اصطدمت بلغات من جنسها غير أنهن أضعف منها وأقل جدارة بالبقاء ، فبقى الأصلح ، وزال ما هو أقل صلاحاً ، وانضمت الى ذلك رغبة شعوب البلاد المفتوحة فى أن يلتحقوا بدعوة الحق والخير التى حمل الإسلام لواءها إليهم ، ودلهم الإسلام على أن سبيل ذلك أن يتعربوا ، وأن ينهلوا بأنفسهم من ينابيع الإسلام فى لغته مباشرة بلا واسطة ، فعادت إلى البلاد السامية وحدتها باللغة العربية ، بعد أن كان آخر عهدها بهذه الوحدة يوم زالت اللغة السامية الأولى بظهور لهجاتها . وإن رجوع الوحدة إلى الشعوب السامية بعد

حرمانهم منها يعد من أحداث التاريخ الكبرى ، بل هو إحدى معجزات الإسلام التى تستحق التدوين والتنويه والتخليد . والأمم السامية لم تخسر بهذا الحادث شيئا ، لأن العربية نفسها لغة سامية ، بل هى البنت البكر لأمها الأولى ، وقد تبدل الساميون بها من دراهمهم التافهة ديناراً وهاجاً متألقا عادت لهم به وحدتهم القومية واللغوية .

وننتقل من العراق والشام إلى مصر وشمال إفريقية ، فنلاحظ أن لغة قدماء المصريين وإن لم تكن صريحة فى ساميتها كصراحة الآرامية والكنعانية وأمثالها ، إلا أن المعجم العظيم الذى وضعه العلامة الأثرى المصرى أحمد كمال للغة المصرية القديمة دل على أن نحو ثلثها كان يوافق العربية المضرية فى معانيه ومبانيه ، مع تسامح قليل فى القلب والإبدال الموجود فى اللغتين . ولو أن العربية المعاصرة لقدماء المصريين من قبل مضر ، بل ومن قبل إسماعيل ، كانت معروفة لنا الآن لتبين لنا أن نسبة التوافق بين المصرية القديمة والعربية التى كانت معاصرة لها أكثر بكثير من نسبة الثلث ، بل لا يبعد أن يكون التقارب بين اللغتين فى تلك العصور أشبه بالتقارب بين لغة مصر العربية الآن ولغة معاصريها من أهل الحجاز ونجد ، وبهذا نعلل رحلة إبراهيم من وطنه العراق إلى مهاجره فى الشام وزيارته لمصر وزواجه منها بهاجر وعيشته مع زوجته وذهابه بها وبابنها إسماعيل إلى الحجاز ، ولا نسرف إذا قلنا إن لغات تلك الأقطار كانت يومئذ كلها متقاربة ، ولا يبعد أن تكون لهجات للغة واحدة ، كما أن لغات هذه الأقطار نفسها الآن لهجات للغة واحدة ، فكان إبراهيم وهاجر يتكلمان بلهجتيهما فيتفاهمان فيما بينهما ، ويكلمان أهل الأقطار التى اتصلا بها فيتفاهمان معهم جميعا .

وإذا كان هذا حال اللغة المصرية القديمة فنزول العربية ضيفة عليها مع الإسلام قد حببها إلى المصريين بحبهم للإسلام وأهله الأخيار الطيبين الرحماء الصالحين ، وبذلك كانت المعجزة بتسلم جيل الليث بن سعد المصرى المولود سنة ٩٤ قياد البلاغة العربية فى مصر وأزمة فصاحتها ، وارثاً ذلك عن شيوخه وشيوخهم الذين كانوا من حادث دخول الإسلام إلى مصر قاب قوسين أو أدنى .

وما يقال عن مصر يقال عن جاراتها فى الغرب : لوبياء والقيروان فالمغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، وفى تلك الربوع بقايا الفينيقيين والقرطاجنيين وذكريات هنى بعل ، بل إن البربر يوغلون فى شوط أبعد فيحملون إلينا مع تقاليدهم القديمة ذكريات علاقات لهم باليمن وأذوائه وإفريقش وما فى الوعى التاريخى من أحلام لذيذة عن مجالاته فى تلك الربوع .

وبعد فإن العربية فى صدر الإسلام دخلت بلاداً تمتُّ إليها بأواصر لغوية لا يستهان بها ، وهـذا هو السر فى أن العربية ثبتت بعد زوال سلطانها فى البلاد السامية أو المتصلة بالسامية ، ولم تثبت فى مثل إيران إلا فى محيط العلم الدينى ، ولم يبق منها فى مثل الاندلس وصقلية إلا بقايا تتألق فى لغـــة السكان ، كما تتألق بقايا العمران العربى تحت سماء تلك الاوطان .

وأحبُّ من إخوانى الجامعيين إذا اتسع بهم البحث فى مد العربية وجزرها أن يعتمدوا على جهودهم وبحوثهم وسليقتهم ، فقد رأينا مثل الأب انستاس مارى الكرملى يشكو تعصب بعض الأوربيين فى هـذه البحوث ، ويصرح لنـا بأنهم متفاهمون فيما بينهم على سياسة لهم مبنية على غمط العربية فى كثير من حقوقها . وقد ردد الأب انستاس هذه الشكوى فى كتابه (نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها) المطبوع قبيل الحرب العالمية الثانية ، وأوجزه فى فصل مستقل من ذلك الكتاب (ص ١٥٥ — ١٦٨) . وقد أذكرنى ما كتبه الأب أنستاس الكرملى فى موضوع غمط الغرب للشرق ، محاضرات كان الأستاذ ميكائيل أنجلو جويدى من أساتذة جامعة روما ، ألقاها فى قاعة الجمعية الجغرافية فى القاهرة قبل بضع وعشرين سنة عن (علم الشرق وتاريخ العمران) ، وهى تنزع إلى معنى غمط الشرق كله ومصر القديمة بوجه خاص ، وتشعر قارئها بمـا وراءها من تحامل يؤيد شكوى الأب انستاس الكرملى . وكل هذا يوقظ أفاضلنا الجامعيين ، ويحملهم على الاعتماد على أنفسهم فى دراستنا القومية واللغوية عندما يعتزمون استيفاءها ، وكل من سار على الدرب وصل .

محب الدين الخطيب

العربية فى كمالها

يقول العلامة الفرنسى أرنست رينان فى كتابه (تاريخ اللغات السامية) :

إن اللغة العربية ، لغة الصحراء ، هى اللغة الوحيدة التى عرفها الناس فى دور الكمال ، ولا يعرف لهـا التاريخ طفولة ولا شيخوخة .

لا قيمة للعلم
مالم يلازمه الفضائل الخلقية

سأل مندوب (المصرى) فضيلة الأستاذ الأكبر عن رأيه فى التعليم وموقف الإسلام منه ، فقال فضيلته :

كانت إساءة الاستعمار باحتلاله العسكرى فى السبعين سنة الماضية ، ثم باحتلاله السياسى والاقتصادى ، أهون شراً وأدنى إلى دفع غوائله ـ على فداحتها ـ من إساءته إلى مصر على يد دنلوب فيما رسم من خطط لتوجيه الثقافة المصرية العامة توجيها آلياً يعنى بالقشور والشكليات ، وينأى بالمدارس ومعاهد العلم عن أن تكون لها رسالة سامية من رسالات الله فى تهذيب النفوس ، وإعداد الجيل الصالح ، وتكوين الرجال الذين يعيشون لأمتهم ، وينهضون بها إلى المستوى الكريم الذى يستحق أهله السعادة فى أنفسهم وفى مجتمعهم والاحترام من الأمم الأخرى .

والمتاعب التى يواجهها الآن رجال الإصلاح فى تطهير الأداة الحكومية وإصلاحها ، وتقويم الإعوجاج الاقتصادى والاجتماعى ، وتوجيه الأمه والوطن إلى الخير ، لا شك أنها بعض نتائج هذه الناحية الضعيفة فى نظام التعليم كما رسم دانلوب خططه ووضع أسسه ليبتعد برجال المستقبل عن مواطن الخوف من الله وحده ، وعن معايير الفضائل والأخلاق ، وأن تكون للمصرى المتعلم رسالة سامية فى الحياة يحقق بها لوطنه السعادة والقوة والحيوية والنشاط الدائب الدائم ، فطفقت هذه المصانع التعليميه تخرج الجيل بعد الجيل من المؤمنين بالمصلحة الذاتية وحدها دون المصلة العامة ، وبالرفاهية الشخصية من الحلال والحرام وأن وصل الوطن إلى الحالة التى تتحدث عنها الصحف اليوم وكان يبكى منها العقلاء دماء من قبل .

هذا التعليم فى المدارس المصرية من زمن كرومر إلى يوم الناس هذا ، تعليمٌ جاف لا يعنى بتكوين الإنسانية فى الإنسان ، ولا الإسلامية فى المسلم ، ولا الوطنية فى ابن الوطن ، ولا الرحمة والرفق والتعاون على البر والتقوى فى قلب الرجل المثقف ، ولا يصل حاضر الأمة بماضيها فى طريقهما إلى أهداف قومية متحدة ، كما كان يجب أن تكون فى الأمة الأصيلة التى تحمل لنفسها وللإنسانية أكرم أمانات الله وأنبلها .

ولعل أصدق شهادة على هذه الحقيقة جنوح كثير من كبار رجال وزارة المعارف نفسها ـ فضلا عن غيرهم ـ إلى تخريج أبنائهم فى مدارس أجنبية يعلمون أنها أسست لأبناء جاليات لا حاجة بهم إلى كثير مما يحتاج إليه التلاميذ المصريون فى قوميتهم ودينهم ، لكنهم

اضطروا إلى الرضا لأبنائهم بهذه المدارس الغريبة عنهم، العارية عن أمس حاجاتهم القومية والملية ، فراراً من ناحية الضعف التي أزمنت عللها في مدارسنا ، واستشرى داؤها مدة نصف قرن وأكثر .

والآن وقد منّ الله بهذا الانقلاب الذي هيأ برحمته أسبابه ، فقد آن لمدارسنا أن تبنى على أساس أن اكتساب العلم والمعرفة غاية مطلوبة لذاتها ، لا وسيلة يتذرع بها للحصول على الشهادة ثم الحصول بالشهادة على الوظائف ، نعم إن الوظائف تحتاج إلى موظفين مثقفين من حملة الشهادات بشرط أن تكون في قلوبهم مخافة الله في حقوق الامة ومصالح أبنائها .

وقد آن لها أن تبنى على أساس أن العلم إذلم تلازمه الفضائل الخلقية والخوف من الله والحرص على مرضاته فإنه يكون حينئذ كالسلاح في أيدي من لا يجيز القانون أن يكون في أيديهم .

بل من هنا تولدت الحاجة العظمى اليوم إلى التطهير والإصلاح ، وإذا لم يتغير اتجاه القطار في التعليم نستبق هذه الحاجة إلى التطهير والإصلاح ما دمنا على ما نحن عليه .

وقد يظن البعيدون عن معرفة أثر الدين في نفوس الجيل أن العرض السطحي للأخلاق في كتب المطالعة وأمثالها يغني الناشئة عن تثبيت عقيدتها بالله وتوثيق معرفتها برسالات الله في مرحلتي التعليم الابتدائية والثانوية ، وعن تحقيق ذلك بتطبيقه عملياً حتى يتمرن التلاميذ عليه ، وتكون فضائله سجية ، لا عادة . وكل تقصير في ذلك يجعل الانحراف الناشىء عن زيغ العقيدة أصعب صلاحا من الانحراف الناشىء عند طغيان الشهوة لأن زائغ العقيدة يستهين ببعض محاسن الآداب بزعم أنهـــا ليست من الحسن في شيء ، أما المغلوب للشهوة وحدها فإنه ينصرف عن الحسنة معترفا بأنه أقبل على سيئة . لذلك كانت معالجة المغلوب للشهوة أهون من معالجة من زاغت عقيدته لتهاون المدرسة في حياطة هذه العقيدة والقيام على أمانات الله فيها .

واذا كان سوء الأخلاق ـ الذي هو علة اختلال النظام ، ينشأ من زيغ العقيدة تارة ومن طغيان الشهوات تارة أخرى ، فان الإسلام دين ينير العقول بالحجة ، ويهذب النفوس بالحكمة ، وكم أخرجت مدارسه ومجالس القوّامين على هدايته ، من رجال يلاقون الأسود فيصرعونها ، ويخفضون اجنحتهم تواضعاً للمستضعفين . وإن سماحة الدين وما له من الأثر الخطير في إعداد أمة روحها البطولة ، وزينتها التقوى ، وغايتها السيادة ، من أشد ما يبعث أولي الأمر منا على ان يضعوا علوم الدين بالمكانة العليا ، والتربية على آدابه وفضائله ـ بالإشراف ، والمراقبة ، والتدريب ، والقدوة ـ في مقدمة ما يطلب من مدرسة العهد الجديد أن تحققه لهذا الوطن .

إن هذه الأمة مسلمة ، والأمة المسلمة لا ترضى إلا أن يكون أبناؤها مطمئنين بحجج الدين الحنيف ، سائرين فى ضوء حكمته الغراء ، مسترشدين بسيرة عظماء السلف ، وينشدون فيها مثلهم العليا . وإذا وجد فى الناس من لا يؤلمه أن يكون ولده فى ظلام من الغى ، فأمثال هؤلاء على قلتهم طائفة استهواهم زخرف الحياة غروراً ، وما كان للحكومة الرشيدة إلا أن تقيم سياستها على رعاية ما فيه خير النشء ويكون قسط تلك الطائفة فى هذه السياسة تقويم عوجهم . وإذا أهملت بلا تربية أبنائها على الدين باض الإلحاد وأفرخ فى أدمغتهم يوم تكون فى أيديهم أزمتها ، ويا شقاء أمة يتولاها من لا يخاف الله ولا يتوخى مرضاته .

تحية

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر

سيُسعد للإسلام فضل جلاله ... شيخ سما بفعاله وخلاله

نور الهداية فى أسرة وجهه ... متألق كالبدر عند كماله

* * *

« شيخ الشيوخ » لقد حللت مكانة ... فى الشرق بين الغر من أبطاله

سيان ماضيك المجيد وحاضر ... كالضوء عند ضحاه أو آصاله

علم له فى كل علم جولة ، ... حتى ليلفى من كبار رجاله

« الأزهر المعمور » يامل فيكم ... تحقيق ما يرجوه من آماله

إنا لنعرف فيك ديناً قيماً ... « عوذت دينك بالنبى وآله »

من الأستاذ الأكبر

إلى أبنائه الطلبة ، لمناسبة افتتاح العام الدراسى الجديد

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فباسم الله تعالى ، وعلى بركته ، نستقبل عاماً دراسياً جديداً فى عهد جديد ، والعهد الجديد يطلب من كل فرد أو جماعة أن يحقق الغاية التى يناط به تحقيقها .

والغاية التى ناطها الله بكم ، وجعلها أمانة فى أعناقكم ، هى غرس الدين وتقوية اليقين فى الأمة ، وتربية الفضائل فيها ، واجتثاث الرذائل منها ، ونشر الأخوة الإسلامية والوطنية بين أفرادها ، وإحلال المحبة والتراحم محل التباغض والتشاحن ، وإحلال التعاون على البر والتقوى محل التعاون على الإثم والعدوان .

بهذه التربية الرشيدة ، تنشأ الأمة مؤمنة قوية ، شديدة الأسر ، عزيزة الجانب ، تأبى الضيم ، وتنفر من الاستعباد ، وتكون من الأمم - بحق - موضع الإجلال والكرامة ، بل موضع القدوة والزعامة .

إن غايتكم هذه هى غاية الأنبياء والمرسلين ، وقد جعلكم الله ورثتهم : تقومون بما قاموا ، وتؤدون لله والوطن ما أدوا . إنها أسمى غاية وأنبلها ، وبدونها يكون كل إصلاح - وإن اجتهد صاحبه - سطحياً ظاهرياً لا ينفذ إلى باطن الأمر ولبه ، بل يكون رقماً على الماء ، أو نقشاً فى الهواء . وقد نبه على ذلك النبى صلى الله عليه وسلم إذ يقول « ... ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » .

أبنائى : إن الأمر الجسيم ، لاينال إلا بالعمل الجسيم ، والإعداد القوى .

فعليكم أيها الطلاب أن تعدوا أنفسكم لهذا الأمر الجلل ، وذلك بأن تكملوا أنفسكم بالعلم ، وتهذبوها بالخلق ، وتجعلوا غايتكم أمامكم ، لنسددكم وتقويكم وتشد من عزائمكم . وستجدون إن شاء الله من أساتذتكم آباء رحماء ، ينهلونكم من مناهل العلم والتثقيف ، ويعنون بكم فى الدرس وفى خارج الدرس ، ويرعونكم ويوجهونكم ، ويحلون ما يعرض لكم من مشكلات فى حياتكم العلمية والاجتماعية . وسيربط بينكم بإذن الله رباط وثيق من المحبة والتعاون على بلوغ هذه الغاية العظمى .

سددكم الله وقواكم ، وأعاننا وإياكم على هذا الإصلاح العظيم ، فى هذه النهضة العظيمة المباركة . والسلام عليكم ورحمة الله .

عهدان

أما أحدهما فليل بهيم ، وأما ثانيهما فصبح منير .

أما الأول فقد تصرم وانقضى وشيعناه ساخطين غاضبين ، لم نقل فى كنف الله وفى ظله ، غداة ولىّ وراح ، وأما الثانى فقد أسفر فجره ، وانبثق نوره ، واستقبلناه راضين مستبشرين ، قائلين : حللت سهلا ، ونزلت أهلا .

كان العهد الماضى عهد الهوى والاستبداد ، والظلم والفساد ، والوساطات والشفاعات ، والرشوة والمحسوبيات ، وظلم الأقوياء للضعفاء ، وأما العهد الثانى فهو ، إن شاء الله ، عهد الطهر والعفاف ، والعدل والإنصاف ، والقدرة والكفاية ، والتعاون بين الحاكمين والمحكومين ، والفقراء والموسرين .

وكل من يحب أمته يرجو لهذا العهد أن يمكن الله له ، وأن يزداد على توالى الأيام رسوخا ، وأن يجعلها الله صحة لا نكسة فيها ، وتقدما لا رجوع فيه ولا انتكاس . وليس إدراك ذلك بالأمل والتمنى ، وإنما هو بالعمل والإنتاج ، وذلك بأن يفرض كل واحد نفسه مجندا فى الصفوف الأمامية من الثورة ينظر إلى أهدافها ، ويعمل على تحقيقها ، وأن يسددها ويقدم لها خير ما يجود به فكره . إن الثورة لها أهداف فيجب أن تبين أهدافها ، ولهذه الأهداف سبل ، فيجب أن تبين سبلها ، المستقيم منها وغير المستقيم ، وأن يتولى ذلك كلّ فى اختصاصه ، وما هو منه بسبيل .

وأرجو أن أقوم بذلك إن شاء الله ، فى الدائرة التى أنا فيها ، دائرة العلم والتهذيب ، وإن كان جهد المقل ، وسير الضعيف .

وأول ما ينبغى أن أبيّنه هو التعريف بالثورة نفسها وبرجالها وبأهدافها ، لأن من الناس من جهلوا مقاصدها السامية فانقادوا للشغب متأثرين بتضليل المضلين ، وإنى إذ أكتب عن رجال الثورة ، لست أكتب عنهم لسابقة معرفة ، وإنما أكتب فيما بدا من أفعالهم ، وأستخلص نياتهم وأخلاقهم ، مما ظهر من عفتهم وزهدهم .

هذه الثورة فريدة فذة فى التاريخ ، لم تنسج على منوال سبق ولا مثال تقدم ، فقد مشت لطيتها وئيدة مطمئنة ، لم يعجلها خوف ، ولم يثملها ظفر ، ولم يحملها حقد ولا بغض على أن تجور وتظلم . نرى الثورات فى التاريخ يعجلها الخوف فتقتل وتسرف فى القتل ، ويثملها

النصر فتطغى وتسرف فى الطغيان ، ويحملها الحقد الدفين على ألا تذر شيئاً أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

أما هذه الثورة ، ففى لينها ورحمتها وإتئادها واتساقها وعدلها ، ما يدعو المرء إلى ألا يطلق عليها اسم الثورة .

لم يكتف الثائرون بضبط نفوسهم ، بل أرادوه من الشعب المغيظ المحنق ، فكان ما أرادوا فشمت الحياة اليومية على سجيتها : وادعة مطمئنة لا خلل فيها ولا اضطراب .

وكما أن هذه الثورة فذة فى التاريخ ، كذلك أصحابها الذين قاموا بها أفذاذ فى التاريخ ، لم يقوموا لنفع شخصى ، ولا لغرض مادى ، إنما قاموا لينقذوا أمتهم من الفوضى والفساد ، والظلم والاستبداد . وليس أدل على ذلك من أن قواد الثورة أزالوا الملك عن عرشه فى ضجة من فرح الشعب وتهليله ، وكان لهم كل ما يشاءون إن أرادوا : من المال والجاه والسلطان لا ينازعهم منازع ، فعفوا عن ذلك كله : عفوا عن القصور والدور ، والضياع والزروع ، ونظروا إليها باحتقار وازدراء .

فهل رأى التاريخ أشرف نفسا ، وأنبل مقصدا ، وأسمى غاية وأزهد فى السلطان ، والجاه والمال والغنى من هؤلاء القواد البواسل .

ليس الزاهد من زهد فى الدنيا وهى عنه معرضة ، إنما الزاهد من زهد فيها وهى عليه مقبلة .

لقد بلغ من زهدهم أن قائدهم منح رتبة الفريق ومرتبها ، فأبى الرتبة وما يتبعها من مرتب . وكذلك فعل إخوانه حين تولوا قيادة الألوية ، ورفضوا مرتباتها . ألا إنه زهد وأمانة وعفة يقضى المرء منها العجب ، وأعجب منها أنها وجدت فى ذلك العصر المتعفن .

يروى التاريخ أن عمر بن الخطاب جاءه المجاهدون الذين فتحوا بلاد كسرى بتاجه - وكان من ذهب ومرصعا باللآلىء - فقال : إن قوما أدوا هذا لأمناء . فماذا كان يقول عمر لو رأى أبطالنا الذين أدوا التاج والعرش والضياع الواسعة والجنات الوارفة والجاه الطويل العريض .

هذه الثورة ، وهؤلاء أبطالها ، وهذه أغراضها : شجاعة وإقدام وحلم وأناة ، وعفة وزهد ، وسمو وشرف ، وترفع وإباء .

كجنود عمرو كلما ركزوا القنا عفوا يدا ومهندا وسنانا

محمد عرفه

عضو جماعة كبار العلماء



المعمَّى واللغـــز

المعمى وصف من عميت الشيء على آخر ، إذا أخفيته عنه ولبّسته عليه ، فلا يهتدى له . وقد تعورف المعمى فى الخفى من القول لا يبين إلا بعد إنعام النظر وقدح الفكرة . وأصل ذلك من العمى ، كأن السامع فى عمى لمّا لم يدرك وجه الكلام ومغزاه .

واللغز - بضم فسكون ، وبضم ففتح - فى الأصل: جحر يحفره اليربوع ملتويا منحرفا ، يلجأ إليه حين يقصد فى جحره المستقيم . وقد أريد به ما أخفى معناه من الكلام والبس ، تشبيها بلغز اليربوع .

وترى أن المعمى واللغز يئولان إلى مغزى واحـــد ، وهذا هو المعروف عند قدامى العلماء . وسأسير على هذا النهج حتى أعرض لاصطلاح المحدثين .

والتعمية للمراد والإلغاز فيه ، تكاد فى بعض المواطن تكون من طبيعة الناس . ويدعو إلى التعمية الرغبة فى إخفاء بعض الأغراض ، أو التفاطن واختبار ذكاء السامع وابتلاء زكانته . وألغاز التفاطن تعرف بالأحاجى ، واحدها أحجيّة ويقال لها أيضا الأداعى واحدها أدعية . ويقال فى ذلك : حاجاه ، وداعاه إذا ألقى عليه أحجية أو أدعية . وهذا الضرب يقع بين العامة كثيراً ، ويسمون الأحجية حزّورة ، وهى فعولة ، من الحزْر وهو الحدْس والخرْص والتخمين . وقد يقولون فى بدء المحاجاة : حزّورة فزّورة ، ويبدو أن الكلمة الثانية إتباع للأولى ، كقولهم : حسن بَسن .

ومن أمثلة المحاجاة عند العرب قول الشاعر فى السيوف :

أداعيك ما مستحقبات مع السرى ... حسان وما آثارها بحسان

مستحقبات أى محمولات ، وهذا الوصف يلتبس بالنساء .

ومنها قول الشاعر فى القلم .

حاجيتـــك يا خنســـا ... ء فى جنس من الشعر

وفيها طـــوله شـــبر ... وقد يوفى على الشـــبر

له في رأســـه شق نطوف ماؤه بحـــرى
أبيني لم أقل هجـــرا ورب البيت والحجر

والنطوف وصف من نطف أى سال وقطر أراد سيلان الحبر، وهو ماؤه. ولما كان هذا الوصف يوهم َهن الرجل، وهو مالا يصح المحاجاة به لنساء قال لم أقل هجراً.

ومن أمثلة الحزورة عند العامة قولهم في القميص: أبويا بنى لى بيت ما يسعشى إلا نا. وقولهم في جنين الحيوان تجتاز أمه البحر: عدى البحر وما تباش، وقولهم في الإبرة فيها الخيط: قد الصباع، وديلها وراها دراع، وقولهم في الطماطم: قاعد في الخط أحمر زلبط. وزلبط أى أملس لا زغب عليه. وأصل ذلك في الرأس يحلق بالموسى، يقال: حالق زلبط، والخط هنا: السطار في الزرع.

والمعمى يقع في الكلام على أنحاء.

١ — فقد تقع التعمية بذكر أوصاف ظاهرة في غير المراد، أو بذكر كلمة ظاهرة في غير المقصود. وللاستعارة والتشبيه والاشتراك اللغوى عمل كبير هنا.

وأكثر ما يقع هذا الضرب في أبيات المعانى، وهى التى تحوج إلى أن يسأل عن معانيها، وقد ألف فيها كثير من العلماء. ومما طبع منها كتاب معانى الشعر لأبى عثمان الأشناندانى، طبع في دمشق سنة ١٣٤٠هـ، والمعانى لابن قتيبة، وقد جاءنا أخيرا من الهند.

ومن أمثلة هذا قول الشاعر: [1]

ولما رأيت النسر عز ابن دأية وعشش في وكريه جاشت له نفسى

أراد بالنسر الشيب، شبهه به لبياضه، وابن دأية: الغراب الأسود، أراد به الشباب لأن شعر الشباب أسود.

ومن هذا قول الشاعر[2]:

ولقد رأيت مطيـــة معكوسة تمشى بـكلكلها وترجيهـا الصبا
ولقد رأيت الخيل أو أشباهـا تثنى معطفة إذا ما تجتـــلى
ولقـــد رأيت مكفـّرا ذا نعمة جهدوه؛ بالإعمال حتى قد ونى

(١) انظر اللسان في لغز ود أى.
(٢) الأمالى ٢٦٧/١.

أراد بالمطية المعكوسة ، سفينة . وجعلها معكوسة إذ كان كلكلها وصدرها معطوفان إلى الوراء ، يقال : عكس الدابة إذا جذب رأسها اليه لترجع القهقرى ، وأراد بالخيل : تصاوير على صورة الخيل فى وسائد ، فهى تثنى للجلوس عليها ، وأراد بالمكفر : السيف ، والمكفر : المستور المغطى ، والسيف يكفر فى الغمد . ويرى القارىء فى الشعرين السابقين الاعتماد على الاستعارة والتشبيه فى التعمية .

ومن هذا ما جاء (1) فى التعمية عن الحسناء بما يوهم أنها نار :

ومشبوبة لا يقبس الجار ربها ولا طارق ظلماء منها يؤنس

متى ما يزرها زائر يلف دونها عقيلة دارىٍ من العجم تفرس

أراد بالمشبوبة : الحسناء الجميلة ، وأصل هذا فى وصف النار . وأراد بربها : زوجها ، وهو لايدع الجار يقتبس من حسنها والمتاع بها كما يقتبس النار . والدارى المنسوب إلى دارين ، وهى فرضة بالبحرين فيها سوق ، يحمل إليها المسك من ناحية الهند ، وأراد به العطار الذى عنده المسك والطيب . والعقيلة : أكرم الشىء وأنفسه ، أراد به المسك ، وقوله : تفرس أى تشق فتفوح ريحها .

وقد ألغز الشاعر بالمرأة وهو يريد النار فى قوله :

وشعثاء غبراء الفروع منيفة بها توصف الحسناء أو هى أجمل

دعوت بها أبناء ليل كأنهم وقد أبصروها معطشون قد آنهلوا

أورده صاحب الأمالى فى آخر الجزء الأول ، وقال « يصف ناراً » ، وجعلها شعثاء لتفرق لهبها ، وغبراء الفروع لدخانها ، والفروع : الأعالى ، ومنيفة : مرتفعة ، يريد أنها على جبل أو فى مكان عال . وقوله : « بها توصف الحسناء ، أى بها تشبه الجارية . وذلك أن العرب تصف الجارية فتقول : كأنها شعلة نار . . . وقوله : « دعوت بها أبناء ليل ، يعنى النار ، دعا بضوئها أبناء ليل ، أى قوما سروا ليلا فجاروا عن القصد ، وقوله : « كأنهم وقد أبصروها معطشون » يعنى أنهم من فرحهم بهذه النار كأنهم قوم كانت عطشت إبلهم فأنهلوا أى رويت إبلهم » .

ومن الإلغاز فى النار أيضاً قوله :

وزهراء إن كفنتها فهو عيشها وإن لم أكفنها فموت معجل

(1) معانى الشعر للاشناندانى ٣٦

أورده القالي (١)، وقال: «يعني النار. هي زهراء أي بيضاء تزهر، يقول: إن قدحتها خرجت فلم أدركها بخرقة أو غير ذلك ماتت، فهو يريد بتكفينها أن يلقاها في خرقة أو صوفة أو قطنة، وإذاً تعيش وتحيا، فأما إن لم يفعل ذلك فلا يكون سبيل إلى الحصول عليها.

ومن الإلغاز في القدر ما رواه ابن الأعرابي (٢).

ألقت قوائمهــــا خساً وترنمت طرباً كما يترنم السكران

أراد بقوائمها: الأثافي التي تنصب عليها، وجعلها خساً أي فرد أو وتراً غير زوج لأنها ثلاث، وهي تترنم لغليانها، فهي تصوت كالطرب.

ومن هذا الضرب ما يستعمل في الرسائل التي يراد إخفاء المراد منها في بعض المواطن، ويقرب هذا مما يعرف في اصطلاح العصر بالشفرة.

ومن أمثلة هذا أن (٣) رجلا من تميم كان أسيراً في بكر بن وائل، فسألهم رسولا إلى قومه. فقالوا له: لا ترسل إلا بحضرتنا، وكانوا قد أزمعوا حرب قومه تميم فخشوا أن ينذرهم. فقال الأسير للرسول: أبلغ قومي التحية، وقل لهم: ليكرموا فلاناً ـ وهو أسير بكر عندهم ـ فإن قومه لي مكرمون. وقل لهم: إن العرفج قد أدبى، وقد شكت النساء، وأمرهم أن يعروا ناقتي الحمراء، فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب، بآية ما أكلت معكم حيساً، واسألوا الحارث عن خبري. فلما أدى الرسول الرسالة قالوا: لقد جن الأعور! والله ما نعرف له ناقة حمراء ولا جملا أصهب. ثم سرحوا الرسول، ودعوا الحارث فقصوا عليه القصة. فقال: قد أنذركم. أما قوله: «قد أدبى العرفج» فإنه يريد أن الرجال قد استلأموا. وقوله: «شكت النساء» أي اتخذت الشكاء للسفر، وقوله: «ناقتي الحمراء» أي ارتحلوا عن الدهناء واركبوا الصمان، وهو الجمل الأصهب، وقوله: «بآية ما أكلت معكم حيساً» يريد أخلاطاً من الناس قد غزوكم؛ لأن الحيس يجمع التمر والسمن والأقط. فامتثلوا أمره وعرفوا لحوى كلامه.

وأعود إلى شرح بعض الكلم في القصة: فالعرفج نبات له ثمرة خشناء كالحسك، وهو كثير القضبان والامتداد في الأرض، وإدباؤه أن ينضج وتمتد أعواده، وذلك إذا أصابه

---

(١) الأمالي ٢/٨٨

(٢) الأمالي ١٤٥

(٣) الأمالي ١/٦

المطر . وقد ضربه مثلا لاستلأم الرجال أى لبسهم اللأمة وهى الدرع ، كأن الرجل إذ يلبس الدرع كالعرفجة إذ تبدو ثمرتها التى هى كالحسك وهو الشوك ، وكثرة الرجال وانتشارهم كالعرفج إذ يمتد فى الأرض . والشكاء جمع الشكاوة ، وهى وعاء من أدم كالقربة يحبس فيه اللبن . والدهناء : أرض لبنى تميم فى نجد سهلة ، شبهها بالناقة لسهولة ركوبها ، ولمكان تأنيث لفظها . والصمان : بلد لهم أيضا أرضه صعبة الموطىء ، فشبهها بالجمل لصعوبته ، ولمكان تذكير اللفظ .

وكأنما أعجب هذا بعض الشعراء فنظمه فى قوله :

خلوا عن الناقة الحمراء وارتحلوا الـ ـعَـوْد الذى فى جنابى ظهره وقع
إن الذئاب قد اخضرت براثنها والناس كلهم بكر إذا شبعوا

فالناقة الحمراء هى الدهناء ، كما سلف . والعَوْد ـ وهو الجمل المسن ـ الصمان . وجعل فى ناحيتى ظهره وقعا ـ وهو أثر الدبر فى ظهر البعير ـ لما أنه وطىء وكثرت فيه آثار الناس . فهو ينصحهم أن يتركوا الدهناء ويعتصموا بالصمان ، وهو صلب يشق على الخيل أن تطأه . والدهناء ممكنة سهلة . ووصف أن أعداءه ـ وكنى عنهم بالذئاب ـ اخضرت براثنها ، أى أن أرضهم أخصبت وكثر العشب فيها ، فالأقدام مخضرة من الكلأ . وهذا يدعوهم إلى الغزو إذ تقوى إبلهم وخيلهم . وقد كان حى بكر بن وائل من أشد الأحياء عداوة لبنى تميم حتى صارت كلمة بكر مثلا عندهم فى العدو ، فهو يقول : الناس كلهم بكر ـ أى عدو ـ إذا أخصبوا . وقد جرت لتميم أمثال فى عداوة بكر ؛ كقولهم : لا تبت من بكرى قريبا ، وقولهم : البكرى أخوك فلا تأمنه .

٢ — وقد تكون التعمية من قبل اشتراك اللفظ وإرادة غير المعنى المتبادر منه ، ومن استعمال الغريب .

ومن أمثلة ذلك قوله ـ وتقدم أبيات من مقطوعة هذا الشعر ـ :

ولقد رأيت غضيضه هِركَولة رؤد الشباب غريرة عادت فتى

الهركولة : الحسنة الجسم والخلق والمشية . والرؤد : الشابة الحسنة . وقوله : عادت فتى هو من العيادة ، وهى الزيارة ، والمتبادر إلى الذهن أن تؤخذ من العود ، ومن هنا جاء الإلباس .

ومن هذا الشعر المشهور فى كتب (١) النحو ، وهو :

إنى رأيت غزالا أورث قلبى خبالا

(١) انظر مبحث كان وأخواتها .

قـد صار كلبا وقرداً وصار بعـد غزالا

فقوله : صار أى ضم ، ومنه قوله تعالى : فَصُرهن إليك .

ومن هذا ما يروى [1] عن الشافعى رضى الله عنه أنه سئل : هل تسمع شهادة الخالق ؟ قال . لا ، ولا روايته . أريد بالخالق الـكاذب ، لأنه يخلق الـكذب ويفتريه . وسئل : فارس المعركة إذا قضى على أبى المضاء قبل أن يحمى الوطيس ، هل يستحق السهم ؟ قال : نعم إذا أدرك الوقعة ، فقوله : قضى أى مات ؛ وأبو المضاء كنية الفرس .

ومن الضرب الذى جاء عن الشافعى ما يعرف بفتيا فقيه العرب ، وهى تنبنى على الإتيان بغريب اللغة ، وتـكون لهذا غريبة فى الحـكم والإفتاء منـكرة فى ظاهرها . وقد ألف فى هذا الفن ابن فارس تأليفاً لطيفاً سماه بهذا الاسم . وبنى الحريرى المقامة الثانية والثلاثين على هذا الباب . ومن أمثلة ما جاء فى هذه المقامة : « ما تقول فيمن توضأ ثم لمس ظهر نعله ؟ قال : انتقض الوضوء بفعله » فالنعل هنا الزوجة . وقد جرى الحريرى على مذهب الشافعى فى هذا الحـكم إذ كان شافعى المذهب ومنها : « قال : أيجوز للدارس حمل المصاحف ؟ قال : لا ولا حملها فى الملاحف » الدارس هنا الحائض . (للحديث بقية)

محمد على النجار

الأستاذ بكلية اللغة العربية

حـــكم

صُنْ وعدك عن الخلف فإنَّ الخلف شين .

وشب وعيدك بالعفو فإن العفو زين .

وكن عبداً للحق فإن عبد الحق حر .

واظهر لأهلك أنك منهم ، ولأصحابك أنك لهم ولرعيتك أنك بهم .

---

(١) انظر المزهر فى أواخر الجزء الأول .

المراجع الأولى فى تاريخنا :

تاريخ الأمم والملوك

لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى

٢٢٤ — ٣١٠

مفارقات :

من عجيب المفارقات فى تاريخنا وتواريخ الأمم الأخرى ، وفى موقفنا من تاريخنا ومواقف الأمم الأخرى من تاريخها ، أن نكون أغناهن جميعاً فى كل ما يبنى به تاريخ الأمة من أنباء ونصوص ومراجع وقرائن وإشارات وتحقيقات ، ثم نبقى أفقرهن وأقلهن انتفاعا بهذه الثروة فى إقامة معالم تاريخنا على أساسها ، بينما الآخرون قد أحدثوا — حتى من الأوهام — مكتبات جديدة لأجيالهم وجماهير قرائهم ، حافلة بالطلى الشهى من صفحات ماضيهم ، فوثقوا أواصر خلفهم بسلفهم ، ويسروا لهم القدوة الحسنة بعظمة العظماء من نوابغهم ، وبعثوا لهم من ذلك الماضى صوراً حية ترتفع الرءوس بأمجادها ، وتمتلىء القلوب بإجلالها واحترامها ، وتطمئن العقول إلى تعليل تصرفاتهم والاعتبار بها ومواصلة السير نحو أهدافها .

مواطن ضعف :

ومواطن الضعف — التى أدت ببعض معاصرينا من حملة أمانات التاريخ العربى والإسلامى إلى أن يكون انتفاعهم بهذه « التركة » ضئيلا — لا يكاد يأتى عليها الحصر . ومما يتبادر إلى الذهن منها الآن أمران :

أولهما — أن الذين تثقفوا منا بثقافة أجنبية عنا قد غلب عليهم الوهم بأنهم « غرباء » عن هذا الماضى ، وأن موقفهم من رجاله كموقف وكلاء النيابة من المتهمين . بل لقد أوغل بعضهم فى الحرص على الظهور أمام الأغيار بمظهر المتجرد عن كل آصرة له بماضى العروبة والإسلام ، لئلا يتهم فى زعمه بالعصبية لهما ؛ فوضع نفسه فى موضع التهمة بالتحامل عليهما ، جرياً وراء بعض المستشرقين فى ارتيابهم حيث تحسن الطمأنينة ، وفى ميلهم مع الهوى

عندما يدعوهم الحق إلى التثبت ، وفى إنشائهم الحكم وارتياحهم إليه قبل أن تكون فى أيديهم أشباه الدلائل عليه . ولو أن إخواننا هؤلاء نشأوا على الإيمان بأنهم هم أصحاب هذه « التركة » ، وبأن هذا الماضى ماضيهم ، وأن جيلنا حلقة فى سلسلة هذا الماضى ، وأن أحداثه ثروة لنا فى القدوة والاعتبار ، لنظروا إليه بعين الأم إلى ابنها ، إن لم ينظروا إليه بعين الابن إلى أمه ، ولا يكون ذلك إلا بتبنى هذا التاريخ ، والحرمة له ، وبث الحياة فى أمجاده ، والحرص على استجلاء جماله ، وإبراز فضائله ، وتحرى مواطن العظة والاعتبار فى أخطائه ، وحسن التعليل لذلك بالرفق والإنصاف وكمال التقدير . على أنه إذا كان هذا حال أهل الصبر منا على البحث والدرس ، فما بالك بالآخرين الذين قد تقع أنظار الواحد منهم على بحث فج لمستشرق ناشىء أو مدسى ، فينتحل ذلك البحث من غير تعب ، ويزعمه لقرائنا مبتكراً من عنده ، وينقله لنا محرف الاعلام ، متضارب الاحكام ، مزدوج المعنى ، ملتهب الحماسة فى التحامل حتى على الفضائل عندما ينظر إليها - بعينه أو بعين من ترجم عنه - من وراء منظار أسود .

ذلك أحد مواطن الضعف فى دراستنا لتاريخ العروبة والإسلام ، أما الموطن الآخر فهو ما لاحظته على بعض المعاصرين لنا من اشتباه الأدلة التاريخية عليهم ، وحيرتهم بين جيدها وأجودها ، بل فيهم من لا يميز بين الجيد منها والردىء ، مع أن ذلك كان فى متناول يده لو سبق له معرفة موازين رواتنا فى النقد ، أو وقف على مناهجهم فى التأليف ومصطلحاتهم فى الرواية ، ومراميهم فى الاستشهاد .

وقد اخترت اليوم من هذه المراجع كتاب (تاريخ الامم والملوك) للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ — ٣١٠) لأتحدث عنه إلى إخوانى المشتغلين بالتاريخ ، ممن يحاولون الانتفاع به فى الاستدلال والنقل ، لأنى رأيت منهم من يظن أن إيراد الطبرى لخبر من الأخبار كاف لتحميل هذا الإمام مسئولية الخبر الذى أورده ، واعتباره هو المصدر لهذا الخبر ، وأن الأخبار التى يوردها سواء كلها فى ميزان الصحة عنده ، وأن عزوهم الخبر إلى الطبرى ودلالتهم على موضعه من تاريخه تتم بهما مهمتهم من الاستدلال ، وتبرأ بذلك ذمتهم من عهدة هذا الخبر ، ويبقى الطبرى هو المتحمل لمسئولية ما يترتب على ذلك فى الحكم على أحداث التاريخ وعلى أقدار رجاله وتصرفاتهم .

إن ظنهم هذا لا يغنى من الحق شيئاً ، وإن الطبرى ليس هو صاحب الأخبار التى يوردها بل لها أصحاب آخرون أبرأ هو ذمته بتسميتهم ، وهؤلاء متفاوتون فى الاقدار ، وأخبارهم

ليست سواء فى قيمها العلمية ، ولا يتم اعتبار الطبرى مرجعاً فى التاريخ إلا بإكمال المهمة التى بدأ بها ، وهى تقدير أخباره بأقدار أصحابها ، ففيها ما يعد من سلسلة الذهب ، وفيها مالا تزيد قيمته على قيمة الخزف ، ولكل ذلك نقاده وصيارفته وتجاره ، وهم يعرفون أقدار هذه الأخبار عند التعريف بأقدار أهلها ، وقديماً قيل : وما آفة الأخبار إلا رواتها .

أنَّى لك هذا ؟

إن كل خبر فى تاريخ الطبرى ، بل كل نص يتناقله أهل العلم فى أجيال الإسلام ، له عند أهله قيمة رفيعة أو وضيعة ، على قدر شرفه أو خسته بالرواة الذين ينتسب إليهم ذلك الخبر أو ذلك النص . فشرف الخبر فى التراث الإسلامى تبع لصدق راويه ومنزلته من الأمانة والعدالة والتثبت . لذلك امتازت كتب سلفنا الأول بتسمية الرجل المسئول عن أى حديث نبوى يوردونه فيها ، وبيان المصدر الذى جاءوا منه بأى خبر تحدثوا به الى الناس . ولو لم يسموا الرجل المسئول عن الحديث النبوى عند إيراده ، ولو لم يبينوا المصدر الذى حصلوا منه على أى خبر يودون ذيوعه بين الناس ، لطالبهم بذلك علماء الثقافة الإسلامية بأشد من مطالبة الحاكم من يدعى ملكية العقار أو الحقل بما يثبت ملكيته له ومن أين صار ذلك إليه؟

وإذا كان مبدأ « أنى لك هذا ؟ » مما سنه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى مشروعية امتلاك الأموال ، فإن أبناء الجيل الذى منه عمر بن الخطاب هم الذين سنوا للناس بعدهم وجوب بيان مصادر العلم ، كما سنوا لهم وجوب بيان مصادر المال ، والعلم أثمن عندهم من المال وأشرف ، وأنفع منه وأبقى .

نحن نعتبر تاريخ الطبرى الآن من أقدم مصادرنا ، وكان تاريخ الطبرى فى النصف الثانى من القرن الثالث (أى قبل أحد عشر قرنا) يعد من مصادر التاريخ الإسلامى الحديثة بالنسبة إلى المصنفات التى دونت قبله بثلاثة بطون ، بل بأربعة . ولعل أقدمها مغازى مؤرخ المدينة موسى بن عقبة الأسدى المتوفى سنة ١٤٠ هـ ، وهو الذى يقول فيه الإمام مالك « عليكم بمغازى ابن عقبة فإنه ثقة ، وهى أصح المغازى » وابن عقبة من تلاميذ عروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص الليثى . ومن طبقة تلاميذه العراقيين سيف بن عمر التميمى الكوفى المتوفى بعد سنة ١٧٠ هـ ، وله فى سنن الترمذى حديث واحد ، والطبرى يروى عنه بواسطتين ، أى عن شيوخه وهم عن شيوخهم الذين كانوا تلاميذ لسيف . ومن طبقة تلاميذ موسى بن عقبة مؤرخ الشام أبو إسحاق الفزارى الحافظ المتوفى سنة ١٨٦ هـ ، وهو حفيد أسماء بن خارجة

الفزاري وكان له كتاب فى التاريخ أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية فى « مقدمة أصول التفسير [1] » بعد أن قال : « إن أعلم الناس بالمغازى أهل المدينة ، ثم أهل الشام ، ثم أهل العراق ، فأهل المدينة أعلم بها لأنها كانت عندهم ، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ماليس لغيرهم . ولهذا أعظم الناس كتاب أبى إسحاق الفزارى الذى صنفه فى ذلك . وجعلوا الأوزاعى أعلم بهذا الباب من غيره من علماء الأمصار » .

ويأتى بعد تلاميذ موسى بن عقبة طبقة يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص الاموى المتوفى سنة ١٩٤ هـ ، ومن مؤرخى الشام الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقى مولى الأمويين المتوفى سنة ١٩٥ هـ ومحمد بن عمر الواقدى المدنى قاضى العراق المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ثم كاتبه المؤرخ الحافظ الثقة محمد بن سعد بن منيع البصرى (١٦٨ — ٢٣٠) . ومن هذا الجو العلمى استمد أبو جعفر الطبرى هديته الكبرى إلى الأمم الإسلامية بما سجله وخلده من جهود شيوخه وشيوخ شيوخه ومن سبقهم إلى زمن التابعين والصحابة ، فلم يترك مهماً من أخبار سلف الأمة مما أثر عن الأئمة الذين سمينا بعضهم إلا وقد دون طرفا منه ، ناسباً كل خبر إلى صاحبه وإلى من يرويه عنهم صاحب ذلك الخبر من شيوخه وأسلافهم .

الأخبار الضعيفة عند الطبرى :

لم يقتصر الطبرى على المصادر التى أشرت إلى بعضها ، بل أراد أن يقف قارئه على مختلف وجهات النظر ، فأخذ عن مصادر أخرى قد لا يثق هو بأكثرها ، إلا أنها تفيد عند معارضتها بالأخبار القوية ، وقد تكمل بعض ما فيها من نقص . كما صنع بنقله كثيراً من أخبار أبى مخنف لوط بن يحيى الأزدى الذى قال فيه الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال : « اخبارى تالف لا يوثق به ، تركه أبو حاتم وغيره ، وقال ابن معين : ليس بثقة . وقال مرة : ليس بشىء . وقال ابن عدى : شيعى محترق ، صاحب أخبارهم . مات قبل السبعين ومائة » . فقد نقل الطبرى من أخباره فى مئات المواضع ، ولو أن الذين ينقلون عن الطبرى ويقفون عنده ، استقوا أخبارهم من لوط بن يحيى هذا واكتفوا بعزوها الى الطبرى لظلموا الطبرى بذلك ، وهو لا ذنب له بعد أن بين لقارئه مصادر أخباره ، وعليهم أن يعرفوا نزعات أصحاب هذه المصادر ويزنوها بالموازين العادلة اللائقة بهم وبها .

---

(١) ص ٣٢ طبع السلفية .

إن مثل الطبرى ومن فى طبقته من العلماء الثقات المتثبتين ـ فى إيرادهم الأخبار الضعيفة ـ كمثل رجال النيابة الآن إذا أرادوا أن يبحثوا فى قضية فإنهم يجمعون كل ما تصل إليه أيديهم من الأدلة والشواهد المتصلة بها ، مع علمهم بتفاهة بعضها أو ضعفه ، اعتماداً منهم على أن كل شىء سيقدر بقدره . وهكذا الطبرى وكبار حملة الأخبار من سلفنا كانوا لا يفرطون فى خبر مهما علموا من ضعف ناقله خشية أن يفوتهم بإهماله شىء من العلم ولو من بعض النواحى . إلا أنهم يردون كل خبر معزواً إلى راويه ليعرف القارىء قوة الخبر من كون رواته ثقات أو ضعفه من كون رواته لا يوثق بهم ، وبذلك يرون أنهم أدوا الأمانة ، ووضعوا بين أيدى القراء كل ما وصلت إليه أيديهم . قال الحافظ ابن حجر فى ترجمة الطبرانى من لسان الميزان : « إن الحفاظ الأقدمين يعتمدون فى روايتهم الأحاديث الموضوعة مع سكوتهم عنها على ذكرهم الأسانيد ، لاعتقادهم أنهم متى أوردوا الحديث بإسناده فقد برئوا من عهدته ، وأسندوا أمره إلى النظر فى إسناده » .

ومن فوائد إيراد الحادث الواحد بأخبار من طرق شتى وإن كانت ضعيفة قول شيخ الإسلام ابن تيمية فى مقدمة تفسير القرآن (ص ٣٠ — ٣١) : إن تعدد الطرق مع عدم التشاعر أو الاتفاق فى العادة يوجب العلم بمضمون المنقول (أى بالقدر المشترك فى أصل الخبر) لكن هذا ينتفع به كثيراً فى علم أحوال الناقلين (أى نزعاتهم والجهة التى يحتمل أن يتعصب لها بعضهم) ، وفى مثل هذا ينتفع برواية المجهول ، والسىء الحفظ ، وبالحديث المرسل ونحو ذلك ، ولهذا كان أهل العلم يكتبون مثل هذه الأحاديث ويقولون : إنه يصلح للشواهد والاعتبار ما لا يصلح لغيره . قال أحمد : « قد أكتب حديث الرجل لأعتبره » .

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن اتساع صدور أئمة السنة — من أمثال أبى جعفر الطبرى — لإيراد أخبار المخالفين من الشيعة وغيرهم ، دليل على حريتهم ، وأمانتهم ، ورغبتهم فى تمكين قرائهم من أن يطلعوا على كل ما فى الباب ، واثقين من أن القارىء الحصيف لا يفوته أن يعلم أن مثل أبى مخنف موضع تهمة — هو ورواته — فيما يتصل بكل ما هم متعصبون له ، لأن التعصب يبعد صاحبه عن الحق . أما سعة الصدر فى إيراد أخبار المخالفين فهى دليل على عكس ذلك . وعلى القارىء الحصيف أن يأخذ ما صفا ويدع ما كدر . وأن يستخلص الحق عند ما يكون موزعا أو معقداً .

الانتفاع بأخبار الطبرى :

إنما ينتفع بأخبار الطبرى من يرجع إلى تراجم رواته فى كتب الجرح والتعديل . فتراجم شيوخه مباشرة وشيوخهم توجد فى الأكثر فى مثل تذكرة الحفاظ للذهبي . وتراجم الرواة الذين كانوا إلى أواخر المائة الثانية توجد فى خلاصة تذهيب الكمال للصفى الخزرجى وتقريب التهذيب وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر . والذين تناولهم الجرح من الضعفاء يترجم لهم الحافظ الذهبي فى ميزان الاعتدال والحافظ ابن حجر فى لسان الميزان . وفى طبقات ابن سعد وتاريخ بغداد للخطيب وتاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ الإسلام للذهبى والبداية والنهاية لابن كثير . وإن كتب مصطلح الحديث تبين الصفات اللازمة للراوى ومتى يجوز الأخذ برواية المخالف . ولا نعرف أمة عنى مؤرخوها بتمحيص الأخبار وبيان درجاتها وشروط الانتفاع بها كما عنى بذلك علماء المسلمين . وإن العلم بذلك من لوازم الاشتغال بالتاريخ الإسلامى ، أما الذين يحتطبون الأخبار بأهوائهم ، ولا يتعرفون إلى رواتها ، ويكتفون بأن يشيروا فى ذيل الخبر إلى أن الطبرى رواه فى صفحة كذا من جزئه الفلانى ويظنون أن مهمتهم انتهت بذلك ، فهؤلاء من أبعد الناس عن الانتفاع بما حفلت به كتب التاريخ الإسلامى من ألوف الأخبار . ولو أنهم تمكنوا من علم مصطلح الحديث ، وأنسوا بكتب الجرح والتعديل ، واهتموا برواة كل خبر كاهتمامهم بذلك الخبر لاستطاعوا أن يعيشوا فى جو التاريخ الإسلامى ، ولتمكنوا من التمييز بين غث الأخبار وسمينها ، ولعرفوا للأخبار أقدارها بوقوفهم على أقدار أصحابها .

وبعد فان تركة سلف هذه الأمة - فى كل ضرب من ضروب المعرفة - من أنفس ما ورثت عن أسلافها . وقد كانت لعلمائنا الأقدمين مشاركة فى علوم كثيرة ، فجاءت مؤلفاتهم مرتبطاً بعضها ببعض ومكملا بعضها لبعض . والذى ألفوه فى التاريخ واعتمدوا فيه على الرواية ، مبالغة منهم فى أداء الأمانة كاملة وافية ، لا يجوز لمن ينقله عنهم أن يقصر فى عرض تلك الأخبار على قواعد علم الرواية وعلى المعاجم المؤلفة فى تراجم الرواة ، وإن لم يفعل أخطأ الطريق ، وكان عمله خارجا عن مناهج العلماء .

محب الدين الخطيب

نحو مجتمع جديد :

مهاجرون وأنصار

بسم الله الرحمن الرحيم : قال الله تعالى فى كتابه الحكيم فى قصة الهجرة ونصره لرسوله : « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا . ثانى اثنين ، إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ؛ فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » ، وقال فى شأن المهاجرين والأنصار : « واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

كانت هجرة الرسول صلوات الله عليه من مكة إلى المدينة ، إيذانا ببدء عصر جديد فى تاريخ العالم ، وعاملا قويا فى رقى الإنسانية ونهضتها ، وحدا فاصلا بين الوحشية والمدنية ، والعبودية والحرية ، والجهل والمعرفة ، والظلام والنور .

ففى المدينة بعد الهجرة بقليل ، بدأ الرسول يبشر بحقوق الإنسان ؛ ويرفع من كرامته فى الحياة ، ويعمل على تحرير الطبقات والأجناس من الرق والاضطهاد والاستعباد والاستغلال ، ويفتح الأبواب أمام المتنافسين من ذوى الكفاية من كل أمة ولون ، ويشرع أصول الحكم العادل ، ويضع مناهج التقدم الروحى والاجتماعى ، ويعلن أن للمحكومين ما للحاكمين ، وأن الدولة إنما وجدت لخدمة الفرد . . . ووجد الرسول نفسه أمام ثلاث طوائف فى المدينة :

أولاها ـ طائفة المهاجرين الفقراء ، الذين ضحوا بوطنهم ومالهم وتجارتهم ، طلبا للحرية ، وفرارا من الطغيان ، فهاجروا من مكة إلى المدينة ، فرادى وجماعات ، بعد هجرة محمد صلوات الله عليه ، وكان أغلبهم يعمل بمكة فى التجارة يكسب منها الأموال الطائلة ، ويصفهم الله تعالى فى القرآن بقوله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » ويصف الطبقة التى تلتهم فى الهجرة بقوله : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا . ربنا إنك رءوف رحيم » .

والطائفة الثانية ـ هم الأنصار الذين أحبوا الرسول ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه : من الأوس والخزرج سكان المدينة ، وكانت مهنة أكثرهم الزراعة وتعهد الثمار والأشجار والفاكهة ، وكانوا ذوى عدد وثروة ، ووصفهم الله تعالى بقوله . « والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

والطائفة الثالثة ـ يهود المدينة ، الذين طالما أشعلوا نار الخصومة والحرب بين الأوس والخزرج ، وسخروا برسالة محمد وبأصحابه .

مجتمع كهذا المجتمع ، فيه الفقراء والأغنياء ، والمفسدون والمتآمرون ، لابد فيه من بناء جديد ، وحركة بعث وتجديد ؛ فماذا فعل محمد صلوات الله عليه ؟ بدأ الرسول يعالج هذه المشكلات بإلهام سديد ، وعقل حصيف ، وسياسة حكيمة :

طمأن اليهود على حرياتهم الدينية والشخصية ، وتعهد بحمايتهم والدفاع عنهم ، فى وثيقة سياسية بارعة ، وادّعَ فيها اليهود وعاهدهم وحذرهم ، ليضمن سلامة الدولة وأمنها .

والتفت إلى علاج مشكلة التفاوت الشديد فى الثروة ، بين الأغنياء والفقراء ، بين الأنصار والمهاجرين ، فآخى بينهما إخاء فريداً فى تاريخ الإنسانية ، إخاء مودة وتعاون وإخلاص ، فكان يأخذ بيدى المهاجرىّ والأنصارى ويقول : « تآخيا فى الله أخوين » . قال ابن هشام : آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فقال : تآخوا فى الله أخوين أخوين ، فكان الرسول وعلى بن أبى طالب أخوين ، وأبو بكر وخارجة بن زهير أخوين ، وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين ، وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين ، وحمزة أسد الله وزيد بن حارثة مولى رسول الله أخوين ، وجعفر بن أبى طالب ومعاذ بن جبل أخوين ، وسوى هؤلاء وهؤلاء .

كان الرجل من المهاجرين يرتبط برباط الأخوة بآخر من الأنصار ، وصار لكل أنصارى أخ من المهاجرين ، يشاطره داره وماله وإبله وتجارته ، لهذا نصف ولهذا نصف ، وكان إذا توفى أحدهما ورثه أخوه ـ فى العقيدة لا فى النسب ـ إلى أن نزلت آية الميراث ، فجعل الإرث بين ذوى الأرحام والقرابة .

وهكذا تنازل الأنصار الأغنياء ، بوازع من دينهم وضميرهم وحبهم وطنهم ، لإخوانهم المهاجرين الفقراء عن نصف ما يملكون من ثروة وعقار وأرض ، دون تردد أو إبطاء .

وجدّت مشكلة أخرى ، فقد كان الأنصار أصحاب زراعة ، بينما المهاجرون أهل تجارة لا عهد لهم بسواها من الحرف ، فماذا يفعلون بالأرض التى أصابتهم ؟

هنا تجلت عظمة إيمان الأنصار ، وجلال أخلاقهم ، وإيثارهم على أنفسهم ؛ فقد أصروا على أن يزرعوا أرضهم وأرض المهاجرين بأنفسهم ، ويقسموا محصولها مناصفة فيما بينهم ، ويكفوهم العمل والمؤونة . تعاونا منهم فى بناء الأمة والمجتمع .

ومع ذلك فقد عمل كثير من المهاجرين فى الزراعة ، كأبى بكر وعمر وعلىّ وسواهم . وعمل آخرون فى التجارة ونجحوا فيها نجاحا عجيبا ، كعبد الرحمن بن عوف الذى عرض أخوه الأنصارى سعد بن الربيع أن يشاطره ماله فأبى ، وطلب إليه أن يدله على السوق فتاجر وربح ، ولما توفى وترك ثروة واسعة قال أناس من أصحاب رسول الله : إنا نخاف على عبد الرحمن فيما ترك ، فقال كعب : سبحان الله ، ولم تخافون عليه ؟ كسب طيبا ، وأنفق طيبا ، وترك طيبا .

ولم يكن هذا هو العلاج الوحيد الذى عالج به الرسول الكريم مشكلة الفقر فى المدينة ، بل خص المهاجرين ببعض الغنائم ، كأموال بنى النضير ، فلم يعط الأنصار منها شيئا ، إلا ثلاثة نفر محتاجين ، وقال لهم : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة ، فقال الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها . . . وهكذا كانت يد الأنصار جليلة على المهاجرين ، حتى قالوا فيهم : ما رأينا مثل أنصار المدينة ، لقد أحسنوا مواساتنا ، وبذلوا الكثير ، وأشركونا فى المهنة . حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله .

وحض الرسول على المحبة والتعاون والرحمة ، وعلى البذل والسخاء والإيثار والصدقة والإحسان ، وإطعام الجائع ، ومساعدة المحتاج ، وإغاثة الملهوف ، وشرع فريضة الزكاة ، وجعل بيت المال فى خدمة الفقراء . وكان الرسول يضرب فى ذلك أروع الأمثال ، ويؤثر على نفسه .

قالت عائشة : ماشبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا .

وذهب الرسول يعود ابنته فاطمة فى بيت زوجها على بن أبى طالب ، فقال : السلام عليك يابنتاه ، كيف أصبحت ؟ قالت أصبحت والله وجعة ، وزادنى وجعا أنى لست أقدر على طعام آكله ، حتى أجهدنى الجوع ، فبكى رسول الله ، وقال : لا تجزعى يابنتاه ، فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث ، وإنى لأكرم على الله منك ، ولو سألت ربى لأطعمنى ، ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ، أبشرى ، فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة .

وحمل إليه صلوات الله عليه فى يوم تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها وعاد لا يمسك منها درهما .

وكان المسلمون من الأنصار والمهاجرين يضربون المثل رائعا كريما فى فضيلة الإيثار ، نزل برسول الله ضيف ، فلم يجد عند أهله شيئا ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام ، وأمر امرأته أن تطفىء السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام ، كأنه يأكل ولا يأكل ، حتى أكل الضيف الطعام ، فلما أصبح قال رسول الله : « لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم » .

وأهديت لعبادة بن الصامت هدية ، وإن معه فى الدار اثنى عشر من أهل بيته ، فقال عبادة : اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا ، قال الوليد بن عبادة فأخذتها فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون : اذهبوا بها إلى آل فلان ، فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية ثانية إلى عبادة .

وحرم رسول الله الاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل . ودعا الأغنياء إلى التنازل لإخوانهم الفقراء عن بعض يملكون من أرض دبة ومنحة ، فقال : من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه ولا يؤاجرها إياه ، وقال : من كانت له أرض فليزرعها أو ليحرثها أخاه فإن أبى فليمسك أرضه ، وقال : لأن يمنح الرجل أخاه أرضه خير له من أن يأخذ عليها خرجا معلوما . ودعا إلى الرحمة والبر والخير والتعاون والمساواة .

هذا هو الرسول الكريم ، وهؤلاء هم المسلمون حقا ، من الأنصار والمهاجرين ، من بناة مجدنا الخالد ، والدعاة إلى خير الدنيا والآخرة ، وممن لم يفتنهم المال ، ولم تلههم

الإسلام ومساهمته في بناء السلام العالمي

لم ترسل الرسل وتتنزل عليهم الملائكة بالوحى والكتب من عند الله إلا لإصلاح حال البشر، وتزكية نفوسهم، وإقامة العدل والمساواة بينهم، ودفع طغيان بعضهم عن بعض، وتأسيس بناء المجتمع فى الأرض على دعائم صالحة للحياة والعمران حتى تنصرف قوى البشر لمنفعة البشر «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» (سورة الأعراف آية ٩٦)

وكان من عجيب سر الأديان جميعا، وترادف الرسل إلى أهل الأرض، أن كان أول ما يهدفون إليه ويدعون له، إنما هو عقيدة التوحيد وإزالة كل معبود على وجه الأرض

زهرة الحياة الدنيا، وكانوا مع الله فكان الله معهم، وممن أدوا الحقوق، وجعلوا أنفسهم فى خدمة إخوانهم فى الله والوطن.

وما أحوجنا اليوم إلى أن نسير على ضوئهم، ونستهدى بهدى رسولنا الأعظم، ونساعد الدولة فى خدمة الشعب وبناء الأمة وضمان الحياة الكريمة للفقراء، وأن يؤثر أغنياؤنا على أنفسهم، ولا يبخلون بما لهم فى سبيل الله والمعروف.

وإنى لا أجد فى ختام هذه الكلمة أبلغ من قول الإمام أبى حامد الغزالى: فى «الإحياء»:

«إن على الإنسان فى ماله أن يعرف مقصود المال، وأنه لماذا خلق؟ وأنه لم يحتاج إليه حتى يكتسب؟ فلا يحفظ إلا قدر الحاجة، وألا يعطيه من همته فوق ما يستحق. وعليه أن يراعى جهة دخل المال، فيجتنب الحرام المحض، وما الغالب عليه الحرام، كمال السلطان؛ ويجتنب الجهات المكروهة القادحة فى المروءة كالهدايا التى فيها شوائب الرشوة. وأن لا يستكثر من المال ولا يستقل منه، بل القدر الواجب، ومعياره الحاجة، والحاجة ملبس ومسكن ومطعم».

عبد المنعم خفاجة
المدرس فى كلية اللغة العربية

الإسلام ومساهمته في بناء السلام العالمي

لم ترسل الرسل وتتنزل عليهم الملائكة بالوحي والكتب من عند الله إلا لإصلاح حال البشر ، وتزكية نفوسهم ، وإقامة العدل والمساواة بينهم ، ودفع طغيان بعضهم عن بعض ، وتأسيس بناء المجتمع في الأرض على دعائم صالحة للحياة والعمران حتى تنصرف قوى البشر لمنفعة البشر « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (سورة الأعراف آية ٩٦)

وكان من عجيب سر الأديان جميعا ، وترادف الرسل إلى أهل الأرض ، أن كان أول ما يهدفون إليه ويدعون له ، إنما هو عقيدة التوحيد وإزالة كل معبود على وجه الأرض

زهرة الحياة الدنيا ، وكانوا مع الله فكان الله معهم ، وممن أدوا الحقوق ، وجعلوا أنفسهم في خدمة إخوانهم في الله والوطن .

وما أحوجنا اليوم إلى أن نسير على ضوئهم ، ونستهدي بهدى رسولنا الأعظم ، ونساعد الدولة في خدمة الشعب وبناء الأمة وضمان الحياة الكريمة للفقراء ، وأن يؤثر أغنياؤنا على أنفسهم ، ولا يبخلون بما لهم في سبيل الله والمعروف .

وإني لا أجد في ختام هذه الكلمة أبلغ من قول الإمام أبي حامد الغزالي : في « الإحياء » :

« إن على الإنسان في ماله أن يعرف مقصود المال ، وأنه لماذا خلق ؟ وأنه لم يحتاج إليه حتى يكتسب ؟ فلا يحفظ إلا قدر الحاجة ، وألا يعطيه من همته فوق ما يستحق . وعليه أن يراعي جهة دخل المال ، فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام ، كمال السلطان ؛ ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة . وأن لا يستكثر من المال ولا يستقل منه ، بل القدر الواجب ، ومعياره الحاجة ، والحاجة ملبس ومسكن ومطعم » .

عبد المنعم خفاجة
المدرس في كلية اللغة العربية

من دون الله ، ولم يكن ذلك لأن عقيدة التوحيد هي حق فى نفسها فحسب ، وإنما كان إلى ذلك أنها حينما تتضمن إفراد الله بالعظمة ، تتضمن المساواة بين أفراد من عداه « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » وفيه تمام المساواة بين أبناء البشر وأفراد المجتمع الواحد . وهذه هي الحرية والمساواة التى تصرخ بها الحضاره والمدنية الحديثة على أنها ثمرة الثورة الفرنسية ، بينما هى أولى عقائد الأديان منذ نزلت الأديان ، إذ هى صنو عقيدة التوحيد ، ومقتضاها أن السيد الفرد هو الله سبحانه ، والجميع بعد سواء فى الحقوق والواجبات ، حتى كان النبي يقول لقومه « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » (سورة هود آية ٨٨) فأول مبادىء الإسلام وعقائده هو تأسيس المجتمع على المساواة والعدل بين الناس ، لأنهم سواسية لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وهذا هو مبدأ إخراج الناس من الظلمات إلى النور الذى جاءت به الأنبياء فأخرجوا الناس من ظلمات جهلهم بالله سبحانه إلى نور المعرفة به ، ومن ظلمات جهلهم بحقوقهم الشخصية أمام كبرائهم وملوكهم إلى نور العلم بأنهم وإياهم سواسية كأسنان المشط ، لا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله .

وبذلك يتم بناء صرح المجتمع على أسس من العدالة لا تنهار . وقطعت الرسل مرحلتها الأولى فى رسالتها فى ترويض العقل البشرى على فهم هذه الحقيقة فى عقيدة التوحيد ومبدأ المساواة .

وكان كثير من السادات فى أممهم يقبلون عقيدة التوحيد ولا يقبلون المساواة بينهم وبين الضعفاء من أممهم ، فيأبى عليهم الأنبياء ذلك ولا يقبلون منهم إلا العقيدة كاملة « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » . . الآيات . وكذلك فعلوا مع الرسول ﷺ وطلبوا أن ينحى من مجلسه الضعفاء ليجلسوا معه ويستمعوا إليه ، فأبى . ونزل قرآن كريم على النبى صلوات الله عليه فى إشاحة خفيفة عن أعمى جاءه وكان مشغولا بوفد من السادات « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » . . . الآيات .

هذا هو مبدأ الدين من عقيدة إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية ، وخرط جميع من سواه فى سلك العبودية له على السواء ، فتتحد كلمة الأمة ويخف بينها الخلاف أو ينعدم . وكلما كانت الأمة أو الأمم متحدة فى العقيدة الصحيحة السليمة كان ذلك أدعى إلى السلم

فيما بينها ، وأدفع للقوى أن تتجه إلى الإنتاج الاقتصادى النافع متعاونة بروح واحدة هى روح الأخوة ، وفى ذلك عماد الحياة وصلاح الأرض وسلامة الأمر وتواد النفوس ، فلم يكن إجماع الرسل وتضافر الأديان فى كل زمن على عقيدة التوحيد إلا لمصلحة البشر أنفسهم ، واجتثاث نزعة الطغيان منهم بعضهم على بعض بسبب تفاوت البشر فى القوى والقدر ، فيظن القوى أنه خير من الضعيف ، فجاءت الأديان كلها بعقيدة التوحيد والمساواة توحيداً لله بالربوبية والمساواة بين أفراد من عداه .

وهذه الحروب الطاحنة التى تنشب فى هذا العصر ، بين كل وقت وآخر ، بين بنى الجنس الواحد من أبناء البشر ، مما لا يوجد له نظير فى أبناء جنس آخر من الكائنات الحية التى على وجه الأرض ، والتى لم توهب نعمة العقل ، هذه الحروب التى تستنفد قوى البشر وإنتاجهم فى تدمير بعضهم بعضا بسبب اختلافهم فى مبادىء وآراء ، فراحوا يستخدمون العلم فى سفك الدماء والنكال ، ويبتكرون أسرع المهلكات وأغزرها فى الفناء لأهل الأرض .

أى فساد فى الدنيا أشد من ذلك ؟ قوم يتواطئون على إهلاك أنفسهم وغيرهم بأيديهم . فهل هذا الجنون العالمى والانتحار الإنسانى والسير فى سبيل تدمير الحضارة والبشرية خير للإنسانية ، أم الاستغاثة بالسماء لصلاح الأرض ودرء الحرب عنها والانتفاع بالبقية الباقية من الروح الدينية لجمع كلمة البشر على وحدانية الله سبحانه ، والتعاون على محبته وشرعه ، ليكون هؤلاء المتعاونون كتلة واحدة على هدف واحد ، فلا يتحاربون ولا يستنفدون قواهم فيما يعود عليهم إلا بالخير والعافية وبقاء السلام « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » .

حرية العقيدة والحرية الشخصية :

تعترض تلك الكلمة سبيل الباحثين هنا وتصطك بآذانهم حيثما يتفاهمون ، وهى وإن كانت كلمة حق فى بعض وجوهها فقد أريد بها باطل استغله الشيطان وألقاه فى نفوس الكثير من العقلاء ، إبقاء على حبه دوام الخلاف واتساعه بين البشر ، ذلك الخلاف الذى يبتدىء بحجة هذه الكلمة بين كل اثنين من أسرتين أو بلدين إلى ما اتسع له الآن من انقسام الدنيا إلى معسكرين - رأسماليين وشيوعيين - لا يلبث الشر أن تندلع منه شرارة بينهما ، فتطيح بالدنيا بأسرها بسبب مبادىء وآراء ما أنزل الله بها من سلطان .

وهذا الذى نخشاه إنما هو عقاب سماوى ، وإنذار لأهل الأرض الذين أباحوا الكفر الصراح والفسوق والعصيان ، وانتهاك حرمة الآداب وانحلال الأخلاق وفساد الذمم ، كل ذلك بسبب استخدام هذه الكلمة « الحرية الشخصية » فى إنطلاق الأهواء والميول ونشر الإباحية الفاجرة .

ولو أن عشر معشار ما ينفق على التسلح والسياسة الآن ، كان ينفق على حرمة الآداب واحترام الدين ودعوة الإنسانية إلى الخير والصلاح وإيمان الأرض بالسماء ، مابلغ الخلاف ما بلغه الآن ، ولما كشر الشر عن نابه لأهل الأرض يريد أن يفترسهم بين عشية وضحاها .

فأين رجال الدين ، وأين انتفاع الحكومات بهم الآن ؟

إن الدين هو موضع الغوث الذى تنتظره البشرية الآن لإغاثتها مما سيجرفها من حرب طاحنة واقفة على الأبواب ستدمر المدنية وتأتى على الأخضر واليابس .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

أمر النبى ﷺ أن يوجه هذا النداء الكريم ، وهذه الكلمة العادلة على ملأ الأشهاد والرأى العام ، إلى المخالفين المعاندين ، قبل أن يزداد الخلاف وتنشب الحرب .

فهذا النداء الإسلامى والسياسة العليا النازلة من السماء لتوجه من الجبهة الإسلامية إلى جبهة المخالفين ، تؤذن بأن تحتذى ويوجه مثلها مثلا إلى تلك الكتلة الشرقية التى تريد أن تجتاح الأديان والإسلام كما اجتاحته فى مسلمى الشرق ، فنقول : « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا » ـ الرأسماليون ـ المال والأرض احتكارا لهم من دون الناس ، ولا يتخذ بعضنا الحكم قسرا على عباد الله بتحريم الملكية الفردية التى أباحها الله فى كل الأديان ، إلى آخر ما نغزو به مبادئهم الهدامة ونمهد لهم من مبادىء إسلامية كريمة تشبع نهمهم الإصلاحى من غير هدم ولا طغيان لمن يريد الإصلاح .

وإذا سمعوا أن الرأسمالية والاحتكار والإقطاعيات والكسب غير المشروع أعداهم الأولى قد أصبحت تحارب بلا هوادة فى مصر الإسلامية لأنها موارد يحرمها الإسلام كان ذلك أدعى للإصغاء إلى مصر ونهضتها الحديثة ، وخطتها الوسط العادلة الحكيمة .

والإسلام فى مبادئه وسماحته بين مبادئ الشرق والغرب كلبن سائغ حلو للشاربين يخرج من بين فرث ودم .

وقد راح كل من الطرفين يعبئ قوى الشر والحرب ضد الآخر وهاهو العالم ينتظر البوق ، فهذه الروح الإسلامية فى سياسة السلم وهـذا النداء السماوى الذى وجهه القرآن ونزل به جبريل من السماء إلى خصوم الإسلام أشد ما كانت الخصومة ، هى سياسة تحتذى ويقتبس منها النور .

فلماذا لا ينتفع المسلمون فى مواقفهم بقرآنهم الكريم الداعى للسلم ، ويتخذون منه نبراسا ويتفهمون مراميه وأهدافه ليستوحوا منها ما ينفعهم فى ذلك وليرفعوا به الصوت عاليا فى السياسة العالمية ويعلنوا همة الإسلام العالية فى خدمة البشرية ولا سيما فى درء الشيوعية وكفرها الصراح .

ليس إكرام القرآن الكريم بين أهله هو تلاوته فحسب والتغنى به فى المآتم والحفلات ، وإنما إكرامه العمل به ، والتضامن على تدبره وفهمه ، وإشعار الأمم والشعوب والطبقات العالية المثقفة بأن القرآن فيه فصل القضاء فيما اختلف فيه الناس فى كل زمان ومكان .

وهذه مهمة شاقة يجب أن ينهض بها الأزهر الشريف فى عهده الجديد وعهد هـذه الحكومة الناهضة وعهد هذا الظرف العالمى الحاضر الموجب لذلك . ومن اتخـذ القرآن مهجورا هيهات أن يكون بين الناس منصورا . فيجب على أهل القرآن الآن المؤمنين به وبرسالته العالمية أن يواجهوا الناس بما فيه من مقاطع الحكم ومفاصل الخلاف ، وأن يقنعوا العالم بذلك ، ساستهم وشعوبهم ، وطرق الإقناع واسعة ، والسبيل نهج والدين واضح والدولة للبيان ، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا » .

وهذه فرصة للإسلام لن تعوض يجب أن ينتهزها الأزهر الشريف فى عهده الجديد وعهد حكومة مصر الناهضة، فقد ذهب العصر الذى كان إذا تكلم فيه المسلمون قالوا : متعصبون، وجاء العصر الذى يستغيث بنا فيه الساسة العالميون لدرء الشيوعية الكافرة . وما أدرانا لعل الإسلام حينما يجاجل صوته بين الكتلتين تهفو له قلوب وتؤمن به شعوب وتنطق به حروب ، وتقع عليه العين وتصالح به ذات البين ، وتحقن به دماء وترضى به عن الأرض السماء .

عبد السلام القبانى
أستاذ بكلية الشريعة

الحدود فى نظر الإسلام

هذا أسلوب من أساليب التربية الدينية يريد الشارع الحكيم أن يستقيم حال الناس به ، ويصلح سلوكهم عليه ، وتسود فيهم الأمانة ، وتعلو بينهم راية الشرف ، لأنه سبحانه بعد خلقه إياهم فى أحسن تقويم ، وتسخيره لهم الكون كله يستقلون أرضه ، ويستظلون بسمائه ، ويتمتعون بخيراته التى يحتويها ، لم يبق لهم عذر فى عـــدم تذليله لإسعادهم ، واستخدامه لرفاهتهم . وشذوذهم عن هذه الطبيعة ، وخروجهم عن مألوف تلك العادة ، وتمردهم على ما تقضى به السنن من الهدوء والسلام ، والأمن والاستقرار ، وميلهم إلى الإفساد والشر ، والإضرار والكيد ، والإيلام والتنغيص ، وتحويل البيئة التى يعيشون فيها إلى مباءة للآثام والفجور ، كفران بنعمة الله التى أنعم بها عليهم ، ونكران لجميله الذى أسداه إليهم ، يستأهلون من أجله الغضب والسخط والعقاب والوعيد ، والزجر والتأنيب . . . ولذلك جعل — جل وعلا — الحدود بمثابة الردع للمفسدين ، والتهذيب للمذنبين ، والتخويف للملتوين ، عسى أن يكون هذا باعثا على إقرار الأمور ، وصلاح الأحوال ، والاستقامة على الجادة ، ليتوفر للناس العيش السعيد ، والحياة الرتيبة الهادئة .

والناظر إلى الحدود الإسلامية — فى بادىء الأمر — ربما ظن أنها قاسية على ابن آدم الذى خصه ربه بالكرامة ، وميزه بالعقل ، وفضله على سائر المخلوقات . ولكن الذى يدقق التأمل ، ويمعن التفكير ، يعتقد أن المرء الذى يصل به تحلله فى خلقه ، وانحداره فى سلوكه ، وتهاونه فى شرفه ، واستهتاره بغيره ، إلى هذا القدر من استباحته للأعراض ، وتغاضيه عن الحقوق ، وتنصيبه من نفسه — هكذا — معول هدم لإفساد الجماعة البشرية ، يجدر به أن يزول من على الأرض ، لا أن يبقى كما تبقى الجراثيم الفتاكة يتطاير شررها ، ويستفحل ضررها ، ويعم وباؤها ، ويتزايد على تطاول الليالى فتكها الذريع . على أن الباحث فيها من ناحية أخرى يرى أنها ترفقت بالمجرم وعلقت عليه بعض الآمال حين أبقت على حياته من الموت ، وصانته من الهلاك ، لأنها ترجو منه الاستقامة على الصراط السوى ، والمهيع

الصحيح ، ليصبح نافعا لنفسه وللناس ، ويكون الذى صادفه موقظا لأحاسيس الخير فيه ، ثم لا يكون فى عمله بعد ذلك ما يشين الحياة ، ويزرى بالإنسانية .

وإذا قيس هذا الصنيع بما تفعله بعض الدول الآن — على ضوء الفلسفة الحديثة — من حرمان أمثال هؤلاء من التناسل والاختلاط ، ومباشرة الحقوق الدستورية ، والميزات الاجتماعية ، لا يصح لنا إلا أن نقول إن الإسلام كان متسامحا إلى أقصى حدود التسامح .. على أنه فى بعض حالات العقوبة لا تأخذه هوادة ولا رحمة ، ولا تعطفه عليهم شفقة ولا رأفة ، فيكون حكمه بالموت ، وذلك فى زنا المحصن ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها ، والذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً . ومما لا شك فيه أن أمثال هؤلاء لا يرجى منهم إلا أن يكونوا على هذه النحيزة من الشر ، ولؤم الطبع ، وفساد الطوية ، وخبث النفس ، وهم فى هذه الحال أشبه بالعضو الذى احتوى على المرض الخطير ، وقرر الطبيب أن وجوده يودى بالجسم كله ، ويقضى على الأعضاء جميعها .

ولخطورة هذه المواقف ، وصعوبة ثبوتها فى كثير من الأوقات لم يرض أن يكون ادعاء حدوثها قضية مسلمة ، بل أحاطها بسياج من الحذر ، وجعلها لا تتقرر فى الواقع إلا بشهادة العدول من المكلفين الأحرار ، وبخاصة الزنا لما يترتب عليه من التفريق بين الزوجين ، وتشريد الأطفال ، وتقويض صروح السعادة .. فإنه لم يقبل الشهادة إلا من أربعة شهداء يشهدون أنهم رأوا كلا من الرجل والمرأة على وضع خاص ، وجعل للمشهود عليهما الحق فى درء الحدود بالشبهات وليس بعد هذا حذر من العبث ، وصون للأخلاق ، وحفظ للأعراض ، ودفاع عن الأنساب التى هى الرصيد الضخم من المجد والشرف ، والعزة والكرامة . . .

وفى هذه الفاحشة تقول الآية القرآنية « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » وهو - جلت حكمته - يدلنا بهذا البيان ، على قيمة هذه الجريمة من الخطر الذى يهدد المجتمع ، ويفسد الأمة ، حين يأمر بهذه القسوة ، وتلك العلانية . . .

أما القاتل للنفس التى حرم الله قتلها فإنه حيوان تحولت طبيعته ، وفسدت غرائزه ، وأصبح الأمل فى الأنس به ، والمعاشرة له ، والحياة معه ، ورجاء النفع منه ، من الأوهام

الباطلة ، والتخيلات المكذوبة ، لأن تلك الضراوة التى ظهرت عليه ، والوحشية التى بدت آثارها فيه ، دليل قاطع على أن الخير كل الخير كان فى استئصال شأفته من الوجود ، وذهاب آثار نفسه الشريرة من الحياة ، لئلا يهدد بقاؤه الناس ، ويشيع ظله الفوضى فى العالمين . . .

وكان المسلم الأول ، حين يتردى فى تلك المعصية يعتقد أن الشيطان قد انتصر عليه ، وأن الهوى قد غلبه ، وأن الطيش قد لعب به ، فلا يسعه إلا أن ينتقم من هذه كلها بالاعتراف على نفسه ، والتقدم بين يدى الحاكم ليقيم الحد عليه ، ويغسل عنه أوضار المعصية وقذر الذنب ... وقد ثبت أن ذلك العمل حدث أكثر من مرة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع أن العهد كان قريباً من جهالة الكفر ، وفظاظة الشرك ، وخشونة البداوة وكان الظن أنهم يتجاهلون سلطان الشريعة ، وهيمنة الدين ، أو يحتالون الحيل لعدم الإذعان له جهد المستطاع ، ولكن رجولة العرب ، وصراحة المسلمين ، جعلت تلك الروح أشبه بالأشياء التى تصدر عن الطبع والعادة من غير تكلف ولا معاناة .

ولو أن الدين الإسلامى ظل له هيله وهيلمانه ، وكانت أحكامه تسود العبادات والمعاملات ، وآدابه تهيمن على الأندية والمجتمعات ، وسلطانه يتركز فى أنحاء الدنيا ، ويتهامس الناس أن الحدود قائمة ، وأن الإشراف على تنفيذها يأخذ من رجال الإدارة والحكم اهتمامهم وعنايتهم ، لما سرى إلينا نبأ حوادث السرقات والغصب ، والفجور والعهر ، والعدوان والظلم ، والقتل وسفك الدماء ، ولظلت البسيطة ميدانا للسلام والوئام ، والسعادة والحب ، والطمأنينة والاستقرار ، ولما مشى هذا الفشل والفوضى إلى أوساطنا المختلفة بذلك القدر الشنيع ...

ويقيننا أن ما نقاسيه الآن من ذبذبة خالية من الاتزان ، مجردة من العقل ، بعيدة عن المنطق ، نائية عن الصواب ، مجافية للمصلحة ، سيحملنا ـ رغم أنوفنا ـ على أن نحتكم إلى القرآن فى هديه وإرشاده ، وتشريعاته وأحكامه ، وتوجيهه وتهذيبه ، ولا سيما حينما يبدو لنا أن ما نتخبط فيه من دساتير ونظم أجنبية عنا ، ما هو إلا أسلوب الأحمق ، وحيلة العاجز ، وربما كان ذلك قريباً جداً .

ابراهيم أبو الخشب
مدرس بكلية الشريعة

شيخ الأزهر يعترض على القبعة

قالت جريدة « الأهرام » فى عددها الصادر يوم الأحد ١٢ أكتوبر :

على أثر ما أذيع خاصاً بأن اللجنة التى ألفت لتوحيد الزى أنها قد رأت استبعاد الطربوش كغطاء للرأس والاستعاضة عنه بغطاء عملى مناسب كالبيرية أو القبعة ، على أن يشمل توحيد الزى جميع المصريين ، عدا رجال هيئة كبار العلماء ، والعلماء المشتغلين بالتدريس ، توجه مندوب « الأهرام » إلى فضيلة الأستاذ الأكبر وسأله رأيه فى هذا الزى المقترح ، فأفضى إليه فضيلته بهذا التصريح الهام .

إنى علمت أنه قد اقترح أن يكون الزى الموحد هو الزى الأوربى ، لأنه أصبح زيا عالميا ولأنه من الناحية العملية أكثر ملاءمة لهيئات العمال والفلاحين وهذا الزى يتألف من بنطلون وقميص بأثمان مناسبة .

وإنى أصرح بأن القبعة والبيرية ليستا زيا عالميا ، وأن مئات كثيرة من الملايين فى آفاق لا حد لها من قارات الأرض لم تتخذ هذا الزى ، ولذلك لم يبلغ أن يكون زيا عالميا ، ثم إنه ليس من الحتم على أية أمة أن تجارى الشكليات حتى لو كانت عالمية قبل أن تقتنع بأن ذلك أصلح لها .

والأصلح لجو كل أمة هو ما دلتها عليه تجارب ألوف السنين . وإذا استوحى المصلحون من هذه التجارب الطويلة ما يكون به توحيد الزى ، فإنهم يصيبون بذلك الغرض من التوحيد والإفادة من تجارب الزمن .

وإن مصر على الخصوص عضو ممتاز ومرموق فى العالم الإسلامى الذى زاد تعداده فى هذه السنوات على خمسمائة مليون ، ومن غير المنتظر أبداً أن يرضى العالم الإسلامى بأن يفنى شخصيته فى غيره ويندمج فى الزى الأجنبى عنه المزعوم أنه عالمى ، لا سيما وأن فى سنن الإسلام الجوهرية التى لا يمكن أن يتساهل فيها المسلمون — إلا بانحرافهم عن دينهم — أن يكونوا متميزين عن غيرهم . وأئمة المسلمين يعدون من الخروج على الإسلام الانحراف عن زيه إلى زى غير المسلمين فيما اختصوا به من علاماتهم ، وقد كان من علاماتهم فى القرون السالفة « الزنار » فكان لبس المسلمين يومئذ للزنار يعد فى الفقه الإسلامى خروجا على الإسلام يستحق فاعله العقوبة . والمتعارف الآن عند المسلمين فى مختلف أقطارهم أن القبعة هى علامة غير المسلمين التى يفترقون بها عن أهل الإسلام ، فلها الآن مثل حكم الزنار فيما مضى .

وعلى كل حال فإن شهوة الانغمار فى الزى على زعم أنه عالمى — وما هو بعالمى — سيفصل المصريين وهم قلة قليلة من المسلمين ، عن إخوانهم من أمم العالم الإسلامى البالغ عددهم خمسمائة مليون ، وأول ما سيكون من سوء الأثر لذلك فى شطر وادى النيل الجنوبى . وقد جربت إحدى الامم الشرقية هذا الأمر قبل نحو ربع قرن ، وحملت شعبها عليه بالقوة ومع ذلك لا يزال شعبها حزينا آسفا مكسور الخاطر ، مما حمل عليه .

ولا يزال العالم الإسلامى ينظر إلى ذلك بعين الاستنكار والاستغراب ، وقد كان القائمون بهذه التجربة يتوقعون هم والذين شجعوهم على ذلك أن يكونوا قدوة فيه لامم إسلامية أخرى .

فكان المسلمون أحصف من أن ينزلقوا فى ذلك ، لانهم يعلمون أن به خروجا عن سنة من سنتهم التى احترموها والتزموها منذ أربعة عشر قرنا . إن فكرة توحيد الزى فكرة حسنة ، ولكنها فى أى قطر يغلب على سكانه العمل بأحكام الإسلام ينبغى أن لا يصطدم بسنة من سننه ليكتب لها النجاح والبقاء والرضا من جمهور الامة .

وقد سأل مندوب « الأهرام » فضيلته عن الزى الذى يراه ملائما لنا ، فقال : للقائمين بالأمر أن يختاروا الزى الذى يرونه ملائما لنا ، على أن يكون مخالفاً لما امتاز به غير المسلمين .

المفتى كشيخ الأزهر

فى استبدال القبعة بالطربوش

سأل مندوب « الأهرام » الاستاذ الشيخ حسنين مخلوف مفتى الديار المصرية عن رأيه فى استبدال القبعة بالطربوش .

فأجاب بقوله : « إن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر قال قولته ضد ذلك ، وبهذه القولة قطعت جهيزة قول كل خطيب » .

توحيد الزى

فى جريدتى (الأهرام) و (الأخبار الجديدة) الصادرين يوم ١٣ اكتوبر حديث لمندوبيهما مع السيد حسين أبو زيد وزير المواصلات جاء فيه قول الوزير عن توحيد الزى

« إن رأيى الشخصى هو أنه لا داعى للتفكير فى هذا الموضوع اليوم ، فلم يحن الوقت بعد لمثل هذا العمل ، فإن لدينا من المهام الخطيرة ما هو أجدر باهتمامنا فى الوقت الحاضر من توحيد الزى ، أما بالنسبة لطلبة المدارس فلا ضير هناك من أن تقتصر ملابسهم على القميص و « الشورت » .

القرآن الكريم

والحاجة إلى المدارس التي تقوم على تحفيظه

والتلاميذ الذين يقبلون على حفظه

كانت « الكتاتيب » هي المدرسة الأولى لتعليم القرآن الكريم وعن طريقها كان يلحق الطالب بالأزهر الشريف ، ثم جاءت المدارس الأولية وكان في برنامجها تحفيظ القرآن الكريم ليكون جواز المرور إلى الالتحاق بمدارس المعلمين الأولية ، ولما عمم التعليم الإلزامي لم تجد « الكتاتيب » لها مكانا بجوار ذلك المنافس الخطر فأغلقت أبوابها وانقرضت . ومن المؤسف أن ما كان يتعلمه التلميذ في تلك المدارس لم يكن يزيد عن الثلاثة الأجزاء الأخيرة من القرآن . فكانت بوضعها هذا ، الحلقة الأولى من السلسلة التي أريد إحكامها حول الجيل الجديد لتطويقه بها . ثم الابتعاد به عن حظيرة ذلك الكتاب المقدس . وعندما أصبح التعليم الابتدائي والثانوي مجانا دون قيد ولا شرط تهافت عليه الجميع وتحولت المدارس الأولية والإلزامية إلى مدارس ابتدائية لتستوعب الجيوش الجرارة من التلاميذ ، وبتحويلها هذا تمت الحلقة الثانية من السلسلة الرهيبة ، فقد قضى بذلك على تحفيظ القرآن الكريم بالمدارس إذا استثنينا بعض الآيات المتفرقة التي اشتمل عليها المنهج الدراسي ، أما قسم الحفاظ الموجود في بعض المدارس فالإقبال عليه في حكم المعدوم .

ثم جاءت الحلقة الأخيرة وهي النتيجة الحتمية لتلك المقدمات ، فقد نشر بجريدة الأهرام الصادرة في صباح يوم ١٩٥٢/٩/٢٥ تحت عنوان « العناية بالقومية المصرية في مناهج الدراسة الجامعية » موضوع قيل إنه معروض على لجنة العمداء بجامعة فؤاد تمهيداً لعرضه على مجلس الجامعة لإقراره . وقد كان هذا الموضوع خاصا بكلية دار العلوم ولكن جاء في صلبه ما يأتي وهو بيت القصيد : « وإذ نظر المجلس في الطلبات المقدمة رأى أن عدد المتقدمين من حملة الشهادات الثانوية في الأزهر الشريف أقل بكثير من العدد المحدد هذا العام ، وأن قبول

حملة شهادة إتمام الدراسة الثانوية القسم الخاص « التوجيهية » يتفق مع لائحة الكلية. وعلى هذا فقد قرر المجلس السماح لهم بالالتحاق بالكليات هذا العام، أملا فى أن يكون هذا بداية عهد جديد تنتهى فيه الفروق الصناعية بأن يسمح لحملة التوجيهية بالانتساب إلى جميع كليات الأزهر الشريف، كما يسمح لحملة الشهادة الثانوية الأزهرية بالانتساب إلى الكليات الجامعية ما لم يحل دون ذلك حائل فنى » . وهكذا اقتربنا من الخاتمة بصورة واضحة .

قد يكون معقولا أن يلتحق الطالب الأزهرى بالجامعات فى كلياتها المختلفة عدا الشعب التى تكون فيها اللغات الأجنبية مادة أساسية ، لأن المنهاج الثانوى فى الأزهر والمدارس واحد إذا استثنينا اللغات الأجنبية ، ولكن الذى لا يقبل عقلا ولا فرضا هو التحاق طالب الثانوى بالكليات الأزهرية وهو الذى لا يعرف من أمور دينه إلا القشور ، إذ كيف يرجى منه أن يكون واعظا دينيا أو خطيبا ومدرسا فى مسجد أو قاضيا شرعيا أو غير ذلك من الوظائف الدينية التى تحتم على صاحبها إجادة حفظ القرآن الكريم والإحاطة بالشريعة الإسلامية إحاطة تامة من جميع نواحيها وأصولها وفروعها .

مما تقدم يتضح مع الأسف الشديد أن القرآن الكريم سوف لا يجد المدارس التى تقوم على تحفيظه ، ولا التلاميذ الذين يقبلون على حفظه ، طالما أن هناك بالمدارس من المغريات ما يجتذب إليها التلاميذ ، وسيكون نتيجة لذلك أن يأتى يوم لا يجد فيه الأزهر من يتقدم إليه من الطلبة ليخرج لنا مصابيح الهدى وأعلام الشريعة ، وبذلك يكون ما جاء بجريدة الأهرام هو الملجأ الأخير والغاية المنشودة ، وعندها قل على الأزهر العفاء وعلى الدين السلام .

فإلى رجال العهد الجديد ، عهد النور والحرية والإصلاح ، وإلى فضيلة العالم العامل الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أبعث بهذه الصرخة ، راجيا دراسة هذه المشكلة الخطيرة وأن يكون لها من رعايتهم ما هى جديرة به من العناية والاهتمام قبل أن يستفحل الخطب ويعم البلاء .

عبد الجليل النمر

مستشفى الأوقاف — بطنطا

طليعة الوحى الإلهى

النص القــرآنى :

[اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم] .

اقرأ أول نجم نزل على محمد ﷺ :

روى البخارى عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه — وهو التعبد — الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال :

[اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم]

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : زملونى ، زملونى ؛ فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة . وكان امرءاً قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب — وكان شيخاً كبيراً قد عمى — فقالت له خديجة : يابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن أخى ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، يا ليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : أو مخرجى هم ؟ قال : نعم :

لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزرا .
ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى .

وكون هذه الآيات أول نجم نزل على محمد ﷺ هو ما اعتمده العلماء على وفق هذه الرواية الصحيحة المؤيدة بكثير من الروايات الأخرى .

ومن هذه الرواية نستطيع أن نتبين حالة الرسول قبيل البعثة ، وحالته عند مبدإ البعثة ، ثم حالته بعد أن تلقى أول نجم نزل عليه ، مما يرشد إلى أنه كان متهيئاً لها أتم التهيؤ ، فى حال أنه كان خالياً عنها تمام الخلو ، ثم تركيته وهو فى دهش الحادث ، فلم يقدر أن يضبط قواه ، ويراجع نفسه ، حتى يحكم فيها حكما جازماً بأنها وحى من الله ، فذهب يستعين بورقة بن نوفل - وهو من أولى العلم بهذا الشأن - كما أنها أوقفتنا على فترة الوحى بعد ذلك ، مما يدل على براءة ساحته من التقول والادعاء .

تصوير الموقف :

نزل الروح الأمين على محمد ﷺ بأول نجم من نجوم الرسالة العظمى التى مكثت تتنزل ثلاثاً وعشرين سنة ، كلها كانت جهاداً فى سبيل إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، بالدعوة تارة ، وبالهجرة أخرى ، وبالقتال ثالثة ، حتى تم له الأمر ، واستقر له الحال ، وأدى الرسالة تامة كاملة ، ثم تركها لخير أمة أخرجت للناس ولحق بربه .. !

فانظر ماذا كان يقتضيه الموقف فى افتتاح تلك الرسالة العظمى ، من الرب الأعلى ، إلى محمد الأمى ، ليقوم بهذه المهمة الخطيرة .

محمد خالى الذهن عن مخاطبة من ربه ، اللهم إلا ما كان عنده من ذلك الشعور الذى حصل له بسبب الرؤيا الصالحة فى النوم ؛ وربه الأعلى يريد أن يرسله للناس ليبلغهم عنه نجوم هذه الرسالة ، ليمتثلوا ما فيها من أوامر ونواه .. فما تكون إذاً عناصر تلك الرسالة ؟

من المعقول أن تكون هذه الرسالة مشتملة على تعريفه بالمرسل للرسالة ، ثم بمنزلته منه التى تربطه به ، ثم بالمهمة المأمور بها التى هى غرض الرسالة ، ثم بالعلاقة التى تربطه بالمرسل إليهم ، ليصح منهم تقبل ما كلفوا به ، ثم تعريفه بالجهة التى تلزمهم بالاعتراف بتلك الرابطة .

المرسل هو الله ، وهو رب محمد ، ومهمة محمد التبليغ ، ثم هو رب الناس المبلَّغ إليهم ، ثم المبلَّغ هو ما يهتدون به إلى ما يجب عليهم التزامه فى هذه الحياة من مبدأ ومنهج وغاية ،

ثم جهة الإلزام تكون أولا بإثبات ربوبيته لهم ، ثم بإثبات كرمه الذى يقتضى امتنانه عليهم ، ثم بإثبات استعدادهم لقبوله ، ثم بإثبات افتقارهم إليه .

أما إثبات ربوبيته فأوضح طريق له الدلالة البينة فى الخلق من التدبير الإلهى الماثل مثولا بيناً فى أطوار الإنسان .

وأما إثبات كرمه فببيان رحمته لهم ، وعنايته تعالى بهم .

وأما إثبات استعدادهم لقبوله فببيان أنه ميزهم بالعقل والفهم والعلم والقدرة على ضبط علومهم وتقييدها بالقلم .

وأما إثبات افتقارهم إليه فببيان أنه الهدى الذى تتوقف عليه سعادتهم من جهة ، وهو فوق طاقة إدراكهم من جهة أخرى .

ولو أن هذه الرسالة صيغت على سنن إنسانى مشتملة على هذه العناصر ، لبرزت على وفق التفكير الإنسانى ، بما يحوطه من مهارة فى القول ، وبراعة فى صيغة البيان ، لا يخرج به عن قدر البشر كالنموذج الآتى :

« من رب محمد إلى محمد . أما بعد ...

فإنى سأرسلك إلى الناس ، لتبلغهم عنى ما أوحيه إليك مما يهتدون به إلى سعادتهم ، إذ أنا ربك وربهم ، وخالقك وخالقهم ، وخالق كل شىء مما تنتفعون به حولكم ، ألم أخلقكم من ماء مهين تدرج فى تطورات الخلق طوراً بعد طور حتى صار إنسانا سويا فى أحسن تقويم ؟ ألم أميزكم على سائر الحيوان الأرضى بالعلم والعقل ؟ ألم أهدكم إلى ضبط معلوماتكم ومعارفكم بالكتاب ؟ ألم يكن كل هذا تفضلا منى عليكم ؟ أأعنى بكم هذه العناية التامة ثم أدعكم فى ضلالكم وأنا الرب الأكرم ؟ ! اقرأ يا محمد عنى ما ألقيه إليك والسلام » ؟

هذه هى الرسالة النموذجية التى يقتضيها موقف أول نجم من نجوم الرسالة لو صيغت صياغة إنسانية ، أما وإن القرآن سيكون معجزة بيانية للبشر فلا بد أن يضمن هذه المعانى فى أفضل البيان وأوجز القول ، فى أسلوب إلهى لا يقدر عليه البشر ، ذلك هو ما نزل فى أول نجم من قوله عز من قائل : [اقرأ باسم ربك ـ الآيات] .

بيان ما اشتمل عليه النص :

يأمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ بالقراءة بقوله (اقرأ) ، ثم لم يذكر أى شىء

يقرؤه . هذه القراءة باسم ربه الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . كان يكفى فى التعريف أن يقول له : [باسم ربك] إذ كان محمد لا يعبد رباً غير ربه [الذى خلق ، خلق الإنسان من علق] ، فوصفه بهذا الوصف لو لم يكن لفائدة فى الرسالة لكان ذكره - فيما يظهر - لغوا لا فائدة له ، ولو ذهبت تستقرىء وجوه الفوائد الممكنة من ذكره ، لما وجدت وجها أوجه من كونه توضيحاً لربوبيته تعالى ، توضيحاً يقتضى أن يكون ربا لجميع الخلق على العموم وربا لجميع الناس على الخصوص ، المستلزم لكونه رب محمد ، مع تضمنه الإشارة إلى جهة الدلالة على خلقه بإشارته إلى التدبير الإنسانى من عهد تدرجه من العلقة إلى أن صار إنسانا سويا .

وذكر العلق — واحده علقة — فى هذا المكان إن لم يكن وجهاً واضحاً من وجوه إعجاز القرآن ، فلا أقل من كونه معجزة علمية عند الخبيرين بشئون الأدلة وسياقها لتفيد الدليل القاطع على ما تساق اليه .

بيان ذلك : أن القرآن يطلق (علقة) على الطور الثالث من التطورات الإنسانية ، فأولها التراب ، ثم النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، . . . قال تعالى « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » . فكان من الممكن أن يقول (خلق الإنسان من تراب) وكان من الممكن أن يقول : خلق الإنسان من نطفة ، وكان من الممكن أن يقول : خلق الإنسان من مضغة . لكن تخير « علق » فى مقام الاستدلال على أن الإنسان مخلوق لابد له من خالق ، تخير عجيب أشد العجب ، إذ هذا الطور لا يطلق إلا بعد ظهور آثار تعلق الجرثومة المنوية ببويضة الأنثى فى الرحم ، هذا التعلق الذى يبتدىء منه التطور التكوينى للجنين ، هذا التعلق المزدوج من نطفة الرجل وبويضة المرأة هو الذى يتكون منه الذكر تارة والأنثى تارة أخرى ، فلو لم يكن هذا التعلق من هذين الشيئين لما كان ذكر ولا كانت أنثى ، ولو لم يكن ذكر ولا أنثى لما كان هناك شىء من هذا التعلق ، فلو ذهبنا نتوهم مبدأ السلسلة على مذهب الطبعيين لوجدناها لاتتناهى إلى حد . وإذاً فلا بد من التسلسل فى سلسلة وجودية شخصية لا تتناهى إلى ابتداء فى القدم وهو محال ، إذ هى حوادث متوقف بعضها على بعض فى الشاهد فلا بد أن تكون لها علة أولية لا تتوقف على معلولها ، وإذاً لا بد أن يكون مبدأ هذه السلسلة إما التعلق من جرثومة وبويضة لا علاقة لها بالذكر والأنثى ، وإما الذكر والأنثى من غير توقف على جرثومة الرجل وبويضة المرأة وفى كل من الفرضين خروج على مقتضى

الطبيعة فى تكوين الأشياء . ثم إذا استمر بك البحث فلا بد من الاعتراف بأن هناك قدرة خارجة كونت الذكر والأنثى تكويناً صالحاً للاقتران ، لا من طريق تعلق الجرثومة الذكرية بالبويضة الأنثوية ، تبتدىء منهما السلسلة ، أو كونت الجرثومة والبويضة تكوينا صالحا للتعلق فى مكان صالح للتربية غير هذا المكان حتى يتكون منهما الذكر والأنثى، وعلى أى فرض فهو اعتراف باحتياج الإنسان فى خلقه إلى خالق مبدع ، ثم إذا نظرنا إلى هذا التدبير الذى يحوط هذا التطور ومبادئه ، من جعل أعضاء التذكير فى الذكر ، وأعضاء التأنيث فى الأنثى ، وكيفية تحول الغذاء الناشىء من التراب نطفة مشتملة على الجراثيم ، ثم القذف بها على طريقة أعد لها من الغرائز والمقتضيات ما أعد ، ثم تحول مثل ذلك فى الأنثى إلى بويضات قابلة للجراثيم ، ثم المكان الصالح للتربية ، وإعداد الغذاء الصالح إلى غاية الاستكمال الجنينى ، ثم تصوير الجنين فى هذا المكان المظلم البعيد عن المؤثرات الخارجية كل البعد ، تصويرا يهيئه لما أعد له فى هذا الوجود ، فتبدع له العين الباصرة ، والأذن السميعة ، واليد الصانعة ، والحواس الظاهرة والباطنة ، والأجهزة المختلفة ، كالجهاز التنفسى ، أوالجهاز الهضمى ، والجهاز العصبى ، ثم إعداده لموهبة العقل ، ثم تسويته فى أحسن تقويم ، ذكرا أو أنثى ، ثم قبوله للنماء إلى أن يصير إنسانا سويا .

كل هذا مع ما بيناه من التوقف المذكور آنفا يجعلك تجزم جزما لا شك فيه بوجود الخالق المدبر الحكيم القدير العليم .

ثم لو نظرت مثل هذا النظر إلى سائر الحيوان لوجدته مثل الإنسان سواء بسواء ، ولو نظرت مثل هذا النظر فى النبات لوجدته كذلك ، ولو انتقلت بنظر إلى الجماد لوجدته مركبا من البسائط (العناصر) على نسب خاصة ووجدت تلك البسائط مكونة من الذرات على كيفيات خاصة ، ونظرت إلى الذرة فوجدتها مجموعة قوى متماسكة يدور بعضها على بعض أشبه شىء بالنظام الشمسى قابلة للانفكاك والفناء ، لعلمت علماً لا شك فيه أنها مفتقرة إلى مدبر لها آخذ بناصيتها .

ولو نظرت إلى ذلك كله لوجدت العالم كله عللا ومعلولات ، أو بعبارة أصح ، أسباباً ومسببات ، يتوقف بعضها على بعض لابد من انتهائها إلى مبدعها الذى لا أول له ، سبحانه ما أعظم خلقه وما أحكم أمره .

بذلك ثبت أن الإنسان مخلوق كما أن العالم مخلوق لخالق قادر ، وكون الخالق ربا لخلقه أمر يكاد يكون بدهيا ، إذ الرب هو المالك المتصرف ولا شىء أقوى من الخلق يوجب الملك

والتصرف ، وكون المملوك واجباً عليه أن يمتثل أمر مالكه أمر كذلك ضرورى الإدراك إذ المملوك فى حيازة مالكه ، يتصرف فيه بما يشاء ، ويأمره بما يريد ، فإن لم يفعل استحق الجزاء ؛ جزاء خروجه أو محاولة خروجه على تصرف مالكه ومربيه . تلك العلاقة وحدها هى التى توجب على محمد ﷺ امتثال أمر ربه فى التبليغ ، كما توجب الامتثال على المبلغ إليهم .

والمفعول المحذوف هو ما يقرؤه محمد ﷺ باسم ربه لا باسم نفسه وهو ما أوحى اليه ، والمعنى اقرأ ما أوحيه اليك باسم ربك ... الخ [1]

ثم إعادة الأمر وتقييده بأكرمية ربه فى قوله تعالى [اقرأ وربك الأكرم] يدل على على أن المقروء من وادى ما يتكرم به الرب سبحانه وتعالى على محمد ﷺ ، وتوضيح الأكرمية بالتعليم بالقلم وتعليم الإنسان ما لم يعلم فى قوله [الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم] يدل على أنه من وادى ما تتم به تلك الأكرمية ، ولو ذهبت تحلل معنى (أكرم) وما به يكون التكرم لوجدت أن معنى التكرم لا يصح إلا حيث يكون المتكرم متفضلا ويكون المتكرم عليه فى حاجة إلى هذا التفضل ، إما لسد نقصه أو لتتميم كماله ، وتطرد نسبة عظم التكرم لنسبة مقدار الحاجة إلى المتكرم به ، وفائدتها عند المتكرم عليه ، فكلما اشتدت حاجته إليها ، وزادت فائدتها عنده من دفع ضر أو جلب نفع ، عظم هذا التكرم والعكس بالعكس .

وإنما كان التعليم بالقلم وتعليم الإنسان ما لم يعلم كرما من الله سبحانه وتعالى بعد الخلق لأنه ميزة الإنسان على سائر الحيوان الأرضى ، ولما كان الخلق على الوجه السابق من كرم الله كان التعليم على هذا الوجه من زيادة كرمه المعبر عنه بالأكرمية ، ولما كانت هذه الأكرمية لا تتم إلا بهداية الرسل كان ذكرها من مؤيدات إرسال الرسل بهذه الهداية التى تتم بها أكرميته سبحانه ، إذ الإنسان مفتقر إليها فى تحصيل سعادته فى الأولى والآخرة ولا يستطيع الحصول عليها إلا بوحى إلهى .

ومن علم قيمة القلم والعلم الذى أنتجه العقل البشرى وهدى الرسالة الذى هو كمال هاتين النعمتين ، علم مقدار كرم الرب الأعلى على الإنسان الضعيف الفقير إليه الذى لا يملك من شأنه شيئاً إلا بنعمة الله وفضله .

فانظر لهذه الرسالة المباركة ، وأشهد بأنها من كتاب ليس من قول البشر ؟

محمد السماحى

مدرس بكلية أصول الدين

---

(١) من العجب أن تبقى بشارة التوراة ملوحة بهذا المعنى إذ يقول فيها [أقيم لهم نبيا من وسط أخوتهم مثلك واجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه] .

باب الأسئلة والفتاوى

البهـــــائيون

مرتدون وخارجون عن دين الإسلام

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

١ — ما رأيكم فى النحلة البهائية ومعتنقيها من الإسلام ؟

٢ — هل يورَّث معتنق البهائية من المسلم ؟

على محمد الوقاد

١٢٩ شارع السد البرانى ـ قسم السيدة زينب

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد . فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال وعلى البيان المرافق الذى شرح به المستفتى مبادىء المذهب البهائى . وتفيد بأن مذهب البهائية مذهب باطل ليس من الإسلام فى شىء ، بل أنه ليس من اليهودية ولا النصرانية ، ومن يعتنقه من المسلمين يكون مرتداً خارجا عن دين الإسلام .

فإن هذا المذهب قد اشتمل على عقائد تخالف الإسلام ويأباها كل الإباء . منها : ادعاء النبوة لبعض زعماء هذا المذهب والالوهية لبعض آخر ، وأن الإيمان هو متابعة هذا المذهب والكفر هو مخالفته ، وأن هذا المذهب ناسخ لجميع الأديان ، إلى غير ذلك .

ومن المقرر شرعا أن المرتد لا يرث المسلم ولا غيره . وعلى ذلك فمعتنق مذهب البهائية لا يرث غيره مطلقاً . وبهذا علم الجواب عن السؤال . والله أعلم .

تصوير المرأة العارية

وجاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

أنا تلميذ فى معهد من معاهد الرسم والتصوير التى تشرف عليها وزارة المعارف ، وبرنامج الدراسة فى هذا المعهد يشتمل على رسم المرأة وهى عارية الجسم من كل ساتر ، وعلى هذا تحضر إلينا المرأة وتقف بين عدد كبير من الطلاب ويأخذ كل من الطلبة فى الامعان إلى جميع أجزاء جسمها ويرسم جميع ما يتناوله النظر لا فرق بين عورة وغيرها .

فهل يجوز شرعاً ذلك الرسم على النحو السالف الذكر . وهل يعتبر التعليم مسوغاً وضرورة تبيحه ؟ كمال أحمد

الجواب :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأن جميع بدن المرأة عورة يحرم نظر الأجنبى إليه ، ما عدا وجهها وكفيها فإنه يجوز كشفهما ونظر الأجنبى إليهما أيضاً إذا أمنت الفتنة . أما إذا لم تؤمن الفتنة فإنه لا يجوز النظر إليهما أيضاً ويجب على المرأة سترهما .

نعم يجوز لضرورة العلاج أن ينظر الطبيب إلى شىء من جسم المرأة مما يحرم النظر إليه فى ذاته بقدر ما تقتضيه ضرورة العلاج ، ولا يجوز فيما عدا ذلك .

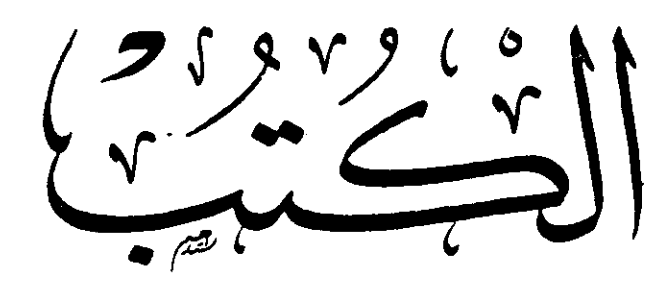
ويجوز لكل من القاضى والشاهد أن ينظر إلى وجه المرأة الواجب ستره لتعرف شخصيتها .

وعلى ذلك يكون تعرض المرأة لتصويرها عارية حراما ، ويحرم على المصور أن يصورها كذلك وأن ينظر إلى أى جزء من جسمها فيما عدا الوجه والكفين كما قدمنا . ويحرم أن يكون هذا النوع من التصوير فى منهاج الدراسة .

والتصوير على النحو الوارد بالسؤال يترتب عليه مفاسد خلقية واجتماعية ، ولا تقره شريعة من الشرائع السماوية . وليس تقرير هذا التصوير فى منهاج الدراسة مبيحاً للطالب أن يسير فيه ، كما أن المصور الذى يتعيش من أجر هذا التصوير . لا يجوز له مباشرة هذا العمل فإن الكسب الحاصل منه خبيث ، وهو منهى عنه شرعاً . ويجب عليه أن يتخذ طريقاً آخر للعيش يكون حلالا . وبهذا علم الجواب عن السؤال والله أعلم .


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است
مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است



المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول

نشأتها ، مقوماتها ، تطورها اللغوى والأدبى

لأول مرة فى تاريخ جامعاتنا العربية تصدر عن خريج من أبنائها دراسة جيدة لموضوع عن تراث العروبة والإسلام تشعر منها وأنت تتنقل بين فصولها بأن كاتبها قد هضم موضوعه وعاش فى بيئته ، وتحرى معرفته كما لو كان معاصراً له . ذلك هو كتاب **المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول** الذى ألفه الدكتور شكرى فيصل لنيل درجة الدكتوراه من كلية الآداب فى جامعة القاهرة ، فكان موضع تقدير اللجنة التى ناقشته ، وإنها قد أحسنت إذ منحته عليه أعلى الدرجات .

وقد نشر الدكتور شكرى فيصل مؤلفه هذا فجاء فى ٤٨٦ صفحة كبيرة بالحرف الدقيق مؤيدة بالنصوص ، مشفوعة بتسمية المصادر والدلالة على مواضعها . وهو يقول فى تصدير كتابه : إن الفقر فى دراسة التاريخ الإسلامى لا يرجع إلى فقر مصادرنا التى تعودنا أن نشكو منها ، بل إلى أننا لم نحسن بعدُ استثمارها واستقطارها ، ثم أعلن حقيقة ثانية وهى قوله : أخذنا كتبنا القديمة بمفاهيمها الحديثة ، وكان ذلك مصدر كثير من أخطائنا . وعقب على هاتين الحقيقتين بحقيقة ثالثة فى قوله : من المؤكد أن المراجع الاولى الأصلية — كالطبرى والبلاذرى وابن عبد الحكم — تتيح لنا قدراً من المعرفة ، ومن المتعة أيضاً ، لا يتوفر فى المراجع المتأخرة . وقد نجد فى مرجع متأخر قدراً أكبر من الحوادث ، ولكننا نعرف كيف تتضخم الحوادث مع الزمن ، أثراً لكثير من الأهواء والنزعات .

فأنت ترى أن هذا المؤلف المجيد استطاع - وهو فى المرحلة الأولى من حياة التأليف - أن ينتبه إلى مزالق الخطأ فى دراسة تاريخ الإسلام ، فآثر الأخذ من الينابيع الأولى الصافية متوقعاً أن يكون التضخم فى سرد الحوادث عند المتأخرين يحتمل أن يكون من أثر الأهواء

والنزعات. وانتبه إلى أن لغة الأقدمين يجب أن تفهم بمدلولاتها عندهم لا بمفاهيمنا الحديثة، وإلا كان ما نفهمه منها غير الذي أرادوه بما قدموه لنا. وانتبه قبل هذا وذاك، إلى أن النصوص التي تركها لنا السلف عن أحداث زمنهم، تكفي لمعرفة حقيقة تلك الأحداث.

ونحن نضيف إلى ملاحظاته أن الكتب القديمة التي ألفت في التاريخ يجب على من يريد أن يستفيد منها، أن يدرك مشارب مؤلفيها ويعرف أقدارهم، ثم إن أئمتنا أنفسهم قد كانوا من سعة الصدر واحترام حرية الرأي إلى الحد الذي يوردون فيه حتى روايات خصومهم، لكنهم يعتمدون في إيرادها على تسمية رواتها ليكون القارىء على بينة من قيمتها. ونحن الآن لا نستطيع أن نميز بين الرواية التي رواتها ثقات، من الرواية التي رواتها قد يكونون من أهل الأهواء والأغراض، إلا إذا رجعنا في النقد إلى قواعد الجرح والتعديل وإلى تراجم الرواة التي كتبها العلماء بهذه القواعد. فإذا وقفنا على ذلك وأعطينا لكل ذي حق حقه أمكننا الاستفادة من مقارنة الأخبار بعضها ببعض والأخذ بما يستحق الأخذ به، والاعتبار بما يصلح للاعتبار به. ومن هذه المقارنة يتوصل الدارس إلى حقائق أدسم وأثمن وأدعى إلى الاطمئنان مما لو اقتصر المؤرخ القديم على النصوص المعتبرة عنده وأهمل ما عداها.

ودراسة الدكتور شكري فيصل للمجتمعات الإسلامية في القرن الأول تتألف من تمهيد عن الجزيرة العربية، ومن أربعة كتب، عنوان أولها «من الجاهلية إلى الإسلام» بحث المؤلف فيه حال المجتمع العربي قبيل الإسلام وعند ظهور الإسلام، وكيف تشكل المجتمع العربي في صدر الإسلام. وعنوان الكتاب الثاني «نشأة المجتمعات الإسلامية الجديدة في الأقطار المفتوحة» بحث فيه حالة المجتمع الجديد في الشام، ثم في العراق، ثم في مصر وطرابلس وبرقة والنوبة، ثم في المغرب، فالمجتمع الجديد في الجناح الشرقي من المملكة الإسلامية. وعنوان الكتاب الثالث «التطور اللغوي» بحث فيه عن التطور الكمي والتطور الكيفي، وعن العلاقات اللغوية في أواخر القرن الأول. وعنوان الكتاب الرابع «التطور الأدبي» بحث فيه عن الدور الأدبي الأول وهو دور الهدوء، وعن الدور الأدبي الثاني وهو دور اليقظة والتفتح.

ومما ساعد المؤلف على تجويد عمله، وعلى أن ينظر إلى البحوث الإسلامية وتركة السلف بعين العلم المسلمة، أنه نشأ في بيت علم تحت جناح خاله محدث الشام الشيخ محمود ياسين - رحمه الله - ولذلك قال في تصدير الكتاب «إن صلتي الرسمية بالموضوع تبدأ منذ أن

سجلته فى الجامعة لدرجة الدكتوراه ، غير أن صلتى الشخصية به ترجع إلى بعيد حتى تبلغ الفترات الأولى التى كانت تنفتح فيها أذهاننا - فى سنوات الدراسة - لتيارات الثقافة العميقة ومشكلات الحياة الكبرى ، وكنت حريصاً أشد الحرص على أن أبوىء الحركة الإسلامية مكانها من هذه الحركات التى تمخضت عنها الإنسانية ، وأن أدرك - فى شىء من العمق - دورها الفخم فى قيادة الناس ، وأسلوبها فى جمعهم على صعيد واحد من الفكر والعقيدة واللغة » .

ولو أن كل متخرجى الجامعات العربية فى مصر والشام وغيرهما ينظرون إلى تراثهم بعيونهم هم - كما فعل شكرى فيصل - لا بعيون الاغيار من أجانب وشانئين ، لأوشك أن يبدأ لنا دور على فى حياة النهضة ، يصحح إيمان الأمة بماضيها ويسدد طريقها نحو مستقبلها ، ويفسح لها مكاناً بين الأمم التى تحترم نفسها ويحترمها الناس .

هذا وإن المؤلف لما مضى فى تأليف كتابه (المجتمعات الإسلامية) شعر بحاجة هذا البحث إلى أن يكون فى جانبه بحث آخر متمم له ، بل هو منه بمنزلة الأساس الذى يقوم عليه بناؤه ، وهذا البحث الآخر هو (حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول) وقد جاء هذا الكتاب الثانى فى نحو ٢٠٠ صفحة ولعلنا نتكلم عليه فى جزء آخر من مجلة الأزهر إذا شاء الله .

العواصم من القواصم

فى تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم

كما أن الصورة التى يجدها المسلم فيما جاء عن الأنبياء فى القرآن الحكيم تتفق مع ما يشترط فيهم من العصمة والكمال الإنسانى لتتم القدوة بأعمالهم ، وتحسن الأسوة بأخلاقهم ؛ بينما الوارد عنهم فى كتب أخرى لغير المسلمين يخالف ذلك ويصمهم بما لا يتفق مع ما يحملونه إلى الإنسانية من رسالات الله ؛ كذلك ما ورد فى صحيحى البخارى ومسلم وفى أمهات كتب السنة ونصوص الاعلام من أئمة الإسلام عن أصحاب رسول الله ﷺ وما كانوا عليه من سلامة الدين وصدق اليقين والتزام الحق والتحلى بالفضائل فى سلمهم وحربهم وفى اتفاقهم واختلافهم وفى خاصة أنفسهم أو ما كانوا يتحملونه من أعباء الأمة ، فإن ذلك هو الذى يتفق مع سيرتهم التى كانوا عليها فى الواقع ، كما يتفق مع ما أثنى الله به عليهم فى مواطن كثيرة من كتابه الحكيم ، ومع ما وصفهم به رسوله ﷺ بقوله « أصحابى كالنجوم » ، وقوله

« خير القرون قرني » . وقد خلف من بعد الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان خلف كان تدوين الأخبار في زمانهم ، فاختلق بعضهم على القرن الذين كان منهم رسول الله ﷺ وعلى الذين جاءوا بعدهم من المجاهدين والدعاة الفاتحين ، أخباراً قد يكون لبعضها أصل سليم لكنهم حرفوه وزادوا فيه ، ما أخرجه من باب الفضيلة إلى ضدها ، حتى صارت لأشرف عصور الإنسانية في أذهان الناس صورة كاذبة مشوهة تخالف ما كان عليه أولئك المجاهدون الأبرار والأولياء الأخيار ، بسبب هذه الكتب التافهة التي كان بعض مؤلفيها كبعض الصحفيين في عصرنا هذا . وقد كان الأقدمون يعدلون عن هذه المصادر المريضة إلى المأثور في كتب السنة ومؤلفات الأئمة للوقوف على حقيقة ما كان في زمن الصحابة والتابعين ، وما كانوا عليه في اتفاقهم واختلافهم . ثم جاءت عصور عمت فيها البلوى بكتب من لا يميزون بين الروايات الصادقة والروايات الكاذبة ، وقل عدد القارئين الذين يحسنون الرجوع إلى كتب المحدثين والمحققين ، فرأى إمام المالكية في عصره وكبير فقهاء الأندلس وعلمائها القاضي أبو بكر بن العربي أن هذه الحالة من قواصم الحق في الإسلام ومن أكبر المصائب الواقعة على المسلمين ، وأى شر أعظم من أن يكون لأمة ماض كريم مشرف فتمد إليه يدها بالتشويه حتى تحيل فضائله رذائل ؟ ! لذلك ألف كتابه (العواصم من القواصم) وأعلن فيه الحقائق التي تعصم الأمة من هذه الأكاذيب القاصمة والمفتريات المنكرة .

وقد رأت (لجنة الشباب المسلم) وهم طائفة من خريجي الجامعات المصرية المنتسبين إلى الإخوان المسلمين أن هذا التحقيق التاريخي العظيم من خير ما يجب على المسلمين تدبره والوقوف على حقائقه ونشرها في العالم الإسلامي ، فاقترحوا على رئيس تحرير هذه المجلة أن يعلق عليه بما يزيده وضوحا ، وبما تقوى به الحجة ويستنير الحق ، فقام بهذا العمل لوجه الله عز وجل متقرباً به إليه ، فجاء كتاباً جامعاً من النصوص الأصيلة عن عصر الصحابة ما لو أراد باحث أن يجمعه من مظانه ويلتقطه من مراجعه لاحتاج إلى مجهود عظيم ووقت طويل . والحق أن الأخطاء العالقة في أذهان الناس عن عصر الصحابة الزاهر الباهر قد صححت كلها ولله الحمد بعلم القاضي ابن العربي وبالتعليقات القيمة التي ألحقت به . فأصبح من المأمول بعد اليوم أن يصحح المؤلفون في التاريخ الأخطاء التي كانوا يجدونها في المصادر المألوفة ، وأن يعتمد مدرسو التاريخ الإسلامي في الأزهر ومعاهده والمدارس والجامعات هذه النصوص الصحيحة التي احتواها كتاب (العواصم من القواصم) وتعليقاته . وهو في نحو ثلاثمائة صفحة ، وفي أوله تصدير بقلم محرر هذه المجلة ، وترجمة مطولة للإمام

ابن العربى من نشأته إلى وفاته ، وفصل عن الصحابة وأنهم عدول بتعديل الله ورسوله لهم ، وأنه لا ينتقص أحداً منهم إلا زنديق . وبآخر الكتاب فهرس مطول للموضوعات ، وفهرس للأعلام التاريخية ، وآخر للأعلام الجغرافية ، وجريدة بالمراجع التى كان الاعتماد عليها فى كتابة التعليقات . فنلفت الأنظار إلى هذا الكتاب النفيس ، ونحث كل مشتغل بالتاريخ الإسلامى تأليفاً أو تدريساً على قراءته بتدبر وإمعان .

بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى

بنو خفاجة بن عمرو بن عقيل أحد بطون بنى عامر بن صعصعة من قيس عيلان ، كانت مواطنهم الأولى فى نجد مما يلى المدينة . فلما تنقلت قبائل الجزيرة فى صدر الإسلام لتتخذ لها منازل قريبة من معسكرات الزحف للجهاد والفتوح ، كثر بنو خفاجة فى العراق والجزيرة ، وتفرقت قبائل منهم فى الشام والأندلس وجاء بعضهم إلى مصر ، كما فى سبائك الذهب للسويدى المقتبس من كتاب أنساب العرب للقلقشندى . وأقدم من وفد من قبائل قيس عيلان إلى أرض مصر بطون من فهم وعدوان . وفى ولاية الوليد بن رفاعة الفهمى القيسى نزلت أرض مصر فى سنة ١٠٩ ﻫ بنو سليم وقبائل قيسية أخرى . وفى خلافة هشام ابن عبد الملك ، تولى مصر عبد الله بن الحبحاب مولى بنى سلول القيسيين ، فقدم ثلاثة آلاف من قيس ، أذن لهم هشام بذلك مشترطاً أن لا ينزلوا بالفسطاط ، فوزعوا على الحوف الشرقى ومنهم مائة أهل بيت من بنى عامر بن صعصعة الذين منهم بنو خفاجة فنزلوا فى بلبيس ، وعملوا فى الزراعة . وفى خلافة مروان بن محمد كان الوالى له على مصر الحوثرة بن سهيل الباهلى فمات مروان وبمصر ثلاثة آلاف بيت من قيس ، ثم أحصوا فى ولاية محمد بن سعيد فكانوا ٥٢٠٠ كما يقول المقريزى فى البيان والإعراب .

وكتاب (بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى) ألفه فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى المدرس بكلية اللغة العربية بالأزهر ، وهو فى خمسة أجزاء فى أكثر من ٥٠٠ صفحة ، ألم بكثير مما فى كتب الأدب والتاريخ المتداولة من أخبار هذا الجذم من بنى قيس عيلان ، وترجم لأعلامهم من شعراء وفرسان وساسة وعلماء ، ونوه بالبارزين من أفاضلهم المعاصرين ، وبذلك جمع الكتاب أقصى ما وصلت إليه يد المؤلف من المعلومات عن هذا الفرع الخصب من أرومة العروبة المباركة ، التى ملأت الدنيا فخرا وذكرا .

وعساه، إذا أتيح له إعادة طبع مؤلفه هـذا، أن يستقصى النصوص فى المراجع الأخرى ليكون كتابه أشمل، وأن يحذف منه ما لا يدخل فى موضوعه. وكان أليق به أن يكون فى كتب أخرى، ثم أن يعيد تنظيمه تنظيما عمليا، لأن موضوعه الطريف جدير بهذه العناية.

المختصر فى علم رجال الأثر

هو كتاب فى علم السنة والتعريف برجالها، ألفه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف مدرس هذه المادة فى كلية الشريعة وسد به فراغا كان يشعر به الطلاب، فتكلم فيه عن الإسناد وطبقات الرواة مبتدئا من طبقات الصحابة فالتابعين وأتباع التابعين ثم تكلم على الجرح والتعديل وتاريخ علم الحديث رواية ودراية وتاريخ علم المصطلح وأشهر كتبه. وعقد بابا لتواريخ الرواة من زمن الصحابة إلى عصر التدوين فجاء الكتاب فى ٢٢٤ صفحة حافلا بكل ما يحتاج إليه من يريد الوقوف على علم السنة وعناية المسلمين به.

الملكية فى الإسلام

هو بحث كتبه الأستاذ السيد أبو النصر أحمد الحسينى عن الملكية الخاصة فى الإسلام فى الأعيان والمنافع، وما يقبل منها الملك وما لا يقبله، مع المقارنة بمدلول الملكية فى النظام الرأسمالى وأنظمة الشيوعية والاشتراكية والنازية والأديان الأخرى، وتعرض لمعنى الرق فى الإسلام، وللخدمات التى لا تملك، وأن العمل منشأ الملكية. وبعد أن استوفى المعانى التى تعرض لها تكلم على غاية تشريع الملك فى الإسلام، وعلى نظام الملكية الإسلامى وقيمته وأثره. والكتاب مستمد من مراجع كثيرة إسلامية وأجنبية وهو فى ١٤٦ صفحة بعد مقدمة فى ٢٤ صفحة. فنلفت إليه الأنظار.

فلسفة غاندى الاقتصادية

بحث يبين فلسفة غاندى الخاصة المحتوية على مبادئه وآرائه المستقلة التى تختلف عما لدى الغرب من مثيلها فى الاقتصاد. وهذا البحث بقلم الأستاذ السيد أبو النصر أحمد الحسينى، ويقع فى ١٥ صفحة، ومن مطالعته تتكون عند القارىء فكرة عن الانقلاب الذى حدث فى مبادىء الهند الاقتصادية.

النشاط الثقافي للأزهر

جماعة كبار العلماء

في صباح الأربعاء ٢٥ المحرم اجتمعت جماعة كبار العلماء برياسة الأستاذ الأكبر السيد محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر لأول مرة بعد توليه منصبه ، وقد افتتح الجلسة باسم الله عز وجل ، والدعاء إليه تعالى أن يوفقه إلى العمل لخير الأزهر .

وعلى أثر ذلك تلى الأمر الملكى الخاص بتعيينه شيخاً للأزهر ، فرحب به حضرات الأعضاء ، وألقيت في ذلك كلمات من الأساتذة المشايخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية وعبد اللطيف السبكى ، ومحمد عرفة ، أشادوا فيها بصفاته الحميدة ، وعاهدوه على أن يكونوا يداً واحدة لخير الأزهر والأزهريين .

وأخذت الجماعة بعد ذلك في توزيع الأعمال على الأعضاء ، فاختار بعضهم البحث أو التدريس ، واختارهما بعضهم معاً .

وعرض الأستاذ الأكبر على الأعضاء ما قد يذاع عن الإسلام من آراء لا تتفق معه ، ويحسبها بعض الناس من صميم الإسلام وهي ليست منه في شيء ، وبعد البحث تقرر أن تؤلف لجنة من حضرات الأعضاء للرد على هذه الآراء . كما تقرر أن تؤلف لجنة أخرى لتنظيم إلقاء المحاضرات بقاعة المحاضرات الكبرى بالأزهر ، وألفت لجنة ثالثة لتنظيم أعمال اللجان وتحديد مهمة كل لجنة بالتفصيل على أن يقدم ذلك كله إلى جماعة كبار العلماء لإقراره في اجتماعها المقبل .

ثم تحدث الأستاذ الأكبر في مسألة التبرع لمشوهي الحرب ، فتقرر أن يساهم الأزهر في هذا العمل الإنساني النبيل ، وتبرع أعضاء الجماعة لذلك بخمسة في المائة من مرتباتهم عن شهر أكتوبر ، ثم ينظر في تقدير نسبة معينة تؤخذ من الموظفين والعلماء من مختلف الدرجات من مرتباتهم عن الشهر نفسه .

وكيلا الأزهر

باشر صاحبا الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد اللطيف دراز والأستاذ الشيخ محمد نور الحسن وكيلا الأزهر الجديدان عملهما في هذا الشهر . ومما قاله الأستاذ الشيخ محمد نور الحسن للذين زاروه مهنئين : « إن التهنئة تكون على قدر العمل . وقد قال الله عز وجل « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله

والمؤمنون » . وقال الأستاذ الشيخ محمد عبداللطيف دراز لمندوب الأهرام : إن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر رجل يؤمن برسالة الأزهر ، وسيبذل جهده فى سبيل أداء هذه الرسالة وهى رسالة الإسلام . ثم قال : إن أعوانه متعاونون معه على ذلك فى صدق وإخلاص . وإن النجاح فى هذا وغيره موقوف على تعاون حضرات علماء الأزهر جميعا فى أداء واجبهم ، وعلى أن يعتبر كل واحد منهم مسئولا عن هذا النجاح ، فإذا حصل هذا . اعتبرنا أنفسنا قبل كل شىء مسلمين مجاهدين فى سبيل الله وفى رفع كلمة الإسلام . فإن الله أكرم من أن يخذل المؤمنين المجاهدين .

افريقيا والبعوث الاسلامية :

كان من بين الأقطار التى عرفت فضل الأزهر على نشر الدين الإسلامى وحفظه ، قطر صغير من أقطار إفريقيا ، يمتد على ساحل البحر الأحمر ، ويقع شرق السودان وجنوبيه وشرقى الحبشة وشمالى الصومال الفرنسى ، وكان مستعمراً لإيطاليا ما يقرب من سبعين عاما حتى كاد يصبح بلداً إيطالياً فى سياسته واقتصادياته ولغته الرسمية ، لكنه - مع ذلك - احتفظ بدينه وتقاليده .

هذا القطر هو إريتريا وعاصمته « أسمرا » التى ترتفع عن سطح البحر ما يقرب من سبعة آلاف قدم .

فى عام ١٩٤٧ اتجه هذا القطر إلى الأزهر يطلب منه عالما يقوم بالتدريس فى جزء من المسجد الكبير اتخذه أهله ليكون محلا لدراسة الدين الإسلامى واللغة العربية مع بعض من تخرج فى الأزهر من أهل هذا القطر .

فوقع اختيار الأزهر على فضيلة الشيخ على مصطفى الغرابى المدرس الآن فى كلية أصول الدين ، وسافر فى أوائل فبراير سنة ١٩٤٨ وهذه أول بعثة أزهرية بل إسلامية إلى بلد إفريقى مجاور لإثيوبيا ، فكان إيفاد عالم أزهرى مصرى نعمة وبشرى للمسلمين فى إريتريا وأثيوبيا ، وانتشر خبر البعثة فى الصومال الفرنسى والبريطانى والإيطالى وأوغنده وكينيا ، وتطلع المسلمون فى هذه البلاد كلها إلى أن يكون لهم مبعوثون أزهريون كما كان لإريتريا ، أو على الأقل أن يزور مبعوث الأزهر إلى إريتريا بلادهم ويقيم بينهم ليستضيئوا من نور الإسلام .

ووقعت بينهم وبين المبعوث اتصالات وتعارف ، بالرسائل والخطابات ، ثم طلبوا منه السفر لزيارة بلادهم فحول خطاباتهم إلى إدارة الأزهر للتصرف ، وكان من أثرها إرسال البعثة الطوافة المؤلفة من الأستاذين الشيخ عبد الله المشد والشيخ محمود خليفة ، والتى قامت بمهمتها خير قيام . وكتبا تقريراً مسهباً عن حالة المسلمين فى البلاد التى زاراها ، وعما يجب على الأزهر نحوهم من إرسال البعوث من العلماء الأزهريين ، وتقبل بعوث الطلبة وإرسال الكتب إليهم لتنتشر الثقافة الإسلامية فى ربوع إفريقيا .

ولقد كان ذلك كله أثر البعث الاول إلى إريتريا على الرغم مما صادفه من عقبات أهمها :

(١) منهج الدراسة - لما وصل مبعوث الأزهر إلى إريتريا كان الطلبة الذين فى المعهد ليس لهم منهج دراسى معين ، وإنما هى دراسات عامة فى النحو والفقه والتوحيد ، فنظم الدراسة فى المعهد على حسب المنهج فى المعاهد الدينية المصرية ، وأدخل فيه نظام انتقال الطالب من سنة إلى أخرى بعد أداء الامتحان فى المواد التى درسها .

(٢) الكتب - لم يكن عند الطلبة الكتب المقررة على حسب المنهج ، ولم تكن الحكومة الإنجليزية لتسمح بإدخال كتب من مصر ، فاشترطت أمرين : أن يكون الدفع بالاسترلينى ، وأن يكون الترخيص بمجىء الكتب مباشرة .

إطعام الطلبة :

إن الطلبة الذين يدرسون فى المعهد ليسوا من أهل المدن وإنما هم من أهل البادية رعاة البقر ، فكان الواحد منهم يأتى فارا من رعى البقر لطلب العلم ، ولا يملك إلا ثوبا ممزقا يستر به عورته ، وليس معه نقود ، ولا يرسل له أهله شيئا منها ، فكان البحث عن طريق لإطعام هؤلاء مشكلة المشاكل .

ولما كان الموسرون منهم يخرجون عن جزء من مال الزكاة كل عام فى رمضان ليوضع فى صندوق للصرف منه فى أوجه البر كعلاج بعض المرضى من الفقراء ودفن من مات منهم ، ومساعدة من أخنى عليه الدهر من التجار ، اقترح عليهم أن يخصصوا لطلبة العلم من مال الزكاة مقدارا شهريا يصرف لهم ليساعدهم على الإقامة فى « أسمرا » لطلب العلم فاستجابوا لذلك ، ثم تأخرت الحالة الاقتصادية فى البلاد ، وقل مقدار الزكاة فقطعوا المساعدة عن طلبة العلم ، فعادت المشكلة مرة أخرى فلجأ مبعوث الأزهر إلى طريقة أخرى ، يعمل بها فى السودان ، وهى توزيع الطلبة على الموسرين من التجار ليأكلوا معهم فى منازلهم .

المدرسون :

لقد كثر عدد الطلبة فى المعهد وزادت الحاجة إلى مدرسين ، ولم يقف الأمر عند معهد أسمرا ، فقد طالب أهل مصوع أيضا بإرسال مدرسين لمعهدهم الذى أنشأه رجل من أصل مصرى يسمى « الحاج أحمد هلال » ثم طالب أهل « كرن » عاصمة إقليم غربى إريتريا بمعاونتهم على إنشاء معهد دينى بعاصمة إقليمهم ليؤتى لهم بعلماء من الأزهر ليعلموا أولادهم اللغة العربية والدين أسوة بأهل أسمرا فتم إنشاء المعهد ولعل الأسباب تتيسر لإمداد هؤلاء بمن يتولى تعليمهم وإرشادهم .

التعليم المدنى :

أما التعليم المدنى فالحكومة الإنجليزية غير مهتمة بتعليم المسلمين ، لهذا أنشأ المسلمون مدرستين إحداهما للوطنيين ، والأخرى للعرب ، وكان يقوم بالتدريس فيها بعض

شبان السودانيين الذين نزحوا مع الجيش الانجليزى منذ دخوله إريتريا . ولكن لم يكن للدراسة منهج تسير عليه ، فاقترح عليهم مبعوث الأزهر إنشاء مجلس يقوم بمهمة تنظيم التعليم فى المدارس والمعاهد والإشراف عليه إشرافا يحقق الغاية منه ، فصادفت الفكرة قبولا ، وتألف المجلس برئاسة مبعوث الأزهر ووضعت له لائحة طبعت طبعا منسقا وأدخل المنهج المصرى فى المدارس الوطنية . وبعد عام دراسى جيء إلى مصر ببعثة من الطلبة الإريتريين ليشتركوا فى أداء الشهادة الابتدائية المصرية مع الطلبة المصريين وكان من ثلاثة عشر طالبا ، نجح منهم أحد عشر وأعاد اثنان وهم جميعا الآن فى مدرسة ساحل سليم الثانوية داخليا على حساب وزارة المعارف ، وبعضهم فى السنة الرابعة وبعضهم فى السنة الثالثة ، بل بعضهم فى التوجيهى هذا العام لاختياره امتحان فترتين مرة واحدة كما أباحته لهم وزارة المعارف .

بعوث الطلبة الى مصر :

كان من أهم ما سعى له مبعوث الأزهر إرسال الطلبة إلى مصر لا من أرتيريا وحدها بل من الحبشة أيضاً فأرسل البعض وهو العدد الاكبر إلى الأزهر ، وقليل منهم أرسلوا إلى وزارة المعارف للاشتراك فى امتحان الشهادة الابتدائية المصرية كما تقدم ، ثم أرسلت إلى وزارة المعارف بعثة أخرى مكونة من ثمانية وثلاثين طالبا سنة ١٩٥٠ ثم بعثة ثالثة حضرت مع مبعوث الازهر فى العام الماضى مكونة من خمسة وعشرين طالبا . وهم جميعا ينتسبون الآن فى الأزهر لعدم قبول وزارة المعارف إياهم بعد قبولها الثلاثة عشر طالبا الذين جاؤا فى البعثة الأولى ، لكنهم يدرسون ليلا فى المدارس مع دراستهم نهاراً فى الأزهر ودراستهم مستمرة فى الناحيتين مع نجاحهم فيهما ، وهذا يشهد لهم بالذكاء النادر ، والاجتهاد المتواصل .

وقد كان من يحضر إلى الأزهر من الطلبة الارتيريين والأحباش بوساطة التجار الأحباش والسودانيين ، فكان تجار الاحباش يحملونهم معهم من الحبشة إلى ارتيريا ، ثم يحملهم التجار السودانيون من إرتيريا إلى السودان ، وبهذه الطريقة بلغ من حضر من إرتيريا من الطلبة ما يقرب من المائتى طالب ومن حضر من الحبشة منهم ما يقرب من مائة طالب .

إن للأزهر مكانة سامية فى نفوس غير المصريين من المسلمين ، ومتى تمكن الأزهر من استغلال هذه المكانة أفاد الدين الإسلامى إفادة خاصة ، ومصر إفادة عامة تعود عليها بالخير سياسيا واقتصاديا . وأملنا أن يحقق الأزهر هذه الغاية النبيلة فى عهده الجديد حيث يقود أموره الآن مجاهد إسلامى كبير، وعالم سلفى عظيم . والله الموفق .

الأدب والعلوم في شهر

في مجمع اللغة العربية :

استأنف مجمع اللغة العربية نشاطه يوم ٦ أكتوبر بعد انتهاء العطلة الصيفية ، فعقد جلسة قام فيها فريق من أعضاء المجمع بإلقاء كلمات ترحيب ، تتضمن التكريم الذي لحق المجمع باختيار حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر السيد محمد الخضر حسين شيخاً للأزهر الشريف ، وقد عددوا مآثر فضيلته ونوهوا ببحوثه العلمية والدينية ، التي كان لها الأثر الكبير في النهوض بمختلف الشئون الدينية والعلمية .

العلم والأخلاق :

قال وزير المعارف في كلمة أذاعها على الطلبة في مفتتح العام الدراسي :

« إنكم إذ تتلقون العلم في مدارسكم ومعاهدكم تعملون ما يعمله الجندي الذي يتدرب في معسكره لكي يبلي أحسن البلاء في ميدان الجهاد ، ولكن العلم وحده لا يغني عن الأمة شيئاً إذا لم تدعمه قوة الأخلاق ونبل النفوس ، كما أن تدريب الجندي لا يغني عن الأمة شيئاً إذا لم تدعمه قوة الجثمان وشهامة الطبع . ولست أشك أنكم - في تحقيق هذه الأغراض - ستجدون من أساتذكم خير هداة تسترشدون بهديهم ، وتنتفعون بخبرتهم وعلمهم ، وتتجهون إليهم طالبين النصيحة والعون كلما صادفتكم صعوبة أو قابلتكم مشكلة ، وستلاقون منهم عطف الآباء على الأبناء ، وحرص المربين على كل ما يعود بالنفع على طلابهم ، وبهذا تتهيأ لكم أسباب النجاح ، وتسعدون بجو يسوده النظام والثقة والمحبة ، فتعود بذلك إلى معاهد التعليم قداستها وحرمتها » .

من أدب العلم :

تحدث العالم المكتشف (اينشتاين) إلى طلبة العلم في نيويورك في هذا الشهر فقال لهم : « ليس للطالب غنى عن شيء واحد وهو الشعور الفياض بكل ما يقوم على الخير من الناحية الأدبية ، وتقدير لكل ما هو جميل ، فإن لم يفعل ، فإنه يكون — مهما اكتملت ثقافته — كالطالب الذي أحسن ذووه تدريبه ، لا كالإنسان الذي تناسقت شمائله وسمت أخلاقه .

« ومما ينبغي للطالب ، أن يدرك الدوافع البشرية ، وما قد يتعرض له العامل المجد من فشل وما يحتمل أن ينتاب الإنسان من كوارث وآلام ، فإذا أدرك الطالب ذلك وتوقعه فإنه ستتوطد صلاته بالمجتمع .

« وهذه السجايا لا يمكن أن تثبت فى نفوس النشء إلا بوسيلة واحدة وهى (القدوة الشخصية) لا من طريق الكتب وحدها . وهذه هى الوسيلة التى تؤدى إلى قيام الثقافة الصحيحة ، والسير بها نحو الكمال ».

وختم حديثه بقوله : « إن هذا الطراز من الثقافة قد يقضى عليه روح التنافس فى دراسة معينة لا يتمكن صاحبها من أن ينهل من معين المعرفة الشاملة الذى لا ينضب والبحث القائم على النقد الصحيح وتوخى الحقيقة » .

منابع ثقافة الامريكيين فى الشرق الاوسط

عاد الدكتور سليمان حزين مدير الثقافة العامة بوزارة المعارف من رحلته الطويلة فى الولايات المتحدة التى استغرقت شهرين وبعد أن شهد الاحتفال المئوى للجمعية الجغرافية الامريكية فى المؤتمر الجغرافى الدولى الذى عقد فى واشنطن ، وبعد أن زار الجامعات الامريكية إجابة للدعوة التى نظمت طبقاً لبرنامج «سميث منديث» ، اقتنع بأن الامريكيين أخذوا يغيرون رأيهم فى منابع ثقافتهم ، فبعد أن كانوا معتقدين فى أول الامر أنها ترجع إلى غرب أوربا ، أخذ الجامعيون منهم وقادة الفكر يكتشفون الحقيقة التى تأخروا فى اكتشافها ، وهى أن جذور الثقافة الامريكية تمتد إلى أعمق من ذلك بكثير ، وأنها ترجع إلى هذا الشرق الاوسط ، ولذلك بدأ اهتمامهم بالشرق الاوسط يتزايد باستمرار .

مكتبة عربية بجامعة درهام :

تعتزم جامعة « درهام » إنشاء مكتبة عربية ينتظر أن تصبح أكبر مؤسسة من نوعها فى بريطانيا . وتقوم الجامعة الآن بالاتصال بالمعاهد العربية والناشرين والمكتبات العربية للحصول على بيانات عن المؤلفات المنشورة بالعربية . وكان أحد وزراء المعارف السابقين قد وعد هذه الجامعة بإهدائها طائفة من الكتب العربية القيمة .

الاضطراب فى الحياة الجامعية :

يقول عميد كلية الآداب فى جامعة الإسكندرية: إن الاضطراب الذى أصاب الحياة الجامعية فى السنوات الأخيرة كان السبب الأكبر فيه سوء النظام المالى ، وكثرة درجات السلم الجامعى ، مما شغل فريقاً من أعضاء هيئة التدريس بشئون الأقدميات والترقيات المتعاقبة ، ومما اضطر بعضهم إلى الدخول فى خصومات قضائية . ولو أن الجامعة وفقت إلى تبسيط وظائفها لاستقام كثير من الشئون ، ولانفرغت هيئة التدريس لعملها الاصيل فى البحث والكشف العلمى .

حلقة الدراسات الاجتماعية :

تعقد فى دمشق اجتماعات حلقة الدراسات الاجتماعية الثالثة من ٨ ديسمبر القادم إلى ٢٠ منه ، وتشترك فى ذلك دول الجامعة العربية . ولما كان ميثاق الجامعة ينص على أن تمثل الدول العربية غير المنضمة إلى الجامعة فى

اللجان الثقافية والاجتماعية ، فقد طلبت الحكومة السورية من الجامعة العربية دعوة تونس والجزائر والمغرب الأقصى إلى إرسال مندوبين عنها لحضور اجتماعات هذه الحلقة .

التعليم الفنى المتوسط :

قال الدكتور « توماس هارت» مدير برامج النقطة الرابعة فى المملكة العربية السعودية واليمن : إن الحاجة ماسة فى الشرق الأوسط إلى التعليم الفنى المتوسط لملء الفجوة الناشئة بين أصحاب المهن الفنية والسكان العاديين .

كان الدكتور توماس هارت قد شهد أخيراً المؤتمر الذى عقد فى جامعة بيروت الأمريكية لبحث المشاكل الاجتماعية والاقتصادية فى الشرق الأوسط وعاد بعد ذلك إلى واشنطن .

السينما بوزارة المعارف :

فى الإدارة العامة للنشاط الرياضى والاجتماعى بوزارة المعارف المصرية قسم خاص عنوانه (مراقبة السينما والتصوير) كان المفروض أن تكون مهمته العناية بالسينما الثقافية وتوسيع نطاق الإفادة منها فى تهذيب الأخلاق ، وتوثيق صلة رجال الغد بأمجاد الماضى، بإحياء مفاخر التاريخ الإسلامى والعربى والمصرى ، وزيادة معارف الطلبة بالأقطار العربية الشقيقة والأوطان الإسلامية بعرض مشاهدها ، وتبادل الأفلام معها ، فتزود الأقطار الشقيقة بما يزيدها معرفة بمصر ، كما تعنى بزيادة معلومات النشء المصرى عن الأقطار المشاركة له فى اللغة والدين، والاستئناس بمعالمه وعمرانه ومناظره الطبيعية وعادات أهله وأزيائهم وسائر أحوالهم . ومما يؤسف له أن هذه النواحى آخر ما كان يخطر على البال من مهمة مراقبة السينما بوزارة المعارف فى مراحلها السابقة ، فلما دبت الآن روح الحياة فى المرافق المصرية ، التفتت الأنظار إلى ناحية السينما الثقافية فى وزارة المعارف ، ولعل وزارة الإرشاد القومى المزمع إنشاؤها قريباً ستضع الأمور فى نصابها من هذه الناحية على النحو الذى أشرنا إليه فى هذه الكلمة .

حركة المطالعة فى مصر :

تردد على دار الكتب المصرية وأقسامها المختلفة خلال شهر سبتمبر : ٩١٢٥ ، وعلى فروعها ١٤٢٧٥ ، وبلغ عدد الكتب التى صرفت للمطالعة داخل الدار وفروعها ٢٧١٣١ والتى أعيرت لخارج الدار وفروعها ٦٣٥١

وبلغ عدد ما اقتنته الدار من كتب فى ذلك الشهر ٧٤٤ منها ٥٩١ باللغة العربية واللغات الشرقية و ١٥٣ باللغات الأوربية .

والمواد التى أقبل المطالعون على مطالعتها هى أولا : الأدب والقصص ، ثم التاريخ والجغرافيا فالعلوم الاجتماعية والعلوم المقيدة فالعلوم البحتة والفلسفة وعلم النفس والمراجع العامة والديانات والفنون الجميلة .

العالم الإسلامي في شهر

قضية تونس

عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة دورتها السابعة فى ميناها الجديد المطل على النهر الشرقى فى نيويورك ، وكانت ثلاث عشرة دولة عربية وأسيوية قد أعدت عدتها قبل ذلك لدراسة أفضل الطرق التى ينبغى لها اتباعها لعرض النزاع القائم بين تونس وفرنسا على الجمعية العامة وإقناعها بالنظر فيه ، ولعل أهم ما ستطالب به الجمعية العامة إيفاد لجنة من مراقبى الهيئة لدراسة الموقف فى تونس والتقدم إلى الأمم المتحدة بالتوصيات التى تراها مناسبة لحل النزاع الذى يعرض السلام العام للخطر .

وكانت الحكومة الفرنسية قد قررت أن يدفع وفدها بعدم اختصاص الجمعية العامة فى نظر هذا النزاع ، وهى تستند فى هذا القرار إلى المبدأ الذى ينص عليه ميثاق الأمم المتحدة ويقضى بعدم تدخل الأمم المتحدة فى الشئون الداخلية لأية دولة هى عضو فى هذه الهيئة الدولية . واعتبار قضيتى تونس والمغرب الأقصى من الشئون الداخلية لدولة فرنسا متفرع عن العقلية الاستعمارية البالية التى لا يزال بعض الناس يعيشون عليها حتى فى إنكار حق الحياة القومية على أمة كالأمة التونسية لها حكومة وعرش وكيان دولى من قبل أن يكون لها أى علاقة بفرنسا .

وسلوك فرنسا هذا السبيل فى الدفاع أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة تحتاج فيه إلى موافقة أكثرية ثلثى أعضاء الجمعية العامة على وجهة نظرها ، وهى أكثرية لا تقل عن أربعين دولة . وقد كان مفهوماً أن فرنسا لن تحصل على هذه الأكثرية ولا على نصفها لأن الدول العربية والإسلامية والاسيوية ووفود أمريكا اللاتينية وبعض الوفود الاوربية وحتى الولايات المتحدة والكتلة السوفيتية ، تبين أنها تكون فى الجانب الذى تكون فيه هزيمة هذا المنطق الاستعمارى .

وقد سافر إلى نيويورك السيد صالح ابن يوسف وزير العدل التونسى على احتمال أن الجمعية العامة قد تطلب منه أن يدلى ببعض البيانات .

وإدراج القضايا فى جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة تقوم به لجنة التوجيه التى تتألف من ١٥ عضواً هم نواب الرئيس ورؤساء اللجان المتفرعة عن الجمعية .

وقد فازت مصر أخيراً بالمقعد السابع فى هذه اللجنة التى اجتمعت يوم ١٥ أكتوبر وقررت الموافقة على إدراج مشكلتى تونس والمغرب الأقصى فى جدول الأعمال ، رغم احتجاجات المندوب الفرنسى ، الذى أعلن أن فرنسا ستقاطع المناقشة التى ستجرى فى الجمعية العامة بشأن السياسة التى تنتهجها فى تحقيقها بأفريقيا الشمالية .

قضية المغرب الأقصى :

أصدر القصر الملكى فى المغرب الأقصى بياناً بلسان ملك البلاد يصارح فيه أمته بالأدوار التى مرت على القضية منذ زار باريس سنة ١٩٥٠ إلى الآن ، وقد جاء فيه ما يأتى :

« كان القصد الجوهرى من زيارتنا لباريس فى سنة ١٩٥٠ هو أن نقدم للحكومة الفرنسية مذكرة أوضحنا فيها أن القضية المغربية ليست قضية إصلاحات جزئية تحقق فى نطاق النظام القائم ، ولكنها قضية شعب يطالب بوضع نظام جديد يساير آماله ، ويتلاءم مع الظروف العالمية الجديدة .

« وقد ردت حكومة الجمهورية الفرنسية على مذكرتنا فى ٣١ اكتوبر ١٩٥١ بأن تعديل النظام القائم سابق لأوانه ، واقتصرت على عرض إصلاحات جزئية داخل نطاق الحماية .

« ولما لاحظنا التباين بين وجهة نظرنا ووجهة نظر الحكومة الفرنسية ، بالإضافة إلى الأزمة الشديدة التى زجت بالعلاقات المغربية الفرنسية فى مأزق حرج ، وكذلك وقف المباحثات - التى كان أملنا أن نفتح باب الدخول فيها واجهنا - حكومة الجمهورية الفرنسية بمذكرة أخرى فى ١٤ مارس ١٩٥٢ أوضحنا فيها - على ضوء تجربة الأزمة - أن أسلم حل للقضية المغربية هو تحديد العلاقات بيننا تحديداً جديداً يضمن للمغرب سيادتها وللفرنسيين المقيمين بها حقوقهم المشروعة فى نطاق التعاون المثمر بين البلدين ، وذلك فى الميادين الاقتصادية والثقافية والدولية ، ويحافظ على حقوق الأقليات الأجنبية الأخرى .

« وقد اقترحنا لأجل الوصول إلى هذه الغاية :

١ - تطهير الجو السياسى فى المغرب .

٢ - منح الحريات العامة والخاصة ، وخصوصاً الحريات النقابية .

٣ - تأليف حكومة مغربية مؤقتة يناط بها أن تدخل - تحت إشرافنا - فى مباحثات مع الحكومة الفرنسية لوضع اتفاق جديد بين المغرب وفرنسا .

« وكانت مقترحاتنا ترمى إلى غاية مثالية هى السماح للشعب المغربى بأن يمارس شئون بلاده بنفسه بواسطة برلمان وحكومة دستورية ، على نحو ما تقضى به أساليب

الديمقراطية الحديثة . وإن إنشاء مثل هذا النظام لما لا يتعارض مع استمرار التعاون المغربى الفرنسى .

« وفى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ قدمت إلينا الحكومة الفرنسية عن طريق المقيم العام — ردها على مذكرة ١٤ مارس ، وسردت فى القسم الأول من ردها كل ما حققته الحماية فى مختلف الميادين ، وخصوصاً فيما يتعلق بالتعليم والصحة والتجهيز الاقتصادى والصناعى . وفى القسم الثانى عرضت برنامجاً للإصلاح تتلخص معالمه الكبرى فى تكوين مجالس جماعات إدارية فى البوادى ، وإنشاء مجالس بلدية مختلطة فى المدن ، ومجالس فرنسية مغربية فى المراكز البدوية ، الأمر الذى يعطى للفرنسيين المقيمين فى المغرب حق التقدم للانتخابات على قدم المساواة مع المغاربة أهل البلاد . وفيما يتعلق بالسلطة التنفيذية أشار الرد الفرنسى إلى وجود مجلس الوزراء والمديرين الفرنسيين الذى تكوّن سنة ١٩٤٧ ، واقترح الرد أن ينضم السكرتير العام للحماية — وهو فرنسى — إلى المجلس ليقوم بمساعدته باعتباره رئيساً للإدارة . وكان من المفروغ منه فى الرد الفرنسى أن الإدارة فى المغرب ذات طابع مختلط ، أى أنها فرنسية مغربية تسير تحت إشراف السلطات الفرنسية ، أما فيما يتعلق بالتنظيم القضائى فقد وعدت الحكومة الفرنسية بأن تقدم إلينا نصوصاً تشريعية حوله فى وقت قريب .

« ومن المهم أن نلاحظ أن برنامج الإصلاح الفرنسى لا يشتمل على أى عنصر جديد ، فقد صدرت المراسيم الخاصة بمجالس الجماعات فى يونية سنة ١٩٥١ وبدأ العمل بها فعلا ، كما قدم مشروع البلديات إلى لجنة مغربية حكومية لدراسته فى ٨ مايو سنة ١٩٤٨

ثم قدم إلى مجلس الوزراء لبحثه فى ٢٦ يونيه ١٩٥١ فرنض العمل به لأن من شأنه أن يمس السيادة المغربية التى تضمن المعاهدات الدولية حمايتها . وفيما يتعلق بإصلاح الأداة القضائية سبق أن قدم فيه المقيم العام مشروعا سنة ١٩٤٧ فألفت الحكومة المغربية لجنة فنية ردت عليه بمشروعات مضادة . ولم يشر الرد الفرنسى فوق ذلك إلى المشروعات التى قدمناها فى ١٤ مارس ١٩٥٢ فيما يتعلق بتأليف حكومة مغربية ومنح الشعب بعض الحريات الجوهرية التى لا يتمتع بها كالحق النقابى . وبالاختصار عبرت الحكومة الفرنسية عن تصميمها على تدعيم معاهدة الحماية ، وقدمت إلينا برنامجا للإصلاحات ، ولفتت نظرنا إلى أن هذه الإصلاحات وحدة صادرة عن فكرة متجانسة ، وبذلك يتمثل فيها كل غير قابل للتجزئة . وأخيرا أبدت الحكومة الفرنسية استعدادها — فى حالة التسليم بقبول مبدأ هذا الإصلاح واتجاهاته —

لأن تعلن نشأة الصداقة المشتركة والمصالح المتداخلة ، لتقوم على أساس ذلك فى المستقبل العلاقات بين فرنسا والمغرب دون ما تعرض إلى السلطات المادية التى نصت عليها معاهدة ٣٠ مارس سنة ١٩١٢

« وقد أبدينا فى الرد الذى قدمناه إلى الحكومة الفرنسية فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٥٢ أسفنا العميق لما لاحظناه من عدم أخذ الحكومة الفرنسية بمقترحاتنا ، كما لفتنا أنظارها إلى أن مشروعات الإصلاح التى قدمتها إلينا ترمى بصفة عملية - فى مفهومها ومنطوقها - إلى تصديع السيادة المغربية » .

قضية كشمير :

يقول السيد محمود حسين الوزير الباكستانى لشئون كشمير فى حديث أدلى به فى مدينة (دكا) : « إن اقتراحى نزع السلاح وتعيين مدير لعملية استفتاء فى كشمير قد بحثا كثيراً حتى الآن ولكن بلا جدوى . ولو أن استفتاء نزيها أجرى فى كشمير ، فإن مما لا يتطرق إليه الشك أن الأكثرية الإسلامية الساحقة التى يتألف منها سكان كشمير ستطالب بالإجماع الالتحاق بأمها باكستان . وما نشرته صحف الهند من أن الباكستان تحاول إرسال بعض القبائل إلى كشمير لا نصيب له من الصحة ، لأن باكستان تسعى للوصول إلى حقوق كشمير بالوسائل والحلول السلمية ، ولا حاجة بحكومة باكستان ولا بمسلمى كشمير إلى استعمال القوة .

« فعلى مجلس الأمن أن يتخذ فى هذه القضية الواضحة حلا نهائياً حاسما ، لأن هنالك حداً لصبر البشر ، ومن الحكمة أن لا يستنفد الصبر بتجاوز حدوده » .

وقد جاء بعد هذا أن مجلس الأمن دعى إلى الانعقاد لدراسة تقرير الدكتور جراهام عن محادثات كشمير . وقد مر وزير خارجية باكستان بمصر فى طريقه إلى نيويورك لحضور الدورة السابعة للجمعية العامة للأمم المتحدة ، وليكون على مقربة من مجلس الأمن وهو يبحث قضية كشمير .

السعى لكتلة عبادية :

زار الوطن المصرى فى الشهر الماضى بمهمة رسمية الدكتور أحمد سوبارجو وزير خارجية أندونيسيا السابق والسفير فوق العادة . وبعد اتصاله بأهل الرأى صرح بأنه مرتاح لنتائج زيارته لمصر ، ومسرور لما يرجو من توثيق العلاقات بين البلدين ، ومن بينها العلاقات التجارية . وقد دعا المسئولين فى مصر إلى زيارة أندونيسيا ، لأن فى تبادل مثل هذه الزيارات ما يقرب بين الشعوب الإسلامية وحكوماتها .

ويقول الدكتور سوبارجو فى حديث له مع مندوب جريدة (الأهرام) : إن

أندونيسيا - بحكم موقعها الجغرافى - تشعر كسائر دول الشرق الأقصى بوطأة الصراع المحتدم فى تلك المنطقة بين الكتلتين الشرقية والغربية . وأندونيسيا دولة ناشئة تحتاج إلى السلام لتتفرغ للإنشاء والتعمير فى ربوعها، لذلك كان من مصلحتها الوقوف على الحياد فى الحرب الباردة بين المعسكرين ، كما ترى من مصلحتها الوقوف على الحياد كذلك - إذا استطاعت - عند وقوع حرب مسلحة . قال : ولكننا لا نستطيع ذلك بمفردنا ، لذلك تحاول الاتصال بالدول التى تشاركنا فى أهدافنا وأمانينا .

ثم قال : إن دول الكتلتين لا تريد الحرب وفى رأينا أن قيام كتلة حيادية - أى من أمثال حكومات الشرق الأقصى والأوسط - قد يؤدى إلى منع وقوع الحرب ، أو على الأقل إلى تأجيل وقوعها .

وتحدث عن أهمية الاستقلال الاقتصادى لتحقيق الاستقلال السياسى وقال : إن أندونيسيا ينص دستورها على أن الاستعمار مضى زمنه ، وكان من أسباب وقوع الحروب . وهذه النظرية نستوحيها فى سياستنا العملية .

أمريكا بين العرب واليهود :

ألقى الدكتور « والتر والبانك » أستاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا ، محاضرة نفيسة عن الشرق ، أصغى إليها خمسمائة من أساتذة الجامعة وكبـــار المفكرين الأمريكيين والمهتمين بشئون الشرق الأوسط . والدكتور والتر والبانك كان فيما مضى أستاذاً بجامعة القاهرة ، وطاف ببلاد الشرق الأوسط ووقف على حقائقها . وقد وصف فى محاضرته الحالة الاجتماعية فى مصر . ثم انتقد موقف الولايات المتحدة فى الماضى من إسرائيل وقال : إن هذا الموقف لم يكن عادلا ولا حكيما ، وإن أمريكا بسياستها ساعدت على طرد ٨٠٠ ألف عربى من بلادهم لتؤوى بعض الصهيونيين الذين سيتخلص منهم العرب فى يوم ما . وانتقد أن تعطى أمريكا مساعدة مالية لإسرائيل تساوى مجموع المساعدات المالية التى تعطيها للبلاد الأخرى مجتمعة .

وتساءل : لماذا نخسر صداقة العرب لنكسب صداقة أشخاص سوف ينقلبون على أمريكا فى أى لحظة ؟ ولماذا نمدهم بالأسلحة ونكون السبب فى إشعال نار الحرب فى الشرق الأوسط .

ومما قاله : إن بعض المصريين كان يلقى علىّ أسئلة لا أستطيع الجواب عليها ، ومن هذه الأسئلة موقف أمريكا من إسرائيل ، ومعاملتها للزنوج ، وموقف أمريكا السابق من تأييد السياسة البريطانية . وختم محاضرته بالتحدث عن الفجر الجديد فى ظلام مصر بقيام الجيش لتحرير مصر من الفساد والطغيان ومستغلى النفوذ والأحزاب الفاسدة . وتوقع قيام حركة إصلاح حقيقية ذات خطة مرسومة وسريعة .

أنباء العالم الإسلامي

تجديد الحرم النبوى :

عادت من الحجاز البعثة الهندسية التى كانت الحكومة المصرية قد أوفدتها إلى المدينة المنورة لاختبار طبقات التربة فى أساس الحرم النبوى الشريف الذى قدرت تكاليف تجديد بنائه بنحو أربعة ملايين جنيه تكفل بها الملك عبد العزيز السعودى من جيبه الخاص .

ويقوم المختصون الآن بتجارب فى معمل ميكانيكا التربة فى كلية الهندسة تمهيداً لإجراء التصميمات اللازمة للأساس . وقد سبق إعداد التصميمات والرسوم الخاصة بمبانى الحرم ومنشآته ومآذنه .

والمفهوم أن هذا المشروع العمرانى العظيم يستغرق أربع سنوات ، وسيكون الحرم المدنى الشريف بعد إتمامه أعظم مسجد إسلامى فى العالم وأفخمه .

وقد شرع من الآن فى إخلاء بعض المبانى المحيطة بالحرم ، كما بوشر إخلاء بعض الأجزاء الداخلية من الحرم نفسه .

حماية المسجد الأقصى :

اجتمع مجلس إدارة الشبان المسلمين فى الإسكندرية وبحث مسألة حماية المسجد الأقصى ، لمناسبة ما يقوم به اليهود من حركات وجهود عسكرية وسياسية فى بيت المقدس فنقلوا إليها وزارة خارجيتهم من تل أبيب وحشدوا قواتهم فى مشارف القدس القديمة والمسجد الأقصى وأنشأوا المعاقل فى جبل الزيتون مخالفين فى كل ذلك العهود والمواثيق التى دانوا بها للجنة الهدنة وهيئة الأمم المتحدة . والجمعية تستصرخ كل مسلم فى أن يرفع صوتها ليبلغ مسامع ممثلى الدول الإسلامية لتنقله إلى حكوماتها راجية أن تبذل الحكومات الإسلامية كل ما يسعها من جهد لوقف هذا العدوان .

مرافق الحجاز :

يقول السيد الحسينى الخطيب أمير الحج المصرى ووزير مصر المفوض فى الحجاز : إن ولى عهد المملكة العربية السعودية أبدى رغبة حكومته فى إيفاد مهندسين ، وبوليس مرور ، وعمال ، ومدرسين من مصر ، للنهوض بمرافق الحجاز والمملكة العربية السعودية . وافتتح ولى العهد ـ وكان بصحبته أعضاء بعثة الحج المصرية ـ عدة مستشفيات جديدة أنشئت فى المملكة العربية السعودية يديرها ويرأسها أطباء مصريون . ومن هذه المستشفيات واحد لعلاج الأمراض النسائية هو الأول من نوعه هناك . كما أنشئت هناك مصحات كثيرة لعلاج ضربة الشمس . وصدرت

الأوامر بإنشاء مجموعة كبيرة من المظلات الواقية من أشعة الشمس فيما بين منى وعرفات. وقد أبدى ولى العهد رغبة فى إنشاء خط ترام كهربائى بين جـــدة ومكة والمسافة بينهما ٧٥ كيلو متراً، على أن تساهم فى هذا المشروع رءوس الأموال الإسلامية . وأن تطرح مناقصة عملية إنشائه فى البلاد الإسلامية وحدها، قال أمير الحج : وينتظر تنفيذ هذا المشروع قريباً .

الجلاء عن كوبرى الفردان :

فى الساعة الواحدة من بعد ظهر يوم الجمعة ١١ أكتوبر انسحبت القوة البريطانية التى كانت تحتل كوبرى الفردان الذى يمر عليه الخط الحديدى عبر قناة السويس ويوصل إلى شبه جزيرة سينا . وفى الساعة الثانية عقب ذلك كانت قوة من رجال الجيش المصرى تحتل هذا الكوبرى وتقوم على حراسته .

فراديس فى البحر الأحمر :

لفت الدكتور محمد طلعت طه الأنظار إلى فراديس مهملة لا يحفل بها إلا قلة من أغنياء الأجانب فى مصر ، وهى جزر متناثرة فى خليج السويس وقرب الشاطىء المصرى للبحر الأحمر . وأهم تلك الجزر : شدوان ، وجزيرة الأخوين ، والزبرجد ، وهى جزر جبلية ذات سفوح متدرجة إلى شواطىء رملية بديعة كثيرة الخلجان وجوها ساحر بديع صيفاً وشتاء ، فالشمس ساطعة طول العام والريح مستمرة ومنتظمة ، مما يتيح استخدامها لإدارة طواحين هوائية متصلة بمولدات الكهرباء التى تنتج تياراً كهربائيا للإضاءة والطهى وتقطير الماء العذب من ماء البحر وكافة الأغراض الحيوية والصناعية . وتمتاز هذه الجزر بدفئها شتاء واعتدال هوائها صيفاً فهى مصيف ومشتى . بل تصلح مصحاً عالمياً لتوافر الأوزون (أى الاوكسيجين الذرى) فى جوها . وتزخر خلجانها بكميات هائلة من الأسماك الكبيرة قال فحبذا لو بذلت الدولة جهداً فى تعميرها وإعدادها والإعلان عنها .

صناعة البترول فى مصر :

تعنى مصلحة الوقود المصرية الآن بتوسيع معمل تكرير البترول الاميرى فى السويس، وستنتهى من إقامة المبانى والمرافق الجديدة فى هذا العمل فى أواخر سنة ١٩٥٣ ثم تنتظر منه إنتاجا سنويا لا يقل عن مليون ونصف مليون طن من المواد البترولية الصالحة للاستهلاك، وإذا أضيفت هذه الكمية الضخمة إلى ما تنتجه شركة آبار الزيوت الإنجليزية المصرية استغنت مصر بذلك عن استيراد البترول من الخارج ، اللهم إلا القليل من الكيروسين لضخامة المطلوب منه للاستهلاك الشعبى .

والحكومة تستعد لتسليم بئر وادى فيران بمنطقة سيناء ، التى تم كشفها عام ١٩٤٩ ولم

تستغل حتى الآن ، إلى الجمعية التعاونية المصرية للبترول لتستغلها على حساب الحكومة . وقد منحت هذه الجمعية ١٦ ترخيصاً بالبحث عن البترول ، وأعطيت الشركة الأهلية المصرية ١٠٦ ترخيص بالتنقيب ، ولدى شركة آبار الزيوت الإنجليزية المصرية وشركة سوكونى فاكوم ٦١ ترخيصاً ، ومنحت إحدى الشركات الفرنسية ٥٢ ترخيصاً . وسياسة مصر البترولية قائمة على حرية المنافسة . وإن صدور قانون المناجم بعد تعديله طبقاً لمقترحات غرفة المناجم والمحاجر سيبطل حجة تعطيل أعمال التنقيب فى بعض المناطق ، ويبدأ العمل بأوسع نطاق .

ميزان مصر التجارى :

يقول الأستاذ محمود كامل المحامى : إن مجموع ما استوردناه فى سنة ١٩٥١ مبلغ ٢٧٩٫٥٩٤٫٠٠٠ من الجنيهات ، ولم نصدر فى ذلك العام إلا ما قيمته ٢٠٣٫٠٨٠٫٠٠٠ ج وليس هذا الاختلال فى ميزاننا التجارى مقتصراً على عام ١٩٥١ ، فقد حدث ذلك فى كل سنة من السنوات الخمس الأخيرة حتى بلغ مجموع الخسارة التى منى بها الاقتصاد القومى فى هذه الفترة نحو مائتى مليون جنيه. ولا يمكن علاج مأساة الدخل القومى إلا على أساس موازنة الوردات بالصادرات ، وهذا لا يمكن - مع التوسع فى الرى والزراعة - إلا بوضع سياسة ثابتة على أساس برنامج مدروس لتصنيع مصر . وإذا ارتفع مجموع المستثمر فى الصناعة فمتوسط دخل المواطن المصرى سيتضاعف بضع مرات ، أو بالتالى سيقترب هذا المواطن من الحياة الكريمة التى يحياها المواطنون فى الدول المتحضرة .

ومما يخطر على البال فى معالجة الاختلال فى ميزاننا التجارى أن يعمل المعلمون على التقريب بين قيمة الواردات والصادرات بمكافحة استيراد الكماليات وأدوات الترف والبذخ ، ورسم سياسة قوية لحمل الأمة على الاستغناء عنها من طريق الإرشاد الأدبى، والترغيب فى الحياة الاقتصادية المعتدلة ، مع التوسع بزيادة الرسوم الجمركية على بعض الأصناف والمنع القطعى لاستيراد البعض الآخر ، إلى أن يتساوى ميزاننا التجارى ، وتضمحل نهائيا هذه الخسارة السنوية من زيادة الواردات بما يزيد على سبعين مليون من الجنيهات .

وادى الريان :

كان المهندس «سيريل فوكس» قد حضر إلى مصر وزار موقع وادى الريان وكتب عنه تقريراً نفى فيه أن يترتب أى خطر على مديرية الفيوم لو نفذ مشروع تخزين المياه فى وادى الريان ، ومع ذلك فإن المختصين فى الحكومة المصرية لم يقطعوا برأى نهائى فى هذا الأمر ورأوا أن يستدعوا خبراء آخرين للاستئناس برأيهم . وسيصل إلى مصر فى ديسمبر القادم ثلاثة خبراء من سويسرا وأمريكا وانجلترا لدراسة هذا المشروع العمرانى الكبير .

القانون الأساسى لولاية طرابلس :

صدر القانون الأساسى لولاية طرابلس مؤلفاً من ٩٠ مادة ، مصرحا بأن دستور ليبيا يعد القانون الأعلى للولاية ، وينص على :

١ ـ أن الوالى يمثل الملك ، وهو مسئول عن جميع السلطات والامتيازات .

٢ ـ أن الملك ـ بمشاورة الوالى ـ يعين المجلس التنفيذى المكون من نظار العدل والداخلية والمعارف والأشغال والمالية والزراعة والمواصلات والسياحة ، وهو مسئول أمام الملك والمجلس التشريعى .

٣ ـ يتولى السلطة التشريعية الوالى ومجلس تشريعى يتكون من أربعين عضواً ، ثلاثون منهم منتخبون ، وعشرة يعينهم الملك بمشاورة الوالى .

الاعتراف باستقلال المغرب :

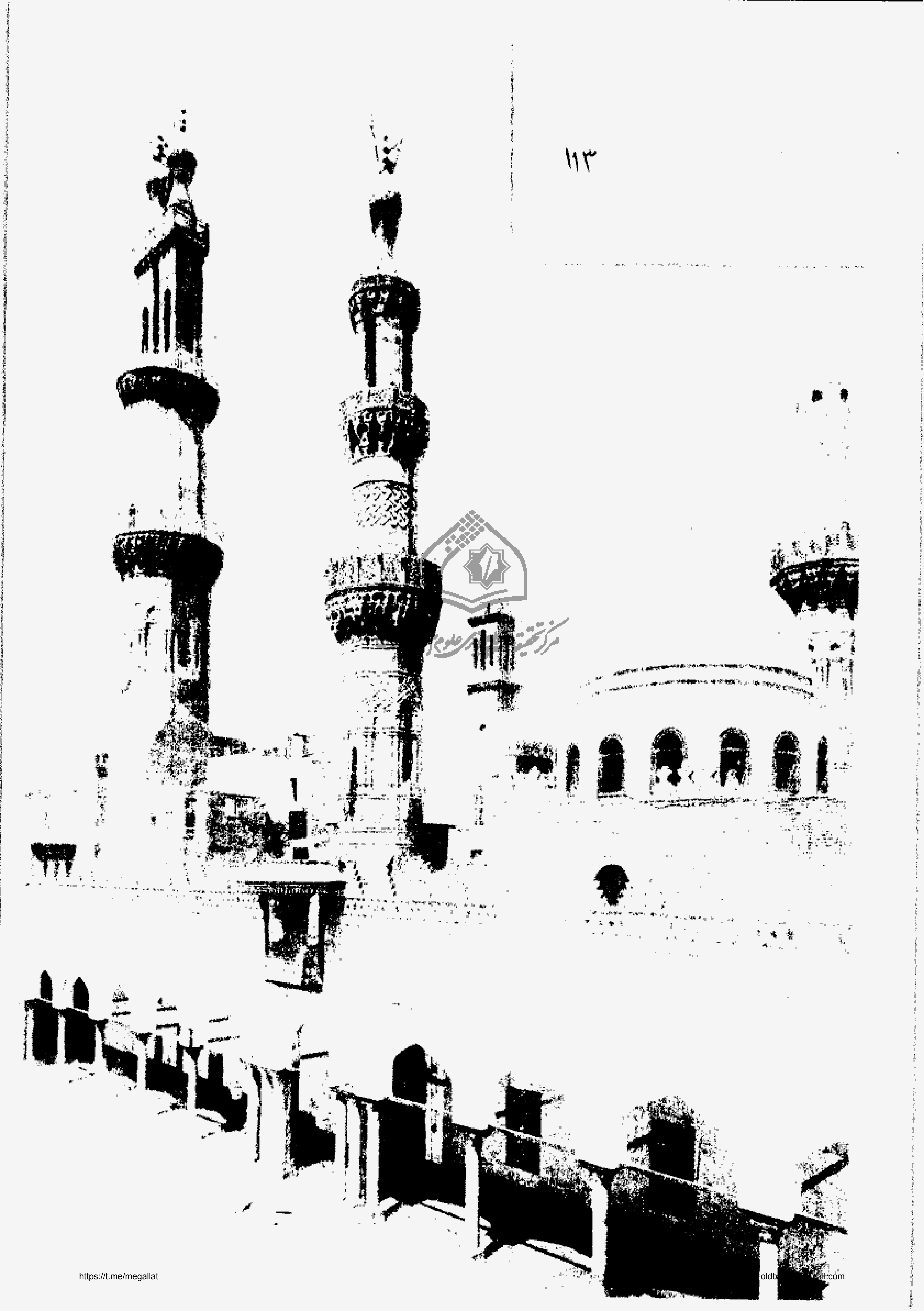
تدور المباحثات بين الحكومات العربية والإسلامية والآسيوية حول الاعتراف باستقلال المغرب الأقصى ، عملا بمعاهدة ٧ إبريل ١٩٠٦ التى أبرمت بين حكومة المخزن و ١٦ دولة أجنبية اعترفت بسيادة المغرب واستقلاله ووحدة أرضه وحريته الاقتصادية ، وعملا بمعاهدة الجزيرة الخضراء التى أخذت بها محكمة العدل الدولية فى ٢٧ أغسطس من هذه السنة .

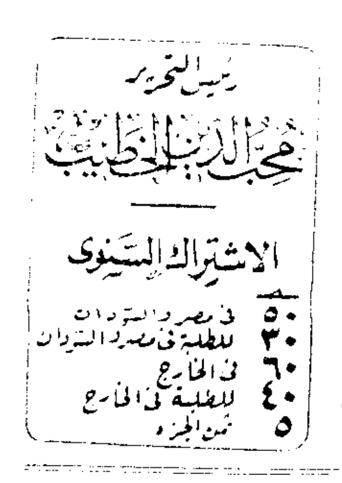
الوصاية والاستعمار :

طلبت الهند من محكمة العدل الدولية أن تصدر قراراً فيما إذا كان يجوز للدول التى تتولى الوصاية على بعض المستعمرات بالنيابة عن الأمم المتحدة ، أن تدمج هذه المستعمرات مع مستعمراتها المجاورة لها تحت حكم واحد ، وتتهم الهند كلا من فرنسا وبريطانيا وبلجيكا بإدماج المناطق التى تتولى هذه الدول الوصاية عليها بالنيابة عن الأمم المتحدة على مستعمراتها الخاصة ، ولم تزل مشكلة إدارة المستعمرات التابعة للأمم المتحدة معروضة على الجمعية العامة منذ بضع سنوات . وترى الدول الاستعمارية المتهمة من الهند بهذا العمل ، أن إدماجها مستعمرات الوصاية بالمستعمرات الخاصة يسهل عليها مهمة الوصاية ، ولكن الهند ومعها بعض الدول الآسيوية الاخرى ترى أن هذه الحجة إن هى إلا ثوب مألوف يخفى تحته حقيقة الاستعمار ، وذلك مما لا يتفق مع ميثاق الأمم المتحدة .

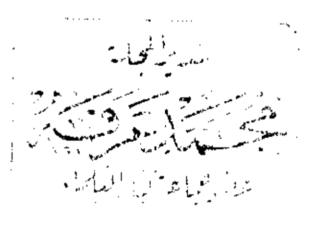
ايران وبريطانيا :

أذاع الدكتور مصدق رئيس الوزارة الإيرانية فى يوم ١٦ أكتوبر بيانا أعلن فيه قطع العلاقات الدبلوماسية بين إيران وبريطانيا وقال إنه اضطر إلى ذلك لأن الحكومة البريطانية حالت دون الوصول إلى اتفاق بشأن النزاع حول البترول . وبما









الجزء الثالث ـ القاهرة فى غرة ربيع الأول ١٣٧٢ ـ ١٩ نوفمبر ١٩٥٢ ـ المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف بنى محمد الأمة الإسلامية

أكان يدور بخلد أحد يعرف مكان جزيرة العرب فى القرن السادس للميلاد، أن هذه الجزيرة ستحكم الدنيا يوماً من الأيام؟

أكان يدور بخلد أحد أن هؤلاء الشراذم والأوزاع، سيحاربون دولة الأكاسرة ودولة القياصرة، فيرثون ملكهم وأرضهم وديارهم؟

أكان يدور بخلد أحد أن هذه القبائل العربية وهى متحاربة متنابذة يجمع الله بينها، ويوحد رأيها، ويؤلف بين قلوبها، حتى تصير كتلة واحدة تأخذ مكانها فى الوجود، رغم العقبات والنكبات والسدود والحوائل؟

أكان يدور بخلد أحد أن هذه العقائد الفاسدة، والنحل الباطلة، وعبادة الأوثان والأصنام، والخضوع للعرافين والكهان، تطهر منها نفوسهم، وتحل محلها عقائد صحيحة ونحل حقة عليها جلال الإيمان ونور العلم؟

نعم إن ذلك قد كان فى أقل من قرن من الزمان. وكان على يد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمى القرشى، وهذه هى العجيبة الأخرى، فهل كان يدور بخلد أحد أن هذا اليتيم الذى فقد أبويه، وخرج إلى هذه الدنيا دون معين يعينه، ولا ناصر ينصره، لم يتعلم العلم ولم تثقفه جامعة، يقوم بهذا العمل العظيم ويأتى بهذا الأمر الجسيم؟

هـذه حكمة الله وهذا قضاؤه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته [illegible] الناس ، ويعلم من تكون فيهم من البشر . فليس [illegible] فيها الرسالة ، تقوم بأعبائها .

ويجب على مصر وهى فى مستهل عهد جديد ، [illegible] أسباب العزة لتعز ، وأسباب القوة لتقوى ، [illegible] الإسلامية . وماذا فعل بالأمة العربية ؟ إننا إذا [illegible] الأمة العربية كثيرة ، أهمها أن محمداً هـداه الله إلى [illegible] الإيمان [illegible] فى قلوبهم وآمنوا بالله وبأنبيائه ورسله وباليوم الآخر [illegible] الخير ، وإن شراً فشر ، فوصل حياتهم الأخرى بحياتهم [illegible]

وأى امرئ لا يستمسك بعمل الخير ليجزى به [illegible] به شراً ؟ وأى امرىء يعمل الخير وينأى عن الشر [illegible] القنطرة التى تحجزه عن الخير الكثير الذى ينتظره [illegible]

وبذلك ربى فيهم الضمير الدينى الذى يدفع إلى [illegible] بينهم وبين حب الحياة وكراهية الموت ، فكانت [illegible] تكون بها الأمة [illegible] قوية متينة .

ثم رأى أن الأمة العربية أمة أكلها التعصب القبلى [illegible] كل قبيلة تعادى الأخرى ، وكانت تقوم الحرب بينها [illegible] الطوال ، فوحد بينها ، وألف بين قلوبها ، وأبدلها [illegible] ليست للدم والجنس ، وإنما هى للحق والخير [illegible]

وبذلك كوّنهم مجتمعاً قوياً يثبت للحدثان ولا [illegible] نفوسهم ، وأدخلت فيهم العزة والكرامة ، فأرادهم [illegible] أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن [illegible] البشرية ومنقذو الإنسانية .

فلا عجب بعد ذلك أن تنساب هـذه الأمة [illegible] المتحابة [illegible] المتعاونة ـ على العالم القديم لتخلصه مما هو فيه من [illegible] حكاما عدولا يعدلون فى الرعية ويقسمون بالسوية .

ماذا يقف فى سبيلها ؟ إنها مؤمنة متحابة متعاونة ، إنما تبغى رضا الله وفى تخليص العالم رضاه . وهى قد وضع الله فيها النور ، وطلب منها أن تنير الطريق للمدلجين .

إنها كانت تحارب وهى مقدرة أن تفوز بإحدى الحسنيين : الغلبة والنصر ، أو الشهادة والأجر ، وكانت تتربص بأعدائها أن يصيبهم الله بعذاب من عنده أو بأيديهم .

إنها كانت تؤمن أنها تقوم بأعظم عمل وتؤدى أجل رسالة فى الوجود ، وهى هداية الحيارى من البشر ، ونشر الفضيلة ، ومبادىء الخير والحق .

أما آن لنا أن نستفيد من هدى الرسول فى تربية أمتنا ؟

إن العهد الجديد قد زالت من أمامه العوائق ، فله الحرية والاختيار فى أن يبنى أمته على الأسس التى يختارها .

وأول ما يجب علينا فيما يتعلق بالإسلام ، أن نغرس الدين ونقوى اليقين فى نفوس الناشئين ، وذلك بتعميم التعليم الدينى الحق فى المدارس ، وإقامة الشعائر الدينية فيها .

وينبغى أن يلاحظ أن [illegible] ما يعمم التعليم الدينى ولا يأتى بالأثر المطلوب ، لأنه لا يلقى بطريقة تستولى على النفوس ، ولا يعطى لدروسه الإجلال الواجب . فليتنبه إلى هذا .

ثانيا أنه يجب أن نزيل أسباب التفرقة والخلاف ، وأن يعنى بالأخوة الإسلامية لتغرس فى القلوب ، وأن يعنى بها أكثر مما يعنى بأشياء أخرى أقل منها أثراً .

ثالثا أن نربى أمتنا على الشعور بالكرامة والعزة ، بنشر الصفحات الناصعة من تاريخ رجالنا فى العلم والحرب والأخلاق ، وأن يلغى هذا البرنامج الذى كان يهدف إلى إضعاف نفسية الأمة ، والإشادة بالأمم الأخرى .

وإنى أرجو إذا أخذ بهذا الإصلاح ، أن تعيد الأمة مجدها ، وتقطع هذه الحلقات الفاصلة ، وتتصل بتلك السلسلة الذهبية من آبائنا الغر الميامين .

محمد عرفه

عضو جماعة كبار العلماء

الأدب خير المواريث

روى الترمذى بإسناده عن سعيد بن العاص أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« ما نحل والد ولداً من نحلة ، أفضل من أدب حسن »

الإنسانية بين النظام المحمدي [illegible]

يحتفل المسلمون في هذا الشهر بذكرى المولد المحمدي [illegible]
الإنسانية طليعة معجزاته قبل أربعة عشر قرنا ، وهو [illegible]
لو عرف المسلمون رسالتهم ، واستعدوا للاضطلاع بها [illegible]

في مثل هذا الشهر من العام الماضي لم يكن يخطر [illegible]
مصر ، أن الذي حدث بين ظهرانينا في أربعة الأشهر [illegible]
أو في الجيل الذي بعده . والذين يفكرون تفكيرا عميقا [illegible]
أنهم في هذه الأشهر الأربعة في منام ؛ لأنهم كانوا [illegible]
أن الباشويات والبكويات هي كل شيء في مصر ، ثم [illegible]
القوة على الضعف ، والثروة على الفقر ، هو الأمر الطبيعي [illegible]
البغي أن ينكب على وجهه في الأرض ذليلا حقيرا [illegible]
للرذيلة دولة وأبطالا ، ومعاقل وحصونا ، وأسواقا [illegible]
بعيونهم المسحورة - بهاء وجمالا ، وخاطبين وممولين [illegible]
من يودون لو يبتغون الوسيلة إلى أولئك الأبطال [illegible]
أسمائهم ، على زعم أن العيش لا ينال إلا بذلك . و[illegible]
النظام سافله ، ومحا آية الليل بآية النهار ، وصار أبطاله [illegible]

إن هذا الانقلاب أكبر من أن يكون من عمل [illegible]
لهذا الأمر العجيب أن يتم ، لأن نفحة من نفحات [illegible]
صاحب ذكرى ربيع الأول ، كانت تهب على قلوب عدد قليل [illegible]
مع نسماتها ، وحركوا دفة سفينتهم على ما يرونه من [illegible]
قيادهم لما اقتنعوا به من أنظمتها الإلهية ، فكافأهم الله [illegible]
- بحول الله وقوته - عظيم .

لقد كان أمام مصر قبل أربعة أشهر ثلاثة أنظمة :

أحدها « نظام الذئاب » ، الذي كنا نعيش فيه إلى [illegible]
(٢٦ يوليو ١٩٥٢) م ، فكان الأخ الشقيق ينهش [illegible]

يأذن الرفيق [illegible] رفيقه [illegible] ! وكان الزميل يتمنى الشر لزميله ، ويدأب على قطع موارد الخير عنه ما استطاع حتى إذا لقيه استقبله معانقاً ، وقبل خديه من يمين وشمال ، وقد يكون هؤلاء جميعاً — في الأصل — من أهل المعادن الطيبة ، ومعذرتهم إلى ضمائرهم أنما يصنعون ما تفرضه ضرورات العيش ، والنظام القائم في ذلك المجتمع ، يقضيان عليهم بأن يكونوا هكذا ليضمنوا لأنفسهم الحياة والبقاء . . .

والنظام الثاني هو « النظام الإسرائيلي » ، الذي أملاه اليهود على الغرب ، وأغروه به ، وجملوه [illegible] له ، أو توصل غيرهم إلى بعض مبادئه فوجد اليهود تلك المبادئ متفقة في الأكثر [illegible] فأيدوها وروجوها ، وفسروها ونشروها ، حتى صارت من صلب ذلك النظام المعمول به في الغرب ، والذي أخذنا نقتبسه عنه منذ نحو مائة سنة ، فمشى [illegible] حضارتنا . وساد في مجامعنا ، وسابق نسؤنا رجالنا إليه في الأزياء والآداب والمعاشرة [illegible] وكثيراً مما سواه ، فأصبح الرجل المستقيم منا هو الذي يشهد له الناس بأنه ملتزم لذلك النظام وغير مخل بشيء من أصوله أو فروعه أو آدابه .

إن اليهود — من [illegible] — مبثوثون في بلاد الناس ، وقد تقدموا ونجحوا بأموالهم ونشاطهم وذكائهم [illegible] على غيرهم وإقناعهم المتعاملين معهم بأن من مصلحتهم أن يتعاملوا معهم ، وبهذه [illegible] استطاعوا أن يمذقوا ماءهم العكر بلبن الناس ، وأن يشوبوا [illegible] كما يشاءون [illegible] المجتمع أملوا على الناس أوضاعاً ومذاهب : أولها في الماسونية [illegible] وطقوسها وهيكلها [illegible] وآخرها في الشيوعية ومبادئها وغاياتها . وفي التجارة والاقتصاد والمال هم مخترعو البنك و[illegible] والأسهم ونظام الفوائد ، وهم المتفننون في الأزياء وتوافه [illegible] في زينة النساء [illegible] الانتخابات في كل بلاد العالم ، وآخرها انتخابات أمريكا [illegible] التي كانت [illegible] لآيزنهاور ، وكانت قبله لترومان ، وقبلهما لروزفلت ، فإن [illegible] التي [illegible] كانت اليهود . وكانت أموالهم وصحفهم وشركات أخبارهم و[illegible] ووسائلهم [illegible] إما معه وإما عليه .

إن النظام اليهودي قائم على « تبادل المنفعة » ، وافق هذا التبادل الفضيلة أم خالفها . والحق عندهم هو [illegible] القانون ولا تعاقب المحاكم عليه ، ولا يبالون بعد ذلك أن يكون هو الحق في نفس الأمر أم لا . واليهودي إذا عاملك قد يلتزم أن يكون أميناً في معاملته لا لأن الأمانة فضيلة في نفسها ، بل لأجل أن تقابله عليها بمثلها ، ومرافق الخير التي يقيمونها كالجمعيات الخيرية والمستشفيات ، إنما يقيمونها على أساس من المصلحة [illegible] والطائفية ، ولا يعملون الخير إلا لثمرته المادية التي يتوقعونها ، أو لدفع أذى كان

يكون عليهم أكبر مما يرزءون فيما يصيب الواحد منهم [illegible]

هذه المبادىء التى وضعها اليهود ، وشاع العمل بها [illegible]
وكان المثقفون فى الغرب من أبنائنا يرونها سائدة فى ذلك [illegible]
ورأوا النظام الشاذ السائد فيه والذى سميناه « نظام [illegible]
هو نظامنا الطبيعى ، وهم معذورون إذا وصموه باسم [illegible] نظام الغرب [illegible]
الفضيلة ، وكانوا بعد أن يندمجوا فى مجتمعنا ويتبوءوا [illegible]
ومؤهلاتهم يقاومون نظامنا الشاذ أياما أو أشهراً ، ثم [illegible]
يكونوا من أئمته وأقطابه . وهذا ما كانت عليه الحال عندنا [illegible]
ما عليه الغرب فى نظام « المصلحة المتبادلة » حتى يومنا هذا

✧✧✧✧

إن صاحب ذكرى ربيع الأول ، صلوات الله وسلامه عليه [illegible]
كنا مندفعين فيه . وإن الله عز وجل ، الذى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم [illegible]
هو خير ، كان ساخطاً على نظامنا وأخلاقنا وكل ما [illegible]
السمع بحفنة من بنى إسرائيل ، فى بقعة ضيقة من الأرض [illegible]
الأردن أوسع منها وأعظم ، انهزمنا معهم إلى النتيجة [illegible]
بعضنا بأن الحفنة من بنى إسرائيل التى اصطدمنا بها [illegible]
ولو فكروا ، لحكموا بأن تأييد الغير لها حجة على أن ما [illegible]
ولذلك نالت من تأييد الآخرين ما لم نستطع أن نناله .

✧✧✧✧

هذه إشارة خاطفة إلى النظام الذى كنا عليه إلى [illegible]
الإسرائيلى الشائع الآن فى أوربا وأمريكا . وإن الدنيا [illegible]
تهيأت أسبابها كاملة من اليوم الذى انتهت فيه الحرب العالمية [illegible]
فيه عن إيقاد نارها ، إلا الأوجاع والأوصاب التى [illegible]
الماضيتين . وأمل كل فريق من الفريقين أن يكون الوقت [illegible]
فيتقدموا للحرب الثالثة بعدة أكمل ، واختراعات يمتازون بها على الآخرين [illegible]
الحرب المنتظرة فى السنة القادمة أو بعد سنوات ، فإنها آتية على كل حال ، وكل آت قريب
ومتى اندلع لهيبها ، فإنها لاتنتهى إلا بتحطيم المنتصر وسحق [illegible] تكون الدنيا أمام
أحد النظامين : الاتجاه من جديد إلى النظام المحمدى [illegible] الإنسانية كلها

[illegible] النظام الإسرائيلي ، استعداداً لحرب عالمية رابعة ، [illegible] عشرات [illegible] هذا النظام الإسرائيلي إجمالا على قدر ما تحتمله إشارة [illegible] في مقال ، [illegible] النظام المحمدي ؟ هذا ما أردت تذكير المسلمين به في ذكرى [illegible] هذه الذكرى [illegible] الله وسلامه عليه .

إن النظام المحمدي [illegible] من حيث هو حق . خالصاً من كل ما قد يشوبه [illegible] مجرداً من كل طارىء عليه . وإذا كان النظام [illegible] على مبدإ المنفعة المتقابلة ، فإن النظام الإسلامي [illegible] فالشريكان في النظام الإسرائيلي يحرص كل منهما على [illegible] إذا كان نصيبه خمسين في المائة استوفاها بحذافيرها .

وفي النظام المحمدي [illegible] يكرهن نفسه على الرضا بالتسعة والأربعين من الخمسين [illegible] ولتطيب نفس شريكه بهذه القسمة فتدوم المحبة [illegible] في عملهما . ومن الأمثلة على ما بين النظامين [illegible] فروق ، أن الدولة إذا [illegible] لأجور المساكن في حالة الحرب — مثلا — فمنعت [illegible] على اعتبار أن أصحاب العقار أوسع حالا وأغنى [illegible] في مالكي العقار أسرة فقيرة ، لا مورد لها تعيش منه إلا أجرة عقارها ، [illegible] الحياة بسبب الحرب فإن مستأجر عقارها إذا كان [illegible] من المتعاملين بالنظام الإسرائيلي ، فإنه يصر على الاستفادة [illegible] قانون منع الزيادة في أجور المساكن ، ويحرم تلك الأسرة الفقيرة صاحبة العقار من [illegible] الأجرة التي كانت [illegible] لولا ذلك القانون ، ولا يعذبه ضميره عند ما يراها [illegible] من ألم الحاجة . أما [illegible] من المتعاملين بالنظام المحمدي فإنه لا يتقيد بما أباحه له قانون منع الزيادة في أجور المساكن ، فيلاحظ أن الحكمة في هذا القانون أن يحتمل الغني [illegible] الذين [illegible] فيطبق هذه القاعدة مع مالكي العقار الذي يسكنه ويزيدهم في الأجر بنسبة [illegible] الحرب متجاوزاً عن الامتياز الممنوح له من قانون [illegible]

[illegible] لليهود إصبع في وضعها أو في تعديلها أو في تفسيرها [illegible] قد وضعت إما لمصلحة أصحاب رءوس الأموال ، أو لمصلحة طائفة أخرى من أهل القوة والتأثير ، [illegible] التي يرتاح إليها فريق ويسخطها آخرون .

أما النظام المحمدى فإنه فى جميع تفاصيله منتزع من ينبوع [illegible] بالصلة [illegible]
مع نسمات الرحمة ونفحات الرضا ، واعتبار أن القليل [illegible] الإنسان [illegible]
أو بعض بذيها يعوّض عنه بالكثير مما عند الله فى عالم [illegible]
نصعب هنا من هذا النظام ملامحه وقسمات وجهه و [illegible] تفاصيل [illegible]
جميع نواحيه حتى يكون معلوما كله ، فهذا يحتاج فى بيانه إلى [illegible]
المجلدات أبدا ، بدليل أنه لما أطل على الدنيا فى [illegible] مشى [illegible]
إلى مصر والشام والعراق وشمال إفريقية ، ثم مشى بعد [illegible] إلى الأندلس
وصقلية وجنوب فرنسا وبعض البلاد الإيطالية فى [illegible]
إلى السند والأفغان والقفقاس حتى بخارى وخيوة [illegible]
لم يحملوا معهم تلك المجلدات إلى الناس مفصلا فيها نظام [illegible]
عنها بأخلاقهم ومعاملاتهم للناس ، فهمها الناس من [illegible]
فكان انتشار هذا النظام بالقدوة والأسوة [illegible]
الناس الخير صلوات الله وسلامه عليه .

والآن وقد نسخ الله نظام [illegible] فى مصر [illegible]
[illegible] ومعاقله على رءوسهم ، فقد آن لمصر أن [illegible]
من المنزل ، فيتعامل به الأب مع بنيه والأم [illegible]
مع جيرانه والأقارب مع ذوى قرابتهم ، والموظف [illegible]
والشريك مع شريكه ، والبائع مع زبائنه [illegible]
شاعت أساليب النظام المحمدى فيما بين الناس [illegible]
أن يكون لها أثرها فيما تجدده الدولة من أنظمتها [illegible]
أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، والأ [illegible]
« كما تكونوا يولى عليكم » ، وقد يحسن الله إلى الأ [illegible]
[illegible] ذلك منه لها على سبيل الامتحان ، فإن تجاوب صلا [illegible]
وإن لم يتجاوب صلاحها مع صلاحه ، فإنها لا تأمن [illegible]
سيرتها وعملها . وإذا كانت الدنيا قد تغيرت [illegible]
رضى الله عنهم فى مدة قصيرة من الزمن ، فإن [illegible]
المحمدى يوم تراثا نعمل به ويظهر لها أثره فى [illegible]

[illegible] من الله عز وجل من صنوف البر ووجوه التقوى .

إن مصرنا هذه [illegible] ها — لم تكن بلاداً إسلامية قبل أن يترجم الصحابة لنظامهم المحمدي للناس بأخلاقهم ومعاملاتهم ، فلما ترجموه لهم بأعمالهم الصالحة ومعاملاتهم [illegible] ونفوسهم المتواضعة الرحيمة ، فهمه المصريون [illegible] وارتضوا هذا النظام مسرورين مغتبطين ، لا سيما [illegible] فيهم على كل حال ، ولكن فيما لا سلطان للدولة عليه في [illegible] الأب وبنيه والشريك مع شريكه والجار مع جيرانه [illegible] .

[illegible] القلبية وأن كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، أي أن الخطيب [illegible] أعواد المنبر ، لأن الكذب في هذا المقام لا يلبث [illegible] والصحافة اليوم أوسع نطاقاً من صدى الصوت يرسله الخطيب من المنبر ، لأنها تعم البلاد وتسير في البر والبحر والجو . وإني أرسلها كلمة صادقة إن شاء الله من هذه الصحيفة المباركة التي تصدر عن أقدم معاهد العلم في الإسلام ، فأقول لإخواني المسلمين : إن العالم [illegible] الآن ليسير في العشرات القليلة الآتية من السنين [illegible] وراء النظام [illegible] فينغمس في الشرور التي يتخبط فيها اليوم ، أو وراء نظام [illegible] النظام المحمدي — فينتشل الإنسانية من الوهدة التي هي [illegible] فيها ، [illegible] من الختل والغدر والرياء والشر . ولكن هذا لن يكون [illegible] إلا إذا أقبل [illegible] إلى نظامهم المحمدي في أخلاقهم ومعاملاتهم ، وفي بيوتهم وأقوامهم [illegible] . فإذا فعلوا فإني لا أقتصر في بشارتي لهم على أن مصر [illegible] بالنظام المحمدي [illegible] — وأتحدى الدنيا فيما أدعيه — بأن الدنيا كلها ستعرف [illegible] بنظامه . لأنها لا نجاة لها مما هي فيه إلا به . أما إذا أصر المسلمون على أن يبقوا [illegible] الميلاد ، وعلى أن يتكلموا بالإسلام ولا يعملوا به ، فإنهم سيبوءون بإثمهم وإثم الإنسانية كلها ، وسيلقون الله وهم حاملون هذه الأوزار على ظهورهم ، فيحاسبون عليها حساباً عسيراً .

أيها المسلمون [illegible] ، وقديماً قيل : « المرء حيث يضع نفسه » .

محب الدين الخطيب

موهبة النبي صلى الله عليه وسلم السياسية

لا يكاد التاريخ يعرف رجلا جمله الله بالكمالات [illegible]
محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا رجلا تجمعت فى سيرته العبقرية [illegible]
وجوانب العظمة فى السيرة المحمدية مشرقة خصبة [illegible]
بقوتها وخصوبتها . وما السيرة المحمدية إلا كبستان حافل [illegible] الثمار الشهية [illegible]
الشذية ، لا يكاد الإنسان يهم بقطف ثمرة أو زهرة [illegible]
ولا يزال فى حيرة من أمره حتى يقطف أدناها إليه [illegible]

هكذا كان شأنى حينما هممت أن أكتب فى ناحية [illegible]
لى أن أكتب فى عبقرية من عبقرياته ، ألا وهى سياسته [illegible]
وساس بها الناس جميعاً . هذه السياسة التى منبعها [illegible]
العميق ، وأساسها المعرفة الشاملة الدقيقة بطبائع الناس [illegible]
وصدق الله « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت [illegible]
فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت [illegible]
معانى الكاملة من معانى الإنسانية ، اختاره الله من [illegible]
ميلاده إلى وفاته ، وأدبه فأحسن تأديبه ، وامتلأ [illegible]
بهذه السياسة النبوية الرشيدة . وقد تجلت باكورة هذه السياسة [illegible] يوم أن [illegible]
الكعبة المشرفة من [illegible] مالها وأطهره ، حتى وصلوا إلى [illegible] الحجر الأسود ، [illegible]
القبائل فيمن يكون الواضع له ، وتحركت العصبية [illegible]
تشتعل فتأكل الأخضر واليابس ، لولا أن تداركتهم [illegible] على أن [illegible]
أول داخل من باب بنى شيبة . وشخصت الأبصار [illegible]
فإذا به أمينهم محمد بن عبد الله . فارتضوه حكما . ورأى [illegible]
والأيدى تكاد تأخذ بالسيوف ، فتفتق عقله الكبير [illegible]
الفتنة وهى فى مهدها ، فبسط ثوبه ووضع عليه الحجر [illegible] القبائل [illegible]
كل رئيس بطرفه ، حتى استووا به إلى حيث يوضع [illegible]
شر فتنة لا يعلم مداها إلا الله .

[illegible] مظاهر هذه [illegible] ما حدث فى بيعة العقبة الثانية ، فقد دبرت تحت جنح الليل [illegible] عليهم [illegible] حتى لا يفسد أعداؤهم عليهم الخطة ، وكان مما قاله فى هذه [illegible] ولا يطيل الخطبة ، فإن عليكم من المشركين عيناً ، وكان لهذه البيعة آثارها البعيدة فى [illegible] الإسلام فى المدينة ، وبالتالى فى تسهيل الهجرة إلى المدينة .

[illegible] وأصحابه إلى المدينة فعل أمراً عجيباً ، ذلك أنه آخى بين المهاجرين والأنصار [illegible] ، وكانت هذه الأخوة الدينية بمنزلة الأخوة فى النسب [illegible] حتى انتشر الإسلام وكثر المسلمون ، فجعل الله الإرث بالقرابة [illegible] وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين ، وكان [illegible] موفقة فى توثيق عرى الأخوة والمحبة بين المهاجرين والأنصار [illegible] قوة لا يستهان بها أمام أعدائهم المجاورين لهم

[illegible]

[illegible] السياسة المحمدية البصيرة ، ومن ذلك ما حدث

[illegible] المصطلق

[illegible] للفاروق عمر بن الخطاب مع رجل جهنى حليف الأنصار [illegible] بالمهاجرين ، وكادت تقع فتنة أراد أن يشعلها [illegible] المنافق [illegible] يافع : أوقد فعلوها ! قد كاثرونا ونافرونا فى بلادنا [illegible] كلبك يأكلك ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل [illegible] مقالة ابن أبىّ إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال عمر : [illegible] الحكيم : « فكيف يا عمر إذا تحدث الناس [illegible] »

[illegible] فيه ، فسار بهم يومهم ذلك حتى أمسى [illegible] آذتهم الشمس ، فنزل بالناس ، فلم يلبثوا أن [illegible] الأرض [illegible] وكان غرض النبى صلى الله عليه وسلم أن يشغلهم بالسير عن [illegible] وخيمة العواقب ، ولما علم عبد الله ابنه (1)

(1) عبد الله بن أبى [illegible] المنافقين . وعبد الله بن عبد الله بن أبى كان من خيار المسلمين [illegible]

ـ وكان من خيار المسلمين ـ بما قال أبوه ، جاء إلى النبي [illegible]
ابن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرني [illegible] والله لقد [illegible]
ما كان بها أبر بوالده مني ، وإني أخشى أن تأمر به [illegible]
إلى قاتل أبي يمشي في الناس ، فأقتل مؤمناً بكافر [illegible]
لقد كان جواب الحكيم الرؤوف الرحيم بالمؤمنين [illegible] فقال ﷺ
: بل نترفق به ونحسن صحبته ما دام معنا ، [illegible]
ابن أبي المنافق كلما أحدث حدثاً أقبل عليه قومه [illegible]
وقد أراد النبي ﷺ أن يبين لعمر ، رضي الله عنه [illegible]
يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي ، لأرعدت له [illegible]
عمر وهو الملهم المحدث : والله لقد علمت ، لأمر [illegible]

ولما قسم النبي ﷺ غنائم هوازن [illegible]
والمؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار ، فوجدوا [illegible] يعطي رسول الله [illegible]
ولا يعطيهم . فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ جمعهم [illegible] فقال [illegible]
وأثنى عليه بما هو أهله : « يا معشر الأنصار [illegible]
الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا : بلى [illegible]
الأنصار » ، قالوا : وما نقول يا رسول الله [illegible]
وصدقتم جئتنا طريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك [illegible]
المن لله ولرسوله . فقال رسول الله ﷺ [illegible]
في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً أسلموا ، ووكلتكم [illegible]
أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس [illegible]
برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذي نفسي بيده ، لو [illegible]
شعباً لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة [illegible]
الأنصار وأبناء الأنصار » فبكى القوم حتى أخضلوا [illegible]
قسماً . ثم انصرفوا بعد ما ثلجت صدورهم [illegible]
أروع من هذه الخطبة البليغة الجامعة بين الحق و [illegible]
لا التواء فيها ولا وعود كاذبة ولا إنكار للجميل [illegible]

وهل سمعت في تهذيب النفوس ... مثل هذه الكلمات الرقاق الصادقة، التي تضرب على أوتار القلوب وتهز المشاعر وتستولي على الوجدان؟ وأي سياسي ـ مهما سمت منزلته ـ يصل به التواضع إلى تقرير الحقيقة التي فيها هضم النفس، والإقرار بالفضل لتابعيه، بهذه الصراحة التي لا تملق فيها ولا مداهنة؟

لا، إن هذه السياسة الحكيمة المؤيدة من الله، لن تكون إلا من مثل سيدنا محمد، الذي وهبه الله عقلاً كبيراً، وقلباً رحيماً، وخلقاً رحيباً، وفطرة سليمة تسمو عن النظير.

هذا قليل من كثير مما تزخر به السيرة المحمدية من ألوان السياسة العبقرية. وقد كان من نتائج هذه السياسة المحمدية أن ربت السادة البهاليل أبو بكر وعمر وعلي وخالد وأبو عبيدة وأمثالهم وأضرابهم من عظماء الرجال وأساطين السياسة، الذين رفعوا شأن الإسلام ووسعوا رقعته وتركوا ذكراً عاطراً، لا تزال الدنيا تردده بالإعجاب والإكبار.

محمد محمد أبو شهبة
المدرس بكلية أصول الدين



صناعات أبناء الملوك

روى أبو عمر بن عبد البر في (بهجة المجالس) أن عبد الملك بن مروان قال يوماً لبنيه: «يا بني، لو عدمتم ما أنتم فيه، ما كنتم تقبلون عليه؟».

فقال الوليد: أما أنا ففارس حرب. وقال سليمان: وأما أنا فكاتب سلطان.

فقال ليزيد: فأنت ما تقول؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما تركا حظاً لمختار.

فقال عبد الملك: فأين أنتم يا بني من التجارة التي هي أصلكم ونسبكم. قالوا: تلك صناعة لا يرفعها إلا الرغبة والرهبة، ولا يجوز صاحبها من الدخول في حملة الدهماء والرعية.

فقال: عليكم إذن بطلب الأدب، فإن كنتم ملوكاً سدتم، وإن كنتم وسطاً رأستم، وإن أعوزتكم المعيشة عشتم.

فى الفقه الإسلامى

نشأته [illegible]

١ — [illegible] نذكر الآن ، بعد ما عرفنا فى [illegible] الصحابة [illegible]
أحيانا فى مسائل الفقه التى لم يرد فيها نص من [illegible]
هذا الاختلاف :

(ا) كان الصديق ، رضى الله عنه ، يسوّى [illegible] المسلمين فى [illegible]
ذكر له أن الخير فى التفضيل تبعاً للسابقة فى الإسلام [illegible]
أعرف المسلمين بذلك ، ولكنه يدع هذا لله [illegible]
فالأسوة فيها خير من الأثرة .

فلما صارت الخلافة للفاروق وجاءت الفتوح [illegible]
يسوّى بين من قاتل رسول الله وبين من قاتل معه [illegible] فى هذا [illegible]
[أى فى المال] إلا كأحدكم ، ولكننا على منازلنا [illegible] الله عز وجل وقسم
رسول الله ﷺ ، فالرجل وتلاده فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام [illegible]
وحاجته فى الإسلام » ، وهكذا ، فضل [illegible] العطاء [illegible]
الذى ارتضاه [1] .

(ب) وأكبر من هذا الخلاف أثراً فى [illegible]
الصحابة فى قسمة الأرض التى افتتحها المسلمون فى [illegible]
على أن يوضع عليهم الخراج ليكون عدّة المسلمين [illegible] وكان من رأى [illegible]
الله عنه عدم قسمة الأرض ، ومن رأى آخرين [illegible] بين الفاتحين [illegible]
فريق يجد له سنداً من القرآن ، مما جاء من ذلك فى [illegible] سورة الحشر .

وكان من كلام الفاروق فى ذلك : « كيف [illegible] المسلمين فيجد الأرض [illegible]

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم ، ج ١ : ١٨٢ [illegible]

[illegible] ؟ كما كان مما أثر عنه : أرأيتم هذه الثغور ، لا بد لها من رجال يلزمونها ؟ أرأيتم هذه المدن العظام ، لا بد لها أن تشحن بالجيوش ؛ فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟ ولم يرض الفاروق أن يستبد برأيه ، بل [illegible] ، فحكموا بأن الرأى الحق رأيه ، واطمأن الصحابة جميعاً لهذا [illegible] ، وكان هذا إلهاما من الله ، وتوفيقاً للخير العام فى العاجل والآجل من الزمان .

(ب) ومن الخلافات فى مسائل الطلاق ، ما كان من عمر حين جعل الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا تبين بها الزوجة بينونة كبرى ، مع أن الأمر جرى طول عهد الصديق وسنتين من خلافة عمر [illegible] على اعتبار ذلك طلقة واحدة رجعية ، لكن الفاروق قال فى ذلك : إن الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ! فكان أن أمضاه عليهم ، تشديدا عليهم لتسرعهم فى الطلاق . وهو أبغض الحلال إلى الله . وهنا نجد من الصحابة من يخالفونه ويذهبون إلى أنه واحدة ، ومنهم على وأبو موسى الأشعرى[1] .

ولكن الأمر استمر على ما جرى بعد عهد عمر على رأيه ، حتى صدر أخيراً فى مصر قانون المحاكم الشرعية جاعلا الطلاق الثلاث بلفظ واحد طلقة واحدة ، علاجا لمشكلة اجتماعية نشأت عن كثرة استعمال الطلاق بسبب وبغير سبب .

٢ — وبعد انتهاء عصر الخلفاء الراشدين ، تجيء فترة صغار الصحابة وكبار التابعين ، وتبدأ هذه الفترة بعام ٤١ هـ الذى آلت فيه الخلافة إلى الدولة الأموية ، وتنتهى بعد المائة الأولى للهجرة ، وقد تميزت هذه الفترة من حياة الفقه بأمور :

(أ) تفرق المسلمين سياسيا إلى خوارج وشيعة وأهل السنة والجماعة ، وكان لذلك أثره فى التشريع الفقهى ؛ لأن الخوارج ، وكذلك الشيعة ، لم يكونوا يعتمدون من الأحاديث إلا ما رواه رجالهم ، فى حين كان يعتمد جمهور المسلمين ما صح عندهم من حديث الرسول ، وإن كان فى أسانيدها بعض رجال الفرق الأخرى .

(ب) انتشار الصحابة وكثير من التابعين فى البلاد الإسلامية المختلفة ، وكان منهم من العراق وأهل البصرة بالكتاب والسنة وآراء كبار الصحابة فى مسائل الدين والفقه عدد

(1) إعلام الموقعين ج ٣ ص [illegible] وما بعدها .

كثير . وطبيعي أن يصح من الأحاديث عند البعض ما لا [illegible]
مخالفة ليس هنا موضع بيانها .

(ح) كثرة الآراء الفقهية والفتاوى في [illegible] الخاصة التي [illegible]
أحكاماً لها ، وبخاصة وقد وجد المسلمون أنفسهم في بلاد [illegible]
ما كانوا يعرفون في الحجاز والبلاد العربية الأصلية [illegible]
وفتاوى للعقل فيها مجال كبير بجانب تلك العادات والأمور [illegible]

(د) وربما كان الشك في كثير من الأحاديث [illegible]
الرأي ، أو القياس في الفقه . فإن كثيراً من الورعين [illegible] الكتاب والسنة [illegible]
شيوع التحديث عن الرسول والكذب عليه أحياناً ، [illegible] الأحكام الشرعية [illegible]
اجتهادهم الخاص في فهم القرآن والثابت صحته [illegible]
الخلاف في الأحكام والفتاوى في الأمر الواحد [illegible]
والشيعة من آراء وفتاوى خاصة تتبع مذهبهم في [illegible] (١)

(هـ) ظهور نزعتين في الفقه والتشريع : نزعة أهل [illegible] أهل الرأي [illegible]
وقد ظهر تبعاً لذلك ، مفتون من كل من الطائفتين [illegible]
وجمهرة أهل الرأي والقياس بالعراق ، ولا عجب في ذلك [illegible]
الصحابة الأولين ، والعراق بلد جديد في الإسلام [illegible]

وكان لكل طائفة رئيس هو حامل لوائها ، [illegible]
المسيب المتوفى عام ٩٣ هـ ، وزعيم أهل القياس إبراهيم [illegible]
سليمان الذي يعتبر شيخ أبي حنيفة ، وقد توفى عام [illegible]

وقد تفرع فيما بعد ، أصحاب الحديث من الفقهاء [illegible]
منهم الظاهرية أتباع داود بن علي ، ثم ابن حزم ، الذين [illegible] الظاهر من القرآن [illegible]
ومن يتتبع كتب الفقه يرى بوضوح كثرة الاختلافات [illegible]

---

(١) نسبة إلى قبيلة كبيرة من مذحج [illegible]
من طبعة بولاق .

[illegible] لاختلافهم [illegible] يرجع إليه كل من الطائفتين فى الفقه ، ولكل [illegible] (١) .

٣ — جاء [illegible] هذه الفترة [illegible] أخرى تعتبر أطول أدوار الفقه عمراً ، وهو دور [illegible] والكمال . وقد [illegible] أوائل القرن الثانى واستمر إلى منتصف الرابع ، وفيه [illegible] تدوين الفقه [illegible] ظهرت المذاهب الكبرى التى لا تزال بحمد الله [illegible] فى العالم الإسلامى [illegible] اليوم . نعنى مذاهب : أبى حنيفة ومالك والشافعى [illegible] رضوان الله عليهم [illegible] ولهذا الدور من حياة الفقه خصائصه التى تميزه عن [illegible] الأخرى ، وهى :

(أ) [illegible] الدولة [illegible] حدثاً ملحوظاً فى حياة الفقه والتشريع ، لأنها [illegible] يكن لرجالها رعاية ملحوظة بالحياة الدينية بعامة ، [illegible] والفقهاء [illegible] كان من همهم أن تقوم الدولة على قانون مستمد من [illegible] الإسلامى .

[illegible] فى هذه المرحلة ، ما نعرفه من إجلال الخلفاء [illegible] الفقه [illegible] الإمام مالك بن أنس يوجه للرشيد رسالة قوية ، يذكره [illegible] يجب عليه [illegible] ثم نجد هذا الخليفة يرسل إليه ابنيه الأمين والمأمون [illegible] بالمسجد حديث [illegible] عامة المسلمين (٢) .

ومن ذلك أيضاً ، [illegible] يطلب من الإمام أبى يوسف أن يضع له كتاباً يعتمد به فى إدارة الدولة [illegible] له ، كتاب الخراج ، المعروف ، وفى مقدمة هذا الكتاب يقول [illegible] : « فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك . . . ولا تزغ [illegible] رعيتك ، وإياك [illegible] والأخذ بالغضب (٣) ، إلى آخر ما قال .

[illegible] الفترة الطيبة من حياته ، تربة صالحة للنمو والكمال ، [illegible] ذلك [illegible] كبار المجاميع فيها ، وكثرة ما زخرت به كتب

---

(١) [illegible] راجع [illegible] من طبعة منير ، فقد صور ابن القيم النزاع بين هاتين المدرستين [illegible] وأورد [illegible] الخلاف .

(٢) [illegible] مفتاح السعادة [illegible] .

(٣) كتاب الخراج [illegible] طبعة بولاق .

الفقه من الأحكام والتفريعات العملية ، وتدوين [illegible]
أنفسهم وكبار أصحابهم وتلاميذهم .

(ب) قوة الحركة العلمية واشتدادها لعوامل [illegible] هذه [illegible]
العلوم والفلسفة اليونانية للعربية ، فضلا عما نقل من [illegible]
ما نقل للعربية ، منطق أرسطو ، والمنطق [illegible]
بطريق القياس .

(ج) وقد كان من كثرة الحديث عن الرسول [illegible]
طائفة حمقاء رفضت السنة جميعها ، أى رفضت [illegible] الأحكام [illegible]
فى القرآن غنية عنها ، ما دام قد نزل ، تبياناً لكل شىء [illegible]
هذه الطائفة وما تحتج به لما ذهبت إليه ، [illegible]
فى كلام قيم يجب الرجوع إليه [1] .

على أن هذا الرأى البين بطلانه ، كان لا بد أن [illegible]
يرون بحق أن السنة أصل أصيل للفقه بعد القرآن [illegible]
لم تكن لبيان ما نزل إليه من الكتاب ! وبخاصة [illegible] أعلام المسلمين [illegible]
الحديث أنفسهم بالفحص عن الأحاديث وبيان صحيحها [illegible]
فى مجاميع هى مراجع أساسية للمسلمين جميعاً فى [illegible]

كل هذه الخصائص جعلت هذا الدور هو دور [illegible]
المذاهب المعروفة وتأليف الكتب القيمة فى الفقه [illegible]
القيام على المذاهب المعروفة وتقليد أصحابها ، [illegible]
منه فى أيامه الأولى ـ مع ذلك ـ ثروة فقهية كبيرة [illegible]

الحديث موصول

الدكتور محمد يوسف موسى
[illegible]

---

(١) كتاب الأم ، الطبعة الأولى الأميرية ، ج ٧ : [illegible]

[illegible] البهائية والبكتاشية – ثم جماعة التقريب

[illegible] أفصحت لجنة الفتوى بالأزهر عن حكم الإسلام فى البهائية ، بناء على ماقدم إليها [illegible] شأن هذا المذهب ، و[illegible] أفصح فضيلة مفتى مصر – الشيخ حسنين مخلوف – عن الحكم [illegible] الطائفة البكتاشية [illegible] على ما [illegible] إليه من التاريخ ومن الشريعة . وقد التقت الفتويان [illegible] الطائفتين [illegible] من لم يكن يعرف ، أنهما على غير الحق الصراح ، [illegible] – كما نمى إلى لجنة الفتوى – قائمة على نسخ الأديان [illegible] السالفة كلها ، [illegible] بعد ذلك بين القول حينا بألوهية زعيمها الاول ، والقول حينا آخر بنبوة زعيمها الخالف .

[illegible] ووسيلتها فى الدعوة إلى مذهبها [illegible] ، لاتخلو غالبا من الإباحة لامور محظورة ، [illegible] التحلل من تكاليف [illegible] ونبذ القيود الكابحة عن الغواية .

[illegible] ذلك [illegible] وتكسوه بهذه التسمية ثوبا ربانيا تخادع به البسطاء ، [illegible] البهاء [illegible] أمرهم سارعوا إلى القول بأنهم مؤمنون بكل شيء [illegible] الأديان [illegible] الفيض الإلهى لا يزال مفتوحا .

وآخر ما قرأنا [illegible] فى أهرام ٥ من نوفمبر الحالى سنة ١٩٥٢ [illegible] فتوى اللجنة [illegible] فتوى فضيلة المفتى .

وهذا الرد [illegible] لا ينفيهم مما تهربوا منه ، إذ هم لايرضون بالإسلام ، [illegible] محمدا – ﷺ – خاتم النبيين .

[illegible] باب الفيض ، الوحى ، لا يزال مفتوحا ، وأن النبوة [illegible] أن [illegible] زعيمهم البهاء . وهكذا من خلطهم المصطنع . وفى [illegible] وغاشهم فى الكفر . وإن تنصلوا بالمحاولات [illegible]

[illegible] من أتباع الفاطميين ، الذين يمتون إلى الإسلام ، غير [illegible] الأولى من عهد على وخلافه مع معاوية ، رضى الله [illegible] خصوم الإسلام الذين غاظهم أن تكون له تلك [illegible] النيل من قوته أقرب إليهم من التظاهر بالتفانى [illegible] وفى التشيع لآل البيت [illegible] على خاصة .

وسواء أكان التشيع فى أصله غيرة صادقة على بيت النبوة ، أم كان ...
فقد استتر به من يعنيهم اقتلاع شجرة النبوة من أصلها ، ...
أبواب الفتنة ، وأن يشقوا وحدة المسلمين فى ألوان ...
فى استيعابه وبيان خطره أهل الذكر من المؤمنين والو...

ومهما يكن من تقدير الشيعة للتاريخ فى قصصه ...
دينيا خاصا بين جمهرة المسلمين ، وأن لهم مسالك متباينة ...
مجتهد مع مجتهد فى فهم واستدلال ، ومحاولة للوصول ...
مذهب متعصب مسرف مع متعصب مسرف ...
أن وحده الملهم من الله المشمول بالعناية ...
اختاره ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

ونحن نعلم أن الدين يدعو إلى الوحدة ، ويحرص ...
الإسلامية ، وينصح بأن شخصية الأمة لا تقوم ...
والتآخى ، وعلى الرجوع والخضوع للقرآن والسنة ...
ويفسح للعقول مجال الفكر المتزن ، والاستنباط ...
ولا تسخير للقرآن ، وإخضاعه للنزعات ، وإتباعه ...
فى التكتل ، والتضامن مع أهل الكتاب ، والتعاون ...
بهم فى المعاهدات ، والأنساب ، متى كانت ...
بالتقاليد الإسلامية .

ومن ذلك ـ وهو جوهر النظام الإسلامى ...
الجماعة . وكل داع إلى نحلة تباين الأصل ولو قليلا ...
منتقضا على الدين فى أساسه ، ونابذا لتوجيهاته ...
يأخذ بها فى تبرير انحيازه .

ولئن كانت هناك طوائف بين هاتيك الطوائف ...
العصبية المسرفة ، فذلك على أى حال تصدع فى صرح الإسلام ...
مستمدة من طبيعته وتعاليمه ، ونقاوته من الزيف ...
لعصفت به تلك المنازعة بين الطوائف المنتمية إليه

ولكن ، مع أن دعوة السوء توطنت بين صفوف ...

فى [illegible] قديماً ، ومع [illegible] بقصد ما [illegible] سافرين يقاومونه ، ويدفعونه ما استطاعوا ، فظل الإسلام يحمل المشاكل [illegible] عظيم ، ويحتمل مدافعة المقاومين له ، لأن له مدداً من [illegible] الله ، ولأن فى أمته [illegible] جمهرة عظمى تعتز بصلابتها فى الحق ، وتنحيها عن التشقق ، [illegible] على صراطه المستقيم [illegible] فقها عند المورد العذب : من الكتاب والسنة ، والمأثور عن السلف من أصحاب محمد [illegible] ومن تبعهم من الأئمة المعتدلين ، وذلك سبيل المؤمنين ، وسيظل كذلك شأنهم ما دام الحق [illegible] فى رعاية الله ، وما دام الباطل زهوقا وإن تطاول زمنه .

نحن لا نذكر [illegible] الروافض ، ولا ننفخ فى بوق الفتنة ، ولا نتحكم فى جماعة أن يتحولوا [illegible] القول بنزعة الجنوح إلى تزعيم زعيم ، والتمذهب له بمذهب [illegible] ولا نرضى بالتشاغل عن [illegible] المصدر الأول فى التشريع الإسلامى ، والتفرغ للأشخاص من [illegible] الأئمة ، وتقطيع [illegible] كل باطل ، حتى ندعم تلك الدعاوى المكذوبة بما [illegible] من الطرق [illegible] ولا من الطرق المعقولة ، ولكنها العصبية المألوفة [illegible] أنشأت المقلية الإسلامية ، نرى أشياعا لتلك الخلافات [illegible] الأولى [illegible] بما طرب له قديماً الحانقون على الإسلام [illegible]

[illegible] هذا ، ولدينا اليوم فى مصر مظهر لذلك : «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية» ، [illegible] من هذه الجماعة شيخ شيعى ، من النجف ، يقيم فى مصر لعهد قريب أو بعيد ، [illegible] لدعوة [illegible] رجالات مصر ، ولم يكن يسع مسلماً أن يتخلف عن تلبية [illegible] الذى هتف بها القرآن أول ما هتف : «واعتصموا بحبل الله [illegible] ولا تفرقوا» ، «إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء» .

[illegible] العضوية المتواضعة بين أولئك الأمجاد . فماذا أحدثت [illegible] وقد مضى عليها أربع سنوات تقريباً ؟؟

[illegible] فى صدر [illegible] الاجتماعات ، مرة : للتعارف ، واختيار الرئيس ، [illegible] ومرة ثانية : لاستقبال ضيف شرقى مسلم سيزور دارنا ، دار التقريب ، وثالثة : لسماع رسائل [illegible] من جهات إسلامية ، ومن بينها رسالة من النجف [illegible] مركز الشيعة ـ يطلب [illegible] تلقى هناك فى الذكرى الموسمية للإمام الحسين بن على رضى الله عنهما ، ثم يقترح علينا فى هذه الجلسة أن تطالب الجماعة إلى الأزهر تدريس الفقه

الشيعي إلى جانب مذاهب أهل السنة ، ويتوارى [illegible]
همس بذلك من همس .

وبعد ذلك توقفت الاجتماعات ، وانحصرت [illegible]
وأسموها (رسالة الإسلام) .

وتعنى رسالة الإسلام هذه بنشر مقالات لأهل [illegible]
وتلقينهم بيننا ، ولم يكن يتاح لهم ذلك لو لم تكن [illegible]
وأنصار ينتفعون .

وكان بودنا أن تصدق النية ، وتسلم الوسائل [illegible]
الذي هرعنا إلى العمل على تحقيقه ، ولكن تبين من أمارات [illegible]
النجف في مواسمها ، وفي الجنوح إلى مذهبها ، دون أن [illegible]
الغرض الذي زعموا ، بل ظهر أن التقريب في [illegible] رسالة الإسلام
أوسع مما فهمنا ، حتى أصبح تقريبا بين الإسلام نفسه وبين الأديان الأخرى [illegible]
الفوارق ، والتسوية بين الجميع في الحكم ، [illegible] (
يوما ما ، من عهد قريب) .

رابني هذا التلاعب في استغلال جماعة التقريب [illegible]
بها ، وباقياً فيها ، ورابني - ويجب أن يرتاب [illegible]
دون أن نعرف لها مورداً من المال ، ودون أن [illegible]
أنيقة ، بالزمالك في القاهرة فيها أثاث فاخر ، وفيها [illegible]
القائمين عليها ، وتكافىء الكاتبين فيها ، وتتأنق في طبع [illegible]
ذلك مما يحتاج إلى مورد فياض . . فمن أين ذلك ؟ ؟ [illegible]

ثم هل صحيح أن علماء النجف مستعدون [illegible]
أو يحقق شيء من التقريب ؟ ؟

هل يمكنهم أن يحيدوا عن القول بأن لهم أئمة [illegible]
هم وحدهم المهديون ، ومن بينهم الإمام المنتظر [illegible]

وهل هؤلاء الأئمة : من ظهر منهم ، ومن اختفى [illegible]
يكونوا أنبياء ؟ ؟ .

وهل [illegible] فضلا عن صحته واعتباره من أصول الدين ؟ وهل [illegible] المتعة [illegible] وهم يستطيبونه وإن خالفوا . وهل سب [illegible] والتنكر للأشياخ [illegible] أمر يرتضيه أدب الإسلام . وتسمح به تعاليم [illegible] ﷺ [illegible] ﷺ من التنويه بفضلهم ؟ ؟ أمور ليست جديدة . [illegible] فيها [illegible] في تصحيحها لا مطمع فيه . ولكن كلفت نفسى [illegible] وكلفت [illegible] وقفنا من جماعة التقريب فيما هي توهمنا بالعمل [illegible] خطاها إلى الأخذ بها ، أو على الأقل هي تقود [illegible] مرقون من طرق العلم الصحيحة ، وبين ما يقرءون لجماعة [illegible] أحكام مخالفة : في جهات متعددة .

و [illegible] ؟ ؟ ؟

[illegible] الأزهر [illegible] وطنا للتشيع ، وأبت مصر من قديم أن تكون [illegible] والنحل المدخولة كالبكتاشية وما يشبهها كلها ، فما [illegible] على مقربة من الأزهر ، وهو المهيمن على التوجيه [illegible] ؟ ؟

[illegible] من الأثر ما أصبح للبكتاشية وأمثال البكتاشية [illegible] مذهبية ، كما تتحرك دسائس البهائية في ظل السكوت [illegible] في أطارف مصر بنشاط المركز البهائي بالقاهرة [illegible] فيما مضى أنها لم تكن طليقة اليد في تدبير أمرها ، [illegible] لا يتحرجون أن يحتموا بدول أخرى . فعليها أن تدرك اليوم ما فاتها [illegible] . ولتذكر مصر [illegible] أنها بلد القرآن حفظا ، ودراسة ، وصيانة . وأنها بلد الأزهر ، فما يليق بها أن [illegible] الطفيليات تتراكم حول هذا المصباح الوضاء .

ولا [illegible] عقيدة مصونة في الدستور ، فإنما يعنى الدستور [illegible] لأهل الكتاب . أما النزعات الهدامة الغريبة عنا ، [illegible] على حساب الدين ، فباطل كله ، ودستور مصر يجب ألا [illegible] الأباطيل ، وألا [illegible]

عبد اللطيف محمد السبكي
عضو جماعة كبار العلماء

نظام الإسلام السياسي

تحت هـــذا العنوان كتب الأستاذ [illegible]

(رسالة الإسلام) التي تصدر عن دار التقريب بين [illegible]

الصادر في المحرم سنة ١٣٧٢ هـ أكتوبر سنة ١٩٥٢ [illegible]

الكاتب بطول النفس وسعة الاطلاع . وقد [illegible]

أن يوفق إلى حد ما بين نظريتين أشار إليهما في مقاله [illegible]

لو تعمق في دارسة الإسلام لا تفق مع صاحبه [illegible]

إحداهما : تقول : إن الإسلام رسالة لا حكم [illegible]

الأستاذين على عبد الرازق « الإسلام وأصول الحكم » [illegible]

والثانية : تقول : إن الإسلام نزع جميع السلطات [illegible]

وقال في التوفيق : إن الفريق الذي نزع الحكم [illegible]

المسلمون من الركود والخمول وفساد الحال ، فظن [illegible]

الدين والسياسة ، فنصب نفسه محاربا لهذا النوع [illegible]

وأما الفريق الذي يرى أن الإسلام دين الحكم [illegible]

فإنه نظر إلى ما فيه المسلمون من الضعف وفقد الثقة بالنفس [illegible]

مهما كان متعارضا مع نظام الإسلام ، فيقولون إن الإسلام [illegible]

فأراد أن يكافح هذه النزعة من الاستخذاء ، [illegible]

وقد تحامل على هذا الفريق ، وهو على الحق [illegible]

الإسلام ، لا نتيجة دراسة سطحية . فالإسلام [illegible]

على جميعها ، لم يترك شيئا إلا بينه تفصيلا أو إجمالا [illegible]

ضوء قواعده لا يخرج عنها عمل ما ولا يشذ عن أحكامه [illegible]

على هذا الرأي بأن رمى أصحابه بأنهم ظنوا أن [illegible]

من الحماية تقيها شر التعديل والتحوير . وكان في غنى عن [illegible]

قلة تقديره الإسلام . ولقد ردد معناها وبعض ألفاظها [illegible]

[illegible] القارئ الكريم بعد أن أشير إلى ما تضمنه المقال بعد [illegible] تصويرا للمقال كله . ولا أكون قد أجلت فى سمينه وغثه وإن تكن الحسنات [illegible] فى الحق أن سيئات هذا المقال أفظع من أن أغطى على [illegible] والتوفيق والهداية .

قام الأستاذ بعد ذلك [illegible] وجيزة كما يقول للنظرية السياسية فى الإسلام فى خطوطها الرئيسية ووزعها على [illegible] :

(١) هل الإسلام [illegible] ؟

(٢) ما مصدر السلطة السياسية فى الإسلام ؟

(٣) هل يربط الإسلام بين الدين والسياسة ؟

(٤) إلى أى مدى [illegible] الإسلام بين الدين والدولة ؟

و[illegible] فى البحث الأول [illegible] واستنتاجا ولطف مذهب وصحة رأى ، وتستطيع [illegible] فكرته [illegible] فى هذا البحث :

الأولى [illegible] هذا أستطيع أن أقرر بكثير من العزة والثقة أن الإسلام دولة ، وأن الإسلام نظرية سياسية واضحة المعالم هى نظرية الحكم الدستورى النيابى القائم على حق الترشيح وحق الانتخاب وحق المعارضة .

والثانية [illegible] ذلك للقول بأنه قد ثبت ثبوتاً قطعيا أن الإسلام نظرية سياسية واضحة المعالم هى الحكم الشورى المنطوى على حق الترشيح وحق الانتخاب وحق المعارضة [illegible] فى صدر دولتهم تنفيذا للقاعدة الدستورية الواردة [illegible] الشورى « وأمرهم شورى بينهم » .

[illegible] مصدر السلطة هو القانون الإسلامى وقال : إنه لا يعرف [illegible] والسنة من الخلفاء والملوك والأمراء والولاة [illegible] ولكنه كانت تجرى مخالفات وهذه المخالفات [illegible] قبل الفراغ من هذا البحث :

[illegible] أن حكم القاعدة الدستورية المكتوبة « وأمرهم شورى بينهم » ما يزال [illegible] ثم أخذ بعد ذلك يبين طريق الشورى ويحاول أن يناضل [illegible] لا [illegible] . فجاهد فى غير عدو ، وزلت به قدمه كما سأبين لك .

فالفكرة فى ذاتها سليمة ولكنه تطرق فاستطرد إلى [illegible]
ولكنه كان حشوا مفسدا ، ورأيا فائلا ، ومذهبا ضالا

وفى البحث الثالث ، يرى أن الإسلام يربط بين [illegible]
إن مفهوم الإسلام فى جوهره تحقيق قوله تعالى « اتقوا الله [illegible]
الأخلاق ، وإن السياسة يجب أن تخضع لإطار [illegible]
الإثم والعدوان .

وقال : إن الدين إذن عبارة عن العنصر الأخلاقى [illegible]
مرافق الحياة ، وهو ما عبرت عنه الكلمة المأثورة [illegible]
مزايا الإسلام فى ذلك المقام وفضله على سائر الأديان [illegible]

وفى البحث الرابع قال : إن الجانب الأخلاقى فى الإسلام [illegible]
الإنسانى تحت مراقبة الله وحده ، وجميع العبادات فى الإسلام [illegible]

وخلص من ذلك إلى أن ربط الإسلام بين الدين [illegible]
وعاد يناقش النظريتين السابقتين باطلاقهما ويدلل لذلك [illegible]
إلى أن للإسلام نظرية سياسية هى أرقى أشكال [illegible]
أساس تأسيس حكومة دينية ، بل على أساس ربط [illegible]

وهذا الكلام يحتمل المناقشة ولكنه قد [illegible]
نهاية البحث الثانى وهو بصدد تحديد الحكم الشورى [illegible]
ما يتوهم من خلاف عليها .

وإلى القارىء الكريم العبارة ثم المناقشة . قال :

« وتبعاً لهذه القاعدة المكتوبة فإن مصدر السلطة [illegible]
ينتخبها المسلمون بمحض اختيارهم من أهل المشورة [illegible]
والسلطان بنص الدستور . أما القول بأن شريعة الإسلام [illegible]
كغيرها من الشرائع السماوية فأعتقد أن هذا القول لا [illegible]
قد قال بقاعدة النسخ (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير [illegible]) ، ولا [illegible]
أحد أن هذه الآية قد انتهى حكمها بوفاة الرسول عليه السلام [illegible]
بعضهم . كلا ، فإن القرآن قد نص على أن الأمة [illegible]

[illegible] كان الله [illegible] ثم صار التشريع إلى الأمة انتهاء . لأن الله سبحانه [illegible] (وأمرهم شورى بينهم) .

[illegible] ولا يقوم عليه برهان . فهو يرى أن قاعدة الشورى [illegible] جمعية تشريعية إلخ - وليت شعرى متى كان هذا [illegible] شورى لا يكون إلا على هذا ؟ وهل جهل المسلمون [illegible] ما أنزل بلا تحريف ولا تزيد ؟ لقد سارت السلطة [illegible] ﷺ [illegible] المسلمون فيها ذلك ، وإنما كان الدستور كما ذكره [illegible] أمير من الامراء جمع أقرب الناس من أهل [illegible] منهم يرى الرأى فيرد عليه ، فإن وجد الدليل [illegible] حين أراد أن يبطل التغالى فى المهور فاحتجت [illegible] قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » . فرجع عما قال ، [illegible] أصابت امرأة » . وإن لم يجد الدليل المقنع فلا يرجع كما [illegible] حاول عمر أن يرده فلم يستطع ، لأن ذلك شىء كان فى [illegible] ﷺ [illegible] حقيقة .

[illegible] نظام مدنى غربى ، فنحن نريد أن نلزم الناس [illegible] سبحانه أمر بالشورى . ولكن الشورى شىء [illegible] إلا فيما أشكل ولم يكن فيه نص من كتاب [illegible] يقع فيما أنكر على الناس من التعلق بكل نظام [illegible] أجنبى .

[illegible] أن شريعة الإسلام تقبل التعديل بخلاف غيرها [illegible] الشرائع [illegible] وضلال بين . فإن شريعة الإسلام عامة لكل زمان ومكان [illegible] الأرض ومن عليها ، لا تبديل لكلمات الله ذلك الدين [illegible] كل ما يتعلق بشئون الناس من أولها الى آخرها خاصها [illegible] الإسلامية لا يجرؤ أحد على أن يخالف شيئاً منها إلا إذا كان [illegible] فكل ما فيها دستور مطرد فى كل مكان ، وممتد الى آخر

الزمان . فأحكام الولايات وجميع السياسات في داخل [illegible]
وأنزل . فإن وقع شيء لم ينص عليه أو جزئية [illegible] أولى الأمر
من المسلمين ليستنبطوا لها حكما من الأدلة [illegible]
والإجماع ، والقياس .

فالجهاد فريضة قائمة بقيوده الشرعية لا يجوز [illegible] ولا [illegible]
بوجوبه . وحماية البلاد الإسلامية واجبة شرعاً ولا [illegible] ولا تعديل .

والزنا حرام ، والربا حرام ، والخمر حرام ، [illegible]
ورسوله بلا تغيير ولا تبديل في شيء من ذلك .

ولو جاز التعديل ، لصح القول بحل الزنا أحياناً [illegible]
فيه بلادنا وغيرها على خلاف أحكام المسلمين .

لو جاز التعديل لأبيح شرب الخمر إذا رأته الحكومة [illegible]
ولكان لها أن تغير في نظام النكاح والطلاق والإرث [illegible]
بشريعة متقيمة ، والقول بها إلحاد خارج عن [illegible]
الضلال .

يا هذا قد أكمل الله الدين بما شرع من شرائع [illegible]
وبما سن من قواعد محكمة ، لا يشذ عنها شيء من الوقائع أبداً [illegible] على الناس أن [illegible]
ويستنبطوا من أدلة الشرع أحكام جميع الوقائع كما تطبق [illegible]
الحكم بغير ما أنزل الله « ومن لم يحكم بما أنزل الله [illegible]
والفاسقون بنص الكتاب الكريم .

فمن أين يقع التعديل والتغيير كما زعمت ؟ إن الدين [illegible]
الدين الحق ، وإنما هي فيما أشكل أمره ، واختلف [illegible]
على أخرى ، ونزيد الحاكم معرفة بجمع الأدلة ، والتدبر بالمدارك [illegible]
ولا يقبل فيها قول بغير برهان صحيح ، ودين متبع . [illegible]
« فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك
خير وأحسن تأويلا » .

[illegible] الإسلام [illegible] المسلمون ! لقد كبرت كلمة تخرج من فم قائلها . إن يقولون إلا كذباً [illegible] التصديق للشيء المائل الجائر . وأحكام الإسلام كلها اعتدال وعدل [illegible] إلا فرد أو جماعة إلا كانت قواماً وقصداً ونصفة [illegible] ورحمة [illegible] طرقت مسالك الحياة بأمة فرجعت إلى ميزانها [illegible] وسلطانها [illegible] المسلمون الاولون فى آفاق الأرض يطبقونها فى كل بقعة [illegible] فى كل أمة [illegible] خير دعاية وحببوها إلى الناس فدخلوا فى دين الله أفواجاً . لأن [illegible] فيها من السعة والقوة والنصفة والرحمة ما يكفل لها [illegible]

يجب أن يعلم الناس [illegible] من الدين . وأن أحكامه الآن فى السياسة وفى غير السياسة [illegible] وأن يتذكروا قول الصادق المصدوق محمد ﷺ : افترقت اليهود والنصارى على [illegible] وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة [illegible] رسول الله ؟ قال التى على ما أنا عليه وأصحابى ، فمن [illegible] تعديلا ـ ومن غير أو بدل ، فقد خالف ما كان عليه محمد وأصحابه ، و[illegible] الرسول ، واتبع غير سبيل المؤمنين ، فحسبه جهنم وساءت مصيراً .

يجب أن يعلم الناس أن لا حاكم إلا الله فيما أجمع عليه المسلمون . فإن من قال من الفرق إن للعقل حكماً فسره بأنه يستطيع أن يدرك الحكم فيما لا نص فيه بحسب ما فيه من مصلحة ومفسدة ، لأن أحكام الشرع منوطة بالمصالح ودفع المفاسد .

وحتى إن من قال بالقياس من المسلمين منع القياس وهو دليل شرعى عند وجود النص ، [illegible] على أنه لا تبديل لكلمات الله ولا تغيير فى أحكام الله .

ولكن علماء الغرب [illegible] الدين . يتأولون ، فصرنا نقول كما يقولون ، ونحتال الاستدلال لذلك من كلام الله وسنة رسوله . والمسلمون جميعاً منذ بعث محمد ﷺ يشددون النكير على من يخالف شيئاً من الكتاب أو السنة ، ويحاسبون أهل البدع والاختراعات ، ويتحاشون الوقوع فى بعض المستحدثات ، ولا سيما بعد أن حذر من ذلك سيد المسلمين بقوله : « من يعش منكم فسيرى اختلافا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى : عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ،

وكل ضلالة فى النار » . وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « من أحدث [illegible]
فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

وبعد - فهذا قول كان جديراً بعدم الرد عليه [illegible]
ولكن لما كان فى المقال وجاهة فى بعض البحث [illegible] خشيت أن
يضل القارىء عن سبيل الله فيظن أن شريعة الإسلام [illegible]
التغيير ومسايرة المدنيـة والفناء فى مقتضياتها [illegible]
والاختلاط ونكاح (الكونتراتو) وحظر الطلاق [illegible] أن يتورط [illegible]
المسلمون فيفقدوا البقية الباقية من هذا الدين .

ثم انظر إلى ما استدل به الكاتب على جواز [illegible]

إنه يستدل على ذلك بأن فى الشريعة الإسلامية [illegible]
ويخبط خبط العشواء . نعم إن فى الشريعة الإسلامية [illegible]
إلى جمعية تشريعية كما تزعم . إنه لا ينسخ أحكام الله إلا [illegible]
الحديث قطعى الدلالة كالقرآن الكريم . وهو [illegible]
الله سبحانه يقول « ما ننسخ من آية » ولا يقول [illegible]
عما تقول !!

أهذا مبلغك من العلم على الاستدلال للجمعيات التشريعية [illegible]
له شيء ، إلا أن يكون قضاء على العقل فى ساعات [illegible]

أما نحن فنقول إن الجمعيات التشريعية جائزة [illegible]
سقتهما وبدلالة العمل المطرد فى الصحابة والتابعين [illegible]
والعقل السليم ، فما ندم من استشار كلما التبس أمر [illegible]
اللبس وعند عدم وجود النص .

أما أن تستدل على ذلك بصحة النسخ ، وتسوق [illegible]
بها التغيير فى أحكام الله . فذلك إلحاد فى آيات الله [illegible]

لقد نص علماء الأصول على أن الإجماع نفسه ([illegible]
من حقه أن ينسخ ، لأنه لا يكون إلا بعد انقراض زمن [illegible]

ثم ماذا ؟ ثم يتمادى الكاتب فى باطله فيزعم أن هذه الآية لم ينته حكمها بوفاة الرسول ! ويجعل ذلك توهما ! ويصفه بأنه يتبادر إلى بعض الأذهان ! وهو الحق كما علمت ، فإن الناسخ هو الله ، ولا نسخ أبدا بعد رسول الله ، وإلا ذهب الدين وعاد الناس كما كانوا فى جاهليتهم فلا مدنية مهذبة [illegible] الجاهلون ، ولا علم رادع كما نشاهد فى أحوال العلم والمدنية من الضلال والعدوان .

ولقد تمادى فى [illegible] الحق ، وران على قلبه ما اجترأ على الله والدين والعلم ، فعزز [illegible] الحفريات على آيات الله ، ونسخها لكتاب الله ، واطراد ذلك النسخ بأن القرآن نص [illegible] أن الأمة [illegible] . وليت شعرى أين هذا النص ؟

ويزعم أن الحكم [illegible] ابتداء ثم صار إلى الأمة انتهاء . وكل ما يستدل به على ذلك (وأمرهم شورى بينهم) [illegible] إلى الإفلاس فى الحجة ، ومنطق التزوير والمهاترة هل آية الشورى هى التى فعلت هذا كله [illegible] الحكم لا بد أن يكون بجمعية تشريعية . وجعلت النسخ جائزا [illegible] واجبا بأقوال [illegible] أن يكون الحكم للأمة وحدها لا لله انتهاء ؟!

اللهم إنا آمنا بما [illegible] واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . اللهم أنقذ أفكار هذه [illegible] من [illegible] الإسلام وثبتها بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة [illegible] العالمين .

محمود النواوى
المفتش بالأزهر

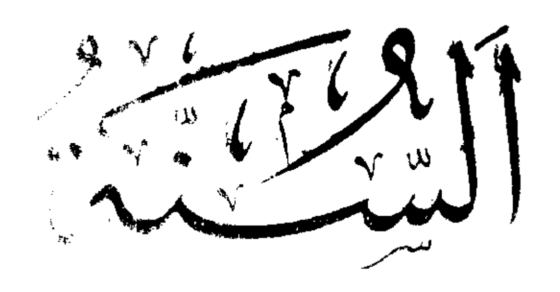
من أمثال العرب

[illegible] جلاه .

[illegible] موكل بالمنطق .

[illegible] شر منه .

[illegible] الحياة ذل .



الحب الالهى

منزلته – وسيلته وأسبابه – [illegible]
أولى الناس بالمحبة – ثمرة الحب الإلهى [illegible]

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم [illegible]
جبريل إن الله يحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل . فينادى [illegible]
فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض [illegible] (*)

✧✧✧✧

محبة الله لعبده وما يتبعها من ولاية الله ونصره [illegible]
ومسالمته لمن سالمه ، وإكرامه لمن أكرمه ، ومن إعزاز [illegible]
به فى حياته ، وتبكيان عليه عند موته ؛ هذه المحبة التى [illegible] وكل [illegible]
منزلة ما أجلها ! حقيقة بأن يتنافس فيها المتنافسون ، ويتسابق إليها المتسابقون [illegible]
المخلصين والأبرار المقربين ؛ إذ كانت هى الغاية القصوى [illegible] والذروة [illegible]
من الدرجات ، لا جرم أنها حرام على أرباب الكلام [illegible] الإسلام [illegible]
لأولى العلم والتقوى ، والعمل والخشية ، من الذين جاهدوا فى الله [illegible]
ولايته ، فاجتباهم ربهم ، واصطفاهم لمحبته ، واختصهم [illegible]
ذو الفضل العظيم ،

غير أنه – سبحانه – وإن اختص برحمته من يشاء من عباده [illegible] فى كتابه المبين [illegible]
أوحى إلى رسوله الصادق الامين ، أن لهذه الدرجة الرفيعة [illegible]
تدل عليها ، ووسائل تهدى إليها ، وأمارات ترشد إلى [illegible]

(*) غير أن مسلماً انفرد بذكر الشطر المقابل وهو [illegible]
[illegible] فيبغضه جبريل ، ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا [illegible] فى الأرض

وقد أمرنا الله أن نسعى في كل شيء متخذين بالأسباب والوسائل لما قضى – وله الحجة البالغة – من الربط الإلهي الوثيق بين الأسباب ومسبباتها، والوسائل وغاياتها.. فمن طمع في حب الله له ورضوانه عليه دون أن يأخذ في أسباب هذه المحبة ويسلك سبلها، فهو إما مخدوع جاهل، أو مبطل عابث يريد أن يلغي عقله، ويفسد فطرته، ويبدل سنة الله في خلقه وشرعه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

* * * *

وأساس حب الله للعبد ورضاه عنه هو حب العبد لربه وإخلاصه له، وعلى قدر حب العبد وإخلاصه يكون حب الله تعالى ومعونته، وتوفيقه وهدايته. ولا يزال العبد يتدرج في الإخلاص والمحبة حتى يكون عبداً ربانياً: لا ينام ولا يقوم، ولا يحب ولا يبغض، ولا يفعل ولا يترك، ولا يتحرك ولا يسكن، إلا بالله ولله: يتقيه حق تقاته، ويبلغ الجهد في مرضاته، ويتوكل عليه حق توكله، فلا يخشى أحداً غيره، ولا يرجو أحداً سواه.. وهنا يجده معه فيشمله بمحبته ورعايته، ويقربه منه حتى يكون أقرب إليه من سمعه وبصره، ويده ورجله، وما ظنك بعبد أحبه مولاه، فكفاه وتولاه، ورضى عنه وأرضاه؟ أليس مصداق ذلك ما رواه البخاري في الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىّ عبدي بشيء أحب إلىّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني (١) لأعيذنه».

يبين هذا الحديث الرباني أتم بيان طريق محبة العبد لربه، ووسيلته إلى قربه، وأجملها في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده، مع تقديم الأصول على الفروع، والفرائض على النوافل. وقديماً قال العلماء الربانيون: من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور. ومثل من يتقرب إلى الله بالنوافل مع تهاونه في الفرائض من جهلة المتصوفة وأمثالهم، كمثل البستاني يأتمنه سيده على بستانه، فيعمد إلى أشجاره فيسرقها، ثم يختلس منها بعض ثمارها، فيقدمها هدية إلى سيده. لا جرم أنه يستحق برفض هديته [illegible] غضب مولاه ومقته!

---

(١) روى بالنون وبالباء، والرواية بالنون أشهر.

أما الذين يزعمون أن محبة الله أثر للعلاقة القلبية [illegible]
ولا دخل للعمل فيها ، من الزنادقة والملاحدة [illegible] القاسمة [illegible]
والشقشقة اللسانية ـ فلا خطاب لنا معهم ، إذ [illegible]
وأغلقوا قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم فعموا وصموا [illegible]
وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل [illegible]

وقد ادعى محبة الله أقوام أقل من هؤلاء [illegible]
وأعلن فى كتابه العزيز تكذيبهم وبراءته منهم ، فقال [illegible]
فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور [illegible]
فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » ، وقال [illegible]
« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل [illegible]
ثم قال جل شأنه فى علامات أوليائه الصادقين [illegible]
رضوا عنه ، والذين يباهى بهم ملائكته [illegible]
خير العوض عمن ارتد عنه وجحده : « يا أيها الذين آمنوا [illegible]
الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين [illegible]
ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء [illegible]

هذه أربع علامات تضمنتها الآيات الكريمة [illegible]

الأولى : ذلتهم للمؤمنين وخفض الجناح لهم [illegible]
أو الأخ على أخيه ، أو الطبيب على مريضه ، فليس [illegible]
ذلة تواضع وعطف ، وقد أمر الله الأبناء أن [illegible]
من الرحمة » ، ووصف النبى صلى الله عليه وسلم [illegible]
كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى [illegible]

الثانية : عزتهم على الكافرين وعدم الخضوع [illegible]
ولا يتخذون منهم بطانة وأنصاراً ، ولا يتشبهون بهم [illegible]
أو يضعف عزتهم وسلطانهم ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين [illegible]
على المؤمنين سبيلا .

وفى معنى هاتين العلامتين ما وصف الله تعالى به أصحاب نبيه ﷺ فقال : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » .

الثالثة : جهادهم بأنواع الجهاد كافة : بأنفسهم وأموالهم ، وأيديهم وألسنتهم ، لا يألون جهداً ولا يدخرون وسعاً فى أى ضرب من ضروب الجهاد . وبالجهاد قام الإسلام ، وبنى هذا الدين الحنيف ، وعم نور الله فى الأرض ، وبالجهاد سبق السابقون ممن لا يبلغ المجتهدون منا مد أحدهم ولا نصيفه .

الرابعة : صلابتهم فى الحق وتصميمهم فيه ، لا يخافون لوم اللائمين ، وإن بلغوا من السلطان أو الجاه أمداً بعيداً ؛ لأنهم لا يعملون رغبة فى جزاء من الناس أو ثناء ، أو رهبة من مكروه أو بلاء ، وإنما يخشون الله وحده . فيحقون الحق ويبطلون الباطل ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، رضى الناس أم كانوا ساخطين .

وتقتضى محبة الله سبحانه أن يحب العبد ما يحبه ربه ، ويبغض ما يبغضه ، من الأعمال والعباد جميعاً . وتلك هى العلامة الجامعة للعلامات السابقة وما إليها ، مما هو مبثوث فى كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله ﷺ ، ومما ألفته العقول ، وجرت عليه الفطر ، أن المحب يؤثر حبيبه على نفسه ، ثم يتحسس من كل ما يحب الحبيب فيحبه ، ومن كل ما يبغض فيبغضه ، ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وأولى الناس بالمحبة بعد الله النبيون ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ، إذ أخرجونا من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ، ووهبونا حياة أبدية روحية ، فوق حياتنا العابرة الجسمية ؛ ولذلك كان حبه ﷺ فوق حب الوالدين ، بل كان ركناً من أركان الإيمان ودعامة من دعائمه ، وكان شكره باتباعه واستجابة ندائه والصلاة والسلام عليه ، فوق شكر الوالدين اللذين أمر الله بشكرهما بعد شكره .

وتلى محبته - صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه النبيين والمرسلين - محبة أصحابه والتابعين لهم بإحسان ، ومن آثار حبهم إجلالهم وإحسان الظن بهم ، لحب الله ورسوله لهم ، وثنائه عليهم ، ومغفرته لهم ، وحسبنا من دواعى الحب والإجلال أنهم شهدوا من النور ما لم نشهد ، ثم حدثونا ، وعلمونا من الكتاب والسنة ما لم نكن نعلم لولا أن علمونا ، وكان فضل الله عليهم بالسبق ثم علينا بالاتباع عظيما (*)

(*) بسطنا القول فى فضل الصحابة رضوان الله عليهم ، فى الجزأين الأول والثانى من المجلد السابع عشر ، ثم فى كتابنا « درجات الناس » .

إذا بلغ العبد هذه المرتبة العلية من محبة الله له ، على ما بينا آنفا من عمل القول ومفصله ، فبشره بما بشر الله به أولياءه من حب الملائكة والناس لهم ، [illegible] الخلق [illegible] ورضا [illegible] عنهم ، إلى ما يمتعهم به سبحانه من غنى النفس ، وقرة العين ، [illegible] وحلاوة المناجاة ، مما لو علمه ملوك الدنيا لا شتروه [illegible]

ولا ينقص من محبة الولى وهيبته ورضا الله والناس عنه [illegible] أو فاسق أو منافق ، فإنه لا وزن لهؤلاء فى حب ولا [illegible] بالإثم أو [illegible] الرحمن فى زمان أو مكان : « ما كان الله ليذر المؤمنين على [illegible] حتى يميز الخبيث من الطيب » ، « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن » .

تلك عاجلة بشرى العباد الصالحين فى الدنيا ، وأما فى الآخرة [illegible] الله لهم [illegible] رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، « [illegible] فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

ولا ندع القلم قبل أن ينبه إجمالا - كعادته - [illegible] لمحات ولطائف :

منها : فضل الروح الأمين ، والرسول الكريم [illegible]

ومنها : إثبات حب الله وبغضه ، ودعائه وندائه [illegible] على الوجه اللائق بجلاله وجماله ، نؤمن بها ، دون [illegible] الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وكما آمن صحابته [illegible]

ومنها : أن محبة الناس وقبولهم - ولاسيما الصالحين [illegible] وكذلك بغضهم ونفورهم ، من علامات بغضه وسخطه [illegible]

ومنها : وهو ألطفها وأوفاها وأدقها - أنه ليس [illegible] وأن تظفر بمحبته إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهرا وباطنا ، [illegible] لا ترضى منها بدلا ، ولا تبغى عنها حولا .

طه محمد الساكت

أمن الخير أن تبنى الأمة على الحزبية

مصر الآن في مستهل عصر جديد، يتيح لها كل الحرية أن تبنى مستقبلها على ضوء تجاربها في الماضي، لئلا تقع في الأغلاط التي وقعت فيها، وعلى ضوء هدى الإسـلام ونور الإسلام.

إنها الآن بين أمرين: إما أن تبنى حياتها السياسية على الحزبية والأحزاب، أو تبنيها على الاجتماع والوحدة.

وإن البوادر تدل على أننا نريد أن نبنيها على الحزبية، كما بنيت عليها عند مبدأ حياتنا الدستورية، وقد قال المغفور له ثروت (باشا): إنني أحمد الله إذ صارت لنا أحزاب كالأمم الديموقراطية في العالم. ومن ذوي ثروت (باشا) أنه كان يغتبط لأنه قد بذرت في عهده بذور الفرقة والانقسام. وقد ظللنا طول هـذه المدة نقاسي من التحاسد والتنافس، ما لا يزال عالقاً بالأذهان إلى الآن.

وإنا قد بلونا الحزبية في مصر، وبلونا نظام الأحزاب، فجنينا منها شراً مستطيراً.

إنها فرقت الأمة، وقطعتها شيعاً متباغضة، وشراذم متنافرة.

إنها جعلت بأسها بينها شديداً، وأصبح كل مشغولا بصاحبه، يكيد له ويتقي كيده.
إن الأحزاب قد فهموا الحكم الحزبي فهماً خاطئاً: فهموا أن معناه أن يعامل المصريون معاملتين مختلفتين، فيولى مناصب الدولة من هم من حزب الحاكم ويقدم لهم خيراتها، ويحرم الآخرون مناصبها وخيراتها. وقد أدرك هـذه الظاهرة أحمد شوقي رحمه الله فسجلها في قوله:

وَلِينا الحكم حزباً بعد حزب — فلم نك محسنين ولا كراما
جعلنا الحكم تولية وعزلا — ولم نعد الجزاء والانتقاما

والآن، بعد هذه التجربة الطويلة القاسية نريد أن نغلط الغلطة نفسها ونكرر التجربة، ونبني حياتنا السياسية على الحزبية.

لقد كان من قبلنا أعذر منا ، فقد بنوا حياة الأمة [illegible] يجهلون [illegible]
ولم تكن قد سبقت لهم تجربة .

أما نحن فما عذرنا ، وقد لدغنا من الجحر مرة [illegible]
منه مرتين ؟

إنهم كانوا أعذر منا ، فقد كان فيمن يوجهون [illegible]
والانقسام ، ويخاف الوحدة والائتلاف ، وكان [illegible] فرق [illegible] .

أما نحن فأقل منهم عذرا ، لأنه لم يبق [illegible]
الأمة ، وضرب بعضها ببعض .

إنى أعجب لهذه الأمة تعرف وتنكر : تعرف ما في [illegible]
لتلافيها ، ثم تنكر ما فيها من أضرار فتغفلها . [illegible]
الأمة فحذرته أشد الحذر ، ولا تفتأ توحد بينهما [illegible]

وهى محمودة على ذلك كل الحمد ، ولكنها [illegible]
وهى قريبة عهد بجروحها التى لم تندمل ، فتسعى [illegible]
ديمقراطية . باذلة فى ذلك كل الوسع .

إن الذى يدعونا إلى الاستمساك بالحزبية [illegible]
من لوازمها : الحزبية .

ما ذا يمنع أن تنتخب الأمة نوابها وشيوخها [illegible]
رئيس الدولة وزراءه ، فإن حازوا ثقة مجلس النواب [illegible]

لنكسب الحياة الدستورية ، ولتكن هناك مسئولية [illegible] الوزراء [illegible]
أمام مجلس النواب ، وليكن ذلك حقيقة لا خيالا [illegible]

إن الأحزاب لا ترتجل ارتجالا ، إنما [illegible]
فى السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية اختلف [illegible]
حزبا . ومن هنا كانت الأحزاب ، أما نحن فقد [illegible]
لم تجد مبادىء تتحزب لها ، تحزبت للأشخاص .

اتركوا الأمة تدخل ميدان السياسة متحدة ، ولا [illegible]

جنبوها النظام الحزبى فهو لا يصلح لها ولا تصلح له ، إنها قريبة عهد بالخلافات الدينية ، وإن أخص خصائص الخلافات الدينية ، أن المخالف يعتقد العصمة فى نفسه ، والخطأ والضلال فى غيره ، وأنه على صوابه وهداه يوشك المخالف أن يستنزله عنه . وذلك يستدعى البغض والحقد على المخالفين .

جنبوها النظام الحزبى ، فالنواب والشيوخ يفهمون الحزبية كما هى فى القرية : ظلم واعتساف وكراهية وبغضاء ، وهم يطبقونها على الأحزاب السياسية .

جنبوها النظام الحزبى ، فقد جربته مدة ثلث قرن من الزمان فذاقت منه الأمرين ، وأخرّها عن ركب الحضارة زهاء خمسة قرون .

جنبوها النظام الحزبى ، فإن التاريخ ينبئنا أن الأمة الإسلامية لم تبلغ ما بلغته من العز والرفعة ، حتى ألغى الإسلام عصبيتها وحزبيتها ، وجعلها لا تتعصب إلا للإسلام .

فقد كانت الأمة العربية قبل الإسلام أمة قبلية يتعصب كل إلى قبيلته ، وكانت لذلك بأسها بينها شديد : تقوم الحرب بين القبيلة والقبيلة ، فتمكث الأعوام الطويلة حتى يهلك بعضها بعضا . وأدى هذا الانقسام فى داخل الجزيرة العربية ، إلى ضعف أمام الأمم فى خارجها فذلوا للأمم المجاورة ، وظلوا كذلك حتى جاء الإسلام فأبدلهم بهذه العصبية القبلية الضعيفة ، عصبية إسلامية عامة واسعة ، وحرم دعوة الجاهلية والعصبية القبلية ، وجعل المسلم أخا المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره . وأعلن أن كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه . وخاف أن ينزغ الشيطان بينهم فيعودوا إلى ما كانوا عليه ، فقال : « من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا » ، وقال : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » ، فاذا العرب أمة ذات عز ومنعة قد صارت كتلة واحدة ينحدر عنها السيل ولا يرقى اليها الطير ـ هذا كله بفضل هذا الدواء .

ألا إن الله لم يمن على المسلمين بنعمة أعظم من نعمة تأليف القلوب بعد عداوتها ، ونعمة الإخوة الإسلامية بعد العصبية القبلية فقال : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .

ألا إن الله بين لنا ما فى الخلاف والانقسام من الضرر ، وحذرنا منه أشد التحذير ، وقرنه بالخسف والرجم فقال : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض » .

ألا إنكم لو ربحتم كل شيء ، وخسرتم الوحدة ، فقد خسرتم كل شيء ، ولو خسرتم كل شيء ، وربحتم الوحدة ، فقد ربحتم كل شيء .

م ٠ ع

أعمار زائفة

لفضيلة الأستاذ الأكبر السيد محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر خطرات من الشعر تلوح له بين الفينة والفينة فى صور من المعانى المتألقة ، فيرسلها من نفسه على سجيتها : مكتفيا بما يعقبها من راحة وعبرة ورضا .

ومن ذلك قوله مدّ الله فى حياته ، وأدام النفع به :

نفد العمر وفى القلب ارتياعُ ... وارتجاع العمر ما لا يستطاع
طائرٌ هيض جناحاه فما ... دأبه إلا جثوم واضطجاع
مُرَّ يا سائق بالسوق التى ... تُعرض الأعمار فيها وتباع
علّنى أبتاع عمراً أفعمت ... منه بالإحسان أعوامٌ وِساع [1]

* * *

قيل : هذا عمر مُثرٍ غمرت ... ساحه الفيحَ زروع ورِباع
قلت : عمرٌ ملؤه السبرٌ وكم ... سعدت فيه عراة وجياع !
فإذا الإمساك يوحى حوله : ... ما لهذا العمر فى الإحسان باع

* * *

قيل : هذا عمر والٍ كان إن ... أمَرَ الناس استكانوا وأطاعوا
قلت : عمرٌ كالسماء امتلأت ... بالنجوم الزهر يعلوها شعاع !
فإذا الإتراف يوحى حوله : ... همُّ هذا العمر لهوٌ ورتاع

* * *

قيل : هذا عمر حبر كان فى ... بيته كتب وفى الكف يراع
قلت : عمر كسحاب غيثه ... حكمة غراء أو فتوى تذاع !
فإذا الأهواء توحى حوله : ... حشوُ هذا العمر خبٌّ وابتداع [2]

---

(١) جمع وسيع . (٢) الخب : الخداع .

قيل : هذا عمر راع وُضعت تحت رعياه عقول وطباع (١)
قلت : عمر يرتجى منه عُلا لبنى العلم ورشد واجتماع !
فإذا الخيبة توحى حوله : سِرُّ هذا العمر زهوٌ وخداع

****

قيل : هذا عمر قاض يبصر الـ حق إذ يعنو دعاء ودفاع
قلت : عمر طالما زالت به إحَنٌ بين خصوم ونزاع !
فإذا الرشوة توحى حوله : شأن هذا العمر حيف وطماع

****

قيل : هذا عمر أستاذ روى ورأى والعلم رأى وسماع
قلت : عمر مثل واد ممرع طاب فى مرعاه للناس انتجاع !
فإذا العى ينادى حوله : فات هذا العمر غوص واختراع

* * *

قيل : هذا عمر داع للتقى يأمر الناس وينهى فيطاع
قلت : عمر كله خير ولم يك فى أوقاته وقت مضاع !
فإذا الخسر ينادى حوله : فات ذا العمر امتثال وارتداع

قيل : هذا عمر مندوب لأن يشهد الشورى وآراء تشاع
قلت : عمر ينقذ الحق إذا هاجم الحق لصوص أو سباع !
فإذا العجز ينادى حوله فات هذا العمر نطق واستماع

* * *

قيل : هذا عمر ساع معول ضاق عن ترفيهه كف صناع (٢)
قلت : عمر حنّ بالعسر ومن يحمل الكَلّ كريم وشجاع (٣)
فإذا السخط ينادى حوله : فات هذا العمر صبر واقتناع

* * *

يا رفيقاً طالما أفصح لى عن خبايا ، فاجلى عنها القناع
لم لا يعرض فى السوق سوى عمر لم يرضه إلا الرعاع ؟
قال : جد الجد ما من عمر ناصع الطلعة فى الدنيا يباع

(١) الرعيا الحفظ . (٢) المعول : كثير العيال . والكف الصناع : الماهرة فيما تصنع .
(٣) الكل : العاجز عن العمل .

تسامح أهل السنة

في الرواية عمن يخالفونهم في العقيدة

من سنة الإسلام أن يتسامح أهله فيما بينهم ، ثم في معاملاتهم ومعاشرتهم لغيرهم ، ما لم يخرج بهم التسامح إلى إبطال حق ، أو تعطيل حكم ، أو انحراف عن الخير .

وفي الفصل الذي عقدته للتعريف بتاريخ الأمم والملوك للطبري المنشور في الجزء الماضي من مجلة الأزهر (ص ٢١٤) أشرتُ إلى اتساع صدور أئمة السنة - من أمثال أبي جعفر الطبري - لإيراد أخبار المخالفين ، وعددت ذلك من دلائل حريتهم ، وأمانتهم ، ورغبتهم في تمكين قرائهم من أن يطلعوا على كل ما في الباب .

وأحب الآن أن أتعمق في إقامة الدليل على هذا التسامح ، فأضرب الأمثلة على سعة صدور أعلام هذه الأمة من أئمة الحديث النبوي في روايتهم عن المخالفين لهم في العقيدة . لأني رأيت الكثيرين ممن يكتبون في وصف الفرق والطوائف الإسلامية قد غلب عليهم الظن بأن رجال الحديث أشد فرق المسلمين وطوائفهم تعصبا في الرواية ، وتحرُّزاً من المخالفين لهم ، ونفرة من التلقي عنهم . ولما كان هذا الظن لا يوافق ما كان واقعاً في الحقيقة - لأن الأئمة الأعلام من أهل السنة كانوا في مختلف العصور يعطون كل ذي حق حقه ، ويحترمون الصادق لصدقه والأمين لأمانته وإن انحرف عن جادة الصواب إلى شيء من الهوى في بعض ما يتأوله - لذلك رأيت أن أشير في هذا المقال إلى ما كان عليه أهل الحديث وأئمة السنة من الإنصاف والتسامح في الرواية عمن يخالفونهم في العقيدة ، إذا توفرت فيهم شروط العدالة والحفظ ، ولم يعرفوا بالدعوة لأهوائهم . وهذه المزية في التسامح مع المخالفين لا نجد مثلها عند غير أهل السنة من سائر الفرق .

ونضرب المثل لذلك بجابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي (المتوفى سنة ١٢٨) ، كان من أئمة الشيعة وعلمائهم ، وكان أعلام أهل السنة يعرفون ذلك فيه ولا يرون منه ما يخالف قواعدهم التي قرروها في التعديل ووزنوا الرجال بموازينها ، فكانوا لذلك يعدّلونه ويثنون عليه . فلما شاعت ثقتهم به واطمأن هو لذلك ، برز لهم بما لا يعرفونه في علمهم ،

وادّعى أن عنده خمسين ألف حديث من غير الطرق التى توصل عندهم إلى الصدق والحق ، وأخذ يذكر لهم بعضها ، وحينئذ قال فيه سيد الفقهاء وإمام المحدثين أيوب بن أبى تميمة السختيانى (٦٦ - ١٣١) : « الآن فهو كذاب » . وكان الإمام عامر بن شراحيل الشعبى (١٩ - ١٠٣) قد توسم حقيقة جابر الجعفى وهو لا يزال فى شبابه ، وتوقع له هذا المصير من قرائن وأمارات يدركها الناظرون بنور الله، فقال له : « يا جابر ، لا تموت حتى تكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم » . قال إسماعيل بن أبى خالد البجلى (المتوفى سنة ١٤٦) وهو راوى هذه الكلمة عن الشعبى وكان من تلاميذه ومن أئمة ذلك العصر وأعلامه : فما مضت الأيام والليالى حتى اتهم جابر بالكذب . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل أن يحيى بن سعيد القطان (المتوفى سنة ١٩٨) ترك حديث جابر . وقال أبو يحيى الحمانى سمعت أبا حنيفة (٨٠ - ١٥٠) يقول : « ما رأيت فيمن رأيت أفضل من عطاء ، ولا أكذب من جابر الجعفى : ما أتيته بشىء إلا جاءنى فيه بحديث ، وزعم أن عنده كذا وكذا ألف حديث لم يظهرها » . فالذى كان يعرفه الأئمة من تشيع جابر الجعفى لم يمنعهم من قبول أحاديثه قبل أن يظهروا له على الفضائح التى تجرح روايته وتوهن أحاديثه . ولم يكونوا يرون أن التشيع وحده كاف فى الجرح والترك ما دام صاحبه مظنة الصدق . حتى إذا افتضح عندهم كذبه حكموا عليه بما ظهر لهم منه ، ووضعوه فى الموضع اللائق به .

وعدى بن ثابت[1] بن قيس بن الخطيم الأنصارى الظفرى الكوفى (المتوفى سنة ١١٦) كان عالم الشيعة وقاصهم وإمام مسجدهم . ويقول فيه المسعودى وهو شيعى أيضاً : « ما رأينا أحداً أقول بقول الشيعة من عدى بن ثابت[2] » ، وقال عنه ابن معين « إنه شيعى مفرط » ، وقال عنه الدارقطنى « رافضى غال » . ومع ذلك وثقه الدارقطنى والإمام أحمد بن حنبل وأحمد العجلى والنسائى ، لأنه - كما قال عنه أبو حاتم الرازى - « صدوق » . ولصدقه استجازوا الرواية عنه مع ما يعلمونه من غلوه فى نحلته .

وكنت قد عقدت مقارنة - فى تعليقى على الكتاب العاشر من (الإكليل فى أنساب همدان[3]) - نوهت فيها بسعة صدور أهل السنة - فى معرفة أقدار مخالفيهم ، لمناسبة الكلام

---

(١) ويقال أن ثابتاً جده ، وأنه عدى بن أبان بن ثابت .

(٢) ميزان الاعتدال ٢ : ١٩٣

(٣) ص ١٢٩ — ١٣١

على الحسن بن صالح بن حى الهمدانى (١٠٠ — ١٦٨) وكان من أنصار العلويين فى ثوراتهم على بنى العباس ، وهو معدود من علماء الزيدية الصالحين الأولين ، وفى بيته توارى عيسى ابن زيد بن على بن الحسين منصرفه من وقعة باخمرّى بعد مقتل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن فى ثورته على أبى جعفر المنصور ، وكان المفروض أن يكون رجال الجرح والتعديل من الشيعة فى كتبهم المتداولة أحسن رأياً فيه من رجالنا وأكرم معرفة لمكانته وقدره . ولكن الواقع عكس ذلك . وإنه لما يوجب الفخر لنا أن رجال الجرح والتعديل من سلفنا أحسنوا الثناء على الحسن بن صالح بن حى فى أمانته وعلمه ، وفى عبادته وتقواه ، ولم تشفع له عند الشيعة الاثنى عشرية مشاركته لهم فى كل ما يشاركهم فيه الزيدية ، ولا سابقته فى مؤازرة الثوار من العلويين على الدولة العباسية ، فعده المامقانى فى (مقباس الهداية [1]) من أهل المذاهب الفاسدة ، وقال فى (تنقيح المقال [2]) : « وقد ضعف الرجل فى (الوجيزة) وهو فى محله » . فانظر الى إنصاف علماء أهل السنة لهذا الزيدى العابد الصالح وتوثيقهم له ، وإلى تحامل الآخرين عليه مع أنه أقرب إليهم منا .

ومنصور بن أبى الأسود الليثى الكوفى الخياط كان أئمة الحديث يعرفون تشيعه ، ومع ذلك قبلوا أحاديثه لصدقه وعدالته ، وهى فى سنن أبى داود والترمذى والنسائى .

وعلى بن غراب الفزارى الكوفى القاضى (المتوفى سنة ١٨٤) كان من شيوخ الشيعة غير أنه صادق ثقة ، ولذلك روى عنه أئمتنا من طبقة أحمد بن حنبل وأمثاله .

ومن أعلام أئمة السنة فى دولة بنى العباس الإمام أبو الحسن على بن عاصم الواسطى (المتوفى سنة ٢٠١) وكان من طبقة شيوخ الإمام أحمد بن حنبل ومن أهل الصلاح والدين ومجلسه الذى يحدث فيه عن رسول الله ﷺ كان يحضره أكثر من ثلاثين ألفاً ، فلا يبقى فى بغداد ـ وهى عاصمة الدنيا يومئذ ـ طالب علم ولا ذو مكانة إلا وهو حريص على أن يشهد مجلس حديثه . وقد جاء عنه فى كتاب (الكفاية [3]) للخطيب البغدادى أن الفضل ابن مروان الذى كان كاتباً للمعتصم وكان يده اليمنى إلى سنة ٢٢٠ قال : كان المعتصم (أى قبل خلافته) يختلف إلى على بن عاصم المحدث ، وكنت أمضى معه إليه ، فقال على بن عاصم

(١) فى علم الدراية ، وهو من أهم كتب الشيعة فى مصطلح الحديث .

(٢) ج ١ ص ٢٨٥ وهو أوسع كتبهم فى الجرح والتعديل .

(٣) ص ١٢٣ طبعة حيدر اباد الدكن .

يوماً : « حدثنا عمرو بن عبيد وكان قدريا » ، فقال له المعتصم : يا أبا الحسن ، أما تروى أن القدرية مجوس هذه الأمة ؟ قال : بلى . قال : فلم تروى عنه ؟ قال : لأنه ثقة فى الحديث ، صدوق . قال المعتصم : فإن كان المجوسى ثقة فما تقول ، أتروى عنه ؟ فقال له على بن عاصم « أنت شغاب يا أبا إسحاق ! » . وإنما عد على بن عاصم هذا الاعتراض من المعتصم العباسى شغبا لأنه كان ينبغى له أن يميز بين المتأولين غير المعاندين كالمعتزلة والقدرية وبين الذين لا يعترفون برسالة الإسلام من أصلها ، فالكافر الأصلى والفاسق الذى يواقع الفسق متعمدا لا تجوز الرواية عنهما وإن كانا من أهل الصدق لأنهما معاندان ، أما المتأولون فهم من الأمة وغير معاندين ، ولذلك نسبوا فى الحديث إلى الأمة فقيل فيهم « مجوس هذه الأمة » فهم منها وإن انحرفوا مع أهوائهم .

وممن روى أئمة أهل السنة عنهم من الشيعة عبيد الله بن موسى العبسى مولاهم أبو محمد الكوفى (المتوفى سنة ٢١٣) ، قال أبو داود : كان شيعياً ، ومع ذلك فإن أحاديثه قد رواها الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ، وأبو حاتم الرازى ، وأبو بكر بن أبى شيبة ، وإسحاق الحنظلى وأضرابهم .

وعبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعانى (١٢٦ - ٢١١) يعده رجال الشيعة فى الجرح والتعديل من أئمتهم وعلمائهم ، ويعرف ذلك فيه أئمة أهل السنة ، ومع ذلك أخذ عنه الإمام أحمد وأمثاله وأثنوا عليه فى علمه وتقواه وتلقوا روايته بالقبول ، لأنهم لم يظهروا منه على ما يوجب اجتناب حديثه .

وحسين بن حسن الفزارى الأشقر (المتوفى سنة ٢٠٨) جاء عنه فى كتاب (الكفاية[1]) للخطيب البغدادى أن إبراهيم بن عبد الله بن الجنيد الختلى قال : سمعت يحى بن معين ذكر حسيناً الأشقر فقال : كان من الشيعة الغالية الكبار . قلت : وكيف حديثه ؟ قال : لا بأس به قلت : صدوق ؟ قال : نعم ، كتبت عنه عن أبى كدينة ويعقوب القمى .

وروى الخطيب البغدادى [2] بسنده إلى محمد بن عبد العزيز الأبيوردى قال : سألت أحمد بن حنبل أيكتب (أى الحديث) عن المرجىء والقدرى ؟ قال : نعم يكتب عنه إذا لم يكن داعياً .

---

(١) ص ١٣٠ . (٢) الكفاية ١٢٨ .

وروى (فى ص ١٢٩) بسنده إلى أبى إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربى (المتوفى سنة ٢٨٥) أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قيل له : فى حديثك أسماء قوم من القدرية . فقال : هو ذا ، نحن نحدث عن القدرية .

وفى الكفاية (ص ١٢٨) عن إبراهيم الحربى أيضاً أن أحمد بن حنبل قيل له : يا أبا عبدالله ، سمعت من أبى قطن القدرى . فقال : لم أره داعية ، ولو كان داعية لم أسمع منه .

* * *

قال الخطيب البغدادى فى (الكفاية[1]) : « والذى يعتمد عليه فى تجويز الاحتجاج بأخبارهم ـ أى بأخبار أهل الأهواء والمخالفين لأهل السنة فى العقيدة ـ ما اشتهر من قبول الصحابة أخبار الخوارج وشهاداتهم ومن جرى مجراهم من الفساق بالتأويل ، ثم استمرار عمل التابعين والخالفين بعدهم على ذلك ، لما رأوا من تحريهم (أى من تحرى من رووا عنه منهم) الصدق ، وتعظيمهم الكذب ، وحفظهم أنفسهم عن المحظور من الأفعال ، وإنكارهم على أهل الريب والطرائق المذمومة ، ورواياتهم الأحاديث التى تخالف آراءهم ويتعلق بها مخالفوهم فى الاحتجاج عليهم . فاحتجوا برواية عمران بن حطان وهو من الخوارج وعمرو بن دينار وكان يذهب إلى القدر والتشيع ، وكان عكرمة إباضياً ، وابن أبى نجيح وكان معتزليا ، وعن الوارث بن سعيد وشبل بن عباد وسيف بن سليمان وهشام الدستوائى وسعيد بن أبى عروبة وسلام بن مسكين وكانوا قدرية ، وعلقمة بن مرثد وعمرو بن مرة ومسعر بن كدام وكانوا مرجئة ، وعبيد الله بن موسى وخالد بن مخلد وعبد الرزاق بن همام وكانوا يذهبون إلى التشيع ، فى خلق كثير يتسع ذكرهم . دوّن أهل العلم قديماً وحديثاً رواياتهم واحتجوا بأخبارهم . فصار ذلك كالإجماع منهم ، وهو أكبر الحجج فى هذا الباب ، وبه يقوى الظن فى مقاربة الصواب » .

* * *

وإذا كانوا يقبلون حديث المخالف لهم ما دام من أهل الأمانة والعدالة والضبط ، فإنهم يرفضون أحاديث العابدين الاتقياء الزاهدين المشهود لهم بالصلاح إذا لم يكونوا من أهل العدالة والضبط فى رواية الحديث .

وقد تناول الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى هذا الموضوع فى مقدمة صحيحه بالبسط

(١) ص ١٢٥

وحسن البيان ، وعقد الخطيب البغدادى فصلا مستقلا لهذا الموضوع فى (الكفاية[1]) روى فيه بسنده إلى الأصمعى (١٢٢ - ٢١٦) عن ابن أبى الزناد وعبد الرحمن بن عبد الله ابن ذكوان (المتوفى سنة ١٧٤) عن أبيه (المتوفى سنة ١٣٠) وكان من أئمة مدينة الرسول ، بل كان الإمام أحمد بن حنبل يسميه أمير المؤمنين أنه قال : « أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ، ما يؤخذ عنهم شىء من الحديث ، يقال : ليس من أهله » .

وروى بسنده إلى أبى سليمان شيخ من أهل المدينة أن ربيعة الرأى - وهو أبو عثمان ربيعة بن أبى عبد الرحمن التيمى المدنى - من أئمة الفقه (المتوفى سنة ١٣٦) قال : « إن من إخواننا من نرجو بركة دعائه ، ولو شهد عندنا بشهادة ما قبلناها » .

وروى بسنده إلى الحافظ أبى اسماعيل محمد بن اسماعيل بن يوسف السلمى الترمذى (المتوفى فى رمضان ٢٨٠) قال : سمعت ابن أبى أويس (وهو اسماعيل بن عبد الله الأصبحى المدنى المتوفى سنة ٢٢٧) قال : سمعت خالى مالك بن أنس (٩٣ — ١٧٩) يقول : إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذون دينكم . لقد أدركت سبعين عند هذه الأساطين — وأشار إلى مسجد الرسول ﷺ — يقولون ، قال رسول الله ﷺ ، فما أخذت عنهم شيئا ، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان به أمينا ، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن ، ويقدم علينا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى (٥١ — ١٢٤) وهو شاب فيزدحم على بابه » .

وروى أبو إسحاق ابراهيم بن المنذر الأسدى الحزامى المدنى أحد كبار العلماء المحدثين المتوفى سنة ٢٣٦ عن معن بن عيسى القزاز المدنى المتوفى سنة ١٩٨ وكان من أئمة الحديث الذين أخذوا عن مالك أن مالك بن أنس قال : « لا يؤخذ العلم - أى علم السنة - من رجل صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه ، ولا من سفيه معلن بالسفه وإن كان من أروى الناس ، ولا من رجل يكذب فى أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه أن يكذب على رسول الله ﷺ ، ولا من رجل له فضل وصلاح وعبادة لا يعرف ما يحدث » .

وروى أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن السرح أحد علماء مصر وفقهاء الفسطاط وكانت وفاته سنة ٢٥٠ أن أبا يزيد خالد بن نزار الغسانى الأيلى المتوفى سنة ٢٢٢

---

(١) ص ١٥٨ - ١٦١

حدثه برسالة بعث بها الإمام مالك بن أنس إلى محمد بن مطرف بن داود التيمي المدني وكان من العلماء الأثبات في ذلك العصر — ولعل رسالة مالك إليه كانت بعد نزوح ابن مطرف عن المدينة الى فلسطين ونزوله في مدينة عسقلان — قال :

« من مالك بن أنس — إلى محمد بن مطرف . سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله (وبعد وصايا أخرى قال) : ثم أخذه (يعني العلم) من أهله الذين ورثوه ممن كان قبلهم يقيناً بذلك ، ولا تأخذ كل ما تسمع قائلا بقوله ، فإنه ليس ينبغي أن يؤخذ من كل محدث ولا من كل من قال ، وقد كان بعض من يرضى من أهل العلم يقول : إن هذا الأمر (أي حديث رسول الله ﷺ) دينكم ، فانظروا من تأخذوا عنه دينكم » .

* * *

وبعد فإن أئمة السنة الذين أخذوا على عاتقهم تحقيق كل ما نسب إلى النبي ﷺ من قول أو فعل ، فنجحوا في ذلك بما لا يستطيع أن يدعى المؤرخون مثله لأي شخصية أخرى في العالم ، كان الشرطان الأولان اللذان يشترطونهما في حملة الأخبار المتعلقة بأقوال النبي ﷺ وأفعاله أن يكون الراوي من أهل الصدق والأمانة ، ومن أهل الإدراك والحفظ والضبط ، فإذا توفر هذان الشرطان في الراوي تلقوا الخبر عنه بالقبول وإن كان مخالفا لهم في النحلة والمذهب ، وإن لم يتوفر الشرطان أو أحدهما في رجل اجتنبوا حديثه وإن كان من كبار الصالحين والعابدين الذين يلتمس أهل الحديث دعاءهم ويتبركون بهم . ولهذا امتازت كتب أهل السنة ولا سيما صحيحا البخاري ومسلم وسائر الكتب الستة بأنها المثل الأعلى لما يمكن أن يصل إليه المجهود البشري في التحقيق .

والذي يتردد في الاطمئنان إلى كتب السنة ، ولا سيما أمهاتها التي تلقتها الأمة بالقبول ، فإنه لا يجوز له أن يصدق التاريخ كله في شيء ، ولا أن يدعى معرفة ترجمة رجل من رجال التاريخ ، لأن كل ما ينسب إلى الماضي في جميع الأمم لم يبذل في تحقيقه جزء من ألف جزء مما بذله أئمة السنة لتحقيق ما ينسب إلى الهادي الأعظم محمد ﷺ من قول أو فعل ، والتثبت من صحته وأمانة ناقليه ، لأنهم يعلمون أنه المصدر الأعظم للحق والخير اللذين تنشدهما الإنسانية في تكوين مجتمعها ، وستسعد الإنسانية يوم تستمد من هذا المصدر كيانها ونظامها الاجتماعي ؟

م . خ

سماحة الإسلام

في التعامل مع غير المسلمين

قال مندوب الأهرام :

أتيح لى أن جلست وفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر جلسة طويلة ممتعة ، وتحدثت إلى فضيلته فى مختلف الشئون ، وكان فى مقدمة هذه الشئون أهمية ما يتعلق بالأجانب المقيمين فى مصر ، وما حكم الشريعة الإسلامية فى معاملتهم وكيف ينظر إليهم الإسلام ؟ وبماذا يأمرنا به نحوهم !

ولقد تجلى فضيلة الأستاذ الأكبر فى تجليتها وتبيان أحكام الشريعة السمحة فيها ، وقد كان فضيلته يعنى أكبر العناية بدعم آرائه بالكتاب الكريم والحديث الشريف والأثر الصالح عن السلف الصالح ، قال فضيلته :

ينظر الإسلام إلى رسالات الله كلها على أنها دين واحد ، تتفق فى أصولها وروحها وغاياتها ، وإن اختلفت فى صورها ومظاهرها وتطورها .

ولذلك كان الإسلام هو الدين الوحيد الذى عرفه البشر داعياً إلى تكريم رسل الله وأنبيائه جميعاً ، فقال عز وجل فى أواخر سورة البقرة « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » .

فنظرة الإسلام هذه إلى وحدة الأصل ووحدة الغاية فى ديانات الله ورسالاته كلها ، كان من أولى نتائجها أن لا ينظر المسلمون إلى شيء من ديانات الله نظرة ضغينة أو عداء ، وأن لا يذكروا أحداً من الذين حملوا رسالات الله إلى أهل الأرض إلا بالتعظيم والإجلال والتكريم ، فإذا ذكروا أحداً منهم قالوا مثلا « سيدنا إبراهيم عليه السلام » و « سيدنا موسى الكليم عليه السلام » و « سيدنا عيسى المسيح عليه السلام » . يقولون ذلك عن عقيدة وإيمان ؛ لأن كتابهم الحكيم طالبهم بأن يؤمنوا بذلك وأن يقولوا « لا نفرق بين أحد من رسله » .

ولا شك عندنا بأن دين الإسلام هو أول دين فى العالم أعلن هذا المبدأ ، وهذا فى سورة البقرة أيضاً : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . بل لعل الإنسانية لم يطرق النداء بهذه العقيدة سمع أحد منها فى أى بلد من بلاد الأرض قبل أن يفرض الإيمان

بها فى الحجاز ، وقبل أن تقرر على أنها عقيدة من صميم الإيمان الإسلامى . فكل مسلم يخرج عليها ، أو يعمل بما ينافيها ، فهو مخالف لشعبة عظيمة من شعب إيمانه بالإسلام .

والقرآن يسمى المنتسبين إلى التوراة والإنجيل (أهل الكتاب) ومع تسامحه العجيب الذى لم يسبق له مثيل مع بنى الإنسان جميعاً ؛ فإنه خص أهل الكتاب بمنزلة أسمى ، ومعاملة أكرم . ومن ذلك قول الله عز وجل فى سورة العنكبوت : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » .

وغير المسلمين فى نظر الإسلام ثلاثة أصناف : محاربون ، ومعاهدون . وأهل ذمة .

وحكم الإسلام فيمن يحاربونه أن يدفعهم المسلمون إذا هاجموا ، وأن يبادروهم بما يكف بأسهم إذا تحفزوا ، وأن يقوّموا اعوجاجهم إذا اعتدوا على الحق إلى أن يعودوا إلى الإنصاف وفى ذلك يقول الله سبحانه فى سورة الحج : « أذن للذين يقاتلون (أى يقاتلهم المعتدون) بأنهم ظلموا (أى فى حالة ظلم عدوهم لهم) وإن الله على نصرهم لقدير » . ويقول فى سورة البقرة : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » .

ثم إن القتال لا يكون فى سبيل الله إلا إذا التزم فيه المسلمون مرضاة الله ، والله لا يرضى منهم إلا الإنصاف والعدل والرحمة وإيثار الحق على الباطل ، والخير على الشر فى جميع التصرفات ، وهذا هو سبيل الله ، وما خالفه فليس من سبيل الله ، والقتال فيه لا يكون عند المسلمين شرعياً . وإن تفصيل التشريع الإسلامى فى القرآن الحكيم وسنة نبيه الكريم فيما يتعلق بالحرب والمتحاربين ، يدل على أنه قرر المبادىء الإنسانية السامية فى ميادين القتال وجعلها ديناً يحاسب أهله عليه بين يدى الله ، فضلا عما ينالهم فى الدنيا من الخزى إذا خالفوا هذه المبادىء العليا . ولا نظن أن أمة بلغت مبلغ المسلمين فى ذلك ، فضلا عن الرحمة والرفق فى تطبيق هذه المبادىء منذ أربعة عشر قرناً .

ومن الرفق الذى أقام الإسلام عليه سياسته الحربية أنه منع من التعرض بالأذى لمن لم ينصبوا أنفسهم للقتال : كالرهبان ، والفلاحين ، والنساء ، والأطفال ، والشيخ الهرم ، والأجير ، والمعتوه ، والأعمى ، والمصاب بالزمانة ، بل من الفقهاء من لا يجيز قتل الأعمى والزمن ولو كان من ذوى الرأى والتدبير فى الحرب .

ولو أردنا الإفاضة فى تفاصيل مبادىء الإنسانية العليا فى أحكام الإسلام الحربية لاحتجنا إلى تأليف كتاب ، لأنه لا يتسع له مقال فى الصحف .

أما المعاهدون ، وهم الذين انعقد بهم وبين المسلمين عهد على السلم ، فيجب على المسلمين الوفاء لهم بعهدهم كاملا ، وأن يستقيموا لهم ما استقاموا للمسلمين .

وقد وصى النبي ﷺ أمته بالذين بينهم وبين المسلمين معاهدة ، فقال : « من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا خصمه يوم القيامة » .

وحتى لو توقع المسلمون الغدر والخيانة من عدوهم المعاهد ، فلا يجوز لهم أن يعاجلوهم بالقتال إلا بعد إنذارهم وإعلانهم إلغاء حالة السلم التى كانت بين الفريقين . وهذا هو معنى قول الله عز وجل فى سورة الأنفال : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين » . ومن تمام ذلك قول الله سبحانه فى سورة التوبة : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين » . ثم قوله بعد قليل : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » .

وأكثر الأحكام التى يعامل بها المعاهدون فى بلاد المسلمين مبنية - بعد الوفاء بالعهد - على مبدأ المقابلة بالمثل . فنعامل رعايا كل فريق من الذين بيننا وبينهم عهد بمثل ما يعاملون به رعايانا إذا دخلوا بلادهم . ويوصى الإسلام بنيه بأن يرتبطوا بهم فى بلادنا برباط الألفة والعطف والتعاون ، وأن يكونوا متمتعين بحقوقهم الدينية ، آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

وأعظم من كل ما تقدم مكانة أهل الذمة فى الإسلام ، فلفظ « الذمة » معناه ذمة الله وعهده وأمانته ورعايته .

وقد ورد فى الحديث النبوى : « من قذف ذمياً ، حد يوم القيامة بسياط من نار » . وروى الخطيب البغدادى فى تاريخه - وهو من كبار أئمة الحديث الشريف وحفاظ السنة النبوية - عن عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » .

وقد بنى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على هذا الحديث أوامره إلى قائده الأعظم فى جيش

الفتح المصرى وواليه الأول على وادى النيل وهو أبو عبد الله عمرو بن العاص السهمى ، فكتب إليه عقب فتح مصر يقول : « احذر يا عمرو أن يكون رسول الله ﷺ لك خصما فإنه من خاصمه خصمه » ، ونص عمر بن الخطاب على نفسه فيما كتبه من العهد لأهل بيت المقدس عند فتحها فقال إنه « أعطاهم الأمان لأنفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، وسائر ملتهم لا تسكن كنائسهم ، ولا ينقص منها ، ولا من خيرها (أى أوقافها وصدقاتها) ولا من صلبهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » .

وقد نص الفقهاء عند استنباطهم الأحكام التشريعية من حديث « لا يبيع رجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبته » . فقالوا : « البيع على بيع غير المسلم الداخل فى ذمة الإسلام كالبيع على بيع المسلم . والخطبة على خطبته كالخطبة على خطبة المسلم ، كلاهما حرام » .

وفى أداب المعاشرة نهوا على حقوق أهل الذمة ، وندبوا إلى الرفق بهم ، واحتمال الأذى فى جوارهم ، وحفظ غيبتهم ، ودفع من يتعرض لأذيتهم .

وقال الشهاب القرافى - وهو من كبار أئمة التشريع فى الإسلام - فى كتابه الشهير (بالفروق) : « إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقا علينا ، لأنهم فى جوارنا ، وفى خفارتنا ، وفى ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله ﷺ ، ودين الإسلام . فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة فى عرض أحدهم ، أو أى نوع من أنواع الأذية ، أو أعان على ذلك ، فقد ضيع ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله ﷺ ، وذمة دين الإسلام » .

وقال الإمام ابن حزم فى مراتب الإجماع : « إن من كان فى الذمة ، وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه (أى يقصدون من كان فى ذمة الإسلام) وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك ، لمن هو فى ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة » .

وبعد فإن المسلمين قد استناروا بسماحة دينهم ، وتعلموا من آدابه أن يحسنوا معاشرة أصحاب الأديان الأخرى ، ممن لا يكيدون لهم كيدا ، ولا يظاهرون عليهم عدوا ، وأرشدهم إلى أن يعيشوا معهم فى صفاء وتعاون على المصالح الوطنية المشتركة ، وأنه لا ينحرف من المسلمين عن هذه الأحكام والآداب إلا المنحرفون عن دينهم والعياذ بالله .

الميسر وورق اليانصيب

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

قابل مندوب جريدة (المصرى) صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وسأله عن حكم الإسلام فى الميسر واليانصيب ، فقال فضيلته :

من الناس من يعد نفسه من ذوى الأخلاق الفاضلة وهو مولع بلعب القمار ، وهذا لا يعد فى نظر الشارع وأهل الفضل ذا أخلاق كريمة ، فإنه قصد إلى الاستيلاء على مال غيره بغير حق فهو والسارق سواء لا فرق بينهما ، إلا أن السارق يمد يده إلى مال غيره بوجه خفى والمقامر يمد يده إلى مال غيره ولا يدرى هل يصل إليه أو يستولى غيره على ماله فيبقى حزيناً كاسف البال ، وهو على كلتا الحالتين منظور إليه بمقت وذم ، ففى الحالة الأولى ممقوت لأنه استولى على مال غيره بغير حق من عمل أو أمر آخر ، وفى الحالة الثانية مذموم محتقر حيث طمع فى مال غيره ومد يده اليه غير أنه لم يصل اليه ، فالشارع الحكيم أباح للإنسان أن يتمتع بما كان ملكا لغيره إن دفع له فى مقابله عملا أو شيئا كان فى ملكه ، فقال تعالى : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » .

وصاحب القمار لم يتاجر بماله بل تاجر بأخلاقه قبل كل شىء . ولا يغرنك فعل الأمم الأوربية واكتفاؤها برضا صاحب المال فى ظاهر الأمر ، فإنه إذا أخذ منه المال انقلب رضاه غيظاً ، بخلاف من اكتسب بماله عملا أو بضاعة ينتفع بها . والشارع الحكيم راعى فى المعاملات أن تكون عن رضا من صاحبها ظاهر وباطن ، وذلك وجه إباحته للتجارة وحله للبيع ومنعه من القمار ، وإذا كان الاوربيون أغنياء فإن لديهم معامل ومزارع متقنة والقمار قليل بالنسبة إلى مصانعهم ومزارعهم وتجارتهم ، والشارع الحكيم يحرم على المسلمين أن يدفعوا مالهم طمعاً فى أن ينالوا من إنسان آخر مثله فيعودوا بالمالين جميعاً فمن المحتمل أن يذهب مال المقامر جملة ولا يصل به إلى عمل أو الى بضاعة .

اليانصيب للأعمال الخيرية

أما « اليانصيب » للأعمال الخيرية فهو قمار بلا ريبة ، وقد كان العرب فى الجاهلية ـ كما ذكر ابن قتيبة فى « الميسر والقداح » ـ عند شدة البرد وجدب الزمان وتعذر الأقوات على أهل الفقر والمسكنة ـ يقامرون بالقداح على الإبل ثم يجعلون لحومها لذوى الحاجات منهم والفقراء ، وهذا ما قصده القرآن بالمنفعة فى قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » . ومع هذا قد جعله القرآن بمنزلة الخمر إذ قرنه بها فى الآية . والشارع الحكيم يريد من أتباعه أن يكونوا خياراً كراما يدفعون أموالهم التى لا يتاجرون بها إلى الفقراء وذوى الحاجة العامة قاصدين وجه الله ورضوانه دون أن يقصدوا إلى سلب مال غيرهم ، فإن ذلك إثم كبير .



نفس الحر

قال الإمام محمد بن إدريس الشافعى :

أمطرى لؤلؤاً جبال سرنديـــب وفيضى آبار تكرور تبرا
أنا ما عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا
همتى همة الملوك ونفسى نفس حر ترى المذلة كفراً
وإذا ما قنعت بالقوت عمرى فلماذا أزور زيدا وعمراً

وقال رضى الله عنه :

على ثياب لو تباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثرا
وفيهن نفس لو تقاس بمثلها نفوس الورى كانت أجل وأخطرا
وما ضر نصل السيف إخلاق غمده إذا كان عضبا حيث أنفذته سرى

من صور الفداء في الإسلام

فترة الشباب فى حياة الإنسان هى أحفل أطوار العمر بالمشاعر الحارة ، والعواطف الفائرة ، وهى ليست عهد العافية المكتملة فى البدن الناضج فقط ، بل إنها - كذلك - عهد النزعات النفسية الجياشة يمدها الخيال الخصب والأمل البعيد . . !

والأمم تستغل فى شبابها هذه القوى المذخورة ، وتجندها فى ميادين الحرب والسلم لتذلل بها الصعب وتقرب البعيد .

ونجاح النهضات الكبيرة يرجع إلى مقدار ما بذل فيها من جهود الشباب وهممهم ، وإلى مقدار ما ارتبط بها من آمالهم وأعمالهم .

وقد راقبنا الثورات التى اشتعلت فى أرجاء الشرق ضد الغزاة المغيرين على بلاد الإسلام فوجدنا جماهير الشباب هم الذين صلوا حرها وحملوا عبئها ، واندفعوا بحماستهم الملتهبة وإقدامهم الرائع يخطون مصارع الأعداء ويرسمون لأمتهم صور التضحية والفداء . . . !

ولا يزال الشباب من طلاب وعمال وقود الحركات الحرة ، وطليعة الثائرين على الفساد والاستبداد ، وقبلة المربين والمرشدين ، والزعماء الذين ينشدون مستقبلا أزكى لهذه الحياة .

ونحن إذ نقرر هذه الحقائق ننوه بما تنطوى عليه من دلائل الإيثار والتفانى ، ونرجو أن يكون حظ أمتنا من هذه الثروة الحية كفاء ما رميت به من أحداث جسام وما فقدت من أمجاد عظام ، فلا ينتهى هذا العصر حتى نكون قد غسلنا بلادنا من أدران الاحتلال الأجنبى الذى أخزانا فى ديننا ودنيانا . . !

بيد أن هناك رجالا تقدمت بهم السن وذهبت عنهم سورة الشباب ، وتكاثرت الصلات التى تربطهم بالدنيا ، ومع ذلك فإن جذوة اليقين المتقد فى قلوبهم تمسك بالشباب المولى عن جلودهم وعظامهم . وتبقيه ، بل تضاعفه ، فى قلوب تنبض بالحق وتدفعه فى العروق مع الدم ، فإذا بك ترى منهم بأس الحديد ، وجرأة الأسود ، وإذا بك ترى رجالا تستهويهم المغامرة ، ويطيرون إلى التضحية فى سبيل الله أخف من الشباب الغض ...

قد يقبل الشاب الفذ على المخاطر ، وسبل البذل أمامه ميسرة ، فهو إن سجن لم يجزع على أسرة يعولها ! وإن قتل لم تبكه امرأة أيم ! ولا ولد يتيم ! وخفة حمله من هذه الناحية

تجعله سريع الاستجابة لنداء الواجب أو تزيح العوائق من أمامه إذا ثارت فى دمه نوازع النجدة ...

أما البطولة الفارعة فهى أن يكون المرء رب أسرة كبيرة يضرب فى مناكب الأرض لرعايتها ويسير فى الحياة وهو موقر بأثقالها . غير أنه ـ وهو الزوج المحب والأب الرحيم والراعى المسئول ـ مؤمن قبل ذلك كله بالله ورسوله ، مخلص للدين الذى اعتنقه مقدر للحقوق التى ارتبطت به ، فإذا أحس للإسلام طلباً سارع إليه ، ولباه بروحه وماله ، ولم تشغله أعباء الحياة التى يكدح فيها عن مطالب المثل العالية التى آمن بها . .

والإنسان عندما يقرأ استشهاد عبد الله بن حرام ، يرى فى قصته جلالا تنحنى له الحياة ، إعزازاً الأبوة الرقيقة التى جادت بنفسها واستودعت الله أسرة من غلام واحد وست بنات ! ! :

روى أبو داود والنسائى عن جابر بن عبد الله قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى المشركين يقاتلهم ، وقال لى أبى : يا جابر ، لا عليك أن تكون فى نظارى أهل المدينة حتى تعلم إلام يصير أمرنا ؟ فإنى والله لولا أنى أترك بنات لى بعدى لأحببت أن تقتل بين يدى ، قال : فبينا أنا فى النظارين إذ جاءت عمتى بأبى وخالى ، عادلتهما على ناضح ! فدخلت بهما المدينة لتدفنهما فى مقابرنا ، إذ لحق رجل ينادى : ألا إن النبى صلى الله عليه وسلم يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوهم فى مصارعهم ، فرجعنا بهما ، فدفناهما حيث قتلا . . »

وروى البخارى عن جابر أيضاً « لما حضر أحد دعانى أبى من الليل ، فقال لى : ما أرانى إلا مقتولا فى أول من يقتل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . وإنى لا أترك بعدى أعز علىَّ منك غير نفس رسول الله ! وإن على ديناً ، فاقضه ، واستوص بأخواتك خيراً ، فأصبحنا وكان أول قتيل » .

* * *

هذا الصاحب الجليل خرج مع رسول الله ليصدوا هجوم المشركين على المدينة ، تاركا وراءه هذه الأسرة الكبيرة ، وقوامها كما رأيت بنات يحتجن إلى الكافل الحانى ، ولم يكن أبوهن ذا بسطة فى المال ينفق منه عن سعة . ويترك لعقبه من بعده ما يغنى ويصون ، بل كان الرجل مهموما بشئون الرزق ، ينصب فيه ويستدين . وغلام فرد إلى جوار ست بنات

يكون غالبا قرة عين الوالد ومرضع حبه العميق ، لكن عبد الله يقسم أنه يود لو قدم ابنه ليستشهد فى سبيل الله ، وأنه إنما يعجل بنفسه حتى يبقى الابن لاخواته يخدمهن ، فإن ابنه لو قتل قبله ، فلن تطول بالأب حياة ، إنه لا بد مقتول فى أقرب معركة . .

إن أصحاب المبادىء سراع إلى تلبية مبادئهم ؛ عند ما يُقرع باب الكريم ينهض وهو يقول :

فقمت ولم أجثم مكانى ولم تقم مع النفس علات البخيل الفواضح

وعند ما يطلب الشجاع إلى ساحة الوغى يذهل عن الحياة وأواصره بها ، وينطلق وهو يقول : « وعجلت إليك رب لترضى » ! ! !

وقد خرج أبو جابر إلى أحد ليلقى مصيره مع أبر شهداء الإسلام ، روى الشيخان عن جابر قال : أصيب أبى يوم أحد ، فجعلت أكشف عن وجهه وأبكى ! وجعلوا ينهوننى والنبى ﷺ لا ينهانى ، وجعلت فاطمة بنت عمرو رضى الله عنها تبكيه ! فقال ﷺ : تبكيه أو لا تبكيه ، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه » . وروى الترمذى عن جابر قال : لقينى رسول الله مرة وأنا مهتم ، فقال : ما لى أراك منكسرا ؟ فقلت : استشهد أبى يوم أحد ، وترك عيالا ودينا . فقال : ألا أبشرك بما لقى الله به أباك ؟ قلت : بلى ! قال : ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب ، وإنه أحيى أباك فكلمه كفاحا - أى مواجهة - فقال : يا عبدى ، تمن على أعطك ! قال : يارب ، تحيينى فأقتل ثانية ! فقال سبحانه وتعالى . إنه قد سبق منى أنهم لا يرجعون . فنزلت : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا . . . » ، والمرء يحار ، أيعجب من كرامة الشهيد على الله ؟ أم من حلاوة الفناء فى الله التى ذاقها أولئك الشهداء ؟ إن أبا جابر لم يستشعر وحشة لفراق أولاده ، ولم تستشرف نفسه للاطمئنان على فلذات كبده ؛ بل تطلع للعودة إلى الدنيا كيما يذهل مرة أخرى عن أحب شىء فيها ، ويمشى بخطى ثابتة إلى ساحة القتال .

ولقد كفل الله أولاد الشهيد ، وقضى عنه دينه فى حديث يطول .

* * *

ولندع حديث الصدر الأول ، ولنستأنف حديث الأشياخ المجاهدين فى عصرنا هذا ، إننا واجدون رجالا من طراز رائع صنعهم الإسلام القوى فأحكم صناعتهم ، وقذف بهم على جند الباطل ليجددوا سير السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

من أولئك النفر الغر : عمر المختار ، البطل الذى بلغ التسعين من عمره وهو يجوب الصحراء مطارداً « الطليان » الذين أغاروا على طرابلس ، وعملوا على تنصيرها بالحديد والنار . وفيه يقول « شوقى » :

بطل البداوة لم يكن يغزو على « تنك » ، ولم يك يركب الأجواء
لكن أخو خيل حمى صهواتها وأدار من أعرافها الهيجاء

وقد وقع الشيخ المهيب فى أسر الأعداء ، فألفوا محكمة قضت بقتله شنقاً !! والطليان قوم لا ينتظر منهم شرف المعاملة ، لا مع صديق ولا مع خصم ، وقد ندد شوقى بهذا الحكم الشائن فقال :

خفيت على القاضى ، وفات نصيبها من رفق جند قادة نبلاء !!
تسعون لو ركبت مناكب شاهق لترجلت هضباته إعياء ...

ويقول :

شيخ تمالك سنه ، لم ينفجر - كالطفل - من خوف العقاب بكاء !
الأسد تزأر فى الحديد ولن ترى فى السجن ضرغاماً بكى استخذاء

ثم يخاطب الشعب طالباً منه تجنيد الشباب وإعفاء الشيوخ . فيقول :

فأرح شيوخك من تكاليف الوغى واحمل على شبانك الأعباء

على أن منطق اليقين لا يكترث بفوارق السن ، فإن العقيدة المتفجرة فى القلوب الكبيرة ترد الكهول الوانين فتيانا نشطين ، أما إذا تخلخل الإيمان فإن الشاب الجلد يمسى حاس منفعة تافهة ولذة مهينة . !!

والدعوات العظيمة لا تضار بشىء مثل ما تضار بهذا الصنف من المتلونين المتطلعين ، الصنف الذى يحاذر أن يمسه سوء ، ويسارع إلى إحراز الغنائم ، ويشارك بجسمه أصحاب الرسالات ، أما قلبه فهو بعيد بعيد ...

الصنف الذى صور القرآن موقفه النابى المريب فى هذه الآيات « وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن : كأن لم تكن بينكم وبينه مودة . ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .

والمرء لا يصلح أن يكون رجل دعوة أو صاحب رسالة إذا بنى حياته فى حساب الأرباح والخسائر على هذا النحو المنكر .

ربما كان الرجل خالى البال لا يتبع أهلا ولا مالا ، فهو يهز كتفيه لما تفد به الليالى من أحداث . أفإذا بلى بأثقال الأهل والمال تخفف فى مسيره من أعباء الفضائل وألقى بها فى عرض الطريق وأضحى لا يهدأ أو لا يهيج إلا لمنافعه الخاصة ؟ ؟

كذلك فعل المنافقون قديما ! فعندما ندبوا للجهاد قعدوا واعتذروا « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا . يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا . بل كان الله بما تعملون خبيرا . بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا . . . »

إنهم توهموا الخروج مغامرة مخوفة العاقبة أو مقامرة بعيدة الربح فنكصوا ، وأفئدتهم صفر من معانى اليقين والتضحية التى تجعل الشهيد يقبل على الموت ويود لو يرد إلى الحياة ليموت مرة أخرى .

ولو كان الخروج لنفع يسير لكان لهم مع القافلة سواد كثيف : « سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها : ذرونا نتبعكم يريد أن يبدلوا كلام الله . قل : لن تتبعونا . كذلكم قال الله من قبل . . . »

وقد حذر الله المؤمنين أن تسيطر على أفكارهم هذه المآرب أو تدخل فى نياتهم هذه المناقع « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » .

* * *

فلتكن لنا من حياة المجاهدين عظة ومن مماتهم عبرة ، ومن مسلكهم مع أهليهم وأموالهم أسوة حسنة .

محمد الغزالى

صحوة الأرواح

صحت الارواح على صيحة الإيمان تحمل النذر وتتوعد السادرين فى غواية الاحلام وتهتك غياهب المخازى التى طوت أمواجها مصر زعيمة الإسلام .

صحت الارواح على ثروة الحق التى أرعشت عواصفها قلوب المتألهين الذين سخروا للذاتهم كل شيء حتى داسهم الصغار فسخر منهم كل شيء .

صحت الارواح على وثبة جريئة كسرت الكبول التى شلت أيدينا وحطمت الاغلال التى قوست أصلابنا وهشمت القيود التى أدمت أعقابنا .

صحت أرواح الكتاب بعد خمود وتحركت بعد همود ، فإذا الليل الرهيب الذى ضلت فى كنهه الاقلام قد انجاب ، وإذا الرعب الذى هصر عودها قد أبحر إلى غير إياب .

وإذا أصبح الأمل تستروح الارواح نسمانه ، وتغرى الاقلام بوضاءة الحق بسمانه ، صحت أرواح المحدثين على منطق الثورة يصيح فيهم : اخرجوا من السجون التى طوتكم جنباتها وأعمتكم ظلماتها ، فكظمتم عن قول الحق الافواه ورمتم على صدق النصيحة الشفاه .

اخرجوا فاحملوا المشعل بين يدى موكب النهضة ، واسبقوا الطلائع واستنفروا الناس ليسيروا مع القافلة إلى المجد ، لا إلى الغنائم والاسلاب وإنما إلى حياة العزة التى ينشدها الاحرار والتى حفت سبلها بالمكاره والاهوال .

فتحت أرواح الخطباء على فجر الوطنية الصادق يؤذن مؤذنه : الجهاد خير من النوم ، فدارت عيونهم فى السماء تنقب عن مصدر النداء فإذا خفقات البنود وإذا صوت البعث تلهب جلجلته عزم الجنود ، فجاوب الخطباء على المنابر صداه ، وانطلقت ألسنتهم التى عقلها بطش الطغاة .

لقد أيقظ صوت البعث هذه الارواح فجاوبت أصداء الكفاح ، وانجابت غيوب الماضى بمخازيها ، وتخلصت مصر من مخالب الاستغلال التى عبثت بأمانيها .

فهل أيقظ صوت البعث أرواح الوعاظ والمرشدين — وهم هداة الامة ومصابيحها ومعلمو الشعب ورسل الدين إليه - ليوجهوا الامة إلى الخير ، ويربوا الشعب تربية طيبة

قوامها حب المحسن وبغض المسيء ، ومعاونة المصلحين وتدمير المفسدين ، وإطاعة ولى الأمر العادل والثورة على الظالم الجائر .

هل صحت أرواحهم فغسلوا قلوبهم وطهروا حياتهم من دنياهم التى عاشوا فيها ، دنيا المادة والمظهر الكاذب ، ليشرقوا على المسلمين بنفوس من طراز جديد آمنت إيماناً عميقاً برسالتها فهى لا تفكر فى غير ما تحقق به هذه الرسالة ، فحيثما وجد الواعظ أدى الأمانة لله ولدين الله ودعا الناس إلى تسليح قلوبهم بالفضائل قبل أن يخوضوا المعارك الفاصلة بين الحياة والموت .

الحق أن النهضة تريد واعظاً جديداً تغلغل حبه لرسالته فى أعماق قلبه ، يعظ الناس بروحه لا بلسانه وبعمله قبل علمه ، لتصل العظات إلى القلوب فتخلقها خلقاً جديداً .

ولن تمس العظة الروح إلا إذا كان الواعظ مثلا حيا للأخلاق مؤمناً بما يقول ويفعل ، فهل آن للوعاظ أن تصحو أرواحهم ، وتخلص نفوسهم ليشتركوا فى بناء هذه النهضة ، ويدعموا أركانها .

وهل صحت أرواح المعلمين ليضعوا النشء فى مرجل الأخلاق حتى تنصهر النفوس ، ثم تخرج طاهرة أصفى ما يكون الطهر ، نقية أخلص ما يكون النقاء ، فليست معاهد التعليم غير مصانع للرجولة قبل كل شىء ، فإن فشلت هذه المصانع فيما تنتج ، فخليق بالدولة أن تحاسب المعلم الفاشل على هذا الفشل ، فالدولة لا تطعمه لوجه الله ، بل ليبنى لها نفوساً لا يروعها معترك الحياة ، ولا تفزعها أمواج الأحداث .

إننا نريد معلماً يؤمن بأن مستقبل البلاد أمانة فى عنقه ، وبأن الشباب الذى بين يديه هم قادة الغد وجنوده لجدير به - وتلك رسالته - أن يخلق للتاريخ الرجال ، وأن يفنى قوته وحياته فى بناء ذلك المستقبل المنشود ، فإن لم يفعل فهو عضو مريض فى جسم الأمة ، ولن يضير الأمة أن تتخلص منه حتى لا يفسد بناءها .

إن واجب المعلم أن يقدم لمصر مصريا عاملا فى المجتمع لا مصريا متمرداً على المجتمع . يجب أن يقدم لمصر مصريا امتلأ قلبه بالرحمة ، وروحه بحب الخير ، لا مصريا أبلته المادة فعاش لأهوائه ومطامعه .

وأخيراً - ونحن بين يدى هذا البعث الجديد : هل صحت أرواح الأمهات فعكفن على جيل الغد تربينه تربية صادقة ، فهن المدرسة الأولى ، وأطفالهن أمانة فى أيديهن ، فعليهن أن

بين الفلسفة وعلم الكلام
عند المسلمين

لقد مضى عصر النبي صلى الله عليه وسلم وعصر أبي بكر ، ثم عصر عمر بن الخطاب ، ثم بعض عصر عثمان رضى الله عنهم ، وأمر عقيدة المسلمين واضح لا لبس فيه ولا إبهام ، لأن مصدر العقيدة هو الكتاب والسنة .

ولقد كان الجميع يؤمنون بالقرآن كله ، المحكم منه والمتشابه ، أنه كتاب الله الذى أنزله على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وحيث إنهم قد آمنوا برسالة محمد بن عبد الله ، فإنهم لا بد أن يصدقوا بكل ما جاء به .

إن فى القرآن الكريم آيات تدل على تنزيه الله وعلى نفى مشابهته للمخلوقات ، قال تعالى : « ليس كمثله شىء » . « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد »

يرعين هذه الأمانة ، وأن يسهرن على تلقين رجال الغد معانى الرجولة ، ويضعن تحت أعينهن صوراً حية من البطولة الصادقة .

حقاً إن العبء ثقيل على المرأة فى بناء هذه النهضة ، ولكنها ستنسى الأعباء يوم يطول البناء وترى ركنها يفرع الجوزاء .

لقد أحيا البعث الإسلامى أمة اختلفت عليها الأدواء ، وتنازعتها مخالب الأهواء ، ونخرت فيها العلل ، واحتربت فيها الفوضى ، فخلقت قوته من تلك الأمة المهلهلة المنحلة أمة قوية فى أخلاقها ، فتية فى عزيمتها ، دقيقة فى سياستها ، عظيمة بمبادئها ، شريفها ووضيعها أمام الحق سواء . بكل هذا عزت وبكل هذا سادت وبكل هذا ملكت وحكمت .

فهل يخلق البعث المصرى الجديد - من تلك الأمة التى تهدمت أخلاقها واضطربت سياستها وجثمت على صدرها الأطماع حتى أهلكتها - أمة تسود بأخلاقها ، وتعز بدينها وبمبادئها ، وتملك بإيمان رجالها .

أيها المصريون ، بل أيها المسلمون ، بل أيها الشرقيون ، إننا يوم نعود إلى الله بقلوبنا ونعتز بدينه فى حياتنا ونخلص لوجهه أعمالنا ونستلهمه الرشد فى خطانا ونعبىء لخير مصر والشرق كفاياتنا وننسى أهواءنا وننكر ذواتنا ، سنقلب وجه التاريخ لنعيد لذلك الوجود عهداً لم تحلم به أعظم العهود . محمد خليفة

بين الفلسفة وعلم الكلام
عند المسلمين

لقد مضى عصر النبي ﷺ وعصر أبي بكر ، ثم عصر عمر بن الخطاب ، ثم بعض عصر عثمان رضى الله عنهم ، وأمر عقيدة المسلمين واضح لا لبس فيه ولا إبهام ، لأن مصدر العقيدة هو الكتاب والسنة .

ولقد كان الجميع يؤمنون بالقرآن كله ، المحكم منه والمتشابه ، أنه كتاب الله الذى أنزله على نبيه ورسوله محمد ﷺ ، وحيث إنهم قد آمنوا برسالة محمد بن عبد الله ، فإنهم لابد أن يصدقوا بكل ما جاء به .

إن فى القرآن الكريم آيات تدل على تنزيه الله وعلى نفى مشابهته للمخلوقات ، قال تعالى : « ليس كمثله شىء » . « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد »

يرعين هذه الأمانة ، وأن يسهرن على تلقين رجال الغد معانى الرجولة ، ويضعن تحت أعينهن صوراً حية من البطولة الصادقة .

حقاً إن العبء ثقيل على المرأة فى بناء هذه النهضة ، ولكنها ستنسى الاعباء يوم يطول البناء وترى ركنها يفرع الجوزاء .

لقد أحيا البعث الإسلامى أمة اختلفت عليها الادواء ، وتنازعتها مخالب الاهواء ، ونخرت فيها العلل ، واحتربت فيها الفوضى ، فخلقت قوته من تلك الامة المهلهلة المنحلة أمة قوية فى أخلاقها ، فتية فى عزيمتها ، دقيقة فى سياستها ، عظيمة بمبادئها ، شريفها ووضيعها أمام الحق سواء . بكل هذا عزت وبكل هذا سادت وبكل هذا ملكت وحكمت .

فهل يخلق البعث المصرى الجديد - من تلك الأمة التى تهدمت أخلاقها واضطربت سياستها وجثمت على صدرها الاطماع حتى أنهكتها - أمة تسود بأخلاقها ، وتعز بدينها وبمبادئها ، وتملك بإيمان رجالها .

أيها المصريون ، بل أيها المسلمون ، بل أيها الشرقيون ، إننا يوم نعود إلى الله بقلوبنا ونعتز بدينه فى حياتنا ونخلص لوجهه أعمالنا ونستلهمه الرشد فى خطانا ونعبىء لخير مصر والشرق كفاياتنا وننسى أهواءنا وننكر ذواتنا ، سنقلب وجه التاريخ لنعيد لذلك الوجود عهداً لم تحلم به أعظم العهود . محمد خليفة

وفيه آيات أخرى كثيرة تدل بظاهرها على ما لا يتفق مع آيات التنزيه ، كقوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » وقوله تعالى : « ولتصنع على عينى » وقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » .

ولكن هل شك مسلم فى صدق آيات التنزيه والآيات الأخرى التى لا يتفق ظاهرها معها ؟ أو هل تحدث فى تعارض ظاهرها أحد من المسلمين فى العصور الثلاثة التى ذكرناها ؟ كلا .

لقد فهم المسلمون أن أصل الإيمان هو التصديق بأن الله سبحانه وتعالى : أرسل محمدا ﷺ للعالمين بشيراً ونذيرا ، وأنه أنزل عليه القرآن الكريم لتحصيل سعادتى الدنيا والآخرة ، وأنه أرسل قبله - عليه السلام - رسلا مبشرين ومنذرين لمن بعثوا إليهم من الأمم ، وأن لهم كتبا أنزلها الله تعالى عليهم ، وأنه يجب الإيمان بهؤلاء الرسل كما يجب الإيمان برسالة محمد عليه السلام ، كذلك يجب الإيمان بأن الله خالق العالم ، وأنه منزه عن جميع النقائص ، ومتصف بجميع الكمالات ، وأنه سيبعث الناس ، وسيحاسبهم على أعمالهم ، وسيجازيهم عليها بالإثابة إن كانت أعمالا طيبة ، وبالعقوبة إن كانت سيئة . هذا هو مجمل عقيدة المؤمن التى يجب عليه الإيمان بها ، والتى كانت سائدة فى عصر الرسول - عليه السلام - وعصر أبى بكر وعمر وبعض عصر عثمان ، رضى الله عنهم . وبجانب الآيات التى تتخالف فى ظاهرها بين التنزيه والتشبيه توجد آيات أخرى فى القرآن الكريم تتعارض فى ظاهرها فى أن الإنسان مجبور فى أفعاله أو مختار ، فإننا نقرأ فى سورة واحدة هى « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » آية تدل على اختيار الإنسان فى أفعاله « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا » : ثم نقرأ فيها آية أخرى تدل على جبره فى أفعاله « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » . ولقد احتج الدمشقى صاحب القول بالاختيار بالآية الأولى ، ويقال إن عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - احتج عليه بالآية الثانية فأسكته [1] .

ولكن هل عارض مثل هذه الآيات ببعضها أحد من المسلمين فى العصور التى نتحدث عنها ؟ كلا فيما نعلم ، لأننا لم نر شيئا من هذا قد ذكر لا فى كتب المتقدمين ، ولا فى كتب المتأخرين ، اللهم إلا ما ذهب إليه أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى صاحب كتاب « الملل والنحل » من أن قول بعض المنافقين فى يوم « أحد » « هل لنا من الأمر من شىء » وقولهم « لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا » وقولهم « لو كانوا عندنا ما ماتوا

---

(١) تاريخ الفرق الإسلامية ص ٣٤ لصاحب المقال .

وما قالوا « ما هو إلا تصريح « بالقدر » ، وكذلك ما حكى عن المشركين فى قوله تعالى « لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء » وقول طائفة منهم « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » ما هو إلا قول « بالجبر » . على أن ما نقله الشهرستانى إنما كان من المنافقين والمشركين ونحن إنما نتكلم عن حال عقيدة المسلمين ، ولا شك أن كل مسلم كان يؤمن بالقرآن الكريم سواء منه آياته الدالة بظاهرها على « الجبر » وآياته الدالة على « الاختيار » .

إنه لا يمكن وصف أفعالنا كلها « بالاختيار » وإلا كنا أشباه آلهة ، ولكن لتصحيح المسئولية وتنفيذ الشرائع أعطينا قدرا من الاختيار يمكننا من القيام بما كلفنا به الشارع الحكيم من دون أن تكون لنا القدرة على كل شىء ، وبجانب هذا القدر من الاختيار نجد أنفسنا عاجزين عن تحقيق كل ما نريده لأنفسنا من المطالب الدنيوية المباحة ، لأن كل الظروف والملابسات لا تخضع لإرادتنا المحدودة ، وإنما هى خاضعة لإرادة عليا ، هى إرادة خالق الكون ومدبره ، فمثلا الزارع يضع البذر فى أرضه وهو يريد أن تأتى بخير الثمرات وأطيبها ، ويبذل ما فى وسعه من العناية بسقى الأرض وتنظيفها ، وتغذية النبات بمختلف الأسمدة ، ثم تأتى آفة سماوية أو أرضية تقضى على ما كان يؤمل من الجنى الطيب والخير الكثير ، فقدرة العبد لم تمتـــد إلا الى أشياء بسيطة هى وضع البذور ، ورى الأرض ، وتنقيتها من الطفيليات النباتية ، ولكنها عجزت عن دفع ما كان بقدرة الله وإرادته . هذه العقيدة الصحيحة فى قدرة العبد وقدرة الإله وإرادتهما هى العقيدة التى كان يدين بها النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده ، حتى جدت حوادث ، وقامت فتن ، كان لها ما كان من أثر كبير فى تغيير عقائد المسلمين . إنه بناء على العقيدة الإسلامية الصحيحة التى بيناها كيف المسلمون حياتهم العامة والخاصة : يعملون ويرجون ، ويسعون ويتوكلون ، يحاربون ويذكرون ، حتى لا تخدع نفوسهم ويؤمنون بأن النصر من عند الله « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » .

وفى مقال تال نذكر إن شاء الله ، كيف أن الرسول ـ عليه صلوات الله ـ وأصحابه من بعده اتخذوا المنهج القرآنى اعتقادا وعملا بما حقق الغاية فى أقل زمن ، ثم نأخذ فى ذكر ما دخل على العقيدة الإسلامية من الآراء الفلسفية التى كادت تباعد بينها وبين معينها الأول الصافى ، وهو القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة ، حتى يظهر لنا واضحا أنه لو رجع المسلمون إلى هذا المعين لتغير حال المسلمين ، وصلح أمر المؤمنين .

علي مصطفى الغرابي

فتوى بإباحة تكذيب رسول الله
ودعوة الأمة إلى أن تنسخ ما تشاء من القرآن

قاصمتان خبيثتان في مجلة دار التقريب

فى العدد الأخير (الرابع للسنة الرابعة) من مجلة دار التقريب بين المذاهب، مقال لرئيس المحكمة الشرعية الشيعية العليا فى لبنان عنوانه : « من اجتهادات الشيعة الإمامية » جاء فيه ما يأتى فى ص ٣٦٨ :

«إن فى كتب الشيعة الإمامية اجتهادات لا يعرفها الخواص من علماء السنة، ولو اطلعوا عليها لقويت ثقتهم بالشيعة وتفكيرهم »

ثم أورد رئيس المحكمة الشرعية الشيعية العليا ثلاثة أمثلة من اجتهادات الشيعة ليقوّى بها ثقة علماء السنة بالشيعة وتفكيرهم . ونحن ننقل أوسطها . وهذا نصه بالحرف الواحد :

لا يجب التدين بقول الرسول فى غير الأمور الدينية :

قال الشيخ محمد حسن الاشتيانى فى كتابه (بحر الفوائد فى شرح الفرائد) ج ١ ص ٢٦٧ :

« إن الرسول قد يخبر عن الشيء باعتبار كونه شارعاً ومبلغاً عن الله سبحانه ومأموراً بتبليغه إلى العباد، وقد يخبر لا من هذه الحيثية، بل يخبر عن شيء لا دخل له بشريعة سيد المرسلين مثل كيفية خلق السماوات والأرض ، والحور والقصور ، وما إلى ذلك مما لا يرجع إلى الإخبار عن الأمر الدينى . فما كان من هذا النوع فلا إشكال أنه لا يجب التدين به بعد العلم به - أى بعد العلم بصدوره عن الرسول - فضلا عن الظن به » .

هذا نموذج من اجتهادات الشيعة التى أوردها رئيس المحكمة الشيعية العليا ليقوّى بها ثقة علماء السنة بالشيعة وتفكيرهم . وقد أراد أن يزيد علماء أهل السنة علماً بهذا المجتهد الشيعى وكتابه الذى نقل منه هذه الفتوى الشيعية فقال فى ص ٣٦٩ : « كان هذا الشيخ الجليل (يعنى محمد حسن الاشتيانى) من علماء القرن الثالث عشر الهجرى ، وهو من كبار مراجع الشيعة الإمامية ، وكتابه هذا بحر الفوائد المعروف بحاشية الاشتيانى على الرسائل يقع فى مجلدين ، طبع فى إيران بالطبع الحجرى سنة ١٣١٥ هجرية ، وموضوعه الأصل الرابع من أصول الفقه ، أى الأدلة العقلية على الأحكام الشرعية »

إذن فهذا الاجتهاد الشيعى أو الفتوى الشيعية لرجل يعده الشيعة الإمامية من كبار مراجعهم ، والنص منقول من كتاب له فى أصول الفقه ، وهو يعد ما ثبت صدوره عن

النبي ﷺ من أمور الغيب كوصف الجنة وخلق السماوات والأرض ليس من الضروري تصديق النبي ﷺ به ، لأنه في زعمه مما لا يرجع إلى الإخبار عن أمر ديني ، أي أن « الغيب » ليس عنده من الأمر الديني ، و « الإيمان بالغيب » ليس عنده من الإيمان الإسلامي ، والنبي ﷺ إذا أخبر عن مثل هذا من أمور الغيب - وإن ثبت العلم بصدوره عن الرسول - فإنه لا يجب التدين به ، أي بصدق الرسول فيما أخبر به من هذه الأمور .

وهذه الفتوى الشيعية تنافي الاعتقاد بعصمة النبي ﷺ ، ومن العجيب أن يرتاب في عصمة خاتم النبيين من يؤمن بعصمة طفل دخل السرداب قبل ألف سنة وينتظر خروجه منه بعد مر كل هذه العصور !

إن الجرأة على الإسلام بمثل هذا القول الواضح المكشوف لم يسبق صدورها عن فرقة من فرق الإسلام مهما كان موضعها من دركات النار .

* * *

وفي هذا العدد نفسه (ص ٣٧٦ — ٤٠٢) مقالة أطول من ليالي الشتاء لكاتب نعتته المجلة بأنه « الكاتب الكبير » ، يدعو في ص ٢٩٢ — ٢٩٣ منها إلى أن تفهم الأمة الإسلامية من معنى قول الله عز وجل « وأمرهم شورى بينهم » أن لأية أمة إسلامية أن تؤلف جمعية تشريعية تملك أن تنسخ ما تشاء من أحكام القرآن ، لأن آية « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » لم ينته حكمها بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام كما تبادر إلى ذهن بعضهم ، كلا ، فإن القرآن قد نص على أن الأمة وحدها هي مصدر السيادة والسلطة ، وليس الله . « هكذا يقول كاتبهم الكبير بالحرف الواحد » . نعم كان الله هو المشرع ابتداء ، ثم غدا التشريع إلى الأمة انتهاء . لأن الله سبحانه — رحمة بالناس — هو الذي رد هذه السلطة إلى الأمة حين قال « وأمرهم شورى بينهم » . ثم ألا ترى أن حق الله يفسره الفقهاء دوما بأنه حق الجماعة » .

هذا نص كلام كاتبهم الكبير بالحرف . ومن المدهش تعليق تلك المجلة عليه بقولها : « ولعل السيد الكاتب يتفضل بتوضيح رأيه في النسخ وجواز أن يكون في القرآن ، وأن يقع بحكم من الأمة بعد الرسول ﷺ » . فهي لم تكتف بهذا الكلام الواضح الذي يرمي إلى تقويض الإسلام من أساسه الأعظم ، ولا تزال تغري صاحبه بأن يستأنف القول فيه لتزداد المجلة علما بهذه المعارف ، ولتمعن في نشرها على قرائها منتهزة فرصة غفلة الناس عنها .

م . خ

أثر العقيدة فى نفوس المسلمين

يرى الناظر اليوم فى أفق الإسلام طالعاً من السعد ينبثق ضوءه من خلل السحاب ويلوح سناه من سجف الظلام .

ويرى المتأمل اليوم فى حال المسلمين أن نفوسهم توثبت إلى العمل ، وأن إحساسهم بالحياة قد شغل أفكارهم وعقولهم .

ذلك أن أعصابهم قد سرت فيها موجة من اليقظة نبهت المشاعر ، وأرهفت الاحاسيس وأن شرايينهم التى كانت بطيئة النبض قد جرت فيها دماء الحياة الفوارة فأكسبتها القوة ، وأورثتها الحركة ، ووهبت لها النشاط .

وإذا شعرت الأمة بالألم الذى يتمشى فى عظامها ، وأحست بالداء الذى ينساب فى كيانها فقد انبلج صبحها ، وانبثق ضوؤها ، وأشرقت شمسها .

وإن من يقارن الآن بين مسلمى القرن الماضى ومسلمى القرن الحاضر فإنه — من غير شك — يعلم أن جيل اليوم قد نفض عنه غبار الكسل ، وطرح عنه رداء الذل ؛ وأن أمته التى تمتد جذورها إلى أعماق الماضى لا بد أن تعود إلى مكانها من صدر الوجود ، ولا بد من ربيعها وإن طال الخريف .

حقاً إن أشبال الفاتحين الذين دوخوا الأمم وغيروا وجه التاريخ ، وأطاحوا الملوك وثلوا العروش ، قد هبوا الآن يطلبون عز الحياة بعز الممات ، وينشدون شرف البقاء بشرف الكفاح .

وإن أسباب هذه اليقظة التى سرت سريان الكهرباء فى نفوس المسلمين ، تلك العقيدة الدينية التى غرسها الإسلام فى قلوب ذويه ، فأورثتهم القوة والثبات ، والمضاء والإقدام وذلك القانون السماوى الذى اجتث من نفوس بنيه خور العزائم وجبن القلوب ، والإقامة على الضيم ، وسلك بهم مسالك العز ، وسبل الكرامة ، وطرق البطولة .

وإذا كان للأمة عقيدة ثبتت أصولها ، وقانون أحكمت آياته . فإنها تكون لفواد الإنسانية مثلا مضروبا ، يلهم الصبر على مكاره الأمور ، والاستمساك فى مزالق الفتنة ، والاستبسال فى مواقف المحنة ، والاستشهاد فى سبيل الغاية ، والطموح إلى المقصد وإن طال وقته وامتد زمانه .

وإن أمة ألقت على الامم دروس الحضارة ، وبعثت فى الشعوب أضواء المعرفة ، ووصلت إلى المدنية بعقيدتها ودستورها لن تغيب شمسها ، ولن يأفل نجمها ، ولن يخبو ضوءها .

وإذا كان بعض من السحب كونه الإهمال فى سماواتها، ولبده التواكل فى آفاقها، فإن نفحة من نسيم تلك الحياة الكامنة فى نفوسها كفيلة بأن تذهب تلك الغيوم، وترجع لها الصفاء والضياء.

لقد جاهد المسلمون الاولون على ضوء عقيدتهم وكتابهم جهاد الابطال المغاوير حتى وصلوا إلى رغباتهم من الفتح، واستتب لهم هذا الملك الواسع الذى ترن فى أجوائه كلمة التوحيد، وترفرف فوق ربوعه راية الإسلام.

ولقد لحقهم فى سبيل ذلك شدائد عظيمة، وأهوال جسيمة، فكان من الضرورى بعد ذلك أن يأخذ ذلك الجيش المجاهد المكدود راحته، وأن يستقر حتى يجدد قوته، ثم يستأنف المسير إلى الغاية المرجوة والامل المنشود.

فكل ما شوهد من وقوف فى حركة الجهاد الإسلامية فى القرون الاخيرة إنما هو إناخة فى الطريق كما ينيخ المسافر بعد الضرب فى الفيافى حتى إذا أخذ حظه من الراحة ارتحل بالزاد، واستأنف المسير.

وإذا قال قائل: إن الفترة التى أناخ فيها المسلمون قد طال أمدها حتى استحالت إلى استنامة، وإن استنامة الأمم مقدمة الزوال وسبيل الفناء.

إذا قال ذلك، قلنا له: قد يكون ذلك صحيحاً لو أن الأمة الإسلامية لديها من مسببات الفناء، وعوامل الزوال، ومعاول الهدم ما لدى الأمم البائدة.

ولكن أمة يؤازرها الخلق، وتظاهرها الفضيلة، وتجملها العقيدة، ويرشدها الكتاب، لن تطوى صحيفتها، ولن تمحى آثارها، ولن يتقوض بناؤها.

وإلا لكفى قرن واحد من القرون الخمسة الماضية التى وقفت فيها وقفة المدافع أمام هجمات الأعداء، لدرجها فى أكفان الموتى، ودفنها فى مقابر الأمم الزائلة، ووضعها فى سجل الذاهبين.

إننا إذا رجعنا إلى التاريخ وقرأنا أخبار الشعوب التى مال ميزانها، وأحصينا عدد السنين من ابتداء زوالها إلى مغيب شمسها، ثم قابلنا بينها وبين الأمة الإسلامية التى يزعم بعض الاجتماعيين أنها شرعت تزول، - إننا إذا فعلنا ذلك علمنا أن تلك الشعوب قد أسرعت إلى الفناء سرعة الماء من مصبه إلى منحدره، وأن أسباب فنائها هو الحرمان من العلم والفضيلة، والانغماس فى الجهل والرذيلة، والتجرد من العقيدة الخالصة، والدستور المستقيم. ذلك أن الامم إذا هى لم تطر بجناحين من العلم والمعرفة، ولم تستند على سندين من التربية

والخلق ، ولم تسترشد بهديين من العقيدة الصافية ، والأحكام النافعة ، ـ إذا لم يكن لها كل ذلك كان انزلاقها سريعاً ، وسقوطها وشيكا :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويــــلا

وإن الأمة الإسلامية قد توفر لديها من العلم والفضيلة ، والخلق والعقيدة ، والحكم والأحكام ، ما حومت به فى سماء المعالى زمانا طويلا ، وطارت به فى آفاق الكمال دهرا مديدا ، وملكت به ناصية الوجود .

وإذا كان هذا شأنها فمحال أن تتخاذل اليوم فى مشيتها وفيها كل هاتيك المميزات ، ولو كان طريقها مملوءا بالحسك والقتاد .

وإذا تساءل بعض الناس عن سبب تلك اليقظة التى اهتزت بها اليوم أعصاب المسلمين ، ونبهت منهم المشاعر والأحاسيس ، قلنا له : إن السبب هو احتكاك الأمم الطامعة بالأمم المطموع فيها ، واعتداء الشعوب القوية على الشعوب الضعيفة ، وطرح العهود والمواثيق ، ونسيان الحقوق ونبذ الواجبات .

كل هذا قد حرك عقولهم بالتفكير فى أقوم الطرق التى تتقى بها الخطوب ، وأنجع السبل التى يدفع بها العدوان ، وعاد بهم إلى الاعتصام بدينهم ، والاهتداء بدستورهم ، والاستمساك بهدى نبيهم .

ولو لم يقرءوا فى آيات كتابهم سوى قوله تعالى : « واعتصموا بحبــــل الله جميعا ولا تفرقوا » ـ وقوله : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ـ وقوله : « إنما المؤمنون إخوة » لكان ذلك كافيا فى إنشاء وحدتهم ، وتدعيم قوتهم ، وتوحيد صفوفهم توحيدا يصد كل اعتداء ، ويبدد كل لأواء ، ويرد كل عاصفة هوجاء .

وإذا لم يقرءوا سوى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ـ وقوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » — وقوله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » — أقول : إذا لم يقرءوا غير هذا لكان كافيا فى دفعهم إلى الأمام ، وهبوبهم فى وجه من يحاول اغتصاب حقوقهم هبوب العاصفة الذارية ، والغارة الجائحة .

وهاهم المسلمون اليوم أمام مايعترضهم من النكبات ، وأمام ما يوجه إليهم من اعتداءات قد تقاسموا على الائتمار بأوامر كتابهم ، والعمل بكل ما يحتم عليه من جهاد وتضحية حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير .

عبد الرحيم فرغل

آراء وأحاديث

إن من ينظر فى تاريخ المسلمين فى القرون الأولى ، يرى فيه ظاهرة من ظواهر الأمم المتقدمة ، وهى البحث الفكرى والإنتاج العلمى . فقد كان همهم الدرس والبحث والنقد والابتكار ، فقد ابتكروا علوما وجددوا فنونا ، وما بين أيدينا من ميراث علمى فى النحو والصرف والعروض والبلاغة والفقه وأصول الفقه وأصول الدين وعلوم التفسير والحديث والفلسفة ، هو من إنتاجهم وابتكارهم .

ثم خلفت خلوف تركوا الإنتاج والابتكار والنقد ، ووقفوا عندما ترك الأولون : لم يزيدوا حرفا ، ولم ينقدوا رأيا ، ولم ينتجوا قاعدة ، هذا العقم فى العقل والجدب فى الفكر مرض من أخطر الأمراض يجب علاجه ، لأن الأمم إنما تتفاضل بعقولها ، وتمتاز بالإنتاج العقلى والبحث الفكرى ، والأمم التى تخصب عقولها ويكثر إنتاجها العلمى هى التى تعرف مجهولات الطبيعة وتسير على هدى فى هذا الوجود ، والأمم التى تجدب عقولها ولا تثمر أفكارها ، لا تفهم نفسها ولا ما حولها وتتخبط فى هذه الحياة . وقد رأت المجلة أن تطب لهذا الداء بفتح باب من النقد تعرض فيه فكرة ما وتتناولها الأقلام بالتفنيد أو التأييد . وهذا فيه تمرين عظيم على البحث والإنتاج ، ويدعو القراء إلى إعمال عقولهم ، وكد أفهامهم لتبين الحق ومعرفة الصواب .

وقد بدأنا بنشر بعض بحوث لمدير المجلة فى علوم البلاغة تحت عنوان :

« علوم البلاغة فى الميزان » وسيرى القارىء أنها إبطال لبعض القواعد البلاغية التى قررها الأولون واعتمدها المتأخرون ، وهو مما يدرس فى دور العلم المختلفة من الأزهر والجامعة ، ووزارة المعارف . ومن أجل ذلك ستتوفر الدواعى على معرفة هذا النقد والنظر فيه والعمل على إبطاله أو تأييده ، لأنه ينقد تراثا علميا عظيما ورثوه عن آبائهم وهو عزيز عليهم ، فهم يحامون عنه ، ويذودون من رماه ، ولأن ما يبطله عمل اتفق عليه علماء البلاغة فهل ينقد

الصواب عن هؤلاء جميعا ويعرفه واحد ؟ ومن هم هؤلاء الذين أجمعوا عليه ؟ هم المتقدمون من عهد السكاكى إلى الآن .

فلو كان رأى فرد أو جماعة لجاز أن يدخل فيه الخطأ ، أما وهو رأى العصور المختلفة والأجيال المتعاقبة ، فمن العجب أن يدخل عليه الخطأ كل هذه حركات نفس ونزعات فكر تدعو الدارسين والباحثين إلى أن يستقبلوا هذا الباب بالاهتمام والنقد والتعليق ، وإذا كان ذلك ، أدركنا ما أردنا من تنشيط العقول وحفز الهمم للبحث والابتكار ، والله المستعان .

علوم البلاغة فى الميزان

فى علوم البلاغة العربية ، مجال للبحث ومواضع للنقد ، ففيها بعض الخطأ مما يجب التنبيه عليه وإصلاحه ، ليتعاون المفكرون على تنقية هذه العلوم ، ونحن سنمثل ببعض أمثلة من العلوم الثلاثة : المعانى والبيان والبديع .

(١)

إنى لأعجب لهؤلاء الكاتبين فى البلاغة من المتأخرين ، يعمدون إلى أسباب الحسن فى الكلام التى هدى إليها المتقدمون ، فيعللونها بغير عللها النفسية ، ويسوُّون بينها وبين غيرها ، حتى يصرفوا الذوق عن الإحساس بها وعن تذوقها ، كأنهم قد تواصوا فيما بينهم على أن يفسدوا هذا العلم إفسادا ، حتى لا يبقوا فيه شيئا صحيحا .

هُدىَ المتقدمون - كعبد القاهر - إلى أنه قد يوجد شىء فى النظم فيكسب الكلام حسنا وجمالا ، كالحذف فإنك تحس من الكلام ، المحذوف منه بعض أجزائه ، فى بعض الحالات ، جمالا لا يكون إذا أنت ذكرت المحذوف ، ومثل لذلك بقوله :

قالت سمية قد غويت بأن رأت ... حقا تناوب ما لنا ووفودا
غىٌّ لعمرك لا أزال أعوده ... ما دام مال عندنا موجودا

وقوله :

تشاءب حتى قلت داسع نفسه ... وأخرج أنيابا له كالمعاول

وقوله :

غضبي ولا والله يا أهلها ... لا أطعم البارد أو ترضى

وقـــوله :

وعلمت أنى يوم ذا ك منازل كعبا ونهدا
قـــوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقا وقـــدا

وقال عبد القاهر : هذا باب يشبه السحر ، لأنك تراك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأشد ما تكون بيانا إذا لم تبن ، إلا أن عبد القاهر بين أن فى الحذف حسنا ولم يبين سبب هذا الحسن وعلته ، واكتفى بأن يعرض علينا الشىء الجميل ، ويضع أيدينا على موضع الجمال فيه وهو الحذف ، وبين أننا لو ذكرنا المحذوف لما كان للكلام ذلك الحسن ، فأما العلة فى ذلك فلم يذكرها . ونحن إذا رجعنا إلى نفوسنا ، نجد أن العلة فى حسن الحذف فى هذه المواضع أمور نفسية ، وهى أن المحذوف تدل عليه قرائنه ، فإذا ذكر كان ثقيلا موضعه ، لأنه تعريف لما عرف ، وبيان لما بين . وإذا حذف رفعت المؤنة عن السامع بذكره ، ورفعت الكلفة التى يكون عليها عند ما يسمع حديثا معادا ، أو كلمة لم يجد فيها فائدة جديدة .

وبالجملة فالكلمة الخالية من الفائدة ، كالثقيل تقذى العين بوجوده ، فإذا لم تبصره فى موضع كان يتوقع وجوده فيه وجدت لذلك من الأنس والمحبة ما يغمر القلب سرورا . وإذا أردت أن تتبين شيئا شبيها بذلك ، فاستمع إلى رجلين أحدهما يطيل فى الكلام ويذكر ما لست بحاجة إلى ذكره ويطيل فى غير طائل ، والثانى يهجم بك على الفائدة من أقصر طريق ، وكلما سار بك جدد لك فائدة . فإنك تجد للأول ثقلا على القلب وضيقا فى النفس ، وتجد فى الثانى خفة وتجديد سرور ولذة .

وشىء آخر ، وهو الهجوم بالسامع على المطلوب دفعة ، فإن مطلوبه فى مثل :

قال لى كيف أنت ؟ قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

معرفة حاله فإذا قال عليل — فقد هجم به على المطلوب وكفاه مؤونة الانتظار . هذا ما نجده فى نفوسنا عند ما نسر لحذف كلمة ، ونبحث عن علة هذا السرور وهذا الارتياح .

وشىء آخر - هذه الجدة التى تراها فى هذا الأسلوب ، فإن الناس قد اعتادوا الأسلوب الذى لم يحذف منه شىء لكثرة دورانه فى الكلام ، ولم يعتادوا الأسلوب الذى حذف منه أحد جزأى الإسناد ، لقلة دورانه فى ألسنتهم فإذا سمعوا الكلام المحذوف منه شىء ، سمعوا الجديد الذى لم يألفوه ، والبدع الذى لم يعتادوه ، فاستمتعوا منه بما يستمتعون من الجديد

المبتدع ، والغريب المبتكر ، وليست هذه الجدة فى السمع فحسب ، بل هى جدة فى الفكر ، فقد كنت تتلقى المعانى من الألفاظ فعدت تتلقاها من العقل ، يدل عليها ويشير إليها ، وإن ذلك ليروعك ويؤثر عليك وإن كنت لا تدرى منشأه ولا مصدره .

جاء السكاكى والخطيب ومن بعدهما ، وأبوا أن يكون للحذف مزية على الذكر ، وجعلوا الحذف فى موضعه كالذكر فى موضعه ، وجعلوهما حالين من أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق اللفظ مقتضى الحال ، فيحصلان البلاغة ، ثم ذهبوا يبحثون عن المقامات التى تقتضى الذكر أو الحذف فقالوا : أما حذف المسند إليه فللاحتراز عن العبث بناء على الظاهر أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من اللفظ أو العقل ، أو اختبار تنبه السامع ، أو مقدار تنبهه ، أو صونه عن لسانك أو صون لسانك عنه ، أو تأتى الانكار عند الحاجة ، أو ادعاء تعينه ، وجعلوا للذكر مقاما ، وهو أنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه أو الاحتياط لضعف التعويل على القرينة ، أو التنبيه على غباوة السامع ، أو زيادة الإيضاح والتقرير ، أو إظهار تعظيمه أو إهانته أو التبرك بذكره ، أو استلذاذه ، أو بسط الكلام حيث الإصغاء مطلوب .

فأنت تراهم سوّوا بين الذكر والحذف عند المقتضى ، وقد كان يفهم من كلام عبدالقاهر أن للحذف مزية لا تكون لغيره ، ولو مشينا على ما مشى عليه عبد القاهر لعلمنا اختصاص الحذف بهذه المزية ، ودعانا ذلك إلى مراعاة الحذف فى أساليبنا ما وجدنا إلى ذلك سبيلا .

ونراهم قد ذهبوا عن العلل الحقيقية لجمال الحذف — وهى ما ذكرناها — إلى العلل التى ذكروها ، وبعض هذه العلل صناعية لا تخطر إلا ببال الذين توغلوا فى صناعة العلوم العقلية ، كتخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ ، وبعضها لا يخطر للبليغ المتكلم ولا للسامع ببال ، أما العلل التى ذكرناها فهى علل نفسية قد يشعر المرء بآثارها ، ولا يدركها ، ولكن الفلسفى العارف بخفايا النفوس يدركها ويؤمن بها .

ولقد رغبت أن أحلل كلامهم ما ذكرته من المعانى فقد قالوا : « وأما حذفه فللاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ » . فقلت قد قالوا « الاحتراز عن العبث » ، وهذا يؤدى إلى الاستثقال ، والحذف يؤدى إلى رفع هذا الاستثقال .

وقد لحظوا فى قولهم تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ ، أن الدلالة على المحذوف عقلية ، ولكننى رأيتهم يرعون فى غير هذا الجانب . فقد قال صاحب المطول فى شرح

ذلك : « فللاحتراز عن العبث ، إذ القرينة دالة عليه فذكره عبث ، لكن لا بناء على الحقيقة في نفس الأمر بل « بناء على الظاهر » وإلا فهو في الحقيقة الركن الأعظم من الكلام فكيف يكون ذكره عبثاً ، وقيل معناه أنه عبث نظراً إلى ظاهر القرينة وأما في الحقيقة فيجوز أن يتعلق به غرض ، مثل التبرك والاستلذاذ والتنبيه على غباوة السامع ونحو ذلك » ،

(٢)

لي من فلان، صديق حميم لئن سألت فلانا لتسألن به البحر. لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد.

هذه الأمثلة فيها جمال وبلاغة ، ويحس المرء بطرب لايجده إذا قال فلان صديقى الحميم أو فلان كالأسد أو كالبحر . وقد أحس علماء البلاغة هذا الجمال فذهبوا يحدون ويميزون ويعرفون أسبابه ، وأخيرا سموا هذا النوع الذى أحدث ذلك الجمال : « التجريد » ، وقالوا في تعريفه ما يأتى :

التجريد أن ينتزع من أمر ذى صفة ، أمر آخر مثله فيها ، مبالغة لكمالها فيه ، فقولنا « لى من فلان صديق حميم » يؤخذ منه أن فلانا بلغ من الصداقة حدا صح معه أن ينتزع منه آخر مثله في الصداقة ، وكذلك « لئن لقيته لتلقين به الأسد » يؤخذ منه أنه بلغ من الشجاعة حدا يصلح معه أن ينتزع منه أسد مثله في الشجاعة ، وذلك لكمال الشجاعة فيه . وكذلك « لئن لقيته لتلقين به البحر » يفيد أنه بلغ من الكرم حدا صح معه أن ينتزع منه بحر مثله فى الكرم وذلك لكماله فى الكرم ...

وهذا تصور غريب لهذه الأمثلة التى فيها هذا النوع من البلاغة ، فلم تجر عادة ، أن المرء إذا بلغ حداً من الكرم ، صح أن ينتزع منه بحر مثله فى الكرم وذلك لكماله فيه . وليت شعرى ما هذا الانتزاع ؟ أهو بطريق الولادة ، أم بطريق آخر كانتزاع الصخر من الجبل ، أم كانتزاع الثوب من اللابس .

هذه الحالة لاتدل على كرم ولاعلى مبالغة فيه ، فما عهد أن الكريم إذا بلغ فى الكرم المبلغ العظيم ، انتزع منه بحر يساويه فى الكرم .

وإن فهم هذه الأمثلة على هذا الوجه يضيع بلاغتها ويفسد معناها ويجعله تصورا كتصور البله والممرورين ، كريم يلد بحراً ، أوشجاع يشتق منه أسد ، وصديق ينتزع منه صديق .

وقد كنا نفهم من هذه الأمثلة قبل أن نعرف التجريد فى علوم البلاغة أن فيها حذفا :

لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد ، الأصل لتلقين بلقائه ، أى بسبب لقائه ، الأسد فحذف لقاء ، وإنما كنت تلقى بلقائه الأسد ، شبيهه لأنه فلست تلقى بلقائه إلا أسدا ، وما الجمال فيه إلا من جهة أنه أعطاك التشبيه بطريق مكنى عنه ، لم يصرح به ، وأنه صوره بصورة الأسد ، حتى كأنك تحسه وتراه . ولست تجد أحدا له ذوق فى البلاغة يفهم من هذه الأمثلة إلا ما قدمناه ، وهو المعنى الذى يخطر لأول نظرة ، ولكن علماء البلاغة يأبون إلا أن يجعلوه تجريدا وتوليد شيء من شيء . ولم يلده ، وانتزاع شيء من شيء لم ينتزع منه .

ومن عجب ، أن هذا المعنى المتبادر قد شعر به بعض العلماء فذكره وأبان أن أمثلة التجريد مبنية على الحذف ، فأنكره العلماء المتأخرون وقاوموه ودفعوا فى صدره حتى لم يبق إلا هذا المعنى السخيف الذى ينكره الذوق ويبنو عنه الفهم ويجعل الأسد منتزعا من الشجاع والبحر متولدا من الكريم وذلك مبالغة لكمال هذه الشجاعة فى هذا الشجاع وكمال الكرم فى هذا الكريم .

(٣)

« رأيت اليوم حاتما ، ولقيت مادرا ، وسمعت سحبان ، وكان فى المجلس باقل » ، هذه مثل تدور على ألسنة المتكلمين ، والغرض منها التشبيه ، تشبيه الممدوح بحاتم فى الكرم ، وبسحبان فى الفصاحة ، وتشبيه المذموم بمادر فى البخل ، وباقل فى الفهاهة - ولكن علماء البلاغة لا يقتصرون على ذلك بل يتأولون فى حاتم فينتزعونه من معناه وهو العلمية على الرجل المعروف من طيء ، ويجعلونه كأنه موضوع للجواد سواء أكان ذلك الرجل المعهود من طيء أم آخر غيره ، فبهذا التأويل يكون حاتم متناولا للفرد المتعارف المعهود والفرد غير المتعارف ، وهو من يتصف بالجود ، لكن استعماله فى غير المتعارف يكون استعمالا فى غير ما وضع له فيكون استعارة .

وإنما فعلوا ذلك ليحافظوا على الأصل الذى وضعوه ، وهو أن الاستعارة تقتضى إدخال المشبه فى جنس المشبه به ، بجعل أفراده قسمين: متعارفا وغير متعارف ، ولا يمكن ذلك إلا فى اسم الجنس ، ولا يمكن فى الأعلام لأن العلم وضع لذات مخصوصة لا يتناول غيرها ، فلهذا ارتكب هذا التأويل فيجعل العلم اسم جنس ليمكن ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به .

ويرد هذا الذى ذهب إليه البيانيون ، أنه ليس من أحد يتكلم بهذه الأمثلة يقصد هذا الذى قالوه ، ولا يفهم أحد ممن يسمعها هذا المعنى الذى ذكروه ، فما من أحد يقول : رأيت اليوم حاتما ، ويدور بخلده أنه شبه ثم تأول حاتماً نزعه من العلمية ، وجعله كأنه موضوع للكريم الجواد وصار له فردان : فرد حقيقى هو ذلك الجواد من طيء ، وفرد ادعائى هو ذلك الممدوح إلى آخر هذه الصورة .

وليس أدل على فساد هذا الرأى من أنه دعوى لما لا يخطر بذهن متكلم أو سامع ، فنحن نشرح أقوال المتكلمين بما يريدون ويعنون ، وكل هذه الصورة لا تخطر إلا بأذهان هؤلاء البيانيين الذين اخترعوها .

ضع يدك على أى بليغ ما تختاره وسله : ماذا يريد بقوله ، رأيت حاتما اليوم ، فإنه يجيبك : أردت تشبيه هذا الكريم بحاتم فى جوده وكرمه .

وسله أهو تأول فى حاتم وأراد منه مطلق جواد ، وأنه صار يشمل حاتم طيء وهذا الجواد الممدوح ؟ فإنه ينفى ذلك كله ، ويقسم أنه لم يرد شيئاً من هذا ، ولم يرد إلا التشبيه بحاتم فى الجود .

على أنه إذا كان معنى حاتم الجواد فلا استعارة ، لأن الجواد يطلق على سبيل الحقيقة على الممدوح ، بخلاف أسد فى قولنا : « رأيت أسداً يرمى » فإنه لا يطلق على الممدوح على سبيل الحقيقة فكان استعارة . وهذا التكلف العظيم ليحافظوا على أصل اخترعوه ، وهو أن الاستعارة تقتضى دخول المشبه فى جنس المشبه به . وهذا الأصل أوردوا هم عليه اعتراضاً ، وهو أنه كيف يدعى دخول المشبه فى جنس المشبه به ويقيم القرينة لتدل على أنه أراد المشبه لا المشبه به ؟ وأجابوا بأنه بعد الادعاء صار المشبه به فردان : فرد حقيقى وفرد ادعائى ، والقرينة قامت لتنفى الفرد الحقيقى وتثبت الفرد الادعائى ، فدخلوا فى باب آخر من الإغراب لم يرده متكلم ولم يفهمه سامع .

م . ع

فلسطين العربية الإسلامية

١ — إن فلسطين بلاد عربية منذ أربعة عشر قرناً، وقد ظلت الموجات العربية قبل الفتح الإسلامي وبعده تتوالى عليها من آن لآخر، وإن الصبغة العربية راسخة فيها كل الرسوخ، وبرهان ذلك أسماء المناطق مثل: «مرج ابن عامر، وقرى، بني صعب، وبني زيد، والحارثية والقسطل، ووادي علي وجبل القيسية، وبني نعيم» إلى غير ذلك من أسماء الأماكن والقبائل والحمائل والعشائر العربية في مختلف أنحاء فلسطين وكانت في فلسطين أشد الحملات الإسلامية لمقاومة الصليبيين بقيادة صلاح الدين ومن جاء بعده من الملوك والسلاطين المجاهدين، حتى أجلوهم عنها وعن سائر بلاد المسلمين، وبقيت إسلامية منذ ذلك التاريخ. وقد لبثت فلسطين تحت الحكم العثماني نحو أربعمائة سنة حتى احتلها الإنجليز سنة ١٩١٨

٢ — تبلغ مساحة فلسطين ١٠٤٢٩ ميلا مربعاً، تساوي ٢٧ مليون دونم، وهي تؤلف القسم الجنوبي من سوريا «بلاد الشام».

أما حدودها الرسمية، كما كان الحال في زمن الاحتلال البريطاني، فمن الجنوب تحدها أراضي سيناء المصرية حتى رأس طابة على خليج العقبة، ومن الشرق نهر الأردن وأرض «مملكة الأردن»، ومن الشمال أراضي جمهوريتي سوريا ولبنان، ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط.

٣ — كانت فلسطين حين الاحتلال الإنجليزي عربية الصبغة، وكان عدد سكانها ٧٥٠ ألفاً، منهم حوالي خمسين ألفاً من اليهود، فتكون نسبتهم إلى مجموع السكان نحو ٦٪، وجدير بالذكر أن عدد اليهود في فلسطين كان في سنة ١٨٤٥ اثنى عشر ألفاً، وفي سنة ١٨٨١ نحو ٢٥ ألفاً.

ومنذ وقعت البلاد تحت الاحتلال البريطاني، فتح الانجليز أبواب الهجرة اليهودية على مصاريعها، حتى بلغ عدد اليهود في سنة ١٩٣٩ نحو ٤٠٠ ألف من «مليون و٤٠٠ ألف» مجموع سكان فلسطين. وتدل الإحصاءات الرسمية على أن عدد المهاجرين اليهود الذين وصلوا

فلسطين منذ قامت حكومة إسرائيل سنة ١٩٤٨ إلى منتصف سنة ١٩٥٢ ، نحو ٦٥٠ ألفاً ، وما زالت عشرات الألوف منهم تصل فلسطين تباعاً ، رغم مايعانون من الأزمة الاقتصادية وقلة المساكن ، لأنهم يريدون أن يصل عددهم إلى مليونين فى وقت قريب .

ثورات عرب فلسطين :

منذ الاحتلال الانجليزى سنة ١٩١٨ ومأساة فلسطين العربية الدامية تمثل فصولا يقوم البريطانيون فيها بدور الظالم المتجبر الغادر ، واليهود يمثلون دور الطامع الوقح .

وقد ثار العرب على هذه المؤامرة الاستعمارية عدة ثورات دامية ، فكانت ثورة القدس سنة ١٩٢٠ ، ثم ثورة يافا سنة ١٩٢١ ، وكان من أشد ثورات عرب فلسطين ثورتهم سنة ١٩٢٩ ، بدأت فى القدس ثم اشتعلت فى الخليل وصفد ، ويافا ، وحيفا ، وغيرها من أنحاء فلسطين . وفى سنة ١٩٣٣ نشبت الثورة فى يافا والقدس وحيفا ونابلس . وفى عام ١٩٣٦ كانت الثورة الكبرى والإضراب العام الشامل اللذان استمرا ستة أشهر كاملة ، ثم توقفت الثورة لتدخل ملوك العرب ، فلما فشلت مساعيهم وخاب الأمل فيهم ، عادت الثورة إلى الاشتعال سنة ١٩٣٧ واستمرت ملتهبة إلى صيف سنة ١٩٣٩ ، وفى هذه الثورات الدامية استعذب أهل فلسطين الموت فى سبيل الله ، وضحوا بالنفس والنفيس ، وكم بذلوا من أرواح غالية ودماء زكية ، وكم لاقوا من عنت الإنجليز ومظالمهم ، ولكنهم مع ذلك قد كبدوا البريطانيين وحلفاءهم اليهود خسائر كبيرة فى الأرواح والأموال ، وأتلفوا للجيش البريطانى الكثير من قطاراته الحربية ومعداته العسكرية ، حتى اضطرت انجلترا أن تبعث إلى فلسطين فى سنة ١٩٣٦ و ١٩٣٧ بجيش جرار وأسراب كثيرة من طائرات القتال والسفن الحربية ، وعلى رأس ذلك المارشال ديل والمارشال وايفل من كبار قادة جيشها .

٤ — وتتمع فلسطين من البلاد العربية بموضع القلب ، لأن البلاد العربية تحيط بها من كل الجهات ، وموقعها العسكرى ، الاستراتيجى ، من أهم المواقع ، وأشدها خطورة : فهى مفتاح بلاد العرب ، وتتصل حدودها اتصالا مباشرا بمصر ، وسوريا ، ولبنان ، والاردن ، والحجاز ، وإن قيام حكومة اليهود المعادية فى أرض فلسطين تهديد دائم وخطر شديد على البلاد العربية كلها ، وذلك خطر ليس من الناحية العسكرية والسياسية فحسب ، بل هو خطر

اقتصادى واجتماعى ودينى ، لأن اليهود بفلسطين هم دعاة الشيوعية والفوضوية والإلحاد والإباحية . وأن الدول الاستعمارية المعادية للإسلام والعروبة قصدت من إقامة دولة لليهود فى قلب بلاد العرب ، تمزيق وحدة العالم الإسلامى والعربى ، وفصل أجزائه بعضها عن بعض أو فصل آسيا الإسلامية عن أفريقيا الإسلامية .

٥ — أما الوضع الحالى فى فلسطين فيلخص فى أن عصابات اليهود المسماة « بحكومة إسرائيل » ، قد أصبحت مسيطرة على القسم الأكبر من مدن فلسطين وقراها وأخصب أراضيها ومزارعها وبساتينها ، التى أجلى عنها مليون عربى ، باتوا لاجئين مشردين فى البلاد العربية ، ولم يتم ذلك بفضل قوة اليهود العسكرية ، وإنما تم نتيجة مؤامرة إنجلترا وأمريكا وغيرهما من الدول الاستعمارية التى أقامت هذه الدويلة المعادية فى قلب الأمة العربية نكاية بالمسلمين والعرب . ويدل على ذلك ما صرح به بن غوريون رئيس وزراء حكومة اليهود حيث قال : « إنما أحرزناه من النجاح ٩٧½ ٪ منه يعود الفضل فيه للسياسة ، و٢½ ٪ منه فقط لجهودنا الحربية » .

وأما الأقلية العربية ، التى اضطرت للبقاء تحت حكم اليهود ، والتى يبلغ عددها نحو ١٧٠ ألفاً ، فهى تلاقى عنتاً وقسوة ومعاملة شديدة من سلطات اليهود .

وأما القسم العربى الباقى من فلسطين ، فهو خاضع لسيطرة الجنرال جلوب الانكليزى ، وإن كان تابعاً فى الظاهر لسلطة الأردن . وهذا القسم فى خطر شديد ، لأن اليهود يطمعون فيه قبل أى قسم آخر ، وهم إن لم يجدوا أمامهم القوة الدافعة المانعة فسيتابعون اعتداءهم وتوسعة مساحتهم على حساب البلاد العربية .

محمد صبرى عابدين
من علماء الأزهر الشريف
وأمين سر ديوان الهيئة العربية العليا بفلسطين



المعمَّى واللغز

(تابع ما نشر فى العدد الماضى)

٢

٣ — وقد تقع التعمية فى الكلام من قِبل تأليف الكلم وتركيبها ، فيوهم التأليف غير المراد وتختلط الأصوات ، فتصبح الكلمتان مثلا كأنهما كلمة واحدة .

ومن أمثلة هـــذا قول الشاعر [١] :

دنانيرنا من قرن ثور ولم تكن   من الذهب المضروب عند القساطر

فقوله (دنانيرنا) يوهم الدنانير الذهبية من النقد ، ولكن القارىء يعجب من قوله بعد : « ولم تكن من الذهب » ، فيلتمس للكلام وجهاً آخر وقد يوحى إليه بالمعنى قوله (من قرن ثور) ، وأياً ما كان الأمر ، فالشاعر يريد (دنا) أى قرب (نيرنا) أى النير الذى لنا ، والنير : ما يوضع فى عنق الثور أو الثورين فى جر الفدان ، والفدان هو ما يعرف فى لسان العامة بالمحراث ، أما المحراث فى العربية فهو ما يحرك به النار . ويعرف النير فى لسان العامة بالناف . ومما أذكره فى هذا الموطن أن أبا الفتح بن جنى دخل يوما ديوان الإنشاء فى بغداد ، فوجد أحد الكتاب وبين يديه كانون فيه نار والبرد شديد ، فقال له الكاتب : تعال أيها الشيخ إلى النير ، فقال أبو الفتح : أعوذ بالله ، النير هو صماد البقر ، والصماد : سداد القارورة ، كأن النير سداد للثور يمنعه من الانطلاق . وقد ذهب الكاتب فى النار مذهب الإمالة ، ولكن أبا الفتح نحا نحواً آخر تظرفا . والقساطر جمع القسطر ، وهو الصيرفى الناقد للمال .

---

(١) انظر اللسان فى (نير) والتاج فى (قسطر) .

وقوله : (لم تـكن) كذا بالتـاء وهو يناسب الدنانير ، وكأنه روعى فى النير أنه أداة ، فأنث ليتم الإلغـاز ، وفى التاج : « لم يكن » .

ومن أمثلته أيضاً قول تميم بن رافع المخزومى :

أقول لعبـــد الله لمـا سقاؤنا ونحن بوادى عبد شمس وهاشم [١]

والقارىء يبحث عمـا قاله لعبد الله فلا يراه فى البيت ، ويبحث أيضاً عن المسند إلى (سقاؤنا) ، ويبدو من قرن (هاشم) بعبد شمس أنه اسم رجل . وإنمـا يريد الشاعر : لمـا سقاؤنا ، وها : أى تخرق وتمزق ، فقوله (وها) فعل ، وحقه أن يكتب بالياء ، ولـكنه كتب بالألف للإلغاز ، وقوله : (شم) أى شم البرق أى انظره عسى أن يعقبه المطر ، وهو مقول القول . وحاصل معنى البيت أنه كان مع صاحبه فى وادى عبد شمس فتخرقت القربة التى فيها المـاء وأعوزهما ما يشربانه ، فقال لصاحبه : شم البرق عسى أن نغاث بالمطر .

ومنها ما أنشده أبو زيد :

وأطلس يهـــديه إلى الزاد أنفه أطاف بنـا والليـل داجى العساكر

فقلت لعمرو صـاحبى وقد رأيته ونحن على خوص دقاق عواسر [٢]

الأطلس : الذئب ، وهو وصف من الطلسة ، وهى غبرة إلى سواد ، وذلك لون الذئب . والخوص الدقاق يريد الرواحل التى قد جهدها السير ، وقوله (عواسر) فى ظاهره وصف (خوص دقاق) ، والعواسر من النوق التى ترفع أذنابها عند السير يكون ذلك من نشاطها ، وحينئذ فأين مقول القول ؟ وإنمـا يريد الشاعر : قلت لصاحبى : عوى الذئب ، فسر ، فلما التصق : عوى وسر ، نشأ الإيهام ، وقد كتب عوى بالألف للإلغاز .

ومنها قول الشاعر :

عافت المـاء فى الشتاء فقلنا برديه تصادفيه سخيناً [٣]

ويقال : كيف تجد الماء سخيناً ؟ إذا بردته . وهل هذا إلا ضرب من الإحالة ! وإنما يريد : بل رديه ولا تعافيه فستجدينه على غير ما ظننت ، ولمـا كانت اللام تدغم فى الراء فإن النطق

---

(١) أنظر اللسان فى (نير) ، والتاج فى (قسطر) .

(٢) انظر المغنى فى (لمـا) وشواهد المغنى للبغدادى ٣٠٨/٢ والمزهر فى النوع التاسع والثلاثين

(٣) الخصائص : إجراء اللازم غير اللازم .

يكون : بردّيه ، وقد كتب هكذا كالنطق رغبة فى التعمية . ويروى أن هذا البيت عرض على أبى عثمان المازنى فأجاب :

أيها السائلون لى عن عويص حار فيه الأفكار أن يستبينا
إن لاماً فى الراء ذات ادّغام فافصلنها ترى الجواب يقينا

ومنها قوله :

إنْ هندُ المليحةُ الحسناء وأىَ من أضمرت لخل ّ وفاء [1]

ويقال : كيف رفع (هند) وهى اسم إنّ ؟ وما ناصب (وأى) ؟ والجواب أن (إنّ) أمر للواحدة من وأى أى وعدَ ، يقال فيه وأى يئى ، ويقال : يا هند إى ، وقد أكد بالنون فحذفت الياء لالتقاء الساكنين فصار (إن) وهند منادًى ، وقوله (وأى) مفعول مطلق لقوله (إنّ) ، أما (المليحة الحسناء) فهما وصفان للمنادى .

ومنها قول الفرزدق :

يفلقن هاماً لم تنله سيوفنا بأسيافنا هام الملوك القماقم [2]

والبيت فى ظاهره مشكل غير بين المعنى . وإنما المراد : يفلقن بأسيافنا هام الملوك القماقم ، ولكنه زاد فى (يفلقن) الحرف (ها) وهو حرف التنبيه . ثم قال : منْ لم تنله سيوفنا ! وهو استفهام إنكارى ، فاختلط (ها) بكلمة (منْ) فنشأ (هاماً) ، ومن ثم جاء الإبهام والتعمية .

٤ — وقد تقع التعمية بعكس الضرب السابق . وذلك أن يؤتى بكلام يطلب أن يحل محلها عبارة لو فصلت لأدت معنى الكلام المسئول عنه ، ولكن التبست بالعبارة الواحدة من اختلاط الأصوات وتصاقب الكلمات . فيقال مثلا : ما مثل قولنا : قربت خشبتنا التى توضع على عنق الثور ، فيكون الجواب : دنانيرنا . وهذا الضرب يسمى التحاجى بالمقايضة ، وهو أن يؤتى بلفظ عوضاً عن لفظ آخر يتوارد معه على معنى واحد ، وعليه بنى الحريرى المقامة السادسة والثلاثين . ومن ذلك أن يقال : ما مثل النوم فات ؟ وجوابه : الكرامات

---

(١) انظر المغنى فى مبحث الهمزة .

(٢) الأمالى للقالى ١ / ٢٧٠ .

والكرامات فى الظاهر جمع الكرامة ، ولكنها تفصل إلى الكرى وهو النوم ، ومات وهو فعل الموت ، فتساوى المسئول عنه ، وهو : النوم فات .

ومما أورده الحريرى :

يا من سما بذكاء فى الفضل وارى الزناد
ماذا يماثل قولى جوع أمد بزاد ؟

ومن أحاجيه قوله :

يا من يشار إليه فى الـ قلب الذكى و البراعه
أوضح لنا ما مثل قو لك للمحاجى : دس جماعه ؟

وجوابه : طافية : وهى فى ظاهرها وصف مؤنث من طفا على الماء ، والمراد : طائفة ، تخففت الهمزة فيهما .

٥ — وقد يقع المعمى فى الكلام من تقديم بعض أجزاء الكلم وتأخير بعض آخر ومخالفة النظم المألوف . ومن أمثلة هذا قوله :

معاوى لم ترع الأمانة فارعها وكن حافظاً لله والدين شاكر[1]

أى لم ترع شاكر — وهى قبيلة من همدان — الأمانة فارعها أنت يا معاوية .

ومن هذا قوله :

سألت ونحن فى البيداء عمرا على عجل ونحن نسير سيرا
فجاء به ولم يبخل علينا فقلت له : جزاك الله خيرا[2]

يريد : سألت عمرا سيرا ، أى سيرا من جلد .

ومنه قوله :

من نبات الكروم جاءت سلافا لم يدسها برجله العصارا[3]

يريد : جاءت العصار سلافا لم يدسها برجله .

---

(١) الخصائص ١/٣٣٠ (٢) شرح اللامية العجم للصفدى ١/٢٢٦
(٣) المرجع السابق ١/ ٢٥٨

٦ — وقد تكون التعمية بإحلال الكلمة محل مرادفها . ومن هذا أن بعضهم سئل عن معشوق له فقال : هو أبو سفيان ، فقيل له : استعن عليه ببنت بسطام . أراد العاشق أن معشوقه صخر فى التمنع والقسوة ، وذلك أن أبا سفيان بن حرب أبا معاوية رضى الله عنهما اسمه صخر . وأراد محاوره ببنت بسطام : الصهباء . وهى الخمر . وقد كان لبسطام بن قيس ابنة تسمى صهباء .

ويقول صاحب كتاب كشف الأسماء : « ومن بديع عمل الترادف ما يحكى أن رجلا وقف على المأمون فقال له : مسامعى ولد الظبى عين ماء السلطان ، ففطن المأمون لمراده واستدعى بالقرطاس وكتب إلى ناظر نهر الملك : اخترناك فصرّفناك ، واختبرناك فصرّفناك . وكان الرجل شكا من ابن غزال ناظر نهر الملك ، فعزله المأمون . فقوله : (مسامعى) أراد : آذانى . وقوله (ولد الظبى) أراد : ابن غزال . وقوله (عين ماء السلطان) أراد : ناظر نهر الملك . وهذا يعد من غاية ذكاء المأمون » . فترى أنه كنى بمسامعى عن آذانى التى هى جمع أذن ، ثم انتقل من هذا إلى آذانى الفعل من الإيذاء ، وكأن هذا تعمية بمرتبتين ، وأراد بولد الظبى : ابن غزال ، علم الإنسان ، وقال : (عين) وأراد الناظر ، وأراد بماء السلطان نهر الملك . وهذا عجيب حقاً .

٧ — وعند المحدثين ضرب من التعمية يكون بقلب حروف الكلمة . ومن هذا قوله :

يا أيها العطار أعرب لنا ... عن اسم شىء قل فى سومكا
تنظره بالعين فى يقظة ... كما يُرى بالقلب فى نومكا

فقوله (بالقلب) يريد بقلب الكلمة (نومكا) وقلبها أن تبتدىء بعجزها ، فتأتى بالكاف والميم والواو والنون ، ويحصل من هذا كمّون ، وإن كانت الميم فى كمّون مشددة ، وهذا هو المطلوب .

٨ — ومن ضروب التعمية : التعمية ، فى الشعر . وهو أن تجعل مكان كل حرف من البيت اسما ـ وتطالب الاهتداء إليه وإلى تأليفه . وهذا صعب عسير . وقد عقد له أبو هلال العسكرى فصلا فى ديوان[1] المعانى ، وأبان طريقة استخراجه هناك ، ومن شاء أن يتوسع فى هذا فليرجع إليه .

(١) ج ٢ ص ٢٠٨

٩ — ومن ضروب التعمية : التعمية فى الكتابة . فقد يلغز بالحركة والشدة إلى معنى بعيد . ومن أقوى الأمثلة على هذا ما ذكره ابن خلكان فى وفيات الأعيان فى ترجمة سديد الملك على بن مقلد بن منقذ صاحب قلعة شيزر ، قال : « وكان موصوفاً بقوة الفطنة . وينقل عنه حكاية عجيبة . وهى أنه كان يتردد إلى حلب قبل تملكه شيزر . وصاحب حلب يومئذ تاج الملوك محمود بن صالح بن مرداس . فجرى أمر خاف سديد الملك على نفسه منه ، فخرج من حلب إلى طرابلس الشام ، وصاحبها يومئذ جلال الملك بن عمار فأقام عنده ، فتقدم محمود بن صالح إلى كاتبه أبى نصر محمد بن الحسين بن على بن النحاس الحلبى أن يكتب إلى سديد الملك كتاباً يتشوقه ويستعطفه ويستدعيه إليه . وفهم الكاتب أنه يقصد به شراً ، وكان صديقاً لسديد الملك ، فكتب الكتاب كما أمر إلى أن بلغ إلى (إن شاء الله تعالى) فشدد النون وفتحها ، فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك عرضه على ابن عمار صاحب طرابلس ومن فى مجلسه من خواصه ، فاستحسنوا عبارة الكاتب واستعظموا ما فيه من رغبة محمودة فيه وإيثاره لقربه ؛ فقال سديد الملك : إنى أرى فى الكتاب ما لا ترون ، ثم أجابه عن الكتاب بما اقتضاه الحال وكتب فى جملة الكتاب : أنا الخادم المقر بالإنعام وكسر الهمزة من (أنا) وشدد النون ، فلما وصل الكتاب إلى محمود ووقف عليه الكاتب سُرّ بما فيه ، وقال لأصدقائه قد علمت أن الذى كتبته لا يخفى على سديد الملك ، وقد أجاب بما طيّب نفسى . وكان الكاتب قد قصد قول الله تعالى : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » ، فأجاب سديد الملك بقوله تعالى : « إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها » ، فكانت هذه معدودة من تيقظه وفهمه .

هذا والعناية بكشف المعمى واستخراجه قديمة . وفى معجم الشعراء [٢] للمرزبانى ذكر محمد بن مخلد الكاتب ، وقال فيه : « معصمى ، وكان من أحذق الناس بإخراج المعمى » ، ومن المعنيين به أبو الحسن العروضى ، ذكره أبو هلال العسكرى . ومنهم أبو المعالى الحظيرى الوراق صاحب كتاب : « الإعجاز فى الأحاجى والألغاز » يقول فيه صاحب الخزانة : « وهو كتاب تكل عن وصفه الألسن ، فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » .

وقد توفر على البحث فى المعمى فى العصور المتأخرة علماء العجم ، كتبوا فيه بلغتهم ثم ترجموه إلى العربية ، وقد بقى لنا من كتبهم « كنز الأسما فى كشف المعمى » لقطب الدين المكى الحنفى ، رحل إلى مصر سنة ٩٤٥ هـ وهو مخطوط فى دار الكتب المصرية . ولصاحب الخزانة بحث جليل فيه فى ج ٢ ص ١١٣ وما بعدها . والله الهادى إلى سواء السبيل .

(١) ص ٤٢٦

محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة العربية

الإحتكار والربح الفاحش حرام كالربا

تحدث مندوب «الأهرام» الخاص إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر عن الأزمة المستحكمة التى تعانيها فى هذه الأيام المواد الغذائية الضرورية، بسبب اختزان بعض هذه المواد طلباً للربح الفاحش، وطلب إلى فضيلته أن يوضح للناس حكم الشريعة السمحة فى مثل هذا الإجراء، وقد تفضل فضيلته بإجابة هذا الطلب وقال:

إن الاحتكار الذى حرمه الله عز وجل هو إمساك شىء من الأغذية وضروريات الناس، والامتناع عن بيعها انتظاراً للغلاء، حتى إذا ازداد اضطرار الناس اليها تحكم محتكرها ببيعها بالسعر الفاحش الذى يفرضه عليهم.

وهذا العمل حرام شرعا، ولا يعد من البيع الحر الذى أحله الله، ولذلك كان الكسب منه كسباً خبيثاً لا يباركه الله عز وجل ولا يرضى عن صاحبه.

إن مثل المحتكرين كمثل المرابين من جهة استغلال الفريقين حاجة الناس وتحكمهم فيهم بسبب هذه الحاجة. غير أن المحتكرين يزدادون عند الله إثماً من جهتين: إحداهما أن استغلال حاجة الناس إلى الأقوات والأغذية وما أشبهها أفظع من استغلال الحاجة إلى النقود. والثانية أن استغلال المحتكرين لأقوات الناس وضرورياتهم يعم ضرره جماهير الناس، أما استغلال المرابين لحاجة من يحتاج إلى النقود فإن نطاقه ضيق يخص عدداً قليلا منهم ولا يعم جماهيرهم، فإذا كان المرابى يأكل ربحه من الربا ناراً فى جوفه لاستغلاله حاجة عدد محدود من الناس، فالمحتكر يأكل ربحه من الاحتكار لهيباً من نار الجحيم بقدر ما ينال جماهير الناس من أذى جشعه الذى لن يبارك الله له بشىء منه.

وقد صح فى الحديث النبوى أن عاقبة المحتكر أن يضربه الله بالإفلاس، أو بأخبث الأمراض وهو الجذام.

روى الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى مسنده بإسناد صحيح، أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه خرج إلى المسجد فوجد طعاماً منثوراً، فقال: ما هذا الطعام؟ قالوا: طعام جلب إلينا. قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه. قيل: يا أمير المؤمنين فإنه قد احتكر. قال: ومن احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر. فأرسل أمير المؤمنين إليهما فدعاهما فقال: ماحملكما على احتكار طعام المسلمين؟ قالا: ياأمير المؤمنين نشترى بأموالنا ونبيع. فقال عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من احتكر

على المسلمين طعامهم ضربه الله بالافلاس ، أو بجذام » . فقال فروخ عند ذلك : ياأمير المؤمنين أعاهد الله وأعاهدك أن لا أعود - أي إلى الاحتكار - في طعام أبدا . وأما مولى عمر فقال : إنما نشتري بأموالنا ونبيع . قال أبو يحي المكي راوي هذا الحديث : فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً.

ومما يلاحظ في هذا الحديث ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سمى الأغذية العامة المعروضة للبيع طعام المسلمين ، لأنه إذا كان للذي يشتريها ليبيعها حق الثمن الذي يشتري به ثم يتقاضاه في البيع ، فإن إباحتها في السوق من حق المسلمين لأنها طعامهم وغذاؤهم ومن ضرورياتهم ، فبيعها لهم بالثمن هو من حق رأس المال ، وأما إباحتها وعرضها في السوق فهو من الحق العام الذي هو حق الامة ، واحتكارها اعتداء على الحق العام وهضم لحقوق الامة .

وفي مسند الإمام أحمد أيضاً عن سعيد بن المسيب أن معمر بن عبد الله بن فضلة القرشي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا يحتكر إلا خاطىء » . والخطأ في الشرع الخروج عن سبيل الشرع ، وسبيل الشرع هو سبيل الله ، ويا ويل من يخطىء سبيل الله لأجل كسب حرام غير مشروع يستغل به ضرورات الامة في غذائها وقوت عيالها ، فيستحق عليه ما أنذره به النبي صلى الله عليه وسلم من الإفلاس أو الأمراض الخبيثة ، ويعاقب عليه يوم القيامة بما يستحقه الذين يسخطون الله في إيذاء مخلوقاته .

وروى الإمام أحمد أيضاً في مسنده عن الحسن البصري عن معقل بن يسار رضي الله عنه وهو من أهل بيعة الرضوان ، وهو الذي حفر نهر معقل بالبصرة بأمر عمر بن الخطاب ، أنه لما ثقل المرض على هذا الصحابي الجليل جاءه أمير البصرة عبيد الله بن زياد يعوده ، فدار بينهما حديث ، ثم قال معقل رضي الله عنه : أجلسوني . ثم قال : اسمع يا عبيد الله حتى أحدثك شيئاً لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة ولا مرتين ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم فإن حقاً على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة » . فقال عبيد الله لمعقل : أأنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ، غير مرة أو مرتين .

ومن هنا يعلم كل مسلم يتاجر في المواد الغذائية والضرورية للمسلمين ، أن احتكارها ليس من البيع الذي أحله الله ، بل هو كسب حرام وأشد ضرراً على عامة المسلمين من المراباة والعياذ بالله . والنبي صلى الله عليه وسلم قد أنذر مرتكبه بالإفلاس والأمراض وبنار جهنم يوم القيامة . فليعلم المحتكر عاقبة عمله قبل أن يقدم عليه .

العناية بدراسة الإسلام في جامعات العالم

لا أعجب لشيء عجبي لجهل هذه الأمم الغربية باجتماعيات الإسلام وما فيه من مبادىء قوية للحياة القارة والهناءة الإنسانية ، وللأمن والسلام الدولى والسلام المحلى . على حين أن هذه الشعوب الغربية الراقية قد بحثت كل شيء وتخصصت فى كل شيء وبلغت الغاية فى كل بحث إلا فى شيء واحد ، هو دراسة الإسلام واجتماعياته وأدبياته وتشريعاته ، دراسة بأناة وإخلاص لمصلحة الحياة الإنسانية ، دراسة بريئة من التعصب المسيحى الذى خلفته الحروب الصليبية ودعمته مؤلفات باطلة منتشرة جعلت الهوة سحيقة بين الشرق والغرب ، وتركت آثارها التقليدية باقية فى نفوس العلماء والباحثين بما بثته من ذلك فى نفوس الناشئين فى الكتب المدرسية . وعن هذه الهوة السحيقة بين الشرق والغرب . وتنافس الغرب فى استعمار الشرق واستغلال خاماته وأسواقه وملايين الأيدى العاملة فيه ، نشأت تلك الحروب الطاحنة التى عاد ضررها على الغرب بأكثر مما قد يكون عاد على الشرق ، والتى لا تزال تضمر للعالم شراً ما حقاً يأتى على المدنية كلها — (إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون) ، كل ذلك بسبب العصبية الوراثية عند العلماء الاوربيين ضد الإسلام ودراسته ، بينما هو دين اجتماعى بالمعنى الذى لا يوجد فى دين آخر ولا فى قانون ولا دستور من دساتير العالم .

فأين العلماء الباحثون الاجتماعيون من الاوربيين والأمريكيين ؟ وأين الدراسات الجامعية لتقتحم أسوار اللغة العربية ويدرسوا هذا القرآن الكريم ويبحثوا فيه عن عناصر السلام كما يبحثون الآن فى طبقات الأرض عن عنصر الاورانيوم • ومعلوم أن اللغة العربية قد كانت لغة العلم فى القرون الوسطى وما قبلها فلم لا تدرس ؟ .

ولعمر الله لعنصر السلام والإصلاح فى طبقات القرآن أدنى منالا من عنصر الاورانيوم فى طبقات الأرض وأعم نفعاً وأعمق رحمة بالإنسانية وأدفع للشر فيما بينها .

والعبرة فى البحوث العلمية والتشريعية وفى الاكتشافات إنما هى بمعيار ما تؤدى للإنسانية من خدمة وما يبدو فيها من نفع عام ، ومتى يكون الميل إلى الخير أرجح من الميل إلى الشر فى طبيعة البشر ؟

وإذا كان القانون الرومانى فى سائر جامعات العالم ، يظفر بكراسى فيها ، وهو ما هو ، أفلا يظفر القرآن الإسلامى فى تلك الجامعات بمثل تلك الكراسى وتتفتح له عيون وتصحو له قلوب وتدرس اللغة العربية فى تلك الجامعات كما تدرس اللغة اللاتينية فيها ليتمكن العلماء الباحثون المنصفون من دراسة هذا الكتاب السماوى الحديث دراسة سليمة من التخبط الشنيع الذى وقع فيه كثير من المستشرقين ، لعاملين كبيرين لم يذللا فى الأوساط العلمية الأوربية : أولهما ضعف المستشرقين فى اللغة العربية ضعفاً يضحك القارئين لبحوثهم ، والثانى غلبة التعصب الصليبى فى تلك الأوساط . وثالث وهو ما فى نفوس الكثير منهم من الالحاد والعداوة لأصل الأديان ، كل هذا حال بين المستشرقين وبين ما وجهوا أنفسهم إليه فخرجوا للناس فى أوربا بصورة مشوهة للإسلام تزيد فى بغضهم له ولأهله ، وبذلك ازدادت الفرقة بين الشرق والغرب .

ولو أن الجامعات العلمية خلعت عن أكتافها ثياب التعصب المسيحى ، واتجهت إلى هذا الركن من البحث فى الإسلام وعناصره وأهداف كتابه المقدس ، لرأت بعينى رأسها ما هى تجهله الآن ، وهو أن القرآن كتاب اجتماعى إصلاحى أكثر مما هو كتاب عبادة ودين بالمعنى الذى يفهمه البسطاء من العبادة والدين ، فآيات القرآن الاجتماعية أضعاف ، عشرات المرات ، من آيات الصلاة والصوم والحج ، إذ ضعفت عقول قوم عن هضم هذه العبارات وما فيها من أسرار للنفوس والمجتمع .

وبما أن الشرق والغرب الآن تلتحم فيهما العلاقات الدولية وترغمهما على الاتحاد والامتزاج والتضامن والتكافل فى درء الشيوعية والمبادئ الهدامة ، ويأخذان شكل جبهة واحدة ، والإسلام أشد إباء وصلابة ضد المبادئ الشيوعية ويعتنقه الآن أكثر من أربعمائة مليون مسلم . وقد جاء الوقت الذى يحتاج العالم إليه أشد ما يكون من احتياج .

فوجب نفض التعصب ضد الإسلام ، والانتفاع بمبادئه العالمية وكلها عالمية فى خدمة سعادة البشر ورفاهيتهم ، وهذا قول نبى من الانبياء « ويا قوم لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد » فلا يجرمنَّ قادة بريطانيا وأمريكا بغضهم للإسلام وازدراؤهم به أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح أو قوم لوط . وما الحربان العالميتان السابقتان منهم ببعيد . هذا إرشاد القرآن .

وإذا كان العالم الآن على فوهة بركان يوشك أن يضطرب فيلتهم أمما ويمسحها عن وجه الأرض ، كأن لم تكن موجودة من قبل ، فلماذا لا يلجأون إلى كتاب مقدس بين أيديهم ينذرهم ويدعوهم إلى السلام ويقول « والله يدعو إلى دار السلام » ويقول « إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ١٠ - ٤٤ » ويقول « قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون ١٠ - ٥٠ » ويقول « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ، قل فانتظروا إنا معكم منتظرون ١٠ - ١٠٢ » ولا شك أن الحرب الآتية هي حرب إبادة كما يعلمون .

والمشكلة الإنسانية الآن ، هي المشكلة الشائعة في كل زمان ومكان ، وهي أن من يملك لا يعرف ومن يعرف لا يملك . فالمسلمون الآن في أيديهم دستور حكيم عالمي يكفل الأمن والسلام للبشر ، ولكنهم لا يملكون تنفيذه لا في بلادهم ولا بشبه في الروح الدولية العامة لضعف نفوذهم السياسي أولا ولتغلب الإباحية الفاجرة في العالم المتحضر الغالب بتقاليده على الحياة العامة . والإباحية الفاجرة هي العدو رقم (١) للإسلام الذي جاء بصورة جدية عميقة لا يعرف الهوادة في الشرور والفسق وما يسمونه الحرية الشخصية التي يعتنقونها في الغرب كما يعتنقون الطعام والشراب « كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ١٠ - ٣٢ » « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ١٧ - ١٦ » والله يأمر الناس بالرشد والإنصاف فيما بينهم أفرادا وأمما ، وينهاهم عن الفسق والإباحية الفاجرة وهم يعصونه ويحاربونه فسيدمرهم - إن لم يتلافوا أمرهم - تدميرا كما دمر الأمم السابقة ، ونحن نعيش الآن في ديارهم وأرضهم « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ٩ - ٣٠ » .

وهنا أقرر وأنا مطمئن إلى صدق ما أقول أن الأمم الغربية لهذا العهد ترضى أن تسحق سحقاً تاماً بالقنابل الهيدروجينية والذرية ولا ترضى أن تغير شيئا من أوضاعها الحالية في استغلال الشعوب الضعيفة واستعمارها وظلمها وفي نشر الإباحية الفاسقة والانحلال الأخلاقي الفاشي في حياتها الاجتماعية وإلقائهم بالمرأة في ميادين الرجال ... وقواعد الحياة الاجتماعية في الإسلام غير ذلك .

محمد عبد السلام القباني

أستاذ بكلية الشريعة

من ذكريات الميلاد

من الأحداث الكريمة ما يغير مجرى التاريخ الإنسانى ، ويبدل أوضاع الحياة ، ويعدل سلوك الناس ، وينقلهم من ضيق إلى سعة ، ومن قلق الى دعة ، ومن حضيض إلى رفعة ، ومن ذل إلى عزة ، ومن فزع واضطراب إلى هدوء وأمن واستقرار .

ومن أنصع الحوادث التى مرت بالإنسانية ، فغمرتها بالنور والسعادة ، ونقلتها من الضلالة إلى الهداية ، ومن الظلم والفجور إلى العدل والتقى ، ومن حياة عابسة مضطربة مختلة الجوانب والأوضاع ، إلى حياة باسمة هادئة ناصعة الحدود مشرقة المعالم : ميلاد الرسول الأكرم محمد بن عبد الله النبي الأمى الذى أرسله ربه إلى الناس كافة ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » .

لقد نشأ محمد صلوات الله عليه فى بيت طاهر كريم كله صلاح وتقوى وعبادة وتدين . وكان يطلق على أهله أهل الله ، لأنهم جاوروا البيت الحرام وقاموا بأمره وأخذوا أنفسهم بخدمته ، ومن هنا كانت لهم السلطة الروحية التى فرضت على الناس احترامهم ومحبتهم ، وقذفت فى النفوس تبجيلهم وهيبتهم ، وجعلت أقدارهم فوق أقدار الناس . وكان عبد المطلب جده يأمر أولاده بترك الظلم والبغى ويحثهم على مكارم الأخلاق وينهاهم عن دنيئات الأمور وكان يقول دائماً : لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة الله . إلى أن هلك ظالم غشوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة ، فقيل لعبد المطلب فى ذلك فقال : والله إن وراء هذه الدار دار يجزى فيها المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته .

ولما ولد رسول الله سماه جده محمداً ، وقيل له كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك فقال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم .

ولقد تمثلت حياطة الله ورعايته لنبيه ومجتباه أتم تمثيل ، فقد مات أبوه قبل أن يولد ، فولد فى كنف جده عبد المطلب . هذا الرجل البر التقى الذى توسم فيه الخير وتنبأ له بالمجد والعظمة . وتوفى كافله عبد المطلب وهو فى الثامنة من عمره . فقام على كفالته وتربيته عمه أبو طالب ، وانتقل من قلب عاطف رقيق إلى قلب عاطف رقيق ، اتسع له بالحب والعطف

والشفقة أكثر مما اتسع لأبنائه ، فرعاه أحسن رعاية وحفظه أتم حفظ ، فكان لا يأكل إلا معه ويخصه بأطيب الطعام ، ولا ينام إلا إذا كان إلى جانبه ولا يسافر فى تجارة إلا كان فى صحبته وهكذا مما وعته صحائف التاريخ .

وأول عبرة نقتبسها من سيرته وسلوكه : الوفاء الحق الذى عز على الناس أن يأخذوا أنفسهم به وأن يردوا طباعهم إليه . فقد نشأ محمد يتيما فقيراً وكان لذلك أثره فى نظر الناس له وإقبالهم عليه ، فهذا اليتيم لابد له من مرضع تقوم بأمره وتتكفل بحضانته وتؤويه فى باديتها ، ليشتد جسمه ، ويشب عوده ، ويستقيم لسانه ، ويتسع أفقه ، وتقوى طبيعته فى جو البادية الفسيح .

أقبلت النساء على مكة يلتمسن الرضعاء فى عام ممحل مجدب ، وعرض عليهن الأطفال وفيهم محمد . فلا تكاد مرضع تراه حتى تنزوى عنه ولا تكاد رغبة تبدو فيه حتى تخمدها دوافع المادة ومطالب الحياة وإلحاح الحاجة ، وأخذت كل امرأة وليداً توسمت فيه الخير ورجت من ورائه المنفعة . وبقيت امرأة فقيرة بائسة ، أجهدتها الحاجة وألح عليها العوز فى سنة شهباء أكلت الأخضر واليابس وجففت الضرع وأتلفت الزرع وأعطبت الثمر ، تلك هى حليمة السعدية ، وبينا هى تتأهب للرحيل إذا بهاتف من أعماق نفسها يهيب بها ويستحثها أن يكون نصيبها هذا اليتيم الذى أجفلت عنه المراضع وفترت فيه رغبات النساء ، فاستجابت لهذا الهاتف وعادت إلى اليتيم فأخذته وهى أشد ما تكون حاجة إلى وليد ميسور الحال كثير المال . ولكن ببركة هذا المولود ويمن طالعه لم يلبث أن انهال عليها الخير لبناً يدر من ثدييها وحياة تدب فى ضرع ناقتها الهزيلة المسنة التى جففها الجوع والكبر منذ أمد طويل ، فرضيت واستقرت ونعمت حياتها ، ورأى الناس عليها مظاهر النعمة ، فكانوا يعجبون لما أصابها من نعيم بعد بؤس ورخاء بعد شدة ، وفطنت هى كذلك لنعمة الله عليها بهذا الرضيع الأغر الميمون النقيبة ، فكان أثيراً على نفسها حبيباً إلى قلبها محاطا بالإكرام والرعاية من زوجها وأبنائها ، وكانت بنتها الشيماء تخرج به لتلاعبه وتنشد له الأناشيد المحببة .

وقد أرادت أمها ذات مرة أن تعنفها وتلومها على خروجها به فى الحر الشديد ، فقالت يا أماه والله إن الشمس لا تصيبه أبداً ، فقد رأيت غمامة تظله ، إذا وقف وقفت ، وإذا سار سارت ، ومكث عند حليمة حتى تم فصاله وأرجع إلى أهله .

على أنه بعد ذلك لم ينس لحليمة ما قدمت إليه من إكرام، وما أسلفت له من رعاية، لم ينس خدمتها وإخلاصها، فوفى لها أكرم الوفاء وكافأ جميلها وذكر معروفها وبذل لها مما يملك ما قرت به عينها واطمأنت نفسها.

فقد روى أنها وفدت عليه بعد أن تزوج خديجة وشكت إليه الجدب والفقر والحاجة فأعطاها عشرين رأساً من الغنم وبكرات، وفى هذا أنصع الدلالة على ما يكن فى فؤاده من تقدير كريم وعرفان صادق. وكانت بنتها الشيماء من بين من أسر من بنى هوازن بعد حصار الطائف، فلما جيء بها إليه رجع بذكرياته إلى الماضى البعيد وإلى عهد الطفولة السعيد وإلى الزمن الجميل الذى قضاه معها فأكرمها وأعادها إلى أهلها كما رغبت وأحبت.

ذلك مثل كريم من أمثلة الوفاء النادر، يجب أن يتدبره الناس ويتهذبوا عليه فى حياتهم ويتأسوا به فى دنياهم. ويجب حين تطوف بنا ذكرى مولد الرسول الأكرم أن نذكر أكرم صور الوفاء وأروع آيات الإخلاص، فإنه لا يهيج الأحقاد ويورث نار العداوة بين الناس مثل كفران المعروف وإنكار الإحسان.

وهذه صورة أخرى من صور وفائه وإثابته، فإن أهل مكة كان قد أصابهم جدب شديد وحلت بهم ضائقة ماحقة، وكان عمه أبو طالب ذا عيال كثير فآذته تلك الضائقة وأرهقه ما أرهق الناس من شدة وضنك، فلما رأى محمد ما حل به وكان قادراً على أن يمد له يد العون والمساعدة لم يبخل ولم يتردد، فاتفق مع عمه العباس على أن يخففا عنه الحمل وينهضا معه بالعبء، فأخذ العباس جعفراً وأخذ محمد ﷺ علياً، وقام بأمره وما زال عنده حتى بعثه الله نبياً فكان أول صبي آمن به وصدقه.

والعبرة الثانية التى تشرق من تاريخه وتنبجس من حياته، الصبر على المكاره والثبات فى الحق وصدق الجهاد فى سبيل الله.

أوذى فى نفسه وفى صحابته، فلم يلن عوده للخطب يرهقه، ولم يتزعزع ثباته للحدث المدلهم مهما برح الألم. وقال له عمه: ياابن أخى إنا لانستطيع حرب هؤلاء القوم ولا طاقة لنا بخلافهم، فاترك ما أنت فيه ولك ما تحب. فقال تلك الكلمة الخالدة التى وعاها سمع التاريخ: والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه.

فهذه السيرة العطرة وذلك التاريخ المشرق ، يحفل دائماً بأروع الأمثلة فى الصبر على الأحداث والثبات عند الخطوب وعدم الاحتفال للقوة الغاشمة مهما طغت واستبدت .

إنه يذهب إلى الطائف لدعوة أهلها إلى الحق وإلى رب العالمين فإذا بهم يقابلونه أبشع مقابلة ويحيونه أشنع تحية ويغرون به سفهاءهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى يدموا عقبيه ويجلس إلى جوار حائط متعباً مكدوداً ، ثم يتجه إلى ربه قائلا : « اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى » .

ويترك الرسول ﷺ مكة ويهاجر إلى يثرب فتظهر دعوته ، وتنتشر كلمته ، وتسرى فى الآفاق شريعته ، ويداخل قريشاً الحقد والغيظ ، ويدب فى نفوس العتاة الجبابرة مالا يستطيعون دفعه من الكراهية والحسد ، فيلتئم جمعهم ويجتمع شملهم وتتفق كلمتهم على أن يقوموا بعمل حاسم يقضى على الدعوة ويطمس ذلك التاريخ الحافل . وحالف قريشاً جميع القبائل الضاربة حولهم كما حالفهم يهود المدينة والمنافقون منها ، واختارت كل قبيلة أحسن رجالها وخير قادتها ، وزهرة أبنائها ، وخرجوا من مكة وعدتهم اثنا عشر ألفاً على رأسهم أبو سفيان بن حرب وفيهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص .

هنا يتجلى إيمان محمد وحكمته وحسن تدبيره ، يتجلى إيمان قائد يعوزه السلاح وتنقصه العدة فإن أتباعه عراة إلا من لباس التقوى ، ضعفاء إلا من قوة الإيمان ، مجردون إلا من سلاح الحق والثقة برب العالمين ورضا أحكم الحاكمين . استشار الرسول أصحابه . فقال البعض : يا رسول الله ما لنا بهم من طاقة . نعطيهم ثلث ثمار المدينة ليرجعوا عنها . وصاح سعد بن معاذ بكل قوته قائلا : يا رسول الله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

واستقر الرأى على عمل خندق حول المدينة . فأخذوا فى الحفر ، وكان أبو بكر وعمر ينقلان التراب فى ثيابهما لأنهما لا يجدان مكاتل ، ورسول الله يأخذ المعول فيكسر الحجر

الذى يعترضهم فى حفرهم، ثم أخذ الجيش القليل يحرس الشـــلم ورسول الله يحرس ثلمته فى البرد القارس والجوع الشديد.

وفى هذا الوقت العصيب الشديد الذى يواجه فيه المسلمون قوة عاتية طاغية باطشة مجهزة بالخيل والنبل والسلاح وخيرة الفوارس، كان الرسول يطمئن المسلمين ويعدهم بالنصر ويقول: «والله لتفتحن الشام، ولتظهرن عليه ولا ينازعكم أحد، ولتفتحن اليمن، ولتفتحن هـــذا المشرق».

ويزيد على ذلك فيرسل إلى أبى سفيان قائلا: «أما بعد فقديماً غرك بالله الغرور، ولقد ذكرت أنك سرت إلينا فى جمعكم، وأنك لا تريد أن تعود حتى تستأصلنا، وذلك أمر يحول الله بينك وبينه ويجعل لنا العاقبة حتى لا تذكر اللات والعزّى».

ولقد حقق الله لنبيه وعده بالنصر، فأرسل على قريش وأحلافهم ريحاً قوية وعواصف شديدة، كفأت قدورهم وقلبت أخبيتهم وقلعت خيامهم، فانقلبوا راجعين من حيث أتوا، «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً».

وهكذا كل ناحية من نواحي الرسول الأكرم تروع العالم بما فيها من جلال العبرة وسمو الموعظة وحسن الأسوة. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحابته الأمجاد.

عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

أنى لك هذه؟!

قال عالم الصحابة عبد الله بن عمر بن الخطاب:

أهدى أبو موسى الأشعرى الى عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل (زوجة أمير المؤمنين عمر) طنفسة أراها تكون ذراعاً وشبرا. فدخل عليها عمر فرآها، فقال: أنى لك هذه؟

قالت: أهداها إلى أبو موسى الاشعرى.

فأخذها عمر فضرب بها رأسها حتى نفض (أى تحرك واضطرب) ثم قال:

على بأبى موسى الاشعرى، وأتعبوه! فأتى به وقد أتعب وهو يقول:

لا تعجل على يا أمير المؤمنين. قال عمر: ما يحملك على أن تهدى لنسائى؟ ثم أخذها عمر وضرب بها فوق رأسه وقال: خذها، فلا حاجة لنا فيها...

تحديد الملكية في الإسلام

كان الفقه الإسلامي ولا يزال معينا للحاكمين على تحقيق العدل بين الشعوب ، فاتحا لهم باب النهوض بأممهم بنور الحق الذي يستمده من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكثيرا ما جدت في الأرض مشاكل اجتماعية بل علل في جسمها مستعصية لو أن الفقه استشير في حلها لوضح أنه الطبيب النطاسي ولوقيت الأمة كثيرا من الآفات .

ومسألة اليوم : هي تحديد ملك الأراضي ، أي منع الناس من الزيادة على قدر معين فيما يتملكون ، وإجبارهم على بيع ما زاد على هذا المقدار إن كان لهم ملك يزيد عليه ، فما رأي الفقه الإسلامي في هذه المسألة ؟

قرر الإسلام حق ملكية الأراضي واحترمه ودافع عنه وأثبت للمالك حق الانتفاع بأرضه والتصرف فيها . فقد جاء الإسلام وأهل مكة والمدينة في أيديهم دور وأراض يملكونها ، فاحترم الإسلام هذا الملك ورتب عليه آثاره . وفي صحيح البخاري أن قوله تعالى « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم » الآية نزلت في يهودي غصب الأشعث بن قيس أرضه فترافعا إلى النبي ﷺ فلما عجز الأشعث عن البينة طلب يمين اليهودي ، قال الأشعث : إذاً يحلف ويذهب بمالي ، فنزلت الآية . وقوله تعالى « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم » يشير إلى أن أهل مكة أخرجوا بالهجرة من أرض كانوا يملكونها .

ولم يوقف الإسلام هذا الحق عند حد إلا عند الداعية ، فقد كان من الصحابة من أفرط في الثراء كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ولم يتعرض الإسلام له . فقد صالحت إحدى زوجاته الأربعة وهي السيدة تماضر عن ربع ثمنها بثمانين ألف دينار .

وسواء أكان سبب هذا الحق : الشراء أو التبرع أو الميراث ، أما إذا كان السبب هو الإغتنام والإستيلاء بسبب الغلبة في الحرب فقد اختلف فيه المسلمون من عهد الصحابة فمنهم من يرى أنها مملوكة لأهلها الأول . ومنهم من يرى أنها ملك للجند الفاتحين ، ومنهم من يرى أن رقبتها ملك للدولة وللناس استغلالها وعليهم خراجها ، وفي ذلك تروى المناظرة المشهورة بين عمر وبلال رضي الله عنهما في سواد العراق .

كذلك حق تملك الأراضى مقرر محترم بإجماع المسلمين وقد كان مكان مسجد المدينة ملكا لبعض بنى النجار فثامنهم النبى ﷺ إياه .

لا يوقف الإسلام هذا الحق عند حد ولا ينتهى إلى غاية لأن الإسلام يأذن بحرية الكسب الحلال ويشجع عليه ويجعل عمل العامل له بعد أن يوفى لله حقه والدولة ضريبتها منه .

غير أن هذا الحق بطبيعته أمر مباح ، والمباح يظل على إباحته إلا أن تترتب على مزاولته مفسدة أعظم من المصلحة التى شرع من أجلها ، فعندئذ ينقلب المباح محظورا ، كبيع السلاح من أهل الفتنة حيث يعود محظورا لأنه إعانة على الفساد فى الأرض ، وكإحراق فضلات الزرع فى أرضه والريح شديدة ، فإنه يعود محظورا ، لأنه إضرار بالناس ، وهذا كله عمل بقاعدة : إزالة الضرر عن المسلمين ، التى قررها الحديث الكريم « لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام » ، ومن هذا ما روى عن أبى حنيفة من الكراهة التحريمية لأكل لحم الخيل : فانه رحمه الله علله بأنه وإن كان مباحا فى الأصل لكن يترتب عليه مفسدة تقليل آلة الجهاد .

فإذا كان الإفراط فى تملك الأرض الذى هو حق مباح يترتب عليه مفسدة عظيمة وضرر كبير هو حرمان جمهور المواطنين من رزقهم وقوتهم الذى سبيله الزراعة واستثمار الأرض ، على حين ينفق الملاك فيما يفيد وما لا يفيد ويعيشون عيشة الترف والسرف والتبذير فى المحرمات والشهوات أو يكنزونه ويحبسونه عن أفواه الجائعين أو مشاريع الخير ، انقلب ذلك المباح محظورا وملك ولى الأمر سلطة إبعاد الناس عن مزاولة هذا الحق بقانون يسنه أو أمر يصدره ، بناء على ما قررنا من أن زوال الضرر أمر محتوم ينبغى أن تتقيد تصرفات الناس به .

واعتبار الأملاك المجموعة فى أيدى قلة مع حرمان الكثير منها مفسدة كبرى بنص القرآن ، حيث كرهها وجعلها من الآفات التى يجب إخلاء المجتمع عنها . فإن الله تعالى أمر بقسمة الفىء على من ذكرهم فى الآية الكريمة « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » وعلل هذا بقوله « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » يعنى والله أعلم قسمنا الفىء فى الوجوه التى بينا كيلا يكون المال ملكا مجموعا فى يد الأغنياء يتداولونه بينهم ويتغلبون به ويتصرفون فيه بمحض شهواتهم ولا يصل إلى الفقراء منه خير . فاتخاذ المال على هذه الصورة شر مستطير ومفسدة عظيمة ،

أمر الله بقسمة الفيء كى لا يقع الناس فيه . ونهى عنه نهيا صريحا بقوله بعد « وما نهاكم عنه فانتهوا » . وليس الأمر خاصا بالفيء بدليل قراءة الرفع فى « دولة » أى لئلا تقع دولة بين الأغنياء .

إذاً فكون الأراضى دولة بين الأغنياء ، مفسدة ينبغى أن تدرأ باجتناب كل ما يوصل إليها ، فإذا كان حق التملك من غير تقييد بحد معلوم يؤدى إلى تلك المفسدة وجب حظره والمنع منه لأن صاحبه أساء استعماله . نظير ذلك التزوج بأكثر من واحدة فإنه حق أذن فيه الشرع وأباحه لكنه رفع هذه الإباحة إذا ترتب على استعمال هذا الحق مفسدة الظلم « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

بقى علاج تضخم الملك بإجبار المالك على بيع ما زاد على القدر المعقول فما رأى الفقه فيه ؟

عرف الإسلام الإجبار على البيع دفعاً للضرر الخاص كبيع العقار للشفيع دفعاً لضرر سوء الجوار ، والإجبار على بيع ما للمدين لقضاء دينه دفعاً للضرر عن الدائن ، والإجبار على قسمة المال القيمى ، وهى بيع من وجه ، لدفع ضرر تعطيل منفعة الشريك أو نقصها ، وعرف الإجبار على البيع دفعاً للضرر العام كبيع طعام المحتكر لحاجة الشعب إليه وامتناع مالكه عن البيع ، وكبيع أرض بجنب مسجد أو طريق ضاق أحدهما على الناس حيث يجبر صاحب الأرض على بيعها للدولة دفعاً لضرر يلحق مسجد العامة أو طريقهم ، ورووا فى هذا أن أصحاب الأملاك الملاصقة المسجد الحرام أجبروا على بيع أملاكهم للدولة ليوسع بها المسجد على عهد الصحابة ، فكان ذلك إجماعاً منهم على جواز البيع الجبرى دفعاً للضرر ، وبالتالى تحقيقاً للمصلحة العامة . وهذه الأحكام كلها وإن كانت مستثناة من شرط الرضا فى العقود ، مبنية على قاعدة سد الذرائع .

وقد تقدم أن ترك المال دولة بين الأغنياء يتمتعون به فى حلال أو حرام ويتحكمون به فى إرادة الناس ويسلبونهم حريتهم ويحرم منه جمهور الأمة ، قرر القرآن أنه شر مستطير ومفسدة كبرى كما بيناه ، فإذا لم يكن دفع هذا الشر إلا بإجبار المفرطين فى الغنى على بيع أراضيهم جاز ذلك ووسع ولى الأمر أن يفعله ، ونروى فى هذه المسألة أثرا عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يصلح شاهدا لها ودليلا عليها .

روى أبو عبيد فى كتاب الأموال وأبو يوسف فى كتاب الخراج واللفظ لأبى عبيد قال : وكانت بجيلة ربع الناس يوم القادسية فجعل لهم عمر ربع السواد وأخذوه سنتين أو ثلاثا قال : فوفد عمار بن ياسر إلى عمر ومعه جرير بن عبد الله فقال عمر لجرير : يا جرير لولا أنى قاسم مسئول لكنتم على ما جعل لكم ، وأرى الناس قد كثروا فأرى أن ترده عليهم . ففعل جرير ذلك فأجازه عمر بثمانين ديناراً .

وتفسير هذا الأثر مع ما روى عن عمر أنه لم ير قسمة أرض السواد بين الفاتحين : أن هذه الأرض كما صحح النووى فى المنهاج قسمت أولا بين الفاتحين وكانت قبيلة بجيلة منهم ، ثم استردها عمر بعوض وأقر أهلها الأول عليها . والأثر يفيد بصراحته أن عمر استرد الأرض من مالكيها لزيادة السكان حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء ، وإن كانت هناك أسباب أخرى وردت فى الآثار .

هذا ولولى الأمر تحديد أعلى المقدار الذى يصح أن يبقى فى يد الغنى متوخيا فى ذلك العدل بين أفراد المجتمع .

هذا هو البحث كما استلهمنا فى تخريجه نصوص الشريعة وأصولا وضعها الأئمة وقواعد أحكموها وأشباها فرعوها والله يفتح لنا باب هدايته .

أحمد فهمى أبو سنة
مدرس بكلية الشريعة

الطريقة الاسلامية فى قبول المنافع

روى الإمام أحمد أن عبد الله بن السعدى (وكان نزيلا فى الأردن من أرض الشام) قدم على عمر بن الخطاب فى خلافته ، فقال له عمر : ألم أحدث أنك تلى من أعمال الناس أعمالا ، فإذا أعطيت العمالة (أى الراتب أو المكافأة) كرهتها ؟ قال ابن السعدى . — قلت : بلى !

قال عمر : فما تريد إلى ذلك ؟ قال : إن لى أفراساً وأعبداً ، وأنا بخير ، فأريد أن تكون عمالتى صدقة على المسلمين . قال عمر : فلا تفعل . إنى كنت أردتُ الذى أردتَ ، فكان النبى ﷺ يعطينى العطاء فأقول : أعطه أفقر إليه منى . حتى أعطانى مرة مالا ، فقلت : أعطه أفقر إليه منى : فقال النبى ﷺ : « خذه فتموله وتصدق به . فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل ، فخذه . وما لا ، فلا تتبعه نفسك » .

حاتم الأصم

كانت وفاته سنة ٢٣٧ هـ واسمه : أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان الأصم [١] . وهو من أهل بلخ [٢] ، وكان أوحد من عرف بالزهد والتقلل ، واشتهر بالورع والتقشف ، وله كلام مدون فى الزهد والحكم ، وأسند الحديث عن شقيق ، وشداد بن حكيم البلخيين ، وروى عنه حمدان بن ذى النون ، ومحمد بن فارس البلخيان .

وكانت حكمه وعظاته تتناقلها الرواة ، ويتحدثون بها فى المجالس حتى تصل إلى بغداد ، وكان له كلام عجيب يسمو سمو النفس البشرية ، ويتعالى عن دركاتها . قدم بغداد فاجتمع إليه أهلها ، فقالوا : يا أبا عبد الرحمن ، أنت رجل أعجمى ، وليس يكلمك أحد إلا قطعته ، فلأى معنى هذا ؟ فقال حاتم : معى ثلاث خصال ، بها أظهر على خصمى ، فقالوا : أى شىء هى ؟ قال : « أفرح إذا أصاب خصمى ، وأحزن له إذا أخطأ ، وأحفظ نفسى فلا أتجاهل عليه » . وبلغ هذا الكلام أحمد بن حنبل فقال : سبحان الله ما أعقله من رجل !

وكما سمع أحمد بن حنبل بحاتم الأصم ، سمع حاتم به ، إلا أن حاتما سبق فضله فبدأ بزيارته ، وسعى إليه . قال أبو جعفر الهروى : كنت مع حاتم مرة ، وقد أراد الحج ، فلما وصل إلى بغداد قال : يا أبا جعفر : أحب أن ألقى أحمد بن حنبل ، فسألنا عن منزله ، ومضينا إليه ، فطرقت عليه الباب ، فلما خرج قلت : يا أباعبد الله : أخوك حاتم ، فسلم عليه ، ورحب به . وقال له بعد بشاشة له : أخبرنى يا حاتم ، فيم التخلص من الناس ؟ قال يا أبا عبد الله فى ثلاث خصال ، قال : وما هى ؟ قال : أن تعطيهم مالك ، ولا تأخذ من مالهم شيئاً ، وتقضى حقوقهم ، ولا تستقضى منهم حقاً ، وتحمل مكروههم ، ولا تكره أحداً منهم على شىء . قال : فأطرق أحمد ينكت بأصبعه الأرض ثم رفع رأسه وقال : يا حاتم إنها لشديدة ، فقال له حاتم : وليتك تسلم ، وليتك تسلم !

---

(١) غلب عليه اسم الأصم لنادرة جرت بين يديه . جاءته امرأة ، فسألته عن مسألة فاتفق أن خرج منها فى تلك الحالة صوت ، فخجلت ، فقال حاتم : ارفعى صوتك . وأرى من نفسه أنه أصم . فسرت المرأة بذلك ، وقالت : إنه لم يسمع الصوت !

(٢) قاعدة خراسان .

بهذا تجرد حاتم من الأثرة ، واستعان بعزيمته وشحذ إرادته ، حتى استطاع أن يتخلص من شهوات النفس العارمة ، وقضى على نفسه أن تلتزم هذه الحدود الثلاثة ، ويتشوق إلى سماعها الإمام الورع التقى أحمد بن حنبل ، فيجدها صعبة على نفسه ، ويقول : إنها لشديدة !

ويقصده سائل فيقول له : على أى شىء بنيت أمرك ؟ فيقول : على أربع خصال ، يعتقدها المرء ولا يحيد عنها فى اعتقاده ، ثم يحبل نفسه على تتبعها ، والعمل بها ، على ألا أخرج من الدنيا حتى استكمل رزقى ، ولا يأكله غيرى ، وعلى أن أجلى لا أدرى متى هو ؟ وعلى ألا أغيب عن الله طرفة عين .

وكان اشتهر من أمره أنه يجوز المفاوز بغير زاد . فقال له رجل فى ذلك ، فقال : بل أجوزها بالزاد ، وإنما زادى فيها أربعة أشياء ، قال : وما هى ؟ قال : أرى الدنيا كلها ملكا لله ، وأرى الخلق كلهم عباد الله وعياله ، وأن الأسباب والأرزاق بيد الله تعالى . وأرى أن قضاء الله نافذ فى كل أرض الله ، فقال له الرجل : نعم الزاد زادك يا حاتم أنت تجوز به فى مفاوز الآخرة .

وكان يحمل على نفسه ، ويتيسرها على ما يريد ، ولو كان فى ذلك انقطاع الجسم ، وإعياؤه ، ما دام ذلك يقربه إلى الله تعالى .

كان ظاعنا إلى مكة ، وجعل على نفسه — إن قدمها — أن يطوف حتى ينقطع ، ويصلى حتى ينقطع ، ويتصدق بجميع ما معه ، ولندعه يكمل لنا القصة فيقول :

« فلما قدمت مكة ، صليت حتى انقطعت ، وطفت كذلك ، فقويت على هاتين الخصلتين ، ولم أقو على الأخرى ، كنت أخرج من هنا ويجىء من ههنا » .

وكان ببلخ — والفصل شتاء — فمكث فى بيته ثلاثة أيام مع أصحابه ، ثم قال : ليخبرنى كل رجل منكم بتهمته ، قال : فأخبرونى ، فإذا ليس فيهم أحد إلا يريد أن يتوب من تلك التهمة . ثم قالوا له : ما تهمتك أنت يا أبا عبد الرحمن ، فقال : تهمتى ألا شفقة لى على إنسان يريد أن يحمل رزقى فى هذا الطين ، وإذا برجل قد جاء ، ومعه جراب خبز ، وقد زلق ، وامتلأت ثيابه طينا ، وقال : يا أبا عبد الرحمن خذ هذا الخبز !

وكان فى موضع التلف ، وموطن الجزع ، لا يتغير أو يتحول ، وفى ذلك يقول :

خرجت فى سفر ، ومعى زاد ، ففقد زادى فى وسط البرية فكان قلبى فى السفر والحضر واحداً .

وروى كأنما لا يسعى لرزق ، ولا يجشم نفسه مشقة الحصول عليه ، فقيل له : من أين تأكل ؟ فقال : « ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون » .

وهو يعلم أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، ولا تخالجه ريبة فى ذلك ، مع أن له أربع نسوة ، وتسعة من الأولاد ، وفى ذلك يقول : ما طمع الشيطان أن يوسوس إلى فى شىء من أرزاقهم .

وكان حاتم من هؤلاء الأبطال الذين يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ويحدثنا حديث الرجل المؤمن عن حادث طريف جرى له فى إحدى الغزوات ، قال : لقينا الترك ، فكانت بيننا جولة ، فرمانى تركى بسهم ، فقلبنى عن فرسى ، ونزل عن دابته ، وقعد على صدرى وأخذ بلحيتى هذه الوافرة ، وأخذ من خفه سكيناً ليذبحنى بها ، فوحق سيدى ، ما كان قلبى عنده ولا عند سكينه ، إنما كان قلبى عند سيدى ، أنظر ماذا ينزل به القضاء منه ، فقلت : يا سيدى ، قضيت على أن يذبحنى هذا ، فعلى الرأس والعين ، إنما أنا لك وملكك . فبينما أنا أخاطب سيدى ، وهو قاعد على صدرى ، وقد أخذ بلحيتى ، إذ رماه بعض المسلمين بسهم ، فما أخطأ حلقه ، فسقط عنى . فقمت أنا إليه ، وأخذت السكين من يده ، وذبحته بها ، فما هو إلا أن تكون قلوبكم عند سيدكم ، حتى تروا من عجائب لطفه ما لم تروا من الآباء والأمهات .

وجاء إليه رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، أى شىء رأس الزهد ، ووسط الزهد ، وآخر الزهد ؟ فقال حاتم : « رأس الزهد الثقة بالله ، ووسطه الصبر ، وآخره الإخلاص » .

ومن كلامه رحمه الله تعالى : لو أن صاحب خبر جلس إليك ليكتب كلامك لاحترزت منه ، وكلامك يعرض على الله فلا تحترز منه ؟!

عبد الله قاسم صقر
من علماء الأزهر الشريف
ومدرس بالساحل الثانوية

حاجة الشرق إلى حكم صالح

يدهش الناس . أن يروا الشرق قد تخلف عن الغرب فى كل ناحية من نشاط الحياة ، الشرق مهبط وحى السماء ، الذى تلقى الأديان ديناً إثر دين ، فتفهمها ، وتمثلها ، وبشر بها ، ونشر ألويتها بين العالمين ، الشرق الذى عرف الخالق فعبده ، وإنسان العالم يسير قطعاناً تمرح فى الجبال والأودية ، أو الغابات والأحراش .

الشرق مهد الحضارة والمدنية الإنسانية ، فيه نشأت ومنه انتشرت ، وعنها أخذت الدنيا وعليها تتلمذ العالم ، وتأثر خطى الشرق فيها فتمدن وتحضر ، بعد أن كان إنسانه يأكل لحم أخيه الإنسان .

الشرق رب الفلسفات والثقافات . انبثقت فيه أصول العلم والمعرفة ، الشرق الذى يضم مصر مخترعة الكتابة ، ومدونة العلم ، ومعلمة البشرية ، ومنها ومن بابل وآشور وكلديا وفينيقيا ، ثم من الهند والصين ، أخذت أضواء العلم تبدد حجب الظلام ، كما أخذت أنوار المعرفة ترسل بأشعتها إلى كل مكان ، فرسمت للبشرية خطوط الخير والجمال ، ودفعت بها إلى النهوض والترقى ، ودانت الدنيا بإنسانيتها للشرق العتيد .

الشرق : الشرق فى روحانيته المتغلغلة المستقرة فى أعماق أعماقه ، وفى فلسفاته الدينية والمادية ، وفى تقاليده السياسية القوية ، وعاداته الاجتماعية المثالية ، سيد العالم عصوراً تلو عصور ! ! !

هو هو الشرق بعينه اليوم ، الشرق المتأخر عن العالم فى كل نواحى الحياة ! ! فالأديان التى رفعت من شأنه ، واعتز بها وساد ، هى هى قارة فيه لم تزايله ؛ وعلومه وفلسفاته ، وتقاليده وعاداته ، إن امتدت إلى غيره فإنها لم تهجره ؛ ترى ماالسبب إذن فى تأخره وأديانه هى أديانه ، وفلسفاته هى فلسفاته ؟ فلنواجه الحقيقة جادين ، لنتعرف إلى مواطن الداء ، حتى ننجح فى وصف الدواء !

* * *

أما الغربيون فقد ردوا تأخر الشرق عن ركب الحضارة إلى ذاتية أديانه : وطبيعة

فلسفاته ، ثم خصصوا فردوا ضعف المسلمين وتأخرهم إلى طبيعة مبادىء دينهم وعلومهم .
وفاتهم أو فات بعضهم أنهم من قبل ، قد نسبوا قوة الشرق ، وقوة المسلمين إلى ذاتية دينهم ، وطبيعة فلسفاتهم ، ثم إلى مافى مبادىء الإسلام من قوة وعزة ، ووسائل تربية قويمة ، فهل تصبح أسباب القوة والعزة ، بذاتها وظروفها وكيفياتها ، هى نفس أسباب الضعف والذلة والتخلف عن ركب الحضارة ؟ ألا إن الحق لا يكون باطلا ، وإن الخير لن يكون شراً ، ولن يتصور ذلك عقل مكتمل ، ولا بصيرة سليمة !!

وأما المستغربون الذين تربوا على لبان الغرب وأفكاره ، ورغبوا فى أن يظهروا أنفسهم فى مسوح الشرقيين الوطنيين المستنيرين المجددين ، فقالوا : إن تلك الأديان والفلسفات كانت أسباب قوة فى أزمنتها ، أمااليوم فقد تغيرت أحوال الشرقيين وظروفهم ، وتطوروا ، وتطورت بيئاتهم ، واقتضى ذلك التجديد فى الدين ؛ وفى التشريع ، لأن ما صلح بالأمس لبيئة لايصلح اليوم لأخرى ، وهؤلاء الذين فسدت شرقيتهم باللقاح الغربى ، والذين لم يرضعوا لبان الشرق والإسلام ، فاتهم أن الطبائع ثابتة ، وأن ما بالطبع لا يتغير ، وأن التطور غير التغير ، وأن مشرع الدين ، ومنظم شرائع الإسلام دائم خالد ، عليم بالطبائع والتطورات ، وقد اقتضت حكمته أن تواجه تشريعاته كل زمان ومكان ، فوضع لكل حال حالا . ولكل داء دواء ، وتوخى صلاحية المبادىء للتطبيق ، وإن تطورت البيئات واختلفت الظروف والأحوال ؛ كما فاتهم ما أجمع عليه الربانيون ، والعلماء الإنسانيون ، من أن القانون الذى اتفق على صلاحيته ، لا يقلل من احترامه مخالفة البعض أو الكل لمبادئه ، لأن الجريمة قديمة فى طبع الإنسان ، ولولا وجود جراثيمها فى طبائعه لساد الخير العالم كله . ولما كانت هنالك حاجة إلى تشريع أو تقنين . فمخالفة القانون . أو مخالفة الدين . لا تقدح فى القانون ، ولا تطعن فى الدين ، وإنما تقدح وتطعن فيمن التزموا بتطبيق مبادئه ، وتحكيمها فى حياتهم العامة !

وأما المستسلمون فقالوا : هذا قدر مقدور ، وعلينا الرضا بما قدره الله علينا . وفاتهم أن الله قد دعاهم إلى الاستمساك بأسباب القوة والعزة ، وتوعدهم بالنكال إن جنحوا إلى الضعف والذلة ، وأن الله لايرضى بفساد ، ولا يأمر بفاحشة ، ولا يرضى لهم الكفر به ولا بنعمه ، كما لايرضى أن يرتضوا لأنفسهم الظلم والاستعباد لغيره ، دعاهم إلى ذلك لأمر جلى لاغموض فيه . هو أنه اختارهم له جنوداً ، وجند الله هم الغالبون الأعزة وأهل السيادة . وهو ولى الذين آمنوا .

ولا ولاية لغيره عليهم وهم حزبه وحزب الله هم المفلحون . أصحاب الغلبة والعزة والسيادة!

وإذن ماذا نريد ؟ أريد أن أقول : إن فساد الحكم فى الشرق ، فى مبادئه . وفى أساليبه ، هو سر البلاء . ومرد نكبة الشرق وآلام الشرقيين والمسلمين خاصة ! !

إن الأديان والدساتير - مهما سمت مبادئها وتقررت صلاحيتها - لا تكون لها القوة الدافعة إلى التوجيه ، ما لم يوجد المؤمن بها القادر على التوجيه . إذن أن المبادىء وحدها لا تسير ، ولا تقتحم الميادين ، دون مؤمن متقحم ، ولهذا جاء إرشاد الله سبحانه لعباده ، أن يوجدوا بينهم القدوة الحسنة ، على مثال القدوة التى أوجدها لهم « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » والقدوة الحسنة هى القيادة الرشيدة التى توجه المجتمع إلى الخير ، وتحمل الأفراد بسلوكها الخاص ومنهجها فى الحياة ، على ابتغاء ما تبتغيه من خير ، واستهداف ما تهدف إليه من صالح الجماعة . والسيرة العملية للقائد . والقدوة ، أقوى تأثيرا فى نفوس الأفراد من قوة السيف ، وضغط الحديد والنار وبها يقرع القائد أشمخ آناف المخالفين الذين يبتغون العاجلة ، ويفضلون مصالحهم على مصلحة الجماعة ، ولتنظر - رعاك الله ورعانى - ماذا فعلت القدوة الحسنة فى العام الخامس عشر من الهجرة ، عام المجاعة التى اجتاحت أرض العرب ، المجاعة التى ألصقت أيدى المسلمين بالتراب ، حتى سموا عامها : عام الرماد أو الرمادة ! ! هال الأمر عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، وفى يديه ذهب الدنيا وخيرها ، ولو شاء نعيمها لأغرقه فيه أصغر أمرائه فى الشرق أو الغرب ، ولكن الرجل أقسم بالله لا يذوق سمنا ولا عسلا ، ولا لحما ولا شحما ، ولا يطعم غير ما يطعم المسلمون حتى يحيا الناس . ولعل كلمته « حتى يحيا الناس » ترشدك إلى أنها كانت مجاعة مميتة فتاكة ! وظل عمر مقيما على قسمه « حتى هزل جسمه ، وشحب لونه ، واعرورق وجهه » فاجتمع كبار الصحابة : سعد والزبير وغيرهما من زعماء القوم ، وقرروا أن يحملوا الخليفة على التحلل من قسمه لأن حياته ملك للمسلمين لا له . ثم ذهبوا إليه ، وخاطبه فى ذلك سعد فقال : يا أمير المؤمنين تبلغ ببعض الأدم لمصالح المسلمين ، فحياتك خير لهم وبركة ! فصرخ عمر فى وجوههم قائلا : أوقد قلتموها ؟ ! لا والله لا أذوق شيئاً مما ذكرت ، لا أشبع الله بطن عمر إن أكلت مالا يأكل الناس ، بئس الحاكم أنا إن شبعت وقد جاع الناس ! ! لم إذن كنت إماما ؟ وكيف أصلح للناس قدوة ، إذا لم يمسسنى ما مسهم ، ولم يصبنى ما أصابهم ؟ ! ثم انظر إليه وهو يوصى عامله الأشعرى بأن يكون خير قدوة للناس : « وإياك أن تكون كالبهيمة مرت بواد خصيب فجعلت همها فى السمن ، ومادرت أن حتفها فى السمن » ولقد استقام له الأمر ،

فاستطاع أن يربط عزة المسلمين بأسباب السماء ، وكانوا خير أتباع لخير قدوة ، جعلوه مثالهم وإمامهم فى كل شىء فعزوا به ؛ واعتز بهم جميعا دينهم ووطنهم ! !

وليس الحكم فى الحقيقة غير هذه القيادة الرشيدة - لأنه كما يقولون : مأخوذ من حكمت الدابة أى ضبطت سيرها ، ووجهتها إلى الخير والرشد ، فإذا لم يكن الحكم كذلك فهو تحكم لا حكم ، تحكم يقوم على الاستعباد والاستغلال .

ومنذ صار حكم المسلمين تحكما ، أى منذ اعتقد الحكام أنهم أسمى وأرفع من المحكومين ، وأن الحكم حق وراثى لهم يرثونه مع المتاع والضياع عن آبائهم ، منذ صار الحكم ملكا لا صلة له بالدين . منذ ذلك الحين والشرق الإسلامى بصفة خاصة يمعن فى الانحلال ، والتحلل من المثل الرفيعة جريا وراء الملوك المنحلين ، والامراء الفاسدين ، فكانوا لقمة سهلة على المستعمرين .

إن نظم الحكم فى بلاد المسلمين عامة ، نظم فاسدة ، لا تتفق مع طبيعة الشرق ولا مقررات الإسلام فى الحكم والقيادة ، هى نظم مسيحية ، أخذها المخدوعون من المسلمين عن الغربيين ، ليبتعدوا بها عن مقررات الإسلام فى الحكم والتوجيه ، لأن ذلك فى نظرهم « رجعية » وجمود على الإلف . وإننا فى عصر نور وتجديد ، ولا يصح منا أن نقول ما عابه الإسلام على أهل الجاهلية « إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » ولم يعلم هؤلاء أن الغرب قد أخذ الأسس التى بنى عليها حياته السياسية عن الإسلام ! هم لم يأخذوا الإسلام وإنما أخذوا منه ما ينفعهم على الرغم من عداوتهم الإسلام ، فما بالنا نأخذ عنهم أسوأ ما عندهم ، ونقتطع مما أخذوا أصله من عندنا ، وعندنا نحن الاصل الكريم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

لقد ثبت منذ عشرات السنين فساد الأثرة كنظام للحكم فى الشرق الإسلامى ، كما ثبت ظلمه وخلقه للمشاكل بين المحكومين ، وكما ثبت فساد الحكم الذى يستند إلى الديكتاتورية البرلمانية ، سواء كان لونه ملكياً أو جمهورياً .

كذلك لا يستند الحكم فى الشرق إلى العناصر الطبيعية ، فكما فقد عنصر القدوة ، فقد عنصر الأهلية ، ولا نعنى بالأهلية الكفاية والقدرة ، وإنما نعنى الأهلية الفطرية ، وهى أن يكون حاكم الإقليم من أبنائه وأهله ، كما فقد عنصر الانسجام والتجاوب بين الحاكمين والمحكومين .

وإذا كان الإسلام هو الطابع العام للشرق فإن نظم الحكم فيه تتجافى مع نظام الإسلام .
وسنعرض لذلك كله بالتفصيل فى كلمة تالية ، والله يوفقنا إلى الحق ويهدينا إلى الرشد .

محمود فياض

مولد منقذ الإنسانية محمد رسول الله

١

فى فجر يوم الاثنين لاثنى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، أو لتسع ليال مضت منه ، كما يذهب إليه الكثير من الباحثين (وذلك يوافق العشرين من شهر أبريل عام ٥٧١ م) .

فى هذه اللحظات الخالدة فى تاريخ البشرية ، ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى ، ولد الطفل الذى هتفت بذكره الأرجاء ، وسجل مواقفه الرائعة التاريخ ، وأنصتت لحديثه الدنيا ، واهتزت لأنباء جهاده فى بلاد العرب وما حولها الأمراء والملوك والأكاسرة والقياصرة ، وآمنت بمبادئه وكبرت لشريعته الحياة والناس أجمعون .

ولقد ألهم الله أمه آمنة أن مصير العالم سيكون بعد قليل فى يدى طفلها الوليد هذا ، وأن اسمه سيحتل الصفحات الأولى فى سجل تاريخ الإنسانية ، وأن عصوراً جديدة توشك أن تبدأ ويكون بطلها الأول محمد بن عبد الله .. فأرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام ، فأتاه فنظر إليه وحدثته بما فى قلبها وما تزدحم به مشاعرها من شتى البشريات ومختلف الذكريات ، فأخذ عبد المطلب طفله ودخل به الكعبة ، وقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه ، ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها ، وقال لها : لقد سميته محمداً ليحمد فى الأرض والسماء .. وفى اليوم السابع لمولده ختنه جده كما كان العرب يفعلون .

والتمس عبد المطلب لطفله مرضعاً من نساء البادية ، وكان من عادة العرب أن تلتمس المراضع لأولادها فى البادية : فاسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر ، وهى حليمة ابنة أبى ذؤيب ، وكان زوج حليمة هو الحارث بن عبد العزى وكان يكنى بأبى كبشة ، وكان إخوة محمد من الرضاعة : عبد الله بن الحارث وأنيسة بنت الحارث وخذامة بنت الحارث .

وأقام محمد مسترضعاً فيهم قريباً من أربع سنين ؛ وكانت حليمة تحدث أنه ما حملها على أخذ هـذا الطفل اليتيم لتقوم برضاعه إلا أنها لم تجد غيره ، وأنها قالت لبعلها وهى فى مكة

تبحث عن طفل تذهب به : « والله إنى لا كره أن أرجع من بين صواحبى ، ولم آخذ رضيعاً ، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه » ، فقال لها زوجها : « لا عليك أن تفعلى ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة » ؛ فذهبت إليه فأخذته ، وكانت حليمة ترى الخير والنماء والبركة منذ مقدم هذا الطفل إلى حيها ؛ وكان محمد يشب شبابا حسنا ؛ وكان رضاعه عامين فلما نفدا وفدت به على أمه بمكة ترجو أن ترجع به ليقيم معها فى البادية زمناً آخر ، فلما مضت أشهر معدودة من عودته مع حليمة ذهب ليلعب مع أخيه خلف البيوت ، وسرعان ما قدم أخوه إلى أمه حليمة يشتد ، وهو يقول لها ولأبيه : « ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثيابٌ بيض ، فأضجعاه ، فشقا بطنه ، فهما يسوطانه » ، فخرجت حليمة وبعلها نحوه ، فوجداه قائماً منتقع الوجه ، فالتزمته والتزمه أبوه ، فقالا له : « مالك يا بنى ؟ » ، قال : « جاءنى رجلان عليهما ثيابٌ بيض ، فأضجعانى ، وشقا بطنى ، فالتمسا شيئا لا أدرى ما هو . فخافت حليمة وزوجها على محمد .

ولما عادت به إلى مكة ، قصت على أمه قصته ، فقالت آمنة لحليمة : « إن لابنى لشأنا ، ولقد رأيت حين حملت به نورا خرج منى فأضاء لى قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به ، فوالله ما رأيت من حمل حاملة قط كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض ، رافع رأسه إلى السماء ؛ دعيه عنك وانطلقى راشدة » .

٢

وأقام الغلام مع أمه فى كلاءة الله وحفظه ، ينبته الله نباتا حسنا لما يريد به من كرامته . فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بالأبواء بين مكة والمدينة ، وكانت قد قدمت به على أخواله من بنى عدى بن النجار تزيره إياهم ، فماتت وهى راجعة به إلى مكة ؛ واستمر فى كفالة جده عبد المطلب يرعاه ويحبه ، ويجلسه معه على فراشه فى ظل الكعبة وبنو عبد المطلب يجلسون حول الفراش ، لا يستطيع أحد منهم الجلوس عليه مع عبد المطلب وطفله محمد ، وكان عبد المطلب يقول : « دعوا ابنى فوالله إن له لشأناً » .

ولما بلغ الغلام ثمانى سنين مات عبد المطلب بن هاشم ، وورث مفاخره ابنه العباس ، وصار محمد بعد عبد المطلب فى كفالة عمه أبى طالب .

وكان أبو طالب سيدا من أجل سادات قريش وبنى هاشم ، وكان الناس يتنبأون أمامه بمستقبل جليل لهذا الغلام الصغير ، وأنه سيكون له شأن وأى شأن . ولما سافر بمحمد

إلى الشام فى تجارته ، وقابله بحيرا الراهب قال بحيرا لأبى طالب : ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

وحفظ الله محمدا وعصمه من أقذار الجاهلية ، وصار أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأكرمهم حسبا ، وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم عن الفحش والدنس ، وأكثرهم أمانة ، حتى سماه قومه « الأمين » .

وخاض مع قومه حرب الفجار وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، واشترك فى حلف الفضول على نصرة المظلوم ، وتزوج خديجة بنت خويلد الأسدية وهو فى الخامسة والعشرين من سنى حياته الميمونة ، وهدمت قريش الكعبة لتجدد بناءها واختلفوا فيمن يكون له شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه فكان محمد الحكم بينهم ، وارتضى حكمه الناس جميعاً ، وكان إذ ذاك فى الخامسة والثلاثين .

وكان يعبد الله على الحنيفية البيضاء دين إبراهيم وإسماعيل ، ويتعبد فى غار حراء الليالى ذوات العدد ، فلما بلغ الأربعين اختاره الله لرسالته العظمى ، واصطفاه ليحمل أمانة الله ووحيه إلى الناس كافة ، وليكون خاتم المرسلين وخير النبيين ، ونزل عليه جبريل بالوحى وهو فى حراء يوم الاثنين لسبعة عشرة ليلة خلت من رمضان (٦ أغسطس ٦١٠ م) وعمره إذ ذاك أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام . قال له جبريل :

اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » ، وسمع الصوت مجلجلا فى السماء : « يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل » .

وبلغ محمد قومه رسالة ربه ، فآمن من آمن ، وجحد من جحد ، وظل يدعو إلى الله سراً ، وهو فى قومه ، ثلاث سنين ، أجابه فيها عدد قليل من الرجال والنساء والأطفال والمستضعفين ، ثم جهر بالدعوة ، وصمد لإيذاء قريش عشرة أعوام أخرى ، ثم هاجر من مكة إلى المدينة مبشراً بدين الله ، وداعيا إلى شريعة الإسلام والحق والخير والمساواة .

٣

وانتصر محمد فى المدينة فى معارك كثيرة : انتصر فى حربه مع المنافقين واليهود والذين يعملون على وأد الإسلام دعوة الحرية والطهر والسلام ؛ وانتصر فى حربه مع الشرك والوثنية ففتح مكة وحطم الاصنام والأوثان وجعل كلمة الله والتوحيد هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ؛ وانتصر فى الحروب التى فرضتها عليه القبائل العربية فمزق الحصار

تلو الحصار عليه وعلى جيشه الظافر ؛ وانتصر فى الميدان السياسى انتصاراً باهراً ، فجمع العرب كلها فى وحدة واحدة وتحت ظلال سياسة إسلامية كريمة واضحة الأهداف والنزعات الإنسانية العالية : وانتصر فى ميادين الإصلاح والاجتماع ، فألف بين القلوب ، وداوى المزمن من الأمراض ، وأطفأ نزعات القلوب واستل ماطويت عليه من حقد وخصومة وإحن .

وأقام اشتراكية بارعة تجمع بين الغنى والفقير برباط المحبة والتعاون والإخاء ويشارك الفقراء فيها الأغنياء ، والأغنياء الفقراء ، مشاركة فعالة ملهمة حافزة على العمل لخير المجموع الإنسانى وسعادته ، وأقام المجتمع الإسلامى على أصول متينة قوية لا يعتريها الضعف والوهن ، أصول تجمع بين النظام والحرية والشورى والإيثار والتضحية وحب الجماعة وتقديس حقوق الفرد ، وبين العدالة والإنصاف والحرص على كرامة الناس و طمأنينتهم ورفاهيتهم وتقدير كل ذى كفاية وموهبة وكل عامل يعمل الواجب ويشعر بالمسئولية ويقدس مصالح الناس وحقوقهم . وحارب محمد الفقر والجهل ، ودعا إلى أنبل الأخلاق وأسمى الفضائل وأكرم الأعمال ، وقضى على الفساد فى مختلف ألوانه ، وطهر الحياة من الأدران والآثام والفوضى والاستغلال ، ونشر دين الله ، وبشر بكتاب الله ورسالته ، ووجه العرب لدعوة الأمم إلى هذه الشريعة المطهرة ، وتلك العقيدة الكريمة ، فلم تمض أعوام قلائل بعد وفاته ، حتى فتحوا الشام ومصر والعراق وبلاد الفرس ، ثم أخذوا يسيحون فيما وراء هذه الأقطار ، داعين إلى كلمة الله ، محطمين للأغلال والوثنية والشرك والاستعباد ، ناشرين العدالة بين الأمم كافة ، مضحين بكل عزيز لديهم فى سبيل إنقاذ البشرية وهداية الإنسانية ؛ كل ذلك بدافع الإخلاص لله ولرسوله الكريم ولكتابه الحكيم .

فما أعظم هذا الرسول العربى الأمى الذى بدّل سير التاريخ ، وحوّل مجرى الحياة ، وقضى على عصور الوحشية والجاهلية المظلمة ، وحارب كل استغلال جشع ، وإقطاعية مفترسة ، وهمجية متنمرة ، ووثنية مضللة .

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، ما أضاء النهار وأظلم الليل : وهدى به أمته إلى خير الأعمال والعقائد ، وإلى سعادة الأولى والآخرة ، إنه أكرم مأمول ، وأجل مسئول ، وما توفيقنا إلا بالله ...

محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بكلية اللغة العربية

روضة الشعر

في مولد الرسول الأعظم

عُلِّمتَ بالوحي لا باللوح والقلم ... علماً خصصت به من بارىء النسم

به طلعتَ كشمس غير آفلة ... أو كالرحيق بدا بالكأس من أمم

يا أكرم الناس ، منك الجود مقتبسٌ ... ودأبك العفو في حربٍ وفي سلم

في بيئة كان فيها الجهل منتشرا ... وعمَّ فيها سجـود القوم للصنم

والخمر رائجـةٌ والفسق مشتهرٌ ... والحق عنه بنو عدنان في صمم

كنت البعيد عن الأوثان تبغضها ... كنت الحكيمَ إن احتاجوا إلى الحكم

كنت العفيف عن الفحشاء تمقتها ... أما الحديث فقالوا صادق الكلم

والخمر ما عرفت يوماً لكم شفةً ... وكيف تشرب أم الشر والسقم

هـذي بدايتكم بالفضل ناطقةٌ ... تنبي البداية عن وحيٍ وعن حِكم

وفي حراء أمين الوحي جاءكم ... فوجئتَ بالوحي لا بالسحر واللمم

وضمكم ضم إعـداد وتهيئة ... وقال قولةَ معصوم لمعتصم

ولابن (نوفل) تصديقٌ ببعثتكم ... ينفي الظنون وينفي سائر التهم

عدلت قبل نزول الوحي فاحتكمتْ ... إليك مكة لم ترفض ولم ترم

فاحكم به حكمك المأمون من خطأ ... وارفع كتابك رفع الجند للعلم

ففي كتابك أسمى ما يهذبنا ... من السياسة والأحكام والنظم

وفي حديثك جلَّ الله ملهمه ... تأديب مستمعٍ تثقيف ملتزم

ومنهما دام نور الحق مرتفعاً ... ففي الدساكر أنوارٌ وفي الأطم

رفعت للحق في الدنيا منارته ... شتان بين منار الحق والهرم

محمد عبد القادر
واعظ القاهرة

مملكة تقلى

١

فى الركن الجنوبى من مديرية كردفان ، توجد منطقة جبلية ، تسكنها قبائل النوبا . وفى الركن الشمالى الشرقى من هذه المنطقة توجد جبال تقلى ، حيث نشأت مملكة تقلى فى أواسط القرن السادس عشر ، تلك المملكة المجيدة التى نشرت الإسلام فى هذه الاصقاع الوعرة النائية .

وجبال تقلى تطلق على مساحة من الارض ، يبلغ اتساعها أربعين ميلا مربعاً ، وتقع فيها الآن قرى كيريا Keraia ، والهوى el Hoi ، وتاسى Tasi ، وجوليا Juluia . ولهذه البلاد جاذبية ، حتى فى فصل الجفاف ، حيث يكون كل شىء عارياً ، لا لون له . ولكنها تكتمل سحراً فى فصل الامطار ، عندما تنمو الحشائش القصيرة ، وتكتسى الارض بثوب سندسى أخضر . وبجانب ذلك ، توجد الغابات الكثيفة الناعمة الخضراء ، التى تنمو فى سفوح التلال ، والتى تخترقها الاودية ، بينما تتناثر هنا وهناك بعض الزراعات التى تعرض أمام العين منظرا حياً جميلا . والمياه هنا ، ليست شحيحة ، بل يوجد كثير من المجارى المائية التى تنحدر فى مسارب عميقة فوق الصخور . وتلتقى هذه المجارى المائية ، بالاخوار الرملية ، فى السهول الخلفية . وعقب سقوط الامطار تبدو لنا مناظر المساقط المائية من بعيد .

وتنحدر جبال تقلى تدريجياً نحو الشمال ، حيث تتلاشى فى سهل يمتد بعيداً نحو جيزان Geizan . كما تنحدر هذه الجبال انحداراً فجائياً نحو الشرق إلى دار الاحامدة ، وتمتد الوديان الخصيبة من التلال إلى السهول مقدمة الماء والمرعى لقطعان الماشية والإبل فى فصل الجفاف . ويزرع فى هذه الوديان كثير من الحاصلات مثل الجوز الارضى والدخن والقطن والذرة والشليك والبصل ...

ومنذ أربعمائة عام تقريباً ، وفى جبال تقلى ، أنشأ رجل فقير من إحدى القبائل النهرية ، هذه المملكة القديمة ، التى ذاعت شهرتها فى السودان الشمالى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وهذه المملكة هى موضوع البحث الذى نقدمه اليوم . ولقد نسل من ذرية هذا الرجل تسعة عشر ملكاً ، حكموا البلاد حكما متصلا ، لم يقطعه شىء ، منذ ولى الحكم « جيلى أبو جريدة » ، وهو ابن ذلك الرجل الفقير « آدم النيل جيلى » .

واستطاع ملوك تقلى ، فى وقت من الأوقات ، أن يبسطوا سلطانهم ، على جبال النوبا الشرقية ، من « أبى حبل » فى الشمال إلى « تالودى » فى الجنوب .

واعترف بسلطانهم ، كثير من القبائل العربية ، التى كانت تدخل هذه المنطقة من آن لآخر . واستطاع هؤلاء الملوك ، أن يقاوموا بنجاح الحكومة التركية فى السودان سنين عديدة ، وظلوا على الدوام شوكة فى جانبها . وبلغ من علو قدر هؤلاء الملوك ، أن الوافدين على مملكتهم من الشمال ، كانوا يخاطبونهم بقولهم « الله يطول عمرك » . وكان لتشجيع هؤلاء الملوك للهجرة والاستقرار فى سنى حكمهم الأولى ، أثر كبير فى تعديل بعض عادات رعاياهم الدينية والاجتماعية .

وهؤلاء الملوك أدخلوا فى الإسلام جماعات النوبا [1] التى كانت صارمة الوثنية ، والتى ينتمى إليها النوباويون الحاليون ، ثم لم يكتفوا بذلك بل صاهروهم ، واختلطوا تقريباً بكل العناصر فى السودان الشمالى . ولم يبق عنصر نوباوى خالص الآن ، إلا القبائل التى تقطن « جبال الكجاجة » . وكان معظم الدم الخارجى فى تقلى نفسها ، جعلى ، وغيره من دماء القبائل النهرية . كما نجد عنصر الفونج ، وغيره من الأجناس الأخرى الغربية الآتية من دارفور وماوراءها ، ومجموعات عربية صغيرة مستقرة من البديرية والجوامعة ، وبطون بأجمعها من قبيلة الكواهلة وكنانة .

وبالرغم من أن سكان مملكة تقلى كانوا مزيجاً من عناصر مختلفة ، فإننا نجد لهم طابعاً خاصاً يعزى إلى تأثير أجيال متتالية من حكم هؤلاء الملوك الوراثيين الأقوياء المطلقين . ولم تكن دولة هؤلاء الملوك ديمقراطية ، بل كانت أوتقراطية خالصة بسيطة . وكانت كل السلطة والقوة مركزة فى يد الملك نفسه ، يدير مملكته بواسطة موظفين اثنين ، كانت وظيفتهما وراثية ، وأشهرهما يلقب « بالجندى » ، وكان يصرح لهذا الموظف فقط بمقابلة الملك ، فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار . ولم يكن يصرح لأحد بمقابلة الملك إلا عن طريقه ، كما أنه كان مسئولا عن سلامة الملك ، يشرف على مجموعة « المكوك » فى الجنوب ، وعن طريقه ، تقدم هداياهم وما عليهم من ضرائب إلى الملك . أما الموظف الآخر فيلقب « بالسوكاراوى Sokarawi » . ولم تكن علاقة هذا الموظف بالملك وثيقة كعلاقة الجندى به ، وهومسئول عن أجزاء المملكة فى شمال وشرق تقلى . وبعض

(١) قبائل النوبا غير سكان بلاد النوبة التى فى جنوب مصر .

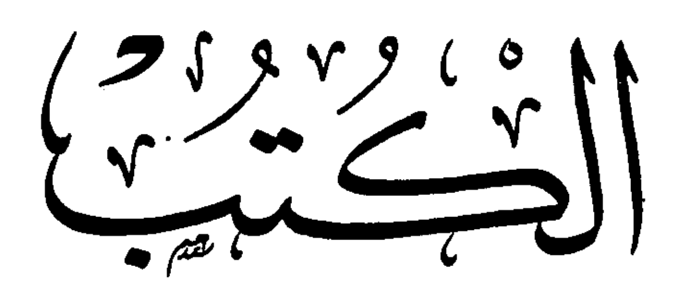
ملوك تقلى كانوا يتخذون وزراء ، يلقون إليهم بكثير من السلطة ، وهؤلاء الوزراء من أقرباء الملك . وعبء انتخاب الملك ، إذا كان هناك أكثر من مرشح واحد ، يقع على عاتق الجندى ، ولم يكن أحد ليستطيع الاعتراض على سلطة الملك المطلقة ، أو مركز عائلته الرفيع . ولم يكن نتيجة ذلك فقط ، الاتحاد الواضح بين أجزاء المملكة ، واختفاء الفوضى من أى لون كانت ، بل صحب ذلك أيضاً ، تجانس فى عادات وطرق معيشة الناس جميعاً . وكان هذا هو المعنى الجليل الذى خلد اسم تقلى فى العالم ، بحيث كان الشخص يفضل أن يدعى تقلاويا — إذا كان ثمت ما يدعوه إلى ذلك — على أن ينسب نفسه إلى قبيلته الرئيسية .

وسكان تقلى جميعا يتصفون بالذكاء ، وهم فلاحون كادحون ، يجدون اللذة كلها فى زراعة محصولات جديدة ، ولا يحتقرون الطرق المستحدثة التقدمية . وهم إلى جانب ذلك مشغوفون بالتعلم ، ويستحسنون الوسائل الطبية . ولم يكن خضوعهم التام للملك ، نتيجة أفق ضيق ، ولكن لطول ما لازمت الصفة الارستقراطية التقليدية بيتهم الحاكم . وهذا فى حد ذاته علامة على تميز جنسهم ، ودليل على التقدم لا التأخر . ومثل هذا النظام ، الذى تعنى فيه السلطة تقدير المسئوليات أكثر مما تعنى خلق أدوات جديدة ، يكون أسسا ثابتة لتقدم المملكة ورفاهية أهلها .

أما عن الإسلام فى تقلى ، فقد عرف الإسلام هنا على يد هذا الرجل الجعلى الفقير ، الذى أسس المملكة ونسل منه ملوك تقلى الذين حكموا أربعمائة عام . والإسلام هو العنصر الفعال فى تطور تاريخ هذه المملكة . وليس من العسير على أى زائر لتقلى اليوم أن يتبين أهمية الإسلام فى حياة أهلها . ففى كل قرية هامة يوجد مسجد ، وهو مكان لحفظ القرآن وللصلاة ، يقوم ببنائه رجل محسن ذو مركز ملحوظ ، ثم يقوم نسله على خدمته من بعده . وجميع أهل تقلى دينون بطبعهم . وتعتبر تقلى قلعة من قلاع الإسلام الحصينة ، ويتبع الأهالى كثيراً من الطرق الدينية ، ولكن أغلبهم يتبع طريقة الشريف يوسف الهندى .

وإلى مقال قادم نتابع فيه الحديث عن هذه المملكة ، ذات الشأن الخطير فى تاريخ الإسلام بالسودان .

عبد المنعم محمد الشيخ
مدرس أول الآداب بمعهد الزقازيق



درجات الناس

هو كتاب نفيس لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت ، وهو أعرف من أن نعرّفه إلى قراء مجلة الأزهر ، لأنه من أركان تحريرها من سنين كثيرة ، وهو يتصل بقرائها فى كل شهر حول سنة رسول الله ﷺ ، فإذا ألف كتابا ليتكلم فيه على درجات الناس فإن أول ماينظر به إلى درجاتهم ، المقاييس التى قررتها سنن الإسلام ، وعمل بها أهله الأولون من الصحابة والتابعين .

والمؤلف : يرى أن سبب مصائب المسلمين ، أنهم فقدوا قاعدة التناصح والتواصى بين الراعى والرعية إلا رسوما ومظاهر لا تغنى فتيلا ، وقد ضرب الأمثلة لذلك من التاريخ وقرر قاعدة الإسلام « كما تكونون يولى عليكم » . وقال فى درجات الأفراد ماقالته فيهم السنة المحمدية « الناس كالإبل المائة لا تجد فيها راحلة » ، ووصف المثل الكامل الذى رسمه الإسلام وقال إن الكمال درجات ، والأمم أيضاً درجات كما أن الأفراد درجات . وذكر فضل الصحابة والأدب معهم ، ونوه بمقام التابعين وأتباعهم . ولو شئنا أن نمضى فى كل ما تعرض له المؤلف مما به صلاح الراعى والرعية لاحتجنا إلى نشر كتابه كله ، ولكننا نحيل القارىء عليه ، وننصح له بإطالة التأمل فيه . ومن مظاهر التقدم فى الوعى الإسلامى أن هذا الكتاب تنتشر منه الآن الطبعة الثالثة ، مع أن طبعته الأولى قريبة العهد بالناس . وقد جاءت هذه الطبعة فى ١٢٧ صفحة كبيرة . فنحث القراء على مطالعته .

تاريخ العراق لابن سند

والاسم الذى يعرف به تاريخ العراق لابن سند هو (مطالع السعود) سجل فيه أحوال العراق فى خمسة وخمسين عاماً ، من سنة ١١٨٨ إلى سنة ١٢٤٢ ، وما مضى عليها فى تلك المدة

من أحداث فى حواضرها وعشائرها ، وفى عاصمتها بغداد والمنطقتين التابعتين لهما فى الشمال والجنوب ، وهما منطقة الموصل وتكريت وبلاد الكرد ، ومنطقة البصرة والمنتفك وعشائر العراق . وكان المقصود بهذا التاريخ تسجيل أحداث ولاية داود باشا الذى كان من وجوه كثيرة مشابهاً لمحمد على فى موقفه وآماله فى مصر ، لكن ابن سند بدأ بتاريخ العراق من سنة ولادة داود باشا ، فذكر فيه أخبار الولاة الذين كانوا من سنة ١١٨٨ ، فجاء تاريخه حلقة ثمينة فى سلسلة تاريخ العراق ، ولما كان المؤلف شاعراً ، فقد امتلأ تاريخه بشعره وشعر غيره ، فرأى الشيخ أمين بن حسن الحلوانى المدرس فى الحرم النبوى الشريف فى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى ، أن يحذف منه القصائد ليكون مقتصراً على الحوادث فجاء هذا المختصر جامعاً مفيداً . وكان الحلوانى قد طبعه فى الهند سنة ١٣٠٤ هـ ، وأصبحت نسخه الآن أندر من المخطوطات ، فتولى رئيس تحرير هذه المجلة تحقيقه والتعليق عليه ، ووضع الفهارس المتعددة له ، ونشره أخيراً مصدراً بترجمة ابن سند ، وترجمة للشيخ الحلوانى ، فجاء فى ٢٣٠ صفحة حافلا بما يصور حالة العراق فى المدة التى استقصى أخبارها .

رسالة الصلاة للإمام أحمد

صلى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله مع قوم فرآهم يسيئون فى صلاتهم ، ويسابقون إمامهم فى الركوع والسجود والخفض والرفع ، فكتب إليهم هذه الرسالة يعظم لهم أمر الصلاة ، وأنها حق الله على عباده ، وأن من أقام ما بينه وبين الله على وجهه الذى أمر به فهو على إقامة ما بينه وبين الناس أقدر ، ومن استهان بها فهو بما بينه وبين الناس أشد استخفافا واستهانة . وبعد أن أورد لهم النصوص من سنة رسول الله ﷺ على ما ينبغى للمسلم من إقامة الصلاة وحسن أدائها قال فى آخرها : « رحم الله امرءاً احتسب الأجر والثواب ، فبث هذا الكتاب فى أقطار الأرض » .

وإن فريقا من الشباب الجامعى ممن ألفوا « لجنة الشباب المسلم » أرادوا أن يكون لهم نصيب من الدعوة الصالحة التى ختم بها الإمام أحمد رسالته ، فبادروا إلى طبعها طبعا جميلا ، وعهدوا بتصحيحها ومراجعتها إلى الأستاذ محمود محمد شاكر فجاءت فى ٦٤ صفحة صغيرة . وهى مما لا يستغنى عن قراءته مسلم .

النشاط الثقافي للأزهر

المقارنة العلمية بين الشريعة والقوانين

كان بعض أعضاء جماعة كبار العلماء قد اقترحوا ، قبل نحو عشر سنين على مشيخة الأزهر ، تأليف لجنة منهم للقيام ببحوث فى المقارنة العلمية بين الشريعة والقوانين ، وتألفت بالفعل لجنة لذلك . ثم تجدد هذا الاقتراح فى عهد الشيخ مأمون الشناوى - رحمه الله - ولم تنته هذه الاقتراحات إلى عمل منظم ، لأنها لم توضع موضع التنفيذ حتى الآن .
وأخيراً تقدم بعض أعضاء جماعة كبار العلماء إلى المشيخة بمثل هذا الاقتراح ، فعرض ذلك على الجماعة ، ورأت جماعة كبار العلماء أن تحيل هذه المقترحات إلى لجنة من أعضائها لبحثها ودراستها .

ومما تعنى به المشيخة كذلك محاربة البدع الضارة بعقائد المسلمين ، وهى آخذة بسبيل ذلك من تعريف هذه البدع وتحديدها وتعيين الطرق التى تحارب بها . وهى موقنة بأن العهد الجديد يؤيدها فى ذلك ويعينها على إنقاذ الأمة مما ابتليت به من بدع وخرافات ، لأنها من صميم البرنامج الإصلاحى .

وهنالك أمور ألحقت بالعقائد وليست منها ، ومن أهم واجبات الأزهر ، بيانها للناس ، وإرشادهم إلى العقائد السليمة التى جاء بها الدين .

ولهذا وذاك تألفت من جماعة كبار العلماء لجنة تسمى (لجنة تنظيم النشاط العلمى للجماعة) وقد تفرعت إلى شعبتين أصليتين (شعبة الدرس) و (شعبة البحث) ، والشعبة الأولى يقوم بها هيئات التدريس فى الكليات والمعاهد ، وأما الشعبة الثانية فتتولى البحث والإنتاج خارج النطاق المدرسى . وهى تتفرع إلى أغراض كثيرة ، من بينها القيام بدراسة واسعة للمقارنة بين الشريعة والقوانين الوضعية فى جميع المواضع المشتركة بينهما ، واستنباط الأصول الكلية التى يلزم التحاكم إليها فى الفصل بين السنة والبدعة ، وتطبيق هذه الأصول على العادات الجارية ، تطهيراً للشريعة مما ألصق بها وليس منها .

وقد رأت اللجنة مراعاة التنظيمات الآتية :

١ — يعد للجماعة مكان مناسب يتسع لاجتماعاتها ، ولنشاط اللجان المختلفة التى تؤلفها ، بحيث يكون بمثابة (المجمع العلمى الأعلى للأزهر)

٢ — يزود هذا المكان بمكتبة كاملة ، مجهزة بالمؤلفات القديمة والحديثة والصحف ليستعين بها الباحثون فى مختلف المسائل .

٣ — رئيس المجلس هو رئيس الجماعة ، وله نائبان وسكرتير فنى .

٤ — أعضاء المجمع الاساسيون هم أعضاء الجماعة . ويحسن أن يضم إليهم أعضاء مندوبون أو مراسلون من مشاهير علماء مصر والعالم الإسلامى .

الأدب والعلوم في شهر

العربية في باكستان

قررت لجنة الكتب المدرسية في وزارة المعارف لمقاطعة «بهاولبور» من بلاد باكستان أن يكون تعليم اللغة العربية إجباريا في مدارس المقاطعة .

مؤتمر للغة السنسكريتية

تحتفل مدينة بومباى (ثغر الهند) عند مثول هـذا الجزء للطبع بعقد مؤتمر لغوى عظيم يشترك فيـه نحو مائتى عالم متخصص باللغة السنسكريتية القديمة ، لتيسير نشرها والانتفاع بها فى حياة الهند الجديدة .

واللغة السنسكريتية بالنسبة إلى الهند تشبه من وجوه كثيرة اللغة اللاتينية بالنسبة إلى لغات أوربا .

ولما كانت الهند كثيرة اللغات بحيث لا يتفاهم أهل لغة منها مع أبناء اللغات الأخرى ، فقـد كانوا فى عهد الاحتلال البريطانى الذى انتشرت فيه اللغة الإنجليزية بين جميع المثقفين وأصحاب المصالح فى الحكومة ، قد اتخذوا من اللغة الإنجليزية لغة مشتركة للتفاهم ، وفى الوقت نفسه كانت جماهير المسلمين تعتمد فى التفاهم — إلى حد كبير — على اللغة الأوردية . وفى مقابل ذلك تحاول حكومة الهند أن تستفيد من معارف المتخصصين بالسنسكريتية لأجل تعميمها وتيسير الانتفاع منها فى الحياة العامة .

الدين والأخلاق فى المدارس

أقامت مدرسة القبة النموذجية الثانوية حفلا خاصاً لجلة من آباء التلاميذ عددها خمسة عشر والداً ، يختارون بالاقتراع ، للتشاور معهم فى شئون المدرسة بمناسبة العام الدراسى الجديد . وقد كان من أعضاء هذه اللجنة — منذ العام الماضى — الرئيس اللواء محمد نجيب ، وبالرغم من كثرة أعماله حرص على حضور هـذا الحفل الذى خطب فيه ناظر المدرسة والدكتور مهدى علام وكيل كلية الآداب بجامعة إبرهيم ، ثم تكلم الرئيس اللواء محمد نجيب فقال :

« يلذ لى أن أتحدث عن التعليم فإنه من أحب الموضوعات إلى قلبى لسببين : أولهما أنى بدأت دراستى بدراسة التربية والتعليم ، فقـد كان التخصص يبـدأ من أول المـدرسة الثانوية فى السـودان حيث تعلمت ، وأردت أن أدرس

لهندسة فلم أمكن من ذلك ، ووجهت إلى قسم المعلمين فدرست فيه أربع سنوات وكان مما درسته التربية وعلم النفس . والسبب الثانى أنى أرى أن التربية والتعليم هما دعامة كل تقدم فى حياتنا » .

ثم وجه حديثه للمعلمين فقال : « إنكم من خيار الناس ، وإنها لفرصة من خير الفرص ، أستطيع فيها أن أفصح عن بعض ما فى نفسى : لا شك أنكم أنتم الذين تضعون الاسس فى الأمة كلها ، وعلى أيديكم بناء أبنائنا ؛ وعلى قدر ما تكون متانة الأساس تكون متانة البناء ، فعليكم أنتم بناء الأمة .

« إن التربية هى إعداد التلاميذ لحسن التصرف فى مواقف الحياة . ويجب أن يكون هذا هو هدفنا من التعليم . نريد من مدارسنا أن تخرج شبابا أقوياء أصحاء البنية قادرين على التفكير السليم متخلقين بالخلق الكريم . لا نريد شبابا ناعما كالذين يلبسون القمصان المشجرة فإن فيهم طراوة ورخاوة ، إنما نريد شبابا خشنا يستطيع مواجهة مواقف الحياة ومصاعبها ، حتى يستطيع الوطن أن يعتمد عليهم . لا نريد أن يكتفى شبابنا بمعرفة الفضائل بل يجب أن يتخذوها أساسا لسلوكهم .

« إن الدين أساس الأخلاق . ولقد تلقيت تعليمى فى السودان فى مدرسة كان يشرف عليها انجليز ، ومع ذلك فقد كان بها مسجد ، ولهذا فأنا مندهش من أن هذه المدرسة ليس بها مسجد . وأنا لإيمانى بأن الدين أساس الأخلاق لا أمانع فى تدريس الدين ، حتى الدين اليهودى ، بشرط أن يكون فى أيد أمينة ، أيد تعتبر الوطنية من دينها فإن الدين شيء والتعصب الدينى شيء آخر . وأنا أحب أن نقيم الأخلاق على تعاليم الدين » .

الكليات العملية لا النظرية

اجتمع مندوب المصرى فى الإسكندرية بوزير المعارف وهو يغادر مصر إلى باريس لحضور مؤتمر اليونسكو ، فسأله عن بعض شئون التعليم والمعارف ، ولما سأله عن جامعة محمد على التى لم يتم إنشاؤها بعد ، قال له الوزير : من رأيى أن نبدأ بإنشاء الكليات العملية لا الكليات النظرية ، وذلك لأننا فى عهد يحتاج إلى التصنيع والإنشاء والتعمير وهذه الكليات تحتاج إلى معامل وورش لا يمكن أن تتم قبل عامين على أقل تقدير .

الفردية والوعى الاجتماعى

يقول الدكتور محمد جمال صقر فى مقال له عن عيوب المدارس المصرية : إن الأطفال فيها يجلسون فى الفصل جنباً إلى جنب كأنهم جمع لا رابطة تربط بين أفراده إلا مجرد الصدفة التى جمعت بينهم فى فصل واحد . والمعروف عند المدرسين وعند التلميذ أن

القانونين الأساسيين السائدين فى تنظيم العمل المدرسى والبيئة المدرسية هما : « على كل أن يعمل لنفسه » ، و « على كل فرد أن يسعى إلى سبق زملائه ما استطاع » . ونظام هذا قوامه لا يعد الفرد إلا لمجتمع تنتعش فيه الأنانية ، وإثارة النفس على الغير ، والعمل على استغلال الآخرين للمصلحة الذاتية ، والتغالى فى حب الذات ، وتسخير كل ما حول الفرد لإشباع الحاجيات الفردية ، وما يستتبع ذلك من طرق باب الوسائل المشروعة وغير المشروعة للوصول إلى الغاية المرجوة .

أما التربية التى يجب أن نوجه إليها اهتمامنا ، فهى التى تهدف إلى تنمية صفتين أو خاصتين طالما ساد الاعتقاد بأنهما متعارضتان ، وهما « الفردية » و « الوعى الاجتماعى » ، كى نستطيع التوفيق بين إمكانيات الطفل ومطالب المجتمع ، وبين الخبرة الفردية والمثل العليا الاجتماعية .

سياسة التعليم فى وزارة المعارف

يقول الأستاذ سيد قطب فى مقال له بجريدة الأخبار الجديدة : إن الإنجليز كانوا يدركون أنهم فى يوم من الأيام - قريب أو بعيد - سيجبرون على التخلى عن الإدارة المباشرة لجهاز مصر الحكومى ، لذلك لم يكن لهم بد من تربية أجيال من « الإنجليز السمر » ، تسير سياسة التعليم فى وزارة المعارف إلى أمد طويل . وهذا هو الذى كان ! ألا تقرأ فى كتب التاريخ التى بين أيدى التلاميذ يوما هذا العنوان : « مزايا الحملة الفرنسية على مصر » ؟ أو هذا العنوان : « الإصلاحات التى تمت فى عهد الاحتلال » ؟ وما ذا كانت السياسة الاستعمارية تملك أكثر من أن تسجل فى ضمير الناشئة أن الحملات الاستعمارية يمكن أن يكون لها مزايا ، وأن تتم فى ظلها إصلاحات ؟ ! .

ثم هذه العزلة المطلقة بين المدرسة وبين المشكلات الحية للشعب وللحياة القومية ، وتحريم الدراسات السياسية والاجتماعية على المدرسة طوال هذا الأمد ، وتحقير دين الشعب ومقوماته ، حتى ليقف رجل ذو مركز خطير جدا اليوم فى وزارة المعارف ، يقف يوما فى معهد التربية ليقول لطلابه الذين سيصبحون مدرسين : إن محمد ابن عبد الله كان مصروعا ، وإن ما كان يسميه الوحى هو هذا الصرع الذى كان ينتابه .

إننا نخدع أنفسنا إذا اعتقدنا أن « دنلوب » قد ذهب من وزارة المعارف ، فان شبح دنلوب لا يزال هناك .. بل إن أشباح دنلوب ما تزال قائمة فى كل مكان .

وواجبنا هو ألا نستسلم للبساطة المريحة فى معالجة آثار الاستعمار الفكرى والروحى واقتلاع جذورها من الأساس ، ولن نقتلع هذه الجذور إلا يوم أن يصبح المشرفون على تنشئة الأجيال المقبلة من المؤمنين بمصر والمؤمنين بمقومات الشرق .

العالم الإسلامي في شهر

مصر والسودان

اتفقت مصر فى الشهر الماضى مع جميع الأحزاب السودانية على ما يأتى :

تؤمن الحكومة المصرية إيمانا ثابتاً بحق السودانيين فى تقرير المصير، وفى ممارستهم له ممارسة فعلية فى الوقت المناسب، وبالضمانات اللازمة.

ورغبة فى بلوغ هذا الهدف تبدأ على الفور فترة انتقال تستهدف تمكين السودانيين من ممارسة الحكم الذاتى الكامل ، وتهيئة الجو الحر المحايد الذى لابد من توافره لتقرير المصير.

ولما كانت فترة الانتقال هى تمهيد لإنهاء الإدارة الثنائية انهاء فعليا ، فإن هذه الفترة تعتبر تصفية لهذه الإدارة ، وتعلن الحكومة المصرية أن السيادة على السودان تظل محتفظا بها للسودانيين إلى أن يتم لهم تقرير مصيرهم .

فرنسا والمغرب الأقصى

احتفل فى المغرب الأقصى بمرور ربع قرن على ولاية سلطانها سيدى محمد بن يوسف فأذاع فى أمته خطابا رائعاً لهذه المناسبة قال فيه : « إنى متأثر أشد التأثر بصداقة الفرنسيين إلا أننى أود لو ابتعدوا عن شئوننا الداخلية »

ثم ذكر معاهدة سنة ١٩١٢ التى تحتج فرنسا بها فى تحكمها بالشعب المغربى وبلاده فوصف تلك المعاهدة بأنها « ملابس طفل يراد فرضها على رجل كبير » . ثم قال : ولا شك أن إخفاق فرنسا فى التقدم بمقترحات فعالة تتفق مع روح العصر هو السبب فى هذا التوتر الشديد الذى يسود شمال إفريقية . وقد رفضنا مشروع الاصلاح الفرنسى لأنه يقوض دعائم سيادتنا »

ثم استعرض المراحل التى مرت بها المفاوضات الطويلة مع الفرنسيين ، فاتهم فرنسا بأنها تحاول الابقاء على الحالة السيئة الراهنة نصاً وروحا . وسرد الاقتراحات الفرنسية للإصلاح مستدلا بها على سوء نية الفرنسيين .

انضمام ليبيا الى الجامعة العربية :

افتتح الملك إدريس السنوسى البرلمان الليبى ، وتلى خطاب العرش وفيه تنويه بالعلاقة الطيبة بين ليبيا وشقيقتها الكبرى مصر والدول العربية الأخرى ثم قال : وسنعمل على الانضمام إلى الجامعة العربية وحضور وفد ليبى فى الاجتماع الذى تعقده الجامعة فى شهر مارس المقبل .

تعويضات ألمانيا لإسرائيل

ومشكلة اللاجئين العرب

كان فى ألمانيا عند ما تولى هتلر السلطان عليها فى سنة ١٩٣٧ نحو ٥٣٠ ألف يهودى. فلما رسمت حكومة هتلر خطتها للتحرر من اليهود وتأثيرهم الفكرى والاجتماعى والاقتصادى والسياسى على ألمانيا ، جمعت مؤلفات علمائهم فى الميادين العامة وأضرمت فيها النار ، ثم أخذ اليهود فى الرحيل إلى بلاد أخرى ، وأكثرهم تحول إلى فلسطين حتى بلغ عدد المهاجرين إليها من يهود ألمانيا ٣٠ ألف. ومع أن القائمين على السياسة الصهيونية كانوا مسرورين من نزوح بنى جنسهم عن ألمانيا ليستعمروا بهم بلاد العرب فى فلسطين فإنهم استغلوا هذا الحادث وبالغوا فيه وجسموا وقائعه وملأوا الدنيا صراخاً بالشكوى.

وأخيراً حملوا أمريكا وانجلترا وفرنسا على إرغام حكومة ألمانيا الغربية بتعويض اليهود الذين زعموا أن هتلر طردهم من بلاده ، متجاهلين أن القوانين المعمول بها لا تجبر أية حكومة على دفع تعويضات من غير طريق القضاء فى دعاوى شخصية لأشخاص كانوا من رعاياها . غير أن موقف ألمانيا الغربية السياسى فى الوقت الحاضر أجبرها على الإذعان فتقدمت بتعويض مقداره ٨٣٠ مليون دولار تعهدت بتسليمها إلى حكومة إسرائيل أقساطاً نقدية ومصنوعات مما تحتاج إليه إسرائيل فى استعدادها الحربى والصناعى .

وقد رأت الحكومات العربية أن فى ذلك تهديداً لها وإطالة لحياة حكومة إسرائيل عشرة أعوام أخرى أو أكثر ، وستكون منه سابقة لأخذ اليهود تعويضات أخرى من بلاد يزعمون أن بنى جلدتهم اضطهدوا فيها أيضا ، ومنها النمسا وألمانيا الشرقية وهنغاريا ورومانيا وبولندا ... الخ .

وتقول الحكومات العربية فى مذكرة أرسلتها إلى ألمانيا الغربية : إن إسرائيل فى حالة حرب الآن مع سبع دول عربية ، فعلى الدول المحايدة — ومنها ألمانيا — التزام واجب الحياد ، وعدم تقديم مساعدات لأحد الطرفين المتحاربين . وإن مساعدة ألمانيا لإسرائيل ستخل بالتوازن الحالى فى الشرق الأدنى ، وتمكن إسرائيل من القيام بعدوان على البلاد العربية . ثم إن إسرائيل ليست وريثة حقوق اليهود المتضررين ، فكيف تكون طرفا فى تسوية مع ألمانيا على حقوق يهود لم يكونوا رعايا حكومة إسرائيل ، وكيف يحكم أى قانون خاص أو دولى على ألمانيا بدفع تعويض لإسرائيل التى لم تكن موجودة يوم وقع الاضطهاد المزعوم من ألمانيا على رعاياها اليهود . زد على ذلك أن حكومة إسرائيل لا تعترف بحق التعويض فى القانون الدولى ، ولو كانت تعترف بهذا الحق لدفعت تعويضات إلى اللاجئين العرب وفقا لقرارات الامم المتحدة .

ودعوى إسرائيل أنها تتقاضى هذه

التعويضات لقاء ما أنفقته على إسكان نصف مليون يهودى طردهم النازى فهاجروا إلى فلسطين ، منقوضة بأن معظم هؤلاء قد هاجروا قبل حكم النازى أو بعد انتهائه ، ولم يكن لهم باعث على القدوم إلى فلسطين التى كانت آهلة بسكانها العرب . فكان مجيئهم الاختيارى اضطهاداً للعرب ، وبغياً عليهم ، واغتصاباً لوطنهم .

وقد عرض وزير الخارجية المصرية فى خطابه الذى ألقاه فى هيئة الأمم وجهة العرب فى هذه القضية فقال :

« إن بعض مشاكل الشرق الأوسط التى لم تستطع الأمم المتحدة أن تجد لها حلا صالحاً إلى اليوم ستبقى دائماً موضع تفكير مصر والبلاد العربية قاطبة وانشغالها . ولا تزال هذا هو حال اللاجئين العرب الذى يثير القلق ، ولن يكون أى مشروع جديراً بالالتفات إذا لم يكفل حلا إنسانياً عادلا لمثل هذه المشاكل . ولقد شرد تحت ضغط الصهيونية العالمية أكثر من مليون من العرب وانتزعوا من ديارهم فى فلسطين فى غير رفق ولا رحمة . ولأول مرة فى التاريخ يحدث أن يشرد سكان متوطنون فى بقعة ما ليحل محلهم أناس غيرهم بزعم أنهم شردوا من بقاع أخرى .

ولقد وقع أخيراً الضغط نفسه على حكومة ألمانيا الغربية ، وإن خضوع هذه الحكومة بقبولها تزويد إسرائيل بمبالغ نقدية كبيرة تحت ستار التعويضات وبكميات هائلة من الآلات الثقيلة لاستخدامها فى تقوية إمكانياتها الاقتصادية والحربية ، لا يحدونا إلى التفاؤل بمستقبل السلام والاستقرار فى الشرق الأوسط . وإن الحكومة المصرية لتنظر فى قلق بالغ إلى اتفاق التعويضات المقترح . وإننا لعلى يقين تام أنه لا حق لإسرائيل بأية حال فى الحصول على تعويضات من ألمانيا نيابة عن يهود العالم أجمع ، إذ ليس ذلك من حقها ، كما أنه ليس من حق أى بلد إسلامى أو مسيحى الحصول على مثل هذه التعويضات باسم المسلمين أو المسيحيين فى جميع أنحاء العالم » .

قضية كشمير

كما تصفها صحيفة أمريكية

وصفت صحيفة (باكجراوند فور تومورو) التى تصدر فى واشنطن قضية كشمير بقولها :

« إن الهند لم تعد تكتفى بأن تجعل من غزو كشمير مادة للسخرية من الغرب ، بما تبديه نحوه من عدم المبالاة ، بل هى تحاول أن تجعل منه وسيلة لتحطيم الباكستان كأمة . وعجز الأمم المتحدة عن القيام بعمل إيجابى حول هذه الأزمة سيؤدى حتما إلى شعور سكان هذا الجزء وغيره من العالم بأن هذه الهيئة الدولية تسعى إلى حتفها بما تتخذه لنفسها من سياسة عقيمة مرتجلة .

« إن جهود الدكتور فرانك جريهام الشفوية لم تفلح فى زحزحة نهرو عن موقفه إزاء كشمير ، وهو موقف يذكرنا بستالين ، كما أن موجة الاستياء من الكتلة العربية الآسيوية ومن أعضاء مجلس الامن لم تجد من يعبأ بها ، وأن نيودلهى تقف من كل هذا ساكنة لا تتحرك بينما كراتشى قد بدأت تفقد صبرها . ويحاول نهرو - بأقصى استطاعته - ألا يسمح لأمة إسلامية بأن تشاركه وقومه الهندوس فى القارة الآسيوية ويساعده على ذلك أن اقتصاد الباكستان يعتمد على نهر السند الذى تغذيه أنهار كشمير الثلاثة ، فاتخذ من ذلك سلاحاً حاداً وورقة رابحة يلوح بها كيفما شاء مدعيا أنه يعمل بذلك على تنمية المصادر الطبيعية لبلاده .

« وبعد جهد طويل وافق نهرو على إجراء استفتاء فى كشمير ، وهو يستخدم القوات الهندية وغيرها من وسائل القمع لتهيئة الجو لاستفتاء يحصل عليه كما يريد . وإن الهنود اتخذوا من هذه المسألة نكتة يتندرون بها على الامم المتحدة . هذا بينما الأموال الأمريكية تستخدم لبناء السدود وتنظيم المياه بطريقة تقضى بالحرمان على الباكستان من الرى الذى يبقى على حياة ساكنيها . وإذا نشب القتال بسبب ذلك فلن يقتصر على كشمير ، بل لا بد أن يعم الباكستان والهند جميعاً » .

من أسباب ثورة ماو - ماو

زار نائبان بريطانيان من حزب العمال بلاد كينيا التى نشبت فيها الثورة المعروفة هناك بثورة ماو - ماو . ولما أخذا يبحثان عن أسباب الاستياء التى دفعت الوطنيين إلى هذه الثورة أخذ عدد كبير من الأهالى يتصلون بهما ويفضون إليهما بشكاوى الإفريقيين من غطرسة المستعمرين وسوء استغلالهم للشعب وفرضهم عليهم رؤساء وأنظمة لا يطيقها البشر .

وهذان البريطانيان هما مستر فينربردكواى ومستر ليزوى هيل . ولما وصلا إلى مدينة نيروبى فى شرق إفريقيا أعلنا استياءهما وامتعاضهما من قيام السلطات الاستعمارية بالقبض على عدد كبير ممن اتصلوا بهما أثناء زيارتهما لكينيا .

وقد صرح مستر ليزوى هيل بأن من أسباب هذه الثورة ما يعانيه الأهالى من الجوع ، وانخفاض أجور العمال الإفريقيين ، وارتفاع الأسعار . ثم إن السلطات الاستعمارية تفرض على الأهالى والقبائل رؤساء وضيعين منحطى الأخلاق .

فإذا كان هذا بعض ما يقوله نائبان بريطانيان عن فساد الحكم الاستعمارى حتى أدى إلى ما نسمع به - من جانب واحد - عن تفاصيل تلك الثورة ، فكيف لو تمكن سكان كينيا من بسط شكواهم وإذاعتها فى العالم ؟!

أنباء العالم الإسلامي

وزارة الارشاد القومي :

تألفت في مصر وزارة جديدة للإرشاد القومي ، والغاية منها توجيه أفراد الامة وإرشادهم الى ما يرفع مستواهم المادي والأدبي ويقوي روحهم المعنوية وشعورهم بالمسئولية ويحفزهم إلى التعاون والتضحية ومضاعفة الجهد في خدمة الوطن . وتزويد الرأي العام العالمي بأصدق البيانات والإحصائيات والأرقام والصور عن حقائق الامور في مصر .

وقد تكونت نواة هذه الوزارة من الإذاعة المصرية ، ومصلحة السياحة ، وإدارة الدعاية والإرشاد الاجتماعي ، ومراقبة الأفلام والسينما ، وإدارة المطبوعات ، والمكاتب الصحفية بهيئات التمثيل المصري في الخارج ، ومعرض وادي النيل ، ومؤسسة الثقافة الشعبية وقسم الدعاية الصحية ، ودار الأوبرا الملكية ومتاحف الحضارة المصرية وبيت الامة والفن الحـــديث ، والمتحف الحربي عدا المكتبة ، وأقسام الإنتاج السينمائي والفني في وزارات المعارف والصحة والزراعة والشئون الاجتماعية .

ولا يبعد أن تتطور هذه الوزارة عندما تسير في عملها وتتقدم لتحقيق رسالتها .

تعدين الحديد وصناعته بمصر :

أسفرت بحوث بعثة التعدين الفنية التي أوفدتها مصلحة المناجم إلى الواحات البحرية عن اكتشاف طبقات سميكة من رواسب أوكسيد الحديد الاصفر ويتراوح سمكها بين متر وعشرة أمتار ، وهي تختلف عن منطقة مناجم الحديد في أسوان بأن أوكسيد الحديد في أسوان أحمر اللون ، وأن سمك طبقاته الظاهرة فوق سطح الأرض أقل من سمك طبقات الواحات البحرية التي تبين أنها غنية بالحديد ، وهي ذات أهمية خاصة نظرا لاهتمام الحكومة المصرية الآن بتنفيذ مشروع مصنع الحديد والصلب . ويقدر خبراء مصلحة المناجم كمية الحديد الموجودة في هذه المنطقة مبدئيا بنحو عشرين مليون طن .

وينتظر أن توجد مناجم أخرى للحديد في وادي الكريم ووادي سويجاب أم لصف ، ووادي أم حجالبج ، ولعل حديد هذه المناطق مغناطيسي على شكل طبقات عمودية تتجه إلى باطن الأرض ويتراوح سمكها بين ٣٠ سنتيمترا و ١٥ مترا ، وترتفع عن سطح الأرض من ٥٠ إلى ١٥٠ مترا .

ويحتمل أن توجد مناجم للحديد فى الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء .

وقد قرر مجلس الوزراء الموافقة على مشروع إنشاء مصنع للصلب والحديد تساهم فيه وتديره شركة تساهم فيها الحكومة المصرية والشعب المصري والممولون الأجانب ، على أن يكون ٥١ فى المائة منها لمصر حكومة وشعباً ، والحكومة تقدم عن نصيبها فى رأس المال ما يوازى قيمة المعدات واللوازم التى اشترتها أخيراً من ألمانيا وتقوم بإعدادها فى منطقة حلوان . وسيحدد إنتاج المشروع الكامل فى أول مراحله بما لا يقل عن ١٥٠ ألف طن من الحديد والصلب ثم يتوسع به فى المستقبل تمشيا مع التطور الصناعى وتحتفظ الحكومة المصرية لنفسها بحق الأولوية فى الحصول على ما تحتاج إليه من منتجات الشركة اللازمة لأغراضها المختلفة .

قنوات السدود بأعالى النيل :

بين بلدة جونجلى (القريبة من بحر الجبل فى جنوب السودان) ومنطقة الملكال (بين بحر السوباط والنيل الأبيض) مياه وأنهار كثيرة تضيع سدى فلا يستفاد منها فى حصيلة مجرى النيل . وقد قامت وزارة الأشغال المصرية ومهندسو الرى فيها من مصريين وأجانب بالتفكير فى مشروع لشق قناة تجمع هذه المياه وتذهب بها من منطقة بلدة جونجلى إلى النيل الأبيض لتزيد فى حصيلة النيل فيستفاد منها فى الرى مدة التحاريق . وهذه القناة التى يراد شقها يبلغ طولها ٣٠٠ كيلو متر وعرضها ١٢٠ متراً وعمق المياه فيها خمسة أمتار وتصرفها اليومى ٥٥ مليوناً من أمتار المياه المكعبة فى أثناء الفترة الحرجة وإذا ضمت هذه الحصيلة المائية إلى المنقول بواسطة بحر الجبل يزداد الماء الواصل الى أسوان أيام التحاريق بمقدار خمسة مليارات و٢٠٠ ألف من الأمتار المكعبة فى سنة متوسطة الإيراد .

ويشمل المشروع أيضاً توسيع قناة جونجلى أو تشق قناة أخرى بجوارها موازية لها لحمل خمسة مليارات أخرى من الأمتار المكعبة تصرف من الخزان فى الفترة الحرجة أيضاً لزيادة الماء الواصل لأسوان بمقدار ٣ مليارات و ٣٠٠ ألف متر فى السنين الشحيحة الإيراد . وإذا تم هذا كله تصبح الزيادة المتوفرة فى أيام التحاريق ٨ مليارات ونصف من الأمتار المكعبة ويقدر المسئولون بوزارة الأشغال التكاليف الخاصة بهذا المشروع بنحو ٢٨ مليوناً من الجنيهات .

وقد دعت وزارة الأشغال لجنة دولية من كبار مهندسى الرى مؤلفة من مستر ب . و هـ . بليجن الخبير الهولندى ، ومستر ز . ا . س رولف ممثل شركة بروس وهويت الانجليزية ،

ومستر ف . هنرى شون الخبير الامريكى لزيارة المنطقة المراد شق هذه الترعة فيها بين جونجلى والنيل الأبيض ، وزودتهم بمذكرة عن هذا المشروع وضعها الدكتور محمد أمين ومستر بايدوج المفتش العام المساعد للنيل الجنوبى ، ووزعت عليهم خرائط التقطت لمنطقة السدود من الجو ، وتسلموا مذكرات أعدها الدكتور محمد مجاهد الأستاذ المساعد لعلم النبات بكلية العلوم عن نتيجة دراساته وبحوثه فى الحشائش والنباتات الموجودة فى منطقة السدود . ثم وزعت عليهم مذكرة بالقواعد التى سيجرى عليها بحث المشروع ، وبرنامج الرحلة إلى تلك المنطقة .

وبالفعل سافرت هذه اللجنة بطريق الجو لمعاينة مكان الحفر وطوله وطبيعة أرضه وصخوره وحشائشه ، وصحبهم فى هذه الرحلة الخبير الفنى لوزارة الأشغال والمفتش العام للنيل الجنوبى وينتظر أن ينتهوا من مهمتهم فى أوائل شهر ديسمبر .

انارة مكة بالكهرباء

كانت مكة محرومة من الكهرباء فى زمن الحكم العثمانى ثم فى زمن الحكومة الهاشمية . وبعد التحاق الحجاز بالمملكة السعودية دخلت الكهرباء هذه المدينة الإسلامية المكرمة بما اقامه بعض الامراء والأعيان من أجهزة توليد خاصة عقب تنوير الحرم المكى بالنور الكهربائى .

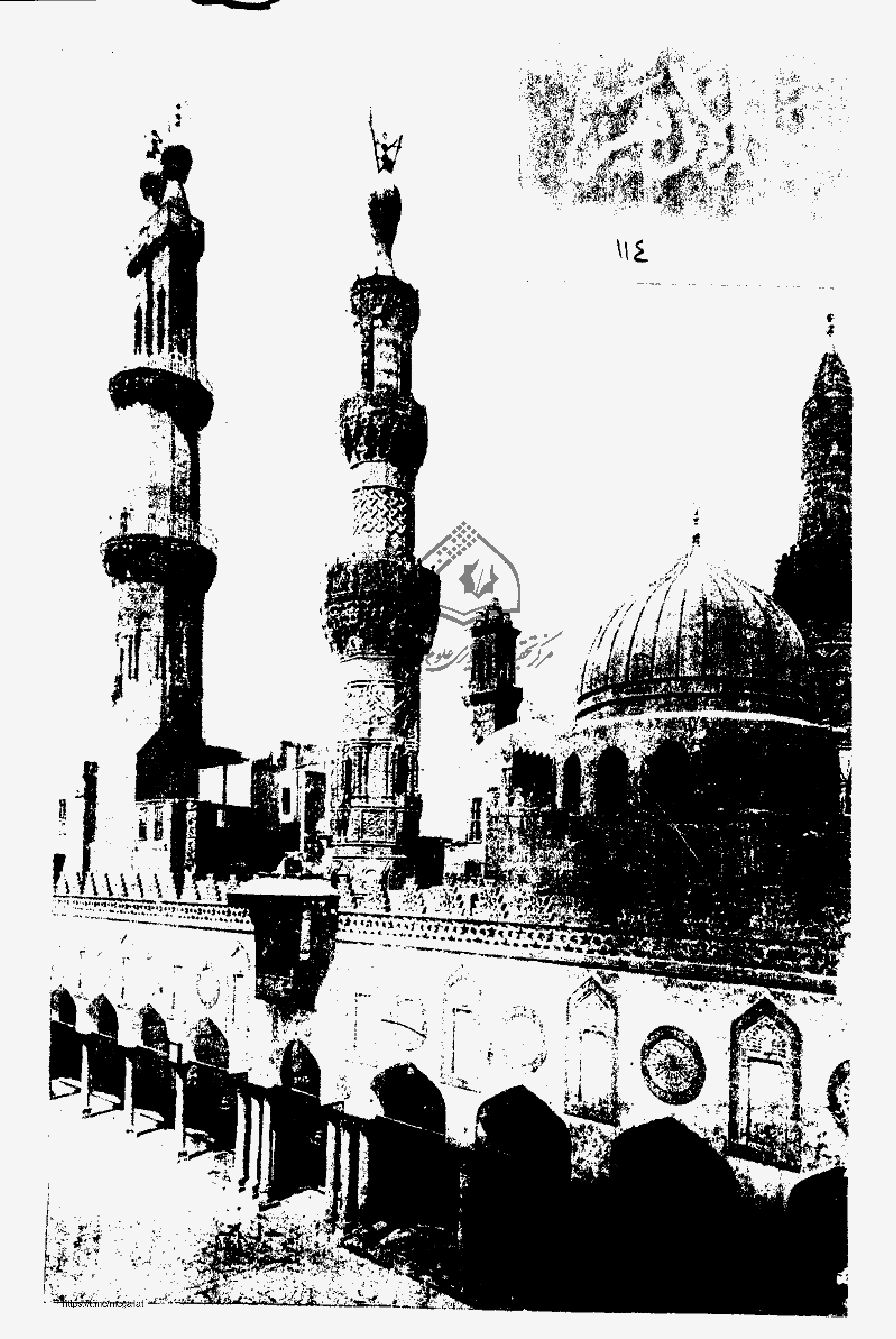
وأخيراً أخذت الحكومة السعودية فى إنشاء محطة توليد كبرى فى خارج البلد الحرام وقد أوشكت أن تتم فيتيسر بها تنوير مكة كلها بالكهرباء ، وسوف تنتج هذه المحطة فى الأشهر القريبة الآتية ٤٠٠٠ كيلووات ولا يمر وقت آخر حتى يزيد الإنتاج إلى ١٠٫٠٠٠ . وتوجد غير هذه المحطة الكبرى ١٥ محطة فرعية صغيرة داخل مكة . ويبلغ طول الأسلاك الكبيرة المستخدمة فى هذا المشروع ٢٥ ميلا ، ولا يقوم على تنفيذ هذا العمل إلا مسلمون .

دنانير اسلامية :

عثر عمال كانوا يحفرون لمصلحة الآثار المصرية تحت السور الأثرى لكنيسة أبادير وبوحنا فى خارطة الشيخ مبارك بحى مصر القديمة (الفسطاط) على أربع دنانير ذهبية إسلامية نقش على وجهها بالخط الكوفى « لا إله إلا الله لا شريك له ، محمد رسول الله » وحجم الدينار ووزن ذهبه أقل من نصف الجنيه الإنجليزى ، وقد باع العمال هذه الدنانير إلى أربعة من الصاغة وتجار من الحلى ثم اختلفوا فيما بينهم فافتضح أمرهم واستطاع البوليس أن يسترد دينارين من التاجرين اللذين اشترياهما . والمظنون أنهما من العصر الطولونى قبيل مجىء الفاطميين . ولا يبعد أن تظهر فى تلك المنطقة نقود أخرى عندما يستمر الحفر تحت السور .

فهرس

الجزء الثالث — المجلد الرابع والعشرون


١١٤

مدير المجلة
محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

العنوان
إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

رئيس التحرير
محب الدين الخطيب

الاشتراك السنوي
٥٠ في مصر والسودان
٣٠ للطلبة في مصر والسودان
٦٠ في الخارج
٤٠ للطلبة في الخارج
٥ ثمن الجزء

الجزء الرابع - القاهرة في غرة ربيع الثاني ١٣٧٢ - ١٩ ديسمبر ١٩٥٢ - المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام والسلام

إن من الأديان ما يدعو أتباعه إلى المحبة العامة للبشر، ولا يحول بين تعاون أتباعه وأتباع الديانات الأخرى، سواء أكانوا يسكنون معهم في وطن واحد أم كانوا يسكنون أوطاناً أخرى من هذا العالم.

وإن منها ما ليس كذلك، فلا يدعو إلى محبة ولا تعاون، بل ربما وقف في سبيل التعاون البشري والإخاء الإنساني، وهذا يكون إما من تحريفه أو بطلانه. وإن مثل هذا الدين يكون شراً تنوء به الحياة لأن الاختلاف بين البشر في العقائد والأديان واقع ماله من دافع، وليست هناك قوة يمكنها رفعه، فإذا جهل الدين هذه الحقيقة، وأراد محو الأديان الأخرى ما عداه، فلم يكن فيه عنصر التعاون مع أتباعها، كان محاولا ما لا يكون، إنما الذي يكون هو الشقاق والتنابذ والحرب المتأججة التي لا تخمد، والحكم الحق على هذا الدين أنه لا يصح أن يكوّن أتباعه مع أتباع دين آخر وطنا واحداً، ولا يصلحون أن يتعاونوا وسكان هذا العالم، وهل أسوأ من وطن يتعادى أبناؤه ولا يقدرون على التعاون على جلب مصلحة له أو دفع مفسدة عنه ؟

وهل أسوأ من أمة تكون نشازاً في هذه الدنيا ؟ تعادي الأمم الأخرى وتذكي نار الحرب، وتكدر السلم وتقف في طريق الغاية العظمى للإنسانية، وهي السلام الدائم على هذه الأرض.

أما الدين الأول فهو نعمة وبركة على معتنقيه وعلى من لا يعتنقونه ، فهو لا يدعو معتنقيه إلى التورط فى حروب تلو حروب ولا يكدر سلام العالم بشن الغارات وحمل السلاح .

والدين الإسلامى أين مكانه ؟ أفيه عنصر تعاون أتباعه مع من يخالفونهم ؟ أم هو من الشق الثانى ؟ فهو حرب على الأديان الاخرى يشن عليها الحروب ويغير عليها كلما واتته فرصة ؟

إن الباحث المحقق يجد الدين الإسلامى من الأديان التى تدعو إلى السلم ، والذى يمكن أن يتعاون أتباعه مع المخالفين فى دولته أو فى دول أخرى . وذلك يتضح من أمور :

١ — أنه بيّن فى غيرما آية ، أن الاختلاف فى العقائد والأديان من ضرورات البشر ، والله حكم بذلك فهو واقع لابد منه ، ومحاولة تغيير سنن الكون عناء فى عناء ، لاتجدى إلا الكد والنصب فيما لا يكون ، « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

وإذا علم المسلم أن طبيعة البشر تقتضى ذلك وأن هذه مشيئته ، لم يكن ثمت داع للحقد ولا للبغض .

٢ — أنه وضع هذه القاعدة الفاصلة التى لا هوادة فيها « لا إكراه فى الدين » ، فكل امرىء يختار عقيدته ، لا سلطان لكائن ما عليه ، فله أن يتخير عقيدته كما يتخير ثوبه ، وهذه توجب على المسلمين ألا يحاولوا إكراه أحد على الإسلام ، وألا يقاتلوا أمة ليخرجوها من دينها .

٣ — قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ، أجاز فى الاسرى أن يمن المسلمون عليهم فيطلقوهم ويهبوهم حياتهم بدون عوض ، أو يأخذوا منهم عوضاً فيطلقوهم بفداء ، وفى هذا تعليم عملى للمسلمين أن يعطوا مخالفيهم حق الوجود ، وأن يمنحوهم إياه حتى بعد اعتدائهم وحربهم والقدرة عليهم .

٤ — أنه أجاز أن يعقد المسلمون مع من يخالفونهم فى الدين ذمة ، وأن يسكنوا فى وطن واحد .

٥ — أن الرسول بيّن حقوق أهل الذمة والعهد ، فإذا هى مثل حقوق المسلمين ، لهم مالنا وعليهم ما علينا ، أى لهم ما لنا من حقوق وعليهم ما علينا من واجبات .

٦ — صرح تصريحاً قاطعاً لا يقبل الشك ولا التأويل ، أن الاختلاف فى الدين لا يؤدى إلى عدم البر بالمخالفين وتوليهم والعدل فيهم ، إنما الذى يؤدى إلى ذلك هو عدوانهم :

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

٧ — أن القرآن دعا إلى الرفق والصبر والدعوة إلى الحق بالتى هى أحسن ، وحصر مهمة الرسول فى البلاغ :

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

« فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » ، « وما أنت عليهم بجبار » « ادفع بالتى هى أحسن السيئة » ، « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » ، « فإن تولوا فإنما عليك البلاغ » .

هذه القواطع والأصول التى ينبغى أن تكون محكمة فتجعل أم الكتاب وكل ما خالفها من المتشابه يرد إليها .

ولعل قائلا يقول : إن ما ذكرته من دعوة الإسلام إلى السلم يعارضه ما ورد فيه من الدعوة إلى الحرب وقتال المشركين كافة : « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال » ـ « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » ـ « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب » ، « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم » ، « فليقاتل فى سبيل الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة » ، « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » .

أليست هذه الآيات تدل على أن الإسلام دين حرب ، وأنه يدعو إلى القتال ويطلب أن نقاتل الكافرين لكفرهم والمشركين لشركهم ، ويرى أن الكفر والشرك جريمة عقابها الحرب ، حتى يقلعوا عنها كما ورد .

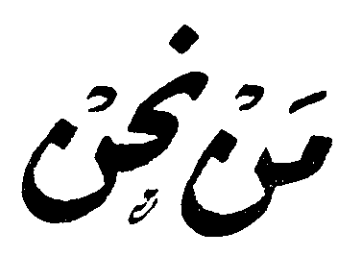
قلنا إن من المخالفين من ناصبوا المسلمين العداء وحاربوهم ووقفوا فى سبيل الدعوة ، وهؤلاء هم الذين أباح الإسلام قتالهم ، بل حض عليه ، وما كان يطلب أحد من الإسلام أن يغضى عمن ناصبوه العداء ، وأن يطلب من معتنقيه أن يقفوا مكتوفى الأيدى ، وأن يمدوا أعناقهم للذبح ، لا يكلف أحد الإسلام بذلك ، لأنه يخالف طبيعة الوجود والمبدأ القائل : لكل

أحد حق الدفاع عن نفسه ، ويكفى الإسلام حبا للسلام أنه يبغيه ويطلبه ، مع من لم يعتدوا عليه ، ولا يقدح فى حبه للسلام ودعوته إليه أنه يأمر أهله بقتال من يعتدون عليهم . وهذا هو محمل الآيات والأحاديث التى تدعو إلى الجهاد والقتال وهى تارة تأتى مقيدة بالعدوان وتارة تأتى مطلقة عن التقييد لعلمه . من الحال ، كأن يكون الكلام فى قوم مقاتلين بالفعل ، أو لعلمه من النصوص التى تحرم قتال من لم يعتد ، وما كان الله ليترك هذه المسألة وهى تتعلق بمستقبل البشرية وسلام العالم ، دون نص قاطع وبيان واضح وقد جاء هذا البيان فى قوله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » ، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم » ، « لا إكراه فى الدين » .

أعلم أن من أعداء الإسلام من يتهمون الإسلام بهذه التهم ويلصقونها به ، وهم قوم يكرهونه ويكيدون له ويريدون محوه من الوجود ، ويرون أن السبيل المعبدة لذلك ، هى تأليب دول العالم عليه وإفهامهم أنه حرب للسلام وللتعاون البشرى والإخاء الإنسانى ، ليقفوا منه موقف العداء ويحاربوه بكل سلاح .

إنهم يجهدون فى أن يفهموا الدول القوية أنه غير صالح للبقاء ، وأنه لا يجارى روح العصر فى الغاية العظمى من نشر السلام ، وأنه شر على أتباعه وعلى الإنسانية ، لأنه لو ترك وشأنه ، لورّطها فى حرب تلو حرب ، وفى نزاع دائم وخلاف مستمر ، لذلك يجب أن تقلم أظفاره ويحارب كما تحارب الجراثيم الضارة والأوبئة المهلكة ، وهذا هو الذى يجعل هذا البحث أعظم جدوى وأجل فائدة وأعز على المسلمين وعلى أهل الأرض من كل بحث سواه ، إنه يدفع هذه التهم الباطلة عن الإسلام ، ويرد هذا السلاح الخطر الذى يكيد به أعداء الإسلام للإسلام ، إنه يعلم المسلمين موقف الإسلام من السلام فيعملوا عليه فلا يضيعوا جهودهم فى جهاد فى غير عدو ، ويعلم أهل الأرض ذلك فلا ينظروا إلى أهل الإسلام نظرهم إلى العدو المتربص الذى يريد أن ينقض ، ونتيجة ذلك التعاون والسلام .

محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء



قبل نحو تسعة أشهر ، وكان قد مضى أربعة أسابيع على حريق القاهرة ، أراد صحفى مصرى أن يستنير برأى سياسى مصرى قادم من أمريكا حيث كان ينظر إلى مصر من بعيد فيحكم على ما يقع فيها وهو غير متأثر بالأعراض والأغراض التى يتأثر بها المتأثرون بالعادة والإلف ، فسأله الصحفى :

ــ ماالذى تراه من أحوالنا هنا ؟ إننا نحن الذين نعيش داخل الدوامة العنيفة من الأحداث الكبيرة التى تجرى فى الوطن ، لا نستطيع أن نرى كل شىء ، وأنت هنا تمتاز عنا بأنك تقف بعيداً ولكن عينك دائما على الوطن ترى كل مايحدث فيه .

والسياسى الموجه اليه هذا السؤال هو الأستاذ محمود فوزى وزير خارجيتنا الآن ، وكان إلى ذلك الحين مندوب مصر فى الأمم المتحدة . والسؤال أكبر وأخطر من أن يجيب عنه رجل رسمى كالأستاذ محمود فوزى ، ولذلك سرعان ما غير موقفه من سائله وقال له :

ــ أريد أن أسألكم جميعاً وأسأل نفسى معكم :

« من نحن ؟ أين نحن ؟ ماذا نريد ؟ ما هى وسائلنا لتحقق ما نريد ؟ » .

وهذه الأسئلة التى وجهها إلينا وزير خارجيتنا ، بل مندوب مصر الدائم فى الأمم المتحدة ، بقيت من ذلك الحين بلا جواب . ولأجل أن يلفت الأستاذ محمود فوزى الأنظار إلى خطورتها وجه الى أمته السؤال الآتى :

« ما هو رأيكم ـ مثلا ـ فى رجل تلتقون به فى الطريق العام ، وهو يعدو بأقصى سرعة ، وتستوقفونه قليلا وتسألونه عن اسمه . فإذا هو لا يعرف اسمه . وتسألونه عن عنوانه وعمله ، فإذا هو بلا عمل ولا عنوان . وتسألونه عن وجهته ، فإذا هو (منطلق) فى الطريق ، منطلق إلى غير هدف محدد ، وبدون غاية يقصدها . ما هو رأيكم فى مثل هذا الرجل الذى

لا يعرف نفسه ؟ لقد أصبحت أعتقد أن سر أزماتنا جميعاً يرجع إلى جهلنا بأنفسنا ، وبت أعتقد أن ظروفنا لم تعد تحتمل بعد اليوم أن تبقى نفوسنا سراً مغلقاً علينا . دعونا نحاول أن نعرف نفوسنا . فإن هذا وحده هو المفتاح الذى يفتح أمامنا جميع المسالك ، وحاولوا أن تجيبوا عن هذه الأسئلة الأربعة تبنوا لنا جسراً عاقلا نعبر عليه مرحلة الخطر ! » .

إن الأستاذ محمود فوزى لم يحاول الإجابة عن أسئلته الأربعة ، لكنه توسع فى عرضها عرضا سريعاً بمقال نفيس [1] أظن انى لم أقرأ عن المجتمع المصرى مقالا أنفس منه منذ عشرين سنة .

من نحن ؟

هـذا السؤال وضعه الأستاذ محمود فوزى على لسان مصر حكومة وشعباً ، ويصح أن يوضع على ألسنة الأقطار الممثلة فى جامعة الدول العربية ، وعلى ألسنة الأقطار التى يتألف منها العالم الإسلامى كله . . . وإذا أجيب عنه بجواب سديد كان مفتاح التوجيه السليم لكل مجتمع إسلامى وفى مقدمته مصر .

لقد مر علينا زمان فى مدة الاحتلال البريطانى لمصر ، كان يتبجح فيه بعض الكتاب بالتحدث عن الأمم التى احتلت مصر فيقولون : إن مصر وقع عليها الاحتلال من الرومان والفرس والعرب والكرد والشركس والترك والفرنسيس والإنجليز . وهم لا يقولون هذا فى معرض الشكوى من احتلال الفرنسيس والإنجليز ، بدليل أنهم فى مقالات أخرى مما خطته أقلامهم يذكرون حسنات الاحتلال الفرنسى والإصلاح الذى تم فى مصر مدة الاحتلال البريطانى . بل لعل هذه الحسنات الفرنسية وهـذا الإصلاح البريطانى مما سجلوه بأقلامهم حتى فى كتب الدراسة الابتدائية والثانوية . وهذا يدلك على أنهم يريدون من سرد أسماء الأمم التى احتلت مصر أن ينقشوا فى أذهان قرائهم من المصريين ولا سيما الطلبة أن العرب كانوا محتلين لمصر ، وأن مصر التى مر على عروبتها أربعة عشر قرنا لا تزال غير عربية ، وأن الذين تولوا الحكم فى مصر من أبناء الامم الإسلامية الأخرى كانوا يمثلون احتلالا

---

(١) فى مجلة آخر ساعة العدد ٩٠٥ الصادر فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٢ .

أجنبياً ، متجاهلين ما كان بين هؤلاء وبين المصريين من وحدة العقيدة وآصرة الإسلام واتحاد الهدف من زمن الصحابة رضوان الله عليهم حتى الآن . فنشأ فى مصر بسبب هذه الدعايات نشء إذا أراد أن يتساءل « من نحن ؟ » يمر فى ذهنه طائف من الشكوك فى أن مصر عربية ، وأن الإسلام دخيل طرأ عليها . والطلبة الذين لا يجدون فى مناهج تعليمهم ما يعرفون به حقيقة الإسلام ، معذورون إذا صدقوا أن الإسلام أثر من آثار الاحتلال .

يقول الرئيس محمد نجيب - سدد الله خطاه ، وحقق له أمانيه الصالحة - فى كلمة له ألقاها فى مدرسة القبة النموذجية الثانوية ، وقد نشرناها فى الجزء الماضى (ص ٣٨٣) : « إن الدين أساس الأخلاق . ولقد تلقيت تعليمى فى السودان فى مدرسة كان يشرف عليها إنجليز ، ومع ذلك فقد كان بها مسجد ، ولذا فأنا مندهش من أن هذه المدرسة ليس بها مسجد . وأنا لإيمانى بأن الدين أساس الأخلاق لا أمانع فى تدريس الدين ، حتى الدين اليهودى ، بشرط أن يكون فى أيد أمينة ، وأنا أحب أن نقيم الأخلاق على تعاليم الدين » .

وأنا أقول للرئيس محمد نجيب : إن مدرسة القبة الثانوية ليس بها مسجد لأن الدعاية التى كانت منتشرة مع تيار العهد المنصرم ، كانت تتنكر للإسلام وتربية النشء عليه ، وكان القائمون عليها يعتبرون العروبة والإسلام احتلالا ، ولذلك فإن جميع الطوائف التى تعيش فى مصر - من كاثوليكية أو أرثوذكسية أو يهودية - تعتنى فى مدارسها بآداب دينها وعقائده ، وتبث ذلك فى قلوب أبنائها ، حتى يجرى فى عروقهم مع دمائهم . أما المسلمون فأيتام ، ليس لهم من يحقق لأبنائهم أمنية الرئيس محمد نجيب التى أشار إليها فى كلمته ، فلا عجب إذا أدهشه أن لا يرى فى مدرسة القبة النموذجية الثانوية مسجداً ، ولو وجد فيها مسجداً لرآهم قد اتخذوه مخزناً للمهملات ، ولو لم يشغلوه بالمهملات لكان من المستبعد أن يكون فى المدرسة تلاميذ تربوا على الخوف من الله والرجاء له واللذة بالوقوف بين يديه خلف إمام تعنى المدرسة بإشرافه عليهم فى دينهم كإشراف مربى الرياضة البدنية عليهم فى ألعابهم اليومية .

إن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر تحدث عن التعليم فى المدارس المصرية حديثاً نشرناه فى جزء صفر من هذه المجلة (ص ١٩٨ - ٢٠٠) فكان مما قاله : « إنه تعليم جاف

لا يعنى بتكوين الإنسانية فى الإنسان ، ولا الإسلامية فى المسلم ، ولا الوطنية فى ابن الوطن ، ولا يصل حاضر الأمة بماضيها فى طريقهما إلى أهداف قومية متحدة ، ثم قال : « ولعل أصدق شهادة على هذه الحقيقة جنوح كثير من كبار رجال وزارة المعارف نفسها - فضلا عن غيرهم - إلى تخريج أبنائهم فى مدارس أجنبية ، يعلمون أنها أسست لأبناء جاليات لا حاجة بهم إلى كثير مما يحتاج إليه التلاميذ المصريون فى قوميتهم ودينهم ، لكنهم اضطروا إلى الرضا لأبنائهم بهذه المدارس الغريبة عنهم ، العارية من أمس حاجاتهم القومية والملية ، فراراً من ناحية الضعف التى أزمنت عللها فى مدارسنا ، واستشرى داؤها مدة نصف قرن وأكثر » .

وكل هذا متفرع عن الأصل الأصيل وهو أن القائمين على وزارة المعارف المصرية من نصف قرن إلى الآن لا يريدون أن يعترفوا بأن مصر بلد إسلامى ، ولو عرفوا ذلك واعترفوا به لربوا أبناء هذه الأمة تربية إسلامية ، لكنهم لا يفعلون ، لأنهم إذا تساءلوا « من نحن ؟ » قد يخطر على بالهم أن يجيبوا عن هذا السؤال بعشرين جواباً ليس فيها جواب واحد ينطقون به بشجاعة وصراحة قائلين : « نحن مسلمون » . ولو أنهم عرفوا بأنهم مسلمون وأنهم مؤتمنون على أبناء أمة إسلامية ، لاستعدوا الاستعداد التام لتربية التلاميذ المسلمين تربية إسلامية ، كما يربى التلاميذ الأرثوذكس فى المدارس الأرثوذكسية تربية أرثوذكسية ، وكما يربى التلاميذ الكاثوليك فى المدارس الكاثوليكية تربية كاثوليكية ، وكما يربى التلاميذ اليهود فى المدارس اليهودية تربية يهودية . وإذا كان هذا لم يتحقق قبل الآن ، فذلك لأن البلد لم يكن فيه رجل قوى جهير الصوت كالرئيس محمد نجيب ينادى بأعلى صوته صادقاً مخلصاً : « إن الدين أساس الأخلاق ، وأنا أحب أن نقيم الأخلاق على تعاليم الدين » .

أما وقد قالها هذا المصلح السليم الطوية المخلص لأمته ووطنه ، فقد آن لوزارة المعارف أن تعلم أن هذا هو طريق العهد الحاضر فى التعليم ، ومن الجناية على الوطن إضاعة سنة أخرى حتى نستعد لذلك فى العام الآتى ، وإذا كان ما لا يدرك كله لا يترك جله ، فينبغى أن تصدر الأوامر والمنشورات من هذه الساعة إلى نظار المدارس ومدرسيها جميعاً بملاحظة ذلك ومحاولة تحقيقه من صميم القلب وبكل الوسائل الممكنة على قدر الطاقة ، إلى أن ترسم له الخطط الثابتة من بداية العام الدراسى القادم ، وأن يعتبر المتلكىء فى هذا الأمر عضواً أشل فيبادر إلى بتره حالا .

لقد كنا فيما مضى لا نعلم « من نحن ؟ » بشهادة سياسى كبير من رجالنا .

أما الآن فيجب أن نعلم « أننا مسلمون » ، ويجب أن تقوم تصرفاتنا كلها على هذا الاساس ، وأن ترمى أعمالنا إلى هذا الهدف ، وأن نلاحظ ذلك فى كل حركة من حركاتنا وعمل من أعمالنا .

* * *

ويأتى بعد ذلك موقفنا من أسرة العروبة ، ومنزلة الكرسى الذى يمثل مصر فى جامعة الدول العربية ، والأثر الذى تركه فينا تكلمنا بلغة العرب وتأدبنا بالأدب العربى من زمن عمرو بن العاص إلى اليوم .

إن القومية فى القبيلة وحياة البادية مناطها الانساب ، لأن حياة القبيلة قائمة على الانفراد والانزواء فى دائرتها فى أغلب الاحوال .

أما الحضارة فإنها بوتقة تذوب فيها الأصول والأنساب ، والعبرة فيها لرابطة اللغة أولا ، وللمصالح المشتركة ثانياً . فسكان فرنسا - مثلا - ليسوا جميعاً من أصل واحد ، والفرنسى فيها يكون فرنسياً ولو كان جده الثانى إيطالياً أو إسبانيا . ونابليون بونابرت - وهو من مفاخر فرنسا - مولود فى الجزيرة الإيطالية كورسيكا ، من أبوين كانا يتكلمان اللغة الإيطالية . بل يقال عن بسمارك إن أجداده من أصل صقلبى ، وكثير من سكان ألمانيا الشرقية تجرى فى عروقهم الدماء الروسية . والكاشانى الذى هو اليوم فى مفاخر إيران عربى قرشى يعرف نسبه فى بنى هاشم . وكمال أتاتورك من سلانيك ، وقد يكون جده الثالث من أصل غير تركى . بل أكثر سكان الأناضول إما من أصل رومى أو من سلالة الحيثيين الذين تقول التوراة عنهم إنهم إخوة الكنعانيين (أى الفينيقيين) ، وهؤلاء أصلهم من نجد العربية ومن سواحل الأحساء على الخليج الفارسى . فهذه الاعتبارات التاريخية فى الأصول والأنساب لم تمنع سكان أى قطر متمدن من أن ينتموا إلى قومية اللغة التى ولدوا يتكلمون بها ، ونشأوا متأدبين بأدبها ، وقد تكون لغتهم وآدابها حديثة عهد من بضع مئات من السنين . أما مصر التى تتكلم اللغة العربية من أربعة عشر قرنا ، وتتأدب بالأدب العربى حتى صارت لها فيه الإمامة والقيادة ، فإنها لا تزال تتساءل « من نحن ؟ » . ويريد بعض حملة الأقلام فيها أن

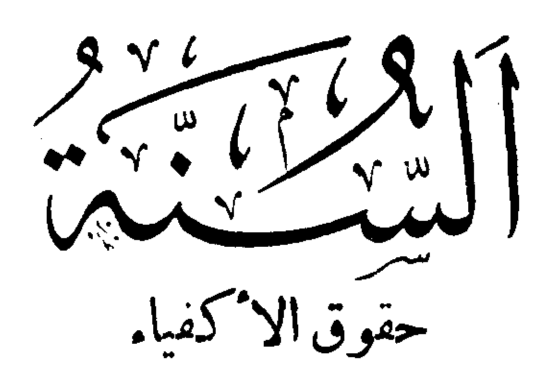
يقولوا إن العربى لا يكون إلا أعرابياً ، فإن لم يكن أعرابياً فلا تكفى عراقته فى العربية وآدابها أربعة عشر قرنا ليقول بملء فيه ومن صميم قلبه ، نحن عرب مصريون ، كما يقال فى العراق ، نحن عرب عراقيون ، وكما يقال فى سوريا ، نحن عرب سوريون ، .

إن الأسيوطى أسيوطى ومصرى لأن أسيوط جزء من الوطن المصرى ، والمصرى مصرى وعربى لأن مصر جزء من الوطن العربى ، والعربى المسلم عرب ومسلم لأن الوطن العربى جزء من العالم الإسلامى . وكذلك الأندونيسى المسلم أندونيسى ومسلم لأن أندونيسيا جزء من العالم الإسلامى ، والباكستانى المسلم باكستانى ومسلم لأن باكستان جزء من العالم الإسلامى. وكون الأسيوطى أسيوطياً ، لايتعارض مع كونه مصرياً ، وكون المصرى مصرياً ، لايتعارض مع كونه عربياً ، وكون العربى المسلم عربياً ، لايتعارض مع كونه مسلماً . فكل فرد منا إذا اعتبر نفسه فى مركز دائرة فإن بلده الذى ولد فيه هو الدائرة الصغيرة الأولى حول النقطة المركزية ، ومصريته هى الدائرة الثانية التى تلى الدائرة الأولى ، وعروبته هى الدائرة التى تلى مصريته وتشملها ، وجامعته الإسلامية هى الدائرة الكبرى الجامعة التى تحيط بذلك كله ولا تتنافى مع شىء منه .

من نحن ؟ هذا السؤال يجب أن لا يبقى بلا جواب . ومتى عرفنا من نحن ، عرفنا المشاركين لنا فى المصالح ، والخارجين عنا فيها ، وعرفنا واجباتنا نحو ما ننتمى إليه ، لأنها فى الواقع واجباتنا نحو أنفسنا . وهذه المعرفة التى يتم بها الجواب عن السؤال الأول من الأسئلة الأربعة التى وجهها الأستاذ محمود فوزى إلى نفسه وإلى أمته ، كفيلة بالجواب عن الأسئلة الثلاثة الأخرى ، فنعرف أين نحن ، وماذا نريد ، وما هى وسائلنا لنحقق ما نريد ؟

وعلى معاهد التعليم كلها ، من يومنا هذا ، أن لا تكتفى بأن تعرف « من نحن ؟ » ، بل تستعد لتعريف ذلك لأبناء الجيل كلهم من طلبة المدارس ، حتى إذا آمنوا بمصريتهم وعروبتهم وإسلامهم ، تجندوا للعمل بهذا الإيمان ، يوم يتولون أزمة الوطن فى حكومته وأسواقه ومرافقه ومعاهده ، وكان بذلك البعث الذى ينشده العهد الحاضر ، ويعمل لتحقيقه ؟

محب الدين الخطيب



حقوق الأكفياء

تقدير الكفايات ـ مثلان فى السياسة العليا ـ جيش الأمراء ـ مكان الحب وابن الحب ـ طعن فى غير مطعن ـ الإسلام يمحو العصبية ـ أروع الأمثال فى إكبار القادة .

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : بعث النبى صلى الله عليه وسلم بعثا ، وأمَّر عليهم أسامة ابن زيد ، فطعن بعض الناس فى إمارته . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن تطعنوا فى إمارته فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل : وايم الله إن كان لخليقا للإمارة ، وإن كان لمن أحبِّ الناس إلىّ ، وإن هذا لمن أحب الناس إلىّ بعده » رواه الشيخان ، واللفظ للبخارى .

* * *

إذا كان من حقوق الأمة على بنيها أن يسخروا قواهم لخيرها ، ويجندوا أنفسهم لعزها ومجدها ، فإن من حقوق أقويائها الأمناء ، وعلمائها الأتقياء ، أن يكونوا موضع الثقة والعناية منها ، والتجلة والإعزاز فيها ؛ كل له مقام معلوم ، ومكان محفوظ ، كِفاء ما وهب الله له من موهبة ، وما منحه من فضيلة ، وما آتاه من قوة فى الحق ، وبصر فى تقدير الأمور .

وبتقدير الأمم للكفايات وحدها ، دون أن يكون للعداوة أو المحبة أو غيرهما سلطان ، فى تولية أو حرمان ـ تستقيم أمورها ، وتصلح شئونها ، ويشتد بنيانها ؛ لأنها وقيت شر التحاسد والتحاقد ، والتقاطع والتباغض ، إلى غير أولئك من معاول الهدم فيها والقضاء عليها !

* * *

حسبك من السياسة الرشيدة أن تقدر الكفايات قدرها ، وتسند الأمور إلى أهلها ، غير ناظرة إلا إلى المصلحة الخالصة وحدها ، فإذا صاحب الكفاية تقرير قاعدة من قواعد الإصلاح ، أو تثبيت أصل من أصول التربية ، أو هدم عامل من عوامل الفساد ـ فذلك منتهى السمو فى سياسة الشعوب ، وغاية الرشد فى قيادة الأمم .

وفى هذا الحديث من ضروب السياسة العليا ، التى يهدى بها النبى ﷺ أمته إلى طريق الكمال الإنسانى ، مثلان : تأميره أسامة بن زيد حِبه وابن حبه ، على جيش عدته ثلاثة آلاف ، فيهم سبعمائة من قريش ، منهم كبار المهاجرين والأنصار ، وفى طليعتهم الشيخان : أبو بكر وعمر ، وأمين هذه الأمة : أبو عبيدة بن الجراح . بعث به إلى مشارف الشام ، وهى حدودها مما يلى الصحراء . وكان هذا آخر جيش جهزه النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته ، وأول جيش أنفذه الصديق رضى الله عنه فى خلافته ؛ وتأميره أباه زيداً من قبله على جيش عدته ثلاثة آلاف كذلك ، بعثه إلى مؤتة من مشارف الشام أيضا ، وولى عليه ثلاثة أمراء أولهم زيد ؛ عقد له النبى صلى الله عليه وسلم لواءً أبيض ودفعه إليه ، وقال : إن قتل زيد فأميركم جعفر بن أبى طالب ، فإن قتل فأميركم عبـــد الله بن رواحة ، فإن قتل فليرتض المسلمون برجل منهم ، ومن هنا سمى هذا الجيش بجيش الأمراء .

* * *

ومن أعلام نبوته ﷺ أن ينعى الأمراء الثلاثة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فيقول : أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة ، فأصيب — وإن عينى رسول الله ﷺ لتذرفان — ثم أخذها سيف من سيوف الله خالد بن الوليد من غير إمرة ففتح الله تعالى له .

والحكم بالغة لم يول خالداً أول الأمر ، قد يكون منها أنه حديث عهد بإسلام ؛ إذ لم يكن مضى على إسلامه قبل هذه الغزوة الأولى له أكثر من ثلاثة أشهر ، فتوليته إذ ذاك لا تصادف من الجيش موقعاً وقبولا ، وإذا اختلف الجيش فقل على النصر السلام !

وبعد أن شرف الله الأمراء الثلاثة بالشهادة فى سبيله ، نصر المسلمين على يد خالد نصراً عزيزاً ، وهزم عدوهم هزماً ذليلا ، وكانوا مائة ألف أو يزيدون .

* * *

جهز النبى ﷺ جيش الأمراء دفاعا عن الإسلام ، وتثبيتاً لقواعد السلام ، وإرهاباً لأولئك الذين اعتدوا على حرمات المسلمين ، وقتلوا رسول رسول الله ﷺ ، مع أن الرسل لا تقتل ! وإشهاداً للعالم بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وبأن أساس النصر ليس كثرة العدد ولا قوة العُـدد ، ولكن النصر من عند الله العزيز الحكيم .

ثم جهز صلوات الله وسلامه عليه جيش أسامة قبيل وفاته ، وندب الناس لغزو الروم — وهم والفرس أعظم دول العالم حينئذ — وعقد بيده الكريمة لواء أسامة ، وقال له سر إلى موضع مقتل أبيك ، وأغر صباحا ، وأسرع المسير تسبق الخبر ، فإن ظفّرك الله بهم فأقلّ اللبث فيهم .

وبينا أسامة يتأهب للرحيل اشتد برسول الله ﷺ وجعه . وطعن قوم فى تأميره على الجيش ، وعلى رأسهم عياش بن أبي ربيعة المخزومى . فرد عليه عمر وأخبر النبى ﷺ ، فغضب غضباً شديداً ، ولم يمنعه مرضه أن يخطبهم غاضباً وأن ينكر عليهم الطعن فى إمارته وإمارة أبيه من قبله ، وأن يوصى بإنفاذ الجيش إلى الوجهة التى ولاها ... ثم انتقل صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى فأنفذ الجيش أبو بكر بعد استخلافه تنفيذاً للوصية النبوية التى نكشف الغطاء عن عظمتها وجليل آثارها قريباً .

سار الجيش كما أمر رسول الله ﷺ ، وأمضى عشرين يوما أو تزيد ، قتل فيها قاتل زيد أبى أسامة ، وأرهب فيها عدو الله ، ثم عاد بعدها سالماً غانماً معززاً منصوراً .

* * *

لم تقتصر إمارة زيد وابنه على هذين الجيشين العظيمين اللذين أشهدا العالم على عظمة الإسلام وعزته ، وبلوغه الذروة فى كرمه وعدالته ، بل أمّرهما النبى ﷺ على غيرهما من البعوث والسرايا ، وإن لم تبلغ مبلغ هذين الجيشين أهبة ووجهة وعديداً ، فهذه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تقول : ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى جيش قط إلا أمّره عليهم ولو بقى لاستخلفه ، وهذا سلمة بن الأكوع رضى الله عنه يقول : إنه خرج فيما يبعث النبى ﷺ من البعوث تسع غزوات يؤمر عليهم مرة أبا بكر ومرة أسامة .

ولا يعنينا هنا أن نفصل أنباء هذه البعوث والسرايا ، فقد تكفلت بها كتب السير والمغازى ، وإنما يعنينا أن نتبين منها كفاية زيد وابنه ، وأن كلا منهما أهل للإمارة بحق ؛ وأن نتبين كذلك خبرة النبى ﷺ وثاقب نظره فى الرجال وحسن اختيارهم . حتى إن العرب على مراسهم للحرب وبلائهم فيها لم يستطيعوا أن يطعنوا فى كفايتهما الحربية ، ومقدرتهما الفائقة التى جعلت من زيد أميراً فوق الأمراء ، بل رشحته لأن يكون خليفة لخاتم الأنبياء ، على خير أمة أخرجت للناس . ثم جعلت من ابنه أسامة — وهو غلام حدث لم يجاوز الثامنة

عشرة — قرنا لأبى بكر وعديلا له ، بل أميراً عليه وعلى المشيخة من المهاجرين والأنصار ، ومنهم صاحب البلاء الحميد ، فى البأس الشديد .

* * *

وإذا لم يكن للطاعنين مطعن فى كفايتهما وحسن بلائهما ، فإن مطعنهم فى أمر وراء الكفاية ، سنكشف الغطاء عنه على أثر الممامة بمكان أسامة وأبيه من العرب ، ثم من النبى ﷺ . كان زيد مع أمه فى زيارة أخواله فأغارت خيل فى الجاهلية على أبيات لهم فاحتملوا زيداً فى صبية معه وقدموا به إلى سوق عكاظ . وكانت خديجة أوصت حكيم بن حزام ابن خويلد أن يبتاع لها غلاما ظريفاً عربياً إن قدر ، فأعجبه كيس هذا الصبى وظرفه ، فابتاعه وقدم به على عمته ، ففرحت به وأكرمته ، حتى تزوجها رسول الله ﷺ وهو عندها ، فلما أعجبه ظرفه وأدبه استوهبه منها فوهبته له . فشب عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى إذا خرج فى إبل لأبى طالب بالشام مر بأرض قومه فعرفوه ، ثم قدم أبوه وعمه وأخوه يفتدونه من النبى ﷺ بما يحب من الفداء ، فقال لهم أعطيكم خيراً من ذلك : أخيره فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، فقالوا جزاك الله خيراً فقد أحسنت وزدت على النصَف . . فلما خيره صلوات الله وسلامه عليه قال ما أنا بمختار عليك أحداً أنت منى بمنزلة الأب والعم ، فلما رأى أنه آثره على أبيه وعمه وأخيه خرج إلى حجر إسماعيل وقال : اشهدوا على أنه حر ، وأنه ابنى يرثنى وأرثه ، فطابت أنفسهم بذلك لما رأوا من كرامته عليه .

ولم يزل يدعى فى الجاهلية زيد بن محمد حتى نزلت الآية الكريمة « ادعوهم لآبائهم » فدعى زيد بن حارثة ، وشدد النبى ﷺ النكير على دعاء أحد إلى غير أبيه وهو يعلم . وللقضاء على هذه الدعوى المنكرة أحل الله تعالى للمتبنى أن يتزوج زوجة الدعى إذا طلقها وقضت عدتها ، وأمر نبيه أن يتزوج زينب بنت عمته أميمة ، وكان زوجها زيداً ، لمكانته عنده ، غير أنها كانت تتعالى عليه وتفخر بحسبها ونسبها ، وكان يشكوها إلى النبى ﷺ فى قصة طويلة معروفة .

وورث أسامة أباه فى الفضل والنبل ، والكياسة والسياسة ، والكفاية فى الإمارة وعظيم البلاء فيها . كما شارك أباه فى حب النبى ﷺ له ، وثقته البالغة به ثم فى عده من موالى قريش وعتقائهم تبعا لأبيه من قبل .

هذه عجالة خاطفة فى تاريخ الحب وابن الحب ترينا مكانهما من النبي ﷺ ومن العرب ، وأن ما لصق بهما من العتق والولاء إن يكن ذنباً فلا يد لهما فيه ولا عيب عليهما به . وحسبهما أن الله أنعم عليهما ورسوله ، فأخرجهما من ظلمة الشرك ، ومذلة الرق .

أفرأيت كيف طعن الطاعنون فى زيد وابنه ، وشق عليهم أن يكونوا تحت إمرة مولى من مواليهم وعتيق من عتقائهم ؟ بله غلاما حدثا يتأمر عليهم ولما يبلغ العشرين من عمره إنها الانفة والكبر والعصبية التى جاء النبي صلى الله عليه وسلم لمحوها واجتثاث أصولها ، قولا وعملا وسيرة وهديا ، لانها من أشجار الفتن ، ومعاقد البلايا والمحن فى كل أمة تمنى بها ا ومن أحق بأن يحمله شرف القضاء عليها من حبيبه ، وأقرب الناس إليه .

يضاف إلى كفاية زيد وابنه ، وما صاحبها من بناء قاعدة المساواة بين الناس جميعاً ، وهدم دعامة الفخر بالأحساب والأنساب — أن زيداً أعلم بالجهة التى انتدب إليها : لأنه نشأ فيها ؛ ولأن قومه منها ؛ ثم إن ابنه أولى الناس بالقصاص من قاتل أبيه ؛ فاختياره أحيا لنفسه ، وأبعث لهمته ، وأجدر ألا يدخر منها فى سبيل الله وسعا ، وكذلك كان .

* * *

رأى هذا كله وأكثر منه كبار أصحاب رسول الله ﷺ ، فلم يطعنوا ولم يعترضوا ، وإن رغب بعضهم فى أن يتوجه جيش أسامة وجهة أخرى لمحاربة المرتدين ، كما رغب بعضهم أن يستبدل بأسامة من هو أكبر منه سنا ، وأسبق فى بلاء الحروب قدما ، وهنا يضرب الصديق أروع الأمثال حزما وعزما ، ويأبى كل الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة دون أن يغير فى قضاء رسول الله ﷺ شيئاً ، ثم يزيد فى إكبار القائد الحدث وإجلاله ، فيستأذنه فى إبقاء الفاروق بجانبه ليكون له ردءاً وعوناً على مهمات الخلافة وأعبائها ، ثم يودع الجيش ماشيا ، فيقول له أسامة : يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن ، فيقول الخليفة ، التى لم تزده الخلافة إلا تواضعا وإنكارا لذاته : والله لا تنزل ولا أركب وما علىّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله ؟

* * *

أوَرأيت كيف يصنع الله لنبيه ؟ وكيف يهديه فى سياسته ، وكل شأن من شئونه وشئون أمته ، للتى هى أقوم ، ويجمع له فى الأمر الواحد ما تفرق من قواعد الإصلاح ، ودعائم الرشد والفلاح ؟ « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

طه محمد الساكت

تطهير الأداة الحكومية في تاريخ الإسلام

١ ـ الحكم في الإسلام :

الحكم فى الإسلام جزء من شريعته ، وواجب لا يتم الدين إلا به . وينبغى أن يقوم هذا الحكم على العدل الذى أمر الله به ، فلا ينحرف عن دستور الإسلام الذى أنزله الله بالحق كما خلق السموات والأرض بالحق .

يقول الله عز وجل : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب » . ويعلق على هذه الآيات شيخ الإسلام ابن تيمية فيقول : « فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب أن يقوم الناس بالقسط ، فى حقوق الله وحقوق خلقه ... فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد . ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف . وقد روى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا ـ يعنى السيف ـ من عدل عن هذا ـ يعنى المصحف » [١] . ويقول المودودى « فالمراد من الحديد فى الآية القوة السياسية . والآية قد بينت ما تبعث الرسل لأجله ، وهو أن الله قد أراد ببعثهم أن يقيم فى العالم نظام العدالة الاجتماعية على أساس ما أنزله الله عليهم من البينات ، وما أنعم عليهم فى كتابه من الميزان أى نظام الحياة الإنسانية العادل » [٢] .

وإن الحكم الإسلامى ينبغى أن ينتهج كل طريق يوصل إلى العدل والقسط والحق . فما كان فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فهو واجب الاتباع ، وما لم يوجد منهما بالنص ولكن وافق مقاصد الشارع وساير روحه وقاس على أحكامه ولم يعارض فيها شيئاً فهو مقبول إذا اقتضته حاجة الناس . يقول ابن القيم « فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذى قامت به السموات والأرض فإذا ظهرت أمارات الحق وقامت أدلة العقل وأسفر صبحه بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه ، ورضاه وأمره .

(١) السياسة الشرعية ـ طبعة دار الكتاب العربى ص ٢٤ . (٢) نظرة الإسلام السياسية .

والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته فى نوع واحد ، وأبطل غيره من الطرق التى هى أقوى منه وأدل وأظهر ، بل بين ما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط ، فأى طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها ، والطرق أسباب ووسائل لاتراد لذواتها ، وإنما المراد غاياتها التى هى المقاصد - ولكن نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأمثالها ، ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق إلا وهى شرعة وسبيل للدلالة عليها . وهل يظن بالشريعة الكاملة خلاف ذلك ؟؟ ولا نقول إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة ، بل هى جزء من أجزائها ، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحى ، وإلا فإذا كانت عدلا فهى من الشرع »[1] .

ولقد زخرت المكتبة الإسلامية بتآليف جليلة فى سياسة الحكم على أساس إسلامى . منها كتاب « الاموال » لأبى عبيد القاسم بن سلام وكتابا « الخراج » ، وأحدهما لأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم المتوفى سنة ١٩٢ هـ ، والآخر ليحيى بن آدم القرشى المتوفى سنة ٢٠٢ هـ ، ويتعلقان ببحث السياسة المالية . أما السياسة العامة فى مقدمة مؤلفاتها « الأحكام السلطانية » لأبى حسن الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، و « الأحكام السلطانية » لمعاصره القاضى أبى يعلى ، ثم « السياسة الشرعية ، فى إصلاح الراعى والرعية » لشيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ ، وكذلك « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » لتلميذه ابن القيم المتوفى سنة ٧٥١ هـ رضى الله عنهم أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

٢ — سمعة الحكم :

يقوم الحكم على دعامتين هامتين : عدل الحكم ، وعدالة الحاكمين بمعنى « العدالة » فى الفقه الشرعى .

فاستقامة الأوضاع على أمر الله ، واستقامة الأفراد على أمر الله ، صنوان لا غنى بأحدهما عن الآخر : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » . يقول المودودى « إن الحكومة الإسلامية تتطلب وتقتضى أن يكون سائر أجزاء حياتها الاجتماعية ، وجميع مقومات بنيتها الإدارية من الرعية والمنتخبين والنواب والموظفين والقضاة والحكام وقواد العساكر والوزراء والسفراء والنظار لمختلف

(١) أعلام الموقعين ـ جـ ٤ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

دوائرها ومصالحها - تقتضى أن يكونوا من الطراز الخاص والمنهاج الفذ المبتكر . وهى تطلب بسجيتها رجالا يخشون الله ويخافون حسابه ، يؤثرون الآخرة على الحياة الدنيا » [١] .

لذلك حرصت دولة الإسلام من أول أمرها على طهارة الحكم وتطهيره على مدى الأيام .

وفى مناقب عمر بن الخطاب لأبى الفرج بن الجوزى عن ابن سعد قال : كان عمر استعمل النعمان بن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها ... بميسان يسقى فى زجاج وحنتم

فى أبيات يقول فى ختامها :

لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ عمر قوله قال : نعم والله إنه ليسوءنى ، من لقيه فليخبره أنى قد عزلته .

فقدم عليه رجل من قومه فأخبره بعزله ، فقدم على عمر فقال : والله ما أحب شيئاً مما قلت ، ولكن كنت امرأ شاعراً وجدت فضلا من قول فقلت فيه الشعر . فقال عمر : والله لا تعمل لى على عمل ما بقيت [٢] .

فالإسلام حريص على سمعة الحاكمين ، لأن أخطاء الأمير بلقاء مشهورة ، والصغيرة منه كبيرة ، وهو محاسب على مجرد القول إن حوسب العامة على مقارفة العمل فقط .

والإسلام هنا لا يفرق بين الأخلاق الشخصية ، وبين القيام بالأعمال الرسمية ، لأن الإسلام لا يقيم الدولة لحفظ الكيان كائناً ما كان ، ولكنه يقيمها لإعلاء المثل العليا الإنسانية التى أتى بها الإسلام « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

يقول المودودى « ... ويبدو لمن أنعم النظر فى دستور الدولة الإسلامية وغايته الحكيمة ووضعيته الإصلاحية ، أن هذه الدولة لا يتولى أمرها إلا الذين آمنوا بهذا الدستور ، وجعلوه غاية حياتهم ومطمح أنظارهم ، الذين لم يخضعوا لبرنامجه الإصلاحى ولم يظهروا تأييدهم لخطته العملية فحسب ، بل كان الإيمان بصدق تعاليمه قد تغلغل فى عروقهم وكانوا على معرفة تامة بروحه وطبيعته وما يشتمل عليه من التفاصيل والجزئيات » [٣] ويقول « إن إعلاء كلمة الله

---

(١) منهاج الانقلاب الاسلامى .

(٢) الناقب عمر لابن الجوزى - أشهر مشاهير الاسلام - المجلد الأول - ص ٢٩٩ .

(٣) نظرية الاسلام السياسية .

والدعوة إلى القيام بها تحتاج إلى رجال ذوى صلاح يتقون الله فى السر والعلن ، ممن لا يلهيهم عن العمل بالشريعة والاستمساك بعروتها شىء من مطامع الدنيا ، ولا تصرفهم عن ذلك العقبات والشدائد »[١] .

ولقد كان الإسلام فى أحكامه حريصاً فى إقامة الاعتبار المعنوى والقانونى للشخص على الأساس الأخلاقى ، ففى رسالة عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى : « المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حد ، أو مجربا عليه شهادة زور » وأسقط الفقه الإسلامى عدالة من اعتادوا بعض التصرفات ، أو امتهنوا حرفا فيها مساس بالكرامات ، وفى علم الحديث بلغ « التعديل والتجريح » مبلغه ، فكيف بمن يلى للمسلمين أمراً من الأمور ؟ ؟ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « إن الأئمة متفقون على أنه لابد فى المتولى من أن يكون عدلا أهلا للشهادة »[٢] .

٣ — نزاهة الحكم :

فرض القرآن الكريم النزاهة قاعدة للحكم الإسلامى ، فقال تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » ولقد حذر الحديث الشريف من كل ما فيه شبهة أو ظنة ، ولو كان هدية لا رشوة ، أورد أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود أن النبى ﷺ استعمل رجلا من الأزد على الصدقة فلما قدم قال : هذا لكم ، وهذا أهدى إلى . فقال النبى ﷺ : « ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول : هذا لكم ، وهذا أهدى إلى ؟ ؟ فهلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا ! ! والذى نفسى بيده لا يأخذ منه شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته ، إن كان بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى إبطيه وقال : « اللهم هل بلغت ؟ ؟ . قالها ثلاثا » .

وإنما تتحقق نزاهة الحكم بأمرين مهمين : عدم استلاب شىء من بيت المال وعدم استلاب ما فى جيوب الخلق استغلالا للنفوذ .

ولقد وجه الأنظار إلى الحرص على مال الدولة بوضوح وقوة صاحب « السياسة

---

(١) منهاج الانقلاب الاسلامى .

(٢) السياسة الشرعية ص ١٩ .

الشرعية ، [1] حيث يقول : « وليس لولاة الأموال أن يقسموها بحسب أهوائهم كما يقسم المالك ملكه ، فإنما هم أمناء ونواب ووكلاء - ليسوا ملاكا كما قال رسول الله ﷺ : « إنى - والله - لا أعطى أحداً ولا أمنع أحداً ، وإنما أنا قاسم أضع حيث أمرت » رواه البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، فهذا رسول رب العالمين ، قد أخبر أنه ليس المنع والعطاء بإرادته واختياره ، كما يفعل ذلك المالك الذى أبيح له التصرف فى ماله ، وكما يفعل ذلك الملوك الذين يعطون من أحبوا ، وإنما هو عبد الله يقسم المال بأمره ، فيضعه حيث أمره الله تعالى » .

وأورد أبو جعفر الطبرى [2] عن السائب بن يزيد قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : « والله الذى لا إله إلا هو (ثلاثا) ما من أحد إلا له فى هذا المال حق أعطيه أو أمنعه . . . وما أنا فيه إلا كأحدهم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله ﷺ » .

وقد وعى تاريخ الإسلام خطوات عملية لتنفيذ ذلك ، ومحاسبة المتولين للأمور المالية على ما تحت أيديهم ، والحرص بكل سبيل على نزاهة الأداة الحكومية وكانت المحاسبة تتم عن طريق الرؤساء وفى مقدمتهم الخليفة ، ثم تطورت بعد تدوين الدواوين وارتقائها واتساع دائرة الحكم فصارت فى يد جهات خاصة تتولاها .

يتبع

محمد فتحى محمد عثمان

مدرس الآداب بالمعاهد الدينية

أول معرفة الأخطل بجرير

قال محمد بن سلام الجمحى : حدثنى شيخ من ضبيعة قال :

خرج جرير إلى الشام ، فنزل منزلا لبنى تغلب ، فخرج متلثما عليه ثياب سفره ، فلقيه رجل لا يعرفه فقال : ممن الرجل ؟ قال : من بنى تميم . قال : أما سمعت ما قلت لغاوى بنى تميم ؟ (وأنشده مما قال لجرير) ، فقال له جرير : أما سمعت ما قال لك غاوى بنى تميم ؟ (وأنشده) . ثم عاد الأخطل ، وعاد جرير فى نقضه ، حتى كثر ذلك بينهما . فقال التغلبى : من أنت ، لا حياك الله ؟ والله لكأنك جرير ! قال : فأنا جرير . . . قال التغلبى : وأنا الأخطل . . .

---

(١) ص ٢٩ . (٢) ج ٥ ص ٢٣ .

في الفقه الإسلامي
نشأته - خصائصه

١ — تكلمنا فيما سبق عن نشأة الفقه الإسلامي وتدرجه حتى وصل إلى كماله ، وعن دور التقليد الذي أخذنا بحمد الله في التخلص منه ، والآن نتكلم عن بعض خصائص هذا الفقه . ومن المفهوم أن لكل من القوانين التي عرفها البشر ما يتميز به عن القوانين الأخرى ، وبذلك يكون له طبيعته أو طابعه الخاص .

وخصائص فقه الإسلام كثيرة ؛ ومنها ما يرجع إلى طبيعته نفسها ، وما يرجع إلى الأصول التي قام عليها ، وما يرجع إلى الوسائل التي يصطنعها في تقرير أحكامه في العقول والنفوس ، وما يرجع إلى الغاية التي يهدف لها ويرضاها الشارع الحكيم الأعظم للعالم كله . وليس من الممكن استيعاب هذه الخصائص ، ولو بإجمال في كلمة أو كلمات محدودة ؛ ولهذا لابد من الاكتفاء بالكلام عن بعض هذه الخصائص ، ومن الرضى بالإجمال بدل التفصيل .

٢ — وأول خاصة للفقه الذي نعرفه للإسلام ، أنه يرجع في أصوله وأسسه إلى وحي الله تعالى ، هذا الوحي الذي يتمثل في القرآن والسنة . وكان هذا ، لأن الإسلام جاء للعالم والإنسانية عامة بعد الديانات السابقة ، التي كانت محدودة في الزمان والمكان ، وبعد أن استنفد كل منها أغراضه وأدى رسالته ، فأصبحت البشرية تحس الحاجة الشديدة لدين جديد ، يكون خاتم الأديان التي عرفتها . وكان هذا الدين هو الإسلام ، وكانت وسيلته — لتصل الإنسانية إلى ما ترجوه من حياة العز والكرامة والسعادة — بيان العقيدة الحقة وتقريرها ، وتشريع القوانين التي يصلح بها العالم على اختلاف الزمان والمكان ويسعد بها الفرد والجماعة .

ولا عجب في هذا ، فلم يتنزل وحي الله بالإسلام ليكون دينا لجنس دون آخر ، ولا لأمة دون أخرى ، بل للعالم جميعا على اختلاف ألوانه وأجناسه ومواطنه ، وعلى مر الزمن والقرون . ومن هنا كان لابد أن تكون تشريعاته عن الله العليم بحاجات البشر عامة ، الخبير بما يصلحون عليه في العاجل والآجل من الزمان ، بل وفي الدار الآخرة أيضا .

٣ — أساس هذا الفقه هو إذاً ما جاء في كتاب الله الحكيم وسنة رسوله العظيم ﷺ ، وفي هذين المصدرين الكريمين المقدسين نجد الأسس العامة ، بل التفصيلات في حالات كثيرة يجب فيها التفصيل ، لكل ما عرف العالم من قوانين حديثة عديدة :

المدنى المالى ، الجنايات ، الدستورى ، الدولى ، وغير ذلك كله من فروع القانون وأقسامه .

وكل فقيه من فقهاء المسلمين ، رضوان الله عليهم جميعاً ، يرى نفسه مقيداً بنصوص القرآن وسنة الرسول ، ويجد فيهما غناء أى غناء ! فإن أعوزه النص من القرآن المحكم والسنة الثابتة الصحيحة ، كان له أن يجتهد مستلهماً روح الإسلام وأصوله ومقاصده . نريد أن نقول بأن على المجتهد المسلم أن يدور دائماً فى فلك الكتاب والسنة ، وأن لا يتعدى فى اجتهاده مسارهما ، وإلا فلا قيمة لما يخرج به من رأى يؤدبه إليه عقل ناقص محدود القوى بطبيعته .

٤ — وقيمة أى قانون لا تجىء من إحكام وضعه وحسن تنظيمه فحسب ، ولا يتحقق ما يرجوه من أهداف وغايات بتنفيذه على غير رضى ممن وضع لهم ، إنما يكون ذلك كله إذا كان تنفيذه والنزول على تشريعاته مرجعه إلى اطمئنان النفوس له والإيمان بعدالته ، وإلى الاعتقاد بأن فى طاعة هذا القانون المثوبة وحسن الجزاء .

وهنا نجد الفقه الإسلامى بلغ الذروة من ذلك كله ، بما نرى من قيام كل تشريعاته على ركائز ثابتة من الدين والأخلاق ، وهذا يجعل النفوس تؤمن بها كل الإيمان وترضى بها كل الرضاء ، لا فرق فى ذلك بين المسلمين وغير المسلمين . فلا يحاول أحد من المؤمنين بها التفلت من شىء من أحكامها وإن لم يخف سلطان القانون والقضاء . وقد يكون من الخير أن نضرب بعض المثل لما نريد بيانه ، ويكون فيها غنية عن كثير من المثل التى نراها على جعل الذراع لمن يريد :

(ا) لا يعيش الإنسان فى قريته أو بلده وحده ، بل له من أمثاله جيران يشركون فى كثير مما لا يستغنى عنه فى حياته . وهنا نجد القوانين الوضعية التى تختلف باختلاف من وضعت لها من الأمم والشعوب لا تعمل فى هذه الناحية أكثر من بيان ما للجار من حقوق على جاره ، ثم تقدير عقوبات لمن يخرج عليها . ومن ثم ، نجد خصومات كثيرة تجد من هذه الناحية ، ويصل الكثير منها للقضاء ، على أن هذا لا يمنع من بقاء العداء بين المتقاضين .

لكن الله العليم بما فطر عليه الإنسان من حب النفس والأثرة ، وبأنه لا يقبل تنفيذ القانون إلا بوازع قوى من ضميره يغرسه فيه الدين ، نراه يؤكد قبل كل شىء ما للجار من حقوق وما عليه من واجبات لجاره ، ويذهب فى هذا السبيل إلى حد أن جعل القيام بحق الجار أمراً مفروضاً يجىء بعد الإيمان بالله جل وعلا ، فيقول فى سورة النساء : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى والجار الجنب » . ثم نرى الرسول ﷺ يقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، وفى حديث آخر : « فليكرم جاره » .

وبعد أن يقدر القرآن والسنة حق الجار هكذا على جاره ، تغدو مهمة الفقهاء والمشرعين هينة يسيرة : فما عليهم إلا أن يبينوا هذه الحقوق ، وما يقابلها من الواجبات ، فإذ بالمؤمن بالله وكتابه ورسوله يسارع لإعطاء الجار حقوقه ، ما دام وحى الله ـ المتلو وغير المتلو ـ يأمر بإكرام الجار وليس بحسب بإعطائه حقوقه . وحينئذ لسنا فى حاجة للقضاء ، إلا لمعالجة من لم يخالط الإيمان قلوبهم وينتزع ما فيها من عوامل الأثرة والظلم .

(ب) وجرى الأمر أيضاً على هذا المنهاج الحكيم فى فرض الزكاة والجهاد فى سبيل الله والوطن . فإن الله ، جلت حكمته ، يعلم ما فطر عليه الإنسان ـ إلا من عصم الله من مصطفيه الأخيار ـ على الشح بالمال والنفس ، ولذلك ترى الشارع الأعظم يمهد لفرض الزكاة بأنها تطهر المال وتنميه وتزكى النفوس . فقال : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ، ثم ترى الرسول يقول : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » ، كما جاء فى البخارى ومسلم.

أما فيما يختص بالجهاد ، فنجد القرآن يقول : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » ، ويقول : « ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما » . وبعد ذلك ، نجد الرسول يؤكد هذا فيقول : « لغدوة فى سبيل الله أو روحة ، خير من الدنيا وما فيها » ، ويقول : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله ، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله وتصديق كلماته ، أن يدخله الجنة أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة » .

وكان لهذا المنهاج النفسى الحكيم لتشريع الجهاد فرضاً على المؤمنين ، ونشراً للإسلام وذياداً عنه وعن الوطن ، أثره البالغ فى تحبيب الاستشهاد إلى المؤمنين ، حتى إن جابر بن عبد الله يقول للنبى عليه الصلاة والسلام يوم أحد : أرأيت إن قتلت ، فأين أنا ؟ ، قال فى الجنة ، فألقى تمرات فى يده ثم قاتل حتى قتل .

٥ ــ وبعد ذلك ، فهناك خاصة أخرى للفقه الإسلامى تتصل من قرب بسابقتها . إن القانون الوضعى يمكن أن يعرف بأنه « مجموعة القواعد التى تنظم الروابط الاجتماعية ، والتى تقر الدولة الناس على اتباعها ولو بالقوة عند الاقتضاء »[1] . ومن هذا التعريف يتبين أن من خصائص القانون جزاء من يحيد عن أحكامه ، إلا أن هذا الجزاء يكون دنيويا بطبيعة الحال ، لأن واضعه لا يملك شيئاً من أمور الآخرة وما فيها من ثواب أو عقاب ، بل لا يملك

---

(١) أصول القانون للأستاذين عبد الرازق السنهورى وأحمد حشمت أبو ستيت ، ص ١٣ .

لنفسه نفعاً أو ضراً فى هذه الحياة الدنيا . ومن أجل ذلك ، لا جناح على من يستطيع الإفلات من هذا الجزاء الدنيوى ، اللهم إلا تأنيب الضمير .

كما أن القانون ليس له إلا غاية نفعية ، هى تنظيم المجتمع واستقرار أموره على النحو الذى يفهمه واضع القانون ، وهذه الغاية النفعية محدودة ، لأن عقل واضعه قاصر محدود . ومن ثم ، ترى القانون كثيراً ما يبيح أموراً لا تتفق مع الدين الحق والخلق الصحيح وفائدة المجتمع البعيدة ، مثل الزنا ، وشرب الخمر ، والقمار فى بعض صوره .

أما الفقه الإسلامى ، وهو قانون سماوى شرعه الحكيم العليم المحيط بالعالم كله ما كان منه وما لا يكون ، فهو يهدف لسعادة المجتمع القريبة والبعيدة والدائمة ، لا المنفعة العاجلة المحدودة فقط ، وهو يثيب ويعاقب فى هذه الحياة وفى الحياة الأخرى الخالدة . ولذلك يحس المؤمن به بدافع نفسى ووازع قوى يجعله يطيع ما يأمر به وينهى ، حتى ولو أمكن له أن يكون بنجوة من عقابه فى الدار الدنيا . وليس كهذا باعثا على إثبات التشريعات فى رضى من النفس واطمئنان .

والتشريعات الفقهية تقصد اصلاح الفرد والمجتمع فى كل آن ومكان ، وهذه غاية نفعية بلا ريب . إلا أنها تعمل على بناء مجتمع يكون مثاليا نقيا مما يشوب الدين والخلق ويجافيهما ، كما أنها تعمل أيضا على أن يفبعث الإنسان من نفسه للقيام بواجبه نحو خالقه ونحو نفسه وإخوانه فى الإنسانية .

٦ — وهنا نجدنا نصل إلى الحديث عن خاصة هامة أخرى للفقه الإسلامى ، وهى خاصة لها خطرها هذه الأيام التى اشتجرت فيها الحرب بين المذاهب الاقتصادية والاجتماعية ، ونعنى بهذه الخاصة النزعة « الجماعية » التى تسود الشريعة الإسلامية . ونريد بكلمة : « جماعية » ، معنى أوسع من كلمة « اشتراكية » التى أخذت معنى خاصا هذه الأيام ، حتى يشمل الناحية المالية وغيرها من الحقوق والواجبات جميعا . وهنا نجد كثيرا من المثل التى لها قيمتها :

(ا) إن للحكام وولاة الأمور أن يسمع لهم الشعب والرعية ، ولكن هذا الحق مقيد بأن يكون هدفهم المصلحة العامة للأمة جميعا ، وفى هذا يقول الرسول : « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب أو كره ، مالم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » ، وهذه الكلمة الجامعة تعبر خير تعبير عن أصل من أصول الحكم والسياسة العامة للدولة ، إذ أنها تحدد بدقة العلاقة التى يجب أن تكون بين الحاكم والمحكوم .

(ب) ويروى أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى عام ٢٢٤ هـ . عن أبى عبيدة بن الجراح أن ناساً من أهل البادية سألوه أن يرزقهم من مال الأمة ، الذى تحت يده ، فقال : لا ، حتى أرزق أهل الحاضرة أولا ، فمن أراد بحبحة الجنة فعليه بالجماعة ، وبمثل هذا كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله يزيد بن الحصين يقول : « مر للجند بالفريضة : وعليك بأهل الحاضرة : وإياك والأعراب فإنهم لايحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون مشاهدهم » . وهذا ليس معناه أنه ليس للبدو حق فى بيت المال العام ، ولكن معناه أنه ليس لهم الحق فى رواتب جارية فى أهل الحاضرة بل على الدولة أن تعينهم فى أوقات الشدة ، كما إذا دهمهم عدو أو أصابتهم جائحة فى أرزاقهم [1] .

وربما جازلنا أن نشير بعد هذين المثلين ، تدليلا على نزعة الفقه الإسلامى الجماعية ، إلى فرض الزكاة ، والحث على الصدقة وضروب البر المختلفة . وترك عمر بن الخطاب سواد العراق والشام بيد أهلها على أن توضع عليهم الجزية والخراج ، بل تقسيمه بين الفاتحين ، وذلك ليكون ما يحصل من ذلك عوناً وذخراً للأمة جميعاً .

(٧) وهذه النزعة ترجع فيما نعتقد إلى أن الإسلام يعتبر أن الإنسان وكل مايراه من حقوق له هو ملك لله وحده ، وهو يمنح منها ما يريد للفرد لتحقيق الخير له وللمجتمع معاً على حين يرى القانون الوضعى ، وعلى الأقل فى الماضى القريب ، أن الفرد هو كل شىء ، فما يجعله من الحقوق له يعتبر أمراً طبيعيا ، ولا حرج عليه حينئذ إن أساء استعمالها أو إن لم ير أن للمجتمع حقاً مفروضاً عليه .

وبعد ، هذه بعض الخصائص التى تجعل للفقه الإسلامى طابعاً خاصاً يتميز به عن القوانين الأخرى ؛ وهى خصائص من شأنها أن تجعل من الفرض على المسلمين فى هذا الزمن دراسته بقصد الانتفاع به والإفادة منه على وجه عملى . وفى الكلمة الآتية ، وهى تتمة هذا الحديث إن شاء الله تعالى ، بيان الغاية التى نراها حقيقة بالطلب من دراسة الفقه هذه الأيام ، وبيان الوسيلة التى نراها لبلوغ هذه الغاية ، وبالله العون والتوفيق .

الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الاسلامية
بكلية الحقوق - جامعة القاهرة

(١) كتاب الأموال ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

أكمل رسالات الله

حديث لفضيلة الاستاذ الأكبر
في احتفـــال الأزهر بالمولد النبوي الشريف

يحتفل العالم الإسلامي اليوم بمولد الإنسان الكامل، الذي اختاره الله لحمل أكمل رسالاته إلى البشر كافة، فكان هذا الحادث في تاريخ الإنسانية الحد الفاصل بين الحق مموهاً بأهواء المتغلبين ومطامع المغالطين وأغراض الظالمين، فهو لذلك عرضة للتغيير والتبديل. وبين الحق الأبلج النقي من شوائب الأهواء والمطامع والأغراض، فهو لذلك ثابت خالد إلى يوم الدين.

إنه احتفال بمولد الحق مجرداً خالصاً صافياً، وبدعوة الخير عامة شاملة كاملة.

إنه احتفال بانتقال الإنسانية من عهد طفولتها ورعونتها، إلى ما ينبغي لها عند اكتمال نضجها وبلوغها عهد رشدها.

كل ذلك مما يحتفل به العالم الإسلامي اليوم، إذ يحتفل بمولد خاتم رسل الله محمد صلوات الله وسلامه عليه. وقد أكرمه ربه بما حف به ولادته من أصالة النسب وصفاء الفطرة وسلامة الخلق. ثم استرضع في بني سعد بين أخبية البادية وآفاقها، فازدادت آصرته بالبيئة السعيدة البعيدة عن شوائب المجتمع. وكان كلما شب بعد ذلك ونما، اتسعت شهرته بين قومه بالأمانة والصدق والاستقامة في الطريق المستقيم، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال دعته السيدة خديجة بنت خويلد إلى التزوج بها، لما اشتهر به من كريم الفضائل ومعالي الأخلاق، فأجابها إلى ذلك، ورأى فيها من الكمال والوفاء ما قابلها عليه بأحسن منه.

ولما قارب أمر الرسالة، جعل يختلي في غار حراء للتحنث والعبادة ومناجاة الله عز وجل، فكانت زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها، تساعده على ذلك وترسل اليه زاده في هذه الخلوة القدسية بينه وبين ربه.

وآن أوان بعثته العامة الشاملة إلى الأمم كلها عند ما بلغ من عمره الشريف نحو الاربعين، فأوحى الله اليه في سورة الأنعام — وهي مما أوحى به اليه في مكة قبل الهجرة — «قل الله شهيد بيني وبينكم، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ»، فهو صلى الله عليه وسلم

نذير برسالته لمعاصريه ، ولكل من تبلغه دعوته فى كل زمان ومكان تتلى بهما آيات هذا القرآن على ألسنة الامم ، فتبلغ أحكامها وحكمها مسامع الاجيال ، ولان رسالته عامة شاملة كتب رسالته المشهورة إلى ملوك الأرض فى زمنه : قيصر وكسرى وهرقل والمقوقس والنجاشى وملكى عمان وغيرهم ، يوجه فيها الدعوة إليهم وإلى أممهم بأن يدخلوا فى دين الله .

وقد تحمل صلوات الله عليه فى سبيل أداء الرسالة وتبليغ الدعوة ما كان يتحمل أنبياء قبله من الأذى والجفوة والصد عن قبول الحق ، إلى أن استجاب له الأنصار وبايعوه على الإيمان ، ثم نهضوا مع إخوانهم المهاجرين لمقاومة من يقف فى سبيل الدعوة أو يصد عن انتشارها ، فكتب الله النصر لدعوة الحق فى بدر ثم فى غيرها ، إلى أن فتح الله لرسوله مكة أم القرى ، وتم تطهير بيت الله الأعظم من لوث الوثنية ، ودانت العرب كلها لهذا الدين القيم ، فما انتقل صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى حتى كان سكان جزيرة العرب كلهم ، قد آمنوا إلا طائفة من اليهود والنصارى أبقاهم صلى الله عليه وسلم على دينهم ، ومنحهم ذمة الإسلام المتكفلة بحماية أنفسهم وأموالهم وشعائرهم .

ولقد عمل أصحابه الكرام رضوان الله عليهم بهدايته وساروا على سنته السنية ، فمضوا فى الدعوة بعده إلى دين الحق ، ملتزمين ما التزمه ﷺ من العدل والرأفة والرحمة ومكارم الاخلاق ، لا يفرقون فى ذلك بين من اتبع دينهم أو خالفه ، عملا بقول الله عز وجل فى سورة المائدة : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » وبذلك فتحت لهم الممالك ، واستجابت لدعوتهم الامم ، ووجد شعوب الأرض فى هذه الدعوة كل ما كانوا ينشدونه فى مطالب الحياة من حقوق ومواريث وآداب ومواعظ وأخلاق وحكم وإرشاد لأكمل الأحكام فى الحرب والسلم ، وكل مايحتاج إليه الفرد والمجتمع الصالح فى هذه الحياة . ومع أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا من جزيرة العرب ليحققوا الانقلاب العظيم ، الذى أراد الله أن يكون به الحد الفاصل بين الحق والباطل ، كانوا قلة بالنسبة إلى الممالك والامبراطوريات التى واجهوها بدعوتهم ، فإن الله عز وجل جعل الغلبة لهم منذ تعلموا من هدايتهم القرآنية أن العبرة فى الغلبة ليست للكثرة التى لم يلازمها الحزم والإخلاص للحق والصبر عليه ، وذلك فى قول الله عز وجل من سورة المائدة : « قل لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث » ، وقد شبه النبى ﷺ الكثرة إذا تجافت عن الحق والخير بأنها « غثاء كغثاء

السيل » ، وقال الله عز وجل فى سورة البقرة : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

فجعل فضيلة الصبر على إقامة الحق من أسباب الغلبة والنصر ، ولو كان القائمون بالحق الصابرون عليه قليلا عددهم عند مواجهتهم الكثرة من أنصار الباطل ، وبهذا ربى الإسلام من أبنائه الأولين كتلة حازمة لا تهاب الموت فى سبيل عزتها والدفاع عن حقها ، فعاش المسلمون الأولون سادة قادة ذادة يحميهم الحق ويحمونه ، وتجملهم فضائل الأخـــلاق ويجملونها ، ويملأون الدنيا عدلا ورحمة ، وتحوطهم الدنيا بالعزة والغبطة والإعجاب .

ولما فشلت كثرة الباطل فى قمع الحق الذى بعث به صاحب هذه الذكرى صلوات الله عليه ، أراد المبطلون فى زمن البطن الأول من أصحابه أن يفسدوا دعوة الحق بالانتساب إليها ، ودس العقائد الباطلة فيها ، فأفشوا فى بعض الضعفاء دعوة تأليه على عليه السلام ، وبعض من ينتمى إلى آل البيت ، فكان أول من غضب لهـذه الدعوة وبطش بالمبطلين من أصحابها ، على نفسه كرم الله وجهه ، ومن ذلك اليوم انفتحت جبهة أخرى للدفاع عن الحق الذى بعث الله به رسوله ، بقيام طائفة من أئمة الإسلام فى كل زمان ومكان يفرقون بين الحق والباطل والهدى والضلال والرشاد والغى والصدق والكذب ، وطريق أولياء الله السعداء وأعداء الله الأشقياء ، وبهم حفظ الله دينه الذى وعد بحفظه إلى يوم الدين .

إن ذكرى مولد صاحب هـذا الانقلاب الإنسانى العظيم تذكرنا بكل ما كان لهذه الدعوة من أثر عظيم فى عقول البشر وأخلاقهم ومداركهم ، وبالنجاح المنقطع النظير لمن عملوا بها فى أنفسهم ، وتطوعوا لنشرها بين الناس ، وهى تدعونا إلى أن نرجع من جديد إلى هداية الإسلام كما كانت فى صفائها ونقائها ، ليرجع لنا أثرها من العزة فى أنفسنا ودولتنا والسعادة فى بيوتنا وأوطاننا ، والكرامة بين شعوب الأرض .

صلى الله وسلم على معلم الناس الخير وعسى الله أن يهدى أمته الرجوع إلى هـذا الخير ، فى هذا العهد الطاهر المبارك ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

افتحوا للفقه أبواب الحياة

الفقه مجموعة الأحكام التى تنظم علاقة الناس بربهم وعلاقة الناس بعضهم ببعض أفراداً وجماعات ؛ فهو حلول ومخارج من المشاكل التى مست المجتمع فأشقت الحياة وأضرت ببنى الإنسان . وكما أن الطبيب المداوى لا يعالج من الأمراض إلا ما انتاب الأجسام ، كذلك الفقه ما كانت تشرع أحكامه إلا بقدر ما يحدث من قضايا وما يجد من جرائم وينشأ من مظالم ، ولهذا قال عمر بن عبد العزيز « تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا » . وأحكام القرآن الكريم إنما نزلت بسبب حوادث وقعت فى عهد النبى ﷺ وأسئلة وجهت إليه ، وهكذا أمر الأحكام فى السنة الكريمة .

والمجتهدون من عهد الصحابة ما كانوا يجتهدون إلا فى حكم ما يجد من النوازل ، وكانوا يكرهون الإفتاء فيما لم يقع ، ولهذا روى عن معاذ أنه كان إذا استفتى فى مسألة لم تقع يقول « أيها الناس ، لا تستعجلوا البلاء قبل نزوله » ، وروى مثل هذا عن عثمان وعلى ، وكان بعضهم يقول « دعوها حتى تقع » ، ولما فتحت الممالك على المسلمين ونشأ فيها المجتهدون كالأئمة الأربعة وغيرهم فصلوا باجتهادهم فى مشاكل هذه البلاد التى لم تكن فى الغالب موجودة فى منازل الوحى بحكم تغير العادات وكثرة مشاكل المدينة .

ولهذا رأينا القضايا التى ذكرت أحكامها فى الفقه تمثل عادات البلاد التى دون لها ، فالفقه الحنفى يمثل حياة العراق وبلاد العجم والهند ، والفقه المالكى يمثل حياة الحجاز والمغرب والأندلس ، والفقه الشافعى يمثل الحياة فى مصر ، والفقه الحنبلى يمثل الحياة فى العراق والشام ، والفقه الزيدى يمثل حياة اليمن ؛ وهكذا ، فمجموعة الأحكام المأثورة فى المذاهب المختلفة إنما هى أقضية وفتاوى لأمور كانت وطلب فيها رأى الشريعة ، ومع هذا فإن بعض هذه الأحكام تغيرت ظروفها وتبدلت لتبدل عللها ومقتضياتها ، وبعض الأحكام التى كانت راجحة فيما مضى للمصلحة التى دعت إلى تشريعها أصبحت مرجوحة لتغير وجه المصلحة فيها ، ولا نريد بهذا طبعا الأحكام التى نص عليها الكتاب والسنة ،

وإنما نريد الأحكام الاجتهادية ، فإنه قد يتغير فيها وجه الاجتهاد لتغير الأسباب التى بنيت عليها . ومنذ المائة الرابعة . تقيد الفكر الفقهى نوعا ما ، فبعد أن كان الفقيه هو المجتهد المطلق الذى يستمد أحكامه من مصادرها الأولى : القرآن والحديث والإجماع وفتاوى الصحابة والقياس على المنصوص . أصبح يفكر فى دائرة نصوص إمامه الذى يقلده ويتقيد بأصوله وفروعه . وإذا جدت قضية لم يجدها فى منقول إمامه وإلحاق النظير بالنظير ، ومع هذا استطاعوا على مر العصور أن يحلوا مشاكل المجتمع ويسعدوا حياة الناس ويظهروا عدل الله بينهم .

ومنذ عهد بعيد تعطل الفقه فى باب العقوبات فلم يعد يفصل فيها بأحكام الشريعة ، ومنذ عام سنة ١٨٨٣ تعطل عمل الفقه فى المعاملات المالية والتجارية وأصول التقاضى فلم يعد يفصل فيها إلا بالقانون الفرنسى المصرى فيما بعد ؛ فأصبح الفقه من هذا التاريخ عضوا أشل ومصباحا لا يضيء ولسانا لا يتكلم ، لأن القضايا فى المحاكم لم تعد تستقضيه ، ولأن مشاكل الناس لم تستفتيه ، على حين جدت بين الناس مشاكل جمة وقضايا معقدة دعت إليها المدنية وانتشار العمران والحروب التى نشبت والانقلابات التى حدثت ، كمشاكل الطيران والكهرباء والبخار والأسلحة الحديثة وأساليب جديدة فى التجارة ومضاربات فى البورصة وشركات تعقد على أوضاع مختلفة ومصانع تؤسس ، ولكل وضع من هذه حكم كان يستطيع شرع السماء أن يقوله وأن يستنبطه لو استفتى ، لكن استفتيت قوانين الناس ، والناس أفكارهم محدودة يؤثر فيها الزمان والمكان وتسخرها الأغراض والشهوات . ولو استشير الفقه لنطق لسانه بالعدل الإلهى ونشر مصباحه النور السماوى ، وبعد هذا يقول الناس إن الفقه مقيد ، إن الفقه مسجون ، ولو حل قيده ، وخرج من سجنه وسأله القاضى والمفتى فى كل ما يرفع من القضايا والاستفتاءات وترافع بنظرياته المحامى لكان قادرا ولكان خيراً وبركة على الناس .

فإلى أن تقضى المحاكم بالشرع الإسلامى فى القريب إن شاء الله بفضل هذه النهضة المباركة التى قامت دعامتها على الإصلاح الشامل ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها : إلى أن يكون هذا ، على الأزهر أن يمهد له ؛ فيكتب الفقه من جديد ، ويقرأ القوانين الحديثة ليعرف ما جد من القضايا فيحكم فيها بأحكام الشريعة ، وليعرف ما فى القانون من نظريات أحكمتها الأفكار المتلاحقة التى لو عملت فى محيط الفقه الإسلامى لأنتجت أحسن الآثار . عليه أن يكون لجنة من رجال المذاهب المختلفة المبرزين فى فقههم ، ويضم إليهم عددا من علية

رجال القانون المعروفين بالإيمان بالله والإخلاص لدين الله فيكتبوا القسم المدنى وقسم العقوبات والمرافعات على ضوء ما جد من المشاكل ، ليحكموا فيها كلها بشريعة السماء . عليه أن ينشىء فى كلية الشريعة كرسيا لدراسة النظريات القانونية على ضوء الفقه والموازنة بين الشريعة والقانون كما درس القدماء الفلسفة اليونانية فى ضوء عقائد الإسلام وردوا الباطل منها .

بهذا نستطيع أن نستمد من الشريعة قانون البلاد ، وبهذا يمكن للفقه أن يعيش . أما إن تركت كتبه فى رفوف المكاتب يأكلها السوس ، وذهب الناس فى حياتهم الهائجة المائجة يبغون حكم الجاهلية فالموت للفقه والفناء له والضلال للناس ؛ فافتحوا للفقه أبواب الحياة .

أحمد فهمى أبو سنة
مدرس بكلية الشريعة



القليل المتواصل والكثير المنقطع

روى المرزبانى فى كتاب (الموشح) أن الأخطل أتى الغضبان بن القبعثرى الشيبانى فى الكوفة وكان سيد بكر بن وائل ، فسأله فى حمالة . فقال له ابن القبعثرى : إن شئت أعطيتك ألفين وإن شئت أعطيتك درهمين . قال الأخطل : ما بال الألفين وما بال الدرهمين ؟ قال : إن أعطيتك ألفين لم يعطكها غيرى إلا قليل . وإن أعطيتك درهمين لم يبق بكرى بالكوفة إلا أعطاك درهمين ، وكتبنا لك إلى إخواننا من أهل البصرة فلم يبق بكرى الا أعطاك درهمين نخفت عليك المؤونة وكثر لك النيل . قال الأخطل : فهذه إذن . قال : نتممها لك إلى أن ترجع من البصرة ، وكتب له بالبصرة الى سويد بن منجوف السدوسى وهو زعيم بكر ابن وائل بالبصرة .

الكتب الفلسفية
وما اعتراها من تحريف الوراقين
وسبيل إصلاحها

في مصر الآن نهضة لإحياء كتب الفلسفة والعلوم القديمة ، تقوم بذلك وزارة المعارف إذ قررت أن يطبع كتاب « الشفاء » لابن سينا ، وسائر كتبه المنطقية والرياضية والإلهية والأخلاقية احتفالا بذكرى مرور ألف سنة على وفاته ، ويقوم بذلك بعض دور النشر وبعض الأفراد كالأستاذ عبد الرحمن بدوى إذ نشر من كتاب المنطق لأرسطو خمسة كتب : المقولات ، والعبارة ، والقياس ، والبرهان ، والجدل . ويقوم به أيضاً في خارج مصر بعض المستشرقين كالأب بويج إذ نشر « تهافت الفلاسفة » للغزالى ، و « تهافت التهافت » لابن رشد ، و « تفسير ما بعد الطبيعة » لابن رشد أيضاً ، وبعض كتب أخرى . وهذه جهود تشكر لهم ، لأنهم يعانون الأمرين من هذه الكتب الخطية القديمة . لأنها رديئة الرسم أحيانا وغريبة الاصطلاح أحيانا وقد يكون عدا عليها الدهر فأكلتها الأرضة ، أو أصابها بلل فمحا بعض سطورها ، وإن أحدهم ليبحث عن النسخ المتعددة من الكتاب الواحد في العالم فينسخها أو يصورها ، ويقابل بعضها ببعض ويبين مواضع الاختلاف في مطبوعه ، وهذا جهد ليس بالقليل فهو مضن وفوق الطاقة ، يقر بذلك من كابد بعض الكتب الخطية القـــديمة .

وإنى أذكر أنى علمت أن جامعة فؤاد الأول استحضرت مصورا من كتاب المنطق لأرسطو عن مخطوط بباريس ، فذهبت إلى كلية الآداب ، وحاولت أن أنتفع به فلم أفلح لرداءة خطه وطمس سطوره . وقيل لى إن التصوير غير متقن ، فما هو إلا أن رأيته بعد ذلك بإخراج الأستاذ عبد الرحمن بدوى مطبوعا طبعاً أنيقا ، وعلى ورق مصقول فأخذت أقرأ لا تعيينى القراءة ، فكم من يد أسداها لمحبى العلم ، وكم من يد يسديها الناشرون ، وكم من يد تسديها

وزارة المعارف بتذليل الكتب العلمية القديمة ، وتيسيرها للقارئين والدارسين . لقد ذكرنا أنهم لم يألوا جهدا فى تيسيرها للقارئين ، فهم يحرصون بأمانة على أن يجعلوا المطبوع صورة مطابقة للأصل من المخطوط ، وإن كانت هناك نسخ متعددة بينها اختلاف بينوه ، ولكن هناك معضلة فى هذا الإحياء كله ، ليست معضلة كتاب واحد وإنما هى معضلة الكتب جميعا ، ذلك أن هذه النسخ الخطية قد اعتراها المسخ والتشويه والتبديل ، فالمؤلف أو المترجم يخرجها صحيحة مبرأة من العيب . ولكن الحاجة تقضى بأن تعم وتتداول فينسخ منها ناسخ ، فيصحف كلما ويسقط كلما ويزيد كلما ، وتصبح نسخته هذه إماما فينسخ منها ناسخ فيعتريه مايعترى الاول فيقع فى خطئه ويزيد عليه مثل ، أو أكثر ، مما صنع الاول ، وهكذا تتعاوره النساخ ويتداوله الوراقون حتى يعود خطأ بحتا وباطلا صرفا .

فإذا حافظ الناشرون على أوضاع هذه النسخة فهم يحافظون على الخطأ ، ويتحرون الفاسد . وكثرة مايطبع من هذا القبيل ، وإنه فى الكتب الفلسفية العلمية أكثر ، وفى الكتب الدينية والادبية أقل ، ذاك لان هذه قد اتصل سندها وكثرت العناية بها فكانت تقابل وتدرس وتتحرى حتى جاءت أقل خطأ وتحريفا ، أما الفلسفة فقد انقطع سندها وقل المشتغلون بها وكان الناسخون لكتبها يجهلون ما فيها ، ومن هنا وقع النسخ والتغيير والتبديل والتحوير .

وإنى أريد أن أمثل لما قلته بكتاب ، المنطق لارسطو ، الذى أخرجه الاستاذ بدوى .

لقد ذكرت أنه قام بجهد عنيف مشكور حين أخرجه ، وحين أبرز هذه النسخة القديمة البالية ، فى هذا الثوب القشيب .

لقد عكفت على قراءته فلم أفهم ، وعاودت القراءة فلم أفهم ، فأنكرت نفسى أولا ثم أنكرت النسخة ثانيا واتهمتها بالتحريف ، فقررت على أن لا أتبع الالفاظ ولا أتقيد بالكلمات ، وإنما أفهم من السطور ومن بين السطور ، وأستخلص المعنى من مجموع الكلام ، فإذا ما استوى لى ذلك ، بحثت عما كان يلزم من الالفاظ لتستوى العبارة ، فإذا التصحيف تارة ، وإذا الحذف تارة ، وإذا الزيادة تارة أخرى ، فإذا ما كمل ذلك فى الباب أو الفصل سهل فهمه ، وعذب مورده ، لا إغلاق فيه ولا إلغاز . وسأمثل :

ورد فى نسخة المنطق المطبوعة ص ٣١٠ فى أوائل كتاب البرهان ، وقد تجب ضرورة

ما يقدم فيعرف على جهتين ، فبعضها تحتاج من الضرورة إلى أن تتقدم فتتصور أنها موجودة ، وبعضها الاولى أن تفهم فيها على ماذا يدل القول ، وبعض الأشياء قد تدعو الضرورة إلى أن يتقدم فيعرف من أمرها كلا الصنفين » .

وهذه عبارة تجدها قلقة مضطربة لا تكاد تفهم فإذا علمت أنه يريد أن يقسم مبادىء البرهان التي يجب أن تعرف قبل البرهان إلى ثلاثة أقسام : الأول ما يجب التصديق بوجوده ، والثاني ما يجب تصور ما يدل عليه اللفظ ، والثالث ما يجب فيه الأمران جميعا ، علمت ما في العبارة من تصحيف وإن كان حقها : « وقد تجد ضرورة ما يقدم فيعرف على جهتين فبعضها يحتاج من الضرورة إلى أن يتقدم فيتصور أنها موجودة ، وبعضها إلى أن تفهم فيها على ماذا يدل القول » .

فانظر كيف وقع التحريف فسد طريق الفهم فلما أصلح تيسر فهمه . وورد في ص ٣١٣ : « وأما أن البرهان من أوائل غير مبرهنة فذلك أنه لم يكن يوجد السبيل إلى أن تعلم إذا لم يكن عليها برهان ، وذلك أن معنى أن تعلم الأشياء التي عليها برهان لا بطريق العرض إنما هو أن تقتنى البرهان عليها » .

فإذا علمت أنه يريد بهذا أن يبين أن البرهان لابد أن ينتهي إلى أوائل ليس عليها برهان لأنه إذا كان عليها برهان لم يمكن أن تعلم إلا به فيتسلسل والتسلسل محال ، أدركت أن في العبارة تصحيفا وأنه يجب أن يقال بدل إذا لم يكن عليها برهان : إذا لم يقتن عليها برهان .

وقد تجد تصحيف الكلمات من فتح حرف فيها إلى كسره يجعل العبارة مغلقة لا تفهم ، فإذا فتح الحرف بعد كسره عرف ما يراد منها كما ورد في الصفحة نفسها « وأما أنها أقدم فإن كانت عللا » بكسر همزة فإن — وإذا كانت عللا فماذا ؟ .

فإذا علمت أن أرسطو يشترط في مبادىء البرهان أن تكون أقدم من النتيجة ، واستدل على ذلك بأن المبادىء يجب أن تكون عللا لما قدمه ، فيلزم أن تكون أقدم ، لأن العلة أقدم من المعلول ، علمت أن حق العبارة « وأما أنها أقدم فأن كانت عللا » بفتح همزة فان أي فلأن كانت عللا .

ومثال التحريف بالنقص ما ورد فى ص ٤٦٢ : « وأما أن العلم الذى بغير ذوات وسط أترى هو واحد بعينه أم ليس كذلك » .

وفى العبارة نقص وحقها « وأما أن العلم الذى بغير ذوات وسط والعلم ، الذى بذوات وسط ، أترا هما واحداً بعينه » .

أى العلم بالمبادىء التى بدون برهان ، والعلم بالأشياء التى هى ببرهان ، أهما علم واحد أم جنسان مختلفان ؟ .

ومثال التحريف بالزيادة ما ورد فى ص ٤٦٤ : « ومن التجربة عندما يثبت ويستقر الكلى فى النفس » .

وحقها : ومن التجربة يثبت ويستقر الكلى فى النفس ، بحذف (عندما) ، وهذه بعض أمثلة وسبيلنا أن نمثل ولا نستقصى .

وإذا وقع هذا التصحيف والتحريف فى هذه النسخة المطبوعة ، وهى منقولة عن نسخة منقولة من نسخة الحسن بن سوار ، وقوبلت بنسخة كتبت من نسخة عيسى بن إسحاق بن زرعة ، المنقولة من نسخة يحيى بن عدى فكان أيضا موافقا — كما أثبت بآخر كتاب البرهان — ومعنى ذلك أن هذه النسخة أنجبها أصل فلسفى ، وهى نسخة الحسن بن سوار ، وزكاها عدل مقبول وهو نسخة عيسى بن إسحاق بن زرعة ، المنقولة من نسخة يحيى بن عدى ، وهما اثنان من الفلاسفة ، ولهما مرتبة عليا فيها ، فما بالك بنسخة لم تظفر بمثل هذا النسب العالى وبمثل هذه التزكية .

أرأيتم أنه لا يغنى التصحيح الأول عن التصحيح الثانى ، وأنه لا يمكن الفهم إلا بهذا التصحيح المعنوى .

أرأيتم هذا الجهد المضنى ، أرأيتموه يقل تعباً وعسراً عن رفع الأثقال وقطع الأحجار ، بل ربما كان قاطع الأحجار أبل ريقاً وأسهل طريقاً ، وكان صاحب هذا الجهد محبوس الأنفاس ، منقبض العضلات ، مرهف الحواس مخافة أن يند عنه ما يوشك أن يقع فى شباكه .

أرأيتم جهداً أيمن من هذا الجهد ، وتعباً أجدى من هذا التعب .

إنه لا تقل جدواه عن جدوى المعلم الأول أرسطاطاليس الذى ألفه ، ولا جدوى أبى بشر متى بن يونس الذى ترجمه . فإذا كان الأول قد ألف ، والثانى قد ترجم وبذلك سهلاه ويسراه للمتعلمين ، فإن الزمن قد جار عليه ، وغيره وبدله فلم يعد ينتفع به إلا بهذا الجهد الأخير الذى أزال النسخ والمسخ ، وعاد به كيوم ألفه المؤلف وترجمه المترجم .

إن التصحيح الأول عمل عضوى لا يحتاج إلا إلى عمل حاسة البصر . فالمصحح يقرأ النسخ المختلفة ويعرف مواضع الاختلاف وينبه عليها . أما التصحيح الثانى فهو عمل عقلى شاق عميق يقتضى أن يكون صاحبه عارفا بالعلم الذى يصحح فيه ، وقل فى زماننا من يعنى بهذه العلوم الفلسفية ، فقل من يعلم المنطق على طريقة أرسطو ، وقل من ينظر فى علم الطبيعة على طريقة الفلاسفة المتقدمين ، وقل من يعرف علوم ما بعد الطبيعة على وعورتها ، وقل من يصبر على هذه العلوم مع انصراف الناس عنها . وانقطاع السند فيها وعدم الجزاء المادى عليها ، وإنه لا يتوفر على دراستها إلا من أوتى حظا من حب الحكمة ملك عليه أمره ، فهو يصرفه فى بيداء الفكر وشعاب العلم ، يقضى فيها نهاره وليله يسعد بما فيها ، وإنه ليكتفى بذلك ويزهد فيما فى أيدى الناس من متاع وزخرف .

لا بد إذا من العالم بهذه العلوم الفلسفية ليصحح هذا التصحيح المعنوى ، ولكن لا بد من أن يحافظ على الأصل فيكتبه وينبه على أن المعنى يقتضى كذا ويثبت ما يقتضيه فى أسفل الصفحة .

وإنما أوجبنا ذلك لأن المرء موكل به النسيان والغلط . فربما زيف فهما صحيحاً ، وربما أصلح فأفسد ، وأزال التحريف فأوقع فى التحريف . ولعلة أخرى وهى عدم التحكم فى القارىء فهو بذلك يقول لمن ينظر فى هذا الكتاب : هذا هو الأصل وما يقتضيه على هو كذا ولك الخيار فيما تأخذ وما تدع . وحبذا لو كتب خلاصة لكل باب يترجمه إلى لغة العصر لتكون أعون على فهمه .

هذا ما نراه فى إخراج الكتب الفلسفية ولعل وزارة المعارف تقتنع به وتراعيه لأنها إذا أخرجت الكتب الفلسفية بدونه ، تكون قد أحيت ولم تحى ويسرت ولم تيسر وأخرجت للناس كتباً شبيهة بأقوال المجانين لا نظام يجمعها ولا معنى يفهم منها كما قال أبو تمام :

عذلا شبيها بالجنون كأنما قرأت به الورهاء شطر كتاب

وأحب أن أنبه إلى أنه يجب إذا ظفرت وزارة المعارف بمن يصححون منها هذا التصحيح ألا تطالب منهم الكثير فإنهم لا يعنون بالكثرة، وإنما يعنون بالجودة، وكل قليل من الجيد فهو كثير لو لم يكن إلا أن يخرج أحدهم كتاب الشعر أو الخطابة أو البرهان لأرسطو لكفاه ذلك، فبحسبه أن أخرج كتاب البرهان أو الشعر أو الخطابة مقروءا مفهوما وبحسب الأمة أن تظفر بذلك.

وأحب أيضاً ألا تضن عليهم فتحاسبهم بالورقة أو بالملزمة بل تكافئهم مكافأة من يعلم قيمة علمهم وجدواه، وما فيه من صعوبة، فهو خلاصة تعب العمر، وجهد الحياة.

ليس بكثير على رجل أنفق عمره فى خدمة العلم والاشتغال بعلوم الأوائل حتى استوى له أن يصحح كتابا من كتب المعلم الاول، أو كتب ابن سينا أو ابن رشد، تصحيحاً يزيل غلط الدهور وخطأ الأحقاب، أن يأخذ من أموال الدولة ما يوازى تعب عقله ونصب فكره. وما ينبغى أن تعطى الدولة من ييسر لها كتابا مما تود نشره من كتب العلم ما يكافىء عمله فهى ليست تنشده وتبذل الجهد والمال فى إخراجه للناس إلا للانتفاع به، ولا ينتفع به ويتيسر فهمه إلا بهذا التصحيح المعنوى الذى قلناه.

إنه يجب أن تتغير نظرتنا إلى العلم والعلماء فلا نستكثر على العلماء مالا نستكثره على من لا يغنون غناءهم وينفعون نفعهم.

إذا أراد المرء أن يعرف مقدار تقدم أمة فى الحضارة نظر إلى ما ينفق فيها ويروج فإن كان الذى ينفق فيها المضحكات والمساليات، فهى ذات نصيب قليل من التقدم والرقى، وإن كان الذى ينفق فيها الجد والعلم عرف أنها تعرف للعلم خطره، وللجد أثره، وخير للأمة المصرية أن تتجاوز الطور الأول إلى هذا الطور الأخير.

محمد عرفه
عضو جماعة كبار العلماء

الحديث النبوي
مقاصده ، ألفاظه ، معانيه

تناولت فى حديث سابق كلام النبوة من ناحية أغراضه ومراميه ، واليوم أعرض له من جهة بلاغته .

ولعمر الحق لن يصفه واصف بأبلغ ولا أوجز ولا أدل من قوله « أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ، واسترضعت فى بنى بكر بن سعد » .

وقال له أبو بكر ذات يوم : لقد طفت للعرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ فقال ﷺ : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وذكر أبو على البغدادى فى أماليه أن النبى ﷺ كان جالسا بين أصحابه فنشأت سحابة فقالوا : يا رسول الله هذه سحابة فقال : كيف ترون قواعدها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد تمكنها . قال : وكيف ترون رحاها ؟ قالوا : ما أحسنها وأشد استدارتها . قال : وكيف ترون برقها أو ميضاً أم خفيا أم يشق شقا ؟ قالوا : بل يشق شقا . فقال : فكيف ترون جونها ؟ قالوا : ما أحسنه وأشد سواده فقال ﷺ : الحيا . فقالوا : يا رسول الله ما رأينا الذى هو أفصح منك . قال : وما يمنعنى ؟ فإنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين [1] .

والقارئ الكريم يستطيع أن يفهم من هذه الأحاديث كيف امتاز النبى ﷺ بهذه الفصاحة التى كانت موضع إعجاب أصحابه ودهشتهم ، وفيهم أبو بكر نسابة العرب وراوية أخبارها وطوائفها بالآفاق .

فهو صلى الله عليه وسلم كما يقول فى الحديث الأول : من قريش وهى أفصح العرب لغة وأقومها منطقا لأنها كانت تتخير من لغات الوافدين إليها فى المواسم ما خف على اللسان وحسن فى الآذان فلطفت لهجتها وجاد أسلوبها وزادت ثروتها . وكرمها القرآن فنزل بلغتها .

---

(١) الوميض : اللمع الخفى . والخفى بالتخفيف : البرق الضعيف .

وهو صلى الله عليه وسلم قد استرضع فى بنى سعد بن بكر وكانوا من العرب الضاربين حول مكة يتبدى فيهم أطفال قريش يطلبون نشأة الفصاحة ، وقد أجمع الرواة على أن لهم اختصاصا وامتيازا من بين العرب فى الفصاحة وحسن البيان ومحمد صاحب الاستعداد الخصيب والفطرة العالية فكيف يبلغ من أدبهم .

وهو صلى الله عليه وسلم كما وصف نفسه فى الحديث الثانى قد أدبه ربه وصنعه على كرائم ما يؤتى الناس من مبان ومعان جل مواهبها ، وذلك الركن الركين والسر الكمين والغاية التى لا تدرك .

ثم هو تلميذ القرآن وخصيصه وصفيه ونجيه كما يقول وما ينفى فإنما أنزل القرآن بلسان عربى . وهذا الكتاب نعم المؤدب والمهذب ، وللقارئ فيه من العلم والأدب والبيان واللسان بمقدار ما له فى القارئ من تفرغ وانجاه وهل كان إلا للقرآن يتعهده ويهذبه ويعلمه البيان .

وفى هاتين الناحيتين (مدارسة القرآن وتأديب الرحمن) موضع التفرد فى رسول الله ﷺ فقد اصطفى له ما شاء من صور البيان كما اصطفاه على جميع الأنام وكانت له بلاغة : « سجدت الأفكار لآيتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، ألفاظ يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه فهى إن لم تكن من الوحى ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هى من دليله [1] » .

ولا تتوهمن أن بلاغة النبوة كانت من نوع ما قد يتوهم القارىء فى بعض الحديث الاخير من غرابة وأن ذلك كان مصدر إعجاب الصحابة ، كلا فقد كان ﷺ أبعد الناس من الغريب والحوشى كما ترى فيما بعد ، وإنما هى مجازات فى القواعد (الأسافل) وفى الرحى (الوسط) وفى البواسق (الأعالى) . والغرابة بالمجاز محمودة إذا كانت فى صخرها وحافها . وقد جعل الله غرابة كلام النبوة أحيانا فى دقة معانيه ولطف استعاراته وتماسك لبناته وتجامع كلماته ودقة تشبيهاته وإحكام تطابقها .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى

وربما أغرب حين يخاطب من ليس من قريش فيكون ما يتكلم به أو ما يكتبه غير مألوف لقومه ، ولكنه لغة المخاطبين وبغيره لا يفقهون فهو يحدثهم بما يفهمون . ولذلك وصف النبي ﷺ بأنه واضع في اللغة ومشتق فيها ، وروى المبرد في الكامل أنه ﷺ قال لأبي تميمة الهجيمي « إياك والمخيلة » فقال يا رسول الله نحن قوم عرب فما المخيلة ؟ قال : سبل الإزار .

وإذا ، فقد صورت للقارىء بعض عوامل بلاغته ﷺ بمقدار ما أوردت الأحاديث الكريمة السالفة الذكر . ولا ريب أن عوامل بلاغته أكثر من ذلك ، ولكنني لست في هذا السبيل فإن السفر طويل وليس المجال بمستدع ذلك ، فتاريخ النبي وما يحف به من الأمور الجلية ، بل إن شاء قائل أن يقول إن النبي ﷺ في غنى عن الاشارة ببلاغته وبيانه ، وإن من الفضول إرجاء الوقت في تصوير ذلك كان له ذلك . ولكنني أردت أن أوجه القارىء صوبها وأذكره بالواجب نحوها ، وأجدد في نفسه معاني تقديرها حتى لا يتخذ هذا الكلام السامي مهجوراً ، وحتى يلتمس أقرب الطرق إلى البلاغة في تفقه ذلك البيان المعظم من ذلك النبي الكريم ، وأعود إذاً بالقارىء إلى وصف كلامه صلى الله عليه وسلم وأجعل العمدة في ذلك ما يتناقله الأدباء من وصف الجاحظ له وهو الناقد البصير والواصف الخبير قال الجاحظ في البيان والتبيين (١) :

« هو الكلام الذي قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه . وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف . قال الله تعالى : (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) فكيف وقد جانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط في موضع البسط ، والمقصور في موضع القصر . وهجر الغريب والوحشي ، ورغب عن الهجين والسوقي ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق . وهذا الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة . ولا زلت به قدم . ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ،

(١) ج ٢ ص ٨

ولا أفحمه خطيب ، بل يبز الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعلمه الخصم ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ولا أبين فى فحواه من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

هذا وصف الجاحظ لكلام السيد الرسول ، وهى أوصاف عظيمة وإن كان فى تصورها شىء من الترهل فى العبارة والتكرار ، وهى تتلخص فيما يأتى مع شىء من التأييد .

(١) كان ﷺ موجز اللفظ يقصد إلى الهدف ويهدى إلى الجادة فى القول كما هدى إليها فى الفعل ، وهى من خصائص النبوة وآيات العبقرية . ولهذا وصفت البلاغة بين الأدباء بأنها الإيجاز ، لأن كل متكلم يستعين على الإفهام ويردد فى سياق الكلام لنقص علمه بحاجة السامع ، وعدم اطمئنانه إلى أنه وفى . ولهذا تكثر الإطالة فى كلام الأعاجم ومن على شاكلتهم فأما العرب الخلص فيتفاهمون فى لمحة دالة وكلمة جامعة .

ومن قرأ لهذا الجاحظ الذى يضرب به المثل فى البيان ، أو لأمثاله من فرسان هذا الميدان كابن المقفع ، وأحمد بن يوسف ، وعبد الحميد من قبلهما ، أدرك فرق ما بينهم وبين النابغين فى البلاغة وعلى رأسهم محمد بن عبد الله .

وهذا ما جعل السيد الرسول يتحدث بنعمة الله عليه فيقول « أوتيت جوامع الكلم ، واختصر لى الكلام اختصاراً » . وجوامع الكلم غير الاختصار كما قد يتوهم . وكان ﷺ يقول « نحن معاشر الأنبياء بكاء » لأنهم يكرهون الفضول ، ويقصدون إلى الأهداف ، ويعمدون إلى الصراحة . ولما نصح جرير بن عبد الله قال له « إذا قلت فأوجز ، وإذا بلغت حاجتك فلا تتكلف » . ولهذا قال « أبغضكم إلى الثرثارون المتفيهقون » . وقد أحصى العلماء كثيراً من الكلام المفيد السامى الذى يشتمل على كلمتين من كلامه كقوله « الإيمان يمان » و « الدين النصيحة » . « الدين المعاملة » ، « العدة دين » ، « السماح رباح » ، وما إلى ذلك من الكلام العذب المغدق الخصيب المتحلى بمحاسن البديع الطبيعى .

ولعلك ترى فى هذه المحاولة أن ذلك كان توفيقاً لا إقلالا ، وإصابة لا عجزا ، وهو من الحكمة التى وصف بها الجاحظ هذا الكلام فقال : إنه لم ينطق إلا عن ميراث حكمة . على أنه كان يطيل فى الحين بعد الحين كما قال الجاحظ أيضاً أنه يبسط فى موضع البسط ويقصر فى موضع القصر . وروى عن أبى سعيد الخدرى أنه صلى الله عليه وسلم خطب بعد العصر فقال : « ألا إن الدنيا حلوة خضرة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء . ألا لا يمنعن رجلا مخافة الله أن يقول الحق إذا علمه » قال أبو سعيد : ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف .

وفى كلام النبى صلى الله عليه وسلم نوع من الأطناب يسمى « التوشيع » وقد تردد كثيرا فيها بجمال فاتن وإحسان عظيم ، لأنه يتفق مع الإجمال ثم التفصيل ، لزيادة تقرير المعنى وإيصاله إلى السامع . وهو إحكام لصنعة البلاغة ، ولهذا كان صلى الله عليه وسلم يقول الكلمة ثلاثا لتفهم عنه ، ولم يكن يسرد كسردنا .

وفى هذه المناسبة أقول : إن الجاحظ قد تورط فيما اعتقد فذكر أنه كان يستغنى عن إعادة الكلام ، وكان السامع فى غير حاجة إلى المعاودة إلا أن يتكلف لتصحيحه ببعض التأويل . وهذا التوشيع يجده القارىء الكريم فى مثل قوله « عشر خصال من الفطرة الخ » وقوله « أوصانى ربى بتسع الخ » وقوله « سبعة يظلهم الله الخ » وقوله « أربع من كن فيه الخ » وقوله « آية المنافق ثلاث الخ » وهو مما يجعل السبك رصينا والأسلوب متماسكا .

هذا ولغلبة الإيجاز على كلام النبى صلى الله عليه وسلم فى غير تكلف ولا عناء مع بلوغ الغاية كان إعجاب الأصحاب به وتعجبهم من مسلكه ، وفى الحق إن ذلك ناحية الامتياز الكبرى فى بيانه صلى الله عليه وسلم فإن اجتماع الكلام بقلة ألفاظه مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه فى غير تعقيد ، واطراد ذلك فى كل معنى وفى كل باب شىء لم يعرف لأحد قبله . فأما غيره فإنه يستهلك بالاختصار معنى الكلام ويستولى عليه بالتكلف . ومن شاء فلينظر فى المختصرات ومختصرات المختصرات فيما بين أيدينا من الكتب ليرى كيف يصنع الاختصار من تشويه الحقائق وتكلف ما يحول دون الفهم . « يتبع »

محمود النواوى
المفتش بالأزهر

الحكم التكليفي والوضعي

— ١ —

من المعلوم أن الاصطلاحات العرفية والشرعية ترجع فى أصلها إلى الأوضاع اللغوية . ولهذا يلزمنا أن نعرف الحكم فى الوضع اللغوى ، ثم ننتقل منه إلى الحكم الشرعى . فالحكم فى اللغة : الصرف والمنع للإصلاح . وجاء منه ، حكمة الفرس ، وهى الحديدة التى تمنعه عن الجموح . وجاء منه ، الحكيم ، لأنه يمنع نفسه ويصرفها عن هواها . ومنه ، الإحكام ، أى الإتقان . وقد جاء فى القرآن الكريم ، كتاب أحكمت آياته ، أى منعت وحفظت عن الخلط والكذب والباطل والخطأ والتناقض . و ، الحكم ، بمعنى الفصل والبت والقطع . وفى اصطلاح المناطقة إسناد أمر إلى آخر إيجابا أو سلبا ، وإدراك وقوع النسبة أو لا وقوعها . وإذا كان الحكم هو الثمرة المطلوبة من منابع التشريع الإسلامى وأدلته ، فإن أنظار الأصوليين المستنبطين للأحكام الشرعية محصورة فى وجوه دلالة الأدلة السمعية على الأحكام الشرعية ـ ولأجل ذلك جرت عادة الأصوليين أن يعرفوا الحكم الشرعى ويقسموه ثم يبينوا الحاكم والمحكوم فيه والمحكوم عليه .

وقبل أن نبدأ السير فى بيان هـذه الحقائق المنقسم إليها الحكم الشرعى . ننبه إلى أن الأصوليين جرت عادتهم بذكر تعريفات متعددة لكل نوع من أنواع الحكم بل قد اختلفوا فى تعريف الحكم نفسه . وإنا لنأخذ أنفسنا فى هذا البحث بذكر ما رجحه جمهرة العلماء أو واحد مهم ، ونعرض عن غير الراجح من التعاريف . وقد عرف الآمدى الحكم الشرعى بأنه ، خطاب الشارع المفيد فائدة شرعية ، وهذا الخطاب إما أن يكون متعلقاً بطلب أو لا يكون متعلقاً بطلب . فإن كان الأول فهو طلب الفعل أو الترك . وكل واحد منهما إما جازم أو غير جازم . فما تعلق بالطلب الجازم للفعل فهو الوجوب . وما تعلق بالطلب غير الجازم فهو الندب . وما تعلق بالطلب الجازم للترك فهو الحرمة . وما تعلق بالطلب غير الجازم للترك فهو الكراهة ، وإن لم يكن متعلقاً بطلب ، فإما أن يكون متعلقاً بخطاب التخيير

أو غيره . فإن كان الأول فهو الإباحة . وإن كان الثانى فهو الحكم الوضعى كالصحة والبطلان ونصب الشىء سبباً أو مانعاً أو شرطا ، وكون الفعل عبادة وقضاء وأداء وعزيمة ورخصة . وهذا التعريف يقرب من قول بعضهم : الحكم عند الأصوليين خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين طلباً أو تخييراً أو وضعاً .

وعبارة الشاطبى واضحة فى تقسيم الأحكام الشرعية ، إذ يقول الأحكام الشرعية قسمان : أحدهما يرجع إلى خطاب التكليف والآخر يرجع إلى خطاب الوضع . فالأول ينحصر فى خمسة أنواع : الإباحة والندب والكراهة والإيجاب والتحريم . والثانى ينحصر فى الأسباب والشروط والموانع والصحة والبطلان والعزائم والرخص . ومن هذا يعلم أن الأصوليين عرفوا الحكم بالخطاب الذى يطلب به الشارع من المكلف فعلا أو يخيره بين أن يفعل وأن لا يفعل ، أو يجعل بخطابه شيئا من الأحكام سببا أو شرطا أو مانعا . فنحو قوله تعالى « أقيموا الصلاة » ، « إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » ، « ولا تقربوا الزنا » ، « وذروا البيع » ، « فإذا حللتم فاصطادوا » ، « أقم الصلاة لدلوك الشمس » كل هذه أحكام شرعية فى نظر الأصوليين .

وللفقهاء معنى آخر للحكم . فهو عندهم الصفة التى هى أثر ذلك الخطاب . فالحكم الشرعى عندهم هو الوجوب للصلاة . والإرشاد لكتابة الدين . والحرمة للزنا . والكراهة للبيع وقت النداء . والإباحة للاصطياد بعد الإحلال . وسببية الوجوب لدلوك الشمس . وليست هناك ثمرة لهذا الخلاف ، ولا أثر عملى فى إثبات الأحكام .

والفرق بين الأحكام التكليفية والوضعية ، أن التكليفية ينظر فيها إلى ترتب الثواب على الفعل والعقاب على الترك ، وأما الوضعية فإنه ينظر فيها إلى اعتبار الفعل صحيحا فى نظر الشارع ومعتدا به أو ليس صحيحا ولا معتبرا .

وقد أجمع أهل السنة على نفى الأحكام عند عدم الخطاب من الشارع ، ذهابا منهم إلى عدم اعتبار حكم العقل فى إثبات الأحكام . فالعقل لا يحسن ولا يقبح فلا يثبت به حكم . والعقل لا يوجب شكر المنعم .

وقد ذهبت المعتزلة إلى أن الأفعال تنقسم إلى حسنة وقبيحة . فمنها ما يدرك بضرورة العقل كحسن إنقاذ الغرقى والهلكى وشكر المنعم . ومعرفة حسن الصدق وقبح الكذب

وإيلام البرىء . ومنها ما يدرك بنظر العقل كحسن الصدق الذى يترتب عليه ضرر ، وقبح الكذب الذى يترتب عليه نفع . ومنها ما يدرك بالسمع كحسن الصلاة والحج وسائر العبادات .

ولا نرى من الخوض فى هذا الجدال عظيم فائدة تستحق منا مزيد المعاناة ، ولعل ذلك هو الذى حدا بمتقدمى الأصوليين إلى الإعراض عن الخوض فى هذا اللجاج الذى يكون ذكره فى مسائل علم الكلام أولى وارتباطه به أقوى .

ومقصد الشارع من تشريع هذه الأحكام وإلزام البشر بها إنما هو تحقيق سعادتهم فى العاجل والآجل . وقد وقع الخلاف فى علم الكلام بين طائفتين تزعم الرازى إحدى تلك الطائفتين مدعيا أن أحكام الله ليست معللة بعلة ألبتة ، كما أن أفعاله لا تعلل ولم يستطع هذا الرأى أن يثبت أمام التطبيق العملى والنظرى فى الأحكام المعللة فى الكتاب والسنة . فالقرآن الكريم ملىء بالأفعال والأحكام المعللة . فإن الله تعالى يقول فى حكمة بعثة الرسل « رسلا مبشرين ومنذرين . لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . ويقول فى وصف خاتم المرسلين بأنه رحمة للعالمين . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وفوق هذا فإن آيات القرآن التى تعرضت لمبدأ الخلق وحكمته ظهر فيها التعليل بوضوح وجلاء إذ يقول عز من قائل . « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . ويقول « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » . ويقول . « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .

وفى تعليل جزئيات الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة فيض عظيم ، لا يستطيع معارض أن يحجز نوره أو يحبس ضوءه أو يصدّ شمسه . ففى آية الوضوء يظهر التعليل واضحاً فى قوله تعالى « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم » ويقول فى الصوم « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » وفى الصلاة « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وفى القبلة « فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة » وفى الجهاد « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » وفى القصاص « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب » وفى الحمل على التقرير بوحدانية الله سبحانه وتعالى بأبلغ وجه وأفصح عبارة وأشرف ديباجة ، إذ يقول جل وعلا فى صدد ذلك « ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » ولو أطلقنا العنان لتقصى

أحكام الكتاب والسنة وتعاليلها لكنا ملزمين بأن نضع مؤلفاً بدل أن ندبج مقالة لمجلة الأزهر. ولعلي أوفق في مستقبل الأيام إلى كشف اللثام عن أسرار هذه التعليلات .

وجملة ما يمكن أن يقال فيها إنها حكم وأسرار ليست باعثة للشارع ولا ملزمة له ، بل هي راجعة في الحقيقة إلى مصلحة العباد ، وتحقيق الخير لهم والله غني عن العالمين .

ونعود إلى الرأي الثاني الذي تزعمته المعتزلة وهو أن أحكام الله وأفعاله معللة برعاية مصالح العباد ومعهم أكثر الفقهاء . وإذ حللت رأي الرازي وخرجته على الوجـــه الذي بسطته فقد أصبح موافقا لرأي المعتزلة ، وبذلك حقق علماء الأصول التوفيق بين رأي المعتزلة ورأي الرازي ، إذ أن ما قاله المعتزلة في تعليل الأحكام والأفعال راجع في الحقيقة إلى مصالح العباد ومنفعتهم لا إلى منفعة الله سبحانه وتعالى . لأنه غير محتاج إلى الأفعال ليتكمل بها ولا يستطيع الرازي أن ينكر أن العباد ينتفعون بهذه الأحكام ، وأن عللها تعود بالخير والنفع لهم ، وتمكنهم من الخلافة المصلحة في الأرض التي يباهي الله بها ملائكته ، والتي أشار إليها سبحانه بقوله « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » .

وفقنا الله إلى إدراك أسرار تشريعه وحكمه إنه على ما يشاء قدير .

عبد الله المراغي
مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

يُصلح في إسلامه ما أفسده في كفره

كان عبد الله بن الزبعرى السهمي شاعراً من شعراء قريش ومن أشدهم عداوة للإسلام . ثم أسلم ومدح النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر إليه فأحسن فقال :

يا رسول المليك إن لساني ... راتق ما فتقتُ إذ أنا بُورُ
إذ أجاري الشيطان في سنن الغيّ ومن ... مال ميله مثبور
آمن اللحمُ والعظام بما قلـــت فنفسي الفدى وأنت النذير

أزمة الأدب وحرية التعبير

يجتاز العالم فى هذه الفترة الأخيرة من حياته مراحل خطيرة من التطور والانتقال ، نتج عنها انهيار فى بعض القيم الخلقية والاجتماعية والسياسية ، وظهور قيم أخرى جديدة مؤسسة على الفهم الجديد الذى أحدثه التطور فى شتى نواحى الحياة الإنسانية .

والأدب كظاهرة أساسية من الظواهر البشرية كان فى المقدمة : بل كان الجهاز الحساس الذى يسجل كل هذه التغيرات . وقد اعتبر كثير من المؤرخين أن الأدب مصدر أساسى من مصادر التاريخ الاجتماعى والسياسى لدولة من الدول ، ثم ابتدأ هذا التقويم لوظيفة الأدب يتسع حتى أصبح من المقرر أنه ليس تعبيراً ذاتياً يقوم به أفراد معينون يعبرون عن ذواتهم ، بل اتجه إلى معنى أوسع وأعمق ، إلى أنه تعبير اجتماعى ضخم لمرحلة تاريخية فى حياة الإنسان .

ومن هنا ألقيت على عاتق الأديب مهمة اجتماعية ثقيلة ، ووضعت فى عنقه أمانة التعبير عن الجيل الذى يعيش فيه ، وأرغمته على أن تكون صلته بهذا المجتمع أكثر ارتباطاً ، وأشد حساسية . . واعتبر الكاتب غير محقق لرسالته كأديب ما لم يكن مرآة صادقة لعصره !

وليس هناك شك فى أن الأدب ليس هو التاريخ ، ولا المذكرات أو اليوميات المسجلة للأحداث التى تجرى فى حقبة بعينها ؛ لأن هذا يجرده من دوره الأصيل ، وهو التعبير عن موقف الإنسان تجاه مشكلة من المشاكل والأسلوب الذى يتخذه فى مجابهتها ، كاشفاً عن الإمكانيات التى تنطوى عليها الطبيعة الإنسانية ، ويتحول الفن أو الأدب هنا إلى دراسة أوسع وأعمق يستفيد منها علم النفس الحديث وفروعه .

ومن زاوية أخرى يقوم الأدب بتقرير وجهة نظر معينة تعبر عن اتجاه خاص للكاتب أو لجماعة يشترك معها الكاتب فى الرأى والعقيدة ، وهكذا يساهم الأدب ليس — فقط — فى بناء التاريخ ، ولا فى الدراسة المتعددة الجوانب للإنسان ، بل فى الاتجاه الفكرى أو المذهبى لطائفة من الناس ، وكلما كان الكاتب واعيا بمجتمعه أمينا على الحقيقة كان الرأى الذى يعبر عنه فى صالح الجموع الإنسانية التى تشاركه حياته ، وأصبح بعيد الأثر فى كل ما يحدث فى التاريخ البشرى من تقدم وارتقاء .

ولا يمكن للأدب أن يؤدى وظائفه هذه ما لم يكن صادقا ، بصيراً بالأمور لا تختفى عن واعيته حقائق الحياة التى تكون عادة مخبأة تحت كتل مكدسة من التضليل والتعقيد !

ونحن هنا نتكلم عن هذا اللون المخلص من الأدب ، فكلما كان الأدب مخلصا ازدادت خطورته . وعلى هذا لم تكن مهمة هذا الأديب سهلة ميسورة فى كل العصور والعهود . فلقد أدرك أصحاب السطوة ما للأدب من أثر ووقفوا على دوره المتعدد الجوانب . وابتدأوا يحاربونه إما بتحويله عن اتجاهه الطبيعى ، وإما باستغلاله لتحقيق أغراضهم ، وإما بقطع الصلة بينه وبين جمهور الشعب - الذى يمثل الجانب الآخر من التفاعل - بمصادرته وإقامة السدود فى سبيله ، إما بالتشريعات القانونية وإما بالسيطرة المباشرة !

وبهذا أضافوا وظيفة أساسية من وظائف الفن المخلص ، هى الدفاع عن الحرية ، لأنه بغير الحرية لا يمكن لهذا الأدب أن يصبح له وجود .

والأدب الحر لا يخشى على حريته من حرية الآداب الرخيصة ، فعلى الرغم من أنه معلوم لأصحاب الاقتصاد ، أن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق ، إلا أن هذا لا ينطبق على الأدب ، وربما لا ينطبق على شىء من حياة الإنسان ، لأن هذا الأدب يؤمن بالجوانب الخيرة ، ويعتقد أنها أساسية فى الإنسان . وتاريخ الأدب نفسه يمنح هذه الثقة ، فكل الآثار الأدبية الرفيعة التى بقيت واكتسبت صفة الاستمرار ، استمدت قدراتها هذه من توفر تلك الصفات فيها .

وفى هذه الفترة من حياتنا ننظر إلى آدابنا فنجد أنها تعانى أزمة شديدة ، ربما لم تعانيها فترة أخرى قبلها . . ولقد أحس الكتاب أنفسهم هذه الأزمة ، بل ابتدأوا يعانونها . . وسواء كانوا مخلصين ، أو غير مخلصين فقد عقدوا المؤتمرات لدراستها ومحاولة القضاء عليها . . وليس الأمر بالسهولة التى نتصورها للوهلة الأولى ، فالاختلاف فى الآراء يأتى تبعاً للاختلاف فى الإخلاص لرسالة الأديب التى شرحناها ، وليس هذا الإخلاص شيئاً مسلماً به بين الكتاب جميعاً . .

فنحن نعيش فى أزهى العصور الإنسانية ، وأكثرها تقدماً . ففى عصرنا وقفنا على حقائق علمية كانت تبدو لأسلافنا ضرباً من الخرافة . وابتدأنا نحدد موقفنا من عالمنا تحديداً ربما يكون أقرب إلى الصواب من الذين قبلنا . وقد أعطينا للتراث الفكرى القديم قيمة كبرى ، وأصبح على الأديب بل للمثقف أن يلم بهذا التراث قبل أن يخط سطراً . . وأصبح

عليه أيضاً أن يلم بكل حقائق هذا العصر، وثقافة هذا العصر .. ومع أننا نقف على أكتاف هؤلاء الذين سبقونا، فما زال بين كتابنا المعاصرين كثير من الأقزام ...

على أنه يجدر بنا أن نذكر أن العراقيل التى تقف فى سبيل الكاتب فى عصرنا - افتئاتا على الحق الدستورى فى حرية التعبير - أكثر تعقداً من أية عراقيل أقيمت فى سبيل كاتب من قبل. فكلما تقدمت البشرية فى الثقافة وأوغلت فى استغلال فهمها للقوانين الطبيعية، ازداد تقدم الاستبداد فى ابتكار الوسائل المختلفة لحماية استبداده .. وكرد فعل طبيعى تنشط الجماهير لرد هذا العدوان وهى أكثر ثقافة وأكثر وعياً من قبل .. وباختصار أصبح الاستبداد من التنبه بحيث صار وجود أدب حر مخلص شيئاً أشبه بالمستحيل!

ولكننا مهما غلونا فى تقدير هذه العقبات، فإننا لا نستطيع أن ننسى أبدا، أنه فى ماضى الزمن، قبل أن يسمع امرؤ عن حقوق الإنسان، كان الكاتب والمفكر يشنق أو يقتل لاتفه الامور. ومع هذا فقد وصلت إلينا كل الآراء الطيبة التى تشترك بصخورها الصلبة المتينة فى بنائنا الفكرى حتى الآن .. ومعنى هذا أن هناك صراعاً دائماً بين المفكر الحر والاستبداد - على اختلاف أساليب أصحاب السطوة فى الصراع خشونة ونعومة - وإن على الكاتب أن يفترض بداءة أن الاستبداد سيقف فى سبيله، وأن يهىء نفسه لاستقبال كل طعنة وأن يعلم نفسه كيف يستطيع أن يكسب المعركة على الرغم من كل شىء ..

ومن غير هذا الصراع - بل هذه الخاصية التى يتمتع بها الأدب - يصبح الأدب شيئاً للهو والزينة، ويصبح أتفه من أن يلتفت إليه إنسان لا فى هذا العصر ولا فى أى عصر آخر من العصور القادمة ...

وأزمة الأدب المعاصر تعود - بالدرجة الأولى - إلى الكاتب نفسه .. فمهما تكن السلطات قد درعت نفسها ضد الكتابة الحرة، فإن الأدب بإمكانياته الفريدة من حيث قدرته على الإيحاء والتوجيه تلميحاً وتضميناً ورمزاً فى أضيق الحلقات، يستطيع أن يحطم هذه الحصون مهما تكن قوتها .. وهذا ما لم يفعله أحد من الذين يندبون أزمة الأدب المعاصر .. ولقد كان لويس السادس عشر ومن قبله أبوه وجده، مثلا سيئاً للاستبداد، ومع ذلك فقد استطاع فولتير وجان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهم أن يكتبوا، وأن يبلغوا الناس عن طريق الأدب والفلسفة والعلم!

وفى أقصى مراحل الاستبداد القيصرى فى روسيا وقف دستويفسكى الكاتب الروسى ينتظر دوره لتنزع المشنقة حياته .. ومع هذا فقد قرأنا لدستويفسكى وتولستوى وتورجنيف وتشيكوف . . واعتبرناهم عمالقة ، وكان عصرهم أزهى العصور الأدبية !

بقى شىء واحد يجب تقريره : إن كتابنا - وقد يشمل هذا كتاب الغرب أيضا الذين يعانون الأزمة - غير مخلصين لقضية الإنسانية ، من حيث هى تقدم وارتقاء فى جميع أركان الحياة . وقد يكون بعضهم مخلصاً لقضية أخرى غير هذه القضية ، ولكن طبيعة قضيته الخاسرة تجره إلى الخلف وتجعله من كتاب الأزمة ، لأنه بقدر مايكون الكاتب صاعداً مع الصاعدين ، يكتسب الاستمرار والخلود . .

والواقع أن كتابنا المعاصرين يعتبرون من المتخلفين عن قضايا جيلهم ، وعن فهمها . وقد اتخذت أكثريتهم الجانب المنحل من المجتمع لتقف إلى جواره ، وتدافع عن أهدافه ومطامعه ، قانعة بالراحة والثروة وشىء من الجاه الحقير . . وها هى ذى الأوضاع قد زلزلت فى مصر ، وهى تزلزل فى جميع أنحاء العالم مؤذنة بالتغيير الضخم الذى يحدث لمصلحة المجموع . ويكتشف كتاب الأزمة - بعد فوات الفرصة - أنهم كانوا فى الجانب الخاسر ، على أنه كيف يتأتى للإنسان أن يصطنع الإخلاص وهو لا يكون فيه إلا طبعاً أصيلاً !! إن الأزمة التى يعانيها الأدب العربى الآن ، أزمة فى الضمير الأدبى والثقافى عند الكتاب العرب قبل أن تكون أزمة الافتئات على حرية التعبير . . ولن نستطيع أبداً أن نتوجه بهذه الكلمة إلى أحد غير الكاتب لأننا — مهما نكن من البلاهة والغفلة — ما كنا لنطلب إلى الاستبداد الراحل أن ينتحر بالسلاح الذى فى يده .

أحمد عباس صالح

فى مسير الرسول من حنين إلى الطائف

قال الشاعر الأنصارى كعب بن مالك :

قضينا من تهامة كل وتر	وخيبر ، ثم أجممنا السيوفا
نخيرها ، ولو نطقت لقالت	قواطعهن دوساً أو ثقيفا
فلست لحاصن[1] إن لم تروها	بساحة داركم منـا ألوفا
فتنتزع العروش ببطن وج	ونترك داركم منا خلوفا
ونردى اللات والعزى وودا	ونسلبها القلائد والشنوفا

(١) الحاصن : المرأة العفيفة الكريمة .

الدعوة إلى التقشف

كان أمير المؤمنين عمـــر بن الخطاب يرسل ولاته إلى الأقطار الإسلامية ليكونوا (معلمين) قبل أن يكونوا (حاكمين) . ومن بواعث السعادة لمصر أن ربّان سفينتها اليوم — وهو الرئيس القائد محمد نجيب — يبرهن في كل موقف من مواقفه على أنه المعلم الحكيم الذي يلاحظ مواطن الضعف في الكيان المصري ، فيرشد أمته إلى أقرب الطرق لمعالجة ضعفها بما يخرجها منه إلى موطن السلامة .

ولما وقف يخطب في حفلة إرساء حجر الأساس لمبنى الإذاعة اللاسلكية دعا جميع مواطنيه إلى اتباع سياسة التقشف وقال :

« إن التركة مثقلة ، ونحن نعيش تحت بناء منهار نريد أن نرفع أنقاضه ، ولم نرفع منه حتى الآن إلا التراب . وهـذه الحالة ليس المسئول عن تحقيقها محمد نجيب وحده ، بل كل رجل في البلد يجب أن يتعاون ويتضافر ويعمل معنا لإقامة البناء سليما متينا » .

إذن فنحن نعيش تحت بناء منهار ، والذي يقول هذه الكلمة هو الرجل الواقف على دخائل البناء الذي نعيش تحته ، فصاح بنا يدعونا إلى النجاة .

إنه يعرف ما لا يعرفه أكثرنا ، أو على الأقل يعرف ما لا أعرفه أنا ، ومما أعرفه أنا عن بنائنا الذي نعيش تحته أن هذه الحركة المباركة لما قامت لأجل الإنقاذ كان ميزان مصر التجاري هكذا :

إن مصر استوردت من الخارج مصنوعات وأدوات وضروريات وكاليات في الأشهر الخمسة الأولى من سنة ١٩٥٢ تزيد قيمتها ٣٧ مليونا و١٤٧ ألف جنيه عما صدرته إلى الخارج من حاصلات مصر ومنتجاتها ، فمجموع ما دخل في جيوب المصريين من المال ثمنا لقطنهم ومحصولاتهم الزراعية ومنتجاتهم الصناعية نقص ٣٧ مليون جنيه عما خرج من جيوبهم ثمناً لما استوردوه من منسوجات وحبوب وأغذية وأدوية وأدوات ومكنات وخمور ودخان وأحمر شفايف وأدوات زينة وتوافه سخيفة ، ولا يدخل في هذا النقص المخيف ثمن كل ما أدخل خلسة وبطريق التهريب من حشيش وكوكايين وسموم أخرى منع القانون مرورها من الجمارك فلم يتناولها الإحصاء الرسمي ، وإن أمة تخسر في خمسة أشهر ٣٧ مليونا هي فرق

ثمن ما تنفقه من أموالها فى الخارج عن ثمن ما تصدره من محصولاتها إلى الخارج ، لهى أشبه بمن يعيش تحت بناء منهار ، وإذا دعا محمد نجيب أمته إلى التقشف فينبغى لكل مصرى وكل مصرية أن يفهما من ذلك أن النجاة من انهيار البناء على رءوس الجميع متوقف على الاستغناء عن هذه التوافه التى تعرضها المتاجر الكبرى فى أكرم موضع من أماكنها البارزة ، وتسلط عليها أنوار الكهرباء فتخادع صغيرات العقول من النساء وضعاف الاحلام والأخلاق من الرجال حتى يخرجوا ما فى محافظهم من الجنيهات فيقذفوا بها فى بالوعات هذه المتاجر لتنقل إلى بلاد الغرب تاركة وراءها هذا البناء المنهار الذى نعيش تحته . ولو أن هذا المعنى يلاحظه كل مثقف فى أوربا تعلم من بلاد الإنجليز استعمال شرابهم الويسكى ، أو تعلم من بلاد فرنسا استعمال شرابها من الكونياك ، لخجل من نفسه إن لم يخجل من ربه ، ولضنّ بنقود مصر أن تتحول إلى الخارج عن طريق هذه الكئوس التى يهدم بها السكير نعمة العافية عليه من الله ، كما يهدم بها هذا البناء الذى يعيش تحته وهو الذى نسميه الوطن .

٣٧ مليون جنيه خسرناها فى خمسة أشهر من أول يناير الى آخر مايو من سنة ١٩٥٢ ، والجناية على الوطن من هذه الخسارة واقعة على رأس كل امرأة تبذل أموال زوجها ووطنها فى توافه الزينة وسخافات المتاجر الكبرى ، وتقع على كل من يضع بين شفتيه سيجارة ليحرق ثمنها فى الهواء ، أو يقرب كأس الويسكى أو الكنياك من فمه ليكون ثمن ذلك إعانة منه لتجار الخمور وصانعيها فى البلاد التى تنكل بأهل تونس والجزائر والمغرب الأقصى ، أو تصب وابل العذاب على أهل كينيا .

إن دعوة الرئيس أمته إلى التقشف دعوة كريمة إلى « التحرر » من الكماليات والسخافات والتوافه . وهذا التحرر مصدر من مصادر السعادة ، ومرتبة عالية من مراتب تحرير النفس ، وإعدادها لحمل أعباء المجد ، ومواجهة المصاعب عند وقوعها . وقد حاول الاسبرطيون هذا « التحرر » بالمرانة والاعتياد فكانوا به من أهل الكفاح والغلب . ونشأ عليه العرب بالفطرة ، فأهلهم ذلك لحمل أعباء الرسالة الإسلامية والنجاح بها فى أقطار الأرض بما يعده التاريخ من المعجزات التى لا يعرف مثلها لغير العرب . وكما أن العربى كان يرى من « البلاغة » أن يختزل من بيانه كل حرف يستطيع أن يؤدى غرضه بالاستغناء عنه ، كذلك كان يرى من « التحرر » أن يستغنى فى معاشه عن كل هنة يستقيم له العيش مع الاستغناء عنها . وليعلم كل شعوبى على وجه الأرض أن ذلك لم يكن من العرب عن قلة

وفاقة وحرمان ، بل لأنهم يرون فيه تمام حريتهم واكتمال إنسانيتهم . ألا ترى إلى معاوية رضى الله عنه يوم استقدم إلى الدار الخضراء فى دمشق حرة من سيدات البادية وكريماتها العاقلات لتكون سيدة قصره وأم ولده ومنجبة ولى عهده ، فضاق صدر هذه السيدة الحكيمة - وهى ميسون بنت بحدل القضاعية - بترف أهل المدن الذى يجافى طبعها العربى الحر ، ولا نزال إلى اليوم نترنم بقولها :

لبيتٌ تخفق لأرواح فيه أحبُّ إلىّ من قصر منيف

فهذه النظرة السليمة إلى الحياة هى مما أهّل قوم ميسون بنت بحدل للنهوض بعبء الإسلام ، وتحقيق أهدافه ، وتربية الأمم عليه فى صدر الإسلام ، ففهم الناس منهم أن الإسلام دين الاعتدال فى كل شىء : الاعتدال فى الثروة والغنى ، والاعتدال فى الفقر والزهد ، والاعتدال فى الحب والبغض ، والاعتدال فى الراحة وبذل الجهد ، بل إنه - وهو دين - جاء يدعو إلى الاعتدال حتى فى الدين : « لا رهبانية فى الإسلام » ، « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق » ، « الدين يسر ، ولن يغالب الدين أحد إلا غلبه » ، « إياكم والغلو فى الدين ، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو فى الدين » .

فالإسلام يدعو إلى الاعتدال فى الدين ، وفى المعيشة ، وفى كل شىء . والرئيس محمد نجيب إذا دعا الى التقشف فإنه يدعو إلى مدلوله الإسلامى ، وهو « التحرر » من الكماليات والسفاسف والمظاهر الكاذبة والأعراض الزائلة ، ولا يعنى به معناه البرهمى الذى طرأ علينا باسم التصوف فأدى الى تعذيب النفس بما لا فائدة منه ترتجى فى المجتمع الصالح .

إن محمد نجيب كان يصيح بنا وهو يرسى حجر الأساس فى بناء الإذاعة اللاسلكية لنصحو من غفلتنا ، ونفيق من سكرتنا . وهو لا يريد بنا أن نتقشف تقشفا برهميا إلى الحد الذى كان عليه غاندى ، ولكنه يريد منا الاعتدال على طريقة الإسلام وسجية العرب لوصل ما انقطع بين حاضرنا وماضينا ، ولنتدارك ما سيقع على رءوسنا من انهيار البناء فى المستقبل إذا أصررنا على هذا السرف الذى انقضى عهده مع العهد البائد . فالى العهد الجديد واعتداله أيها المواطنون .

محب الدين الخطيب

رواية الحديث وتدوينه

الحديث ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلق أو خُلق ؛ أو هو أعم من أن يكون قول الرسول ﷺ أو الصحابة أو التابعين وفعلهم وتقريرهم .

ولا يكاد يخلو صحابي من رواية شيء من الحديث النبوي قلّ أو كثر ؛ وقد اشتهر بسعة الرواية منهم طائفة حصرهم الذهبي في واحد وثلاثين ، منهم اثنان من أزواجه ﷺ . هما: عائشة وأم سلمة - رضي الله عنهما - وخلفاؤه الراشدون الأربعة رضي الله عنهم ، وأوسعهم رواية عليّ ، ويليه عمر ، ثم عثمان ، ثم أبو بكر .

وأكثر الصحابة رواية أبو هريرة ، فمروياته خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعون ، ثم عبد الله بن عمرو . فله ألفان وستمائة وثلاثون ، ثم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ ، فله ألفان ومائتان وستة وسبعون ، ثم عائشة ، فلها ألفان ومائتان وعشر ، ثم عبد الله بن عباس ، فله ألف وستمائة وسبعون .

وليس معنى ما سلف أن الخلفاء الراشدين دون أبي هريرة ومن يليه علماً بحديث رسول الله ﷺ ، فهم أدرى بشأنه كله ، وغايته أنهم لم يكثروا من التحديث ، لمثل ماذكره الذهبي بإسناده إلى قرظة بن كعب . قال : لما سيرنا عمر إلى العراق مشى معنا عمر وقال : أتدرون لم شيعتكم ؟ قالوا : نعم . مكرمة لنا ، قال : ومع ذلك أنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم ، جوّدوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ ، وأنا شريككم ، فهو كما ترى تحرُّج من مزاحمة القرآن ، أو تخوُّف مما تجره كثرة الرواية من الشبهات . وقد صرح بأولى العلتين عروة بن الزبير فقال : كنا نقول : لا نتخذ كتاباً مع كتاب الله ، فمحوت كتبي ، فوالله لوددت أن كتبي عندي . إن كتاب الله قد استمرت مريرته . وصرحت بالثانية عائشة فيما ترويه عن أبيها رضي الله عنهما إذ أحرق صحيفة كانت عنده فيها خمسمائة حديث خشية أن يكون فيها حديث عن رجل قد ائتمنه ووثق به ولم يكن كما حدثه .

هذا ومن أسباب سعة الرواية طول الصحبة ، وهو من أسباب إكثار عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما ؛ وهو ، والرواية عن بعض الصحابة ، وطول العمر من أسباب إكثار أنس خادم رسول الله ﷺ . فقد أخذ عن أبي بكر وعمر وعثمان وأبيّ ، وطائفة ؛ وجميعها مع قوة الحفظ من أسباب إكثار أبي هريرة . فقد كان مسكيناً من أصحاب الصّفة يلزم النبي ﷺ على مِلْء بطنه ، فكان يحضر ما لا يحضر من إخوانه من المهاجرين والأنصار ، ويعى ما لا يعون . وروى أبو هريرة عن أبي بكر وعمر وأبي بن كعب . وعن الشافعى : أبو هريرة أحفظ من روى الحديث فى دهره ، ونحوه يقوله عن نفسه ؛ والكتابة من أسباب إكثار عبد الله بن عمرو بن العاص . كتب عن النبي ﷺ علما كثيراً ، وكان يعترف له أبو هريرة بالإكثار من العلم . وقال : إنه كان يكتب عن النبي ﷺ وكنت لا أكتب .

هذا وليس بعجيب أن نرى التابعين وتابعيهم أوسع رواية من الصحابة . فإنهم جمعوا إلى ما تفرق من رواياتهم فتاواهم وآثارهم ، حتى كانت رواية سفيان بن عيينة نحواً من سبعة آلاف حديث ، وشعبة بن الحجاج ـ الذى يقول فيه الشافعى : لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق ـ عشرة آلاف حديث ، ولحماد بن سلمة بضعة عشر ألفا ، ولإبراهيم بن سعد الزهرى نحو من سبعة عشر ألف حديث فى الأحكام سوى المغازى ، ولسفيان الثورى ـ وهو وأبوه من علماء الكوفة ـ ثلاثون ألف حديث ، ولهشيم بن بشير ابن أبي خازم نزيل بغداد عشرون ألف حديث ، وقد تصل رواية الرجل الواحد إلى مائة ألف ، كعبد الله بن وهيب بن مسلم ، وبعد هذه الطبقة بلغت رواية البخارى أربعمائة ألف ، ومسلم ثلاثمائة ألف ، لم يخرجا منها إلا عشرة آلاف ، بل روى أن الإمام أحمد بن حنبل كان حفظه ألف ألف .

والروايات مضطربة فى إباحة تدوين الحديث ، وصورة من هـــذا الاضطراب فى كشف الظنون . وقد عرفت رأى الصديق فى ذلك ، فيما روته عائشة ، من إحراقه الصحيفة لما سلف عنه رضى الله عليه ، وعلى أنه كان فى صدر الإسلام كتابة للحديث ، كالذى سلف من كتابة عبد الله بن عمرو ، فالظاهر أنها لم تكن إلا لمجرد التقييد دون ترتيب أو تبويب .

وفى أوائل السيوطى : وأول من دون الحديث ابن شهاب فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، وفيه قال مالك فى الموطأ : إن عمر بن عبد العزيز رحمه الله - كتب إلى أبى بكر بن محمد بن حزم ، أن انظر فيما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنته ، أو حديث عمر ، أو أخبار الخلفاء الأربعة وفقهاء الصحابة ، أو نحو ذلك فاكتبه لى ، فإنى قد خفت دروس العلم وذهاب العلماء ؛ فدون كثير من العلوم فى خلافته ، رحمه الله .

وفى كشف الظنون : أنه اختلف فى أول من صنف ، فقيل : الإمام عبد الملك ابن عبد العزيز بن جريج البصرى (فى سنة ١٥٥ هـ) . وقيل : أبو النصر سعيد بن أبى عروبة (فى سنة ١٥٦ هـ) ، وقيل : ربيع بن صبيح (فى سنة ١٦٠ هـ) ، ثم صنف سفيان بن عيينه ، ومالك بن أنس بالمدينة ، وعبد الله بن وهب بمصر ، ومعمر وعبد الرزاق باليمن ، وسفيان الثورى ، محمد بن فضيل بن غزوان بالكوفة ، وحماد بن سلمة ، وروح ابن عبادة بالبصرة ، وهشيم بواسط ، وعبد الله بن المبارك بخراسان .

ومن مظاهر الحرص آنئذ على التدوين والأخذ عن الشيوخ قول ابن المبارك : كتبت عن ألف شيخ ومائة شيخ ؛ ومن مظاهر عناية الخلفاء بالمحدثين ، أن الرشيد وصل أبا بكر ابن عياس المحدث الكوفى بستة آلاف دينار . وعن أبى معاوية الضرير « محدث الكوفة » : أكلت مع الرشيد فصب على يدى رجل لا أعرفه . فقال الرشيد : يا أبا معاوية ، تدرى من كان يصب على يديك ؟ قلت : لا . قال : أنا . قلت : أنت يا أمير المؤمنين ؟ ! قال : نعم . إجلالا للعلم ؛ ووراء هذه العناية الدينية عناية أخرى أدبية فمثل أبى نواس من الشعراء وإسحاق الموصلى من المغنين والأدباء من رواة الحديث الآخذين عن الشيوخ ، فقد كتب أبو نواس الحديث عن عبد الواحد بن زياد وأزهر السمان وغيرهما ، وروى إسحاق الحديث ، ولقى أهله مثل مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وهشيم بن بشير وإبراهيم بن سعد وأبى معاوية الضرير وروح بن عبادة وغيرهم من شيوخ العراق والحجاز .

محمود فرج العقدة
مدرس بكلية اللغة العربية

كيف بنى المسلمون مجدهم

ذكر التاريخ فى أنصع صفحاته ، ذلك المجد الذى بناه المسلمون فى مطلع فجرهم ومشرق شمسهم . وكتب بمداد العجب والفخار ، عن تلك الهمم العلياء التى دفعت بالمسلمين إلى جوب البقاع والوهاد ، وطى المهامه والفيافى ، وإخضاع الممالك المترامية الأطراف فى أقل من ربع قرن من الزمان .

ولقد بينت الحوادث الخالدة أن ذلك المجد لم يكن وليد الحظوظ ، ولم تسقه المصادفات ؛ ولكنه كان محفوفا بكثير من المخاطر ، مقرونا بشتى المتاعب والمصاعب .

ولولا الثقة بالنفس ، والاستهانة بالحياة ، لوقف المسلمون حيث بدءوا ، وماتوا حيث ولدوا ، وبادوا حيث وجدوا .

وإذا كان الإنسان كبير النفس ، وثاباً إلى المعالى ، فإنه يحلق فى الآفاق بأجنحة من الفخار ، ويبنى مجده على هامة الوجود .

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

اعتقد المسلمون فى مبدإ أمرهم أنهم خلقوا للكفاح والجهاد ، وأنهم وجدوا للنضال والجلاد ، وأن الدين يتقاضاهم واجب الدفاع عن الوطن ، والذياد عن حياضه ؛ فهبوا عاملين لا يرهبون الموت ، ولا يتهيبون المنايا ، ولا يحرصون على البقاء ، حتى حققوا المجد العريض ، وأدركوا الشرف الرفيع .

لقد أحبوا الموت فوهبوا الحياة ، وباعوا القليل فربحوا الكثير ، وهجروا الأكواخ فسكنوا القصور ، وشقوا زمناً قليلا ، فسعدوا دهراً طويلا ، وذلك شأن العاملين ، ومآل المخلصين ، ونهاية المجاهدين .

ذلك كان شأن المسلمين أيام كان المسلم يعلم أن عليه واجبات يتقاضاها منه ربه ودينه ، ووطنه وأمته ، فيبادر إلى قضائها مبادرة الظامىء إلى ورد الماء ، ويندفع إلى أدائها اندفاع السيل فى مجراه ، والسهم صوب مرماه .

كانت نفوس الجماعة إذ ذاك ملتئمة ، والقلوب متصافية ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، فعلا شأنهم ، ونبه ذكرهم ، واستقام أمرهم ، وتلفتت نحوهم الأبصار والعيون ، تضفى عليهم الإكبار والإجلال .

مضى ذلك العصر بخيره ، ومضى معه ذلك التراث الذى خلفه الآباء ، وكان مثار الإعجاب ، وموضع الفخار حقباً من الزمان .

مضى ذلك ، من يوم أن احتل البغض فى القلوب موضع الحب ، والشتات والفرقة موضع الاتحاد والألفة ، والتدابر والتقاطع موضع التواد والتواصل .

« وإذا انفرط عقد الأمة ، وسرت فيها روح التخاذل ، فقد أفل نجمها ، وغابت شمسها ، وطويت صحيفتها » .

نعم ضاع ذلك المجد التليد من يوم أخذت الأمة بتلابيب الانفراط ، وأقام أفرادها من أنفسهم أمما متشعبة ، همّ الواحد منهم أن يكون لنفسه عونا ، وللغريب على أمته ساعداً وعضداً ؛ ونسوا أن الأمم تحيا وتموت بأفرادها ، وترجح وتخف كفتها بأبنائها . فإذا أخذتهم الغيرة عليها ، وأشربت قلوبهم محبتها ، وعلموا أن المجموع هو الفرد المتكرر ، استطاعوا أن يبقوا أمتهم على الدهر تنصرع تحت أقدامها خطوبه ، وتنهار أمام قوتها صروفه ، وتتمزق بسطوتها أحداثه .

وإذا ركبوا أهواءهم ولم يرعوا لأمتهم كرامة ، ولم يروا لها حرمة ، فقد أسلموها إلى الفناء ، ورموها بأيديهم فى مكان سحيق .

بالأمس وقف الإسلام وقفة ، كان ملء عين الدهر وبصره ، وتلا على الشعوب كتاب القوة من مبتدئه إلى خبره ، وخط فى أفق الوجود سطوراً من الحكمة ، وعتها الأمم المعادية له وحذقتها ، واسترشدت بها واستضاءت بنورها .

أما أبناؤها فقد استناروا بها حينا من الدهر ، بلغوا فيه أوج السعادة ، ثم طاف بهم طائف من التفريط ، شأن كل غالب يرتكز على قوته ثم يهمل أمرها ، ويعتمد على ظفره دون أن يرعاه بالحيطة .

طاف بهم ذلك الطائف وهم فى نشوة النصر ، وسكرة الظفر ؛ وقد نسوا أن هناك أمما مقهورة بسيوفهم ، وعروشا مثلولة برماحهم ، وأن الموتور لا ينام عن وتره ، وأن ضعيف اليوم ربما يكون قويا فى غده .

نسوا ذلك فكان المصير ما نراه ، وكان المآل تلك الحسرة التى تحترق بنارها قلوبنا حزنا على ما فقدناه من مجد بناه الآباء بلبنات من فلذ الأكباد .

أيها المسلمون : لا ضعف بدائم أبداً ، ولا قوة بباقية على الدهر ، ولكن الأيام دول ، والأمم التى تتفتح عيونها تسترد شبابها ، والدول التى تتنبه عقولها تستعيد مجدها ، والشعوب إذا أنجبت شبابا يشعر بالواجب يجتمع شملها ، ويتجدد بناؤها .

ومن كان مثل الأمة الإسلامية التى تمشى إلى الحياة ، فى ضوءين من دين قويم يهتدى بنوره ، ومجد رفيع تستمد منه القوة ، توشك أن تعود إلى ما كانت عليه يوم لا سلطان فى الوجود إلا سلطانها ، ولا قوة فى الأرض غير قوتها . أجل إن مثل الأمة الإسلامية مع ميزاتها لو أخذت بالأسباب التى أخذ بها السلف الصالح ، وانتهجت تلك الجادة التى انتهجها أولئك الأمجاد السابقون ، لخطت إلى بغيتها أميالا فى المدة التى يخطو غيرها فيها بضع خطوات . وما ذاك إلا أن هناك دافعاً من الدين الإسلامى ، الذى طبع نفوس ابنائه بطابع العمل والكفاح ، وهناك أسس من المجد لا تزال قوية القواعد ، ولا تحتاج إلا إلى أيد عاملة تقيم عليها ما تشاء من البناء ، وليس بعد ذلك إلا السعادة المبتغاة .

ليس بين المسلمين وبين استعادة مجدهم وقديم عزهم ، إلا أن يمشوا على جسر من وحدة الكلمة واتحاد المشرب ، وأخذ القوى بيد الضعيف ، وأن يكونوا كتلة واحدة غير متخاخلة الأجزاء ، ولا متفرقة الأوصال .

ليس بينهم وبين الحياة الحقة إلا أن يرجعوا إلى تعاليم دينهم ، ويقفوا عند حدوده المشروعة ، ويتخلقوا بالأخلاق الكريمة التى كانت لآبائهم ، والتى مكنتهم من الغلبة والظفر ، كالشجاعة والإقدام ، ومباراة الأمم فى الجد والكفاح .

إذا تداركوا أنفسهم بالتحلى بهذه الصفات ، وبرءوها من كل خلق ذميم ، ونظروا بأعينهم إلى أسباب الفرقة فاجتثوها من قلوبهم ، فقد وقفوا فى صفوف الأمم الحية ، وساروا فى طريق الفلاح سيراً حثيثاً ، حقق الله الآمال ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

عبد الرحيم فرغل البلينى
المفتش بالأزهر

المسئولية الحكومية فى الإسلام

قال عليه الصلاة والسلام : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ذلك بأن لكل شخص سلطانا يستوى فى ذلك سلطانه على زوجته وأولاده ، وسلطانه على خدمه وتابعيه وسلطانه على موظفيه ومرءوسيه . ولما كان كل سلطان تقابله مسئولية تعادله ، شمل الحديث سالف الذكر الناس جميعا ، وكان بغير منازع أصلا من أصول القانون الدولى الخاص فى العصور الحديثة . وإنه لمن دواعى الفخر حقا أن تسبق الدولة الإسلامية الأمم جميعا فى العمل بهذا الأصل القانونى ، ولا أدل على ذلك من قول عمر بن الخطاب فى مسئولية الوالى : « والله لو عثرت دابة فى العراق لرأيتنى مسئولا عنها » . فقيل له : وما ذنب أمير المؤمنين فى ذلك ؟ فقال : « أمير المؤمنين مكلف بإصلاح الطرق وتسويتها ليمشى عليها الناس والدواب بدون عثار واضطراب » من ثم كان الولاة والحكام المسلمون لا يحجبون أنفسهم عن الرعية حتى يتسنى لهم سماع كل شاك ومظلوم ، فقد قال المصطفى صلى الله عليه وسلم : « أبلغونى حاجة من لا يستطيع إبلاغها إلىّ ، فإن من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة » .

وبذلك أوصد نظام الحكم الإسلامى الأبواب كلها فى وجه المحسوبية والرشوة ، فحق الحق وأزهق الباطل ، وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم . هكذا تميز هذا النظام بالعدالة الصحيحة . فألزم كلا من الحاكم والمحكوم بقدر متساو من الواجبات . فأما واجبات الحاكم قبل الرعية فإنها تتلخص فى : (١) تنفيذ أوامر الشريعة الغراء فى الحكم ، مع إقامة العدل والعدالة بين الناس (٢) حفظ الحقوق الطبيعية للأفراد مثل حق الحياة وحق العمل وحق إبداء الرأى . لهذا كان الحاكم الإسلامى يباشر بنفسه حالة الولاة والعمال مباشرة دقيقة .

وأما واجبات الأفراد نحو الحكومة فتتلخص فى أمرين هما :

(١) طاعة الحاكم ولو كان عبدا حبشيا أو مفضولا بأفضل منه ، مادام لم يظلم ، وما دام لم يأمر بمعصية .

(٢) حفظ الأمن ودفع الضرائب والزكاة .

والمدهش حقاً هو تكافؤ واجبات الأفراد مع واجبات الحكومة مما يقطع فى الدلالة على أن نظام الحكم الإسلامى هو نظام دستورى بأوسع معانى الكلمة، فكان الأمير يستمد سلطته من بيعة شعبه له. ومن ثم كانت مسئولية الأمير مسئولية كاملة بمعنى أنه مسئول أمام كل رجل من رجال الأمة. ومن الأمثلة الطريفة فى ذلك أنه عندما تولى عمر ابن الخطاب الخلافة خطب الناس قائلا «يا أيها الناس، إذا وجدتم فى خطأ فأعينونى» فقال له أحد الأعراب: «والله يا عمر لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا» فقال عمر رضى الله عنه: «الحمد لله الذى جعل فى الأمة من يقوم عمر إذا اعوج منه».

وينفرد الحكم الدستورى الإسلامى بأنه يمنح الأفراد نوعا من السلطة لا يتمتعون بها فى ظل أى نظام آخر، فلهم مثلا حق حماية غير المسلمين، وعلى الأمير أن يحترم هذه الحماية حتى ولو كان الرجل المحمى فى حرب مع المسلمين، ويروى التاريخ فى ذلك أن أبا العاص ابن الربيع زوج السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ وابن خالها كان مشركا ففرق بينهما الرسول فى مكة، غير أن السيدة زينب لحقت بأبيها فى المدينة وهناك افتدت زوجها المشرك بالقلادة المهداة إليها من والدتها فى عرسها، فرآها الرسول وقال: هذه قلادة خديجة. ولما وقف على حقيقة الأمر قال لابنته «أكرمى زوجك، ولا تجعليه يقربك حتى يسلم» فأسلم وحسن إسلامه.

وللناس أيضاً فى ظل النظام الإسلامى حق التمتع بجميع الحقوق العامة مطلقة غير مقيدة، يستوى فى ذلك المسلم والذمى. كما لهم أيضاً التمتع بالحقوق الخاصة من زواج وتعامل وتقاض، فالفرد يستطيع أن يقاضى من يشاء ولو كان الأمير نفسه، فقد روى أن يهوديا قاضى سيدنا عليا بن أبى طالب أمام أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب فى إمارته، فنادى عمر عليا «يا أبا الحسن قف بجوار خصمك» فامتعض على من المناداة عليه بأبى الحسن. وبعد الحكم سأله عمر عن سبب امتعاضه فأجاب على «لأنك أكرمتنى بالمناداة على بكنيتى».

وبعد فهل هناك نظام أحق وأعدل من النظام الإسلامى الذى لو استقصينا مبادئه وأهدافه لرأيناه النظام المثالى الذى تنشده الإنسانية فى أرقى ما تصل إليه.

السيد كمال الشورى
مأمور الشهر العقارى

سيد الشهداء

حمزة بن عبد المطلب

أسد من أسود الله ورسوله ، وسيد من سادات المسلمين . ورث السؤدد عن آبائه ، واكتسب الفضل بصادق جهاده ، وانحدرت إليه الشجاعة العربية فى أصلاب أجداده ، فكان الشهم الأبى ، والفارس المعلم ، والبطل المغوار ، وحامى الذمار . ذلكم هو سيد الشهداء أبو عمارة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، فهو أحد فروع الدوحة الهاشمية الباسقة ، وعم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة ، إذ أرضعتهما ثويبة جارية أبى لهب ، وكان أسن من رسول الله بسنتين ، وقيل بأربع ، والأول أصح . وأمه السيدة هالة بنت وهيب ابن عبد مناف بن زهرة ، فهى ابنة عم السيدة الفاضلة آمنة بنت وهب والدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو كريم الأبوين طاهر المعدنين ، وما بالك بشخص يجتمع برسول الله فى جده لأبيه ، وجده لأمه ، وجمع إلى شرف النسب شرف الإسلام والجهاد فى سبيله ، لا شك أنه من خيار الناس فى جاهليته وإسلامه .

« إسلامه » : أسلم فى السنة الثانية من مبعثه ﷺ . ولما أسلم فرح بإسلامه رسول الله ﷺ فرحا شديدا ، لأنه كان أعز فتى فى قريش وأشدهم شكيمة . ولإسلامه قصة ، ذلك أن أبا جهل عدو الله ورسوله مر بالنبى ﷺ عند الصفا فآذاه وسبه ونال منه ، ورسول الله يقابل سفهه بالصفح ، وجهله بالحلم ، وكان هذا المشهد على مرأى ومسمع من مولاة لعبد الله بن جدعان فى سكن لها . ثم انصرف أبو جهل إلى نادى قريش بجوار الكعبة فجلس مع قرنائه القرشيين ، وكان حمزة رضى الله عنه من هواة الصيد والقنص ، وكان إذا رجع من قنصه لا يذهب إلى بيته حتى يطوف بالبيت الحرام ، وفى روحة من روحاته مر على الصفا متوشحا سيفه ، متنكبا قوسه فقالت له هذه المولاة : يا أبا الوليد - كنيته - لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام — تعنى أبا جهل — وجده هنا جالسا فآذاه وسبه ونال منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد . وآنئذ تحركت عاطفة الرحم فى نفس حمزة ، وأخذته الشفقة على ابن أخيه ، وهو من بنى هاشم كما تعلم ، وأدركته لحظة من لحظات التجلى الألهى ، فذهب والدم يغلى فى عروقه من شدة الغضب ، ولم يلو على شىء ،

حتى دخل المسجد فرأى أبا جهل جالسا فى القوم ، فقام على رأسه ورفع القوس وضربه فشجه شجة منكرة ، ثم قال له : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فردّ على ذلك إن استطعت . وقام رجال من بنى مخزوم عشيرة أبى جهل لينصروه فقالوا لحمزة : ما نراك الا قد صبأت — أى دخلت فى دين محمد — فقال حمزة : وما يمنعنى وقد استبان لى منه أنه رسول الله والذى يقوله حق ؟ والله لا أفزع ، فامنعونى إن كنتم صادقين . فقال لهم أبو جهل : دعوا أبا عمارة [1] ، فإنى والله قد أسمعت ابن أخيه شيئا .

انتهت الملاحاة إلى هذا الحد . ولكن أمرا ذا بال أهم حمزة وأوقعه فى حيرة من أمره ، حتى استبان له الحق ، ذلك أنه لما رجع إلى بيته تسور عليه الشيطان وصار يلقى إليه بالوساوس ويقول له : أنت سيد قريش ، اتبعت هذا الصابىء وتركت دين آبائك ، الموت خير لك مما صنعت . وبات بليلة لم يبت بمثلها قط من وسوسة الشيطان وتلبيساته ، فلم يجد مفرا من أن يلجأ إلى الله فقال : « اللهم إن كان رشدا فاجعل تصديقه فى قلبى ، وإلا فاجعل لى مما وقعت فيه مخرجا » .

ولما أصبح ، غدا إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، فقال : يا ابن أخى ، إنى وقعت فى أمر لا أعرف المخرج منه ، وإقامة مثلى على مالا أدرى أرشد هو أم غى شديد . فأقبل عليه البشير النذير ﷺ فذكره ووعظه وخوفه وبشره ، فألقى الله فى قلبه الإيمان بما سمعه من رسول الله ، وشرح صدره لذلك ، فلم يلبث أن قال « أشهد أنك صادق ، فأظهر يا ابن أخى دينك » .

وقد ازداد رسول الله ﷺ بإسلام عمه حمزة عزة ومنعة بين قريش ، وخفت حدة إيذاء المشركين له ، وأمكن لصبح الدعوة الإسلامية أن يتنفس بعد ليل طويل . ولقد أكل كبد المشركين أن يروا المسلمين يخرجون إلى الكعبة وفى مقدمتهم السيدان الكريمان عمر وحمزة ليعلنوها حربا شعواء على الشرك وأهله ، ويدعوا إلى عبادة الله وحده ، ونشر نور الهداية والعرفان .

حياة الكفاح والجهاد :

كانت حياة أسد الله حمزة بن عبد المطلب حياة الكفاح والجهاد ، فمن يوم أن أسلم بذل نفسه وماله فى سبيل الله ونشر الدعوة الإسلامية ، وما أن بدئت السرايا حتى عقد له رسول الله

(١) كان رضى الله عنه يكنى بأبى عمارة وأبى يعلى ، وهما ولدان له [أسد الغابة] ، وقد سمعت آنفا أنه كان يكنى بأبى الوليد أيضا .

ﷺ اللواء ، ويقال إنه أول لواء عقد فى الإسلام ، وأرسله على رأس سرية ليقطع على أبى جهل وغيره الطريق جزاء على عقوقهم وإخراجهم المسلمين من ديارهم وأهليهم وأموالهم ، فقام بمهمته خير قيام ، وإن لم يقع بينه وبين المشركين قتال . وفى غزوة الابواء كان يحمل لواء رسول الله ورايته البيضاء حمزة بن عبد المطلب ، ولا تسل عما كان من أسد الله فى غزوة بدر الكبرى التى فصل الله فيها بين الحق والباطل ، ففيها خرج من صفوف المشركين ثلاثة : عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد ، وطلبوا المبارزة ، فبرز إليهم ثلاثة إخوة من الأنصار ، فقال عتبة نريد أبناء عمومتنا . فندب لهم رســـول الله عبيدة ابن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وثلاثتهم من بنى هاشم ، ولم يلبث حمزة وعلى أن أجهزا على صاحبيهما وأعانا عبيدة على صاحبه ، وحمل عبيدة إلى رسول الله تشخب ساقه دما ، فوسده رسول الله ﷺ ساقه وبشره بالجنة . ولما التحم الجمعان : جمع المسلمين وجمع المشركين ، أبلى السيد حمزة فى هذا اليوم بلاء مشهودا ، وأظهر من نفسه شجاعة منقطعة النظير .

ونطوى بعض صفحات من التاريخ لنصل إلى غزوة أحد التى ابتلى فيها المسلمون ، فقد قاتل فيها حمزة قتال الأبطال ، وما قرب منه أحد من الأعداء إلا قصمه بسيفه البتار . وروى أنه كان يقاتل يوم أحد بسيفين ؛ وبينما هو يجول ويصول فى المعركة إذ استمكن منه وحشى غلام جبير بن مطعم فرماه بحربته التى لاتخطىء الهدف ، فخر شهيداً بعد أن أرضى الله وأرضى رسوله ، وهأنذا أدع وحشيا يحدث عن فعلته النكراء ، التى كفر عنها فيما بعد بقتل مسيلمة الكذاب ، قال وحشى - وقد سئل عن مقتل سيدالشهداء حمزة - : « سأحدثكما ماحدثت به رسول الله حين سألنى عن ذلك ، كنت غلام جبير بن مطعم ، وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر ، فلما سارت قريش إلى أحد ، قال لى جبير : إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق . قال : فخرجت مع الناس ، وكنت رجلا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطىء بها شيئا ، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته فى عرض الناس كأنه الجمل الأورق ، يهد الناس بسيفه هدًّا مايقوم له شىء ، ثم قال : فهززت حربتى حتى إذا رضيت عنها ، دفعتها عليه فوقعت فى ثنته حتى خرجت من بين رجليه ، فذهب ليقوم نحوى فغلب ، وتركته وإياها حتى مات فأخذت حربتى ثم رجعت إلى مكة فعتقت » . ومكث وحشى بمكة حتى فتحت على المسلمين ، فهرب إلى الطائف ، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم ليسلموا، عيّت عليه المذاهب . حتى هم أن يذهب إلى الشام أو اليمن ، وبينا هو فى هم قيض الله له رجلا فقال له : ويحك ، والله إن محمدا لا يقتل أحدا من الناس دخل دينه وشهد شهادة الحق ، فخرج حتى أتى المدينة فوقف على مجلس رسول الله وشهد شهادة الإسلام ، فلما رآه رسول الله قال : أوحشى أنت ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : فحدثنى كيف قتلت حمزة فحدثته ، فلم يتمالك رسول الله نفسه أن قال ، ويحك ، غيب عنى وجهك فلا أرينك ، فكان يحرص على أن لا يرى رسول الله وجهه ، ورسول الله بشر وإنسان كامل الإنسانية ، ثم هو رقيق القلب بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فلا عجب أن طلب من وحشى أن لا يراه لأن وجهه تتمثل فيه صورة مقتل حمزة وتمثيل المشركين به وبقتلى أحد ، فيثير فى النفس كوامن الأسى والحزن ولواعج الألم والحسرة على هؤلاء الشهداء الأبرار ، وقد حزن رسول الله على عمه حمزة حزنا شديدا ، ولا سيما وقد مثل به المشركون ، فقد بقرت هند بنت عتبة - الموتورة من المسلمين من يوم بدر - بطن حمزة وأخذت كبده فلاكتها فلم تستطع أن تستسيغها فلفظتها ، وجدع أنفه وأذنه ، وليس أدل على حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة ، من هذه الكلمات التى قالها وهو واقف عليه « لن أصاب بمثلك أبدا ، وما وقفت موقفا قط أغيظ إلى من هذا » . وفى رواية أنه قال « رحمك الله يا عم ، لقد كنت وصولا للرحم ، فعولا للخيرات » ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد فى قبر واحد ، فدفن عمه حمزة مع عبد الله بن جحش ، ابن أخته أميمة بنت عبد المطلب فى قبر واحد ، وذلك فى سفح أحد ، ولا يزال قبره معروفا هناك .

وكان عمر سيدنا حمزة حين استشهد خمساً وخمسين سنة وقيل سبعا وخمسين سنة ، فرضى الله عنه وأرضاه .

« وبعد » ، فهذه صفحة مشرقة من حياة سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، يتمثل فيها الطهر والوفاء ، والشجاعة والإخاء ، وبذل النفس فى سبيل العقيدة ، والثبات فى مواطن الموت ، والصدق عند لقاء الأعداء ، والاستشهاد حيث تطيب الشهادة ، فلا عجب أن لقبه رسول الله بأسد الله وأسد رسوله ، وإن كان بحق « سيد الشهداء » . وعسى أن يتخذ المجاهدون والمكافحون فى سبيل عقيدتهم وحرياتهم من هذه السيرة العطرة ، أسوة حسنة يتأسون بها فى حياة الكفاح والجهاد ، وأن يستفيدوا بها فى شق طريق الظفر والنصر ، وحب الاستشهاد فى سبيل الحق والمثل العليا ، لكى يكتبوا فى سجل الخالدين .

محمد محمد أبو شهبة
المدرس بكلية أصول الدين

موقف الإسلام من الشيوعية والرأسمالية

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

كتب مندوب « الأهرام » الخاص يقول :

كانت جلسة هادئة طيبة ، تلك التي جلستها مع فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، في حفلة خاصة كان الشيخ الأكبر فيها ملتقى الأنظار ، وموضع التقدير ، وكان كل واحد يحب أن يستأثر به ليقف على جلية حكم من أحكام الشريعة في موضوع معين ، وقد رأيت أن أنتهز هذه الفرصة الطيبة لأتبين موقف الإسلام من « الشيوعية » وحكمه على الرأسماليين ، ونظرته إلى الفقراء بين هذه وتلك ، وقد حمدت لفضيلته أن آثر « الأهرام » بعنايته فأجابني إلى طلبتي وتحدث إلى بقوله :

من مظاهر الكمال في دين الإسلام وأحكامه ، أنه لم يعارض الفطرة الإنسانية في طبيعة من طبائعها ، وحتى ما كان فيه انحراف أو مظنة زلل من هذه الطبائع الإنسانية ، فإن الإسلام اكتفى بتعديله وتوجيهه وجهة خير ، مع إقراره أصل الفطرة ، ومحاولته تهذيبها وإصلاحها . ولما كان مبدأ « التملك الشخصي » من مقتضى الفطرة ، فإن الإسلام اعترف به وأقره ، لكنه جنح فيه إلى الاعتدال ، كدأب الإسلام في الأمور كلها ، واشترط أن يكون هذا التملك الشخصي بالأساليب المشروعة التي أحلها الله . ثم رتب عليه تكاليف شرعية ، هي نصيب الجماعة من أموال أصحاب الأموال ، كما حث أهل الغنى على الأخذ بأيدي أهل الفاقة ، حتى لا يكون في المجتمع الإسلامي إلا المحبة والتراحم والتعاون ، على البر والتقوى .

وكما أقر الإسلام مبدأ التملك الشخصي وجنح فيه إلى الاعتدال ، ونظمه تنظيما يسعد به المجتمع ، كذلك أقر مبدأ آخر من مبادىء الفطرة ، وهو تفاوت الناس في مواهبهم ومداركهم ومقدرتهم على الكسب لأنفسهم وعلى النفع للمجتمع ، فهذا التفاوت موجود في كل زمان ومكان لأنه من فطرة البشر ، ويترتب عليه التفاوت والتفاضل في المعايش ، لكن الإسلام مع إقراره هذا الأمر الفطري ، شرع الأحكام لتعديل آثاره والتقريب بين طبقات الناس ،

وأوجد لهم مراتب أخرى يكتسبونها من فضائلهم الأدبية والخلقية ، وجعل لذلك قيمة رفيعة فى المجتمع الإسلامى ، بحيث يغبط أهل الدرجات العليا فى المال إخوانهم من أهل الدرجات العليا فى الأخلاق والفضائل ، بحسب ما سنه الإسلام لأهله فى المجتمع الإسلامى .

ومن أعظم ما اتخذه الإسلام ، لحماية الفقراء من استغلال الرأسماليين وأصحاب الأموال تحريمه للربا وقطعه لدابر المراباة فى المجتمع الإسلامى . وهذه الحماية ، لا نظن أن أمة من أمم الأرض — حتى ولا المحكومة بالشيوعية — تمتعت بمثلها فى نظام غير نظام الإسلام .

وتزعم الشيوعية أنها نزعت عوامل الاستغلال ، ووسائل استعمال الثروة من أيدى الأفراد ، فحرمت عليهم امتلاكها ودفعت بها إلى الجماعة . والذى يتأمل فى الواقع ، يرى أن ما زعموا أنهم فوضوا أمره إلى الجماعة فى وسائل الإنتاج وتوزيع المنتجات والمصنوعات ، إنما تولته فى النظام الشيوعى هيئة قليلة العدد من الرجال المنظمين ، فبعد أن كان هذا التملك خفيف الوطأة بما هو معرض له من المنافسة وتعدد المالكين ، أصبح فى النظام الشيوعى منحصراً فى إدارة واحدة ، يقوم عليها نفر قليل ، يتمتعون الآن بمعايش وقصور لا تقل فخامة وسرفا وغطرسة واستعدادا عما كان فى قصور القياصرة ، بينما الجماعة كلها مجندة فى السلم والحرب لتقضى حياة مملة على وتيرة واحدة لا تزيد عن حياة العمال فى البلاد الأخرى ، غير أن العمال يملكون فى البلاد الأخرى أمرهم ويستقلون بإرادتهم وتصرفاتهم ، فينتقل أحدهم من مصنع إلى مصنع إذا أراد . أما جمهور الأمة فى النظام الشيوعى ، فسلوب الإرادة ، ولا يملك حق الانتقال من مصنع إلى مصنع ، لأن المصانع كلها لا تتمتع بمزية التنافس ما دامت إدارتها فى يد واحدة ، تتصرف فى جميع العمال كما تتصرف فى المواد الخام . وبذلك تحول أغنياء البلاد المحكومة بالنظام الرأسمالى ، إلى رجل واحد فى النظام الشيوعى ، يتصرف بلا منافس فى كل ما فى البلاد من بشر وشجر وحجر ، كما تحول إقطاعيو البلاد الأخرى ، إلى إقطاعى واحد فى النظام الشيوعى ، فأضحى رعاياه محجوزين وراء ستار حديدى ، لا يدخل عليهم أحد ولا يتمكن من الانفصال عنه أحد .

هذا فى أمور العيش وحرية التملك ، وأما فى أمور الدين وحرية التدين ، فإذا كان أهل الديانات الأخرى يبكون من اضطهاد الشيوعيين لهم فى كنائسهم والسيطرة على عباداتهم ، فإن المسلمين يزيدون على ذلك أن دينهم لا يقتصر على أنه دين عبادة ومسجد ، بل إن نظامه

المالى والاجتماعى هو من صميم الدين ، وحرمان المسلم من حريته فى نظامه المالى والاجتماعى ، يعد حرماناً له من عناصر مهمة هى أيضاً من كيان الدين ، وهى خير لكل مسلم من أى نظام آخر ولاسيما النظام الشيوعى ، الذى يضطهد كل الأنظمة المخالفة له ، ونظام الإسلام فى طليعة الأنظمة المخالفة له من كل وجه .

وإن الإسلام فى اعتداله وكونه من الأصل لم تشرع أحكامه لمصلحة أى طائفة من من الطوائف دون غيرها ، ولا أى طبقة من الطبقات دون غيرها ، بل إن الله شرعها لجميع بنى الإنسان ، بتعديل طبائعهم وتهذيب فطرتهم بعد إقرارها والاعتراف بها ، وبذلك جمع التشريع الإسلامى فى نظامه الاجتماعى والمالى ، جميع الحسنات والمزايا التى توجد فى كل نظام آخر ، وجرده من جميع العيوب التى توجد فى أى نظام آخر . وكان من أعظم ما أسىء به إلى الإسلام ، إطلاق يد الأقوياء فى معايش الضعفاء ، حتى تجاوزا حدود الاعتدال الإسلامى فى التملك والتسلط والأثرة ، بل لم يكتفوا بتجاوز حدود الاعتدال ، حتى خرجوا عن نظام الإسلام ، إلى ما حرمه من الاستغلال المحرم والبغى المنظم من الأقوياء على الضعفاء ، فانتهز دعاة الشيوعية والمذاهب الباطلة هذه الحالة الشاذة ، التى كانت سائدة فى بعض بلاد المسلمين فاحتجوا بها عند قليلى العلم بمزايا دينهم من عوام المسلمين ، أو المتعلمين تعليما أجنبياً ، ومن هنا أصيب بعض أبناء هذه الملة بهذه النزعات التى انزلقت بها أقدامهم عن طريق الإسلام ، فامتلأت بهم السجون ، وراح أهلهم وذووهم سادرين فى أحزان مؤلمة بسبب هذا الضلال الاجتماعى والجهل بدين الإسلام .

أما وقد منَّ الله الآن بهذه النهضة التى أخذت فى القضاء على أسباب البغى والأثرة والاستغلال وانتزاعها من جذورها ، فقد زال ما كان يحتج به دعاة الأنظمة الباطلة والمنافية للإسلام ، وانفتح الطريق واسعاً أمام المستنيرين من شباب المسلمين ، ليبثوا فى الوعى القومى أن الإسلام باعتداله وعدالته ورحمته وتعاونه ومواساته للجميع ، هو أكمل أنظمة الدنيا فى إسعاد الإنسانية ، لأن النظام الإسلامى أقر المبادىء المقررة فى فطرة الإنسان ، ثم هذب ميولها وعدل اعوجاجها ، وأحسن توجيهها إلى الحق والخير .

وإلى هنا شعرت أن الشيخ الأكبر قد وفى هذا الموضوع حق توفيته ، فشكرته على عنايته واستأذنته على نشره فأذن مشكوراً .

ثورة الإسلام
على الفوارق الجاهلية

درج الناس من قديم على أن يقيموا موازين، ويضعوا فروقا تكون أساس التمايز بينهم، ومعيار المفاضلة والترجيح عندهم، وسمات تحدد أماكنهم فى بيئاتهم ومواضعهم من مجتمعاتهم. ولهذا يختلفون ويتباينون، فهذا سيد وذاك مسود، وهذا شريف وذاك حقير، وهذا له الفضل والصدارة، حتى لتجب طاعته وتلبى إشارته، وذاك له الضعف والتخلف حتى لا تحترم إرادته ولا تستجاب رغبته.

طبيعة تأصلت فيهم، وسجية تمكنت منهم، فأثرت فى حياتهم وأقدارهم وموازينهم أثرا ليس بالقليل. لكنهم يختلفون فى هذه المقاييس اختلافا يرجع إلى طبائعهم واتجاهاتهم، وما يؤثرون من المعانى، أو يفضلون من مظاهر الحياة وألوان الجاه. فبعض الناس يروعه ويفتنه لون الخلقة البشرية والسحنة الآدمية فيفضل الأبيض على الأسود، أو يؤثر الأحمر على الأصفر، مدفوعا إلى ذلك، وإن لم يشعر، بالشهوة الحيوانية والنزوة الطاغية والعصبية الجنسية، التى تفسد الحكم وتسيء التقدير وتعكس موازين الاختيار والترجيح.

وبعض الناس لا يستهدفون فى أحكامهم إلا الجاه والحسب والنسب فيحكمون بالفضل ويدينون بالطاعة، لمن يزعمون له حسباً وجاها ويتوهمون له نسباً وطهراً. يورطهم فى هذا ما ألفوه من صغار وذلة، وما نشأوا فيه من هوان واستخذاء.

وغير هؤلاء يوقرون الغنى المكثر، ويعظمون ذا المال الموسر، وإن طغى وبغى وملك الشح عليه أقطار نفسه، وشل منه عاطفة البر والمرحمة.

وطبعى أن تختلف الموازين وتضطرب القيم وتضل العقول، ما دام رائدها الهوى وانفعال النفس، وما دام العامل الذى يوجه الناس إلى هذه الأحكام هو العصبية الجاهلة

والاندفاع الأحمق والاعتماد على مظاهر لا يرضاها عقل سليم ، ولا تقرها فطرة صحيحة ، ولا يسندها دين إلهى كريم .

ولو ترك الناس لما تضطرم به الأهواء ، وتنزع إليه الشهوات ، لما أظلهم سلام ولا أسعدهم أمن ، ولا سرى فيهم روح من الإخاء والتراحم .

ولكن الله الذى جعل المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، ورضى لهم الإسلام ديناً والقرآن شريعة ومنهاجا ، لم يدعهم يتيهون فى هذا الضلال كما تاهت أمم ، ويخبطون فى تلك الظلمات كما خبطت شعوب ، ضلت هداها وتبعت هواها وتحكمت منها عصبية الجنس أو صولة المال أو نزغة الجاه الزائف المكذوب ، بل إن الله تعالى بين للمسلمين فى وضوح وقوة وصراحة ، الحدود الواضحة والمعالم الصريحة والمميزات الحقة التى تستبين بها الخصائص وتتميز القيم والأقدار ، وحارب مع ذلك المظاهر الخادعة التى يتوهمها الجاهلون مقاييس للفضل ، وموازين للتقديم والرجحان .

حارب الإسلام فوارق اللون والجنس أشد حرب ، لأنها تبيد الأمم وتهلك الشعوب ، وتدمر الأنظمة وتزرع الأحقاد فى النفوس ، وتغرس الأضغان فى القلوب ، وتجعل المجتمع يعيش فى أتون مستعر من التفكك والانحلال ، ولأنها النزعة الآثمة التى تدعو إلى سيادة جماعة لجماعة وسيطرة فريق على فريق . ونبه الناس إلى أنهم من أصل واحد ، لا يتفاضلون إلا بالتقوى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وأوحى إلى أتباعه أنهم إخوة يوجب عليهم الإخاء أن يعيشوا متساوين ، ويدعوهم إلى العدل ورعاية الحقوق : « إنما المؤمنون إخوة » .

فمجال التفاضل الحق والترجيح الصحيح فى نظر الإسلام ، هو التقوى والعمل الصالح ، ولقد خطب رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . وقال صلوات الله عليه لأبى ذر ، حين تلاحى مع آخر وقال له يا ابن السوداء : « يا أبا ذر ، أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية » .

ذلك أصل كريم من أصول الاجتماع تعتمد عليه سعادة البشر ، وتقوم على دعائمه سيادة الأمم ، فالكل فى شرعة الحياة وتحت لواء القانون سواء .

أما ما تورط فيه أمم ضلت القصد وغشى على أبصارها وبصائرها ، فأقامت حواجز سميكة بين الملونين ، حتى شب ذلك الصراع العنيف فى أفريقيا من أجل ذلك ، فهو نسيان لحكم العقل ومجافاة لأبسط قواعد الإنسانية .

ما أعجب أمر هؤلاء الذين يزعمون أنهم أرباب المدنية وحماة الحرية ، ثم تتملكهم النزوات الطائشة والعصبيات الممقوتة والمقاييس الظالمة الطاغية ، فيجعلون للأبيض ما لا يباح للأسود ، كأنما الطينة غير الطينة ، والصانع غير الصانع . وتنشب من أجل ذلك الثورات الطاحنة وتسيل الدماء ، فتخضب الأرض وتحيل جمالها إلى قبح مخيف ، ومع ذلك يظل أولئك الطغاة البغاة سادرين فى عدوانهم ممعنين فى ظلمهم الوحشى .

لينظر من أعشت المدنية الخادعة عينه ، وليعرف من عميت عليهم الأمور ، أن الإسلام قرر حقوق الإنسان منذ أربعة عشر قرناً ، فقدس إنسانيته وكرم بشريته ولم يجعل فيه عبودية إلا لله الذى خلقه فى أحسن تقويم ، فهل من معتبر وهل من مدكر ؟

لم يجعل الإسلام كذلك ، للأنساب قيمة فى أوضاع الناس وميزان أقدارهم ، فقيمة المرء عنده بما يقدمه لأمته من الخير ، وما يتقرب به إلى ربه من العمل الصالح ، والرسول الأكرم ﷺ كان يقول : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » . وكان يقول : « يا فاطمة بنت محمد ، لا أغنى عنك من الله شيئاً » وهو الذى يدعو الناس دعوة قوية حازمة إلى العمل بهذا الأثر الكريم : « لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتونى بأحسابكم » .

بهذه التعاليم الكريمة والمبادىء القوية ، قامت الدولة الإسلامية القوية ، لا يظلم أحد أحداً ، ولا يبغى إنسان على إنسان ، فسعد الناس وعاشوا حيناً من الدهر كراماً أعزة . فلما نسوا تعاليم دينهم ورسالة نبيهم . ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، وسلط عليهم أعداءهم ، ففرقوهم شيعاً وأحزاباً ومزقوهم طوائف وجماعات كلما دخلت أمة لعنت أختها .

هذا عمر بن الخطاب يجيئه رجل من أهل مصر فيقول : يا أمير المؤمنين سابقت ولداً لعمرو بن العاص فسبقته فضربنى ، وقال أنا ابن الأكرمين . فاستدعى عمرو وولده فلما مثلا بين يديه أعطى الدرة المصرى ، وقال له اضرب ابن الأكرمين كما ضربك . فلما فعل قال له

ضع الدرة على صلعة عمرو فإنما ضربك بسلطانه . ثم التفت إلى عمرو وقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

فهل شفع لولد عمرو فى دولة الإسلام نسبه أو أعفاه من العقوبة جاهه ؟ كلا .

وطلب سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب ورهط من سادة العرب لقاء عمر بن الخطاب ، وطلبه معهم بلال وصهيب ، فأذن لهما أولا ، فغضب أبو سفيان وأخذته العزة وقال لأصحابه : لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ! فقال سهيل : أيها القوم ، إنى أرى والله الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم . دعى القوم إلى الإسلام ودعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم . وهكذا انتصر الإسلام ورجال الإسلام لهؤلاء الذين يقال لهم عبيد ، وفضلوهم على من يزعمون أنفسهم وجوه القوم ورؤساء الحى .

أما المال الذى جن به الناس جنوناً ، وفتنوا به فتوناً ، والذى أصمهم وأعمى عن الحق عيونهم ، وأظلم بصائرهم ، فلم يجعل له الإسلام أثراً فى قيمة المرء ، ما لم يكن عوناً على غوث ملهوف ، أو عون مكروب أو فك عان أو البر بمحتاج .

والقرآن الكريم يحكى أن قارون قد وهبه الله من الكنوز ، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، فلما لم يبتغ فيما آتاه الله الدار الآخرة ، ولما لم يحسن كما أحسن الله إليه ، عاجله الله بالعذاب وأغرقه فى النكال : « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين » .

وهذا عمر بن عبد العزيز بلغه أن ولداً له اشترى خاتماً بألف درهم ، فكتب إليه يقول : « إذا أتاك كتابى هذا فبع الخاتم وأشبع به ألف بطن ، واشتر خاتماً بدرهمين ، واجعل فصه حديداً صينياً ، واكتب عليه : رحم الله امرأً عرف قدره » .

هذه ثورة الإسلام على الأوضاع الظالمة ، وموازينه القويمة للحياة الحرة الكريمة .

نسأل الله أن يوفقنا للعمل بهديه ، والسير على نهجه .

عبد الحميد المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

الإيمان يصنع المعجزات

لقد صنع إيمان أبناء الصحراء فى فجر الإسلام معجزات ما زالت تهز روعها عروش الشرق والغرب ، وما زال المسلمون يجثون أمام صورها خاشعين تنتفض مشاعرهم وترتعش أحاسيسهم من رهبة ذلك الإيمان الذى انطلق من المدينة شامخاً جباراً لا تقعده لفحات الهجير ، ولا ترده نكب الاعاصير ؛ لقد زلزل ذلك الإيمان الارض تحت أقدام قريش فى بدر فطار صناديدها .

طاروا وظنوا متون الجرد تحبسهم فلا تطير كساق الهارب الجرد

ثم دخل مكة بعد عشرة أعوام اغترب فيها عن مهده الاول دخلها قويا يحطم اللات والعزى على مرأى من عباد اللات والعزى . وأنى لهم حمايتها من تلك القوة العارمة : قوة الحق ، وقوة الإيمان بذلك الحق ؟

هذا هو الإيمان الذى صرع مسيلمة الكذاب وهو فى منعة من حراب قومه لم تثبت ساعة أمام حرارة الإيمان التى تسلقت عليهم أسوارهم ، وملأت بالرعب قلوبهم ، فخروا مستسلمين ، وخر دونهم صلف العناد .

هذا هو الإيمان الذى صنع المعجزة فى موقعة الجسر التى كانت بين العرب والفرس حينما نفرت خيول المسلمين من الفيلة فترجل أبو عبيد بن مسعود وتقدم وفى يده رمح وفى قلبه إيمان يضطرم ويدفعه لصراع الفيل الذى احتمت وراءه جيوش الفرس وطعنه بالرمح فى عينه طعنة أطارتها فضربه الفيل ضربة صرعته ، وقد شتت أبو عبيد بطعنته عزم الفيل فجال المسلمون بعده بسيوفهم وإيمانهم فى صفوف الفرس حتى كتب الله لهم النصر .

وذلك الإيمان هو الذى حمله المغيرة بن شعبة رسول المجاهدين المسلمين إلى ذى الجناحين أحد ملوك فارس حينما تقدم بين يديه وفى يده رمح يدك به البسط فيخرقها ثم قال للملك : إنا معشر العرب كنا أذلة يطؤنا الناس ولا نطؤهم ، ثم إن الله بعث منا نبياً فى شرف منا

وعدنا أنا سنملك ما ها هنا ونغلب عليه ، وإنى أرى ها هنا هيئة وبزة ما من خلفى بتاركيها حتى يصيبوها أو يموتوا .

وقد صدق الله وفتح على المسلمين ذلك الملك الواسع فبات إيوان كسرى مصلى لسعد ولجيش سعد ، ورنت فى أبهائه آيات القرآن فمحت صدى عزف القيان وامتلأت جوانبه بالراكعين الساجدين بعد أن غصت أحيانا بالمختالين الجبارين ، وقد ملك العرب بإيمانهم وحده بلاد الروم وزلزلوا عروشهم وقوضوا ملكهم . فأين من المسلمين اليوم ذلك الإيمان الغازى الذى حمله الرعيل الاول فعنا له كل جبار عنيد وانحنت أمامه هامات الاكاسرة وتطامنت عنده تيجان القياصرة ؟ أينه ليصنع نفوسا جديدة تصقلها حرارته وتثقفها قوته ، ثم تخرج إلى الوجود شامخة تصنع ما صنع الأوائل ، وتبنى للإسلام كما بنى المكافحون الصابرون ؟ ليس الإيمان حديثا يذيعه اللسان أو خطبة منمقة أو قصيدة منسقة أو ألفاظا مصقولة أو أساليب معسولة .

ليس هذا هو الإيمان الذى فتح به المسلمون البلاد وخفقت فى ظله البنود فوق الصين والهند وبلاد الفرس وبلاد الروم ، واجتاز به طارق بحر الروم إلى الاندلس .

نريد إيمانا لا كإيمان المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم .

نريد إيمانا لا كإيمان العجائز اللواتى أسلمهن الكبر إلى المحاريب يتبتلن بين يديها .

نريد إيمانا لا كالسراب يلمع حتى إذا حزبت الشدة لم نجده شيئا .

نريد إيمانا صارخا يغلى فى كل قطرة من دمنا بحقنا فى الحياة ، وبسيادتنا لأنفسنا .

نريد إيمانا برسالتنا فى هـــذا الوجود كمسلمين من حقهم أن يعيشوا ، بل من حقهم أن ينتزعوا ، وأن يقودوا وأن يسودوا .

نريد إيمانا عميقا بمجدنا الذى كان ، وبحقنا أن نعيده .

نريد إيمانا نصارع به ما صنع العلم من مدمرات ، ونرهب به الاجنة فى بطون الأمهات

ليس الإيمان وليد العلم والثقافة والبحث ، وليس الإيمان وقفا على المعاهد والجامعات ، بل رب جاهل يصنع إيمانه من المعجزات ما يعيى قادة الامم وزعماءها .

أيها المسلمون :

عودوا إلى قلوبكم فنقبوا لعل ومضة من الإيمان تعيش بين جوانبها فألهبوها لتصنع على ضوئها المعجزات .

أيها المسلمون : أنتم الآن مئات الملايين ، ولكنكم مستضعفون فى مشارق الأرض ومغاربها ، لأنكم تعيشون بغير إيمان .

أيها المسلمون : إنكم تحبون الحياة ولن يجتمع حب الحياة والإيمان الذى يرخص الحياة.

أيها المسلمون : إن القرآن وهو المصنع الأول الإيمان تجرى على اللسان آياته ، فلا تجاوبها من القلب الخفقات . وهذا هو المصنع الذى صنع فيه المسلم الأول قلبا تتهاوى عنده الأهوال ويتقاعس عن إدراك عزائمه الخيال .

إن القرآن لن يفشل أبدا فى خلق النفوس القوية لو أنها عاشت له وتقدمت صادقة إليه . فلنمش بأرواحنا فى روحانيته لعلها تخلق من ضعفنا قوة ، ومن شبابنا فتوة ، ومن شعوبنا المشتتة أمة واحدة يحب الله أن يراها خير أمة تستعذب الكفاح فى سبيل فكرتها وعقيدتها وتستهين بالموت لتشترى للإسلام الحياة .

محمد خليفة

المدرس فى الأزهر

فى يوم أحد

قال الشاعر الصحابى كعب بن مالك أحد بنى سلمة من الأنصار يذكر يصف موقف المسلمين فى يوم أحد :

لجئنا إلى موج من البحر وسطه	أحابيش ، منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف ، ونحن نصية [1]	ثلاث مئين إن كثرنا وأربع
فراحوا سراعاً موجفين كأنهم	جهام هراقت ماءه الريح مقلع
ورحنا وأخرانا بطاء ، كأننا	أســود على لحم ببيشة ظلع

(١) النصية : الخيار والأشراف .

بين الفلسفة وعلم الكلام
عند المسلمين

— ٢ —

لقد انتهينا فى مقالنا الأول إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفاءه من بعده إلى زمن فتنة عثمان رضى الله عنه ، كانوا يهتمون من أمر دينهم بشيئين : هما إصلاح القلب بالإيمان الصادق والاعتقاد الصحيح ، وإصلاح النفس بالعمل ، والأول وهو الإيمان الذى وصفناه هو الأصل للثانى أى العمل ، فإن الإيمان الذى لا يحمل صاحبه على العمل بما آمن به لا يعول عليه ، ولا يؤبه له ، ولا يسمى إيماناً ، وإن كنا سنرى بعد اختلاط العناصر الدخيلة على الإسلام والمسلمين بالمؤمنين المخلصين أن كلمة الإيمان قد تقلصت حتى أصبحت كالشجرة العقيم التى لا ثمر لها ، ولا فائدة ترجى من ورائها .

لقد حدد القرآن الكريم فى أول سورة البقرة « المتقين » بأنهم الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ، وبأنهم الذين يؤمنون بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وبما أنزل على من قبله من الرسل السابقين ، وبأنهم الذين يؤمنون بالآخرة . هؤلاء هم أهل الهدى من المؤمنين ، وهم أهل الفلاح [١] .

ثم بين فى موضع آخر أن المؤمنين هم الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ، وأنهم يتوكلون على ربهم ، وأنهم الذين يقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقهم الله وأن هؤلاء هم المؤمنون حقا [٢] .

فالقرآن بهذا قد جعل الإيمان مركباً من أمرين — كما قلنا — اعتقاد ، وعمل . فإذا انهدم أو انعدم أحد ركنى الإيمان ، وهما الاعتقاد القلبى ، والعمل الجسمى ، فلا يكون إيماناً .

على هذا الدستور القرآنى انقضت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه ومن تتلمذ لأصحابه من بعده .

وقد وقع خلاف فى بعض الحوادث التى لم يكن لها نظير فى عهد الرسول عليه السلام بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى . من هذا اختلاف المسلمين فى موضع دفنه عليه السلام أيكون فى مكة مسقط رأسه ، أم فى المدينة مكان هجرته ؟ ثم أزال هذا الخلاف بينهم حديث

---

(١) الآيات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ من سورة البقرة (٢) الآيات : ٢ ، ٣ ، ٤ من سورة الأنفال

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأنبياء يدفنون حيث يموتون ، ثم اختلافهم فى الإمامة بين المهاجرين والأنصار ، ثم انتهى بمبايعة عمر رضى الله عنه أبا بكر رضى الله عنه بالخلافة ، ثم اختلافهم فى قتال مانعى الزكاة ، فقال قوم بقتالهم ، وقال آخرون بعدم قتالهم ، ولكن حزم سيدنا أبى بكر فى قتالهم قضى على هذا الخلاف .

هذا بعض ما وقع للمسلمين من خلاف بعد وفاة الرسول صلوات الله عليه ، ولكن يلاحظ أن خلافهم كان فى أمور عملية لم يقع مثلها فى عصره عليه السلام ، ثم لم يلبثوا أن هداهم الله إلى الحق فيها وزال الخلاف ، لأن القلوب لم تزل منيرة بنور الإيمان ، مضيئة بضياء النبوة .

وسنرى أنه كلما تقدم بنا الزمن بعيداً عن عهد الرسول انتاب القلوب غيم ، والنفوس رين ، حتى غلظت وأصبحت كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله [1] .

لقد رأينا أنه لم يقع فى عهد أبى بكر رضى الله عنه شىء يمس ناحية العقيدة . وكل ماوقع فى عصره من خلاف إنما كان على أحداث وقعت من غير أن يسبق لها نظير فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فإذا عرف أحدهم نصاً من كتاب أو سنة يفيد الحكم فيما حدث ، وقفوا عند حد النص ، وإلا اجتهدوا حتى تستريح نفوسهم إلى حكم فى الحادث الجديد . ولكن هنا فى عهد عمر رضى الله عنه سمعنا من يعصى بالسرقة ويتعلل بقضاء الله ، حيث تذكر بعض كتب الفرق[2] أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى له بسارق ، فقال له : لم سرقت ؟ فقال : قضى الله على . فأمر به فقطعت يده ، ثم ضربه أسواطا . فاعترض عليه البعض فى الحد ، حيث زاد فى حد السرقة الضرب بالسوط ، فقال عمر رضى الله عنه : القطع للسرقة ، والجلد لما كذب على الله .

هذه واقعة جديدة على المسلمين الاولين ، ولكن يظهر أنها لم تقع ممن أسلم على يدى رسول الله ﷺ ، وإنما وقعت من أخلاط الأمم ودخلائها على المسلمين الذين لم يتدبروا القرآن ، ولم تخالط حلاوته بقلوبهم ، ولم تستنر به نفوسهم . وقد يكونون من أصحاب دين قديم قد أثيرت حوله مثل هذه الشكوك فى القضاء والقدر ، والتعلل به فى فعل المعاصى ، كما يفعله ضعفاء الإيمان فى زماننا ، أو الذين يجهلون حقيقة هذا الأمر . فإن أغلب الناس

---

(١) الآية ٧٤ من سورة البقرة (٢) المنية والأمل لابن المرتضى ص ٨

وهم الجمهور ، بل وبعض من يدعون العلم يظنون أن القضاء والقدر ملزمان لوقوع الأفعال من الناس ، وهو غير صحيح ، فإن من يعرف معنى القضاء والقدر كما عرفهما العلماء لا يخلط فى الأمر ، ولا يتعلل بهما فى فعل المعاصى .

فالقدر كما عرفه علماء الكلام « خروج الممكنات من العدم إلى الوجود واحداً بعد واحد مطابقا للقضاء » ، وأما القضاء « فهو وجود جميع الموجودات فى اللوح المحفوظ مجتمعة » .

فالفرق بين القضاء والقدر ، أن القضاء فى الأزل ، والقدر فيما لا يزال ، وأيضاً القضاء كما تقدم وجود جميع الموجودات فى اللوح المحفوظ مجتمعة ، والقدر وجودها متفرقة فى الأعيان بعد حصول شرائطها .

ولقد رد القرآن الكريم رداً شافياً على من تعلل من المشركين بأن وقوع الشرك منهم بمشيئة الله قال تعالى « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون [١] » .

ثم قال تعالى فى آية أخرى « وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين [٢] » .

هاتان الآيتان قد تعلل بهما المشركون فى فعل ما حرم الله ، وهناك آية أخرى تعلل بها المشركون فى ترك ما أمر الله ، قال تعالى « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟ إن أنتم إلا فى ضلال مبين [٣] » .

إن هؤلاء المعاندين من المشركين ، والجهلة من المعاصرين يخلطون بين أمر معلوم لنا ، وأمر مجهول لنا ، أما الأمر المعلوم لنا فهو ما بينه الله سبحانه وتعالى من الشرائع على لسان أنبيائه ، وهو الذى كلفنا سبحانه وتعالى بأداء ما أمرنا به ، وترك ما نهانا عنه ، وأن من أدى ما أمر به ، وترك ما نهى عنه كان من أهل السعادة ، وأن من ترك ما أمر به ، وفعل ما نهى

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٣٥ من سورة النحل .

(٣) سورة يس الآية ٤٧

عنه كان من أهل الشقاوة ، وليس فيما كلفنا به سبحانه مشقة ولا عنت ، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، . هذا هو الأمر المعلوم لنا ، والمسؤولون عن أدائه ، وأما الأمر المجهول لنا فهو قضاء الله أزلا ، وقدره فيما لا يزال ، ولا شك أن علمنا بما أمر الله به ونهى عنه سابق على علمنا بما قضى الله وقدر ، لأن الاول وهو أمر الله ونهيه علم قبل وقوع الفعل المخالف على لسان الرسل . وأما الثانى وهو القضاء والقدر فلم يعلم إلا بعد وقوع الفعل المنهى عنه ، أو ترك المأمور به ، لكن إذا كان الواقع فى مخالفة الأمر والنهى ممن خصهم الله بعلم من عنده حتى اطلع على اللوح المحفوظ ، وعرف ما قضى الله به عليه ثم نفذ المقضى به عليه فلا كلام لنا معه ، فإن مثل هذا له شأن آخر عند الله .

ومن هنا كان رد سيدنا عمر رضى الله عنه على من اعترض على ضرب السارق بأنه كذب على الله ، حيث إنه لم يعلم بالمقضى عليه من الله قبل وقوع فعل المخالفة ، وإنما الذى يعلمه أن فعل السرقة مخالفة لما نهى الله عنه ، وكذلك كان رد القرآن الكريم على المشركين الذين تعللوا لفعل المحرم بمشيئة الله ، حيث قال تعالى لهم فى الآية الأولى : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » أى تكذبون حيث لا يعلم بمشيئته إلا هو تبارك وتعالى ، وفى الآية الثانية رد عليهم بأن الرسل بلغوا بلاغا مبينا ، وهذا ما كلف الله به عباده ، فهو أعلمهم على لسان رسله بالواجب عليهم ، فليس لهم أن يتعللوا بالمجهول وهو المشيئة على ترك المعلوم وهو ما شرع الله . وفى الآية الثالثة سفههم بأنهم فى ضلال مبين حيث يتركون المعلوم ، ويتعلقون بالمجهول وهو مشيئة الله التى لا علم لهم بها ، ولا اطلاع لهم عليها .

وهكذا نرى فى عهد سيدنا عمر رضى الله عنه أن بعض من دخلوا فى الإسلام على جهل أو على نفاق أخذوا يثيرون الشكوك حول عقيدة المسلمين الناصعة البيضاء الخالصة من كل الشبهات ، وهكذا كلما تقدم بنا الزمن بعيدا عن النبع الأول للإسلام ، نرى الشبهات تكثر والخلافات تشتد والجدل يطغى ، وتصبح العقيدة الخالصة مخلوطة بتشويش المشوشين ، وشبهات المضللين ، ولكن من الخير أن ندرس شبههم ، ونعرف حيلهم ، حتى ننقى العقيدة مما علق بها ، وندفع عنها ما أحاط بها . وفى مقال تال إن شاء الله نتحدث عن آثار فتنة سيدنا عثمان فى الآراء ، والفرق التى حدثت فى المسلمين ، وكان لها الأثر العظيم فيما وقع بين المؤمنين .

على مصطفى الغرابى
المدرس فى كلية أصول الدين

ذكريات تهز مشاعر الإنسانية

من بين الذكريات الخالدة على الزمن ، الباقية على مر الأجيال ، التي تهز مشاعر الإنسانية هزاً عميقاً متواصلا ؛ ذكرى هذه الحرب المقدسة التي أعلنها محمد صلوات الله عليه على الفقر ، عدو البشرية اللدود ، وخصمها الجبار ، الذي حارب الإنسان في حياته وسعادته وأمنه دون تردد أو إشفاق .

والفقر كثيراً ما يكون سببه توزيع الثروة بين الناس ، أو الجهل باستنباط الثروة واستغلالها ، أو جدب الأرض وقلة خيراتها .

ولقد نظر محمد ﷺ إلى مشكلة الفقر باهتمام شديد ، وسعى بنجاح تام إلى القضاء على هذا المشكلة بعقل المشرع وحكمة المصلح وإلهام الرسول ، مع صعوبة التغلب على الفقر في بيئة كبيئة الصحراء ، وفي مجتمع لا يعرف إلا العصبية والفروق الظالمة بين طبقات الأغنياء والفقراء .

كان الناس ينظرون إلى المال على أنه هو الوسيلة لحياة الرفاهية والترف ، ولاستعباد الفقراء ، وتسخير الضعفاء ؛ فحارب محمد ﷺ هذه الفكرة الخاطئة ، وأعلن أن المال إنما هو سبب لعمل الخير والبر والرحمة والمعروف ومواساة المنكوب وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع وكسوة العاري وإسعاد الناس ، ووديعة الله في أيدي الأغنياء ، ومال الله استخلفهم عليه ؛ وجعل من سنة الإنسان المهذب في الحياة الإيثار لا الأثرة ، والإعطاء لا الأخذ ، والقناعة والرضا والشكر لا الجشع والطمع والسخط والجحود .

وكان الأغنياء لا يعرفون في المال حقوق الله والفقراء والمساكين ، فطالبهم محمد ﷺ بما طالبهم به القرآن الكريم في قول الله تعالى : « فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون » ، ونهاهم عن البخل والإمساك والشح والتقتير ، فقال صلوات الله عليه : « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » ، وقال الله تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، ومدح المؤمنين الذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ،

وفرض حق الضيف وابن السبيل، وجعل ﷺ البر واجباً، والإحسان فريضة، والصدقه شريعة اجتماعية، والزكاة أمراً محتوماً لمصلحة المجتمع كله. ونظم الوحدة الاجتماعية بين الناس وجعل أساسها الأسرة، وفرض على الرجل حقوقا يؤديها من ماله لأسرته وأقاربه وأهله، وطالبه بأن يرعى أبناءه حق الرعاية، ويوفر لهم بعمله وجده وسائل الحياة الكريمة. وحث على القناعة والاقتصاد، فقال صلوات الله عليه: « طوبى لمن قنع بالإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به »، وقال: « ما عال من اقتصد ».

وشرع الله لنبيه الكريم شرائع الزكاة والصدقات، فدعا إليها الرسول ﷺ وحض عليها ونادى بها، وسن كذلك تشريعات العمل والإجارة والمزارعة والوصية والهبة والوقف والرهن والوديعة والقرض وعقود الشركات والمضاربة وسواها، لكى تتداول الأيدى المال، ويعمل فيه الفقراء والأغنياء قصداً للربح والكسب الحلال، ومن ثم حرم الإسلام ورسوله الكريم الربا والاحتكار والاستغلال وأكل أموال الناس بالباطل، وقرر محمد ﷺ حرمة المال فقال: « كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه »، ودعا إلى اكتساب الأموال من طرقها المشروعة فقال: « من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار ». وعمل على حفظ كرامة الفقراء ففضل صدقة السر، وحض على ترك المن والأذى، وكره السؤال وحرمه عن غير حاجة، وجعل اليد العليا خيراً من اليد السفلى.. وحبس محمد ﷺ الأموال - التى تؤخذ من الفىء، والخراج والجزية، والغنائم والعشر والركاز وسواها - على مصالح الفقراء، والتمكين لهم فى الحياة والمعيشة، وحرر رقيق الأرض من العبودية، وطالب باحترام حقوق الرقيق الذى أسر فى حرب مشروعة، وبالعمل على تحريره كما حرر العامل والخادم والمرأة من القيود والأغلال.

ودعا إلى توزيع الثروة توزيعا عادلا بإخائه بين الأنصار والمهاجرين، وبما فرض من حقوق مشروعة للفقراء فى أموال الأغنياء، وبدعوته إلى العمل وحضه عليه حتى يأخذ الفقير حظه الكامل فى الحياة مع مرور الأيام، وبتقسيمه العادل للميراث بين أولى الأرحام وبغير ذلك من أسباب التمكين للفقير والمسكين والمحروم، ونهى عن كنز المال دون أداء حقوقه، وكره الاستكثار منه والتكالب على جمعه، حتى قال رسول الله ﷺ لبلال: « الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا ».

وحث على الجود والبذل والسخاء ، وكان ﷺ كما وصفه على : أجود الناس كفا ، وكما وصف فى حديث البخارى « فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة » وتقول عائشة رضى الله عنها : ما شبع رسول الله ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا » . . . ودعا الناس إلى التعاون على دفع الضر عن الفقراء فقال : « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ونهى عن المحاباة فى كل شىء حتى فى اختيار الموظف ، فقال صلوات الله عليه : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحداً بمحاباة فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله النار » ، كما نهى عن الخيانة فى الأمـــوال العامة فقال : « من استعملناه على عمل ورزقناه فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » ، أى خيانة به » .

ولقد حبب محمد ﷺ الناس فى الكسب الحلال المشروع ، ودعاهم إلى استنباط المجهول من وسائل الثروات ، وقال لهم : أنتم أعلم بشئون دنياكم . . وجعل بيت المال فى خدمة الناس والفقير ، من بينهم خاصة ، ولم يكن لرسول الله بيت مال يضع فيه الأموال وإنما كان يضعها فى بيته وبيوت أصحابه ، وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان له أموال الصدقات ، ومعيقب بن أبى فاطمة وكعب بن عمر يكتبان المغانم ، وكان حذيفة ابن اليمان يكتب لرسول الله ﷺ خرص تمر الحجاز . وكان يتخير ولاته وعماله ويقتصد فى رزقهم ، فاستعمل عتاب بن أسيد الأموى والياً على مكة وجعل رزقه كل يوم درهما ؛ وصالح صلوات الله عليه أهل فدك على نصف ثمارهم وصرفها على الفقراء . وكان بعمله الشريف ودعوته الكريمة يقوى بذور الرحمة والخير والتعاون والمودة والإخاء بين الناس حتى يستطيع المسلمون التغلب على آثار الجدب الذى كان غالباً على جزيرة العرب .

وقد دعا ﷺ إلى اصطناع الأيادى عند الفقراء ، يقول : « أكثروا من معرفة الفقراء ، واتخذوا عندهم الأيادى ، فإن لهم دولة ؛ قالوا : يا رسول الله ، وما دولتهم ؟ قال : إذا كان يوم القيامة قيل لهم : انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً ، فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة » وجعل الرسول الأكرم فى كل معروف وكل عمل صدقة فقال : « كل معروف صدقة ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة ، وما وقى به الرجل عرضه فهو له صدقة ، والدالُّ على الخير كفاعله ، والله يحب إغاثة اللهفان » ؛ ورفع من منزلة الفقراء ولم يجعل المال أساساً للحكم على الأشخاص .

ولقد قرر محمد صلوات الله عليه حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة ، وحارب الرق والاستعباد والاستغلال والفوارق الاجتماعية الظالمة بين الناس ، ورفع من الفقراء والمستضعفين ذوى الكفايات والمواهب حتى بلغوا أعلى المنازل فى الدولة الإسلامية ، مما قلب الأوضاع فى توزيع الثروات بين الناس وإنصاف الفقراء، وفتح باب الأمل الواسع على مصراعيه أمامهم يدخلونه بقوة وعزم وكرامة وتفاؤل بالحياة .

وهكذا كان محمد صلوات الله عليه الإنسانية فى أروع صورها ، والمثل الأعلى فى أمجد مظاهره ، والقائد المظفر الذى خاض معركة السلام وانتصر فيها ، والنور الأبدى الخالد الذى هدى الحياة وأخرجها من الخوف والقلق والفوضى ، إلى الأمن والهدوء والاستقرار . وكانت حياته كلها كفاحاً مجيداً فى سبيل الله والحق والمعروف وتقرير حريات الفقراء وكراماتهم ، وكانت جهاداً صادقاً وجهته الخير وإسعاد الناس ، ومن أجل ذلك توّج هذا الجهاد بالنصر ؛ وهزت ذكرياته مشاعر الناس والجماعات والشعوب فى كل مكان وجيل ، ولا تزال هذه الذكريات حديث الدنيا ، ونشيد الحياة ، وفرقان البشرية الظامئة إلى نبع هذا الوحى المقدس والناموس السماوى الحكيم .

لقد استطاع محمد صلوات الله عليه أن يجعل الفقراء والأغنياء إخواناً متحابين متآخين متعاونين ، وأن يقيم فى المجتمع الإسلامى اشتراكية عادلة تؤمن بالمبادىء الروحية والمثل العليا وتجعلها أساساً من أسس الاقتصاد التعاونى الجماعى فى الدولة الإسلامية الناشئة ، واستطاع بما بذره من بذور الخير فى الأرض أن يقضى على الفرقة والخصومة والجريمة والثورة والاضطراب والقلق بين الطبقات ... وكانت ثورة محمد الكبرى من أهدافها تحرير الإنسان من الفقر والعوز والحاجة والخوف ، وكفالة حريته وحقه فى الحياة الهانئة الكريمة وهدم كل الصروح التى أقيمت ظلماً وبهتاناً بأيدى الإقطاعية والإقطاعيين الجائرين .

ولا تزال هذه المبادىء الحية الكريمة ينطق بها كتاب الله وسنة رسوله ، ويقوم عليها تراثنا الروحى الخالد الذى يُعد مفخرة من مفاخر البشرية فى نهضتها وتوثبها إلى الكرامة والحرية .

محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس فى كلية اللغة العربية



البُذُورة ، الطِّلْيان ، عامٌ بَرْخ .

١ — يطلق أهل الحجاز فى هذا العصر البُذُورة على صغار الأولاد . وقد سمعت هذا من حجازىّ فى القاهرة ، وحكى لى بعض الحاجّ أنه سمعه من أهل مكة حين حجّ . وقد أثار فضولى هذا الحرف ومنزلته من اللغة العربيّة .

ويلوح للباحث فى بادئ الأمر أن البذورة جمع البَذْر ، وهو أوّل ما يخرج من الزرع والبقل والنبات . فشبّه صغار الذريّة بهذا الذى ينجم من الزرع وينمو حتى يستوى ويؤتى أكله ؟ إذ كان الأولاد ينمون وينتقلون من طور إلى طور حتى يستووا رجالا . والجمع الوارد للبَذْر : بُذُور وبِذَار . وإلحاق التاء لصيغة الجمع كثير ؛ كالعمومة والخئولة والفحولة فى جمع العمّ والخال والفحل ؛ وقالوا : الحِجارة والبِكارة والفِحالة والعِظامة والجِمالة فى جمع الحَجَر والبَكر والفحل والعظم والجمل . وهذا لتأنيث الجمع كما يؤنّث المفرد ؛ نحو القصعة والحُجْرة والغُرْفة . وهذا التخريج فيه مقنع ورضىً لمن شاء .

وقد سنح لى تخريج آخر حين وقفت على النص الآتى فى ذيل [1] الأمالى للقالى : « يُدعى عليهم ، فيقال : قطع الله بُذَارتهم . والبُذَارة من البَذْر ، كأنه أراد النسل » وفى اللسان (بذر) : « والبُذارة : النسل » . وذلك أن يكون البُذورة أصلها البُذَارة تحوّلت إلى البذورة . وتحويل الفُعالة إلى الفُعُولة يجرى فى لسان العامّة ؛ يقولون فى العُمَالة - وهى أجرة العامل - : العُمُولة . يقول أحدهم : إذا قمت لى بكذا فلك عُمولة كذا .

٢ — وذكّرنى هذا الحديث بحديث أفضى به إلىّ بعض أصدقائى الذين أدّوا فريضة الحجّ ، قال : مررت مع غلام حجازىّ على مجزرة ، فقلت له : ما هذا ؟ فقال : هنا تُذبح الطليان . والطِّلْيان جمع الطَّلِىّ ، وهو الصغير من أولاد الغنم .

(١) ص ٦٠ من طبعة دار الكتب .

وهذا المثال والذى قبله يحفزاننا إلى دراسة اللغة الحاليَّة للجزيرة العربية وتعرف ما بقى فيها من الفصحى ؛ فقد يكون فى ذلك غناء كبير لدارسى اللغة . فعسى أن ينشط لهذا بعض الجماعات فينفقوا على من يقوم بهذا الأمر ويضطلع به من العلماء .

٣ — ويحضرنى فى هذا المقام قصة نبأنى بها صديق الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى . فقد كان فى تونس ـ حماها الله ودفع عنها كيد الأعداء ـ فى رحلة علمية ، وضمه مجلس فيها ، وكان قد لقن كلمة سمعها هناك ، وهى (بَرْخ) يقولونها فى الكثير الموفور . يقولون : السكر برخ عندنا ، فذكر هذه الكلمة وتجارى فيها مع الحاضرين ، ورأى بعضهم أنها تمت بسبب إلى العبرية ، وذكر هو أيضا أن فى موطنه الأصلى ومسقط رأسه « محلة أبو على » من أعمال الزقازيق يقال : هذه سنة برخة للسنة يرجى فيها الخصب والخير . ولقد شعرت حين أورد لى الصديق الكريم هذه القصة أن للكلمة « برخ » صلة بمادة البركة فى العربية ، وعمادها كثرة الخير ووفرة ما يشتهى .

ولقد وجدت فى اللغة مؤيداً للاستعمال السابق لكلمة « برخ » و « برخة » فى بلاد العرب ، وفى قرية « محلة أبو على » . فى اللسان : « يقال : كيف أسعارهم ؟ فيقال : برخ أى رخيص . والتبريخ : التبريك » . وفى القاموس : « البرخ : النماء والزيادة ، والرخيص من الأسعار (عمانية) . وقيل : هى بالعبرانية أو السريانية » . وقد آثرت فى صدر المقال أن أورد العبارة « عام برخ » فأعدل عن « سنة » لما أن السنة توهم الجدب والأزمة . وانظر قوله تعالى : « ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » . وانظر الروض الأنف ١/١٩٢

هِنْدِىّ ، هِنْدِكِى

النسبة إلى الهند هندى ، وجمعه هنود ، يقال : رجل هندى ، ورجال هنود ، كزنجى وزنوج ، وقد ورد فى النسبة إلى الهند هندكى ، ويقال فى جمعه الهنادك والهنادكة ، قال أبو طالب فى لاميته [1] .

بنى أمة مجنونة هندكية بنى جمح عبيد قيس بن عاقل

(١) انظر سيرة ابن هشام على هامش الروض الأنف ١/١٧٨

وقال كثير عزة :

ومقربة دهم وكمت كأنها طماطم يوفون الوفار هنادك

فالهنادك : رجال الهند ، والطماطم جمع الطمطم ، وهو الأعجم لا يفصح .

ويسترعى النظر هذان الوجهان من النسبة ، وبالحرى الوجه الثانى منهما ، وهو الذى فيه الكاف ، إذ كان هذا غير مألوف فى النسبة العربية ، بل هو معهود فى الإضافة والنسبة فى اللغة التركية ، وإن كانت الكاف عندهم مكانها جيم . ولقد سرت هذه النسبة فى كلمات كثيرة فى لسان العامة . ومن هذا التمرجى لمن يقوم بأمر المريض ، وهو منسوب إلى تمر ، وهو النبض ، كما أخبرنى بذلك من يعلم هذا الشأن ، فهو الذى يقوم بجس النبض . ومنه الكفتجى . وهو نسبة إلى كفتة ، وهو فى اللغة الفارسية مصدر معناه تقطيع اللحم . وقد تضاف علامة النسبة هذه إلى كلم عربية ، قالوا : السفرجى فى النسبة إلى السفرة ، وقهوجى فى النسبة إلى القهوة . ومثل هذا كثير غنى عن الإيراد .

ويبدو أن هذا دخل فى لسان الناس الذين يتكلمون بالعربية من قديم ؛ ففى رسالة الغفران ذكر أبى الفرج الزهرجى ، وذلك إذ يقول أبو العلاء : « وأما أبو الفرج الزهرجى فمعرفته بالشيخ تقسم أنه للأدب حليف ، وللطبع الخير أليف » وظاهر أنه منسوب إلى الزهر على اصطلاح الأتراك .

وقد كانت مسألة « هندكى » لغرابتها فى العربية موضع بحث عند لغويى العرب .

١ — فيرى ابن جنى أن الكاف فى هندكى ليست زائدة ؛ إذ ليس هذا من موضع زيادتها فى قانون الصرف . فهندكى نسبة إلى هندك لا إلى هند ، وإن لم ينطق بهندك . وهذا كما قالوا : تهامٍ فى النسب إلى تهامة ، على نية النسب إلى تَهمَ أو تَهْم وإن لم ينطق بهما . وعلى هذا فهند وهندك — وإن كان هذا الأخير لا يظهر إلا فى النسب — من مادتين مختلفتين لا من مادة واحدة ؛ إذ كانت الأولى ثلاثية ، والثانية رباعية . وإذ كان معناهما واحداً كان هذا من تداخل الثلاثى والرباعى ، كدمث ودمثر ، وسبط وسبطر . وقد عقد ابن جنى لهذا بابا فى الخصائص . وإنى أسوق إليك كلام ابن جنى فى سر الصناعة (حرف الكاف) : فأما قول كثير .

ومقربة دهم وكمت كأنها طماطم يوفون الوفار هنادك

فقال محمد بن حبيب : أراد بالهنادك رجال الهند ، فظاهر هذا القول يقتضى أن تكون الكاف زائدة . ولو قيل : إن الكاف أصل ، وإن هندى وهندكى أصلان بمنزلة سبط وسبطر لكان قولا قوياً ، وهو الصواب . ويقول [1] أبو حيان بعد أن أورد بيت كثير : « نخرجه أصحابنا على أن الكاف ليست زائدة ؛ لأنه لم تثبت فى زيادتها فى موضع من المواضع فيحمل هذا عليه ؛ وإنما هو من باب سبط وسبطر » .

٢ — ويرى [1] أبو حيان أن هذه العلامة اللاحقة (كى) علامة النسب ، وأنها سرت إلى العرب من لسان الحبش ، وقد كان قيّما بهذا اللسان وصنف فيه . وهاك مقالة هذا الحبر الضليع : « والذى أخرجه عليه أن من تكلم بهذا من العرب إن كان تكلم به فإنما سرى إليه من لغة الحبش ؛ لقرب العرب من الحبش ودخول كثير من لغة بعضهم فى لغة بعض . والحبشة إذا نسبت ألحقت آخر ما تنسب إليه كافا مكسورة مشوبة بعدها ياء . يقولون فى النسب إلى قند : قندكى ، وإلى شواء : شوءكى ، وإلى الفرس : الفرسكى . وربما أبدلت الكاف تاء مكسورة ؛ قالوا فى النسب إلى جبر : جبرتى . وقد تكلمت على كيفية نسبة الحبش فى كتابنا المترجم عن هذه اللغة ، المسمى بجلاء الغبش عن لسان الحبش . وكثيراً ما تتوافق اللغتان لغة العرب ولغة الحبش فى ألفاظ وفى قواعد من التركيب نحوية ؛ كحروف المضارعة وتاء التأنيث وهمزة التعدية » .

وإنا لنحمد لأبى حيان - وهو من جلة النحاة واللغويين ، وكانت وفاته سنة ٧٤٥ هـ - عنايته بغير لغة العرب ، ونزوعه إلى موازنة اللغات . فقد رأيت أن له تأليفاً فى اللغة الحبشية ، وفى ثبت كتبه : « منطق الخرس فى لسان الفرس » و « الإدراك للسان الأتراك » . وهذه النزعة قليلة فى علماء العربية ، وإنما استولت على العلماء الغربيين فى العصر الحديث ، وكان لهذا أجل الآثار وأعظم الجدوى . وما زال الشرقيون متخلفين عنهم فى هذا المضمار ، ولو نهجوا نهجهم لكان لهم من الآثار ما يفوق آثار أولئك الغربيين .

على أن ما ذكره أبو حيان عن لغة الحبش من النسبة بالمقطع (كى) لا يعرف الآن على ما أخبرنى به من اطلع على الكتب المصنفة فى هذا اللسان ؛ وكذلك النسبة بالتاء .

---

(١) أنظر البحر المحيط ٤ / ١٦٣ .

والمعروف أن الجبرتي منسوب إلى الجبرت . وفى مستدرك التاج : « وبقى هنا على المؤلف « جبرت » ، وهو بلد الحبش . وينسب إليه أقوام من العلماء ، ولكن أبا حيان غير ظنين فيما يروى وينقل ، وإن كان المعروف عن هذه العلامة (كى) أو (جى) أنها من سمات النسبة عند الأتراك .

هذا ، وإبدال الياء جيما معروف فى العربية ، فى النسب وفى غير النسب . وذلك لما بين الحرفين من تقارب المخرج ؛ إذ كانا من وسط اللسان . ويقول أبو عمرو بن العلاء [1] : قلت لرجل من بنى حنظلة : ممن أنت ؟ فقال : فقيمجّ . فقلت : من أيهم ؟ قال : مرجّ . أراد : فقيمى ، ومرى . وفقيم قبيلة من العرب ، وكذلك مرة . وقال هميان بن قحافة أحد الرجاز فى وصف الإبل :

تشير بالأيدى عجاجا راهجا يطير عنها الوبر الصهابجا

العجاج : الغبار ، والصهابج أراد : الصهابى من الصهبة وهى من الألوان .

ومن هذا ما يعرف بعجعجة قضاعة ، يحولون الياء جيما مع العين ، يقولون : هذا راعج ، خرج معج ، يريدون : هذا راعى خرج معى . ومن هذا الرجز المشهور :

خالى لقيط وأبو علج المطعمان اللحم بالعشج

يريد : أبو على ، وبالعشى . ويقول ابن السكيت : بعض العرب إذا شدد الياء جعلها جيما ، ويقول أبو عبيد البكرى فى اللآلى : وبنو تميم يجعلون ياء النسب جيما .

ويبدو لى أن بعض العرب نسب إلى الهند على هذه اللهجة فقال : هندج ، بإبدال الياء جيما ، ثم توهم من جاء بعد أن الجيم من سنخ الكلمة ، فألحقها ياء النسب ، فقال : هندجى . وأبدلت الجيم كافا ؛ لما بينهما من تقارب ، وقد قالوا [2] : مر يرتج ويرتك إذا ترجرج ، وأخذه شك فى بطنه وسج : إذا لان بطنه ، وريح سيهوك وسيهوج : شديدة .

محمد على النجار

الأستاذ بكلية اللغة العربية

(١) انظر أمالى القالى ٢ / ٧٧

(٢) انظر المزهر ١ / ٢٧٥

العلّيّة في فلسفة هيوم

يقوم مذهب هيوم على الوجدان الخالص ، فالمعرفة عنده مجموعة إدراكات . وتداعى المعانى ، هـو القانون الذى ينشىء العلاقات بين المدركات بالتشابه أو بالتقارن فى الزمان والمكان أو بالعلية . وعلاقة العلية ذات قيمة كبيرة فى العلوم الطبيعية .

ولكن ما مقدار معرفتنا للعلة ؟ أليست هى الحادثة السابقة التى نشاهدها قبل حدوث معلولها ؟ ثم ، أليس من الضرورى أن نشاهد الحادثتين معا حتى نحكم بأن إحداهما علة والأخرى معلول ؟

الواقع أن هيوم ينكر العلية سواء أقلنا عنها إنها موجودة كامنة فى الأشياء المادية أو النفسانية أو قلنا إنها رابطة ضرورية بين الأشياء أو المظاهر النفسية . فكل ما هنالك — على حد تعبيره — هى حوادث مفككة متفرقة بلى بعضها بعضا ، لا نلاحظ بينها أى رباط أو أى عقدة وإن ظهرت لنا متجاورة .

هذا هو الموقف السلبى القاسى الذى وقفه هيوم من العلية . قد يكون من المفيد فى سبيل فهمه أن نعرف ما قاله الفيلسوف مالبرانش قبله وما قاله الفيلسوف كانت بعده . فما هو موقف مالبرانش من العلية ؟ إن ذلك القسيس المتبتل لم يشأ إلا أن يدخل الله فى كل شىء ، كما كان التراجيديون اليونان يفعلون حين يضعون الله فى المواقف التى تحرج عليهم . فالله عند مالبرانش هو علة معرفة الأجسام وعلة لمعرفة النفس .

فهذه الأجسام التى نراها بما لها من صفات أولية أو ثانوية ، أو بعبارة أخرى هذا الامتداد ومظاهره ، لا ترتبط أحواله بعضها ببعض ارتباطا ضروريا . وهذه النفس ومكوناتها والجسم المتصل بها ومكوناته ليس فيهما ما يحملنا على أن نعتقد أن الأول علة لحالات الثانى ولا أن الثانى علة لأحوال الأول ، ويؤيدنا فى ذلك مبدأ التمييز الديكارتى الذى يقول إنه ليست هناك علة بالمعنى الصحيح لا فى الجسم ولا فى النفس ولا فى صلة النفس بالجسم ، فالذى يوجد إذن هو تتابع ليس إلا لأحوال الجسم وأحوال النفس ، وليس ارتباطا ضروريا بحال

من الأحوال . الله هو العلة الوحيدة لأن القوة صفة قدسية لا يمكن أن تحمل إلا على الله سبحانه وتعالى ، فهي صفة الخالق ذاته في طبيعته كخالق ، وليس هناك موجود إلا الله سبحانه وتعالى نرى بينه وبين معلوله ارتباطا ضروريا ، فمن المستحيل كما يقول مالبرانش أن تؤثر الموجودات المخلوقة بعضها في بعض ، سواء أكانت مادية أم روحية .

ولكن ما هي علة حركة جسم معين ؟ يجيبنا مالبرانش بنظريته الجديدة في العلة وهي نظرية العلل المناسبة فيقول إنه علته الصحيحة الفعالة هي إرادة الله لخلقه وحفظه في مكان معين بالنسبة إلى أجسام أخرى أو حفظه في عدة أمكنة مختلفة بالنسبة لأجسام ثابتة ، وأن علته المناسبة هي حركة الأجسام الأخرى التي تتقابل معه ، وقولنا في كلتا الحالتين صحيح بشرط أن ندرك تماما أن علة الله الفعالة وعلة الجسم المناسبة تسيران وفق قوانين ثابتة رسمها الله ، قوانين بها يوفق الله بين عمل الجسم غير الفعال وعمله الفعال .

هذا هو حل مالبرانش لمشكلة العلية ، حل يشبه إلى حد كبير ما أورده هيوم في كتابه المسمى Inquiry وإن اختلفت النتيجة المستخلصة عند هذا الأخير عنها عند الأول . فهيوم وإن اعترف بأن مالبرانش قد وصل بنقده إلى أسمى درجة ، إلا أنه ينكر عليه بعد ذلك ولوغه في عالم خراف لا يمكن أن يستخلص منه شيء مؤكد ، ويظهر هذا من تسليمه بالقوى التي انتزعها من الأجسام والأشياء الإنسانية ، فهو حين سلم بها ، سلم بها في كائن أسمى هو مصدر القوى الظاهرة سواء في الأجسام أو في الأنفس . وهذا عيب في نظر هيوم يظهره بوضوح في إحدى نصوص كتابه ، حين يقول : « إن جميع الحوادث تبدو مفككة متفرقة ، فحادث يلي حادثاً آخراً ، ولكننا لا نلاحظ أبداً أي رباط أو أي عقدة بين هذه الحوادث فهي تظهر متجاورة ولكنها ليست أبداً مرتبطة ، وبما أنه لا يمكن أن يكون لدينا معنى عن شيء لم يظهر أبداً لا للحس الخارجي ولا للشعور الباطني ، فالنتيجة اللازمة لذلك أنه ليس لدينا أي معنى عن الرابطة أو عن القوة وأن هذه الألفاظ لا معنى لها على الإطلاق كلما استعملت في الحجج الفلسفية أو في الحياة الجارية » .

من هذا النص تبين لنا النتيجة القاسية التي يقف عندها هيوم ، وهي إنكار العلية إنكاراً

مطلقاً ، ولكن الواقع غير هذا ، فهيوم لا يصل إلى هذا الحد من الإنكار ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لا يريد أن يقع فيما وقع فيه مالبرانش ، فكيف إذن يفسر موقفه ؟

سيعرف الجواب بعد ذكر بعض الأمثلة . إذ رأينا حادثة معينة نتجت عنها حادثة أخرى ، فهل نحكم من أول مرة أن الحادثة الأولى علة والأخرى معلول ؟ إننا مهما أوتينا من سرعة الخاطر ودقة الانتباه فلن نستطيع ذلك ، ولكن إذا ما تجدد الحادث الأول ونشأ عنه دائماً الحادث الآخر فإنه يمكننا أن نسمى الحادث الأول علة والثانى معلولا . فاستنتاجنا للعلة والمعلول يأتى بعد تتابع الحادث الأول والتتابع الذى لزمه به الحادث الثانى ، لأننا إذا نظرنا إلى الحوادث ذاتها من الناحية الموضوعية لما وجدنا فارقا البتة بين الحالة الأولى والأحوال الأخرى ، فكُرة البلياردو مثلا لا تكاد تمس كرة أخرى حتى تبدأ الأخيرة فى الحركة وهذا هو ما يحدث بعينه فى كل مرة لا أزيد ولا أقل ، هذا من الناحية الموضوعية ، ولكن الأمر سيتغير لو نظرنا إلى نفوسنا وما يعتريها من أثر بهذه الحوادث . ويذكر هيوم فى ذلك نصاً يقول فيه : « الحالة الأولى التى رأينا فيها حركة ناتجة من احتكاك كرتى البلياردو مشابهة تماما لأية حالة يمكن أن تقع لنا مرة أخرى إلا فى أننا كنا عاجزين فى الحالة الأولى أن نستنتج حادثاً من حادث آخر ، الأمر الذى أصبحنا قادرين عليه بعد مرحلة طويلة لتجربة ثابتة » فليس لدينا أى معنى عن القوة ، أو أى معنى عن الرابطة الضرورية ، أو أى معنى عن علـيّة موضوعية ، وكل ما هنالك هو تغير النظر بعد تكرار الحوادث وفعل هذا التكرار فى نفوسنا .

فمصدر العلية إذن ، مصدر نفسانى ، وفى هذا يقول هيوم : « ليس هناك بين حالة واحدة وعدة حالات من المفروض أنها جميعاً متشابهة ، أى فارق ، إلا فى أن العقل بعد التكرار يتوقع حين ظهور حادث معين ، وبفعل العادة فقط ، "قرينه" المعتاد . فالرابطة التى نحس أو نشعر بها رابطة عقلية ، والانتقال التعودى للمخيلة من موضوع إلى قرينه المعتاد ، هو الشعور أو الإحساس الذى نشتق منه معنى القوة أو الرابطة الضرورية » فكرة العلية ، مصدرها نفسانى داخلى هو الإيمان بالتوقع ، ومن ذلك نستطيع أن نصل

إلى تعريف العلة عند هيوم وهو « العلة شيء يتبعه شيء آخر وظهوره ينتقل بالعقل إلى هذا الشيء الآخر » .

ليس لمعنى العلة إذن أى أساس للظواهر فى ذاتها أو فى طبيعتها ، فكل ما فى العقل حين يفكر فى مشكلة العلية هو ما ذكره وما ذكره فقط من حدوث ظاهرة أخرى وتوقع الظاهرة الثانية بعد تكرار الاولى ، ففكرة السببية إذن ذاتية محضة وهى خدعة من الخيال الذى يميل إلى فرض رابطة بين الأشياء ، والحوادث ليس لها وجود إلا فى العقل الذى يدركها ، ومن هذه الفكرة توصل هيوم الى القول بأن للعالم الخارجى وهم باطل ، ونزل بمعوله على العالم المادى ، فليس فى الكون إلا أفكار ندركها ومن الخطل أن نفرض وجود مالا نعلم ، وعلى كل حال فهذا مبحث آخر خارج عن موضوعنا .

هذا هو نقد دافيد هيوم للعلية ، إذا نحن قارناه بنقد كانت ، رأينا الاخير يفرض تتاليا بين الظواهر وليس فقط بين تأثراتنا الشخصية بهذه الظواهر ، وأن التتابع فى ظهور الشخصية ليس له أى قيمة موضوعية ، مالم يكن هناك تتال بين الظواهر ، وهذا معناه أن الظواهر تسير على قاعدة أساسية هى « أن حادثا ما يلى آخر ، وأن الحادث الثانى لا يمكن أن يسبق فى الزمن الحادث الأول أو بعبارة أخرى لا يمكن أن يرجع التالى إلى الوارد قبل المقدم » ، فمبدأ العلية عند هيوم — على حد قول كانت — إنما هو تعبير آخر عن القاعدة الأساسية للتفكير التى تعين الزمن كنظام موضوعى بين الحوادث (كقبل وبعد) ، وأن هذا النظام ليس نتيجة لأفعال مخيلتنا ولتداعى الأفكار فيها ، كما تصور هيوم ، بل إن حوادث المخيلة والتمييز بين (قبل وبعد) مبنى على القاعدة التى تسلم بضرورة هذا التمييز ، أى أن أولية العلية ما هى إلا تعبير آخر عن تعيين الفكر لخاصيات الزمن أو هو عبارة عن رفع طبيعة الزمن إلى مرتبة يمكنه فيها أن يكون أساسا للنظام الداخلى .

وبعد ، فهذا مقال فى نقد العلية عند فيلسوف الإنجليز دافيد هيوم ، لا أحب أن أوضحه أكثر من هذا ، فإنى أخشى ما خشيه هيوم من قبل : « إذا ما أظهرته فى أنوار مختلفة أن يصبح أكثر غموضا وأكثر تعقيدا » .

سعيد زايد

الرئيس يزور الأزهر

أقام سكان حى الأزهر وأصحاب المتاجر فى شارعه العظيم معالم الزينات احتفالا بالرئيس المصلح اللواء محمد نجيب فى زيارته للأزهر يوم ٧ ربيع الأول ١٣٧٢ (٢٥ نوفمبر) وفى منتصف الساعة الحادية عشرة وصل الرئيس فاستقبله فضيلة الأستاذ الأكبر وكبار العلماء وجلسوا حول منصة أقيمت فى صدر الفناء الكبير الذى يقع فى مبنى الأزهر الجديد أمام كلية الشريعة وقاعة الاحتفالات الكبرى بالأزهر ، وقد ركبت إلى جوانبها مكبرات للصوت . وبعد ابتداء الحفل بآى الذكر الحكيم وقف فضيلة الأستاذ الأكبر وخطب قائلا :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين .

وبعد وقد تفضل الرئيس اللواء محمد نجيب بزيارة أهل العلم وطلابه ، وهم الذين يرجى أن يكون المستقبل بهم مشرقا زاهراً ، وإننا إذ نشكره اليوم فإنما نشكره شكر الأرض الكريمة إلى الغيث النافع ، ونؤكد بهذه الزيارة ما عرفناه فيه من عنايته بدين الإسلام ، وتصريحه بأنه دين النظام . وتحضرنى فى هذه المناسبة قصة موجزة : تلك أن القاضى أبا يوسف كان جالساً ذات يوم إلى جانب الرشيد ، فدخل يهودى ورفع قضية على الخليفة ، فقام القاضى أبو يوسف من مكانه وقال لليهودى : اجلس إلى جانب خصمك ، وجلس أمامهما وحكم لليهودى على الخليفة ، ثم قال القاضى : إنى لا زلت أستغفر الله من أن خطر بنفسى أن يكون الحق مع الخليفة . وإنى أعود فأشكر للرئيس هذه الزيارة الكريمة ، وأدعو له ولرجال الجيش البواسل ، وأسأل الله له ولهم التوفيق والسداد .

ولما جلس فضيلة الأستاذ الأكبر وقف مندوب الطلبة الأزهريين وألقى كلمة حيا فيها الرئيس باسم الطلاب وختمها بقوله : « إن هذا اليوم ليوم تاريخى عظيم يسجله الأزهريون بمزيد من الفخار والزهو » .

وعلى أثر ذلك قام الرئيس اللواء وألقى كلمة قال فيها :

يا أبناء الأزهر ،

السلام عليكم ورحمة الله .

جئت اليوم لتحية الأزهر ، وأنتم أبناؤه وحملة رسالته وحماة تقاليده ، فأنتم بهذا حملة رسالة الإسلام ، وقادة الأمة إلى الخير ، ومنافذ رحمة الله للعالمين .

وإن الأزهر ملاذ اللغة العربية ، ومعاذ الشريعة الإسلامية ، وواجب كل عربي أن يصون الأزهر ليصون به لغة القرآن . وواجب كل مسلم أن يرفع رايته لترتفع به راية الإسلام .

ولقد كان الأزهر وما زال هو الجامعة الإسلامية العظيمة ، تهفو إليه أرواح المسلمين في كل موطن ، وتتطلع إليه آمالهم من كل مكان ثم يفدون إليه من كل قطر من أقطاره ، ويغترفون من مناهل معارفه وعلومه ، ليرجعوا بعد ذلك إلى بلادهم وأهليهم كما قال الله سبحانه وتعالى (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) .

ولقد وقف الناس أمام الأزهر طائفتين : طائفة ترى فيه موطن أمل ، وموضع رجاء ، فهي تحرص عليه وتعينه على بلوغ غايته . وطائفة أخرى ترى فيه حصناً منيعاً دون غاياتها الاستعمارية ، فهي تكيد له حتى تصرفه عن الهدف السامي الذي أراده الله له . ولكن الأزهر بفضل الله ، وجهود أبنائه ، وغيرة الغيورين من أبناء الوطن العزيز ، سيصل إلى غايته من نشر رسالة الإسلام ، وجمع شمل المسلمين ، وحملهم على أن يتعارفوا ويتآلفوا ويتناصروا حتى يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى .

وإني ، وأنا أحيي الأزهر الشريف ، لا أحييه تحية الغريب للغريب . فإن الحركة الخالصة التي قام بها الجيش ، ليست إلا معنى من معاني الإصلاح الذي ينشده الإسلام ، والإسلام دين الحرية ودين العدل ، والأزهر هو القائم برسالة الإسلام ، والحفيظ على هذه الرسالة في نفوس المسلمين . ولذلك أشعر وأنا أحيي الأزهر أني فرد من أفراد الأزهريين ، لأنني فرد من أفراد المسلمين .

إن الإسلام يحب الحرية ويقدسها ، ويكره الذين يختارون الضعف والعبودية ، وأنتم أعلم بقول الله في كتابه العزيز (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا

كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) .

إن الإسلام يحب العدل ويحرص عليه ويأمر به (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) .

ولقد اكتوينا واكتوت مصر معنا بنار العبودية ونار الظلم ، وكان الملك السابق يكاد يدعى أنه الإله من دون الله ، واستباح لنفسه ما حرمته شرائع السماء المقدسة ، فبغى وظلم وانتهك الحرمات وسفك الدماء فى استهتار بالغ بإرادة الشعب ، وخروج آثم على أوامر الله ، ولم يكن بد من أن يوقف الشعب ، ممثلا فى جيشه ، هذا الطغيان ، فقام بحركته التى يرضى عنها الله ورسوله والمؤمنون ، وتؤيدها مبادىء الإسلام الذى يرفع الأزهر رايته ويؤدى رسالته .

والآن وقد ذهب الطاغية إلى غير رجعة ، وتخلصت الأمة من الكابوس الذى كان يجثم على صدرها ، ويكاد يحبس أنفاسها ، نتجه إلى الله جلت قدرته أن يوفقنا جميعاً إلى ما يعلى راية الخير ويثبت دعائم الحق ويأخذ بيد أمتنا إلى الحرية الشاملة والعدالة الكاملة والاستقرار السعيد العزيز .

وأن أمامنا سبلا كثيرة للإصلاح وتوفير أسباب الحياة الماجدة للشعب الكريم ، وإنا لواثقون أننا وأبناء الوطن العزيز يد واحدة ، وإننا بفضل توجيه الأزهر للأمة وإرشاده إياها ، سنستعين بالصبر على عزائم الأمور ، وسنكون كما يوجه القرآن الكريم (والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

وكانت هذه الكلمة الجامعة تقابل فى كثير من مواضعها بالهتاف المدوى والتصفيق الشديد .

ثم نهض فضيلة الأستاذ الشيخ سليمان نوار شيخ كلية اللغة العربية وألقى كلمة جامعة حيا فيها الرئيس وبارك عهده الميمون وقال : إن علماء الأزهر على بكرة أبيهم يتساندون فى نصرة هذا العهد لأنه عهد الحرية والكرامة والنور والعرفان .

وعلى أثر ذلك وقف الرئيس ، فتعالى هتاف الطلاب واشتد تصفيقهم ، فحيا العلماء والطلاب ، واستقل سيارته وانصرف بين مظاهر التكريم والإجلال .



– ٢ –

قدمنا فى الجزء الماضى من هذه المجلة لمملكة تقلى ، بعرض جغرافى وتاريخى عام لهذه المملكة الإسلامية . والآن نواصل الحديث عنها مبتدئين بذكر تاريخ تقلى ، قبل أن ينشأ البيت المالك فيها .

يقطن تقلى اليوم شعب مكون من خليط من قبائل كثيرة ، ومزيج من الدماء المختلفة . ويرجع ذلك إلى هجرة الكثيرين إليها ، بعد أن تأسس فيها البيت المالك ، واستقر هؤلاء المهاجرون بتقلى . وتتضح آثار هذه الدماء المختلفة ، فى شعب تقلى اليوم .

ومنذ أربعمائة عام ، كان سكان الجبال الشمالية الشرقية ، عنصراً جنسياً واحداً ، يحيا حياة منعزلة فى ثلاث مناطق هى (١) ترمى Tirmi فى أم طلحة ، (٢) جبال الكجاكجة ، (٣) تقلى نفسها .

وكان هؤلاء القوم وثنيين ، يحيون حياة بسيطة بدائية ، تحت سلطة زعمائهم الوراثيين ، الذين اتخذوا « تيجال آرو » Tegal'arro, قاعدة لهم ، وهى تقع قريبة من قرية « المهوى » الحالية . وكان سكان الجبال الشمالية الشرقية ، يعرفون باسم « الهمج » . وسلالة هؤلاء السكان ، موجودة اليوم ، فى جبال الكجاكجة ، نقية من الدم الغريب . ولقد انقرض هذا العنصر ، لدرجة كبيرة ، فى سائر جهات تقلى الأخرى ، إلا أن دماءهم تسربت إلى معظم سكان هذه الجبال الشمالية الشرقية .

وسكان الكجاكجة يعتنقون الإسلام ، ومن المحتمل أن يكونوا قد أسلموا منذ ثلاثمائة عام ، إلا أنهم ما زالوا يمارسون كثيراً من عاداتهم القديمة ، وإن تكن القرون قد غيرت قليلا من مظاهر حياتهم . وزراعاتهم قليلة ، أهمها القمح ، يزرعونه فى جبالهم ، التى قلما يخاطرون بالابتعاد عنها . ويتكلم قليل من سكان الكجاكجة ، العربية ، بينما نرى أن سكان تقلى ، جميعهم يتكلمون العربية .

وقد عفت الأيام على لغتهم الأصلية تماماً ، وقل أن تجد اليوم متحدثاً بها . وكان « الجندى » يسيطر على قبائل الكجاكجة ، وهو وارث سلطات رؤساء القبائل . ولما تأسس البيت المالك الجعلى ، ظل هذا الجندى يشغل منصبه فى عهدهم . وإذا استثنينا الديانة والملبس ، فإننا نجد أن سكان الكجاكجة اليوم ، فى حياتهم وعاداتهم ، يشابهون أولئك الذين عمروا الجبال الشمالية الشرقية منذ أربعمائة عام . ولقد وجدهم هناك ذلك الرجل الجعلى الفقير ، الذى أسس البيت المالك ، ونسل منه ملوك تقلى . ورواية نسب هؤلاء السكان مشوشة مضطربة ، وإن كانت ذريتهم تعتز بهذه النسبة ، وتحتفظ بها ، فى أغانيها وقصصها ويمكن أن نتتبع آثارهم فى خرائب منازلهم فى « تيجال آرّو » و « ترى » ، حيث نجد الحصون التى أقاموها لصد المهاجمين . ونستنتج من ذلك ، أنهم لم يكونوا قوماً مسالمين ، كما هم الآن . وكان سلاحهم القذف بالحجارة ، والرمى بالسكاكين والحراب ، من خلف هذه الأسوار التى أقاموها .

ويجمل بنا أن نقف قليلا ، لنعرف من هم هؤلاء الغزاة ، الذين بنيت هذه الحصون لردهم . كان هناك خوف ، فى ذلك الوقت ، من غزاة يأتون من الشمال أو الشرق ، لأن سكان الجبال ، كانوا دائماً متناحرين . وتذكر الرواية أن سكان الجبال الشمالية الشرقية ، كانوا متحدين تحت زعامة واحدة . ولكن الأرجح أن كل جماعة منهم كانت تحيا حياتها الخاصة تحت زعامة رئيس محلى . وذلك يفسر لنا نشوب العداوات بينهم . وتنسب الرواية لهؤلاء الرؤساء المحليين سلطة واسعة . وفى « تيجال آرّو » تكوّن بيت تقلى القوى ، الذى نشر نفوذه فيما بعد .

ومعرفتنا بأصل هؤلاء القوم محدودة . وبين سكان الكجاكجة و « الكوالب » اليوم عداوات وإحن تفسر لنا شيئاً من تاريخهم القديم . وبين الجماعتين كثير من التناقض ، مرده إلى اعتناق سكان الكجاكجة الإسلام منذ أمد بعيد ، بينما الكوالب وثنيون حتى اليوم . ويمثل سكان « تاكام Takam » و « تورجوك Turjok » و « تاجوى Tagoi » ، حلقة متوسطة بين الجماعتين السالفتين ، لأنهم اعتنقوا الإسلام حديثاً . ويقال إن هؤلاء السكان ، الحديثى الإسلام ، يرجعون هم والنوباويون فى الجنوب إلى أصل واحد . وعلى كل حال فهذه أمور لا زالت تحتاج إلى مزيد من العناية والبحث . غير أن الشىء

الذى نستطيع أن نؤكده ، هو أنه كان يعيش فى تقلى ، فى بداية القرن السادس عشر ، قوم بدائيون وثنيون ، وقد كانوا متشابهين فى كثير من الوجوه مع سكان النوبا ، وهم يختلفون الآن فيما بينهم اختلافاً كبيراً ، نتيجة للهجرات التى تدفقت إلى بلادهم ، بعد أن بدأ عهد الملوك . ونحن لا نعرف هل كان لهذه الجماعات اتصال بالعالم الخارجى أم لا . وبين هؤلاء الناس ، وفى هذا التاريخ ، بدأت مملكة تقلى بدءاً متواضعاً بسيطاً .

وفيما يختص بنشأة البيت المالك فى تقلى ، تقص علينا الرواية ، أن شخصاً يدعى « محمد الجعلى [1] » قدم الى تقلى من الشمال ، حوالى عام ١٥٣٠ م . وأسس فيها البيت المالك ، الذى حكم تقلى . ويحتمل أن يكون محمد الجعلى هذا ، واحداً من الوعاظ الذين كانوا ينتشرون فى الأرض ، لينشروا العقيدة الإسلامية ، مع موجة الفتح الإسلامى ، التى أعقبت تأسيس مملكة سنار عام ١٥٠٤ م ، ويحتمل كذلك أن يكون هذا الجعلى طريد قبيلته النهرية ، أو مجرد سائح مغامر ، يبغى المخاطرة . وكل ما نعرفه عن ذلك الرجل ، أنه كان فقيراً ، تمتلىء جوانحه بالشفقة والرحمة .

ولقد وفد ذلك الرجل إلى تقلى ، وبصحبته رفيق له يدعى « أبو هياما Abu Hayama » ووصل الرجلان فى تجوالهما ، الى التلال الصغيرة ، التى اعتصمت بها الرئاسة الوثنية فى « تيجال آرو » ويوجد فى هذه التلال الآن قرى « الهوى » و « كيريا » . ولما التقى رجال الجبال ، بالرجلين الوافدين ، قادوهما إلى زعيمهم كابر - كابر Kabr- Kabr ، فقدما له فروض الطاعة والصداقة ، ولما رق الزعيم لحالهما ، عاملهما بمنتهى التكريم ، فهدأ لذلك بالهما ، وقر قرارهما على الاستيطان فى مهجرهم ذاك الجديد ، وعزما على التعريف بالإسلام بين هذه الجماعات الوثنية ، وأخذا يعلمانهم الصلاة ، وأصول العقيدة . ووضح ، منذ البداية ، أن الرجلين قد نجحا فى مهمتهما .

وانتشرت الديانة الجديدة سريعاً بين الناس ، وتماسكت قلوبهم ، وتوطد بذلك مركز « محمد الجعلى » بين هذه الجماعات ، وكانت شفقته ورحمته وسلوكه التام ، مما جعله يحتل مكاناً محترماً ، ومركزاً فريداً بينهم ، وأضحى الرجل وله تأثير روحى كبير عليهم .

---

(١) يقال إنه من قبيلة الجموعية إحدى قبائل الجمليين .

وتزوج « محمد الجعلى » من ابنة « كابر — كابر » المذكور ، وولد له منها ولد يدعى « أبو جريدة » ، ولما بلغ أشده ، ورث عن أبيه خلقه الكريم ، وساعد أباه ، فى نشر الدعوة الإسلامية ، فى المناطق المجاورة . ولما مات « كابر — كابر » اختار كبراء المجتمع حفيده « أبا جريدة » رئيساً عليهم ، وهو بعد حديث السن ، ودعوه فى نفس الوقت « جيلى Geili » [(١)] وعلى هذا فنحن نرى أنه حوالى عام ١٥٦٠ م تأسس البيت المالك فى تقلى فى شخص « جيلى أبو جريدة » ومنذ ذلك الوقت ، وذريته من بعده ، تحكم البلاد حكما متصلا لم يقطعه شىء . ولا شك أن قوة هؤلاء الملوك وشهرتهم التى أحرزوها ، ترجع الى طول ما حكموا ، وإلى طول ما كافحوا فى سبيل نشر الإسلام . وعندما تولى « جيلى أبو جريدة » الإمارة ، لم تكن مملكته تتكون إلا من تلال تقلى نفسها ، وربما الكجا كجة أيضاً ، أى المناطق التى كانت خاضعة لجده (كابر — كابر) .

ولقد كان لجيلى أبى جريدة ، شخصية قوية أهلته - رغم أنه أجنبى - لكى يتربع على كرسى زعيمهم القديم . ومما يذكر بالخير لجيلى ، أنه هو الذى أكمل تحويل تقلى إلى الإسلام ، وهو العمل الذى بدأه والده . كما أنه حقق أطماعه ، فيما وراء المناطق المجاورة ، ونشر فيها الإسلام . وعمل كذلك على تقوية نفوذه الشخصى ، بجلب الجماعات من الشمال والشرق ، وتوطينهم فى مملكته . وشعر هؤلاء المهاجرون ، أن حياتهم وكيانهم ، مرتبطان بهذا البيت الجديد فآزروه مخلصين . وبنى جيلى مسجداً لا تزال آثاره باقية إلى اليوم ، كما بنى حوشاً له فى « الهوى » التى تبعد عن « تيجال آرو » بمقدار نصف ميل إلى الشمال . وترك جيلى بعد وفاته مملكة راسخة القواعد ، قوية البنيان ، وإليه يعزى الفضل الأكبر ، فيما أحرزته ذريته من بعده من قوة وسلطان . ودفن جيلى بحوشه الذى ابتناه لنفسه بالهوى . ويمكن الآن تتبع آثار هذا الحوش . وانتهى حكم جيلى عام ١٥٨٥ م .

وإلى مقال قادم ، نتابع فيه التأريخ لهذه المملكة ، ذات التاريخ المشرق ، فى نشر الإسلام فى السودان الشمالى .

عبد المنعم محمد الشيخ
مدرس أول الآداب بمعهد الزقازيق

---

(١) جيلى معناها بالنوبارية الأحمر ، وكانوا يلقبونه بذلك إشارة إلى أنه من دم أجنبى ، وليس من شجرة الحكام الاصليين .

نداء فضيلة الاستاذ الاكبر

إلى العالم الاسلامى

بما يجب عليه لإخوانه المسلمين فى تونس والجزائر والمغرب الأقصى

أذاع فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر البيان التالى على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها فى صباح يوم الخميس ٣٠ ربيع الأول :

أيها المسلمون الآمنون فى أوطانهم ، المتمتعون من الله عز وجل بنعمة العافية والاطمئنان . إن دماء إخوانكم فى الإسلام تناديكم من الحدود الغربية لمملكة ليبيا إلى أقصى جبال الأطلس لتكونوا عوناً لأهلها على درء الظلم عنهم ، ووضع حد للبغى على حقوقهم الإنسانية والوطنية ، وتمكينهم من أن يعيشوا فى ديارهم أحراراً كراماً آمنين .

إن إخوانكم هؤلاء هم ذرية الأبطال الذين كانوا مع طارق بن زياد فى إيصال رسالة الإنسانية والحضارة والآداب والعلوم والعمران إلى غرب أوربا ، وفيهم سلالة اللاجئين من الأندلس فراراً بدينهم وإنسانيتهم من مظالم دواوين التفتيش عند خروج المسلمين من ذلك الفردوس المفقود . وهذه أسلاك البرق وموجات الأثير تنقل اليكم بين كل ساعة وساعة صدى قذائف المدافع الرشاشة ومختلف الأسلحة وهى تغتال الأحرار بأساليب قطاع الطرق ، وتحصد أرواح المدنيين العزل من السلاح كما يفعل الجبناء ، وتأخذ لأصحابها - من المسلمين الآمنين فى تونس والجزائر ومراكش - الثأر الذى عجزوا عنه فى شرق فرنسا لما وطئت أرضهم سنابك خيول الألمان فى بداية الحرب العالمية الثانية .

يقول نبى الرحمة صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى هريرة : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله » أى لا يظلمه إذا كان فى ولايته وتحت سلطانه ، ولا يخذله إذا مسه الظلم من عدو له يبغى عليه .

نحن المسلمين العاملين بقواعد الإسلام - وهو دين السلام - قد فتحنا أبوابنا ووطأنا رحابنا للفرنسيين وغير الفرنسيين من أمم الأرض ، فأقاموا بيننا مرافقهم ومدارسهم ، وقصدوا أسواقنا بمصنوعاتهم ومنتجاتهم ، ولقوا من حسن معاملتنا ورحابة صدورنا وسلامة قلوبنا ما لم يروه فى أى بلد آخر . كل ذلك على أمل منا بأن يحسنوا معاملة كل من له علاقة بهم من إخواننا

فى الدين ، وأن يقوموا لهم بحقوق الإنسان على أخيه الإنسان ، وأن يحترموا حريتهم ويحافظوا على كرامتهم .

وإننا لا نزال على أخلاقنا وآداب ديننا مع جميع الأمم . ومن ينكر علينا أو على طائفة من إخواننا فى الدين ما يجب عليه أن يرعاه من حقوقهم الإنسانية والوطنية والملية فإن أقل ما يجب على المسلمين حينئذ ألا يتعاونوا مع أهل البغى فى تجاراتهم وصناعاتهم ومرافقهم ، وأن يكون أول ما يفعلونه مقاطعة مدارسهم ومعاهدهم وكل وسائل التعاون معهم وأسباب الاتصال بهم .

والولاية فى الإسلام هى النصرة . والتعاون والاتصال من أوثق مظاهر الولاية ، والله عز وجل يقول فى كتابه العزيز : « ومن يتولهم منكم فإنه منهم » ، ولو أنهم قائمون لأبناء ديننا بحقوقهم ، محافظون لهم على كرامتهم وحريتهم فإن المسلمين من أصدق أمم الأرض عهدا مع غيرهم من الأمم . ومن كان منه لإخواننا المسلمين عكس ذلك من البغى والظلم كما هو جار الآن من الفرنسيين فى شمال إفريقيا فإن أقل ما يتحقق به الواجب الشرعى على المسلمين فى جميع بقاع الأرض مقاطعة أهل البغى فى جميع وسائل التعاون وأسباب الاتصال ، إلى أن يعرفوا لإخواننا فى الدين حقوقهم الإنسانية والوطنية والملية ويقوموا بها حق القيام .

بهذا تحكم الشريعة المطهرة ، وبهذا تنادى دماء المسلمين المسفوكة فى جناح الإسلام الغربى . ومن حق هذه الدماء وأهلها على المسلمين أن يبادروا لها باسعاف المنكوبين وتضميد جراح المجروحين ، ومعاونة الأيامى والايتام والمنكوبين . والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه .

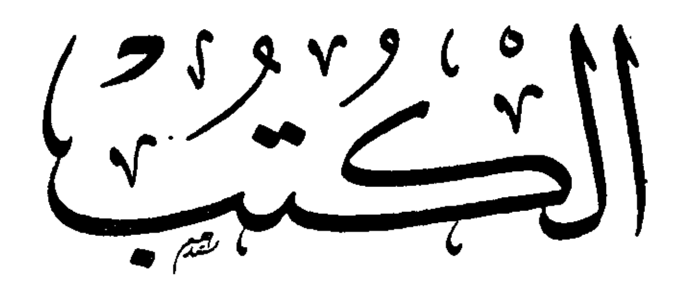
****

زائران عظيمان لمصر :

استقبلت مصر فى هذا الشهر بعظيم الحفاوة وبالغ الإكرام حكومة وشعباً ، زائرين عظيمين : أولهما ملك ليبيا ، فكان من نتيجة زيارته زيادة التقارب والتآلف ، ويوشك بعد ذلك أن تنضم ليبيا إلى جامعة الدول العربية .

والثانى : العقيد أديب الشيشكلى زعيم النظام القائم الآن فى الدولة الشقيقة سوريا ، فكان من نتيجة زيارته التفاهم بين مصر وسوريا على أهم مايهم البلدين والعروبة من وسائل الاتصال والتعاون على النهوض بالقومية العربية وتنظيم قواها الادبية والاقتصادية والدفاعية حتى تبلغ إن شاء الله المكانة اللائقة بها بين الامم . وكنا نود أن نسهب فى تفاصيل هاتين الزيارتين لو أن مجلة شهرية كمجلة الازهر يحتمل نطاقها هذا الواجب .

وسنشير بعد الآن إلى ما سيكون من نتائج لهذه الزيارة فى تطور العلاقات بين مصر وجارتيها وتعاونها معهما على ما فيه الخير والمصلحة .



(طبقات فحول الشعراء)

لمحمد بن سلام الجمحى

محمد بن سلام الجمحى (١٣٩ - ٢٣١) إمام من أئمة العربية وأدبها وتاريخها وأنسابها . أخذ العلم عن فحول أهله الذين نبغوا فى دولة بنى أمية ، ولا سيما علماء البصرة منهم ، وكان من مفاخر صدر دولة بنى العباس ، وأخذ عنه كبار أئمة الأمة ممن عاصروه . وهو ينتمى إلى ولاء بنى جمح ، وولاؤه فيهم لقدامة بن مظعون الجمحى ، وكان أبوه سلام من شيوخ العلم ، وأخوه عبد الرحمن من رواة الحديث ، وابنه وابن أخته كل هؤلاء كانوا من العلماء .

وكتاب « طبقات الشعراء » سبق إلى طبعه المستشرق يوسف هل سنة ١٩١٣ - ١٩١٦ عن مخطوطتين للشنقيطى نقلتا عن أصل فى مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة بالمدينة لعله مختصر أو ناقص ، ثم وقع فى يد السيد أمين الخانجى الكتبى دشت اطلع عليه الأديب الضليع المحقق الأستاذ محمود محمد شاكر قبل أكثر من ربع قرن وجمع منه أشتاتا من أصل قديم لهذا الكتاب القديم كانت جيدة الخط حسنة الضبط محررة اللفظ يقل فيها الخطأ ، ويظن الأستاذ محمود شاكر أنها ترتد إلى القرن الخامس الهجرى ، وما وجده منها أوراق متتابعة أو مفرقة من أول النسخة وأوسطها وآخرها ، فنقل منها نسخة بخطه وبقيت من آخرها أوراق لم ينقلها لعلها لا تتجاوز عشرين ورقة ، ثم تصرف السيد أمين الخانجى بالأصل العتيق فلا يعلم أين هو الآن ، ولكن النسخة التى نقلها عنه الأستاذ محمود شاكر ، مضافاً إليها علمه وبصيرته النافذة فى الأدب والشعر ، ومقارنته هذا الأصل بكل ما نقله المؤلفون كأبى الفرج الاصبهانى فى الأغانى والمرزبانى فى الموشح عن طبقات الشعراء للجمحى ، قد رد إلينا هذا الكنز النفيس بأكمل ما يمكن أن تصل إليه يد العلم والتحقيق .

فطبقات فحول الشعراء للجمحي في طبعتها الجديدة التي صدرت في هذا الشهر من دار المعارف بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر في أكثر من سبعمائة صفحة كبيرة تمتاز بجودة الأصل الذي اعتمد عليه في الإخراج ، وما فيه من زيادات على الأصل المختصر المحفوظ بمكتبة عارف حكمة بالمدينة ، ثم تمتاز برجوع الأستاذ محمود شاكر إلى أمهات كتب الأدب القديمة التي نقلت عن طبقات الجمحي ، فقارن المنقول فيها بالأصول الموجودة ، وتدارك النقص بما حفظته تلك النقول من زيادات . وقد وهب الله الأستاذ محمود شاكر روحاً تتجاوب مع أرواح شعراء الجاهلية وصدر الإسلام في لغتهم وديباجتهم والمعاني التي يتألق وميضها في شعرهم البليغ ، فهو يفهم عنهم كل ما في كتاب طبقات الشعراء للجمحي من نصوص كما يفهم أحاسيس نفسه وخطرات فكره وعواطف قلبه ، وليس هذا بكثير على شارح قصيدة الشماخ الغطفاني التي يصف بها القوس العذراء ، بقصيدة تعد آية من آيات البعث والإحياء للمعاني العربية الأصيلة بلغتها التي تستمد من لغة الإعجاز [1] .

أما شرح الأستاذ محمود شاكر لطبقات الشعراء فإنه بذاته كتاب آخر نفيس ، قد حفل بوجوه التحقيق ، ولآلىء الفوائد ، ودقيق الملاحظات . خذ لذلك مثلا قول ابن الزبعرى في يوم أحد (ص ١٩٩) :

ليت أشياخي ببدر شهدوا ضجر الخزرج من وقع الأسل

حين ألقت (بقناة) بركها واستحرّ القتل في عبد الأشل

فإن جميع كتب الأدب تحرف فيها البيت الثاني بلفظ « حين ألقت بقباء بركها » وقباء لم ينشب فيها القتال يوم أحد . والذي يقوله ابن هشام (٣ : ٦٦) ان قريشاً أقبلوا حتى نزلوا بجبل بطن السبخة من (قناة) مقابل المدينة . فترجح أن تكون (بقباء) محرفة عن (بقناة)

وقول ابن الزبعرى بعد ذلك (ص ٢٠٠) :

فقتلنا النصف من سادتهم وعدلنا ميل بدر فاعتدل

يتحرف في كتب الأدب بـ (فقتلنا النصف) و (فقتلنا الضعف) ، قال الأستاذ محمود شاكر : إن المشركين لم يقتلوا يوم أحد نصف المقاتلة ، فإن من شهد القتال من المسلمين ٧٠٠ قتل منهم ٧٤ من الشهداء . ولا قتلوا ضعف ما قتل المسلمون يوم بدر من المشركين فإن عدة

---

(١) انظر مجلة (الكتاب) جزء جمادى الأولى ١٣٧١

قتلى بدر من المشركين ٧٠ أو ٧٤ وإنما أراد ابن الزبعرى أنهم قتلوا من المؤمنين فى أحد مثل الذى قتله المسلمون منهم فى بدر فانتصفوا منهم ، والنصف العدول والانتصاف .

وفى شرح الأستاذ محمود شاكر لقول جزء أخى الشماخ يرثى عمر بن الخطاب (ص١١١)

وما كنت أخشى أن تكون وفاته بكفى سبنتى أزرق العين مطرق

يقول : وقدماء علمائنا يقولون فى النمر يشبه أن يكون سمى سبنتى لجرأته . وأنا أرى أنه مأخوذ من الإسبات وهو أن تطرق الحية فلا تتحرك . والمسبوت العليل إذا بقى كالنائم يغمض عينيه فى أكثر أحواله ، وذلك صفة النمر . ولا معنى للجرأة هنا فإنه أراد الذم وسائر البيت دال عليه .

وقول ابن رواحة (ص ١٨٦) وقد أخذ بزمام ناقة النبى ﷺ فى عمرة القضاء :

خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا ، فكل الخير مع رسوله

نحن ضربناكم على تأويله كما ضربناكم على تنزيله

نسبه ابن هشام لعمار بن ياسر مستدلا بأن المشركين لم يقروا بالتنزيل ، وإنما يقتل على التأويل من أقر بالتنزيل ، ثم تهاوى المؤلفون على سقطة ابن هشام كما فعل الشيعى فى كتاب وقعة صفين ص٣٨٦ . قال محمود شاكر : ليس المراد بالتأويل فى البيت تفسير الكلام الذى تختلف معانيه ، بل التأويل هنا هو ما يؤدى إليه نبأ الله لنبيه ومصير المؤمنين إلى ما وعدهم به كما فى قوله تعالى ، هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله ، . وفى قول ابن رواحة إشارة إلى ما كان فى عمرة الحديبية ـ قبل عمرة القضاء بسنة ـ ورؤيا النبى ﷺ أنه دخل البيت آمنا وأخذ مفتاح الكعبة ، فلما رجع بصلح الحديبية كره ذلك من كرهه فأنزل الله ، لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق . . . . ، فمن عام قابل أمر رسول الله أصحابه أن يعتمروا عمرة القضاء . . . فهذا هو التأويل ، وما صارت إليه موعدة الله لرسوله .

وفى ص ٣١٩ صحح قول أبى الفرج فى الأغانى (٨ : ٦) : ، قال محمد بن سلام : ورأيت اعرابيا من بنى أسد ، فقال الأستاذ محمود شاكر : ولم أعرف جريرا هجا بنى أسد ، والصواب ، بنى أسيد ، بتشديد الياء على التصغير . ثم أورد الأدلة على ذلك ، وصحح أخطاء أخرى فى الأغانى .

وفى ص ٣٩٠ رد على الجاحظ فى الحيوان ٦ : ١٧٨ - ١٧٩ قوله ، ويقال للرجل المفرط الطول : يا ظل النعامة ، واستشهد الجاحظ بقول جرير :

فضح العشيرة يوم يسلح قائما ظل النعامة شبة بن عقال

فقال الأستاذ محمود شاكر : وقـــول الجاحظ فى إفراط الطول ليس بشيء ، فالنعامة طويلة العنق منتفخة الوسط دقيقة الساقين وظلها لا يطول . وربما كان له وجه لو قال إنه أراد قبح المنظر . وأرى أن النعامة هنا (أى فى شعر جرير) خشبتان ينصبهما الربيئة أو الصائد فى ربد الجبل ويلق عليهما الثمام ليستظل به من الشمس أو المطر ، وهى خليقة أن تكون مختلطة الظل قبيحته . والجاحظ جرىء قادر ، ولكنه يخطىء الخطأ يتوارثه الناس من بعده ثقة بعقله .

وفى ص ٣٩٥ انتقد مصححى دار الكتب لتحريفهم فى الأغانى ٨ : ٨٤ قول الفرزدق :

سقى أريحاء الغيث ، وهى بغيضة إلينا ، ولكن كى ليسقاه هامها

فزعموا أن « كى ليسقاه » تحريف . ويقول الأستاذ محمود شاكر : هو صواب محض جاء فى الشعر (واستشهد بشعر لابن قيس الرقيات) .

وفى ص ٤٦٨ صحح لابن سلام الجمحى ما رواه عن مرور الفرزدق بذى الرمة وهو ينشد :

أمنزلتى مى ســلام عليكما هل الأزمن اللائى مضين رواجع

فولى الفرزدق وهو ينشد :

ودوية لو ذو الرميمة رامهـا بصيدح أودى ذو الرميم وصيدح

فقال الأستاذ محمود شاكر : وقد روى فى ديوان الفرزدق ١٤٧ أن الفرزدق مر به وهو ينشد فى المربد :

أمنزلتى مى ســلام عليكما على النأى والنائى يود وينصح

قال : وهذه الرواية أشبه بالصواب ، لأنها هى التى ذكر فيها ناقته صيدح فذكرها الفرزدق فى بيته .

هذه نماذج من تحقيقات الأستاذ محمود شاكر وله مئات من أمثالها فى شرحه على طبقات الشعراء لابن سلام . وقد ألحق به فهرساً للأعلام والقبائل ، وآخر للأماكن ، وثالثاً للغزوات والأيام ، ورابعاً لقوافى الشعر ، وخامساً للأرجاز ، وسادساً لشعراء الطبقات على حروف المعجم ، ثم فهرست الكتاب . ولو أن كل أصل من أصول الأدب والعلم فى تراث العروبة والإسلام يقيض له من يعنى بتزيين المكتبة العربية به مصححاً محققاً مخدوماً مشروحاً كما فعل الأستاذ محمود شاكر بطبقات الشعراء لكان ذلك بعثاً لذخائر الأمة وإحياء لثمرات عقولها .

الى الاسلام من جديد

هذا الكتاب حلقة من سلسلة اطلعنا حتى الآن على ست عشرة حلقة منها ، فى بعضها بحوث اقتصادية لطيفة كتبت بلغة الخطابة ، قارن فيها المؤلف نظام الإسلام الاجتماعى والاقتصادى بغيره من الانظمة ولا سيما الشيوعية والرأسمالية فأحسن فى المقارنة وأجاد على قدر ماوسعه علمه . وتعرض فى بعض هذه الحلقات لما لا يفهمه ولا يعلمه من علوم الشريعة الإسلامية فسقط فى هاوية من الكفر لا يقيله منها إلا الرجوع إلى حظيرة الملة بالتوبة إلى الله عز وجل من التعرض لما يجهله . ونضرب المثل لذلك برسالة (الصلاة كما فرضها الله فى القرآن) وهى فى ٦٢ صفحة ذهب فيها إلى أن فريضة صلاة الصبح غير فريضة صلاة الفجر ، وإلى أن صلاة القيام (فرض) يومى دائم ، وأن صلاة الظهر ليست من فرائض الصلاة الإسلامية ، وأن صلاة المغرب أربع ركعات لا ثلاث ، وصلاة الفجر أربع ركعات ، وصلاة الصبح أربع ركعات ، وفريضة القيام أربع ركعات ، وفريضة الجمعة أربع ركعات ، وأن من الفروض نافلة الليل وهى أربع ركعات ، وأن سجدة التلاوة أربع . وهذه الصلوات الرباعيات المفروضة فى زعمه تصلى مثنى مثنى . وقد أصيب هذا المؤلف بهذا الخلل القادح فى دينه لأنه ينكر سنة رسول الله ﷺ ويبغضها ويحاربها ويجادل فى صحتها بلا علم ولا دراسة ولا اطلاع . وفى كتابه الجديد « إلى الإسلام من جديد » نموذج من هذا الهذيان . ولا ندرى هل هو كافر بالتاريخ كما هو كافر بالسنة المحمدية ، فينكر - مثلا - ما يعلمه الناس عن الاسكندر المقدونى وسقراط وسولون ويوليوس قيصر وقسطنطين وشارلكان وشارل مارتل والحروب الصليبية والأخبار المدونة عند الإنجليز عن تاريخ ملوكهم وتوسعهم الاستعمارى ، والأخبار المدونة عند الفرنسيين عن القديس لويس وجاندارك وقيام الجمهوريات الفرنسية وسقوطها . فإن كان كافراً بكل ما تعرفه الأمم عن ماضيها فإننا ندعو له بالشفاء من هذا المرض الذى أصيب به وحده . وإن كان مصدقا بتاريخ البشر ، وما دونته الأمم من أحداث ماضيها وأقوال عظمائها وأعمالهم ، فإن ما عند المسلمين من سنة نبيهم أوثق صحة وأعظم تمحيصاً وأكثر تحقيقاً من كل ما بذلته أمم الأرض من تحقيق فى تدوين التاريخ . ومن فنون الجنون أن يكون الرجوع « إلى الإسلام من جديد » قائما فى مذهب مؤلف هذا الكتاب على أساس إنكار سنة

رسول الله ﷺ بدعوى الاكتفاء بالقرآن ، ولو كان فهمه للقرآن سليما لعلم أن السنة من أعظم ما أقره القرآن ، والذى ينكر إقرار القرآن للسنة لا يجوز له هو أن يثق بفهمه للقرآن ، فما بالك بحكم الناس عليه . ولا ندرى هل إنكاره للسنة المحمدية متفرع عن اعتقاده بأنه لو كان معاصراً للنبى ﷺ لكان غير مطيع له فيما صح صدوره عنه وأمره به ، أم أنه يقف هذا الموقف من أوامر رسول الله ونواهيه لإقحامه نفسه من الهندسة إلى علم لا معرفة له به .

ولعل القارىء يحب أن يعرف من هو هذا المؤلف الذى أسقط عن المسلمين صلاة الظهر ، وفرض لهم فرائض غير التى عرفها المسلمون من نبيهم ﷺ ، وأحدث لهم هذا التغيير فى هيئاتها وأعداد ركعاتها بهندسة تنافى فقه الإسلام وما تواتر من شريعته وعبادته .

إنه مساعد كبير مهندسى التليفونات الأستاذ نجيب متولى ، وكان فى الحلقات السالفة من سلسلة مؤلفاته يخجل من المسلمين أن يواجههم باسمه ، فلما ذاع الآن فى أقطار الأرض اسم قائد حركة الإصلاح فى مصر أباح منكر السنة المحمدية لنفسه أن يدخل تعديلا على اسمه كالتعديل الذى أدخله على فرائض الصلاة الإسلامية فوضع على كتابه الجديد اسم (محمد نجيب) ، وهذا التعديل يسمى « تدليساً » فى اصطلاح علم السنة الذى ينكره هذا المؤلف . أما اسم كتابه الجديد (إلى الإسلام من جديد) ، فقد استعاره من كتاب مشهور تكرر طبعه فى مصر بهذا العنوان وهو من تأليف أحد مفاخر مسلمى باكستان الأستاذ أبى الحسن على الحسنى الندوى الذى كان ضيف مصر منذ عهد قريب ، غير أن كتاب الأستاذ أبى الحسن الندوى يدعو للإصلاح والخير ، وقد أصبح اسم كتابه من أسماء الأضداد بعد إطلاقه الآن على كتاب يدعو صاحبه إلى إماتة سنة رسول الله ﷺ وتعطيل العمل بها .

فهارس البخارى

لم تعتن أمة على وجه الأرض بتحقيق ما صدر عن إنسان من أقوال وأفعال ، ولا بتمحيص ما نسب إلى عظيم من عظماء التاريخ ، بل لم تبذل أمة من الجهود الكريمة الحكيمة للتثبت من صحة أى جانب من جوانب تاريخها وأحداث ما فيها ، كما اعتنى أصحاب رسول الله ﷺ بضبط ما سمعوا ورأوا من أقوال النبى محمد ﷺ وأفعاله وأحواله ،

وكما محص التابعون لهم بإحسان روايات أساتذتهم من الصحابة وضبطوها وحفظوها وأدوا أماناتها لمن تلاهم من تلاميذهم إلى أن دون الزهري ثم مالك وطبقتهما ذلك التراث العظيم وهو لا يزال غضا كما قطف، صافيا كما خرج من ينبوعه، فكان تدوين مالك في الموطأ عن نافع ما حدثه به عالم الصحابة عبد الله بن عمر بن الخطاب، يكاد يشبه تناول الأمين الأمانة من أمين آخر كما يتداول الناس الأشياء من يد إلى يد سليمة كاملة نقية يرضى عنها الله ورسوله. وقد سن الصحابة والتابعون وتلاميذهم لهذه الأمة سنة في تحرى العدالة والضبط عند من يأخذون عنه سنة نبيهم ﷺ لأنهم مؤمنون بأنها دين وأن من الدين التثبت من صحة صدورها كما هي عن صاحب هذا الدين الذي توعد من يكذب عليه متعمداً بأن يتبوأ مقعده من النار.

ومن أحفل صحاح الحديث النبوي وأكثرها عناية بالمتن والسند، صحيح الإمام البخاري، وكان أئمتنا السابقون يحفظونه بأسانيده ويحفظون غيره من أمهات دواوين السنة فلا يحتاجون إلى فهارس تدلهم على مواضع الحديث في هذه الكتب، إلى أن ضعف الحفظ فعنى العلماء بتأليف الفهارس وكانوا يسمونها (الأطراف) ومنها كتاب الأطراف للحافظ المزي في ثمانية مجلدات وأطراف الصحيحين لابن خلف الواسطي، وأطراف الكتب الأربعة (أي السنن) للحافظ ابن عساكر، وأطراف العشرة للحافظ ابن حجر، وآخرها ذخائر المواريث لعبد الغني النابلسي. ومن الفهارس مفتاح الصحيحين لأحد علماء الترك ونبراس الساري لأحد علماء الهند، وحتى المشتغلون بالعلوم الإسلامية من المستشرقين ألفوا مفتاح كنوز السنة، وتقوم (اليونسكو) الآن بالإنفاق على طبع فهرس لجميع ألفاظ السنة ومواضع وجودها في كتب الحديث وقد صدر منه في ليدن بهولنده ثمانية عشر مجلداً ولا يكاد يبلغ نصف الكتاب.

وأمامنا الآن كتاب على جيد خاص بأحاديث صحيح البخاري ألفه فضيلة الأستاذ المحقق المتقن الشيخ رضوان محمد رضوان وقسمه إلى أربع فهارس: الأول للأحاديث المسندة وهي معظم الكتاب فأورد الحديث القصير بتمامه، وأخذ من الطويل قطعة منه تدل على الباقي ثم ذيله باسم راويه من الصحابة وذكر عقب ذلك مواضع تكرير الحديث في الكتاب وقد تبلغ في بعض الأحاديث سبعة مواضع أو ثمانية أو تزيد. وهذا الفهرس في ٤٤٠ صفحة كبيرة. وبعده فهرس للأحاديث المعلقة نحا فيه نحو ما صنعه في الفهرس الأول، والفهرس الثالث للآثار. والرابع لكتب صحيح البخاري وأبوابه التزم فيه أرقام الأجزاء والصفحات

فى الطبعة الأميرية سنة ١٣١٤ والطبعة التى أخذت عنها بالتصوير الشمسى . وإلى جانب ذلك دل على أرقام أجزاء وصفحات فتح البارى طبعة الخشاب سنة ١٣٠٨ ، وشرح الكرمانى طبعة سنة ١٣٥٢ ، وشرح القسطلانى . وبهذه الفهارس المتممة للفهرس الأول بلغت صفحات الكتاب ٦٠٠ صفحة من القطع الكامل فجزى الله المؤلف بالمثوبة والرضا على ما بذل من جهد وتعب فى إتقان عمله تيسيراً للباحثين وخدمة لسنة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم .

هواتف إسلامية — للشيخ إبراهيم على أبو الخشب

هى مجموعة من الهواتف الصاخبة عرضت لفضيلة الأستاذ المؤلف فى أوقات مختلفة وظروف متنوعة فانساق فى تسجيلها كما ينساب الماء فى النهر هادئ السير متئد الحركة والانتقال . وقد عالج فيها بعض الموضوعات الدينية أو المشاكل الإسلامية فصورها بريشة الأدب لأنه أصبح الوسيلة العظمى فى لغة التخاطب للعقول الناضجة والأذهان المستنيرة . فجاء الكتاب فى نحو مائتى صفحة من القطع الكبير ، فلفت إليه أنظار القراء والمتأدبين .

السجل الثقافى لسنة ١٩٥٠

اعتادت إدارة التسجيل الثقافى منذ ثلاث سنين إصدار كتاب سنوى حافل بعنوان (السجل الثقافى) تؤرخ فيه حركة الطباعة والنشر والصحافة والمحاضرات والهيئات والمؤتمرات والتعاون الثقافى والمهرجانات والمسابقات والمتاحف والحفائر والمعارض والمسرح والسينما . وقد صدر عنها الآن المجلد الثالث من هذه السلسلة التى تعد مرآة لنهضة مصر فى العلم والأدب والفن وكل ما يتصل بالثقافة من إنتاج فكرى ونشاط أدبى فى سنة ١٩٥٠ ، فلاحظنا فيه تقدماً على أخويه السابقين بالتوسع فى بعض الأبواب ، وإضافة أبواب جديدة لم يتسع لها السجل فى سفريه السابقين ، وتقديم نبذة موجزة بين يدى كل باب تشرح ما يحتويه الباب وطريقة تسجيل المادة فيه حتى يسهل الأمر على من يريد أن يتصفح السجل فى عمومه وشموله قبل أن ينتقل إلى تفصيل القول فى كل باب من أبوابه .

وقد دعا القائمون على هذا العمل العلمى الشاق أهل الفضل من رجال الفكر والثقافة لأن يعاونوهم فى استكمال ما قد يستشعرونه فيه من نقص ، وذلك مما يقوى الرجاء فى أن يطرد التوسع فى أسفار السجل الآتية مع إطراد التقدم الثقافى فى المجتمع المصرى ، حتى يكون أصدق مرآة له فى الحاضر والمستقبل .

معجم غريب القرآن

مستخرجا من صحيح البخارى

قال الجلال السيوطى فى الإتقان عند كلامه على غريب القرآن : « إن أولى ما يرجع إليه فى ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه ، فإنه ورد عنهم ما يستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة . وما ورد عن ابن عباس من طريق ابن أبى طلحة خاصة ، فإنها من أصح الطرق ، وعليها اعتمد البخارى فى صحيحه » . ونقل السيوطى فى موضع آخر من الإتقان قول الإمام أحمد بن حنبل « بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا » . قال الحافظ ابن حجر وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب الليث بن سعد رواها عن معاوية بن صالح عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس . وهى عند البخارى عن أبى صالح كاتب الليث وقد اعتمد عليها فى صحيحه كثيرا فيما يعلقه عن ابن عباس . وقال قوم : لم يسمع ابن أبى طلحة من ابن عباس التفسير ، وإنما أخذه عن مجاهد وسعيد بن جبير . قال ابن حجر : بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير فى ذلك .

ولما اطلع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى على هذه الحقائق ، أراد أن يجمع ما يمكن جمعه من صحيفة ابن أبى طلحة بعد أن أصبحت مفقودة فعكف على صحيح البخارى متقصيا كلماته كلمة كلمة ، فتصيد منها الحرف الغريب من القرآن وأرصده فى جزازة ، حتى إذا أوفى على الغاية من الاستقصاء والتحرى وتكاملت الجزازات أقبل عليهن يرتبهن وينظمهن على أوائل حروف المادة التى منها اللفظة الغريبة وبوبها حتى خرج له من ذلك هذا المعجم جامعاً لكل ما جاء فى صحيح البخارى من تفسير الغريب ، بعضه من صحيفة ابن أبى طلحة عن ابن عباس وبعضه عن غير ابن عباس . والبخارى لم يرو فى صحيحه كل الصحيفة وإنما روى ما يتعلق بشرح معنى اللفظ الغريب . وعلى كل حال فهذا المعجم لغريب القرآن يعد من أقدم معاجم العربية ، وقد جاء فى ثلاثمائة صفحة من حجم صفحات هذه المجلة ، وعنيت بنشره دار إحياء الكتب العربية بحروف جلية مضبوطة . فنلفت إليه الأنظار .

معضلات الاقتصاد وحلها فى الاسلام

هى إحدى رسائل المفكر الإسلامى الكبير أبى الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية فى باكستان ، استعرض فيها معضلات الاقتصاد وذكر كيف أن الاقتصاديين بالغوا فى تعقيدها وهولوا فى أمرها ، ولو رجعوا فى دراستها وحلها إلى أساليب الفطرة على المنهج الإسلامى ، لتمكنوا من اكتشاف سبيل الإنسانية إلى السعادة . وقد أورد فى هذه الرسالة ما يقوله أهل المذاهب الاقتصادية المختلفة عن معضلات الاقتصاد وطريقتهم فى حلها وقارنها بأساليب الإسلام مبينا أنه هو أسلوب الفطرة وهو الأليق بالإنسانية ، وأن الآخرين أوجدوا المعضلات وضخموها بسبب المذاهب التى يزعمونها لحل تلك المعضلات .

وكانت الرسالة مؤلفة باللغة الأوردية ، ونشرت بها وبالعربية لأول مرة فى باكستان ، ثم أعيد نشرها الآن فى مصر ، بعناية لجنة الشباب المسلم ، مع تحسين فى أسلوبها العربى ، فجاءت فى ٧٦ صفحة من القطع الصغير . فلفت الأنظار إليها .

حقوق المرأة فى الاسلام

كتيب لطيف بقلم الفاضل الأستاذ عبد القادر شيبة الحمد بناه على الآية القرآنية « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » فأفاض فى تفاصيل حقوق المرأة وامتيازاتها فى الإسلام ، وأن ذلك كان نعمة لها فى ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وهى قريرة العين به ، حتى انطلق أقزام العقائد من بلاد الغرب لتفريق الصفوف ، وتمزيق الشمل ، فاستطاعوا بوسائلهم الخبيثة أن يصلوا إلى أعماق ما يريدون ، وارتفعت أصوات فى كل بلد تردد أفكار المحتلين ورغباتهم ، وتميزت من هذه الأصوات أصوات تحمل فى صداها ثورة لنساء الإسلام يرددها أدعياء الإسلام ليفسدوا على الأمة مجتمعها وعلى نساء المسلمين هناءهن وسعادتهن .

والرسالة على إيجازها حافلة بالمعلومات القيمة والآراء الصحيحة والنصيحة للمرأة المسلمة والأمة كلها ، وهى فى نحو مائة صفحة صغيرة . فنحث الشباب من أبناء المسلمين وبناتهم على تدبر ما فيها من حقائق .

العالم الإسلامي في شهر

تعديل الوزارة المصرية

عدلت الوزارة المصرية يوم ٢١ ربيع الأول (٩ ديسمبر) فتولى وزارة الخارجية الدكتور محمود فوزى سفيرنا فى لندن بدلا من الأستاذ فراج طايع ، وتولى وزارة التجارة والصناعة الدكتور حلمى بهجت بدوى وكيل البنك العقارى بدلا من الدكتور محمد صبرى منصور الذى عين وزيراً للتموين . وتولى وزارة الشئون البلدية والقروية الأستاذ وليم سليم حنا الأستاذ بكلية الهندسة بدلا من الأستاذ عبد العزيز على الذى عين حارساً على أموال الملك المخلوع . وتولى وزارة الشئون الاجتماعية الدكتور عباس عمار مدير اليونسكو فى مصر بدلا من الأستاذ فؤاد جلال وزير الشئون الاجتماعية الذى تولى وزارة الإرشاد القومى بدلا من الأستاذ فتحى رضوان الذى عين وزيراً للدولة وتولى وكالة الخارجية إلى أن يحضر الأستاذ محمود فوزى من لندن.

ومما لفت النظر فى هذا التعديل أن كتاب استقالة الوزارة افتتح ببسم الله الرحمن الرحيم ، وأن الذين رشحوا لتعيينهم فى الوزارة الجديدة كانت دعوتهم بالتليفون فتلاقى الخارجون والداخلون للتفاهم على التعديل الوزارى .

سقوط دستور ١٩٢٣

أذاع الرئيس اللواء محمد نجيب من منزله بحلمية الزيتون فى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة من صباح الأربعاء ٢٢ ربيع الأول (١٠ ديسمبر) بياناً تاريخياً أعلن فيه باسم الشعب المصرى سقوط دستور سنة ١٩٢٣ لأن البلاد كانت قبل قيام الجيش بثورته قد وصلت إلى حال من الفساد والانحلال أدى إليها تحكم ملك مستهتر ، وقيام حياة سياسية معيبة ، وحكم نيابى غير سليم ، فبدلا من أن تكون السلطة التنفيذية مسئولة أمام البرلمان كان البرلمان هو الخاضع لتلك السلطة الخاضعة لملك غير مسئول ، وكان ذلك الملك يتخذ من الدستور مطية لأهوائه ، ويجد فيه من الثغرات ما يمكنه من ذلك بمعاونة الذين كانوا يقومون بحكم البلاد .

والآن بعد أن بدأت حركة البناء وأصبح لزاما أن نغير الأوضاع التى كادت تودى بالبلاد التى يسندها ذلك الدستور المليء بالثغرات ، ولكى نؤدى الأمانة التى وضعها الله فى أعناقنا لا مناص من أن نستبدل بذلك الدستور دستوراً جديداً يمكن للأمة أن تصل إلى أهدافها حتى تكون بحق مصدر السلطات وإن الحكومة آخذة فى تأليف لجنة تضع

مشروع دستور جديد يقره الشعب ويكون منزها عن عيوب الدستور الزائل .

وختم الرئيس بيانه مناشداً الجميع بأن ينسوا أشخاصهم ، وأن يبذلوا من أنفسهم ما يضمن للوطن القوة والسعادة والمجد ، متحدين متكاتفين ، فلا مصالح شخصية ، ولا أهواء حزبية بعد اليوم .

قضية فلسطين والأمم المتحدة

دفعت بريطانيا بممثلى ثمانى دول من الدول المحايدة ،كهولندا والدانمرك والنرويج وكندا إلى تجديد الاقتراح فى هيئة الامم المتحدة بدعوة إسرائيل والدول العربية إلى الدخول فى مفاوضات مباشرة للاتفاق على مسألة فلسطين . وعقب تقديم الاقتراح وقف مندوب إسرائيل فأيده . ثم وقف السيد أحمد الشقيرى الامين العام المساعد للجامعة العربية فقال: « إن هذا الاقتراح يقضى على القرارات السابقة التى اتخذتها الهيئة بعودة اللاجئين العرب إلى وطنهم وتدويل القدس وغير ذلك مما ضربت به إسرائيل عرض الحائط . وفى الوقت الذى يعلم فيه اللاجئون العرب أنهم لن يعودوا إلى ديارهم ، ويرفض فيه اليهود إطاعة قرارات الهيئة ، يعرض علينا هذا الاقتراح العجيب الذى لا يهدف إلى السلام . إن العرب إذا فقدوا فلسطين كلها بسبب محاباة الغرب لأصدقائه (وسادته) من اليهود فإن خسارة فلسطين لا تعد إلا جزءاً تافهاً من العالم العربى الذى يمتد من الدار البيضاء إلى بغداد ، ولكن على إسرائيل والدول الغربية أن تواجه سبعين مليونا من العرب لن ينسوا هذه المأساة إلى الابد . ولا يستطيع مخلوق أن يتحكم فى المستقبل أو يقرر مصاير البشر كما يريد . وإن العاصفة العربية المقبلة ستكون بمعونة الله عاتية وستقتلع كل شىء يعترضها فى طريقها » .

وشعر ممثلو الدول العربية والإسلامية بأن الدول الضالعة مع اليهود جادة فى إصدار قرار من اللجنة السياسية بالموافقة على اقتراح الدول الثمان المحايدة ، فقامت سوريا فى اللحظة الاخيرة بمحاولة لمنع أخذ الأصوات على ذلك ، إذ اقترحت أن تعرض قضية فلسطين على محكمة العدل الدولية . وينهض الاقتراح السورى على نقط أربع تريد سوريا أن تعرضها على محكمة العدل وهى :

١ - هل من حق اللاجئين الفلسطينيين العودة إلى أوطانهم الأصلية ومزاولة حقوقهم المدنية ومصالحهم المالية ؟

٢ - هل من حق إسرائيل إنكار هذه الحقوق ؟

٣ - هل من حق الدول التى لا يتبعها اللاجئون أن تفاوض من أجل هذه الحقوق ؟

٤ - هل لأعضاء الأمم المتحدة الحق القانونى فى الاتفاق على هذه الحقوق ؟

ومن عجيب التصرف الصادر عن الدول الممثلة فى اللجنة السياسية لهيئة الأمم - وهى تعد زعيمة الحضارة البشرية فى هذا العصر - أنها لم تبال بهذه الأسئلة الأربعة الواضحة وضوح الشمس ، وكان عندها الجرأة العجيبة بأن أجازت اقتراح الدول الثمان التى يسمونها « المحايدة » ورفضت الاقتراح السورى باستفتاء محكمة العدل فى هذه الأسئلة الدامغة .

لقد صدق السيد أحمد الشقيرى سا:ة قال إن الغرب يحابى أصدقاءه (وسادته) من اليهود فى قضية فلسطين ، وإن الغرب يقدم للتاريخ دليلا جديداً على هذه الحقيقة .

ولما انعقد مجلس النواب الأردنى فى اليوم التالى لخطبة أحمد الشقيرى فى الأمم المتحدة اتخذ قراراً باستنكار موقف بريطانيا فى الأمم المتحدة من قضية فلسطين واللاجئين العرب وأرسل برقية احتجاج إلى الحكومة البريطانية باسم جميع النواب الأردنيين على ذلك الموقف الذى ينطوى على الاستهتار بالعدالة وحقوق الإنسان ، ثم قرر المجلس تحديد جلسة خاصة لمناقشة سياسة بريطانيا فى الأردن .

وفى ساعة الظهر من يوم الاثنين ٢٧ ربيع الأول (١٥ ديسمبر) استدعى وزراء خارجية الحكومات العربية - فى جميع عواصمها - ممثلى بريطانيا المعتمدين لديهم وقدموا لكل منهم شبه احتجاج شديد اللهجة على موقف بريطانيا الجديد من قضية فلسطين والتحيز الظاهر من وفدها فى الأمم المتحدة إزاء الصهيونيين فى القرار الذى أصدرته اللجنة السياسية للهيئة بدعوة العرب وإسرائيل للدخول فى مفاوضات مباشرة ، غير مبالية بقرارات الأمم المتحدة السابقة بشأن إعادة اللاجئين إلى ديارهم ، وتعويضهم عن ممتلكاتهم ، وتدويل مدينة القدس . وقد اتهمت الحكومات العربية فى مذكرة الاحتجاج الحكومة البريطانية بأنها هى التى وضعت القرار ودفعت به إلى الدول الثمان التى تقدمت به باسمها ، ثم إنها هى التى قامت بالضغط السياسى على الكثير من الحكومات لتوافق على هذا القرار الذى جاء مخيباً لآمال الحكومات العربية فى الأمم المتحدة ، وقد تجنبت فيه الأمم المتحدة مبادىء ميثاقها وعدالة القضية المعروضة عليها .

وإن بريطانيا بتحيزها هذا للصهيونيين أرادت أن تطعن الحكومات والشعوب العربية طعنة جديدة وأعلنت الحكومات العربية فى ختام مذكرتها أنها غير مستعدة إطلاقا لتنفيذ القرار الظالم ، وتطلب من الحكومة البريطانية تصحيح الوضع عند عرض موضوع فلسطين من جديد على الجمعية العمومية للأمم المتحدة .

قطارات الرحمة

كان الرئيس اللواء محمد نجيب قد قال بحماسة بالغة فى جمعية الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية : « من العار أن نطالب المعونة للاجئين العرب ممن كانوا سبباً فى النكبة التى حلت بهم » .

والرئيس محمد نجيب إذا قال كلمة الخير بادر إلى التفكير فى تحقيقها ، وقد كان تحققها بمشروع (قطارات الرحمة إلى اللاجئين من عرب فلسطين) ، وقد ساهمت فى تنفيذ هذا المشروع البنوك والمصارف المالية وكل من يقدر على المساهمة فى هذا العمل الإنسانى . وما وصل خبر هذا المشروع إلى البلاد العربية الشقيقة التى تؤوى ألوفا من هؤلاء اللاجئين المشردين عن وطنهم المحبوب ظلما وعدوانا حتى شرعت فى اقتفاء أثر مصر فى القيام بمثل هذا العمل العظيم الذى سيتولاه فى مصر الجيش المصرى من بداية العمل إلى نهايته دون حاجة إلى اشتراك الكويكرز التابعة للأمم المتحدة كما اقترح ذلك بعضهم ، ودون حاجة أيضاً إلى اشتراك الهيئات النسائية كمبرة محمد على وغيرها ، فالجيش المصرى وحده هو الذى سيتولى هذا الأمر فى مصر وسيعمل على توفير الأغذية والكساء والأغطية للاجئين وعلى جمع أدوات البناء ليتولى اللاجئون بأنفسهم إنشاء البيوت لهم ولأسرهم . وقد أبدى رجال القوات المصرية على اختلاف أسلحتها استعدادهم التام للتنازل عن « التعيين » المخصص لكل واحد منهم يومياً لمدة خمسة أيام فتقدم كميانه كلها إلى إخوانهم اللاجئين من عرب فلسطين . أما قطارات الرحمة فستمر بكل بلدة وكل قرية لجمع التبرعات وستقام ساحات شعبية فى القرى لهذا الغرض الإنسانى العظيم .

انتحار الاستعمار الفرنسى
فى شمال أفريقيا

فقد الاستعمار الفرنسى وعيه فعمد إلى أساليب الانتحار فى الشمال الإفريقى ، وكان آخر ما صدر عنه من بغى تأليف العصابات لاغتيال الأحرار والعاملين على تحرير وطنهم . وفى فجر ١٦ ربيع الأول (٤ ديسمبر) بينما كان المجاهد التونسى فرحات حشاد زعيم اتحاد نقابات العمال التونسيين وعضو الاتحاد الدولى لنقابات العمال الحرة مجتازاً بسيارته الطريق من تونس إلى سوسة انهمر عليه الرصاص من مدافع رشاشة أطلقت عليه من سيارة كانت تتبعه فأصابته فى مواضع عديدة من جسمه .

وقد عقد الأمير الشاذلى نجل ملك تونس مؤتمراً صحفياً اتهم فيه عصابة اليد الحمراء الفرنسية باغتيال فرحات حشاد ، وقال : إن الكفاح بين تونس وفرنسا الآن أصبح علنياً .

وما كاد نبأ اغتيال الزعيم التونسى يطرق مسامع الناس حتى أعلن ثمانون ألف عامل تونسى الإضراب العام ، وأغلقت الحوانيت والمتاجر العربية ، وخرجت مئات الألوف فى مواكب حداد واحتجاج . ومع فرض نظام عدم التجول فإن الاضطرابات اتسع نطاقها وأدت إلى مقتل عدد كبير من الفرنسيين والمجاهدين التونسيين ، واجتاحت الثورة مدائن كثيرة فى مناطق شتى ، وتجاوزت حدود تونس إلى الجزائر ، وقامت المظاهرات الدامية فى وهران ، وقتل المدير العام لإدارة الأمن فى الجزائر ، ثم اخترقت الثورة حدود الجزائر إلى المغرب الأقصى فقامت الاضطرابات فى الدار البيضاء وغيرها من المدن ، واضطرت السلطات الفرنسية إلى إنزال الدبابات الحربية فى الشوارع واستعملت المدافع الرشاشة .

وهكذا أراد الاستعمار الفرنسى أن يقمع الثورة التونسية باغتيال زعيم العمال ، فكان كالذى يحاول إطفاء الحريق بالبنزين .

ويرى القراء فى الخبر الذى ذكرنا فيه احتفال القاهرة بافتتاح مركز التدريب النقابى أن عمال مصر الممثلين فى ذلك الاحتفال ، وعلى رأسهم الوزير محمد فؤاد جلال ، وقفوا حداداً على روح الشهيد فرحات حشاد ، وقال الوزير : إن وقفة الحداد هذه كانت أروع ما فى ذلك الاحتفال

وقد أبرقت الهيئات المصرية الكبرى : الإخوان المسلمون والشبان المسلمون والحزب الوطنى الجديد وحزب العمال وجماعة الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية والحزب الاشتراكى ولجنة تحرير المغرب وحزب الفلاح برقية إلى رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة وسكرتيرها العام والاتحاد الدولى لنقابات العمال يحتجون على الطريقة التى ابتدعتها فرنسا فى الاغتيال ، وعلى الارهاب المسلح الذى تقوم به السلطات الاستعمارية فى تونس والجزائر والمغرب الأقصى .

ثم كان يوم الخميس ٢٤ ربيع الأول يوماً مشهوداً فى المدرج الكبير بمدينة الأزهر الجامعية احتجاجاً على الاستعمار الفرنسى الغاشم من تونس إلى أقصى المغرب ، ومع أن المدرج يتسع لأكثر من عشرة آلاف مستمع لم يبق فيه موضع قدم لشدة ازدحامه بعلماء الأزهر وأبنائه ورجال الهيئات الإسلامية .

وقد ألقى كلمة الأزهر فى هذا الاجتماع العظيم وكيل المشيخة الشيخ عبد اللطيف دراز فقال : إنى باسم الإسلام وباسم رجال الدين أحمل فرنسا ما تأتيه من عنف وما ترتكبه من فظائع تأباها الإنسانية بل تأباها البربرية . وطالب أن يقف المسلمون فى جميع بلاد

الأرض على قلب رجل واحد مع تونس والجزائر والمغرب ضد هذا الاستعمار الغاشم حتى تتحقق لهذه الشعوب حريتها . وتلاه شيخ علماء الجزائر السيد البشير الابراهيمى فدعا إلى الانصراف عن الكلام والتصفيق إلى العمل فى البلاد الإسلامية كلها لتحريرها وإخراج البغاة منها . ثم تكلم السيد الفضيل الورتلانى والأستاذ محى الدين القليبى فوصفا جرائم الاستعمار وأساليبه فى شمال إفريقيا . ثم قرر المجتمعون استنكار فظائع الاستعمار ومطالبة الحكومات العربية والإسلامية بتنظيم سياسة اقتصادية يكون هدفها الاستغناء عن معاملة الدول الاستعمارية .

وفى يوم الجمعة ٢٤ ربيع الأول أدى الرئيس اللواء محمد نجيب وضيف مصر العقيد أديب الشيشكلى صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر، فكانت خطبة الجمعة على منبر الازهر عن فرنسا وما تحصده من أرواح أهل المغرب وما تهرقه من دمائهم ، وعن التعصب الجنسى فى جنوب أفريقيا وما يلقاه (الملونون) من ظلم الاوربيين .

ثم أعلن الخطيب وجوب التعاون بين شعوب الإسلام ، لأن الإسلام قام على أساس أن العقيدة هى الوطن ، فإذا أصيب المسلمون فى مغارب الأرض بظلم فقد أصيب المسلمون فى مشارقها بما أصيب به إخوانهم فى مغاربها . وبعد أداء الفريضة اصطفت جماهير المصلين لأداء صلاة الغائب على شهداء تونس والمغرب تلبية لنداء اتحاد علماء المساجد وأداها القائدان مع المصلين . وبعد الانتهاء من صلاة الغائب صافح العقيد الشيشكلى الأستاذ الخطيب وحياه شاكراً ، كما صافح فضيلة الأستاذ الأكبر وكبار المصلين .

وفى مساء ذلك اليوم (الجمعة) عقدت هيئات إسلامية ووطنية مؤتمراً كبيراً فى دار الشبان المسلمين خطب فيه الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وممثل للإخوان المسلمين وممثل للشبان المسلمين وممثل للحزب الوطنى وممثل للحزب الاشتراكى ، ثم تكلم الأستاذ عبد الرحمن عزام والدكتور محمد صلاح الدين ، والسيد بشير الإبراهيمى .

وفى الختام قرر المؤتمر الاحتجاج الشديد على اغتيال الزعيم العمالى فرحات حشاد وقتل المئات من الوطنيين الاحرار وتضامن الشعوب العربية والإسلامية مع شعوب شمال افريقيا فى نضالها وتكوين لجنة دائمة للمؤتمر برئاسة الدكتور محمد صلاح الدين لوضع برنامج مفصل لهذا التضامن ومناشدة الحكومة المصرية والحكومات العربية والإسلامية تقديم المساعدات اللازمة ، والضغط على الحكومة الفرنسية من النواحى السياسية والاقتصادية والثقافية لتعترف بحقوق شعوب المغرب ومناشدة الشعوب العربية والإسلامية بمقاطعة البضائع والمعاهد

الفرنسية واعتبار قضايا تونس والجزائر والمغرب وحدة لا تتجزأ .

وبينما كانت مصر والشرق الإسلامى كله على مثل هذه الحالة من الغضب لتونس والمغرب على ما ترتكبه فرنسا فيهما من همجية ، كانت اللجنة السياسية فى هيئة الأمم المتحدة تعمل على تأييد الاستعمار الفرنسى برفض مشروع قدمته الكتلة العربية الأسيوية فى مشكلة تونس ، فنال هذا المشروع ٢٦ صوتا منها أصوات الدول العربية الآسيوية وهى ١٣ وأصوات الكتلة السوفيتية وهى خمسة وأصوات الصين وأثيوبيا وجواتيمالا وليبريا وسيام ويوغوسلافيا . وعارضته ٢٧ دولة منها (تركيا) وأمريكا وبريطانيا وإسرائيل وبقية أعوان الاستعمار .

ومن العجيب أن الضمير العالمى فى أوربا وأمريكا مصاب بخدر قوى ، فهو يكتفى بوقفة المتفرج تجاه هذه المآسى ، بل إن انجلترا وبلجيكا الاستعماريتين تتعاونان مع فرنسا على هذا البغى ، وتحاولان معها خنق صوت الحرية التى تزعم هذه الدول أنها من دعاتها .

أما العالم الإسلامى الذى تغلى فى أفئدة أهله نيران الغضب على هذا البغى ، فإنه كان يقرأ مع أخبار شمال أفريقيا أخباراً أخرى عن احتفال الأمم الغربية يوم ١٠ ديسمبر بمرور العام الرابع على إعلان الجمعية العامة للأمم المتحدة ما يسمونه « حقوق الإنسان » ، وإنه ليحق للشرق أن يضحك - وشر البلية ما يضحك - لاشتراك أبناء الاحتفال بإعلان حقوق الإنسان مع أبناء الدبابات والرشاشات التى تحصد بنى الإنسان فى شمال أفريقية لتمنعهم من المناداة بأنه إذا لم يكن لهم ولجميع الشرقيين النصيب الاول فى «حقوق الإنسان» فإن هذه الحقوق تكون حينئذ من الأكاذيب

وفى الساعة العاشرة من صباح الثلاثاء ٢٨ ربيع الأول لبى أعضاء جماعة كبار العلماء دعوة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر لاجتماع عقدوه لبحث ما يجب على المسلمين إزاء موقف الاستعمار من الأقطار الشقيقة تونس والجزائر والمغرب وبعد أن استعرضت الجماعة الحالة القائمة الآن فى هذه الأقطار ، والاعتداءات المتكررة من فرنسا الباغية عليها منذ عهد بعيد ، وبعد تداول الرأى فيما يجب على المسلمين إزاء ذلك تقرر بالإجماع ما يأتى :

١ — استنكار ما يقوم به الاستعمار الفرنسى من كبت الحريات وإراقة الدماء واغتيال الأحرار الذين يطالبون بحقهم الطبيعى والإنسانى فى بلادهم .

٢ — إعلان هذا الاستنكار إلى جميع الدول الإسلامية ، وإبلاغه إلى جميع ممثلى

الدول الأجنبية فى مصر ، وإلى جميع الهيئات الدولية ، ونشر ذلك فى العالم كله بمختلف الوسائل .

٣ — دعوة الأمة المصرية وسائر الأمم الإسلامية إلى القيام بالواجب الدينى والإنسانى حيال فرنسا الباغية وموقفها العدوانى فى شمال إفريقيا ، وأقل ما يتحقق به هذا الواجب الآن أن يقاطعوها مقاطعة تامة فى تجارتها وصناعتها ودور تعليمها .

٤ — دعوة الجامعة العربية والحكومات الإسلامية إلى مقاطعتها سياسياً ، وإلى منع الاستيراد منها .

٥ — دعوة هيئات الخدمة الإنسانية إلى المسارعة بإسعاف المنكوبين وتضميد جراحهم

٦ — دعوة الشعوب الإسلامية فى الأقطار كافة إلى الاكتتاب العام لمساعدة هؤلاء المجاهدين وتخفيف ويلاتهم . وقد افتتح أعضاء الجماعة - فعلا - قائمة الاكتتاب فيما بينهم ، على أن تودع المبالغ المكتتب بها تحت إشراف حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر ورئيس الجماعة

٧ — ان يوجه فضيلة الاستاذ الأكبر رئيس الجماعة نداء عاماً إلى المسلمين فى جميع الأقطار يفهمهم فيه إلى ما أوجبه الله تعالى عليهم فى هذا الموقف (وقد نشرنا النداء فى مكان آخر).

وفى صباح الأربعاء ٢٩ ربيع الأول اجتمع بالحرم الجامعى بالجيزة نحو خمسة عشر ألف طالب جاءوا ليعلنوا سخطهم على الاستعمار : وبعد خطب حماسية قوية ألقيت فى هذه الجموع . قرر الطلبة المجتمعون تأييد الشعب المغربى فى كفاحه ، واعتبار عدوان فرنسا على المغرب وانجلترا على مصر وأفريقيا والتدخل الأمريكى فى الشرق الأوسط حملة استعمارية واحدة ، واعتبار معركة المغرب امتداداً لمعركة التحرر التى بدأت فى فلسطين والقنال ، واعتبار تموين أمريكا لفرنسا بالسلاح اعتداء أصلياً . والسعى لإنشاء وحدة اقتصادية بين جميع البلاد العربية ، وتكوين جبهة من الشباب الشرقى بالجامعة لمكافحة الاستعمار بأنواعه ومطالبة وزير المعارف باغلاق جميع المعاهد الاستعمارية فى مصر .

وطلبت جمعية الهلال الأحمر المصرى رسميا من السفارة الفرنسية فى القاهرة تصريحاً بسفر بعثة من سيدات الهلال إلى تونس والمغرب للقيام بأعمال الإغاثة والإسعاف للمصابين بالحوادث التى تقع هناك ، ونكتب هذا والمجلة على وشك الصدور ولما ترد السفارة الفرنسية على هذا الطلب الإنسانى .

وأدلى مصدر رسمى مسئول بأن وزير الخارجية المصرية (وكذلك كل وزير للخارجية فى الدول العربية الشقيقة) استدعى سفير أمريكا ، وأوضح له مدى الأثر السيء الذى يحدثه استمرار العدوان فى تونس ومراكش

والجزائر ، وقد وعد السفير الأمريكي بأنه سيرفع الأمر إلى حكومته فوراً .

وبدأ وزير الخارجية المصرية من يوم الأربعاء ٢٩ ربيع الأول في مقابلة ممثلي الكتلة الأسيوية ، فاجتمع بكل من القائم بأعمال سفارة أندونيسيا ، ثم بممثل الباكستان وسفير الهند وممثل الحبشة ، وسيقابل كلا من سفير إيران والأفغان ، وكان الجميع مجمعين على رأى واحد فيما يتعلق بقضايا البلاد العربية ، وقضايا شمال إفريقيا .

امتضار الاستعمار البريطاني

أعلن في مجلس العموم البريطاني أنه ابتداء من آخر سنة ١٩٥٢ يصبح من حق المستعمرات البريطانية أن تقترض مباشرة من بنك التعمير والإنشاء الدولي . ومن المعلوم أن أكثر أموال هذا البنك أمريكية .

وحينئذ نهض أحد أعضاء المجلس وقال : « أننا بذلك نترك المستعمرات تبيع شهادات ميلادها لدولة أخرى » .

فقال مستر أوليفر ليتلتون وزير المستعمرات جوابا على هذه الكلمة وكلمات أخرى في معناها :

« إننا لم نعد نملك شلناً واحداً نبذره في أرض مستعمراتنا . بل لقد أصبحنا مدينين لهذه المستعمرات بمبلغ ٩٦٤ مليون جنيه أخذناها مقدما . وليس في استطاعتنا أن نمنع نشوء مشرعات جديدة بأموال غيرنا فيما وراء البحار ما دمنا لا نملك المال اللازم لإنشاء تلك المشروعات بأنفسنا » .

أفريقيا للإفريقيين

دخلت ثورة كينيا على الاستعمار البريطاني في شهرها الثالث وقد تبين للرأى العام العالمي أن ما كان يزعمه الاستعمار البريطاني من أن ثورة كينيا همجية وتافهة إنما هو زعم لا يقوم على أساس ، وقد أذاعت وكالات الأنباء برقية من لندن نفسها بأن ثوار كينيا يسعون للاتصال بثوار شمال أفريقيا على الاستعمار الفرنسي ، وبالمتذمرين من قوانين الاضطهاد العنصري في جنوب أفريقيا ، ليتفقوا جميعاً على التعاون للخلاص النهائي من الاستعمار توطئة لتقرير مبدأ « إفريقيا للإفريقيين » .

وقد اعترفت (التيمس) بأن حوادث كينيا تعتبر مرحلة من مراحل الكفاح التي تقوم بها الحركة الوطنية في أفريقيا ، وأن هناك أوجه شبه كثيرة بين هذه الحركة والحركة الوطنية على ساحل الذهب في غرب أفريقيا .

وقد بدأت تنتشر بعض المعلومات الصحيحة عن زعيم الاتحاد الأفريقي في كينيا واسمه (جومو كنياتا) ويسميه الوطنيون « الرمح المشتعل » وهو قوى البنية فصيح اللسان وكان مدرساً في مدارس كينيا ، وتلاميذ كينيا يمجدونه كما يمجد المسيحيون المسيح . وقد زادت شهرته وتعلق الشعب به بعد اعتقاله في سجون الإنجليز ، فلم يفدهم اعتقاله شيئاً .

الأدب والعلوم في شهر

تعميم التعليم

تضج البلاد الآن من جمود وزارة المعارف العمومية على الأسس القديمة التي رسمت لتخريج موظفين لا لتخريج رجال علم وعمل ، وتتكرر الصيحات بمطالبة الوزارة بأن تعنى بالتربية والأخلاق والدين ، وبتاريخ أمجاد العروبة والإسلام كعنايتها بالألعاب الرياضية على الأقل ، ليتم بذلك اتصال حاضر الأمة بماضيها ، وليكون منه بدء تحول بالمدارس من مصانع لتخريج موظفين ، إلى معاهد لتخريج رجال مثقفين مهذبين يعرفون واجبهم نحو وطنهم وقوميتهم ودينهم وتاريخهم والنهضة التي سيعيشون معها وتعيش معهم .

وإلى الآن لم نسمع لوزارة المعارف صوتا في الاستجابة لهذه الدعوة الصادرة من ضمير العهد الجديد . وكل ما يتحدث به رجالها كلام عن تعميم التعلم وما يحتاج إليه من أموال ، ليخيفوا رجال هذا العهد من التبعات التي تترتب على هذا التعميم حتى يشمل جميع أطفال الوطن الذين في سن التعليم . فتفكير رجال وزارة المعارف لا يزال منصرفا إلى (الشكل) و (الكمية) مع بقاء الداء كما هو ، فإذا زادت كمية مدارس وزارة المعارف إلى ضعف عددها الحاضر سرت العدوى التي تشكو الأمة منها في المدارس الموجودة إلى الجديد منها الذي يخوفون البلاد من تبعاته المالية . وحبذا لو يعلم رجال وزارة المعارف أن تفكير قادة الرأي في الأمة منصرف إلى (الكيفية) وشكواهم تدور حول الداء المزمن في المدارس منذ أريد منها تخريج آلات لمكنة الحكومة غير معتنى بناحية التربية والأخلاق العملية في تكوينهم ، ولا بناحية إعدادهم للاضطلاع بمرافق الوطن الأخرى في خارج الحكومة .

فالمطلوب الآن أن تنسجم مدارس وزارة المعارف مع العهد الجديد بتغيير تلك الأسس كلها ، وأن يكون الأساس الأول في مناهجها التربية والأخلاق وأن يستعد الشباب المتعلم للكفاح في سبيل إصلاح المجتمع وإسعاده كما يستعد لإصلاح شئونه الشخصية وسعادته الذاتية ، وبذلك يكونون صالحين للنهوض بأعباء الوطن في مرافقه واتجاهه الصالح نحو التقدم . فهل لوزارة المعارف أن تلبي هذا الطلب حتى تكون مدرسة العهد الجديد ملائمة لروح العهد الجديد ؟

فن المكتبات :

نظم معهد التربية للمعلمين بجامعة إبراهيم حلقة دراسات مسائية بين طلبة المعهد لدراسة فن المكتبات ، ويقوم بإعداد هذه الدراسات والإشراف عليها مسترجامي الخبير الامريكى فى فن المكتبات والأستاذ حسن رشاد ، وسيدعى بعض رجال التعليم لتلقى الأسس العلميـة والعملية التى تكفل النهوض بالمكتبات المدرسية .

حلقة الدراسات الاجتماعية

عقدت حلقة الدراسات الاجتماعية دورتها الثالثة فى دمشق ، وقد قامت بتنظيمها جامعة الدول العربية بالتعاون مع هيئة الامم المتحدة . وكانت حفلة الافتتاح بمدرج الجامعة السورية بدمشق . واشتركت فى هذه الحلقة جامعة الدول العربيـة والجمهورية السورية والمملكة الأردنيـة والمملكة العراقيـة والمملكة العربية السعودية والجمهورية اللبنانية والمملكة اليمنيـة ومملكة مصر والسودان والمملكة المتحدة الليبية . وحضرها ممثلون وخبراء من المنظمات والوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة وهى هيئة العمل الدولية وهيئة التغذية والزراعة وهيئة الصحة العالمية وهيئة الامم المتحدة للعلوم والتربية والثقافة (اليونسكو) ووكالة إغاثة اللاجئين . ومراقبون من الإمارات العربية والبعثات السياسية المعتمدة من سوريا والهيئات الاهلية والخيرية غير الحكومية فى البلاد العربية .

ومدة هـــذه الحلقة من ٨ إلى ٢٠ ديسمبر (٢٠ ربيع الاول إلى ٣ ربيع الآخر) ، ومن أهم ما يدرس فى هذه الحلقة موضوع التكافل الاجتماعى وأثر التنمية الاقتصادية فى وسائل التكافل . ولن وفد مصر فى هذه الحلقة يرأسه الدكتور محمد عوض محمد وأعضاؤه الدكتور عزيز المراغى والأستاذ محمد أبو زهرة والأستاذ أحمد حسن إسماعيل ينضم إليهم مستشارون والملحقان العسكرى والثقافى بدمشق . وقد دعى للاشتراك فى هذه الحلقة الاستاذ سيد قطب .

مسئولية تحقيق الأهداف :

فى يوم السبت ١١ ربيع الأول زار الرئيس اللواء أركان حرب محمد نجيب كلية الطب بجامعة إبراهيم ، وخطب فى الطلبة فقال :

أبنائى الطلبة ، بل جنودى الطلبة : إنكم أهم من الجنود ، لأن الجنود لهم مهمة معروفة ، أما أنتم فلكم مهمة ألخصها فى أنكم مسئولون مسئولية تامة عن تحقيق مبادىء وأهداف هذه الحركة .

إن ألمانيا ليست أحسن منا ، إنها هزمت فى حربين ، لكنها قامت ونهضت من جديد .

ونحن فى أشد الحاجة إلى ما قامت من أجله (الرسالة النبوية الشريفة) وهى جمع صفوف العرب وغيرهم من الذميين الذين يعيشون

معهم . فنحن كذلك فى حاجة الى جمع الصفوف لنعمل يداً واحدة لمصلحة واحدة هى مصلحة مصر والسودان .

إن النظام يوفر الوقت ، ويكسبنا احترام العالم . إن النظام معناه « العمل » ، وأنتم تعلمون أنه بغير عمل لا يستطيع الانسان أن ينجح .

لكل إنسان أن ينتقد ، على أن يصف العلاج لموضوع نقده . وافرضوا أنفسكم من قادة الحركة تستطيعوا أن تنتقدوا بإمله حريتكم وثقوا أن كلا منكم يستطيع أن يكون محمد نجيب ، فأنا لم أنهض إلا باستعداد الأمة وتضامنها .

إن رسالتكم ليست تحقيق هذه المبادىء فقط ، ولكن أن تكونوا أيضا لسانا للدعاية عن هذه المبادىء ، فتعلموا كل من يحيط بكم .

إن الكتب السماوية جميعا تحضنا على المحبة والوئام والنظام ، فليس هناك عمل بدون نظام .

وثقوا أن كل ما تطلبونه سيجاب لكم ، ولكن فى حدود مقدرة الدولة . فأنتم تعلمون كيف تركوا مصر . ولهذا فنحن فى حاجة للاقتصاد ، والتقشف . وثقوا أننا لو اقتصدنا قليلا فسنكسب فيما بعد كثيرا . والسلام عليكم ورحمة الله .

الوطن آلة كبيرة :

احتفل بافتتاح مركز التدريب النقابى بالقاهرة . وعند بدء الاحتفال اقترح أحد العمال الاشتراك بالحداد على الزعيم العمالى التونسى الشهيد فرحات حشاد ، فوقف الجميع دقيقتين سادهما الصمت الرهيب . ثم خطب الوزير محمد فؤاد جلال فقال : إن أروع ما فى هذا الاحتفال وقوفنا حداداً على روح زميل كريم ذهب ضحية الاستعمار ، فبدت روح التضامن قوية بين العمال العرب فى أوطانهم . ثم قال :

« نحن نجتمع هنا ليكون كل منكم رسولا إلى زملائه فى أنحاء البلاد ، فما الأمة إلا مجموع من العمال ، ولا مكان فى هذه الدولة لمن لا يعمل . هذا هو شعار العهد الحاضر فى سعيه لبناء الدولة من جديد . انى أتمنى أن أرى اليوم الذى يصبح فيه العمال وأصحاب الأعمال طرفا واحدا شعاره « حكمة معاوية الخالدة » : « لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت » ، والشعرة هنا هى مصلحة العمل ، فحافظوا على هذه الشعرة ولا تقطعوها .

« إننى أحب الرجل الذى يتمسك بحقه ولا يتنازل عنه ، وأحب أيضاً ألا ينسى حق الوطن فلا يضيعه . إن الوطن آلة كبيرة ، والعامل الذى يعمل ينفع بنى وطنه ، وينفع نفسه وغيره من العمال إذا حافظ على هذه

الآلة ورعى حقها حتى يقبل أصحاب الأموال على استغلال أموالهم فى الصناعة ».

أدباء السلف والأدباء المعاصرون

يقول الدكتور شوقى ضيف فى تعريفه بكتاب « الهوامل والشوامل » لأبى حيان التوحيدى ومسكويه (فى فصل نشرته مجلة الكتاب) « أصبحنا فى عصر السرعة ، وأصبحنا لا نكاد نسأل حتى نجيب . فلم تعد عندنا هـــذه الصفات التى كان يتحلى بها الأسلاف ، صفات التؤدة والروية والتعمق فى المسألة وتشقيقها ، حتى لتصبح كأنها شجرة ذات فروع ، وما تزال غصون تمتد فى الفروع إلى ما لا نهاية .

« قرأت هـذا الكتاب وخيل إلى عقب قراءته كأننا لا نستطيع أن نجارى فى عصرنا الحديث هؤلاء الناس الذين سبقونا ، لأننا مشغولون بالدعوى العريضة ، وبإلقاء الأحكام ونحن نرمى بهـذه الأحكام يميناً وشمالا ، لا نكاد نتدبر أنفسنا ولا نتدبر ما نقول .

ويظهر أن المسألة لا ترجع إلى السرعة كما زعمت ، بل ترجع إلى أننا لا نتعب أنفسنا فى فهم المسائل وتبينها ، وكشف جوانبها وبواطنها وظواهرها . إنما نكتفى بما نعرفه من الخارج وما تمر عليه أفكارنا .

« وقد نكون اختلفنا عن الأسلاف لأن الأديب منهم لم يكن يزعم لنفسه هذا الوصف إلا بعد تثقف عميق بكل ضروب الثقافات من فلسفية وغير فلسفية ، ولم يكن عندهم هذا التخصص الذى نشقى به فى العصر الحديث والذى يجعل طالب الأدب لا يعرف فلسفة ولا كيمياء ولا طبا ولا قانونا وشريعة ، فانحصر فكره فى دوائر ضيقة ، ولم يعد من الممكن أن يكون متموجا أو ملونا بكل حظوظ الثقافة كما كان أدباء العصر العباسى » .

اثنا عشر ألف أثر عربى

كان الأستاذ كانون رشمانز أستاذ اللغات السامية بجامعة لوفان قد قام مع عبد الله فلبى برحلة فى بلاد العرب الجنوبية للبحث عن آثار العرب القديمة برعاية الملك ابن سعود ، وقطعا ١٧٥٠٠ ميلا ، ثم دخلا مناطق عربية لم تطأها قدم أعجمى قبل الآن ، وعثرا فى هذه الرحلة على اثنى عشر ألف أثر عربى يرجع بعضها إلى عهد ملوك سبأ . وتقوم الآن أكاديمية النقوش والذخائر الأدبية فى باريس على دراسة هذه النقوش وكتابة تقرير عنها .

مخطوطات طورسينا

ألفت جامعة الإسكندرية لجنة لتنظيم دراسة صور المخطوطات والوثائق الأثرية التى اشتركت بعثة الجامعة فى تصويرها مع بعثة الآثار الأمريكية فى دير سانت كاترين فى طورسينا . وتعد هذه المخطوطات والوثائق

أهم مجموعة تاريخية من نوعها فى العالم من حيث تنوعها وكثرة موضوعاتها وغزارة مادتها وتعدد اللغات المكتوبة بها فهى تبلغ أثنتى عشرة لغة . وفيها غير الكتب الدينية المسيحيه بعض المخطوطات اللغوية والأدبية والفلسفية والجغرافية والتاريخية والطبية ، علاوة على الفرمانات والوثائق القانونية التعليمية . ومن كتبها نسخة مخطوطة من الانجيل بالعربية الفصحى تعد فريدة فى نوعها وقد سميت فيها الأناجيل الأربعة مصاحف كمصحف لوقا ومصحف متى الخ ، ويظن أن هذه الترجمة العربية القديمة تصحح أخطاء لاتخلو منها الأناجيل بتراجمها العربية المتداولة وكان الامريكيون قد حاولوا شراء هـذه المخطوطة بمبلغ ضخم فرفض ذلك القائمون على الدير .

وينتظر أن تستغرق دراسة مخطوطات طورسينا سنوات عديدة ، وهى تقتضى الاستعانة بالخبراء العالميين . إلا أن جامعة الاسكندرية تحفظ لمصر الفضل الأكبر فى إظهار أهمية هذه المخطوطات والعناية بها .

أصغر جمهورية اسلامية .

ظهرت للوجود فى الشهر الماضى جمهورية جزائر مالديف الواقعة فى المحيط الهندى ، وهى تبعد ٤٠٠ ميل عن سيلان . وكانت فى ثمانية القرون الماضية تحكم بنظام الملكية حكما عادلا هنيئاً ، والمسلمون فى هذه الجزائر وادعون يلتزمون الحق ويعيشون للخير وليس عندهم سجون وأكثر ما يتجرون به السمك يتقايضون بالزائد منه للحصول على ملابسهم وضرورياتهم من سيلان .

فى سبيل الاستعمار المشئوم

أوشكت أن تتم ست سنوات على الحرب الاستعمارية المشئومة التى تخوضها فرنسا فى الهند الصينية .

وقد بلغت خسائر الفرنسيين هناك حتى الآن ١٢٠٠ ضابط و ٣٠٠ ألف جندى . ولا نعلم كم بلغت خسائرهم فى الأموال ، لكن الذى نعلمه أن الاعتمادات الفرنسية لهذه الحرب فى ميزانية العام القادم هى ٣٩٠ مليون جنيه استرلينى أى نحو ربع مجموع النفقات العسكرية فى فرنسا .

طرائف علمية وأدبية

بركان فيزوف :

ترتفع قمة جبل فيزوف ٤٠٠٠ قدم عن سطح البحر ، وترقد على سفحه عشرات القرى الجميلة ، وأشهر ثورات هذا البركان في القرنين الأخيرين وقعت في سنوات ١٧٧٩ و١٧٩٣ و١٨٣٤ و١٨٥٥ و١٨٦٧ وأخيراً في سنة ١٩٤٤ . وقد انتشرت سيول الحمم التي تدفقت في ثورته سنة ١٧٧٩ إلى مسافة ١٥٠٠ قدم ، وقطعت في سيرها حوالى ثلاثة أميال ونصف ميل قبل أن تنتهي إلى ساحل البحر . ويتوقع بعض الجيولوجيين أن تتجدد ثورة هذا البركان عما قريب فتدمر القرى القائمة في جواره من سفح الجبل .

مراكز الإدراك في المخ :

تمكنت إدارة المحاربين القدماء في أمريكا من إتمام دراسة استمرت سنتين على ١٥٠٠ مريض بالأمراض العقلية أجريت لهم جراحات في الفصوص الأمامية للمخ ، وهي مراكز الإدراك في الإنسان ، وفي هذه الدراسة اشترك ١٢٨ من الخبراء في شتى الأمراض العقلية وقالوا في تقريرهم إن ٤٠ في المائة من الحالات تحسنت إلى حد كبير ، وكان أكثر المتحسنين من المصابين بمرض الشيزوفرانيا وقد عادوا جميعاً إلى منازلهم ، منهم ١٠٢ فقط أمكنهم العودة إلى أعمالهم . وإن حالات العنف والعدوان والميل إلى الانتحار خفت كثيراً في أكثر الحالات وأصبح من السهل قيادة هؤلاء المرضى وبدأ أكثر من نصف المصابين يهتمون بما حولهم غير أن ١٠ في المائة منهم زاد انطواؤهم على نفوسهم . ورغم هذه النتائج الحسنة فإن الخبراء لم يستطيعوا تفسير ما يحدث للمصاب عقب الجراحة وإن أفتوا بأن تغييراً يحل بشخصيته . ولهذا ينصحون بألا تجرى هذه الجراحات إلا بعد استنفاد الوسائل الأخرى وفي الحالات العنيفة التي يتعذر فيها التعامل مع المريض وتنهار كل الآمال في إمكان علاجه .

الورق من فضلات القصب

صرح وزير التجارة الأمريكية بأن ورق الصحف المصنوع من قصب السكر يضارع في جودته الورق المصنوع من لب الخشب إن لم يكن أفضل منه . وأن تكاليف الورق المصنوع من القصب ستكون زهيدة .

وأن الكميات الموجودة في أمريكا من فضلات قصب السكر تفي بجميع حاجات أمريكا المتزايدة من الورق.

معجم بأسماء المجرمين

تقوم مصلحة الشرطة في سكوتلاند يارد بإعداد ونشر معجم مطول لأسماء وتراجم المحتالين والنصابين العالميين على غرار الكتاب السنوي للشاهير المسمى (من هو ؟) ، ليستفيد منه زوار الجزائر البريطانية من الأجانب المنتظر حضورهم حفلات التتويج ، فيكون لهم من معرفة هذا العنصر الخطر من البشر ما يحميهم منه . وقد شاركت في تأليف هذا المعجم إدارات تحقيق الجرائم في إنجلترا ودول الكومنولث وفي أمريكا وفرنسا .

عمائم حربية للميدان

في جريدة الأهرام - من بداية الانقلاب الأخير حتى الآن - ركن عسكري عنوانه « سلاح الغد » يحرره كاتب من رجال الجيش يرمز لاسمه بكلمة « صاروخ » ، وقد نشر في العدد الصادر يوم ١٢ المحرم (١١ أكتوبر) كلمة عن أحدث ما ظهر من التطور في صناعة غطاء الرأس للوقاية من الرصاص والشظايا والقنابل بدلا من الخوذات الفولاذية المعروفة إلى الآن .

وهذا الغطاء الجديد للرأس هو (عمامة) من البلاستيك تشتمل على أجزاء إضافية لوقاية الأكتاف والرقبة والوجه وأعلى الصدر ، ولا يزيد وزن هذه المجموعة الواقية على رطل واحد ، وهي كالصلب في مناعتها إن لم تزد عليه ، وتكاليف كل خمس وأربعين عمامة من هذا الاختراع الجديد تعادل تكاليف خوذة فولاذية واحدة مع التفوق في الخصائص الوقائية . وقد نشر مع هذه الكلمة صورة لهذه العمامة الجديدة ، فتبين منها أنها في منتهى الجمال والهيبة ، ويعنينا منها نحن المسلمين على الخصوص أنها توافق تقاليدنا والمألوف عندنا إلى درجة أن شكلها يصلح في الوقت نفسه لأن نقتبسه لحياتنا المدنية فضلا عن الحياة الحربية في الميدان ، وإذا كانت العمامة الحربية تصنع من البلاستيك والمواد الصالحة للوقاية من الرصاص والشظايا ، فإن هذا الشكل إذا اتخذ للحياة المدنية ومن نسيج لطيف مريح فإنه بلا شك يصح أن يتخذ أساساً لوحدة الأزياء التي ينشدها من يدعو إليها . ونحن نلفت أنظارهم إلى هذه الكلمة في الأهرام ، وإلى الصورة المنشورة معها ، وإلى الوصف الشيق الذي وصفت به هذه العمامة التي تعد أحدث ما وصلت إليه العقول فيما يتعلق بغطاء الرأس في البلاد المتحضرة .

فهرس

الجزء الرابع — المجلد الرابع والعشرون

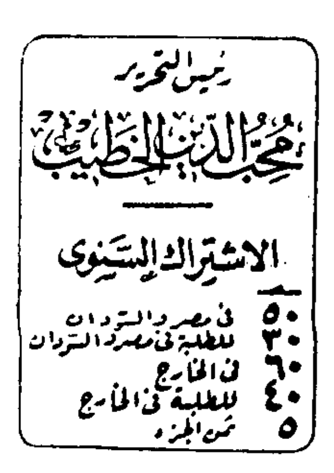

المجلد ٢٤ « الجزء ٦ » جمادى الآخرة سنة ١٣٢٢

١١٥

مدير المجلة
محمد عرفه
عضو جماعة كبار العلماء

العنوان
إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون ٤٦٣١٤





الجزء السادس ـ في غرة جمادى الآخرة ١٣٧٢ ـ ١٥ فبراير ١٩٥٣ ـ المجلد الخامس والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق

كانت مصر — إلى فجر يوم الأربعاء غرة ذي القعدة من العام المنصرم (٢٣ يولية) — كأنها القصر شامخ الذرى، فخم البنيان، عظيم الأركان، ضخم الجدران. لكنه لضعف الأساس الذي كان قائماً عليه، ولطول ما اعتراه من إهمال المستبدين به عصراً فعصراً، وانصرافهم عن تعهده بالإصلاح والتجديد، كثرت في جدرانه الصدوع المنذرة بقرب انهياره، وأوشك أن يتداعى. فجاءوا له بأبرع النقاشين يرأبون صدوعه بالجص وبما هو أوهى من الجص، وينقشون ظاهر جدرانه بأجمل النقوش وأبدعها وأزهاها: يخادعون بذلك أمتهم وغيرها من الأمم، وما يخدعون إلا أنفسهم.

وهكذا اطمأنت قلوبهم للغش والرياء، فأغروا بهما كل من يتعامل معهم، أو يرجو حباءهم، أو يطمع في الزلفى إليهم. حتى إذا أوفى الغش والرياء في المجتمع المصري على غاية الغايات، وبات ذلك هو الأصل المعروف والمتعامل به، أما الاستقامة على الحق والتعامل بالنصيحة والصدق فذلك هو الأمر الشاذ والعمل المنكر — حينئذ تدارك الله كنانته برجال قويت نفوسهم بسلاح الأخلاق، واطمأنت قلوبهم لقواعد الدين، فحملهم ذلك على المغامرة بتجريد سلاح الأمة لإنقاذها من الغش المخزي والرياء المخجل، وحاولوا انتشال

هذا الوطن المسكين - المظلوم من فراعنته ، المهضوم الحق من أقويائه وأذكيائه - فاجتثوا شجرة الغش والرياء فى اليوم الرابع من ذى القعدة (٢٦ يولية) وألقوا بها فى عرض البحر لتقذف بها أمواجه فى بقاع أخرى إلى غير رجعة . وكان ذلك إيذاناً من الله بتحويل دفة السفينة المصرية وشراعها عن اتجاههما الخاطىء ، إلى الوجهة السليمة التى يوشك أن يتحول بها كل عامل فى هذا الوطن — بمداركه أو مواهبه أو جوارحه — إلى عضو نافع سليم ، فى شعب نافع سليم ، يسبح الله بحسناته فى هذه الأرض ، ويتعبد له بالإحسان فى كل ما يحسنه من عمل صالح ، ويعلن شكره لمولى النعم على نعمه بحسن استعمالها فيما خلقت له ، إلى أن يأتى يوم لا تذهب فيه قطرة واحدة من مياه النيل الى البحر المالح ، بل تستعمل كلها فى رى الصحارى القاحلة شرقاً وغرباً ، وتثار المعادن الجافة والسائلة من جوف الأرض لتكون فى أيدى شبابنا حراباً ومدافع ، وفى حقولنا فئوسا ومحاريث ، وفى مصانعنا آلات ودواليب دائبة الحركة بالثروة والسعادة والعزة والرضا .

إن النظام الذى كان قائما فى العهد البائد ، إنما كان قائما على دعائم كثيرة من الباطل والشر ، وقد تعاونت على حياطته ورعايته وضمان استمراره عناصر من عناصر الرياء والغش سيحللها التاريخ ، وسيحمِّل كل عنصر منها مسئولية ما كان يحمله من دعائم ذلك العهد ، وما كان يتولاه من نظامه الفاسد . وأخطر بقايا تلك الشجرة الخبيثة وأشدها ضرراً تلك الجذور التى كانت ممتدة فى الثرى ، وطالما مثلت فى هذا المجتمع أدوار الغش والرياء ، وبقيت تطمع بأن تعود فتعمل ، ليعود بها عهد الرياء والغش فيحيا من جديد .

تلك هى أحزاب العهد البائد التى بذرت بذور الفتنة والشقاق فى الصحف وقرائها ، وفى معاهد العلم ومجامع الوطن ، وفى البيوت والأسر ، حتى فرقت بين الأخ وأخيه ، والأب وبنيه ، والمدرس وزملائه ، والطلبة فى فصولهم ، والقرويين فى حقولهم ، وحتى أودت بكيان البلاد ، ومزقت وحدتها ، وشتتت شملها لمصلحة نفر قليل من محترفى السياسة وأدعياء الوطنية .

والآن — وقد تمت كلمة ربك بانهيار الطاغوت الأكبر وهو أعز ما كان بباطله وطغيانه ، وبتمزيق شبكة الغش والرياء التى كان يستعين بها فى تقييد نشاط الحق ، ويتحكم بخيوطها فى الحد من حرية الفضائل ، فقد آن للحق أن ينشط من عقاله ، وأن يتخلص من ضعفه وهزاله . وآن للفضائل أن تتحرر من قيودها ، وتنطلق من معتقلاتها وسجونها ، فتعود

إلى هذه الأمة سجاياها الموروثة عن سلف عظيم ، لتتجدد بها أمجاد خلدها جهاد عظيم فى تاريخ عظيم .

والحق لا ينشط مجرداً ، مالم يتول ذلك منه أهله وأولياؤه .

والفضائل لا تتحرر بنفسها ، إلا إذا نهض لها بذلك أنصارها وجنودها .

إن الإسلام دين الحق ، والحق من عند الله ، و « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق » . وقد آن للمسلمين أن يحملوا فى أوطانهم لواء الحق ، وأن يربوا عليه أنفسهم وأبناءهم وتلاميذهم ، وأن يعدوا له الجيل الذى سيخلفهم على أمانات الله . وبداية إعداد الجيل لذلك أن نجعل له من أنفسنا قدوة فى الإيمان بالحق والعمل به « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » . وهذا الخلق ، أى شهادة المسلم لله ولو على نفسه أو والديه والأقربين ، قد اضمحل وزال فى عهد الرياء والغش ، لأن الشهادة لله ولو على النفس من أخص خصائص الحق والقوامين عليه ، والحق لا يجتمع مع الرياء والغش فى نفس واحدة ، فلما تعامل المسلمون بالرياء والغش أعرضوا عن الحق فأعرض الله عنهم .

وبانهيار صرح الرياء والغش يجب أن يقوم للحق صرح جديد فى عهد جديد يكون منه بعث للإسلام فى فضائله العليا ، وأعلاها إقامة الحق وتربية النفس عليه ، وتكوين كيان الجيل الآتى على أساسه ، حتى يكون المسلم ، وحتى يكون كل مسلم ، من الشهداء لله بالحق ولو على نفسه أو والديه والأقربين .

إننا يوم ننجح فى تربية الجيل الآتى على الحق ، سيهبط عدد المحاكم المصرية وقضاتها ووكلاء النيابة والمحامين وضباط البوليس وجنوده إلى أقل من عشر عددهم الآن ، وستقتصد الدولة كل ما تنفقه فى هذا السبيل وأمثاله ، وسيخف عبء الضرائب عن عواتق أفراد الأمة ، وسيتاح لهذا الشعب أن يستعمل فضل أمواله فيما ينتج ويثمر وينفع من مرافق ومشروعات ، وفيما يقوى به كيانه فيعتز ويسعد .

لقد كانت مصر قبل مائة وخمسين سنة فى أحط عصر من عصور الإسلام ، وكان أرقى عصورها فى الإسلام هو العصر الأول الذى لم ير المصريون أسعد لهم منه ولا أكرم ولا أعدل ، فبلغ من احترامهم له وإعجابهم به أن اندمجوا فى نظامه ، وآمنوا بحقائقه ،

وتنازلوا عن لغتهم حباً منهم بلغته ، وبذلك صاروا هم أهله وسادة مرافقه وقادة أموره .
ثم استعجم الإسلام فى مصر وأخذ يخرج عن طريقه شيئاً فشيئاً حتى ابتعد عن المحجة ، فبدا أثر هذا الابتعاد فى ضعف الأمة وانحطاطها فى آخر الحكم العثمانى ، وكان أسوأ أحوالها فى تاريخ الإسلام هو ما كانت عليه قبل مائة وخمسين سنة ، فعاقبها الله بالاحتلال الفرنسى ، ثم بتسلط أسرة محمد على ، وبما منيت به البلاد فى عهد هذه الأسرة من مصائب الاحتلال البريطانى . وفى خلال هذه المائة والخمسين من السنين اتخذت مصر لنفسها كياناً آخر ، واتخذت لكيانها نظاما آخر ، وتفننت فى نظامها إلى أن صار إلى ما نعرفه إلى يوم الناس هذا ، وصار الغالب عليه ما وصفناه من رياء وغش عم جميع الطبقات حتى تدارك الله مصر بهذا العهدالذى بدأنا نفكر فيه بما يجب علينا له ، وبما ينبغى لنا أن نرسمه لأنفسنا من خطط للسعادة والطمأنينة والعيشة اللائقة .

لقد اخترت لمقالى هذا عنوان « حقائق » ، والحقائق لا يخاف منها إلا مبطل أوجبان .

ترى هل كنا فى المائة والخمسين سنة الأخيرة فى أنظمة ومعيشة وأخلاق أصلح مما كنا فيه قبيل حملة نابليون على مصر ، أم أسوأ مما كنا فيه ؟

وهل كانت الأمانة فى نفس المصرى أقل يومئذ ، فارتقينا فى ظل الأنظمة الأوربية والخديوية ؟ أم كانت الأمانة قبل ذلك أعظم فانحطت نفوسنا فى ظل الأنظمة التى تعاقبت علينا فى المائة والخمسين سنة الأخيرة ؟

أنا معترف بأن العصر الإسلامى الأخير الذى أعقبته الحملة الفرنسية هو أحط عصور الإسلام فى مصر ، ومع ذلك فإن العلماء الفرنسيين الذين صحبوا الحملة الفرنسية وشاهدوا بأعينهم أمانة المصريين وأخلاقهم فى ذلك الوقت قد شهدوا لهم بأنهم كانوا أرقى مما صاروا إليه فى ظل الأنظمة التى تعاقبت على مصر فى المائة والخمسين سنة الأخيرة ، وهذه الحقيقة يجب أن تعلن على رءوس الأشهاد لنستفيد منها فى تعيين طريقنا نحو المستقبل .

عقد المسيو جومار ـ أحد مهندسى الحملة الفرنسية التى قدمت مصر مع نابليون ـ فصلا علمياً عن تخطيط القاهرة سجلته الحملة فى المجلد التاسع عشر من كتاب (وصف مصر) ، فكان مما جاء فيه أن بولاق كانت مرفأ القاهرة فى الشمال ، كما كانت الفسطاط (مصر القديمة) مرفأها فى الجنوب ، فكانت بولاق فرضة تجارة الوجه البحرى ، وكانت مقراً لجمرك القاهرة .

ومما لفت نظر مسيو جومار كثرة الوكائل التجارية فى بولاق ووفرة الغلال التى كانت تكدس على ساحل النيل بلا حراسة وبغير أن توضع فى مخازن .

قال مسيو جومار : إن الثقة بين الناس فى مصر كانت على أتم ما يكون بحيث لم يكن ثمة خوف من أن تمتد يد إلى تلك الغلال ، وهذا يدلك على أن الصدق والامانة كانا من فضائل الخلق المصرى .

هكذا يشهد للمصريين شاهد عيان من الفرنسيين المحتلين ، وقد سجل شهادته فى أعظم أثر علمى تفتخر به تلك الحملة ، أو يفتخر به الفرنسيون من بعدها حتى اليوم .

وهكذا كانت مصر فى أحط عصورها الإسلامية ، وأما عصر الإسلام الاول فيها فإن مصر من عشرة آلاف سنة إلى الآن لم تر أسعد لها منه ولا أعدل ولا أكمل ، ولذلك اندمجت فيه وكانت من خيرة أهله .

والآن وقد قوض الله عهد الطغيان ، فإن مصر التى تبلغ نسبة المسلمين من أهلها ٩٢ فى المائة تحب أن ترجع إلى إسلامها كما كان يوم أحبته فى المائة السنة الأولى من تاريخ الفتح الإسلامى . وأعظم عظماء الأرض وأنبل أبطال التاريخ هو الذى يعمل على تجديد ذلك العهد الزاهر من عهود مصر ببعث أخلاقه وعدالته وبساطته ورفقه والمحبة الصادقة بين جميع سكان الوطن من كل المشارب والمذاهب ليتعاونوا على الأخذ بأرقى وأدق ما وصلت إليه أمم الأرض من علومها وصناعاتها ووسائل تنظيم أعمالها وتحسين مرافقها وتجميل عمرانها حتى نأخذ من كل شى أحسنه ، وحتى نكون من أعرق الأمم فى ذلك ، ومن أكثرها انتفاعا بالعلوم الصناعية والحقائق الكونية والأساليب الإدارية ، فنبقى مسلمين بأخلاقنا وأحكامنا وطريقتنا فى تبسيط الوسائل ، ونكون مع ذلك سباقين إلى التقدم فى علوم الكون جميعاً .

إن وزارة المعارف ـ بمناهجها الحاضرة التى فشلت فى كل شىء ـ إنما هى عنصر من عناصر العهد البائد ، فينبغى لها أن تسارع إلى إصلاح نفسها والقذف بمناهجها وأساليبها العقيمة فى أعمق بئر تدفن فيها الخبائث ، لتبنى نظامها الجديد على تخريج جيل يؤمن بالأخلاق والفضائل التى لا يمكن الإيمان بها إلا عن طريق التربية الإسلامية الاصيلة ، والتشبع بمحبة عظماء الإسلام الاولين ، وتقمص أرواحهم ، واتخاذهم قدوة وأسوة فى تجديد عهدهم الاول الذى أحبته مصر منذ عرفته فترجمت عن محبتها له بالاندماج فيه والامتزاج به بشغاف قلبها .

وإن مدرسى المعاهد والكليات الأزهرية يجب عليهم أن يقودوا حركة التجديد فى الأخلاق ، وأن تكون لكل مدرس منهم رسالة علوية قدسية يؤديها فى فصله وبين تلاميذه بإيمان وخشوع كموقفه بين يدى الله عز وجل فى صلاته ، لأن القيام بذلك من أعظم العبادات التى يقوم بها المسلم فى العهد الجديد ، لنحول أبناء الجيل عن قاذورات العهد البائد إلى أخلاق الإسلام وفضائله التى يجب أن تكون شعار هذه الأمة ودثارها بعد اليوم ، وبذلك نستحق الحكم الصالح ، وتتجاوب قلوبنا مع قلوب القائمين عليه .

إنما انهار العهد البائد ، وقوض الله صروحه ، لأنه لم يقم على أساس من الأخلاق ، ولأنه تبدل من الصدق والأمانة بالرياء والغش ، فكان الناس يمثلون هيئات الفضائل وأشكالها ويحسنون الحديث عنها وهم ينطوون على أضدادها ، وقد صدق الله عز وجل فى قوله الحق « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

محب الدين الخطيب



التعليم الأجنبى — والتعليم القومى

يقول حكيم البراهمة وشاعرها رابندرانات تاغور :

« التعليم بلغتنا هو الذى أنعش روحنا وأحيانا ، ورأيى أن التعليم ينبغى أن يكون كالأكل ، بمعنى أنه عندما يسيغ الآكل اللقمة الأولى تتنبه معدته إلى عملها قبل أن تمتلىء ، ويتمكن حينئذ عصيرها من أن يؤثر كما يجب ؛ ونقيض ذلك التعليم الأجنبى : فإن اللقمة الأولى تؤذن الطاعم بخلع سطرى أسنانه ، أو تزلزل فمه ، وفى اللحظة التى يبتدىء يعرف فيها أن اللقمة ليست من جنس الحجارة ـ وإنما هى من السكر وقابلة للهضم ـ يكون قد ولى نصف عمره ، وبينما هو يعالج مضغ كتابتها ونحوها تبقى روحه جائعة ، فإذا تذوقها تكون شهيته قد ذهبت » .

ولما قرأنا هذا خطر على بالنا أن نستفتى وزير المعارف وجميع رجال وزارته : هل التعليم فى مدارسنا من النوع الأول ، أم من النوع الثانى ؟

بماذا نبدأ

قد تغير العهد القديم ، وجاء على أنقاضه عهد جديد ، يريد الإصلاح فيلتفت حوله فإذا كل شيء بحاجة إلى الإصلاح . نحتاج إلى الإصلاح في المال والاقتصاد وفي الزراعة والصناعة وفي رفع مستوى المعيشة وفي التربية والتعليم ، فيسائل المصلحون أنفسهم بماذا نبدأ ؟ فالعقل يقضي بأن يقدم الأهم على المهم ، وبأن يقدم مالا نجد منه بدأ على ما نحن واجدون منه بدا . ويقضي بأن نقدم في الإصلاح ما لو إذا أصلحناه أصلحت المرافق الأخرى ، ومالو أهملناه لم يستقم لنا إصلاح في جميع المرافق .

فبماذا نبدأ ؟

الحق أقول إنه يجب البدء بإصلاح نفوسنا قبل كل شيء والعناية بذلك عناية من يعلم أنه إن حرمه هلك ، إنه يجب أن نصلح أول ما نصلح المصريين أنفسهم .

إن مصر عبارة عن شيئين المكان والسكان ، والسكان مقدمون في العناية على المكان ، وأولى السكان بالإصلاح الإنسان ، وذاك لأنه إذا أصلح أصلح ما معه من السكان وأصلح المكان ، وليس إذا أصلح غيره صلح هو . وأول ما يجب إصلاحه في الناس أنفسهم ، وهذا يشمل إصلاح العقول وإصلاح الأخلاق ، فإذا صلح هذان في الإنسان أصلحا البدن كله ، وإذا صلح الإنسان أصلح كل ما يحيط به . وإذا أهمل إصلاح الإنسان لم ينفع إصلاح ما عداه ، وسأبين ذلك بأمثلة :

١ — أراد محمد علي أن يصلح الصناعة في مصر فأدخل كثيراً من الصنائع وجلب لها العمال ليتعلموها ويصنعوا ، فحييت الصناعة ما حيي محمد علي ، فلما مات ماتت الصناعة بعده . ولو بدأ محمد علي بحبب الصناعة إلى السكان وعرفوا ما فيها من مزايا مالية تعين على المعيشة فاندفعوا إليها بشوق من نفوسهم وأعانتهم الدولة بما تريد المعونة به ، لبقيت الصناعة ما بقي الشوق في نفوسهم وما بقي متوارثاً يرثه الخلف عن السلف .

٢ — أرادت الدولة أن تصلح مياه الشرب في القرى فتنقيها وتقطرها لتقي سكانها من البلهارسيا والإنكلستوما والأمراض التي تسببها المياه الملوثة ، فكان السكان يعافونها ويشربون من مياه الترع والقنوات ويرونها أصح لأجسادهم ويقيسون قياساً مشاهداً لديهم

فيقولون إنها تفيد الزرع من القمح والذرة ، فكيف لا تفيد الإنسان ؟ ولو بدأت الدولة فعرفتهم ما تحمل هذه المياه الملوثة من جراثيم تضر بالأجساد وأن المياه المطهرة خير منها وأصح ، لبحثوا عنها بأنفسهم ، ولعرفوا بر الحكومة بهم إذ سهلتها لهم وقربتها إليهم .

٣ — بنت الدولة مراحيض فى بعض القرى وطالبت من السكان أن يقضوا حاجتهم فيها ، ولا يقضوها فى المياه والموارد ليتقوا أضرار ذلك ، فكانوا يبغضونها ويذهبون إلى ما ألفوا .

٤ — ظفرت الأمة بالدستور سنة ١٩٢٣ وقد اعترف فيه لها بأنها مصدر السلطات ، وبأن الحكومة مسئولة أمام مجلس النواب ، واعترف لها فيه بالحريات ، ولكن هل انتقلت السلطات من الملك إلى الأمة حقاً ؟ أكانت الحكومة مسئولة أمام مجلس النواب حقاً أم كان النواب مسئولين أمام الحكومة ؟ هل احترمت الحريات والكرامات ؟ هل عاشت الأمة فى ظله خيراً مما كانت ؟

لا ، لم يكن شىء من ذلك .

ذلك أننا عنينا بكتابة دستورنا فى السطور ، ولم نعن بكتابته فى الصدور ، ولو كتبناه فى صدورنا ، ونقشناه على قلوبنا ، وآمنا به وبأنه لا حياة كريمة ولا تقدم لنا إذا خولفت نصوصه وانتهكت حرماته ، لما رضينا بأن يخالف وأن تنتهك حرماته .

قال قائل : إن بريطانيا ليس لها دستور مكتوب فقلت كيف وهو مكتوب فى أربعين مليون نسخة ؟ فعجب ، فقلت إنه مكتوب فى صدر كل بريطانى ، ونفعه إنما هو فى هذه الكتابة لا فى كتابته فى الأوراق والصكوك .

كل هذه المشروعات أخفقت لأنه بدىء بالنتيجة قبل المقدمات ، وكان الأولى أن يبدأ بالمقدمات قبل النتيجة .

وهذا كله قد عرفه النبى ﷺ حين قال : ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب .

أصلحوا القلوب بإصلاح العقول وإصلاح الأخلاق وتهذيبها يصلح لكم كل شىء .

إن العقل جعله الله مصباحاً يستضىء به الإنسان فى هذه الحياة ، فدعوا لكل إنسان مصباحه ، وأمدوه بالزيت النقى حتى يضىء له طريقه ويبصره ما ينفعه فى هذه الحياة .

وأول ما يجب أن يربى عليه المرء خلقياً هو الكرامة الإنسانية . ومن اعتقاد المرء بهذه الكرامة تنبعث كل الفضائل والخيرات ، وتحارب كل الشرور والآثام ، فإذا ما آمن المرء بكرامة نفسه وكرامة الناس حوله ، طالب الحرية لنفسه وطلب المساواة بين الناس جميعاً وأبى أن يسيطر عليه أحد من الطغاة والمستبدين ، وطالب مثل ذلك للناس . يجب أن يؤمن الناس بذلك ويحبوه كما يحبون الحياة أو أكثر من الحياة ، وأن يفضلوا الموت مع الكرامة على الحياة مع الذلة ، وما استعبد قوم ورضوا بالذلة والعبودية إلا بعد أن فقدوا إيمانهم بالكرامة الإنسانية ؛ هذا الإيمان بالكرامة هو الدرع الواقى للأمة من استعباد الظالمين واستبداد الجبارين ، ولن تنفع القوانين والدساتير فى وقاية الأمة من التحكم والاستبداد إذا فقدت هذه الكرامة .

وإن الأمة التى تؤمن بكرامة نفسها تحوّل كل حاكم مستبد إلى حاكم عادل ؛ لأنها تؤمن بكرامتها وتعرف حقوقها ، وتأبى أن يعتدى عليها معتد وأن يستذلها مستذل ، وكلما حاول ذلك أحد ردته بسيوفها وبكل ما تملك من قوة ؛ والأمة التى لا تؤمن بهذه الكرامة تحوّل كل حاكم صالح إلى حاكم مستبد ، لأن الظلم من شيم النفوس ، وليس يردها عنه إلا المقاومة ، فإذا فقدت رتع الحاكم لأنه أصبح مخلى بينه وبين هواه ، وهذا معنى ما ورد : «كما تكونوا يولى عليكم» .

هذه هى الروح السائدة فى العالم ، وهذه هى التربية الحديثة التى تأخذ بها الأمم لأنه يؤيدها العلم والاختبار .

وسيأخذ الناس العجب حينما أبين لهم أن هذا هو الإسلام وأن هذه هى التربية الإسلامية ، وأن الله بعث محمد بن عبد الله ليربى الأمة الإسلامية على ما ذكرنا من الكرامة وما يتبعها من الحرية والمساواة .

إن أول ما يميز المسلم من غيره الشهادة ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ ومعنى هذه الشهادة التى جعلت فرق ما بين المسلم والكافر هو الكرامة الإنسانية ، فإن المرء إذا اعتقد أن لا إله إلا الله ، فلا معبود له يستحق العبادة والخضوع والرجاء والسؤال إلا الله ، لأنه ليس من ينفع أو يضر ، أو يعز أو يذل ، أو يحيى أو يميت ، أو يرزق أو يمنع إلا الله . نقول إذا اعتقد المرء ذلك فقد آمن بكرامته ومساواته للبشر ، فلا يخضع ولا يذل ، ولا تعنو جبهته ، ولا يخشع صوته إلا لله ، ومن أراد ذلك ممن يساوونه من الناس أبى ذلك عليهم

ووقف دونه . ولم يكتف الإسلام بذلك بل ذكر أخبار الملوك الظلمة ، والطغاة المستبدين واستعبادهم أممهم وإرسال الرسل إليهم ليخلصوهم من الهوان ، ويعيدوا إليهم كرامتهم الإنسانية ، فذكر بنى إسرائيل واستعباد فرعون إياهم .

« وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » وذكر محاورة موسى لفرعون فى دعوى الألوهية والتسخير ، وهى محاورة يجب أن تكتب على كل قلب لتكون وقاية له من فقد الكرامة والارتكاس فى مهاوى الذلة والاستعباد : « فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى اسرائيل . قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين . قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين . ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين . وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل . قال فرعون وما رب العالمين . قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين . قال إن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون . قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أو لو جئتك بشىء مبين . قال فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » .

وقد ذكر الله هذا الحوار البديع ليوحى إلى الناس ضعف الإنسان ومساواته لغيره من الناس ، فإذا تمرد وبغى وخرج عن طوره وجب إقناعه بالحجة ، فإذا لم يقتنع وجبت مقاومته ومحاولة الخلاص منه ، وقد ذكر الله هذه المقاومة فى كثير من سور القرآن وبين أن العاقبة للشعب المقاوم والدمار والهلاك للطاغية المستبد ، بشرط واحد : وهو أن يصبر الشعب على المقاومة : « فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » وبين فى القرآن أن إرادة الله وعونه وحمايته ، للمغلوب المستضعف ليغرس الأمل فى النفوس ، والإيمان بالغلب فى القلوب :

« إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم

ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » ، ولم يكتف القرآن بما ذكرنا بل ذكرها كلمة خالدة ناطقة بكرامة الإنسان : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

أرأيتم التربية الإسلامية كيف كانت مبناها على الكرامة الإنسانية ، وكيف كانت تربى الامة على التخلص من المستبدين الظالمين ، وكيف كانت كلمة التوحيد مخلّصة للأمم من الداء الوبيل المبيد للأمم وهو الذل والاستعباد ، كما هى مخلصة من سوء الآخرة وعذابها بشرط أن يفهم معناها على وجهه ، وأن يربى المرء عليها حتى تختلط بلحمه ودمه .

ولا يظن ظان أنى أحمّل كلمة التوحيد فوق ما تحتمل وأفسر الربوبية والعبودية بأكثر من معناها ليتسنى الوصول إلى ما أريد ، فإن ذلك كان يعنيه النبي ويعنى أكثر منه ، فقد ورد عن عدى بن حاتم أنه قال أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب ، فقال لى يا عدى ألق هذا الوثن من عنقك ! وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة « براءة » حتى أتى على هذه الآية : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » ، قال قلت يا رسول الله : إنا لم نتخذهم أربابا ، قال : بلى أليس يحلون لكم ماحرم الله عليكم فتحلونه ، ويحرمون عليكم ما أحل لكم فتحرمونه ، فقلت بلى ، فقال : تلك عبادتهم .

ولو شئت أن أقول إن جل مافى الإسلام يدور على تثبيت هذه الكرامة الإنسانية لقلت ، فإن الإسلام كله يؤيدنى فى ذلك .

استكبر سادة قريش أن يجلسوا مع النبي ومعه ضعفاء المسلمين من أمثال صهيب وعمار وبلال ، وقالوا للرسول اطرد هؤلاء الأعبد ونحن نستمع إليك ، فأنزل الله : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ، وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم » ، فكان النبى إذا رأى هؤلاء الضعفاء مقبلين بدأهم بالسلام تطييبا لنفوسهم وغرسا للكرامة فى قلوبهم ، وهل كان عتاب النبي ﷺ فى أمر الأعمى الذى جاء وهو مشغول بكفار قريش ،

ويرجو أن يهديهم الله فخاف أن يشغل به عنهم فيفوت ما يرجوه، فأنزل الله هذا العتاب وسجله على وجه الدهر فى هذه الآيات : « عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى . فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى . وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى . فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة » .

نقول هل كان هذا العتاب القاسى إلا ليذكر دائما بالكرامة الإنسانية وبكرامة هؤلاء الفقراء خاصة كلما قرأه قارىء أو تدارسه دارس .

وهل أمر الإسلام بالرفق فى الأمور كلها وبغض فى الفظاظة والغلظة ، فقال الله فى كتابه الكريم : « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، وقال النبى ﷺ : « ما كان الرفق فى شىء إلا زانه » ، حتى إنه أمر بالرفق بالعبيد والإماء وقال لأبى ذر وقد قال لآخر يابن السوداء :

« يا أبا ذر أعيرته بأمه ، إنك امرؤ فيك جاهلية » ا .

نقول هل فعل الإسلام ذلك إلا ليحفظ على الأمة عزتها ويبقى لها الكرامة الإنسانية ؟ وقد خطب عمر بن الخطاب لما تولى الخلافة فقال : « إذا رأيتم فى اعوجاجا فقومونى » ، فقام إليه رجل وقال : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » ، فقال « الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمة من لو رأى فى اعوجاجا لقومه بسيفه » ، فهل كان فرح عمر بذلك وحمده الله عليه إلا لأنه استوثق من أن الأمة فيها خلق العزة والكرامة الإنسانية ، وأنه يحفزها هذا الخلق على ألا تقر لظالم ، ولا تعنو لمستبد .

ولما كان مما يهدر الكرامة الإنسانية استعلاء قوم على الآخرين بالجنس والدم أو باللون أو بأعراض خارجة من المال والجاه والسلطان ، أبطل الإسلام ذلك كله وأهدر تلك المقاييس الفاسدة التى درج الناس على أن يقيسوا بها الناس ، ويميزوا بها الرجال ، وأنزل فى كتابه العزيز تلك الآية الذهبية التى هى أصل عظيم من أصول الاجتماع الإنسانى والإصلاح البشرى ، والتى أهدر فيها تفاضل الناس بالاحساب والأنساب والمال والجاه والسلطان ، ووضع مقياسا خيراً من ذلك كله وهو التقوى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وجاءت السنة الكريمة بشرح هذا الأصل فقال النبى ﷺ « كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه ، ومن أسرع به عمله

لم يبطىء به نسبه » ، « يا معشر قريش لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم » ، « يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئا » .

ولم تكن هذه التعاليم كلمات متلوة على اللسان ، لا تتأثر بها القلوب كما هى عند المسلمين اليوم ، بل تأثرت بها قلوبهم ، وانطوت عليها صدورهم .

يحكى التاريخ أن سهيل بن عمرو وأبا سفيان بن حرب ورهطا من سادة قريش طلبوا الإذن على عمر بن الخطاب وطلبه معهم صهيب وبلال من ضعفاء المسلمين ، فأذن لهما أولا ، فغضب أبو سفيان وأخذته العزة ، وقال لأصحابه لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ! فقال سهيل إنى أرى والله الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم إلى الإسلام ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ! .

وهذا هو السر فى أن الإسلام ديننا جميعاً ولكنه نفعهم ولم ينفعنا ، إننا أخذناه على طرف اللسان ، ولم يتجاوز الآذان ، أما هم فقد تغلغل فى الضمائر وأشربته نفوسهم واختلط بلحمهم ودمهم بمبادئه السامية فكانت لهم العزة فى هذه الأرض .

أيها المسلمون : غيروا نظركم إلى الدين وغيروا فهمكم إياه ، لا تفهموه تعاليم جافة ، ولا تفهموه جزئيات مبعثرة لا رابطة تربطها ، ولا تفهموه معنياً بإزالة الحدث والخبث دون أن يكون معنياً بهذه الحقائق العالية ، بل افهموه على حقيقته : تعاليم مثمرة ، وقواعد باقية يراد بها تغيير النفوس وقلب الأوضاع الباطلة ، والاصطلاحات الظالمة التى تؤدى إلى استعلاء طبقة على طبقة ، واستغلال طبقة لغيرها من الطبقات . جاءت لرفع ذلك ليعيش الناس سعداء ، وقد فطن لذلك أمم الغرب فطبقوها فى حياتهم ، فضمنوا السعادة لأكبر عدد من أممهم ، وكانوا أحظى بها من المسلمين الذين تنزلت عليهم ولم يفطنوا لها ولم يأخذوها مأخذ الجد والحزم ، وهذا هو تغيير الدين وتبديله وتحريف الكتاب وتأويله والمروق منه كما يمرق السهم من الرمية .

ربوا عليها الرضيع ونشئوا عليها الصغير ، وأرضعوها لأطفالكم مع اللبن تعيشوا أباة حماة كراما لا يطغى عليكم طاغ ، ولا يستبد بكم مستبد ، وكلما أراده منكم ذو سلطان وجد من يقول له : قف مكانك ، إنى هنا أحمى حقيقتى ، وأذود عن كرامتى .

إذا الملك الجبار صعر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

نفحات القرآن

البيت العتيق :

من آثار النبوة ، أن لله خواص فى الأزمنة ، والأمكنة ، والأشخاص .

وإذا كانت لنا كلمة سابقة عن شىء من هاتيك الخواص فى أشخاص أشاد القرآن بذكرها وفى أزمنة رفع الله من شأنها حتى أقسم بها ؛ أقف اليوم خاشعاً فى إكبار ، وهائماً فى إجلال ، أمام بقعة من البقاع آثرها ربك بفضله ورضوانه ، وأضفى عليها من حمايته وسلطانه ، فكانت فى عين الزمن حلية الدنيا ، وكانت فى حساب العقل متنفس الحياة .

بقعة : اختصها ربك بالإيثار فسماها بيته ؛ وإن كان الملك كله ملكه ، والمساجد كلها بيوته ، فأى بيت هذا ؟ ذلك هو البيت العتيق (الكعبة) .

وإن فى وصفه بالعتاقة لإيذاناً بأصالته فى الشرف ، وسبقه على ما بعده ، إذ يكون معهوداً قبل أن يعهد غيره ، ومشهوداً له بالرسوخ فيما هو من خصائصه .

وسواء أكانت العتاقة لأنه موضع بيت كان مطاف الملائكة قبل آدم ، أم كانت عتاقته تبدأ من عهد آدم إلى زمن الطوفان ، أم كانت عتاقته لأنه بنى فى عهد إبراهيم - عليه السلام - فهو على أى قول رجع من هذه الأقوال أول بيت فى الأرض كان للعبادة .

وليس فى معالم التاريخ ، ولا فيما أثر عن الأنبياء وما بنوه من المعابد بيت يسبقه .

ثم كان المسجد الأقصى من بعده - كما أطبقت الروايات - ولكن بأزمنة اختلف فيها التقدير ، وبالبيت العتيق هتف القرآن غير مرة ، وركز فى الأذهان أنه المهبط الذى تخيرته عناية الله أول ما تخيرت ، وربطت به تاريخ البشرية فى رحلة من مراحلها الحية ، وجعلته أساساً للقومية الجديدة فى الشرق ، ومنارة تشع بضوئها فى جنبات الدنيا « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة ، مباركا ، وهدى للعالمين » .

وحسبنا هذه الآية وثيقة لتاريخ البيت ، وستضيف إليها الآيات من بعد ، مناقب أخرى جدت على الأيام .

وكأن تلك المناقب كانت آمالا تداعب الإنسانية منذ فجرها الأول ، وتنشدها منذ صبوتها الضالة ، لتأنس بها فى مهامه دنياها ، وتركن إليها كلما هبت من حولها الأعاصير فى حياتها الطولى .

حتى إذا ما حان لكل منقبة من مناقب البيت موعدها المقدور عند الله ، برزت فى عالم الوجود ، وتم بها جانب من جلال البيت على ما شاء صاحب البيت له من جلال .. إبراهيم أبو الأنبياء يؤثر لطفله إسماعيل ، ولزوجه هاجر عزلة عن الناس ، حتى يقضى الله فيهما أمراً كان مفعولا ؛ فما يروق له سوى المكان القفر بالمثوى القصى ، فيدع أمانته هذه فى جوار بيت الله ، وعلى جانب تلك البقعة الميمونة ، مطمئناً إلى صيانتها ، مؤمناً بحسن رعايتها ، وليس عليه إلا أن يدعو ربه مستعطفاً لهما ، قبل أن يولى وجهه عنهما « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

وهذه دعوات الوالد الواله ، يوجهها فى قلب إبراهيم لذع الفراق للولد العزيز ، وللزوجة الأثيرة ، ويلطفها على نفسه المحرورة غلبة الرجاء فى رعاية الله لجيرة بيته الحرام ، ثم يأخذ سبيله ، ويدع جانباً من قلبه ، ويتجه إلى ما يتجه إليه من شئون ، وإذا عاد فإنما يعود لماما وهو فى حله وترحاله يتملكه الإشفاق ، ويلازمه الحدب ، فتظل دعواته صاعدة من قلبه ، جارية على لسانه ، ولمن يا ترى دعاؤه ؟ للبلد كله من أجل البيت ، ولقطان البلد من أجل إسماعيل وهاجر . فتراه مسوقا بعاطفة رحمة وموجها بإلهام غيبى إلى الضراعة حيناً بعد حين فهو يجأر مرة : « رب اجعل هذا بلداً آمناً ، وارزق أهله من الثمرات لعلهم يشكرون » ، ثم يعود أخرى ، ويجدد إلى الله دعاءه ، ويوثق رجاءه أن يرعى رب البيت هذا البلد ، وأن يجنبه ما كان يرى - فى غير مكة - من جهالة ضاربة ، وطغيان مستبد ، وأصنام جاثمة ، وكفر متوطن ، يوم كان يرى ذلك من أبيه آزر وقومه فيشتد عليهم فى نكيره ، ويقول « ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . . . لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » . ويوم كان يقرع سمع أبيه بقوله : « إنى أراك وقومك فى ضلال مبين » فهو اليوم يسأل ربه فى لهفة ورجاء : « رب اجعل هذا البلد آمناً ، واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم » .

أليست الدائرة التى دعالها إبراهيم مقراً للبيت الذى آثره مأوى لولده وزوجه ، بعد أن سبق له العلم بأنه بيت كريم على صاحبه ، وأنه محفوف بحراس من السماء ، وأن له سياجا من رعاية الله ، حتى ذكره فى دعائه بوصف ينم عن قداسته ، عند بيتك المحرم ، أو ليس إبراهيم صديقاً نبياً ، ترفع الحجب دون دعواته ؟؟

هنا يتجلى عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً ، ويشاء الله أن يشب إسماعيل بعد أن لقيت أمه فى رعايته ما لقيت أيام الطفولة أو بعد أن احتمل والده ما احتمل من صروف ، وبعد أن أبطأ عليه الأمل فى الولد ، ولم تبق له إلا بقية من عمر ، يغلب عليه الظن أنها أيام قصار .

وقد كان إبراهيم يتصابر على ذلك الحظ المتباطىء فى الذرية ، وهو راض عن هذا بالدأب على رسالته ، وكان يواجه من أمره صعابا ، ويتخذ من صبره على المكاره عدة للنجاح وأسبابا ، وإذا كان من أولى العزم فليس يقل النصيب من قوته ، ولا ينال من عزيمته ، وإنما هو على أكمل ما تكون شخصية النبوة ، حتى ليمتحنه ربك مرة أولى فى نفسه أيام شبابه ، يوم ائتمر عليه عباد الأوثان ليصرفوه عن دعوتهم ، فأضرموا له نارهم ليحرقوه وينصروا آلهتهم من تكبيره وتقبيحه ، بما كان يواجههم به وهم فى كثرة ، وهو فى قلة ، وهم يظنونه ضانا بشبابه مطاوعهم فى الكف عن رسالته ، ولكنه يرخص حياته فى جنب الله ويجود بنفسه ، بينما المرء فى شبابه يعض بالتافه من عرض الدنيا ، فما بالك بالحياة ؟ فلتوقد نيرانهم فى غير تريث ، وليطرح فيها إبراهيم فى غير رفق ولا رحمة ، وليقف الطغاة حول نارهم ليشمتوا فيما نزل بإبراهيم ، غير أن ربك ينصر من أسلم وجهه إليه ، ويعز من أعز دينه ، وانتصر لربه ، فلم يعظم على قدرته أن تكون النار برداً وسلاما على إبراهيم ، وأن يحبط كيد الكائدين ، ويجعلهم الأخسرين .

ثم تقتضى حكمة الله أن يمتحنه على الشيخوخة مرة ثانية فى ولده إسماعيل ، وهو الموهوب له على الكبر ، الممنوح له بعد حرمان ، فيوحى إليه فيما أراه الله من منامه أن يتقرب إلى ربه بذبح ولده وأن يودعه إلى غير لقاء ، والمرء فى كبره أحوج إلى البنين ، وأعطف على الولد ، ولكن إبراهيم إن يكن والدا حنوناً فهو نبى صديق ، وخصائص الرسالة أملك للإنسان من عواطف الأبوة ، فلم يتهم نفسه فى صدق رؤياه ، ولم يتردد فى تنفيذ ما أمر الله ، وكذلك لم يعص الولد البار فى تمكين والده من رقبته ، ولم يعوقه عن المبادرة إلى طاعة مولاه .

ونحن نعلم أن الحرص على الحياة غريزة ، وأن حداثة السن تغرى بالعصيان ، وأن العناد أو التدلل فطرة فى الأحداث ، فلم لا يبدو من إسماعيل شيء من ذلك إذ أفضى إليه والده بما رآه فى منامه ، وصارحه بما ليس أشد من وقعه على السمع ؟؟ ولكنها ذرية بعضها من بعض .

وهنا يتمثل لطف الله فى قضائه ، وحكمته فى تدبيره ، فيفتدى — سبحانه — الولد لأبيه بذبح عظيم من عنده ، وينادى خليله فى تزكية وثناء « أنْ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين » .

وبهذا الوفاء تبين لإبراهيم وولده إسماعيل من أمرهما وبرهما ماكان مطوياً عنهما ، من دخائل النفس ، وتجلت لإبراهيم حظوة عند ربه له ولولده كان يأملها ويرجوها فيما كان يدعو به لنفسه ولذريته ، « والله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ثم يكون من تدبير الله أن يجعل من شباب إسماعيل المفدى نصيباً لإقامة البيت الذى أوى إليه رضيعاً ، واحتمى به طفلا ، وشب فى جواره يافعاً ، وآن له أن يقف إلى جانب أبيه فى إبراز ما كان فى حجب الغيب ، وطالما اختلج بنفس إبراهيم ، ولهج به لسانه ، فعهد الله إليهما « أن طهرا بيتى للطائفين ، والعاكفين ، والركع السجود » .

وفى مثل ما كان إبراهيم ينشط إلى الدعاء والرجاء كان نشاطه هو وإسماعيل إلى الاستجابة لهذا التكليف فى رحابة صدر ، وأكرم وفاء ، وأفسح أمل ، وأطيب دعاء « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » .

كانت هذه الدعوات الخاشعات أنشودة إبراهيم وإسماعيل وهما ينهضان بالبناء ، وما أشق البناء بالصخور ، وتناوله باليد ، وفى قلة من الأعوان ؟ وما أشفق الوالد ، إذ يرى ولده مجهداً معه يتكلف الأمر الذى لا يطيقه أترابه إلا فى عنت وسآمة ؟ وما أعطف الولد الرحيم وأشد وجله على أبيه الشيخ ، إذ يراه مكدوداً فى شأن يخشى أن ينال من شيخوخته ، وهو أحوج إلى الاستكانة ، وإلقاء العبء ، ولكنه مع ذلك مأخوذ بالغبطة له ، وآخذ بالمضى فيه ؟

تتجاوب العاطفة بين الشيخ والفتى فيحبب إلى نفسيهما ما قد يكرهه غيرهما ، ويسهل عليهما ما يشق على سواهما ، ويريان من اليسير الهين ما قد يكون فى ذاته غير يسير ولا هين، بل ولا من اليسير والهوان فى شىء .

وهل نرى إبراهيم وإسماعيل ذاكرين لشخصيهما فى هذا الموقف ؟ أو شاعرين بما يلحقهما من عنائه ؟ أو حاسبين لشىء مما هنالك أدنى حساب : إلا أنهما يقومان بأمر الله ، ويرفعان بناء ترمقه عين الزمن ، وستستظل به الإنسانية فى حياتها المستأنفة ، وتستشف الدنيا من خيره فى أطوارها القابلة ؟ ؟

لم يكن إلا ذلك : شعور حق ، وأمل وصدق ، واطمئنان بالله ، وثقة فى رضوان الله ، وليس بعد الله جانب تستمد منه القوة ، وتلتمس منه المعونة ، فلتكن الغبطة شاملة للشيخ وولده ، بدلا من كل تقدير آخر ، ولتنبثق الدعوات على لسانهما أوسع مما كانت ، فهما يسألان الله القبول ويسألانه تثبيتهما على الإسلام ، ويسألانه تخليد الإسلام فى أمة من ذريتهما ، وأن يريهما مناسكهما فى البيت ، وحول البيت الذى عهد إليهما بناءه وتطهيره من كل رجس يشينه ، وأن يديم عليهما توبته ، ويسألانه أن يبعث فى الأمة المسلمة من ذريتهما نبيا منها ، يكون رسولا إليها ، يتلو عليهم آيات الله ، ويعلمهم الكتاب وما فيه من أحكام ، وما يتضمنه ويتصل به من حكمة ، ويزكيهم من كل شائبة تنقصهم .

فظهر الغبطة عند إبراهيم وإسماعيل دعاء شامل لا يخصهما ، بل يتسع لهما ولمن بعدهما ممن يشاء الله ، وذلك شأن الظافر ببغيته : إذا زكت نفسه ، واستقامت وجهته ، تراه لا يختص نفسه بحب الخير ، وطلب المزيد ، بل يفسح رجاءه لبنيه كما أفسح لنفسه ، ويفسح لغيرهم كما أفسح لنفسه ولبنيه ، وتراه يزداد على النعمة شكراً لا بطراً ، ويشتد إقبالا على الله ، ولا يعرض عن ربه مفتونا ولا أشرا .

دعوات ينفح منها عطف الأبوة ، وتشف عن روح النبوة ، وتجتذب الفكر إلى التأمل ، وتثير الخواطر نحو ما تنطوى عليه من غايات .

ومن لهذه النجوى مثل إبراهيم المبارك ؟ ؟ أليس قد أكرمه ربه فى نفسه فآتاه رشده من قبل ، ورفعه فى الأكرمين عنده حتى أيده (أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين ؟)

ألم تشف دعوانه المبكرة عما تدخر له الأقدار بعد ؛ فكان من ذريته شجرة أينعت فى النبوة ؟ ؟

حقا : « إن إبراهيم — كما شهد الله — لحليم ، أوّاه ، منيب » .

وإذ آن لدعوات إبراهيم أن تبرز إلى عالم الوجود ، ولصبح المنى عنده أن ينبلج ، ولساعة الاجابة أن تدق . هبط وحى ربك بالأمر المرتقب « وأذن فى الناس بالحج ، يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ، يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم » . ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فكلوا منها ، وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم — يزيلوا ما بهم ويتنظفوا — وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق » .

وبهذا الأمر صدع إبراهيم ، وأعلن فى الملأ أن البيت أصبح مثابة للناس وأمنا .

وحان لهذه الحياة أن ترتسم على صفحاتها خطوط لم تكن ، وأن تقوم على جوانبها المظلمة معالم الهداية شامخة ، وأن تشرق جوانبها المترامية بقبس وضاء من نور السماء .

وحان للبيت الفراغ أن يعمر بأفئدة من الناس تهوى إليه ، ولمكة أن تنهض لاستقبال عهد خصب تترادف عليها ثمراته ، ولم يكن لها فى حساب . . لها بقية .

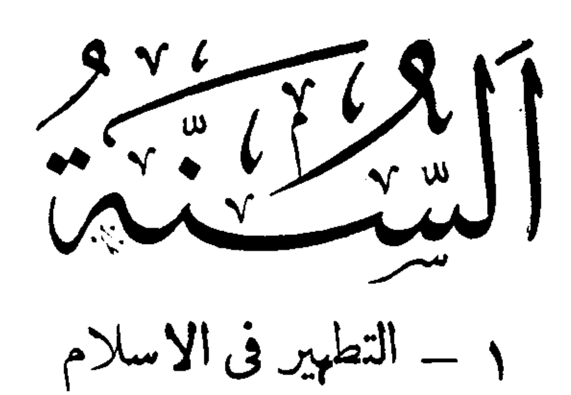
عبد اللطيف محمد السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

الاستعمار كما يصفه نائب فرنسى

جاء فى تقرير النائب الفرنسى مسيو موتيه الذى رفعه إلى مؤتمر الاتحاد البرلمانى فى برن سنة ١٩٢٤ :

« من المحقق أن الاستعمار عمل لا يسوّغه قانون ، وكثيراً ما ظهر بمظهر الفظاظة والغلظة ، لأنه يقضى بحكم القوى على الضعيف . وقد مضى على وجوده قرون بحجة نشر المدنية والارتقاء بين الشعوب المزعوم جهلها وخمولها . والحقيقة أنه لم ينتشر من تلك المدنية وذلك الارتقاء إلا الأسماء التى تنتحلها لنفسها الأمم المستعمرة . وقد أراد المستعمرون أن يسدلوا على أعمالهم ثوباً شرعياً قانونيا فقرروا ضم ما استولوا عليه من البلدان إلى ممتلكاتهم بحجة نشر المدنية والعلوم ، والحقيقة أنهم لم يفعلوا ذلك إلا لمصلحة بلادهم » .

ثم ختم كلامه بقول لاروشفوكو : « النفاق حكمة تقدمها الرذيلة للفضيلة بكل احترام » .



١ ــ التطهير فى الاسلام

عناية الإسلام به ـ مبلغ الشرائع الوضعية منه ـ المبايعة على ترك الموبقات رجال تخرجوا فى مدرسة التطهير ـ درجات الناس فى الوفاء بالعقود

عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ـ وكان شهد بدراً ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ـ أن رسول الله ﷺ قال ، وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف . فمن وفى منكم فأجره على الله ؛ ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ؛ ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك . رواه الشيخان ، واللفظ للبخارى .

أشرنا فى الجزء الثانى من هذا العام إشارة مجملة إلى التطهير فى الإسلام ، ثم بدا لنا أن نفصلها فى هذا الجزء وما يليه إن شاء الله ؛ ليعلم من لم يكن يعلم كيف عُنى الإسلام ورسول السلام بالتطهير عناية ما كانت لتخطر لأحد على بال .

لقد عنى الإسلام بالتطهير بطنا وظهرا ، وسرا وجهرا ، وحسا ومعنى : فى النيات والسلوك والعقائد والأعمال والأحوال ، وسائر شعبه وشرائعه كلها ، جليلها ودقيقها ، فرضها ونفلها ، فى الأفراد والجماعات والرجال والنساء والأطفال ، والأمم والشعوب ، وفى السفر والحضر والسلم والحرب . لم يدع صغيرة ولا كبيرة فى هذه الشئون عامة وخاصة إلا جعل التطهير أساسا لها أو مرتبطا بها . وهل الإسلام إلا أوامر تمتثل ، ونواه تجتنب ؟ وما الأوامر فى الإسلام إلا الفضائل أو الخير ممثلا فى شعبه ومناهجه ودرجاته ، وما المناهى فيه إلا الرذائل أو الشر ممثلا فى ضروبه وأبوابه ودركاته .

ألا فليعلم من لم يكن يعلم أن ضروب التطهير قديما وحديثا فى الشرائع الوضعية كافة ،

لم يبلغ معشار ما بلغه فى الإسلام ، بل لم يبلغ فيها ما يبلغه القشر من لبه ، ولا الزبد من زُبده ، وأين تدبير العباد الضعفاء وتطهيرهم ، وهم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ، من تدبير الحكيم الخبير وتطهيره ، وهو الذى أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا ؟!

إن التطهير فى الإسلام - إلا ما تدعو الضرورة إليه - أمر اختيارى يوكل إلى العبد حتى يزكى نفسه بنفسه من غير جبر ولا إكراه ، وما هو إلا الإرشاد والبيان ، والدعوة والبرهان : « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ، « فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر » ، « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » ، « قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دسَّاها » .

وأما التطهير فى الشرائع الوضعية فإنه إجبارى ، يوكل أمره إلى ذوى النفوذ والسلطان ، يتولونه بالعنف والقوة ، ويأخذون فيه بالشدة والغلظة . ولا يستوى تطهير أسس على الطوع والاختيار ، وآخر أسس على الكره والاضطرار .

وفى هذا الحديث الجامع يروى عبادة بن الصامت ، رضى الله عنه : كيف بايع النبى ﷺ هذه العصابة المطهرة من أصحابه ؟ وكل أصحابه أطهار كرام : بايعهم النبى ﷺ على التطهير من ستة خبائث هن جماع الموبقات ، وأصول المهلكات ، من وقيهن فقد وقى شراً مستطيراً ، وأعد إعداداً كريماً ، يرشحه لأن يكون عضواً حياً فى خير أمة أخرجت للناس . والعصابة - ومثلها العصبة - هى الجماعة بين العشرة والأربعين .

* * *

ذكر البخارى لعبادة رضى الله عنه منقبتين من أجلّ مناقبه ، ليرينا أى إنسان كان راوى هذا الحديث ؟ ذكر أنه شهد بدراً . وحسبك فى فضل أهل بدر ما جاء فى الصحاح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ... لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، وذكر أنه أحد النقباء ليلة العقبة .

وجملة القول فى أخبار العقبة - وهى فى طريق الذاهب من مكة إلى منى - ان النبى صلى الله عليه وسلم لما يئس من قومه أخذ يعرض نفسه على القبائل فى موسم الحج يدعوهم إلى الله تعالى . وقبل الهجرة بعامين لقى ستة من الخزرج ، فعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم

القرآن ، فأسلموا وحملوا الإسلام إلى المدينة . ويذكر بعض أهل السير والمغازى أن منهم عبادة . . فلما كان العام المقبل لقيه من الأنصار اثنا عشر رجلا : خمسة من السابقين وسبعة غيرهم أسلموا جميعا . وهذه هى البيعة الثانية ، وكان فيها عبادة يقينا . فلما كان العام الذى يليه قدم من المدينة جم غفير من الأوس والخزرج وبايعه منهم سبعون رجلا وامرأتان ، واختار منهم - اقتداء بالقرآن - اثنى عشر نقيبا أحدهم عبادة ، وجعلهم كفلاء على قومهم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم . وهذه هى البيعة الثالثة .

وكانت بيعتهم فى العقبة على الإيواء والنصرة ، وأن يمنعوه ﷺ مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، لا على التطهير من هذه الموبقات الست التى ينتظمها هذا الحديث ، كما ظن كثير من المحدثين وأهل السير ، وإنما كانت المبايعة التى فى الحديث هنا بعد فتح مكة ، وبعد أن نزلت آية الممتحنة : « يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك » فبايع النبى ﷺ النساء ثم بايع الرجال . ومرجع الالتباس على من ذهب إلى أن هذه البيعة كانت فى العقبة قبل الهجرة أن عبادة بايع البيعتين جميعا ، إلى غيرهما من المبايعات ، وكانت بيعة العقبة من أجل ما يتمدح به ، ولذا أشار إليها البخارى فى هذا الحديث ، وكان يذكرها عبادة تنويها بما منّ الله عليه ، فلما أشير إليها فى مقدمة البيعة التى هنا ، وهى على مثل بيعة النساء ، توهم من لم يقف على جلية الأمر أن بيعة العقبة وبيعة الفتح سواء .

* * *

وإذا كان عبادة راوى هذا الحديث واحداً من المتخرجين فى مدرسة الطهر والتطهير والتحرر والتحرير ، لحق علينا أن نأتى على بعض صفاته وأخباره ؛ لنتبين كيف تربى المدرسة الطاهرة أبناءها ؟ وكيف تؤتى الشجرة الطيبة أكلها كل حين بإذن ربها ؟!

آتى الله عبادة رضى الله عنه بسطة فى العلم والجسم ، والقوة والشجاعة والصلابة فى دين الله عز وجل ، ومن أجل ذلك كان يجله الفاروق رضى الله عنه ويكرمه ، حتى بلغ من إجلاله إياه أن قال له على أثر مقدَمه من الشام لنزاع بينه وبين معاوية : إرجع إلى مكانك ، فقبح الله أرضاً لست فيها ولا أمثالك ، وكتب إلى معاوية : لا إمرة لك على عبادة . ومن إجلاله إياه أنه أمد عمرو بن العاص بأربعة آلاف فى فتح مصر ، فلما أبطأ عليه الفتح أمده بأربعة آلاف أخرى ، وأمر على كل ألف واحداً من أربعة : عبادة ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود ، ومَسلمة بن مخلَّد ، وكتب إليه : قد أنفذت إليك أربعة آلاف على كل

ألف منهم رجل مقام ألف ، فصار معك اثنا عشر ألفا ، ولا تغلب اثنا عشر ألفا من قلة [١] .

. رضي الله عنه [illegible] أحدا . وبيعة الرضوان ، والمشاهد كلها .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

* * *

عاهد النبي ﷺ صحابته وأمته ـ أول ما عاهد ـ على التطهير من رجس الشرك في كل صورة من صوره ؛ لأنه منبع كل بلاء ، وموطن كل داء ، لا يرفع معه إلى الله عمل ، ولا يزكو في أرضه نبت ، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ، وقد اتفقت رسالات الله كلها على أن الشرك أكبر الكبائر ، وأشد الموبقات ، وأعظم الظلم ؛ لأنه جحود للرب ، وإهدار للعقل ، وإمعان في كفر النعم والمنعم ، واستحباب للعمى والضلال المبين .

وعاهدهم على التطهير من السرقة ، قليلها وكثيرها ، ولعن السارق ، لأنه يسرق البيضة فتقطع يده ويسرق الحبل فتقطع يده [٢] والسرقة كسب خبيث غير مشروع ، مضيعة للشرف والمروءة ، مجلبة للخزي والعار ، مزرعة للبطالة والدناءة والكسل ، موجبة للعنة والنكال في الدنيا والآخرة .

وعاهدهم على ألا يقربوا الزنى : « إنه كان فاحشة وساء سبيلا » . وكان فاشيا في الجاهلية على أنحاء شتى . وهو أعظم الجرائم هتكا للأعراض ، ونشرا للأمراض ، وهدما للبيوت والأسر ، وقتلا للأحساب والأنساب ، وخيانة للأمانات ، ومقتا عند الله والناس !

وكانوا يقتلون أولادهم خشية الفقر أو العار ، وشاع فيهم وأد البنات إسرافا في الكراهية لهن دون ذنب جنينه . والوأد هو قذف البنت في حفرة أعدت لدفنها بالحياة . وفي هذه الجريمة الشنعاء يقول تبارك وتعالى : تبكيتا لصاحبها « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » جريمة تقشعر من ذكرها الأبدان . وتشيب من هولها الولدان ، وتصف أفظع صورة لقسوة الإنسان !! وهي بعد ذلك قطيعة للرحم ، وعدوان على المخلوق الضعيف الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه شيئا ، واتهام للخلاق الرازق ذي القوة المتين ، من بيده مفاتيح الرزق وخزائن السموات والأرض ـ بأنه عاجز عما تكفل به !! واجتماع هذه الجرائم البشعة

---

[١] ليس عجبا أن يعد الواحد منهم ألفا بالقول ، فباب المجاز واسع ، وإنما عده ألفا بالحساب والفعل وبناء الحكم المنطق .

(٢) لأن سرقة ما لا قطع فيه تجري على ما فيه القطع . ومنهم من أخذ بظاهر الحديث فجعل القليل والكثير سواء في إقامة الحد .

فى قتل الولد هو سر التخصيص فى النهى وإن كان القتل كله منكرا ، ولكن كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، ونظير هذا الزنى بحليلة الجار ، ونكاح امرأة الأب ، وكلاهما إلى الفاحشة قطيعة وسوء أدب ، وهذا هو سر إضافة « المقت » فى قوله تباركت أسماؤه « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا » وفى الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قلت يا نبى الله : أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت ثم أىّ ؟ قال أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أى ؟ قال أن تزانى حليلة جارك .

* * *

وإتيان البهتان هو اختلاق الزور والكذب الذى يبهت من يرمى به ويدهشه لشدة هوله وفظاعته ! وخص الأيدى والأرجل بالذكر، لأنهما الأداة فى معظم الأفعال ، إذ هما العوامل أو الحوامل للمباشرة والسعى ، وقد يعاقب الشخص بجريمة قولية فيقال هذا بما كسبت يداك وإن كان الكاسب هو اللسان ، وقيل كنى عن الذات بالأيدى والأرجل لأنها بينهما ، فالمعنى لا تأتوا ببهتان تنشئونه من قبل أنفسكم ، أو من قبل ضمائركم وقلوبكم .

وأظهر ما يكون البهتان فى نساء الجاهلية ، وكانت إحداهن تلتقط المولود وتقول للرجل هذا ولدى منك زورا وإفكا ! ومن هنا استدل بعض المحققين على سبق بيعة النساء ، وسوق بيعة الرجال على منهاجها .

ثم يختم النبى صلى الله عليه وسلم مبايعته بالوصية البليغة الجامعة ، التى تنهى عن كل قبيح ذكر أو لم يذكر ، كما تتضمن الأمر بكل حسن جميل من مكارم الأخلاق التى بعث لإتمامها صلوات الله وسلامه عليه .

والتقييد بالمعروف مع أنه صلوات الله عليه لا يأمر إلا به ، لتنبيه أمته على أنه لا طاعة لمخلوق وإن عظم فى معصية الخالق جل وعلا ، وفى هذا أبلغ رد على من زعم أن طاعة أولى الأمر واجبة من غير قيد ولا شرط .

وبعد أن وفى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأمور الست التى عاهدهم عليها ، بين لهم أن الناس فيها فرق ثلاث . فرقة توفى بعهد الله إذا عاهدت فجزاؤها إلى الله عز وجل ، ونعما هو ، وفرقة تقتحم ثم تطهر ، وفرقة إلى الله أمرها ، وفى علمه عاقبتها .

وإذا ضاق المقام عن بيان هذه الفرق فوعدنا الجزء الآتى بعون الله ومشيئته .

طه محمد الساكت

أزمة الفقه الإسلامي

١ — شجعني تقبل كلمتي الماضية في هذه المجلة : « طريق الإفادة من الفقه الإسلامي » بقبول حسن ، من المعنيين بحق بما فيه صلاح الأزهر وإقداره على أداء رسالته ، ومن الذين يعنون بما فيه الخير للعالم الإسلامي بعامة ، على أن أتقدم بكلمة أخرى في هذا الشأن ، كلمة أخرى فيها الصراحة الواجبة في معالجة مشاكلنا وإن آلم هذا بعض الناس :

إن صاحب هذا القلم الضعيف ظل سنوات طويلة يكتب في إصلاح الأزهر ، وفيما يتصل من قرب أو بعد بالشئون الإسلامية العامة ، وهو يائس من أن يكون لما يكتب أثر أو صدى قوي لدى أولى الأمر وبخاصة في الأزهر . ذلك ، بأننا كنا في عهد استشرى فيه الفساد وعم جميع مرافق الأمة ، فلم يكن يلقى المؤمن بما يكتب سميعاً ولا تقديراً من القائمين على الحكم وتصريف شئون الأمة .

والآن ، وقد انبلج في هذا العهد الحاضر المبارك فجر جديد قوي نوره حتى صار ضوءاً نسير في الإصلاح على هداه ، وصار ناراً تحرق الفساد والمفسدين ، صار من الواجب أن نكتب وندلي بما نؤمن به من آراء ، وأن نكتب بقوة في سبيل الإصلاح . وبخاصة ، ونحن نرى أن الثورة التي نعيش الآن في نعمتها لم تمس حتى الآن بعصاها السحرية الأزهر ، فتخرجه عن الطريق الذي ظل فيه دهراً طويلا إلى الطريق الذي يجب أن يسلكه إن أراد الخير لنفسه وللعالم الإسلامي كله .

٢ — وبعد هذا ، ماذا نريد أن نقول ؟ نريد أن نقول إن الفقه الإسلامي في أزمة حادة عنيفة منذ زمن بعيد ، زمن يقدر بالمئات من الأعوام ، وقد اشتدت هذه الأزمة حتى أصبحنا لا نحس بها ونلتمس السبيل للخروج منها ، وحتى تناسيناها واستنمنا إلى ما نحن فيه ورضينا به .

ولكن هذه الأزمة أخذت تنفرج ، أو على الأقل أصبحنا نلمح في الأفق بوادر

انفراجها . فقد أحسسنا بها ، ومتى أحس المريض بمرضه يأخذ طبعاً فى الطلب له وعلاجه حتى يبرأ منه ويعود صحيحاً سليم الجسم . وكان من بوادر قرب انفراج هذه الأزمة ، أن صار إحياء هذا « الفقه الإسلامى » كما نعرفه من كتاب الله وسنة رسوله ، ثم الدعوة فى إلحاح من سائر الأقطار الإسلامية ، قضية عامة ومشكلة تشغل الدولة والمصلحين المسلمين ، وذلك لعمرى أمارة قاطعة على أننا صحونا حقاً بعد نوم طويل.

٣ — وكل « أزمة » فى أية ناحية من نواحى العلم والحياة ، لها بلا ريب أسبابها وأعراضها وعلاجها ، وهكذا نجد « لأزمة الفقه » ما نجد لأية أزمة أخرى : نعنى الأسباب التى أحدثتها ، والأعراض التى عرفناها منها ، ثم العلاج الذى به يكون البرء أو الشفاء والتخلص منها .

وإذا كانت أعراض المرض تظهر أولا للعين المشاهدة الملاحظة ، ثم يجىء الطبيب للفحص عن أسبابه ، فإن علينا أن نتعرف أولا أعراض الأزمة التى يمر بها فقه الإسلام . إن أعراض هذه الأزمة ترجع فى جماعها إلى أمرين :

١ — الانصراف عن هذا الفقه شيئاً فشيئاً حتى أطرحناه جملة فى تشريعاتنا وقوانيننا الحديثة ، وكان ذلك منذ زمن بعيد يرجع إلى ما قبل إنشاء المحاكم الأهلية ، إذ عمد رجال القانون عندنا إلى الأخذ عن القوانين الغربية وبخاصة القانون الفرنسى اللاتينى .

٢ — استنكار كثير من الناس ، وبخاصة أولى الأمر ورجال القانون الصيحات التى أخذت تتجاوب فى أنحاء العالم الإسلامى ، والتى تنادى بوجوب الرجوع للشريعة الإسلامية فى تشريعاتنا الحديثة ، وكان من أثر هذا الاستنكار ، أن عمد الداعون للفقه الإسلامى إلى الاستشهاد بآراء علماء القانون فى الغرب فى صلاحية الفقه الإسلامى للتطور وأن يكون من مصادر التشريع الحديث . وهذا الاستشهاد نفسه أمارة على استشراء الداء واشتداد الأزمة ، حتى نحتاج فى تقوية ثقتنا بأنفسنا وتشريعاتنا الأصيلة إلى الاستنجاد بأقوال الأجانب عنا !

٤ — وبعد أن عرفنا أعراض هذه الأزمة الخطيرة ، لابد أن نحاول تعرف الأسباب التى أدت إليها ، ليكون من الميسور بعد ذلك الأخذ فى علاجها بما يستأصل هذه الأسباب ، فيعود لفقه الإسلام مكانته الملحوظة بين التشريعات والقوانين العالمية ، وليتأتى له أن يسهم بأوفر نصيب فى تقدم الدراسات الفقهية فى العالم كله لخير الإنسانية عامة .

والكلام فى هذه الأسباب طويل ، ويتشعب هنا وهناك ، ولكنها ترجع فى رأينا إلى إهمال القائمين على دراسة وتدريس الفقه فى الأزهر إهمالا شنيعاً للدراسة التاريخية والدراسة المقارنة . وهذا ما تكلمنا عنه بإجمال فى الكلمة الماضية ، ونود فى هذه الكلمة أن نتناوله بشىء من التفصيل .

٥ — إن الدراسة العلمية الحديثة للفقه أو القانون وغيره من ضروب العلم المختلفة ، تتميز باتجاهين خطيرين : الاتجاه أو البحث التاريخى ، والبحث المقارن ، وقد كان الأمر قبل ذلك مقصوراً ، إذا اكتفينا فى كلامنا الآن على القانون ، على أن تدرس كل أمة نظمها القانونية لمعرفة أحكامها وتطبيقاتها على الحوادث والحالات الفردية الموجودة ، ولا تتعدى ذلك إلى دراستها التاريخية لمعرفة نشأتها وتطورها ، ووسائل هذا التطور .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان علماء القانون فى أمة من الأمم يتناولون بالدراسة نظمها القانونية وحدها ، ولا يعدون بحوثهم إلى دراسة مثيلاتها فى الأمم الأخرى غافلين عن قيمة الدراسة المقارنة وخطرها ، هذه الدراسة التى تعرف أن أى ضرب من ضروب المعرفة فى أمة ما ، ليس إلا جزءاً من كل : هو المعرفة الإنسانية العامة التى تسهم فيها الأمم كلها بنصيب قليل أو كثير .

٦ — ولما اتصل العالم والشعوب بعضها ببعض ، اتجه العلماء فى دراساتهم إلى التاريخية والمقارنة ، ومن ذلك عرفوا أن الشعوب تتشابه إلى مدى بعيد فى ظروف نشأتها وتطورها وفى وسائل معالجتها وتنظيمها لشئونها وأحوالها الاجتماعية ، وقد عرفوا ذلك كله من الدراسة التاريخية .

كما عرفوا من الدراسة المقارنة مقدار ما بين الأمم من تشابه ، بل تماثل فى نواح عدة ، فى تقاليدها وأنظمتها القانونية ، وأن بعضها أفاد من بعض فى هذا السبيل . وكان من أثر هذه الدراسة المقارنة ، أن ظهرت أصالة بعض الشرائع بالنسبة للبعض الآخر ، فكان لتلك فضلها غير المنكور .

٧ — وقد أتى على الشريعة الإسلامية حين طويل من الدهر كان الفقه يدرس فيه دراسة قيمة لا ينقصها البحث المقارن بين مذاهبه العديدة ، ماخلد منه حتى الآن وما اندرس بفعل الزمن ، وفى هذه الفترة المجيدة ، التى كان الجهل والظلام يسودان فيها على العالم الغربى ، وضع علماء الفقه الأصلاء الأجلاء نظمه وقواعده التى تتسع لكل ما جد ويجد

من النوازل والحوادث ، وهذا بفضل ما قامت عليه هذه النظم والقواعد من أصول قوية ومرنة تسمح بتطور الفقه حسب الزمان والمكان ، مع بقائه دائماً يسير فى فلك كتاب الله وسنة رسوله .

ولكن هذه الفترة يطويها الزمن الذى لا تنقطع عجلته عن الدوران ، وتتوالى السنون والأعوام ، وإذا بفقهاء المسلمين يفقدون الحيوية والأصالة ، وإذا بهم يجمدون على ما وصل إليهم من تراث فلا يعملون على تنميته ، بل ولا على تجليته وعرضه للناس عرضاً طيباً ، وإذا بالفقه الإسلامى لا يعيش إلا بين جدران الأزهر لا يحس بالعالم ولا يحس العالم به ، وإذا بعلماء القانون الوضعى يولون وجوههم شطر أمم غريبة عنا بنظمها وتقاليدها وعاداتها فيأخذون عنها لنا ، يأخذون عن هذه الأمم لنا نحن المسلمين الأغنياء بتراثنا الفقهى لو عرفنا الإفادة منـــــه .

٨ — فإذا ما أنشئت « كليات » ، منها كلية الشريعة التى تقوم على دراسة الفقه وعلومه وأدواته ، قلنا الآن بدأ الأزهر يفيق من غفلته ويستيقظ من نومه ، وقلنا وقال الناس معنا الآن يبدأ الفقه الإسلامى استعادة حيويته وأصالته ، والآن سيكون لنا من خريجى قسم تخصص المادة أو الأستاذية ثروة فى الفقه تظهر الناس على خصائصه التى تميزه عن سائر القوانين والشرائع ، ثم بعد قليل سيكون للقارئين بالعربية بحوث أصيلة مقارنة تكره رجال القانون من المصريين وغيرهم من الغربيين على الاعتراف لفقه الإسلام بمكانته ، ثم يكون من أثر ذلك الاتجاه الرسمى الجاد إلى الإفادة منه فى تشريعاتنا وقوانيننا الحديثة حتى يكون أخيراً هو المصدر الأول لتلك القوانين .

ولم نكن مسرفين فى الأمل ، ولا متجاوزين حد الممكن بل الميسور فيما رجوناه ؛ فإن خريجى أقسام تخصص المادة أو الأستاذية . نشأوا فى ظروف غير ظروف شيوخهم الأجلاء ، وأعدوا لزمان غير زمانهم ، والمفروض أنهم حذقوا من أساليب البحث ما لم يحذقه أساتذتهم ، فليس كثيراً عليهم إذاً أن يحققوا ما رجوناه وانتظرناه منهم . ولكن ، والأمر مؤسف مؤلم ، لم نر شيئاً ذا غناء تحقق من هذا الذى رجوناه منهم . فلماذا ؟ وعلى من تقع التبعة ؟

٩ — إنى أرى أن التبعة فى ذلك لا تقع عليهم وحدهم ، بل ربما كان نصيبهم منها

ضئيلا ، ولكن أكبر جانب من هذه المسئولية تقع على عاتق المسئولين عن الأزهر بعامة ، وعن كلية الشريعة بخاصة [١] ، وذلك لأمور :

(١) ان لخريجى هؤلاء المتخصصين رسائل نالوا بها درجاتهم العلمية ، فأين هذه الرسائل ؟ إن أكثرها لايزال مخطوطاً لم ير نور الشمس ، ولا أعرف فى الفقه رسالة مطبوعة إلا رسالة واحدة عن « العرف والعادة فى رأى الفقهاء » ، وهى رسالة تنم عن بحث جيد وعرض طيب ووصل صاحبها الفاضل إلى نتائج محمودة لها أثرها . وكان من الفرض على الكلية أن تعمل على نشر سائر الرسائل ، فإن هذا واجب عليها بلا ريب ؛ ليعرف رجال القانون أن الأزهر قد تغير وتطور فى البحث ، وعزم على المشاركة فى تقدم الدراسات الفقهية .

(٢) ان كثرة هؤلاء المتخصصين ، إن لم نقل إنهم جميعاً ، ظنوا خطأ أنهم بنيلهم الدرجات العلمية بعد رسائلهم التى تقدموا بها قد عملوا كل الواجب عليهم ، وكان من هذا أن أعفوا أنفسهم من البحث والإنتاج ، على حين أن درجة الدكتوراه نفسها من جامعة من الجامعات لا تعتبر إلا جوازاً للوصول إلى التدريس فى كلية من الكليات . ثم على صاحبها بعد ذلك أن يأخذ نفسه بالبحث والإنتاج فيما تخصص فيه ، إلى درجة أنه ليس له أن يتشوف إلى ترقية فى كليته إلا جزاء إنتاج جديد .

(٣) ومن المعروف أن المقرر دراسته من الفقه أو الأصول فى فرقة من فرق كلية الشريعة لا يتسع عام واحد بل أكثر من عام لدراسته واستيعابه ، وهنا يجد المدرس المجال فسيحاً أمامه لاختيار موضوع من موضوعات المقرر لدراسته فى هذا العام ، ثم يختار آخر لدراسته فى العام التالى فى الفرقة نفسها ، وهكذا حتى يتم دراسة جميع المقرر دراسة جادة عميقة ، وعليه أن يذيع بحثه لكل موضوع مطبوعاً يقرأه الناس ويفيدون منه . ولكن الأمر يسير فى كلية الشريعة ، وغيرها من كلياتها الأزهر ، على غير هذا المنهاج المستقيم ، وتسير الترقيات للمدرسين على قاعدة مرور الزمن وحدها ، بلا نظر إلى الكفايات والإنتاج العلمى الأصيل . وبذلك تعظم الخسارة ويطول نوم الأزهر ، ونظل نحن الأزهريين نعيش على هامش الحياة ، وتظل الصلة منقطعة أو تكاد بين الفقه الإسلامى والقوانين الأخرى ورجالها .

---

(١) إنى اتكلم هنا عن الفقه وحده ، ولذلك خصصت بالحديث عن المسئولية كلية الشريعة ، فالأمر كذلك فى الكليتين الأخريين فيما يختص بكل منهما .

١٠ — وأخيراً ، كان من قدر الله الرحيم بالإسلام وتراثه العلمي أن اتصل الغرب بالشرق ، وكان علماء الغرب الطائفة التي نعرفها باسم « المستشرقين » ، وهذه الطائفة تقاسمت التراث الإسلامي فيما بينها ، فكان منهم من توفر على الجانب الفقهي منه . ثم كان من ازدياد الصلة بين الغرب والشرق ما جعل الجامعة ترسل كثيراً من أبنائها لجامعات أوروبا ، وكان من هذه البعوث كلية الحقوق ، وكان من هؤلاء من كتبوا رسائلهم في موضوعات فقهية إسلامية أو موضوعات تتصل بالفقه الإسلامي من قرب ؛ فعرف كثير من رجال القانون في الغرب جانبا غير قليل من فقه الإسلام ، وعرفوا له بسبب ذلك قيمته السامية بين سائر القوانين [1] .

وهنا ، كما يقول الأستاذ الكبير علي بدوي [2] ، نكاد نلمس الوسيلة السامية الفعالة للكشف عن أسرار الشريعة الإسلامية ، ولإبراز مبادئها في ثوبها العصري ، ووضعها في المستوى الجدير بها بين الشرائع الأخرى . تلك الوسيلة التي يجب أن تتوفر وأن تقوى في البيئة العلمية الإسلامية على وجه عام ، والتي يجب أن نعمل على توفرها وتقويتها في البيئة العلمية المصرية على وجه خاص ؛ وهي تفقه رجال القانون في علوم الشرع الإسلامي من جانب ، ووقوف علماء الشريعة على مبادئ القانون العصري وأساليب بحثه من جانب آخر . فإذا تم تبادل الثقافتين الدينية والمدنية ، وامتزاج العقليتين الشرعية والقانونية ، جاءت الجهود متضامنة والمعونة مزدوجة ، وقامت الصلة بين الشريعة والقانون ، وأخذ الفقه الإسلامي مكانه في العلم الحديث .

الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة

(١) وهنا نشير أيضا إلى الأثر الطيب الذي أحدثه اتجاه كثير من طلاب الدكتوراه في كلية الحقوق بمصر إلى رسائلهم في موضوعات فقهية إسلامية ، لحصلت الصلة المباشرة بين رجال القانون وبين الفقه الاسلامي ، وهي صلة نرجو ونتوقع أن تزيد كثيراً .

(٢) ص ٧ من كتابه : أبحاث التاريخ العام للقانون ، الجزء الأول .



لقد علمت فى الكلية الشرعية فى دمشق ، والكلية الشرعية فى بيروت ، والكلية الشرعية فى بغداد ، منذ أكثر من خمس عشرة سنة ، وكلها قد أنشىء على غرار معاهد الأزهر وكلياته وكلها يتبع مناهج قريبة من مناهجه — فكنت أعجب من القائمين عليها كيف يهملون (علم التوحيد) . ويسمون باسمه ، ويقيمون مقامه (شيئا) هو أبعد عن التوحيد ، من الأرض عن السماء ، مع أن التوحيد من الدين ، بمقام الروح من الجسد ، وأنه أول أغراض الرسل جميعا — وأعظم مقاصد القرآن ، ولأجله بعث الأنبياء ، وشرعت الديانات .

والذى يقرأ اليوم على أنه توحيد مما اشتملت عليه العقيدة النسفية وأمثالها (ولا أستثنى من ذلك رسالة الشيخ محمد عبده) لا يكاد يقوى عقيدة ، ولا يثبت إيمانا ، ولا يبعث فى النفس خشية الله ، ودوام مراقبته ، ولا يدفع إلى إخلاص فى عبادة ، ولا يذيق صاحبه حلاوة الإيمان . يخاطب العقل بالمنطق ، وكان من حقه أن يخاطب القلب بالشعور ، وربما انتهى إلى جدل عقيم لا يلد فائدة ، ولا ينتج نفعا ، وأعجب ما فيه رواية شبه أقوام انقرضوا ، وتلقين الطالب ضلالاتهم (وكفرياتهم) التى لم يبق اليوم أحد على ظهر الأرض يعرفها أو يقول بها .

ولقد كان المسلمون الاولون ، وهم أئمة الدين ، وصفوة المؤمنين ، لا يعرفون من علم التوحيد ، إلا الآيات التى أنزلها الله فى القرآن ، أقبلوا عليها تلاوة خاشعة ، وعلما وفهما ، فأعطاهم الله بها إيمانا ثابتا ظهر فى كل حركة من حركاتهم ، وسكنة من سكناتهم ، وكانوا يعلمون أن للإيمان شعبا تجمع مطالب الخير والحق كلها ، فكانوا متمسكين بشعبه جميعا [١] من تنزيه الله عن الشريك ، وإخلاص العبادة والدعاء له ، وابتغاء الخير منه ، والاستعانة (فيما وراء الاسباب) به وحده ، إلى مايبدو أنه أيسر أعمال الخير وهو إماطة الأذى عن الطريق . وكانوا لا يأتون المحرمات ، لأنه (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن) ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن ، وكيف يزنى وهو (مؤمن) بأن الله مطلع عليه ، وناظر إليه ؟

---

[١] أحسن مرجع فى هذا المعنى مقالات الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب فى الفتح .

هل يستطيع أن يزنى من يعلم أن أباه أو أستاذه ، قائم فى شباك ينظر إليه ، وكانوا أهل نظافة وطهارة فى ثيابهم ، وأجسادهم ومساكنهم ، وألسنتهم لا يدنسونها بالخنا ، وأعمالهم لا يوسخونها بالغش والرياء والفسوق والعصيان ، لأن (النظافة من الإيمان) .

وكان فى عصرهم مخالفون من كل نحلة ومذهب ، فما ضرهم فى إيمانهم ومناظرتهم لخصومهم أنهم لم يدرسوا علم الكلام ، ولم يعرفوا منطق أرسطو ولم يقرءوا النسفية ولا ما يشبه النسفية ، وما احتاجوا أن يسلكوا فى جدال هؤلاء المخالفين والرد عليهم غير مسلك القرآن .

ومر على ذلك القرن الأول ، وهو خير القرون ، وشىء من الثانى ، ثم نجمت فى الأمة طائفة المتكلمين من المعتزلة ، وقد أجمعت كلمة العلماء فى عصر نشأتهم على إنكار بدعتهم ، وتقبيح نحلتهم على ما كان لهم من إخلاص فى نية الذب عن الإسلام ، وثبات فى مواقف الدفاع ، وبصر بصناعة الجدل ، وما كان لهم من سعة علم وحدة نظر ، وروعة بيان .

واتفق أن إماماً من أئمتهم ، ولساناً من ألسنتهم ، ترك الاعتزال ورجع إلى الجماعة ، ولكنه حمل معه تفكيره وأسلوبه وطريقته ، وهو أبو الحسن الأشعرى ، فلم تتحول هذه الطريقة حتى تصير سلفية قرآنية ، ولكن تحولت طريقة السلف به فصارت منطقية عقلية ، واختفى بذلك التوحيد الذى كان مصدره ومرده ، إلى آيات القرآن لا يعرف غيرها ، ولا يعتمد إلا عليها ، ونشأ علم الكلام ، الذى يعتمد على منطق أرسطو .

والغريب أن هذا العلم الذى نسميه خطأ بـ (علم التوحيد) وندرسه فى مدارس الدين ونشغل به الطلاب ، ونأخذه على أنه طاعة من الطاعات ، وقربة من القربات قد كرهه علماء الملة وأئمة الاسلام ، ولما وصل المصرى الذى أرسله ابن العاص إلى عمـــر بن الخطاب ووجده يتكلم فى شىء يشبه علم الكلام اليوم بسؤاله عن معنى الاستواء وأمثال ذلك من المتشابه ضربه ونفاه وأمر الناس بمقاطعته ، مع أن ما ضربه لأجله هو ما تمتلىء به كتب علم الكلام الذى نسميه علم التوحيد .

ومالك لما سئل عن ذلك عد السؤال بدعة ، وجوابه مشهور معروف ، ونهى أبو حنيفة ابنه عن مناظرة رجل كان يناظره فى القدر وأمره ألا يعود ، ومنع أصحابه من الصلاة خلف رجل كان يتكلم فى خلق القرآن وآخر كان يرد عليه ، فقيل له الأول ينكر قدم القرآن ، فما بال الآخر ؟ قال : ينازع فى الدين ، والنزاع فى الدين بدعة ، وروى عنه النهى عن الصلاة خلف أصحاب الكلام ، وقال الشافعى : حكمى فى أهل الكلام أن يضربوا

بالجريد والنعال ويطاف بهم فى العشائر والقبائل ، ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على كلام أهل البدعة ، ونقل عنه أنه قال : « لأن يلقى العبد الله بكل ذنب خلا الشرك خير له من أن يلقاه بعلم الكلام . وقال : إذا سمعتم الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهدوا أنه من أهل الكلام » .

وقال أحمد بن حنبل : علماء الكلام زنادقة . وقال : لا يصلح صاحب الكلام أبداً .

* * *

وقد يقول قائل : إن هذا كله فيمن جاء بما يخالف نصوص القرآن وظواهره من المعتزلة وأشباههم . فما يقول هذا القائل فيما روى عن جماعة نعدهم اليوم من أكابر علماء أهل السنة والجماعة ، مارسوا علم الكلام حتى صاروا الأئمة فيه ، وصرنا نأخذ عنهم أكثر ما نملأ به كتبنا التى ندرسها فى معاهدنا وكلياتها ، ثم ندموا واستغفروا ، وتابوا وأنابوا ، أولم الأشعرى ذكر فى كتاب (الإبانة) وهو آخر كتاب ألفه ، أنه رجع فى عقائده إلى مذهب أحمد بن حنبل [1] ، ورجع الغزالى إلى مذهب السلف ، ذكر ذلك فى كتابه (إلجام العوام) وأعرض عن تلك الطرق جملة حتى مات والبخارى على صدره [2] والرازى قال :

ولقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلا ، ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريق القرآن . اقرأ فى الآيات « الرحمن على العرش استوى » و « إليه يصعد الكلم الطيب » واقرأ فى النفى « ليس كمثله شيء » ، « ولا يحيطون بشيء من علمه » إلى أن قال : ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل تجربتى .

وهو القائل :

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعى العالمين ضلال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

والشهرستانى يقول فى الفلاسفة والمتكلمين :

---

[1] التعليم والارشاد للحلبى ص ١٧٠ طبع مصر ١٩٠٦ . [2] شرح الفقه الأكبر لملا على القارى ص ٥ طبع مصر ١٣٢٣ .

لعمرى لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفى بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعاً سن نادم

وأبو المعالى الجوينى قال : يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام . فلو عرفت أن الكلام يبلغ بى إلى ما بلغ ما اشتغلت به . وقال عند موته : لقد خضت البحر الخضم ، وخليت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت فى الذين نهونى عنه . والآن إن لم يتداركنى ربى برحمته فالويل لابن الجوينى .

إلى أن قال — وهأنذا أموت على عقيدة عجائز أهل نيسابور .

وقال الخسروشاهى وهو من أجل تلاميذ الفخر الرازى لبعض الفضلاء : ما تعتقد ؟ قال : ما يعتقده المسلمون . قال : وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به ؟ قال : نعم . قال : أحمد الله على هذه النعمة . فإنى والله ما أدرى ما أعتقد . وبكى حتى اخضلت لحيته .

وقال الخونجى عند موته : ما عرفت شيئاً مما حصلته سوى أن الممكن مفتقر إلى المرجح . ثم قال : الافتقار وصف سلبى . أموت وما عرفت شيئاً .

وقال آخر : أضطجع على فراشى وأضع الملحفة على وجهى ، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندى شىء منها .

فأين بعد هؤلاء ؟ وهؤلاء هم أعلام الكلام فى الإسلام ؟

* * *

هذا هو علم الكلام الذى نشتغل به اليوم ، نشتغل بالصفات وهل هى عين الماهية أو شىء زائد عنها . والأعراض وهل تبقى زمانين ، والطفرة والاستطاعة وخلق القرآن وأشياء أخر قرأتها من قديم ونسيتها ولله الحمد ، وليس بعض من يسمون أنفسهم بالسلفيين على خير من هذه الحال ، فهم يشتغلون بالمتشابه الذى ضرب عليه إمام السلف الصالح عمر بن الخطاب ، ولا دأب لهم إلا الكلام فى اليد والوجه والاستواء ينكرون التأويل وهو من سنن العرب فى كلامها ، والقرآن أنزل بلسان العرب ، ولا يعرفون كيف يخرجون مما أدخلوا نفوسهم فيه من هذه المضايق ، فيقع الجهلة منهم بالتجسيم وهم لا يدرون ،

ويأتون على ادعائهم السلفية بما لم يعرفه السلف من مثل قولهم : الله بائن من خلقه . وإلزامهم صغار الطلبة والمبتدئين بحفظ ذلك واعتقاده .

فهل هذا هو التوحيد الذى بعث الله به محمداً ؟ هل هذا هو الطريق الذى سلكه النبي ﷺ فى الدعوة إلى الله؟ أ مبتدعون نحن أم متبعون ؟ ومصلحون نحن أم مفسدون؟

إنى أرجو من أستاذنا وصديقنا العلامة الأديب المصلح السيد الخضر ، شيخ الإسلام علما ومنصبا أن يأمر بتعديل المناهج وإلغاء هذه الكتب جملة واحدة . وأن يجعل علم التوحيد مقصورا على إفهام الطلاب آيات التوحيد فى القرآن ، على إفهامها ولم أقل على تفسيرها ، لئلا يدخل من باب التفسير شىء مما فى تفسير الفخر وأمثاله وأن يتولى ذلك مدرس حاضر القلب ، قوى الإيمان ، من المسلمين الصادقين ، والعلماء العاملين ، يعلم بفعاله أكثر مما يعلم بمقاله ، ويصلح بصلاح نفسه أكثر مما يصلح بنجاح درسه ، وأن يكون المنهج منهج الرسول فى تلقين التوحيد لمن كان يفد عليه من الكفار ، يقيمون اليوم أو الأيام ، ويسمعون الحديث أو الأحاديث ، فينصرفون وهم مؤمنون ، وهم عارفون بالإسلام ، وهم دعاة إلى الله ، وما تعلموا منطق أرسطو ، ولا ناقشوا فى رؤية الله فى الآخرة ، ولا لقنوا أنه بائن من خلقه !

وأن يتفرغ بعد ذلك بعض كبار الطلبة لدراسة علم الكلام الذى ينبغى أن يوضع من جديد ، العلم الذى يرد على الخصوم الأحياء من الشيوعيين والقوميين الملحدين والقاديانية والأحمدية والبهائية والتيجانية ، يدرس مقالاتهم المعادية للإسلام ، ويبين ضعفها وفسادها ، ولا يشتغل إلا بالشبه الدائمة المنتشرة وإلا كان عوننا للعدو علينا ، ومذيعا لضلالاتهم فينا ، وينبغى أن تعين الطوائف التى يجب الرد عليها فى مطلع كل سنة مدرسية . وأن يترك الرد على الجهمية والمعطلة والمشبهة وما لا أذكره الآن من ألقاب المخالفين — إلى الأبد !

وبذلك نكون قد دعونا إلى الإيمان ، ودافعنا عن الإسلام .

على الطنطاوى
قاضى دمشق

خير نظام للحكم

حديث لفضيلة الاستاذ الاكبر

كتب مندوب « الأهرام » يقول :

أثيرت فى الأيام الأخيرة بحوث حول نظام الحكم ، كيف يكون ، وعلى أى وضع يقوم ؟ والحق أن هذا الموضوع من الدقة والخطورة بحيث يصح أن يستأثر بشىء كبير من عناية الباحثين . وقد كانت فرصة طيبة تلك التى أتيحت لى فى مساء أمس ، إذ التقيت بفضيلة الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وتحدثت إلى فضيلته فى هذا الموضوع الحيوى ، وكان الاستاذ الأكبر صريحاً على عادته فتحدث إلى يقول :

تجتاز مصر فى أيامها التاريخية الحاضرة أعظم انقلاب اجتماعى مر بها منذ قرون ، لأنه الانقلاب الوحيد الذى ينشد لمصر النظام لتتمكن من الاستقرار عليه والاستمرار فيه إلى الأبد .

ومما يلاحظ فى هذا الموقف أن التطورات الماضية لم تكن نتيجة طبيعية للوعى القومى ، ولذلك كان الوطن يفاجأ بها مفاجأة ، وكان نظام الحكم الذى يترتب على تلك المفاجآت يفرض على البلاد فرضاً ، إما من استعمار قاهر ، أو من مستبد متغلب . ولذلك قلما كان يلاحظ فيه حاجة الأمة واقتناعها ، والأساليب التى ترتاح إليها وتعتبرها منتزعة من روحها وذوقها ومن المبادىء التى آمنت بها ، ونشأت عليها ، وترجع بذكرياتها وتقاليدها إلى ما حفظه التاريخ من مفاخرها وأمجادها ، لذلك كان نظام الحكم فى مصر فى العصور الأخيرة بعيداً عن أمنية الاستقرار ، وكان مؤيدا بالقوة القائمة عليه ، لا بالاقتناع به والطمأنينة له والإيمان بصلاحه .

والآن وقد عزمت مصر على أن تختار نظامها بمحض إرادتها ، فمن سعادتها أن يكون نظامها المرتجى منتزعا من مثلها العليا التى تؤمن بها ، وترتاح إليها ، بوازع من النفس وإيمان من القلب ، لا بوازع من سلطان القوة الصماء ، ونصوص القانون الذى كثيرا ما شكا أقطابه مواطن الضعف فيه .

ولقد أخذ كل عالم بمزايا نظام من الأنظمة الأجنبية يعرض على الرأى العام مزايا ذلك النظام محاولا إقناع الأمة بالأخذ به . إن هذه الأنظمة - مع كثرة عيوبها وما يحف بها من مواطن الضعف - لا يتعاملون بها مع كل من يتعامل معهم من الشعوب القوية والضعيفة والمشاهد من حالهم أنهم مع الشعوب القوية فى عداء متواصل ، ومع الشعوب الضعيفة فى بغى مخجل ، وما هكذا يكون أصحاب المبادىء الإنسانية السليمة ، والنظم البريئة التى يراد منها سعادة المجتمع فى عصر يفتخر بحضارته وعلومه . فالوصف النظرى الذى نسمعه من فصحائنا وخطبائنا لبعض تلك النظم الأجنبية عنا ، لا نرى آثاره فى البلاد التى اخترعته وعملت به وقلبت جميع الأوجه فى تعديله وترقيعه وتحويره لينتج لها السعادة ، فكان أملها منه فى السعادة كأمل الظمآن بالسراب ، فكيف بنا ونحن الأجانب عن تلك النظم المخترعة لغيرنا ، ولو حاولنا استعارتها لكانت لنا كما تكون الألبسة التى تستعار للممثلين .

إن الدعاة لتلك الأنظمة قرروا فى مؤلفاتهم وأعلنوا فى صحفهم ، أنها كل لا يتجزأ ، وهم يدعون هذه الأمة إلى أن تأخذ بهذا الكل الذى لا يتجزأ شاءت أو أبت ، والأمة لها نظام فطرى نظيف ينظر إلى الحق من حيث هو حق وإلى الخير من حيث هو خير وتدين لله بقول خاتم رسله : « أيها الناس إنما ضل من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » ، وقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى رسالته المشهورة إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة : « آس بين الناس فى مجلسك وفى وجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك » .

هذا النظام الفطرى الذى يقيم الحدود على الكبير والصغير سواء ، لا فرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى ، وحث على استعمال الأصلح ، واختيار الأمثل فالأمثل للولايات العامة والوظائف ، وأوجب على ولى الأمر أن يقلد أعمال المسلمين لمن يجده صالحاً منهم ، فقد قال النبى ﷺ : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً . فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله » ، وفى رواية أخرى لهذا الحديث : « من قلد رجلا على عصابة وهو يجد فى تلك العصابة أرضى منه ، فقد خان الله وخان رسوله وخان المؤمنين » .

وقد جاء كذلك عن عمر بن الخطاب أنه قال : « من ولى من أمر المسلمين شيئاً ، فولى رجلا لمودة أو قرابة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين . » ومعنى هذا أن النظام

الذى يكفل المساواة بين جميع الأفراد فى الحقوق والواجبات ، ويجعل من الواجب على كل من ولى شيئاً من أمر المسلمين أن يوجه فى موضع وفى كل عمل من الأعمال أصلح من يقوم به ويؤديه الأداء الصحيح ، فإن عدل عن الأحق الأصلح إلى غيره ، بسبب قرابة او صداقة أو موافقة فى بلد أو مذهب أو طريقة ، أو لرشوة يأخذها منه من مال أو منفعة ، أو لضغينة فى قلبه على الأحق ، أو لعداوة بينهما ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين .

وهو النظام الذى يشعر الحاكم والمحكوم بأنهما سواء ، وهذا أبو عبيدة الجراح يضرب لنا أروع الأمثال فى هذا الباب ، فقد فتح بلد حمص ، فجاءوا له بطعام فاخر صنع له خصيصاً فما كان منه إلا أن سأل : أهذا الطعام قد أطعم منه الجيش ؟ فقالوا : كلا ، وإنما هو لك . فقال . ردوه .. فإنى لا آكل طعاماً لم يأكل الجيش منه !!!

وقد جاء فى الآثار أن بعض خلفاء بنى العباس سأل بعض العلماء أن يحدثه عما أدرك ، فقال أدركت عمر بن عبد العزيز ، فقيل له يا أمير المؤمنين : أفغرت أفواه بنيك من هذا المال وتركتهم فقراء لا شىء لهم . وكان فى مرض موته فقال : يا بنى . . . والله ما منعتكم حقاً هو لكم ولم أكن بالذى آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم ، وإنما أنتم أحد رجلين ، إما صالح ، فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح ، فلا أترك له ما يستعين به على معصية الله ، قوموا عنى . . .

هذه هى الأمثال التى تضرب فى معنى العدالة فى ولاية أمور الناس ، وكلها تجمع على أن الإسلام دين إنسانى محض ، وهو نظامنا الذى نؤمن به ، خلافاً للأنظمة الأجنبية عنا ، وإن العمل به ليحول هذه الأمة إلى كتلة فولاذية مؤمنة بنظامها كإيمانها بكعبتها وقرآنها . والأمر أعظم وأخطر من أن ترتجل فيه الخطط والنظم .

ونحن لا ندعو الأمة وأهل الحل والعقد فيها إلا إلى التروى والتفكير والدرس والمقارنة . مع العلم بأن مصر لا تعلم منذ عشرة آلاف سنة إلى الآن حكماً أعدل ولا أرأف ولا أسعد من الحكم الذى بسط جناح رحمته عليها فى المائة السنة الأولى من الفتح الإسلامى ، ودليل عدله ورأفته وسعادته أن مصر باختيار منها تحولت إليه بأرواحها وقلوبها وألسنتها ، فكانت الدرة المتألقة فى تاج الوطن العربى والإسلامى ، ويرجو لها كل محب لها أن تبقى كذلك إن شاء الله إلى ما شاء الله .

نشأة كتب الأمالي وخصائصها

— ٢ —

تحدثنا فى المقال السابق عن معاهد التعليم فى صدر الإسلام والدولة الأموية . والآن لنتحدث عن العصر العباسى وما يليه فنقول :

أما فى العصر العباسى وما يليه من الأعصر فقد استمرت تلك الوسائل ، وزيد عليها معاهد جديدة . وهى :

المدرسة — : فما لاشك فيه أن المدارس من منشئات هذا العصر ، غير أنه بين المؤرخين خلاف فى تحديد الزمن الذى ظهرت فيه .

يقول (زيدان) فى الجزء الثالث من كتابه « تاريخ التمدن الإسلامى » : « وقد أجمع المؤرخون تقريباً على أن أول من بنى المدارس فى الإسلام نظام الملك الطوسى وزير ملك شاه السلطان السلجوقى فى أواسط القرن الخامس الهجرى . ومن الغريب أن ينقضى العصر العباسى ويتم نقل الكتب وينضج العلم على اختلاف موضوعاته ولم ينشىء المسلمون مدرسة ، أو أن ينشئوا المدارس ولا يرد ذكرها فى تاريخهم » .

ثم يقول (زيدان) : « على أننا رأينا فيما ذكره المسلمون عدة مدارس أنشئت فى نيسابور عاصمة خراسان قبل نظام الملك منها مدرسة ابن فورك المتوفى سنة (٤٠٦ هـ) ذكر ذلك ابن خلكان ، والمدرسة البيهقية نسبة إلى البيهقى المتوفى سنة (٤٥٠ هـ) بنيسابور ، والمدرسة السعدية بنيسابور بناها نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوى ، ومدرسة بنيت للأستاذ أبى إسحق الاسفرايينى . وكل هذه المدارس بنيت قبل بناء المدرسة النظامية ببغداد » .

وهنا نقول لزيدان : إذا كان الأمر كذلك فكيف جاز لك أن تقول « قد أجمع المؤرخون على أن أول من بنى المدارس فى الإسلام نظام الملك » ؟

أما كان الأجدر أن تصاغ العبارة فى أسلوب يقلل من هذا الاجماع أو يردّه أو يصرح بنقده - على أننا نرى أن (زيدان) إنما نقل القول ببناء هذه المدارس عن شيخ الإسلام السبكى ولم يشر اليه مما سنبينه بعد .

والدليل على ذلك العبارة الآتية فهى بنصها مذكورة فى كتاب « طبقات الشافعية الكبرى » للسبكى .

يقول « زيدان » : « ولعل السبب فى اشتهار أسبقية نظام الملك فى إنشاء المدارس الإسلامية أنه أول من بنى مدرسة كبرى فى بغداد وجعل التعليم فيها بالمجان وفرض لتلاميذها الأرزاق » .

ونحن نقول إنما يرجع السبب فى إنشائها إلى استرضاء الشعب بنشر التعليم الدينى وإجراء الأرزاق على الأساتذة والتلاميذ ولتأييد المذهب السنى والقضاء على مذهب الشيعة .

وقد ذكر شيخ الإسلام السبكى « فى طبقات الشافعية الكبرى » فى ترجمة نظام الملك فقال : وشيخنا الذهبى زعم أن نظام الملك هو أول من بنى المدارس ، وليس الأمر كذلك ، فقد كانت المدرسة البيهقية بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك ، والمدرسة السعدية بنيسابور أيضا ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها أبو سعيد الإستراباذى الواعظ الصوفى ومدرسة رابعة بنيسابور بنيت للأستاذ أبى إسحق الاسفراينى . وقد قال الحاكم فى ترجمة الأستاذ : لم يبن بنيسابور قبلها يعنى مدرسة الأستاذ مثلها . وهذا صريح فى أنه بنى قبلها غيرها ، ثم يقول السبكى ، وقد أدرت فكرى وغلب على ظنى أن نظام الملك أول من قدر المعاليم للطلبة ، فإنه لم يتضح لى هل كانت المدارس قبله بمعاليم للطلبة أولا ، والأظهر أنه لم يكن لهم معلوم » .

وذكر ياقوت فى « معجم الأدباء » أن أحمد بن عبد الملك بن أحمد (٣٨٨ - ٤٧٠ هـ) كان يؤذن على منارة المدرسة البيهقية .

وذكر المقريزى : أن أول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الاسلام أهل نيسابور ، فبنيت بها المدرسة البيهقية .

ومهما يكن من شىء فإن العصر العباسى هو الذى أنشئت فيه المدارس ، بمعنى أماكن خصوصية لدراسة العلم رتبت فيها الدروس على درجات ورتبت وظائف للطلبة والعلماء وظائف (أى مرتبات) وجعلت منهم طائفة يبيتون فى المدارس بما يشبه النظام فى مدارسنا .

هذا فى المشرق . أما فى مصر فقد قال ابن خلكان :

لما ملك السلطان صلاح الدين بن أيوب بالديار المصرية فى القرن السادس الهجرى لم يكن بها شىء من المدارس فبنى السلطان صلاح الدين بالقرافة الصغرى المدرسة المجاورة

للإمام الشافعى وبنى مدرسة مجاورة للمشهد الحسينى بالقاهرة ثم مدرسة للحنفية وبنى مدرسة للشافعية ومدرسة للمالكية ـ ثم اختفى أثره فى ذلك بنو أيوب فى ممالكهم بمصر والشام ثم سلاطين المماليك من بعدهم .

من ذلك يتبين أن المسلمين سبقوا الاوربيين فى إنشاء المدارس بأكثر من (٥٠٠ سنة) .

قال « نيكلسون » فى كتابه « التاريخ الأدبى للعرب :

« بينما كانت المبادئ الاولى للتعليم فى أوربة المسيحية خلال القرن العاشر الميلادى محصورة بين القسوس والرهبان ، كان كل فرد فى الأندلس تقريباً يستطيع أن يقرأ ويكتب »

ويعبر « هيوار » فى كتابه — تاريخ الادب العربى — عن مدرسة بغداد النظامية بأنها الجامعة النظامية .

وكذا « نيكلسون » يعبر عنها بالكلية النظامية ، وأحيانا بالأكاديمية النظامية .

وبودنا لو نطيل البحث فى كل هذه المدارس وبرامجها ونظمها وأثرها لولا أن هذا ليس بموضوع بحثنا .

وعلى الرغم من كل هذه النصوص التاريخية التى يبين فيها فضل العرب وسبقهم فى هذا المضمار مما يبرهن على أن الشرق أستاذ الغرب وأن الغرب مدين للشرق دين التلميذ لاستاذه ، فإننا لا نعدم باحثاً غير منصف مثل (أندريه سيرفييه) يقول فى كتابه « الإسلام وعلم النفس عند المسلمين » :

« إنه لا فضل للعرب على العلم والتعليم والحضارة ، إذ لم تأت أعمالهم بشىء حسن ، فالحياة العربية كانت مجدبة تقريباً لم تكد تثمر » .

وإزاء هذا الرأى الخاطئ آراء أخرى منصفة لمستشرقين اعترفوا بفضل العرب وقدروهم خير تقدير . من أولئك المستشرق الانجليزى (استانلى لين بول) والأستاذ الأمريكى (درابر) فى كتابه « النزاع بين الدين والعلم » .

ومن أساليب التعليم التى لها الأثر فى هذا العصر مجالس الإدباء والشعراء فقد زادت فيه تلك المجالس ، وكان المسجد أكبر معهد لها . فكان مسجد عمرو فى مصر ، ومسجد البصرة ، ومسجد الكوفة ، والحرم المكى ، والحرم المدنى ، وغيرها من المساجد كمسجد ابن طولون ، والجامع الأزهر تقوم مقام الكليات والجامعات فى عصرنا .

فكان يجلس الإمام فى قبة بجانب سارية من ساريات المسجد ويجتمع الطلبة حوله . فكنت ترى هنا حلقة لعلوم الدين ، وهناك حلقات لعلوم العربية ، وحلقات لعلماء الكلام ، وحلقات للشعر والأدب .

فنى سنة (٢٥٣ هـ) رحل الطبرى إلى مصر وأملى فى مسجد عمرو شعر الطرماح عند بيت المال فى الجامع . وحكى المرزبانى فى كتابه « الموشح » أن مسلم بن الوليد كان يملى شعره فى المسجد .

وكان أبو العتاهية يجلس فى المسجد وحوله الناس . وقال أبو محمد اليزيدى . كان أبو عبيدة يجلس فى مسجد البصرة إلى سارية وكنت أنا وخلف الأحمر نجلس جميعا إلى أخرى .

ومن هذه المجالس أيضاً مجالس المناظرة ، فكانت تعقد فى الدور والقصور وفى المنازل وأفنيتها وفى مجالس الخلفاء وبحضرة الإمراء . وقد حكت لنا بعض كتب النحو مناظرات بين العلماء فى المسائل النحوية والصرفية واللغوية . وقد جاءت فصول ممتعة منها فى الجزء الثالث من كتاب « الأشباه والنظائر » للسيوطى .

والآن وقد وصلنا إلى هذا الحد ، يجدر بنا أن ننتقل إلى نشوء كتب الأمالى وخصائص كل . فكتب الأمالى ثمرة من ثمار تلك المجالس التى ذكرناها . ونتيجة لنظام الرواية التى تشعبت طرقها وتطورت حياتها وهى صورة لا بد منها لعدم وجود الطباعة .

فلنبدأ أولا ببيان ما طرأ على الرواية من تغيير وتبديل . وذلك :

أولا : أن الرواية أصبحت صناعة علمية عرف بها نفر وهم الذين إليهم ينتهى الإسناد فى الأدب ، إذ لا إسناد فى الروايات يكاد يرجع الى عرب الجاهلية . ومن رجال الرواية الذين كونوا الطبقة الأولى حماد الراوية المتوفى سنة (١٥٥ هـ) وهو أول من خص بلقب الراوية من الأدباء ، وكأبى عمرو بن العلاء المتوفى سنة (١٥٤ هـ) ، وكأبى عبيدة معمر ابن المثنى المتوفى سنة (٢٠٩ هـ) ، وكالأصمعى المتوفى سنة (٢١٤ هـ) . فهؤلاء عمد الرواة ، وعنهم أخذ الأدباء .

ثم ظهرت الطبقة التى أخذت عن هؤلاء ، وقد رأت هذه الطبقة أن ما بعث على الإسناد فى الحديث قد تحقق فى الأدب من انتحال اللغة والتزيد فى الأخبار والصنعة فى الشعر ، فلذا

أوجبوا الإسناد فى الأدب . وهذا أثر من آثار الحديث فى الأدب ، فلولا الحديث وإسناده لما خلصت اللغة من شائبة الكذب والتدليس .

ثانيا : قد عنى المحدثون بعلم الرجال أتم عناية وأكملها ، لحا كاهم فى ذلك علماء الأدب ، فجرحوا من جرحوا وعدلوا من عدلوا ، فالجرح والتعديل انتقلا من الحديث إلى الأدب .

فعدلوا الخليل بن أحمد وأبا عمر بن العلاء ، وجرحوا قطربا .

ثالثاً — أن الراوية الأدبية ضعفت فى القرن الرابع حين كثرت الكتب . فأصبح الإسناد من يومئذ مقصورا على تلقى الكتب وروايتها بالسند عن مؤلفيها ، لأن العلم قد نضج وكملت فنونه ، فقلما يظهر كتاب لإمام فى فنه . إلا سارع الناس إلى قراءته عليه ، أو يقرأ عليه وهم يسمعون . فكان أبو العباس ثعلب إمام الكوفيين المتوفى سنة (٢٩١ هـ) يحفظ كتب الفراء كلها . والفراء أملى هذه الكتب كلها من حفظه إلا بعض أوراق استعان فيها بالمراجعة ـ كما يذكر ابن خلكان ـ وكان مقدارها ثلاثة آلاف ورقة .

وهنا لا بأس بأن نستطرد إلى تحديد معنى ثلاث كلمات تصادفنا كثيرا فى كتب الأدب .

الكلمة الأولى : « الوراقون » والثانية « الورقة » والثالثة « المجلد » أو « المجلدة » .

أما الورّاقون : فهم الذين صنعتهم الوراقة .

والوراقة كانت حرفة احترفها كثير من العلماء ، وهى انتساخ الكتب ، وتصحيحها ، وتجليدها ، والتجارة فيها ، فهى تقوم مقام الطباعة فى غصرنا هذا ، بل أكثر منها ، إذ كان الوراق ينتخب الورق وينسخ الكتاب ـ أو ينسخ تحت إشرافه ـ ويصحح هذا النسخ حتى لا يقع فيه تحريف ويجلده ويبيعه ، وقد كان ابن النديم صاحب كتاب « الفهرست » وراقا

ذكر ابن خلكان فى ترجمة (الفراء) نقلا عن الخطيب فى تاريخ بغداد : أن الفراء لما اتصل بالمأمون أمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العربية ، وأمر أن يفرد بحجرة من حجر الدار ، ووكل به من يخدمه ويقضى له حاجاته ويؤذنونه بأوقات الصلاة ، وصير له الوراقين وألزمه الامناء ، فكان يملى والوراقون يكتبون حتى صنف كتاب الحدود فى سنتين (وهو يريد بالحدود التعاريف ، كحد المعرفة والنكرة ، وحد

النداء والترخيم وهذه أمور لم يعتد بها سيبويه كثيرا فى كتابه ، لأنها أثر من آثار المنطق والفلسفة فى النحو) .

فبعد أن فرغ الفراء من ذلك خرج الى الناس وابتدأ بكتاب المعانى .

قال الراوى : وأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب المعانى فلم نضبطهم ، فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضيا ، فلم يزل يمليه حتى أتمه .

ولما فرغ من كتاب المعانى خزنة الوراقون من الناس ليكسبوا به وقالوا لا نخرجه إلا لمن أراد أن ننسخه له على خمس أوراق بدرهم . فشكا الناس إلى الفراء فدعا الوارقين فقال لهم فى ذلك . فقالوا : إنما صحبناك لننتفع بك ، وكل ما صنفته فليس بالناس إليه من الحاجة ما بهم إلى هذا الكتاب ، فدعنا نعيش به .

فقال : فقاربوهم تنتفعوا وينتفعوا . فأبوا عليه . فقال سأريكم ، وقال للناس : إنى مملٍ كتاب معان أتم شرحاً وأبسط قولا من الذى أمليت .

فجلس يملى فأملى (الحمد) فى مائة ورقة ، فجاء الوراقون إليه وقالوا نحن نبلغ الناس ما يحبون ، فنسخوا كل عشر أوراق بدرهم .

وكان سبب إملائه (كتاب المعانى) أن أحد أصحابه وهو عمر بن بكير كان يصحب الحسن بن سهل ، فكتب إلى الفراء : أن الأمير الحسن لا يزال يسألنى عن أشياء من القرآن لا يحضرنى عنها جواب ، فإن رأيت أن تجمع لى أصولا وتجعل ذلك كتاباً يرجع إليه فعلت .

فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه : اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاباً فى القرآن . وجعل لهم يوما ، فلما حضروا خرج إليهم ، وكان فى المسجد رجل يؤذن فيه وكان من القراء ، فقال له اقرأ فقرأ فاتحة الكتاب ، ففسرها حتى مر فى القرآن كله على ذلك يقرأ الرجل ، والفراء يفسره ، وكتابه هذا نحو ألف ورقة .

وقد سقنا هذه القصة لانها صورة واضحة من الصور التى كان عليها الإملاء .

وذكر (متز) فى كتابه « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » : « وقد قيل إن من آفات العلم خيانة الوراقين ، وكان العلماء الذين يحرصون على سلامة العلم ينسخون كتبهم بأنفسهم إن استطاعوا » .

أما الورقة : فقد قدر ابن النديم فى الفهرست ما ذكره من المؤلفات بعدد الأوراق ، ويريد بها الورقات السليمانية ، منسوبة إلى سليمان بن راشد الذى كان والياً على خراسان فى أيام هرون الرشيد ، ومقدار ما فى الصفحة من هذه الورقة عشرون سطرا . وكان قدر كتاب الأغانى المطبوع فى واحد وعشرين جزءاً بخمسة آلاف ورقة من ذلك القرار

أما المجلد : فى اصطلاحهم فقد ذكر ابن خلكان فى تاريخ أبى محمد اليزيدى النحوى عن أبى حمدون الطيب بن إسماعيل قال : شهدت ابن أبى العتاهية وقد كتب عن أبى محمد اليزيدى قريباً من ألف مجلد عن أبى عمرو بن العلاء خاصة فيكون ذلك عشرة آلاف ورقة. لأن تقدير المجلد عشر ورقات .

والآن يمكننا أن نأخذ فى الحديث عن كتب الأمالى وموعدنا المقال الآتى إن شاء الله .

عبد الوهاب حموده
الأستاذ بكلية الآداب جامعة القاهرة

أقدم الخرائط الرمزية من اليمن

جاء فى مجلة المقتطف (م ٦٩ ص ٤٥٩) : إن أقدم الخرائط الرمزية خريطة محفورة على حجر من القرن التاسع قبل المسيح وجدت فى بابل . ويظهر من شكلها أنها من جنوب بلاد العرب ، مما يدل على قدم العمران هناك . وقد ظن الدكتور ويدر أن خريطة الاصطخرى — أول جغرافى العرب — التى صنعها فى القرن العاشر الميلادى بنيت على هذه الخريطة . ومن المحتمل أيضاً أن بطليموس بنى خريطته عليها فى إيصاله إفريقية بآسيا عند الأوقيانوس الهندى .

صدى قاصمتي مجلة دار التقريب

لما اطلعنا فى العدد الرابع للسنة الرابعة من مجلة دار التقريب (ص ٣٦٩) على فتوى مجتهد الشيعة محمد حسن الآشتيانى التى نقلها رئيس المحكمة الشرعية الشيعية العليا عن الأصل الرابع من أصول الفقه الشيعى فى كتاب (بحر الفوائد) للاشتيانى المذكور ، ومضمونها الإباحة للمسلم بأن لا يؤمن بما ثبت صدوره عن النبى ﷺ من أمور الغيب مثل كيفية خلق السماوات والأرض ووصف الجنة ، بدعوى أن هذه الأمور الغيبية « لادخل لها بشريعة سيد المرسلين ! ؟ »

وفى ذلك العدد نفسه من مجلة دار التقريب (ص ٢٩٢ — ٢٩٣) دعوة للمجالس التشريعية والنيابية فى العالم الإسلامى بأن تنسخ ما تشاء من آيات القرآن وأحكامه بدعوى أن النسخ فى القرآن لم ينته حكمه بوفاة الرسول ﷺ ، بل إن آية « وأمرهم شورى بينهم » نقلت حق التشريع من الله إلى الأمة « فالله عز وجل « كان هو المشرع ابتداء ، ثم غدا التشريع إلى الأمة انتهاء ! ؟ » .

لما اطلعنا فى مجلة دار التقريب على هاتين القاصمتين الخبيثتين ، رأينا أن من أول واجبات كل مجلة إسلامية فى العالم — وعلى رأسها مجلة الأزهر — أن تستنكر هذه الجرأة على الله ورسوله . ولا ريب فى أننا أدينا بعض ما يجب على كل مسلم بما كتبناه فى ص ٣٢٩ - ٣٣٠ من الجزء الثالث لهذه السنة بعنوان « قاصمتان خبيثتان فى مجلة دار التقريب » ، وبما نشرناه لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد اللطيف السبكى عضو جماعة كبار العلماء فى ص ٢٨٣ - ٢٨٧ بعنوان « طوائف » ، ولفضيلة الأستاذ المحقق الشيخ محمود الراوى المفتش بالأزهر فى ص ٢٨٨ - ٢٩٥ بعنوان « نظام الإسلام السياسى » وهو نفس العنوان الذى كان لمقالة الدعوة إلى نسخ القرآن فى مجلة دار التقريب .

وكنا نتوقع من مجلة دار التقريب أن تعتذر فى أول جزء يصدر منها بعد الجزء الذى تلطخ بتينك المقالتين ، بأى عذر يقبله أهل العقول ، ولكنها آثرت السكوت ، واكتفت

بنشر مقالة الدكتور محمد يوسف موسى بعنوان « فى سبيل القرآن والسنة » التى علق فيها على القاصمتين بقوله (فى العدد الاول ، السنة الخامسة ، ص ٨٠) :

« فى هذين الرأيين تعرض خطير لأقدس ما يحرص عليه المسلمون ، وهو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسنة رسوله الحكيم الذى لا ينطق عن الهوى . ومن أجل هذا ليس من الممكن أن يمر المسلم بهما كما يمر بكثير من الآراء الخاطئة المنتشرة هنا وهناك ، بل يجد من الواجب الدينى والعلمى مناقشتهما مناقشة موضوعية لا هدف لها إلا معرفة الحق » .

ثم قال عن موضوع النسخ : « وهذا الرأى على خطأه الواضح له عرق قديم فى تاريخ الفكر والآراء . لقد قال من قبل برأى قريب منه نجم الدين الطوفى » .

قلنا : ورأى الطوفى يدور حول تقديم المصلحة على النص ، متجاهلا الحقيقة التى برهن عليها أئمة الإسلام وآخرهم معاصره شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهى أنه ليس فى الشريعة الإسلامية نص صريح يخالفه العقل الصحيح أو المصلحة الشاملة . وقد تطرأ مصلحة شاذة كخطر الموت من الجوع على من لا يجد إلا لحم الميتة ، أو خطر الموت بالغصة على من لا يجد ما يسوغها به إلا الخمر ، فحينئذ يعمل فى أمثال هذه الحالات الشاذة والخاصة بقاعدة « الضرورات تبيح المحظورات » مقيدة بالحدود الضيقة فى القاعدة الأخرى : « الضرورة تقدر بقدرها » . ورسالة الطوفى فى هذا الموضوع كانت مجلة المنار قد نشرتها وعلقت عليها فى المجلد التاسع . ثم أعادت نشرها مجلة دار التقريب نفسها بالعدد الاول من سنتها الثانية ، ورد عليها علامة النجف الشيخ محمد الحسين كاشف الغطا .

ولئلا ينخدع بعض القراء بالطوفى (٦٥٧ - ٧١٦) ، على بعد ما بين مذهبه ومذهب الداعية إلى نسخ القرآن ، ننبه إلى أنه أحد الأذكياء المتلاعبين بالمذاهب والعقائد ، ولد فى قرية طوف من قرى منطقة صرصر على نهر عيسى بالعراق فى طريق الحاج من بغداد ، وانتقل إلى الشام أيام شيخ الإسلام ابن تيمية فلم يجد فيها لهمته العسكرية مرتعا ، فخرج منها وهو يهجو أهلها ، ثم حضر إلى مصر وافتضح بها ، وحكم عليه قاضى الحنابلة سعد الدين الحارثى بالتعزير والضرب والحبس بسبب عقائده الباطلة وإطالة لسانه على أم المؤمنين عائشة

وقوله فى صاحبى رسول الله ﷺ وخليفتيه على أمته سيدنا أبى بكر الصديق وسيدنا على ابن أبى طالب رضى الله عنهما :

كم بين من شك فى خلافته وبين من قيـــل إنه الله !

وهو الذى يصف نفسه بقوله (على ما جاء فى كتاب الدرر الكامنة للحافظ ابن حجر ٢ : ١٥٥) :

حنبـــلى رافضى ظاهرى أشعرى ، إنها إحدى الكبر

ونقل الحافظ ابن حجر كلاما له يدل على جهله بالسنة ، ثم نقل الرد عليه من قول الحافظ ابن رجب بما لا يتسع المقام لبسطه .

ونقل ابن حجر أيضاً قول ابن مكتوم فى ترجمة الطوفى من تاريخ النحاة : « قدم علينا فى زى الفقراء ، ثم تقدم عند الحنابلة ، فرفع إلى الحارثى (قاضى الحنابلة بمصر) أنه وقع فى حق عائشة فعزره وسجنه . . ثم أطلق فسافر إلى قوص » .

ونقل ابن حجر عن الصلاح الصفدى أنه لما حوكم أخرجوا بخطه هجواً فى الشيخين . (أبى بكر وعمر) وبعد حبسه أطلق وتوجه إلى قوص فنزل عند بعض النصارى .

وقال الحافظ ابن رجب فى طبقات الحنابلة : وذكر بعض شيوخنا عمن حدثه أنه كان يظهر التوبة ويتبرأ من الرفض وهو محبوس . قال ابن رجب : وهذا من نفاقه ، فانه لما جاور فى آخر عمره بالمدينة صحب السكاكينى شيخ الرافضة ، ونظم ما يتضمن السب لأبى بكر . ذكر ذلك عنه المطرى حافظ المدينة ومؤرخها .

وانظر ترجمة الطوفى فى الدرر الكامنة (٢ : ١٥٤ - ١٥٧ طبع حيدر أباد الدكن بالهند) وفى شذرات الذهب لابن العماد (٦ : ٣٩ - ٤٠ طبع القاهرة) .

وعلى كل حال فان هذا الحنبلى الرافضى الظاهرى الأشعرى المتلاعب بالعقائد والمذاهب ، لم يزد فى رسالته موضوع البحث على أن المصلحة تقدم على النص ، أما دعوة المجالس النيابية والتشريعية فى البلاد الإسلامية إلى أن تفسخ ما تشاء من القرآن فلا أظن أن فى الكرة الأرضية صحيفة تنتسب إلى الإسلام تبلغ بها الجرأة إلى أن تعلن ذلك وتنشره .

ثم علق الدكتور محمد يوسف موسى (ص ٨٤) على كلام المجتهد الشيعى محمد حسن الاشتيانى بقوله : « ومن العجب أن يضرب المثل بخلق السماوات والأرض وأحوال

الدار الآخرة لما لا يجب التدين به من أقوال الرسول وإن علمنا بصدوره عنه ، بدعوى أن ذلك لا دخل له بشريعة سيد المرسلين ! إن مهمة الرسل الذين اصطفاهم الله من خلقه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، تقوم - أول ما تقوم - على إثبات وحدانية الله ووجود الدار الآخرة وتفهيم من أرسلوا اليهم شيئا من أحوال هذه الدار ليسهل عليهم التصديق بها ، فكيف لا يجعل ذلك مع كيفية خلق العالم من الشريعة التى جاء بها رسولنا عليه الصلاة والسلام ؟! لو أن الكاتب ضرب الأمثال لما لا يجب التدين به فى رأيه من أحاديث الرسول لشىء مما يعرف بالتجربة كأمور هذا العالم الذى نعيش فيه (١) لكان له بعض العذر ، ولكن خلق العالم وأحوال الدار الآخرة وأمثال ذلك ، من الامور التى لا يمكن أن تعرف بيقين إلا بوحى من الله ، لأنها من عالم الغيب لا عالم الشهادة ، فكيف نفهم أو نتصور أن الرسول كان يجازف ويقول فى شىء من ذلك برأيه ؟! وهذا ، فضلا عن أن هذه الأمور جاء بها القرآن ، فهل نقول : لا يجب التدين أيضا بما جاء عن ذلك فى القرآن ، وهو كثير ! ؟ » .

****

ومن صدى قاصمتى مجلة دار التقريب أن رصيفتنا القديمة (مجلة العرفان) الغراء وهى لسان الشيعة فى جبل عامل ، رأت الطريق المختصر للخروج من ورطة الفتوى الشيعية بأن تتبرأ من هذا المجتهد الشيعى ، أى الاشتيانى ، فقالت فى الجزء الثانى من المجلد ٤٠ ص ٢٢٨ : « ونحن لا نعرف شيئا عن هذا الاشتيانى وعن آثاره ، بالرغم من كثرة الكتب المخطوطة والمطبوعة طبع إيران عندنا ، بل نعلم أن مراجع الشيعة فى القرن الثالث عشر هم : الميرزا حسن الشيرازى المتوفى سنة ١٣١٢ ، والميرزا حبيب الله المتوفى سنة ١٣١٤ ، والشيخ محمد حسين الكاظمى المتوفى سنة ١٣٠٦ . ولو سلمنا أن الاشتيانى قال ذلك فيكون شاذاً عما يعتقده الشيعة ، وسواء كان الاشتيانى أو الشيخ محمد جواد مغنية فقولهما ليس حجة على الشيعة » . وهذا قول حسن نشكر رصيفتنا مجلة (العرفان) عليه ، ولكن أين هذا الكلام من دعوى الشيخ مغنية بأن مثل هذا الاجتهاد الشيعى لو اطلع عليه الخواص من علماء السنة لقويت ثقتهم بالشيعة وتفكيرهم ؟! » .

****

وأهم ما نعتبره صدى لقاصمتى مجلة دار التقريب رسالة مطولة حملها إلينا بريد العراق من أحد كبار مجتهدى الشيعة فى هذا العصر وهو الشيخ محمد مهدى الخالصى ، وكنا نود

(١) مجلة الازهر - أى كمسألة تأبير النخل وشئون الصناعات والمهن .

لو اقتصرت رسالته على هذا الموضوع ، إذن لنشرناها بحذافيرها ، ولكنها تعرضت لأمور كثيرة فى غير موضوعنا هذا ، وفى كل سطر منها فقرة لو نشرناها لاضطررنا إلى الجواب عليها بمقال أو أكثر ، فبعد أن نكون مع الاشتيانى ومغنية ودار التقريب ، ننتقل إلى مناقشات عقيمة ليس من خطتنا الخوض فيها إلا عند الضرورة ، وإنما نحن الآن فى موقف دفاع ، نستنكر فيه كل منكر فى الدين ، لأن مجلتنا تأسست يوم تأسست لبيان الحق فى مثل هذه المواقف .

ومما يدخل فى موضوعنا من رسالة العلامة مجتهد الشيعة الشيخ الخالصى أنه نقل لنا نص كلام الاشتيانى فى كتابه بحر الفوائد مطولا غير مختصر . والخالصى كان ينتظر منا قبل أن نكتب ما كتبناه أن نطلع على كتاب الاشتيانى لنتثبت مما عزى إليه فيه . ولكن إذا كانت مكتبة رصيفتنا مجلة (العرفان) ليس فيها كتاب الاشتيانى ولم يسمعوا باسمه ، فإن من تكليف التعجيز تكليفنا بأن نكون أكثر اطلاعا على كتب متأخرى الشيعة من الشيعة أنفسهم . ومع ذلك فإن حملتنا لم تكن على الاشتيانى ولا على كتابه ، بل على الكلام الصريح المنشور فى مجلة دار التقريب منقولا لها من قاض شيعى كبير يعرضه على أهل السنة على أنه نموذج ممتاز من اجتهادات الشيعة التى يباهون بها عند أهل السنة ، فكان موقفنا من ذلك هو الموقف السليم الذى لا ينبغى غيره لأمثالنا . وسواء عندنا بعد ذلك أكان هـذا الكلام من قول الاشتيانى أو مغنية أو المجلة نفسها ، لأننا لم نكن فى معرض الحكم على الاشتيانى بالذات ، بل فى معرض الحكم على كلام صريح ، وقد تلطفنا كثيراً فى الحكم عليه .

على أننا باطلاعنا على النص المفصل الذى نقله المجتهد الخالصى رأينا أن الاشتيانى يعتبر أحاديث رسول الله ﷺ فى أمور الغيب لا تخبر عن الأمر الدينى !؟ كأن الإيمان بالغيب ليس عنده من صميم الإيمان الإسلامى !؟ ويجزم بأنه « لا إشكال فى أنه لا يجب التدين به !؟ بعد حصول العلم به !؟ فضلا عن الظن به !؟ » ، ولما رأى نفسه قد تورط وأسرف وأشفى على الشفير ، استدرك على نفسه فقال « نعم ، لا يجوز إنكاره بعد ثبوته من حيث إيجابه لتكذيب النبى فيكون كفراً » ، وهذه هى الفقرة التى أهملها الشيخ مغنية وتعلق بها الخالصى . وفيما عدا ذلك فإن ما نقله الشيخ مغنية كان أمينا فيه . بقى أمر الجمع بين قول الاشتيانى عن الحديث الثابت صدوره عن النبى ﷺ فى شعب الإيمان بالغيب بأنه « لا إشكال فى أنه لا يجب التدين به بعد حصول العلم به » ، وقوله « لا يجوز إنكاره بعد ثبوته » ، فقد وقف مريديه على صراط أدق من الشعرة فوق واد من أودية الجحيم بتحريضه

إياهم على عدم التدين بما صح صدوره عن النبي ﷺ من أمور الغيب، وفي عدم تجويزه إنكاره بعد ثبوته. وهو موقف لا نعرف مسلماً يحمد عليه هذا المجتهد الاشتياني الذي أثنى عليه المجتهد الخالصي مستنكراً براءة مجلة (العرفان) منه فقال عنه: «إنه من تلاميذ الشيخ المرتضى الانصاري في النجف وأكبر علماء طهران عاصمة إيران طيلة ملكية ناصر الدين شاه، أي مدة خمسين سنة، وكتابه (بحر الفوائد) من أنفس الكتب في أصول الفقه وهو مشهور بين العلماء».

ثم يقول مجتهد الشيعة العلامة الخالصي في رسالته إلينا: «وأما مجلة رسالة الإسلام، فأنا أعرف بعض كتابها وأشكرهم على حسن نيتهم، وأطلب منهم أن يواظبوا على التحصيل والدراسة، ويمتنعوا عن نشر مجلتهم، إلى أن يتقنوا ما في دين الإسلام، فإنها غير خالية من بعض التقول، والأستاذ مغنية سلمه الله غير معذور في نقله صدر عبارة الاشتياني وطرحه تمام كلامه حتى نقلته مجلة رسالة الإسلام جهلا، وأوقعت مجلة الأزهر في هذا الخطأ المظيم (كذا!) الذي لا يرد عقابه إلا حسن النية والاستغفار [1] ولا تحسبوا أن علماء العراق يكتبون شيئاً في رسالة الإسلام لأن المقالات التي تنشر فيها يكتبها غالباً مبتدئون في التحصيل لأن علماء العراق استولى عليهم اليأس من المجلات والنشرات، لما يرونه فيها من الشذوذ، ولم أجد في رسالة الإسلام إلا مقالا لعالم واحد فحسب [2]».

وبما تعرض له المجتهد الخالصي في رسالته إلينا دعوة الأزهر ومجلته الى السعي في جمع الكلمة. وهي فرصة طيبة تتيح لنا الكلام في موضوع جمع الكلمة وأمنية التقريب:

نحن بقدر ما نؤمن باستحالة التقريب بين مذهبين دينيين — حتى لو كانا من أصل واحد كالشافعي والحنفي — فإننا نؤمن كذلك بضرورة تعاون جميع أهل المذاهب المنسوبة الى الإسلام على كل ما فيه مصلحتهم الدنيوية والاجتماعية، كمقاومة الاستعمار، وكالتعاون على ما يصلح المسلمين في أخلاقهم ومعايشهم وأسباب تقدمهم. أي أن التعاون في المصالح

---

[1] مجلة الأزهر — إذا كنا نستحق العقوبة التي لا يردها إلا الاستغفار بعد ثبوت حسن النية، لأننا تعرضنا لقدس الأقداس بما تحدثنا به عن الاشتياني وفتواه، فما الذي يستحقه الاشتياني لتقرير أن ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من الاحاديث في أمور الغيب لا يجب على المسلم التدين به لانه لا يخبر عن الامر الديني ؟! . . .
أننا نرجو المثوبة من الله على موقفنا من الاشتياني، وليحاسب الخالصي نفسه على موقف الاشتياني من النبي صلى الله عليه وسلم وما صح عنه من أحاديث الايمان بالغيب الالهي.

[2] مجلة الازهر — لعل المجتهد الخالصي يشير الى رد كاشف الغطاء على الطوف.

الاجتماعية والمعيشية والخلقية مطلوب بين أهل المذاهب الإسلامية ، أما التقريب بين المذاهب نفسها بفتح الأندية لذلك واصدار المجلات لهذه البحوث خاصة فإنه يدعو الى عكس ما يراد منه .

ومما لا يختلف فيه اثنان أن جميع فقهاء الشافعية والحنفية المعاصرين لنا لا يملكون أن يقربوا بين هذين المذهبين - وهما من أصل واحد - فى أى حكم فقهى كحكم الشافعية بأن لمس الزوج المتوضىء يد زوجته ينقض وضوءه ، وحكم الحنفية بعكسه . وكحكم الشافعية بأن خروج الدم من المتوضىء لا ينقض وضوءه ، وحكم الحنفية بعكسه . فلو حاول بعض الشافعية والحنفية أن يقربوا بين المذهبين بغير ما هو مقرر فيهما لخرجوا بذلك عن المذهبين ولأحدثوا به مذهباً جديداً لا يعترف لهم به الشافعية ولا الحنفية

أما التعاون الآخر الذى يتناول مصالح أهل المذاهب الإسلامية فى شئونهم الأدبية والعلمية والاجتماعية وعزتهم الملية فنحن من أقدم دعاته . ونضرب المثل لذلك فى هذا المقام بأن فقيد العلم الشيخ أبا عبد الله الزنجانى لما قدم من إيران إلى مصر المرة الثانية قبل نحو سبعة عشر عاما اقترح رئيس تحرير هذه المجلة على مولانا صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر إقامة حفلة تكريم له فى دار الهداية الإسلامية ، للتوصل الى المودة المطلوبة بين أهل القبلة ، وكانت الحفلة التى أقيمت له فى جمعية الهداية الإسلامية يومئذ عظيمة جداً وحافلة بأهل الفضل ، وخطب فيها مولانا الأستاذ الأكبر والشيخ أبو عبد الله الزنجانى ، وكان كاتب هذه السطور هو الساعى فى ذلك ، ولا يزال إلى هذا اليوم مغتبطاً بما فعل . أما العبث بالمذاهب بدعوى التقريب بينها فلم يأت يوما بخير ، ولا يرضى عنه العلماء من أهل كل مذهب ، ولا يترتب عليه إلا إحداث فرقة أخرى . وموقفنا نحن من كل ذلك هو موقف من يدرأ المفسدة عند وقوعها من أى جهة وقعت ، ولذلك تأسست هذه المجلة قبل نحو ربع قرن ، وعلى ذلك هى اليوم وبعد اليوم إن شاء الله .

وقبل أن نختم هذه الكلمة - نقدم الشكر للأستاذ الخالصى على هدية لمكتبة المجلة وصلت إلينا منه ، وهى مؤلفاته ، ومنها (إحياء الشريعة فى مذهب الشيعة) وكتابه (الشيخية والبابية) ومراسلته الى قوام السلطنة لما أراد رضا فهلوى شاه محو الشيعية من إيران وإقامة المجوسية والبابية دينا للايرانيين ، وغير ذلك من الرسائل ، فنكرر الشكر له .

محب الدين الخطيب

فصل الدين عن الدنيا
إن صح فى دين لا يصح فى دين الإسلام

فصل الدين عن الدنيا ، تلك الأسطورة التى عرفت فى أوربا فى القرون الوسطى ، وأصبحت فكرة عامة تأثر بها الكتاب عندنا واقتضتها هناك فى ذلك التاريخ تصرفات القسوس والباباوات ، لا يوجد مثلها فى المجال الإسلامى ، لأنه لا يوجد فى الإسلام رجال دين يدعون لأنفسهم الوساطة بين الله والناس ، ولا أن بيدهم الجنة والنار يمنحون منهما كيف شاءوا ، ولا أن ما يربطونه فى الأرض يرتبط فى السماء ، ولا رسوم مالية فى الموت ولا فى الحياة ، ولا معمدان ولا اعتراف ولا أى لون من هذه الألوان التى أخذت على الأحرار أنفاسهم فضاقوا بها ذرعا ولم ينتهوا منها إلا بقرار فصل الدين عن الدنيا فى سنة ١٨٧٠ متذرعين بما قيل عن المسيح سلام الله عليه من قوله « إن مملكتى ليست من هذا العالم » وقوله « أعطوا ما لله لله وما لقيصر لقيصر » ، وإنما الإسلام دستور إصلاحى اجتماعى عالمى ليس فيه عصبية لأحد على أحد ولا لطائفة على أخرى ، ولا شعب يرفعه فوق شعب ، ولا لجنس يعلو به على جنس ، فهو الدين الخالى من ألوان العصبيات جميعها ، وأية أمة تعتنقه وتقيم مبادئه وحدوده تكون هى الأمة الفضلى التى تستحق الزعامة على العالم الإسلامى جميعه لا زعامة أوتوقراطية ، ولكنها زعامة ديمقراطية حقة بالمعنى الذى ينشده أول من تكلموا فى الديمقراطية .

فالإسلام الذى يدرس الآن فى الأزهر وفى سائر المعاهد الدينية والذى هو مستمد صراحة من القرآن الكريم ونصوص السنة المحمدية التى هى شرح وبيان للقرآن ، وأعمال الخلفاء الراشدين ، وأفهام الصحابة وفقههم فى تلك النصوص ، واجتهاد المجتهدين فى ذلك ، كل ذلك مدون فيما يسمى كتب الفقه الإسلامى ، مفصل إلى فصول وأبواب وكتب فى جميع شئون الدولة وسياستها الداخلية والخارجية ، وكل معاملة تقع بين اثنين على نحو أوسع وأدق وأعدل من كل قانون فى العالم للبشر ، لأنه ينتهى إلى أسس ليست من وضع البشر ، ولم تتأثر بأهواء بعضهم على بعض ومطامع بعضهم ببعض .

وأول حجر أساسي في صرح الإسلام : هو إفراد الله بالعظمة ، واستواء جميع البشر بعد ذلك في سلك المساواة التامة ، لا فرق بين ملك وصعلوك . وحسب العالم دليلا على نصاعة مبادىء الإسلام ثورة مصر هذه الصارخة التي دلت على أن الخروج على الإسلام ومحاربة أهدافه وانتهاك حدوده ومبادئه شر مستطار حيث وضعوا في دستور الدولة أن الملك غير مسئول وأن ذاته لا تمس ، تلك المادة التي حاربوا الله بها ، حيث جعلوا لله شريكا آخر من البشر غير مسئول والله يقول « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ، فكان من نتيجة ذلك ما حصل في الأمة من طغيان وجور من تلك الذات التي قدسوها وأشركوها بالله في عدم المسئولية طغيانا أصبح في تاريخ مصر وصمة لا تزول ، ولولا ما قيض الله لمصر من هذا الجيش الكريم الأبي الذي أنقذ مصر لرسفت في قيود الذل والطغيان والاستعمار إلى ما شاء الله .

والحجر الثاني في بناء الإسلام : هي الشهادة لمحمد بن عبد الله بأنه رسول الله الذي أرسله للبشر كافة معلما ومبشراً ونذيرا ، وهذه الذات التي تجب الشهادة بذلك هي شخصية مثالية تاريخية أشادت بكل ما سبق من رسالات الله ، فكتب عنها الكتاب المسلمون والأجانب آلاف الكتب في فضائل أخلاقها ومعاملتها المثالية ، وقدرتها التي قلبت بها التاريخ البشري وأخرجته من وصمة عبادة الأحجار والأوثان إلى نور الحرية والمساواة .

ووجب أن يقال بحق في محمد بن عبد الله نبي الإسلام أنه أبو التاريخ العالمي الحديث ، وصاحب الفضل في تحرير العقل البشري من خرافات الجاهلية وعقائدها الضالة ، وأول عامل على نشر تعميم تعليم القراءة والكتابة ومحاربة الأمية ، وأول موجه للقوى الحربية على أساس الإصلاح الإنساني ، ومحاربة الضلال والفساد في الأمم المجاورة ، حتى نجح نجاحاً باهراً في قلب الدنيا إلى شيء آخر خلاف ما كانت عليه من قبل .

والدعامة الثالثة في الدين الإسلامي العالمي هي ما يسمى بإقامة الصلاة في اليوم خمس مرات ، أولاها قبل طلوع الشمس من مشرقها بساعة ونصف ودعا إليها الإسلام بحث وحض شديدين ليوقظ البشر من سباتهم إلى العمل والنشاط ، ووزع الأربعة الأخرى على أوقات الناس في الحياة اليومية وجعل ذلك فرضاً عاماً على الذكر والأنثى واشترط لها الطهارة التي كانت سبب تعويد الناس على النظافة العامة التي أصبحت بعد هذا التشريع الديني

أهم شئون المتحضرين وقد كانوا قبل لا يعرفون النظافة ولا الحمامات ، حتى كانت تفتك بهم الأمراض والعلل ، ولا يعرفون كيفية الوقاية منها ، وما انتشرت الحمامات فى أوربا ونظمها إلا عن طريق الأندلس فى الإسلام ، وهبطت بذلك فيها إحصائيات الأمراض والعلل والوفيات ، فالعالم المتحضر مدين فى تاريخ حياته الصحية للإسلام فى الأندلس ، ويعترف له بذلك المنصفون .

وفرض الإسلام هذه الصلاة على الكافة ، ففرض أن تكون جماعة على الرجال يصلونها فى مساجد عامة مفتوحة للكافة ديمقراطية الوضع لا يتقدم فيها غنى على فقير ولا حاكم على محكوم ولا كبير على صغير ، يؤم الناس أفقههم ولو كان أفقرهم ، ويتلو على أسماعهم فى الصلاة الجهرية ما شاء الله من القرآن . فرض الإسلام إقامة هذه الشعائر كل يوم خمس مرات ، وفرض كل أسبوع اجتماع الكافة من أهل الحى أو القرية أو الخط من الرجال أعيانهم وحكامهم وأمرائهم ، وأغنيائهم وفقرائهم ، وكبارهم وصغارهم ، تتزاحم أكتافهم وتصطك ركبهم بعضهم إلى بعض من جميع الطبقات يسمعون قبل الصلاة إلى الخطيب الذى يعظهم فى شئونهم الحاضرة التى تمس حياتهم وأحوالهم اليومية ، فينشأ على ذلك صغيرهم ويدوم على ذلك كبيرهم ، فيتمرسون على الامتزاج والائتلاف فى أخص عبادة يؤدونها للرب ، فى أطهر وأقدس مكان يجتمعون لله فيه .

وأية فرحة للشعب تجمعه قسرا أو تخلط أفراده بعضهم إلى بعض فيتعرفون أحوال أنفسهم وشئون جيرانهم وإخوانهم وتمتلىء أعينهم بمختلف أحوال مخالطيهم من حال يرثى لها أو خلق يوعظ فيه صاحبه . يتعلم فى تلك المدرسة الأخلاقية الصغير من الكبير والجاهل من العالم والفاسق من التقى : تفاعل أخلاقى ما قام فى جماعة إلا صلح أمرها ونضجت فيها الحياة الاجتماعية على أحسن مثال ، وتآلفت فيها القلوب ، وتعاطفت فيها القوى ، واستغنى بها الفقير ، واستجود بها البخيل ، وتكتلت بها أسرة المجتمع . فأية عملية هذه وأية مدرسة اجتماعية ربى بها الإسلام شعوبه وألف بين أبنائه وأخضع الكافة للكافة وأنزل الحاكم إلى المحكومين ودفع الغنى إلى البصر بالفقراء وأسمع الصحيح أنين المريض وأخضع الطائش برؤيته خشية الخاشع وتقاه .

فهذه الصلاة التى ينظر الناس إليها كأهون شىء وأبسطه فى الإسلام وهذه بعض آثارها

وأفعالها في المجتمع . فهل يمكن فصل الدين عن الدنيا وهذه أخص عبادة فيه أنزل العتاة الجبارين والأغنياء المنكوبين من صياصيهم وقصورهم إلى الامتزاج بأصحاب الأكواخ والبائسين في بيوت الله على مائدة عبادة الله سبحانه ، وأي اجتماع مائدة أصفى للقلوب من ذلك .

فكيف تتجافى عقول أناس عن دين هذه آثاره في المجتمع وأي زعيم إصلاحي أو حاكم سياسي لا يتشبث بهذا الدين الذي يساعده على ما يروم للإصلاح والزعامة .

إن هذه المساجد التي ينظر الناس إليها وقد أهملت وأصبحت مهجورة ذات منظر مؤسف كئيب من إهمالها وفرشها بالحصر البالية أو تركها بلقعا بلا فراش ، هذه المساجد كانت أعظم أثر في الأمة من برلماناتها الآن لأنها كانت مصدر تعليم الأمة وإرشادها ، ومبعث الرحمة بين أفرادها مهبط الوحي بالعواطف الرقيقة قلوب مرتاديها ، يدخلها الجناة الاجراميون فيسمعون عظة من عالم متواضع فتفعل فيهم ما لا تفعله قوانين الحكومة وسجونها . فهل يفصل هذا الدين الكريم عن الدنيا ويعزل ، وهل هذا الدين هو الذي يقال فيه ذلك .

محمد عبد السلام القبانى
أستاذ بكلية الشريعة

إنما يقدس المرء عمله

روى عبد الله بن هبيرة أن أبا الدرداء كان قاضياً بالشام ، فكتب إلى سلمان : « هلم إلى الأرض المقدسة وأرض الجهاد » فأجابه سلمان : « كتبت تدعوني إلى الأرض المقدسة وأرض الجهاد . ولعمري ، ما الأرض تقدس المرء ولكن المرء يقدسه عمله . وقد بلغني أنك جلست طبيباً تداوي (أي واعظا تعظ) ، فإن كنت طبيباً مبرئا فطوباك ، وإن كنت متطبباً فاتق الله لا تقتل إنسانا فتدخل النار » .

الحزبية في القرآن الكريم

ما أشبه القرآن الكريم بالكنز الفريد المجيد ـ ولله المثل الأعلى ـ ، وهذا الكنز يضم في أرجائه مختلف اللآلىء وشتيت الجواهر ، وكل ناظر فيه بالتعمق والتدبر يستطيع أن يحصل منه على بعض هذه الفرائد ، وتختلف حظوظ الناظرين فيه والعاكفين عليه من هذه الخرائد ، ولكن الجميع لا يستقصون جوانبه ولا يحصون عجائبه . ومن غرائب القرآن أنك تتابع كثيرا من ألفاظه في متباين استعمالاتها ، فترى للفظ معنىً عاما واسعاً ، يشمل استعمالاته أو يغلب عليها ، ويمكنك من هذه المتابعة للفظ من الألفاظ أن تقعّد لاستعماله في الغالب قاعدة أو ما يقاربها ، ولا يشترط أن تكون تلك القاعدة موجودة بنصها وفصها عند كل استعمال ، بل تكون هي أو ما يشير إليها أو يذكر بها من قريب أو بعيد .

وللحزبية ، وما تفرع من مادتها في القرآن الكريم ، حديث قد يدخل في هذا التقعيد أو يدنو منه ، وقد تابعت استعمال « الحزبية » في التنزيل ، ورأيت أن أعرض له بالبحث ، لعل في ذلك من الفائدة ما يتلاءم مع مناسبات الزمان ، وإلا فهو على الأقل تذكير بحديث القرآن .

وقبل أن نعرض للحزبية في القرآن يحسن أن نعرض معانيها في اللغة ، فقد تتعاون المعاني اللغوية مع الاستعمالات القرآنية لتلك المادة على إيضاح ما نريد استنتاجه من ذكر ألفاظ الحزبية في الكتاب الحكيم . .

نلاحظ أن معنى الحزبية الغالب في اللغة يدل على التفرق والانقسام والاختلاف ، والشدة والغلظ أحيانا ، فقد جاء في القاموس : « الحزب بالكسر الورد والطائفة والسلاح وجماعة من الناس ، والأحزاب جمعه ، وجمعٌ كانوا تألبوا وتظاهروا على حرب النبي صلى الله عليه وسلم ، وجند الرجل وأصحابه الذين على رأيه ، وإني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب هم قوم نوح وعاد وثمود ومن أهلكه الله من بعدهم ، وحازبوا وتحزبوا صاروا أحزاباً ، وقد حزبتهم تحزيباً ، وحزبه الأمر نابه واشتد عليه أو ضغطه ، والاسم الحزابة . . وأمر حازب وحزيب شديد جمعه حُزُب ، والحزابى والحزابية مخففتين الغليظ إلى القصر كالحزاب

بالكسر ، والحزب والحزباءة بكسرهما الأرض الغليظة وجمعه حزباء وحزابى . .
وحازبته كنت من حزبه » .

وفى النهاية لابن الأثير : طرأ على حزبى من القرآن فأحببت ألا أخرج حتى أقضيه .
الحزب ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة أو صلاة كالورد . والحزب النوبة فى ورود
الماء . . . وفى حديث أوس بن حذيفة : سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :
كيف تحزبون القرآن . . . اللهم اهزم الأحزاب وزلزلهم . . . كان إذا حزبه الأمر
صلى ، أى إذا نزل به مهم أو أصابه غم . . . ومنه حديث على نزلت كرائه الأمور
وحوازب الخطوب ، . . . ومنه حديث الإفك : ومضت جنة تحازب لها ، أى
تتعصب وتسعى سعى جماعتها الذين يتحزبون لها . . . ومنه حديث الدعاء : اللهم أنت
عدتى إن حزبت ! . . . »[1] .

وها هو ذا الراغب الأصفهانى فى كتابه (مفردات القرآن) يشير إلى المعانى اللغوية
العامة لكلمة (الحزب) فى القرآن الكريم فيقول : « الحزب جماعة فيها غلظ ، قال عز
وجل : « أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً » ، وقوله تعالى : « ولما رأى المؤمنون
الأحزاب » ، عبارة عن المجتمعين لمحاربة النبى صلى الله عليه وسلم . « فإن حزب الله هم الغالبون » ،
معنى أنصار الله . وقال تعالى : « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا
لو أنهم بادون فى الأعراب » .

* * *

والقاعدة العامة ، أو المعنى الغالب فى استعمال القرآن لكلمة (الحزب) هو الدلالة
على الانحراف إلى السوء والشر ، والرمز إلى الباطل والسفه ، فلا يرد هذا اللفظ إلا فى
مواطن الفسوق والإجرام ، اللهم إلا إذا أضيفت كلمة (الحزب) إلى الله فإن المقام يكون
مقام خير وتبشير ، فى الحال أو الاستقبال ، وأما إذا أضيفت إلى غيره فهى سوء وضلال ،
فى الحاضر والمآل .

وكأن القرآن يشعرنا بذلك أن الحزبية البعيدة عن صراط الله سيئة أيا كانت ، وكأنه قد
استعمل كلمة (الحزب) فى موطن النسبة إلى الله لمجرد المشاكلة ومجاراة السياق ، على حد

---

(١) لم ننقل عن القاموس والنهاية كل ما ورد بهما عن المادة ، بل قطفنا من كل منهما الجزء
الكافى للموضوع .

قوله تعالى : « ومكروا ومكرالله والله خيرالماكرين » . ولذلك نرى تعبيرالقرآن « حزب الله » يأتى فى سياق التعرض لحديث « حزب الشيطان » ! .

وفى القرآن الكريم ذكر لأربعة أصناف من أحزاب الشر والضلال : الاول منها أتباع الشيطان مطلقاً ، والثانى القوم الكافرون الضالون قبل محمد صلوات الله عليه وسلامه . والثالث الاحزاب الذين تألبوا عليه فى غزوة الخندق وأذاقهم الله بقوته ما أذاقهم من النكال والوبال . وقد خص الله سورة من سور القرآن الكريم باسمهم ، وكأن ذلك أيضاً من بين الإشارات إلى خطرهم وسوء تحزبهم ، فهم يحتاجون إلى التنبيه الجلى لنحذر منهم الحذرالقوى ، والصنف الرابع هم شذاذ اليهود والنصارى الذين عارضوا الإسلام ، ووقفوا فى طريقه معاندين أو مفترين . . ويجمع هذه الاصناف كلها جامع الشر والسوء والضلال كما أسلفنا .

هذا هو التصوير العام لحديث الحزبية فى القرآن ، وما يستفاد منه من سمات عامة أو غالبة ، ومن حق البحث علينا بعد ذلك أن نذكر شواهد هذا التصوير من القرآن الكريم .

يقول الله تعالى فى الآية السادسة من سورة فاطر : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » . فقد أخبر الله جل جلاله هنا أن الشيطان لنا عدو مضل مبين ، وأن حزبه على فساد وإلى سوء معاد ، ووعظنا بأن نتخذه عدوا ، لانه ـ كما علمنا ـ عدونا الذى لا عدو أعرق فى العداوة منه ، واتخاذه عدواً يكون بمخالفته فى العقائد والاعمال ، لانه يدعو حزبه ـ وهم شيعته ومتبعو خطواته ـ إلى ورود موارد الشقوة والهلاك ، وهل هناك أشقى ممن ينتهى إلى عذاب السعير المقيم ؟ .

وقريب من هذا قول الله تعالى فى سورة المجادلة : « استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » . وقد نتعرض لهذه الآية فيما نستقبل من البحث . وهاتان الآيتان تشيران إلى الصنف الاول من أصناف الاحزاب فى القرآن .

ولننتقل إلى الصنف الثانى منها . يقول الله تبارك وتعالى فى الآية الخامسة من سورة « غافر » : « كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب » .

والاحزاب : هنا هم الذين تركوا طريق الرحمن وخالفوا الرسل ، وهم عاد وثمود ، وفرعون وغيرهم ، وقد وصف القرآن هؤلاء الاحزاب بأوصاف سيئة ، فهم طغوا وبغوا

على رسلهم ، وحاولوا ليتمكنوا منهم ويعذبوهم أو يقتلوهم ، وهم قد جادلوا بطلين ، وهم قد أرادوا بذلك محاربة الحق ؛ فما كانت عاقبة هؤلاء الأحزاب؟ ... «فأخذتهم فكيف كان عقاب»؟! .

ويقول الله سبحانه أيضا فى الآيتين الثلاثين ، والحادية والثلاثين من سورة غافر : « وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد » . والأحزاب فى الآية الأولى قد فسروا فى الآية الثانية ؛ وهم قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ، من الذين كفروا وتمردوا وعصوا الرسل ، فوصفهم سيء ، والجزاء أليم ، فكل حزب منهم كان له يوم دمار ، وقد فصل القرآن الكريم لنا ذلك فى مواطن كثيرة .

ومما يدخل فى هذا الصنف ما أشار إليه القرآن فى قوله فى الآية السابعة والثلاثين من سورة مريم : « فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من عذاب عظيم » . والآية وردت بعد قصة سيدنا عيسى عليه السلام ، والمراد بالأحزاب هنا الذين تحزبوا على الأنبياء ، لما قصوا عليهم قصة سيدنا عيسى اختلفوا فيه من بين الناس ، ولذلك أنذرهم بالويل فى يوم شديد .

ومثل ذلك الآيات التى وردت فى سورة الزخرف وهى : « ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ، ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » .

وفى الآية الحادية عشرة من سورة (ص) نجد القرآن يقول : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » . وبعدها فى الآية الثالثة عشر يقول : « وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب » . والآية الأولى جاءت بعد آيات تصور جهالات الكفار على الرسول وعنادهم معه ، فهى تقول على لسانهم : « ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ، أأنزل عليه الذكر من بيننا . . » فرد الله عليهم قائلا : « بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ، أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ، أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب » وهذا استنكار من الله لطريقتهم السيئة ؛ ثم أرشد رسوله ألا يبالى بهم ، ولا يكترث بجمعهم ، ولا يهتم لعنادهم ، فقال : « جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب » . ما هم إلا فئة من الكفار المتحزبين على رسل الله ، وهم مهزومون مكسورون عما قريب ، فلا تبال بما يقولون .

أحمد الشرباصى
« يتبع » مبعوث الأزهر الشريف إلى الكويت

آراء وأحاديث

بدأ حضرة السيد الأديب البحاثة صاحب التوقيع « م . ع » يكتب سلسلة أحاديث تحت هذا العنوان ، فاستهلها بما يدل على نفوذ ودقة وحرص على الاختراع والجدة ، وهى ناحية خطيرة فى الاصلاح العلمى لايهدى إليها إلا الفحول ، ولا يوفق لها إلا كل كامل من أهل البحث . إنها ناحية لو لم يكن فيها إلا تحرير الفكرة وفتح باب الاستقلال لكفى بها يداً طولى بيضاء على العلم .

ولقد نعى حضرة الكاتب على من خلف بعدهم ممن تركوا الإنتاج والابتكار والنقد ، ووقفوا عندما ترك الأولون فلم يزيدوا حرفاً ، ولم ينقدوا رأيا ، ولم ينتجوا قاعدة .

وعد ذلك العقم مرضاً خطيراً لابد من علاجه . فإنما تتفاضل الأمم بالعقول ، وتمتاز بالإنتاج ، فكلما خصب العقل فى أمة وكثر الإنتاج فيها انتفعت ببركات الحياة وثمراتها ، وسارت فى هذا الوجود على هدى .

إن جديرا بالأزهر أن تصلح مناهجه تمشياً مع دعوة التحرر ، وأن يحسن لطلابه التخير . ولو لم يكن فى ذلك الإصلاح الذى أناشدهم الله أن يحققوه إلا إصغاء إلى تلك القضية العادلة الحكيمة « العلم أكثر من أن يحاط به ، فخذوا من كل شىء أحسنه » لكان فى ذلك ما يكفى لتحقيق إصلاح المناهج ، وتغيير الأوضاع فيما يدرسون .

إن عاراً على الأزهر أن يُسبق فى ميدان التجديد الصالح ، وهو السباق إلى المكارم . وإن التجديد الصالح لهو أساس النشاط الفكرى ، والمظهر المشرف للحياة العلمية العقلية الرشيدة ، وهو صورة من صور التقدم والتوثب . فأما الجمود على التقليد ، فشىء تأباه النفوس الكريمة وتمجه العقول السليمة .

لجدير به أن ينشط لهذه الدعوة ويعيرها ما تستحق من تقدير ، فيجمع أهل الحل والعقد من رجاله للنظر فى مناهجه ، ونبذ ما لا يتفق مع حاجة كلياته ومعاهده ، وجدير به أن يكون له

لجاناً من المتفوقين للتأليف فيما يحتاج إلى تغيير فى الأسلوب أو طريق البحث . ولقد تفتحت أذهان الطلاب مع حضرات أساتذته إلى هاته الناحية ، فأخذوا يرمون بعض المؤلفات ، ويشكون من عدم مناسبة أساليبها ولا لياقتها فى هذه الأوقات ، وهو شيء يبشر بروح طيب كريم ، ويدعو ولاة الأمور لالتماس العلاج والاستطباب .

نشكر لحضرة السيد الباحث أنه جرأ أقلامنا على تناول تلك الناحية ، ونرجو أن يدخل الأمر فى حده العملى الجدى ، وألا يكون مجرد إزجاء للوقت فى أقوال نظرية تخلو من تحقيق الغاية المثمرة وبالله التوفيق .

علوم البلاغة فى الميزان

هذا أول عنوان عملى بدأ به الكاتب الكريم بحوثه ، وسأستميحه وحضرات القراء الكرام عذراً إذا جمح بى قلم قد سنحت له فرصة أن ينفث على هذا القرطاس أولا خواطر كانت مكبوتة وأفكاراً كانت محجورة ، لأن هذه الفاتحة الكريمة من حضرة الكاتب أنشطت عقلا وحررت حبسا ، فالشيء يذكر الشيء ، وإن كان فضيلة الكاتب يعجب من الكاتبين فى البلاغة فى بعض مناهجهم فى البحث فذلك عندى شيء يسير ، فما ضر البلاغة لو أنهم تعوجوا فى تعليل لذكر أو حذف أو تقديم أو تأخير على أن يستقيم اتجاههم العام وتتحقق ثمرة الدراسة فى الجملة لطالب البلاغة . البلاغة التى جعلوها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته . والبلاغة التى وصفها الاولون بأنها « إصابة المعنى والقصد إلى الحجة » . والتى وصفوا بها الفرزدق لأنه لقى الحسين بن على فى مسيره إلى العراق فسأله الحسين عن الناس فقال الفرزدق : القلوب معك ، والسيوف عليك ، والنصر من السماء . والتى وصف بها شبيب بن شيبة لأنه يقول عند باب الرشيد وقد سئل عن الناس كيف رأيتهم فقال : رأيت الداخل راجيا ، والخارج راضيا . والتى يمثلون لها بقول على رضى الله عنه وقد قيل له : كم بين المشرق والمغرب ؟ فلم يتلعثم ، ولكنه قال : مسيرة يوم للشمس . قيل له : فكم بين السماء والأرض ؟ قال : مسيرة دعوة مستجابة . هذه البلاغة التى أعيا على الناس دركها ، وعز عليهم مطلبها ، حتى تكون هناك طبيعة صافية ، ونفس دراكة ، وتغلغل فى مزاولة أساليب الأفذاذ من الفصحاء والبلغاء فى النثر والنظم ، وفقه ذلك وإدراكه ، ومحاولة محاكاته . هذا الفن الجميل ، وهذا المعنى الجليل قد اشتراه أولئك القوم فى دعواهم أنهم رجاله وأنهم تناولوه فى كتبهم بالبحث والاخضاع لقواعد الأصول والمنطق ومصطلح

اليونان وأهل الفقه. وقد أفلسوا فى كل مؤهل للبلاغة إلا هذه المصطلحات وبعض أصول تتراءى أشباحا هزيلة، لأنه لا غذاء لها ولا منبت صالحا يحفظها، وإنما هى أشياء تكلم الشيخ عبد القاهر بما يشبهها، ونقل عنه السكاكى بعضاً منها فأخضعه لضوابطه وتحقيقه، والبلاغة شىء يأبى أن يخضع إلا للذوق أو ينال إلا فى رائع النثر والنظم.

انظر كيف صرنا نضفى هذه الألقاب على من حقق فى دراسة السعد وشروحه، وما حقق السيد فى بعض تعليقه، وما كتب عبدالحكيم السيلكوتى، أو العصام، أوالسمرقندى أليس هذا أعجب العجب، لأنه تحريف مناف للحق كل المنافاة؟

لقد صرنا نعدّ فهم هذه الاصطلاحات الوصفية والمماحكات اللفظية عملا عظيما نجيز به العلماء لأنهم يستطيعون فهم معنى من عبارة معقدة، ويرجعون الضمير، ويبينون المشار إليه فى جملة، ويقدرون مضافا أو مضافين، ويجرون استعارة بالكناية على مذهب الخطيب والسكاكى والعصام والقوم.

ولقد كان أول من حمل لواء هذا الابتداع فى الانحراف بالبلاغة عن كنهها، ووضعها فى غير موضعها، ذلكم الرجل المتكلم الأصولى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ، ثم الخطيب القزوينى من بعده، فقد وجدا فيما يتدارس العلماء والمتكلمون شيئا له اختصاص بمعرفة إعجاز القرآن الكريم يسمى البلاغة ظنا أنها على ذلك النحو الذى رسمه الشيخ عبد القاهر فى كتبه دراسة توجيهية كان عمادها الذوق وفهم أساليب البلغاء ممزوجا بشىء مما هدى إليه من القواعد فى سنن الخاصة من العرب والمتأدبين، فشغلا بهذه القواعد ومباركتها والبحث فيها والزيادة عليها وضبطها. ثم ادعى السكاكى بذلك الاجتهاد والمذهب الخاص، وأخذ يناقش القدماء فى اصطلاحهم ويجادلهم فى تقسيمهم، ويرى أن الأقسام أحيانا قد تزيد على الحفظ وأن له طريقا فى تقليل الضبط، وأن الربيع يطلق على الله سبحانه، وأن المراد بعيشة راضية صاحبها، وما إلى ذلك من نواحى الاقتصاد ليجعل للخطيب مجالا فى مناقشته، ثم للسعد والسيد فى تأييد الخطيب أو الدفاع عن السكاكى، ثم ليترك الجميع عبارات يتنافس الأواخر فى تحريرها وتنقيحها وتفسيرها كما يفسر الكتاب والسنة وكلام العرب، لأنها أقوال رجال برزوا فى المنطق والفصول، وأئمة هم عندهم الفحول الفحول.

والفخر كل الفخر لمن خدم كلامهم وقدم للناس أقوالهم. وهكذا اتسع الخرق على الراقع واندست البلاغة تحت هاتيك البراقع فنسى الناس معالمها، وجهل الدارسون أصولها

وحقائقها . لأن رجال العلم والمشرفون عليه يقولون إن هذه هي البلاغة . ورحم الله البلاغة ، بدأ السكاكي والخطيب يحصران البلاغة في حظيرة هذه الأوراق التي كتباها ، أما السكاكي ففي مفتاحه الذي وضعه في العلوم العربية كلها لا في البلاغة وحدها ، وأما الخطيب ففي تلخيصه وإيضاحه . ولو وقف الأمر عند ذلك الحد لوجد طلاب العلم منفسحا من الزمن يسيرون فيه مع الاستعداد الخصيب على ضوء ما بقي من توجيهات ، إلى مدارسة الأدب وخصائص لغة العرب ، حتى يتكون الذوق ويصح تصور الإعجاز ولو إلى حد ، وحتى تتكون ملكة الأداء ويقع التفريع بين الصحيح والتقسيم في صور الأداء ، ولكن شروح المفتاح وشروح التلخيص قد تعهدا بالبقية من الزمن والعمر مع البقية من الذوق والفهم فأضاعاها على طلاب العلم ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم جاء الأزهر المعمور يجدد ما درس من كتبهم ، ويحيي معالم معارفهم ، وقد جاز ذلك يوم كانت مدرسة الألفاظ هي المدرسة القائمة ، ولم تكن بين أيديهم مدرسة البلاغة الأدبية في كتب أبي هلال وابن الأثير والثعالبي وابن رشيق والجمحي . أو كتب قدامة ومن على شاكلته من أهل التفلسف الذي لا يعطي معالم البلاغة ولا يحجبها بحجب جمة بين المصطلح الشريف وشرح ألفاظ المتون ثم ألفاظ الشروح ثم اختيار الحواشي وترجيح واحدة على أخرى ثم التقارير وما حوت من معارف في كل شيء عدا البلاغة .

فلئن شاء القارىء من غير رجال الأزهر ، أو أراد رجل الأزهر ، أن يجدد العهد بطرق بحثهم إجمالا في هذه المناسبة ليتصور كيف جني هؤلاء ومن تبعهم من حيث لا يقصدون ولا يحتسبون على بلاغة العرب ، ودراسة الرحيق المختوم من أساليب الأدب ، فليتذكر بعض ما يعجلني به الخاطر الآن من مقدمات ووسائل في دراسة المسائل : فالبلاغة المقصودة بالدرس لها أصل هو الفصاحة ، كما حكم الإمام السكاكي .

فأما الشيخ عبد القاهر فهو يسوي بين الفصاحة والبلاغة في كتابه ، ثم هذه الفصاحة تكون في عدة أشياء : المفرد ... الخ ، ثم هي في المفرد خلوصه ، ثم تفسير الفصاحة بالخلوص لا يخلو عن تسامح ... ثم لماذا ؟ لأن أحدهما وجودي والآخر عدمي . ثم تخوض الحواشي والتقارير في معركة الوجودي والعدمي ، والفرق بينهما ، ويطول المقام جداً حتى يسمحون بنقلك إلى أصل البحث : ما المراد بالمفرد ، وهل يشمل المركب غير المفيد ، هل المركب غير المفيد داخل في الكلام . وكيف ولماذا . ثم ما التنافر وهل هو ذوقي ،

أهو كما يقول بعضهم يرجع إلى المخارج أو الصفات وكيف تكون « أعهد » فى « ألم أعهد » فصيحة . ما معنى الغرابة ، وما المراد بالمسرج ، وماذا قال المرزوقى فى المسرج ، وهل « أزمان » فى قول العجاج اسم امرأة . وهل الكراهة فى السمع قسم مستقل يجب الاحتراس عنه لتحقق الفصاحة ... ؟

ما اعراب مع فصاحتها وما الفساد الذى يترتب على بعض وجوه الاعراب ، ومن المنتصر فى معركة الاعراب ، ما المثال الفذ ، للتعقيد المعنوى . هو بيت العباس بن الأحنف الذى ذكره عبد القاهر . ألم يجدوا فى الأدب غيره ، ولكن استغفر الله هل فرغوا من مناقشاتهم فى فهم العبارات ؟

وهكذا تسير فى هذه المقدمة لتصوير البلاغة وحصر موادها بالعمليات الحسابية ، وولادة أبوابها بالطرق الطبية الفلسفية ، ثم وضع أسمائها وكتابتها على شهادات الميلاد حتى لا تضيع ولا تنسى ، وما يعترى ذلك من بحوث نفيسة قد يجود بها السعد فى الشرح المطول لأنها من ذخائر المعارف . وكنوز المصطلح الشريف . وكانت تدرس فى عام طويل قبل النظام ، فإذا انتقلت إلى أول أبوابها « الإسناد الخبرى » فما الإسناد ، وما محترزات القيود ، وهل الإسناد مرادف للحكم ، وما معانى الحكم الخ الخ ثم ما المراد بالمخبر ولماذا ، وما الفائدة ، وما المراد باللازم ، ولماذا كان لازما . ويقول السكاكى إن الأولى بدون الثانية تمتنع ، ولكن الثانية بدون الأولى لا تمتنع كما هو حكم اللازم المجهول المساواة ... وتسير طويلا حتى تصل إلى أن الإسناد منه حقيقة عقلية ومجاز عقلى ، وما قيود كل وما المحترزات وما صور كل منهما حتى لا يلتبس بالآخر ؟ ومعركة عبد القاهر والرازى فى أن هل كل مجاز عقلى له حقيقة ؟ فيقول الرازى لابد لكل فعل من فاعل ، فإن ظهر وإلا فهو الله سبحانه .

وهكذا حتى ينتهى باب الإسناد وهو أحد الأبواب الثمانية للمعانى وحدها وهو أقلها ، وما خرجت منه فيما يسمونه البلاغة بأكثر من أضرب الخبر على مقتضى الظاهر أو خلاف مقتضى الظاهر ، ثم الحقيقة العقلية والمجاز وقرينته .

فإذا صرت إلى الباب الثانى : أحوال المسند إليه ، فما المراد بالأحوال ؟ وهل الحال هو الأمر الداعى الذى تقدم التنويه به ؟ وما الداعى إلى تقديمه المسند إليه ، ولماذا عبر

فى جانب المسند إليه بالحذف ، وفى جانب المسند بالترك . وهل صورت لك دواعى الحذف تصويراً يميز لكل واحد . وهل مثلوا كل داع على حدة فتجدد المعلومات ، أم لعلك تخير فى تصور النكات وهى لا تتزاحم . والذكر لماذا ؟ لأنه الأصل ولامقتضى للعدول . وهل الأصل نكتة بلاغية . وما الفرق بين المعانى الأولية والمعانى الثانوية . ثم التعريف . . ولماذا يكون بالاضمار . . ولماذا يكون بالعلمية ، وما العلمية ، وهل القيود للاحتراز ؟ أم لعلها لتحقيق مقام العلمية فهو مقام خطير . . وهكذا تسير على ذلك المنوال من المسند إليه وتمر بهذه المباحث النفيسة وفيها سلب العموم عند المناطقة ، وهل يشمل سلب العموم عموم السلب ويصدق عليه ، وما مذهب ابن مالك فى ذلك .

هكذا هكذا تسير : فلا تخرج من هذه البلاغة بفنونها الثلاثة إلا وقد مررت بعدة بحوث فى مختلف العلوم ولا سيما المنطق والمقولات (الكيف والأين والمتى الخ) .

وهل تستطيع أن تعلمه كذلك إلا وقد درت فى كل فن من تلك الفنون وأخذت منه بطرف صالح .

هذا إلى ما يحشون به ذهنه من ألفاظ (ثبوت النسبة واللاثبوتها : الغير والأين) المعنى المصدرى والإسمى ، هل البسيطة والمركبة ، وجود الشيء ووجود الشيء للشيء وغير ذلك لا استقصيه الآن ، ولكنى لعمر القارىء الكريم أكتب من الذاكرة لا من مرجع أمامى من طول ما زاولت هذه الكتب فنضحت على منها بالشيء الكثير .

وبعد فهل بعد هذا العناء والدرس كان يزاولها بليغاً ، وكانت له ملكة نقد فى النظم والنثر ، أو مقدرة على كتابة أو خطابة أو شعر كما تعطيه عبارة (البلاغة العربية) ؟ لا والله إنها لتبعد عن البلاغة بما تضيع من وقت فى غيرها ، وبما تحشو به الذهن من كلمها وجملها ومتى كان واحد من هؤلاء بليغاً يحسن التعبير عما فى الضمير ؟ وهل فاقد الشيء يعطيه ؟ إن العمليات نفسها قد دلتنا على الحقائق ، فهل آن لكم أيها الناس أن تدرسوا البلاغة الادبية التى لا ترجع إلى الحكم العقلى ومصطلحاته ؟ هل تلتمسون ذلك فى الأدب نثره ونظمه وفيما بين أيديكم من كتاب الله وسنة رسول الله ؟ وهل آن أن تتعلموا حكومة الذوق التى لاتخطىء ولاتحيد ، وهل آن أن تقرءوا إن شئتم التوجيه كتب العسكرى والآمدى والجرجانى وابن الأثير الجرزى وابن رشيق القيروانى حتى تكونوا لأنفسكم نقداً وذوقاً ، ثم تكتبوا مثل مايكتبون ؟ اللهم وفقنا وبصرنا بالحق وأما المناقشة مع السيد الكريم صاحب التوقيع « م . ع » جزاه الله خير الجزاء فإلى العدد المقبل إن شاء الله حتى تستمر هذه المساجلة النافعة

محمود النواوى

الفتاوى

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

شرعت بلدية الكويت في إنشاء طريق داخل مدينة الكويت وخارجها واستعانت في ذلك بمهندسين رسموا الخرائط التي تتفق مع التقدم العمراني . وقد اعترض أحد الشوارع المراد أنشاؤها خارج الكويت مسجد جديد لم يبنه واقفوه إلا بناء بدائياً وهذا المسجد يدخل جزء كبير منه في الشارع لو مر على استقامته . ومما لا شك فيه أن الشارع المستقيم يسهل سير المارة والسيارات أكثر من الذي يتخلله انحراف واعوجاج . وفي إمكان البلدية إذا أزيل هذا الجزء من المسجد أن تصل باقيه بقطعة من الأرض أعظم مساحة من الجزء المزال وتتكفل بعمارته على نظام أحسن مما هو عليه .

ولما كان الإقدام على مثل هذا العمل يتوقف على العلم بجوازه شرعا — وعلماؤنا مختلفون في ذلك — فنرجو إفادتنا .

وبهذه المناسبة نرجو أن تكون الفتيا عامة فيما نتخذه نحو جميع المساجد والمقابر التي تعترض الطريق المزمع إنشاؤها مع العلم بأننا لا نهدف إلا المصلحة العامة المتفقة مع تقدم الكويت ، والتي تستوجب إنشاء وإصلاح الطرق على هيئة تكفل الأمن والنظام .

مدير بلدية الكويت

الجواب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال وتفيد بأنه قد جاء في الجزء الثالث من حاشية ابن عابدين على الدر المختار من كتب الحنفية أنه إذا كان الطريق ضيقاً والمسجد واسعاً لا يحتاج إلى بعضه جازت الزيادة في الطريق من المسجد لأن كلا منهما للمصلحة العامة ، وهذا هو المعتمد وعليه متون المذهب .

وجاء فى كتب المالكية أن ما كان لله فلا بأس فيه أن يستعان ببعضه فى بعض ، ومعنى هذا أنه يجوز توسيع الطريق من المسجد والمقبرة ، كما يجوز توسيع المسجد من الطريق والمقبرة وتوسيع المقبرة من الطريق والمسجد ، تراجع حاشية العدوى على الخرشى على متن خليل فى باب الوقف .

وجاء فى اختيارات ابن تيمية الحنبلى أن جمهور العلماء جوزوا تغيير صور الوقف للمصلحة ، وأنه إذا كانت هناك حاجة فإنه يجب إبدال الوقف بمثله ، أما من غير حاجة فإنه يجوز الإبدال بخير منه لظهور المصلحة ، ثم قال : ونقل صالح ، عن أحمد ، أنه ينقل المسجد لمنفعة الناس .

ومن هذه النصوص يتبين أنه متى كانت الحاجة ماسة الى أخذ جزء من المسجد لتوسعة الطريق واستقامته تيسيرا على المارة والسيارات فانه يجوز أن يؤخذ ذلك الجزء من المسجد للطريق العام .

وإذا كانت إدارة البلدية مع هذا قد التزمت فى موضوع السؤال بتعويض المسجد بأكثر مما يؤخذ منه ، والتزمت أيضاً بإعادة بناء المسجد أحسن مما كان عليه فإنه يجوز بالأولى .

هذا ـ وكما يجوز ذلك فى المسجد أخذاً من هذه النصوص ـ يجوز أن يؤخذ من المقابر ما يوسع به الطريق ولكن بعد أن ينقل رفات الموتى الى المكان الذى يجعل مقبرة ، كما نص على ذلك الفقهاء .

هذا هو الحكم الشرعى فى هذه المسألة على المذاهب التى قدمنا نصوص فقهائها — وعلى ولاة الأمر أن يقدروا هذه المصلحة العامة الواضحة ويعملوا على وفقها بالنظر الى المساجد والمقابر والطرق العامة .

وبهذا علم الجواب عن السؤال ، والله أعلم ؟

٦ جمادى الأولى سنة ١٣٧٢ رئيس لجنة الفتوى

٢٢ يناير سنة ١٩٥٣

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

يوجد فى سوريا أيتام وفتيات غرباء ، أصلهم من أبناء المملكة العربية السعودية ، وقد أمر الله البعض من محسنى المملكة بأن يهتموا بالأمر الذى يكفل سعادة هؤلاء الأيتام الفقراء أبناء السبيل ببحث أن يبنى لهم ملجأ فى دمشق يكون مأوى لجمع شمل الفتيات الغريبات اللواتى لا أزواج لهن ولا كاسب يعولهن ، وللأطفال الذكور أيضاً الذين لم يبلغوا سن الرشد ، فهل هناك مانع شرعى من دفع الزكاة الشرعية بهذا السبيل . نرجو الإفادة .

فهد بن مازن
مندوب الحكومة العربية السعودية لمقاطعة
إسرائيل بدمشق ـ بالسفارة السعودية

الجواب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأن صرف الزكاة فى إنشاء الملاجىء والإنفاق فى مصالحها جائز شرعاً ، لأن ذلك من الإنفاق فى سبيل الله ، الذى جعله الله تعالى مصرفاً من مصارف الزكاة فى قوله سبحانه : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » .

وذلك أن « سبيل الله » علم يتناول كل ما هو من وجوه الخير والبر ، وجاء فى كتاب بدائع الصنائع للكاسانى فى فقه الحنفية (وأما قوله تعالى « وفى سبيل الله » فهو عبارة عن جميع القرب ، وقال الفخر الرازى فى تفسيره الكبير ، واعلم أن ظاهر اللفظ فى قوله « وفى سبيل الله » لا يوجب القصر على الغزاة ، فلهذا المعنى نقل القفال فى تفسيره عن بعض الفقهاء أنهم أجازوا صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الحصون وعمارة المساجد لأن قوله « وفى سبيل الله » علم فى الكل) ا . هـ .

وظاهر أن ذكر تكفين الموتى وما عطف عليه إنما هو لمجرد التمثيل لبعض وجوه الخير التى تتناول هذا وغيره . وبهذا علم الجواب عن السؤال . والله أعلم .

١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٧٢
٤ فبراير سنة ١٩٥٣ — رئيس لجنة الفتوى

مملكة تقلى

- ٣ -

انتهينا فى مقالنا السابق ، إلى أن « جيلى أبا جريدة » ترك بعد وفاته ، مملكة راسخة القواعد ، قوية البنيان ، وخلفه على عرش المملكة ، ابنه « سابو Sabo » الذى نقل قاعدة ملكه من « الهوى » إلى « تودم To'dim » ، ومن القاعدة الجديدة ، واصل « سابو » نشر الإسلام ، وتوسيع ملكه ، وسار على سياسته من بعده ، ولداه ، « جيلى عمارة » و « جيلى أبو شهيرا » وكذا حفيده « جيلى عوان الله » ، وقد اعتلى كل منهم العرش على التوالى ، ودفنوا جميعاً ، فى حوش « الهوى » حيث ترقد رفات « جيلى أبو جريدة » ويمكن اليوم مشاهدة أطلال مقابرهم ، ومقابر من يلوذ بهم من الأقرباء والوزراء .

ونحن نعرف القليل عن الحياة الشخصية لهؤلاء الملوك الأوائل ، غير أننا نعرف الكثير عن اتساع المملكة فى عهدهم ، وتقلى - مثل روما - لم تشيد فى يوم واحد ، ولقد نما نفوذ هؤلاء الملوك ، أول الأمر بطيئاً ، ثم لم يلبث أن أصبح لهم السلطان المطاق فيما بعد ، وسر نجاحهم كامن ، فى احتضانهم الدعوة ، إلى الإسلام ، وكانت أهداف هؤلاء الملوك مزدوجة ، فهم يريدون نشر العقيدة الإسلامية من جهة ، وهم إذ يفعلون ذلك ، فإنما يمكنون لنفوذهم الشخصى من جهة أخرى ، واستطاعوا أن يظلوا بسلطانهم تقلى ، وما جاورها من التلال ، وساروا فى نفس الدرب الذى سلكه « جيلى أبو جريدة » من تشجيع الهجرة إلى بلادهم ، وعن طريق ذلك ، احتكوا بالعالم الخارجى ، وجذبوا إلى تقلى كثيراً من رجال الدين والتجار والمغامرين من كل نوع ، وكانت أيام هؤلاء الملوك ، باختصار ، عصر هجرة عربية إلى السودان ، وعصر عزة وفخر لهؤلاء العرب .

ولقد وفد على تقلى ، بعض مبعوثى ملوك الفنج ، من رجال الدين ، للتعريف بالإسلام وكان من بين هؤلاء « حسن واد حسونة » و « تاج الدين البخارى » ، وزار كلاهما تقلى فى أوائل القرن السابع عشر ، وكان هدفهما من هذه السياحة مزدوجاً : المتعة الروحية بنشر الإسلام فى هذه الأوكار الوثنية ، والحصول على الكسب المادى بالمتاجرة فى هذه الأصقاع

وكان من عادة ملوك تقلى ، إذا قدمهم أحد هؤلاء الدعاة الإسلاميين ، أن يعينوا له منطقة وثنية ، لتكون ميداناً لنشاطه التبشيرى ، وذلك فى مقابل بعض الفوائد المادية ، التى يحصل عليها من السكان دون إكراه ، وكثير من رجال الدين هؤلاء ، ومن التجار ، كانوا يقررون الاستيطان فى تقلى ، وكانوا يمنحون الملك بعض المال ، باختيارهم ، فى نظير حمايته لهم .

وبهذه الوسائل ، استطاع ملوك تقلى ، نشر العقيدة الإسلامية فى ديارهم ، كما استطاعوا بذلك أيضاً توطيد أركان ملكهم ؛ لأنهم أضحوا حماة العقيدة الجديدة ، وأخذوا يضمون لملكهم ، الجبال تباعاً ، وتزاوج المهاجرون الجدد ، مع أهل البلاد الأصليين ، ولا زالت الذرارى الناتجة عن هذه المصاهرات ، موجودة فى كل الجبال الشمالية الشرقية ، فى هيئة قبائل وعشائر ، ومنهم الآن ، مشايخ القرى ، فى تلك الجهات .

وقبل مضى وقت طويل ، قويت مملكة تقلى بادىء ذى بدء ، بهذه الوسائل السلمية لدرجة مكنت الملوك ، فيما بعد ، من توسيع نطاق ملكهم ، بالقوة الحربية ، وبالرغم من أن مملكة تقلى ، قد أصبحت بغير حاجة ، إلى مهاجرين جدد ، إلا أن سيل الهجرة لم يتوقف ، ومن هؤلاء المهاجرين ، تكون الجنس الخليط الذى يقطن تقلى اليوم .

ولم يكد ينتصف القرن السابع عشر ، حتى كان لملوك تقلى ، السيطرة التامة ، على كل الجبال الشمالية الشرقية ، ولما كان هؤلاء الملوك على علاقة حسنة بملوك سنار ، فانهم استطاعوا ، أن يضموا تحت لوائهم المهاجرين من الفُنج ، وكان من هؤلاء مكوك « رشاد » و « ناجوى » و « قدير » ، ويمكن أن نرجع نجاح هؤلاء الملوك فى سياتهم إلى عدة اعتبارات : منها أنهم أظلوا الأرض بظلال القانون والنظام ، وهى عناصر لم تكن موجودة من قبلهم ، ومنها طرقهم فى الاستعمار ، ومنها شجاعتهم الشخصية ، ومنها ـ وهو أهم هذه الاعتبارات جميعاً ـ أنهم جاءوا معهم بالإسلام ، واستطاعوا بكل ذلك ، أن يجعلوا لبيتهم مركزاً محترماً مرموقاً ، بين مواطنيهم ، وظل العرش وراثياً فى ذريتهم ، مدة أربعمائة عام ، وقليل من البيوت الحاكمة ، من تهيأت له أسباب العزة والمنعة ، كذلك البيت الذى استطاع بوسائله أن يوجد مجتمعاً متحداً سعيداً .

وخلف « جيلى عوان الله » ابنه « جيلى أبو قرون » الذى حكم من عام ١٦٤٠ إلى عام

١٦٦٥ م . ومعلوماتنا عن هذا الملك قليلة . ولقد تزوج من « أجم شيلا » ابنة الملك « الرباط ابن بادى » ملك سنار . وقد أحضرت هذه الأميرة معها كثيراً من الاتباع ، أحلتهم فى حوش « بالولا » التى انسحبت إليها عقب وفاة زوجها . ومعظم النُفنْج فى تقلى من هذه الحاشية وسلالتها (١) . وكان هذا الزواج الملكى سبباً فى تقوية أواصر الصداقة بين سنار وتقلى ، غير أن هذه الصداقة ، ما لبثت أن انفصمت عراها ، عندما هاجم « بادى الثانى أبو دقن » مملكة تقلى فى عهد « أبى قرون » .

وكان لأبى قرون هذا ، ولدان ، من هذه الأميرة السنارية ، وكلاهما قد اعتلى العرش . وعاشت الأميرة عمراً طويلاً ، ولعبت دوراً هاماً ، فى تاريخ مملكة تقلى ، سنعرض له فيما بعد .

وفى منتصف القرن السابع عشر ، ازداد سلطان ملوك تقلى ، وأصبحوا حكاماً طغاة ، فأخذوا يجبون الضرائب ممن يمر بمملكتهم ، وكل مسافر لا يتفق معهم على هذه الضريبة يكون معرضاً لنقمتهم . وقد عرّض « جيلى أبو قرون » بسياسته الخرقاء ، نفسه ومملكته للخطر ، عندما عامل صديقاً لملك سنار معاملة سيئة ، وزاد على ذلك ، أنه تحدى علناً ملك سنار ، معتقدا أن فى جباله المنعة والعصمة . وقبل ملك سنار التحدى ، وسار هو ورجاله صوب جبال النوبة . فوصلوها ، وذبحوا كثيرين من أهلها ، وأسروا كثيرين ، ثم تقدموا حتى وصلوا تقلى فحاصروها ، وكان الملك « أبو قرون » قد حصنها ضدهم ، غير أنه عامل المحاصرين معاملة كريمة ، مما دفع ملك سنار ، إلى فك الحصار . واتفق الطرفان على جزية سنوية ، تؤديها تقلى إلى سنار . وبذلك أصبحت تقلى تابعة أو خاضعة لسنار ، ولم تعد كما كانت دولة مستقلة ذات سيادة . وساد الوئام بين المملكتين خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، على اعتبار أن ملوك سنار سادة لملوك تقلى .

وتوفى الملك « جيلى أبو قرون » ودفن فى « كيريا » ، وخلفه على العرش ابنه الأكبر « محمد » الذى بنى قلعة فى « تاسى » واستقر هو وخلفاؤه فى هذه القلعة مدى قرنين من الزمان . وخلف « محمداً » أخوه « عمر أبو زِنْتير » وهو أول ملوك تقلى ، الذين يذكرون ، فنذكر معهم الصفات السيئة . فالظلم والقسوة والطغيان ، كانت السمات العامة لعهده ،

(١) مثل عائلة « اربد » ومنها عمدة « بالولا » .

لذا كرهته رعيته . وقد كانت أمه تخشاه ولا تثق به ، فعملت على إقصائه عن العرش ، واستخلاصه لحفيدها « اسماعيل » ابن ولدها « محمد » . ويقال إنها أعدت طبقاً من الطعام ، ودست له فيه سماً ، وقدمته له . ولما اكتشف « عمر » السم ، طار صوابه ، وذبح ثلاثين من عبيده ، ظناً منه ، بأنهم هم الذين دسوا له ذاك السم .

وأثارت هذه المذبحة نيران الثورة عليه ، فى تقلى كلها . وطرد هو وأتباعه عنوة واقتداراً ، ونصب إسماعيل بدله ، ملكا على تقلى . ودارت حروب بين إسماعيل وعمر ، كان عمر الخاسر فيها . وذهب إلى سنار يفشد معونتها . عملا بنصيحة أمه التى كتبت سراً إلى قريبها ملك الفنج ، تطلب منه فيه حجز عمر ومنعه من العودة إلى تقلى ، بل وقتله إذا أمكن .

ولما وصل « عمر » وأتباعه إلى سنار ، استقبلهم الملك « بادى الأحمر » ملك الفنج استقبالا كريماً ، وكان الملك آنذاك مشغولا بثورة إحدى القبائل فى الجهات النائية من مملكته فرغب إلى « عمر » أن يذهب للقضاء على هذه الثورة ، مؤملا الخلاص منه فى هذه الثورة ، ورضخ « عمر » لذلك ، مع إدراكه قلة الفرصة فى النجاح ، ولكنه استطاع أن يخضع الثوار وعاد ظافراً إلى سنار ، فأغدق عليه الملك الهدايا ، ووعده -غير صادق- بمساعدته على استعادة عرشه المسلوب ، وترك « عمر » سنار بناء على هذا الوعد ، وعول الملك على إغراقه فى مياه النيل الأبيض عند عبوره ، وقد كان ، وأغرق بحارة « بادى الأحمر » القوارب ، فذهب « عمر » وأتباعه إلى قاع اليم ، ما عدا اثنين من أتباعه ، نجوا من الغرق ، وبهما شطر تقلى يقصان مأساة « عمر » .

والى مقال قادم ، نعرض فيه بإذن الله حلقة جديدة من حلقات هذا البحث ؟

عبد المنعم محمد الشيخ
مدرس أول الآداب بمعهد الزقازيق

قضية فلسطين

وإخلال ألمانيا الغربية بحيادها في اتفاقية التعويضات لإسرائيل

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

قال مندوب «الأهرام» الخاص:

أتيح لى أن أقضى بعض الوقت مع فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الجامع الأزهر، وهو رجل أحبه وأوثره المودة والتقدير، لما جبل عليه من صفات الرجل المؤمن، وكان على غير عادته، إذ كان يبدو غضبان أسفا. وقد أعرب حقا عن ألمه البالغ حين تحدث إلى فى مسألة إسرائيل والتعويضات التى رأت ألمانيا الغربية أن تمدها بها.
قال الشيخ الأكبر فى عنف وغضب:

لو أن المؤرخين أرادوا أن يؤرخوا أسوأ مثل لأقبح حادث أسيء به إلى الإنسانية ومبادئها فى القرن العشرين، لما وجدوا أبلغ من تاريخ هذا الحادث المروع الذى تألبت فيه بعض دول الغرب وعاونت على إخراج أهل فلسطين الشرعيين من بيوتهم وبساتينهم وحقولهم ومتاجرهم ومصانعهم، ليحلوا محلهم فيها أقواما من اليهود الغرباء الذين كانوا أشتاتا فى مختلف أقطار الشرق والغرب، من بلاد روسيا إلى أقصى أودية اليمن وجبالها.

هذا الحادث الإنسانى الأليم الذى كان من نتائجه أن العنصر اليهودى المتعرب الذى كان تعداده فى فلسطين سنة ١٩١٤ أقل من عشر السكان الشرعيين، فما زال يتزايد هذا العدد شيئا فشيئا بالحشود التى كانت تنضم إليهم من المهاجرين غير الشرعيين، الذين حملتهم الحركة الصهيونية بمعاونة المحتلين على مزاحمة أهل البلاد الحقيقيين فى مساكنهم، وضيقوا عليهم الخناق فى ممتلكاتهم ومعايشهم وحريتهم، حتى لقد أصبحوا الآن أصحاب الدولة فى البلاد، بينما أضحى أصحاب البلاد مشردين فيها تحت كل نجم: يعانون آلام البرد والزمهرير شتاء، ولهب القيظ صيفا، حتى صاروا فى حالة من الضنك والهوان والبؤس والشقاء توجب الاشفاق والرحمة، من قلوب تشعر من معانى الرحمة بما لا تشعر به قلوب كبار ساسة الغرب.

إن إسرائيل الباغية على أهل فلسطين لا تزال فى حالة حرب مع مصر والدول العربية والأمم الإسلامية ، بسبب تلك الجريمة التاريخية ، وكان ينبغى على الحكومات المحايدة ، وفيها ألمانيا الغربية ، أن تلتزم الحياد التام بين العرب وإسرائيل ، فلا تمين إحداهما على الأخرى ، ولا تبسط يد واحدة لتغل يد الأخرى ، ولكن مما يؤسف له كثيرا أن ألمانيا الغربية قد أخلت بهذا الحياد الذى كان واجبا عليها أن تلزم نفسها به ، فجاءت تمثل فصلا جديداً فى هذه الرواية المخجلة للضمير الإنسانى ، إذ تقدمت بمبلغ ٨٣٠ مليونا من الدولارات تعهدت بأن تسلمه إلى حكومة إسرائيل ، أقساطا مقسطة ، بعضها مال وبعضها عتاد من منتجات مصانعها ، بدعوى تعويض اليهود - الذين قيل إن هتلر قد طردهم من بلاده - عن الخسائر التى تكبدوها . مع أن هؤلاء اليهود الذين طردوا من ألمانيا كانوا رعايا ألمانيين .

والقوانين الدولية لا تلزم أية حكومة بدفع تعويضات من غير طريق القضاء ، فى الدعاوى التى تقام من أشخاص كانوا من رعايا تلك الدولة . وفضلا عن ذلك فإن إسرائيل التى يراد دفع هذه التعويضات إليها ليست هى التى تستحقها ، وكان الوضع السليم يقضى على ألمانيا بدلا من أن تدفع هذه التعويضات . أن تفتح أبوابها ليعود إليها كل يهودى يثبت أنه أخرج من ملك كان له فى ألمانيا ، وأن يعود إلى فلسطين كذلك كل عربى يثبت أنه أخرج من ملك كان له فى فلسطين ، أما العدول عن ذلك إلى أن تعطى ألمانيا الغربية مئات الملايين من الدولارات لاسرائيل ، وهى فى حالة حرب مع مصر والدول العربية والعالم الإسلامى ، فإن ذلك يعد من ألمانيا الغربية إخلالا بقواعد الحياد ، ويصورها فى صورة الضالع مع أحد الطرفين المشتبكين فى حرب ضروس سجال ، وتعده الدول العربية تهديدا لها ، وإطالة لحياة حكومة إسرائيل عشرة أعوام أخرى أو أكثر ، بينما هى تعيش الآن على الصدقة والاستجداء ، وسيكون هذا العمل من ألمانيا الغربية سابقة تستعين بها إسرائيل على أخذ تعويضات أخرى من بلاد يزعمون ان بنى جلدتهم اضطهدوا فيها أيضا ، ومنها النمسا وألمانيا الشرقية وهنغاريا ورومانيا وبولندا . الخ . . .

ويجب أن تعلم ألمانيا الغربية أن مساعدتها هذه لإسرائيل ، ستخل بالتوازن الحالى فى الشرق الأدنى ، وتمكن إسرائيل من القيام بعدوان جديد على البلاد العربية ، بينما الذين يدعون أنهم الأوصياء على السلام العام واقفون يتفرجون على هذه المهزلة التى لم يسبق لها نظير فى العالم .

إن إسرائيل ليست وريثة لحقوق اليهود المزعوم أنهم تضرروا من حكومة هتلر ، لذلك لا يجوز أن تعتبر طرفا فى تسوية مع ألمانيا الغربية ، على حقوق يهود لم يكونوا يومئذ من رعايا إسرائيل ، بل لم تكن حكومة إسرائيل هذه موجودة فى الدنيا يوم وقع الاضطهاد المزعوم من ألمانيا على رعاياها اليهود .

وحكومة إسرائيل هذه لا تعترف بحق التعويض فى القانون الدولى ، ولو كانت تعترف بهذا الحق الموهوم بالنسبة لليهود الألمان الذين كانوا قبل وجودها ، لكان ينبغى لها أن تعترف بالحق الأبلج الماثل أمام أعينها وأعين رجال حضارة القرن العشرين للاجئين العرب الذين أخرجوا من ديارهم وبساتينهم وحقولهم ومتاجرهم ومصانعهم ، وقررت الامم المتحدة التعويض لهم ، فهزأت إسرائيل بقرارات الأمم المتحدة ، وألقت بها فى سفط المهملات .

إن يهود ألمانيا الموجودين الآن فى فلسطين وتزعم إسرائيل أنها تتقاضى التعويضات من ألمانيا الغربية باسمهم ، قد هاجر معظمهم إلى فلسطين قبل اضطهاد هتلر لليهود . وقسم كبير منهم جاء الى فلسطين بعد انقضاء حكم النازى فى ألمانيا ، وقد جاءوا الى فلسطين فى الحالتين عند ما كانت فلسطين آهلة بأصحابها الشرعيين من العرب ، فكان مجيئهم الاختيارى إلى فلسطين اضطهادا منهم للعرب وبغياً عليهم واغتصاباً لوطنهم ، حتى بلغ عدد العرب الفلسطينيين الذين شردوا من وطنهم الشرعى تحت ضغط الصهيونية العالمية أكثر من مليون نسمة نساء ورجالا ، أطفالا وشيوخا ، فانتزعت منهم ديارهم فى غير شفقة ولا رحمة ، ولأول مرة فى التاريخ يشرد سكان متوطنون فى بقعة ما ، ليحل محلهم أناس غيرهم يزعم أنهم شردوا من بقاع أخرى .

إن النازى غير موجودين اليوم ، فأعيدوا المشردين الألمان إلى وطنهم فى ألمانيا ، وأعيدوا المشردين من عرب فلسطين إلى وطنهم فلسطين ، وإلا فإن دعوى الإنسانية والحق فى بلاد الغرب المتمدنة تكون من أكبر الأكاذيب التى سيسجلها التاريخ لتخجل منها الأجيال الآتية مادام للإنسانية ومبادئها أنصار صادقون فى العالم .



اختر بين هذين الأمرين

هذا نمط جديد استحدث فى كلام الكتاب . وفى صحيفة المصرى الصادرة فى ١٩٥٢/٦/٢٣ « على أن يكون للسودانيين حق الاختيار بين الوحدة أو الانفصال فى استفتاء حر خال من كل شائبة » . وقول الكاتب : « أو الانفصال » الصواب فى هـــذا الموطن أن يقال : « والانفصال » بالواو لا بأو ؛ فإن لفظ « بين » لايضاف إلا إلى متعدد ، وأو لأحد الشيئين أو الأشياء ؛ كما هو واضح مستبين .

واستعمال « بين » مع الاختيار ، غير معروف . وإنما يقال : اختر أحد الأمرين ، أو اختر من الأمرين ما تشاء ، أو اختر الأمرين ما تشاء على حذف « من » ؛ وذلك على حد ما جاء فى قوله تعالى : «[1] واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » والأصل : اختار من قومه ... ، وكما قال الشاعر :

إخترتُـك النّاسَ إذ رَثّت خلائقهم   واعتل من كان يرجى عنده السؤل

وقال الفرزدق :

ومنا الذى اختير الرجال سماحة   وجوداً إذا هبّ الرياح الزعازع

وإنما تأتى « بين » مع صيغة التخيير ، تقول : خيرته بين الأمرين ، وكأن ذلك لأن التخيير يتضمن التّرديد ؛ فإذا قلت : خيرتك بين أمرين فكأنما قلت : أرددك وأميلك بين الأمرين . فأما الاختيار فجزم بالمختار واقتصار عليه ، فلا موطن فيه للفظ « بين » . وفى المصباح : « خيرته بين الشيئين : فوضت إليه الاختيار ، فاختار أحدهما ، وتخيره » . وقد يقال : أنت بين أمرين فاختر أحدهما ، أو اختر بحذف المفعول ؛ كما قال الأعشى :

فقال : ثكل وغــدر أنت بينهما   فاختر وما فيهما حظ لمختار

---

(١) آية ١٥٥ سورة الاعراف .

إنى مقدر لك جهدك وإخلاصك للعلم

يكثر هذا الأسلوب فى معرض عرفان الفضل وتعظيم صاحبه وتبجيله. وفى كلمة وزير المعارف عند افتتاح المجمع اللغوى يخاطب أعضاء المجمع [١] : تشرفت بحضور هذا الاجتماع وإنى أنتهز هذه الفرصة لأحييكم وأرحب بكم، وأهنئكم بثقة حضرة صاحب الجلالة الملك وبتقدير الحكومة المصرية لفضلكم ومكانتكم » .

وقد فرط من قوم الإنكار على هذا الأسلوب، وأوجبوا الأخذ من الثلاثى (قدر) فيقال : إنى قادر لك جهدك وفضل سعيك . وذلك ليكون وفق قوله تعالى [٢] : « وماقدروا الله حق قدره » ، ولأن الثلاثى فى هذا المعنى هو الوارد فى المعاجم التى بين أيدينا .

فقد جاء فى القاموس فى سرد معانى القدر « التعظيم » وزاد التاج : « وبه فسر قوله تعالى : وما قدروا الله حق قدره » والقدر مصدر الثلاثى، كما هو معروف . وفى اللسان : « وقوله تعالى : وما قدروا الله حق قدره أى ما عظموه حق تعظيمه . وقال الليث : ما وصفوه حق صفته » . وجاء فى اللسان فى موطن آخر ما يوهم ورود قدر — بالتشديد فى معنى التعظيم . وذاك حيث يقول : « وقوله : وما قدروا الله حق قدره خفيف ولو ثقل كان صوابا » فقد يسبق إلى الوهم أنه يريد التخفيف والتثقيل فى الفعل ، وإذن فقد ورد قدر ، وهذا بعيد عن مراد صاحب اللسان ، وإنما يريد التخفيف والتثقيل فى المصدر فى قوله « حق قدره » ويعنى بالتخفيف تسكين الدال ، وبالتثقيل فتحها . وذلك لأن الحركة - أيا كان نوعها - أثقل من السكون . ويدل لذلك قوله عقب هذا : « وقوله : [٣] إنا كل شىء خلقناه بقدر مثقل » ، ولا معدل عن أن يراد بالتثقيل هنا التثقيل فى القدر .

على أن البحث قد هدى إلى أن التقدير فى معنى التعظيم عربى صحيح لا مجال لإنكاره . ولبيان ذلك يحسن الرجوع إلى المعنى الأصلى لمادة (قدر) الذى تفرع عنه التعظيم . ذلك لأن هذه المادة لا تفيد فى أصلها هذا المعنى ؛ كما هو ظاهر فأصل هذا أن يقال : قدّر [٤] الشىء إذا حزره ليعرف مبلغه ويقول أبو حيان : « أهل [٥] القدر معرفة الكمية . يقال : قدر الشىء إذا حزره وسبره وأراد أن يعلم مقداره » ، وظاهر هذا أن يأتى فيما لا يقع تحت

---

(١) أنظر مجلة المجمع ، صدر الجزء الاول .

(٢) آية ٩١ سورة الانعام ٦٧ سورة الزمر . (٣) آية ٤٩ سورة القمر

(٤) انظر أفعال ابن القوطية ٢٣١ ، ومستدرك التاج فى المادة نقلا عن تهذيب الافعال لابن القطاع

(٥) أنظر البحر ٤٣٩/٧

الحس ويناله الحزْر والسَّبر. وهو يأتى فيما لا يقع تحت الحس من المعقول بالقياس على المحس. تقول : قدرت فلاناً وفضله ، أى عرفت مبلغ أمره ومقداره فى فضله أو علمه. ويستوى فى هـذا بحسب أصله أن يعلم منه الكمال فى ذلك أو النقص والتقصير ، ولكنه تعورف فى معرفة الكمال وكثر إيراده فى مقام المدح والتعظيم ، وصار هذا كما يقال : عرفت قدر فلان ، فى معرض التنويه به والإعلاء من شأنه .

وفى كتابة الشهاب على تفسير البيضاوى فى آية الأنعام ، وقد فسر البيضاوى الآية فى الأنعام بمعنى : ما عرفوا الله حق معرفته ، والآية فى سورة الزمر بمعنى : ماعظموا الله حق تعظيمه : فسره هنا بما عرفوه حق معرفته ، وفى الزمر بما قدروا عظمته فى أنفسهم حق تعظيمه لأنه فى الأصل معرفة المقدار بالسبر ، ثم استعمل فى معرفة الشىء على أتم الوجوه حتى صار حقيقة فيه ، كما قالوا : رحم الله من عرف قدره - أى نفسه وحقيقته - ومعرفة الله لما لم تكن إلا بصفاته فسر فى كل محل بما يليق به » .

ويرى بعضهم أنه مأخوذ من القدر ، وهو شرف الإنسان ومكانته ، ألا تراهم يقولون : لفلان قدر ، وفلان لا قدر له بين قومه . فمعنى قدرت فلاناً : عرفت قدره وفضله .

وأعود بعد هذا إلى صيغة «التقدير» فهل جاءت فى معنى حزر الشىء وسبره وتعرف مبلغه ؟ إنها إذا جاءت لذلك ساغ أن تجىء للتعظيم بالاتساع والاستجازة ، كما جاء ذلك فى «القدر» .

والجواب على هذا السؤال بالإثبات والإيجاب ، كما يقولون . فقد قال أبو جعفر النحاس : «معنى[1] قدرت الشىء ، وقدرته : عرفت مقداره» وأيضاً فقد جاء فى معانى التقدير - على ما فى اللسان - التفكير فى تسوية أمر . وسبر الشىء يرجع إلى هذا ، ومنه قوله تعالى فى سورة المدثر : «إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر» أى قدر فى نفسه قوله وعرف مبلغه .

فإن أراد القارىء استظهاراً على ما ذكرت من تسويغ التقدير فى معنى التعظيم فذلك له ، وحكمه مسمط ، ذلك أنه قرىء فى الآية : «وماقدَّروا الله حق قدره» بتشديد الدال فى الفعل ، قرأ ذلك عيسى بن عمر الثقفى والحسن البصرى ، وهما من هما فى تحرى الفصيح . والمعنى فى الآية التعظيم .

ويقول أبو حيان فى البحر فى تفسير آية الزمر : «وما قدروا الله حق قدره أى ماعرفوا الله حق معرفته ، وما قدروه فى أنفسهم حق تقديره ، إذ أشركوا معه غيره ، وساوَوا بينه وبين الحجر والخشب فى العبادة ، وقرأ الأعمش : حق قدَره ، بفتح الدال ، وقرأ الحسن

(١) انظر تفسير القرطبى ٧/٣٧ .

وعيسى وأبو نوفل وأبو حيوة : وماقدّروا ـ بتشديد الدال ـ الله حق قَدَرِه ـ بفتح الدال ـ أي ما عظموه حقيقة تعظيمه » ، وفي الكشاف : « وقرىء بالتشديد على معنى : ما عظموه كنه تعظيمه » ، وفي البيضاوي : « ما قدروا عظمته في أنفسهم حق تعظيمه ، حيث جعلوا له شركاء ووصفوه بما لا يليق به ، وقرىء بالتشديد » .

البندار — تاجر الجملة

تاجر الجملة في هذا العصر يراد به التاجر الكبير الذي يأخذ منه السلع تجار دونه فيبيعون وهو يجمع مقادير كثيرة من السلع ويكون كثير المال الذي يقلبه في التجارة . وقد وقفت على كلمة تؤدي هذا المعنى ، وهو البندار . والبندار كلمة فارسية ، ومن معانيها في الفارسية الثرى والمحتكر . وقد دخلت هذه الكلمة العربية ، وتصرفت العرب فيها فأدخلوا عليها أل ، وجمعوها على البنادرة . وفي اللسان : « البنادرة دخيل وهم التجار الذين يلزمون المعادن . وفي النوادر : رجل بندري ومبندر ، ومتبندر ، وهو الكثير المال » .

ونرى في التاج النص الآتي : « وفي كتاب ابن الصلاح في معرفة الحديث : البندار : من يكون مكثراً من شيء يشتريه منه من هو دونه ثم يبيعه » ، وهذا يثبت ما رأيت من أن البندار معناه تاجر الجملة ، كما يثبت وجود هذا الضرب من التجار في المدنية الإسلامية في عصورها الغابرة

هذا الرجل يقتني الطيور غواية فيها

يستعمل الناس مادة (غ و ى) في معنى الهوى والميل . فهم يقولون فلان غاو للموسيقى ، أي يميل إليها بطبعه ، وينزع بشوقه إليها . وقد أنكر على هذا الاستعمال ، وأوجب الباحثون أن يستعمل في مكانها الهوى وما اشتق منه ، وأحب هنا أن أدون نصاً وجدته في آخر ديوان ابن قزمان الأندلسي صاحب الزجل والمبرز فيه . وفي النسخة أنه « طالعه أضعف عباد الله وأقواهم طمعاً في رحمته أحمد بن محمد الهراس ، لطف الله به وسامحه سنة ٦٨٣ » وهذا النص هو : « استكتبه لنفسه الأديب محمد بن أبي بكر القطان بصفد المحروسة ، استحساناً له وغواية فيه » فتراه استعمل الغواية في معنى الميل ، كما هي في الاستعمال الشائع الآن ، وهذه النسخة مطبوعة بالفوتستات عن صورة نسخة مخطوطة ، وقد تم طبعها في برلين سنة ١٨٩٦ .

محمد علي النجار
الأستاذ بكلية اللغة

وحدة الأمة سبيلها إلى النصر

حين يفكر الإنسان فى حال هذه الأمة ، وما تفشى بينها من أدواء مهلكة وأمراض قاتلة ، لايلبث أن تملكه الحسرة وتغالبه الدمعة ويحس فى أعماقه بالألم الدفين والهم اللاذع ، فنحن أتباع دين كريم يدعو إلى القوة البانية المشيدة ، ويوصى أصحابه بالعزة ، ويحذرهم من الضعف والاستكانة والذلة . والله تعالى يقول : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، ورسولنا صلوات الله عليه يقول : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

والتاريخ الصادق الأمين حافل بروائع المثل التى ضربها أسلافنا العظام حين تجردوا من مطامع الدنيا وطهروا أنفسهم من رجسها ولم تلههم طيبات الحياة ومفاتن العيش عن الجهاد فى الله والفناء فى سبيله فعزوا وفازوا ، وكانوا قادة الدنيا وسادة العالم .

ومن العجب أننا نطالع فى أسفار التاريخ هذه المثل ، ونؤمن بها ونعتز بما تحوى من صور البطولة والعظمة ، ولكننا لا نحاول أن نأخذ أنفسنا بهذا السلوك ، ولا أن نحملها على التحلى بما كانوا عليه من فضائل . ولذلك ضعف شأننا وهان أمرنا ، وتمزقت وحدتنا وتحللت قوتنا وحل بيننا الخصام محل الوئام والتدابر مكان التآلف ، وأصبحنا لقمة سائغة لا تغص بها الحلوق ، وغنيمة سهلة لا تكلف النهازين المستغلين عناء ولا مشقة .

لماذا لا نلتمس الدواء من ماضينا ؟ ولماذا لا نصلح آخر هذه الأمة بما صلح به حال أولها ؟

إن عبر الحياة وأحداثها ناطقة بأن العماد الذى تقوم عليه الدول وتحيا به الشعوب عزيزة الجانب منيعة السلطان نافذة الكلمة ، هو الوحدة : وحدة الجهود ، وحدة المشاعر ، وحدة القلوب وحدة الأهداف والغايات . كما أن التفكك والانحلال واضمحلال الشخصية وفناء المقومات وضياع النفوذ وانهيار السلطان لايتسرب إليها إلا من قبيل الفرقة والتنازع ، ومن هنا حرص الإسلام أشد الحرص على تأكيد الوفاق فى نفوس الناس ، وأنذر المتنازعين بالفشل وذهاب الريح .

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » .
« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » .

فإذا اتحدت الأمة وتآلفت فيها القلوب وتآخت النفوس ، وعاشت متماسكة مترابطة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، استطاعت فى سهولة ويسر أن تعمل وأن تنتج وأن تخيف العدو الطامع وترهب الخصم المساور ، وتسير فى موكب الحياة شامخة سعيدة لا يشغلها توزع النفوس بالخصومات الفاجرة ولا اشتعال القلوب بالأحقاد الثائرة . ولا نزوع الناس إلى الانتقام الغادر .

إذا اتحدت الأمة صفت النفوس من المواجد والأضغان ، وطهرت القلوب من الحسد والتباغض ، وشعر كل فرد بأنه عضو فى هذا الجسد القوى يجب أن يصونه ويحافظ على سلامته .

ولقد ضرب الرسول الأكرم صلوات الله المثل الرائع فى هذا المعنى ليقتدى به كل من يريد أن ينجح فى دعوته ويوفق فى رسالته ؛ فإنه حين جهر بالدعوة وصدع بأمر ربه لم يغفل المعنى الذى تقوم به الجماعات وينجح به الدعاة . لم يغفل الرابطة التى يجب أن تقوى بين المجاهدين وتتوثق بين العاملين . بل ألف بين قلوب لم تكن تعرف الألفة ، وآخى بين نفوس طالما تمردت على الإخاء ، وربط بالحب بين أفئدة أنكرت الحب حقبا متطاولة من الزمان ، وجعل المسلم يؤمن حقيقة أنه أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ويحب له ما يحب لنفسه .

ولما دخل المدينة قضى على كل ما كان يتسعر فيها من فتنة ، وينشب بين قبائلها من عداوات مدمرة ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، وجعل المتخاصمين المتدابرين من الأوس والخزرج جسما واحدا وقلبا واحدا وكتلة واحدة يظلها الحب ويكتنفها الإخاء . فلم يقدر أن يطمع فيهم عدو ولا أن يمشى بين صفوفهم دخيل ، ولم يستطع غريب أن ينقض عليهم دعوتهم أو يكيد لهم فى صفوفهم . وحذرهم أشد التحذير من أن يصيخوا إلى دعاة الفرقة ، وأبواق الشتات الذين يبغون فيهم الفتنة . « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » .

أليست بين أيدينا هذه العظات البالغة هادية لامعة ؟ ألسنا نعتز بأننا سلالة هذه الصفوة التى عرفت ربها فنصرها ، وأعزت دينها فأعزها ، وقامت بحقه فأمدها بالعون والنصر والتأييد . ؟ بلى ولكننا استسلمنا لما يتردد فى نفوسنا من شهوات طاغية ، وخضعنا لما

يستبد بنا من أهواء متبعة ودنيا مؤثرة وأطماع خلابة ورغبات متقدة فى اللذة والاستمتاع ، استسلمنا للشياطين المضلة التى توسوس فى صدورنا بالتفرق وتصدع الشمل ، وتدعونا إلى الكيد والختل والتباغض والتحاسد . ومن العجب أننا نقف بعد ذلك متباكين متصايحين .

تمر بنا صور الحياة فلا نأخذ منها العبرة ، وتطوف أحداث الوجود فلا نتنبه إلا على القوارع المدوية والصيحات المجلجلة ، فإذا استفقنا من الغاشية واستيقظنا من السبات العميق وجدنا الركب قد سار ونحن خلف القافلة ، ووجدنا الدنيا كلها مشغولة بالكفاح والعمل ، ونحن ما زلنا ننفض عن عيوننا غبار النوم والكسل .

يجب أن نشق هذه الصدور وأن نغسلها من إدران الضغن والموجدة ، يجب أن نطهرها من الأطماع التى ألحت عليها فأظلتها ودنست أرجاءها وجوانبها . يجب أن نعودها الطهر والمحبة فقد تعبت من طول ما كرهت ، وشقيت من كثرة ماعانت من البغض والخصام .

لقد جرب الناس الخلاف والشقاق فلم يحصلوا إلا على الضنى والعذاب والشقاء المقيم ، وجربوا العكوف على الشهوات والإقبال على اللذات والحرص على المطامع والغايات ، وجربوا الإثم والعصيان والبعد عن الله والاقبال على الدنيا . أفما آن لهم أن يجربوا الطاعة الخالصة والاخوة الطاهرة والحب فى الله ؟ « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » .

إن العدو لا يأتى المسلمين من قلة عدد ، إنما يهدم بناءهم ويمزق وحدتهم ويفرق جمعهم ويشتت صفوفهم بتنابذهم واختلافهم ، وتفرقهم فى الأهواء والمشارب ، وتوزعهم فى الاغراض والمطامع . فما أحوج المسلمين فى هذه الفترة العصيبة إلى أن يوحدوا صفوفهم ويربطوا بين قلوبهم برباط الإخاء والحب حتى يخرجوا من هذه المعركة الحامية فائزين منتصرين .

عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

تطهير الأداة الحكومية في تاريخ الإسلام

— ٣ —

العدل في الحكم :

يقول الله عز وجل : « إن الله يأمر بالعدل » ، ويأمر سبحانه وتعالى : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وفي الحديث الشريف : « يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة » .

ولقد كان (الخليفة) يفتح قلبه للشاكين من عماله ، وهو ما يعرف اليوم بالشكوى « بالطريق الإداري » .

أخرج الطبري في التاريخ [1] عن أبي فراس قال : خطب عمر بن الخطاب فقال : يأيها الناس إني والله ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكني أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته ، إنك لتقصه منه ؟؟ قال : إي والذي نفس عمر بيده ، إذن لأقصنه منه ، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه ؟؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تجمروهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

ولقد اعتزم عمر رضي الله عنه رحلة يجوس فيها خلال ديار الإسلام بنفسه ليتفقد أحوالهم ويتسمع شكواهم ، فقال : « لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولا ، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني ، أما عمالهم فلا يرفعونها إلي ، وأما هم فلا يصلون إلي . فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين ، والله لنعم الحول هذا » [2] .

---

(١) ج ٥ (طبعة الحسينية) ص ١٩ - ٢٠ (٢) الطبري ج ٥ ص ١٨ .

ولقد كان الفقه الدستورى القديم فى الغرب يرتضى من العدل صورة سلبية تكتفى فى منع الحاكم من الاعتداء على حقوق الفرد ، ولكن الفقه الدستورى الآن لا يقتنع إلا باتجاه إيجابى يلزم الحاكم فيه أن يهيء الظروف للفرد كى يمارس حقوقه . فنصت وثيقة حقوق الإنسان الأخيرة الصادرة عن هيئة الأمم المتحدة ، مثلا ، على ما لم تتضمنه سابقتها وليدة الثورة الفرنسية ، ففى المواد ٢١ : ٢٤ نُصَّ على حق كل فرد فى أن يجد عملا بشروط عادلة وأجر مجز ، وفى حمايته من البطالة ، وفى تكوين نقابات ، كما نص على حقه فى الغذاء والمسكن والعلاج الطبى والتمتع بمستوى اجتماعى يضمن له ولأسرته الراحة فى الحياة ، والضمان ضد البطالة والمرض والعجز والشيخوخة .

والإسلام قد قرر هذا العدل الاجتماعى ووجّه إلى هذه النزعة الإيجابية قبل أربعة عشر قرناً . روى أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة عن الرسول ﷺ « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة . اقرءوا إن شئتم قول الله : النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم . فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دَيْناً أو ضياعاً فليأتنى فأنا مولاه » - رواية البخارى . ولقد جاء فى صحيح البخارى وغيره من كتب الحديث أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ يطلب إليه أن ينظر فى أمره لأنه خال من وسائل الكسب ولا شىء عنده يستعين به على القوت . فدعا الرسول ﷺ بقدوم ودعا بيد من خشب سواها بنفسه ووضعها فيها ، ثم دفعها للرجل وأمره أن يذهب إلى مكان عينه له ليعمل لكسب قوته ، وطلب إليه أن يعود بعد أيام ليخبره بحاله ، فعاد الرجل يذكر حسن حاله ويشكر رسول الله عليه الصلاة والسلام . وفى هذا أبلغ دلالة على التزام الدولة التزاماً إيجابياً بكفالة الحقوق الاجتماعية . ولقد ندب الغزالى فى « الإحياء » ولى الأمر أن يزود العامل بآلة العمل ، فللنجار آلة النجارين ، وللحداد مثل ذلك وهكذا [1] .

وكتب خالد بعد فتح العراق « . . . . أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام » .

(١) فى هذا تفصيل فى كتاب [الاسلام : لا شيوعية ولا رأسمالية] للاستاذ البهى الخولى صفحة ٧٠ وما بعدها .

ومرة ثانية نقول : هكذا كان يحكم المسلمون دولتهم ، ويرعون رعيتهم ولو كانوا على غير دينهم !!!

وحين تلقى عمر شكاية يهودى طاعن فى السن يسأل الناس ليفى بالجزية والحاجة فى شيخوخته ، لم يرفض عمر الشكوى « شكلا » لأنها خارجة عن الاختصاص ، فلم تكتف دولة الإسلام قط بالاتجاه السلبي الذى يقنع بحماية الحقوق من العدوان ، دون العمل على تهيئة السبيل للتمتع بهذه الحقوق . ولذلك بادر عمر بالفرض للشيخ الذى من بيت مال المسلمين قائلا : « ما أنصفناك . أكلنا شبيبتك وتركناك عن الشيخوخة » !! ووضع عنه الجزية [1] . وعمر أيضاً هو الذى راعى أن يكون الأجر مجزياً ، حين رفض أن يقيم الحد على خادم يجيعه من يعمل عندهم .

ولقد عرف تاريخ الإسلام « القضاء الإدارى » حيث يشكو الرعية من سوء استعمال السلطة .

فقد كانت هناك محكمة عليا هى (محكمة المظالم) ، وكانت تستأنف أمامهم الأحكام القضائية الصادرة من قضاة أول درجة ، كما كان يطعن فى القرارات الإدارية سواء بسواء ، وينقل إلينا أبو الحسن الماوردى اختصاصات هذا النوع من القضاء :

١ — النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طريق العدل والإنصاف ، وعمال الخراج إذا اشتطوا فى جمع الضرائب ، وكتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

٢ — النظر فى تظلم المرتزقة - أى موظفى الدولة - إذا نقصت أرزاقهم ، أو تأخر ميعاد رفعها لهم .

٣ — تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام .

٤ — مراعاة إقامة العبادات ، كالحج والأعياد والجمع والجهات [2] .

وهكذا جعلت السلطات الإدارية تحت رقابة الحاكم ، وجعلت العبادات من مهام الدولة العامة التى تسأل عنها قضائياً أمام أعلى قضاء ، ذلك أن دولة الإسلام دولة ربانية

---

(١) الخراج لأبى يوسف

(٢) الأحكام السلطانية ص ٧٢ - ٨١

الفطرة السليمة عند ديكارت

يرى ديكارت أن الفطرة السليمة ملكة قادرة على تمييز الحق من الباطل وعلى الاهتداء إلى الحق ، فهي — بعد — لم تحجب فيها بذور المعرفة بالأخطاء . فمن يرد تقرير شيء محقق في العلوم يجب أن يبدأ من جديد ، فيطرح جانباً كل ماعلق بذهنه من معارف ، ويشك في جميع مناهج العلوم وأساليبها ، مثله في ذلك مثل البنّاء يزيل الأنقاض ، ويحفر الأرض ، حتى يصل إلى الصخر الذى يقيم عليه بناءه . وأساسنا هنا ، هو الفطرة السليمة مجردة وخالصة من كل شائبة .

والفطرة السليمة ، واحدة في جميع الناس ، مقسمة بينهم بالتساوى ، ومحتوية على بذور المعرفة ، وليست صفحة بيضاء كما تصور المدرسيون . فهي تملك بالقوة — منذ البداية — ما سيكون — بعد — في الفكر بالفعل .

وإذا كان ذلك كذلك ، وكانت الفطرة السليمة واحدة في كل الناس ، فما هو السبب في اختلاف آرائنا ، وتشعب وجهات نظرنا ؟ إن السبب ، جد بسيط : إن الاختلاف ينشأ من توجيه الأفكار إلى وجهات مختلفة ، وعدم اتحاد نظرات كل منا إلى الأشياء . فليس يكفي

عبادية ، تقوم على رسالة لها شعائرها ودعائمها التي تميز شخصيتها . هذه الرسالة هي أن « عبادة الناس لله ، التي قامت عليها الأديان المنزلة ، هي القاعدة الرشيدة التي بها تنصلح أحوال البشر في سياستهم واجتماعياتهم واقتصادياتهم ، فإن الروح في ظل دين الله تطمئن بعبادة ربها ، والناس حين يرجون الله واليوم الآخر تمحي من مقاييسهم « الفردية » و « النفعية » و « الإباحية » ، ويغدون مرتبطين بشرع الله ، وهو رحمة للعالمين أجمعين . فكيف لا تكون العبادات بهذه المنزلة في أنظمة الدولة ، وهذه هي منزلتها في فكرتها ورسالتها ؟ .

****

بهذا كانت الحكومة الإسلامية طاهرة في جهازها لأمانة أفرادها ، مطهرة في إدارتها لسلامة أوضاعها : عدالة في الحكام ، وعدل في النظام « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

محمد فتحي محمد عثمان

مدرس الآداب بالمعاهد الدينية

الفطرة السليمة عند ديكارت

يرى ديكارت أن الفطرة السليمة ملكة قادرة على تمييز الحق من الباطل وعلى الاهتداء إلى الحق ، فهي — بعد — لم تحجب فيها بذور المعرفة بالأخطاء . فمن يرد تقرير شيء محقق في العلوم يجب أن يبدأ من جديد ، فيطرح جانباً كل ما علق بذهنه من معارف ، ويشك في جميع مناهج العلوم وأساليبها ، مثله في ذلك مثل البناء يزيل الأنقاض ، ويحفر الأرض ، حتى يصل إلى الصخر الذي يقيم عليه بناءه . وأساسنا هنا ، هو الفطرة السليمة مجردة وخالصة من كل شائبة .

والفطرة السليمة ، واحدة في جميع الناس ، مقسمة بينهم بالتساوي ، ومحتوية على بذور المعرفة ، وليست صفحة بيضاء كما تصور المدرسيون . فهي تملك بالقوة — منذ البداية — ما سيكون — بعد — في الفكر بالفعل .

وإذا كان ذلك كذلك ، وكانت الفطرة السليمة واحدة في كل الناس ، فما هو السبب في اختلاف آرائنا ، وتشعب وجهات نظرنا ؟ إن السبب ، جد بسيط : إن الاختلاف ينشأ من توجيه الأفكار إلى وجهات مختلفة ، وعدم اتحاد نظرات كل منا إلى الأشياء . فليس يكفي

عبادية ، تقوم على رسالة لها شعائرها ودعائمها التي تميز شخصيتها . هذه الرسالة هي أن « عبادة الناس لله ، التي قامت عليها الأديان المنزلة ، هي القاعدة الرشيدة التي بها تنصلح أحوال البشر في سياساتهم واجتماعياتهم واقتصادياتهم ، فإن الروح في ظل دين الله تطمئن بعبادة ربها ، والناس حين يرجون الله واليوم الآخر تمحى من مقاييسهم « الفردية » و « النفعية » و « الإباحية » ، ويغدون مرتبطين بشرع الله ، وهو رحمة للعالمين أجمعين . فكيف لا تكون العبادات بهذه المنزلة في أنظمة الدولة ، وهذه هي منزلتها في فكرتها ورسالتها ؟ .

****

بهذا كانت الحكومة الإسلامية طاهرة في جهازها لأمانة أفرادها ، مطهرة في إدارتها لسلامة أوضاعها : عدالة في الحكام ، وعدل في النظام « الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور » .

محمد فتحي محمد عثمان

مدرس الآداب بالمعاهد الدينية

إذن أن يكون للمرء فطرة سليمة بل أن يحسن استخدامها . والتسرع فى الأحكام ، سبب آخر من أسباب اختلاف الآراء .

فالفطرة السليمة صادقة بطبيعتها ، ووجودها معلوم قبل أى وجود ، وكذا علمها أوضح من علم أى وجود ، فهو قائم على البداهة ويهدينا إليه النور الفطرى . ذلك النور الذى تحجبه آثار المجتمع والأخطاء الكثيرة التى تكدست أمامه . فالعلم إذن هو ما اشتملت عليه النفس وما عدا ذلك يعد وهماً خادعاً . وإذا نحن استمعنا إلى صوت الطبيعة فينا تبين لنا الصواب من الخطأ ، وفعلنا ما فعله « أودكس » ذلك الرجل ذو الفهم العادى الذى لم تفسد أحكامه بالاعتقادات الباطلة ، والذى لا تزال فطرته السليمة على حال نقائها الطبيعى .

وما دامت الفطرة السليمة واحدة فى كل الناس ، وأن السبب فى اختلاف مراتب اليقين بين العلوم هو اختلاف المناهج التى يسلكها الباحثون ، أيقن ديكارت أنه لو اتبع كل باحث المنهج الرياضى لبلغت نتائج العلوم حالة مستقرة ثابتة ، وانتفى اختلاف العلماء وجدالاتهم .

وأساس المنهج الرياضى هو الاستنباط ، وتسبقه عملية أخرى هى الحدس ، الذى به يستطيع كل إنسان أن يرى بالبداهة أنه موجود وأنه يفكر ، وأن المثلث محدود بثلاثة خطوط ، وما إلى ذلك من الحقائق المماثلة .

ويضع ديكارت أربع قواعد لتدبير العقل هى : اليقين ، والتحليل ، والتأليف ، والإحصاء التام . أما اليقين فهو « ألا يقبل المرء شيئاً على أنه حق ، ما لم يعرف يقينا أنه كذلك ، فينبغى أن يتجنب التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر ؛ وألا يدخل فى أحكامه إلا ما يتمثل أمام عقله فى وضوح ، بحيث لا يكون لديه أى مجال لوضعه موضع الشك » .
فالتهور ، إذن ، أحد مصادر الخطأ عند ديكارت ، وهو عبارة عن الجزم بحكم قبل تبين وجه اليقين فيه ، وتصديق النتائج قبل تحقيق المقدمات .

وأما التحليل فهو أن « ينبغى للمرء أن يجزئ كل مشكلة يريد فحصها إلى أكثر ما يمكن من الأجزاء ليتسنى له حلها على أحسن وجه مرضى » ، فعليه أن يرجع إلى الحقائق الفطرية على حال نقاوتها الأولى وبساطتها ، فهى « كامنة كمون النار فى الحجر الصوان » .

والتأليف هو أن « يسير المرء أفكاره بنظام بادئا بأبسط الأمور وأسهلها معرفة ، ثم يتدرج قليلا قليلا حتى يصل إلى حقيقة أكثر تركيبا ، ويفرض — أحيانا — ترتيبا بين الأمور التى لا يسبق بعضها البعض الآخر بالطبع » .

أما الإحصاء التام فهو : « أن يعمل المرء فى كل الأحوال إحصاءات كاملة ومراجعات شاملة ليكون على ثقة من أنه لم يغفل شيئا » . والغرض من هذه القاعدة واضح الفائدة فيها يكمل العلم ، وذلك بالمرور — بحركة فكرية متصلة — على كل الموضوعات التى تتصل به ، والإحاطة بها فى إحصاء كاف منهجى .

وهذه القواعد الديكارتية التى وضعت لتدبير العقل تضيف صاحبها إلى طائفة الفلاسفة الاسميين ، الذين ظهروا فى القرن الرابع عشر ، واعتبروا التجربة أساسا للمعرفة ، فكانوا بذلك أول الخارجين على فلسفة أرسطو . فالمعانى الكلية — فى نظره — أسماء جوفاء ، ويجب الاستعاضة عنها بتلك الطبائع البسيطة وعن منطق أرسطو بمناهج الرياضيين .

يلزم من ذلك أن ليس هناك حقائق منطقية ضرورية ولا أحكام مطلقة ، ويكون لدينا سبب آخر للشك فى العقل شكا حقيقيا لا منهجيا . ويستبعد ديكارت بالفعل الحكم الارسطى مثل أسناد محمول إلى موضوع أو وصف شىء بشىء ، ويستعيض عنه بمعنى آخر هو « أن الحكم اعتقاد الإرادة بوجود خارجى لموضوع فكرة ما ، فليس فى العقل سوى الطبائع البسيطة يضم بعضها إلى بعض أو يفصل بعضها من بعض وليس فى العلم سوى « قوانين » . فالإرادة هى أساس المعرفة عند ديكارت ، ولا يقع الخطأ على الحقيقة ذاتها بل يأتى من الحكم عليها . ويشبه أبو الفلسفة الحديثة فى هذا أفلاطون والابيقوريين فى مثلهم المشهور وهو أنه إذا رأى إنسان الشمس فى حجم التفاحة فليس هذا خطأ بل الخطأ هو الحكم بأنها كذلك ، أى أن الخطأ يأتى من تدخل الارادة . . . ينتج من هذا أن الأحكام عند ديكارت تتكون من عنصرين : ملكة الذهن التى ترى الصورة الذهنية وتتبينها ، وملكة الارادة التى توافق أو ترفض هذه الصورة الذهنية ... فالذهن المحدود قد يرى الصور الذهنية على غير حقيقتها ، وتسرّع الارادة فى الحكم بأنها كذلك قبل التأمل فى الحقيقة هو الذى يوقعنا فى الخطأ .

وهناك موضوع آخر يعرض للذهن حين يكتب المرء عن الفطرة السليمة ، هذا الموضوع هو النفس . فالطبيعة الإنسانية مؤلفة من نفس وجسم وهما جوهران متضادان بل متمايزان فالنفس روح بسيط مفكر . والجسم امتداد قابل للقسمة ، وقد يشك الإنسان فى وجود جسمه والاجسام جميعاً دون أن يتأثر بذلك الشك وجود فكره ونفسه ، ولم يسبق ديكارت أحد فى هذا البرهان من الفلاسفة اليونانيين الذين قالوا بتمايز النفس عن البدن ، وإن سبقه الفيلسوف الإسلامى ابن سينا فى كتابه الإشارات حين قال : « ولو توهمت ذاتك قد خلقت

أول خلقتها صحيحة العقل، والهيئة وفرض أنها على الجملة من الوضع والهيئة بحيث لا تبصر أجزاءها ولا تلابس أعضاءها بل هي منفرجة ومعلقة لحظة ما في هواء طلق، وجدتها قد غفلت عن كل شيء إلا عن ثبوت إنيتها»، ويرجح أن يكون ديكارت قد اطلع على ترجمة الإشارات اللاتينية.

ولكن، كيف يفسر قوله باتحاد النفس والجسم اتحادا جوهريا، مع ما ذكرناه قبلا من تمييز النفس والجسم إلى حد التضاد ؟ ... الواقع أنه يذعن هنا مكرهاً بشهادة الوجدان، وأن مذهبه ثنائي لا يطيق الوحدة بحال، فهو في مواضع كثيرة يتكلم عن النفس والجسم كأن النفس حالة في الجسم بمجرد حلول، وهو يعين لها مكانا ممتازاً هو الغدة الصنوبرية، حيث تقوم بوظائفها، فكلما أرادت شيئاً حركت الغدة المتحدة بها الحركة المطلوبة، لإحداث الفعل المتعلق بتلك الإرادة، أما الجسم فيؤثر في النفس بأن يبلغ إليها الحركات الواقعة عليه والحادثة فيه فتترجمها هي ألوانا وأصواتاً وروائح وطعوما ورغبات وآلاما، هكذا رتب الله الأمور لخير الانسان وحفظ كيانه.

يلجأ ديكارت إذن إلى «الله» ليتوج به مذهبه إذ «لا يلوح أن باستطاعة العقل الإنساني أن يتصور بجلاء وفي نفس الوقت تمايز النفس والجسم واتحادهما، إذ أن ذلك يقتضي تصورهما شيئاً واحداً وشيئين، وهذا تناقض».

يظهر مما تقدم، أن ديكارت قد حرر العقل من سلطان الوجود، وأعلن أن الفكر يكفي نفسه ولا يخضع لشيء سواه، فالعقل في ذاته هو القانون الأكبر والأوحد «لا يسلم بشيء إلا أن يعلم أنه حق، أي إلا أن يعقله هو ويركبه بأفكار واضحة جلية هي في الواقع أفكار سهلة، فإن استعصى عليه شيء أنكره.

وديكارت بذلك قد قلب الوضع الطبيعي الذي يجعل العقل الإنساني تابعاً للوجود، ومحتاجاً إلى التعلم، وأقام الفردية على أساس فلسفي، وكانت من قبل أقرب إلى التمرد منها إلى الحق، تلك الفردية التي تجعل الشخص يظن نفسه أهلا للحكم على الأشياء، كأن ليس هناك عقول غير عقله، ويجعل من نفسه أيضاً مركزاً تدور حوله الأسرة والمجتمع، فتورث بذلك الفوضى العقلية والاجتماعية.

سعيد زايد

نظم الحكم في الشرق

نظم الحكم القائمة الآن فى الشرق الإسلامى نظم تجافى طبع الشرق الروحى ، ولا تتفق مع مقررات الإسلام فى الحكم والقيادة الخيرة الرشيدة ، هى نظم تلقفها المخدوعون من بنى الشرق المسلم عن الغربيين ليحكموا بها بلاد المسلمين ، وغاب عن هؤلاء المخدوعين أن الغربيين عند ما بهرتهم مبادىء الإسلام فى الحكم ، تعلقوا بها واستمدوا منها كل ما يقوم بمجتمعهم المنحل فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ؛ هذه المبادىء التى تضع الأمة فى المحل الأرفع ، وتضع فى قبضتها كل مقدرات الحكم ، إذ هى تعين حكامها عن رضى واختيار ، من ذوى الكفاية والإيمان والصلاحية ، ولها ، بل عليها أن تراقب تصرفات الحكام ، ولها حق إمضائها أو تعديلها أو إلغائها ، ولها أن تقوم الحاكم إذا اعوج ، وتسدده بالنصح إن أخطأ ، وتحمله على الجادة إن مال أو جنح ، ولها عزله إذا لم يرعو لناصح ، ولج فى عتوه وفجوره ، واتصلت حلقات ظلمه ، فإن أبى الاستقامة على المحجة والعدالة ورفض أن يعتزل ، عزلته بقوة السلاح ونصب الحرب له ، ما دامت ترى ذلك فى مصلحتها .

ولا غرو ، فالحكم فى الإسلام خدمة عامة ، لا سيادة على العامة ، والحاكم مجرد وكيل عن الأمة فى القيام بقيادتها وتدبير مصالحها ، ومباشرة كل سلطاتها التى لا تستطيع الأمة أن تقوم بها مجتمعة ، وبالضرورة ليس للوكيل سيادة على الموكل ، ولا من حقه الافتيات عليه ، واغتصاب حقه ، أو استعباده واستغلاله ، ضرورة أنه خادم رفيع الشأن له أجر خدمته ، وبالجملة فقد وضع الإسلام أنظمة الأمة فوق رأس الحاكم ، وسلطها عليه ، وكلفها بمراقبته وقرر مسئوليتها عن كل تصرفاته [1] .

وجد الغربيون ذلك وأكثر منه فى الإسلام ، فأدركوا سر قوته ، وسر قوة المسلمين الذين يتبعون شريعته بإحسان ، وآمنوا بأن نهضتهم ، وإصلاح مجتمعهم ، مقرونان بالعمل بهذه المبادىء القوية القويمة .

---

(١) راجع بحوثنا [الفقه السياسى للإسلام] فى أعداد السنتين الماضيتين من هذه المجلة .

ولكن ليس دن المستساغ عند أوربا المسيحية المتعصبة ، أن تنقل إليها مبادىء الإسلام على أنها مبادىء الإسلام ، وإلا كان ذلك كفراً ، أو إلحاداً على الأقل ، فى نظر رجال الكنيسة والعامة الذين يتأثرون بهم ، ولم يقف ذلك فى وجه المفكرين من رجال العلم السياسى والدستورى ، الذين وجدوا منفذاً لهم فى نظرية التعاقد الإغريقية التى تقرر أن الحكم فى الأصل تعاقد بين الحاكم والمحكومين - على وجه ما من أوجه التعاقد - ؛ وهنا دسوا مبادىء الإسلام القوية ، فى نظريات التعاقد ، بل هم فى الواقع خلقوا بها نظريات تعاقدية جديدة ويظهر ذلك بوضوح فى فلسفات السياسيين المتحررين الذين دعوا إلى هدم الملكية القائمة فى بلادهم كنظام للحكم ثبت فساده وظلمه ، وخلقه للشاكل بين المحكومين ، وتفريق وحدتهم بجعلهم طبقات يتمايز بعضها على بعض بالألقاب والأحساب ، وبجعل الشرف وراثياً ، لا دخل لعمل الشخص وسلوكه فى تحصيله ؛ ونخص بالذكر من هؤلاء الفلاسفة المتحررين « روسو » الفرنسى صاحب كتاب « العقد الاجتماعى » الذى قرر : أن الأمة هى مصدر السلطات ، وهى سيدة الحاكم الذى يستمد منها قوته وعزته وسلطانه ؛ ثم يقرر فى نفس الكتاب : « أن محمداً قد أقام نظاما سياسيا بارعا لحكم دولته ، وقد كان ذلك سر قوة خلفائه الذين اتبعوه فى حكم المسلمين ما داموا ملتزمين لنظامه » . ولو علم أولئك المخدوعون أن مبادىء « روسو » التى حطمت عرش البربون ، مبادىء قاصرة بالنسبة لمبادىء الإسلام الحقيقية فى الحكم على الأقل لأن « روسو » يعتبر أن أفراد الأمة قد تنازلوا عن شىء من حرياتهم وحقوقهم ليجعلوا من مجموع هذه « التنازليات » سلطة ممتازة للحاكم . بينما الإسلام لم يعترف بشىء من هذا التنازل إطلاقا ، إذ التعاقد فيه قائم على أساس الوكالة ، فالحاكم وكيل خاضع لسلطان الأصيل ، وسيادة الموكل على وكيله ثابتة ، والحاكم خادم للأمة لا سيد عليها ، وشرط دوام حكمه ، أن يتوجه به إلى صالح المحكومين : فإن جعل نفسه سيدا ، أو وجه الحكم لصالحه وصالح خواصه ، فسد الحكم ، وزالت عنه صفة الوكالة ، أو أزيلت عنه . وفى هذا يقول عمر رضى الله عنه : « مثلى وإياكم كمثل والى اليتيم منه ومن ماله . . » وواضح أن ولى اليتيم لا سيادة له عليه ، ولا ماله ، وإنما هو راع وموجه للخير ، وناصح أمين ، يأخذ أجر رعايته وتنميته للمال إن كان فقيرا ، وعمر أيضاً هو القائل : « إن من استرعاه الله على المسلمين فقد وجب عليه ما يجب على العبد لسيده » الخ

أقول : لو علم المخدوعون بالغرب من رجالنا ما فى مبادىء الإسلام من قوة وجمال وحيطة لصالح الشعوب ، لسموا إلى الإسلام وينابيعه الصافية الطاهرة قبل أن يذهبوا إلى الاستجداء من موائد الغربيين وهى من فتات موائد الإسلام ! ولكنه الجهل بالإسلام ، وحب تقليد أهل المدنية . .

وإن من أهم ما يشترطه الإسلام لصلاحية الحكم قيام الانسجام بين الحاكم والمحكوم ، وتحقيق التجاوب العاطفى بينهما ، وتبادل الشعور بمسئولية كل منهما عن الآخر ، فإذا لم يكن هناك توافق وانسجام بين الحاكم والمحكومين ، وإذا لم يتحقق التجاوب العاطفى بينهما ، وإذا فقد الطرفان الشعور بالاشتراك فى المسئولية عن الصالح العام للدولة ، فسد الحكم وتوزعت الميول ، وتعددت الأهداف ، فيستبد الحاكم با لحكم ، ويحقد المحكوم على الحاكم ومن هنا تقوم الثورات نتيجة لفساد الحكم وضياع الغاية منه ، وهى تحقيق الصالح العام للدين والدولة ؛ ولهذا أوجب الإسلام التضامن الجماعى بين كل فرد وفرد وبين كل فرد والجماعة ، وحمل كلاهما من مسئولية الحكم مثل ما يحتمله الآخر . وفى ذلك جاء قول الرسول الكريم صلوات الله عليه : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ، ويحبونكم ، وتصلون عليهم ، ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » وقوله : « من ولى من أمور المسلمين شيئاً ثم لم يحطهم بنصحه ، كما يحوط أهل بيته ، فليتبوأ مقعده من النار » .

ولتحقيق الانسجام بين الحاكم والمحكوم ، يجب أن يكون الحاكم واحداً من الشعب الذى يراد حكمه ، غير غريب عنه ، لأن ابن الشعب أعرف بتقاليده ، وأدرى بمصالحه ، وهو أعطف عليه من الغريب ، وهو أرحم به منه ، لأن الغريب لا يهمه من الشعب إلا أن يحكمه ، ويستعبده ، ويستغل كل إمكانياته ؛ ثم إن همة الغريب عن الشعب تتجه حتما إلى تدعيم حكمه ، وتثبيت مركزه . واصطناع الأعوان والأنصار ، ولا يتأتى له ذلك إلا بتفرقة وحدة الشعب ، وضرب بعض المحكومين ببعض ، وغالباً ما يضحى بمصلحة الدولة والصالح العام فى سبيل الوصول إلى غايته هذه ؛ وكثيراً ما يعتمد الرشوة وشراء الذمم ، فتفسد الأخلاق تبعاً لفساد الحكم ، ولا يهم الحاكم الغريب كل هذا ما دام يسيطر على الجميع !.

وإلى هذا المبدأ الجميل يرشد القرآن الكريم عن طريق الإيحاء ، فالقرآن يتحدث عن

أولى الأمر فيقول : « . . . أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » . ولما كان الحاكم معدوداً من أولى الأمر فى نظر العلماء ، وجب أن يكون من المحكومين ، وهذه إشارة قوية لها دلالتها ، ولقد كان المسلمون الأولون يتركون حكم الاقاليم لأهلها ، ويكتفون بالاشراف العام ، ومراعاة تنفيذ أحكام الإسلام .

ولدينا إشارة إرشادية تعليمية ، فيما قصه الله علينا من أنباء الرسل عليهم السلام « وإلى عاد أخاهم هوداً » ، « وإلى ثمود أخاهم صالحاً » ، « وإلى مدين أخاهم شعيباً » ، « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين » . هذه سنة الله فى إرسال الرسل . وهم الهداة المعصومون ، المرعيون بعناية الله ، وتأييد الوحى . وقد اقتضت حكمته جل شأنه أن يختار الرسل من أبناء الشعوب الذين يرسلهم إليها ، لأنهم أعرف بأحوالها ، وأدخل من غيرهم على عواطفها ، والرسل قادة ربانيون ، ونماذج يبعثهم الله للاقتداء بهم وجرياً على هذه السنة الربانية فى اختيار الرسل يجب أن يكون حكام كل شعب من الشعب نفسه ، لأن ذلك أدنى إلى تحقيق المصلحة ، وأوقع فى نفوس المحكومين ، وهو طريق تحقيق الانسجام والتفاعل الوجدانى بين الشعب وحاكمه .

وكذلك يجب أن يكون الحاكم مؤمناً بما تؤمن به أغلبية المحكومين ، ليتوحد الهدف ، وتتماثل الميول ، وتتجه فى اتجاه واحد ، وعندئذ يمكن التعاون بين طرفى الحكم فى سبيل تحقيق صوالح المجموعة كلها ؛ وتوفير أكبر قسط من السعادة للمحكومين وهو هدف الحكم .

فإذا كان الحاكم غير مؤمن بما تؤمن به الأغلبية ، كأن يأتى مثلا من صفوف الاقلية أياً كان لونها ؛ أو كان مؤمناً بمالا تؤمن به الأغلبية ، فإن حكمه لا بد أن يكون قائماً على التجبر والقهر وكبت الحريات ، وإشاعة المظالم ، مضيعا لحقوق الشعب ، اعتماداً على بطش السيوف ، وضغط الحديد والنار ، وزحمة الجيوش .

ومثل هذا النوع من الحكم الذى ينعدم فيه الانسجام والتعاطف بين الحاكم والمحكومين حكم فاسد لا يقره الإسلام بأى حال من الأحوال ؛ إذ الحكم فى الإسلام - كما قررنا من قبل - خدمة عامة ، تهدف إلى تحقيق أكبر قسط من السعادة للمحكومين : وطريقه الحق

والعدل ، وهو يعتمد على الإيمان العميق بمقدسات واحدة ، يلتزم ما تفرضه الحاكم والمحكوم على السواء ؛ ثم هو يستند إلى التقاء القلوب على حب الخير للجميع ، وقوة التعاطف الأخوى فى ظلال الشعور بالمسئولية المشتركة عن صالح الدين والدولة ...

وطبعى أن الحكم فى الشرق الإسلامى لا يقوم على هذا النمط الإسلامى ، فهو إما حكم ملكى أوتوقراطى ، أو ملكى دستورى ، أشبه بالديكتاتوريات التى تقوم على الغلبة وقوة السيف ؛ أو هذه الديكتاتوريات ، أوحكم أوليجاركى يقوم به جماعة من التجار الذين يسمون أمراء فى بعض البقاع ؛ أو حكم جمهورى ديكتاتورى ، أو حكم فى الجملة يستند إلى ما يسمى فى العصر الحديث ، الديكتاتورية البرلمانية ، التى يقولون إنها شر أنواع الحكم .

وفى كل لون من هذه الألوان الحكومية ، تختنق أصوات الشعوب ، وتضيع مصالحها ، وسط ضجيج الجيوش ، وجور السلطان ، وضغط المظالم ؛ ولا يتصل لون منها بأى سبب بالإسلام من قريب أو بعيد .

وقد آن لنا - نحن علماء المسلمين - أن نتحسس شيئاً من ماء الحياء فى وجوهنا ، حتى نكف عن تأييد هذه النظم الباغية ؛ وقد آن أيضاً لزعماء العلماء ، وكبار قادة الفكر الإسلامى ، أن يطلبوا فى إلحاح من المشرفين على مقدرات الحكم فى الشرق الإسلامى - كل فى محيطه - أن يديروا حكمهم على منهج إسلامى .

يا قوم : إن الوعى الإسلامى قد استوى اليوم على سوقه ، وروحه تسرى فى الشرق الإسلامى قوية ، تدفع إلى التحرر من جمود الدعاة ، وظلم الحكام ، وأقسم إن لم تسرعوا إلى العمل الجدى المنتج ليجرفنكم التيار ، وليفلتن من أيديكم الزمام ، فسارعوا إلى تحصين التحرر بالدين الصفى الخالص من شوائب الأهواء ، وأهواء الطوائف ، واهتفوا بالناس جميعا : حكِّموا الإسلام فى مشاكلكم وحياتكم ، فإن الشرق فى حاجة إلى حكمه الصالح ، ولقد أفلح من تزكى ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

محمود فياض
مدرس التاريخ الإسلامى
بكلية أصول الدين

ما أشبه الليلة بالبارحة

دماء مهراقة تفور فوق رمال الصحراء ، وأجسام مبعثرة تشهد على ظلم الإنسان نجوم السماء ، وأشلاء مزقتها قذائف الطغاة ، ورءوس عبثت بها الأهوال ، ونفوس شواها سعير النضال .

إنها دماء التونسيين أحفاد طارق وجند طارق ، إنها أجسام الذين أفزعت صيحات جدودهم فرنسا فتمنت فى الأرض نفقا يقيها سيوف الغزاة وبأس الغزاة ، إنها أشلاء أبناء الفاتحين الذين أترعوا لجاج الأرض عدلا وحرية .

فماذا دهى المسلمين ؟ أهم قلة حيث تداعت عليهم الآكلة ؟ أم هم كثر كغثاء السيل ؟

إن النفس لتتمزق حسرات كلما سمعت أنات الشعوب الإسلامية وقد جرح الطغاة عزتها ، وطحن الغدر كرامتها ، وسحق البغى سلامتها وحق لها أن تتمزق ويدميها الأسف على تلك العزة الإسلامية التى انهارت فى المغرب واستسلمت للطغيان منذ قرون ، منذ هزت الدسائس والفتن عرش غرناطة رويداً رويداً ، حتى انكفأ وسقط تاج أبى عبـــد الله آخر ملوكها ، وخرج منها متعثراً يلم فى يده المرتعشة أذيال الخيبة ووراءه رنات الأسى تشيع ذلك الأمل المتهدم .

إن ما يعانيه المغرب اليوم صدى لأحداث الماضى البعيد ، اختفى فى غضون الزمن حيناً ليظهر عاصفاً يجتاح من لم توقظه العبر .

لقد نسى المسلمون خروج أبى عبد الله من غرناطة ووقوفه متحسرا يلقى على (الحمراء) نظرات الأسف ثم يسترجعها مبللة بالدموع .

لقد نسى المسلمون منظر أبى عبد الله حين أغمض عينيه ليعيش لحة بين ذكريات (الحمراء) وقصرها المنيف وظلها الوارف ، ثم فتحهما فإذا رماح الأعداء حوله ، وإذا السيوف تظلل رأسه التى بجها التاج ، وإذا النذر تصيح فيه : إلى صحراء المغرب ، إلى صحراء المغرب ...

لقد نسى المسلمون وقفته حزيناً على تلك الصخرة التى وثب عليها طارق من قبل معتزاً بإيمانه وإيمان أصحابه الذين مزق بهم تاج (لذريق) وداس بهم لآلئه، وقد لمعت فيها قطرات دم الشعب الأسبانى التى استنزفها الطاغية واستنزف معها حيوية شعبه، فلما رفرفت عليهم رحمة الإسلام أعادت إليهم حيويتهم المسلوبة.

لقد نسى المسلمون وقفة أبى عبد الله على تلك الصخرة التى فقدت صلابتها تحت قدميه، فلانت، ثم ذابت، فانساخ فى ذراتها ذلك الطريد الذى أسلمته ظروفه إلى حالة، ظلمات القبر أهون منها على نفوس الأباة.

إن أمواج الزمن تحمل إلينا من أغوار الماضى البعيد تلك الصيحة التى أرسلها أبو عبد الله بين يديه إلى أحد ملوك أفريقية:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم
هى الليالى وقاك الله صولتها تصول حتى على الآساد فى الأجم
كنا ملوكا لنا فى أرضنا دول نمنا بها تحت أفنان من النعم
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا وأى ملك بظل الملك لم ينم

حقاً لقد أيقظته مهام الردى، وأفاق على سقوط ملكه وتداعى عرشه، وانتبه على أجراس الكنائس تدق فتمحو صلصلتها صوت الأذان الذى دوى فى الأندلس ثمانية قرون.

لقد صك المسلمون فى الماضى البعيد أسماعهم عن صرخات النجدة وأصوات الاستغاثة التى هتف بها الأندلسيون، فلم يستجب لهم شعب إسلامى، ولم تتيقظ الحمية فى نفس ملك من ملوك المسلمين حين نادته الأندلس الجريحة.

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وفى بلنسية منها وقرطبة ماينسف النفس أو ماينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا

ولم يلبها أحد من أصحاب التيجان المزيفة حين دعته وأهابت به أن ينتشلها من بطش العتاه:

نادتك أندلس فلب نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها

وهكذا أخذت تستنجد بمن ماتت فى نفوسهم حب النجدة حتى مضت من الوجود تاركة وراءها سحائب من الدموع لن تجف أبداً .

ما أشبه الليلة بالبارحة ، وما أشبه المذابح التى تلطخ دماؤها أرض تونس بمذابح محاكم التفتيش فى الأندلس ، وما أشبه استنجاد مسلمى المغرب اليوم باستنجاد مسلمى الأندلس بالأمس . فهل هى صرخات ضائعة فى أودية كما ضاعت صرخات الأمس ؟ وهل ماتت أحاسيسنا ففقدنا النخوة ، وأودعنا فى بطون التاريخ القديم الشهامة والرجولة .

إن شجاعة أقلامنا حين نكتب ، وقوة منطقنا حين نخطب ، وجرأتنا فى أقطارنا على الثورة ونحن بمنأى عن رحى المعارك الدائرة ، كل ذلك لا يحسب له العدو حساباً ، وكل ذلك لا يعيد للصريع حياته ، ولا يضمد الجريح جروحه ، ولا يرد كيد الطغاة فى نحورهم .

لقد ضيع مسلمو الأمس الأندلس حين قعدوا عن الكفاح وقد استنفرتهم أخوة العقيدة وازورت أعناقهم عن تلبية ندائها وهى مثخنة بالجراح . وكأن الله عاقب الأحفاد بجريمة الأجداد ، جريمة إيثار الحياة على حب الله ، جريمة خذلان المسلم للمسلم ، جريمة السكوت على عدوان اللادينيين على أرض كانت محاريب لعباد الله ثمانية قرون .

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان

قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان

تبكى الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان

على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيس وصلبان

يا من لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم كفر وطغيان

بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان

يارب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان

وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت كأنما هى ياقوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان فى القلب إسلام وإيمان

هذه صورة أندلسية دامية يصورها أحد شعرائها فيصور ذلك الانقلاب الذى أتى على المسلمين وعلى آثار المسلمين وعلى أعراض المسلمين .

إنها صور الماضى التى ظلت حية فى التاريخ ، حتى انعكست على المغرب اليوم مكبرة تكشف عن الانسانية المعذبة بين أهوال التنكيل والعسف ، فكم من رضيع مسلم حرمته وحشية الفرنسيين صدر أمه التى جادت للموت بروحها ، وضنت على الفرنسيين بكرامتها . وكم من كهل أدمت القيود أعقابه ، وحطمت الاغلال أصلابه ، فلم يرحمه أولئك الذين أسبغ عليهم منذ سنوات رحمته .

لو أن لفرنسا ضميراً لتمزق حين رأى جنودها يتنكرون بل يقتلون من حموهم وقذائف الألمان تحصدهم وأطعموهم حين استولت النازية على أقواتهم وآووهم وغوائل برد الصحراء تلتهمهم .

وأخيراً ماذا يكون موقف مسلمى اليوم من تلك الأحداث ؟ أهو موقف الاسترجاع ؟ أهو موقف القاعد الذى ينتظر دوره وهو مؤمن بأنه سيؤكل كما أكل الثور الأبيض .

أيها المسلمون ، أفيقوا قبل هبوب العاصفة ، وأجمعوا شتاتكم لتردوا عن كيانكم التآمر الدنىء ، تآمر الأطماع ، وتآمر الاستغلال ، تآمر القضاء على الحريات .

أيها المسلمون :

إن الأخوة الاسلامية هى السلاح الوحيد الذى يقضى على ذلك التآمر ، ويمزق نيات المتآمرين ، على أن تكون الأخوة قلبية تجمع بين هذه الشعوب المتباعدة الأقطار ، وتكتل قواها أمام كل من تسول له نفسه النيل من ضعيفها أو قويها .

أيها المسلمون :

إذا فاتكم أن تعيشوا فى الدنيا أعزة كراما ، فلن يفوتكم أن تموتوا بين معامع الحرب سادة أشرافا تكتبون بدمائكم الطاهرة أعظم صفحات من البطولة الخالدة .

أيها المسلمون :

إذا كانت قد أيقظتكم صيحات تونس فلتهتف قواكم وجميع ألوان أسلحتكم : لبيك يا تونس . ثم أذنوا فى الوجود : لقد تيقظنا ، ولن نسمح بعد اليوم لقوة فى الدنيا أن تمس قداسة أرضنا .

محمد خليفه

المدرس فى الأزهر

الدعـــــــوة

إلى عقد المؤتمر الاسلامي فى القاهرة

حديث لفضيلة الاستاذ الاكبر

كتب مندوب الأهرام يقول :

يعد اجتماع المؤتمر الإسلامى فى مدينة القاهرة حدثا تاريخيا له دلالته وأهميته ، ولعل أولى نتائجه أن الأمم الإسلامية سوف يتاح لها أن تجتمع فى صعيد واحد ، لتتدارس ما يعتورها أو ما كان يعتورها من مختلف العوامل لتقول كلها كلمة واحدة ، ولتضع نظاما واحداً من شأنه توحيد الجهود لمقاومة العدو المشترك ، سواء أكان هذا العدو مرضا وفقرا وجهلا ، أم كان مستعمرا يجثو فوق رءوسنا وصدورنا بعدده وعدته وخيله ورجله .

وقد رجعت إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر لأقف منه على ماقد يعرض على هـذا المؤتمر فى اجتماعه المقبل من امهات المشـكلات المشتركة بين الأمم الاسلامية . والحق أن فضيلته قـد تردد كثيرا فى إجابتى الى ما طلبت ، وذكر لى أن من الخير أن لا نتحدث عن مثل هذه المشكلات قبل أن يتخذ المؤتمرون فيها قرارا عمليا قـد يكون له أثره المرتقب . ولـكنى شرحت له أن هذا الاعتبار وإن كان اعتبارا له قـدره إلا أنه لا يصح أن يقف حائلا دون الاعداد والتمهيد ، فقال فضيلته .

زعماء المسلمين

لقد تقرر أن يجتمع كبراء المسلمين ، وزعماؤهم فى مؤتمر عام يعقد فى القاهرة ، كما عقـد فى مدينة كراتشى فى العام الماضى ، للتفاهم أو للتفـكير والبحث فى « التعاون » على البر والتقوى . واستطرد فضيلته فقال متسائلا : فهل لنا أن نمهد لذلك بالتفـكير فى أنفسنا ، ثم فى بحوثنا عن سبل الانتفاع الصادق بهذه الرابطة التى عقدها الله بين قلوب خمسمائة مليون مسلم على الحق والخير ، وأباح بها لهم جميعا سبل التعاون على الانتفاع بكل مافى أوطانهم من نعمة مدخرة .

إن التفـكير فى ذلك من مصلحتنا ، ومن أسباب سعادتنا . ولا سيما إذا استلهمناه من روحنا الأصيلة ، ومن مبادىء ميثاقنا الأقوم ، معتبرين الأخوة التى عقـدها الاسلام بيننا خطوة الى الإنسانية التى تنشدها الأمم اليوم وتتمناها ، ولـكن العصبيات القومية ، والاختلافات الوطنية والتنافس على توافه المتع وسفاسف الرغائب تحول بينهم وبين ذلك .

ولو وقفنا نحن إلى شيء من ذلك لضربنا المثل به لأمم الأرض ، فتستكشف بضوئه مسالكها إلى السعادة والتعاون فى أسمى معانيه .

وهنا سكت فضيلته قليلا ثم عاد يقول :

المسلمون أسرة واحدة

كانت الإنسانية فى بدء تكوينها أسرة واحدة ، تتعاون كما تتعاون الأسرة الواحدة ، وتتراحم كما تتراحم . ثم تكاثرت واتسعت . فطرأت عليها العصبيات والاختلافات والتنافس على توافه المتع وسفاسف الرغائب .

وما زالت هذه العصبيات والاختلافات تنمو وتستفحل حتى نشأت عنها العداوات والإحن بين الأسر ، فالمجازر والمذابح بين القبائل ، حتى إذا تمكنت الأثرة والأنانية من النفوس ، وانتقلت من القبائل إلى الشعوب ، جاء الاسلام وهذا المرض الانسانى فى مقياس واسع بين الروم والفرس ، فكان من أعظم رسالات الله إلى الإنسانية على لسان خاتم النبيين دعوة الأمم للرجوع بالإنسانية إلى وحدتها الأولى متآلفة بميثاق جديد ، وهو ميثاق الحق حيثما كان والخير كيفما يكون .

رسالة الاسلام

جاء الإسلام بهاتين الكلمتين « الحق » و « الخير » باسطا يده إلى أمم الأرض لا فرق بين أصفر وأحمر وأبيض وأسود ، فكل من دخل منهم فى ميثاق الحق والخير ، كان أخا للداخلين فيه ، لافضل فى ذلك لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بقدر مبادرته فى الاستجابة لهذا الميثاق الانسانى ، وتجنبه كل ما يخالفه أو يخل به .

روى الحسن بن أبى الحسن البصرى ، أن خطيب قريش سهيل بن عمرو أحد بنى عامر ابن لؤى ، وأبا سفيان بن حرب بن أمية ، والحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى ، وغيرهم من أشراف قريش كانوا بباب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وكان فى بابه أيضاً بعض الموالى كصهيب وبلال وغيرهما ممن شهد بدراً فخرج إذن عمر للموالى ، وأخر عنهم أولئك الأشراف ، فامتعض بعض هؤلاء وقال أبوسفيان لم أر كاليوم قط ، يأذن لهؤلاء العبيد وتركنا على بابه لا يلتفت إلينا . فقال سهيل بن عمرو وكان من ذوى أحلامهم : أيها القوم ، إنى أرى والله الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضاباً فعلى أنفسكم فاغضبوا . دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم .

هذه هى أخوة الإسلام التى رفعت الضعفاء جزاء مبادرتهم فى الاستجابة لدعوة الحق والخير ، وساوت بلالا وصهيباً وأمثالها بأشراف قريش وساداتها ، بل قدمتهم عليهم .

الاخاء فى الاسلام

وفى ظل هـذا الميثاق الإنسانى الأعظم كان الإسلام قد عقد الإخاء بين الأوس والخزرج ، فكانوا جميعاً أنصار هذا الحق ، ودعاة هذا الخير ، ثم عقد الإخاء بين الأنصار والمهاجرين بما لم يسبق له نظير فى تاريخ الإنسانية لما تتمناه الإنسانية من التواسى والتراحم والتعاون فى أسمى معانيها . وأن هذا المثل الإسلامى الأعلى لا يزال مضروباً للناس جميعاً ـ وفى مقدمتهم المسلمون ـ ليعودوا إليه فيعظموا به ، وليأخذوا بمبادئه فيقووا ويسعدوا .

الحق والخير من مبادىء الإنسانية الأولى فى الأزل ، وسيبقيان جديدين إلى الأبد ، وميثاق الحق والخير مدعو إلى الأخذ به كل إنسان يعرف قدر الإنسانية ، والذى يستجيب لدعوته التى نادى بها الإسلام يضمن بذلك السعادة لنفسه وذويه ، والإسلام لا يطلب منه جزاء على ذلك . وأول من ينبغى لهم أن يستجيبوا لدعوة الحق والخير وإحياء ميثاقهما هم المسلمون ، وسيجدون أنفسهم وبلادهم وأممهم بعد ذلك قد استحالت خلقاً آخر غير الذى كانت فيه .

وتعال نتساءل

وتعال نتساءل : ما بالنا نحن المسلمين لا نفكر فى ذلك ، وما بالنا لا نحسن إلى أنفسنا بالرجوع إلى مبادىء الإسلام الطيبة ، وأساليبه الحكيمة الطاهرة فى الأخوة والتعاون ، ألسنا نعلن فى كل يوم أن الناس بخير ما تعاونوا ؟

لماذا نستحسن التعاون على قروش فى مواد البقالة ، ولا نجرب التعاون على السعادة بحذافيرها فى مواد الحياة ومبادئها ؟ ! !

لقد دعانا الإسلام لنكون إخوة متعاونين ، لا على الأمور الصغيرة كفتح دكاكين البقالة وحسب فإن هـذا التعاون مطلوب بعد الإيمان بمبدأ التعاون الإسمى فيما هو أسمى من ذلك وأوسع نطاقاً وأعظم آفاقاً .

نحن الآن أمة لا يقل عددها عن خمسمائة مليون أو تزيد ، فما أقوانا وما أسعدنا لو تعاونا على كل ما نشترك فى الانتفاع به من معادن نفوسنا ومرافقنا ومدخراتنا ، وما أكثرها وأعظمها وأثمنها ! بل لماذا لا نتعاون فى آلامنا وأوصابنا ، وأوجاعنا ، وما أشدها ! وفى آمالنا لحاضرنا ومستقبلنا ، وما أوسع آفاقها !

لقد أنعم الله علينا بدولتين جديدتين مستقلتين الباكستان وأندونسيا وفيهما أكثر من ربع

عدد المسلمين فى العالم ، وأنعم علينا بتطهير أرض الكنانة من أسوأ نظام وأبشعه ، وأنعم علينا باليقظة فى كل مكان ، والاستعداد للأخذ بما هو أحسن ، حتى نصل إلى الاستقرار والطمأنينة والرضا بالحق والإقبال على الخير ، وفى ميثاقنا الإنسانى الأول الذى أنعم الله به علينا فى أكرم رسالاته ما يحقق ذلك كله لنا على أتم الوجوه وأجملها ، فلماذا لا نمد يدنا إلى هذا الماء النمير العذب الصافى فنغترف منه ؟ وفى أوطاننا الإسلامية من أقصى أندونسيا إلى آخر دنيا المسلمين كل أنواع المعادن والمحصولات والمنتجات والمواد الأولية ، فلماذا لا نتعاون مع إخواننا من أهلها على تبادل هذه المنافع ، وإكمال ما ينقصنا من أوطان إخواننا الذين يكثر ذلك عندهم ؟ لماذا لا نعتبر الوطن الإسلامى وطناً واحداً فى تبادل منافعه بالحق والخير ، مع الاعتراف لأهل كل بقعة بأن الأقربين لها أولى بالمعروف ، وأن عليهم أعباءها فى مقابل ذلك ، ثم علينا معاونتهم ولنا عليهم أن يكونوا فى عوننا ؟ ولماذا لا نفتح لهم قلوبنا ليفتحوا لنا قلوبهم ، وبذلك نحصل على مفاتيح الخير كلها فى السماوات والأرض ؟

ميثاق الانسانية

إن عقبة واحدة واقفة فى طريق تحقيق ذلك ، وهى أننا تناسينا ميثاق الإنسانية الذى عقدته رسالة الإسلام بين الأصفر والأحمر والأسود والأبيض ، وقد علمنا الاستعمار فى داخل فصول مدارسنا التى ننفق عليها من أموالنا بأن المسلمين أجانب عن المسلمين ، وإن الإسلام نفسه شبح مخيف يجب أن نتنكر حتى للأخلاق التى جاء يدعو إليها ، وللمثل العليا فى التاريخ التى ضربها أبطال التاريخ الإسلامى للعالم بما بنوا من أمجاد ، وبما أقاموا من حق ، وبما نشروا من دعوة الخير ، فنشأ أبناؤنا ومعاصرونا غرباء عن هذا الجو ، متخوفين من فتح نوافذهم إلى ناحيته ، ولهذا بقى المسلمون متقاطعين فيما بينهم ، ومقاطعين لميثاقهم الإنسانى الأعظم ، ومتجافين عن أخلاق دينهم التى بعث الله نبيهم ليتمم مكارمها ويجمل الإنسانية بها .

مدارسنا وروح الاسلام

وإذا كانت مدارسنا لا تحب أن تعلم هذه الأشياء لابنائنا ، فلماذا لا يقوم سليمو النية من أفاضلنا وأذكيائنا ومثقفينا بدراسة روح الإسلام من ناحيتها التعاونية والتعاملية ، ويحاولون استنباط معادن الخير منها لننتفع بها فى أزماتنا الحاضرة ؟

اختيار الزوجة في الشريعة الإسلامية

جاء الإسلام فوضع لنا قواعد لبناء هذا المجتمع على أساس صالح ، ليخرجنا من ظلمات التعاسة والشقاء إلى نور السعادة والهناء ، قال تعالى « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » وقال « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

ومن هذه القواعد ما جاءت به الشريعة الغراء لتنظيم الأسرة ، لأنها أساس المجتمع ونواته ، فإذا صلحت صلح المجتمع كله وسار قدما نحو التقدم والرفاهية .

وأول لبنة فى بناء الأسرة وتكوينها هى الزوجة الصالحة التى تسعد زوجها وتوافقه وتطيع رغباته وتشاركه أفراحه وأحزانه وتجعل من بيتها جنة فينانة وعشاً جميلا يأوى اليه الزوج فينسى همومه وآلامه ومتاعبه وأسقامه هذه الزوجة هى التى عناها الله بقوله تعالى « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ، « وهو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها »

ولكن أين هى هذه الزوجة المثالية ، وما مقياس هذه السعادة الزوجية ؟

هل هو الثراء ، أم الجاه ، أم الجمال ، أم الأخلاق الفاضلة ؟

أفكار تختمر وتتردد فى ذهن كل إنسان يرغب فى الزواج ، فالبعض يفضل الغنى لأن الثراء فى نظره هو كل شيء فى الحياة ، فيعتقد أن زواجه من غنية سيسعده ويؤدى به إلى العيش الرغيد من غير جهد أو تعب ، والبعض الآخر يرى فى الجمال مبتغاه وغاية مناه لانه رجل شعوزى يسمع بفشينوس تمثال الجمال فيريد أن يراها فى بيته تقدم له الطعام الشهى وتجاذبه أطراف الحديث الطلى وتسرد له العبارات المزوقة والألفاظ المنمقة ، وفريق ثالث يرى أن سعادته هى فى الزواج من كريمة أحد (الباشاوات) أو الوزراء أو من عائلة معروفة الحسب والنسب ليصل إلى غرضه كترقية أو تعيين فى إحدى الوظائف أو افتخار على غيره من الاقران الذين ينقصهم هذا الجاه الجديد والمصاهرة السعيدة ، وهناك فريق رابع لاينظر إلى هذه الاعتبارات جميعها فيجعلها دَبْر أذنه وتحت قدمه ، ويفضل عليها الزوجة ذات الخلق والعقل والدين ويرى فيها المثل الأعلى للزوجية الصالحة التى يسعد بها ويعيش فى ظلالها الوارفة .

أوضح لنا الإسلام أى هذه الطرق أولى بالسلوك ، وأى هذه الاعتبارات أحق بالنظر ، فبين لنا أن الجمال طلاء زائل وعرض حائل ، وأنه إن لم تزينه الأخلاق الفاضلة كان نكبة نكباء وطامة كبرى تدفع الزوجة إلى الطغيان والفساد والاستهتار بالحياة الزوجية ، ولهذا حذرنا منها الرسول ﷺ وشبهها بالنبات الأخضر الجذاب وسط الدمن والأوساخ والقاذورات فقال : « إياكم وخضراء الدمن . قيل : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء » . كما بين لنا أن الغنى وحده — من غير أخلاق تحد من طغيانه — لا يصلح أساسا للزوجية ، فهو يدفع الانسان إلى البطر والغرور والكبرياء ، والتعالى على الزوج وامتهان كرامته ، قال تعالى : « إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى » .

وكذلك الجاه يفسد الزوجة إن لم يكن لها من عقلها ودينها وأخلاقها رادع يقفها عند حدها ، ويشعرها بأنها وإن كانت أنسب وأحسب من زوجها ، إلا أنها صارت زوجته ، وواجب عليها طاعته ورضاؤه ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا تزوجوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يرديهن . ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن . ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل » . وقال : « ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء : المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته ، وإذا غاب عنها حفظته ، وإذا أمرها أطاعته » . وقال : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » ، « تنكح المرأة لأربع : لمالها وجمالها وحسبها ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » .

وروى أن سيدنا عمر رضى الله عنه نهى الباعة عن مذق اللبن بالماء ، فخرج فى إحدى الليالى يتفقد الرعية ، وإذا به يسمع امرأة تقول لابنتها : ألا تمزقين اللبن بالماء فقد أصبح الصباح ؟ فقالت البنت : كيف ذلك وقد نهى عنه أمير المؤمنين ؟ قالت : قد فعل الناس فافعلى مثلهم ، فما يدرى امير المؤمنين ؟ فقالت : إن كان عمر لا يعلم ، فإله عمر يعلم . ما كنت لأفعله وقد نهى عنه .

فسر سيدنا عمر لذلك ، فلما أصبح دعا عاصما ابنه وقال له : يا بنى اذهب إلى موضع كذا وكذا فاسأل عن الجارية ووصفها له . فذهب عاصم فإذا جارية من بنى هلال ، فقال له عمر : اذهب يا بنى فتزوجها فما أحراها أن تأتى بفارس يسود العرب . فتزوجها عاصم بن عمر فجاء من نسلها عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين .

فعمر رضى الله عنه قد اختار هذه الفتاة زوجا لابنه لصلاحها وتقواها ، ولمراقبتها الله فى سرها ونجواها ، وهى صفة قلما توجد إلا فى ذوى الضمائر الحساسة والنفوس العالية التى عرفت الله حق معرفته فخافته فى السر والعلن ، وأحست به فى تصرفاتها ، وأدركت أنه مطلع عليها ، وهو ما قصده المصطفى ﷺ بقوله « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

فالإسلام إذن قد جعل أساس اختيار الزوجة هو تقواها وصلاحها وتمسكها بدينها ومراقبتها الله وتحليها بالأخلاق الفاضلة والطباع الكريمة ، وهذا لا يعنى ألا تجمع الزوجة مع الأخلاق الكريمة الجمال أو الغنى أو الجاه قال ﷺ « إن أفضل المؤمنين إيمانا هو أحسنهم خلقا » ، « خير ما يعطى العبد خلق حسن » ، « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

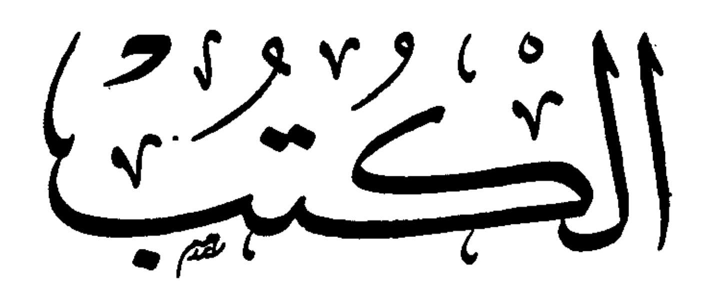
محمد فهمى الطماوى

مفتش تحقيقات بالشئون الاجتماعية



الجزائر فى ستة أشهر

بلغ عدد الذين اعتقلتهم السلطات الفرنسية فى الجزائر فى الستة الأشهر الأخيرة ٨٩٠ من أنصار حزب الشعب ، وحكم فيها بالسجن لمدة سنة على ٣٢٥ متهماً سياسياً ، وأبعد ١٨٥ لمدة سنة ، وحرم ٣٠٥ من الحقوق المدنية والسياسية لمدة سنة ، وهذه الاعتقالات قاصرة على المحكوم عليهم ولا تشمل الوطنيين المسجونين بلا محاكمة أو حكم .



تاريخ مدينة دمشق

للإمام الحافظ أبي القاسم على بن الحسن المعروف بابن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١ هـ)
نشره المجمع العلمى العربى بدمشق . بتحقيق الأستاذ صلاح الدين المنجد
المجلدة الأولى ٨٥٩ ص . ك

الحافظ أبو القاسم بن عساكر (٤٩٩ - ٥٧١) إمام من كبار حملة العلم الإسلامى ، ولد فى دمشق فى بيت من أكبر بيوت الحديث والفقه والقضاء ، فتضلع وارتوى من العلم منذ نشأته الأولى إلى أن كان - كما قال عنه السبكى فى طبقات الشافعية - رأس بيت معمور بالأئمة والمحدثين ، بل كانت أمه كذلك من آل القرشى وكان منهم قضاة دمشق مدة طويلة . وفى سنة ٥٢٠ بدأ رحلته إلى العراق فى طلب الحديث ، ثم حج فى السنة التالية ، واستأنف رحلته بعدها إلى العراق وخراسان ونيسابور حتى بلغ سرخس فى أعماق المشرق ، ولقى علماء الأقطار وكتب عنهم ماتفردوا به حتى بلغ عدد شيوخه الذين سمع منهم ألفا وثلاثمائة شيخ ، والذين أخذ عنهم الشعر ستة وأربعين ، ومن شيوخه بضع وثمانون امرأة . ثم عاد إلى العراق فدمشق وقد أوفى على الثالثة والثلاثين من سنه فتبوأ أريكة التحديث فى تلك العاصمة المليئة بالعلماء والحفاظ ، واستمر بعد ذلك قرابة أربعين عاماً يؤلف ويدرس ويملى على طالبى المعرفة حتى ملأ الدنيا علماً من مؤلفاته الكثيرة ، ونبغ على يده طائفة كبيرة من العلماء الذين تلمذوا له فى تلك العشرات من السنين . ولما دخل السلطان المجاهد الفاتح نور الدين محمود ابن زنكى مدينة دمشق ، بلغه خبر (تاريخ مدينة دمشق) الذى اشتغل ابن عساكر بتأليفه ولم يكن قد أتمه فكان السلطان متشوقا لإكماله ، وحثه على ذلك فراجع العمل فيه إلى أن أتمه ، فجاء حافلا بتراجم أعلام الإسلام الذين أنجبتهم دمشق أو دخلوها من صدر الإسلام إلى

القرن السادس الهجرى . وهو بلا ريب أوسع تاريخ كتب فى الإسلام لآية عاصمة من عواصمه ، ولا نعلم كتاباً أكثر منه تخليداً لمآثر خلفاء هـذه الملة وأئمتها ونوابغ عظمائها فى الحرب والسياسة والعلوم والآداب والرواية والصلاح ومكارم الأخلاق . والمرجح أنه ألفه فى عشرين سنة ، مع اشتغاله بالتدريس والتأليف وغيرهما . وطريقته فيه كطريقة الإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى فى إيراد كل خبر بسنده إلى مصدره ، وابن عساكر كالطبرى حريص على تزويد قارئه بوجهات النظر المختلفة - حتى ما يعتقد المؤلف نفسه أنه من الأخبار الضعيفة ، أو من روايات المخالفين له فى النحلة . وعنده أن إيراد الخبر بسنده يفيد من بعض الوجوه حتى لو كان ضعيفا ، ثم على من يريد أن ينتفع بأى خبر أن يقف أولا على منزلة رواته ليعرف درجة الخبر الذى جاءوا به . وابن عساكر استمد أخبار كتابه من مصادر ذهب الدهر بكثير منها فحفظ لنا تاريخ دمشق ما اقتبسه منها .

وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر معجم تراجم لعظماء الإسلام مرتبة أسماؤهم على حروف الهجاء بدقة ، إلا أنه بدأ بمن اسمهم أحمد تيمناً باسم النبى ﷺ ، ثم تابع إثبات التراجم مرتبة مسلسلة ، حتى أنه راعى الترتيب فى أسماء الآباء والأجداد . والذين اشتهروا بكنيتهم ولم تعرف أسماؤهم أفرد لهم قسما مستقلا ، وبعده قسم للذين اشتهروا بنسبتهم ، ثم خصص قسما للنسوة والإماء والشواعر . والذين ترجم لهم ذكر ما عرفه لهم من ثناء ومدح ، وما فيهم من هجاء وقدح ، وما ذكره العلماء فيهم من تعديل وجرح ، وحكى ما نقل عنهم من جد ومزح ، وأورد بعض ما وقع له من رواياتهم ، وتعريف ما عرفه من موالدهم ووفياتهم .

وهذه المجلدة التى تم طبعها الآن من تاريخ مدينة دمشق بلغت ٨٥٩ صفحة بالقطع الكامل ، ومع ذلك فإنها استوعبت نحو نصف مقدمة التاريخ ، وقد أورد فيها المؤلف الأحاديث والأخبار عن أولية دمشق وفضائلها والثناء على أهلها ، وأنها صفوة الله من بلاده ، إليها يجتبى خيرته من عباده ، وفيه أخبار جهاد الصحابة فيها ، وتاريخ فتحها ، وما يتعلق بذلك . وفى المجلدة الثانية التى لم تنتشر بعد بقية المقدمة عن خطط دمشق ووصف مسجدها وما كان عليه من قبل وبناء الوليد بن عبد الملك له ، وما فى دمشق من مساجد ومآثر ومعالم . ثم يأتى بعد ذلك معجم التراجم وسيكون بمجلدات كثيرة .

وقد عهد المجمع العلمي العربي بدمشق فى إخراج هذه المجلدة الاولى وتصحيحها وتحقيقها إلى الأستاذ الفاضل السيد صلاح الدين المنجد مؤلف (خطط دمشق) المطبوع فى بيروت سنة ١٩٤٩ ، وكتاب (دمشق القديمة) المطبوع بدمشق سنة ١٩٤٦ ، و (مخطط دمشق القديمة) الذى نشرته مديرية الآثار العامة بدمشق سنة ١٩٤٧ . فقام بهذا العمل خير قيام ، واستعان فى بعض مواطنه بأهل العلم والتخصص ، وقد أحضر له المجمع العلمى صورة شمسية لخمسة الأجزاء الاولى من النسخة المقروءة على المؤلف ابن عساكر سنة ٥٧١ والمحفوظة فى مكتبة الجامع الأزهر بالقاهرة برقم ٧١٤ تاريخ (١٠٦٧٠ ع) إلا أن تصويرها كان غير جيد فضلا عن أن أصلها فيه آثار الرطوبة والأرضة والترميم ، وهذه الاجزاء الخمسة الأولى تبلغ النصف الأول من هذه المجلدة الأولى التى تم طبعها . ومن حسن الحظ أن خمسة الأجزاء التالية لها والمتممة للمجلدة الأولى من مطبوعة المجمع العلمى بدمشق توجد الآن فى المتحف البريطانى ، وقد سعى المجمع العلمى بدمشق بتصويرها فى فلم تم تكبيره بدمشق ، وهى جيدة واضحة الخط ، فتم بالاعتماد عليها تحقيق المجلدة الاولى مع المقارنة بمخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق ومكتبة كمبردج وغير ذلك .

وكان الشيخ عبد القادر بدران رحمه الله قد بدأ باختصار تاريخ دمشق هذا ، وطبع منه فى دمشق سبعة مجلدات إلى ترجمة عبد الله بن يسار ، كما أن الشيخ أبا الفتح الخطيب (والد رئيس تحرير هذه المجلة) قام باختصاره وتوجد منه فى المكتبة التيمورية خمسة مجلدات مذكورة فى فهرسها الخاص بكتب التاريخ ، ومنه جزء فى مكتبة جامعة برنستون مذكور فى فهرس مخطوطاتها ص ١٩٢ ، وفى مكتبة دار الفتح بالروضة جزآن من أوله برقم ٧٤٥ ، ونعتقد أن هذا المختصر لم يتم .

أما هذه الطبعة التى قام على تحقيق المجلدة الاولى منها الأستاذ صلاح الدين المنجد فقد بلغت الغاية من الجودة والإتقان ، وقدم لها الأستاذ العلامة محمد كرد على رئيس المجمع العلمى بمقدمة قال فيها : « قد يكون تاريخ دمشق أوسع تواريخ المدن ، وهو أيضاً من أوسع المصادر فى تراجم الرجال ، حتى ليجرد منه كتب على حدة فى موضوعات مختلفة ، كولاة دمشق مثلا ، وقضاتها . وشعرائها ، ومنه يستخرج أحسن تاريخ لبنى أمية سكتت معظم التواريخ عنه . . . الخ » . وبعد مقدمة الأستاذ كرد على تأتى مقدمة الأستاذ المنجد ،

وفيها سلسلة نسب أشهر رجال بنى عساكر ، وسلسلة بنى القرشى أخوال الحافظ ابن عساكر ، وخريطة للعالم الإسلامى فى زمن المؤلف مشار فيها إلى المعروف الآن من المدن التى رحل إليها فى طلب العلم إلى ما وراء خراسان من البلاد التى تقع الآن فى حكم روسيا ، وذلك فى خلال ترجمة كتبها الأستاذ المنجد للمؤلف فوقعت فى نحو أربعين صفحة كبيرة .

ثم زين محقق الكتاب هذه المجلدة بالسماعات العلمية التى وجدها فى آخر الأجزاء الباقية من النسخة المقروءة على المؤلف ، وألحق بها فهرساً هجائياً لشيوخ ابن عساكر الذين سماهم بأول كل خبر من أخبار هذه المجلدة ، وفهرساً للأحاديث مرتبة بحسب أوائلها ، وفهرساً للأمم والقبائل والأرهاط والجماعات ، وفهرساً للأشعار ، وفهرسا للبلاد والمدن والقرى والأماكن والجبال والأنهار ، وفهرساً للأعلام من الرجال والنساء ، وفهارس أخرى متعددة غير ما ذكرنا . ويقول الأستاذ المنجد : « لقد بذلنا الجهد فى إخراج هذه المجلدة ، ومع ذلك فما استعسر علينا كثير . وكان علماؤنا الذين لجأنا إليهم يحارون أو يتوقفون مثلنا . وهذا التاريخ من مفاخر التراث العربى ، فليتفضل من يجد فيه خطأ أو خللا بتصحيحه ، فإنما هو ملك للمسلمين والعلماء عامة » .

فشكراً للمجمع العلمى العربى بدمشق ، ولمحقق هذه المجلدة الأستاذ صلاح الدين المنجد . ونرجو الله أن يوفقهم إلى الإسراع فى إصدار المجلدات التالية ، فإن الناس فى تعطش إلى ما فى الكتاب من تراجم ، ولا سيما ما لم يسبق نشره من مختصره . وماذا يضير لو أنهم سارعوا ببقية حرف العين وما بعده على أن يعودوا بعد ذلك إلى المجلدة الثانية أو الثالثة فما بعدهما ؟ .

ما وراء الآيات — للأستاذ أحمد محمد جمال

مطبعة مصطفى الحلبى ، ١٨٠ ص جاير

الأستاذ أحمد محمد جمال من أفاضل أدباء الحجاز ، وقد انتشرت له قبل الآن مؤلفات فى التاريخ والشعر والأدب . وكتابه هذا (ما وراء الآيات) مجموعة أحاديث له أذاعها من محطة الإذاعة السعودية اقتبسها من قصص القرآن ، وأدارها فى الغالب على ما اشتهر

فى كتب التفسير عن أسباب النزول ، ثم استخلص منها ما يقتضيه المقام من فوائد وعبر وملح وإرشاد . غير أن أسباب النزول التى يوردها المؤلفون فى التفسير يتساهلون فيها كتساهل بعضهم فى إيراد الإسرائيليات ، وحتى الذين يذكرون أسباب النزول مروية بأسانيدها التى وصلت إليهم رأينا أكثر ما أوردوه من هذه الاسانيد منقطعاً ومنها ما بين وقت النزول وأعلى راو لها نحو مائة سنة أو أكثر ، ومع انقطاع هذه الاسانيد فإن فى بعض رواتها ضعفا . والمفسرون الذين يوردون أسباب النزول بأسانيدها يكلون أمرها إلى من يقف عليها ليحكم على تلك الأخبار بما تستحقه فى قواعد الجرح والتعديل . ونضرب المثل لذلك بآية الحجرات التى قيل إنها نزلت فى بنى المصطلق ، فقد اجتمع فيما رووه من أخبار سبب نزولها انقطاع السند وضعف الرواة كما نبه عليه القاضى أبو بكر بن العربى فى العواصم من القواصم (ص ٩٠ — ٩٣) وترى أدلة ذلك فى التعليق عليه . وطريقة السلف فى التحدث عن مثل هذه المسائل إما نقل سبب النزول بسنده ليتبين الواقفون عليه درجة صحة الخبر من ذلك ، أو أن يتولى المؤلف ذلك بنفسه على طريقة أهل الجرح والتعديل حتى إذا تبين له أن سبب النزول الذى ذكروه لا يثبت على طريقة علماء الحديث صرف النظر عن بناء الاحكام عليه وإيهام القارىء أنه صحيح ثابت .

وعلى كل حال فان النية فى هذه الاحاديث حسنة ، وما استخلصه الاستاذ أحمد محمد جمال من إرشاد وعبرة نافع مفيد وهو مشكور عليه . وكما أحسن فى أحاديثه من محطة الاذاعة أحسن كذلك فى جمع هذه الأحاديث فى كتاب مستقل ، فشكراً له .

التربية فى القرآن — للأستاذ محمد عبد الله السمان

مطبعة دار الكتاب العربى ، ٧٧ ص نصف القالبين

يقول مؤلف هذه الرسالة فى خاتمة المقالة الاولى منها : إن آيات القرآن من أولها إلى آخرها دستور شامل للتربية الصحيحة والتوجيه السليم ، وهذا ما حدا بالمستشرق (كارليل) أن يقول :

« إن الإحساسات الصادقة الشريفة ، والنيات الطاهرة الكريمة ، تظهرلى فضل القرآن ، الفضل الذى هو أول وآخر فضل وجد فى كتاب نتجت عنه جميع الفضائل على اختلافها » .

ثم استعرض المؤلف آيات القرآن فى تربية الأمم ، وفى تربية الدعاة ، وفى تربية النفس ، وفى الفضائل — ومنها السمو الخلق ، والاتزان ، والتروى ، والاعتدال ، ويقظة الضمير ، وآداب السلوك ، وضريبة الإنسانية . وفى الرذائل — ومنها : الغرور ، والمكابرة ، والتمادى فى الغى ، والأنانية ، والنفاق ؛ وكفران النعمة . ثم دروس فى الحياة ، والتربية العامة .

وهى رسالة لطيفة يجدر بشباب الأمة وجمهورها أن يتدبروا ما فيها من آيات الله فى تربية النفس الإنسانية ليزدادوا بها علما ، بل ليتمرنوا على التربية الإسلامية عملا ، إلى أن تكون من صميم سجاياهم وأصيل فطرتهم ، ثم ليكونوا بعد ذلك قدوة فيها لكل من يتصل بهم ، وبهذا يكون المسلم المتأدب بأدب القرآن كتابا معروضا على أنظار الناس يقرأون به حقائق الإسلام فى أسواقهم وبيوتهم ومجتمعاتهم .

تفسير جزء عم

لخصه من التفاسير المعتمدة الأستاذ محمد توفيق عبيد

المكتبة العربية بدمشق ، ٤٤ ص قالبين

إن السور التى تضمنها جزء عم هى السور القصار التى تتلى فى الصلوات غالباً . وقد آثر الأستاذ محمد توفيق عبيد تقديمها بتلخيص تفسيرها تلخيصاً وسطا بين الإيجاز والإسهاب ، مستمداً ذلك من تفاسير البيضاوى والجلالين والشيخ محمد عبده ، ثم قابله على تفسير النسفى وغيره . وقد جعل السور بخط جلى من خطوط المصاحف فى وسط التفسير مشكولة الآيات مرقمة ، فجاءت جميلة الطبع ، مصقولة الورق ، تفى بحاجة الجمهور ، جزاه الله خيراً .

رد على كتاب السقيفة

للأستاذ عبد الله الحضرمى ، مطبعة دار الكتاب العربى بمصر ، ٢٣٨ص جاير

قال الله عز وجل مخاطبا أصحاب رسول الله ﷺ : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ، فألف رجل من أهل النجف اسمه محمد رضا المظفر كتابا عنوانه (السقيفة) ليقول فيه لأصحاب محمد ﷺ : كنتم شر أمة أخرجت للناس . وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » ، فأراد النجفى مؤلف كتاب (السقيفة) أن ينقض هذه الحقيقة التى أيدها الواقع والتاريخ فكانت من أعلام النبوة ، فجاء محاولا إقناع قرائه بأن شر القرون قرن أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .

إن أصحاب رسول الله ﷺ لم يكونوا معصومين ، فإنه لا معصوم بعد رسول الله ، ولكنهم كانوا بأجمعهم عدولا أخياراً بشهادة الله ورسوله لهم ، وكانوا أفضل جيل عرفته الإنسانية من آدم إلى هذا اليوم ، وقد مضى فى طريقهم التابعون وتابعو التابعين فكانوا المثل العليا للحق والخير ، ولذلك استجابت لدعوتهم الأمم ، ودخلت فى الإسلام على أيديهم ، وهذا العالم الإسلامى كله من ثمرات دعوتهم وبركتهم وجهادهم فى الله حق جهاده وقيامهم بتبليغ رسالات الله على ما يرضى به الله .

وقد صدر فى الرد على كتاب النجفى هذا الكتاب للأستاذ عبد الله الحضرمى ، وتكرم فأهداه إلينا فى هذا الشهر . وفى اعتقادنا أنه خير من الرد على هذه الكتب السخيفة تأليف كتب مختصرة ومتوسطة ومطولة فى تاريخ عصور الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان ، ونشر رسائل فى تراجم أعلامهم مستمدة من كتب الثقات وأئمة السنة وأعلام الدين ، وبذلك يرد الحق إلى نصابه ، وينشأ شباب الإسلام عارفين بفضل الصحابة والتابعين على العالم الإسلامى وعلى الإنسانية كلها ، ولو كره الذين فى قلوبهم مرض .

الرسالة الجامعة — المنسوبة للحكيم المجريطى

نشرها المجمع العلمى بدمشق ، بتحقيق الأستاذ جميل صليبا ، جزءان ١١٦٤ صفحة قالبيين

الحكيم المجريطى المنسوبة اليه هذه الرسالة الجامعة هو أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى القرطبى الأندلسى ، ومجريط هى (مدريد) عاصمة اسبانيا الآن ، وكان المجريطى إمام الرياضيين بالأندلس فى القرن الرابع الهجرى ، وقد ترجم الأوربيون كتابه فى الاسطرلاب باللاتينية ، وكتابه فى الفلك الذى نقله عن بطليموس — وهو يبحث فى الكرة السماوية المسطحة — ترجمه باللاتينية هرمان سكوندوس ، وقد اشتهر المجريطى بكتابيه (رتبة الحكيم) فى الكيمياء و (غاية الحكيم) فى السحر والطلسمات .

والرسالة الجامعة المنسوبة اليه بقيت منها نسخ مخطوطة : إحداها فى دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وثانية فى المكتبة التيمورية ، وثالثة فى طهران ، ورابعة فى المكتبة الوطنية بباريس ، وخامسة فى دار الكتب المصرية ، وسادسة فى مكتبة أحد الإسماعيليين فى السليمية من بلاد الشام .

والظاهر أن نسبة هذا الكتاب إلى المجريطى نشأت عن وهم توهمه مؤلف كتاب كشف الظنون ، وأسلوب الكتاب أشبه بأسلوب رسائل إخوان الصفا منه بأسلوب كتب المجريطى ، وأبوابه هى أبواب رسائل إخوان الصفا ، وعدد الرسائل فى الكتابين واحد وإن اختلفت الفصول فيهما . بل قد وردت عبارات من إخوان الصفا فى هذا الكتاب متفقة بالحرف ، ونبه على ذلك محقق الكتاب فى مواضعه .. إلى غير ذلك من القرائن الكثيرة على أن (الرسالة الجامعة) متممة لرسائل إخوان الصفا .

والذى نقل رسائل إخوان الصفا من المشرق إلى الأندلس هو الكرمانى تلميذ المجريطى كما يقول القاضى صاعد فى طبقات الأمم ، والكرمانى توفى سنة ٤٥٨ والقاضى صاعد توفى سنة ٤٦٢ ، فيحتمل كثيراً أن تكون (الرسالة الجامعة) التى قلنا إنها متممة لرسائل إخوان الصفا قد جاء بها الكرمانى إلى الأندلس مع ما جاء به من الكتب الفلسفية عند رحلته إلى حران وبلاد الجزيرة والعراق .

وتتفق الرسالة الجامعة مع رسائل إخوان الصفا فى أنهما يتضمنان صورة ما بلغ إليه العلم بالرياضيات والطبيعيات والفلسفة فى القرن الرابع ، ولو كان الغرض من رسائل إخوان الصفا والرسالة الجامعة هو العلم المحض لما كان هناك داع إلى خفاء اسم مؤلف هذه الرسائل ، سواء أكان واحداً أو أكثر ، غير أن دراسة هذه الرسائل تدل على أن لكاتبها - أو لكاتبيها - أغراضاً أخرى دينية تخالف رسالة الإسلام فى صميمها ، وسياسية تضمر ما تنكره الدولة القائمة فى ذلك الحين ، والشر يدعو دائماً إلى التستر ، والخير لا يتستر أحد منه .

وان الدكتور حسين الهمدانى - أحد دعاة الاسماعيلية المعاصرين لنا ، وقد كتب محقق الرسالة الجامعة اسمه محرفاً بالحاء : الحمدانى - كان يقول قبل نحو ربع قرن « إن رسائل إخوان الصفا كتاب الأئمة ، والقرآن كتاب العامة ، والظاهر أن مؤلفى رسائل إخوان الصفا والرسالة الجامعة كانوا يدعون إلى هذا المعنى القبيح ولذلك تستروا وكتموا أسماءهم .

وعلى كل حال فنحن فى هذا العصر نستفيد من الرسالة الجامعة ورسائل اخوان الصفا أمرين اثنين : أحدهما معرفة المستوى العلمى فى القرن الرابع الهجرى ، والثانى التنقيب عن المرامى الالحادية والسياسية التى كان يضمرها مؤلفو الكتابين ويدسونها فى مطاوى القضايا العلمية فيفسدون العلم بذلك من حيث يريدون افساد الدين .

ومن حسن حظ الرسالة الجامعة — مع أنها الآن فى طبعتها الأولى — أن تحظى من العناية والتحقيق بما لم تحظ بمثله رسائل إخوان الصفا على شهرتها وتكرر طبعها فى الهند أولا وفى مصر آخيرا ، وقد جاءت الرسالة الجامعة فى مجلدين كبيرين أولهما فى ٧٣٠ صفحة والآخر فى ٤٣٣ صفحة من قطع صفحات هذه المجلة ، وموضوعات المجلدين كموضوعات رسائل إخوان الصفا ، والغرض فى الكتابين واحد ، وأهل المذهب الإسماعيلى يرفعون مقام هذين الكتابين فوق مقام كل كتاب آخر فى الارض ،أما غيرهم من علماء الشرق والغرب فلا يرون لهما فائدة أكثر من الدلالة على تطور التاريخ العلمى والفكرى فى حقبة من الزمن .

مجمل تاريخ حاضرة الصعيد (أسيوط)

اطلع فضيلة الاستاذ الشيخ سيد على الطوبجى من علماء أسيوط على بحث فى إحدى الصحف الكبرى عن ماضى أسيوط وأعلامها ، فبدا له أن يتوسع فى الموضوع لتدارك ما فات تلك الصحيفة ، لكنه اقتصر فيما نشره على الجزء الأول فى ٥٧ صفحة واعداً بأن يرجع إلى ذلك فى أجزاء أخرى . وما سرده فى هذا الجزء لم يتعمد فيه الترتيب ، بل أورد فيه من خواطره المتعلقة بماضى أسيوط البعيد والقريب وأبنائها المعاصرين والذين سبقوهم . وقاعدته فى السرد أن الواو لا تقتضى ترتيبا . والمعلومات المشحونة فى الجزء الأول تفيد الباحثين فى تاريخ أسيوط ، ولعل المؤلف عند نشره الأجزاء الاخرى يلتزم فيها التبويب والتقسيم بحسب التسلسل الزمنى والموضوعى ، فتكون الفائدة به أتم ، والانتشار له أعم .

هداية المرشدين الى طرق الوعظ والخطابة

للشيخ على محفوظ ، مطبعة دار الكتاب العربى ، ٥٤١ ص قالبين

كان العلامة المخلص الصالح الشيخ على محفوظ رحمه الله أبا الوعاظ ومؤسس الوعظ السليم فى الديار المصرية . ولد رحمه الله فى محلة روح من أعمال طنطا وتلقى علومه

فى الجامع الأحمدى ثم فى الأزهر الشريف ، وتخرج منه سنة ١٩٠٧ ، ثم اشتغل بالتدريس ونال عضوية جماعة كبار العلماء سنة ١٩٣٩ ، وانتقل إلى رحمة الله يوم ٣ ذى القعدة ١٣٦١ (١١ نوفبر ١٩٤٢) وله كتب نافعة من أهمها (هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة) ولا يزال الوعاظ والمرشدون ينتفعون به إلى يومنا هذا وبين أيدينا الطبعة الخامسة منه قام أنجاله بنشرها .

وفى هذا الكتاب التعريف بالدعوة والحاجة اليها ، والسنن العامة فى دعوة الرسل إلى الدين ، وهديه صلوات الله عليه فى الدعوة وفى تربية أصحابه ، وواجب العلماء فى الوعظ والإرشاد ، وقد ألم بتاريخ الوعظ الدينى قديما ، وبآداب الداعى ، وبالكثير من المواعظ الدينية ، وبطرق الوعظ من ترغيب وترهيب ، وبنماذج من مواعظ القرآن والسنة النبوية ، وفى الكتاب محاضرات وخطب علمية ودينية وخلقية واجتماعية ، وما ينبغى أن يراعى فى وضع خطب المنابر ، مع إيراد نماذج جيدة منها . فالكتاب كما ترى سفر نفيس جدير بما حظى به فى طبعاته السالفة من إقبال عليه من جميع الطبقات .

نظرية الأنساب فى الميزان

هو بحث قيم قام به العالم المحقق الأستاذ عبد الوهاب حمودة ونشره فى مجلة كلية الآداب ، ثم فصل منه نسخاً مفردة أهدى إلينا نسخة منها . وقد بحث فيه عن معنى كلمة « النسب » فى اللغة وما بينها وبين لفظ « سبب » من علاقة ، وما كانت تطلق عليه فى أول استعمالها وكيف تطورت بعد ذلك . وانتقل إلى موقف المستشرقين من أنساب العرب وآراء كل فريق منهم ، وأفاض فى بيان مذهب من ذهب منهم إلى أن الأمومة هى الأصل فى الأنساب ، وهو مذهب نقضه وأثبت خطله كثير من علمائنا قبل نحو نصف قرن لمناسبة انتشار رسالة بندلى صليبا الجوزى . وانتهى الأستاذ حمودة بعد استعراض أدلتهم إلى القول بأن الأمومة « لم تكن قانونا شائعاً عند جميع القبائل ، ولكن لا مانع فى رأينا من أن يكون العرب قد مروا قديما فى هذا الدور ، وكان للأم عندهم اعتبار ومركز ممتاز » . وأنت ترى أن الأستاذ على تسامحه مع القائلين بالأمومة عند العرب بنى رأيه على الظن والاحتمال فى دور قديم ليس لدينا ما نقطع فى حقيقة ما كان عليه .

ثم عقد فصلا ذكر فيه رأيه فى الأنساب معتمداً على آراء لبعض المستشرقين وعلماء

الإسلام ، وافتتح هذا الفصل بالإشارة إلى ما فى بعض كتب الأنساب من تخليط ووهم واختلاف . وفى اعتقادنا أن هذا الحكم على كتب الأنساب كان ينبغى أن يتناوله التفصيل والتمييز ، ولعلنا نقترب من الصواب كثيراً إذا علمنا أن الأنساب لا تتناول كل أفراد القبائل ، وإنما يقتصر نسب القبيلة على أعمدته من بيوتها المشهورة دون المغمورة . وما أثبته علماء النسب من أنساب البيوت المشهورة قريب جداً من الواقع ، وليس لأعيان أمة من أمم الارض ما لأعيان الأمة العربية من المعرفة بأنسابها ، وإذا وقع الخطأ فى ذلك فإنما يقع فى النقص لا فى الزيادة ، لأن التاريخ والوعى القومى يحفظان أسماء المشهورين بالرياسة أو الفروسية أو الكرم أو الشعر والخطابة والحكمة ، وقد تخفى عنهما أو تسقط من حفظهما أسماء المغمورين من رجال سلسلة النسب فتجيء السلسلة ناقصة عما هى عليه فى الواقع ، ومن المستبعد وقوع الزيادة بتسمية رجال لم يكونوا فى الواقع من آباء تلك السلسلة . أما جمهور العامة ممن ينتمى إلى قبيلة من القبائل فإنهم يكتفون بانتمائهم إليها فى الجملة ولا يعرفون لبيوتهم سلسلة أنساب كما يعرف الأعيان ذلك لآبائهم وسلفهم .

وما أشار اليه الأستاذ حمودة من تخليط أو اختلاف فكثيراً ما ينشأ عن وفاة أب من آباء بيت معروف النسب ، فتتزوج زوجته فى قبيلة أخرى وينشأ ابنها الصغير من زوجها الأول فى بيت زوجها الثانى فينسبه من لا يعرف ذلك إلى زوجها الثانى ، كما نسبوا قضاعة إلى معد مع أن نسبه متصل عند قومه من حمير الذين يعرفون أباه مالك بن عمرو بن مرة ابن زيد بن مالك بن حمير . وقد يقع الاختلاف بسبب نزوح قبيلة عن ديار القبائل التى تجمعها بهن صلة النسب إلى ديار قبائل أخرى غريبة عنها ، فتنسجم بها وتشاركها فى سلمها وحربها ، فينشأ أبناء المتحالفين ممتزجين كامتزاج المتسلسين من أصل واحد ، فينسبهم من يعرف نسبهم إلى أصلهم الأول ، ويلحقهم من يجهل ذلك بالقبائل التى طرأوا عليها . وعلى كل حال فإن هذا الاضطراب يكون فى جمهور العامة ، أما أعيان القبيلة فيحفظون أنسابهم حيثما ارتحلوا .

وفى رأينا أن نسب كل قبيلة يرجع فيه إلى العلماء من أبنائها إن بقيت لهم مؤلفات تحفظ أنسابهم ، فقبائل حاشد وبكيل من همدان حفظ لنا الهمدانى أنسابها فى الجزء العاشر من كتابه (الاكليل) بدقة وأمانة لانظير لها ، وما اطلعنا على نسب همدانى فى كتاب من الكتب وعارضناه بما ذكره الهمدانى فى الاكليل إلا وجدناه عند الهمدانى صحيحاً مضبوطاً لا غبار عليه وأنساب قبائل كلب القضاعيين توسع فيها ابن الكلبى فى جمهرة النسب

التى اختصرها ياقوت ، وفى دار الكتب المصرية نسخة من هذا المختصر . وإنك لا تعارض ما نسبه ابن الكلبي لبيت من بيوت قومه فى الجمهرة بما حفظه العلماء ودونوه فى كتبهم الأخرى إلا ظهر لك علم ابن الكلبي وجودة حفظه إلى أقصى غاية .

ولو حفظ لنا الدهر كتبنا القديمة فى الأنساب ـ وفى طليعتها مؤلفات الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ومؤلفات الهيثم بن عدى الطائى ، ومؤلفات أبى الوزير محمد بن مطرف العبدى ، ومصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيرى ، ومحمد بن حبيب البغدادى ، وكتب ابن خداع ، والمفقود من أجزاء كتاب أنساب الأشراف وأخبارهم للبلاذرى ، لحصلنا من هذا التراث العظيم على تحقيق دقيق فى أنساب العرب نحل به أكثر ما يشكل علينا من تخليط ووهم واختلاف .

هذا فى القبائل المعروف أعيانها بالرئاسة والفروسية والبلاغة والكرم فى الأدوار التاريخية من ماضى العرب . أما العصور العريقة فى القدم فالعلم بأنسابها علم إجمالى ، وما يجهله التاريخ من أسماء آباء النسب فى تلك العصور أكثر بكثير من الذى حفظه لنا . ثم إن الأمم التى أباد الله سلطانها وأزال ملك رؤسائها كعاد وثمود وقوم شعيب والمعينيين والسبأيين، فإن جماهير عامتهم انغمرت فى الأمم التى نهضت بعدهم وورثت السيادة عليهم ، فهم موجودون بدمائهم وأنسالهم ، ومنقرضون بأنسابهم وأصولهم منذ انقرضت دولهم واضمحل سلطانهم .

ونظن أن المفقود من أمهات كتب الأنساب ، إذا جاد الدهر بظهور شىء منه وتناولته يد البعث والنشور بالطبع والتحقيق ، ستتمحص به أنساب العرب وتعرف قيمتها وتتبوأ مكانها فى تراثنا من آداب العرب وتاريخهم .

قصة المولد النبوى ــ لنافع الجوهرى الخفاجى

العلامة نافع بن الجوهرى الخفاجى التلبانى (١٢٥٠ ــ ١٢٣٠) من أفاضل رجال الأزهر المتأخرين ، كان كثير التأليف ، ومن مؤلفاته هذا المولد الشريف الذى سعى بنشره فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى عن نسخة بقلم المؤلف ، وتولى تصحيحه وكتابة مقدماته ، وهو من مطولات الموالد فقد بلغت صفحاته ١٢٨ صفحة فشكراً لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى على مجهوداته فى سبيل نشر العلم .

الأدب والعلوم في شهر

اللغة الأجنبية في التعليم الابتدائي

استقر الرأى فى اجتماع اللجنة العليا للتعليم على إلغاء تعليم اللغات الأجنبية خلال المرحلة الابتدائية الإجبارية ، على أن يكون للتلميذ الذى يرى فى نفسه الكفاءة والمقدرة للالتحاق بعد ذلك بالمرحلة المتوسطة أن يتقدم لامتحان يجيز للناجحين فيه الالتحاق بها إذا كانت سنه بين العاشرة والثانية عشرة .

رسالة الجامعة :

يرى الدكتور محمد محفوظ وكيل جامعة الإسكندرية أن رسالة الجامعة لا تقتصر على تخريج باحثين ومستنبطين ومستغلين لجميع قوى الطبيعة وخباياها .

قلنا : ولن يتيسر ذلك للجامعات المصرية ، حتى لو أرادته وحرصت على تحقيقه ، ما لم يتحول طلبة المدارس الثانوية من ببغاوات يحفظون نصوصاً وأعلاماً وأرقاماً ليرددوها فى الامتحان بحروفها ، تحقيقاً لخطة وزارة المعارف التى لا يرضى مفتشوها بغير ذلك . فإذا سمحت لهم وزارة المعارف بإطلاق أرجلهم من قيود الحفظ الحرفى لمواد مناهجها ، وصارت تعتبر الفهم والتصرف فى التعبير من أسباب النجاح لا من أسباب السقوط ، فإن من يتخرج من هؤلاء الطلبة الثانويين بعد ذلك ويدخل الجامعات يصبح مستعداً للبحث والاستنباط ، لأن البحث والاستنباط من ثمرات الفهم والتحرر من قيود وزارة المعارف فى مدارسها .

الجامعى الصالح

يقول الرئيس السابق على ماهر فى حديث له مع جريدة المصرى : « إن السبيل إلى إيجاد الجامعى الصالح هو أن تنمى فى نفوس أبنائنا الطلاب الاستعداد الذاتى للتربية الذاتية ، وأن نحبب إليهم مواصلة الدرس ومتابعة الحياة فى تطورها ، وأن ندربهم على الملاحظة والتجربة ، والانتهاء من امتثال المعارف إلى خلق الجديد المبتكر . وأن نغرس فى نفوسهم التمسك بالواجب ، ونحصنهم بالمعانى الروحية السامية والمبادئ الخلقية القوية » .

وفى اعتقادنا أن هذه الأمنية لا تتحقق إلا بانقلاب أساسى فى الأساليب الجامعية المتبعة الآن فى مصر ، وأن تتغير النية التى ينويها الطالب عند التحاقه بالجامعة كما تتغير

النظرة التي ينظر بها المدرس بالجامعة إلى مهمته كما كان متبعاً حتى الآن . فجامعتنا لم تخرج فيما مضى الجامعى الصالح لأنها لم تكن تعلم أنها أقيمت لذلك وفتحت أبوابها لتحقيقه .

الدراسات الاسلامية فى الصومال :

يقول الشريف محمود عبد الرحمن رئيس الرابطة الإسلامية فى مدينة مقديشو عاصمة الصومال الإيطالى : إن الجهد الموفق الذى بذله العلماء مبعوثو الجامع الأزهر إلى بلادنا ظهر أثره الطيب فى نفوسنا جميعاً ، فقد رفعوا مكانة بلادهم فى ربوعنا وفى قلوبنا ، وفى ضوء السعى المشكور والعمل الدائم تم افتتاح معهد الدراسات الإسلامية الذى كان أمنية جميع سكان الصومال منذ أمد طويل ، وأقيمت لهذه المناسبة حفلة كبيرة حضرها نائب الحاكم العام الإيطالى والأستاذ محمود حماد العضو المصرى فى المجلس الاستشارى للأمم المتحدة وقناصل الدول وأعضاء البعثة الأزهرية وجميع ذوى المكانة .

وقد خطب نائب الحاكم الإيطالى العام فقال : « إن تأسيس هذا المعهد كان تنفيذاً لمشروع السنوات الخمس المتعلق بنشر الثقافة فى الصومال ، وكان مقدراً أن يفتتح فى العام الدراسى القادم ، غير أن معونة الحكومة المصرية وجهود حضرات العلماء مبعوثى الأزهر الشريف قد بكرت بافتتاح المعهد ، وهيأت لأبناء هذه البلاد الفرصة للتزود بقدر من الثقافة يدفع بعجلة حياتهم دائماً إلى الأمام .

ولا شك أن معهد الدراسات الإسلامية سيهيء لشباب هذا القطر أيسر السبل إلى التسلح بذخيرة الإيمان وفضيلة العدل ، فتسند إليهم مناصب القضاء والتدريس والوعظ . وليكن شعارهم دائماً قول الله تعالى « وقل رب زدنى علما » وان الله القدير « يرفع الذين أوتوا العلم درجات » .

وخطب الأستاذ محمود حماد فكان مما قاله : « إن الإسلام ليس ديناً فحسب ، إنما هو دين ومدنية وحضارة . وما من شك فى أن حضارتنا القائمة الآن مدينة للإسلام بنصيب وافر » .

مدرسة اسلامية فى كارديف :

ينتظر أن يساعد الأزهر فى تشييد مدرسة إسلامية للجالية الإسلامية الكبيرة التى تقطن فى كارديف بانجلترا . وستكون هذه المدرسة بجوار مسجد (نور الإسلام) وقد صمم بناؤها من طابقين على الطراز العربى ، وقدر لنفقات البناء ٣٥ ألف جنيه استرلينى تجمع من التبرعات التى يشرف عليها الشيخ عبد الله الحكيمى . وستكون المدرسة ذات خمسة فصول تتسع لنحو ١٢٠ إلى ١٥٠ تلميذا وتستغرق عملية البناء أربعة عشر شهرا .

أنباء العالم الإسلامي

قواعد الحكم
فى فترة الانتقال

أعلن القائد العام للقوات المسلحة وقائد ثورة الجيش ـ باسم الشعب ـ أن حكم البلاد فى فترة الانتقال سيكون وفقاً للأحكام الآتية :

جميع السلطات مصدرها الأمة .

المصريون لدى القانون سواء فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات .

الحرية الشخصية وحرية الرأى مكفولتان فى حدود القانون ، والملكية حرمة وللمنازل وفق أحكام القانون .

حرية العقيدة مطلقة ، وتحمى الدولة حرية القيام بشعائر الأديان والعقائد طبقاً للعادات المرعية ، على ألا يخل ذلك بالنظام العام ولا ينافى الآداب .

تسليم اللاجئين السياسيين محظور .

لا يجوز إنشاء ضريبة إلا بقانون ، ولا يكلف أحد بأداء رسم إلا بناء على قانون ، ولا يجوز إعفاء أحد من ضريبة إلا فى الأحوال المبينة فى القانون .

القضاء مستقل لا سلطان عليه بغير القانون وتصدر أحكامه وتنفذ وفق القانون باسم الأمة .

يتولى قائد الثورة بمجلس قيادة الثورة أعمال السيادة العليا ، وبصفة خاصة التدابير التى يراها ضرورية لحماية هذه الثورة والنظام القائم عليها لتحقيق أهدافه ، وحق تعيين الوزراء وعزلهم .

يتولى مجلس الوزراء سلطة التشريع .

يتولى مجلس الوزراء والوزراء ـ كل فيما يخصه ـ أعمال السلطة التنفيذية .

يتألف من مجلس قيادة الثورة ومجلس الوزراء مؤتمر ينظر فى السياسة العامة للدولة وما يتصل بها من موضوعات ، ويناقش ما يرى مناقشته من تصرفات كل وزير فى وزارته .

واللواء أركان حرب محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة وقائد ثورة الجيش قد أعرب بعد إعلان هذه القواعد عن إيمانه بضرورة قيام نظام دستورى ديمقراطى كامل الأركان أثر فترة الانتقال ، وبضرورة توفير حياة حرة كريمة ومستقبل مشرق باسم للجميع وعلى الجميع أن يساهموا فى بنائه .

الجمعيات التعاونية وانهاض القرية :

يدرس كبار التعاونيين فى مصر مشروعا يهدف إلى أن تتولى الجمعيات التعاونية سلطات المجالس القروية فى القرى التى ليس لها مجالس ، وذلك لأن للتعاونيين وأنظمتهم من المقدرة على الاضطلاع بهذه المهمة ما ليس لغيرهم فى القرى المصرية .

السودانيون يقررون مصيرهم

إذا كان ميلاد الدولتين الإسلاميتين باكستان وإندونيسيا ، وخروج الفرنسيين من بلاد الجمهوريتين الشقيقتين سوريا ولبنان ، سيكون فى نظر الأجيال الآتية أعظم الأحداث فى تاريخ الإسلام والعروبة فى هذا العصر ، فان نجاح قائد مصر إلى الخير الرئيس « محمد نجيب » فى خطواته السديدة التى كان آخرها حل معضلة السودان بتوقيع الاتفاق عليها بين الجانبين المصرى والبريطانى فى يوم الخميس ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٧٢ هـ (١٢ فبراير سنة ١٩٥٣) ، لن يكون أقل شأناً ولا أهون خطراً من ميلاد دولتى باكستان وإندونيسيا فضلا عن جلاء القوات الفرنسية عن سوريا ولبنان . ولا ريب أن الفوز المتواصل الذى يلقاه رئيس مصر فى أعماله إنما هو انتصار للأخلاق ، ومعجزة من معجزات الحكمة عند ما يحسن أصحابها استعمالها ، ويعالجون المشاكل بهدايتها وعلى ضوئها .

إن القصة التى بدأت بمغامرات غوردون وكتشنر ، وحبكت باتفاقية سنة ١٨٨٩ م ، انتهت أخيراً فى يوم الخميس ١٢ فبراير من هذا العام ، فلم يبق على إخواننا السودانيين إلا أن يستعرضوا خاتمتها فى ثلاثة أعوام ، والأعوام الثلاثة فى حياة الأمم كلمح بالبصر ، ثم يصدر البرلمان السودانى إن شاء الله قراره التاريخى الذى يعرب فيه عن رغبته فى اتخاذ التدابير للشروع فى تقرير المصير ، فتنسحب حينئذ القوات العسكرية ـ المصرية والبريطانية ـ من السودان فور صدور ذلك القرار ، فى مدة لا تتعدى ثلاثة أشهر . وإن التدابير التفصيلية لعملية تقرير المصير ـ بما فى ذلك الضمانات التى تكفل حيدة الانتخابات وأى تدابير أخرى تهدف إلى تهيئة الجو الحر المحايد ـ ستخضع لرقابة دولية ، وستقبل الحكومتان ـ المصرية والبريطانية ـ توصيات أية هيئة دولية تنشأ لهذا الغرض . وبعد انسحاب القوات المصرية والبريطانية من السودان فى خلال الأشهر الثلاثة التى تلى الأعوام الثلاثة تقوم الجمعية التأسيسية بتقرير مصير السودان (الشمالى والجنوبى) بوصفه وحدة لا تتجزأ ، كما تقوم بإعداد دستور جديد للسودان يتوائم مع القرار الذى يتخذ فى هذا الصدد ، وتسن معه قانونا جديداً لانتخاب برلمان سودانى دائم .

وسيتقرر مصير السودان إما بأن تختار الجمعية التأسيسية ارتباط السودان بمصر على أية صورة ، وإما باختيار الجمعية التأسيسية الاستقلال التام . وقد تعهدت الحكومتان المصرية والبريطانية من الآن باحترام قرار الجمعية التأسيسية فيما يتعلق بمستقبل السودان ، وستقوم

كل منهما باتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتنفيذ هذا القرار .

والفترة التى تمر بين هذا الحادث التاريخى الجديد (١٢ فبراير ١٩٥٣) ونهاية السنوات الثلاث تعد (فترة انتقال) يمهد فيها لتصفية الإدارة الحاضرة فى السودان وإنهائها إنهاء فعلياً ، ويحتفظ إبان فترة الانتقال بسيادة السودان للسودانيين حتى يتم لهم تقرير مصيرهم بإرادتهم واختيارهم .

وفى إبان فترة الانتقال يمارس الحاكم العام سلطاته الدستورية وفقاً لقانون الحكم الذاتى بمعاونة لجنة خماسية تسمى « لجنة الحاكم العام » وهى تشكل من اثنين من السودانيين ترشحهما مصر وبريطانيا بالاتفاق بينهما ومن عضو مصرى وآخر بريطانى ، واتفق على أن يكون العضو الخامس باكستانيا ، ويتم رسمياً تعيين هذه اللجنة بمرسوم من الحكومة المصرية .

وقد اتفقت الحكومتان المصرية والبريطانية على أن لا يمارس الحاكم العام السلطات المخولة له بمقتضى قانون الحكم الذاتى على أية صورة تتعارض مع المبدأ الأساسى للسياسة المشتركة للحكومتين فى الاحتفاظ بوحدة السودان بوصفه إقليما واحدا .

وسيظل الحاكم العام للسودان مسئولا مباشرة - أمام الحكومتين المتعاقدتين - فيما يتعلق بالشئون الخارجية ، وأى تغيير يطلبه البرلمان السودانى بمقتضى المادة ١٠١ من قانون الحكم الذاتى فيما يتعلق بأى جزء من ذلك القانون . وكل قرار تتخذه اللجنة ، ويرى فيه الحاكم تعارضا مع مسئولياته يرفع أمره إلى الحكومتين للمصرية والبريطانية ، وعلى كل منهما أن تبلغ ردها على ذلك فى خلال شهر واحد من تاريخ الإخطار الرسمى ، ويكون قرار اللجنة نافذا إلا إذا اتفقت الحكومتان المصرية والبريطانية على خلاف ذلك .

وهنالك لجنة أخرى مختلطة للانتخابات تشكل من سبعة أعضاء : ثلاثة منهم سودانيون يعينهم الحاكم العام بموافقة لجنته ، وعضو مصرى ، وآخر بريطانى ، وعضو من الولايات المتحدة الأمريكية ، والسابع هندى . ويكون تعيين الأعضاء غير السودانيين بمعرفة حكومة كل منهم ، ويرأس اللجنة العضو الهندى . ويعين الحاكم العام هذه اللجنة بناء على تعليمات الحكومتين المصرية والبريطانية .

ولتهيئة الجو الحر المحايد لتقرير المصير ، تشكل لجنة للسودنة تتألف من عضو مصرى وآخر بريطانى ترشح كلا منهما حكومته ، ثم يعينهما الحاكم العام ، وثلاثة أعضاء سودانيين يختارون من قائمة تتضمن خمسة أسماء يقدمها إليه رئيس وزراء السودان ، ويكون اختيار هؤلاء الأعضاء السودانيين وتعيينهم بموافقة سابقة من لجنة الحاكم العام ، وفى هذه اللجنة عضو أو أكثر من لجنة الخدمة العامة السودانية للعمل بصفة استشارية بحت دون أن يكون له حق التصويت .

وهكذا سيمضى العمل فى فترة الانتقال ، إلى أن تنقضى السنوات الثلاث بتوفيق الله وعونه على أحسن حال إن شاء الله .

مذبحة الدار البيضاء

هى المذبحة الشنيعة التى دبرها مع دار الإقامة الفرنسية العامة فى مراكش الفرنسيون المتوطنون هناك ، فقتل فيها يومى ٧ و ٨ ديسمبر الماضى أكثر من ألف مراكشى مسلم راحوا ضحية التعصب والحقد والطمع والانحطاط فى المبادىء الإنسانية .

ولما وصل خبر هذه المذبحة إلى باريس عقد فريق من أصحاب الضمائر من الفرنسيين اجتماعاً خطيراً فى « دار المثقفين الكاثوليك » ، وحضر هذا الاجتماع مئات من الساسة والصحفيين والأساتذة والطلاب ، ورأس الاجتماع الكاتب الفرنسى الشهير مسيو فرانسوا مورياك فخطب منددا بالاستعمار الفرنسى فى مراكش ، ونادى بضرورة إنعام النظر فى مذبحة الدار البيضاء وقال : يجب على الفرنسيين أن يصرحوا بالحقيقة مهما كان ثمنها .

وخطب مسيو أندريه دوبيرتى المستشار السابق للاتحاد الفرنسى فقال : لم يبق فى شمال أفريقية من أثر لسياسة فرنسا الغاشمة غير الخوف والحقد والتعصب العنصرى . وإن أفراد الجالية الفرنسية فى شمال أفريقية قطعوا علاقتهم بفرنسا التى لم تهمهم فى شىء ، كما أنهم لا يرون فى المغاربة أصحاب البلاد إلا أنهم أداة للاستغلال .

وخطب مسيو بيير كورفال أحد مستشارى الاتحاد الفرنسى سابقا فأفاض فى استنكار السياسة الفرنسية . ثم تلاه مسيو روبير بارا سكرتير الجمعية فقدم للجمعية ملفا بوثائق خطيرة عن مذبحة الدار البيضاء التى بلغ عدد القتلى فيها ألف مراكشى ، وقد استخدموا رجال المطافىء لغسل الشوارع من الدماء الغزيرة ، لطمس معالم هذه الجريمة .

ثم خطب القسيس الأب ديوم الذى عاش ١٥ عاما فى المغرب ، والمسيو شارل أندريه جوليان الأستاذ بجامعة السوربون ثم مسيو فرانسوا ميتيران الوزير السابق فنددوا بهذا الاستعمار الهمجى وجرائمه الشنيعة .

التعويضات الألمانية لإسرائيل

أوفدت ألمانيا الغربية وفداً إلى مصر ليعبر عن شعور بلاده بالأسى والحزن لما حل باللاجئين العرب ، وليفاوض ذوى الشأن فى مصر للوصول إلى الوسائل التى تؤدى إلى استمرار العلاقات الودية بين ألمانيا ودول الجامعة العربية ، والتقليل من أثر التعويضات الألمانية لإسرائيل .

وقد اجتمع الوفد الألمانى بممثلى الدول العربية ، وكان الاجتماع فى وزارة الخارجية المصرية ، وأعلن وزير الخارجية المصرية فى الاجتماع الأول أن « العرب من جانبهم

قرروا الوقوف فى وجه اتفاق ألمانيا مع إسرائيل على التعويضات » .

وأجاب رئيس الوفد الألماني معبراً عن شعور بلاده وما ترجوه من توثيق العلاقة العظيمة مع البلاد العربية ، واعتذر بأن ألمانيا تواجه بعد الحربين العالميتين كثيراً من المصاعب والمتاعب لكنها رغم ذلك مستعدة لمساعدة العرب فى كل ما يقوى صناعتهم وينشط اقتصادياتهم ، وأن تزود العالم العربى بالمشورة الفنية فى جميع الميادين مع ما تتطلبه هذه المشورة من أمور أخرى .

وقد استقر الرأى على تأليف ثلاث لجان فرعية لبحث التفصيلات الفنية ، المتعلقة بالصناعات والمشروعات والتمويل على أن يشترك فى كل لجنة أعضاء يمثلون الفريقين .

والسائد فى الجانب العربى أنه فى حالة الوصول إلى اتفاق فإن قرار المقاطعة العربية سيطبق على كل هيئة أو شركة ألمانية يثبت للعرب أنها تتعامل مع إسرائيل .

دستور باكستان الجديد

تحدث سفير مصر فى الباكستان الدكتور عبد الوهاب عزام إلى مندوب جريدة البلاغ عن دستور باكستان الجديد ، والنحو الذى نحته تلك الدولة فى ذلك فقال :

« فى عام ١٩٤٩ نشرت (لجنة الأصول) فى الباكستان تقريرها متضمناً (القواعد) التى يوضع عليها دستور الباكستان ، وقد أقرت تلك القواعد الجمعية الدستورية ، ونشرت اللجنة تقريرها فى ديسمبر عام ١٩٥٢ وأعطيت مهلة ليتسع الوقت لبحث ذلك الدستور حتى ٢١ يناير ١٩٥٣ ، وقد قام الدستور الجديد على أساس (الصلة بين القوانين الباكستانية والشريعة الإسلامية) ، ونص فيه على أنه : « لا يجوز إصدار تشريع يخالف للكتاب والسنة » ، وجعل لأعضاء المجلس التشريعى الاعتراض على أى قانون يخالف الإسلام . ونص الدستور على أن تؤلف اللجنة من أعضاء عالمين بالشريعة الإسلامية لا يزيدون عن خمسة ، فإن اختلفت اللجنة فلرئيس الدولة الخيار فى إصدار القانون أو رده للمجلس ، وإن أجمعت اللجنة على أن القانون يخالف للإسلام وجب على رئيس الدولة إعادته إلى المجلس مقترحاً النظر فيه على وجه يبينه .

فسأله مندوب البلاغ :

هل رجع الباكستانيون عند وضع الدستور إلى الدساتير المختلفة للأمم ، واستعانوا بها على إنشاء دستورهم ؟ أم أنشأوه كله جديداً مستمداً من روح الباكستان والإسلام ، ومن التقاليد والعادات والخلق الباكستانى ؟

فقال السفير :

« لقد رجعوا بالطبع إلى دساتير الأمم المختلفة ، واستعانوا فوق ذلك بخبراء من الأجانب . ولكن للروح الإسلامية ، وللطابع الإسلامى ، وللمبادئ الإسلامية فى دستور الباكستان مكاناً كبيراً ومنزلة تكاد تسيطر عليه وتسوده » .

محطة للحجر الصحي بجدة

كان حجاج الشرق الذين يقصدون جدة من طريق باب المندب تفرض عليهم المراقبة الصحية ذهابا وإيابا في محجر صحي أقيم في جزيرة كمران تجاه ثغر الحديدة اليمنى من أيام الدولة العثمانية. فلما زال الحكم العثماني عن اليمن احتل الإنجليز جزيرة كمران وأصبح محجرها الصحي خاضعا لهم وللهولنديين.

وقد أنشأت الحكومة العربية السعودية الآن محجرا جديدا في جدة لحجاج الشرق، ليحل محل محجر جزيرة كمران الذي كان يستقبل زهاء مائة ألف حاج. والمحجر الحجازي الجديد يتألف من محطة حجر صحي، ومستشفى للأمراض المعدية، ومستشفى عام، ومعمل. وستساهم الهيئة الصحية بتزويده بالأجهزة والمعدات الإكلينيكية. وسيشرف على هذه المحطة الدكتور صبري الفار الخبير المصري في شئون الحجر الصحي موفدا من المكتب الصحي الإقليمي.

ومحطة جدة الجديدة ستكون أول محطة من نوعها خاضعة لسلطة الحكومة السعودية.

الخطر الإسرائيلي

قالت جريدة المصري في مقالها الافتتاحي:

« لقد آن للدول العربية أن تعترف بالحقيقة التي طالما صعب عليها الاعتراف بها، وهي أن إسرائيل أصبحت خطراً حقيقيا علينا، وأن هذا الخطر يزداد يوما بعد يوم، ويتراءى في صور شتى وأساليب مختلفة. وإن أعظم مظهر لهذا الخطر ما تؤديه شهادة الأرقام والإحصاءات من أن هذه الدولة تعمل ليل نهار، وتقيم عملها على ضوء العلم والنظام، وتجند قواها كاملة استعداداً لعدوان جديد على نمط واسع. ولا يستطاع فهم هذا الخطر على حقيقته إلا إذا قورن جهد إسرائيل الدائم المنظم بمثله في الدول العربية. وعلى كل عربي أن يكلف نفسه عناء هذه المقارنة ويستخلص منها ـ ولو لنفسه خاصة ـ النتائج المنطقية الصحيحة، فهو إن فعل ذلك استيقن من حقيقة الخطر الإسرائيلي الذي أسلفنا الإشارة إليه، وأخشى ما نخشاه أن يستنيم العرب إلى كثرة عددهم وموافقة بعض الظروف الحاضرة لهم، في حين أن الكثرة العددية لا خطر لها إذا كانت جاهلة، أو غير منظمة، أو غير معدة للعمل. أما الظروف فإنها قد تتغير فجأة من النقيض إلى النقيض، وعلى كل حال فإن القوة تهيء الظروف الملائمة، والضعف يحرم صاحبه من الظروف الحسنة ويحيلها إلى ظروف سيئة ».

رئيس لبنان يزور الرياض

زار رئيس الجمهورية اللبنانية الملك عبد العزيز آل سعود في عاصمته النجدية (الرياض) فاستقبل بحفاوة عظيمة. ولما اجتمع الرئيس اللبناني بالملك السعودي بعد ظهر اليوم الأول من وصوله إلى الرياض لبثا معا ما يقرب من ساعة، وتناول الحديث العلاقات بين

الدول العربية ، وضرورة توثيق الروابط الاقتصادية والثقافية والدفاعية بين دول الجامعة بشرط أن يكون فى ذلك مايصون استقلال الدول العربية وما لا يتعارض مع حريتها وابتعادها عن الخضوع لهذا المعسكر أو ذاك .

جزائر مالديف

نشرنا فى جزء ربيع الآخر من هذه السنة (ص ٥١٧) خبر إعلان الحكم الجمهورى فى جزائر مالديف الإسلامية ، ونزيد الآن أنها دخلت فى الإسلام فى سنة ٥٤٨ للهجرة على يد رجل صالح من المغاربة اسمه الشيخ الحافظ ابن البركات ، وكان حاكم هذه الجزائر بوذياً فدعاه هذا الشيخ إلى دين الإسلام وعرفه بمحاسنه وحقائقه فاستجاب له ، وأسلم معه سائر سكان هذه الجزائر التى يبلغ عدد الآهل بالسكان منها ٢١٥ جزيرة ويتبعها أكثر من ألف جزيرة أخرى خالية من السكان . وظلت هذه الجزائر مستقلة حتى احتلها البرتغاليون فى سنة ٩٦١ هـ ثم أجلاهم عنها السكان المسلمون فى شهر ربيع الأول سنة ٩٨١ بجهاد زعيم من زعمائهم ولوه بعد ذلك عليهم وهو السلطان الغازى محمد تكرفان ، والمالديفيون يعتبرون يوم تحررهم من الاحتلال البرتغالى عيداً قومياً . وفى سنة ١١٦٦ احتل هذه الجزائر قوة من بلاد مالابار ، ثم تحررت منهم بعد سبع سنوات بقيادة السلطان حسن عز الدين . وقبل ٢٢ سنة تحولت حكومتها إلى حكومة دستورية ، ثم ألغى فى هذا العام نظام الحكم الوراثى وأعلنوا الحكم الجمهورى كما ذكرناه فى جزء ربيع الآخر ، وكان آخر رؤسائهم الزعيم المصلح الحاج عبد المجيد ديدى رحمه الله ، ثم كان الآن أول رؤساء جمهوريتهم الزعيم الوطنى محمد أمين ديدى الذى يجمع بين العلم والأدب ومزايا الحكم الصالح .

قانون حماية الآداب

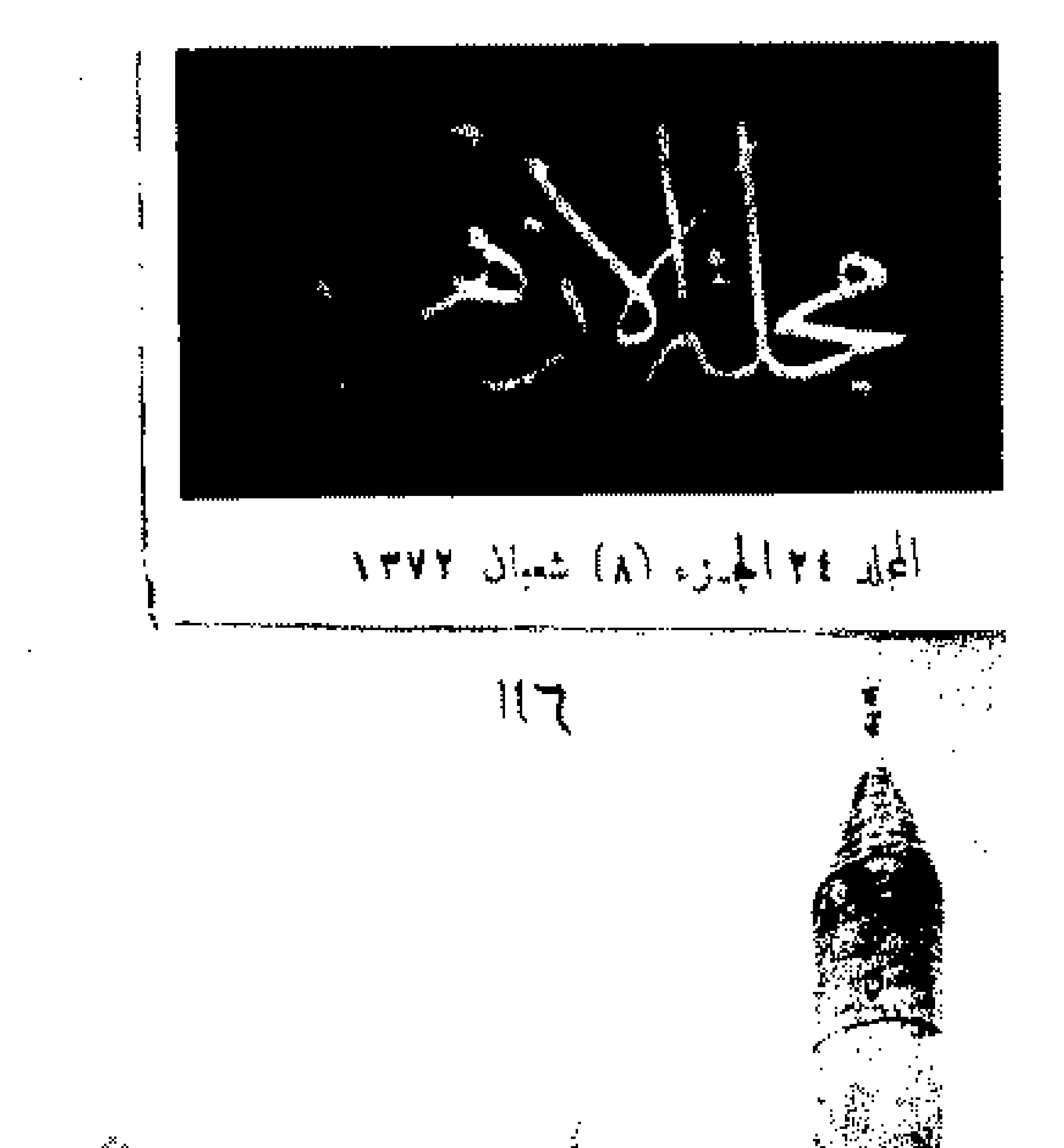
تبحث وزارة العدل الآن فى تعديل القانون الخاص بحماية الآداب بحيث يحقق الغاية التى سن لبلوغها وأنشىء مكتب الآداب من أجلها . وقد طلبت من بعض رجال الأمن موافاتها بنتائج خبرتهم فى هذه الناحية حتى يجىء التعديل المطلوب محققاً لما يستهدفه العهد الجديد من رفع مستوى الأخلاق إلى أقصى حد ممكن .

تحريم الخمر فى إيران

كما تعتنى حكومة مصر الآن بمكافحة المخدرات ومطاردة من يبيعها أو يشتريها أو يحملها ، فكذلك يحاول مجلس النواب الإيرانى مطاردة الخمرة ، فوافق ٨٨ من أعضاء المجلس على اقتراح قدمه ١٦ نائباً يقترحون فيه منع استعمال وشراء واستيراد وبيع وصنع المسكرات التى لعن الإسلام شاربها وصانعها وبائعها ومشتريها ومن يرضى بها . وكذلك طلبوا فى اقتراحهم تحريم الأفيون ، والمنتظر أن تصدر الحكومة الإيرانية مشروع قانون بذلك فى خلال ستة أشهر .

فهرس

الجزء السادس ـ المجلد الرابع والعشرون



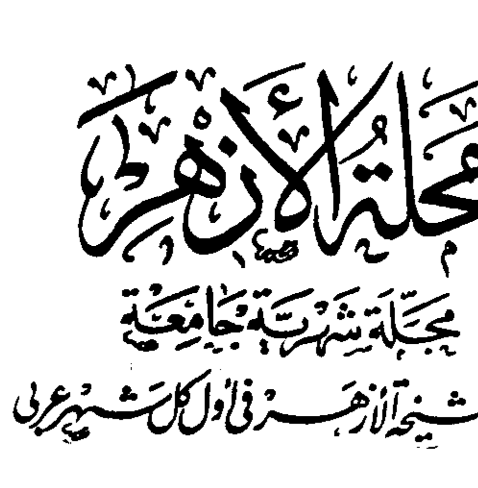
المجلد ٢٤ الجزء (٨) شعبان ١٣٧٢

١١٦

ثمن العدد ٥ قروش

رئيس التحرير
محب الدين الخطيب

الاشتراك السنوى
٥٠ فى مصر والسودان
٣٠ للطلبة فى مصر والسودان
٦٠ فى الخارج
٤٠ للطلبة فى الخارج
٥ ثمن الجزء



مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعة
تصدر عن مشيخة الأزهر فى أول كل شهر عربى

مدير المجلة
محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

العنوان
إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون ٤٦٢١٤

الجزء الثامن - فى غرة شعبان ١٣٧٢ - ١٥ ابريل ١٩٥٣ - المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمانة الثانية

هى هذا التراث العلمى العظيم الجسيم الذى ملأ خزائن كتب الأمم من كنوز شريعتنا ، وجهود أعلامنا وأئمتنا وعلمائنا وحكمائنا وخطبائنا فى أربعة عشر قرناً .

هى هذا النهب المقسَّم بين أيدى الدهر ، وأهواء الملل ، وحسد الأقوياء ، وشهوات العلماء والجهلاء ، وآفات الارض والسماء .

ومن قبل هذا التراث الإسلامى الأعظم ، كانت ألسنة أسلافنا وعقولهم مؤتمنة من الله على هذه اللغة العريقة فى القدم ، البالغة فى أوديتها وجبالها أقصى غايات الكمال والجمال ، حتى اضطر عدو العروبة والإسلام العلامة الفرنسى الكبير ارنست رينان لأن يقف - فى كتابه تاريخ اللغات السامية - أمام عظمة العربية وجلال روعتها ، وخصب مادتها ، ودقة الأحاسيس التى تعرب عنها بكل حرف من حروفها ، وبكل صيغة من صيغها ، وبكل لحن موسيقى ساحر من ألحان نبراتها وجمال منطقها ، وبما فى ظلال هذه الحروف والصيغ والألحان من باهر الدلائل على رجاحة أحلام قدماء الناطقين بها ، وسعة مداركهم ،

وبعد أغوار إنسانيتهم ، فأنساه ذلك كله ما انطوت عليه نفسه من إحنة للعروبة والإسلام ، فلم يلبث أن رأى صوته يهتف بكلمته الخالدة يوم قال :

« إن هذه اللغة قد بلغت حد الكمال فى قلب الصحراء عند أمة من الرحل ، ففاقت اللغات بكثرة مفرداتها ، ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها . وكانت مجهولة من الأمم ، لكنها من يوم علمت ظهرت للناس فى حلل الكمال ، ولم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة . ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التى ظهرت للباحثين كاملة من غير تدريج ، وبقيت حافظة كيانها ، خالصة من كل شائبة » .

إن أمة ائتمنها الله على هذه اللغة المحسودة ، وعلى هذه الشريعة الحكيمة التى هى رجاء الإنسانية فى مبادئها المثالية العليا لو قيض لها رجال يتقنون تنظيمها ويحسنون عرضها ويتعاملون بأحكامها وأخلاقها حتى يراها الناس بأبصارهم لا بأسماعهم ، ثم ائتمنها الله على جهود قادة الفكر وأئمة العلم فى الدنيا منذ كان الفكر معطلا من نشاطه إلا فى أوطاننا ، ومنذ كان العلم غريباً عن الناس إلا فى معاهدنا ومساجدنا وحلقات دروسنا ...

هذه الأمة التى ائتمنها الله على تراث للعقول والفهوم والعلوم لا نظير له فى ماضى أمة أخرى من الأمم ، ما أدرى بماذا يحكم عليها قضاء الله العادل جزاء إعراضها عن هذه الثروة الفخمة الضخمة ، وإهمالها هذه التركة الغنية بأثمن مواريث الفكر البشرى والترف العلمى والمتاع الثقافى والأدبى .

أليس من العجيب أن يتسع وقت موظف واحد من موظفى الحكومة المصرية فى القرن السابع الهجرى لتأليف معجم لسان العرب فى عشرين مجلداً بلغ بها فى زمانه حد الاتقان ، ثم نعجز نحن وأزهرنا وجامعاتنا ومجمعنا اللغوى عن أن نؤلف لزماننا معجما للعربية يكون - فى إتقانه وشموله وسهولة استعماله وحسن التسلسل الاشتقاقى والتاريخى فى مواده - مضارعا للمعاجم الممتازة فى اللغات الأخرى ، ثم نختصر منه لجمهور المثقفين معجما متوسطاً ، ونختار من الوسيط لصغار الطلبة معجما وجيزاً ، فنسد بهذه المعاجم الثلاثة الوافية حاجة العصر الى مراجع فى اللغة يرتاح الناس إليها ويقضون وطرهم منها .

أليس من العجيب أن يحدث الله هذا الانقلاب السريع فى اتجاه الطلبة الجامعيين ، فبعد أن كانوا قبل عشرين سنة طابوراً خامساً يتنكر للتراث الإسلامى ، صار لنا منهم الآن

مئات ومئات يهتفون من أعماق قلوبهم : القرآن دستورنا ، لكنهم يبحثون آناء الليل وأطراف النهار عن مراجع جيدة يتعرفون منها إلى تفاصيل أحكام هذا الدستور القرآني فلا يجدون بين أيديهم ما يشبعون به نهمتهم الفكرية ، وما يسهل به عليهم التفقه بسنن الإسلام فى تكوين المجتمع الصالح ، والأمة المفلحة ، والدولة الإسلامية المثالية .

إن فقهاء القانون الفرنسى - على قرب عهده - قد أصدروا معاجم لفقه قانونهم حافلة بكل معنى من معانيه وكل غرض من أغراضه ، مؤيدة بنصوص القوانين المعمول بها ، ومقارنة بأمثالها فى مختلف البلاد اللاتينية الأخرى ، ومشفوعة بأحكام المحاكم العليا فى فرنسا وبلجيكا وسويسرا وغيرهن ، ومرتبة موادها على حروف المعجم ، فيستطيع القاضى أو المحامى أو طالب الحقوق أن يراجع كل معنى يريده فى دقائق ليجد نصوص القانون وآراء علمائه فى تفسيرها وأحكام المحاكم وحيثياتها فى تطبيقها . أما فقهنا السابق على فقه القانون الفرنسى بأكثر من ألف سنة ، والذى ملأ علماؤنا وأئمتنا خزائن الأرض بأجود المؤلفات فى تأصيله وتفريعه ، وفى شرحه وبيان حكمته ، وقد حكم به مئات الألوف من قضاتنا فى أوربا (الأندلس وغيرها) وفى آسيا وإفريقيا بأحكام أصابت كبد العدل المجرد عن كل غاية وهوى ، وأفتى بدقائق وقائعه ومختلف مذاهبه ألوف الألوف من أعلام الفتيا فى جميع أمصار الإسلام من عصر الصحابة إلى الآن ، فإنه - ويا للأسف - لا يزال مبعثراً فى المخطوط والمطبوع من كتبه التى لم يتمرس بمراجعتها ولم يأنس بالإفادة منها حتى طلبة كلية الشريعة بالأزهر ، فما بالك بطلبة كليات الحقوق فى الجامعات المدنية ! بل إن أنفس كتب الفقه وأئمتها لا تزال مخطوطة وموزعة فى آفاق الشرق والغرب ، والمطبوع منها أصبحت طبعاته نادرة وفى حكم المخطوطة . وحتى غير النادر منها كيف يتوصل طلبة العلم إلى مراجعتها بوقت سريع وهى لم تنظم تنظيما مقارنا يقوم عليه فقهاء ضليعون أمناء على هذه الشريعة ويعتبرون عملهم هذا عبادة كما كان فقهاؤنا الأقدمون يتعبدون بهذا الضرب من ضروب القربة إلى الله عز وجل ؟

وأعلام هذه الأمة من الصحابة والتابعين والفاتحين والدعاة والحاكمين والعلماء والأدباء والساسة والمؤرخين والشعراء والمؤلفين وقادة الرأى ، لماذا لا يكون فى الأيدى كتاب واحد يجمع تراجمهم جميعاً من قدمائهم الأولين إلى زماننا هذا ، ليجد شباب الجيل فى سيرتهم الأسوة والقدوة ، وليعرفوا طريقهم إلى أهدافهم سائرين فيه على آثار من تقدمهم .

والمذاهب والنحل التى نجمت فى الإسلام ، لماذا تبقى إلى الآن عالة فى معرفتها على كتابى الشهرستانى وابن حزم ، ولماذا لا يقوم فى علمائنا من يدرس ما جد بعد الشهرستانى وابن حزم من مذاهب وطوائف ونحل آخرها البابية والبهائية والشيخية والبكتاشية والتجانية والقاديانية والأحمدية ؟ أليس من الفقر العلمى أن لا يكون فى أيدى الناس معجم عصرى جامع لكل فرقة ونحلة وطائفة وطريقة ومذهب نجم فى تاريخ الإسلام ، ولكل داعية من دعاة الفتنة والفساد الذين حاولوا أن يحدثوا فى الإسلام بدعة لم تكن منه ، وانحرافا عن كتاب الله وسنة رسوله بالدس أو التأويل أو التضليل أو غير ذلك من أساليب الشيطان، فيكون هذا المعجم قائماً على دراسة كل فرقة ، والتعريف بها من نصوص كتبها وصميم دعوتها ، وكيف تطورت ، وماهى مقاطع أطوارها ، ومن هم الذين مثلوا هذه الأدوار ، وما هى مقاصدهم ، ولحساب من كانوا يعملون ؟ .

وهذا الوطن الإسلامى والعربى ، هل فى أيدينا معجم واحد شامل لكل ما فيه من أمكنة وبقاع كما هى اليوم وكما كانت من قبل ؟ إننا لا نزال نعيش فى ذلك على مجهود أبى عبيد البكرى يوم كنا نحن أصحاب البلاد الإسبانية ، وعلى مجهود ياقوت الحموى قبل مئات كثيرة من السنين . وقد قامت بعدهما معالم للعمران تغيرت بها الأرض غير الأرض ، وجدت لأبناء العروبة والإسلام ذكريات تاريخية ومفاخر أو كوارث ملية وقومية فى جبال وطن المسلمين والعرب وأوديته ومرابعه لم يكن يعرفها أبو عبيد البكرى ولا ياقوت ، فهل تحركت فى قلب عالم من علمائنا المشتغلين بالجغرافيا أمنية التفرغ لتأليف معجم جديد للبلدان الإسلامية والعربية يبنى فيه على ما أسسه البكرى وياقوت ، ويستقصى أسماء الأمكنة والبقاع إلى زماننا ، وكما هى فى زماننا ، فتحيي به مواطن الذكريات لنشأة عظمائنا وأحداث تاريخنا وميادين جهادنا الحربى والعمرانى والعلمى .

وحديث نبينا أيضاً كدنا نصير فيه عالة على الأجانب عنا فى ديننا ولغتنا وعلومنا ! أليس من الخجل أن يسهر فى بلاد هولندا رجال من علمائها على دراسة السنة المحمدية فى دواوينها الكبرى دراسة شمول واستقصاء ، فيتتبعوا كل لفظة وردت فى أى حديث نبوى ، ويثبتوها فى مكانها من معجم عظيم يشتغلون الآن بتأليفه ، ويضعون إلى جانب تلك اللفظة كل حديث وردت فيه ، ومكان ذلك الحديث فى كتبه المعتبرة مع تعيين أجزائها وصفحاتها من تلك الكتب. ونحن كان لنا من القرن السادس الهجرى كتاب النهاية فى غريب الحديث، وهو معجم

لألفاظ السنة ألفه ابن الأثير الجزرى بعد مؤلفات كثيرة تقدمته فى هذا الموضوع ، وجدت بعده كتب أخرى على هذ النمط ، غير أن هؤلاء الهولنديين لم يريدوا من معجمهم تفسير غريب الحديث ، بل أرادوا استيفاء ألفاظه واستقصاء الأحاديث التى استعملت فيها هذه الألفاظ والدلالة على مواضعها من كتب السنة ليتمكن طالب كل حديث من معرفة مواضعه فى الكتب المشهورة بسرعة ويسر ، ومع أن المؤلف الأول لهذا المعجم قد مات ، فإنه قد خلفه على الاستمرار فيه عالم من مريد به وأصدقائه ، ثم مات هذا المؤلف الثانى ، فتكفلت مؤسسة (اليونسكو) بالإنفاق على إتمامه والاستعانة بأهل العلم للمضى فيه ، وقد صدر منه إلى الآن ثمانية عشر جزءاً ، ومن الإنصاف الاعتراف للعاملين الأولين فى هذا الكتاب بأنهم لم يخطر على بالهم فيه أى كسب مادى ، وإنما قاموا به ليملأوا فراغا علمياً شعروا - قبلنا - بوجوده ، فأعدوا أنفسهم لسد ثغرة العلم من هذه الناحية ، ومضوا فى عملهم بجد وصبر ومثابرة لا يعرف قدرها إلا من يعرف قدر العلم ، ويشعر بالسعادة فى السهر عليه ، دون أن يخامره خاطر من خواطر الكسب المادى من وراء ذلك .

وتاريخ العروبة والإسلام ، وهو من حاجياتنا الأساسية فى مدارسنا ودراساتنا ، لا يزال إلى اليوم مهملا ، بحيث لا نستطيع أن نزعم أن لنا كتاباً واحداً فيه يعطى صورة صادقة لأبناء الجيل عن عظمة أسلافهم وما قاموا به للإنسانية وأمجادها من جهاد لم تبلغ أمة من أمم الأرض عشر معشاره . وإن أسلافنا البررة المخلصين ، والمعاصرين لهم فى كل أدوار التاريخ من علماء الطابور الخامس فى الإسلام ، قد سجل هؤلاء وهؤلاء وقائع التاريخ ، فجاء فيه الصدق والحق من طريق أهل الحق الصادقين ، وجاء فيه الإفك والزور من طريق ذوى الأهواء والمغرضين ، وقد يختلط هذا بهذا على الطلبة وأنصاف المتعلمين إن لم يبادر أهل الألمعية من علمائنا العارفين بأقدار أسلافنا فيمحصوا هذه الروايات ويجردوها من آفاتها ويردوها إلى أصلها الصحيح ، ثم يحسنوا عرضها فى كتب وجيزة ومتوسطة ومطولة ، فيتم البعث بذلك لجهاد مجيد قام به عظماء كانوا بشهادة الله لهم « خير أمة أخرجت للناس » ، وسار فيه على قدمهم مجاهدون من التابعين لهم بإحسان ففتحوا الممالك ونشروا دعوة الله إلى الهدى ، فنبغ فى ظلال نظامهم رجال من أبناء البلاد التى دخلت فى الإسلام على أيديهم كانوا أئمة الدنيا ومفخرة العلم والعدل ، وكانوا هم الناس فى زمانهم . بينما كتب التاريخ التى تاقن الآن فى مدارسنا ومعاهدنا لا يجد فيها شباب الجيل الصورة الصحيحة لتلك العصور ، وكل ما فيها قشور عن اختلافات زيد فيها وحرفت عن حقيقتها حتى صار

فيها العظيم صغيراً ، وذو اليد الكريمة على أمته ذميا لئيما . ولو أن ماضى المسلمين كان للألمان وأمثالهم عشره أو جزء من مائة جزء منه فى ماضيهم لكتبوه بأساليب حكيمة تقنع أبناءنا فضلا عن أبنائهم بأنهم هم الذين كانوا خير أمة أخرجت للناس . أنا لا أدعو إلى محاباة الأسلاف ، ووصفهم بغير ما كانوا عليه ، وإنما أدعو إلى تجريد سيرتهم من أكاذيب الطابور الخامس التى دسوها فى كتبهم وأصابت فيما مضى رواجا بتشجيع أهل الأهواء من ذوى السلطان ، وقد آن أوان تطهير التاريخ الإسلامى من هذه الطوارىء عليه والدخائل فيه .

نعم لقد آن أوان هذا التطهير والتنقيح فى كتب المناهج ، ومن الواجب على معاهد الأزهر وعلى وزارة المعارف أن يعيدا النظر فى كتب الدراسة ، وأن تكتب من جديد بالأساليب التى تلائم تكوين الأمة تكوينا جديداً سليما تتبوأ به مكانها بين الأمم .

يزعمون أننا فى عصر تقدم وارتقاء ، ومن الناس من يريد أن يوهمنا بأن عصور أسلافنا كانت دون عصرنا هذا فى نهضته العلمية وتقدمه الثقافى . ويكفى لإدحاض هذه الأكذوبة دليلان قائمان لا يستطيع أن يمارى فيهما أحد : أولهما أن الأقدمين كفوا أزمانهم ما كانت تحتاج إليه من المؤلفات والمعاجم الكبرى التى لا نزال عالة عليهم فيها ، والآخر أنهم كانوا يعملون لله معتبرين العلم وخدمته عبادة لا يشوبونها بشىء من شهوات الكسب المادى أو أنانية الاستعلاء .

ولو أننا من خمسين سنة إلى الآن أخلصنا للعلم كما أخلص له ابن منظور فى تأليف لسان العرب ، والنووى فى تأليف ما خلفه لنا من مصنفات نفيسة ، وابن حجر العسقلانى فى هذه العشرات الكثيرة من المجلدات التى خدم بها السنة ورجالها والشريعة وعلومها والتاريخ وأعلامه ، وابن تيمية الذى أحدث فى علوم الإسلام بعثاً جديداً بمؤلفات مبتكرة لو تفرغ أربعة رجال من بدء حياتهم إلى نهايتها ليبيضوا مسوداتها لما أتوا على آخرها — وهكذا كان علماؤنا من زمن الإمامين الشافعى وأحمد إلى زمن السيوطى وأضرابه يتعبدون بخدمة العلم وتمحيصه وتدوينه لوجه الله وحده - فلو سار علماؤنا من خمسين سنة فى طريقهم وخدموا العلم بالنية التى كان يخدمه بها الأسلاف ، لوجدت فى الأيدى حتى الآن أمهات الكتب التى نحن محتاجون إليها ، ولأمكن تتويج هذه الجهود بتأليف دائرة لمعارفنا كما ألفت الأمم - وآخرها اليهود - دوائر لمعارفهم .

وأعظم ما أئتمن الله علماءنا عليه من أمانات العلم فى التراث الإسلامى (سنن الإسلام) التى يجب على كل مسلم إحياؤها والعمل بها فى الأخلاق الشخصية ، والتقاليد المنزلية ، والمعاملات فى السوق ، والآداب فى المجتمع ، و الأحكام فى المحاكم ، والأهداف فى سياسة الحكم . وكيف يستطيع المسلم أن يحيى هذه السنن إن لم يعرفها ، وكيف يعرفها المسلمون إن لم يقم العلماء بأعباء هذه الأمانة الإسلامية بجد وحزم وعناية واستقصاء ، وأول مراحل القيام ببعث سنن الإسلام بعد العلم بها العمل بها ، وأول من يترتب عليه العمل بها العاملون بها. فإحياء سنن الإسلام أول جهاد العلماء ورأس واجباتهم ، وإثم انحراف الأمة عن هذه السنن وتعطيلها فى جميع المرافق ـ بعد تعطيلها فى النفوس والبيوت ـ واقع بلا شك على المقصرين فى تعريف المسلمين بها ، ودلالتهم عليها بالبيان العلمى ، وحسن عرضهم لها بالسيرة والتعامل والأخلاق .

وبعد فإن تراثنا العلمى القديم أغنى وأضخم من تراث أى أمة أخرى ، ولكن تقصيرنا فى دراسته وتنظيمه والإفادة منه قد تجاوز كل حد ، حتى كاد يحكم علينا المستشرقون بأننا لسنا من أهله ؛ ولو أننا نحن أصحابه لكان لنا فيه شأن آخر .

ترى هل آن الأوان لتغيير موقفنا من أمانة العلم ، وهل يحاسب كل منا نفسه على ما قام به فى حركة البعث والإحياء ، لنصل حاضرنا بماضينا ، ونكوّن أمتنا فى عصرنا تكويناً عربياً إسلامياً نعيد به ما مضى من جمال كياننا ، مع ما نحن قائمون به من تجهيزه بأحدث معارف العصر وصناعاته وأسباب قوة الأقوياء فيه ؟

إن التفكير فى ذلك ، والتماس الأسباب لتحقيقه ، من تمام ما نحن فيه من تجديد ، فى هذا العهد الجديد ؟

محب الدين الخطيب

العاجلة والآجلة

من كلام سهل بن هارون :

من طلب الآخرة طالبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها ، ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها .

الشرق والغرب وهل يجتمعان

الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولا يلتقيان أبدا .

هذه الكلمة قالها كبلنج الشاعر الإنجليزى وشاعت فى البيئات العلمية ، وأخذها كثير من الناس بالقبول ، وأدخلت فى قلوبهم يأسا من الوصول إلى عالم أفضل يتفاهم فيه الشرق والغرب ، ويتعاونان لا على التغلب على مشاكل الإنسانية الحاضرة فقط ، بل على التغلب عليها فى المستقبل أيضا ، فإن تعاون البشر جميعا يجب ألا يكون تبعا لمصلحة وقتية ، يبرمه قوم متى شاءوا ويحلونه متى شاءوا ، بل يجب أن يكون تبعا لمصلحة الإنسانية الخالدة فى جميع عصورها ، ويجب أن يكون تعاونا فى العلم والأخلاق والسلوك . وفى غزو المجهولات من قوانين الكون ، وفى غزو الأفكار والنظم التى تفتك بالبشر ، وفى غزو الأحقاد والأضغان والأطماع والاستعلاء والاستبداد ، وفى غزو الشقاء والحرمان ، وفى غزو هذا النقص الذى فى الإنسانية والعروج بها نحو الكمال الممكن .

إننا نؤمن بأن هذا التعاون ممكن ، وأنه لا يقف فى سبيله اختلاف بين الشرق والغرب ، وأن الشرق والغرب يمكن أن يجتمعا وأن يلتقيا لخير الإنسانية الحاضرة والمستقبلة . وسبيلنا هنا أن نساير هؤلاء القوم الذين يرون أن الشرق والغرب لا يجتمعان ، ونعلم حججهم ونرى أهى تبرر لهم ما يعتقدون ؟!

يرى القوم أن بين الشرق والغرب فوارق فى العقلية والمعتقد والقيم الأخلاقية والنظر إلى الحياة . وهذا الاختلاف مما يبعد بينهما ويجعل الالتئام والتفاهم عسيرين ، فالغرب مادى موغل فى المادية ، والشرق روحى موغل فى الروحية ، والغرب تعنيه الحياة الدنيا والعمل لها أكثر مما تعنيه الحياة الأخرى ، والشرق بالعكس ، لذلك ترى الأول معنيا بإصلاح دنياه فى حين أن الثانى مهمل لها ، والأول يحكم المصلحة حتى فى عالم الأخلاق فلا يفى بالتزاماته وعهوده ومواثيقه إذا رأى المصلحة فى ذلك ، والثانى بالعكس . فهو يفى بعهوده ولو أدت إلى ضرره أو قتله أو قتل من يحب ، والأول يعتقد الحرية والاختيار فى تكوين نفسه وصوغ مستقبله ، والثانى يرى أنه محكوم بقوة غيبية هى التى تصرفه وهى التى تحركه وقد كتبت مستقبله

وهو ينشر ما كتبته ويتصرف فى الحياة على ما رسمته . وهذان الاعتقادان لهما تأثير عظيم فى عمل كل منهما وفى تصرفاتهما فى الحياة ، والأول ينسب الحوادث إلى أسبابها الظاهرة والثانى ينكر الأسباب وينسبها إلى الله مباشرة فعلا وتقديراً لأنه لا فاعل إلا الله .

وهذه الخلافات العقلية والنفسية بين الشرق والغرب كونتها البيئة الطبيعية فى كل منهما من الحر والبرد ، والرطوبة واليبوسة ، وسهولة الأرض وحزونتها ، وخصبها وجدبها ، وكرمها وبخلها ... الخ . فإذا كانت الأرض على حالة ، كوّن أهلوها على وفق هذه الحالة ، فالأرض الخصبة الكريمة التى تعطى أهلها خيراتها عفوا تولد فى أذهان أهلها سطحية لأنها لا تحوجهم إلى كد الذهن واستنباط الفكر ليأخذوا ما يحتاجون إليه منها ، والأرض البخيلة بالعكس تكسب أهلها عمقا فى التفكير لأنهم يعملون عقولهم فى استنباط ما يحتاجون إليه منها ، وكما تؤثر فى العقول تؤثر فى الأخلاق ، فالأرض التى تعوّد أهلوها أن يأخذوا خيراتها فى مواعيد محدودة لا تكاد تتخلف ، وبكثرة وسخاء لا تشح ولا تقل ، تعود أهلها الكرم والبذل والتهاون وعدم التفكير فى العواقب . والعكس صحيح ، فالأرض الشحيحة البخيلة بخيراتها تعوّد أهلها البخل والاحتفاظ بما فى أيديهم والتفكير الطويل فى المستقبل والاستعداد وأخذ الأهبة وهكذا . وما بنى على أسباب طبيعية لا تتغير فسيبقى ما بقيت هذه الأسباب . وكما كان الحر فى المناطق الحارة يسود لون البشرة ، والبرد فى المناطق الباردة يبيضها ، ولا تغير النتيجة ولو حاول المرء التغيير ، كذلك الحال فى تأثير البيئة الطبيعية فى الأخلاق والعقول .

إننى أعلم هذا جميعه ، وأعلم أن منه ما هو قابل للمناقشة ، وأنا أحاول التوفيق وإزالة أسباب الخلاف والعمل على تكوين مجتمع إنسانى أفضل ، وأريد أن أقتصد فى بحثى وأتناول جزءاً من ذلك الموضوع العام وهو الإسلام والغرب ، وأرى أن الفجوة التى بين الإسلام والغرب ليست فيما ذكرنا بعضه من أخلاق وعادات وبيئات طبيعية وجغرافية ، ولكن الفجوة قد عمقها ووسعها حوادث تاريخية خلقت كثيراً من سوء الظن وعدم الثقة وقواعد السلوك والمعاملة . ونحن سنجمل بعض ذلك فيما يلى :

كانت المسيحية تبسط نفوذها على كثير من البلدان التى فتحها الإسلام كسورية ومصر وشمال أفريقيا وبلاد الأندلس ، فكان كلما فتح بلداً آلم معتنق المسيحية ، وتناقلت أخباره الركبان إلى البلاد القريبة والبعيدة وكان له رنة أسى وحزن وعدُّوه خذلانا واندحاراً للمسيحية أمام الدين الجديد : الإسلام ؛ وكانوا يرونه رقا واستعباداً للمسيحيين

ويتناقلون الأخبار الكاذبة عن سوء المعاملة . وقد أراد المسيحيون أن ينصروا هذه الأكاذيب ويغرقوا فى المبالغة والخيال ليبغضوا الشعوب المسيحية فى الإسلام والمسلمين ليستثيروا عزائمهم وأقصى ما عندهم لدفع الإسلام ورده عن بلادهم .

وقد كان فتح بيت المقدس وسورية نصراً مؤزراً ذا نتائج باهرة وخيرات عظيمة للإسلام والمسلمين ، ولكنه كان من جهة ثانية أكبر العوامل فى تعميق الهوة بين الإسلام والمسيحية ، فقد رأى المسيحيون أن الإسلام استولى على الأرض المقدسة التى هى مكان يحجون إليه من جميع بلاد الدنيا ، ويقدسونه لأنه ولد فيه المسيح وفيه تربى وفيه علم تعاليمه وفيه صلب ودفن - على ما يعتقدون - فهو محل الذكريات الدينية المقدسة وهو مكان الوحى والإلهام وموطن النفحات القدسية والبركات الإلهية والحج والمزار والتقديس والاعتبار ، فكان ذلك حادثاً بغض اليهم الإسلام والمسلمين وأحدث فجوة عظيمة الاتساع عميقة الغور بين المسيحية والإسلام .

وعلى الرغم من أن الإسلام كان يعظم موسى وعيسى وآثارهما وكان يعظم داود وسليمان وأنبياء بنى إسرائيل ويعظم بيت المقدس وجعله من المساجد الثلاثة التى لا تشد الرحال إلا إليها ، وعلى الرغم من أنه احتفظ بالكنائس والبيع لأربابها ، حتى أن الخليفة الثانى عمر ابن الخطاب لما زار بيت المقدس بعد أن فتحه المسلمون وحضرته الصلاة أبى أن يصلى فى كنيسة للنصارى مخافة أن يتخذها المسلمون مصلى ومسجداً ، فخرج من أيدى أصحابها ، وبالرغم من أنه لم يحل بين المسيحية والحج إلى بيت المقدس ، بالرغم من ذلك كله ظلت المسيحية ترى قلبها النابض الذى يرسل إليها الحياة فى أيدى المسلمين فاستعمل رجالها الدعايات وصوروا الإسلام ديناً وثنياً يهيم بالشهوات الجسدية وليس فيه معان إنسانية مقدسة وصوروا رسوله بصورة الكاذب المشعوذ الهائم باللذة الجسدية والذى يدعو معتنقيه إلى عبادتها والهيام بها .

أفلحت الدعايات الباطلة فى خلق روح معادية للإسلام والمسلمين مملوءة بالأحقاد والأضغان والإحن .

وكان هذا الرصيد من البغض والكراهية وحب الانتقام من الإسلام والمسلمين قد حمل أوربة ، ملوكها وقوادها وشعوبها ، على أن تقطع الفيافى والقفار والوديان والبحار لغزو المسلمين فى عقر دارهم وتخليص الأرض المقدسة من أيديهم وإعادة بلاد النصرانية إلى

النصرانية ، وكانوا يرون من المسلمين معاملة إنسانية سامية ، وكانوا يعاملون المسلمين معاملة وحشية قاسية ولم يخف حقدهم ووجدتهم مع هذا كله وتكررت الغزوات والحملات ومكثت ما شاء الله من الزمن الطويل .

وللأمم رأى فى دراسة التاريخ فهى تسخره لخدمة شعوبها وأغراضها ، فهى ترفع أوطانها وأبطالها إلى الذروة وتنتقص الآخرين ولا يعنيها أن يطابق التاريخ الواقع ، إنما يعنيها أن يخدم وطنها وأن تغرس الكرامة والمحبة لأحبابها وتغرس الحقد والبغض والهوان لأعدائها أو لمن تراهم أعداءها ، وعلى ذلك جرى التعليم والتربية فى مدن أوربة ولقى الإسلام والمسلمون جوراً وظلما واتهاما كانا بريئين منها ، ولكنها عمقت الهوة بين المسيحية والإسلام .

وكان لمثل فتح بيت المقدس فتح القسطنطينية ، فقد كانت عاصمة الروم الشرقية وكانت المسيحية تعتز بها ، فلما فتحت كان له من الأثر مثل ما لفتح بيت المقدس .

وهذا هو السر الدفين فى كثير من الحركات والحوادث فى التاريخ ، فالحروب المتوالية التى استمرت قرونا بين الأسبانيين والمسلمين فى الأندلس ، والتى انتهت بإجلاء المسلمين عنها وخروج هذه الدرة اللامعة من التاج الإسلامى ، وما كان فى خلال ذلك وبعده من اضطهاد دينى يقشعر المرء منه عند سماعه ، مرجعها هذه الروح التى ربتها الأجيال والقرون والدعايات المغرضة ، وهذا هو السر أيضا فى أخطاء الباحثين فى الدين الإسلامى من المستشرقين ، فكثير منهم كان يعالجه بهذه الروح ، ولقد خرج بعض منهم من قيود هذه الروح فأنصفوا الإسلام ونبى الإسلام كالكونت دى كاسترى وكارليل ، ورأوا فيه دينا أدى للإنسانية خدمات ، وعرج بها درجات .

وهذا هو السر أيضا فى أن أوربة تنكر على الإسلام والمسلمين أنهم ساهموا فى رقيها ، وقاموا بقسط وافر فى نقلها إلى هذه الحضارة التى تنعم بها اليوم ، والمسلمون فى الأندلس الذين جوزوا كما جوزى سنمار ، هم الذين دونوا الفلسفة وشرحوها ولخصوها وأزالوا عنها أغلاط القرون وفساد الدهور ، فأخذتها عنهم وشغلت بها نقداً وتمحيصا وبناء على ما عرفوا منها حتى كانت هذه المدنية التى يتمتع بها العالم اليوم .

هذه هى الحوادث التاريخية والدعايات الباطلة التى أثرت فى نفوس الغربيين وباعدت بينهم وبين الإسلام وخلقت روحاً عامة فى أوربة معادية للإسلام والمسلمين .

أما الحوادث التاريخية التى أثرت فى نفوس المسلمين وحملتهم على فقد الثقة بالغرب فهى ما لا يزالون يذكرونه من الحروب الصليبية ومن تجمع أوربة عليهم وعلى غزوهم

فى عقر دارهم ، ثم إخراج المسلمين من الأندلس ، وإزالة ملكهم منها ومحاكم التفتيش ، ثم حروب البلقان ومعاونة أجزائه على الانفصال من حكم الإسلام ، ثم تقسيم تركة الرجل المريض ، ثم ذلك الاستعمار الذى جثم على ممالك الإسلام وتوزيع ممالكه بين المستعمرين ، ثم حوادث فلسطين الدامية وتشريد سكانها فى الفيافى والقفار ، ومنح اليهود إياها تحت سمع العالم المتمدن وبصره ، فهى مثل الحوادث التى أثرت فى نفوس أوربة ، والفارق أنه لم تصحبها دعايات باطلة ، فما زال عيسى ابن مريم فى الإسلام روح الله وكلمته ، وما زال يقر له بالكرامة والمعجزات وما زال ينزهه وينزه أمه عما قرفهما به اليهود وما زال يتلى فى كتابه الخالد :

« ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

وقد أصبح الدواء معروفا مما تقدم وهو ينحصر فيما يأتى :

١ — أن ينصف الفريقان بعضهما بعضا فى التاريخ فيعلم كلاهما أن الأرض التى هم عليها قد أخذوها ممن كان يملكها قبلهم ، وأن من كان يملكها قبلهم قد أخذها ممن كان يملكها قبله ، وهكذا دواليك ، وأن هذه سنة الله فى الوجود ، وأنه لو صح لأحد أن يطالب بها بحجة أنه كان يملكها قبل ذلك بقرون ، لصح لسكان أرض فرنسا وانجلترا الغابرين أن يطالبوا بإخراج الفرنسيين والإنجليز الآن من أراضيهم بحجة أنهم كانوا يملكونها قبل ذلك :

ولو دامت الدولات كانوا كغيرهم رعايا ولكن ما لهن داوم

وبذلك تسقط حجة اليهود فى أن فلسطين لهم لأنهم كانوا يملكونها من قديم .

وقد كان بعض هذا التعاقب فيه صلاح البشرية وتقدم الإنسانية . إذا علمت هذه الحقائق خفت الموجدات والأحقاد وبطلت هذه السياسات التى تعمل على رد ما كان إلى ما كان .

٢ — أن تغير دراسة التاريخ فى أوربة ولا سيما ما يتعلق بتاريخ الإسلام والمسلمين ، فلا يدرسوه على وجه يحيى العصبيات على الإسلام والمسلمين ويدعو إلى احتقاره واحتقارهم ، بل يدرسوه دراسة منصفة تبين حقيقته وما قام به من جهد فى تقدم الإنسانية وخدمة البشرية وأن تنصف المسلمين كذلك ، ومن حسن الحظ أن بعض علماء أوربة قد درس الإسلام وعلم حقيقته وأنصفه وأنصف المسلمين وبيّن ما لهم من قسط وافٍ فى نقل الحضارة والعلوم إلى أوربة .

ومن حسن الحظ أيضاً أن هيئة اليونسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة قد علمت ضرر

دراسة التاريخ على وجه يثير العصبيات والأحقاد فأوصت أن يدرس على غير هذا الوجه في الشرق والغرب والعبرة بالتنفيذ؛ ونرجو أن يصاحبه التوفيق.

٣ — يجب أن يزول نظام الاستعمار وتسلط أمة على أمة وأن يكون لكل أمة الحق في تقرير مصيرها، وإذا كان الضمير الإنساني قد أنكر أن يستعبد فرد فرداً، فأعظم نكراً منه أن تستعبد أمة أمة. يجب أن تزول علاقة السيد بالمسود والحر بالعبد وتحل محلها علاقة الشريك بالشريك والمعاون بالمعاون والحر بالحر. وتجربة بريطانيا في الهند والباكستان تشجع على ذلك.

وكما أن نظام الرق يجعل الأرقاء لا يصلحون لشيء إلا لخدمة من استعبدوهم، كذلك نظام الاستعمار يعطل المواهب والعقول ويسخر الأمم لخدمة المستعمرين.

وهذا مخالف لسنة الوجود، لأن البشرية تريد أن تنتفع من جهود جميع أبنائها وأن يعمل الجميع لتقدمها ولا تحتمل فساد طائفة لأن الفساد يعدي، والداء يسري.

إن الاستعمار يولد بغضاً وحقداً في الأمم المستعمرة على من استعمروهم، وكذلك يولد الحقد والبغض بين الأمم الراقية، لأن الأمة المحرومة تحقد على الأمة التي ملأت يديها من خيرات الأرض وفازت بقسط أكبر من المستعمرات، فتريد أن يكون لها هذا النصيب فتشعل نار الحرب. وإذا دققت النظر في الحربين العالميتين الأخيرتين وجدت أسبابهما ما ذكرنا، فإنك تلمح المجال الحيوي الذي كانت تتشبث به ألمانيا، وتدعو إليه، وتلمح موازنتها بين ما يملكه الفرد الألماني من الأرض وما يملكه الفرد الهولندي أو الانجليزي أو الفرنساوي والفرق الشاسع بينهما بسبب الاستعمار.

ومهما قيل من أسباب أخرى، فذلك إبعاد في الخطأ وإيغال في البعد عن الحقيقة، ولفت للأنظار عن السبب الحقيقي وذلك ليس في مصلحة الإنسانية.

ومن حسن الحظ أيضاً أن هيئة الأمم المتحدة أدركت ذلك أيضاً وأعلنت حقوق الإنسان وحق كل أمة في تقرير مصيرها، ونقول لها ثانية: إن العبرة بالتنفيذ، وقد سمعنا مثل هذا في شروط الرئيس ولسون عقب الحرب الأولى، كما سمعنا الميثاق عقب الحرب الثانية من الرئيس روزفلت.

ومن مصلحة الإنسانية أن يكون ذلك صدقاً وحقاً، وأن تعمل الدول على تحقيقه.

محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

نفحات القرآن

— ٤ —

٣ — البيت العتيق

« وأتموا الحج والعمرة لله »

فى ظل الدعوة الجديدة التى هتف بها محمد ﷺ فى مكة ، واستقرت دعائمها فى المدينة ، وكثر سواد المسلمين بها ، كانت للنبي وأنصاره غلبة على قريش ، واستردوا البيت من أيديهم بعد أن حيل بينهم وبينه ثمان سنوات ، منذ هجر النبي وصحبه وطنهم الأول إلى دار النصرة والإخاء .

منذ اليوم خضعت رءوس كانت تتشامخ بالجبروت ، وخشعت للحق أصوات كانت تتصايح بالباطل ، ودكت فى هوان ومذلة أصنام كانت تحاط بالإجلال .. وطهر البيت العتيق من لوثته ، وعاد كما كان أول نشأته ، وتركزت راية الإسلام فى مستقرها الأول .

وعرفوا بعد طول شقاق أن لله الدين الخالص : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

وإلى اليوم لم يكن حج البيت عندهم إلا تقليداً موروثا ، وعادة مرعية يحتفظ بها العرب كما كانوا يحتفظون بغيرها من عادات وتقاليد ، ولئن كان فى أول أمره ديناً على عهد إبراهيم وإسماعيل ، فقد تبدل كما تبدل الحق بينهم فى كثير من صوره ، وطغى عليهم الباطل فى أغلب الأوضاع .

فأما وقد نهض الحكم لله فى مكة المعاندة ، وأصبح الشأن للإسلام الذى كان طريداً منها ، فقد آنت دعوة الناس جميعاً إلى الحج والعمرة بعد أن استقرت بمكة قدم الفاتحين بعام واحد : أعنى فى السنة التاسعة من هجرتهم إياها .

وبذلك تألفت أركان الإسلام الخمسة ، إذ كانت الصلاة ، والزكاة ، والصوم قبل الحج بأعوام .

وأصبح المسلمون من قريش وسواهم يتَّشِحون بشعار الوحدة الدينية المتماسكة ، وأصبح

البيت من جديد ملتقى جموعهم وإن شطت بهم الديار ، وموسم تزاورهم وإن اجتازوا إليه المهامه واستهدفوا للأخطار ، وقبلة صلاتهم ، وإن ترامت بهم الأقطار وزخرت دونهم البحار .

فهو البيت الذى تتوحد فيه أوطانهم ، وتندمج عنده جنسياتهم ، وتأتلف حوله عواطفهم ، وتتآخى على الحب قلوبهم .

فإذا اجتمعوا إليه : أحاطوه بالأجساد والأرواح .

وإذا تفرقوا من حوله : رمقوه على البعد بالأفئدة ، والخواطر ، والبصائر ، فأى صلة تكون بين المسلمين آكد من هذه ؟؟

وأى عهد أوثق عند الله من عهد تولى الله عقده بينه وبين خلقه ، وربط به بين الآخذين بدينه ، وجمعهم به على ملة أبيهم إبراهيم ؟؟

ولم تك ملة إبراهيم سوى الإسلام مهما تحيفوا منها ، أو بدلوا فيها ، أو صبغوها بالطائفية ، وسموها بغير ما سماها الله .

« ما كان إبراهيم يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين » ، « أم تقولون إن إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط : كانوا هوداً ، أو نصارى ؟ ؟ قل : أأنتم أعلم أم الله ؟ ؟ » .

دين إبراهيم هو الإسلام : الإسلام الخالص . . « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

فمن الذى يرتكس فى الضلالة عن هذا ، أو تجرفه الجهالة فيحسب جميع الناس سواء فى عاقبتهم إذا كانوا على عمل طيب فى دنياهم ، ويتعامى عما فرق الله به بين خلقه فيما يعتقدون . . « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد . . » هذا تقرير القرآن ، وما سوى ذلك فباطل[1] . درج المسلمون على هذا ، وفرغوا قديماً من تمحيص العقيدة ، واطمأنوا إلى ما بينهم من أسباب تصلهم بالله ، وتجذبهم إلى نقطة الارتكاز التى هى معقل الإسلام وبرجه الشامخ الظليل ، ... وهم حفيون بالبيت العتيق وإن ازورت منه أمم ضالة ، وفرحون به وإن حنقت عليه طوائف مكبوتة ، ومتعلقون به وان انحرفت عنه نفوس مريضة .

(١) انظر الجزء التاسع رمضان سنة ١٣٧١ ص ٢٢ من هذه المجلة .

وهم يعتقدون حقاً أن من رحمة الله بهم، وكرمه فيما تخير لهم أن دعاهم إلى الحج والعمرة، وجعل هذا فيما شرع لهم أمراً حتمياً ولم يكن اختيارياً، إلا لمن أدى فرضه، وأبرأ ذمته.

ونحن نقف الآن من حكمة الله موقف المستهدى إلى تعرفها، والتثبت منها، ليزداد الذين آمنوا إيماناً، فالله سبحانه يقول بعد تشريعه دعوة الناس إلى الحج: «ليشهدوا منافع لهم».

فما هى تلك المنافع التى يستنهضنا اليها القرآن، بل استنهضنا اليها الإسلام من عهد إبراهيم عليه السلام، وأين هى؟ سيما أن القرآن يوجهنا إلى أنها مشهودة، والمشهود لا يحول بينه وبين مبتغيه إلا أن يخف إليه، ويدركه فيما يدرك بجهد يسير.

كما أن القرآن لا يدعو إلى أمر متخيل، ولا يرغبنا فى خير طفيف، وإنما يعتمد الواقع، ويحث على الجزيل.

ونحن فى ضوء هذا التوجيه نلحظ أن أسلوب الدعوة إلى الحج أقرب إلى الترغيب والتشويق والإطماع فى الخير، ويكاد لا يفصح عما يلابس أعمال الحج من متاعب كما يفصح عما يقترن به من آمال، فأنت تقرأ ـ مثلا ـ قوله تعالى: «ليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير، ثم ليقضوا تفثهم، وليوفوا نذورهم، وليطوفوا بالبيت العتيق، ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ـ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب».

تقرأ هذه الفقرات فتلمس فيها ترغيباً قوياً، وتلمس فيها إشادة بالأيام المعلومات ـ أيام الحج ـ، وإشادة بذكر الله فى هذه الأيام لما لها من خصوصية، وتلمس فيها امتناناً من الله على عباده بما رزقهم من بهيمة الأنعام، وبما أتاح لهم من هناءة مباحة، ومن عمل صالح، فهم يأكلون، ويطعمون البائس الفقير، وهم يوفون لله بما نذروا، ويطوفون ببيته، ويعظمون شعائره، ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب.

تقرأ هذا السياق الرطب المعسول عن الحج والعمرة إلى بيت الله الحرام، وما يتصل بذلك من مقاصد مشكورة، وهذا يبهرك ويغريك وينسيك ما قد يكون من نصب وعنت، وتقرأ فى مقابلة هذا شيئاً عن الإحصار الذى يصادف المحرم بعد أن تلبس بالنسك، والتزم

وفاءه واحتمال ما به من حرج ، وتقرأ عن حظر الصيد فى الحرم ، وحظره على المحرم أينما كان ، وعن عدم حلق الرأس إلى أمد معين ، وعما سوى ذلك من محظورات الإحرام ، وما يترتب عليها من فدية وجزاء ؛ على ما هو مبين ويعرفه أولو العلم .

والنظر إلى هذا الجانب يوقع فى الروع أن فى الحج متاعب ، وخاصة على المغترب والمترف ، وأن العناء فى أعماله قد يزيد عما هو فى الحسبان ، وقد ينال من الإنسان كثيراً .

فلم أفصح القرآن وأشاد فى جانب الدعوة ، ولم أجمل واقتصد فى الجانب الآخر : جانب المشقة ؟

قلت : إن القرآن يعتمد الواقع ، ويبرزه فى صورة تكشفه ترغيباً فيه إن كان مشوقاً ، وترهيباً منه إن كان مخوفا .

لذلك كانت إشادته بنفع الحج بقدر ما علم الله فيه من خير ومغنم ، فإن فاتنا شيء من علم ذلك الخير المرجو ، فحسبنا اطمئناناً أن الله نوه إليه ، ووعد به ، ورغب فيه وأحبه لنا ، « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » .

وأما ما يعلق بالحج من مخاوف ، أو يعترض قاصد بيت الله من مشقة ، فلا يدانى ما فيه من فضل ، وما له من مقام . لذلك لم يأبه القرآن فى هذا الجانب إلا بذكر ما يترتب على المحظور ، وبيان ما يقتضيه الشأن ، وما سوى هذا فلا يقام له وزن فى باب الطاعات ، ومن شأن النفوس الخيرة السلسة القياد أن تسبق إلى الغرض وتتوق إلى الفوز ، وتخف إلى المبادرة ، وتنشط إلى التلبية غير حاسبة حساباً لما يلم بها من شظف .. على أن متاعب النسك قد لا تبلغ فى قسوتها على المترف مخاوف سفر آخر يقصد للربح ، أو يراد لغاية أخرى من الغايات .

فى حين أن أى سفر آخر وإن عظم لا يجدى على المرء ما يجديه القصد إلى بيت الله الحرام فإذا كان الربح الهين ، والمتعة التافهة مما يدفع بالناس إلى ركوب المخاطر ، فكيف يقعد المستطيع عن ربح خطير وعد به الله ، وهتف به القرآن ؟ ؟ .

ومع هذه الموازنة وبيان أرجحية النفع فقد يسر الله على عباده ، وجعله فى العمر مرة ، وشرط فيها القدرة والأمن ، وكان من شأن هذا التيسير أن يجتذب الناس إلى السمع والطاعة خروجاً من عهدة الفرض وشكرا على هذا الرفق ، ولكن الناس توسعوا فى تمحل المعذرة

واستمرأوها حتى توانوا عن ركن من أركان دينهم، وهم قادرون عليه، وانتقضوا فى تبجح بغيض على أقدس مظهر من مظاهر القومية الدينية، وأجهر شعيرة من شعائر الإسلام.

نستطيع بعد هذه اللفتة اليسيرة أن نعود إلى تعرف المنافع التى حدثنا القرآن أنها مشهودة، وهى بعينها الحكمة التى نيط بها تشريع الحج والعمرة فى دين الله منذ القدم.

١ — نرى الحياة الدنيا بعد أن اجتازت من عمرها شوطاً بعيداً، ونرى الحضارة منذ بدأت تنضج فى جوانب دنيانا، ونرى العقلية الاجتماعية منذ نشطت من عقالها: ترى كل هذه الأمور الثلاثة توجه الناس توجيهاً لا مندوحة عنه إلى الاتصال، وتدفعهم دفعاً إلى التلاقى، وتحفزهم على تقريب المسافات رغبة فيما وراء هذا من منافع لا تنال إلا باشتراك الجهود فى عمارة الدنيا، وبسط أجنحة الحضارة، وإسعاد الإنسانية أينما كانت، وبهذا ترددت فى الآفاق دعوات المصلحين الواقفين على مشارف النهضات، بعد أن كشفت لهم تجارب الزمن عن الحاجة إلى التضافر الأشمل: غير أنهم وإن تصايحوا بالدعوة إلى تلك الأهداف لا يزالون أشتاتاً متفرقين فى الاتجاه، لأن إيمانهم بما يدعون إليه لم يتنزه عن الغايات، ولم تبرأ دعوتهم من الألاعيب، ولم تزل نياتهم فى قبضة الشيطان.

ولكن الإسلام - وهو دين الفطرة - أدرك من قبل: ما أدركه الناس من بعد، فسبق إلى تشريع مؤتمره العام، وحاطه بنظام يغنى عن الكد فى التقنين وهيأ المسلمين. بل حتم عليهم أن يتلاقوا فى مؤتمرهم كل عام فى بيت الله الحرام.

وما كان لدين يوجه دعوته إلى من هنا ومن هناك، وينظر إلى سكان الأرض نظرة سواء، ويرمى إلى تكوين أمته على غرار متحد وقومية متماسكة: ما كان له أن يغفل جمع أهله فى مواسم معهودة، ليتعرفوا ما بينهم، ويدركوا ما يحيط بهم، ويأخذوا بما ينبغى لهم ويجدر بهم، حتى لا تتعطل مواهبهم، ولا تضعف شوكتهم، ولا يستبد الجهل بعقولهم فتضيق عليهم سبل الحياة بما يصيبهم من كسل، أو يحدق بهم من هوان.

باجتماع المسلمين فى البلد الأمين كل عام تتفتق أذهانهم عما توحى به الفطرة الجماعية، ويستفيدون من مجال الرأى ما يدعمون به حياتهم، ومن التعارف ما يشد أواصرهم، ويتعاظمون به على من عاداهم، ويرهبون به من طمع فيهم، وذلك جانب خطير فى تركيز الدولة لو فطن الغافلون.

فأنت ترى من هذه الناحية وحدها أن الإسلام، القديم على حضارتنا الراهنة، قد سبقها

منذ قرون إلى جدتها المستحدثة ، وهو مع ذلك أكمل فى نظامه ، وأصدق فى دعوته ، وأخلص فى أهدافه ، فهو شباب فى حضارته وإن تقدمت به السنون .

٢ — وناحية ثانية ـ لا يعوزها الإيضاح ـ فيما ينطوى عليه تشريع الحج والعمرة : ناحية التربية الفردية ، لتكون أشخاص تتألف منهم الأمة المنشودة .

فالإسلام فى مساواته بين الناس يتمثل فى مظاهر المحرمين بالنسك من الرجال ، إذ يقتضيهم أن يخلعوا ملابسهم ، ويطرحوا ما عساه من مميزات البيئة ، ومظاهر النعماء ، ليتوارى عن الأعين ما يكون من أمارات السؤدد ، ومياسم المجد ، فلا زهو ولا خيلاء ؛ أو ما يكون من أكسية فيها ابتذال ورثاثة ، فلا غضاضة ولا هوان .

فإذا استووا فى شعار الإحرام على نحو ما وصفت الشريعة ـ إلا من اضطر ـ أحس الجميع بتلاشى الفوارق ، ورجعت بهم الخواطر إلى المساواة فى العبودية لله ، وإلى الأخوة فى الإنسانية ، وصغرت فى نفوسهم الظواهر الشخصية أمام العزة الدينية ، ودبت فيهم الحساسية بالكرامة ، وأنه لا سيد بينهم ولا مسود ، ولا راجح ولا مرجوح ، وإنما هم جميعاً عفاة ضارعون ، خرجوا من ديارهم ، واغتربوا عن أهليهم ، وخلفوا وراءهم ما كان يشغلهم من أموال ، ومن كان يعز عليهم من بنين ، وتمثلوا فى تجردهم من المخيط بما سيلقون عليه ربهم بعد ارتحالهم عن الدنيا . وتقدموا فى تواضعهم هذا إلى ساحة إله كريم ، يجأرون إليه بالاستجابة : (لبيك اللهم لبيك ؛ لبيك لا شريك لك لبيك الخ) . وهكذا يناجون ربهم بالدعوات الطيبات ، ويستشفعون بأعمالهم الصالحات .

يتعاطف بعضهم على بعض ، لأن الإسلام هو اللحمة الواصلة بينهم ، ومرضاة الله مطمعهم وأملهم ، وبذلك تذهب الأنانية من بينهم ، ويملأ الإخلاص قلوبهم ، وتتركز لديهم العقيدة الإسلامية على أساس من الحق ، وركن شديد من اليقين .

وإذا كانت هذه الخصائص من نفحات الله على بيته ، ومن فيضه على زواره ، أفلا يكون من الخير لعباده أن جعل الحج إليه ركناً من أركان دينه ، ليتفقهوا ويفقهوا : كيف « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » ؟؟

وإذا فقهوا ذلك فلن يصرفهم عنه كبرياء ، ولن يزهدهم فيه خطأ فى التقدير ، وسيعلمون ، أو يعلم الموفقون المهديون منهم ، أن المتقاعدين عن البيت ـ وهذا شأنه ـ

متخلفون عن نفع كبير ، وخير غير يسير ، وأنهم منتقضون على نظام خطير وضع لصلاح الفرد ونظام المجتمع ، وإنها لكبيرة لا يبوء بها إلا من سفه نفسه .

ولكن : مهما غفل عن بيت الله غافلون ، فإن جماعة المسلمين على إيمان حق بأنهم إذا شخصوا إلى البيت فإنما يلوذون بمقام تهبط فيه الرحمات ، وتستجاب عنده الدعوات ، اليه يلجأ العائذ بربه ، ويطهر فيه التائب من ذنبه ، ويتجدد فيه العهد ، ويتوثق فيه الإيمان .

هو مشهد تزدحم فيه الأشباح ، وتناجى ربها الأرواح ، والمسلم الحاضر هناك . . أخو المسلم الغائب هنا . . يذكره كما يذكر نفسه إذا زار البيت ودعا . . ويذكره إذا وقف بعرفات وأفاض ، وإذا طاف وسعى ؛ وربك ممن دعاه قريب ، وهو للأوابين مجيب .

ورب قائل : ـ قد يفيض الرضا من جانب الله ، ويغمر من لدنه العفو ، وقد يشمل بإحسانه القاصر والمقصر ، والغافل والمتذكر ، ويهب العاصين للطيعين ، والمذنبين للمستغفرين ، ثم يدخل عباده فى ساحة رضوانه أجمعين .

نعم ! ! ولكنه ـ سبحانه : ـ علمنا أن الأمل لا يغنى عن العمل ، والرجاء لا يجدى مع الكسل ، وقد أهاب بنا إلى طاعته ، فحق علينا أن نستجيب لدعوته .

فأما العفو المطموع فيه فمن شأن ربك ؛ وقد وعد العاملين المخلصين ، وهو أعلم بالسرائر ، وأدرى بالنوايا . . وكرمه أوسع من أن يضيق بالرجاء ، وهو لا يخلف الميعاد .

(للحديث بقية)

عبد اللطيف محمد السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

تدارك

وقع اشتباه فى المقال السابق بعدد رجب ، إذ أننى ذكرت (ربنا وابعث فيهم رسولا من أنفسهم) والصواب (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) الآية فأرجو التنبه مع الشكر .

السنة

٣ - التطهير في الإسلام

مبايعات النساء على التطهير - مكان المرأة في الإسلام - هل تستعيد المرأة سيرتها الأولى؟ - التطهير بالمحن والبلايا حتى يحسن ستر العورات؟! - القول الفصل في مبايعات الصوفية - دعوة إلى إصلاح الطرق.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَمَا أَخَذَ عَلَى النِّسَاءِ: أَلَّا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا، وَلَا يَعْضَهَ بَعْضُنَا بَعْضًا [١] فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَتَى مِنْكُمْ حَدًّا فَأُقِيمَ عَلَيْهِ فَهُوَ كَفَّارَتُهُ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ.

رواه الشيخان واللفظ لمسلم.

* * *

رجحنا في صدر البيان لهذا الحديث أن المبايعة على التطهير من هذه الموبقات الست كانت بعد فتح مكة، وبعد نزول آية الممتحنة «يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك»، فبايع النبي ﷺ النساء، ثم بايع الرجال على وفق مبايعتهن اقتداء بالقرآن الكريم.

وكنا سقنا في كل من المقالين السابقين لفظ البخاري لهذا الحديث في كتاب الإيمان،

---

(١) أي لا يرميه بالعضيهة وهي البهتان والكذب، فالجملة هنا معنى الجملة الاخرى «ولا تأتوا ببهتان يفترونه بين أيديكم وأرجلكم».

لأنه أوفى الروايات وأدلها على فضل هذه البيعة والمبايعين ؛ ثم بدا لنا فى هذا المقال الأخير أن نختار رواية مسلم فى كتاب الحدود ، تأييداً لما رجحناه ، وتمهيداً لذكر مبايعات النساء ومكانهن فى الإسلام . .

لقد بايعن الرسول ﷺ وبايعهن غير مرة : فى مكة بعد الفتح ، وفى المدينة ، أخرج الإمام مالك فى موطئه عن أميمة بنت رقيقة [1] رضى الله عنها أنها قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة بايعنه على الإسلام ، فقلن يا رسول الله : نبايعك على ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيك فى معروف ؛ فقال رسول الله ﷺ : فيما استطعتن وأطقتن ، قالت فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، هلم نبايعك يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : إنى لا أصافح النساء ، إنما قولى لمائة امرأة كقولى لامرأة واحدة .

وممن بايعنه بمكة ، صلوات الله وسلامه عليه ، هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ، ففى حديث أسماء بنت زيد قالت : كنت فى النسوة المبايعات وكانت هند بنت عتبة فى النساء ، فقرأ ﷺ عليهن الآية ، فلما قال «على ألا يشركن بالله شيئاً» ، قالت هند : وكيف نطمع أن يقبل منا ما لم يقبله من الرجال ؟ ! فلما قال : «ولا يسرقن» قالت : والله إنى لأصيب الهنة من مال أبى سفيان لا يدرى ، أيحل لى ذلك ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شىء فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال ، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها ، فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ، قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبى الله ، عفا الله عنك ؛ فقال «ولا يزنين» ، فقالت : أو تزنى الحرة ؟ تعنى أن الحرة لا تزنى أو لا ينبغى لها أن تتمرغ هذه الفاحشة ! فإنها لا يتردى فى بؤرتها إلا الأمة وأشباهها من الساقطات ، وإلا فليس يخفى على مثلها أن ذوات الرايات فى الجاهلية كن حرائر ! فقال : «ولا يقتلن أولادهن» ، فقالت : ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً ! تعنى ما كان من أمر ابنها حنظلة بن أبى سفيان ، فإنه قتل يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلق ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويروى أنها قالت : قتلت الآباء وتوصينا بالأولاد ! فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : «ولا يأتين ببهتان» ، فقالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، ولا يأمر الله تعالى إلا بالرشد ومكارم الأخلاق ؛ فقال : «ولا يعصينك فى معروف» ، فقالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا

---

(١) بقافين مصغرة كابنتها ، وفى بعض النسخ رقية وهو تحريف .

أن نعصيك فى شىء . ولم يرو عن امرأة من المبايعات على كثرتهن ما روى عن هند فى جرأة مراجعتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة تعقيبها عليه ، وإذا صحت هذه الجرأة فى المراجعة فلحداثة عهدها بالجاهلية ، مع حدة فى اللسان وقوة فى الجنان ، ثم لمكان ابنة زوجها أم المؤمنين رملة [١] ، رضى الله عنها ، من النبى صلى الله عليه وسلم .

* * *

واحتفال القرآن العظيم والنبى الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، بمبايعة النساء وتعليمهن وإرشادهن والاستماع إليهن ، ثم مبايعة الرجال على منهاجهن ـ أعظم دليل على إنقاذ المرأة من وهدتها ، وإعلاء الإسلام لمكانتها ، والسمو بها إلى أوج العزة والكرامة ، بعد أن كانت من سقط المتاع !!

ولو أن المرأة عرفت فى الإسلام مكانتها ، لشكرت نعمة الله عليها ، بالتزام حدوده وآدابه ، واستمساكها بهديه وكتابه ، ولكنها بدلت نعمة الله كفرا ، فسلبت نعمة المعرفة والهداية . وتخبطت فى متاهة الضلالة والغواية ، فلم يكن عجبا ـ وقد ركبت رأسها ، ومشت مكبة على وجهها ـ أن تبيع ما ملكها الإسلام من ملك عظيم ، ببهرج من المدنية الكاذبة ، وزبرج [٢] من الحضارة الفاتنة الصاخبة ، حتى خسرت نفسها ودينها ومكانها جميعاً !!

بيد أن باب التوبة مفتوح على مصراعيه لمن شاءت أن تثوب إلى رشدها ، وتتطهر من رجسها ، وتنظر بنور الإسلام إلى تاريخها ، مستعينة بالله تعالى أن يعيدها سيرتها الأولى .

* * *

وبعد فقد بينا فى المقال السابق درجات الناس فى التطهير من الموبقات ، وضربنا أروع الأمثال بأناس جادوا بأنفسهم لله عز وجل ، وذكرنا فيمن ذكرنا أناساً لم يقدروا على تطهير أنفسهم جهرا ، أو قدروا ولكنهم آثروا ستر الله ، فطهروا أنفسهم فيما بينهم وبينه سرا ، رأوا أنه تعالى ستير يحب الستر ، وأنهم ما كان لهم أن يكشفوا ستر الله عنهم وقد سدله عليهم وجللهم ، فباءوا لله ضارعين باكين ، منفقين مستغفرين ، مستكثرين من الصالحات والخيرات ، مطمئنين إلى أن الحسنات يذهبن السيئات .

---

(١) كنيتها أم حبيبة ، وأمها صفية بنت أبى العاص بن أمية عمة عثمان رضى الله عنه .
(٢) البهرج . الباطل ، والزبرج الزينة والذهب والسحاب اهـ نهاية .

ومن شكر نعمة الله تعالى على عبده فى ستر فضائحه ومساويه - وما أعظمها من نعمة - أن يستر عورة أخيه، ويعف عن ذكرها ما استطاع إلى الستر سبيلا، فقد روى أبو داود والنسائى عن عقبة بن عامر رضى الله عنه، قال، قال رسول الله ﷺ: من رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة. وفى حديث مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه: «ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة»، ولكن لا يحسن الستر إلا على ذى مروءة تعد هفواته، ويرجى منه الخير وقبول النصيحة؛ وأما من لا يرعوى عن غيه، ولا يبالى نصح الناصحين، ولا هداية الهادين، فإن الستر عليه لا يزيده إلا غيا وضلالا!.

وآخرون أراد الله بهم خيرا فعجل عقوبتهم فى الدنيا بما ابتلاهم من ضروب المحن والبلايا، حتى يلقوا ربهم مطهرين أبرارا. فقد روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة. وروى الترمذى أيضا عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة فى الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة. وقال النبى صلى الله عليه وسلم: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط. وروى الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب[1] ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه. وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه لما نزلت: «من يعمل سوءا يجز به»، بلغت من المسلمين مبلغا شديدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قاربوا وسددوا ففى كل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها والشوكة يشاكها.

* * *

وإنما تكون النكبات والمصائب - على اختلاف ضروبها - مطهرة ومكفرة، إذا صبر المصاب عند الصدمة الأولى، راضياً بقضاء الله وقدره، مؤمناً بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه؛ فإن أمر المؤمن كله له خير: إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له. ومن آثار عمر رضى الله عنه: الصبر

---

(١) النصب: التعب، والوصب: المرض.

والشكر مطيتان لا أبالى أيهما ركبت . يبين ، رضوان الله عليه ، أن شأن المؤمن فى كل أحيانه أن يتنقل من خير إلى خير ومن أجر إلى أجر .

ولا يقدح فى الإيمان والصبر والرضا أخذ المصاب بالأسباب المشروعة من التداوى والسعى وما إليهما ، بل ربما كانت واجبة يثاب عليها ولا يجوز التهاون فيها وكل من عند الله ، وكل بقضاء الله حتى العجز والكيس . وللتفصيل مقام غير هذا . .

فإذا جزع العبد ولم يرض بقضاء الله تعالى كان كل ما أصابه عقوبة معجلة فى هذه الدنيا : « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

* * *

ولن يتم تطهر العبد إلا بتخليه عن التبعات والمظالم ورد الحقوق إلى أهلها ما استطاع إلى الرد سبيلا ، فإن عجز فليكثر من الاستغفار لهم ، والتصدق - ما استطاع - عنهم ؛ فإن ذلك أدنى أن يرضى الله ويرضى خصومه عنه ، وإلا فويل له ثم ويل له يوم يطالبه غرماؤه بديون لا قبل له بها ، ثم يكبه الله على وجهه وقد خسر الدنيا والآخرة !

إن ذلك هو المفلس الذى عناه النبى ، صلى الله عليه وسلم ، حين سأل أصحابه فقالوا : هو من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا ؛ فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار . رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه .

* * *

ذلك ، والصوفية وأرباب الطرق يعتمدون على أحاديث المبايعات فى مبايعاتهم المختلفة ، وأخذ العهود والمواثيق على المريدين فى التوجيه والسلوك . والقول الفصل فيما يعملون هم أو غيرهم من عمل ، أن يعرض على كتاب الله وهدى نبيه صلوات الله وسلامه عليه فما وافقهما فهو الرشد والهدى ، وما خالفهما فهو الغى والهوى « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

لا جرم أن البيعة على الاستقامة والهداية وما جاء به النبى ، صلى الله عليه وسلم ، من أمر ونهى ، وورد وذكر ، وفرض ونفل ، من غير إرهاق ولا تنطع ، ولا تكاسل ولا تواكل

ولا ذلة ولا مهانة — فهى تجديد لما بايع النبي صلوات الله وسلامه عليه أصحابه وأخذهم به وربأهم عليه ، وذلك من العهود المسئولة ، والأمانات المحمولة ، والعقود التى لا يوفى بها إلا القوى الأمين ، من أمثال هؤلاء النفر الذين يروى مسلم حديثهم عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه فيقول : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال : ألا تبايعون رسول الله ﷺ ؟ وكنا حديثى عهد ببيعة ، فقلنا قد بايعناك يا رسول الله ، فبسطنا أيدينا ، وقلنا قد بايعناك يارسول الله فعلام نبايعك ؟ قال : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلوا الصلوات الخمس ، وتسمعوا وتطيعوا ، وأسر كلمة خفية - قال : ولا تسألوا الناس شيئا ، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه .

إن رجال الطرق فى مصر وغيرها من بلدان الإسلام ، كثرة ذات شأن وثروة ذات بال ، وهم مسئولون بين يدى الله والتاريخ عن تربية أتباعهم ، فعليهم أن يطهروا أنفسهم ويأخذوها بالتى هى أقوم ، وأن يكونوا قادة للناس يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويهدون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والهدى النبوى فيما يأتون ويذرون ، لا عصبية ولا هوى ، ولا ابتداع ولا انحراف . وإنما هو التعاون على البر والتقوى ، وإيثار الحق أينما كان .

وعلى ولاة الأمور من العلماء والحكام أن يعاونوهم ويهيئوا لهم أسباب الرشاد والسداد .

وقد علم الناس أن نفرا من أولى الفضل قد استجابوا فى هذه الأيام لدعوة طالما وجهها كثير من ذوى الغيرة الإسلامية لإصلاح هذه الطرق وتنقيتها مما يشينها من البدع والخرافات والانحراف عن دين الله الحنيف . وها هم أولاء ، ينتظرون ماوراء هذه الإجابة من خير ورشد وهداية إلى الصراط المستقيم : صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين [1] « والله المستعان » ، « وعلى الله قصد السبيل » .

طه محمد الساكت

(١) نرجو أن يكون لنا بحث فى إصلاح هذه الطرق فى مناسبة قريبة إن شاء الله .

التقليد والمحاكاة في نهضتنا الحاضرة

ما يجب أن نقتبسه من مظاهر القوة والخير

حديث لفضيلة الاستاذ الاكبر

تفضل فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الازهر فخص « الأهرام » بهذا المقال الذى ننشره فيما يلى :

نحن الآن فى طور من أطوار التاريخ ، عزمنا فيه على أن نعالج أسباب ضعفنا ، وأن نأخذ إن شاء الله بجميع وسائل القوة ، لنعود كما كنا أمة صالحة سليمة الاتجاه سعيدة العيش محترمة من الأمم ، ومتبادلة معها صنوف المصالح والمنافع ، ومتعاونة مع الجميع على التقدم بالإنسانية إلى أهدافها العليا .

وأول ما ينبغى لنا تمييزه فى معالجة أسباب الضعف والأخذ بوسائل القوة ، أن نكون على بينة مما نأخذه عن غيرنا ، وما ينبغى لنا التمسك به من أصولنا ومبادئنا ، وما به قوام كياننا .

إن الإسلام يأمرنا أمرا دينيا بأن نكون أمة قوية بأخلاقها ، قوية بعلومها النافعة وصناعاتها التى عليها مدار العمران ، قوية باستعدادها العسكرى للدفاع دائما ، وفى أى لحظة عن كل ما لنا من حقوق ، وما نؤمن به من حقائق . فالأخذ بأسباب القوة من جميع هذه النواحى ، والاضطلاع بالعلوم اللازمة له من طبيعة وكيمياء وميكانيكا ورياضة واقتصاد وإحصاء ، فرض لازم على المسلمين ، لأن دينهم أمرهم بأن يكونوا أقوياء ، فأصبح ذلك واجبا عليهم ، وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ومما ينبغى لنا فى هذه الأمور ألا نقتصر على المحاكاة والتقليد ، بل يجب أن نعد الأذكياء من أبنائنا وشباننا للتقدم فيها ، حتى يكونوا من أئمتها المبتكرين وعلمائها المخترعين ، وقد وهبهم الله من الألمعية والذكاء وعظيم الاستعداد ما يساعدهم على ذلك فى سنوات قريبة إن شاء الله .

هذا هو الجد ، وبهذا تتم النهضة فنأخذ فى طريق الفلاح ، ونبلغ مقام الإمامة فى العلوم ، ونتأهل لما وراء ذلك مما استخلف الله به الانسانية الكاملة فى الأرض .

أما الأمور التى بها قوام كياننا والعمل بمبادئنا والرجوع إلى أصولنا ، فهذا مما لايجوز لنا محاكاة غيرنا فيه ، بل إن كل أمة تحترم نفسها وتعتز بكيانها تترفع عن محاكاة غيرها فى أصولها ومبادئها ، وإننا لا نزال نذكر ما وقع فى انجلترا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية فإن أعضاء حزب العمال فى وزارة تشرشل كانوا يطالبون بتجديد الانتخابات النيابية ، وكان تشرشل يحب أن يتأنى فى ذلك ، فكتب إلى مستر أتلى يقترح أن يستعاض عن تجديد الانتخابات بعمل استفتاء عام ، فأجابه مستر أتلى بكتاب لا يزال يرن صداه فى الآذان حتى اليوم ، إذ قال له فيه : « إن فكرة الاستفتاء « اختراع أجنبى » وليس من الخير أن يسمح له بدخول البلاد البريطانية » ولقد كان مستر أتلى على حق فى هذا ، لأن كل أمة ذات أصول ومبادىء تتصل بنظامها الخاص بها ، وبكيانها الذى تعتز به فى تاريخها ، لايجوز لها أن تفرط فى أصولها ومبادئها لتحاكى غيرها فى شىء من ذلك ، وهذا الاعتزاز بأصول الأمة ومبادئها من مظاهر قوة الأمة ، بل هو من وسائل تلك القوة ، أما التفريط فى ذلك والتلون بالألوان الغريبة ، فإنه من مظاهر الضعف ومن وسائله ، وهذه الحقيقة الاجتماعية قررها ابن خلدون فى مقدمة تاريخه وبرهن عليها ، ولا تزال من حقائق الاجتماع إلى الآن ، على أنه لو لم يكن هذا من حقائق الاجتماع ، فإن الإسلام حتمه على أهله وألزمهم بالتزامه ، وكان أسلافهم أقوياء يوم كانوا ملتزمين به ، ولو قيض الله لهذه الأمة علماء من أهل البصائر النيرة ، يدرسون ما عندنا من هذه الأصول والمبادىء دراسة علمية بلا تعصب ولا غرض ، لتبين لهم أنها هى المبادىء السليمة والأصول الصحيحة التى تقوى بها الأمة وترقى ، وأن التفريط فيها من مدارج الضعف وأعراض الانحطاط ، ونحن إذا عمدنا إلى التفريط فيها نكون متناقضين مع أنفسنا فيما نحاوله من أسباب القوة فى مرافقنا المادية من زراعية وصناعية واقتصادية وعسكرية وغير ذلك ، إذ لا معنى لذلك إلا الجمع بين أسباب الضعف وأسباب القوة فى وقت واحد .

إن هذه القاعدة المزدوجة ـ وهى الأخذ بكل ما وصلت إليه الأمم من علوم القوة والتقدم العمرانى وأسبابهما ، مع التمسك بالأصول والمبادىء الخاصة بنا والموروثة عن أسلافنا ـ هى التى ينبغى لنا أن نعمل بها فى أنفسنا أفرادا ، وفى بيوتنا وأسواقنا ومجتمعنا ودولتنا ، فالفرد منا يجهز نفسه وبيته بكل ما يحتاجه مما توصل إليه العلم ،

كالأدوات الكهربائية والتليفون وأمثال ذلك ، وفى الوقت نفسه يتوقى كل ما لا يتفق مع آداب دينه ، كاختلاط النساء بغير محارمهن . وفى مصانعنا نستعين بكل ما وصل إليه العلم من آلات دقيقة وسريعة لننافس الامم بتقدمنا وجودة إنتاجنا ، وفى الوقت نفسه نتعامل مع عمالنا وعملائنا بكل ما أرشد إليه ديننا من رفق وتراحم وتعاون وإخلاص وأمانة وحفظ للمواعيد ، وتمسك بالعهود وتجنب لنقيضتى البخل والإسراف والمحاباة والاجحاف . وفى مجتمعنا نتحرى المبادىء والقواعد والأصول الخاصة بنا فى كل ما نحاوله من تنظيم وعمل مع ما نحرص عليه من أسباب القوة والتقدم والنجاح ، ليتصل حاضرنا بماضينا ، ولنكون به قدوة لمن يأتى بعدنا من الأجيال .

إن النهضة التى تقوم على هذين الأساسين هى النهضة الصادقة الثابتة الخطى ، الوثيقة الدعائم ، وهى التى تتقبلها الأمة بالاستبشار ، لأنها توافق مصلحتها وتتفق مع راحة ضمائرها ، وتكون بذلك فى عبادة ، لأنها جمعت بين سعادة الدنيا وفضائل الدين .

أما الذين يشغلون الأمة عن سعادة الاستعداد للنهوض بالتعرض لأمور تراها الأمة ماسة بأصول ومبادىء عزيزة عليها ، وهى فى الوقت نفسه لا دخل لها فيما نحن آخذون به للنهوض بالمرافق الصناعية والزراعية والعسكرية ، كمحاولة محاكاة الأمم الأجنبية فى نظام الأسرة وشئون الزواج والأمور الشكلية كالأزياء وما إليها ، فإن ذلك كله ليس من مصلحة الوطن ، ولا خير فيه لهذه الأمة ، وهى فى هذا الطور العظيم من أطوار نهوضها وتقدمها .

ومما ينبغى لجمهور الأمة أن يكون على علم به أن كل ما طرأ علينا من عدوى أجنبية فى حياتنا الاجتماعية ، كالإضراب عن الطعام احتجاجا على أمر من الأمور ، أو الإضراب عن العمل لاختلاف بين العمال وأصحاب الأعمال ، فإنه مما لا يليق ببلد إسلامى ، لأن الإضراب عن الطعام انتحار ، والانتحار يسخطه الله ، وصاحبه يبتعد عن حياة الدنيا وحياة الرضا فى الآخرة ، والإضراب عن العمل قتل للوقت وسخط للرزق ، وتعطيل لمصالح الأمة ، وما دامت أبواب العدل مفتوحة ، ومرافق الدولة مستعدة للنظر فى الشكاوى والتوفيق بين المصالح ، فذلك هو الطريق للوصول إلى الحقوق العادلة ، وإن هذا الشرق الإسلامى فى حاجة إلى أن يأخذ عن غيره أسباب القوة ، لا وسائل التعطيل والانتحار .

ومن أدق موازين الحكم على الوعى القومى والنضوج الاجتماعى مراقبة ما تأخذه الأمة عن غيرها من خير ، وما تتجنبه مما لا خير فيه ، ونحن اليوم فى هذا الطور من أطوار التاريخ ، والتاريخ يراقبنا فى هذا الامتحان ليرى ما نأخذ وما ندع .

أزمة الفقه الإسلامي

نظرية السبب في العقد

(تتمة)

١ — ذكرنا فيما سبق أنه يجب أن نعمل على استخلاص النظريات الفقهية التى تندرج تحت كل منها طائفة عديدة من التفريعات والأحكام التى نعرفها فى الفقه ، وبهذا يتغير الفقه الإسلامى فى منهجه وطريقة عرضه ، ويأخذ فى طريقه إلى التقدم .

ورأينا فى الكلمة السابقة لهذه ، أن نعرض لنظرية السبب فى العقد أو الالتزام ، وذلك من باب التطبيق لما ندعو إليه ؛ ولنؤكد للعلماء بالقانون أن العلماء بفقه الإسلام وأصوله لم يغفلوا هذه الناحية فى بحوثهم ، وإن كانوا لم يصلوا إلى وضع نظرية عامة فيها .

وانتهينا فى تلك الكلمة من الحديث عن تعريف السبب ومعانيه وما يراد به فى الفقه ، واليوم نتكلم عن الشروط التى يجب أن تتوفر فيه ليكون سبباً صحيحاً شرعا يجب رعايته ، ثم عن حكم التصرف المجرد عن السبب ، وبذلك يتم البحث .

٢ — ونحب أن نؤكد من أول الأمر أن الفرق كبير جداً ، فيما يتصل بشروط السبب الصحيح وتطبيقاتها ، بين الفقه والقانون . فالشريعة الإسلامية ، وهى تقوم على رعاية الصالح العام للفرد والمجتمع ، تتدخل حين يجب التدخل للحد من حرية المتعاقدين ، ومن ثم لا تجيز من العقود إلا مالا يتنافى مع الأخلاق الطيبة والمصلحة العامة للمجتمع ، على حين نرى القانون يجعل « العقد شريعة المتعاقدين » ، ومن ثم لا يتدخل فى حريتهما إلا بقدر محدود .

حقيقة إن من القواعد القانونية أن ما يخالف النظام العام والآداب باطل ، وأنه لا يوجد الالتزام إلا إذا كان له سبب حقيقى ومشروع ، وأن السبب يكون غير مشروع إذا حرمه القانون أو كان مخالفا للآداب والنظام العام ، وأنه يجب أن يتوفر فى السبب أن يكون موجوداً وأن يكون مشروعا[1] . كل هذا حق ، ولكن شيئا منه لم يمنع أن يجوز

---

(١) نظرية الالتزام فى القانون المدنى المصرى ، الأستاذ الدكتور حشمت أبو ستيت ، ص ١٦٦ ، ١٧٠ .

قانونا ما كان من استئجار الدور للدعارة فى مصر وغيرها ، ولا يزال يحصل حتى الآن بكل أسف من استئجار الدور لتكون مباءة للخمر والميسر ، إلى نحو هذا وذاك من العقود التى لا يقر أسبابها خلق أو دين أو شريعة فاضلة .

٣ — هذا ، والشريعة الإسلامية ، التى تقدر أن الأعمال بالنيات ، وأن الأمور بمقاصدها ، توجب أن يتوفر فى سبب العقد شروط ثلاثة :

(ا) ألا يكون واجباً على أحد طرفى العقد بدون العقد .

(ب) أن يظل قائماً حتى يتم تنفيذ العقد .

(ج) أن يكون مشروعاً حقاً .

وهذه الشروط الثلاثة نستخلصها من كلام الفقهاء فى أبواب كثيرة من الفقه ، وكذلك من بحوث الذين عنوا منهم بقواعد الفقه العامة ، مثل ابن رجب الحنبلى وابن جزى المالكى . ولم يكن هؤلاء الفقهاء نظريين ، بل كانوا عمليين يضعون الحلول لما يعترض فى الحياة من مشاكل ومسائل ، ولذلك نجد فى ثنايا كتب الفقه وقواعده كثيراً من التطبيقات لتلك الشروط .

٤ — فمن تطبيقات الشرط الأول أنه لا يكون صحيحاً أن يستأجر إنسان خادمه أو زوجته على عمل هو واجب على أحدهما ، لأن عقد الإجارة فى هذه الحالة لا سبب له .

ولذلك يذكر الإمام الزيلعى أنه لا يجوز استئجار الأم لإرضاع طفلها إذا كانت فى عصمة زوجها (أى الأب) أو فى عدته ، « لأن الإرضاع مستحق عليها ديانة ... فلا يجوز أخذ الأجرة عليه . ولهذا لا يجوز أن تأخذ الأجرة على خدمة البيت من الكنس وغيره ، وإنما لا تجبر عليه لاحتمال عجزها فعذرت ، فإذا أقدمت عليه ظهرت قدرتها فلا تعذر » ، إلى آخر ما قال [١] .

٥ — ولو كان للعقد سبب من أجله أقدم عليه المتعاقدان ، ثم زال هذا السبب ، كان هناك حينئذ مقتض لفسخ العقد ، ولذلك مثل كثيرة تمدنا بها كتب الفقه ونكتفى هنا بذكر البعض منها [٢] :

---

(١) راجع شرح الزيلعى ، حـ ٣ : ٦٢ - ٦٣ فى باب النفقة .

(٢) يراجع فى هذه الأمثلة وغيرها ، البدائع للكاسانى حـ ٤ : ٢٢٢ - ٢٢٣ ، مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية ، حـ ٥ : ٢٢٤ وما بعدها ، القواعد فى الفقه الاسلامى ، لابن رجب ، صـ٣٢١-٣٢٢

(ا) استئجار مرضعة للطفل ، أو خادمة لخدمته وحده ، أو معلما لتربيته ، ثم يموت الطفل .

(ب) استئجار أرض للزراعة فانقطع الماء عنها أو صارت غير صالحة للزراعة لأى سبب من الأسباب .

(حـ) استئجار دار للسكنى فانهدمت أو صارت غير صالحة للسكن ، أو محل للتجارة ثم أفلس المستأجر أو اضطر لترك البلد التى بها المحل .

فنى هذه الحالات وأمثالها ، نجد سبب العقد قد زال وأصبح غير قائم ، والنتيجة لذلك انفساخ العقد وانتهاؤه فى رأى جمهرة الفقهاء ، ومن هذه الحالات المرأة تهب مهرها لزوجها طالبا لاستدامة العشرة بينهما ، ثم يطلقها ، فلها حينئذ الرجوع عن الهبة لزوال سببها .

٦ — ومن باب التطبيق للشرط الثالث وهو وجوب أن يكون للعقد سبب مشروع [١] نذكر هذه العقود [٢] .

(ا) استئجار أحد المجرمين للإضرار بآخر ، بحرق بيته أو زراعته أو قتله مثلا .

(ب) بيع عصير العنب لمن يصنعه خمراً .

(حـ) بيع أدوات القتال لقاطع طريق أو لأهل الفتنة ، ومثل ذلك بيع أدوات الميسر والقمار .

(ى) تأجير دار للدعارة أو للعب الميسر أو لتكون حانة يباع فيها الخمر .

(هـ) الهدية لمن يتشفع للمهدى لدى أصحاب السلطان .

فهذه العقود ونحوها التى تقوم على سبب غير مشروع ، غير صحيحة فى رأى كثير من الفقهاء ، وما هذا إلا لعدم شرعية أسبابها .

٧ — بقى بعد ما تقدم ، أن نبحث بإيجاز التصرف المجرد عن سبب ، لنعلم هل يجب

---

(١) يوجب القانون ، كما عرفنا ، أن يكون للعقد سبب مشروع ، ولكن ما أعظم الفرق بين ما يعتبر مشروعا فى القانون وبين ما يعتبر كذلك فى الفقه الاسلامى .

(٢) راجع المحلى لابن حزم حـ ٩ : ٢٩ — ٣٠ ، الحطاب على خليل حـ ٤ : ٢٦٣ وما بعدها ، القواعد لابن رجب ص ٣٢٣ .

الوفاء بما يكون فيه من التزام أولا يجب ، وهنا نجد الله تعالى يقول فى سورة الصف : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ! » ، كما نجد الرسول ﷺ يقول : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » ، كما يقول : « وأى المؤمن حق واجب [١] » .

ومن أجل هذه الآيات والأحاديث التى ذكرناها ، يرى بعض الفقهاء أن من يعد غيره بشىء ، ولو بلا سبب إلا ابتغاء الثواب من الله تعالى ، يجب عليه أن يفى بما وعد ؛ وإلا كان من الذين يقولون مالا يفعلون ، وكان فيه لذلك خصلة من خصال النفاق الثلاث .

٨ — وهنا نجد العلامة ابن حزم الأندلسى المتوفى عام ٤٥٦ هـ ، ثم الإمام القرافى المالكى المتوفى عام ٧٢٣ هـ ، يتعرضان فى دقة وتحليل لمسألة الوعد (وهو نوع من أنواع التصرف المجرد) لبيان ما يجب الوفاء به منه وما لا يجب مطلقاً .

لقد استعرض الأول آراء الفقهاء فى هذه المسألة ، فذكر أن أبا حنيفة والشافعى وداود بن على شيخ أهل الظاهر ، لا يرون أن الواعد يلزمه - شرعا وقضاء - الوفاء بما وعد ، بلا سبب . ولا فرق بين أن يكون قد أدخل من وعده فى كلفة أو لم يدخله ، وإن كان من الأفضل طبعاً أن يفى بما وعد ، ثم ذكر أن الإمام مالكا يرى أن الوفاء لازم فى الحالة الأولى فقط ، وأن ابن شُبرمة يرى أنه لازم فى الحالتين ، وانتهى إلى أن الوفاء غير لازم مطلقاً إلا أن يكون الواعد قد وعد بشىء واجب عليه ، وهذا مثل الإنصاف من دين أو أداء حق[٢].

أما الإمام القرافى ، فقد ذكر شيئا من اختلاف الفقهاء فى المسألة ، ثم قال [٣] : « وجه الجمع بين الأدلة المتقدمة ، التى يقتضى بعضها الوفاء به وبعضها عدم الوفاء به ، أنه إن أدخله فى سبب ما يلزم بوعده لزم ، كما قال مالك وابن القاسم وسحنون ، أو وعده مقرونا بذكر السبب كما قاله أصبغ ، لتأكد العزم على الدفع حينئذ ، ويحمل عدم اللزوم على خلاف ذلك ، ومن الوعد المقرون بالسبب أن يقول إنسان لآخر : اهدم دارك وأنا أسلفك ما تبنى به ، اشتر هذه السلعة أو تزوج هذه المرأة وأنا أسلفك .

---

(١) الوأى : هو الوعد وزنا ومعنى ، وهذا الحديث رواه ابو داود ، انظر ابن حزم حـ ٨ : ٢٩

(٢) المحلى ، حـ ٨ ، ٢٨ ، ٢٩

(٣) الفروق ، حـ ٤ : ٢٧

٩ — ومن الواضح أن ما ذهب إليه الإمام مالك هو الصحيح ، نعنى وجوب الوفاء من الواعد إن تسبب بوعده فى إدخال الموعود فى كلفة ونفقات ، وعدم وجوبه - إلا فى شرعة الأخلاق - إن لم يكن الأمر كذلك .

وأخيراً ، هذه هى نظرية السبب فى العقد والالتزام ، عرضناها بإيجاز كما يمكن أن تستخلص من أقوال الفقهاء فى كثير من أبواب الفقه . ولم نرد بذلك أكثر من تقرير أن الشريعة الإسلامية لم تغفل هذه الناحية الفقهية ، كما لم تغفل شيئاً مما يتمدح به رجال القانون فى هذه الأيام ، وما علينا ، نحن ورثة أولئك الأسلاف العظام ، إلا أن نعنى بدراسة الفقه دراسة تاريخية مقارنة من ناحية ، ثم العمل على استخلاص النظريات التى يمكن أن تنتظم أحكامه وفروعه المنثورة هنا وهناك ، وحينئذ نكون قد قمنا بعملية « التركيب » ، بعد أن قام أولئك الأسلاف رضوان الله عليهم بعملية « التحليل » والتفريع .

الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق
بجامعة فؤاد الأول

****

من أقوال أناتول فرانس

* من الحسن أن يكون القلب ساذجاً والفهم غير ساذج .
* من الحق العظيم أن تحتقر خطراً يهددك .
* فى الهموم تسلية عظيمة .
* ينشأ الخطأ عن ضعف فى الخلق ، أكثر مما ينشأ عن ضعف فى الإدراك .
* كل تبدل يطرأ علينا - وإن تمنيناه كثيراً - يورث حزناً وغماً ، لأن ما نتركه جزء منا ، وينبغى أن نموت فى حياة لندخل فى حياة أخرى .
* لكل صورة شعرية معان عدة ، فأى معنى وجدته ، كان عندك معناها الحقيق .



استــــدراك

عرضت فى جزء جمادى الآخرة ١٣٧٢ من هذه المجلة للعبارة الشائعة « اختر بين كذا وكذا » وقد خرجت من البحث إلى أن هذه العبارة لا سند لها فى العربية ولم يرد مثالها . وقد وجدت مثيلاً لها فى صيغة تساوق « اختار » من مادتها ، وهى « تخير » ، فيقال : تخير بين كذا وكذا ، ويقال على نسق هذا : اختار بين كذا وكذا . ويراد من التخير والاختيار حينئذ الترجيح بين الأمرين أو الأمور .

وتقول العرب فى هذا المعنى أيضاً : ميَّل بين الأمرين ومايل . وفى اللسان (ميل) : « وتقول العرب : إنى لأميِّل بين ذينك الأمرين وأمايل بينهما أيهما أركب ، وأمايط بينهما » . وشاهد ما أرمى إليه من ورود « تخير بين الأمرين » قول الكلحبة[1] :

يا كأس ويلك إنى غالنى خلق	على السماحة صعلوكا وذا مال
تخــيرى بين راع حافظ برم	عبد الرشاء عليك الدهر عمال
وبين أروع مشمول خلائقه	مستهلك المال للذات ، مكسال
فأى ذينك إن نابتك نائبة ؟	والقوم ليسوا ـ وإن سوُّوا ـ بأمثال

كأس : بنته ، ولها يقول فى قصيدة مفضلية فى شأن فرسه :

فقلت لكأس ألجميها فإنما	نزلنا الكثيب من زرود لنفزعا

و « غالنى خلق » ، أى أهلكنى ، وإنما أهلك ماله ، وقد راعى فى الخلق أن المرء مطبوع عليه فقال : « على السماحة » أى طبعى على السماحة . والصعلوك : الفقير لا مال له . والبرم :

---

(١) انظر نوادر أبى زيد ١٥٤

الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر ، بخلا منه وشحاً بماله ، وهذا مذموم عندهم [1] . والرشاء : حبل الدلو . يريد بعيد الرشاء من همه الإسماء والامتياح ، ولا يعنى بالغزو وهم السادة . والأروع : الرجل الكريم ذو الجسم والجهارة والفضل والسؤدد . والمشمول الخلائق : كريم الأخلاق ، طيبها ، أخذ من قولهم : ماء مشمول ، وهو الذى هبت به ريح الشمال فبردته . وقوله : « مستهلك المال للذات » أى يبذل ماله ويفنيه فى سبيل لذاته من الخمر والنساء ، وكان ذلك مما يتمدح به العرب ، كما كان الكسل مدحا عندهم إذ يدل على النعمة والرفه . وقوله : « فأى ذينك » برفع « أى » ، وهو مبتدأ محذوف الخبر ، أى فأى ذينك خير . ويروى « فأى ذلك » بنصب « أى » ، وفعله محذوف أى فأى ذلك تختارين ، والإشارة على هذا بذلك إلى المذكور من الرجلين ، وقد أفرد نظراً لذلك كما فى قوله تعالى : « لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك » .

الطيارة أحد الأشياء المخترعة
المذياع إحدى الأدوات المستحدثة

« أحد » و « إحدى » من أسماء العدد . ولهما فى أغلب الأمر استعمالات واضحة لا تعقيب فيها . تقول : هذا الكتاب أحد الكتب النافعة ، وهذه الرسالة إحدى الرسائل الممتعة .

وقد تعرض لهما فى بعض المواطن استعمالات تدعو إلى النظر ، كما فى المثالين المصدر بهما البحث . فهل تراعى المضاف إليه فتقول : الطيارة أحد الأشياء المخترعة ، أو المحدث عنه فتقول : الطيارة إحدى الأشياء ؟ وهل يقال : المذياع إحدى الأدوات المستحدثة ، أو أحد الأدوات ؟

والذى يبدو أن الأصل فى ذلك مراعاة المضاف إليه فى التذكير والتأنيث ، إذ كان أحد وإحدى بعض ما يضافان إليه . فاذا جاء الكلام على هذا الأصل فلا كلام فيه ، إذ جاء على الجادة وعلى طريقة الملحّب . وإذا اختلف المحدث عنه — وهو بالموصوف بأحد

(١) المجلة — لأن الموسرين منهم كانوا يدخلون فى الميسر فى زمن القحط ، أو فى الشتاء إذا أقفرت الأرض من الكلأ والمرعى ، فيضربون بالقداح على الابل ثم يجزرونها ويطعمون منها فقراء القبيلة . فمن أبى من أغنيائهم أن يساهم فى ذلك نسبوه إلى الانانية والشح .

وإحدى ـ والمضاف إليه فى التذكير والتأنيث كما مر فى الأمثلة السابقة فلا ضير أن يراعى المحدث عنه ، فإذا قلت : رسالة الشافعى أحد الكتب الجليلة كان هو الأصل فى الباب ، ولك أن تقول : رسالة الشافعى إحدى الكتب ، فتأتى بإحدى نظراً للرسالة . وهذا بالقياس على الضمير والإشارة إذا اختلف مرجعهما مع ما بعدهما . تقول : قراءة العلم نافعة ، وهو أمر محمود ، وهى أمر محمود ، وتقول : الحنطة تزرع فى مصر ؛ وهذا غذاء جيد ، وهذه غذاء جيد .

وقد جاء من هذا قوله تعالى فى الآية ٧٨ من سورة الأنعام : « فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر » فترى أن اسم الإشارة فى الآية للشمس وهى مؤنثة ، وإشارتها « هذه » ولكنه أتى بالإشارة مذكراً نظرا للخبر وهو « ربى » . ويقول « الزمخشرى » : « فإن قلت : ما وجه التذكير فى قوله : هذا ربى والإشارة للشمس ؟ قلت : جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شىء واحد ، كقولهم : ما جاءت حاجتك ؟ ومن كانت أمك ، ولم تكن فتنتهم . وكان اختيار هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ، ألا تراهم قالوا فى صفة الله : علام ولم يقولوا : علامة ، وإن كان العلامة أبلغ ؛ احترازا من علامة التأنيث » . وقوله : ما جاءت حاجتك أى ما صارت ، وقد ورد نصب « حاجتك » على أنها خبر « جاء » واسمها ضمير ما . وقد أنث الاسم مع عوده على ما ـ ولفظها مذكر ـ نظراً لمعناها وأنها حاجة . وكذلك قولهم : من كانت أمك ، فاسم كان يعود على من ، ولولا أنه يراعى فيها أنها أم لذكر ضمير الاسم ، وهذا كله مبنى على أن الاسم يسرى إليه التأنيث من الخبر . وهذا يرجع إلى باب واسع فى العربية يترجم عنه بباب مراعاة المعنى . وقد أفرد له فى الخصائص بابا ذكر فيه أمثلة كثيرة . ومن مراعاة المعنى قوله تعالى فى الآية ٣٢ من سورة القصص : « أسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه » ويقول أبو حيان فى البحر ١١٨/٧ « فذانك ، إشارة إلى العصا واليد ، وهما مؤنثتان ، ولكن ذكر لتذكير الخبر ؛ كما أنه قد يؤنث المذكر لتأنيث الخبر ؛ كقراءة من قرأ : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا » بالتاء فى تكن » .

وقد جاء فى عيون الأخبار ٣ / ١٣٢ : « وسأل آخر قوما فقال : رحم الله امرأ لم تمجج أذناه كلامى ، وقدم لنفسه معاذا من سوء مقامى ، فإن البلاد مجدبة ، والحال مصعبة والحياء زاجر من كلامكم ، والعدم عاذر يدعو إلى إخباركم ، والدعاء أحد الصدقتين .

ورحم الله امرأ أمر بمير ، ودعا بخير . فقال له رجل من القوم : ممن الرجل ؟ فقال : اللهم غفرا ! من لاتضرك جهالته ، ولا ينفعك معرفته . ذل الاكتساب يمنع من عز الانتساب » .
والقارىء يرى فى قوله « الدعاء أحد الصدقتين » أنه راعى المحدث عنه ، ولو شاء لقال : إحدى الصدقتين ، نظرا للمضاف إليه . وقد جاء فى بعض الحديث : قلة العيال أحد اليسارين ، ولو جرى على ما جاء فى خبر الأعرابى السائل لقيل : إحدى اليسارين .

وقد وقعت مباحثة فى مسألة شبيهة بما نحن فيه بين علمين من أعلام النحو والعربية ، وهما السهيلى المتوفى سنة ٥٨١ ، وابن خروف المتوفى سنة ٦١٦ . وقد كانا من محاسن الأندلس فى عصره الزاهر . وقد ساق هذه المباحثة الجلال السيوطى فى الأشباه والنظائر النحوية ٣ / ٩٩ ، وأورد الحجاج بينهما .

وحاصل المسألة أنه جرى فى عقد ذكر ذكور وإناث محجورين ، وكتب الكاتب فى الحديث عن أنثى : « إحدى المحجورين » ، فتناول الشيخان هذه العبارة ونظرا فيها من جهة العربية . ويرى السهيلى أنها خطأ ، ويرى ابن خروف أنها صواب .

ويعتمد ابن خروف على شواهد فى العربية روعى فيها المحدث عنه ، ولم يراع المضاف إليه فى أحد وإحدى . من ذلك قول النابغة :

بانت سعاد وأمسى حبلها انجذما واحتلت الشرع فالأجزاع من إضما
إحدى بلىّ وما هام الفؤاد بها إلا السفاه وإلا ذكرةً حُلُما

فتراه يقول : إحدى بلى فى الحديث عن سعاد ، ولم يراع المضاف إليه وهو بلى .
وكذلك قول العرجى :

عوجى علينا ربة الهودج إنك إلا تفعلى تحرجى
إنى أتيحت لى يمانية إحدى بنى الحارث من مذحج

ومما استدل به ابن خروف قوله تعالى فى الآية ٣٨ من سورة الأعراف : « حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار » ، فترى أن المضاف إليه أولى وأخرى جماعة الذكور ، وجاء أولى وأخرى مؤنثين نظرا إلى معناهما وأن الحديث بهما عن أمتين .

ولا يرضى السهيلى ما ذهب إليه ابن خروف ، ويدفع احتجاجه بالبيتين بأن الكلام فيهما على حذف المضاف ، أى إحدى نساء بلى ، وإحدى نساء بنى الحارث ، وقد يدفع هذا ابن خروف بأن الأصل عدم التقدير ، ولا داعى إليه ما دام له وجه من التأويل .

ويدفع السهيلى احتجاج ابن خروف بالآية بأن المضاف إليه ضمير الأمم ، ومفرد الأمم أمة ، وهى مؤنث ، فلا شىء فى أولى وأخرى ؛ إذ يراد بهما الأمة ، وكأنه يرى أن التأويل فى الضمير المضاف إليه ، إذ جعل للذكور وهو للأمم نظراً للمعنى ، ولو روعى لفظ الأمم لقيل : أولاهن وأخراهن . ولابن خروف أن يقول : إن الأمم روعى فيهم التذكير ، فجاء ضميرهم ضمير جماعة الذكور ، فصار واحدهم حقه التذكير من هذه الجهة ، فكان حقه أن يقال : أول وآخر ، فلما جاء أولى وأخرى علم أن ذلك نظراً للمحدث عنه فيهما لا للمضاف إليه .

والقارىء يخرج من هذا بجواز ما صدر به البحث إن شاء الله .

محمد على النجار
الأستاذ بكلية اللغة

****

الزهـــــر

الزهر أحلى مخلوقات الله ، غير أنه لم يهب له نفساً ناطقة . ﻫ . و . بتشر

خلق الله الزهر زينة للأرض ، وتعزية للبشر . وأسعد الناس حظاً من يقرأ آيات الحكمة السماوية فى زهرة واحدة . وورد سورث

الزهرة كتاب فتحه الله أمام أنظار خلقه ليتعلموا منها اللطف والتسامح فى كل شىء ، حتى أنهم ليطأونها بأقدامهم فترفع لهم رأسها وعلى وجهها ابتسامة جميلة . دى مونتغمرى

الأزهار كواكب الأرض ، والكواكب أزهار السماء . مسز بلفور

حديث القرآن عن اللغو

ما أكثر الكلام بين الناس ، وما أهون شأنه على الثرثارين الفارغين ، وما أقل الأعمال الطيبة عند هؤلاء ، وخاصة فى المجتمعات الضعيفة المتحللة التى تقنع باجترار الألفاظ وترديد الكلام وتشقيق الأمانى ، وقد راعت هذه الحقيقة كثيراً من المصلحين والحكماء منذ أقدم العصور ، وجسمها أبو العلاء المعرى فى بيت موجع له ، فقال :

لو غربل الناس كيما يعدموا سقطا لما تحصل شىء فى الغرابيل !!

وللقرآن الكريم حديث عن « اللغو » له عظته وعبرته ، وفيه فائدته وثمرته ؛ ويحسن بنا قبل عرض الحديث القرآنى عن « اللغو » أن نستأنس بمعانى المادة الكثيرة المتقاربة فى معاجم اللغة .

فما جاء فى لسان العرب عن مادة « اللغو » قوله : « اللغو واللغا : السقط ، وما لا يعتد به من كلام وغيره ، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع . وعن الفراء : ولد الشاة المبيعة يسمى لغواً لأنه تبع لها ، ولا ثمن له مسمى . وقال الأصمعى : هو الشىء الذى لا يعتد به . وجماع اللغو هو الخطأ إذا كان اللجاج والغضب والعجلة . وكلمة لاغية : فاحشة ، وفى التنزيل العزيز : « لا تسمع فيها لاغية » هو على النسب ، أى كلمة ذات لغو ، وقيل أى كلمة قبيحة أو فاحشة . وقال قتادة : أى باطلا ومأثما . وقال مجاهد : شتما ؛ ونباح الكلب : لغو أيضا . وقال الفراء فى قوله تعالى : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه » ، قالت كفار قريش : إذا تلا محمد القرآن فالغوا فيه ، أى اغلطوا فيه يبدل أو ينسى فتغلبوه . وإذا أمروا باللغو : بالباطل . ولغا فلان عن الصواب وعن الطريق : إذا مال عنه » .

وفى معجم « مقاييس اللغة » لابن فارس فى مادة « لغو »[١] هذه العبارة : « اللام والغين والحرف المعتل ـ الواو ـ أصلان صحيحان ، أحدهما يدل على الشىء لا يعتد به ، والآخر على اللهج بالشىء . فالأول اللغو : ما لا يعتد به من أولاد الإبل فى الدية ، قال العبدى :

أو مائة تجعل أولادها لغواً ، وعرض المائة الجلمد

[١] ج ٥ ص ٢٥٥ ط الحلبى .

يقال منه لغا يلغو لغوا ، وذلك لغو الإيمان . واللغا هو اللغو بعينه . قال الله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » أى ما لم تعقدوه بقلوبكم . والفقهاء يقولون : هو قول الرجل لا والله ، وبلى والله . وقوم يقولون : هو قول الرجل لسواد مقبلا : والله إن هذا فلان ، يظنه إياه ، ثم لا يكون كما ظن . قالوا : فيمينه لغو ، لأنه لم يتعمد الكذب .

والثانى قولهم : لغى بالأمر ، إذا لهج به ، ويقال إن اشتقاق اللغة منه ، أى يلهج صاحبها بها .

* * *

والقاعدة العامة التى نفهمها من حديث القرآن الكريم عن « اللغو » أن اللغو باطل ، وأمر قبيح مكروه ، لا يليق بالمسلم ولا يحسن منه ، وأن الله يبغض اللغو ويكرهه ، ويبعده عن ساحة عباده المكرمين فى الدنيا والآخرة ، وأن هذا « اللغو » سواء أكان قولا أم عملا من شأن الذين كفروا ، وأن المؤمنين يفرون منه ويعرضون عنه ، وأنهم إذا وقعوا فيه خطأ فإنما يقعون فيه عن طريق السهو والنسيان ، وسرعان ما يتذكرون ويرجعون ، ولذلك لا يحاسبهم الله عليه ولا يؤاخذهم به ، وأن الجنة ـ وهى موطن الراحة والتنعم ـ ليس فيها هذا « اللغو » ! . . . ولنوضح ذلك نقول :

قال الله تبارك وتعالى فى الآية السادسة والعشرين من سورة فصلت : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » . وهذا هو المظهر الأول من مظاهر تنفير القرآن الكريم من اللغو ، إذ جعله عملا من أعمال الذين كفروا التى يتواصون بها ، فهى إذن أدخل فى باب الكفران والعناد من غيرها . ومعنى الآية الكريمة أن الكفار قالوا : لا تسمعوا لهذا القرآن الذى يتلوه محمد ، وتشاغلوا أثناء تلاوته عنه برفع الأصوات وإحداث الضجات وترديد الهذيان والخرافات ، حتى تخلطوا على القارىء ، وتغلبوه على قراءته ، وبذلك تغلبونه وتنتصرون . . وأى امرىء مسلم يقبل أن يلغو فيكون بمظنة الإضافة إلى حمى هؤلاء ؟ . . .

وانظر ـــ هديت الصواب ـــ إلى الآية التالية للآية السابقة ، تراها إنذاراً مخيفاً لهؤلاء اللاغين ، ووعيداً مفزعاً لهم ، إنها تقول : « فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ، ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون » فصلت ـ ٢٧

والله تبارك وتعالى يقول فى الآية الثالثة من سورة المؤمنون : « والذين هم عن اللغو معرضون » . وهـذا الوصف قيل فى شأن المؤمنين ، لأن السورة الكريمة بدأت هكذا « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون » ، وبالآية الثالثة هنا يبدأ المظهر الثانى من مظاهر تنفير القرآن من « اللغو » .

ولنتذكر هنا أن اللغو هو مالا يعنى من قول أو عمل ، وأن « اللسان » يقول إن جماع اللغو هو الخطأ إذا كان اللجاج والغضب والعجلة . فكأن القرآن يقرر حقيقة من حقائق النفس المؤمنة التى لا تكون مؤمنة إلا بها ، وهى إعراضها عن اللعب والهزل والباطل من القول والفعل ، وكل ماتوجب المروءة إلغاءه وإطراحه ، لأن النفس المؤمنة تجد من ميادين العمل المثمر والسعى الواجب ما يشغلها عن لغو القول والعمل .

ولنلاحظ كيف وصف الله المؤمنين أولا بالخشوع فى الصلاة ، ثم بالإعراض باللغو ، ليجمع لهم بين الفعل والترك الحميدين الشاقين على الأنفس ، الذين هما قاعدتا بناء التكليف ، لأن هـذا التكليف لا يخرج عن الأوامر والنواهى ، والأوامر تطالب بأعمال تؤدى ، والنواهى تحذر من أمور تترك . وإنه لشأن جليل أن يوضع الوصف بالإعراض عن اللغو هنا ، وقبله ذكر الصلاة وبعده ذكر الزكاة ! . . .

ويلحق بهذا الموطن قوله تعالى فى الآية الثانية والسبعين من سورة الفرقان : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما » ، وهذه آية من آيات فى وصف « عباد الرحمن » ، ومعناها أن عباد الرحمن هم الذين يتباعدون عن مجالس الكذب والبهتان من القول فلا يشهدونها ولا يقربونها ، تنزها عن مخالطة الشر ومصاحبة أهله ؛ وإذا مروا باللغو — وهو كل ما ينبغى أن يلغى ويطرح — أو مروا بأهله ، مروا معرضين عنهم ، مترفعين بأنفسهم عن مشاركتهم ؛ وقد يدرك الذوق البيانى شيئاً من جمع شهادة الزور مع اللغو ؛ فلا يحسبن خاطىء أن أمر اللغو ميسور ، بل إن إتيانه واعتياده من أخطر الأمور .

ويقول الله تعالى فى الآية الخامسة والخمسين من سورة القصص : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » . والحديث عن عباد الله الطيبين . وسلام عليكم ، أى توديع لكم ومتاركة[1] . وعن الحسن : هى كلمة

(١) استفدنا من الكشاف فى معانى الآيات .

حلم من المؤمنين . ولا نبتغى الجاهلين ، أى لا نريد مخالطتهم أو صحبتهم . وما أشد التعريض حينما يقول القرآن عقب هـذه الآية : « إنك لا تهدى من أحببت ، ولـكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين » ، القصص — ٥٦

* * *

ويقول الله تبارك وتعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولـكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم » البقرة ٢٢٥ ؛ ويقول أيضاً فى الآية التاسعة والثمانين من سورة المائدة : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولـكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » ، وهنا يأتى الموطن الثالث من مواطن تنفير القرآن من اللغو ، فاللغو من الأيمان والأقسام هو الساقط الباطل الذى لا يعتد به ولا يتعلق به حكم ، ولا عقد معه ؛ ولما كان باطلا وليس داخلا فى همة المسلم أو قصده ، وليس مما يحسن به الالتفات إليه أو الاعتماد عليه ، جعله الله لغواً ، وعفا عنه فيما يعفو عنه ، والله غفور حليم .

وقد أفاض المفسرون والفقهاء الحديث عن لغو اليمين ، وتعددت آراؤهم فيه تعدداً مبيناً ، ولـكنك تستطيع أن تلمح فيها بسهولة جامعاً يجمع بين أغلبها ، وهو عدم القصد لهذه اليمين ، وعدم عقد القلب عليها أو اعتبارها من كسب المرء المراد له ، وإنما هى فلتات اللسان أو هزات الغضب أو توابع الخطأ والسهو والنسيان ؛ وإليك ما نعرفه من وجوه اختلاف العلماء فى تحديد اللغو :

عن ابن عباس : هو قول الرجل فى درج كلامه واستعجاله فى المحاورة : لا والله ، وبلى والله ، دون قصد لليمين . وعن عائشة : أيمان اللغو هى ما كانت فى المراء والهزل والمزاح والحديث الذى لا ينعقد عليه القلب . وعن أبى هريرة : إذا حلف الرجل على شىء لا يظنه إلا أنه إياه ، فإذا ليس هو ، فهو اللغو ، وليس فيه كفارة ؛ وروى أن قوماً تراجعوا القول عند الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يرمون بحضرته ، فحلف أحدهم قائلا : لقد أصبت وأخطأت يا فلان ، فإذا الأمر بخلاف ذلك ؛ فقال الرجل : حنث يا رسول الله . فقال النبى : « أيمان الرماة لغو ، لا حنث فيها ولا كفارة » ، وعن سعيد بن المسيب : هو يمين المعصية ، كالذى يقسم ليشربن الخمر ، أو ليقطعن الرحم ؛ وبره ترك ذلك الفعل ولا كفارة عليه ، وقيل إن الحجة فى ذلك قول الرسول كما فى سنن ابن ماجة : « من حلف على يمين

فرأى غيرها خيراً منها فليتركها ، فإن تركها كفارة » . وعن ابن عباس : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان ، وذلك لقول الرسول كما فى صحيح مسلم : « لا يمين فى غضب » . وعن سعيد بن جبير : لغو اليمين تحريم الحلال ، مثل مالى على حرام إن فعلت كذا . وعن زيد بن أسلم : لغو اليمين دعاء الرجل على نفسه ، مثل أعمى الله بصره ، أذهب الله ماله . وعن مجاهد : هما الرجلان يتبايعان فيقول أحدهما : والله لا أبيعك كذا . ويقول الآخر : والله لا أشتريه بكذا . وعن النخعى : هو الرجل يحلف ألا يفعل الشىء ثم ينسى فيفعله . وعن ابن عبد البر : اللغو أيمان المكره . وعن ابن العربى : أما اليمين مع النسيان فلا شك فى إلغائها ، لأنها جاءت على خلاف قصده ، فهى لغو محض . وقال الضحاك : لغو اليمين هى المكفرة ؛ أى إذا كفرت اليمين سقطت وصارت لغواً . .

الأقوال كثيرة كما ترى ، والجامع بين أكثرها أنها غير معتبرة أو مقصودة ، فهى لغو ، ولا يؤاخذ صاحبها عليها ، والله هو ذو المغفرة ، وأقرب الآراء إلى القبول هنا هو القول الأول ، أى ما يحدث فى درج الكلام واستعمال المحاورة . .

* * *

ثم يأتى الموطن الرابع من مواطن تنفير القرآن عن اللغو ، وتصويره له بصورة الشىء المكروه المرغوب عنه . فالجنة وهى دار الثواب والتنعم ، وهى محل الزينة والمتعة ، تخلو من « اللغو » ، وكأن فى هذا إشارة بليغة من القرآن ، ورمزاً دقيقاً للمؤمنين الطالبين لنعيم الجنان ، بأن يتجنبوا لغو القول ولغو العمل ، حتى فى لهوهم وتمتعهم وسمرهم ، لأن الجنة وهى مثلهم الأعلى فى المتاع والنعيم خالية من هذا اللغو الذى لا يليق . يقول الله تبارك وتعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما ، إلا قيلا سلاما سلاما » الواقعة - ٢٥ ، ٢٦ .

أى لا يسمعون فى الجنة شيئاً من اللغو أو التأثيم ، ولكن يقولون ويسمعون : سلاما سلاما ، أى يفشون السلام بينهم ، فيسلمون سلاما بعد سلام . ويقول : « لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » مريم - ٦٢ ، أى لا يسمعون فضول الكلام وما لا طائل تحته ، ولكن يسلمون سلاما ، ويأتيهم رزقهم فيها رغداً صباحا ومساء ، ويتكلمون كلاما يسلمون فيه من النقيصة والعيب .

ويقول : « لا تسمع فيها لاغية » الغاشية - ١١ ، أى لا تسمع فيها لغواً ، أو كلمة ذات لغو ، أو نفسا تلغو ، إذ لا يتكلم أهل الجنة إلا بالحكمة وحمد الله على مارزقهم من النعيم الدائم

ويقول : « لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا » النبأ - ٣٥ . أى لا يكذب بعضهم على بعض ، ولا يكذب بعضهم بعضا . ومن الممكن أن نلحظ من طريق الذوق اقتراب اللغو من الكذب ، إذ اجتمعا فى موطن واحد .

ويقول : « يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم » الطور - ٢٣ ، حتى الخمر فى الجنة ليس فيها لغو . أى يتعاطى المؤمنون ويتبادلون هم وجلساؤهم وإخوانهم كأسا من الخمر لا لغو فى شربها ؛ فلا يتكلمون أثناء تناولها بسقط الحديث أو ما لا نفع فيه ، كما يفعل اليوم المجرمون الآثمون المتنادمون على الشراب فى عربدتهم وسفههم ، ولا يأتون إثما كالكذب أو الشتم أو الفواحش ، وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن ، متلذذين بذلك ، لأن عقولهم ثابتة ، وهم علماء حكماء .

وهكذا ينزه الله عباده عن اللغو حتى فى الآخرة ، وهى الدار التى لا تكليف فيها ، نعوذ بالله من الخوض فيما لا يعنينا من قول أو عمل .

وقد يكون من مقتضيات الحال أن نعرف شيئاً عن استعمال كلمة « اللغو » فى الحديث النبوى الشريف . يقول ابن الأثير فى كتاب النهاية : « قد تكرر فى الحديث ذكر لغو اليمين ، قيل هو أن يقول لا والله ، وبلى والله ، ولا يعقد عليه قلبه ، وقيل هى التى يحلفها الإنسان ساهياً أو ناسياً ، وقيل هو اليمين فى الغضب ، وقيل فى المراء ، وقيل فى الهزل ، وقيل اللغو سقوط الإثم عن الحالف إذا كفر عن يمينه . يقال : لغا الإنسان يلغو ، ولغى يلغى ، إذا تكلم بالمطَّرَح من القول وما لا يعنى وألغى إذا أسقط ... وفيه : من قال لصاحبه والإمام يخطب : أنصت فقد لغا . والحديث الآخر من مس الحصا فقد لغا ، أى تكلم ، وقيل عدل عن الصواب ، وقيل خاب ، والأصل الأول وفيه : والحمولة المائرة لهم لاغية ، أى ملغاة ، لا تعد عليهم، ولا يلزمون لها صدقة ، فاعلة بمعنى مفعلة ، والمائرة : الإبل التى تحمل الميرة ، ومنه حديث ابن عباس أنه ألغى طلاق المكره أى أبطله ، وفى حديث سلمان : إياكم وملغاة أول الليل . الملغاة مفعلة من اللغو والباطل ، يريد السهو فيه ، فإنه يمنع من قيام الليل » .

أما بعد ، فاللغو فى القول والعمل شىء قبيح باطل ، وقد صوره القرآن بصورة منفرة فى جميع أحواله وليس من شأن المسلم أن يألفه أو يميل إليه ، فلنسأل الله أن يأخذ بنواصينا إلى الجد ، وأن يوفقنا لصالح القول والعمل .

أحمد الشرباصى
مبعوث الأزهر الى الكويت

ديوان مجد الإسلام

من بدائع الشاعر الإسلامي الكبير أحمد محرم رحمه الله

بتعليق الأستاذ ابراهيم عبد اللطيف نعيم

« كانت مجلة « الفتح » هى المجلة الإسلامية الوحيدة التى زفت البشرى إلى العالم الإسلامى ، بشروع الشاعر الإسلامى الأكبر أحمد محرم ، فى نظم ديوان مجد الإسلام أو الإلياذة الإسلامية ، وقد نشر بها الفقيد القصيدتين الأوليين منه ، ثم حملنا العبء من بعده ، فوصلنا ما انقطع من النشر بمجلة « الرسالة » حتى شاء لها الله أن تحتجب .

فاليوم نبدأ من حيث انتهينا فى « الرسالة » بنشر الديوان ، على صفحات « مجلة الأزهر » الغراء ، والأزهر ، كان وما يزال ، أحق الهيئات برعاية هذا الأثر الإسلامى الفريد » .

مصرع أبى جهل

ضربه معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعوذ بن عفراء ، من الأنصار ، وأجهز عليه ابن مسعود ، وكان سيف ابن مسعود كليلا . فقال له أبو جهل : خذ سيفى فاحتز رأسى به ، ففعل . وقال له وهو يعلو صدره يحتز رأسه : لقد ارتقيت يا رويعى الغنم مرتقى صعبا . لو غير أكار قتلنى (الأكار الزارع) ، وكان الأنصار أهل زرع . وقد أعطاه النبى صلى الله عليه وسلم سيفه :

بسيفكَ فيما اخترتَ من عاجلِ القتْلِ ... سُقيتَ ذُعافَ الموت ، فاشرب (أبا جهل)

هو السيفُ ، لولا الجبنُ لم يمضِ حده ... ولم يرضَ فى جِدِّ الكريهةِ بالهزل

شهدتَ الوغى ، تبغى على الضعْفِ راحةً ... لنفسك من حقد مذيب ومن غل

أ (فرعونُ)[1] إن تجهل فلن تجهلَ الوغى ... (فراعينَها) من ذى شبابٍ ومن كهل

أصابَك فيها ما أصابَك من أذًى ... وفاتَك ما نال (الرُّويعىُّ) من فضل

رماك (معاذٌ) قبلَه و (معوِّذ) ... وجاءك مشبوباً حميَّتُه تغلى

---

(١) كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول عن أبى جهل : إنه فرعون هذه الأمة .

سقى السيفَ عفواً من دم لك طيِّع — فمن (مرتقىً صعبٍ) إلى مستقىً سهلِ
دع الهزلَ يا (ابنَ الحنظليَّة) إنه — هو الجدُّ كلُّ الجد لو كنت ذا عقلِ
هي (اللاتُ والعزّى[1]) أضلَّتك هذه — وزادتك هذى من ضلالٍ ومن خَبْلِ
مضى جارُك المأفونُ[2] خزيانَ وانقضت — حبالُك فانظر هل ترى الآن من حَبْلِ[3]؟
لقد كنت ترجو أن ترى (الهُبَلَ) الذى — رضيتَ به رباً يفوزُ ويستعلى
أصبت (ابن مسعودٍ) سناءً ورفعةً — وباء عدوُّ اللهِ بالخزى والذلِّ
فخذ سيفَه ، ثم ارفع الصوتَ شاكرا — فما بعدَ ما أعطاك ربك من سُؤْلِ

* * *

سواد بن غزية

كان سواد بن غزية حليف بنى النجار من أفراد الجيش فى هذه الغزوة ، فرآه النبى صلى الله عليه وسلم خارجا عن الصف وهو يعدل الصفوف ، وكان بيده سهم فطعنه به فى بطنه وقال له : استو ياسواد . فقال : يا رسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأعطنى القصاص . فكشف الرسول الكريم عن بطنه وقال : « استقد » أى خذ قودك ، وهو القصاص ، فاعتنقه سواد ، وقبل بطنه الشريف :

إن ذكرْنا من بعدِك الأياما — (يومُ بدرٍ) وأنت أعلى مُقاما
ما ذكرنا بك القواضبَ يقْظى — أنت أيقظتها شعوبا نياما
غرقتْ فى الظلام لا تحسبُ البغْـ — ـىَ ذميما ، ولا الفسوقَ حراما

(١) كان المسلمون يقولون فى هذه الوقعة : « الله مولانا ولا مولى لكم » . وكان أبو جهل يقول : « لنا العزى ولا عزى لكم » .

(٢) تمثل إبليس فى صورة سراقة بن مالك للمشركين وقال لهم : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ، وكانت يده فى يد الحارث بن هشام أخى أبى جهل ، فلما رأى الملائكة انتزع يده من يده ، ثم نكص على عقبيه ، فقال له الحارث . يا سراقة ، أتزعم أنك جار لنا ؟ قال : إنى برىء منكم ، إنى أرى مالا ترون . إنى أخاف الله . فتشبث به الحارث وقال والله لا أرى إلا خفافيش يثرب . قال الحارث : ما علمت أنه الشيطان إلا بعد أن أسلمت .

(٣) لما قتل رؤساء المشركين . قال أبو جهل : يا قوم ، لا يهولنكم قتل من قتل ، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه بالجبال ، لا تقتلوهم ولكن خذوهم باليد .

تكرهَ العدلَ في الحقوق وترضى — حين يأبى سادانُها — أن يُقاما

استقمْ يا (سَوادُ) في الصف واعلمْ ... أنّ للجيش في الحروب نظاما

يالها يا (سواد) طعنة سهم ... صادفت منكَ أريحيّاً هُماما

لو يُريدُ الأذى بها لم تطقْها ... من يعاف الأذى ، ويأبى العُراما

عدْلُ الصفِّ فاستوى ، وقضى الأمـ ... ـر على شِرعة الهُدى فاستقاما

إنها شِرعةٌ لربّك يمضيـ ... ـها فتهدى الشعوبَ والأقواما

تمنع المرء ذا البراءة أن يؤ ... ذى وتحمي الضعيف عن أن يُضاما

وتُريه القويّ يذعن للحـ ... ـق ويبغي بجانبيه اعتصاما

قلت : أوجعتني ، وقد جئت بالحـ ... ـق وبالعدل رحمةً وسلاما

القصاصَ القصاص ، إني أراه ... يا (إمام الهداة) أمراً لزاماً

قال : هذا بطنٌ لبطنك كفؤٌ ... فاستقد إن للضعيف ذماماً

طابت النفس يا (سوادُ) وعاد الآ ... ن برداً ما كان منها ضِراما

واعتنقتَ (الرسولَ) بعد شكاة ... فاعتنقت الخلال غراً وِسَاما

وابتدرتَ (البطن المطهر) لثماً ... فابتدرتَ الخيرات شتى عظاما

هاهنا العدلُ والسماحة والإحـ ... ـسان أعظمْ بذا المقام مَقاماً

أدّب اللهُ (عبدَه) وهداه ... واصطفاه للمتقينَ إماما

أيّ دين كدينه في علاه ! ... أيّ قوم كالمسلمين القُدامى ؟

أرأيت الضعاف في كل أرض ... كيف أمسوا للأقوياء طعاما

حرّموا الطيبات بغياً وظلماً ... واستحلوا الذنوبَ والآثاما ؟

ربّ إن شئتَ للشعوب حياةً ... فابعث المسلمين والإسلاما

ابعث النورَ في الممالك ، يهدى ... كلَّ شعبٍ غوىّ ، ويمحو الظلاما



مع القارىء الفاضل فى إمام كان واحداً من ستة انتهى إليهم علم الإسلام فى أزهى عصوره، كما كان من قبل، سادس ستة ما على وجه الأرض مسلم غيرهم. إمام من أئمة الهدى والفضل كان أشبه الناس بمحمد ﷺ فى هديه وسمته ودله [1] كان محبوبا: يشهد إذا غاب الناس، ويؤذن له إذا حجب الناس، ملك فى زى مسكين، وقوى بلا عشيرة من الأقربين، وهاد خطير وهو عند المحجوبين من المستضعفين رفعه العلم والاستقامة، وتألق نجمه بالجد والاستدامة، أشرق نور الحق فى قلبه غلاما منذ رأى صاحب الرسالة يباركه الله باليسر والرعاية، فترك شأنه كله ولزمه حتى انطبعت فى نفسه معارف الوحى من الكتاب والحكمة وحتى صار لا يفرق بينهما إلا ما خص الله به نبيه فى شخصه من الرسالة، وفى نوعه من النسب العريق والجمال فى الخلق. فكان محمد رسولا ونبياً، وكان هو معلماً وولياً، وكان محمد فى نسب وحسب من قومه وآبائه، وكان نسبه وحسبه فيما أفاد من محمد من دينه وإبانه وكان محمد جميلا لا يدرك جماله، وكان جماله فيما أخذ عن محمد من رفقه ودله وسمته ومنطقه.

وجدير بك أيها القارىء الكريم أن تدرس سيرة هذا وأمثاله - وقليل ما هم - ليؤتيك الله سبحانه تقوى تكمل بها نقصك. ودينا تحفظ به عقلك، وخلقاً ترفع به شأنك. ورياضة نفسية تحجزك عن كثير من الشهوات والشذوذ. وتتجه بك إلى الجد المنشود، والحق الرفيع، والمجد الذى لا يدرك. ذلك أن النفس حيث تضعها أنت. وهى تصدأ كما يصدأ الحديد فتنزل إلى الدرك الأسفل وتستعصى على الرفعة (وهى خير لها) حتى تجلو صدأها بذكرى الرجال وتواريخ المجاهدين العاملين، فعند ذلك تلتمس سمواً عاماً خلقها الله له فتخرق الحجب، وتأبى إلا أن تقر فى السماء ذات البروج.

---

[1] الدل: مايكون على المرء من سكينة وسمت.

وبعد فذلك هو ، عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلى ، حليف بنى زهرة الذى كان يرعى الغنم لعقبة بن أبى معيط ، حتى رأى محمداً فشرح الله للإسلام صدره ، ولزم باب أمير الأنبياء ، وأسلم نفسه له يلقنه من القرآن والعلم والحكمة ما شاء ، وشهد مع السيد الرسول جميع المشاهد لحاز الفضل من أقطاره حتى صار مرجع العلماء ، وموضع تبجيل الأمراء والكبراء ، وتخيره عمر - وهو من تعلم فى تخيره ودقته - تخيره قاضياً على الكوفة ومعلماً ووزيراً ، اعلمه الفياض وحكمته ، وتخيره أميناً على بيت المال لما استفاض من أمانته ، حتى عزله عثمان أيام الفتنة ، وهو أطوع ما يكون ، وأبعد الناس من الفتنة ، وصار إلى المدينة موضع التعزيز والهداية لأمة محمد حتى كانت وفاته بها سنة ٣٢ عن بضع وستين سنة .

كان عبد الله نحيفا قصيراً تكاد الجلوس توازيه . تقتحمه العين ، ويزدريه أهل الشرك ، حتى ذكروا أن أبا جهل خاطبه وهو يجهز عليه فى بدر فقال : لقد رقيت مرقى عاليا يا رويعى الغنم ! ولكنه لما اتصل بصاحب الرسالة وترك الدنيا إيثاراً لصحبته ، وإخلاصا له ، وطلبا لما عنده من فضل وعلم ودين ، أعزه الله وأعلاه وفضله .

روى أبو نعيم وغيره بأسانيدهم إلى عبد الله بن مسعود قال :

« كنت غلاما يافعا أرعى غنما لعقبة بن أبى معيط بمكة ، فأتى علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر فقال : ياغلام ، عندك ابن تسقينا ؟ فقلت : إنى مؤتمن ولست بساقيكما فقال : هل عندك من جذعة لم ينز عليها الفحل بعد ؟ فأتيتهما بها . فاعتقلها أبو بكر وأخذ رسول الله ﷺ الضرع فدعا ، لحفل الضرع ، لحلب وشرب هو وأبو بكر . ثم قال للضرع : أقلص [1] فقلص . فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : علمنى من هذا القول الطيب فقال رسول الله : إنك غلام معلم . فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعنى فيها أحد » .

هذه بداية عبد الله بن مسعود فى الإسلام ، فما ظنك برجل تكون هذه بدايته . لهذا كان عبد الله يعتد بتلك الناحية فى مزاياه ، ويدعو الناس إلى الأخذ بقراءته ، ويعجب من أمر من يترك روايته ويأخذ بقراءة زيد فيقول « عجباً للناس وتركهم قراءتى وأخذهم بقراءة زيد

---

[1] من قلص الظل يقلص قلوصا . انقبض .

وقد أخذت من فى رسول‌الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة وزيد بن ثابت صاحب ذؤابة يجيء ويذهب بالمدينة » .

لزم عبد الله رسول الله يأخذ عنه القرآن والدين ، وخالطه مخالطة جعلت من لا يعلم أمره يرى أنه من أهله .

أخرج الشيخان والترمذى بأسانيدهم إلى أبى موسى الأشعرى قال :

« قدمت أنا وأخى من اليمن فمكثنا حينا وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثرة دخولهم على رسول الله ولزومهم له » .

وقد استفاضت الأخبار أن عبد الله وفق فى هاته الناحية أيما توفيق ، فكان خادما مخلصا أمينا ، وتلميذا حاذقا رشيدا . كان صاحب سر رسول الله ووساده ، وعصاه وسواكه ، وطهوره فى سفره . وبلغ من خدمته وإخلاصه أنه كان يلبسه النعل إذا قام ، ثم يمسك بعصاه فيسير بها أمامه ، فإذا عاد إلى مجلسه خلع نعله فوضعها فى كم قميصه ، فإذا قام إلى بيته سار أمامه حتى يدخل الحجرة قبله لا يمنع ولا يحجب كما أمره رسول الله وأمر له . ثم يوقظه إذا نام ويستره إذا اغتسل ويفتديه بنفسه فى أحرج الأوقات .

ذلك وهو يسمع ما يقول محمد وما يقال له ، ويتقبل تعليماته وشرائعه . وهل خدمه إلا ليفيد منه الدين واليقين ؟ لهذا يقول فى لغة المعتد الواثق فى مجمع الأصحاب « ما أنزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل أو المطايا لأتيته[1] » .

ويقول أبو وائل راوى هذا الخبر : إننى كلما سمعت ابن مسعود يقول ذلك والقوم شهود قمت إلى الحلق أسمع ما يقولون ، فما سمعت أحداً من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه .

ولقد كان فى ابن مسعود من سابقة الجهاد والجلاد التى هى صفحات مشرقة لكل من عرف بها وفى تعزيزه ذلك بالدين واليقين والخلق الكريم والنفع المستديم ما يخول له أن يعتد بنعمة الله ، ويذكرها فى مناسبات الفرض . وفى مواقف التوفيق . أليس هو الذى

---

[1] أسد الغابة وطبقات ابن سعد وحلية الأولياء فى ترجمة ابن مسعود .

زاحم عمر بن الخطاب - وربما سبقه - إلى إظهار الدعوة والجهر بها فى قوم يضطهدون دعوة الإسلام بجمعهم على الباطل ، ويضاعفون الأذى لكل من أظهر كلمة الله والحق ولا سيما إذا لم يكن من قومه فى عشيرة تؤويه ومنعة تحميه ؟ إن ذلك الإشراق جدير ألا تمحوه الأيام ، ولا تنساه الأجيال .

ذكر صاحب أسد الغابة فيما ينقله عن أصوله بالسند الى عروة بن الزبير عن أبيه ، قال : كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود . اجتمع يوما أصحاب رسول الله فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهم ؟ فقال عبد الله بن مسعود : أنا . فقالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه . فقال : دعونى فإن الله سيمنعنى . فغدا عبد الله حتى أتى المقام فى الضحى وقريش فى أنديتها ، حتى قام عند المقام فقال رافعاً صوته : « بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن علم القرآن » . فاستقبلها فقرأ بها . فتأملوا فجعلوا يقولون : ما يقول ابن أم عبد ؟ ثم قالوا : إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا فجعلوا يضربونه فى وجهه وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ . ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه ، فقالوا : هذا الذى خشينا عليك . فقال : ما كان أعداء الله قط أهون على منهم الآن ، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غدا . قالوا : حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون . بخ لك يابن أم عبد ، لقد فزت بها نفساً سخية كريمة تستعذب فى سبيل الله العذاب ، وتستهين فى مرضاته بجميع الصعاب .

جدير بعبد الله إذا أن يكون موضع العلوم والمعارف فى هذه النفس الخصبة العظيمة ، وأن يقدره الناس جميعاً قدره ، حتى عمر بن الخطاب الذى قل أن سلم من سوطه أو نقده ، والخلاف عليه كثير من الناس .

لقد كان حافظاً للقرآن على وجهه ، يستمع إليه الرسول ويعجب بقراءته ، وكان مفسراً للقرآن عارفا بمعانيه ، يدرسه بالمدينة وبالكوفة بعد أن أوفده عمر إليها ، فيخرج بها كبار التابعين من سلف هذه الأمة ، وكان راوياً للسنة ينقل عنه البخارى ومسلم وغيرهما الكثير منها ، وتحصى الرواة له ثمانمائة وثمانين حديثاً مع تحرجه من الرواية خشية التبديل فى كلام السيد الرسول ، ترتعد فرائصه إذا روى أو نقل عنه ، ولهذا كان يفتى ، ويقول بنفسه على مقتضى علمه ، وقد أخذ عنه كثير من أجلاء الصحابة كحبر الأمة عبد الله ابن عباس وابن

عمر وعمران بن حصين وعبد الله بن الزبير وغيرهم ، وروى عنه كثير من أجلاء التابعين كعلقمة وأبي وائل والأسود ومسروق [1] .

وكانت له يد طولى فى الفقه والاستنباط والقياس ، كما كان عمر بن الخطاب وبعض الصحابة الذين يستثمرون الكتاب والسنة ويحكمون فى غير ما ورد على قياس ما ورد ، خلافاً لبعض المتحرجين من الصحابة كعبد الله بن عمر وغيره ، وجدير بمن كانت له ثمرة يانعة من المنقول وثروة ضخمة من المأثور وعقل راجح وقلب مشرق ونفس أمينة كعبد الله أن تكون له ملكة تقوم رأيه وتنضج فقهه .

قال أبو البخترى : أتينا علياً فسألناه عن أصحاب محمد ﷺ ، فقال : عن أيهم ؟ قلنا : حدثنا عن ابن مسعود . قال : علم القرآن والسنة وكفى به علماً ، قلنا : حدثنا عن أبي موسى ، قال : صبغ فى العلم صبغة ثم خرج منه . قلنا : حدثنا عن عمار بن ياسر . قال مؤمن نسى ، وإذا ذكر ذكر . قلنا : حدثنا عن حذيفة . قال : أعلم أصحاب محمد بالمنافقين . قلنا : حدثنا عن أبي ذر . قال : وعى علماً ثم عجز فيه . ثم قلنا : حدثنا عن سلمان . قال : أدرك علم الأول والآخر ، بحر لا ينزح قعره . قلنا : فأخبرنا عن نفسك . قال : إياها أردتم ، كنت إذا سألت أعطيت ، وإذا أمسكت ابتدئت .

ولو كان المقام يتسع للتعليق . . ولكن المقصود شهادته لعبد الله بن مسعود بأنه أوتى علم الكتاب والسنة وكفى به . قال ذلك وهو يعلم ما كان عليه ابن مسعود من الفقه والاستنباط والقياس فدل على أن ذلك لا يخرج عن علم الكتاب والسنة . ولله أمير المؤمنين وإدراكه .

ولعلك إذا علمت أن علم الكتاب والسنة لم يكن رواية فقط وإنما كان رواية وإدراكا يقسم الله فيه الحظوظ بين العباد لفهمت هذا المعنى فى مثل عبد الله بن مسعود حق الفهم .

قال عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين يقرءون القرآن كعثمان بن عفان وعبد الله ابن مسعود أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات من النبى لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل .

---

(١) أسد الغابة .

وانظر شهادة الخريت العليم المحدث عمر بن الخطاب له وإعجابه به إذ أرسله إلى أهل الكوفة وقال لهم : إنه من النجباء والنقباء من أصحاب محمد ، فاسمعوا له ، وقد آثرتكم به على نفسي .

وقال زيد بن وهب : إنى لجالس مع عمر إذ جاءه ابن مسعود فضحك حين رآه فجعل يكلم عمر ويضاحكه ، ثم ولى فأتبعه عمر بصره حتى توارى وجعل يقول « كُنَيْف ملىء علماً » .[1]

وقد كان لك ، ولما عرف الناس له مما استفاض من معارفه ، كان لذلك أثره فى تلقى الناس عنه والتزامهم كنفه .

وفيما انتشر من علم الدين بالكوفة ، فإنه لم ينزل بها من الأئمة إلا على وابن مسعود ، أما على فقد شغله ما نعلم من سياسات وحروب وخلافات ، وأما ابن مسعود فهو الذى قدم إليها لهذه الغاية ، قدم إليها قاضيا ومعلما وأمينا على بيت المال فقط ، فخرج أئمة العلم بها من أهل الفقه والاستنباط ممن يقول فيهم سعيد بن جبير : كان أصحاب عبد الله سرج هذه الأمة .

ومن عجيب الحكمة أنه كان سادس ستة فى الإسلام أولا ، وكان واحدا من ستة فى العلم ثانيا ، وكان أستاذ أئمة ستة فى الكوفة آخرا . وهم علقمة ، والأسود ، ومسروق ، وعبيدة ، والحارث بن قيس ، وعمرو بن شرحبيل . أولئك الذين خلفوه بحركة كبيرة فى العلم صارت تتوارث حتى توجت بأبى حنيفة تلميذ حماد تلميذ النخعى تلميذ علقمة تلميذ عبد الله بن مسعود .

ذلك بعض فضل عبد الله فى العلم والمعرفة ، أما مزاياه النفسية والخلقية ، وعباراته الحكمية والأدبية ، وإرشاداته الرياضية فلها مقام آخر إن شاء الله .

محمود النواوى

---

[1] تصغير كنف وهو الوعاء .

حقوق الإنسان في شريعة الإسلام

- ٢ -

العدالة الاجتماعية

١ — تقرير ضرورات المعيشة : من تكريم الله لبنى آدم أن تصان هيئتهم باللباس والنظافة والزينة ، وأن يحملوا فى حلهم فى المساكن ، وأن يحملوا فى ترحالهم بوسائل المواصلات ، وأن ينالوا من طيبات المطعم والمشرب ، وهذا مفهوم من قول الله تعالى فى سورة الإسراء « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

ولقد أمر الإسلام بعدم قتل النفس والإلقاء باليد إلى التهلكة . والطعام فيه حفظ النفس . كما أمر بستر العورة وأخذ الزينة . وهذان الأمران لا يكونان إلا باللباس . ولقد حدد الله للباس أن يوارى السوءة وأن يقى من الحر - وأيضاً من البرد - يقول تعالى « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم » (سورة الأعراف) . وقال تعالى فى سورة النحل « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر » . وقال تعالى فى سورة الأعراف « خذوا زينتكم عند كل مسجد » . كذلك تحدث القرآن عن السكن . قال تعالى فى سورة النحل « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم » وقال تعالى عن وسائل المواصلات ما ورد فى سورة الإسراء « وحملناهم فى البر والبحر » . وفصلت آيات أخرى الحديث عن أنواع من مواصلات البر وعن الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام .

كل هذه النعم التى كرم الله بها بنى آدم لا بد أن توفر لهم ليحيوا حياة طيبة وليرى الله نعمته عليهم . ولقد كان الرسول ﷺ يحب أن يرى الإنسان فى أحسن تقويم خلقه الله فيه . روى أبو داود والترمذى والنسائى والحاكم أن أبا الأحوص الجشمى روى عن أبيه قال : رآنى النبى ﷺ سيء الهيئة فقال : هل لك من شيء ؟ ؟ قلت : نعم - من كل المال قد آتانى الله . قال : إذا كان لك مال فلير عليك[1] . وروى النسائى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) النسائى جـ ٨ ص ١٩٦

رأى قوما يظهر عليهم جهد الفاقة، فتغير وجهه الشريف وطلب إلى الناس أن ينفقوا ليعطى هؤلاء. ثم وقف فقال «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها... إلى آخر الحديث»(١)

٢ — وسائل الحصول على هذه الضرورات: وللحصول على هذه الضرورات وسائل متعددة تندرج فى أصلين كبيرين: العمل، والتأمين الاجتماعى:

(ا) العمل: العمل فى الإسلام حق للفرد وواجب عليه فى الوقت نفسه، إذ لا يباح للفرد أن يعيش على التسول أو السلب والنهب. ودولة الإسلام واجبها الأول أن تهيء العمل للقادرين عليه وأن تحمى حقوقهم وأن تراقب أداءهم لواجباتهم. وليس واجبها فقط كما يزعم البعض أن توزع الإعانات والصدقات لأنها تربى الناس على الإباء والكرامة لا على البطالة والهوان. يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم أعد لرجل درهمين وقال له «كل بأحدهما واشتر بالآخر فأساً واعمل به» وروى البخارى وغيره أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يطلب اليه أن يدبر حاله لأنه خال من وسائل الكسب ولا شيء عنده يستعين به على القوت. وهنا ذكر الرواة كلاما آخر قالوا بعده: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بقدوم ودعا بيد من خشب سواها بنفسه ووضعها فيها ثم دفعها للرجل وأمره أن يذهب إلى مكان عينه وكلفه أن يعمل هناك لكسب قوته وطلب اليه أن يعود بعد أيام ليخبره بحاله، فعاد الرجل يشكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم صنيعه ويذكر له ما صار اليه من يسر الحال. فالعاطلون كانوا يرون أن لهم حقوقا على الدولة، فيذهبون إلى ولى الأمر أعزاء باسم هذه الحقوق ليدبر لهم أمرهم بما يراه، والدولة تقر العاطلين على هذه الحقوق وتدبر لهم العمل فوراً بل وتتلمس نتائج عملها. ولقد أوجب الغزالى فى «الإحياء» أخذاً من هذا الحديث على ولى الأمر أن يزود العامل بآلة العمل. ومن بركات العقيدة هنا أن الناس العمل يسميه الإسلام ابتغاء من فضل الله مما يزيد الإنسان حرصاً عليه. يقول تعالى «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله»، «هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه»، «علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله».

والدولة إذ تدبر للعامل عمله فإنها تحمى حقوقه فى الأجر، فينبغى أن يكون الأجر كافياً. وقد جعل الحديث ثالث الثلاثة الذين يخاصمهم الرسول ﷺ يوم القيامة: رجلا

---

(١) النسائى ح ٥ ص ٧٥ - ٧٧

استأجر أجيراً فاستوفى منه فلم يعطه أجره . وهـذا الأجر لا يقبل المماطلة ففى الحديث « اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه »[1] ، كذلك ينبغى أن يراعى تحديد ساعات العمل بما يلائم الطاقة الإنسانية . وفى الحديث أوامر عامة بالرفق والرحمة تنسحب بلا شك على هذه الناحية . وقد صحح السيوطى ما رواه أبو يعلى وابن حبان والبيهقى فى شعب الإيمان « ما خففت عن خادمك من عمله فهو أجر لك فى موازينك يوم القيامة » .

(ب) التأمين الاجتماعى : فإذا تعطل إنسان عن العمل ، أو كان أجره لا يكفيه لزيادة فى أفراد أسرته أو عجز عن العمل لمرض أو شيخوخة فهو فى كفالة الجماعة فى صور شتى : فى كفالة الأسرة التى ينتمى إليها إذ يأمر الشرع بالنفقة وصلة الأرحام ، وفى كفالة المجتمع الذى يعيش فيه فقد قال ابن حزم أخذا من الحديث « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » : من تركه يجوع ويعرى – وهو قادر على إطعامه وكسوته – فقد أسلمه ، وهو أولا وأخيراً فى كفالة الدولة التى تلتزم بنفقاته من بيت المال أولا ، وتنظم بسلطة الحكم واجبات أسرته والمجتمع الذى يعيش فيه إزاءه ثانيا ، ولذلك قال عمر بن الخطاب « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين» .[2] جاء فى كتاب الخراج لأبى يوسف أن عمر بن الخطاب رأى شيخا يهوديا يتكفف الناس فسأله عن سبب ذلك فأجاب : أسأل الجزية والحاجة والسن . قال : ما أنصفناك أكلنا شبيبتك وتركناك عند الشيخوخة . وطرح جزيته وأمر أن يعال من بيت مال المسلمين هو وعياله .[3]

هذا التأمين الاجتماعى فى حالة التخلف عن العمل أو عدم كفاية الأجر واجب لابد منه ، يقول ابن حزم « فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكاة بهم ، ولا فى سائر أموال المسلمين ما يقوم بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة[4] » .

بل إن الإسلام يرخص للفرد ما هو أكثر من ذلك فى سبيل هذه الحقوق الاجتماعية إذ يعتبره فى حالة دفاع شرعى عن نفسه ما دام يجد فضل مال عند واحد من الناس . قال

---

[1] رواه ابن ماجه وأبو يعلى والطبرانى والحاكم . قال المنذرى (يكتسب بكثرة طرقه قوة)
[2] المحلى حـ ٦ ص ١٥٧ [3] الطبرى حـ ٥ طبعة الحسينية ص ٣٣
(٤) المحلى حـ ٦ ص ١٥٦

ابن حزم « ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل ميتة أو لحم خنزير وهو يجد طعاما فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذمى ، لأن فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع ، فإذا كان ذلك كذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى لحم الخنزير . . . - إلى أن قال - : ومانع الحق باغ على أخيه الذى له حق ، وبهذا قاتل أبو بكر الصديق رضى الله عنه مانع الزكاة [١] » . وقد تناول التشريع الجنائى الحديث موضوع عقاب مرتكب جريمة القتل بطريق سلبى . وفى رأى الإمام الدردير المالكى فى كتاب (الشرح الكبير على متن الخليل) « يضمن من يترك تخليص مستهلك من نفس أو مال قدر على تخليصه بقدرته أو جاهه أو ماله فيضمن فى النفس الدية وفى المال القيمة ، ومن ترك إنساناً يموت جوعا أو عرياً وهو يقدر على تخليصه فإنما يكون قد قتله بطريق الترك أيضاً .

ولقد كانت الدول الإسلامية تحمل رسالة ضمان الحقوق الاجتماعية حين تنشر رايتها على أى قطر . وهذا خالد بن الوليد يتحدث عن سياسته فيما غاب عليه فيقول « . وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام » [٢] ، بل إن للإسلام ضرباً فريداً فى التأمين الاجتماعى وهو تأمين الناس على ديونهم ، فمن مصارف الزكاة أن توجه الى « الغارمين » لتسد ديونهم وتفرج كروبهم . وهكذا تصرف الدولة اهتمامها إلى حفظ كيان هؤلاء . بدلا من أن تصرف هذا الاهتمام إلى ترتيب الإجراءات الخاصة بشهر إفلاسهم كما يجرى الآن . ومن آثار عمر بن الخطاب أنه أقام دور الضيافات وأدر عليها الأرزاق . عن ابن سعد قال . اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه يعين به المنقطع ، ووضع فيما بين مكة والمدينة فى الطريق ما يصلح من ينقطع به ، كما فعل ذلك بالطريق بين الشام والحجاز [٣] .

٣ — التعليم : طلب العلم فى الإسلام فريضة [١] ، فهو حق للفرد وواجب عليه . والدولة تلتزم تهيئة السبيل إليه ، ذلك أن الإسلام لا يكتفى بضمان الضرورات المعيشية المادية ، بل يضمن أيضاً وسائل التثقيف والتهذيب . ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يرسل إلى الجهات المختلفة من يبصر الناس بالإسلام فأرسل مصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم إلى المدينة بعد بيعة العقبة الثانية . وفى خبر بئر معونة أرسل عليه الصلاة والسلام سبعين شابا

(١) المحلى ٦ ص ١٥٩ (٢) عبقرية خالد ص ١٨٣ [٣] أشهر مشاهير الاسلام مجلد ١ ص ٢٧٨

يسمون القراء إجابة لدعوة عامر بن مالك. وقد تكلف رسل الهداية هؤلاء حياتهم فى الطريق نتيجة عدوان وقع عليهم. وإن القرآن الكريم وخطب الجمعة والعيدين من وسائل التثقيف والتهذيب التى تضمنها الإسلام فى عباداته. وقد أتت النساء إلى رسول الله ﷺ شاكيات من غلبة الرجال على مجالسه ويطلبن منه وقتا يخصص لهن ليتعلمن فيه، فأجابهن الرسول ﷺ إلى ذلك [٢]. وفى غزوة بدر خرج الإمام أحمد من حديث عكرمة عن ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة ... وقال عامر الشعبي: كان فداء الأسرى من أهل بدر أربعين أوقية أربعين أوقية، فمن لم يكن عنده علم عشرة من المسلمين فكان زيد بن ثابت ممن علم [٣].

فالإسلام إذ شرع إقامة الحدود فقد شرع معها توفير الحقوق وترقية المستوى المادي والأدبي. يقول تعالى: «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً». فلابد من أن يبين للناس الهدى ويبصروا بسبيل المؤمنين حتى يتحملوا تبعة أعمالهم ويتولوا مسئولية مشاقتهم لأوامر الله ورسوله.

٤ — العلاج: ومن تمام واجبات الدولة أن تتكفل بعلاج المريض، والأمر بعيادة المريض منبث فى كثير من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد التزم عليه الصلاة والسلام أن يهيء للمرضى مكاناً يتداوون فيه وينقهون. ففى سيرته المطهرة أن نفراً من عرينة - ثمانية - قدموا عليه فأسلموا، واستوبأوا المدينة وشكوا ألم الطحال فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى لقاحه، وكان سرح المسلمين بذى الجدر ناحية قباء قريباً من عير ترعى هناك - فكانوا فيها حتى صحوا وسمنوا، وكانوا استأذنوه أن يشربوا من ألبانها وأبوالها فأذن لهم. وإن كان هؤلاء قد قابلوا المعروف بالإساءة بعد برئهم فعدوا على اللقاح فاستاقوها [٤].

وكان عمر بن الخطاب يحاسب ولاته على عيادة المرضى، فكان الوفد إذا قدموا على عمر سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً. فيقول: هل يعود مرضاكم؟ فيقولون: نعم، فيقول: هل يعود العبد؟ فيقولون: نعم، فيقول: كيف صنيعه بالضعيف هل يجلس على بابه؟

---

(١) الحديث الذى رواه ابن عبد البر عن أنس وصححه السيوطى
(٢) البخارى ج ١ طبعة منير ص ٦٠ - ٦١ (٣) إمتاع الأسماع للمقريزى ص ١٠١
(٤) إمتاع الأسماع ص ٢٧٢

فإن قالوا لخصلة منها لا، عزله[١] . ولقد مر يوم بمجيئه الشام على قوم من المجذومين ففرض لهم شيئا من بيت المال ومنعهم بذلك عن التكفف بين الناس[٢] . واشتهر الوليد بن عبد الملك من خلفاء بنى أمية بعمله على تخفيف آلام المرضى وتخصيص أعطيات للمجذومين لمنعهم من سؤال الناس، كما أعطى كل مقعد خادما يهتم بأمره، وكل ضرير قائدا يسهر على راحته[٣] . وفى عهد أحمد بن طولون من حكام مصر فى العصر العباسى الثانى بنى ابن طولون فى مؤخر مسجده ميضأة وخزانة شراب بها الأدوية والأشربة، وقرر لهذا المكان الخدم، وعين طبيباً خاصاً يقوم بتطبيب المرضى من المصلين، كما بنى مستشفى بأرض العسكر « المارستان » وأدخل فيه ضروبا من النظام تشبه ما فى أرقى المستشفيات الآن، وكان يتفقده بنفسه فى يوم الجمعة فيطوف على خزانة الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ويواسى المرضى[٤] .

٥ — مسئولية الدولة : هناك اتجاه فى تقرير حقوق الإنسان فى الوثائق الدولية والقواعد الدستورية إلى ألا يكتفى بتقرير الحقوق تقريراً سلبياً، بل أن ينص على التزام الدولة بصفة إيجابية ضمان هذه الحقوق وتهيئة الوسائل لمزاولتها . فحق العمل وحق التعليم للأفراد يقترنان بواجبات على الدولة فى تهيئة موارد الكسب ومعاهد العلم .

والدولة الإسلامية من ذلك الطراز الذى يضطلع بواجبات إيجابية فى ضمان حقوق الأفراد . ولقد قدمنا كيف كان ولاة الأمور وعلى رأسهم النبى ﷺ فى عصره يتكفلون بتهيئة فرص العمل والعلم والعون الاجتماعى والعلاج للأفراد .

وقد علق المودودى على الآيات الكريمة « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »، « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » فقال فى تعليقه عليها : - « فمن تدبر هذه الآيات اتضح له أن الدولة التى يريدها القرآن ليس لها غاية سلبية فقط، بل لها غاية إيجابية أيضاً . أى ليس من مقاصدها المنع من عدوان الناس بعضهم على بعض وحفظ حرية الناس والدفاع عن الدولة فحسب، بل الحق أن هدفها الأسمى هو نظام العدالة الاجتماعية الصالح الذى جاء به كتاب الله . وغايتها فى ذلك النهى عن جميع أنواع المنكرات التى ندد الله بها فى آياته، واجتثاث شجرة الشر من جذورها، وترويج الخير المرضى عند الله

(١) الطبرى طبعة الحسينية جـ ٥ ص ٣٣ (٢) أشهر مشاهير الاسلام مجلد ١ ص ٧٨

(٣) تاريخ الاسلام السياسى الطبعة الأولى جـ ١ ص ٤٧٨ (٤) تاريخ الاسلام جـ ٣ ص ٥٧٢ - ٥٧٣

المبين فى كتابه . وفى تحقيق هذا الغرض تستعمل القوة السياسية تارة ، ويستفاد من منابر الدعوة والتبليغ العام تارة أخرى ، ويستخدم لذلك وسائل التربية والتعليم طوراً ويستعمل لذلك الرأى العام والنفوذ الاجتماعى طوراً آخر كما تقتضيه الظروف والأحوال . يقول تعالى « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » فالمراد من الحديد فى الآية هو القوة السياسية . والآية قد بينت ما يبعث الرسل لأجله وهو أن الله قد أراد ببعثهم أن يقيم فى العالم نظام العدالة الاجتماعية على أساس ما أنزله عليهم من البينات وما أنعم عليهم فى كتابه من الميزان أى نظام الحياة الإنسانية العادل[1] .

صحح السيوطى ما رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة عن النبى ﷺ « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به فى الدنيا والآخرة . إقرءوا إن شئتم قول الله « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم » ، فأيما مؤمن مات وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، ومن ترك ديناً أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه »[2] . وفى هذا تقرير صريح لمسئولية الدولة فى توفير الحقوق . ومسئولية الدولة هى مسئولية عامة تجاه الرعايا جميعاً على اختلاف أديانهم وأجناسهم . وهذا يؤخذ من القاعدة العامة : لهم ما لنا وعليهم ما علينا . وقد تقدم كيف كان عمر يفرض حتى لليهود ، وكيف كانت سياسة خالد فى البلاد المفتوحة .

هذه الحقوق كلها فى ضرورات المعيشة من مأكل وملبس ومسكن ، وفى التعليم والعلاج ، هى التى يكفلها الإسلام فى شريعته وتلتزم بضمانها دولته . والدعوة إلى تحكيم القرآن إنما تعنى كفالة هذه الحقوق وإقامة الدولة التى تلتزمها شرعاً ، وتتعبد بنشر رحمة الله للعالمين .

والذى ينظر إلى نظام الإسلام هذه النظرة يجد أن تطبيق هذا النظام مدعاة للانتفاع بهذا التشريع الاجتماعى الجليل بجانب التوجيه الأخلاقى النبيل . ولن تكون العقوبات ـ ممثلة فى الحدود الشرعية ـ إلا بعد استكمال سبل الوقاية المادية والنفسية من كل دواعى الإجرام .

وفقنا الله إلى الانتفاع من بركات شريعته ، ونحن فى عهد تقنين دستورى جديد « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس ... فآواكم وأيدكم بنصره ... ورزقكم من الطيبات ... » اللهم اجعلنا من هؤلاء ... آمين .

محمد فتحى محمد عثمان
مدرس الآداب بالمعاهد الدينية

[١] نظرية الاسلام السياسية . (٢) البخارى طبعة منير جـ ٣ ص ٢٣٨

هل يعيد التاريخ نفسه

قام جدل على طويل بين علماء التاريخ والسياسة والاجتماع حول العبارة القائلة « التاريخ يعيد نفسه » ، بل لقد ألفت فى ذلك الجدل كتب قيمة ، واختلفوا بين رأيين : جماعة قالوا : إن التاريخ يعيد نفسه حقيقة بكل الظروف والملابسات والمقومات ، أما الشخصيات التى تدور عليها حوادث التاريخ ، فاختلافها لا وزن له فى تقرير هذه الحقيقة ، وآخرون قالوا : إن التاريخ لا يمكن أن يعيد نفسه تماما ، وكل ما هنالك أن ظرفا قد يشبه ظرفا ، وأن أحداثا قد تماثل ، فتتشابه النتائج التاريخية التى يسفر عنها تشابه الظروف والملابسات ؛ ولابد من وجود فوارق حتما بين السابق واللاحق .

ومهما يكن من أمر فإن التاريخ يعيد نفسه إلى حد بعيد ، وليس المقصود من ذلك التطابق التام بين الظروف والأحوال والنتائج والأشخاص ، فى السابق واللاحق ، وإنما المقصود أن الإنسان هو الإنسان ، وأن المجتمع الإنسانى لا يفقد خصائصه الذاتية بالتطور العام ، وأن الإدراك البشرى قد يتماثل ، وأن التعقل والتفكير ، كثيراً ما يتبع نمطا واحداً ، ومقدمات واحدة ، فيصل إلى نتائج واحدة ، وأن بعض البلاد قد يمر بظروف متشابهة مع ما مر به بلد آخر . وهنا نضرب مثلا بجميع البلاد التى خضعت للاستعمار ثم تحررت ، أو هى فى طريق التحرر . فما لا شك فيه أن التماثل والتوافق بين الظروف والملابسات والنتائج فيها ظاهر جلى ، وأن التاريخ فيها يعيد نفسه . ونحن لا ننسى أمراً إنسانيا فطريا غريزيا ، هو المحاكاة التى يقيم علم النفس التربوى عليها أسساً تربوية هامة ؛ ويصدق هذا المثل كثيراً جداً فيما يتعلق بالأشخاص وتاريخهم ، لأن الأبطال يحاكى بعضهم بعضا ، ويقتدى الحاكم العادل بعادل سابق ، والطاغية بآخر سابق عليه ، حسب استعداد كل شخص . وهنا يصل التوافق إلى حد يتعذر معه التمايز والتفرقة بين الحادثين فى النظر السريع ، وهذا كالقول بأن « الضغط يولد الانفجار » ، وهى حقيقة علمية مقررة فى علمى الطبيعة والكيمياء ، وتقوم عليها نظريات هندسية وحربية لها أهمية كبيرة ؛ ويقصد منها فى التاريخ والسياسة أن الحكم الظالم الذى يقوم على كبت الشعور ، والضغط على الحريات ، يدفع دائما إلى الثورة ، والظلم هو الظلم مهما اختلفت وسائله وأساليبه ، ونتائجه دائما واحدة .

فعندما يثور شعب مظلوم على حاكم ظالم - كيفما كانت طريقة الثورة - ويحصل الشعب على حريته اقتداء بشعب آخر يصح أن يقال « إن التاريخ يعيد نفسه » .

ونحن اليوم فى هذا العهد الجديد نرجو أن يعيد التاريخ نفسه إلى أبعد الحدود ، وإنا لنلمح أمارات اتجاه قوى إلى سبل الحكم الرشيد ؛ ونلمح اتجاه قائد الثورة إلى الاقتداء بأعدل حاكم عرفه تاريخ المسلمين حتى اليوم - أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - الذى ظلم فى مصر كثيراً فى العهد البائد ، ولم يرع الحكام ولا العلماء والكتاب مكانته وكرامته وقدسيته ، فنزلوا به إلى درجة أحط حاكم عرفه تاريخ المسلمين . إلى أن شاءت قدرة الله سبحانه ، أن ترفع الظلم عن مصر ، وعن أمير المؤمنين عمر فى وقت واحد ، وإلى القارىء ملاحظات عابرة نسجلها إحياء للذكرى العاطرة ، ذكرى أمير المؤمنين عمر ، أعظم قدوة حسنة للحاكم الذى يفنى فى خدمة المحكومين :

الأولى : كان عمر يرتفع بنفسه وبعماله فوق الشبهات ، وكان يجعل من نفسه وأهله نموذجا عملياً حياً للعمال والرعية على سواء ، فكان إذا أراد أن يصدر أمراً ، جمع أهله وقال لهم : « إن الناس ينظرون إليكم نظرة الطير إلى اللحم ، إنى سآمر الناس بكذا ، وأقسم لو أخذ أحدكم بمخالفته لأضاعفن له العقوبة » وكان أهم ما يحرص عمر على تحذير عماله منه ، ويشهد الناس عليهم فيه هو الهدايا ، قائلا : « إياكم والهدايا فإن الهدايا هى الرشا » لأنه كان يعتقد أن الهدية التى تقدم للعامل إنما تقدم على حساب مصلحة المسلمين ، وعلى حساب الإسلام والحق والعدل ، ولقد فهم عمر رضى الله عنه ، أن الهدية تساوى الرشوة أو الاختلاس ، من قول الرسول عليه السلام : « ما بال الرجل نرسله فى أمر المسلمين فيرجع إلينا ويقول : هذا لكم . وهذا أهدى إلى . فهلا جلس فى بيت أبيه وأمه لينظر أيهدى إليه ؟ » ولقد أهدت ملكة الروم إلى زوجته أم كلثوم بنت على هدية فصادرها عمر ورد إلى بيت المال !! ولم يستمع فى ذلك إلى تعليلات فقهية من بعض إخوانه . لأنه قدوة ، ويجب أن يكون فوق للشبهات ، بعيداً عن الظن والتقول !! ومن محاسن اقتداء الخلف بالسلف فى عصرنا أن الرئيس القائد يرد إلى متحف من متاحف الدولة كل هدية تقدم إليه ، فكأنه يحولها إلى بيت المال ، وكأنه يرفضها ، وهو محق فى ذلك ، وغير هذا لا يليق به ، فهل كان هؤلاء المهدون إليه ، يهدون إليه قبل ٢٣ يوليه سنة ١٩٥٢ ؟ والذى نرجو أن يكمل الرئيس اقتداءه فيه بعمر ، هو تحريم الهدايا على جميع الوزراء والموظفين العامين ، وهذا أحوط وسائل تحقيق العدالة .

الثانية : حدث بعد فتح مصر واستقرار الإسلام بها ، أن تسابق محمد بن عمرو ابن العاص - ابن أمير مصر - مع شبان من المسلمين والمصريين المسيحيين ، فسبق شاب مصرى مسيحى محمد بن عمرو ، فغضب ابن الأمير وضرب المصرى سوطاً على ظهره قائلا : خذها وأنا ابن الأكرمين » . ومر الحادث يومها بسلام كما خيل للمتسابقين ، ولكن الفتى المصرى الذى يعرف عدل عمر وسماحة نظام الإسلام لم يهدأ له بال حتى وقف أمام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقص عليه القصص ، وكان موسم الحج قد قرب . فاستبق الخليفة المصرى حتى حل الموسم ، واستقدم الخليفة أمير مصر عمرو بن العاص وابنه محمداً ، وفى مجمع من المسلمين فى موسم الحج ضم أمير مصر وابنه ، نادى عمر : أين المصرى ؟ فهب الفتى المصرى هاتفاً : لبيك أمير المؤمنين ، فناوله عمر السوط قائلا : اضرب ابن الأكرمين ، ضعف ما ضربك ! فتناول المصرى السوط وضرب به محمد بن عمرو أمام أبيه مثل ما ضربه ، ثم ناول السوط للخليفة ، فقال له عمر : أعل به صلعة عمرو فإن ابنه ما ضربك إلا بسلطانه !! فأبى المصرى قائلا : إنه أخذ حقه وزيادة . فقال الخليفة لأمير مصر فى غضب : « يا عمرو . متى تعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » . وهكذا اقتص عمر الحاكم العادل ، للضعيف من القوى ، فرد عليه بذلك عزته وكرامته ، وجعل أمره حديث الدنيا بأسرها حتى تقوم الساعة . ومن محاسن اقتداء الخلف بالسلف فى زماننا ما روته الصحف عن فلاح مصرى مسكين جاء إلى دار الرياسة ، يشتكى إلى الرئيس القائد ضراً أنزله به عمدة بلده وهو عمدة جبار من الطغاة العتاة ، الذين رضعوا لبان الظلم فى عهد الفساد ، ونحن جميعاً نعرف مدى استبداد هؤلاء العمد بالفلاحين ، فاستقدم الرئيس العادل هذا العمدة الجبار ، وأذله أمام أخينا الفلاح ، وأرغمه على رد حقوق الفلاح إليه ، وجعله عبرة للمستبدين ، وهكذا انتصف الرئيس العادل للفلاح الضعيف من العمدة المستبد ؛ وهو مالم يحدث فى مصر من زمن طويل .

الثالثة : فى سنة ١٥ هـ حدثت مجاعة شديدة ببلاد العرب ، وسموا عامها عام الرماد أو الرمادة ، لالتصاق الأيدى بالرماد . فأقسم الخليفة عمر : ألا يذوق سمناً ولا عسلا ، ولا لحما ولا شحما حتى يحيا الناس . وبر الخليفة بقسمه ، فشحب لونه ، ونحل جسمه ، واعرورق وجهه ، حتى خاف الصحابة أن يلحقه من جراء ذلك مكروه ! فاتفقوا على حمله على التحلل من قسمه ، وإفهامه أن حياته ليست ملكا له ، وإنما هى خير وبركة للمسلمين ، وعليه أن يحافظ عليها من أجلهم ، فقالوا له ذلك . فرد عليهم غاضبا بقوله : وأنتم الذين

تقولون الذى قلتم ، لا أشبع الله بطن عمر ، بئس الحاكم أنا إذا شبعت وجاع الناس !! لم إذن كنت إماما ؟ وكيف أصلح للناس قدوة ، إذا لم يصبنى ما أصابهم ، وكيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسسنى ما مسهم ، أيها الناس : إن لنا عليكم حقا ، النصح بالغيب ، والمعاونة على الخير !؟

وبالأمس القريب ذهب الرئيس نجيب لمواساة أهل قرية صهرجت الصغرى التى دمرها الحريق ، وبعد أن طاف بالقرية ، وواسى أهلها ، ووزع عليهم معونة الله لهم ، صمم على رؤية المصابين حيث هم ، ليطمئن قلبه على راحتهم ، فقال له مأمور مركز أجا : ياسيدى الرئيس ، انهم فى مستشفى أجا ومستشفى ميت غمر ، وشرح له متاعب الطريق الزراعى الطويل ، ثم قال : تستطيع يا سيدى الرئيس إنابة من تشاء لزيارة المصابين ، فقال الرئيس : إنى أريد زيارة المصابين بنفسى ، أما الراحة التى تحدثنى عنها فأسقطها من حسابك ، وكيف لى بالراحة ، وهؤلاء المساكين يفترشون الأرض ويلتحفون السماء !! ، وأصر على الركوب إلى المصابين للاطمئنان بنفسه عليهم ، وهذا أمر يستحق التسجيل لأن مصرلم تتعوده من حكامها الناعمين المترفين ، المتألهين فى تاريخ حديث طويل !؟

هذه ملاحظات عابرة نقصد منها التوجيه إلى الخير ، وتقدير إحسان المحسنين ، وتحرى ولاة أمورنا الاقتداء بسلفهم فيما كانوا عليه من الكمال المثالى .

وإذا كنا نطمع اليوم فى « القدوة الحسنة » التى نجدها فى الرئيس نجيب ، أن تعيد لنا وبنا عهد العزة والكرامة ، عهد عمر بن الخطاب ، فلسنا نسرف على أنفسنا وقادتنا ، فهذا الذى ذكرنا بشير عودة بالحكم إلى معنى خدمة الشعب ، وإن الحاكم خادم أو رائد للشعب ، وقائده إلى الخير العام ، أو أنه كما قال عمر : « مثلى وإياكم كمثل ولى اليتيم منه ومن ماله » ، أى حسن الرعاية ، وحسن الإرشاد ، لا السيادة والاستعباد ، ونحن فيما نلمح من بشائر وأمارات نؤمن بأن العهد الجديد لابد بالغ بنا إن شاء الله إلى ذروة العزة والكرامة ، وأنه سيعيد للإسلام مجده وقوته ، وأنه سيجعل « دين الدولة الإسلام » بحق ، لا كما كان فى العهد الماضى حبراً على ورق ، وإنا له أعوان وأنصار « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

محمود فياض
أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية أصول الدين

(٥)

الأزهر والثورة العرابية

لم يقتصر دور الأزهر فى التاريخ المصرى على الناحية العلمية ، بل كان للأزهر مواقف خالدة فى تاريخ مصر القومى ، ومن أهمها الدور الذى قام به فى الثورة العرابية :

بعث روح النهضة الفكرية والأدبية : ساهم الأزهر بنصيب وافر فى إذكاء الحماسة ونشر التعليم وإعداد النفوس لتلبية نداء الحرية ، فقد قام رجاله وعلى رأسهم الشيخ عبد الله الشرقاوى منذ أوائل القرن التاسع عشر بإعلان حقوق الشعب والزام الوالى باحترام هذه الحقوق ، ثم ظهر بعد ذلك رجال أفذاذ سجلوا للأزهر صفحات ذهبية فى تاريخنا مثل رفاعة رافع والسيد عبد الله النديم والشيخ محمد عبده .

فالأول كان زعيما لنهضة العلم والأدب فى عصره ، ومن أهم أعماله تأسيس مدرسة الألسن التى خرّجت نخبة من العلماء والأدباء والشعراء ، كما قام بترجمة الدستور الفرنسى ، وعلق على الترجمة تعليقات تدل على فهم صحيح لأحكامه ومبادئه ، وميل فطرى إلى[1] النظم الحرة ، وترجم القانون المدنى الفرنسى ، ونشر رحلته فى فرنسا وسماها (تخليص الإبريز) ، ولم يقتصر نشاطه على التأليف والترجمة والتدريس بل خدم وطنه بقصائد شعرية تدل على وطنية صادقة وتفان فى محبة الوطن حتى بلغ من حماسته أنه عرب نشيد (المارسليز) الفرنسى الذى يعتبر من أعظم الأناشيد الحماسية القومية حتى لا يحرم أبناء وطنه من تذوق هذا النشيد .

وهناك السيد عبد الله النديم الذى حاول أن ينفث فى الأمة روح الحماسة كى يستيقظ الشعب من غفوته ، ونادى بضرورة تعليم أبناء الوطن تعليما نافعا ، وفى سبيل تحقيق أغراضه أسس (الجمعية الخيرية الإسلامية) ونحا نحوا جديداً لنشر أفكاره ، فألف مسرحيتين إحداهما (الوطن وطالع التوفيق) والأخرى (العرب) ، مثلهما هو وتلاميذه على مسرح زيزينيا بالاسكندرية . وقد بين فى مسرحيته الأولى جميع الأمراض والعلل التى تهدد

(١) تاريخ الحركة القومية للعلامة عبد الرحمن الرافعى ج ٣ ص ٤٧٩ .

وجود الأمة من عدم اكتراث بمصالح البلاد القومية وانصراف إلى الملذات واستغلال لضعف الجمهور وابتزاز للأموال ظلما وعدوانا . وقد نجح فى تصوير هذه الأدواء نجاحا منقطع النظير ، ثم عمل على نشر أفكاره عن طريق الصحافة فأسس صحيفته الاسبوعية (التنكيت والتبكيت) .

وبينما كان صوت النديم يجلجل بالإصلاح ويمهد للثورة فى نفوس المثقفين كان الشيخ محمد عبده يبث تعاليم السيد جمال الدين الأفغانى فى دروسه ، ويعالج الشئون العامة للبلاد فى صحيفتى الأهرام والوقائع الرسمية [1] .

ومالنا نذهب بعيدا ورأس الثورة المفكر (أحمد عرابى «باشا») تلقى علومه فى الأزهر مدة أربع سنوات ، وكان لهذه المدة على ضآلتها أثر كبير فى تكوين شخصية عرابى كزعيم ثورى إذ جعلت منه خطيبا مفوها يستولى على عقول سامعيه ويهز مشاعرهم .

ووسط هذا النضوج الذهنى اندلع لهيب الثورة .

الشيخ محمد عبده يضع صيغة اليمين الوطنية :

فى ٢٥ مايو عام ١٨٨٢ قدمت كل من انجلترا وفرنسا مذكرة يطلبان فيها إبعاد عرابى باشا وإرسال كل من على باشا فهمى وعبد العال باشا حلمى إلى أية جهة داخل القطر المصرى واستقالة وزارة البارودى : فرفض مجلس الوزراء مطالب الدولتين ، واجتمع أحمد عرابى باشا ومحمود سامى باشا البارودى وكبار الضباط فى قشلاق عابدين واتفقوا فيما بينهم على أن يكونوا يدا واحدة فى الدفاع عن البلاد ، وأرسلوا إلى الشيخ محمد عبده ليضع لهم صيغة يمين الثورة فوضعها لهم ، وتلاها عليهم ، فرددوها فى صوت واحد .

العلماء والضباط ينسحبون من مجلس الخديو :

استقالت وزارة البارودى يوم ٢٦ مايو عام ١٨٨٢ ، وأراد الخديو توفيق أن يبث التفرقة فى صفوف الزعماء ، فعقد اجتماعا يوم ٢٧ مايو حضره من العلماء الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى والشيخ أبو العلا الخلفاوى ، وحضره شريف باشا وكبار النواب والضباط وعرض الخديو على المجتمعين تشكيل وزارة

---

(١) مقالاته منشورة فى الجزء الثانى من تاريخ الامام محمد عبده .

برياسته ، وقبول المذكرة الإنجليزية الفرنسية . فأجاب طلبة باشا عصمت على كلام الخديو قائلا « إننا مطيعون لجناب السلطان الشاهانى وللجناب الخديوى . ولكن هذه اللائحة يستحيل علينا تنفيذها ، ولا حق للدولتين فى طلب تنفيذها ، فهى تتعلق بمسائل من اختصاص الباب العالى أن ينظر فيها ويستحيل علينا قبول أحد رئيساً للجهادية خلاف رئيسنا أحمد باشا عرابى » ، ووافق على قوله الشيخ عليش والعلماء جميعاً . ثم غادر طلبة باشا مجلس الخديو بدون استئذان وتبعه الضباط والعلماء .

العلماء يصدرون فتوى بعزل الخديو توفيق .

بعد ضرب الإسكندرية فى ١١ يولية عام ١٨٨٢ قام عرابى باشا للدفاع عن البلاد ، فأصدر الخديو أمراً بعزله فى ٢٠ يولية ، وبناء على ذلك اجتمع المؤتمر الوطنى للمرة الثانية فى ٢٢ يولية سنة ١٨٨٢ ليقرر موقف الأمة من الخديو الذى أعلن بتصرفاته انضمامه إلى الإنجليز . وتلا الشيخ محمد عبده على أعضاء المؤتمر أوامر الخديو التى تثبت إدانته ، ومنشورات عرابى باشا التى تدعو إلى الدفاع عن الوطن . ثم ألقى على باشا الروبى خطبة ندد فيها بموقف الخديو المزرى إزاء قضية البلاد ، ثم تليت فتوى شرعية أصدرها العلماء بمروق الخديو عن الدين لانحيازه إلى الجيش المحارب لبلاده ، فأصدر المؤتمر الوطنى قراره التاريخى بعزل الخديو ووقف أوامره وتكليف عرابى باشا بالدفاع عن البلاد ، وتكليف المجلس العرفى بتبليغ هذه القرارات للسلطان ، ووقع الحاضرون على ما قرره المؤتمر الوطنى وكان من بين العلماء الموقعين على ذلك :ـ

الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع الأزهر ، الشيخ حسن العدوى ، الشيخ عبد الله الدرستاوى مفتى الحنفية ، الشيخ محمد عليش مفتى المالكية ، الشيخ يوسف الحنبلى مفتى الحنابلة ، مفتى الاوقاف ، الشيخ عبد الهادى الأبيارى ، الشيخ محمد الأشمونى ، الشيخ خليل العزازى ، الشيخ مسعود النابلسى ، الشيخ محمد القلماوى ، الشيخ زين المرصفى ، الشيخ حسين المرصفى ، الشيخ سليم عمر القلعاوى ، الشيخ عثمان مدوخ ، الشيخ عبد الرحمن السويسى ، ومن رجال القضاء الشرعى : الشيخ أبو العلا الخلفاوى ، الشيخ عبد القادر الرافعى ، الشيخ عبد القادر الدليشانى ، الشيخ أحمد الخشاب .

جهود العلماء أثناء الحرب :

بذل العلماء مجهوداً كبيراً فى سبيل الدفاع القومى فدعوا إلى التطوع فى صفوف الجيش

المصرى وإمداده بالمؤمن والتبرعات . وكان من أبرزهم الشيخ محمد عبده والشيخ حسن العدوى والسيد عبد الله النديم الذى كان لسان الثورة الناطق والذى كان يستدعى للخطابة بالبرق حتى لقب بخطيب الثورة بل (خطيب الشرق) .

محاكمة العلماء الذين اشتركوا فى الثورة العرابية :

بعد انتهاء الثورة العرابية قبض على زعمائها وعلى المشتركين فيها وقدموا المحاكمة . وهاك بيان العلماء الذين قبض عليهم والأحكام التى صدرت ضدهم وأمام كل منهم إسم البلد التى اختارها لمنفاه [1] :

الشيخ عبد الرحمن عليش	نفى خمس سنوات خارج القطر المصرى	(الآستانة)
« عبدالقادر قاضى مديرية القليوبية	« أربع « « « «	(بيروت)
« محمد الهجرسى	« « « « «	(مكة المكرمة)
« أحمد عبد الجواد القاياتى	« « « « «	(بيروت)
« محمد عبد الجواد القاياتى	« « « « «	(بيروت)
« يوسف شرابة	« « « « «	(غـــزة)
« محمد عبـــده	« « « « «	(بيروت)

هذا مع تجريدهم من الرتب والامتيازات والمناصب وعلامات الشرف .

وحكم على العلماء الآتية أسماؤهم بتجريدهم من جميع رتبهم وعلامات شرفهم وامتيازاتهم :

الشيخ حسن العدوى وابنه الشيخ أحمد العدوى ـ الشيخ أحمد المنصورى ـ الشيخ محمد السملوطى ـ الشيخ أحمد البصرى ـ الشيخ محمد أبو العلا الخلفاوى العضو الأول بالمحكمة الشرعية ـ الشيخ عبد الوهاب عبد المنعم قاضى إسنا سابقاً ـ الشيخ محمد أبو عائشة قاضى بور سعيد سابقاً ـ الشيخ على الجمال نقيب الأشراف بدمياط ـ الشيخ أحمد عبد الغنى ـ الشيخ محمد عسكر ـ الشيخ أحمد مروان ـ الشيخ محمد جبر قاضى المنصورة سابقاً ـ الشيخ عبد البر الرملى قاضى العريش سابقاً ـ الشيخ أحمد صلى نائب محكمة المنصورة سابقاً ـ الشيخ محمد غزال قاضى مركز البحيرة .

---

[١] الثورة العرابية للعلامة الرافعى صفحة [٩٤٠] وما بعدها .

شجاعة الشيخ حسن العدوى رحمه الله تعالى .

استدعى هذا العالم الجليل من السجن لمحاكمته يوم الثلاثاء ١٤ محرم سنة ١٣٠٠ (الموافق ٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢) فنطق بالحق غير هياب ولا وجل ولا مكترث بالحكم الذى سيصدر عليه، ونقتبس هنا طرفا من محاكمته : سئل رحمه الله تعالى : هل ختم على عزل الخديو وإسناد أمر الدفاع عن البلاد إلى عرابى باشا برغبته ورضاه ، أم لسبب آخر ؟ .

فأجاب « ختمت تابعاً للعلماء الذين ختموا قبلى مثل شيخ الإسلام ومفتى الجامع الأزهر وشيخ الجامع وغيرهم ، وكان ختمى برغبتى ورضائى للمدافعة الواجبة شرعا وسياسة ، وما كان ينبغى لأحد أن يمتنع عن الختم .

س : علم المجلس أنك أفتيت بعزل الجناب الخديوى ، فهل هذا حقيقة أم لا ؟ .

ج : لم تصدر منى فتوى فى ذلك ، ولم أسأل فى هذه المادة . ومع ذلك فإذا جئتمونى الآن بمنشور فيه هذه الفتوى فإنى أوقعه ، وما فى وسعكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن الخديو توفيق مستحق للعزل لأنه خرج عن الدين والوطن » .

هذه هى صفحة من الصفحات المجيدة سجلها الأزهر بحروف من نور فى تاريخنا القومى .

أحمد عز الدين عبد الله خلف الله
المدرس بمعهد دسوق

إلى الذين يشوهون تاريخ الاسلام

- إذا أردت أن تتكلم عن ميت ، فضع نفسك فى موضعه ثم تكلم .
- ليس المصلح من استطاع أن يفسد عمل التاريخ ، فهذا سهل ميسر حتى للحمقى . ولكن المصلح من لم يستطع التاريخ أن يفسد عمله من بعده .
- التاريخ حدود كممالك الأرض ، فلا يتسع إلا لعدد محدود .
- لو اجتمع الذين ملأوا الدنيا بشهرتهم ، ما ملأوا داراً صغيرة .

مصطفى صادق الرافعى

الغزو الفكري للبلاد الإسلامية

بعد فشل الغزو العسكري الصليبي

منذ اندحرت جيوش أوروبا فى حملاتها الصليبية على البلاد الإسلامية أمام جحافل صلاح الدين ومن جاء بعده من سلاطين المسلمين وملوكهم وقادتهم المجاهدين الذين قاوموا الغزو الصليبي بكل ما لديهم من قوة وبأس ولم يفتروا فى مقاومته مدة مائتى سنة أو تزيد حتى قضوا عليه قضاءا مبرما ، وطهروا منه البلاد وأراحوا العباد ، وحفظوا بذلك لبلاد الشرق حريتها واستقلالها وأبقوا لها صبغتها الإسلامية والعربية ، مما سجله التاريخ لأولئك المجاهدين الأبرار بأجل التقدير والإعجاب .

ومنذ ارتدت فلول الصليبيين إلى بلادها تجر أذيال الفشل والإخفاق ، أخذت حكومات أوروبا وجمعياتها وساستها وكبار رجال كنائسها على اختلاف مذاهبهم ونحلهم ، فى بحث أسباب هزيمتهم واندحارهم أمام جيوش المسلمين ، وبعد أن رجعوا إلى تاريخ حملاتهم على البلاد الإسلامية وسبروا أعمالها بكل دقة وتمحيص اتضح لهم أن لإخفاقهم أسباباً وعوامل متعددة ، وتأكد لديهم أن العامل الأول فى صدهم وطردهم من البلاد الإسلامية هو إيمان المسلمين بالله ورسوله محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وتغلغل هـــذه العقيدة الإسلامية فى أعماق نفوسهم واعتبارهم الجهاد فى سبيل الله عبادة مفروضة يتقربون بها إلى الله ، وأن استمساك المسلمين بأوامر الإسلام وآدابه وحرصهم على أداء واجباتهم الدينية كان له أكبر الأثر فى ثباتهم فى ميادين القتال وتصميمهم على مقاومة عدوهم والانتصار عليه مهما كلفهم ذلك من خسائر فى الأموال والأنفس والثمرات ، وغير ذلك من تضحيات يعتبرونها قربات إلى الله تعالى .

فبهذا الإيمان العميق والإخلاص والصدق فى دفع العدوان عن دينهم وأوطانهم وديارهم استحقوا النصر والفوز على أعدائهم .

فلما ثبت لديهم بالدليل القاطع أن قوة المسلمين فى عقيدتهم وتعاليم دينهم ، وأنهم ما داموا مستمسكين بها فلن تستطيع أية قوة من الغزاة أن تسيطر على بلادهم ، حينئذ أخذ

أولئك الصليبيون من الساسة والقادة ورجال الكنيسة يرسمون الخطط ويضعون البرامج لإضعاف الروح الدينية فى نفوس المسلمين وفتنتهم عن دينهم وتنصيرهم إن أمكن ، فأعدوا حملات منظمة لغزو بلاد المسلمين فى المشرق والمغرب غزواً « سلمياً » بإرسال طوائف وجماعات من القسس والرهبان والراهبات المدربين تدريباً خاصاً والدارسين تاريخ وعادات وتقاليد البلاد التى ندبوا للعمل فيها ، وأدخلوهم فى بلاد المسلمين للتبشير بالنصرانية بين المسلمين وأمدوهم بالأموال الطائلة وجعلوهم فى حماية الدولة الكبرى وتحت رعايتها وإشراف رجالها من مدنيين وعسكريين .

قال مستر ادوين بلس فى كتابه (ملخص تاريخ التبشير) : « إن ريمون لول الأسبانى هو أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية فى مهمتها ، فتعلم لول اللغة العربية بكل مشقة وجال فى بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين فى بلاد كثيرة [1] » .

وقررت اللجنة التى ألفها مؤتمر أدنبرج التبشيرى لبحث الأعمال المدرسية التى يقوم بها المبشرون فى البلاد الإسلامية ، ما يلى :

« اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى فى عاصمة تركيا على أن معاهد التعليم الثانوية التى أسسها الأوربيون « فى البلاد الإسلامية » كان لها تأثير على حل المسألة الشرقيه يرجح على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول أوروبا كلها » [2] .

وقال اللورد بلفور رئيس الشرف لمؤتمر أدنبرج التبشيرى فى تأييد المبشرين ووجوب تشجيعهم ومعونتهم ما نصه « إن المبشرين هم ساعد لكل الحكومات « يعنى الاستعمارية » ، ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيراً من العقبات . وعلى هذا فنحن فى حاجة إلى لجنة دائمة يناط بها التوسط والعمل لما فيه مصلحة المبشرين . فأجيب اللورد إلى اقتراحه وتألفت لجنة مختلطة لمواصلة العمل [3] » .

٢ — وجاء فى مجلة العالم الإسلامى الفرنسية أن السير جيروار حاكم أفريقية الشرقية

---

[1] عن كتاب (الغارة على العالم الاسلامى) ص ١٧ تأليف مسيو لوشاتليه وتعريب الاستاذين محب الدين الخطيب ومساعد اليافى .

(٢) المصدر نفسه ص ٧٢

(٣) نفس المصدر ص ٧٨

الإنكليزية صرح فى المؤتمر الذى أقامه المبشرون على ظهر الباخرة « غالف » فى البحر الأحمر أنه يجب على المبشرين أن يشتركوا فى العمل ضد الإسلام »[1] .

وقد ذكر مستر بلس فى كتابه تفصيلات عن أعمال الجمعيات التبشيرية الإنجليزية والأمريكية والهولندية والفرنسية والسويدية والدانماركية وسواها من جمعيات اقتحمت العمل فى الأقطار الإسلامية فى مصر والسودان وسوريا وفلسطين والعراق وبلاد إيران والهند وجاوا وبلاد المغرب وأفريقيا وغيرها من أقطار .

فقد انطلق أولئك المبشرون والمبشرات بتأييد من حكوماتهم يجوسون خلال الديار الإسلامية منذ القرن الثامن عشر الميلادى أو قبل ذلك كما تدل بعض الروايات التاريخية ، مستغلين ضعف الحكومات الإسلامية فى القرون الأخيرة ، ومن جراء ذلك الضعف استطاع المبشرون أن يؤسسوا فى أكثر الأقطار الإسلامية كمصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين وبلاد المغرب والهند وأفريقيا وسواها مدارس وكليات ومستشفيات ومصحات ودوراً للكتب وجمعيات ومنتديات للذكور والإناث ظاهرها معالجة المرضى وتدريس العلوم العصرية واللغات الأجنبية وإلقاء المحاضرات العلمية والأدبية . وباطنها وحقيقة قصدها محاربة العقيدة الإسلامية ومقاومة الآداب والتقاليد العربية والشرقية الفاضلة .

ولا شك فى أن المبشرين قد نجحوا كثيراً فى تنفيذ جانب كبير من خططهم وأهدافهم فى البلاد الإسلامية ، وبخاصه توطيدهم للاستعمار الأجنبى ، وعملهم على خدمته . كما أن مدارسهم الأجنبية ودعاياتهم السامة تتحمل أكبر قدر من تبعة ما تعانيه مصر وسوريا ولبنان والعراق وفلسطين وبلاد المغرب وسواها من بلاد العرب والمسلمين من انحلال خلق وانطلاق من آداب الإسلام وتقاليده الحميدة ، فقد بث المبشرون والمبشرات الشكوك والشبهات واحتقار العقيدة الإسلامية فى نفوس النشء من أبناء المسلمين وبناتهم ممن أدخلوا مدارسهم وطبعوهم بطابعهم الأجنبى الغريب عن الإسلام وتقاليده ، وآدابه ، وعودوهم على مشاركتهم فى طقوسهم وعاداتهم ، وأغروهم باتباع مباذل التقاليد الأوربية الإباحية بزعم أنها من أسس التمدن والرقى العصرى ، وبإغرائهم انتشرت الحفلات الماجنة

---

(١) منه ، ص ١٣٧ .

التي يختلط فيها الرجال والنساء مخمورين في حلبات الرقص الهمجي المستهتر المخالف لكل دين وخلق نبيل .

ولقد أثر المبشرون والمعلمون الأجانب على عقول تلاميذهم المسلمين وحشوا أدمغتهم بتاريخ أوروبا وأمريكا وتمجيد قادتها وساستها ومفكريها من الفلاسفة والمخترعين والعسكريين وصوروهم لهم بصور الأبطال العباقرة الذين يجب الاقتداء بهم ، وحملوهم بطريق مباشر أو غير مباشر على الاستهانة بدين الإسلام والاستهتار بأوامره وآدابه وفضائله ، محرفين الكلم عن مواضعه ، مصورين لهم بصورة مشوهة مفتراة تاريخ النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقادة الإسلام وحماته ، ذاكرين تاريخ فتوحات المسلمين ومفاخرهم وما كان لهم من قوة وعلم وحضارة بشكل قاتم لينفروا أولئك الصغار السذج من البنين والبنات من دينهم الإسلامي الحنيف ومن أبطاله المجاهدين الذين ملأوا الأرض إبان دولتهم قسطا وعدلا وحكمة وحضارة وعلماً .

ومما يقررونه لتلاميذهم أن حرية الفكر والرأى ينبغي أن لا تمنع الإنسان من الطعن في الدين ومخالفة ما عليه جماهير المسلمين وعامتهم ، وأن الشخص لن يكون متمديناً عصرياً إلا إذا قلد الأجانب في زيهم وعاداتهم ، وسائر الغربيين في تقاليدهم ، وانغمس في حفلاتهم ومباذلهم ، واقترف مثل ما يقترفون من آثام في اجتماعاتهم المختلطة رجالا ونساء ، وتعاطى ما يتعاطون من كؤوس المشروبات المحرمة إلى جانب كؤوس المخادنة وما يتبعها من فحشاء ومنكر وتقويض للعقل والأخلاق ثم خراب للبيوت وانتهاك الأعراض والحرمات .

فتلك الآراء الضالة التي بثها أولئك الأجانب في تلاميذهم من أكبر العوامل في حدوث البلبلة الخلقية والاجتماعية التي يشكو منها المجتمع الإسلامي والعربي اليوم .

ولا نكون مبالغين إذا قلنا : إن هذا الغزو الفكري الأجنبي لمصر والسودان وسواهما من بلاد المسلمين والعرب في المشرق والمغرب لا يقل خطره وضرره عن الغزو العسكري ، بل صنوه ونصيره . وإن الأقطار العربية والإسلامية لن تطمئن على حريتها واستقلالها إلا إذا تخلصت من الغزو الأجنبي بأنواعه سواء أكان غزواً عسكرياً أم فكرياً أم اقتصادياً أم اجتماعياً .

إن الدين الإسلامى يفرض على المسلمين كافة أفراداً وجماعات أن يتعاونوا على مقاومة الغزو الأجنبى بجميع أشكاله ليحفظوا دينهم وعقيدتهم ، ويصونوا أوطانهم وديارهم من كل نفوذ أجنبى ليعيشوا أحراراً كما خلقهم الله .

وإن مقاومة حملات الغزو الفكرى الأجنبى تحتاج إلى خطط مضادة وتنظيم وكفاح مرير يقوم به علماء الأزهر الشريف وإخوانهم من علماء المسلمين ، وقادتهم وزعماؤهم وأصحاب الرأى منهم فى مختلف الأقطار ، وإنى لأوجه أنظار القادة الداعين إلى مؤتمر العالم الإسلامى المزمع عقده فى هذا العام إن شاء الله أن يفى مؤتمرهم بمعالجة هذا الموضوع ويرسم الخطة العملية لإنجاحه .

وإنى لأهيب بقادة هذه النهضة الإصلاحية المباركة فى مصر ، الذين عانوا من فساد المبشرين وكيدهم فى جنوب السودان ما عانوا ، أن يعملوا للخلاص من هذا الغزو الفكرى الاستعمارى ، باتخاذ خطوات إيجابية حازمة تستأصل الشر فى جذوره وترد كيد العدو إلى نحره ، وذلك بإنشاء مدارس كافية ومستشفيات ومصحات ومكتبات يستغنى بها الشعب المصرى عن معاهد الأجانب ، وأن يسن قانون جديد يوحد نظم التعليم العصرى وبرامجه وينص فيه على وجوب تعليم الدين الإسلامى لكل تلميذ مسلم وإنشاء مسجد فى كل مدرسة مصرية أو أجنبية فى جميع البلاد المصرية ليؤدى فيها المسلمون من الطلبة والطالبات فرائض الصلوات والشعائر الدينية الإسلامية . ولا جدل فى أن اتخاذ مثل هذه الوسائل الحازمة وتنفيذها من حق أبناء الوطن ، وذلك كفيل بإراحة البلاد والعباد من شرور أعداء الحق وضلالاتهم ، وأى إجراء تتخذه حكومة مصر فى هذا السبيل سيكون له صداه وأثره الحميد فى جميع البلاد الإسلامية والعربية التى ستقتدى بمصر وتتبع خطواتها وأساليبها فى ذلك إن شاء الله .

محمد صبرى عابدين
من علماء الأزهر الشريف

آراء وأحاديث

علوم البلاغة فى الميزان

إنا نتقدم بالشكر إلى الأستاذ الشيخ محمود النواوى ، أن أجاب دعوتنا إلى مناقشة ما كتبناه فى نقد علوم البلاغة لنحفز العقول إلى البحث والابتكار ، وغربلة تراثنا الماضى لنطرح منه الزوان ونبقى منه الحب الخالص النافع ، وقد حصر ما نقدنا به فى أمور :

١ — أنه جعل للذكر بلاغة مثل الحذف إلا أن الحذف أدق وجعل منه « فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

على أن ليس عدلا من كليب . « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به . وقول الشاعر :

وما عفت الرياح له محلا   عفاه من حدا بهم وساقا

وما ذكره يؤدى إلى أن يكون جاء زيد وضرب عمرو وأكل خالد بليغا لأنه ذكر صادف موضعه فيقال ذكر المسند إليه لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه .

ومثل هذا لا يوصف بالبلاغة وإنما يوصف بالصحة والسلامة من الخطأ واللحن ، وما ذكره من الأمثلة ليس بعضه مما نحن فيه بل هو من باب آخر هو باب التكرار مثل : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » التى تكررت فى سورة الرحمن ومثل : على أن ليس عدلا من كليب . التى تكررت فى قصيدة المهلهل .

وكنا نود أن يأخذ بالمنهج الذى رأينا أن نأخذ أنفسنا به وهو أن نعرض القول على أذواقنا فإن أحسسنا له جمالا وأخذتنا له أريحية ، علمنا أنه بليغ وبحثنا عن علة جماله وسببه ، ولو أخذ نفسه بهذا المنهج لما رأى فى أمثال جاء زيد وضرب عمرو جمالا وحكم بأنه وإن كان من باب الذكر الذى صادف موضعه لأنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه ليس بليغا ، ولحكم بأن عبد القاهر كان مصيباً حين عمد إلى أبواب وخصها بالقول وبين ما فيها

من بلاغة ولم يحمل كل كلام كـكل كلام ما دام قد أصاب النحو ولم يخالف موضعه ولو سار المتأخرون كما سار عبد القاهر لميزوا الجمال وأفردوه وهدوا إليه ودلوا عليه ولأجدى ذلك على المتعلمين فكانوا بذلك التمييز والإفراد يعرفونه ويتوخونه فى نثرهم وشعرهم .

٢ — لما قلنا إن فى الحذف جدة وطرافة لأن الناس لم يعتادوه اعترض بأن الناس اعتادوه ثم ذكر هنا أن العامة تعرف البلاغة وذكر حكاية :

وأحسن من نور تفتحه الصبا   بياض العطايا فى سواد المطالب

ونحن لا نزال نؤكد أن الكلام الذى لم يحذف منه آلف وأشد دوراناً على ألسنتهم وأن الكلام المحذوف منه أقل من القليل .

وما زلنا نرى فى الكلام المحذوف جدة وطرافة ونرى مكان المحذوف خاليا نفتقده فلا نجده من حيث كنا نترقب وجوده .

وأما أن العامة قد يقع لها كلام بليغ فهذا ما لم تنكره ولم نخالف فيه ، بل قد صرحنا به وقد كنا نود أن نمثل فى باب الحذف بقولهم :

شاكى ومين بيسمع منى   باكى ومين بيسأل عنى

والمعنى أنا شاك ، وأنا باك ولكنه حذف فكان له هذا الحسن وهذا الجمال .

٣ — وأما اعتراضه بأن قول علماء البلاغة بأنه يحذف للاحتراز عن العبث بناء على الظاهر أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل أو اللفظ لازم لقوله إذا ذكر مع القرينة كان كالثقيل .

ولا يضرهم أن يدققوا بمراعاة قيود معينة .

ونحن ننقل عبارته بلفظها ليشاركنا القارىء فهمها .

سلك مسلك التعليل النفسى وهو كما بينه فى آخر الكلام معنى يشعر المرء بأثره ولا يدركه ولكن الفلسفى العارف بخفايا النفوس يدركه ويؤمن به .

وإذا كان ذلك فلماذا لم يطبقه على قولهم الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر ، أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين أليس ذلك لازما لقوله إذا ذكر مع القرينة كان كالثقيل الخ .

ولا يضره أن يدققوا بمراعاة قيود معينة مثل كلمة « بناء على الظاهر » ، وكلمة « تخييل » فإن

ذلك هو مقتضى الدقة الفلسفية ما دام قد رضى الرجوع إلى حكم الفيلسوف فإن الفيلسوف لا بد أن يحتاط فيجعل كلامه منطبقاً على الواقع كل الانطباق ».

الفرق بين العلل التي نذكرها والتي يذكرها العلماء المتأخرون أن العلل التي نذكرها هي أمور إذا كان الكلام عليها اكتسب الجمال والروعة سواء أعلمها المتكلم أم لم يعلمها أما العلل التي يذكرونها فهي أمور يقصدها المتكلم فلا بد أن يكون عارفا بها ولذلك إذا اعترضنا عليهم حين يقولون بأن المسند إليه يحذف لتخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ «بأن هذه معان لا تدور بخلد المتكلم ولا يعرفها - لا يلزمنا ذلك في تعليلنا لأننا لم نقل إن المتكلم يقصدها ، أما هم فقولهم تخييل العدول أي تخييل المتكلم العدول يقتضى أن المتكلم يعرفه ويقصده لأنه كيف يخيل شيئاً لا يعرفه ولا يقصده ، فقوله ولا يضر أن يدققوا بمراعاة قيود معينة مثل كلمة «بناء على الظاهر» وكلمة «تخييل» فإن ذلك هو مقتضى الدقة الفلسفية ما دام قد رضى الرجوع إلى حكم الفيلسوف فإن الفيلسوف لا بد أن يحتاط فيجعل كلامه منطبقاً على الواقع كل الانطباق.

قلنا ذلك يضر كل الضرر لأن المتكلمين ليسوا جميعاً فلاسفة بل الفيلسوف يكون واحداً في المليون أو أقل ، فلا يراعون هذه المعاني الدقيقة والقيود الخفية المحتاط فيها كل الاحتياط ، أما نحن فلم نوجب أن يعرف المتكلم علل البلاغة التي نذكرها ، وإنما يعرفها العالم الذي اشتغل بالعلوم الحكمية ، وهما جميعاً يحسان جمال الكلام وروعته ، وبعد ذلك يختلفان ، أما العامي فلا يدرى العلة والسبب ، وأما الحكيم فيدرى العلة والأسباب ، ومثل ذلك مثل عالم وحكيم يسمعان قطعة موسيقية أو يريان روضاً نضيراً ، فيطربان ويعجبان ولكن الحكيم يدرك من تناسق النغم ومن بدائع الصنعة ما لا يدركه الآخر.

وقد بقى من اعتراضات حضرته اعتراض واحد وهو أن بعض العلل التي ذكرتها لازم لبعض ، فالهجوم بالمخاطب على المطلوب دفعة يلزمه دفع الاستثقال والاستكراه ، فإن من هجم بك على المطلوب فقد دفع عنك ثقل الفضول الذي تقذى به العين - وأقول وإذا كان أحدهما يلزمه الآخر فماذا يقدح في كونهما شيئين - لا أنه لا يقدح في كونهما شيئين وقد عددناهما أمرين لذلك ، وهما حقيقتان متميزتان كل التميز . ثم قال: مع أنني كنت أحب ألا يورد في هذا المقام البيت الذي أورده .

قال لى كيف أنت قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

فإن القريب من النفس أن الحذف هنا لضيق المقام بسبب المرض وما يحدثه من ضجر ، وإن اشتغال المريض بشأنه جدير أن يحول دون مراعاته لحال السامع وإذا كان المريض مشغولا بأمره عن احترام الزائر والاعتدال له وتحيته ، فأحرى ألا يفكر فى الهجوم به على المطلوب . وأقول هذا الاعتراض يزول بما قدمناه من أن العلل التى عملنا بها حسن الكلام لا يلزم أن يقصدها المتكلم فلا يضرنا أنه مشغول بأمره عن أن يفكر فى الهجوم على المطلوب دفعة ، فإن ذلك لازم للحذف سواء أراده المتكلم أم لم يرده ، فإن من سمع فى جواب كيف أنت ؟ عليل . فقد هجم على المطلوب دفعة دون أن يشغل بأمر آخر ، وما ارتضاه من أن الحذف هنا لضيق المقام بسبب المرض وما يحدثه من ضجر لا يتنافى مع ما قلناه فيمكن أن يجتمعا ، ولو شئنا المشاحة لقلنا إذا كان ضيق المقام لم يمنعه أن يتبسط فى الجواب ، فيقول عليل سهر دائم وحزن طويل فحرى ألا يضيق بقوله : أنا .

وأكرر شكرى للأستاذ النواوى مرة أخرى وأسأل الله أن يلهمنا الصواب ويجنبنا الزلل .

م . ع .

المرأة

• لا شىء يشرف المرأة مثل صبرها ، ولا شىء يشينها مثل صبر زوجها عليها .
جوبير

• خير للمرأة أن تنظر فى شأن منزلها وأطفالها ، من أن تبحث فى أمور لا شأن لها بها .
نابليون

• المرأة أفقدتنا الفردوس ، وهى وحدها قادرة أن تعيده إلينا . هوتير

• أصعب شىء على المرأة أن تكتم أمراً . شكسبير

• يختبر الذهب بالنار ، وتختبر المرأة بالذهب ، ويختبر الرجل بالمرأة . شيلون

• امرأة كسيحة فى البيت ، خير من امرأة طائشة متسكعة فى الطرقات .

برودون

الأمانة الأولى

الأستاذ الكبير رئيس التحرير بمجلة الأزهر الغراء جولاته القوية الموفقة ، وبحوثه الصافية القيمة ، وتوجيهاته السديدة الرشيدة فى سبيل الإصلاح والمصلحين ، وهو إذ يعالج كيف تنهض الأمة يضع أمله فى العلم ورجال التعليم ، ويطلب إلى وزارة المعارف أن تسارع إلى إصلاح نفسها ... لتبنى نظامها الجديد على تخريج جيل يؤمن بالأخلاق والفضائل .

فإذا تكلم عن مدرسى الأزهر رأى واجباً عليهم أن يقودوا حركة التجديد فى الأخلاق وأنهم أولو الأمر فى الإسلام ، وبخاصة منذ تخلى الخلفاء والملوك والولاة عن قيادة الناس وإمامتهم وإرشادهم الدينى .

ويقول الأستاذ : « إن هذه الأمة أمانة الله فى أعناق علمائها ... وإن الرعاة الذين سيعهد إليهم بعد سنوات قريبة بالإشراف على مئات الملايين من المسلمين هم هؤلاء الألوف وعشرات الألوف من طلبة الكليات والمعاهد الأزهرية فى مصر وأمثالها فى الأوطان الأخرى » .

وهذا الكلام القوى الرائع من مثل الأستاذ فى مكانته وعلمه وجهاده المعروف ، ومن فوق هذا المنبر العتيق الخالد ، سيكون له بإذن الله أثره المرجو فى حفز الهمم الوانية ، وإيقاظ العزائم الخابية ، وتوجيه العقول والقلوب إلى مواطن الضعف ومواقف الإصلاح .

وان الأزهرى فى حاجة إلى أن يسمع هذا الكلام الصادق الجميل ، فلم يخرج الأزهرى عن دنيا الناس يوما ، وإنما هو بشر من البشر ، يسوؤه ما يسوؤهم ، ويسره ما يسرهم ، وطالما سمع القوارص اللاذعة من المحبين والشانئين على السواء ، وطالما آذاه الجحود والنكران حتى أوشك بنوه أن يفقدوا الثقة بأنفسهم ومعهدهم ، من كثرة ما يسمعون ويقرءون على ألسنة قوم يجيدون الهدم ، وقلما يحسنون البناء .

الأزهر مسئول عن تراث النبوة ، ولغة العروبة ، وبلاغ الدعوة إلى العالمين ، مافى ذلك ريب ، وليس يجديه ولا يعفيه أن يرى السلطان فى يد غيره ، فسلطانه بالدين أقوى ، وعزه بالله أوثق ، وبلدنا والحمد لله بلد إسلامى يستجيب للدين متى وجد من يوجهه إليه فى حكمة وموعظة حسنة .

وفى الأزهر قوى كثيرة مذخورة ، وجنوده بحمد الله لا يحصيهم العد ، ولو أحسن توجيههم وقيادتهم لأنهضوا مصر عن أقرب طريق وأيسر سبيل ، ومن وراء مصر العالم الإسلامى كله ، ولشع نوره ، وبهر ضوؤه أبصار الغرب والشرق البعيد ، لجاء النصر من الله والفتح ، وكان الدين كله لله .

إنه لحق ، يرونه بعيداً ونراه بتيسير الله قريباً .

ولكن أمر الإسلام يا سيدى ليس واجب الأزهر فحسب ، إنه واجب كل مسلم يستطيعه ، وإذا كان الأزهر يقوم به فرض كفاية عن جميع المسلمين ، فإن حق الأزهر على الدولة أن تمكن له فى أداء هذا الفرض على أكمل الوجوه وأتمها .

وإنما أردت المشاركة بكلمات معقولة أطلقها المقال القيم « أمانتان » وأملى فى الإصلاح كبير ، لتدخل هذه الكلمات فى إعداد هذا الجيل من الرعاة للأمة الإسلامية .

إن أول ما يشكوه الطالب الأزهرى فى دراسته صعوبة الكتب ، وكلها أو جلها قد كتب فى عصور تقضت ، ليست هى بأرقى العصور الإسلامية فكرا ، ولا أغزرها علماً ، ولا أعظمها مدنية أو حكما ، بل كان دأب المؤلفين فيها أن يوجزوا فيجمعوا المعانى الجمة فى الألفاظ القليلة كأنها ممدوح الشاعر يقول فيه :

ويقتضب المعنى الكثير بلفظة ويأتى بما تحوى الطوامير فى سطر

مما اضطرهم إلى الشروح والتقريرات والحواشى ، فلا يسترسل الطالب فى طريق معبد يسير به قدما إلى غايته ، يحبب إليه الدرس ويغريه به ، وإنما ينتزعه من المعنى العام الذى يريد المؤلف أن يؤديه إلى ملاحظة ما تشير إليه لفظة ، أو تفيده عبارة ، أو تعنيه جملة ، أو يستقيم عليه تأويل وتخريج . ولئن كان فى ذلك نوع من التربية لقوة الملاحظة فإن الإسراف فيه جعله ثقلا فادحا معوقا عن التحصيل ، فلا يكاد الدارس ينتهى إلى نهايته حتى يكون استنفد قواه ، وشت موضوعه ، وتفرقت وحدة مسائله .

وقد كان ذلك هينا نوعا ما ، يوم أن كانت العلوم والمعارف محدودة ، ولم يكن الأزهرى فى حاجة إلى غير كتبه ، وكان هو وحده العالم المشهود له . أما الآن وقد اتسعت المعرفة وكثرت فروعها وتنوعت فنونها ، وشاعت الثقافة ، وصار القارىء أو السامع يلم بأخبار العالم فى دقائق ، ويعلم آخر ما جد من أنباء العلوم والمعارف ، والحياة كلها سباق لا هوادة فيه ،

فلم يعد مفهوما أن يظل الأزهرى معنى بهذه الكتب يحمل أثقالها ، فأما أن تبهظه فينوء بها ويتبرم ويود لو تخلص منها - وقلما أجدت على من زهدها وقلاها - وإما أن ينقطع لها ، ويقف حياته عليها ، ويصحبها فى غدوه ورواحه يتألف نافرها ، ويعالج ما استعصى عليه منها ، فإذا ملكها وملكته فهو عن دنيا الناس فى معزل .

وقد أحسن فضيلة الأستاذ الأكبر - أدام الله له التوفيق وأعانه - حينما استجاب لرغبات كثيرة فى هذا الشأن فعهد إلى أصحاب الفضيلة شيوخ المعاهد بتأليف لجان من الأساتذة فى كل علم ، لدراسة أمر الكتب المقررة ، وإبداء الرأى فى مقدار صلاحيتها للدراسة .

ولسنا نريد الوقوف عند حد إبداء الرأى فى الكتب ، ليغير كتاب بكتاب مثله أو أفضل منه ، إنما نريد نهضة علمية شاملة ، تجدد من حياة الأزهر وروحه وقواه ، نريدها نهضة تنتظم هذه القوى الشتيتة ، وتستثير فى ذلك الأسد الرابض نشاطه ، علة ينفض عن نفسه ذلك الخدر الذى طال عليه الأمد .

فى الأزهر كبار الشيوخ ممن تعرف الأمة ، وممن لا يعرفهم سوى الأزهر ولهم فى العلم أقدام راسخة . وفى الأزهر شبيبة ناهضة متبصرة ، فلم لا ينتفع بكل أولئك القوى فى تجديد شباب الأزهر وخدمة الإسلام ؟

لقد ذكر الشيخ الأكبر أن من صميم عمل الأزهر قيامه بناحيتين : ناحية الدرس وتتولاها هيئة التدريس بالمعاهد والكليات . وناحية البحث ، وتقوم بها جماعة كبار العلماء ممن توفروا على بحث قضايا العلم والدين ، لم لا ينتفع بجهود هؤلاء الأعلام فى البحث والتأليف ولم لا تكون هناك اللجان العلمية للمعاهد والكليات ، تتابع النظر فى البرامج ، وتدرس وتقارن وتقرر وتعدل ، مستنيرة برأى الأساتذة القائمين بالتدريس - كما طالب ذلك اتحاد العلماء بالغربية فى مذكرته المرفوعة إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وولاة الأمر فيه .

لقد طلبوا فى جملة ما رأوا من وجوه الإصلاح العلمى :

أن تؤلف لجنة دائمة للشئون العلمية ، لا شأن لها بالنواحى الإدارية ، وليست كتلك اللجان المعهودة ! ! وإنما يجب أن تعمل جديا على رفع المستوى العلمى والخلقى فى الأزهر ، وأن تستعين بالأكفاء وذوى الرأى وأن يتاح لكل راغب فى الإصلاح الاتصال بها على أن نواجه العام الدراسى الجديد بثمرة هذه الجهود .

لسنا نريد إذن مجرد الرأى فى الكتب ، فهناك موضوعات جديدة كثيرة يجب أن يلم الطالب الأزهرى بها ، فقد جد فى الفقه مثلا ما لم يكن معروفا لغير الخاصة وكانوا يتحرجون منه وصار الآن أمرا مقضيا يتعامل الناس عليه فى حياتهم الجارية ، وتعتمده الفتيا الرسمية . وجد فى التوحيد من الآراء والمذاهب والشبه ما يضطر الطالب إلى دراسته وتفهمه ومعرفة وجه الحق فيه . وهكذا سائر العلوم المقرر تدريسها فى الأزهر ومعاهده .

وليكن ذلك الجهاد العلمى بين الأساتذة أساسا لتقدير الكفايات العلمية ، والمكافآت الأدبية والترقيات إلى الكليات والمناصب الكبرى ، وليكن كذلك علاجا ناجعا لكثير من المشاكل الحاضرة التى تزداد على الأيام تعقداً .

أما الوسائل الأخرى لإعداد هذا الجيل من ثقافة وخلق ونشاط مدرسى وغيره فإلى مقال تال إن شاء الله .



كمال احمد عوده

المدرس بمعهد طنطا

المسلمون بين يقظتهم وسباتهم

المسلمون على جهالة بعضهم ... عرفوا الحياة نعيمها والبوسا
أخذوا عن الزمن المشاغب علمها ... وتجرعوه من الخطوب دروسا
أفيبلغون مدى العواصف نوّما ... أم يدركون سنا البروق جلوسا
ليس الذى لبس السلاح كعاجز ... جعل التهيب والنكول لبوسا
قل للألى جهلوا الجهاد وحكمه ... لا تأخذوه محرّفا معكوسا
خوضوا الغمار ، فلن تنالوا مأربا ... حتى تروها تستطير ضروسا
لو ضن معتنق الحتوف بنفسه ... مانال من دنيا الرجال نفيسا

أحمد محرم

كفاح الحياة
قصة كفاح مسلمي الفلبين

حين أشرق نور الإسلام على الجزيرة العربية ، بدل حياة أهلها من خمول ولهو إلى جهاد وعمل ، فإذا بالأمة العربية المبعثرة التي لم تكن تحس بها الإمبراطوريات العظيمة الموجودة حينذاك ، إذا بها تهز العالم المعروف هزاً ، وتغزو أراضيه ، وتنشر دين الله ، فيدخل الإسلام القلوب ، ويقيم فيها راسخاً لا يزلزله أمر مهما عظم .

وأخذ العرب يسيحون شرقا وغربا ، يركبون متن البحار أو يقطعون الفيافي ، يملأ النشاط جوانب حياتهم ، ويفيض عنهم ، فيغمر من يتصل بهم من شعوب . وعن طريق هؤلاء الرحالة الجوابين في كل الآفاق ، المتاجرين في كل ثغر وميناء ، دخل الإسلام جزر الهند الشرقية ، وتمكن من قلوب أهلها ، فغدت بلادا إسلامية ، وكانت المدنية الإسلامية في القرن العاشر الميلادي تلمع بأسطع أشعتها فتضيء الطريق لكل من يريد أن يهتدي .

وعرفت جاوة والملايو الإسلام عن طريق هؤلاء التجار العرب ، ولم تكن العلاقات التجارية وحدها هي السبب في اعتناق أهلها الإسلام ، وإنما هي قوة العقيدة في نفوس حامليها ، تفيض منهم إلى غيرهم ، فتأخذ طريقها إلى القلوب ببساطتها ، وإلى العقول بقوتها ، فلم يكن عجيباً أن يكتسح الإسلام في هذه الأقاليم الديانتين السائدتين وهما البرهمية والبوذية .

* * *

ودفعت الحالة الاجتماعية أهل الملايو إلى الهجرة ، وكان طريقهم الطبيعي يتجه إلى مجموعة من الجزائر - هي المعروفة بجزائر الفلبين - فوصلوا إليها على ثلاث دفعات ، الأولى ما بين سنة ٢٠٠ - ١٠٠ ق م ، والثانية ما بين ١٠٠ ق . م - ١٣٠٠ م . والثالثة من

١٣٧٠ - ١٥٠٠ م ، وكان أهل الملايو فى هذه الفترة الأخيرة قد دخل الإسلام قلوبهم ، فنقلوا معهم دين الله الحنيف إلى جزائر الفلبين [١] .

والفلبين مجموعة ضخمة من الجزائر ، يبلغ عددها ٧٠٨٣ جزيرة تقريباً [٢] ، تقع بين خطى عرض ٢١ ، ٤ شمالا ، وخطى طول ١١٦ ، ١٢٨ شرقا ، وهى جزائر بركانية جبلية كثيرة الزلازل ، غنية بحاصلاتها النباتية والمعدنية .

وسكانها الأصليون زنوج أقزام Nigritoes من جنس الـAetas ، قاربو الانقراض ، ولا يوجد منهم الآن إلا أقل من ٣٠ ألفاً ، موزعين فى جبال المناطق الكبرى ، يعيشون على الفطرة ، ثم جاء أهل الملايو ، ويكونون العنصر الغالب فى السكان الآن بجانب جاليات صينية ويابانية ضخمة ، وعدد من الأوربيين .

وعدد السكان - حسب إحصاء ١٩٤٨ يزيد عن ١٩ مليونا ، ٤ ٪ منهم مسلمون أى ٨٠٠ ألف نسمة كلهم سنيون ، يقيمون فى جزيرة منداناو وخليج صولو .

أما باقى السكان فيدينون بالمسيحية والوثنية ، وكان توزيعهم سنة ١٩٣٠ كالآتى :

مسيحيون ٨٤٨٦،٧١٣ ، مسلمون ٣١٥،٩٨١ ، وثنيون ٧٠٠،٥٧٨ .

ويطلق على المسيحيين لفظ Philippinos ، وعلى المسلمين لفظ Moros [٣] .

* * *

قام فرديناند ماجللان برحلته المعروفة حول الأرض فى أوائل القرن السادس عشر ، وفى ١٦ مارس ١٥٢١ وصل إلى أرخبيل كثير الجزر ، أطلق عليها إسم جزائر الفلبين ، تيمنا باسم الملك فيليب الثانى ملك أسبانيا وقتئذ . ودخلت هذه الجزائر باب التاريخ الحديث من ذلك اليوم ، فحاول الأسبان تثبيت أقدامهم فيها بقوة السيف ، ووطئوا أرضها بقواتهم سنة ١٥٦٥ ، وما لبثوا أن أرسلوا إليها رئيساً دينياً Bishop أسبانيا سنة ١٥٨١ ليشرف على نشر المسيحية فى هذه الجزائر ، بنفس الطرق التى اتبعتها أسبانيا بعد خروج المسلمين من أرضها ، والتى اتبعتها فى كل مستعمراتها ، وهى طرق محاكم التفتيش .

(١) عن مجلة Islamic Review عدد يناير سنة ١٩٥٣

[٢] ذكر الأمير شكيب أرسلان أن عددها ١٢٠٠ جزيرة فقط . راجع حاضر العالم الاسلامى .

(٣) ED. 1944 — V. 21. Encyclopedia Americana

ومن هنا جاء اصطدام الإسبان بالمسلمين، الذين أطلق عليهم إسم «مورو» لأنهم يدينون بنفس الدين الذى يعتنقه المراكشيون أو «المورو» باللغة الاسبانية، فقد حاول هؤلاء أن يخرجوا المورو عن دينهم، ولكن التاريخ يقص علينا أنه ما من شعب اعتنق الإسلام إلا بقى عليه، وليس ثمت أمة اعتنقت هذا الدين الحنيف وتركته. وثار المورو من أجل دينهم، وثاروا من أجل حريتهم فكان كفاحهم العنيف ضد المستعمرين.

يروى تاريخ المورو أن «مقدم» أحد العلماء المسلمين من ملقا نزل بساحل جزيرة صولو وأرسى أول حجر فى تاريخ الإسلام فى الفلبين، ثم توالى قدوم العلماء المسلمين وعدد من أمرائهم، فأنشأوا الممالك، ونشروا العدل، وعدلوا نظام الحكم إلى النظام الإسلامى[1] ودخل أهل هذه الجزائر فى دين الله أفواجا، وعم نور الإسلام أنحاء كثيرة منها حتى جاء الإسبان.

وأراد الإسبان أن يغتصبوا الأرض، وأن يستعبدوا الناس، وأن يحولوهم إلى الدين المسيحى. واستجاب الوثنيون إلى رغباتهم، أما المسلمون فوقفوا دون أرضهم وحريتهم وعقيدتهم وقفة الأبطال واستمروا يكافحون ضد المستعمرين قروناً طويلة استشهد فيها منهم عدد عظيم؛ ولكنهم حفظوا استقلالهم بشرف دفاعهم. ولم يتمكنوا الإسبان منهم.

بدأ الإسبان العدوان، فأرسلوا حملة ضد مسلمى صولو سنة ١٥٧٨ فاستولت عليها على الرغم من الدفاع المجيد والمقاومة العنيفة. وكانت هذه الحملة بدءا لسلسلة طويلة من الغزوات والحروب بين المورو والإسبان، كان النصر فيها سجالا بين الطرفين. وكان الإسبان يستعينون بالفلبينيين المسيحيين، ولكن الثورات ما لبثت حتى عمت أهل الفلبين جميعاً، وأخذ النصر تتأرجح كفته بين أصحاب البلاد المؤمنين بدينهم وحقهم فى الحرية، وبين المغتصبين المعتزين بقوتهم وطغيانهم.

ورأت إسبانيا أنها لن تجد سبيلا إلى الاستقرار، وأن السلاح القوى فى أيدى جنودها لن يجديها نفعاً ضد هؤلاء المسلمين المتعطشين إلى الموت فى سبيل دينهم وحريتهم، ومن ثم عمدت إسبانيا إلى عقد المعاهدات معهم، وكانت أولى هذه المعاهدات سنة ١٦٤٥، وأهم بنودها النص على التبادل التجارى.

(١) لا يزال هؤلاء يكونون الطبقات الحاكمة (دائرة المعارف البريطانية).

ولـكن لم تلبث الحرب أن استؤنفت .

وشهد النصف الثانى للقرن الثامن عشر أعنف صور الحرب بين المورو والإسبان ، فأخذ الأولون يشنون هجماتهم فى قوة وعنف على المراكز الإسبانية ، ويكبدونهم خسائر فادحة فى المـال والأرواح والعتاد .

وكان المورو إذا فقدوا أحد مراكزهم ، انتقلوا إلى غيره واتخذوه قاعدة يشنون منها هجماتهم ، كانوا كتلة من الإيمـان المشتعل ، لا يخمد لهم أوار ، ولا يفل لهم عزم ، كان النصر يدفعهم إلى نصر آخر ، وكانت الهزيمة تؤملهم فى نصر قريب .

وإزاء هذا الإصرار الكريم فى الدفاع عن الأهل والأرض ، جلا الإسبان عن منداناو وصولو سنة ١٨٩٩ ، وحل محلهم جنود أمريكيون [1] ، واضطر هؤلاء إلى الحرب أيضاً ، فخسروا خسائر فادحة فى أيام قليلة ، ورأوا أن يبحثوا عن السلام بعقد معاهدة مع المورو ، وبسطوا وجهة نظرهم وهى أنهم لم يجيئوا مستعمرين للنهب والاستغلال وفرض الدين المسيحى ، ثم عقدت معاهدة عرفت باسم معاهدة Bates نال بهـا المورو الحكم الذاتى وتعهد الأمريكيون باحترام دينهم ، وحلت فترة من السلام والاستقرار فعمروا ما خربته الحرب ، وأقاموا المدارس . [2]

وهكذا كان المورو سكان جزر منداناو وصولو أعظم أهل الفلبين شجاعة وبطولة ، فقد فشل الإسبان فى إخضاعهم رغم أربعة القرون التى استغرقها الـكفاح بينهما .

* * *

استقر المورو فى بلادهم ، واطمأنوا إلى حريتهم وإلى دينهم ، ولـكن انشغالهم هذه القرون الطويلة بالـكفاح جعلهم لا يعرفون من أمور دينهم إلا القليل ، فرأوا أن يولوا وجوههم شطر البلاد الإسلامية يسألونها العون للتفقه فى أمور الدين .

ولم يكن أمامهم سنة ١٩١٣ إلا تركيا ، فأوفدوا اليها رسولا يلتمس إرسال مرشدين لتفقيه مسلمى الفلبين فى أمور الدين ، واستجابت المشيخة الإسلامية فى استانبول إلى الالتماس ، فأوفدت أحد العلماء العرب وجعلته أشبه بإمام للفلبين [3] ، واستقبله المسلمون هناك أجمل

---

(١) نشبت الحرب بين أمريكا وإسبانيا فى الفلبين سنة ١٨٩٨ وانتصرت أمريكا ، وفى معاهدة باريس نزلت إسبانيا لها عن جزائر الفلبين نظير ٢٠ مليون دولار .

(٢) تذكر دائرة المعارف البريطانية أن المورو عظيمو الاحترام لأنفسهم ، وعلى قدر كبير من الكرامة الشخصية ، شديدو الشوق للتعلم ، يميلون إلى الموسيقى ، كرماء ، وهم جنس مثالى جم الأدب . V. 17-P. 730.

(٣) عن كتاب حاضر العالم الاسلامى ـ تعليقات شكيب أرسلان ـ الطبعة السلفية .

وأحفى استقبال ، وبدأ فى تحقيق مهمته لولا أن دهمه المرض فعاد إلى بلاده ، ثم أبت المشيخة الإسلامية (فى تركيا) أن تعنى بالأمر بعد ذلك ، مهملة أمر المسلمين فى الفلبين ، فرأى المبعوث ، بعد أن أبل من مرضه ، أن يعود على نفقته ، وقد ذكر فى بعض تقاريره أن مسلمى الفلبين يتراوح عددهم بين مليون ومليونين .(١)

* * *

وكنت أود - حتى ينتهى هذا الحديث نهاية منطقية - أن أتحدث عن الصلة التى قامت بين الأزهر ، وبين مسلمى الفلبين ، ولكننى لم أجد لدى مراقبة البحوث والثقافة الإسلامية بالجامع الأزهر ، الأوراق التى تبين طبيعة هذه الصلة ومبدءها وتطورها ، بحجة ضياعها من المراقبة فى العهد السابق ، وهو أمر مؤسف ، إذ أن مثل هذه الأوراق والمراسلات إنما هى ملك للمسلمين جميعاً وللتاريخ ، وفى ضياعها ضياع لكثير من الحقائق التى كان يجب أن تبقى وأن تذاع .

ومهما يكن من أمر ، فقد انتقلت زعامة العالم الإسلامى ، بعد الحرب العالمية الأولى إلى مصر ، فكان طبيعياً أن تتجه أنظار المسلمين إليها ، وأن ترنو قلوبهم نحو جامعتها الأزهرية العظيمة التى هى حلم كل مسلم فى مختلف أرجاء العالم .

وكانت قد تكونت فى الفلبين عدة جمعيات إسلامية تهدف إلى الرقى بالمسلمين ، وتعمل على تفقيههم أمور دينهم ، واتصلت هذه الجمعيات بالأزهر ، فرأت مشيخته أن توفد إلى هذه الجزائر اثنين من الأندونيسيين المتخرجين فى الأزهر - وهما من أبناء أقرب الشعوب الإسلامية إلى شعب الفلبين - لتفقيه المسلمين فى أمور دينهم ، فسافرا حوالى عام ١٩٥٠ م ، ولا يزالان يعملان - تحت إشراف الأزهر وعلى نفقته - على أداء رسالة الأزهر السامية ، فأنشآ بعض المدارس ، وعمرا كثيراً من المساجد ، وبذلا الجهد الكبير للرقى بهؤلاء القوم الذين طالما كافحوا من أجل دينهم وحرياتهم .

عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب

---

(١) عددهم فى إحصاء ١٩٤٨ نحو ٨٠٠ ألف فقط . والاحصاءات الأجنبية للمسلمين فى أوطانهم كثيراً ما يتعمد فيها نشر أرقام قديمة لاحصائيات قرن سابق ، ومن هنا يظهر التفاوت بين ما يعرفه المسلمون عن عددهم وما ينشره الأجانب عنه .

النقد الأدبي وتاريخه

في اللغة ، النقد والتنقاد : تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها . ومن المجاز نقد الكلام : ميّز جيده من رديئه . وكان العلماء المتقدمون يريدون بنقد الكلام تعقب الأدباء وبيان أخطائهم . وقد ألف أبو عبد الله المزرباني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ كتاب (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء) ضمنه عيوب الشعراء العائدة إلى سقطاتهم في اللفظ والمعنى أو الوزن أو القواعد .

وكانت كلمة « النقد » تقابل كلمة « التقريظ » المراد بها بيان المحاسن والكشف عن مواطن الجودة والصواب . والمراد بالنقد في اصطلاح مؤرخي الآداب دراسة النصوص الأدبية دراسة تفسرها وتشرحها وتحللها وتوازن بينها وتحكم عليها حكما يكشف عن قيمتها في نفسها ودرجتها بالنسبة إلى غيرها . وبعبارة أخرى هو « التقدير » الصحيح للأثر الأدبي ، وبيان قيمته في ذاته ودرجته بالنسبة إلى ما سواه .

تاريخ النقد

وقد نشأ النقد موجزاً مرتجلا ، فقد كان في العصر الجاهلي نقد أدبي لكنه فطري يعتمد على الذوق يسير ملائماً للعصر الجاهلي وللشعر الجاهلي نفسه . فالشعر الجاهلي إحساس محض ، والنقد كذلك ، كلاهما مبني على انفعالات نفسية وتأثر بما يشاهد أو يقرأ أو يسمع . وهو جار على السنن الطبيعي لكل نقد أول نشأته فالعربي مرهف الحس ، سريع التأثر ، تنال القصيدة الرائعة منه فيطرب لها ، وتؤذيه الكلمة النابية فينفر منها . وفي كلتا الحالتين يحكم على هذه الآثار بذوقه وبنظرة عاجلة ، غير معتمد في حكمه على أسس موضوعة ، أو أصول مقررة .

ومن أجل هذا نستطيع أن نقول إن النقد الأدبي في هذا العصر لا يتعدى أن يكون مآخذ على الشعر هدى إليها الأدباء والشعراء بطباعهم . وعيوباً دلهم عليها ذوقهم السليم .

وظل النقد على فطرته وسذاجته فى صدر الإسلام فلم يعلل ناقد حكمه ، أو يبين الأسباب الموجبة للتحسين أو التقبيح ، وإن كان قد تقدم بعض الشىء مسايرة لسنن الارتقاء . فالرواة يحدثوننا أن عمر بن الخطاب فضل زهيراً على الشعراء بأنه كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب وحشى الشعر ، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه . فهو يشرح لنا سبب التفضيل بأنه كان واضح المعنى ، تنكشف العبارة عنه ، ليس فيه غريب ولا تعقيد ، بعيد عن الإفراط فى المدح . ففضل زهير يرجع إلى وضوح أسلوبه . فى هذا العهد مال النقد إلى شىء من الدقة وحاول أن يترجم عن بعض الخصائص الفنية لاتساع تفكير العرب بما فتق القرآن الكريم من عقولهم وصفى من أذهانهم . لكنه لم يعد أن يكون يافعاً خاضعاً للانفعالات النفسية والأذواق الفطرية فلم يضف شيئاً جديداً إلى النقد وأساليبه .

وفى النصف الأخير من القرن الأول تغير النقد وتعددت مذاهبه ، وهو الوقت الذى يمكن أن نؤرخ به النقد الأدبى ، فقد قويت نهضة الشعر وتعددت بيئاته وتبارى الشعراء فى تجويده وتهذيبه ، وساعد على ذلك إحياء العصبية وقيام الحروب الداخلية وشيوع الغناء بالحجاز وتتابع الوفود على الخلفاء والولاة ، فتقدم النقد وتناول اللفظ المفرد والمركب والمعنى والخيال والوزن ، وصرنا نسمع « صفاء الطبع » و « جمال الصنعة » و « الجزالة » و « رقة الأسلوب » و « متانة التركيب » و « القوافى المخنثة » وتناول فنون الشعر كلها ، وشمل المفاضلة بين الشعراء ، وقسمهم إلى طبقات ، ودار بين فحول الشعراء كجرير والفرزدق والأخطل وشعراء الغزل كجميل وكثير وعمر بن أبى ربيعة والأحوص وغيرهم ، ولاحظ الصلة بين الشاعر وبيئته . فعدى بن زيد ليس فى مرتبة المتقدمين من أقرانه لأنه حضرى مقيم بالحيرة فنال ذلك من ملكته الشعرية واللغوية . وابن قيس الرقيات لا يوثق به لأنه أقام بتكريت .

ومع هذا التقدم ، فإن النقد إلى هذا العهد يعتبر امتداداً للنقد الجاهلى وشبيهاً به فى قيامهما على الذوق واعتمادهما على السليقة .

وفى القرن الثانى نهض الأدب والنقد لتقدم النشاط العلمى وتطور الحياة الاجتماعية وقيام ثورة على الأدب القديم تولى كبرها فحول الشعراء أمثال بشار وأبى نواس وأبى العتاهية

ومسلم بن الوليد ، وتبع ذلك قيام النقاد يفضلون بين مذهب وآخر فوجد من يتعصب للقديم فيؤثر عفو الخاطر وجمال الطبع ، ومن يتعصب للحديث فيؤثر الصناعة والتعمق فى المعنى ، وتنتهى أصول النقد عندهم إلى أصلين عامين : ما يسرى إليهم من العصور السابقة وما تجدد لهم من أثر الفلسفة والجدل والبلاغة والمنطق . ولكل طائفة آراؤها التى ذهبت إليها وأنصارها المؤيدون لها . وجد المبرد والسكرى من اللغويين وابن المعتز صاحب كتاب البديع من الأدباء وابن قتيبة من العلماء وقدامة صاحب كتابى نقد النثر ونقد الشعر من الذين تأثروا بالفلسفة ، وكان من آثار ذلك تفاوت مناحى النقد والوقوف على خواص الشعر المحدث وما يؤخذ عليه وإن لم يبلغ رجاله فى التفسير والتعليل ما بلغ نقاد القرن الرابع فإن النقد فى هذا القرن بلغ أوفى غاية الغايات من حيث شموله وعمقه ودقته ، ونضجت ملكة الذوق عندهم لطول ممارستهم للآداب ونظرهم فى أعقابها وموازنتهم للآثار الأدبية ، فاجتمع لهم جمال الطبع وحسن الصنعة وصفاء الذوق ، فنقدوا الآثار الأدبية نقداً عميقا واسع الآفاق ، فيه تحليل للظواهر الأدبية وردها إلى أصولها الصحيحة ، ودارت معركة عنيفة بين أنصار أبى تمام وأنصار البحترى ثم بين أنصار المتنبى وخصومهم ، وكسب النقد من وراء ذلك كتبا قيمة مثل كتاب (الموازنة بين الطائيين) للآمدى و (الوساطة بين المتنبى وخصومه) للجرجانى . ورسالة الصاحب بن عباد فى (الكشف عن مساوىء المتنبى) ودخلت مسألة السرقات الشعرية فى باب النقد ، ولم يبق شىء يمكن أن ينقد غفل عنه أدباء القرن الرابع ولم يشرعوا فيه .

وكان هذا النقد الأدبى العامل الأول فى نشأة علم البلاغة ، فإن هذه المآخذ والآراء تحولت إلى قوانين علمية هى قوانين البلاغة .

عبد الغنى اسماعيل

المدرس فى كلية اللغة

أيهما المعتدى ؟

لو كنت قاضيا ، ورفع إلىّ شاب تجرأ على امرأة فمسها أو احتك بها أو طاردها أو أسمعها ، وتحقق عندى أن المرأة كانت سافرة مدهونة مصقولة متعطرة متبرجة لعاقبت هذه المرأة عقوبتين : إحداهما بأنها اعتدت على عفة الشاب ، والثانية بأنها خرقاء كشفت اللحم للهر .

مصطفى صادق الرافعى

الفتاوى

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتي :

اتجهت النية إلى نقل رفات شهداء حملة فلسطين من مقابر سيناء إلى المقبرة الجديدة بالخفير التي أعدت تكريما لهؤلاء الشهداء وتعزية لآلهم الذين كرروا الرجاء لنا بطلب نقل رفات شهدائهم إلى القاهرة .

فنرجو التكرم بإفادتنا عن المراسيم الدينية التي تقتضيها الشريعة الإسلامية الغراء أثناء النقل وعند الدفن ، مع العلم بأنه سبق أن اتخذت حيالهم المراسيم الدينية كشهداء عند دفنهم هناك .

ملاحظة : الشهداء المذكورون منهم من صلى عليه ومنهم من لم يصل عليه قبل الدفن ولم يعلم من صلى عليه من غيره . وأيضا قد كان مع المسلمين مقاتلون من غير المسلمين ولا يتميز المسلم من غيره . فنرجو الإفادة عن ذلك .

قائم مقام

رئيس إدارة الجيش

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال وعلى البيان الملحق به . وتفيد بأن الشهداء الذين قتلوا في المعركة من المسلمين وغيرهم لا يغسلون بل يدفنون بجروحهم ودمائهم وثيابهم التي عليهم بعد أن يصلى عليهم ، وثيابهم هذه هي كفنهم لا يزاد عليه ولا ينقص منه ، لكنه إذا كانت ثيابهم لا تكفي لتغطية أجسامهم فينبغي أن يزاد عليها ما يكفي لذلك ، كما ينبغي أن ينزع عن كل منهم حذاؤه وجوربه ومنطقته وقلنسوته وسلاحه وكل ما ليس من جنس ثياب الكفن .

وإذا كان هؤلاء الشهداء قد صلى عليهم قبل دفنهم في مقابر سيناء فلا تعاد الصلاة عليهم مرة أخرى . أما إذا كانوا قد دفنوا من غير صلاة ، فإنه يصلى عليهم هناك قبل نقلهم ،

أو يصلى عليهم فى مصر بعد نقلهم إليها ، كما أنه يصلى عليهم لو كان هناك شك فى أنه صلى عليهم قبل ذلك .

وإذا اختلط بهؤلاء الشهداء غيرهم من الذين كانوا يقاتلون معهم من غير المسلمين ، ولم يمكن التمييز بين المسلمين وغيرهم لأجل الصلاة على الشهداء ، فإنه يصلى على الجميع بنية الصلاة على الشهداء . وبهذا علم الجواب عن السؤال والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

وجاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

نرجو التفضل بالإفتاء على مذهب الإمام الشافعى أو على غيره من المذاهب عن صرف البعض من زكاة التجارة على غير الأصناف المذكورة فى الكتاب الكريم :

أولا — إذا صرف البعض من زكاة التجارة على المدارس الدينية التى ليست لها أوقاف ولا مساعدة من أغنياء المسلمين تقوم بالكفاية ، وأن آباء التلاميذ لعاجزون عن القيام بنفقات الأساتذة أو يحصل منهم شىء ، وإذا لم تجمع كمية وافرة من زكاة التجارة التى تسد رواتب الأساتذة لسنة كاملة تتوقف تلك المدارس عن مباشرة عملها وسيعيش الأولاد فى ظلمات الجهل .

ثانياً — إذا صرفت أيضاً لتأسيس المدارس الدينية أو لعمارة المساجد أو لإعانة الملاجىء التى يأوى إليها الفقراء العاجزون عن الكسب وليس لهم من يعولهم ، أو على غير ذلك من المشروعات الخيرية . فهل يجزى صرفها على المشروعات الخيرية التى ذكرناها .

سعيد بن صالح السبيلى
التيمين

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأنه يجوز الصرف من الزكاة على المدارس الدينية التى ليست لها أوقاف ولا مساعدات من أغنياء المسلمين تقوم بكفايتها مع عجز آباء التلاميذ عن القيام بنفقات التعليم فى هذه المدارس كما هو وارد فى السؤال .

وكذلك يجوز صرفها فى تأسيس المدارس الدينية وعمارة المساجد وإعانة الملاجىء

التى يأوى إليها الفقراء العاجزون عن الكسب وليس لهم من يعولهم ، وغير ذلك من المشروعات الخيرية وأعمال البر .

وهذه الجهات تعتبر من « سبيل الله » الذى جاء فى آية مصارف الزكاة وهى قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين الآية » فإن سبيل الله ليس مقصوراً على الجهاد ، بل هو شامل له ولكل ما هو من أعمال البر والخير . وبهذا تفتى اللجنة ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

إن لجنة جامع بلودان فى جمعية الهداية الإسلامية بدمشق قد عزمت على بناء جامع فى قرية بلودان يتسع للمواطنين والمصطافين الذين يقصدون هذا المصيف الجميل . وقد أقبل على هذا المشروع جمهور كبير من ذوى الغيرة والدين مما جعل اللجنة على ثقة من فضل الله الكريم بنجاح هذا المشروع الإسلامى .

ولكن بعض الجيران من المسيحيين أراد المساهمة فى بناء هذا الجامع بالتبرع بشىء من الأرض لتأمين الوصول إلى حديقة الجامع ، وبعضهم تنازل عن مواسير حديدية لا فائدة له منها ويستفيد الجامع بنقل مائه بواسطتها . فهل يجوز شرعا قبول هذا التبرع منهم . كما نستفتيكم فى جواز قبول المال عن يتبرع من المسيحيين ليضم إلى المال الذى ينفق على عمارة المسجد .

أمين سر جمعية الهداية الإسلامية
بدمشق

الجواب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فقد اطلعت اللجنة على هذا السؤال ، وتفيد بأنه لا مانع شرعا من تبرع المسيحيين المسجد بقطعة الأرض المشار إليها ، أو بمال ، أو بأدوات يستعان بها فى بنائه . وقد نص فقهاء الشافعية فى معتمدات كتبهم على جواز وقف غير المسلم على المساجد ونحوها مما هو قربة عند المسلمين . وجاء فى المادة السابعة من قانون الوقف المعمول به فى مصر رقم ٤٨ لسنة ١٩٤٦ ما نصه « وقف غير المسلم صحيح ، ما لم يكن على جهة محرمة فى شريعته وفى الشريعة الإسلامية » .

ومتى كان الوقف من غير المسلم على المسجد جائزاً فيكون التبرع بغير طريق الوقف جائزاً أيضا . وبهذا علم الجواب عن السؤال . والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

بين الجد واللعب

خطرات ـ فى فترات ـ تجد ، فتكد ، وتسف فتحف

البينات

تلوت خبراً رقيقاً عن دابة كانت فاقدة فردت ، فقال مالكها فى إثبات ملكيتها : إنه يتقبل أن ترسل دابته فى أطراف بلده ، فإن لم تعمد إلى داره ، فليست بدابته !!! ، على أن القانون ـ فيما يقولون ـ لا يقر هداية الدواب ، كما يقر الشهادات !!!

خبرٌ طريفٌ ، على أن لى فيه هذا الحديث الطلى المجدى :

اتخذ رجلٌ مريبٌ ، بيتاً مريباً فى ضاحية بغداد ، يأوى إليه المريبون ، فلما أُخذ بفعلته ، جحد تهمته ، فقيل له إن دواب المكارين كلها تعرف بيتك ، لكثرة ما تغشاه بركابها !!! ، فلما أرسلت عمدت إليه !!! ، فقال الرجل : إن الله عز وجل يقول : « ممن ترْضونَ من الشهداء » ، وأنتم تسمعون شهادة الحمير !!! .

هزلٌ هذا ، ربما كان أداة الجد !!! ، أما أن القانون لا يتقبل مثل هذه البينة أو القرينة ، فإن فيه مقالا للتشريع :

كان الفقه الإسلامى يقول فى البينة : إنها الشهادة ، حتى قال الإمام « ابن تيمية » ، أو تلميذه « ابن القيم » أو هما معاً : كلا ، إن البينة كل ما أبان الحق[1] !!! ، فكان هذا الرأى من عالم إسلامى خطير ، مفخرة التشريع فى الإسلام والشرق ، بل وفى الغرب !!! .

لقد سبق الإمام « ابن تيمية » وتلميذه « ابن القيم » أساطين العلم والقانون فى الشرق وفى الغرب حين قالا : إن البينة كل ما أبان الحق ، لا الشهادة وحدها ، فأدخلا فى البينات كل ما هو بسبيل من إبانة الدعوى ، وجلاء الحقوق . أجل ، إن التحليل الكيماوى ، والتصوير

---

(١) المجلة ـ إن الامام ابن القيم توسع فى بيان ذلك فى كتابه « أعلام الموقعين » عند شرحه كتاب أمير المؤمنين عمر فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى واليه على البصرة .

والخط ، والصوت فى الحاكى والتسجيل ، وتهدِّى الحيوان ، هذا ، مما يبين الحق من البينات ، عماهو عماد العمل فى القضاء المصرى . ولقد كان قبل « ابن تيمية » وقبل تلميذه ، من القرينة على الجريمة !!!

لعينى البيان :

الكناية فى الأدب العربى طلاوة البيان ، سحر الاحسان ، بل هى قيد الحسن ، مغزى الجمال .

قال شاعر يتبرم بليله يتبلد ، وصبحه لا يتبلج :

أســدوا مسارح ليل العرا ق أم صبغوا فجره أسودا ؟؟؟

« صبغوا فجره أسودا » معجزة البيان العربى كله . أما السحر بجملته ، فى جلال الشعر ، وأما الفتنة البحتة ، فى وقار الحشمة . وعزة العصمة ، فتلك كلمة « ليلى العفيفة » فى قصيدتها التى تستعدى فيها قومها ، وأخاها ، وابن عمها « البراق » حيث تقول فى إسارها والنيل منها :

ليت « للبراق » عينــا فترى ما ألاقى من بلاء وعنا

ثم تقول فيها من الكناية الساحرة :

قيــدونى ، غللونى ، ضربوا « ملمس العفة » منى بالعصا ! !

لقد درجت عصور الأدب كافة ، على أن فى كلمة « ليلى العفيفة » « ملمس العفة » نفثة السحر ، لا فتنة الشعر ، وحشمة الحياء ، فى ثوب الإباء .

بيد أنى لست أدرى : لم ؟ ؛ ولا كيف ؟ ، تلغى تلك الكلمة على عهد ؟ ، لهـذا العهد ، وتبدل بكلمة أخرى ؟ ، وهى عفة خفرة ؟ ، يندى لتركها البيان والأغنيات ، وجبين الخفرات .

قـديم وجديد :

أطبقت الآراء كافة ، وزكتها صور الرجالات الماثلة ، على أن المثقف القـديم إذا اتسق له أن يكتسى إلى قديمه مسحة من جدة العلم والحيـاة ، ويحذق طرازاً من المدنية ، كان رجل الدنيا ، ظفر بالاجازتين ، وذهب بالحسنيين ، كذلك أطبقت الآراء ، وزكتها المشاهدة ، على أن الدارس إذا كان قديما بحتاً ، لم تصقله جدة العصر والعلم ، فإن عجائز القرى ، وقعائد الأكواخ ، أقوم منه لباً ! ، وأنضر تحضراً ! .

نبأ ساحر عجب ، لا بالعجيب ولا المستندر ، أن تأخذ الشرطة بالأمس مسجديا يتجر فى المخدرات ! ! ! ويتصرف فى الأفيون ! ! ، ولست أمارى فى أن هذا المسجدى تنزل عليه وحى كتبه العتيقة المتبذلة ، التى تؤمن بأن « حشيشة الفقراء » على التمثيل ، كانت من كشف أبناء الطرق الصوفية ، فليست كبيرة الحرمة ، وإن ذهبت بالحرمة !!!.

تعالى الله ماشاء ، لقد تبلج الدين ، وتوضّحَ اليقين ، بأن كل ما عدا على الجسمان من المآكل حرامٌ قراح ، حتى الخبز ، وكل ما سطا على اللب والحصاة من الشراب حرام محض ، حتى اللبن !!!

هذا المتجر المتصرّف فى المخدِّرات والأفيون ، قديم الدراسة ، غاب عن أنظمة العصر!! ولم يشهد تحضر القانون !!! الذى يحظر كل ما سطا على الجسمان ، واستلب اللب ، ولو شهد العصر !!! ، لتعلم حرمة المخدّرات كحرمة المخدِّرات !!! .

ولو شئت أشهدتك ، دارساً قديماً ، إن شئت حذقت على يده الصناع المبتكرة ، تزييف النضار والعسجد !!! ، بالنحاس !!! وصرف الدرهم ديناراً !!! يصنعه عن فتيا ، بل دعوى .

رأى عتيق زائف عند ذلك المزيف وأشباهه من قدامى الدارسين ، أن سك النقدين لا يحظر إلا حيث يكون الحاكم الشرعى القائم ، والخلافة إسلامية !!! فيها أمير المؤمنين ومنبر .

أما أن يتقى الدارس القديم معرة القانون ، والعهد ، فلا يرى الجهرة بفتكة ضخمة من التزييف ، وبجيعة نكراء ، من إتلاف النقد ، لا ينادى وليدها !!! ، فليس هذا منه فى رأى بعد ، ولا هو مما يعتقد !!!

من يدخل الأفيون بيت لهاته فلياق بين يديه نقد حياته !!!

تلك المسجدية القديمة كما تشهد ،

أما حديث « أبو سمرا !!! » فذاك أن علامة كبيراً قديم الدراسة ، لقينى ، فقال لى : أبلغك تحية « أبو سمرا !!! » فقلت حياه الله ، أحسبه بعض من يداخلنا من السوقيين والخدم !!! ، ثم مضيت ، ومضى .

تكشفت دخيلة الأمر فى « أبو سمرا !!! » الذى يبلغنى الأستاذ الكبير تحيته ، عن سيد عربى أصيل ، هو بضعة من الزهراء بنت محمد صلوات الله عليه !!! ، وهو على ماتيك

عالم مدرس عريق، وشاعر كبير ، بيد أن أشعة الشمس الوقادة ، نفضت عليه لون السمرة !!! وكأن الأستاذ لجهالة التاريخ !!! ، لم يسمع بأن فى السمر بعد ، إلا عبد !!! .

هما خطتان : إما دراسة مدنية حديثة ، وأنت سيدٌ من العلماء ، وإما دراسة عتيقة بحتة ، ولست وإن طاولت السماء ، من العلماء !!! .

بيض محول :

فـكاهة ساحرة ، أو دعابة ساخرة ، فقـد يفرط الجد ، فيكد ، وتسأم حين تدأب ، فتلعب !!! ، قال شاعر ، أشك فى أنه « أبو دلامه » يهجو عبد «الصمد بن المعذل» الشاعر :

ابن المعذل من هو ومن أبوه المعذل !!!
سألت « وهبان » عنه فقال « بيض محول » !!!

« بيض محول » هذا مغزاه أن عبد الصمد ليس لأبيه بل هو « لغية » ! .

سمع « وهبان » بائع الحمام هذا ، فخاف معرة الهجاء من عبد الصمد بن المعذل ، فطاف على مجالس العلماء وأنديتهم فى المساجد . يقسم لهم : أنه لم يقل إن عبد الصمد بن المعذل « بيض محول » فقال عبد الصمد : من يعذرنى من « وهبان » فإن طوافه على الناس فى المحافل يقسم لهم : إنه لم يقل إن عبد الصمد بن المعذل « بيض محول » أغيظ لى من الهجاء ، بهذا الشعر البارد !!!

هذه طرفة التاريخ الأدبية ، أما طرفة الأدب العصرية ، فهى هذه :

حرش شيخ من شيوخ القضاء والأدب ، تغمده الله برحمته ، أديبين هما اليوم فى رحمة الله مثله : أحدهما شاعر وزجلى مقتدر ، والثانى طالب علم دينى قديم ، وزين لهما أن يتهاجيا ، وجعل لمن يدمغ صاحبه بالهجاء جائزة يظفر بها ، وإن كانت دراهم معدودة ، فقال الشاعر يهجو صاحبه الطالب ، فدمغه :

حتى متى أنا صامت وعن الأعادى ساكت
لعن الإله معاشرا الجهل فيهم ثابت

فتبلد الطالب الدينى طويلا ، ثم قال تافهاً :

قال النبى المنتمه ابن الأمه ما الأمه !!!

استطير الشاعر فرحة وطرباً بهذه المقالة ، أو هذه النبوة ، واغتنمها من صاحبه !!! ، والشاعر فكه مرح ، فأقسم ليبلغن من يملك أمر هـذا الطالب . أنه يتكذب على النبي صلوات الله عليه حيث يقول :

قال النبي المنتمه ابن الأمه ما الأمه !!!

وعنده ، وهو أكبر يقينه ، لا ظنه ، أن النبي صلوات الله عليه لم يقله ، وقد أوقع ما تهدد به !!! ، فتغضب رؤساء الطالب غضبتهم الدينية ، على شاعر يصنع على النبي أنه قال « ابن الأمه ، ما الأمه » فتبوأ مقعده من النار !!! ، فحشدوا لمحاكمته مجلساً علمياً ، ثم فضوه ، حين قيل لهم : بعض هـذه الأضاحيك !!! ، إنما هي مجانة أدبية ، ومساجلة فى قهوة !!! ماجنة ، بين أديبين ، ليست من الدين ، ولا اليقين !!! .

إن التفاهة الساخرة أن تجد الغضبة ، والحديث يلعب !!! ، ولعل أخذ الطالب الأديب بالكذب على النبي صلوات الله عليه ، فى حديث بشاشة وفكاهة ، أغيظ له من نصرة خصيمه عليه ، كما كانت براءة ، وهيان ، من مقالة « بيض محول » أغيظ لابن المعذل الثائر ، من هجاء الشاعر !!!

« السير »
عضو المجمع اللغوى

الطبقة المتوسطة

حكى عن ابن المعتمر السلمى قال :

الناس ثلاثة أصناف : أغنياء ، وفقراء ، وأوساط .

فالفقراء موتى ، إلا من أغناه الله بعز القناعة .

والأغنياء سكارى ، إلا من عصمه الله بتوقع الغـير .

وأكثر الخير مع أكثر الأوساط ، وأكثر الشر مع أكثر الفقراء والأغنياء ، لسخف الفقر وبطر الغنى .

البلاغة والتجديد

— ١ —

البلاغة العربية مدينة فى نشأتها الأولى لجهود علماء اللغة والأدب ، ولمثابرة الرواة والنقاد والباحثين فى أصول البيان العربى ؛ مع الأثر الفذ الذى أحدثه الكتاب والشعراء والأدباء فى القرن الثانى والثالث الهجرى .

ولقد تلاحقت الثقافات ، واتصلت المعارف ، وتبودلت الأفكار ؛ فى عواصم العلم والثقافة فى العالم الإسلامى القديم ، على أيدى العرب الذين نبغوا فى اللغات الاجنبية ، والموالى الذين حذقوا اللغة العربية وأجادوها ، والمترجمين الذين كانوا همزة الوصل بين الثقافات القديمة والثقافة العربية الإسلامية الأصيلة .

كان خلف لا يشق له غبار فى صناعة النقد ، لنفاذه فيها وحذقه بها وإجادته لها ، [1] . وكان أبو عبيدة يعجب من فطنة بشار وجودة قريحته وصحة نقده للشعر [2] ، وكان خلف يعجب من نقده للشعر ومذاهبه [3] . وكان الجاحظ [4] يرى أن بشارا زعيم المولدين . ثم جاء ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المدبر وابن المعتز ، فكان لجهودهم أثر كبير فى نشأة البلاغة ونمو البحث فى أصول البيان .

ولا ننسى جهود طائفة أخرى من العلماء فى إثارة البحوث البلاغية والتعليق عليها ، وتلك الطائفة هى جماعة العلماء الذين شغلوا بالبحث فى إعجاز القرآن الكريم وتفهم أسرار هذا الاعجاز والتأليف فيه ، فكشفوا الكثير من غوامض البلاغة وأصولها ، ومن هؤلاء أبو عبيدة والجاحظ وسواهما من أئمة المعتزلة ونحوها .

وعلى أيدى قدامة وأبى هلال والآمدى والقاضى الجرجانى وغيرهم من أفذاذ النقاد فى القرن الرابع الهجرى ، نرى البحث البلاغى ينمو ويقوى ويزدهر . . ثم تلاهم الباقلانى وابن سنان وابن رشيق من علماء النقد والبيان .

---

(١) ١٩٧ / ١ العمدة
(٢) ٢٠٧ طبقات ابن سلام
(٣) ٢٣ / ٣ الأغانى
(٤) ٩١ / ١ العمدة

ولقد لمعت عبقرية عبد القاهر الجرجانى المتوفى عام ٤٧١ هـ فى هذا العهد ، وكان مظهر هذه العبقرية اللماحة كتابان جليلان ألفهما قبل وفاته بقليل هما « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » اللذان يعدان حتى اليوم أصلا ضخما من أصول البيان وبحوث البلاغة والنقد والموازنة .

وبعد عبد القاهر انطفأ السراج ، وذبل العود ، وأصيبت الأذواق بالعى والعجز ، كما أصيبت البلاغة بالتأخر والاضمحلال . . وبعد نحو قرن ونصف قرن ظهر فجأة السكاكى بعقليته المنطقية وذوقه الأعجمى ؛ فأحال البلاغة إلى جدل عقيم فى الألفاظ والأساليب ، وإلى قواعد جافة لا صلة لها بالذوق ولا بالحياة ؛ وكثر تلاميذ السكاكى ، وانتشر مذهبه فى البلاغة الذى يمثله القسم الثالث من كتابه « المفتاح » ، والذى عنى فيه مؤلفه بالقشور لا باللباب وبالتوافه لا بالحقائق ؛ ولا تزال دراستنا للبلاغة حتى اليوم قائمة على أصول مذهب السكاكى وتلاميذه وحده دون سواه .

— ٢ —

ولقد نهض جماعة من أدبائنا يدعون إلى التجديد فى البلاغة ، فمن قائل : إن الكتب القديمة يجب أن تحل محلها كتب أخرى مؤلفة على النهج الحديث ؛ ومن دعاة إلى تلقيح البلاغة العربية بأصول الدراسات البلاغية فى شتى اللغات الحديثة الأوربية ، ومن ناهجين مناهج الغرب فى بحث أسرار البلاغة وأصولها ، ومن منادين إلى مذاهب البلاغيين القدماء من أمثال عبد القاهر وقدامة وأبى هلال .

وهكذا تعددت الآراء ، وتخاصمت الأفكار ، فى التجديد فى البلاغة ، وبيان كيف يكون هذا التجديد ، على أن أذواق علمائنا المعاصرين وأدبائنا المشهورين لا تكاد تساعد على الوصول إلى هدف أو غاية ينشدها المشفقون على البلاغة العربية اليوم . . والذين يحاولون التجديد فيها يكتفون بنقل أفكار الغربيين دون فهم أو يقظة فكرية أو إلمام ما بتراثنا القديم الخالد فى البلاغة والبيان والنقد .

ومن أمتع صور البحث البلاغى والنقد البيانى هذه الصور الجميلة التى قرأناها فى مجلة الأزهر - عدد ربيع الأول ١٣٧٢ هـ - بعنوان « علوم البلاغة فى الميزان » ، والتى اتجه فيها الكاتب إلى إثارة الملكات ، وتنشيط الأفكار ، وتحريض الأذهان على النظر والبحث والنقد والاستنتاج والكشف ، وحفز إليهم للبحث والابتكار . . وهى محاولة مجدية قوية فى سبيل التجديد البلاغى المنشود . وأول ذلك الأسرار البلاغية الدقيقة للحذف

ومحاولة الكشف عنها ، فلقد عرض عبد القاهر الجرجانى للحذف ومكانه من البلاغة دون أن يبين سبب هذا الحسن والإحسان ، وسر هذا الجمال البيانى الأخاذ .

وجاء السكاكى والخطيب وتلاميذهم فجعلوا الحذف فى موضعه كالذكر فى موضعه ؛ لكل مكانه من البلاغة ، ومنزلته من سحر البيان ؛ وأبوا أن يكون للحذف مزية على الذكر بل هما يحصلان البلاغة ويوجدانها ؛ ثم عللوا الحذف بعلل متكلفة لا صلة بينها وبين أحكام الذوق الأدبى السليم .

ويحاول الباحث أن يعلل سر جمال الحذف وبلاغته بأسباب نفسية وأمور بيانية ، منها الهجوم بالسامع على المطلوب دفعة ، والجدة التى نراها فى أسلوب الحذف ، ومنها أن المحذوف تدل عليه القرائن فإذا ذكر كان ثقيلا فى موضعه لأنه تعريف لما عرف وبيان لما بين ؛ فيربط بذلك بين البلاغة وأحكام الذوق وأسرار البيان وملكات النفس الإنسانية .

ومن البحوث التى أثارها الأستاذ ، أسلوب التجريد وتحليل ألوان جماله وسر هذا الجمال ، بعيداً عن تكلف القدماء البغيض وتأويلهم المصنوع .

وكذلك عرض لأسلوب : رأيت اليوم حاتما ولقيت مادرا وسمعت سحبان وما أشبه ذلك مما أوله البلاغيون فجعلوا حاتما هنا كأنه موضوع للجوار ، فانتزعوه من معناه وهو العلمية على الرجل المعروف من طيء ؛ وبهذا التأويل يكون حاتم متناولا للفرد المتعارف المعهود والفرد غير المتعارف وهو من يتصف بالجود ، فيصير استعماله فى غير المتعارف استعمالا فى غير ما وضع له فيكون عندهم استعارة .

وأستاذنا يبحث ذلك كله ويناقشه وينقده ويحاول الوصول إلى الصواب فى أمره ، حيث يرى أن المراد هنا تشبيه هذا الكريم بحاتم فى جوده ، فحاتم باق على معناه دون تغيير أو تبديل .

وهكذا نجد نهجا جميلا فى البحث والمناقشة ومحاولة الكشف عن أسرار البلاغة وأصولها ؛ وهو نهج طريف ما أجدر الأزهر أن يسير عليه فى الدراسة والبحث ، لتكون دراسة البلاغة فيه مجدية منتجة ، وليحاول أن يقف على قدميه أمام هؤلاء الذين يزرون بالبلاغة القديمة إزراء شديداً .

إن القديم ليس كله صوابا ، وليس كله خطأ ؛ بل فيه الصواب ، وفيه الخطأ ؛ وفيه سوى ذلك ألوان من القصور العلمى الذى يجب ملافاته ؛ فما أجدرنا فى الأزهر بتجديد البحث والدراسة فى أصول بلاغتنا ، وفى مذاهب البيان وأسراره .

محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس فى كلية اللغة العربية

الفرض العلمي

— ٢ —

تكلمنا فى المقال السابق عن الفرض العلمى ، وسنفصل فيما يلى الكلام عن تحقيقه .
ونستطيع أن نميز مرحلتين لهذا التحقيق ، هما مرحلة التحقيق النظرى ، ومرحلة التحقيق العملى .

١ — ويعد العلامة إرنست ماخ والعلامة لالاند من أوائل المهتمين بالتحقيق النظرى . وقد لاحظ ماخ أن كبار العلماء مثل جاليليو يباشرون تجريباً عقلياً سابقا ، ويأخذ هذا التجريب أحد اتجاهين ، فإما أن ينجح ويكفى العالم مؤونة التجريب العملى ، وإما أن يكون نجاحه جزئيا فيساعده على توجيه التجريب العملى .

وهناك ثلاثة مظاهر للتجريب النظرى ، أولاها : مظهر التغيير المتصل ، وهو تصور العالم للظروف والأحوال التى تحدث فيها ظاهرة معينة ، هذه الظاهرة تتغير تغيراً متصلا بوقفنا - عقليا - على كل الأحوال المختلفة لهذه الظاهرة أو لقانونها .

فإذا لاحظنا مثلا أن حجراً يسقط على الأرض على بعد معين ، وفرضنا أننا زدنا فى بعد هذا الحجر حتى أصبح على بعد القمر من الأرض وزدنا فى حجمه حتى أصبح فى حجم القمر . فإن هذا التصور يؤدى بنا مباشرة إلى تصور سقوط القمر نحو الأرض ، فإذا تصورنا بعد ذلك أن القمر ذاته يكبر تدريجيا حتى يصل إلى حجم الأرض ، فإنا سنلاحظ أولا أن كبره هذا لم يمنع من سقوطه ، ونستنتج ثانيا أن الأرض متجهة هى أيضا نحو القمر ، أى أن الجاذبية متبادلة ، وإذا استمر الذهن فى هذه الحركة العقلية بما فيها من تغييرات متصلة فى الظواهر ، فسيرى أن الأرض والقمر مكونتان من حجارة وأن مكوناتها فى جاذبية مستمرة متبادلة .

ويلاحظ - من ناحية أخرى - أنهما لا يختلفان جوهريا عن الأجسام الأخرى المكونة للنظام الفلكى العام ، وأن حركة كوكب معين لا تختلف كثيراً عن حركة مقذوف أيا كان ، وعجلة هذه الحركة متوقفة بطبيعتها على بعد الكواكب عن الشمس ، إذ هى ككل عجلة متوقفة على المسافة . من كل ذلك نستنتج أن تغييرنا المتصل للظواهر وانتقالنا شيئاً فشيئاً بواسطة البرهان التمثيلى يوصلنا إلى قانون الجاذبية العام ، أى أن العقل - بواسطة تجريب عقلى سابق على التجارب العملية - يوسع حدود الفرض ، وإن لم يصل إلى تحقيقه تحقيقاً تاما .

والمظهر الثانى ، هو التجريب العقلى بالخلف ؛ وقد رجع إليه جاليليو بصدد قانونه الخاص بسقوط الأجسام . فهو قد فكر قبل أن يصل إلى هذا القانون فى أنه لو كان صحيحاً أن الأجسام الأكثر ثقلا تسقط بسرعة أكبر من غيرها ، لاضطررنا إلى قبول النتيجة التالية : لنربط مثلا جسما ثقيلا بجسم خفيف ، فسنسلم بمقتضى الفرض السابق بأن الجسم المكون من الاثنين يسقط ببطء ، ما دام الجسم الثقيل قد يبطىء فى السقوط بسبب الخفيف . ولكننا نرى مباشرة أن قضيتنا الأخيرة متناقضة مع نفسها إذ أن الجسمين المكونين للجسم الساقط أثقل من الجسم الثقيل ذاته الذى يسقط بسرعة مفروض فيها أنها أكبر من سرعة الجسم الخفيف .

أما المظهر الثالث فهو مظهر الحذف التجريبى : فقد يمكن - بواسطة الفكر فقط - تخفيف أو إضعاف أو حذف عنصر أو عدة عناصر لها تأثير هام فى الظواهر التى ندرسها ، مع تصور أن العناصر والظروف الأخرى تعمل وحدها فى الظاهر ، والواقع أن التخفيف والحذف لبعض العناصر والظروف التى تحيط بالظاهرة لا يمكن تطبيقه عملياً ، فلو تصورنا مثلا أن احتكاك جسم متحرك على سطح أفقى يخف شيئاً فشيئاً حتى ينعدم . فسنصل من هذا التصور إلى أن تتمثل جسما متحركا بحركة منتظمة دون أية مقاومة خارجية ، والحقيقة أن هذه الحالة التى نتصورها لا تحصل تماما فى الواقع التجريبى ؛ ولكن هذا التصور ذاته هو الذى ساعد جاليليو على التحقق من قانون القصور الذاتى الذى يقول : « لا يمكن لجسم أن يغير شيئاً فى حالته ساكناً كان أم متحركا ما لم يقع تحت تأثير قوة جديدة » .

هذه هى مظاهر ثلاثة للتجريب النظرى ، يظهر فيها إمكان الاستغناء عن التجريب العملى ، ولكن هناك أحوالا أخرى لا تغنينا عن التجريب العملى بل تعد الطريق لهذا التجريب ، ولا يتسع المقام لذكر أمثلة عنها .

٢ — أما التحقيق العملى ، فله أيضاً طرائق ثلاث : أولاها ، الطريقة المباشرة ، وظاهر من اسمها أنها تفسر العلاقات العلية بين الظواهر المشاهدة أو التى تخضع للتجربه ، وتدخل قواعد (مل) الخمسة ضمن هذه الطريقة :

وأول قاعدة من قواعد مل ، هى « قاعدة الاتفاق » ، وتتلخص فى أنه إذا كان هناك عامل مشترك بين حالتين أو أكثر لظاهرة معينة ، فإنه يعتبر بمثابة العلة أو المعلول لهذه الظاهرة ؛ فإذا مرض سكان قرية ما بمرض البلهارسيا مثلا ، وأراد الأطباء أن يعرفوا علة هذا المرض ، فعليهم أن يبحثوا كل الظواهر التى سبقت حدوثه ، كلبس نوع معين من الملابس

مثلا أو أكل نوع معين من الطعام أو شرب ماء معين ، فإذا وجدوا أن المرضى لم يشتركوا إلا فى شرب نوع معين من الماء عرفوا بذلك علة المرض ، وهذا المثل يضرب للبحث عن العلة . ولا بأس من أن نذكر مثلا يضرب للكشف عن معلول فيما يأتى : إذا أرادت حكومة أن تلغى البغاء مثلا ، فعليها قبل أن تقدم على هذا العمل أن تفحص جميع اللواحق التى اتفق وقوعها فى جميع الحالات التى ألغى فيها البغاء فى بلاد أخرى : هل زادت منازل الدعارة السرية ؟ أم كثر الإقبال على الزواج ؟ فإذا تبين لها أن الإلغاء تلاه فى بلد ما ازدياد منازل الدعارة السرية ولكن صحبته مع ذلك كثرة الإقبال على الزواج ، وأنه فى بلد آخر تلاه قلة انتشار الأمراض السرية وصحبته أيضاً كثرة الإقبال على الزواج ، من ذلك تستطيع أن تستنبط النتيجة التى يؤدى إليها إلغاء البغاء وهى كثرة الإقبال على الزواج لأنه قد ازداد فى كل مرة . . . ويتضح مما ذكرنا من أمثلة أن أساس هذه القاعدة هو فى وجود الظاهرة والعامل المشترك الذى يسمى علة أو معلول تلك الظاهرة ، ولكن هذه القاعدة ليست عامة مطردة فى كل زمان ومكان ، ولا تعطينا صورة منطقية توصلنا إلى قانون حاسم ، فمن الصعب وجود ظواهر مختلفة تتفق فيما بينها فى صفة واحدة فقط تعد بمثابة العلاقة العلية بينها .

والقاعدة الثانية من قواعد مل ، هى « قاعدة الاختلاف » ، وهى عكس القاعدة الأولى فالحالتان هنا تشتركان فيما بينهما فى كل العوامل ما عدا عامل واحد يظهر فقط فى إحداها ولا يظهر فى الأخرى ويعد علة أو معلول الظاهرة التى لدينا .

أما القاعدة الثالثة فتجمع بين القاعدتين السابق ذكرهما ويتضح ذلك من اسمها وهو « المنهج المركب من الاتفاق والاختلاف » . وتتلخص فى أنه إذا وجد عامل مشترك بين حالتين ، وتخلف هذا العامل ذاته من حالتين أخريين ؛ فإن هذا العامل يعد علة أو معلول الظاهرة . فمثلا إذا تغيب طالب عن حضور درس معين ثم رسب فى الامتحان ، فقد يظن أن السبب فى رسوبه هو عدم حضوره هذا الدرس ، وإذا عرف أن كل من حضر هذا الدرس نجح فى الامتحان ازداد يقينه ، وإذا عرف أيضاً أن كل من لم يحضر هذا الدرس قد رسب ازداد يقينه أكثر ونسب رسوبه إلى عدم حضور الدرس . فإذا وقع المقدم يقع التالى والعكس صحيح .

أما القاعدة الرابعة فهى « قاعدة البواقى » ، وتتلخص فى أننا إذا حذفنا من ظاهرة الجزء الذى عرف عن طريق استقراءات سابقة أنه المعلول لمقدمات معينة فإن بقية هذه الظاهرة

تكون معلولة لبقية المقدمات ، فإذا قذف مدفع طلقة إلى مسافة ألف متر ثم ركبت ماكينة أخرى فزاد بذلك بعد الطلقة مائة متر ، فعرف من ذلك أن الفرق بين قوتى الماكينتين هو علة المائة متر التى زادتها الطلقة .

أما القاعدة الخامسة والأخيرة فهى « قاعدة التغير النسبى » ، وفكرتها الرئيسية هى أنه بين أية ظاهرتين إحداهما علة والأخرى معلول تلازم ، بحيث أن أى تغير فى العلة يستلزم تغيراً موازياً له فى المعلول . فمثلا إذا لاحظنا أن جو حجرة الدراسة التى فتحت نوافذها بارد ، ثم لاحظنا أنه بعد قفل نافذة صار الجو دافئاً قليلا ، وبعد قفل نافذة أخرى ازداد الجو دفئاً ، وهكذا أمكننا أن نستنبط أن النوافذ المفتوحة هى علة ازدياد البرودة . وهذه القاعدة - كما يتضح من المثال - عبارة عن قانون الاستنباط الذى بمقتضاه نحكم بأن حادثة معينة علة فى وقوع أخرى لأنهما متلازمتان فى التغير .

هذه بالإجمال قواعد العلامة مِل فى تحقيق الفروض ، وهى لا تكفى فى إثبات وتحقيق جميع الفروض ، فهى تقوم على وجود علاقة علية بين الظواهر التى نشاهدها أو تجرى عليها التجارب ، أما إذا جهلنا العلة الواقعة بين الظواهر التى لدينا فإنها لا تستطيع أن تحقق لنا الفرض ، وبذلك يتحتم الالتجاء إلى : -

الطريقة الثانية من طرق التحقيق العملى ، وهى الطريقة غير المباشرة ، وهذه تفترض وجود علاقة علية بين حالتين أو جملة حالات ، وبناء على هذا الفرض تستنتج النتائج ، فإن قابلت حقائق صحيحة أيقنا بصحة الفرض وإلا فلنلجأ إلى فرض آخر .

أما الطريقة الثالثة فهى عبارة عن شكلين عامين يذكرهما العلامة لالاند ، وأولهما ، الطريقة السلبية أو منهج الحذف ؛ وتتلخص فى أنه إذا بقى لدى العالم عدد معين من الفروض بعد فقد سابق ، فليكوّن منها قائمة ، ثم يقوم بحذف الفروض التى تناقض التجارب التى يقوم بها للتحقيق . فلا يقبل فرض يعارض القول بأن الضوء ينتشر بسرعة أكبر من سرعة الصوت فى الانتشار . وثانيهما الطريقة الإيجابية وهى تثبت صحة الفرض بنجاحه فى أحوال مختلفة كل الاختلاف ومتباعدة كل البعد كمياً وكيفياً عن الأحوال التى وجهتنا نحو الفرض ، أى أن العالم الذى يريد تحقيق فرض معين يطبقه عملياً فى أحوال مختلفة كل الاختلاف عن الحالة التى بدأ بها العالم الذى فكر فى الفرض ، ويجمع نتائج هذه التطبيقات ويقابلها بالفرض الذى لديه ليرى مبلغ اتفاقها أو مبلغ اختلافها ، وبعبارة أخرى يرى مدى اتفاق العمليات الرياضية المجردة مع تجارب المعمل .

سعيد زايد

العلم وعلاقته بالدين

لا يوجد بحث من البحوث التى تشغل بال الاجتماع وتحتل عقول المصلحين أكثر أهمية ، ولا أدخل فى باب الحداثة ، ولا أشد تعقداً ، ولا أعظم - بالتالى - فوزا بالصدارة من بحث العلاقة بين العلم والدين . ومأتى ذلك هو أن العلم - منذ أن فاز بحريته فى فجر النهضة الحديثة - قد أصبح يزعم لنفسه المقدرة على فرض سلطانه المطلق على العقول والأجسام ، بينما يهدف الدين - منذ أول عهده بالبشرية - إلى سيادة سلطته الروحية وإلى قيادة الحياة العملية فى الأمم وإرشادها إلى سبل الهدى والسعادة . ولا جرم أن هوة الخلاف بين المعسكرين قد اتسعت أرجاؤها إلى حد أن عدداً كبيراً من العلماء العصريين قد وضعوا نصب أعينهم تجاهل كل التعاليم الدينية التى تبتعد عن التجارب العملية ولا تسترشد بهدى الأقيسة الموضوعية الخاضعة للمناهج العلمية الحديثة .

ولما لم تؤد هذه الخطة التى سلكها العلماء المحدثون إلى إسعاد الإنسانية ، بل بالعكس قد انتهت بها إلى فقدان التوازن الروحانى من جهة ، ولما كان باب النقاش فى هذه النظرية لايزال مفتوحا على مصراعيه من جهة ثانية ، وكانت العقول المثقفة المتزنة لا تزال تنتظر لها حلا مقنعا يحقق السعادة الإنسانية من جهة ثالثة ، فقد حاولنا منذ أعوام أن نعالج موضوع الصلة بين الدين والعلم على صفحات هذه المجلة موجزين آراء علية المفكرين الذين عنوا بدراسة هذه المشكلة ومجهوداتهم التى بذلوها للتوفيق بين العلم والدين ، أو لتضييق هوة الخلاف بينهما ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، لكى تكون دراستنا علمية مؤسسة على دعائم التطور التاريخى المألوف .

وبهذه المناسبة لا يسعنا إلا أن نتقدم إلى قرائنا الأعزاء الذين رافقناهم على صفحات هذه المجلة زهاء ثلاثة عشر عاما ، ثم احتجبنا عنهم بغتة معتذرين إليهم بأن ظروفا ملتوية تختلف مع طبيعتنا قد أحاطت بالمجلة فجعلتنا نقطع صلتنا بها راضين عن أنفسنا مطمئنين

إلى مبادئنا . والآن نعود إلى وصل ما انقطع محاولين الإحاطة بهذه المشكلة من جميع جوانبها بقدر الإمكان . وإليك البيان :

ألممنا فى الفصول السالفة من هذا البحث بآراء « ديكارت » ممثلة للقرن السابع عشر ثم بآراء « جون لوك » و « جان جاك رسو » معبرة عن أكثر تفكير القرن الثامن عشر . واليوم نستأنف الحديث عن ناحية أخرى من ذلك العصر المذكور وهى آراء « كانت » Kant التى يعثر عليها الباحث فيما يسميه مؤرخو الحركة العقلية : « ثورة كانت الفلسفية » .

ويجمل هذه الآراء أن « كانت » يزعم أنه عندما نظر فى فلسفة القرن السابع عشر هاله ما هوى فيه العقل البشرى من تناقض واضطراب حينما جعل يحاول حل معضلتى وجود الإله وكنه النفس البشرية . ومن دلائل ذلك عنـــده تناقض بعض الفلاسفة العقليين مع البعض الآخر ، بل تناقضهم مع أنفسهم ، وهو ينتهى فى آخر هذه الدعوى إلى تقرير أنه ينبذ ذلك المبدأ الشهير الذى ساد القرن السابع عشر كله ، وهو القول بأن فى مكنة العقل أن يدرك الموجود فى ذاته ، وبالتالى هو يستطيع - فى غير تجربة عملية - أن يصل إلى المعرفة المطلقة ، وأنه يستطيع فى سهولة أن يتحدث بيقين عن الموجود اللامُحَس ، وأن يقيم الدليل القاطع على وجوده عن غير طريق الواقع المشاهد ، وأنه لابد من وجود نوعين من العلم يسيران متوازيين جنباً إلى جنب ، أحدهما العلم الطبيعى الذى يشتغل بالظواهر المادية ، والآخر العلم الأعلى الذى موضوعه ما فوق المحس أو ما بعد الطبيعة ، ومعنى هذا أن غايتى العلمين مختلفتان ، وليستا متعارضتين . وذلك كله باطل من أساسه .

حقا إن النظرة العاجلة فى النقد الذى وجهه « كانت » إلى تراث ما بعد الطبيعة أو إلى ما يسميه هو بالميتافيزيكا التقليدية ولا سيما منهـا براهين وجود الإله والحياة الأخرى من شأنها أن تلقى فى روع الباحث الحكم على العقل بالعجز والقصور البالغين ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، إذ أنه لم يحتقر العقل إلى هذا الحد ، وإنمـا أراد - فيما يزعم - أن يعيد إليه سلطانه الحقيقى على صورة جديدة يمكن أن نجملها فيما يلى :

يؤمن كانت بوجود العالم الخارجى حق الإيمـان ، وهو فى الوقت عينه يقرر أن هناك موجودات فى ذاتها ، ولكنها غير قابلة للمعرفة بالنسبة لنـا ، ويمكن أن يطلق عليها اسم « نومينون Nouménon » وهى نفس الكلمة الإغريقية « نومينا Nooumèna » التى كان أفلاطون يطلقها على « المثل » .

على أنه لكى تتحقق معرفتنا بالعالم الخارجي يجب أن يخضع العقل البشرى ذلك العالم لقوانينه الخاصة حتى يبدو لنا فى صور ظواهر وأحداث: « فينومين Phanomen » وحينئذ يصير العقل سلطة تشريعية يذعن لقوانينها كل ما من شأنه أن يكون موضوعا للمعرفة. وعلى هذا النحو هو يعترف للعلم باليقين ما دام أن المعلوم لا يخرج عن نطاق التجربة.

بيد أن العقل الإنسانى بفطرته طموح يتطلع إلى ما هو أسمى من ذلك فيرنو - فى شغف مشروع - إلى ما وراء استقرار قوانين الطبيعة وما فوق معرفة الظواهر الحسية فيدرك فكراً من عالم الموجود فى ذاته كفكرة النفس وفكرة الكون وفكرة الإله التى هى مانحة الحقائق أقصى آواج المعقولية.

على أنه إذا كان فى مقدور أدوات التعقل البشرى شرح الظواهر المادية وتعليلها، فإن الذى لا ريب فيه أن الشأن ليس كذلك عند ما يتعلق الأمر بالنظر فى « الموجود فى ذاته » أى الموجود الذى لا يخضع للتجربة كجوهرية النفس وبساطتها، أو كنشأ الكون، أو كالاستدلال على وجود الإله، إذ أن جميع المحاولات التى عالجت أمثال هذه الجوانب عن طريق العقل عندما يمعن المرء فيها نظره فى شىء من الدقة يلفى أنها مشتملة على متناقضات لا يمكن قبولها، أو متعارضات بدون حلول أو ضعف فى الأسانيد المؤيدة على أقل تقدير.

من هذا كله يتبين إجمالا أن العقل يستطيع أن يصل إلى العلم اليقينى فى كل ما ينحصر فى منطقة التجربة وأنه منعطف بطبعه إلى إدراك وجود حقائق أخرى أسمى من عالم الحس، وهى غير قابلة لموضوعية العلم، بل هى قابلة لموضوعية الإيمان المشروع الذى يهدف إلى غاية أخرى مغايرة لغاية المعرفة النظرية التى لا تلحق إلا موضوع العلم فى نظر « كانت »، وإذن فيجب على الميتافيزيكية أن تقنع بدورها الحقيقى وأن تتواضع فتدرك منزلتها الصحيحة وأن تقدر مهمتها الطبيعية حق قدرها، فبدلا من أن تتعقب غاية مستحيلة بالنسبة لها، وهى محاولة مدّ سلطان العلم إلى ما وراء التجربة الحسية، يكون حسبها أن تقف به عند حدود المجربات التى هى حدود المقدرة البشرية؛ وبهذا الاتجاه تصبح الميتافيزيكية عملية منتجة لا نظرية مجردة. وعلى هذا النحو لا يفوتها شىء مما هو ضرورى للمعرفة أو للحياة، لأن من الخطل أن نتعلق بما يتجاوز حدود معرفتنا طمعاً فى أن ينظم هذا المجهول - المستعصى

علينا فهمه — سلوكنا . ولهذا كان من العبث أن نجعل يقيننا بالحياة الآخرى هو الحامل لنا على التمسك بالفضيلة ، أو أن نتخذ عدم قابلية النفس للفناء حافزاً لنا على العمل أملا فى جزاء الخير ، لأن ما لا يدخل فى نطاق التجربة لا يصلح لأن يدفع إلى تنظيم سلوك الحياة الواقعية مستنداً إلى تعليل نظرى .

والحق بإزاء هذه المعضلة أن القلب هو الذى يقود العقل فيها فيفرض عليه بديا أن أداة المعرفة هنا عابثة معدومة الفائدة لقصورها ، بل لعجزها ، وأن أوامر القانون الخلقى التى تنظم الحياة وتقوم السلوك وتدفع إلى الفضائل هى مستقرة فى أعماق النفس الإنسانية ، وأنها ، تنبثق منها عند الحاجة ، أى قبل الحكم على أى عمل بله الشروع فيه ، وأنها — فيما يبدو — هى التى تحدد منزلة كل فرد فى الحياة الآخرى .

على هذا النحو كان « كانت » يعتقد أنه من الممكن التخلى عن الميتافيزيكية التقليدية دون أدنى عدوان على الفضيلة الخلقية والدينية التى كان يضعها فوق كل اعتبار . ولا جرم أن أبرز نواحى مذهب « كانت » فى هذه المشكلة هى إعتماده على الفرق الواضح الذى يلح عليه بين العلم التجريبى والعقيدة التسليمية ، فهو يصرح بأن الاول يبحث عن معارف حقيقية مؤسسة على أدلة يقينية غير قابلة للاعتراض ، بينما أن الثانية تعتمد على إيمان بسيط وتسليم أبسط ، وأن ظلمة المشكلات وتعقدها والضرورة الملحة على وجوب الاختيار السريع والتصميم الحاسم ، كل هذه العوامل تخلق من الإيمان التسليمى البسيط شيئاً لا نلبث أن نتخذه مبدأ لأحكامنا ثم لسلوكنا . على أن هذا المبدأ ليس تافهاً أو خفيف الوزن ، وإنما هو مؤسس على الرجحان ، أوله ما يبرره من شهادة شخصية جديرة بالتصديق . وإذن فلا يمكن استبعاد العقائد الدينية بحجة أنها مؤسسة على إيمان تسليمى إذ أن تلك العقائد لها ما يبررها من اليقين بأحقية الإله نفسه .

وإذن فلو أن المرء دقق النظر فى معتقداته وعنى بفحصها عناية فائقة فلم يحتفظ منها إلا بما هو من الوحى الإلهى حقاً ، وبذل جهده فى اقتناص المعانى الحقيقية لهذه الموحيات لصارت العقيدة الدينية مبدأ من مبادئ اليقين الذى لا يقل عن العلم بأكمل ما فى هذه الكلمة من معان .

وعلى هذا الأساس استطاع «كانت» أن يجد فى اختصاصات العقل جميع الشرائط الأساسية للعلم والدين. فأما العلم فبادئه مستقرة فى العقل حينما يكون نظريا، إذ هو فى هذه الحالة يؤلف دعائم العلم مطبقاً على العالم الحسى التجريبى قوانينه التى تصيِّر ذلك العالم قابلا للمعرفة، وهى معانى الزمان والمكان والعلية.

بيد أن هذا العقل لا يستمر دائماً نظريا، وإنما يكون أحيانا عمليا إنشائياً فلا يكتفى بشرح العالم الخارجى وتعليل ظواهره وأحداثه، وإنما هو يود أن يعمل عملا منتجاً، وهذا العمل محتاج إلى قواعد تنظمه وتنسقه، وفى هذه الحالة الأخيرة يبرز العقل أقصى ما يشتمل عليه من عناصر. وإذ ذاك يجب أن نعينه على امتداد سلطانه حتى يلحق بالغاية الأخرى المؤسسة على الإيمان والتى باجتماعها مع العلم تحقق أسمى وظائف العقل.

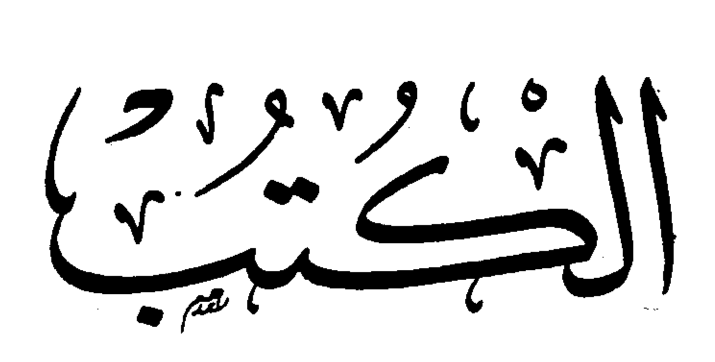
وإذا كانت طبيعة تكويننا تقضى علينا بضرورة وجود بعض المبادئ لإمكان تنظيم سلوكنا، فإنه يجب علينا أن نقبل هذه المبادئ الإلهية المنظمة كحقائق حتمية، وتلك هى المبادئ الميتافيزيكية كالألوهية وحرية الاختيار وخلود النفس وما شاكل ذلك. ولكن قبولنا هذه المبادئ هو على معنى أنها عملية خلقية لا علمية ولا نظرية. وإذن فالعقيدة على هذا الاتجاه «الكنتى» شىء لابد منه لتحقيق المبادئ الخلقية التى لا نستطيع التدليل على صحتها علميا، لشذوذها عن قواعد التجارب الحسية كما أسلفنا.

وأخيراً نستطيع أن نجمل مذهب «كانت» فى: أن العقل يكون نظريا وعملياً حسب اختصاص اتجاهه. فإذا كان هدفه التعقل والفهم كان نظريا، وإذا كانت غايته التنظيم الخلقى كان عمليا؛ وثمرة الحالة الأولى العلم، وثمرة الثانية الأخلاق. ومن هذه الحالة الأخيرة تنبثق العقيدة، وكل من هذين الاتجاهين مستقل عن الآخر تمام الاستقلال ولكنهما متصلان فيما بينهما عن طريق ذلك الرابط العام المشترك وهو العقل.

الدكتور محمد غلاب

تصحيح

وقع فى الجزء الماضى خطأ فى ترتيب صفحتين من المجلة. فالصفحة التى رقمها ٨٧٩ وأولها «رسولا منهم» كان ينبغى أن يكون رقمها ٨٧٨ بدلا من الصفحة التى قبلها وصواب ترقيمها ٨٧٩



التفسير الواضح — للأستاذ محمد محمود حجازى

إن الجمهور المثقف من المسلمين يحتاج فى كل عصر إلى تفسير لكتاب الله يقتصر فيه على ما ييسر للمسلم فهم آياته للاهتداء بها فيما نزلت له . وفى مختلف عصور الإسلام كان العلماء يقومون بهذه المهمة ، كما فعل الجلال المحلى ثم الجلال السيوطى فى إخراج تفسيرهما اللطيف المنسوب إليهما . وقد تصدى لأداء مثل هذه المهمة الإسلامية لشبابنا الآن فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمود حجازى ، فأخذ يصدر (التفسير الواضح) فى أجزاء متتابعة كتب الله لها القبول عند من ألف هذا التفسير لهم ، حتى إن بعض أجزائه أعيد طبعها والكتاب لا يزال فى إبان تأليفه ونشره . وطريقة المؤلف فيه أن يأتى ببضع آيات متناسقة يتم بها المعنى ، فيتخير لمعناها عنواناً ، ويجعل الآيات بحروف جلية وبالشكل الكامل ، ثم يتبعها بتفسير مفرداتها تفسيراً لغوياً مشفوعاً بالمراد بها فى الآية ، ويعقبه بإيراد المعنى الإجمالى للآيات بعبارة وجيزة واضحة . وقد يتخلل ذلك ذكر المناسبة وسبب النزول ، وأحيانا يتعرض لمواضع العظة من قصص القرآن وأمثاله .

وأجزاء التفسير يقع الواحد منها بين ٨٠ صفحة و ١٠٠ ، وذلك مما يسهل على الشبان قراءة الجزء والإفادة منه إلى أن يصدر الجزء الذى يليه .

وقد صدر إلى الآن أحد عشر جزءاً من التفسير الواضح بلغ بها المؤلف إلى آخر سورة يونس . فنرجو له من الله دوام التوفيق فى هذا وغيره من الأعمال العلمية الإسلامية .

الرسالة المحمدية — لعلامة الهند السيد سليمان الندوى

نشرها المركز العام للإخوان المسلمين — ١٨٤ ص — بالمطبعة السلفية

كانت جامعة مدراس الهندوكية فى الهند قد أباحت منبرها لبعض كبار علماء الديانة المسيحية ليحاضروا الطلبة من كل المذاهب والأديان فى بيان الأسس التى تقوم عليها رسالتهم

الدينية . ولما انتهوا من ذلك اقترح الطلبة المسلمون فى تلك الجامعة على رؤسائهم أن يأذنوا لهم بدعوة أحد علماء المسلمين ليحاضر الطلبة بمثل ذلك عن رسالة الإسلام .

وبالفعل دعوا لذلك علامة مسلمى الهند السيد سليمان الندوى أمتع الله الإنسانية بفضله وسعة معارفه ، فألقى من منبر تلك الجامعة الشهيرة ثمانى محاضرات عن الرسالة المحمدية أدارها على معانى قلما وفاها حقها غيره من ألوف المصنفين فى السيرة المحمدية بمختلف اللغات . ومن ذلك إعلانه امتياز هذه السيرة بأنها هى السيرة الوحيدة التى يجوز وصفها بأنها « تاريخية » ليصح الاقتداء بها واتخاذها أسوة فى الحياة ، بينما سير مؤسسى الديانات الأخرى لا يكاد يعرف عنها التاريخ إلا النزر القليل مما لا يتم به التأسى والاقتداء .

ومنها أن الرسالة المحمدية هى العامة الخالدة ، ولذلك جاءت بشرائع ثابتة للإنسانية كلها فى كل زمان ومكان ، بينما الرسالات الإلهية الأخرى جاءت مختصة بعصر واحد من العصور ، أو بعنصر واحد من عناصر الناس ، فانتهت مهمتها بانقضاء زمانها ، أو انحصرت بالعنصر الذى اختصت به .

ومنها أن السيرة المحمدية : هى المعلومة للناس بكمالها وتمامها وشمولها من ميلاد صاحبها إلى أن اختاره الله اليه ، فلم يخف شىء من دخائلها عن أعداء صاحب هذه الدعوة ولا عن أوليائه .

ومنها أن حياة محمد ﷺ جمعت كل ما تفرق فى الأنبياء مما امتازوا به ، لأن ما أعطاه الله لرسله جميعا متفرقين ، قد أوتيه محمد صلى الله عليه وسلم وحده . وقد أورد السيد سليمان الندوى الشواهد والمقارنات التاريخية فى هذا الباب ، واستعرض مدرسة محمد ﷺ وبين كيف كانت جامعة للطوائف والطبقات وأجناس الأمم ، وبرهن على أن محمد صلى الله عليه وسلم هو المصلح الأخير للإنسانية ، وأن العالم لا تتم هدايته إلا بهذا المصلح الأخير .

ثم تكلم على الناحية العملية فى السيرة المحمدية ، فبين أن الأنبياء والمصلحين من الساميين أو من أهل المشرق البعيد كانوا يبينون رسالاتهم لأممهم بلسانهم ، فأدوا عن الله رسالاته . غير أنهم لم تتح لهم فرصة التعبير عن رسالات الله بالعمل والتطبيق كما أتيحت لمحمد ﷺ . وقدم المحاضر براهين ذلك من تاريخ الأنبياء ، ومؤسسى الديانات ، بأمثلة لا تقبل المراء أو الجدل .

وكانت خاتمة محاضراته تبياناً لأسباب فساد الديانات القديمة وكيف تطرق إليها الباطل من ناحية تشبيه الله بالبشر وتأليه البشر بسبب ذلك ، أو من ناحية تجسيم الصفات الإلهية والرمز لكل صفة بوثن من الأوثان ، فنشأت عن هذين الأمرين عبادة البشر وعبادة الأوثان . وكيف أن الإسلام وحده هو الذى جاء بتوحيد الله فى أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأنه ليس كمثله شىء ، فلم يعرف التاريخ الإنسانى دعوة قضت على عبادة البشر وعلى عبادة المخلوقات ـ بحجة أنها رموز للإله ـ كما قضت على ذلك رسالة الإسلام بأصرح بيان وأقوى حجة .

إن لغات البشر كلها حافلة بألوف الكتب فى السيرة المحمدية ، ولكن محاضرات السيد سليمان الندوى هذه عنيت بهذه النواحى بأكثر مما نجده فى أى كتاب آخر . وكان قد ألقاها باللغة الأوردية ونشرت بها كما نشرت ترجمتها الإنجليزية . فلما وفد على كراتشى فى العام الماضى وفد من الإخوان المسلمين فى القاهرة للاشتراك فى المؤتمر الإسلامى حظى أعضاؤه بزيارة هذا الإمام العلامة الكبير وطلبوا منه هدية إلى شباب المسلمين فى مصر والوطن العربى ، فأهدى إليهم هذه المحاضرات النفيسة مترجمة بالعربية ليقوم المركز العام للإخوان المسلمين بنشرها فى مصر وجميع أقطار العروبة .

وقد ناط المركز العام للإخوان المسلمين برئيس تحرير هذه المجلة كتابة مقدمة لهذا الكتاب والتعريف به وبمصنفه العلامة الكبير ، والإشراف على طبعه ، فتم طبعه فى هذه الأيام بلغة عربية فصحى زادت فى محاسن الكتاب . فنحث قراء العربية جميعاً على تدبر ما جاء فيه من الحقائق الناصعة وإطالة النظر فيها ، فإنها جديرة منهم بذلك .

الأموال ونظرية العقد فى الفقه الاسلامى

للدكتور محمد يوسف موسى — ٥٢٤ ص قالبين — نشرته دار الكتب الحديثة

يقول الدكتور المؤلف فى مقدمة كتابه هذا : إذا كان لكل قانون ، سماوى أو وضعى ، طبيعته وسماته وخصائصه التى يتميز بها عن غيره من القوانين ، فان للفقه الإسلامى من هذا كله ما يجعله بحق ضرباً فريداً من التشريعات والقوانين التى عرفها العالم حتى الآن ، سواء من ناحية الأسس التى قام عليها ، والمقاصد والغايات التى استهدفها ، والأحكام والحلول التى جاء بها على مر العصور .

وموضوع « الأموال ونظرية العقد » هو الذى يعرف فى كتب الفقه بالمعاملات ، وقد ألف المؤلف كتابه هذا لطلبة كلية الحقوق بالجامعة ، وسيستفيد من ذلك بالعرض جميع الذين يعنيهم دراسة الفقه الإسلامى من مراجعه الأصيلة ، وقد امتاز الكتاب بصفة خاصة بالمقارنة بين آراء الفقهاء المسلمين من مختلف المذاهب، ثم بالمقارنة بين هذه الآراء والمذاهب وما جاء فى القانون المصرى الحديث ، عند ما يتطلب الأمر وموضوع البحث هذه المقارنة.

والفقه الإسلامى هو فقه السواد الأعظم من الأمة المصرية ، وإن ٩٢ فى المائة من هذه الأمة يؤمنون بأن هذا الفقه هو تشريعهم الأصيل ، وكل ما عداه أجنبى عنهم ، وكما يرون أنه فقههم الذى اطمأنوا إليه وتعاملوا به مدة ثلاثة عشر قرناً وأكثر ، يرون كذلك أنه هو الأليق بهم والأنفع لهم واللائق بمجتمعهم ، وزيادة على ذلك فإن إحياءه والتعامل به يعدونه ديناً ، ويعتقدون أنهم يثابون عليه كما يثابون على العبادة ، وبعكس ذلك يعتبرون إهماله وتضييعه والتنكر له جريمة يعاقبهم الله عليها . لذلك كان مما يسرُّ له المصريون عناية علمائنا بالفقه الإسلامى تدريساً وتأليفاً وبحثاً ، وحسن عرضه فى مؤلفات تقطع الحجة على كل من يساهم فى تعطيله وإحلال الفقه الأجنبى فى محله من المجتمع المصرى .

ويقول الدكتور المؤلف فى مقدمة هذا الكتاب : « وفى الفقه الإسلامى ثروة ضخمة من التشريعات العديدة التى تتناول الفرد ، والمجتمع ، والدولة - من النواحى المختلفة - بل تتناول أيضاً العلاقات الدولية بين الأمم جميعاً . ولن يستطيع أن يقف على مبلغ هذه الثروة من قصر نفسه على مذهب واحد من مذاهب الفقه لا يعدوه إلى غيره ، بل يجد تجاوزه غير جائز له ما دام قد التزمه مذهباً له » .

والكتاب فى ثلاثة أقسام : أولها المدخل لدراسة الفقه وفلسفته ، ذكر فيها نشأته وتدرجه وأدواره والمذاهب الفقهية المهمة ، وأصول الفقه ومصادره ، وطبيعة الفقه الإسلامى وخصائصه . والقسم الثانى فى الأموال ، وفيه تعريف المال والملك وتقسيمهما وحقوق المنفعة والارتفاق ، والأسباب الناقلة للملكية . والقسم الثالث فى نظرية العقد وتكوينه وشروطه وأقسامه وانتهائه .

وكان المؤلف على نية الكتابة بإيجاز على العقود عقداً عقداً ، كالبيع والإجارة والرهن والعارية وغيرها ، لكنه عدل عن ذلك اكتفاء بما كتبه عنها فى أثناء بحث نظرية العقد وقد جاء كتابه فى ٥٢٤ صفحة مستوفياً لما أراده منه ، وسيفيد منه طلبة كليات الحقوق ومن فى درجتهم من المثقفين فائدة تخطو بهم خطوات للاستقلال فى البحث والاستئناس باتجاهات الفقه الإسلامى .

خلاصة تاريخ تونس

نشرته دار الكتب الشرقية بتونس — ٢٠٠ صفحة

هو مختصر مدرسي للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب يشمل حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر. وكان قد طبع قبل الآن مرتين فأعيد الآن طبعه للمرة الثالثة بعد أن أصلح فيه المؤلف ما تعين إصلاحه، وحور البعض، وأضاف إليه فقرات وفصولا وخرائط جغرافية رجاء أن يزداد الكتاب بذلك شرحاً وإيضاحاً.

ومثل هذه الكتب في التعريف بالأقطار الإسلامية وأجزاء الوطن العربي مما يعين على تعارف المسلمين والإلمام بأحوال أوطانهم ليتم بذلك شعورهم جميعاً بأنهم أمة واحدة. وللمؤلف تاريخ آخر لتونس مبسوط يعنى بجمعه وتأليفه منذ أحقاب، فعساه يبادر إلى نشره ليعم النفع به.

ديوان ابن حيوس

نشره المجمع العلمي العربي - بتحقيق خليل مردم بك - في مجلدين ٧٥٠ صفحة قالبين

الأمير أبو الفتيان محمد بن سلطان المشهور بابن حيوس الغنوي الدمشقي (٣٩٤ - ٤٧٣) من أعلام الشعر العربي، وكان شاعر الشام في عهد الدولة الفاطمية في القرن الخامس، عاصر أبا العلاء المعري، وكان جده الهيثم بن عثمان الغنوي من قواد المعتصم ومن الرؤساء الذين مدحهم البحتري. ونشأ ابن حيوس من أول شبابه جامعاً إلى وجاهته وثرائه واتصاله بالولاة والحكام، الميل إلى الفصاحة والجزالة والارتياح إلى نظم الشعر، فنحا منحى أبي تمام في الصنعة اللفظية والغوص على المعاني، كما ذهب مذهب البحتري في استواء الشعر وعدم التفاوت وطول النفس. ويعاب عليه انزلاقه في مناصرة ولاة الفاطميين والتحامل على خصومهم، فاضطر على سنيته - إلى مجاملة الباطنيين وأتهم بما لا يجوز صدوره عن مسلم، ولا يليق إلا بمثل ابن هانىء. وقد عاقبه الله على ذلك، وعلى تهوينه من شأن قومه العرب إرضاء لمثل انوشتكين الدزبري، بأن دالت دولة هؤلاء وهؤلاء ففقد ما كانت تملك يداه، وأراد أن يذهب إلى بغداد فتذكر أنه قد أغضب بني العباس ونال منهم تقرباً إلى بني عبيد وولاتهم. وأراد أن يذهب إلى حلب فصده عن ذلك أنه ملأ الدنيا بشعره في ذم الأمير

صالح بن مرداس وابنه نصر بن صالح لما كان يمدح أنوشتكين العدو الألد لآل مرداس . إلا أن الله أنقذ شيخوخة هذا السرى الشاعر على يد الأمير على بن منقذ فتوسط له عند الأمراء آل مرداس وأمر ابنه نصر بن على بن منقذ بأن يصحبه ويقدمه إلى أمير حلب محمود ابن نصر المرداسى فكان وسيلة التجمل والصفاء بعد الجفاء . وأنشد بين يديه قوله فى مدحه :

قفوا فى القلى حيث انتهيتم تذمما ... ولا تقتفوا من جار لما تحكما

أرى كل معوج المودة يُصطفى ... لديكم ، ويلقى حتفه من تقوما

حنى الناس من قبلُ القسىّ لتقتنى ... و ُثقف منآد القنا ليحطما

وما ظلم الشيب الملم بلمتى ... وإن بزّنى حظى من الظلم واللما

إلام أمنى النفس ما لا تناله ... وأذكر عيشاً لم يعد مذ تصرما

وقد قالت السبعون للهو والهوى ... دعانى أسرى واذهبا حيث شئتما

فأحسن الأمير محمود بن نصر المرداسى وفادة ابن حيوس واحتفى به ووهب له ألف دينار ذهباً فى صينية فضة وجعلها له رسماً عليه فى كل سنة ، وأنساه بنى عبيد ووزراءهم وأمراءهم . فقال يخاطب ابن منقذ ويذكر الأمير ابن مرداس :

يا ابن المقلد قد قلدتنى مننا ... ما قارب الحمد أدناها ولا كربا

فيمنُ جدك أفضى بى إلى ملك ... ما ابتزه الشعر إلا هزه طربا

أغنى وأقنى وأدنى ثم أغرب فى ... إنعامه فأفاد العقل والأدبا

فكل نوء بمصر جادنى زمنا ... فداء نوء سقانى الرى فى حلبا

ويقول محقق هذا الديوان العالم الأديب الشاعر المحقق السيد خليل مردم : « دخل ابن حيوس حلب فى شوال سنة ٤٦٤ وهو ابن سبعين سنة ، وبقى فى كنف آل مرداس حتى انقرضت دولتهم سنة ٤٧٣ ، وفى الديوان من شعره فيهم ثلاثون قصيدة من أجزل شعره وأحسنه ، يعجب الإنسان كيف استجابت له وهو فى عشر الثمانين من عمره » .

وفى ذلك يقول :

وما أضعفت عشر الثمانين منتى ... كما تضعف الضرغام وهو غضنفر

ومما ذكره محقق الديوان من أخلاق ابن حيوس أنه كان يغلب عليه الجد والتعاون ،

وأنه ليس فى سيرته أو شعره لهو أو عبث أو مجون ، ولم يكن مختالا فخوراً ، ولا سبابا طعانا ، ويكاد ديوانه يخلو من الغزل ووصف الخمر والفخر والهجاء ، ولعل غلبة الجد عليه جملته خشنا فى بعض أحاديثه كالذى رواه الحافظ ابن عساكر (١٠ : ٤١٠) فى ترجمة الشريف أحمد بن على النصيبى قاضى دمشق للمستنصر العبيدى ، فقد قال القاضى لابن حيوس يوماً : وددت لو أنى كنت فى الشجاعة مثل على وفى السخاء مثل حاتم . فقال له ابن حيوس : وفى الصدق مثل أبى ذر . يعرض له بأنه كذاب لأن القاضى كان يرمى بالكذب .

وكان ابن حيوس معجباً بشعر معاصره عبد المحسن الصورى ، حتى لقد روى عنه ابن عساكر (ج ١٠ ورقة ٢٢٥ مخطوط) أنه كان يقول : إنى ليعرض لى الشىء من شعر أبى تمام والبحترى وغيرهما من المتقدمين فأعمل فى معناه فأبلغ مرادى منه ، ولا أقدر على أن أبلغ من موازنة شعر عبد المحسن الصورى ما أريد لسهولة ألفاظه وعذوبة معانيه وقصر أبياته . وكان يعترض على من يقول إن جريراً أغزل الشعراء ويقول : أغزل منه عبد المحسن الصورى فى قوله :

بالذى ألهم تعذيـــبى ثناياك العـــذابا
ما الذى قالته عينا ك لقلبى فأجابا

وكان أبو العلاء المعرى يعيب عبد المحسن الصورى بقصر النفس ، فلما حضر ابن حيوس عند أبى العلاء أنشده أبو العلاء أبياتا لعبد المحسن وقال : « هذه لقصيرك » . فقال له ابن حيوس : « هو أشعر من طويلك » ، يعنى المتنبى . فمد أبو العلاء يده إليه وقبض على ثوبه وقال : « الأمراء لا يناظرون » ، وأراد بذلك أن يحول مجرى الحديث .

وقد تعرضنا لنقل هذه الأخبار ليعرف المتأدبون أن بلغاء هذه الأمة وأعيان البيان فيها قد طوى النسيان منهم العديد الأكثر ، والمشهورون منهم هم النزر القليل .

فشكراً للمجمع العلمى العربى على إحيائه هـــذا الديوان البليغ من تراثنا الأدبى ، وأضعاف هذا الشكر للسيد خليل مردم على ما بذله من روحه وأدبه فى حسن إخراج شعر ابن حيوس صحيحاً مضبوطا مشروحاً بأجمل طبع وأنفسه .

الأدب والعلوم في شهر

معهد دمنهور الديني

في زيارة الرئيس اللواء محمد نجيب لمدينة دمنهور يوم الأربعاء ٣٠ رجب وضع بيده حجر الأساس لمعهد دمنهور الديني في الأرض التي تبرع بها أعيان دمنهور لهذا الغرض . وقد خطب الرئيس في هذا الحفل فكان مما قاله : « أحب أن أقول لكم إننا نستمد هدينا من القرآن ، وإن أعمالنا جميعاً من وحيه . وإني لأتساءل : هل قصرنا في الأخذ بأهداب الدين ؟ هل خرجنا عن حدوده ؟ ألم نقرر الصلاة في المدارس ؟ ألم نجعل تعليم الدين مادة أساسية ؟ إذن ماذا تريدون ؟ افهموا أن النظام والاتحاد والعمل هي وسيلتنا الوحيدة لطرد الإنجليز . من كان يحب بلاده فعلا فلينظم نفسه وليقلع عن الهتاف الذي لا هدف له إلا حب الظهور ، وخدمة الأغراض الخاصة . إن الذين يهتفون في كل مناسبة : نريد القرآن . لاحكم إلا بالقرآن . . يسيئون إلينا وإلى أنفسهم وإلى بلادهم ، لأننا لم نقصر في تطبيق القرآن . اعملوا بمبادىء القرآن إذا كنتم حقا تؤمنون بما تقولون . طبقوه على أنفسكم ، وعلموا أولادكم الصلاة ، وساعدوا جيرانكم ، وانشروا الفضيلة . وإنني أقول لكم بملء صوتي : من رأى فينا منكرا فليواجهنا به ، من رأى منا خروجا على القرآن فليحدثنا عنه . إننا نريد أن نعمل . وعلى كل من يريد أن يطبق القرآن أن يطبقه على نفسه وذويه . هذا هو الدين الصحيح » .

معهد ديني بزفتى

كان الوجيه السيد كشك من أعيان زفتى رحمه الله ، قد أنشأ معهداً دينيا أهليا ببلدته ووقف عليه وقفا داراً من أطيانه للإنفاق منه على هذا المعهد . وقد زار نجله الكريم الأستاذ بسيوني كشك الناظر على أوقافه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر وقدم له طلباً رسميا بأن يلحق المعهد بالجامع الأزهر وتعهد بأن يقدم لإدارة الأزهر الريع الموقوف على هذا المعهد لاستمرار الإنفاق منه عليه . فعهد فضيلة الأستاذ الأكبر إلى المختصين بإتمام ذلك بحسب النظام المتبع في أمثاله .

ومعهد ديني بفاقوس

تبرع الأستاذ محمد فريد الطاروطي بقطعة أرض مساحتها فدان ونصف فدان في موقع جميل بمدينة فاقوس، وبألف جنيه، ليشيد عليها معهد ديني وجمعية للمحافظة على القرآن.

علم تجويد القرآن الكريم :

مرسوم بتعديل أحكام امتحانه :

صدر أمس مرسوم بتعديل بعض أحكام المرسوم الصادر في ١٢ يونيه سنة ١٩٤٥ بإنشاء قسم في كلية اللغة العربية لتدريس علم تجويد القرآن الكريم وفن القراءات ننشره فيما يلي :

المادة الأولى - يستبدل بالمادتين ٨، ١١ من المرسوم الصادر في ١٢ يونيه سنة ١٩٤٥ بإنشاء قسم في كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر لتدريس علم تجويد القرآن الكريم وفن القراءات النصان الآتيان :

« مادة ٨ - يكون الامتحان في جميع مراحل سني قسم القراءات وفي امتحان الحصول على الشهادة، على دورين. ويكون الامتحان في سني النقل تحريرياً في جميع علوم السنة التي يجرى فيها الامتحان، وشفوياً في حفظ القرآن الكريم ومادة القراءات وعلمي النحو والصرف في المرحلة الأولى والنحو والبلاغة في المرحلة الثانية.

ويكون الامتحان في إجازة حفظ القرآن تحريرياً في جميع العلوم، وشفوياً في القرآن الكريم حفظا وأداء وفي التجويد والنحو.

ويكون الامتحان في إجازة حفص تحريريا في القراءات، وشهادة التخصص في القراءات تحريريا في علوم السنة النهائية عدا مادة القراءات فيكون الامتحان فيها في جميع مقرر المرحلة. ويكون الامتحان شفويا في حفظ القرآن الكريم وفي مادة القراءات في جميع مقرر المرحلة وفي النحو والصرف في الشهادة العالمية والنحو والبلاغة في شهادة التخصص.

ويكون امتحان المكفوفين شفوياً فقط في جميع ما يمتحن فيها المبصرون أسوة بالطلبة المكفوفين في المعاهد الدينية ».

« مادة ١١ - لا يعيد الطالب في كل مرحلة من مرحلتي شعبة القراءات أكثر من سنتين ولا يعيد في السنة الواحدة أكثر من مرة ولشيخ الجامع الأزهر منح الطالب سنة استثنائية ».

المادة الثانية - تلغى المادة العاشرة من المرسوم الصادر في ١٢ يونيه سنة ١٩٤٥ المشار إليه.

المادة الثالثة - على رئيس مجلس الوزراء تنفيذ هذا المرسوم ويعمل به من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية ».

التعليم الجامعى

يقترح الدكتور على ماهر أن يكون من أغراض التعليم الجامعى الإعداد المهنى ، وأن تترك وزارة المعارف أمر التعليم العالى كله للجامعات . وأن تختص إحدى كليتى الآداب فى جامعتى القاهرة باللغات ، وأن تختص كلية الآداب الأخرى بالفنون الأدبية كالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والاجتماع . وأن تختص إحدى كليتى الهندسة بشئون الرى والعمارة والكلية الأخرى بالميكانيكا والكهرباء . وأن تختص إحدى كليتى العلوم بالرياضة والفلك والأخرى بالطبيعيات والجيولوجيا . أما العلوم المشتركة فيتولاها القسم المختص فى الكليتين معا حسب النظام الذى يوضح هذا .

وقد أخذت لجنة الأهداف والمبادىء العامة للتعليم الجامعى فى دراسة مقترحات الدكتور على ماهر هذه وما يلحقها من مقترحاته الإدارية .

امتلاء الجامعات المصرية :

دل آخر إحصاء لعدد الطلبة فى الجامعات المصرية الثلاث أنها اختنقت بكثرتهم ، ففى جامعة فؤاد ٢٢ ألف طالب ، وفى جامعة ابراهيم ١٥ ألفا ، وفى جامعة الاسكندرية ٦ آلاف . ومجموعهم حوالى ٤٣ ألف طالب

وترى اللجان الفرعية للتعليم الجامعى أن كل كلية يجب أن لا يزيد عدد طلبتها عن ألف فى الحد الأعلى ليستقيم التعليم فيها ، ومعنى هذا أن عدد طلبة الجامعات الثلاث يجب أن يهبط إلى نصف عـــددها الحالى ، وألا تقبل الجامعات الثلاث من الطلبة الجدد إلا حوالى ستة آلاف فى كل عام ، أى ٢٠٠ إلى ٣٠٠ طالب لكل كلية . والواقع أن الذين التحقوا بالجامعات المصرية هذا العام زاد عددهم على ١١ ألفاً ، والمنتظر أن يكون عدد المتقدمين للجامعات فى العام الآتى أكثر من ذلك . وما دام إقبال الحاصلين على الشهادات الثانوية على الدخول فى الجامعات كما هو الآن فلا مناص من إنشاء ثلاث جامعات أخرى .

نظام التعليم الثانوى :

أقر مجلس الدولة مشروع القانون الجديد الخاص بنظام التعليم الثانوى وأرسله إلى وزارة المعارف تمهيدا لعرضه على مجلس الوزراء . وهو يقوم على تقسيم التعليم الثانوى إلى مرحلتين : الأولى (المرحلة الإعدادية) ومدتها أربع سنوات والغرض منها تهيئة وسائل النمو لطلبات التلاميذ وميولهم على اختلاف أنواعها من أدبية وعلمية وعملية وفنية ، والتصرف على ما يظهر فيهم من

مواهب ومميزات وميول خاصة ، حتى يمكن أن يتجهوا فى المرحلة الثانية وهى (المرحلة النهائية) ومدتها ثلاث سنوات إلى نوع الدراسة الثانوية الذى يلائمهم ، وفى هـذه المرحلة الثانوية النهائية تنطوى الدراسة على نوع من التخصيص ، وفيها يبدأ تنوع الدراسة .

وقد جعل (الدين) مادة من مواد امتحان الانتقال فى جميع الفرق بالمرحلتين .

ونص فى المشروع على إعفاء غير المسلمين من دراسة القرآن الكريم ، وإذا وجد عدد كاف منهم فى الفرق ترتب لهم دروس خاصة فى الدين ،

وسيترتب على هذا النظام الجديد إلغاء امتحان شهادة الدراسة الابتدائية وامتحان شهادة الدراسة الثانوية (القسم العام) ويكتفى بامتحانين عامين يجتازهما التلميذ فى المرحلة الثانوية هما امتحان شهادة الدراسة الإعدادية وامتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة التى ستحل محل شهادة القسم الخاص . وسيكتفى فى نهاية التعليم الابتدائى بامتحان تعقده أقسام التفتيش لمن أتموا دراسة مناهج هـذا التعليم ويمنح الناجحون فيه إقرارا بذلك .

استعمار القلوب والعقول

أذاعت جريدة (المصرى) فى مقال ممتع مملوء بالتوجيه والعبر قول وزير خارجية أمريكا فى خطاب له لم يذع فى بلاد الشرق الأوسط .

« يجب أن نفهم نحن ـ الأمريكيين ـ أن كل مشاريعنا السياسية والعسكرية فى الشرق الأوسط ، ستصبح بلا جدوى ، ما لم يكن لنا (إشراف كامل) على ثقافة هذا الجزء الحيوى من العالم .

« إن (إشرافنا) على ثقافة الشرق الأوسط يعتبر أمراً جوهرياً بالنسبة لمستقبل مشروعاتنا العسكرية والسياسية والاقتصادية ! » .

احصاءات ثقافية

نشرت اليونسكو كتيبا فى ٦٠ صفحة تضمن إحصاءات ثقافية لمختلف الأقطار ، ومما جاء فيه أن فنلندا أقل بلاد الأرض أمية لأن نسبة التعليم فيها ٩٩ فى المائة .

وانجلترا أكثر البلاد خزائن كتب ، فقد بلغ عدد دور الكتب فيها ٢٣٧٥٩ مكتبة . وبلغ عدد الكتب التى نشرت فيها سنة ١٩٥٠ نحو ١٧٠٧٢ مؤلفا ، وفى الولايات المتحدة ١١٠٢٢ مؤلفا ، وفى فرنسا ٩٩٩٣ مؤلفا .

وفى انجلترا توزع الصحف اليومية بنسبة ٥٩٨ نسخة لكل ألف ساكن ، وفى الولايات المتحدة يستهلك من ورق الصحف ٣٦ كيلو غراما لكل فرد فى السنة .

اعتماد البعوث الإسلامية

قرر مجلس الوزراء فتح اعتماد إضافى بمقدار ٥٧٫٥٠٠ جنيه فى ميزانية رياسة مجلس الوزراء للسنة المالية ١٩٥٢ - ١٩٥٣ زيادة على اعتماد الـ ١٥٠٫٠٠٠ جنيه المخصص لطلاب البعوث الأزهرية ، على أن يؤخذ هذا الاعتماد من وفور مخصصات الجامع الأزهر والمعاهد الدينية .

أنباء العالم الإسلامي

إصلاح الحرم النبوى .

عاد وفد الجامعة العربية من زيارة المملكة العربية السعودية برياسة أمين الجامعة الأستاذ عبد الخالق حسونه . وقد قال الأستاذ عبد الخالق عقب وصوله إلى مصر : إن العمل سيبدأ قريباً فى إصلاح وبناء الحرم النبوى الشريف ، وإن المسئولين فى المملكة السعودية أخذوا فى إعداد الوسائل للبدء فى هذه الإصلاحات فوراً .

سكة الحجاز الحديدية :

زار الأمير سعود ولى عهد المملكة العربية السعودية لبنان للبحث فى وسائل التقارب بين الحكومات العربية ضمن نطاق الجامعة . وعند انتهائه من زيارة لبنان قام بمثل هذه الزيارة لدمشق .

وقد انتهزت الغرف التجارية والزراعية والصناعية فى سوريا هذه الفرصة فعقدت اجتماعا قررت فيه مفاتحة الأمير سعود فى مسألة إعادة تسيير الخط الحديدى الحجازى لربط سوريا بالمملكة السعوديه وتوثيق التبادل بينهما .

وهذه الأمنية ما زالت تردد وتتجدد منذ بضع وثلاثين سنة ، ونرى أن الوقت الحاضر أجدر الأوقات بالاستجابة لتحقيقها .

المحمل

لما كان موكب الحاج يسافر براً على الجمال أيام الدولة العثمانية ، كان من لوازم ذلك أن يصحبه حرس عسكرى ، وجرت العادة أن يكون سفر الموكب بحرسه فى موعد واحد وعودته فى موعد واحد كذلك ، فكان لسفره حفلة وداع ولعودته حفلة استقبال ، واتخذوا فى مصر والشام محملين مزركشين يرون أنهما من تمام مظاهر هذا الموكب . ومعلوم أن ذلك ليس له أصل فى الدين ، وإذا توهم العامة أن له علاقة بالدين ، كان ذلك منهم تزيداً فى الدين يأثمون به . لأن الزيادة فى الدين كالنقص منه . زد على ذلك أن وسائل المواصلات غيرت الأوضاع كلها فصار الحجاج يسافرون ويعودون فى أوقات متتالية لا فى وقت واحد ، وكان المحمل المصرى قبل سنة ١٣٤٤ (١٩٢٥) يسافر بالفعل إلى الأراضى الحجازية باعتباره جزءاً من القوات التى ترافق الحجاج حينما كانوا جميعاً ينتقلون على الإبل من جدة إلى

مكة ومنها إلى المدينة ، فلما استتب الأمن في الحجاز بما لا نظير له وصار انتقال الحجاج بالسيارات في الأكثر الغالب ، انقطع سفر المحمل ، ومع ذلك بقيت مظاهر الاحتفال بوداعه واستقباله . ومن العجيب أن تحتفل الدولة والأمة باستقبال محمل لم يرسل فكيف يعود !

وبما أن مصر هي التي تتولى نسج كسوة الكعبة المشرفة ، وتقوم بإرسالها في كل عام ، فقد اتجه الرأى إلى إلغاء حفلة وداع المحمل واستقباله ، والاقتصار على الاحتفال بعرض الكسوة إيذاناً بالحج في أول الموسم ونهايته عملا بالآية الشريفة « وأذن في الناس بالحج » . ولعل الموسم المقبل سيكون أول مواسم الحج في مصر يلغى فيه عرض المحمل والاحتفال بوداعه واستقباله .

قبة المسجد الأقصى

تبين للمهندسين المصريين الذين أوفدتهم الحكومة المصرية إلى القدس لدراسة حالة قبة المسجد الأقصى أن المياه المتسللة من السقوف إلى جدران القبة في سنين متطاولة قد أثرت فيها حتى أدى ذلك الإهمال إلى ضرورة إحداث إصلاحات قد تبلغ تكاليفها ٤٢٠ ألف دينار أردني .

جامع جديد في لندن

كان المسلمون المقيمون في لندن يتمنون دائماً لو يقام لهم جامع يؤدون فيه الفرائض لأن من غير اللائق أن لا يوجد في تلك المدينة الكبيرة إلا جامع « ووكنج » الذي يقوم عليه القاديانيون ، وأخيراً تقرر بناء جامع إسلامي في المركز الثقافي الإسلامي بقلب مدينة لندن وتألفت لهذا المشروع لجنة أوصياء . وتبرع كذلك نظام حيدر أباد السابق بسبعين ألف جنيه ، كما تبرعت الحكومة المصرية بعشرين ألف جنيه ، وستتصل اللجنة الفرعية التي يرأسها المندوب السامي للباكستان في لندن بالحكومات الإسلامية وكبار الزعماء المسلمين للحصول على التبرعات اللازمة لإتمام هذا المشروع .

ولايات متحدة عربية

أدلى الرئيس اللواء محمد نجيب بتصريح في افتتاح مؤتمر الصحافة العربية أعلن فيه أنه يود من صميم قلبه أن يرى الدول العربية قد صارت « ولايات عربية متحدة » .

وقد سئل الأستاذ أحمد الشقيرى الأمين المساعد للجامعة العربية عن رأيه في هذا التصريح ، وعن علاقة هذه الفكرة بميثاق الجامعة العربية فقال .

ليس في ميثاق الجامعة العربية ما يمنع تحقيق هذه الفكرة الجليلة ، بل إن هذا الميثاق يدعو إلى كل ما يزيد روابط العرب رسوخا وتمكينا . ثم إن الجامعة العربية

ليست نهاية ، ولكنها بداية ، ونحن نعلم أن هـذا الرأى الموفق الذى أبداه رجل مصر الأول هو تعبير صادق عن أمانى الشعوب العربية . وأرجو أن يأتى ذلك اليوم الذى تتهيأ فيه الأسباب والظروف لتحقيق هـذه الفكرة النبيلة ، وسواء انتهت علاقة العرب فيما بينهم إلى « وحدة » أو « اتحاد » أو أى نظام آخر فإن المهم أن نصدر فى أمورنا عن رأى واحد إلى هدف واحد .

نواة لمؤسسة إسلامية كبرى :

علقت جريدة (باكستان تايمز) التى تصدر فى كراتشى على تصريح الرئيس اللواء محمد نجيب فى مؤتمر الصحافة بشأن أمنية « الولايات المتحدة العربية » فقالت : « إن أمل اللواء الرئيس سيلقى اهتماماً كبيراً فى جميع أنحاء العالم العربى . ولا شك أن أى اتحاد عربى سيكون نواة لمؤسسة إسلامية كبرى تقرب بين الحكومات الإسلامية ، وتضع لها سيادة موحدة إزاء المشاكل المشتركة . ويجب أن يقوم مثل هذا التعاون على أسس علمية إيجابية ، لا على أسس عاطفية » .

جامعة الدول العربية

نعمة ... ضائعة

فى قطعة مما ينشر يومياً فى (الأهرام) بعنوان « سلاح الغد » وبتوقيع « صاروخ » قرأنا هذه الفقرات يوم ٢٤ رجب الماضى عن جامعة الدول العربية :

« هذه الجامعة تعد فى الواقع إحدى المنظمات الإقليمية الرئيسية فى العالم . وللأسف الشديد فإن قيمة أو قوة هـذه المنظمة تكاد تكون مجهولة تماماً من القائمين بأمرها أو الأوصياء عليها ، فى حين أنها تستطيع أن تكون بالفعل أداة إيجابية تجذب إليها الدنيا بمن فيها وما عليها » .

« من العجيب أن تدرك كل من الكتلتين الماردتين - فى الشرق والغرب - قوة أو خطورة هـذه المنظمة ومدى الطاقة الكامنة فيها ، فتعمل كل من هاتين القوتين على تكييف أمورها وسياستها على أساس وجود هـذه المنظمة « الناعسة » أو « التائهة » والتى لو استيقظت لاستطاعت أن تفرض على الدنيا ما تشاء ، ولكانت هى القوة التى ترجح أى جانب تتجه إليه » .

« إننى أكاد أذوب حياء وضعفاً من أن أكون أنا ممن يوجهون الجامعة العربية وهى التى تضم من الأقطاب والمحترفين لتجارة السياسة والدبلوماسية ما يزيد عن حاجة الدنيا كلها » .

أعظم معارك التحرير

يقول المسئولون البريطانيون فى نيروبى - سواء منهم الرسميون وغير الرسميين - إن المعركة التى تدور رحاها الآن بين قبائل

ماو ماو وقوات الاستعمار البريطانى قد تصبح أعظم معارك نصف القرن الحالى . وهم يرون أن ثوار ماو ماو فى كينيا ليسوا سوى رمز الثورة التى تجتاح الآن القارة الإفريقية ، وأنها قد تسبب مضايقات ومتاعب لاحد لها فى القارة كلها من أدناها إلى أقصاها . ففى كل مكان فى القارة (من السودان شمالا إلى جنوب أفريقيا) يسمع المرء قصة واحدة لا تتغير وهى قصة حرب المبادىء التى لايخبو لها أوار .

إن سكان أفريقيا الشرقية ينظرون إلى ما حصل عليه سكان أفريقيا الغربية (ليبريا وساحل الذهب وروديسيا الجنوبية) فتدور رءوسهم غضباً وإصراراً على أن يظفروا بحقهم فى الحرية والحياة . ولكن الغربيين ينكرون عليهم هذا الحق بحجة عدم استعدادهم .

خطيب سيف ومنبر

هكذا كان أسلافنا ، يرقى أعواد المنابر فى مساجدهم من يقودهم فى حروبهم ومن يوجههم فى مجتمعهم وكيانهم . وفى يوم الجمعة ٢٦ من رجب ارتقى أعواد المنبر فى مسجد الحنفى بحى السيدة زينب البكباشى أنور السادات عضو مجلس قيادة الثورة فألقى منه خطبة الجمعة ، وكانت مفاجأة مدهشة المصلين إذ رأوا فى القائد خطيباً من الطراز الاول ، وكانت الخطبة شيئاً جديداً لاعهد لهم بمثله لانها صادرة عن القلب وكان يخاطب بها القلوب ، ففسر التحرير بأنه لا يقتصر على إجلاء الغاصب ، ولا على نفى الطاغية ، بل هو ينصرف أولا وقبل كل شىء إلى تحرير النفوس من أنانياتها وما خلفته فيها الاحوال السابقة من أثرة واستئثار وسائر ألوان الضعف ، إلى أن ينتصر كل مواطن على نفسه بقوة إيمانه وتوجيه دينه ، فيتمكن من إخراج إبليس وجنوده من النفس المسلمة ويصبح كل واحد منا ولياً من أولياء الحق ورجلا من رجال الخير ، وبذلك نعود أمة صالحة ، وبذلك نكون خير أمة أخرجت للناس كما أراد لنا الله أن نكون .

تحرير سوريا الاقتصادى

من ذيول الانتداب الفرنسى الذى رفع الله كابوسه عن البلاد السورية بقاء النقد السورى مكبلا باتفاقية البنك الفرنسى التى وضعت فى أيام الانتداب وتمتد مدتها إحدى عشرة سنة أخرى (أى إلى سنة ١٩٦٤) ولكن سوريا خطت فى هذا العام خطوة جريئة للتحرر من هذا الاحتلال الاقتصادى ، فسنت قانوناً لإنشاء بنك سورى أهلى تنتقل إليه مهمة إصدار أوراق النقد المالية الرسمية . وهى خطوة لا تقل عن قرار تأميم بترول عبادان فى إيران ، بل إن السيد سعيد الزعيم وزير

المالية السورية يقول إن المشروع الجديد بإنشاء البنك الأهلي السوري يعادل في أهميته جلاء القوات الفرنسية عن سوريا ولبنان عام سنة ١٩٤٦ ، وقد نشرت الصحف صورة الليرة السورية الجديدة وهي في شكلها - كما هي في حقيقتها - عربية محضة لم تشب بأي شائبة من اللغة الأجنبية أو حروفها وأرقامها .

مطامع

في برقية من بغداد أذاعتها وكالة الأنباء العربية خبر عجيب عن تفاصيل تلقتها جريدة (الحارس) البغدادية جاء فيها أن قوات عسكرية إيرانية أعدت سراً لغزو جزر البحرين التي يحكمها الأمراء آل خليفة منذ دهر طويل .

وتتوالى الأخبار من قبل ذلك بأن هجرة منظمة يقوم بها بعض الإيرانيين من بلادهم إلى البحرين والكويت مجتهدين في أن تكون لهم جاليات أكثر عدداً في هذه البلاد العربية من الأزل ، حتى تكون هذه الجاليات الصغيرة حجة تبرر هذه المطامع !

ترى أليس في أحوال إيران ما يشغلها عن مثل هذه المساعي التي تضر ولا تنفع ؟!

تركيا في نظر الأمريكيين

نقلت مجلة (التحرير) قول الكاتب الأمريكي المعروف (جون جنثر) : « لا يمكن ولو عن طريق الخيال أن يطلق على تركيا دولة ديمقراطية بالمعنى الغربي المعروف .

ولسنا نريد أن نخدع أنفسنا بمثل هذا الكلام . والواقع أننا لا تنفق أموالنا في تركيا لنساهم في دعم ديمقراطيتها ، ولكننا ننفق أموالنا هناك لنستعملها كسلاح حربي عام ، وذلك بمساعدة الأتراك على الاستعداد لمواجهة أي خطر يحتمل أن تسببه روسيا ، إننا لا نساعد الأتراك ، ولكننا ننفذ في تركيا جزءاً من برنامجنا الدولي . وليس الأتراك أكثر من وسيلة في نضالنا الدولي مع الاتحاد السوفيتي . ليكن هذا واضحاً من الآن ، ولنواجهه بصراحة » .

سماحة وبغي

تلقت وزارة الشئون الاجتماعية من حكمدار الإسكندرية تقريراً عن جمعية تبشيرية استقدمت ثلاثة من الأجانب لإلقاء محاضرات دينية وتوزيع نسخ من كتاب ديني فيه بغي على الإسلام وافتراء عليه . وقد طلبت إدارة الهجرة من هؤلاء المحاضرين أن يغادروا البلاد ، ورفضت تجديد مدة إقامتهم . ولما تلقت وزارة الشئون الاجتماعية تقرير حكمدار الإسكندرية أخذت في دراسة أغراض الجمعية التي استقدمت هؤلاء المحاضرين الثلاثة وما في أعمالها من تعارض مع قانون الجمعيات .

فهرس

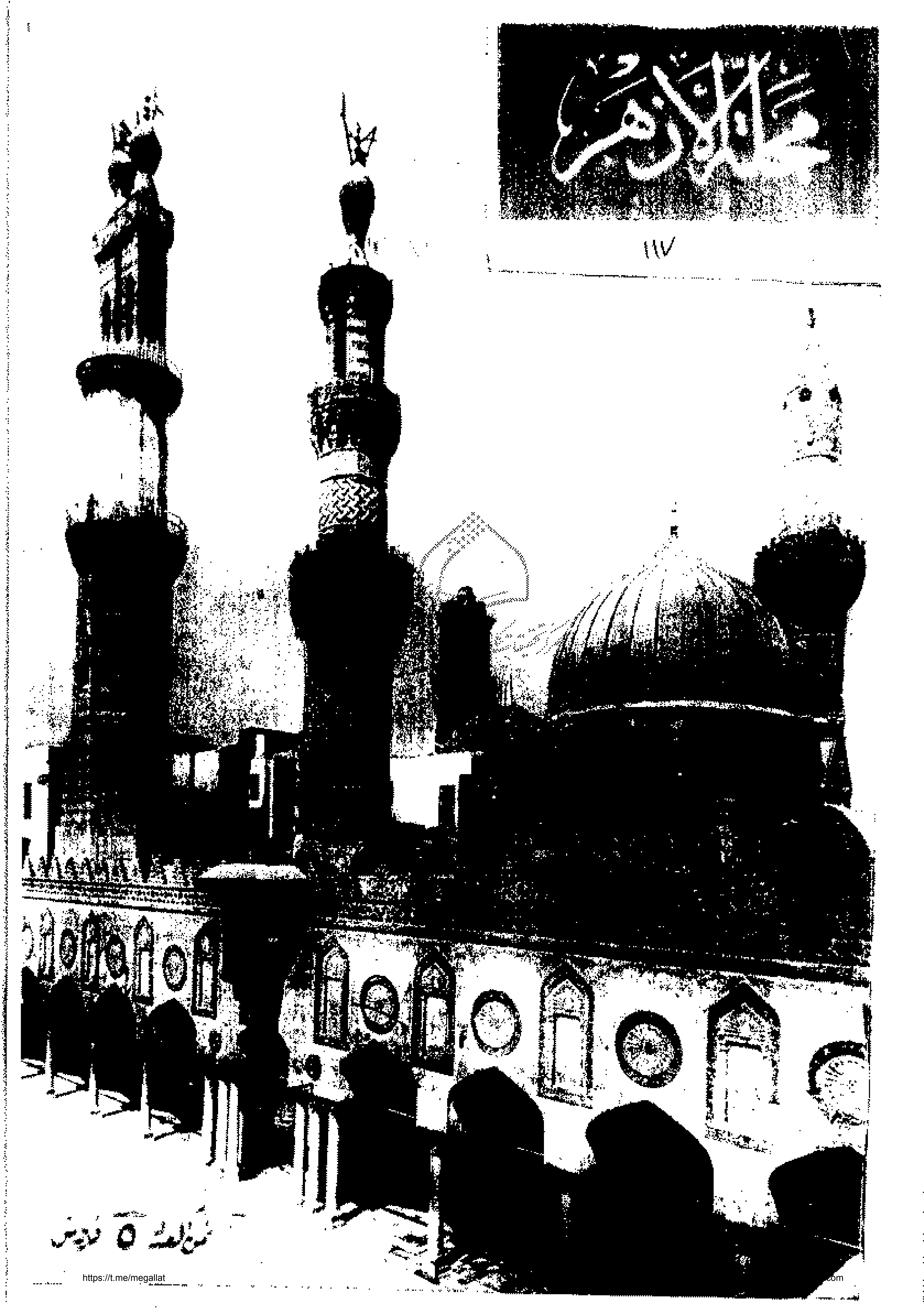
الجزء الثامن ـــ المجلد الرابع والعشرون

مجلة الأزهر في تونس

تطلب مجلة الأزهر بتونس من حضرة [illegible] خوجة صاحب

محلات دار الكتب العربية الشرقية بتونس شارع باب المنارة

رقم ١٥ نهج باب سويقة – ١٣٢


مجلة الأزهر
١١٧
ثمن العدد ٥ قروش

مدير المجلة
محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

العنوان
إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر
مجلة شهرية جامعية
تصدر عن مشيخة الأزهر فى أول كل شهر عربى

رئيس التحرير
محب الدين الخطيب

الاشتراك السنوى
٥٠ فى مصر والسودان
٣٠ للطلبة فى مصر والسودان
٦٠ فى الخارج
٤٠ للطلبة فى الخارج
٥ ثمن الجزء

الجزء العاشر – فى غرة شوال ١٣٧٢ – ١١ يونية ١٩٥٣ – المجلد الرابع والعشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

ثقافتنا الحائرة

لما قام وفد مصر إلى مؤتمر المستشرقين الثامن فى ستوكهلم عام ١٣٠٧ (١٨٨٩) مؤلفاً من الشيخ حمزة فتح الله وعبد الله فكرى وابنه أمين فكرى ومحمود عمر ، كانت الباخرة (غامبوج) من بواخر المساجيرى ماريتيم تبحر من القسطنطينية إلى أوربا وعليها كبير كتاب الترك فى ذلك الوقت العلامة أحمد مدحت افندى ممثلا للدولة العثمانية فى ذلك المؤتمر . ومع أن مؤلفات هذا الأديب التركى قد أربت يومئذ على مائة كتاب ، فإنه أدرك بفطنته وإنصافه أن الفلك الذى تدور فيه ثقافته على سعتها لا يؤهله لعضوية مؤتمر المستشرقين ، وأعلن فى مقدمة كتاب رحلته إلى ذلك المؤتمر اعترافه بأنه رجل وقف حياته على نقل معارف الغرب إلى الشرق ، فهو – لذلك – يعد « مستغرباً » أكثر منه « مستشرقاً » فضلا عن أن يكون شرقياً فى اتجاهه الثقافى .

وقد يكون فى قادة الفكر من أدباء الترك من كان يتجه بثقافة بلاده اتجاهاً غربياً أكثر مما فعل أحمد مدحت افندى ، بل قد يكون فيهم من يذهب إلى أن حضارة الغرب « كل لا يتجزأ » ، فعلى الأمم الشرقية وهى تأخذ الحضارة عن الغرب أن تأخذها بحذافيرها

كما دعا إلى شيء من ذلك بعض حملة الأقلام عندنا . أما أحمد مدحت افندى فأشهد أنه كان أديباً إسلامياً ، وأن له مواقف مشرقة حتى فى الرد على المبشرين . وأنه كان حريصاً على توجيه الشباب التركى فى قافلة الإسلام ، وكان من رسالته أن تكون للترك ثقافة مستقلة تعصمهم عن أن يذوبوا فى الثقافة الغربية ، وندرأ عن عقولهم وقلوبهم حملات الاستعمار الفكرى وأخطاره ومع ذلك فإنه ـ بحكم الاختصاص الذى كان له فى عالم الثقافة ـ اعترف بأنه يعد « مستغرباً » أكثر منه « مستشرقاً » ، واعتذر بذلك عن حداثة عهده بالجو الذى يستقبله فى مؤتمر المستشرقين .

تحتاج الأمم فى نهضاتها إلى أن تأخذ من علوم الأمم الأخرى كل ما يجدّ عندها ، لتنتفع به فى تقدم صناعاتها ، والنهوض بأسباب قوتها . أما الثقافة والأدب فإن لكل أمة ثقافتها وأدبها ، خصوصاً الأمة التى لها رسالة سامية إلى الإنسانية ، ولها تراث فياض من لغة عريقة فى القدم زاخرة بدقائق المعانى وثمرات المدارك وخطرات الأفكار ومشاعر القلوب . وكلما كان تراثها الأدبى أغزر وأغنى ، كان تفريط أبنائها فى استقلالهم الثقافى جناية منهم على قوميتهم وخيانة لها . وقلما يكون ذلك إلا تحت سلطان الاستعمار وبإرشاده ، وتنفيذاً لخطط رسمها رجاله لمعاهد التعليم ، فأخرجت للبلاد حملة أقلام يفكرون بعقول أجنبية ، ويوجهون الرأى العام وجهة أجنبيه ، ويزينون للناس أذواقا أجنبية .

نقول هذا بعد أن هدأت المعركة الأخيرة حول الأدب العصرى فى مصر بين الذين كانوا يسمون أنفسهم المجددين فى الأدب ، وبين أبنائهم الذين يدعون إلى تجديد فى ذلك التجديد حتى يبقى معه قديما . ولا يبعد أن يخلف هؤلاء خلف من الأحفاد بعد عشرين سنة أخرى يدعو إلى تجديد ثالث بدعوى أن تجديد التجديد قد أدركه الهرم فصار قديما بعد قديم .

وأنا أقرر ـــ بأسف عميق وحزن شديد ـــ أننا فى عصرنا هذا ليس لنا أدب جديد ولا قديم ، لأن أدبنا ـــ فى وضعه الحاضر ـــ لا رسالة له ، وقد نشأ ذلك عن كونه أدب أمة لا تعرف من هى ، ولا أين هى ، وماذا تريد ، وما هى وسائلها لتحقيق ما تريد .

وفى ظنى أن القارىء لا يزال على ذُكر من هذه الحقيقة المريرة التى أعلنها فى العام الماضى وزير خارجيتنا الألمعى الأستاذ محمود فوزى ، وقرر فيها أننا أمة لا تعرف

من هى [1] . ولو أن أدبنا الشائع الآن أدب سليم لارتفع بنا من أعماق التيه الذى نحن فيه ، فأشرف بنا على مصادر ضعفنا وينابيع قوتنا ، ولكان لنا به من دقة الحس ما نسمع به نابض الحياة فى مجالى الحقيقة . بل لكان لنا منه غذاء شهى نقوى به على بلوغ مطمحنا المتوارى وراء الآفاق .

أدب الأمة أوسع أفقا وأبعد مدى من أن يختص بجيل واحد ، أو بلد منفرد . وإنما هو القلب النابض بحيوية الأمة من أقدم عصور بيانها ، وفى أوسع آفاق مشاعرها . وهو موجه الأمل القوى الذى يتخطى الدهور فيتصل بالأهداف الأولى مهما أوغلت فى أحشاء المستقبل .

إن أدبنا فى مصر يجب أن تتجاوب رسالته مع رسالة عمرو بن العاص فيما كان قد رسمه لمصر العربية الإسلامية من اتصال بجناحيها فى الشرق والغرب ، ويجب أن تتجاوب رسالته مع رسالة كل ناطق بالضاد من فلسطين إلى أقصى وطن الأدب العربى وراء فلسطين ، ومن ليبيا إلى أقصى هذا الوطن الواحد بعد ليبيا ، وبذلك يحمل أدبنا الأصيل لواء الجهاد الفكرى فى دنيا العروبة والإسلام ، مؤدياً رسالته لأمة تعرف نفسها وتمضى وراء أهدافها .

أما النقاش الذى قام أخيراً بين الجديد الذى صار قديماً ، وبين الوليد الذى يحاول أن يكون شيئاً جديداً ، فإنما قام بين أدبين أجنبيين عن رسالة الأدب العربى ، وغريبين عن القلب النابض بحيوية هذه الأمة ، فكانت الأمة بهما كاليتيم الذى لا عائل له ، وكالمظلوم ليس له من ينطق بحقه ويدفع الظلم عنه .

أدب الأمة هو اللسان الناطق برسالة الأمة . فإذا كانت الأمة لا تعرف من هى ، وإذا كان لسانها الناطق برسالتها غير مؤمن بهذه الرسالة ، فأى قيمة لهذا الأدب جديدا كان أو جديد الجديد ، وقديما كان أو قديم القديم .

أدبنا كأغانينا يتكسب مما تتكسب منه الأغانى ، ويتقصف ويتخلع فى الجو الذى تتقصف فيه وتتخلع هذه الأغانى . وكل ذلك من أثر ثقافتنا الحاضرة التى تتلقاها أجيالنا عن مناهج سنها لنا رجال الاستعمار ، ولا نزال دائرين فى فلكها ، تائهين فى أغراضها ، بعيدين عن رسالتنا القومية التى أولها فى الانقلاب الاجتماعى الأعظم الذى تم على أيدى

---

(١) انظر جزء ربيع الآخر من هذه المجلة (ص ٣٩٧)

عمرو بن العاص وصحبه يوم رسموا خطط الفسطاط . وأخشى أن نكون تناسينا هذه الرسالة منذ أفل نجم الفسطاط وخلا مسجده العتيق من علمائه وأدبائه ، ومن قادة الفكر الذين طلعوا شموساً فى سمائه .

وإذا كان الأدب الجديد وجديد الجديد أدباً أجنبياً لأنه لا يتصل برسالة هذه الأمة ولا بالقلوب التى تستمد قوتها من قوة هذه الرسالة ، فان البلاغة من المواهب الباقية فى الناس ما بقى الناس . ولن يعود للأمة أدبها إلا إذا نبغ فيها بلغاء مؤمنون برسالتها ، ولهم قلوب تتجاوب مع تراثها الأول ، وبصائر تكشف أهدافها من آفاق المستقبل ، حتى إذا هتفوا بهذه الأمة يدعونها إلى أن تعرف من هى ، وأين هى ، وماذا تريد ، انتعشت حينئذ ثقافتنا الأصيلة ونمت وأينعت وزالت حيرتها ، وإن تحقيق ذلك رهن بتغيير مناهج معاهدنا كلها : فى الأزهر ، ومدارس وزارة المعارف ، والجامعات ، فاذا تجاوبت مناهجنا مع رسالتنا نهض العملاق حينئذ من نوم طال عليه الأمد ، وخرج من كهفه ليستقبل الدنيا بعقل جديد وأدب جديد ، وسلاح جديد ؟

محب الدين الخطيب

نزوع المرء إلى أصله

قال نهشل بن حرى :

أرى كل عود نابتاً فى أرومة ... أبى نسب العيدان أن يتغيرا

بنو الصالحين الصالحون ، ومن يكن ... لآباء سوء يلقهم حيث سيرا

أبوك هناب سارق الضيف برده ... وجدى يا حجاج فارس شمرا

الأمم السعيدة والأمم الشقية

في الأرض أمم سعيدة وأمم شقية ، أمم راقية وأمم منحطة ، أمم لها العزة والسؤدد وأمم لها الذلة والخزى ، أمم تعيش فيما بينها كأنما تعيش فى الفردوس سعادة ونعمة ، وأمم كأنما تعيش فى الجحيم شقاء وبؤساً ، أمم لم تدع خيرا من الخيرات إلا تمتعت به من كرامة وجاه ، وأمم لم تدع شقاء إلا جلبته لنفسها وشقيت به ، فما الذى جعل بعض هذه الأمم سعيدا وبعضها شقيا ؟

إن الجواب عن هذا السؤال أنفس شيء فى هذه الحياة لأنه يعطى المرء المفتاح الذى تفتح به الأمة باب السعادة ، والمفتاح الذى تغلق به باب الشقاء . إن سعادة فرد واحد مرغوب فيها ومبحوث عنها ، فكيف سعادة أمة بأكلها . وإن الأمر وإن كان على ما ذكرت تراه لا يؤبه به فى الشرق ولا يفكر فيه ، وترى الأدباء ورجال الاجتماع يعنون بما هو أقل من ذلك شأنا ولا يعنون بهذا الأمر الخطير .

إن أول واجب على رجال الاجتماع وعلى الأمة بأسرها ، أن تبحث عما به تسعد الأمم وتتبعه وأن تبحث عما به تشقى الأمم وتجتنبه .

إن الأمة السعيدة أمة علمت أنها لم تتكون أمة إلا لتجلب كل خير لها وتدفع كل شر عنها ، وأنه يجب أن يعمل كل واحد لخير المجموع ودفع الشر عن المجموع ، وأنه يجب أن يشعر كل واحد أنه مدين لباقى الأمة بوجوده وعلمه ومنطقه وسعادته ورفاهيته ، ولن تبلغ الأمة السعادة إلا إذا كانت العلاقة بين أفرادها علاقة عدالة ، فتكون فيها عدالة فى توزيع الثروات وعدالة فى المعاملات وعدالة فى الحقوق وعدالة فى الواجبات .

تعلم ذلك علماً لا يخالجه ريب يستولى على نفوسها ، وتتصرف جوارحها على مقتضى هذا العلم فتروض نفسها على أن تعترف لذوى الحقوق بحقهم ويؤدى كل ما وجب عليه للغير .

أما الأمم الشقية فهى أمم جاهلة لم تعلم هذا العلم ، بل ربما اعتقدت أو اعتقد الأقوياء فيها أنها لم تتكون أمة ولم تجتمع فى هذه البقعة من الأرض إلا ليستغل قويها ضعيفها ، ويستعبد عزيزها ذليلها ، وما وجدت عامتهم إلا لتخدم خاصتهم ، فنشأ عن هذا الاعتقاد

أن تكون العلاقة بينهم علاقة ظلم واغتصاب ، فالمسألة مسألة قوة فمن قدر أن يحظى بخيرات الأمة فعل ، ومن قدر أن يستخدم الغير فعل ، ومن قدر أن يبنى سعادته على شقاء الآخرين وبكائهم فعل .

من هذه المعرفة ومن هذه الجهالة تنشأ سعادة الأمة وشقاؤها ، فمن هذه المعرفة ينشأ العدل والتعاون والمحبة ، وهى أساس كل سعادة ، ومن هذه الجهالة ينشأ الظلم والتخاذل والبغض وهى أسباب كل شقاء .

يرى الفرد فى الأمم العالمة أنه مدين لأمته بوجوده وجميع الخيرات التى هو فيها فيحبها ويربط مصيره بمصيرها ، ويجهل الفرد فى الأمم الجاهلة ذلك فلا يرى لأمته حقا ولا يرى عليه واجبا لها ، فلا يعمل لخيرها ولا يسعى فى نفعها . يرى الدهماء والعامة فى الأمم العالمة أنهم مغمورون بنعمة الخاصة فقد بنوا لهم المستشفيات والمدارس ، وأن الدولة تعولهم إذا عجزوا وتداويهم إذا مرضوا فيحبون خاصتهم ويتعلقون بدولتهم ، ويرى الدهماء والعامة فى الأمم الجاهلة أن كبراءهم لم يفيدوهم وأنهم يحلبونهم ويهزلونهم وأنهم مغموطو الحق ، مهضومون فى أمتهم فيحقدون على كبرائهم ويضمرون الشر لدولتهم وتكون الأمة معسكرين: معسكراً ظالما ومعسكراً مظلوما . فأما الأول فيزداد فى الظلم ليخمد أنفاس الآخرين . وأما الثانى فيجتهد لينجو من ظلم الأول ، ويتبع ذلك ما يكون بين الجميع من كراهية وبغض وظلم وتدابر وانتقام وفوضى مما يوجب الفساد والشقاء .

المسألة إذن مسألة علم وجهل وتربية على الحق والإنصاف . يبلغ من جهل كبراء الأمم الجاهلة أنهم يعتقدون أنهم إذا ظلموا ضعفاءهم وقهروهم على مصالحهم استتب لهم العيش وأنه يمكن أن تعيش الأمة على أن يستغل أقوياؤها ضعفاءها .

ويبلغ من علم الأمم العالمة أن تنظر إلى أبعد من ذلك وترى فى حجب المستقبل أنه لا يمكن أن تعيش أمة على هذا النمط ، وأنه إذا سلط بعض الأمة على بعض فأذلوهم واستعبدوهم أفقدوهم الحمية والعزة ، فإذا غزا الأمة عدو أجنبى هرع كبراء الأمة الظالمون إلى بقية الأمة المظلومين فاستنصروهم فلم يجدوا عندهم غناء ، وكيف يجدون عندهم غناء وهم أذلوهم فأفقدوهم الحمية وسلبوهم العزة والقوة الغضبية ، وهذه هى الدروع التى تتقى بها أمة إغارة أمة ، وتنتصر بها دولة على دولة ، أيظنون أنهم يكسرون شوكتهم اليوم ويسلبونهم

أسلحتهم ثم يدفعون بهم عدواً مغيراً، إن من ذل لك ذل لغيرك، والعبد لا يعرف الكر، وإنما يعرف الحلب والصر.

يعلمون ذلك كله فلا يلحون على أمتهم بالظلم، وإنما يعاملونهم بالعدل ليستبقوا عزتهم ونخوتهم وحميتهم، فإذا جاء الجد وأغار عليهم مغير وجدوا منهم أسوداً غاضبة وليوثا كاسرة يدفعون عن الحمى ويذودون عن الحرية. هذا مبلغ العلم وهذا مبلغ الجهل.

وما قوة المسلمين فى أول دولة الإسلام إلا من هذا العلم، وما ضعفهم أخيراً إلا من هذا الجهل، هذا الجهل الذى ذكرناه هو الذى أفقد المسلمين عزتهم وحميتهم فى هذا العصر، فصاروا غرض كل صائد وفريسة كل مفترس ونهب كل مغير.

كان الخلفاء الراشدون لأممهم كالأب الشفيق على أبنائه يعولهم صغاراً ويدخر لهم كباراً، وكان كالراعى الشفيق على غنمه ينأى بهم عن موارد الهلكة ويرتاد لهم الخصب.

ولقد قال بعض الرعية لعمر بن الخطاب: والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا، فقال: الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمة من إذا وجد فى اعوجاجا قومنى بسيفه.

حمداً لله على ذلك لأن هذا دليل على أن فى الأمة الحمية والغضب والقوة والشجاعة فى الحق، والأمة إذا كان فيها ذلك لم تهن ولم تضعف، وقد غضب على عمرو بن العاص حين ضرب ابن القبطى، وقال له: متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. غضب وحنق لأنه خاف أن يلحوا عليهم بالظلم فيستعبدوهم ويذلوهم فيسلبوهم العزة والأنفة والحمية والغضب وهى عدد الأمة فى هذا الوجود.

ولقد بلغ من حمية العرب وأنفتهم أن معاوية ذكر الأحنف بن قيس بمقامه مع على فى حرب صفين فقال: والله يا أمير المؤمنين إن السيوف التى قاتلناك بها لعلى عواتقنا، وإن القلوب التى أبغضناك بها لبين جوانحنا، وإنك إن تدن من الحرب شبرا دنونا منها ذراعا، وإن تدن منها ذراعا دنونا منها باعا؛ ثم خرج مغضبا فقال يزيد لأبيه لم تحلم على هذا العربى الجلف، فقال: يا بنى إنه أبو مائة وأخو مائة وعم مائة إذا غضب غضبوا لغضبته لا يسألونه لماذا غضب. ثم جاء بعد ذلك خلفاء ظلمة وأمراء جائرون فألحوا على الأمة بالظلم حتى أذلوها وأفقدوها الشعور بالكرامة ووجدوا فى سبيل ذلك عنتاً وشدة، وقاومتهم الأمة مقاومة عظيمة ولكنهم انتصروا أخيراً، انتصروا بالأمة عليها.

ولقد بلغ من إذلال الأمة أن يقول الحجاج على المنبر : والله يا أهل الشقاق ومعدن النفاق إنى لأرى رؤوساً أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها ، وإنى لأرى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى ؛ فلا يجد من ينتصر لكرامته أو يرد هذا الجبار عن جبروته .

ازداد الولاة ظلماً وعسفاً ، وازدادت الأمة ضعفاً وخسفاً ، وما زالوا بهم يفقدونهم عزتهم ونخوتهم ويفسدون نفوسهم إلى أن صارت الأمم الإسلامية مباحة لكل طامع ، لا تدفع عن نفسها ولا تغنى عن بلادها ، ولقد خرج عليها « هولاكو ، وجنكيز خان » فملكوا معظم البلاد الإسلامية فى زمن وجيز كأنما كانا فى رياضة لا فى فتح واستعمار ، وما ذاك إلا لأن القوى الحقيقية التى يدفع بها الأسد عن عرينه والطير عن وكره والكلب عن وجاره والإنسان عن وطنه قد أفقدهم إياها هؤلاء الظلمة ، فصاروا أكلة كل آكل وطعمة كل جائع ، وغبرت الأيام ، وتلك سنة الولاة الظالمين والرعية المظلومين ، إلى أن جاءت العصور الحاضرة فأغارت أوروبة على الشرق فوجدت حمى مباحاً لا حام ولا راع .

من ذلك يعلم أن مصائبنا منا وداءنا فينا وصدق الله إذ يقول : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » .

ولن نرقى ونسعد إلا إذا أخذنا بأسباب الرقى والسعادة ونبذنا أسباب الشقاء والانحطاط ، « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

محمد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء

من كلام الصاحب بن عباد

- الإحجام فى مواطنه ، كالإقدام فى مواضعه .
- اللبيب من الإيماء يكفيه ، والإيحاء يغنيه ، واللفظة تجزيه ، واللمحة تؤثر فيه .
- المكيدة أبلغ من النجدة .

نفحات القرآن

العدل والظلم

من الألفاظ البارزة فى القرآن : لفظا عدل وظلم . . فى صيغ مختلفة . . وهما متقابلان . . إذا جرى أحدهما على لسانك خطر الثانى ببالك . . وذلك هو الشأن فيما بينهما التضاد : مثل خير وشر ، وحسن وقبيح ، ونافع وضار . . هكذا عرفنا من الكتب . . ولكن الأمر فيما نحن بسبيله فوق الضوابط المسطورة . . فللوجدان إدراك ، وللفطرة مذاق ، وللشعور تقدير ، وللإحساس تصوير .

وخصائص القرآن - كما عهدنا إليك من قبل - تنطوى عليها ألفاظه ، وتمتزج بها معانيه ، ويقترن بها سياقه ، فلا يمكنك أن تراها شيئاً غيره ، ولا تستطيع أن تباعد فيما بين شيء وشيء . . والسمع يتلقف من ألفاظ القرآن ما يقابل بعضه بعضا : كالعدل والظلم ، والهدى والضلال ، والرحمة والعذاب . . . الخ ، فتجنح الحساسية القلبية إلى جانب ، وتزور عن جانب : تجنح إلى لفظ كلفظ العدل . . حيث يدرك الوجدان حنوه ، وتتذوق الفطرة عذوبته ، ويقدر الشعور فيه رفاهيته ، ويتصوره الوعى الإنسانى كالظل الظليل : يأوى اليه اللاهث المحرور فيطرح عناءه ، ويسترد راحته ، ويتخيله الوعى كالماء القراح : ينحدر اليه الظامىء المكدود فيروى صداه ، ويبرد به الكبد الحرى . . وهل ترى لفظ العدل الذى توجنا به حديثنا إلا أمانا شاملا من المخاوف عامة ؟ ؟ هو أمان تنادى به الفطرة الاجتماعية ، وتهتف به الانسانية ، وترنوا اليه الدنيا لتسلم الحياة على طولها من كل ما يلويها عن السير قدما إلى الأمام . .

العدل ! ! وما العدل ؟ وفيم يكون ؟؟ ... العدل : اعتدال بين جانبين : لا إلى اليمين ، ولا إلى الشمال فهو كميزان قائم لا يميله عن الجادة مساس ، ولا تقربه النسمات فتتأرجح كفتاه . . . ولقد أغنانا القرآن عن الاسهاب فى تشخيصه ، فضرب له الأمثال ، وهى من بينها

بذكر الميزان .. واشترط فيه أن يكون بالقسطاس المستقيم ـ العلامة الوسطى التى يضبط بها التساوى ـ وعلمنا ـ سبحانه ـ أنه آخذ فى شأنه معنا بنحو ذلك ، وأنه سيقيم الميزان بينه وبيننا يوم الفصل « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ـ والوزن يومئذ الحق » .

وليس بعد ذلك تمثيل أوضح فى التعليم ، ولا توجيه أقوى إلى العدل ـ إلا ما فى علم الله

ثم يكون العدل منك فيما لك أو عليك ، وفيما يصدر عن جوارحك من قول أو عمل ، وفيما يجرى تحت سلطانك من شئون الناس ، وفيما يقع تحت عينك وتستطيع أن تطول اليه يدك ، أو ينطق فيه لسانك : بل يكون فيما تنطوى عليه سريرتك مما يخفى على الناس ولا يخفى على رب الناس « إن السمع والبصر والفؤاد : كل أولئك كان عنه مسئولا » .

والعدل كالقوة الجاذبة تتآخى به النفوس ، وتشتد به العلائق وتستقيم عليه الجماعة .

وسطوة العدل تقوّم المعوج ، وتروع الجائر ، وتمهد للحضارة أن تسير ، وللدنيا أن تزدهر

أما الظلم : ـ فلفظه بغيض ، ومعناه موحش ، وحوله مكاره ، وهو على الإيجاز مسخوط يقض المضاجع اللينة ، ويشرد الخواطر الساكنة ، ويزعج النفوس الآمنة ، ليس للدنيا حظ فيه ، ولا للحياة نصيب منه ، ولا للانسانية رغبة اليه ، ولا تجنح إليه النفس إلا نفسا خالطتها وحشية ، أو طغت عليها البهيمية فأفسدت عليها فطرتها ، ونأت بها عن الهدى ، فكانت آفة من آفات المجتمع ، وشوكة فى جنب الحضارة ، وقذى فى عين الحياة .

الظلم !! وما الظلم وفيم يكون ؟ ؟ الظلم انحراف عن الجادة أو ميل من جانب إلى جانب ، ويمثله لك ميزان مضطرب ، يعطيك مرة أكثر أو أقل مما لك ، ويأخذ منك مرة فوق أو أقل مما عليك ، وهو فى جملته وتفصيله شذوذ عن سنن الفطرة .

ويكون الظلم كذلك فيما بينك وبين الناس من كافة الشئون ، ويكون فيما يقع تحت عينك ، وتملك أن تطوله يدك ، أو ينطق فيه لسانك .. والظلم فى حساب الفطرة كاللهب مساسه تهلكه ، وللقرب منه مخافة وعاقبته خسار وبوار ، ومهما هان وقع الظلم فهو قبيح متشوم ، تنقبض لذكره المشاعر ، ولا تستقيم عليه الحياة بحال ، لذلك حرمه الله على نفسه ، ونهانا فى تأكيد من الآيات عن التظالم إبقاء على مصالحنا فى دنيانا ، واحتفاظا بمهارة الكون كما شاء مبدعه .. واستبقاء لهناءة الفرد فى محيطه الذى يعيش فيه .

حفلت آيات الكتاب بذكر العدل والظلم ، ولكن لماذا يقف ذكر العدل عند العشرين مرة مع أنه محبب إلى القلوب ؟ ولماذا يتردد ذكر الظلم خمس عشرة وثلاثمائة مرة مع أنه مرذول بغيض .

أحسب ذلك لأمرين . . أحدهما : ـ إن العدل نجى الفطرة البريئة من الشوائب ، فهو شاخص لديها لا يغيب عنها ، وإنما يذكر للتذكير ، حتى لا تخيم عليه الشواغل ، ولا يستشرى فى إغفاله الظلم والعدوان .

ثانيهما : ـ أن الظلم دعوة الشيطان فهو دائما يزينه ، ويجتذب اليه ، فكان الإكثار من ذكره للصد عنه ، ولمقاومة المغريات التى يقدمها الى كل نفس شيطانها من الجن أو الإنس . . والمرء بحاجة الى تبصيره بسوء ما يعرضه شيطانه ، وتأمره به نفسه ، ويدفعه اليه هواه على أن كل نهى عن الظلم فى طيه أمر بالعدل ، وكل تشويه لآثار الظلم تزكية للعدل : ضرورة المقابلة بين المتضادين كما أسلفنا . فالإكثار من ذكر الظلم للتشويه والتقبيح.

وللقرآن فى حديثه عن العدل مسلك حكيم ، فهو يذكره أولا — كمبدأ عام : يأخذنا به من غير تفصيل ، وفى هذا توجيه إلى أن العدل فى اعتبار الشريعة كما هو فى حساب الفطرة الانسانية : لا يتخصص بشأن دون شأن ، ولا يختص به قوم دون آخرين ، وفى هذا يقول الحكيم سبحانه « إن الله يأمر بالعدل » فلم يقيد أمره بمعقول . بل ساقه بصيغة الاطلاق ليكون سلطان الأمر مبسوطا على كل من يقع تحت التكليف أو يكون صالحا لذلك . وكذلك أطلق العدل ، فلم يحصره فى شىء ولم يقرره بزمن ، وعلى هذا يكون العدل كما قلنا مبدأ منشودا على وجه التعميم والاطراد .

ثم تأتى آيات أخرى تؤكد ذلك ، نحو قوله تعالى « ولا يجرمنكم شنآن قوم — بغضهم على ألا تعدلوا . اعدلوا : هو أقرب للتقوى » وهنا تنحسم الخصومات ، فلا تنال من العدالة بل ولا تمتد إليها بالانتقاص مهما يكن سببها : فلا تشفى ، ولا حنق ، ولا جنف ، ولا انحراف . وإنما هو تخلق بأخلاق الرحمن ، وأخذ بالكمال حتى مع من لا يكون مـــواليا ، ولا مطيعا « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم — الآية » .

ومن مسلك القرآن — ثانيا — فى ذكر العدل أن يتجاوز التعميم إلى التطبيق فيعرض لأمور يبرز فيها العدل أكثر ، ويأتى على كثير منها بالتصريح : منها : « وإذا حكمتم

بين الناس أن تحكموا بالعدل ، ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ، ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ، فهل ترى تأكيدا آكد ، وتصريحاً أصرح من طلب العدل فى الحكم على هذا النحو واعتبار الخروج عن العدل فيه كفراً : وظلما : وفسوقا : ؟ وهل بعد هذه الثلاثة شناعة ؟ ومنها ، أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم : الآية ، ، والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، ، ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، : ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ الآية ، وهكذا من مواطن العدل البارزة يسوقها الكتاب العزيز مساق التطبيق للمبدأ العام فيما يجرى مع الناس ، وبين الناس من أعمال ، أو يجرى على ألسنتهم من أقوال ولو لم تكن عالقة بأحد ، ومن باب الأولى إذا كانت عالقة ، وإذا قلتم فاعدلوا .. ولو كان ذا قربى .. وفى هذه الآيات وأمثالها تحصين للعدالة أن تذهب ضحية الهوى ، أو تميل بها العصبية ، أو يلتوى بها التأويل المغرض .

والمسلك الثالث للقرآن فى ذكر العدل - بعد تركيزه كمبدأ ، وبعد التمثيل فى تطبيقه - مسلك التصوير الدقيق لحقيقته ، والكشف عن مداه - ولو تقريبا - ليتبصر العقل ، ويتيقظ الوجدان ... ومن ذلك أن الله يضرب لنا الأمثال عن شأنه وهو الحكم الأعلى غير مدافع ولا مسئول ، إن الله لا يظلم الناس شيئا - إن الله لا يظلم مثقال ذرة - فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره - ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - إنا لانضيع أجر من أحسن عملا - يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة ، أو فى السموات ، أو فى الأرض يأت بها الله ، .

فذلك تصوير بارز : فيه تأكيد ، وتقوية للعهد ، يأخذه الله على عباده أن يستنوا بسنته ويتزلوا عند إرادته ، ويقيموا شرائعهم على هذا الأساس من شريعته ، حتى مع من خاصموا ربهم فى دينه ، ولم يستجيبوا لدعوة رسوله فإن الله قد عدل مع هؤلاء ، ولم يطاردهم من ملكه . ولم يقطع أرزاقهم فى دنياهم ، ولم يأخذهم على غرة ، فإنه خلقهم بقدرته ، وأبقاهم بإرادته وحكمته ، فكان حقا لائقا أن يعدل ، وقد عدل ، وطلب إلينا أن نأخذ بهديه ذلك

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

فالقرآن يطوف بنا حول العدل فى أوضاعه البينة : مبدأ ـ وتطبيقا ـ وتصويرا ، ولم كل ذلك ؟ ؟ لأن العدل للحياة الاجتماعية كأنفاس الحياة للكائنات الحية ، وهو لنهضات الشعوب كالماء العذب فى سقى الزروع . فإن لم يكن فى القلوب متسع لهداية القرآن : فلتكن لنا هداية من تجارب الأزمان . وما شهدنا أمة جارت ، ولا حاكما ظلم ، ولا أسرة طغت إلا ثأر الله بقوته ممن عبثوا بسنته ، وغفلوا عن دعوته ، وفى الآيات نذر تسمع من به صمم ، وفى الكون دلائل مشهودة لمن بعينه قذى ، وكلها تنادى : العدل . . العدل ! ! .

فمن لم يعدل ــ ولو فى خاصة نفسه ــ أو اجترأ ولو فى شأن غير ذى بال ... فقد ساهم فى كبت العدالة ، ومناصرة العدوان ، ومن وراء ذلك اختناق الحياة وتعويق الحضارة ، ومحادة الله فيما رسم لنظام الكون ... وربك بالمرصاد ، ولن يهمل مهما أمهل .

وإنك لترى فى بعض الآيات تخويفاً من الظلم أكثر مما ترى فى جانب غيره من المآثم ، فانظر ـ مثلا ـ إلى قوله سبحانه « إنه لا يفلح الظالمون » « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم » وفى هذا الاستثناء إيذان بأن صوت المظلوم مسموع فى كل ما يتجه به الى الله ... وقد أكدت أحاديث الرسول ذلك فأفادت فى صراحة أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب . . وأفادت أن الله ينصر دعوة المظلوم ولو بعد حين . .

وأفادت أن الظلم فى الدنيا ظلمات يوم القيامة . . أى ـ انها ظلمات متكاثفة تكتنف بشاعتها الظالم ، وتحدق به حتى يكون شأنه مفضوحا ، ويكون بين الخلائق فى هول وضجر ، وآلام . . بينما يكون لغير الظالمين فى ذلك الموقف الرهيب نور يسعى بين أيديهم ، وبأيمانهم ، وعن شمائلهم ثم هم يتزيدون فيقولون « ربنا أتمم لنا نورنا » . ويقول الظالم : ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله » ولديك من التخويف بالحق الذى يصدع رءوس الجبابرة : أن الله تعالى حينما دعانا الى الحكم بالعدل جعل الخروج عنه كفرا ، ثم ظلما ، ثم فسوقا . . على هذا الترتيب فى الآيات ، فإذا كان الظلم قرين الكفر والفسوق ، وكان بينهما فى الذكر : صح لك أن تقول فى هذا السياق . شر الثلاثة أوسطها ، كما تقول فى باب الثناء : خير الامور أوسطها . . وتوجيه ذلك ـ أن الكافر على ما به من شؤم واضح الشأن

لا يتاح له أن يدلس على الناس مثل ما يدلس الظالم وهو متستر وراء تسمية دينية يبتدعها ثم لا ينزل على حكمها ولا يراعى مقتضاها .

ولا أذهب بك بعيداً فى التذكير والإقناع ، فالقرآن نفسه يصارحك بما يؤكد لنا ما يفيده السياق أو ما أسميه فى اصطلاحى الخاص بالنفحات - واليك قول الله تعالى « ولو أن لكل نفس ظلمت : ما فى الأرض - لافتدت به . . . » .

فاتخاذ الظلم فى هذا التهديد والإخبار عنه بأن ما فى الأرض لو كان مملوكا للظالم لقدمه فداء لنفسه يومذاك : مما يكشف لك فى غير خفاء عما ينتظر الظالم هنالك من وبال ولا تقل : ان المراد من الظلم خصوص الكفر . . فقد عمم القرآن ، وقرن بينهما فى قضية واحدة ، واذا لم تكن توبة مقبولة فربك لا يغفل عما يعمله الظالمون « انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار » .

عبد اللطيف محمد السبكى
عضو جماعة كبار العلماء



****

أخلاق المجاهدين

قال الحافظ ابن عساكر إن حبيب بن مسلمة قدم على أمير المؤمنين عمر فى حجة ، وكان حبيب تام القامة ، فسلم على عمر ، فقال له عمر :

— إنك لفى قناة رجل

فقال : اى والله وفى سنانها

فقال عمر : افتحوا له الخزائن فليأخذ ما شاء ! ففتحوها له ، فعدا عن الأموال ، وأخذ السلاح .

تحقيق القول في ليلة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فهذه كلمات قصدت بها تحرير القول فى معنى ليلة القدر وبيان المراد بها أخذا مما تفيده الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تتحدث عن هذه الليلة فى معرض حديثها عن نزول القرآن الكريم .

والذى دعانى للكتابة فى هذا الموضوع أن كثيرا من الكتاب والخطباء فى أوقاتنا الحاضرة قد انتحوا بهذه الليلة فى مقالاتهم وخطبهم ناحية قد تعتبر — فى بادىء الرأى — من التجديد الشائق فى تفسير آيات الكتاب العزيز .

فأردت بهذه الكلمات أن أبين أن هذا الذى ذهبوا إليه فى تفسير سورة القدر ، وفى تعيين المعنى الذى اختاروه لليلة القدر ليس جديدا ، وإنما هو رأى قديم غير مشهور وأن السر فى أنه لم يسعد بالشهرة عند العلماء ومن يعنيهم أمر القرآن ممن تخصصوا فى تفسيره وكانوا أهدى من غيرهم فى فهم نصوصه هو أنه رأى ضعيف لا تنهض به حجة قوية ، ولا يساعد عليه أسلوب الآيات القرآنية نفسها فى حديثها عن هذه الليلة .

وقد ضمنت هذه الكلمات الأبحاث الآتية :

معنى ليلة القدر ـ ليلة القدر ونزول القرآن ـ شرف ليلة القدر وجلالة شأنها ـ هل هى ليلة واحدة فى عمر الدنيا أو تتكرر بتكرر الأعوام ؟ موقعها من ليالى السنة . والله الموفق والهادى إلى الصواب وحسن السداد .

« ليلة القدر » : جاء فى القاموس ولسان العرب وغيرهما من كتب اللغة « القدر » بسكون الدال يطلق على معان :

منها الشرف وعظم الشأن ورفعة المكانة .

ومنها التعظيم والتبجيل ورفع المكانة .

ومنها تقدير الشىء وتحديده وضبط صفاته وأحواله .

فمن الأول قولك : فلان له قدر أى له شرف وعلو شأن .

ويصح أن يكون منه ومن الثانى قولك : المسلمون يقدرون الرسول قدره ، أى يعرفون له سمو المكانة أو يعظمونه حق التعظيم . ومن ذلك أيضا قوله تعالى فى المشركين : « وما قدروا الله حق قدره » أى ماعظموه حق عظمته وما قدسوه حق تقديسه .

ومن الثالث قولك : قدّر الله الآجال والأرزاق قدرا ، بمعنى كتبها وحددها وضبط مقاديرها ومواقيتها وسائر أحوالها . ومن هذا القبيل قولك : قدر فلان القذة بالقذة إذا ضبط الأولى بالثانية وحدد بها مقدارها فأتت على وفقها مساوية لها .

وبسبب اختلاف معنى القدر لغة وتنوعه على النحو الذى ذكرنا قد اختلف علماء السلف فى معنى القدر الذى نسبت إليه الليلة فى كلمة « ليلة القدر » :

فمنهم من قال إن الشرف والسمو وعظم الشأن ورفعة المكانة . فليلة القدر هى ليلة الشرف والشأن العظيم وهى ليلة البر والخير والسلام والبركة .

ومنهم من قال : إن القدر معناه تقدير الأشياء وتدبيرها وضبط صفاتها وأحوالها .

فهذان قولان يدور عليهما الاختيار فى تحديد معنى ليلة القدر . ولا حاجة بنا للتعرض لغيرهما من الأقوال فأنه مما لا يكاد يعول عليه :

غير أنه ينبغى أن يوقف عند كل من هذين القولين ليسأل :

أولا : إذا كان القدر معناة الشرف والعظم ورفعة الشأن فبماذا كان شرف ليلة القدر ؟ وهل هى ليلة لها معينات سابقة على الرسالة وعلى نزول القرآن ، ولها وجود يمكن أن تميز معه باسم « ليلة القدر » حتى مع عدم مراعاة أنها الليلة التى نزل فيها القرآن ؟

وثانياً : إذا كان القدر معناه التقدير فما المراد بهذا التقدير ؟ وما هى الأشياء التى تقدر فى تلك الليلة ؟ هل هى خصوص أحكام الشريعة وقواعد الدين أو هى جميع ما أراد الله أن يجريه على العباد والأكوان مما سبق به علمه المحيط ؟

« أما عن الأول » فقد صرح القرآن فى سورة القدر تصريحاً لا يقبل الشك أن القرآن أنزل فى هذه الليلة ، وأنها ليلة كلها خير وسلام من أولها حتى مطلع الفجر ، وأنها خير من ألف شهر : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ، سلام هى حتى مطلع الفجر » .

وقال تعالى : فى سورة الدخان : « حم والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين » .

ولكن هل ما امتازت به هذه الليلة من الخير والبركة والسلام والأمن ، وما وصفت به من الشرف والسمو ورفعة الشأن قد اكتسبته من نزول القرآن فيها فحسب ، وأنه لولا ذلك ما كان ليثبت لها شىء من هذه المزايا ، وما كان يطلق عليها اسم «ليلة القدر» ؟ أو أنها ليلة قدر وشرف ، لها من قبل الرسالة ونزول القرآن خصائصها وميزاتها ، ولها اسمها وسمو مكانتها ، وأنها من أجل فضلها وشرفها اختارها من بين الليالى لينزل فيها ما نزل من القرآن .

قد مال إلى الوجه الأول الشيخ محمد عبده ، عليه سحائب الرحمة ، ولم ير أن لليلة القدر فضلا ولا شرفا ومزية إلا من أجل أن الله تعالى « قد أعلى فيها منزلة نبيه ، وشرفه وعظمه بالرسالة » ، وأوحى اليه بما أوحى من القرآن الذى هو كتاب الهداية والسعادة والخير والبر والبركة » .

اختار - رحمه الله - هذا الوجه متابعا فيه بعض من تقدم من العلماء ثم تبعه عليه كثير من أهل العلم فى عصرنا الحاضر .

وقد يكون لهذا الوجه - فى بادىء النظر - شىء من الوجاهة . ولكننا نرى فى الوجه الثانى عند التحقيق - أجود الرأى وأوجهه وأحقه بالنصرة والتأييد ، وذلك للمعانى التالية :

« الأول » : أن قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » إعلام من الله سبحانه لنبيه بعد ما أوحى اليه فى تلك الليلة بما أوحى من القرآن الكريم - أنه كرمه بهذا الوحى فى ليلة القدر والشرف العظيم ، وأن هذه الليلة لها من الخصائص والمزايا ما جلاه الله لنبيه فى هذه السورة وفى مفتتح سورة الدخان . ولا يستقيم أن يكون ما لليـــلة القدر من المزايا وخصائص الشرف التى أريد إعلام النبى بها - مقصوراً على ما كان فى ليلة الوحى ؛ فانه عليه الصلاة والسلام يعلم حق العلم أنه قد أكرم فيها بنزول القرآن ، وأنها من أجل ذلك ليلة مباركة كلها خير وسلام ، ويعلم حق العلم أنه قد جاء فيها الروح الأمين أمين الوحى ؛ ولا بد أن يكون له علم كذلك بمن تنزل فيها من ملائكة الله . وعلى هذا يكون بعيداً جداً أن يكون المقصود إعلامه بشىء من ذلك الذى هو به جد عليم . وهل يكون مستقيما - بعد ما عرف فضل هذه الليلة بنزول القرآن ، وعرف تنزل الملائكة فيها ورأى الروح

الأمين رؤية العيان - أن يقال له : إنا أنزلنا القرآن فى الليلة التى اكتسبت الفضل والشرف بنزوله وبما تنزل فيها من الروح والملائكة ؟ أليس يكون ذلك إعلاما بما هو معلوم ؟.

ومهما بذلت المجهود فى تلمس الوجوه لاستقامة هذا الإخبار فانه على ذلك المعنى الأول الذى سار عليه الشيخ محمد عبده غير مستقيم .

والذى نراه أن قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ظاهر جداً فى أن القدر والشرف وجلالة الشأن ثابتة لليلة القدر من قبل أن ينزل القرآن ، وأنها ليلة معروفة بذلك الاسم عند الله وعند من أطلعهم الله عليه من عباده وصفوة خلقه ، وأن هذا التعبير « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » من قبيل قولك : قدم فلان فى ليلة العيد أو ليلة الصوم أو ليلة كذا وكذا من الليالى المشهورة بمعنى من المعانى . فليلة القدر معروفة - كما قدمنا - بذلك الاسم الذى صار علماً عليها لما اختصت به من المزية والشرف . وهذه الليلة المعروفة بذلك الاسم والمخصوصة بتلك المزية وذلك الشرف من بين ليالى السنة أراد الله أن يعلم نبيه أنها هى الليلة التى اختارها لينزل فيها أول ما نزل من القرآن فيتناسب بذلك شرف الكتاب العظيم مع شرف الزمن الذى نزل فيه .

« الثانى » أن قوله تعالى : « تنزل الملائكة والروح فيها » ظاهر فى أن ليلة القدر يتكرر كونها ، ويتجدد مجيئها ، فليست ليلة واحدة فى الدهر كله كما يقتضيه القول بأنها خصوص الليلة التى بدىء فيها بإنزال القرآن ؛ فإن الأصل فى صيغة المضارع أنها تدل على حصول معناها فى المستقبل ؛ ولو كانت هى الليلة التى نزل فيها القرآن وحدها لقيل : « تنزلت الملائكة والروح فيها » من حيث أن الحديث عنها حديث عن امر وقع فى الماضى . وهذا شىء معلوم يعرفه جميع أهل العربية .

فإذا راعينا - مع ما تدل عليه صيغة المضارعة من معنى الاستقبال - أن الليلة التى أنزل فيها القران وفيها تنزلت الملائكة والروح معها قد أطلق عليها اسم ليلة القدر علمنا أن تنزل الملائكة والروح الأمين من خصائص هذه الليلة وأنه يتكرر بتكررها ، ويتجدد كلما تجددت .

« غير أنه قد يقال » إنه كثيراً ما يعبر فى القرآن عن الأمر الماضى بصيغة المضارعة لاعتبارات تختلف وتتنوع باختلاف المواطن وتنوعها . والاعتبار فى الموطن الذى نحن بصدده قد يكون إرادة استحضار صورة ذلك الماضى وافتراضه حاصلا ساعة الحديث عنه

قصدا إلى كشف المعنى للسامع وتجليته أقوى تجلية ، وذلك من المقاصد البلاغية الرائعة التى يعرفها أيضا أهل العربية ، فإن الحديث عن الشىء ساعة حصوله أقوى وآكد وأوقع فى النفس من الإخبار عنه بعد ما يحصل ويمر زمنه .

« والجواب » أن ذلك لا يقدح فيما قلنا من أن الأصل فى المضارع هو دلالته على الشىء يكون فى المستقبل ، فإطلاقه على ما كان فى الماضى خلاف الأصل ، لا يصار إليه ولا يدعى أنه المراد إلا إذا كان هناك دليـــل يصرفه عن ذلك الأصل ثم يجىء الاعتبار البلاغى كالاستحضار ونحوه مصححا ومسوغا إطلاق المضارع على المعنى الماضى .

ولا يصلح الاعتبار وحده دليلا على أن المراد من المضارع هو المعنى الماضى ؛ اللهم إلا إذا ثبت أن المتكلم أراد ذلك الاعتبار ، وقصد - فى مثل مسألتنا - إلى معنى الاستحضار ، وهذا ما لا سبيل إليه ، وليس الكلام قاطعا ولا ظاهرا فيه ؛ بل اللجأ إلى دعواه هو عين ما يسمى بالمصادرة كما يعرف ذلك أهل العلم .

« وبعد » فأنت ترى أننا - فى هذا الوجه الثانى من الاستدلال - قد اقتصرنا على ما تفيده صيغة المضارع ، ولم نتعلق بما تدل عليه صيغة « التفعل » من معنى التكرار والتجدد ؛ فإنه إذا كانت هـذه الصيغة التى جاءت على نهجها كلمة « تنزل الملائكة » تدل على تجدد نزول الملائكة وحصوله مرة بعد مرة فليست نصا فى أن ذلك التجدد يحصل فى أكثر من ليلة ؛ لأنه يصح أن يكون نزول الملائكة متتابعا وعلى دفعات كثيرة فى ليلة واحدة ، تنزل طائفة منهم وتتبعها طائفة وطائفة ، وهكذا حتى مطلع الفجر . وحينئذ لا يكون فى التعلق بحديث التجـدد وتكرر الحصول الذى تدل عليه صيغة « تنزل » إثبات للمطلوب الذى هو تجـدد الليلة وتكررها بتكرر الأعوام .

« الثالث » : أن قوله تعالى فى سورة الدخان - : فيها يفرق كل أمر حكيم » . يدل على أن ليلة القدر تتكرر وتتجدد ، وليست ليلة واحدة على ما يقضى به القول أنها الليلة الماضية التى نزل فيها القرآن ؛ وذلك لمجىء « يفرق » بصيغة المضارعة التى تدل بأصلها على أن فرق الأمر الحكيم وبيانه وتفصيله يكون فى المستقبل كما قدمنا الكلام على ذلك فى قوله تعالى : « تنزل الملائكة » ، وأنه إذا كانت ليلة نزول القرآن التى سميت ليلة القدر قد فرق فيها الأمر الحكيم فذلك لأن شأن ليلة القدر ذلك : فرق فيها دائما كل أمر حكيم ؛ فيكون

الحديث عن ذلك مقصودا به الإعلام بأن نزول القرآن قد كان فى الليلة التى من خواصها أنه يفرق فيها كل أمر حكيم .

« الرابع » : أن قوله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » معناه أنه يبين فى الليلة المباركة ويفصل كل أمر موافق للحكمة والصواب متفق لاخلل فيه ولا اضطراب ؛ وذلك يفيد أنها ليلة تتكرر وتتجدد ، وليست هى خصوص الليلة التى بدأ فيها الوحى بشىء من آيات القرآن فإن ما نزل فى تلك الليلة — وإن كان أمراً حكيما من غير شك ولا امتراء — لا يمكن أن يقال فيه إنه هو كل أمر حكيم . وسنعود قريبا إلى هذا بمزيد من التفصيل .

« الخامس » : ما ورد فى صحاح الأحاديث من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتحرى ليلة القدر ، وأنه أمر الناس بالتماسها وتحريها فى العشر الأواخر من رمضان :

١ — فقد روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاوز فى العشر الأواخر من رمضان ويقول : تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان .

٢ — وروى البخارى أيضاً عن عائشة قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شد مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله » .

٣ — وروى كذلك عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان » .

٤ — وعن ابن عباس رضى الله عنهما فيما رواه البخارى أن النبى ﷺ قال : التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان : ليلة القدر ؛ فى تاسعة تبقى ؛ فى سابعة تبقى ؛ فى خامسة تبقى »

٥ — وروى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ يجاور فى رمضان العشر التى فى وسط الشهر ، فإذا كان حين يمسى من عشرين ليلة تمضى ويستقبل إحدى وعشرين رجع إلى مسكنه ورجع من كان يجاور معه ، وأنه أقام فى شهر جاور فيه الليلة التى كان يرجع فيها ، فخطب الناس فأمرهم ما شاء الله ، ثم قال : كنت أجاور هذه العشر ، ثم قد بدا لى أن أجاور هذه العشر الأواخر [1] فمن كان اعتكف معى

---

(١) وقد ورد فيما روى عن أبى سعيد الخدرى أن جبريل قال للنبى صلى الله عليه وسلم لما اعتكف العشر الاوسط إن الذى تطلب أمامك ، يريد ليلة القدر .

فليثبت فى معتكفه ، وقد أريت هذه الليلة ثم أنسيتها فابتغوها فى العشر الأواخر ، وابتغوها فى كل وتر ، وقد رأيتنى أسجد فى ماء وطين ، فاستهلت السماء فى تلك الليلة فأمطرت فوكف المسجد فى مصلى النبى ﷺ ليلة إحدى وعشرين فبصرت عينى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظرت إليه انصرف من الصبح ووجهه ممتلىء طينا وماء » .

٦ — وروى البخارى عن عبادة بن الصامت قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت ، وعسى أن يكون خيرا لكم ، فالتمسوها فى التاسعة والسابعة والخامسة .

ففى هذا كله دلالات واضحة على أن ليلة القدر لها فضلها وشرفها ، ولها مزيتها وراء ما ثبت لها بنزول القرآن فيها ، وانها تتكرر وتتجدد ، وأن مظنة موافقتها هى العشر الأواخر من شهر رمضان : فإنها لو كانت خصوص الليلة التى نزل فيها القرآن لما كان هناك معنى لتحريها ولا الأمر به بعدما انقضت تلك الليلة ومرت .

ولا يصح أن يقال إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقصد بأمره بتحرى ليلة القدر ولا باعتكافه العشر الأوسط أو الأخير إلا إحياء ذكرى الليلة التى نزل عليه فيها القرآن وتكريمها ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن لتخفى عليه هذه الليلة العظيمة فيجهل موقعها من الشهر الذى كانت هى إحدى لياليه حتى يتحراها باعتكاف العشر الأخير من رمضان ويأمر بتحريها فى ذلك من يريد إحياء ذكراها فى كل عام . هذا بعيد غاية البعد ؛ وإذا لا يستقيم ما يقوله بعض الناس اليوم ارتكانا إلى ما اختاره المرحوم الشيخ محمد عبده من أنه ليست هناك ليلة تسمى ليلة القدر غير تلك الليلة التى نزل فيها القرآن ، وهى ليلة واحدة لا تتكرر ، وأنه لا معنى للاحتفال بها فى كل سنة إلا أن يكون المقصود من ذلك إحياء ذكرى تلك الليلة كما نحيى ذكرى العظماء وذكرى الليالى والأيام التى اشتهرت بوقائع وحوادث لها خطر وشأن .

وإذا لم يكن لاحتفال الناس بليلة القدر معنى سوى إحياء ذكراها فماذا يقال فى تحرى رسول الله ﷺ هذه الليلة وأمره الناس بتحريها ؟ .

هنا نجد الأستاذ الإمام عليه الرحمة يعمد إلى الأحاديث الواردة فى ذلك فيضرب عليها بكلمة ويرى أنه بذلك قد خاص منها :

يقول: إن تلك الأحاديث رواياتها مضطربة، وأغلبها ضعيف، والكثير منها موضوع ومثل ذلك لا يصح الأخذ به فى باب العقائد.

ولكنه - رحمه الله - لم يبق لنا أى هذه الأحاديث موضوع وأيها ضعيف وبماذا كان ضعف هذا الضعيف، ولم يكشف كذلك عن الاضطراب الذى يصح معه أن يضرب صفحاً عن أحاديث أخرجها البخارى وغيره عن جماعة من الصحابة يروى أحدهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان »، ويروى آخر أنه قال: « تحروا ليلة القدر فى الوتر فى العشر الأواخر من رمضان » ويروى ثالث قوله عليه الصلاة والسلام: « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان ليلة القدر فى تاسعة تبقى، فى سابعة تبقى فى خامسة تبقى ».

فهل هذا هو الاضطراب الذى يأبى معه قبول الأحاديث ؟

نحن لا نجد بين ما أوردناه من أحاديث الأمر بالتحرى شيئاً من الاضطراب فى السند أو المتن بحيث يقدح فى صحتها ويوجب طرحها؛ وكل ما فيها إنما هو اختلاف بالإجمال والتفصيل أو بوضع لفظ مكان مرادفه. وإذا كان جميع الناس - إلا من لا يعتد برأيه فى هذا المقام - على أنه يجوز رواية الأحاديث بالمعنى ما دام ذلك لا يخل بما قصد الرسول صلى الله عليه وسلم إفادته من المعنى فالاختلاف الذى أشرنا إليه لا يضر فى شىء ولا يصح معه دعوى الاضطراب الذى تطرح من أجله الأحاديث.

« وبعد » فقد تبين مما قدمناه من الكلام على المعنى الأول لكلمة « القدر » أنه الفضل والشرف وعلو المنزلة، وأن ليلة القدر لها شرف وفضل بنزول القرآن فيها من غير شك، لكن لها - وراء ذلك - شرفاً وفضلا بما خصها الله به مما سنعرض للكلام عنه فيما يلى ؟ وأنه من أجل ذلك قد اختارها الله تعالى لتكون ليلة افتتاح الوحى ونزول أول ما أنزل من القرآن

« وأما عن المعنى الثانى » وهو « التقدير » فقد اختار الشيخ الامام فيه أيضاً خلاف ما جرى عليه جمهور المتقدمين من العلماء:

قال - رحمة الله عليه: « سميت الليلة ليلة القدر إما بمعنى ليلة التقدير، لأن الله ابتدأ فيها تقدير دينه وتحديد الخطة لنبيه فى دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه ».

فهو يحمل التقدير على خصوص ما يكون بالقرآن من الارشاد والبيان وتحديد طريق

السعادة والفصل بينها وبين طرائق الشقاوة والضلال ، ويقول إن هذا هو المراد مما ورد في سورة الدخان من فرق الأمر الحكيم في تلك الليلة . فالأمر الحكيم إنما هو أمر الرسالة والأوامر والأحكام لا شيء آخر سواها . هذا هو ما يرتضيه من معنى التقدير ومعنى فرق الأمر الحكيم .

وغريب جداً أن يحمل التقدير على ذلك المعنى الذي لا يخرج عما يتعلق بالوحي والرسالة وتحديد الدين أحكام الشريعة .

ونحن إذا كنا نتساهل فنقبل تأويل المرحوم الشيخ محمد عبده لهذا التقدير والتحديد ونقول إنه ليس بلازم في تسمية الليلة ليلة التقدير أن تقدر فيها جميع أصول الدين وتحدد جميع أحكام الشريعة بل يكفي أن يكون بدء ذلك كله في تلك الليلة - إذا كنا نتساهل فنقبل هذا التأويل فليس من السهل أن يقبل ما يؤدي إليه مما يضيع معه معنى الاخبار في قوله تعالى « إنا أنزلناه في ليلة القدر » أليس يكون معناه حينئذ : « إنا أنزلنا القرآن - أي ابتدأنا إنزاله في الليلة التي بدأنا فيها بإرسال الوحي بالرسالة وبتحديد الشريعة وأحكام الدين ؟ وإذا يكون حاصل المعنى « إنا ابتدأنا إنزال القرآن في الليلة التي ابتدأنا فيها بإنزال القرآن » ، وهذا شيء لا يقبله عاقل ولا يصح أن ينزل على مثله كلام عوام الناس فما بالك بكلام رب العالمين ؟ .

وكذلك الحال في آية الدخان : « فيها يفرق كل أمر حكيم » ؛ فإنه متى كان هذا الأمر الحكيم هو ما يختص بالرسالة والوحي والأوامر والأحكام - كما يقول الأستاذ الامام - كان المعنى أنه يفرق ويبين ويفصل في تلك الليلة الوحيدة التي لا تتكرر ولا تتجدد على مر الدهور والأعوام كل أمر حكيم من أمور الدين وأحكام الشريعة . وإذا كان معلوما بالضرورة أن تلك الليلة التي نزل فيها أول ما نزل من القرآن لم يبين فيها كل أمر حكيم من أمور الشريعة والدين فكيف يكون تأويل آية الدخان التي تنطق بأن الليلة المباركة وهي ليلة القدر يفرق فيها كل أمر حكيم ؟ .

نحن نوقن أن الأستاذ الامام - عليه سحائب الرحمة - شعر ببعض الحرج في تأويل الآية على النحو الذي يوافق ما يرى إليه من المعنى فأراد أن يتخلص من هذا الحرج بتقرير « أن ابتداء نزول القرآن كان فرقا بين الحق والباطل وكل ما جاء منه كان كذلك ، ثم توالى النزول بعد الليلة الأولى بما هو من نوع ما نزل فيها كما قال « إنا كنا مرسلين رحمة من ربك » ؛ فصح أن ينسب اليها أنه يفرق فيها كل أمر حكيم ، لأن كل ما جاء فيها كان أمرا حكيما فرق به

بين الحق والباطل وبداية لما يكون بعده من مثله ، كما صدق قوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » مع أنه لا يكون بينة وفارقا بين الحق والباطل إلا ما ظهر للناس منه وهو ما نزل وبلغ اليهم بالفعل أو كان بسبيل أن يبلغ ، فليس الأمر الحكيم الذى يفرق فى الليلة المباركة إلا أمر الدين والأحكام » اهـ

فهو يقول : إن ما نزل من القرآن فى الليلة الأولى التى جاء فيها الوحى أمر حكيم فرق به بين الحق والباطل وهو بداية لكل أمر حكيم جاء به القرآن بعد ذلك وفرق به بين الحق والباطل فكأن كل أمر حكيم جاء به القرآن من أوله إلى آخره قد كان فى ليلة الوحى الأولى .

ونحن نقول إن هذا شىء فى غاية التكلف لا ينبغى أن يلجأ إليه فى تفهم آيات القرآن الكريم .

يقرر الأستاذ الإمام أن كل ما جاء فى تلك الليلة كان أمرا حكيما . وهذا حق لا مرية فيه

ويقرر أن ما جاء فيها كان بداية لما جاء بعده من الأمر الحكيم . وذلك حق أيضاً لا ينازع فيه منازع .

ولكن ذلك كله لا يسوغ أن يقال إن بيان كل أمر حكيم قد كان فى تلك الليلة .

وليس من هذا القبيل قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات » ؛ فانه إذا كان القرآن - كما يقول الأستاذ الإمام - يطلق على جميع الكتاب العزيز وعلى أى جملة منه وكان كله هداية وفى كل جملة منه هداية صح أن يقال : إن القرآن نزل فى شهر رمضان ما دام قد نزل جزء منه فى هذا الشهر ، ولا سيما أن هذه الآية لم تقل إن شهر رمضان قد أنزل فيه القرآن كله كما جاء فى آية الدخان : « فيها يفرق كل أمر حكيم » .

ثم إن فرقا كبيرا بين أن يقال : إن ما نزل فى تلك الليلة كان كله أمرا حكيما وأن يقال : إن كل أمر حكيم نزل فى تلك الليلة ، فلا يصح الخلط بين هاتين القضيتين ولا التخطى من إحداهما إلى الاخرى بدون وسيلة صالحة .

ولهذا لا يسعنا إلا أن نسير فى معنى « ليلة القدر والتقدير » على ما جرى عليه المتقدمون من العلماء .

فليلة القدر على هذا هى الليلة التى تقدر فيهـا الآجال والأرزاق والأقوات ، وتضبط فيهـا شؤون سائر الكائنات وتحدد صفاتها وأحوالها .

غير أنه ينبغى أن يعلم أنه ليس المراد من تقدير هذه الأشياء فى ليلة القدر بدء تقديرها وإنشاء تحديد مواقيتها وضبط شؤونها وأحوالها ؛ فان ذلك أزلى سبق به علم الله وإرادته منذ القدم ، وإنمـا معنى ذلك إظهار هذه الامور للملائكة وكشفها لهم ليضبطوها فى صحفهم ويقوموا فيها بما أمرهم الله .

وهذا هو ما اختاره ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى وحرر القول فيه قبله الإمام النووى الذى اعتمد فيه على ما قرره الأئمة الاعلام:

قال النووى : قال العلماء : سميت ليلة القدر لمـا تكتب فيها الملائكة من الأقدار لقوله تعالى : « فيها يفرق كل أمر حكيم » ؛ ورواه عبد الرزاق وغيره من المفسرين بأسانيد صحيحة عن مجاهد وعكرمة وقتادة وغيرهم وقال التوربشتى : « إنما جاء القدر بسكون الدال وإن كان الشائع فى القدر الذى هو مؤاخى القضاء فتح الدال ليعلم أنه لم يرد به ذلك : وإنما أريد به تفصيل ما جرى به القضاء وإظهاره وتحديده فى تلك السنة لتحصيل ما يلقى اليهم فيها مقدارا بمقدار » اﻫ

أى فالقدر بفتح الدال هو تقدير الاشياء وتحديدها فى الأزل؛ وهذا ليس الكلام فيه. وأما القدر بسكون الدال فهو تحديد ذلك للملائكة وضبطه وإظهاره لهم فى الليلة التى تسمى ليلة القدر من ليالى كل سنة .

وخلاصة القول فى هذا أنه إذا أخذت كلمة « القدر » بمعنى التقدير فلا يصح أن يقصر هذا التقدير على تقدير أمر الرسالة وتحديد أحكام الشريعة وإنما هو تقدير كل شىء أراد الله إعلام الملائكة به وإطلاعهم عليه ليقوم كل منهم بما وكل اليه من ذلك . وهذا هو معنى فرق الأمر الحكيم . فالأمر الحكيم ليس هو خصوص أمر الرسالة والقرآن ؛ وإنما هو كل أمر اشتمل على الحكمة ووافق الواقع واقتضت الإرادة الالهية نفاذه فى الكون من شؤون الدين والدنيا ؛ يطلع الملائكة منه فى ليلة القدر كل سنة على ما أراد كونه فيها .

وهذا هو الشرف وعظم الشأن الذى خص الله به ليلة القدر.

ويتلخص مما قدمناه أن ليلة القدر هي ليلة من كل سنة ، فتتكرر بتكرر الأعوام ، وإن الأحاديث الصحيحة قد طلبت تحريها والتماسها رجاء موافقتها بالعبادة وعمل الخير ، فإن الجزاء على ما يكون من ذلك فى ليلة القدر خير من الجزاء على ما يكون منه فى ألف شهر .

ولكن أى ليلة هى من ليالى السنة ؟ وهل هى ليلة معينة فى ذاتها لا تتنقل فى أشهر السنة أو أنها تتنقل فيها أو فى شهر رمضان خاصة فى لياليه كلها أو فى العشر الوسط منه أو فى العشر الأواخر ؟

قد اختلف العلماء فى ذلك اختلافا كبيراً . والذى رجحه ابن رشد فى مقدمات « المدونة » أنها تتنقل باختلاف الأعوام ، ولكن فى شهر رمضان خاصة . قال : وهذا هو الذى ذهب إليه مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأكثر أهل العلم ؛ وهو أصح الأقاويل ، وأولاها بالصواب .

ويرى ابن رشد أنها تختص فى تنقلها ـ فى الأغلب من حالها ـ بالعشر الوسط وبالعشر الأواخر من رمضان ، وأن هذا القول هو الذى يتمشى مع جميع الأحاديث الصحيحة الواردة فى هذا الشأن .

ويقول إن الأغلب أنها تكون من العشر الوسط ليلة سبع عشرة وليلة تسع عشرة ، ومن العشر الأواخر فى الأوتار منها .

ويقرر ابن حجر فى فتح البارى أن أرجح أقوال العلماء فى ليلة القدر أنها فى وتر من العشر الأخير ، وأنها تتنقل فى أوتار هذا العشر .

وقال ابن القيم فى « زاد المعاد » فى بيان هدى الرسول صلى الله عليه وسلم فى اعتكافه ـ أنه عليه الصلاة والسلام كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل واعتكف مرة فى العشر الأول ثم الأوسط ثم العشرة الأخيرة يلتمس ليلة القدر ، ثم تبين له أنها فى العشر الأخير فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه عز وجل . ا هـ .

ويمكن أن يستخلص من هذا كله أن أرجح الأقوال فى ليلة القدر أنها تتنقل فى أوتار الثلث الأخير من رمضان .

وكذلك اختلف العلماء فى أنه هل لليلة القدر علامات تظهر لمن وفقت له ؟ .

والذى اختاره الطـبرى أنه ليس لهـا شىء من العـلامات وأنه لا يلزم فيها رؤية شىء أو سماعه . أما العلامة التى حدث عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما رواه البخارى من حـديث أبى سعيد الخدرى - أنه عليـه الصلاة والسلام رأى فى منامه أنه يسجد فى ماء وطين وأن ذلك قد تحقق صبيحة ليلة إحدى وعشرين من رمضان فهى لا تدل على أن علامة ليلة القدر فى كل سنة أن ينزل فيها المطر أو يشتد ؛ كما لا يدل ذلك على أن ليلة القدر تـكون دائمـا ليلة إحدى وعشرين من رمضان . وإنمـا كان ذلك علامة على ليلة القـدر فى تلك السنة لا غير . قال ابن جرير وذلك أنا شهدنا سنين كثيرة ينقضى فيها رمضان دون مطر مع اعتقادنا أنه لا يخلو رمضان من ليلة القدر » .

عبد الرحمن تاج
عضو جماعة كبار العلماء



****

التجديد فى الادب

التجديد فى الأدب إنمـا يكون من طريقتين :

فأما واحدة : فإبداع الأديب الحى فى آثار تفـكيره ، بمـا يخلق من الصور الجديدة فى اللغة والبيان .

وأما الأخرى : فإبداع الحى فى آثار الميت ، بما يتناولها به من مذاهب النقد المستحدثة وأساليب الفن الجديدة .

وفى الإبداع الأول إيجاد مالم يوجد ، وفى الثانى إتمـام مالم يتم . فلا جرم كانت فيهما معاً . حقيقة التجديد بكل معانيها ، ولا تجديد إلا من ثمة ، فلا جديد إلا مع القديم .

مصطفى صادق الرافعى

كفانا تقليداً فى الفقه

تتمة الحديث

ذكرنا فى الكلمة السابقة أن كثيراً من مشاكلنا التى تتطلب حلولا تتفق وشريعة الله وقرآنه وسنة رسوله لم تعرض فى الأزمنة المتقدمة ، فكيف نطالب بالإتيان بنص من الكتب السالفة فيها ! ولو أنها عرضت فى تلك الأزمنة لكان من الراجح جداً أن نرى أولئك الفقهاء قد عالجوها بما يتفق والصالح العام فى زمانهم .

وانتهينا من الحديث إلى أن الأمر جد خطير ، وأن مشكلة الاجتهاد والتقليد والوقوف عند نصوص الفقهاء بلغت الذروة من التعقيد ، وأننا صرنا فى مفترق الطرق ، وأن علينا أن نختار الطريق الذى يجب أن نسير فيه ؛ حتى لا ندع الأمر فوضى ، وحتى لا تظل الشبيبة فى ذبذبة وحيرة بين الجمود وبين الطفرة .

ونحب أن نذكر الآن أن الأحكام الشرعية ، كما نعرفها من القرآن وسنة الرسول ﷺ ومن أقوال الفقهاء أصحاب المذاهب معللة ، وإن كانت بعض هذه العلل احتاجت أو تحتاج إلى شىء من الجهد والتعمق للوقوف عليها .

كما يجب أن يكون معروفا أن الشريعة لا تأمر بشىء أو تنهى عن شىء إلا لتحقيق مصلحة معتبرة عند الشارع ، فما جاء الإسلام إلا لتحقيق مصلحة الأفراد والجماعة ، ومن المسلم به فى الفقه وأصوله أن الحكم يجب أن يدور مع علته وجوداً وعدما ، ولم يصب الفقه الإسلامى بالعقم أو العجز عن متابعة الزمن إلا لأن الفقهاء المتأخرين - وكذلك الأعم الأغلب من فقهاء اليوم - وقفوا عند نصوص أسلافهم وتجاهلوا اعتبار المصلحة وتقديرها .

إذا ، الدعوة اليوم إلى الإجتهاد ليست بِدْعا من الأمر ، بل هى دعوة كان يجب أن نشتد لها منذ زمن طويل ، وهى دعوة طبيعية تتفق والحياة التى نحياها وما نجىء به من مشاكل وحوادث لم تعرض لأسلافنا رضوان عليهم . وفى سائر البلاد الإسلامية من يجب أن يكون قد توفر له بفضل الله أدوات الاجتهاد ومؤهلاته ، وهؤلاء فرض يجب عليهم القيام به وإن ضاقت بهم صدور بعض المتعنتين الجامدين على التقليد !

ولا ينبغى أن يُظن أن الدعوة إلى الاجتهاد دعوة إلى نسخ شىء من الأحكام التى ثبتت بالكتاب أو السنة، بعد أن أتم الله على المسلمين نعمته بإكمال دينه وشريعته. كذلك لا ينبغى أن يظن أن فى هذه الدعوة دعوة إلى التجهم لشىء من نصوص القرآن المحكمة أو السنة النبوية الشريفة الصحيحة، فمعاذ الله أن ذهب أو يذهب أى مسلم إلى شىء من هذا ما دام قلبه عامرا بالله ودينه وشريعته المطهرة.

ولكن الذى نلهج بالدعوة إليه، وهو السبيل للاجتهاد الصحيح، هو أن نقتدى بالصحابة والتابعين ومن سار سيرتهم من الفقهاء المجتهدين، رضى الله عن الجميع وجزاهم خير الجزاء عن دينه وشريعته. وذلك بأن نسلك السبل التى سلكوها لمعرفة علل الأحكام الفقهية أولا، ثم تبين المصلحة الحقيقية المعتبرة التى تهدف إليها هذه الأحكام ثانيا، وأخيراً أن ننظر للنصوص والآثار بهذا الضوء ثالثا. وبهذا، يتطور الفقه ويحيا حياة قوية صالحة، وبهذا يستطيع أن يلبى حاجات الزمن فى ضوء القرآن والسنة دائما.

ولنأخذ الآن فى شىء من التفصيل لبعض ما أجملناه، ثم نأتى ببعض المثل التى نتبين منها كيف سلك الصحابة ومن إليهم من التابعين والفقهاء المجتهدين، كما نتبين منها بوضوح أن النظر بعين القداسة لنصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة لم يمنع ولا ينبغى أن يمنع من الاجتهاد والفقه، ما دمنا نسير دائما فى فلك هذين المصدرين العظيمين المقدسين للشريعة الإسلامية.

قلنا إن الحكم الشرعى يدور مع علته ومع المصلحة وجودا وعدما، وهذا ما يجب أن نفهمه تماما ونراعيه حين التطبيق، فنى ذلك باب من أبواب الاجتهاد، ونكتفى هنا ببعض المثل التى لها دلالتها :

١ — روى أبو داود فى سننته [1] أن رسول الله ﷺ قال : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولكن ليخرجن وهن تفلات »، أى غير متطيبات. وأنه قال : « لا تمنعوا نساءكم المساجد، وبيوتهن خير لهن ». ثم مضى زمن الرسول ﷺ وتغير الحال، وصار خروج النساء للمساجد الذى أباحه الرسول ﷺ مظنة فساد اجتماعى فرأى البعض عدم الوقوف عند هذا النص رعاية للمصلحة التى تقتضى المنع، دون أن يكون فى ذلك أى مخالفة لقول الرسول صلى الله عليه وسلم ومقصده.

(١) جـ ١ : ٢٢١ طبعة مطبعة السعادة عام ١٩٥٠.

وهنا نرى سيدتنا عائشة رضى الله عنها تقول، رواه أبو داود أيضا (ص ٢٢٢): « لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن المسجد، كما منعه نساء بنى إسرائيل ». ثم نرى عبد الله بن عمر يقول: قال النبى ﷺ « ائذنوا للنساء إلى المساجد بالليل »، فقال ابن له: « والله لا نأذن لهن فيتخذنه دغلا، والله لا نأذن لهن »، فسبه وغضب وقال: أقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ائذنوا لهن، وتقول: لا نأذن لهن!

٢ — ومثال آخر نأخذه من موقف عمر مع أبى بكر رضى الله عنهما فى مسألة نصيب المؤلفة قلوبهم من الصدقات، وهو مثال معروف، فقد كان الرسول ﷺ يعطى هؤلاء الناس نصيبهم من الزكاة الذى شرعه الله لهم فى سورة التوبة من القرآن، وذلك تأليفا لهم على الإسلام واتقاء لما قد يكون منهم من عدوان. وكذلك كان يفعل الصديق أبو بكر من بعده، حتى إنه أقطع عيينة بن حصن والأقرع بن حابس قطعة من الأرض وكتب بذلك كتابا.

ولكن عمر بن الخطاب الملهم الذى وافقه القرآن فى مواطن غير قليلة، أخذ الكتاب فتفل فيه ومحاه وقال: إن رسول الله كان يتألفكما والإسلام يومئذ قليل، وإن الله قد أغنى الإسلام، إذ هبا فاجهدا جهدكما لا يرعى الله عليكما! فما كان من الخليفة الأول إلا أن رضى ولم ينكر هو ولا غيره على الفاروق رأيه وما ذهب إليه [1]. ومعنى هذا أن الحكم الأول كان لعلة استوجبته ومصلحة قصد إليها، فلما ذهبت العلة وصارت المصلحة فى ترك الإعطاء تغير الحكم، وكان فى المنع تقوية لثقة المسلمين بأنفسهم وعدم حاجتهم لتألف هؤلاء الناس وأمثالهم.

٣ — ومثال ثالث يتصل بالتسعير، نعنى بالنهى عنه من الرسول ثم إباحة بعض الفقهاء المجتهدين له، فقد روى أبو داود فى سننه [2] أن الناس قالوا يا رسول الله غلا السعر فسعر لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق، وإنى لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطالبنى بمظلمة فى دم أو مال ». إذاً لم يرض الرسول بالتسعير حتى لا يكون هذا سببا فى أن يكره الناس على بيع أموالهم بما لا يرضون من الأثمان.

(١) انظر فى هذا أحكام القرآن للجصاص، طبع مصر عام ١٣٤٧ هـ، حـ ٣ : ١٥٣
(٢) حـ ٢ : ٢٤٠

لكن بعض الفقهاء من التابعين أولا ، ثم ممن جاء بعدهم ثانيا ، رأوا جواز التسعير رعاية للمصلحة ودفعاً للضرر عن المستهلكين مستوحين فى هذا أنه لاضرر ولا ضرار فى الإسلام ، ومن هؤلاء التابعين سعيد بن المسيب وربيعة بن عبد الرحمن ويحيى بن سعيد. وهذا الرأى منهم فيه ، كما يقول أبو الوليد الباجى[1] المتوفى عام ٤٧٤ هـ ، نظر لمصالح الناس ومنع للإفساد عليهم ، وليس فيه جبر على الباعة حتى يكون منافيا لذلك ، ولكنه منع من البيع بغير هذا السعر على حسب ما رآه الإمام من المصلحة فيه للبائع والمبتاع ، ولا يمنع البائع ربحاً ولا يسوغ له ما يضر بالناس . ولعلنا جميعاً ، معشر المشتغلين بالفقه ، نوافق تمام الموافقة على هذا الرأى وتعليله ، ونراه محققا للمصلحة العامة هذه الأيام .

٤ — ونذكر أخيراً هذا المثال مكتفين به وبما سبقه ، لأن المثل لما نريد كثيرة وهى على حبل الذراع لمن يريد من الباحثين ، وهو خاص بحل التزوج من النساء الكتابيات كما جاء بالقرآن ، ولكن من الثابت أن حذيفة تزوج بيهودية أيام عمر بن الخطاب فأمره بتخلية سبيلها لا لأن التزوج بها حرام شرعا ، بل دفعاً لفساد يخشى منه ، ودفع الفساد من المصالح التى تقصد بالطلب والتحقيق بلا ريب . وفى بيان هذا الفساد يذكر عمر فى كتابه لحذيفة : « إنى أخاف أن يقتدى بك المسلمين فيختاروا نساء أهل الذمة ، وكفى بذلك فتنة لنساء المسلمين » ![2]

وهنا ، نذكر أن فى عدم منع مثل هذا الزواج ضرراً أكبر من ذلك متى وقع فى ظروف خاصة ولأناس مخصوصين - نريد أن نقول إن زواج الشباب المثقف فى البلاد التى ابتليت باستعمار فرنسا من فرنسيات ، يضر بقضية الوطن ضرراً كبيراً إذ يجد هؤلاء الشبان من زوجاتهم الفرنسيات تعويقاً كبيراً لهم عما يجب عليهم من جهاد المستعمرين .

وكذلك الحال فى البلاد التى يكون فيها المسلمون أقلية بين غير المسلمين ، وفى هذا أتذكر أنى استحسنت منذ سنين ، ما عرفته من أحد تلاميذنا بكلية أصول الدين بالأزهر ، وهو أن مفتى بولونيا أفتى بتحريم زواج المسلمين هناك من غير المسلمات ، خشية أن يضيع المسلمون بين الكثرة الكاثرة هناك من غير المسلمين .

---

(١) فى شرحه لموطأ مالك ج ٥ . ١٨ .

(٢) راجع أحكام القرآن للجصاص ، ج ٢ : ٣٩٧ ؛ كتاب الآثار للامام محمد بن الحسن الشيبانى طبع الهند ، ص ٧٥ .

وبعد ! إن هذه الأمثلة وسواها كثير ، من نحوها أفتى فيه الفقهاء بجوازه ، استحسانا ، من المعاملات ، ترينا أن الحكم الشرعي يتبع العلة والمصلحة دائما ، وأن من الواجب علينا في هذا الزمن أن نعنى أهم عناية بالاجتهاد من هذا الباب على الأقل وحينئذ يكتسب الفقه الإسلامي حياة وقوة فقدهما منذ سد باب الاجتهاد ، وحينئذ يستطيع هذا الفقه أن يعيش مع الزمن ويلبي حاجات كل عصر .

على أننا نرى واجباً أن نتقدم أخيراً بهاتين الملاحظتين :

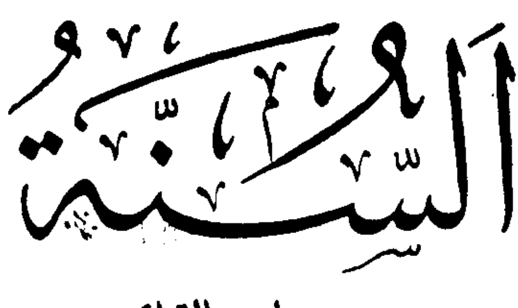
الأولى : أنه ليس في شيء من ذلك كله نسخ لحكم مثبت بنص من الكتاب أو السنة ، وإنما هو فهم لهذه النصوص وتفهم لعلل الأحكام التي جاءت بها وللمصالح التي كانت تهدف لتحقيقها ، فالنص الذي جاء به الحكم يبقى قائماً للاريب ويجب العمل به متى كان محققاً للمصلحة التي قصدها الشارع . فنهي الرسول ﷺ عن التسعير مثلا ، كان لعدم وجود ما يقتضي التسعير في زمنه اقتضاء لازماً كما نحس هذه الأيام ، ولو كانت الحاجة الملحة تدعو للتسعير في زمنه لقال به حتما .

الثانية : لا يمكن أن نقول بأن الأحكام الشرعية كلها قابلة للتغير تبعاً للمصلحة ، فهناك منها العدد الأكبر الذي لا يتغير بحال ؛ مثل حرمة الربا ، وشرب الخمر ، والزنا ، إلى غيرها من الأحكام التي لا تتغير بحال إلى آخر الدهر . وإنما الكلام هو في طائفة من الأحكام الفقهية التي نرى الفقهاء يذهبون إليها في أزمان خاصة لمناسبتها حينذاك ، ثم لا تكون محققة للمصلحة التي يصح اعتبارها شرعاً في أزمان أخرى ، وذلك ككثير من المعاملات التي أجازها الفقهاء استحساناً في عصور مختلفة ، ومن قال إن كل الأحكام الفقهية هي شرائع أبدية فقد أعظم على الله الفرية [1] !

هذا ، ونسأل الله التوفيق والسداد ، ونستغفره مما قد يكون الصواب جانبنا فيه .

دكتور
محمد يوسف موسى
أستاذ الشريعة بكلية الحقوق ـ جامعة فؤاد

(١) ومن العجب أن جمهرة أئمة الفقه أصحاب المذاهب يجعلون ما يسمى « بالمصالح المرسلة » أصلا من أصول الفقه وأدلته ، ثم لا نحاول نحن هذه الأيام الانتفاع بهذا الأصل وتطبيقه مع الحاجة لذلك حاجة ماسة واضحة !



من صفات القائد

حاضر العالم الإسلامى - نهضاته - قادته - القيادة المثلى - القائد الأعلى - صفاته - الدعوة إلى التخلق بأخلاقه - الجود والشجاعة - مصدرهما - أثرهما فى بناء المسجد .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس ، وكان أجودَ الناس ، وكان أشجع الناس ؛ ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ! فانطلق الناس قبل الصوت ! فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا وقد سبقهم إلى الصوت ، وهو على فرس لأبى طلحة عُرْى ، فى عنقه السيف وهو يقول : لم تُراعوا لم تُراعوا . قال : وجدناه بحرا ، أو إنه لبحر . قال : وكان فرسا يبطأ . رواه الشيخان ، واللفظ لمسلم .

* * *

فى حاضر العالم الإسلامى نهضات إصلاحية متعددة النواحى : فمنها التشريعى ، ومنها التهذيبى ، ومنها الاقتصادى ، ومنها التوجيهى ، إلى غير أولئك مما يكمل بعضه بعضا ، ويشد بعضه أزر بعض ، ويتعاون فى جملته وتفصيله على البعث والتحرير ، والإنشاء والتعمير ، أو حينما تحاول إحسان الظن - على إعادة مجد الإسلام وإحياء فضائله الأولى - والأعمال بالنيات ، ولكل امرىء ما نوى .

لا جرم أن لكل نهضة من هذه النهضات قائدا مسئولا عنها ، وعن مدى إخلاصه وإصلاحه فيها ، ثم عن مدى توجهه وتوجيهه إلى الخير حتى ينجزه فى أقرب زمن مستطاع ، من أقرب طريق مشروع ، فكم من مشروعات نافعة أماتها البطء فيها ، أو الحقد الدفين على مبتكريها ، أو كثرة الخلاف والتعقيد فى طرائق إنقاذها !!

وعلى قدر المهمة الملقاة على عاتق القائد مسئوليته ، وعلى حسبها يكون حسابه أمام الله والتاريخ ! .

ولما كان ، من الحقائق التى شاع العلم بها فى العالم الإسلامى بالعشرين السنة الأخيرة أن المسلمين إلى خير ولكن الضعف فى القيادة ، كما جاء فى الجزء السابق من هذه المجلة ، على لسان رئيس تحريرها الجليل ـ أحببنا أن نذكر قادتنا بشىء من صفات قائدهم الأعلى ، غير مدافعٍ ولا منازعٍ ، صلوات الله وسلامه عليه ، عسى أن يتخذوا منها نبراسا يضىء لهم طريق القيادة المثلى ، ويهديهم فى كل نهضة إصلاحية للتى هى أقوم .

* * *

وفى مقدمة هذه الصفات التى نذكرها بها قادتنا ، الجود ، والشجاعة وقد بلغ فيهما وفى غيرهما صلوات الله وسلامه عليه المثل الأعلى ، والغاية القصوى ، مما لا مطمع لأحد ـ كائنا من كان ـ أن يدانيه فيها ، بله أن يساويه .

فاذا كان صلوات الله عليه ـ بنعمة ربه ـ أحسن الناس ، فى كل صفة من صفات الخير ، وكل فضيلة من مكارم الأخلاق ، فذلك لأنه تعالى شأنه أدبه فأحسن تأديبه وهذبه فأكمل تهذيبه ، وآتاه ما لم يؤت أحدا من خلقه ، وأثنى عليه بما هو أهله ما لم يثن على أحد قبله ...

وإذا كان ﷺ أجود الناس ، فلذلك لأنه أوثق الناس بربه ، ولا ريب أن كرم العبد وإنفاقه على قدر ظنه بسيده ، وحسبك أنه ما سئل عن شىء قط فقال لا ، إن كان عنده أعطاه وإلا سكت ، أو قال لسائله : ما عندى شىء ولكن ابتع على ، فاذا جاءنا شىء قضيناه . وقد قال له عمر ذات مرة : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه فرؤيت الكراهية فى وجهه ﷺ حتى إذا قال له رجل من الأنصار : أنفق يا رسول الله ولا تخش من ذى العرش إقلالا ، تبسم وعرف البشر فى وجهه ، وقال : بهذا أمرت .

وإذا كان ﷺ أشجع الناس كافة ، فلأنه أجود الناس كافة ، وذلك لأن الجود والشجاعة صفتان متحالفتان لا تكادان تفترقان ، وينبوعهما هو الثقة بالله تعالى والإيمان به .

وما من شجاع إلا وقد أحصيت عليه هفوة أوعدت عليه كبوة ، إلا سيد الشجعان صلى الله عليه وسلم ، فقد فرت الفرسان من حوله غير مرة وهو مقبل لا يبرح ، وثابت لا يدبر ولا يتزحزح . ومن آيات شجاعته ما رواه أنس رضى الله عنه فى هذا الحديث من أن أهل المدينة اضطربوا وفزعوا ذات ليلة وظنوا أن عدوا أغار عليهم ، فأسرع أناس من شجعانهم نحو الصياح الذى سمعوا ، فما راعهم إلا أن يجدوا رسول الله ﷺ عائداً بعد أن استبرأ الخبر ، واستكشف الأمر واطمأن على المدينة وأهلها ثم طمأنهم وأزال مخافتهم .

ومن عجيب فروسيته وشجاعته أن يركب فرساً لأبى طلحة معروفاً بالبطء والعجز وسوء السير ، يمتطيه عاريا من السرج فيثبت عليه وهو متقلد سيفه فى عنقه ، ثم ينقلب الفرس سريعاً ببركته ﷺ كأنه بحر .

وأبو طلحة هو زيد بن سهل الأنصارى الخزرجى ، زوج أم سليم والدة أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ وراوى هذا الحديث . كان من فضلاء الصحابة وشجعانهم وذوى الجود والكرم منهم ، وكان رامياً مشهوراً ، يجثو بين يدى رسول الله ﷺ فى ميدان الحرب ويقول :

نفسى لنفسك الفداء ووجهى لوجهك الوقاء

ثم ينثر كنانته بين يديه . وكان يتطاول بصدره ليقى به رسول الله ﷺ ويقول : نحرى دون نحرك .

ولا ريب أن أصحاب رسول الله ﷺ تخلقوا بخلقه وبلغوا من الشجاعة والكرم والفضل ، بمقدار حبهم له وإيمانهم به وذلك ميزان سليم مستقيم ، نوزن به فضائل من بعدهم إلى يوم القيامة .

* * *

وبعد ، فلسنا بسبيل تفصيل جوده وشجاعته ﷺ ، وعظيم أثرهما فى صادق الإيمان به من أمته ، فقد تكفلت بذلك المؤلفات الكثيرة فى سيره وشمائله وإن لم يبلغ الغاية فى شرح

مكارمه وفضائله . . ولكننا بسبيل الدعوة إلى التخلق بأخلاقه عامة ، وبهاتين الفضيلتين منها خاصة ، إن كنا جادين فى نهضاتنا ، صادقين فى عزماتنا ، واثقين بعون الله لنا على احتمال التبعات الجسام الملقاة على عواتقنا .

وأجدر الناس بقبول هذه الدعوة والاستجابة لها هم قادتنا وأولو الأمر منا ، إن كانوا يؤمنون بأنه صلوات الله وسلامه عليه هو قائدهم الأعلى ، وأنهم لن يحققوا لأمم ما يرجون لها من العزة والسيادة ، إلا إذا كانوا تحت رايته ، مستظلين فى ظل هدايته .

* * *

وإذا ذكرنا الشجاعة فلا نعنى بها مجرد الشجاعة الحربية التى تفسر بأنها ثبات القدم عند مواقع القتال ، ومكافحة الأبطال ، وإنما نعنى بها الشجاعة فى أوسع معانيها وأبعد مراميها ، ولاسيما الشجاعة الأدبية التى تقصد إلى مناصرة الحق ، وإظهاره فى إخلاص وصدق ، دون مبالاة بذى جاه أو سلطان . ولن تؤتى هذه الشجاعة أكلها ، إلا إذا تقبلناها من أهلها ، وشجعناهم على المضى فيها ما كانوا إلى الخير داعين ، وإلى الحق قاصدين « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » .

وإذا ذكرنا الكرم فلا نعنى به ما ينفق من أموال طائلة فى مظاهر الفخر والأبهة ، فإن ذلك إسراف وتبذير ، عظيم الضرر وخيم العاقبة ! وإنما نعنى به الأريحية للإنفاق فى سبيل الله وتحرير الوطن وإحياء موات الأمة ، وإزاحة ما ضرب عليها من الذلة والمسكنة .

إن هذه المثل العليا التى ندعوا إليها القادة والمشرفين على نهضاتنا الحاضرة ، وفى مقدمتها الشجاعة والكرم والتضحية والبذل ليست من أمهات الفضائل وحسب . ولا من صفات القائد المثالى وكفى ، ولكنها إلى ذلك كله من الدعائم الأساسية الأولى ، لتحرير الشعب ، وإنقاذ الوطن ، وبناء المجد .

طه محمد الساكت

الاستعمار يقرب من نهايته

حديث لفضيلة الأستاذ الأكبر

خاض الغرب معركة استعماره للشرق فى القرنين الماضيين مستعيناً بما كان يسود ظروف تلك المعركة من متناقضات . فالغرب كان قد أخذ يستنير بمعارفه المادية ويقوى بآلاته الصناعية وأنظمته المبتكرة ، وأسلحته الجديدة غير أن لجج الظلام كانت قد بدأت تغمره بنزعات الإلحاد والتحاسد والجشع والبغى والفراغ السياسى من الدافع الأعلى ، كما يقول المؤرخ ولز ، بينما الشرق كان قد أخذ ينحط بضعف حكوماته وتخلفها وتقاطعها ، وإن كانت شعوبه لم تزل يومئذ ممتازة ببقية كريمة من الأخلاق النبيلة كالقناعة والتراحم والأمانة والثقة حتى لقد شهد المسيو جومار أحد مهندسى الحملة الفرنسية على مصر بأنه رأى بعينه الغلال وبضائع التجار تكدس على ساحل النيل فى فرضة بولاق التى كان فيها جمرك القاهرة ، فلم يمكن يمسها أحد بسوء ليلا ولا نهارا مع أنها متروكة فى العراء بلا حراسة ولا خفراء .

فالاستعمار كان فى القرنين الماضيين بغيا من القوة المادية على شعوب ذات فضائل وأخلاق منتهزاً فرصة الضعف الذى دب إلى حكومات تلك الشعوب الطيبة الأعراق الآمنة فى أوطانها السعيدة بقناعتها وأمانتها وتراحمها .

وكان الغرب يمن على الشرق فى استعماره بأنه حمل إليه الحضارة والنظام والمعارف ، وهو لم يحمل إليه من الحضارة إلا قشورها ، ومن النظام إلا ما يجعل الشرق آلة فى يد الغرب ومن المعارف إلا ما يستعمر به القلوب والعقول بعد استعمار الأرض وخيراتها ، وبذلك كان الغنم فى كل هذه الأمور للمستعمر ، وغرمها على الشعوب التى رزئت باستعماره بلادها واستغلاله كنوزها وخيراتها .

هذه هى قصة استعمار الغرب للشرق فى سيرة هولندا مع الأندونيسيين ، وفى سيرة انجلترا مع الهنود وسكان ملايو والمصريين والسودانيين ، وفى سيرة فرنسا مع الجزائريين والتونسيين والمراكشيين .

إن استيلاء فرنسا على الجزائر مثال من أمثلة التاريخ على الظروف المتناقضة التى نشأ عنها الاستعمار . فالشعب الجزائرى كان يومئذ من أقوى شعوب الأرض بأخلاقه وحيويته بينما حكومة الجزائر التى كانت تتولى أموره كانت من أفسد الحكومات فى الأرض وأضعفها وأحمقها ، والمستعمر كان يستعد قبل ذلك طويلا للبغى على الجزائر ويتخذ لذلك مختلف الذرائع التى تنافى الدافع الأعلى .

فلما وقعت الواقعة خارت قوى القائمين بالحكم على الجزائر ، وتخلفت الحكومة العثمانية التى كانوا تابعين لها من أن تؤدى واجبها فى هـذا الموقف ، وهنا تجلت حيوية الشعب الجزائرى وأخلاقه فنظم صفوف جهاده بقيادة الأمير عبد القادر وظل يجاهد ببطولة منقطعة النظير مدة ثمانية عشر عاما ، ومن ذلك الحين إلى الآن والحوادث تبرهن على ضعف المستعمر الأدبى وفراغه السياسى من الدافع الأعلى . وعلى قوة الشعب الجزائرى الأدبية وحيويته فى مقاومة مالا يستطيع مقاومته إلا أعظم الأمم بطولة من صنوف البغى الاستعمارى الذى لا يجنح إليه إلا أضعف الدول فى أخلاقها ومبادئها الأدبية ، وقس على حيوية الجزائر حيوية جارتها فى الشرق والغرب : تونس والمغرب الأقصى ، ولو أن مؤرخا من الحكماء أمثال فولتير وجيبون وولز أراد أن يقارن بين قوة فرنسا وضعفها فى بداية استعمارها لشمال أفريقيا ونهايته وبين قوة المغاربة وضعفهم بين تلك البداية والنهاية لحكم مطمئناً بأن فرنسا اليوم تعانى فى شمال أفريقيا أعراض الاضمحلال بالنسبة إلى ما كانت عليه فى سنة ١٨٣٠ . بينما ضحايا بغيها من المغاربة لم يزدهم البغى إلا قوة وحيوية وقد استيقظوا من غفلتهم وتخلصوا من ضعف حكوماتهم وأصبحوا من نتائج الفوز والفلاح قاب قوسين أو أدنى .

وما يقال عن فرنسا فى شمال أفريقيا يقال مثله عن الهند التى شاهدنا بأعيننا وشاهد التاريخ معنا عواقب الاستعمار البريطانى فيها واضطراره إلى الانسحاب من تلك الربوع وازدهار الحيوية فى باكستان والهند حتى صارت منهما دولتان من كبريات الدول ، وشاهدنا كذلك عاقبة الاستعمار الهولندى فى أندونيسيا بعد أن رسخت أقدامه فيها ٣٠٠ سنة فاضطر أخيراً إلى التسليم بالأمر الواقع .

لقد شب عمرو عن الطوق ، بل لقد استيقظ العملاق من نومه فأخذ يبحث عن مكانه اللائق بين الأمم ، وإن الحوادث المتكررة برهنت على أن اعتماد الاستعمار على قوته المادية

لا تجد به نفعاً وأنه إنما أتى من ناحية ضعفه الأدبي لأنه قائم على البغي ، وآخر الشواهد على ذلك هذه المؤامرة الاستعمارية على إخراج نحو تسعمائة ألف فلسطيني من وطنهم الذي هم أصحابه منذ دهور ، وتشريدهم في العراء لإحلال أجانب غرباء في أرضهم وأملاكهم الشرعية ومثل هذه المؤامرة لا يمكن أن يرضى بالاشتراك فيها إلا الذين يعيشون في فراغ سياسي من الدافع الأعلى كما يقول المؤرخ ويلز والاستعمار الذي يعيش في هذا الفراغ المخزي لا شك أنه اليوم أضعف مما كان في بداية بغيه قبل مائة سنة ، أما فريسة الاستعمار التي وقعت فيما مضى بين يديه بسبب ضعف حكوماتها المتهافتة وأخذت تنقه من الضعف الذي جرتها إليها تلك الحكومات ، وقد نهض فيها رجال يحسنون التعاون مع شعوبهم ، ولا شك أن يقف الجميع معاً أمام الاستعمار الضعيف موقف المؤمن بحقه الحازم في دفاعه عنه المصمم على التخلص من هذا العدو الذي أنهكه جشعه .

وإني أقدم لأمتي النصيحة مخلصاً بأن أقوى أسلحتها لمقاومة الاستعمار إنما هو الأخلاق والدين هو الذي يهدي إلى مكارم الأخلاق وإذا كان على ولاة الأمور أن يفكرا في توفير أسباب القوة المادية وتنظيم استعمالها ، فإن على كل فرد من أفراد الأمة أن يتسلح بالأخلاق وأن يتعامل بها مع أفراد أمته وأن يعلم أن أعظم رسالات الله وأكملها إنما جاءت للتعامل بمكارم الأخلاق .

****

الحق يؤخذ ولا يعطى

كتب برناردشو إلى مستر بلت يقول : « أخشى أننا سنلاقي أوقاتا عصيبة في الهند . ولكن على الهنود وعلى المصريين أيضا أن يعملوا على تحقيق حريتهم ، فليس في وسعنا أن نطلق سراحهم ما لم تجابهنا الهزيمة ويتداعى صرح الامبراطورية في جهات أخرى » .

وقد تحققت فراسة برناردشو ، وتداعى الصرح ، وخرج الاستعمار من الهند وسيخرج من كل مكان .

الأردن والبلقاء في تاريخ الإسلام

كنت فى زيارة أحد كبار شيوخ العلم بمصر ، فوجدت عنده جماعة من زعماء العرب ، ومن بينهم عربى ذو مركز سياسى ممتاز ، وقد أخذ الحضور يتحدثون عن أحوال بلاد المسلمين والعرب وقضاياهم مع الاستعمار ووجوب تعاونهم على تحرير أوطانهم وديارهم من سيطرة الأجانب واستعمارهم ، وجرى الحديث عن شرق الأردن ، وإذا بالسياسى العربى يقول : بأن اسم « الأردن » أو « شرق الأردن » لم يكن معروفا عند العرب من قبل ، وإنما ابتكره مهندس أمريكى واستحسنته السلطة الإنجليزية ، ومن ثم صار إطلاقه على تلك الإمارة أو المملكة التى عرفت باسم : « شرق الأردن » .

فقلت له : إن اسم إمارة الأردن مسجل فى تاريخ الإسلام ومعروف لدى العلماء من قبل ألف سنة ، وليس هو اختراعا أمريكيا ولا ابتكاراً انجليزيا . فعجب من ذلك وقال : صدقونى إذا قلت لكم إنى لم أسمع بهذا قبل الآن .

من أجل ذلك وبيانا للحقيقة والواقع وخدمة لتاريخ الإسلام وتاريخ فتوحاته فى بلاد الشام التى منها الأردن والبلقاء كتبت هذه المقالة :

إن البلاد التى يطلق عليها فى هذا الزمان اسم « شرق الأردن » هى أراضى ومدن وقرى تجمعها كورة البلقاء من بلاد الشام ، شرقى بيت المقدس وعاصمتها عمان ، ومن أشهر مدنها الكرك والصلت وإربد ومعان وجرش والطفيلة والشوبك وغيرها ، وكلها واقعة على الجانب الشرقى لنهر الأردن كما تقع فلسطين على جانبه الغربى .

ولقد ورد اسم الأردن والبلقاء فى الحديث النبوى الشريف وفى كتب التاريخ والسير وفتوح البلدان ومعاجمها ، وفى تلك الجهات كانت (واقعة مؤتة) التى استشهد فيها الأمراء جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ، رضى الله عنهم ، وقبورهم موجودة إلى هذا الزمان فى قرية تسمى (المزار) قرب الكرك ، وإلى تلك الجهات كان بعث جيش أسامة بن زيد رضى الله عنه فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه بعد انتقال النبى ﷺ

إلى الرفيق الأعلى ، وتدل النصوص الواردة فى تاريخ الإسلام على أن كورة الأردن وجند الأردن كانت تطلق منذ فتحها المسلمون على منطقة من الأراضى والمدن والقرى واقعة فى جهات الغور الشامى وما حولها أكثرها على الجانب الغربى لنهر الأردن وبعضها على جانبه الشرقى ، وأيام الحروب الصليبية فى عهد صلاح الدين حدثت فى أراضى الأردن الشرقية عدة معارك بين جيوش المسلمين والصليبيين الذين اتخذوا من إمارتهم الصليبية فى الكرك وما حولها قاعدة لمهاجمة الحجاز وشواطئ البحر الأحمر وأراضى سيناء والعقبة ، حتى هزمهم جيش مصر وأسطولها بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، فأباد جندهم وغرق أسطولهم .

الأردن والبلقاء فى الحديث الشريف .

روى الترمذى والحاكم عن ثوبان رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « حوضى من عدن إلى عمان البلقاء » الحديث وأخرجه السيوطى فى الجامع الصغير ورمز له بعلامة الصحيح : وأخرج القاضى مجير الدين المقدسى الحنبلى فى (الأنس الجليل) ج ١ ص ٢٠٧ ، عن ربيعة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ « لاتزالون تقاتلون الكفار حتى تقاتل بقيتكم جنود الدجال ببطن الأردن ، بينكم النهر ، أنتم غربيه وهم شرقيه » قال ربيعة فقال المحدث من أصحاب رسول الله ﷺ : « فما سمعت بنهر الأردن إلا من رسول الله ﷺ » .

غزوة مؤتة فى البلقاء سنة ٨

قال أبو الفتح بن سيد الناس (عيون الأثر فى المغازى والسير) ج ٢ ص ١٥٣ :

غزوة مؤتة وهى بأدنى البلقاء من أرض الشام فى جمادى الأولى سنة ثمان وكان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فأوثقه ثم قدمه فضرب عنقه صبراً ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره ، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر عنه ، فبعث رسول الله ﷺ بعثة إلى مؤته وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال : « إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » ، فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج وهم ثلاثة آلاف ، ثم مضوا حتى نزلوا معان من أراضى الشام ، فبلغهم أن هرقل قد نزل مآب فى أراضى البلقاء فى مائة ألف من الروم وانضم إليهم من لخم والقين وبهراء وبلىّ مائة ألف منهم عليهم رجل من بلى يقال له مالك بن رافلة . فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان

ليلتين ينظرون فى أمرهم وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فإما يمدنا بالرجال وإما يأمرنا بأمره فنمضى له ، فشجع الناس عبد الله بن رواحة وقال : « والله يا قوم إن الذى تكرهون للتى خرجتم لها تطلبون الشهادة وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به فانطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور « نصر » وإما شهادة » .

فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب « المتنصرة» بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ثم دنا العدو وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها «مؤتة» فتعبأ المسلمون ثم التقى الناس فاقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى استشهد ، فأخذ الراية جعفر فقاتل بها حتى قطعت يمينه فأخذها بيساره فقطعت يساره فاحتضن الراية وقاتل حتى قتل رحمه الله وسنه ثلاث وثلاثون سنة ، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وقاتل حتى قتل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ، فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشى بهم ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس .

بعث أسامة بن زيد على رأس جيش إلى البلقاء وفلسطين :

فى المحرم من سنة ١١ جهز رسول الله ﷺ جيشا إلى الشام وأمر عليهم أسامة بن زيد ابن حارثة . وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء « فى شرقى الأردن » والداروم من أرض فلسطين ، وفى رواية أخرى للطبرى أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره أن يوطىء من آبل الزيت من مشارف الشام الأرض بالأردن ، وكان فى هذا الجيش المهاجرون الأولون ومنهم عمر بن الخطاب فقد كان جنديا فى جيش أسامة وبينما الجيش فى الخندق متأهبا للرحيل إلى البلقاء والداروم اشتد المرض برسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أن قبضه الله تعالى إلى الرفيق الأعلى إلى ما أراد به عز وجل من رحمة وكرامة ثم اختار المسلمون أبا بكر رضى الله عنه خليفة لرسول الله ، وبحث كبار الصحابة ما ينبغى فى شأن بعث أسامة فاقترحوا على عمر أن يراجع أبا بكر ليأمر بعودة جيش أسامة ، وإذا أصر على بعثه أن يختار بدله قائدا من كبار الصحابة فان أسامة لم يكن يتجاوز عمره حينئذ العشرين سنة ، فذهب عمر إلى أبى بكر وحدثه فى ذلك فاشتد غضبه وقال « والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لانفذت بعث أسامة كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته » .

ولما قال له عمر : إن الأنصار أمروني أن أبلغك أن تولى رجلا أقدم سنا من أسامة ، فوثب أبو بكر وكان جالسا فأخذ بلحية عمر ثم قال « ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول ﷺ وتأمرني أن أنزعه ! » ، ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبي بكر ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن ، فقال : والله لا تنزل ولا أركب ، وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة حتى انتهى ، ثم قال لأسامة ، إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل . فأذن له . ثم وصاهم أبو بكر وصيته التي تعتبر دستوراً مثالياً لما تضمن الإسلام من رحمة وإنسانية وعدل في معاملة الأعداء . قال أبو بكر : « يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني : لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكل ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقا اندفعوا باسم الله » .

ثم قال لأسامة : اصنع ما أمرك به نبي الله ﷺ ، ابدأ ببلاد قضاعة ثم ائت آبل بالأردن » ، فمضى أسامة إلى ما أمره رسول الله ﷺ ، وبث الخيول في قبائل قضاعة والغارة على آبل فسلم وغنم . وكان فراغه في أربعين يوما سوى مقامه ومنقلبه راجعاً . (الطبري ج ٣ ص ٢١٢-١٣) .

الأردن والبلقاء في معاجم البلدان

قال ياقوت في (معجم البلدان ج ٢ ص ١٧٧) : « البلقاء من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى ، قصبتها عمان ، وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة ، وبجودة حنطتها يضرب المثل .

وقال النووي في (تهذيب الأسماء واللغات) ج ٢ ص ١٨ قسم اللغات :

« الأردن الكورة المعروفة من أرض الشام بقرب بيت المقدس ، وهي بضم الهمزة وإسكان الراء وضم الدال وتشديد النون . قال أهل العلم : إنما سمي بذلك من قولهم للنعاس الثقيل أردن » .

نهر الاردن :

وقال ياقوت فى (معجم البلدان) : « الاردن بالضم ثم السكون وضم الدال المهملة وتشديد النون . يقول اللغويون أن الاردن النعاس ، وهى أحد أجناد الشام الخمسة ، وهو كورة واسعة منها الغور وطبريا وصور وعكا وما بين ذلك .

ثم قال : والاردن يأخذ من بحيرة طبرية ويمر نحو الجنوب فى وسط الغور فيسقى ضياع الغور وأكثر مستغلهم السكر ومنها يحمل إلى سائر بلاد الشرق ، وعليه قرى كثيرة منها بيسان [1] وقراوة وأريحا والعوجاء وغير ذلك ، وعلى هذا النهر قرب طبرية قنطرة عظيمة ذات طاقات كثيرة تزيد على العشرين ويجتمع هذا النهر ونهر اليرموك فيصيران نهراً واحداً فيسقى ضياع الغور وضياع البثنية [2] حتى يصب فى البحيرة المنتنة « البحر الميت » فى طرف الغور الغربى » .

عدد كور الاردن كما ذكرها ياقوت فى معجمه :

ثم قال ياقوت فى معجمه . ج ١ ص ١٧٦ — ١٧٧ : وللأردن عدة كور منها كورة طبرية وكورة بيسان وكورة بيت راس وكورة جـــدر وكورة صفورية وكورة عكا وغير ذلك .

وقال البلاذرى فى فتوح البلدان ص ١٢٣ وياقوت فى معجمه فى ص ١٨٧ : « وفتح شرحبيل جميع مدن الاردن وحصونها ، ففتح بيسان وسوسية وأفيق وجرش وبيت راس وقدس والجولان وغلب على سواد الاردن وجميع أرضها ، ومما ذكره ياقوت والبلاذرى يتضح أن رقعة إمارة الاردن فى زمن الفتح الإسلامى كانت تشتمل على بلاد بعضها واقع فى أراضى سورية الآن مثل الجولان وبعضها فى أراضى لبنان مثل صور وبعضها من أراضى فلسطين مثل عكا وبيسان وصفورية ، وفى روايتيهما أن شرحبيل رضى الله عنه فتح مدينة جرش من الاردن ، وجرش واقعة فى شرق الاردن وهى مشهورة بآثارها القديمة .

---

(١) بيسان مدينة تاريخية فى شمال فلسطين ، وإليها ينسب القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى كبير وزراء صلاح الدين الايوبى وبالقرب من بيسان كانت معركة فحل بكسر الفاء وسكون الحاء فى سنة ١٣ هجرية التى انتصر فيها جيش المسلمين على جيش الروم فأصيب منهم نحو ثمانين ألفا لم يفلت منهم إلا الشريد .

(٢) قال ياقوت ج ٢ ص ٦ : البثنية هو اسم ناحية من نواحى دمشق وقيل قرية بين دمشق واذرعات

سواحل الأردن ومصانع المراكب الحربية فى عكا وصور :

قال البلاذرى فى فتوح البلدان ص١٢٣ « نقل معاوية قوما من فرس بعلبك وحمص وإنطاكية إلى سواحل الأردن صور وعكا وغيرها سنة اثنين وأربعين » : ثم قال البلاذرى فى ص ١٢٤ ولما كانت سنة تسع وأربعين خرجت الروم إلى السواحل وكانت الصناعة « صناعة المراكب الحربية » بمصر فقط فأمر معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه بجمع الصناع والنجارين وبثهم فى السواحل وكانت الصناعة فى الأردن بعكا ، وقال الواقدى لم تزل المراكب بعكا حتى ولى بنو مروان فنقلوها إلى صور فهى بصور إلى اليوم وأمر أمير المؤمنين المتوكل على الله فى سنة ٢٤٧ بترتيب المراكب فى عكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة وقال ياقوت ج ص ١٨٧ ولم تزل الصناعة فى الأردن بعكا إلى أن نقلها هشام بن عبد الملك إلى صور وبقيت على ذلك إلى صدر مديد من أيام بنى العباس حتى اختلف باختلاف المتغلبين على الثغور الشامية . وقال المتنبى يمدح بدر بن عمار وكان قد ولى على ثغور الأردن والساحل من قبل أبى بكر بن رائق :

تهنى بصور أم نهنئها بكا وقل الذى صور وأنت له لكا

أمير الأردن وفلسطين فى عهد الدولة الأموية .

وقال ياقوت فى ج ١ ص ١٨٨ وقد نسبت العرب إلى الأردن حسان بن مالك الكلبى لأنه كان واليا على الأردن وفلسطين ، وبه مهد لمروان بن الحكم أمره وهزم الزبيرية (أتباع عبد الله بن الزبير) وقتل الضحاك بن قيس الفهرى فى يوم مرج راهط وكانت ابنته ميسون بنت حسان أم يزيد بن معاوية وإياه عنى عدى بن الرقاع بقوله .

لولا الاله وأهل الأردن اقتسمت نار الجماعة يوم المرج نيرانها

واياه عنى كثير بقوله :

إذا قيل خيل الله يوما ألا اركبي رضيت بكف الأردنى انسحالها

ونسب الى الأردن جماعة من العلماء وافدة ذكر ياقوت أسماء طائفة منهم .

وقد كان للأردن موقف عظيم فى الحروب الصليبية سنفرد له مقالا مستقلا .

محمد صبرى عابدين

من علماء الازهر

ديوان مجد الإسلام

من بدائع الشاعر الإسلامي الكبير أحمد محرم رحمه الله

بتعليق الأستاذ إبراهيم عبد اللطيف نعيم

شهداء بدر

استشهد من المسلمين في هذه الوقعة المباركة أربعة عشر مجاهدا ، ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار . فالأولون هم : عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، وعمير بن أبي وقاص ، وعاقل بن بكير الليثي ، وصفوان بن بيضاء الفهري وذو الشمالين عمير ، وقال الحارث ، وقيل عمرو ، بن عبد عمرو بن نضلة الخزاعي . وأما الأنصار فهم : عوف بن عفراء ، وشقيقه معوذ بن عفراء ، وحارثة بن سراقه ، ويزيد بن قيس بن مالك ، ورافع بن المعلى ، وعمير بن الحمام بن الجموح ، وسعد بن خيثمة ، ومبشر بن عبد المنذر ، رضي الله عنهم أجمعين :

طف بالمصارع واستمع نجواها ... والثم بأفياء[1] الجنان ثراها

ضاع الشذى القدسي في جنباتها ... فانشق وصف للمؤمنين شذاها

حلل[2] يروع جلالها ومنازل ... من نور رب العالمين سناها

ضمت حماة الحق ، ما عرف امرؤ ... غزاً لهم من دونه أوجاها

الطالبين به على أعدائه ... موتاً . إذا نشروا الجنود طواها

الخائضين من الخطوب غمارها ... المصطلين من الحروب لظاها

الباذلين لدى الفداء نفوسهم ... يبغون عند إلههم محياها

ما آثروا في الأرض إلا دينه ... ديناً ، ولا عبدوا سواه إلها

---

(١) الأفياء الظلال (٢) حلل :

سلكوا السبيل مسددين تضيئه … آى (المفضل [1]) يبتغون هداها
قوم هم اتخذوا الشهادة بغية … لا يبتغون لدى الجهاد سواها
هم فى حمى الايمان أول صخرة … فسل الصخور، أما عرفن قواها؟
حملت جبال الحق فى دنيا الهدى … بيضا شواهقَ، ما تُنال ذراها
تؤتى الممالك والشعوب حياتها … وتقيم من أمجادها وعلاها
ذهبت ترفرف فى مسابح عزها … ومضت يفوت مدى النسور مداها
تجرى الرياح الهوج [2] طوع معنائها … وتخافها، فتحيد عن مجراها
طاف الغمام، مهللا بظلالها … فسقته من بركاتها وسقاها

* * *

(شهداء بدر) أنتم المثل الذى … بلغ المدى بعد المدى فتناها
علمتم الناس الكفاح، فأقبلوا … ملء الحوادث، يدفعون أذاها
أما الفداء، فقد قضيتم حقه … وجعلتموه شريعة نرضاها
من رام تفسير الحياة لقومه … فدم الشهيد يبين عن معناها
لولا الدماء تراق لم نر أمة … بلغت من المجد العريض مناها
أدنى الرجال من الممالك من إذا … عرضت منايا الخالدين أتاها
وأجل من رفع الممالك مظهرا … بإن المهج السماح بناها
كم أمة لم توق عادية الردى … لولا الذى اقتحم الردى فوقاها
تسمو الشعوب بكل حر ماجد … وجبت عليه حقوقها فقضاها
ما أكرم الابطال يوم تفيأوا … ظلال المنايا، يبتغون جناها
راحوا من الدم فى قطارف [3] أشرقت … حمر الجراح بها، فكن حلاها
لو أنهم نشروا رأيت كلومهم … تدمى، كأنك فى القتال تراها [4]
ليسوا وإن وردوا المنية للألى … غمر البلى ورادهم أشباها

---

(١) القرآن الكريم . (٢) الشديدة التى لا تستوى فى هبوبها جمع هوجاء (٣) جمع مطرف وهو الرداء المعلم (٤) جاء فى الاثر الشريف . أنا شهيد على هؤلاء الشهداء . وما من جريح يجرح فى الله إلا بعثه الله يوم القيامة يدمى جرحه . اللون لون الدم ، والريح ريح المسك وأصيب عبد الله بن عمرو والد جابر رضى الله عنهما فى غزوة أحد بجرح فى رجله فمات ويده على جرحه . فأميطت يده عن وجهه فانبعث الدم ، ثم ردت إلى مكانها فسكن

هم عند ربك يرزقون (١) لحيهم وصف الحياة لأنفس تهواها
الله باركها (ببدر) وقمة كل الفتوح الغر من جدواها
منعت (ذمار الحق) حين أتاها وحمت (لواء الله) حين رعاها
بخل الزمان ، فكنت من شعرائها لو شاء ربي كنت من قتلاها (٢)
كم دولة للشرك زلزل عرشها بدماء (بدر) واستبيح حماها
في دولة للمسلمين يشوقهم أيامها ، وتهزهم ذكراها
يا ريح الأمم الضعاف : انتفض دنيا الشعوب ، وما انقضت بلواها ؟
أمم هواك ما لمست جراحها إلا بكت ، وبكيت من جراها
لم أدر إذ ذهب الزمان بريحها ماذا من القدر المتاح دهاها ؟
إن الذي خلق السهام لمثلها جمع المصائب كلها فرماها



الجهاد بالنفس والمال

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - « لا يجتمع غبار في سبيل ودخان جهنم في منخرى رجل مسلم ، وإيمان في قلب رجل مسلم » .

= ومن الروايات للمأثور في هذا الباب أنه حين أراد معاوية رضي الله عنه اتخاذ مجرى للماء في خلافته تقع مدافن شهداء أحد في طريقه أمر الناس بنقل موتاهم ، فأصابت المسحاة (المجرفة ونحوها تكون من الحديد) قدم حمزة رضي الله عنه فانبعث منها الدم .

(١) (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) .

(٢) المجلة - وإذا بخل الزمان عليك وعلينا بهذه الأمنية العليا أيها الشاعر الاسلامي ، فإن الله هو وجل أكرم الأكرمين ، وهو يثيب بالنيات ، وكما أكرمك بأن جعل شعرك من سلاح الاسلام ، فسيكرمك على نيتك بواسع فضله وكرمه .

المرأة في ظلال الإسلام

أعلت الشريعة الإسلامية من قدر المرأة ما لم تعله شريعة ولا قانون وضعى ورفعت مكانها وأحلتها المحل اللائق بها وساوتها بالرجل إلا فيما تأباه طبيعتها وتقصر عنه فطرتها ، فتعبدها بالتكاليف وشرفها بالخطاب كما تعبد الرجل وشرفه ، ووعدها المثوبة والحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى . « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وقال ﷺ . « إنما النساء شقائق الرجال » وندبها إلى طلب العلم ولم يقصرها على لون منه دون لون فقال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » وكثيراً ما جلست إليه متعلمة وكان يتعهدها بالحكمة والموعظة الحسنة وطلبت إليه أن يجعل لها يوما يعلمها فيه فأجابها إلى ذلك وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال النساء للنبى غلبنا عليك الرجال ، فاجعل لنا يوما من نفسك . ووعدهم يوما لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن وعن عائشة رضى الله عنها « نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين » وفرض لها الإسلام نصيباً فى الميراث ، وأباح لها أن تملك ما شاءت من المال وتستثمره بالطرق المشروعة ، وجعل لها أن تدافع عن الأمة فترافق الجيش مداوية مواسية مطعمة ساقية . وعن أم عطية رضى الله عنها : « غزوت مع رسول الله سبع غزوات ، وكنت أخلفهم على الرجال فى رحالهم وأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى وأقوم على المرضى » كما جعل لها أن تؤمن المستأمن وتجير الخائف . وقد أجارت أم هانىء رضى الله عنها أحد أحمائها فقال رسول الله : « أجرنا من أجرت » . هذا إلى حقوق كثيرة منحها إياها الإسلام ، ولما تزل محرومة من بعضها فى هذا العصر وفى أرقى الأمم ، بينما كانت تنكر عليها بعض الأمم السابقة إنسانيتها فضلا عن حريتها وحقوقها . وكانت تضعها بعض الأمم موضع الماشية فتورث من زوجها مع المتاع والبهائم .

وكان بعض العرب يستخزى لولادتها . وفى القرآن الكريم : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » ومن أهم ما عنى به الاسلام من أمور المرأة سلامة عرضها وحسن سمعتها تكريما لها وتقديرا لخطر ذلك فى بناء الأسرة وكيان الأمة وإذا

استقام شأن المرأة استقام شأن الأمة ، والمرأة منشئة الأجيال وصانعة الرجال ، وبتماسكها في خلقها وحزمها في تربية أبنائها تتماسك الأمة ويستمكن بنيانها ، وهي الرائد إما إلى حياة كريمة وإما إلى حياة عليلة سقيمة . وما فسد العالم واضطربت أحواله وتعاورته المحن والنكبات الخلقية والاجتماعية إلا بفساد المرأة وإلقاء حبلها على غاربها واستجابة الرجل لرغباتها وآرائها فصار طوع بنانها تصرفه كما شاء له طيشها وعاطفتها ، وصار ذلك الوضع المقلوب بدعة العصر وآية تقدمه ، وسميت الأوضاع المنكوسة مدنية وتقاليد ينبغي مراعاتها ، وصار من أمارة ذوق الرجل إذا التقى بامرأة في محفل أو ناد أن يركع لها ويقبل يدها ، وإذا دخلا منزلا أو ركبا سيارة أو قطاراً كان من آداب السلوك أن تتقدمه وعليه أن يبدأ بأشعال سيجارتها ، ورأيها الأعلى في اختيار ما تأكل الأسرة أو تلبس ، إلى أمثال هذه السخافات التي وفدت إلينا كما تفد الأمراض المعدية والأوبئة الفتاكة .

إن الشعوب التي تشكو الانحلال الخلقي ترى أن من أهم الأسباب في ذلك فساد المرأة وخروجها عن الجادة في سلوكها ، وقد حرمت كنيسة روما دخول المرأة الكنيسة في ثياب فاضحة لا تلائم جلال المكان ووقار العبادة .

وقد سلك الإسلام في سبيل صيانة المرأة وحسن سمعتها طريقاً يساوق الفطرة ، ويشهد بصحته الواقع والتجربة ، فحرم أن تهيأ للرجل والمرأة فرصة الاجتماع والخلوة ، فإن الخلوة أساس الشر وجرثومة الإثم ، ولا شك أن بين طبيعتي الرجل والمرأة تعاطفا وانجذابا ، فإذا خلا كل منهما بالآخر أسفرت الحيوانية وتحركت البهيمية وتخاذلت الارادة أمام سلطان الغريزة القاهر ، ونشط الشيطان في مهمة الإغراء والتزين ، وما اختلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما ، وهناك تحل الفتنة وتتمثل الجريمة .

وتلك قضية المنطق والواقع لا تقبل مناقشة ولا جدالا ، وإنما سفسطة ومكابرة أن يزعم أنصار الاختلاط أن التعليم أو التهذيب يكفكف من سلطان الغريزة ويكبح جماحها ويجعل الاجتماع مأمون العاقبة ، لأن رغبة كل من الجنسين في الآخر طبيعة وفطرة ، وما بالطبع لا يتخلف كما يقول الفلاسفة ، ولعلنا لا نعدو الواقع إذا قلنا : إن التعليم وما إليه يضاعف من خطر الاختلاط ويجعل كلا منهما أقدر على الناس الحيل وابتكار الوسائل للوصول إلى الأغراض ، والواقع والتجربة يغنيان عن الاسهاب في الاستدلال . لذلك كان

أنجع الطرق فى وقاية المرأة والاحتفاظ بسمعتها وسمعة المجتمع أن يحال بينهما، وهذا ما أمر به الإسلام، فقد حرم أن يخلو غير المحرم بالمرأة ولو كان ذا قرابة قريبة.

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إياكم والدخول على المغيبات » فقال رجل من الأنصار: يارسول الله: أفرأيت الحمو؟ قال « الحمو الموت » وقال العلامة النووى: المراد من الحمو فى الحديث أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه لأنهم محارم للزوجة يجوز لهم الخلوة بها ولا يوصفون بالموت قال: وإنما المراد الأخ وابن الأخ والعم وابن العم وابن الأخت ونحوهم ممن يحل لها تزوجه لو لم تكن متزوجة، وجرت العادة بالتساهل فيه فيخلو الأخ بامرأة أخيه فشبهه بالموت ».

وبالغ الإسلام فى الاحتياط فحرم أن يخلو الرجل بامرأة أجنبية فى سفر أو حضر ولو كان سفر الطاعة يغلب على الظن فيها حسن النية وسلامة الطوية ومجافاة الريب كالسفر الى الحج ونحوه، وأوجب على المحرم أنه يرافقها فى سفرها أيا كان السفر، وجعل هذه المرافقه مقدمة على كل شأن من شئون الدنيا والدين، فلو كان الرجل على أهبة الجهاد فى سبيل الله وسجل اسمه فى الغزاة وكتب فى قائمة الجند كان عليه أن يترك ذلك الواجب الخطير لمرافقة زوجه أو قريبته صيانة لها واحتفاظا بسمعتها، وفى الحديث: لا تسافر امرأة إلا ومعها محرم فقال رجل: يارسول الله! اكتتبت فى غزوة كذا وكذا وخرجت امرأتى حاجة فقال: اذهب لحج مع امرأتك.

وقد أهمل المسلمون هذا الهدى الإسلامى، واسترخت الرقابة على النساء وأفلت عن أيديهم زمام العفة ووقعت فيهم السنة السوء وساءت الظنون بالفتيات وتهددتهن العنوسة والبوار. وإذ من العجب أنه يباح الاختلاط بين شابات الأسر وشبابهم لمجرد الجوار أو التعارف أو لمجرد التلويح بالخطبة، فاذا قدم الخطيب الشبكة كان ذلك جواز المرافقة والمخالطة وصك الامتزاج والانسجام، يتزاور الخطيبان بمقتضاه ويرتادان الملاهى والخلوات فى اطمئنان من أعين الرقباء وأولياء الأمور.

فأين موقف المسلمين من تعاليم الدين؟ إن الدين يخشى على المرأة من أقاربها الأقربين ويحتاط لرفع الخطر لتحريم الخلوة بها، والمسلمون على ما ذكرنا من الإهمال والتفريط.

ولم يكتف الإسلام لتحريم الخلوة بالمرأة بل احتاط كذلك بسد ذرائع الفساد بالاختلاط وقطع السبل إليه، فحرم على المرأة أن تبدى زينتها إلا لمن يحل لها أن تبديها له، وأمر المؤمنين والمؤمنات أن يغضوا أبصارهم عما لا يحل لأن الأنظار حبائل الشيطان.

والمرء ما دام ذا عين يقلبها في أعين الغير موقوف على الخطر

قال تعالى : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظوا فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الأربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين زينتهن وتوبو إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

ومن أعظم الجرائم في نظر الإسلام الزنا ، وعقوبته الجلد لغير المحض والرجم أي القتل بالحجارة للمحصن وشدة العقاب على قدر عظم الجريمة ، كما أن من أعظم الجرائم القذف بالزنا ، وعقوبته الجلد ثمانين جلدة . قال الله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فأن الله غفور رحيم » .

شرع الإسلام هذه الأحكام رعاية لمصلحة المرأة واحتفاظا بشرفها وكرامتها وحرصا على مستقبلها . ورأس مال المرأة الشرف والكرامة والسمعة الطيبة ، والمرأة كالدرة في صدفها كلما زادت تحجبا ازدادت إشراقا ولمعانا ، والمبالغة في العرض تغري بالطلب إلا المرأة فإن كثرة العرض ترخصها وتبخس قيمتها وتورث الرغبة عنها وقد جنى السفور والتبرج على المرأة وأورثها سوء ظن الشبان بها والإعراض عنها ، وخلق لنا مشكلة اجتماعية استعصت على العلاج وهي مشكلة إعراض الشبان عن الزواج التي تحس بوطأتها الأسر الكريمة إشفاقا على مستقبل فتياتها .

وأن من أكبر الجرائم في تاريخ المرأة المصرية جريمة السفور التي زعمته حقا دأبت على المطالبة به ووجدت من الرجال من يظاهرها عليه حتى تمت الجريمة وحصلت عليه . ولقد جنت المرأة وجنت الأمة المر من ثمره ، وحسبنا من ثماره هذه الفوضى الخلقية التي نعاني آثارها ، وإنا لنرجو أن يكون لهذه التجربة آثارها في ردع المرأة عن الاسترسال في المطالبة بحقوق أخرى تحاول في تهوّر كسبها ولعمري لهي الخسارة التي سيكشف الزمن عنها إن قدر لها أن تبلغها .

إن الشعوب التى سبقتنا إلى منح المرأة هـذه الحقوق المزعومة التى تطالب بمثلها المرأة المصرية بدأت تعترف بخطئها فيما عملت وتحس بخطر ممارسة المرأة لهـذه الحقوق وتصايح عقلاؤها بوجوب النظر فى حالة المرأة ووجوب أن تعود إلى وظيفتها الطبيعية كأم وربة أسرة مكانها المنزل ووظيفتها القيام عليـه وعلى أطفالها بالرعاية والتهذيب ، وليس مكانها المعمل أو النادى أو البرلمان ، فإن ذلك خروج على الطبيعة وانصـداع فى كيان الاسرة والامة ينبغى أن يعالج حتى لا يتفاقم الشر ويستفحل الداء ، ولن تقنع المرأة المصرية بمـا يقوله علماء الإسـلام فى هذا الموضوع لأنها تتهمهم بالتحامل والجمود ، وقـد تكون أقرب إلى الاقتناع بمـا يقوله مفـكرو الافرنج فنعرض هنا بعضاً ممـا قالوه عن تجربة بعد ممارسة المرأة لهذه الحقوق .

تحدث أحد هؤلاء المفكرين عن طبيعة المرأة فقال : « أن أظهر علامات الجيل المنحل المضطرب تدخل المرأة فى الحيـاة العامة من وراء الستار فإن اهتمام المرأة بالشئون العامة كان دائما أكذوبة ووسيلة للاتصال بالرجال وحيلة انتقام من بعضهم أو بعض النساء المتزاحمات على مصالح شخصية ، فالمرأة بطبيعتها تنفر من الحياة العامة ولا تطمئن لها ولا تلقى بنفسها فى أحضانها إلا للشهوات ، سواء أكان فى أمور الدين أو فى أمور الدنيا ، وكل ماظهرت به فى هذا السبيل كان بدعة سيئة وتخزاة ومدرجة للفجور » .

وقال آخر فى الكلام عن نتيجة دخول المرأة فى البرلمان : « ولـكن هذه التجربة بل المحنة لم تسفر عن نتيجة سارة ، وكل ما فى أمرهـا أن بضع نساء ذوات مال ومنصب جلسن بين الرجال واتخـذ هيئة خاصة بالقبعات وألوان الثياب أو اعوجاج الخصور أو خفض الجفون ، ولم نسمع لإحداهن كلمة جامعـــة أو موعظة حسنة أو رأياً خصيبا يخرج الامة من الظلمات إلى النور » .

ذلك أخف ما قاله هؤلاء المصلحون فى هذا الصدد ونمسك عن باقيه إشفاقا على المرأة وعملا بتعاليم الإسلام فى صيانتها وحسن سمعتها ، وعسى أن تستفيق المرأة ويستفيق أنصارها وتستبين لهم مواطن الصواب والمصلحة للمرأة والامة ويقلعوا عما تورطوا فيه مشكورين .

أبو الوفا المراغى



بعد الحديث عن جيش الإسلام يأتى الحديث عن قائده!

يقول القائد العسكرى المشهور الفيلد مارشال ويفل فى كتابه القادة والقيادة : « يجب أن يكون القائد عفيفاً وقوراً قنوعا ، يتحمل الشاق من الأعمال ، متوسط العمر ، فصيحاً ، رب عائلة ، وينتمى إلى بيت ذى شهرة ، ومؤدبا ودوداً سهل الاقتراب منه ، زين الطبع . . . »

هذا ما سجله ذلك القائد الكبير الذى حنكته تجارب الحروب ، فى كتابه الذى أخرجه فى ختام حياته العسكرية مسجلا فيه خلاصة تجاربه وأفكاره . فإذا نحن نظرنا إلى ما قال ، حسبناه كأنما درس صفات رسول الله قائد جيش الإسلام ، فوقف من دراسته على هذه الفضائل الذاتية الحميدة فأوردها فى كلامه وهو على ثقة تامة أنها إذا اجتمعت فى قائد كان قائداً مثالياً . . .

فلقد اجتمعت هذه الصفات الحميدة جميعاً فى محمد قائد جيش الإسلام ، بل لقد اجتمعت فيه صفات حميدة غيرها لا حصر لها . . .

شرف النسب :

لم يزل النبى صلى الله عليه وسلم ينتقل من خير الآباء حتى انتهى إلى كبير مكة وقريش فى الجاهلية عبد المطلب بن هاشم ، ثم إلى أبيه عبد الله ، فهو ذو نسب زكى ، وإلى ذلك يشير قوله : « إن الله اصطفى من ولد ابراهيم إسماعيل ، واصطفى من اسماعيل كنانة ، واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار » .

وكذلك يقول عمه أبو طالب :

إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أنساب عبد منافها ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فإن محمدا هو المصطفى من سرها وكريمها

والحق معه ، فلم يكن فى آبائه مغمور ، بل كلهم سادة قادة . . .

كريم النشأة :

كان الله تعالى يريد كرامة رسوله ، لجعله تحت حراسته ورعايته ، وحفظه من أدناس الجاهلية ، حتى كان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسباً وأرجحهم حلما ، وأصدقهم قولا ، وأبعدهم عن الفحش ، حتى عرف بين أهل مكة فى حداثة سنه بالأمين ، لأنه استوفى من مكارم الأخلاق كل مكرمة لم ينلها إنسان قبله ولا بعده ، كل ذلك لأن الله تعالى تولاه حتى خاطبه بقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) وحتى حدّث هو عن نفسه فقال : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

كمال العقل :

لقد كان الرسول ﷺ من كمال العقل والعلم فى الغاية القصوى التى لم يبلغها بشر سواه ، وعلى الرغم من أنه لم تسبق له ممارسة ، ولا مطالعة كتب يتعلم منها أخبار الماضين ، فقد تبين من التاريخ أنه أعقل العالمين . أنظر إلى حسن تدبيره وسياسته للعرب الذين كانوا أهل عزة وإباء وانطلاق ، مع الطبع المتنافر المتباعد ، وكيف احتمل جفاءهم وصبر على أذاهم بكل سياسة وحكمة وبعد نظر ، حتى انقادوا إليه ، والتفوا حوله ، وقاتلوا فى سبيله أهليهم وآباءهم وأبناءهم ، واختاروه على أنفسهم ، وهاجروا معه ، وتركوا أوطانهم وأحباءهم

احترام النفس والتواضع .

كان رسول الله يعرف قدر نفسه ، ويحترمها ، فكان بريئا من الرياء والتصنع ، مستقل الرأى ، لا يدعى ما ليس فيه ، ولم يكن متكبرا ولا ذليلا ، بل لقد كان فى ثوبه المرقع الذى كان يرقعه بنفسه يخاطب بقولة الحق أكاسرة الفرس وقياصرة الروم . وكان لا يؤخر عمل اليوم لغده ، وما عبث قط ، ولا ظهر فى قوله وفعله روح اللهو ، وكان يكره أن يحوط نفسه بالمظاهر الكاذبة أو مظاهر السلطان والملك فكان يقول لأصحابه « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم . إنما أنا عبد الله ، فقولوا عبد الله ورسوله » . وخرج على جماعة من أصحابه متوكئاً على عصى فقاموا له فقال : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا » .

الصبر وقوة الاحتمال والثبات على المبدأ .

أما الصبر وقوة الاحتمال ، فقد كان النبى فيهما المثل الأعلى ، لقد أوذى فى الله فى نفسه وأصحابه فلم يلحقه جزع ، بل كان شجاعا حكيما ، وصبورا كريما ، فكم ناله من أذى المستهزئين

وكيد المنافقين ، فما لج بالشكوى ، بل كان دأبه الصبر مع التفويض لله تعالى حتى جعل له من أمره فرجا .

وكان يقابل الأذى بالصبر الجميل ، ويعامل أعداءه بالمداراة ويتألفهم بحسن المصانعة ، فكان يقابل الحمق والخرق بالحلم والرفق ، والصلف واللجاج بالوداعة والأناة . . وحسبنا أن نلقى طرفا على تاريخ الدعوة الإسلامية لنعرف كيف كان النبي مثالا فى الثبات على المبدأ وهى فضيلة كبيرة فى القائد .

أنظر كيف لبث ثلاث سنين يدعوا إلى الإسلام أقواما جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأصنام ، وحجتهم أنهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ، وأخيرا لم يسلم إلا ثلاثة عشر رجلا فأى نجاح هذا ؟ لاشك أنه غير مشجع ، ولكنه ظل ثابتا على مبدئه ، مستمرا فى دعوته بكل عزم وإرادة .

ثم أنظر إليه وهو يقول لعمه وهو يحاول إقناعه بالرجوع عن قريش وترك الدعوة « والله يا عم : لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ، ما تركته ! » .

الوفاء :

والوفاء كذلك فضيلة إذا تحلى بها القائد كان قائداً عظيما ، إذ بالوفاء يأسر القائد قلوب رجاله ، ويرفع روحهم المعنوية إلى قمتها ، ولقد كان النبي ﷺ شديد الوفاء بالعهد ، يروى أن عبد الله بن أبي الحمساء طلب إلى النبي أن ينتظره فى مكان ما حتى يأتيه بشىء ثم نسى حتى ذكر ذلك بعد ثلاثة أيام فجاء إلى الرسول فإذا هو فى مكانه فقال « يا فتى لقد شققت على ، أنا هاهنا منذ ثلاث انتظرك » .

وبعد وفاة خديجة رضى الله عنها كان دائم التحدث عنها والترحم عليها والعطف على أحبائها ، يقول أنس رضى الله عنه : كان رسول الله إذا أتى بهدية قال اذهبوا بها إلى بيت فلانة إنها كانت صديقة لخديجة ، إنها كانت تحب خديجة .

الشجاعة والنجدة :

كان الرسول فى ذلك المثل الذى لا يجارى ، والقدرة المنقطعة النظير ، قال ابن عمر : ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ . وأى شجاعة أعظم

من أنه قام لأمر الله وحده ، ومضى قدما يدعو أقواما ليس عندهم من مكارم الأخلاق إلا ما كان مرتبطاً بالعزة والأنفة مما كان يؤدى كثيراً إلا شن الغارات والحروب وإهراق الدماء .

ولقد فزع أهل المدينة ليلة إذ سمعوا صوتا قويا غير عادى ، فانطلق بعض الناس نحو الصوت فتلقاهم رسول الله راجعاً قد سبقهم إلى الصوت وعرف الخبر ، وكان راكبا فرساً عاريا والسيف فى عنقه وهو يقول « لن تراعوا » .

وهكذا كان أسبق القوم إلى النجدة .

حسن الصورة وكمال الخلقة :

لا شك أن لحسن صورة القائد أثراً قويا فى الجنود ، يجعلهم ملتفين حوله ، مخلصين له ، متسابقين إلى تنفيذ أوامره ، متفانين فى أداء واجباتهم .

ولقد كان الرسول مكتملا لجميع نواحى جمال الصورة وكمال الخلقة ، وقد ورد فى هذا الكثير من المأثورات .

وبعد فهذا قليل من كثير من الصفات الحميدة التى تحلى بها الرسول الكريم ، فكان بها قائداً طبيعياً ، وسوف نرى بعد ذلك إن شاء الله عن دراستنا لمعارك الإسلام كيف كان الرسول قائداً حربياً من طراز فريد .

محمد جمال الدين محفوظ
يوزباشى أركان حرب

****

الجدل والعمل

قال الإمام الأوزاعى : إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدل ، ومنعهم العمل .

النقد الأدبي وتاريخه

حدثناك فى مقال ماض أن النقد صار فناً تؤلف فيه الكتب ، بعد أن كان شذرات منثورة وخطرات عابرة . وسأحدثك فى هذا المقال عن كتاب من خيرها فى رأيى وأحبها نفسى وأقربها إلى الروح العلمية وأجمعها لآراء النقاد وأحفلها بالرائع الممتع ، ذلك كتاب (الموازنة بين أبى تمام والبحترى) لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى . كان ذلك الكتاب ينبوعا لما ألف بعده ومصدراً من مصادر البيان العربى ومادة للذين كتبوا فى علوم البلاغة وزخيرة نفيسة للذين يدرسون النقد وتاريخه .

بدأ الآمدى يعرض علينا آراء الأدباء فى الشاعرين العظيمين ، فذكر أن علماء اللغة والأدب فرق ثلاث : فريق يفضل البحترى وهم الكتاب الأعراب والشعراء المطبوعون الذين يؤثرون سهولة العبارة وصفاء الديباجة ووضوح المعنى ، وفريق يقدم أبا تمام وهم أهل المعانى والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميلون إلى الدقة والأخذ بطرف من الفلسفة . وآخرون يسوون بينهما . وينكر الآمدى على القائلين بالتسوية ويذكر أنه لا يفصح بتفضيل أحدهما على الآخر إنما يعرض عليك مساوئهما ومحاسنهما ويدعك وحكمك ، وذلك عنده أمثل الطرق وأشبهها للإدراك السليم والكشف عن وجه الحق . وكان الظن بهذا العالم ألا يشفق من الفصل فإن شخصية الكاتب لا تظهر بهذا العرض الرخيص .

ثم أخذ يقص عليك حجج الخصمين ويبسط آراءهما ، وخلاصتها أن أبا تمام أستاذ البحترى بشهادته ، وصاحب مذهب فى البديع عرف به وأخذ عنه ، وله الروائع التى تنقطع دونها الآمال والمعانى الفريدة التى سحرت البحترى فسرقها وقاس ذرعه بها ، إلى علم باللغة وأسرارها لم يعهد لأمثاله من الشعراء .

وينكر أصحاب البحترى التلمذة ولا يدفعون الصحبة ، ويقولون إن البديع موجود فى القديم حفل به مسلم بن الوليد من غير أن يجور على المعنى أو يتحيف سلامة النسج ، ثم جاء أبو تمام فأفرط فيه فاستكره الألفاظ وأضل المعانى وترك السامعين والقارئين ، يظلمون على عمياء . ولو أنه قبل من هذا الأمر عفوه وسار فيه على سجيته لبلغ فيه جسيما وبرز على كثير من الشعراء . ثم أخذ فى الموازنة فرسم لنفسه طريقا عبر عنها بقوله « وأنا أبتدىء بذكر مساوىء الشاعرين لأختم ببيان محاسنهما ، وأذكر طرفا من سرقات

أبي تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره، ومساويء البحتري في أخذ ما أخذه عنه وغير ذلك مما غلط فيه، ثم أوازن من شعريهما بين قصيدتين إذا اتفقتا في الوزن والقافية وإعراب القافية، ثم بين معنى ومعنى فإن محاسنهما تظهر في تضاعيف ذلك، ثم أذكر ما انفرد به كل واحد منهما من معنى سلكه ولم يسلكه صاحبه، وأفرد بابا لما وقع في شعريهما من التشبيه وبابا للأمثال أختم به هذا الكتاب وأجعله مرتبا على حروف المعجم ليقرب تناوله إن شاء الله».

سار الآمدي على هذا النهج وأطنب في سرقات أبي تمام مع اعترافه بأن الطاعنين عليه لا يجهلون السرقات من كبير عيوبه لأنه باب قلما يخلو منه أحد، واحتفل في بيان أخطائه ورد تأويل الصحيحين لها، وذكر كثيراً من استعاراته القبيحة وطباقه وجناسه الخارجين عن حدود الاعتدال. ومس البحتري مساليا في باب السرقات وبرأه من عيوب الإفراط في البديع لأنه مولع بتهذيب ألفاظه سالك سبيل الأولين من الأخذ بنصيب منها حين تأتي عفواً لا تكد خاطراً ولا تجنى على معنى. ثم ختم الكتاب بذكر محاسنهما والموازنة بين معان اعتوراها وهي ترجع إلى بكاء الديار والوقوف على الأطلال ومساءلتها والدعاء لها. ولم نجد في النسخ التي بأيدينا ما وعد به من ذكر بابي التشبيه والأمثال، فجائز أن يكون الكتاب قد عدا عليه الزمن، أو تكون الأحداث قد عاقته عن الوفاء بوعده. وأياما كان فالقاريء لا يشعر بأن الرجل قد انتهى إلى غايته وأن الكتاب بلغ نهايته فاستراح إلى الخاتمة المقدرة له.

والآن بعد هذا العرض الوجيز لكتاب الموازنة أحب أن أدون لك مؤاخذاتي على الآمدي:

ظهر تحيز الآمدي للبحتري وتحامله على أبي تمام في غير موضع من كتابه، حتى كأنه موكل بالرد عليه لا حكم عادل يتجنب الهوى، فهو رقيق متأول إن مس البحتري بعيب، عنيف مجسم للظل مكبر للهنات إذا تناول أبا تمام. وجملة ما اعتد به على أبي تمام إغرابه في استعمال الغريب، وخروجه على أوضاع اللغة، وانحرافه عن قواعد النحو، وإسرافه في التماس البديع، وإفراطه في طلب الاستعارة، ومجافاته لطريقة الأوائل في صوغ الشعر حتى عسر فهمه على أئمة اللغة، وحتى قال بعضهم إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل. وقال آخر إنه يرمي بالدرة في بحر من خرء فمن يغوص عليها ليأخذها؟ وأما البحتري فهو محتذ حذو المتقدمين ما فارق عمود الشعر مع طبع سليم وقريحة مواتية ونظر صائب في أعقاب

معانيه وألفاظه ، حتى خرج شعره حسن الرصف جميل الوصف واضح المعنى ، يصل إلى قلبك قبل وصول لفظه إلى سمعك ، فلا عيب فيه إلا إذا حاكى أبا تمام فى بعض مذاهبه أو استعار منه بعض معانيه فإنه تزل به قدمه ويهوى به إلى الحضيض تقليده .

أما أنا فأرى أبا تمام أحد أربعة خدموا العربية خدمة عظمى ، ولولاهم لكان الشعر العربى جدبا كالصحراء التى نبت فيها ودرج عليها : لولا أبو نواس وأبو تمام وأبو الطيب المتنبى وأبو العلاء المعرى لكان شعراً ساذجا لا حظ فيه لفكر ولا أثر فيه لخيال . وبفضل هؤلاء الشعراء صار أدباً عظيما يسامى آداب الأمم الراقية التى أخذت حظا كبيرا من الحضارة وبلغت مبلغا جسيما من نضوج العقل وصفاء الذوق وسمو الوجدان ، وأخذ العلماء يتفرغون له ويتناولونه بالدرس والبحث ، ويؤلفون فيه الكتب فيكشفون للناس عن ثروة عقلية وجمال فنى جدير أن تعشقه نفوس محبة للكمال مؤثرة لحياة روحية نبيلة .

هؤلاء شعراء عباقرة مبدعون سمت بهم عبقريتهم أن يعيشوا فى ظلال العجز وإن شئت فقل فى ظلال التقليد ، فهما عندى عبارتان متساويتان فى المعنى ، والفرق بينهم وبين أمثال البحترى كالفرق بين المجتهد والمقلد هذا يحسن الاتباع وذاك يجيد الإبداع ، ومن هنا غلط فى فهم هؤلاء اللغويون الواقفون عند نصوص اللغة وبعض الأدباء الذين يرون المزية فى اتباع الأوائل لاعتقادهم أن الأول ما ترك للآخر شيئا وأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان وأن الخير كله فيما كان عليه الآباء ، فهم يريدون إلينا أن نشبه أعجاز النساء بكثبان الرمل والفلفل ببعر الآرام وأن نقف ونحن فى قصور شامخات على ربوع مية وأطلالها نبكيها ونستبكيها ونركب إلى حاجاتنا الجمال فى الصحراء وإن كنا فى عصر الذرة . يالله من هوان للبشر وللخليقة جمعاء فإن راعى الأدباء مقتضيات العصر وفتحوا أبوابا جديدة للفكر وخرجوا باللغة من الحصار المضروب عليها قالوا فارقتم عمود الشعر وجانبتم طرائق المتقدمين وأكثروا من هذا الذى يمر به العاقل فيزدريه . وأعود بك إلى تلك العيوب التى نسبوها إلى أبى تمام والتى هجنت شعره عندهم وهونت من أمره عليهم وحطته عن مرتبة أمثاله .

أما استعماله الغريب فهو رجل طالت ملازمته للشعر جاهلية وإسلامية وفيه كثير من هذه الألفاظ فكثر ترددها على لسانه وتكرارها فى [illegible] فلم تعد غريبة بل انتقلت إلى حد المألوف الذى يأنس المرء له ، وليس كل غريب يقبح استعماله بل هناك غريب لا تجد معدلا عنه وتجد المعنى يقتضيه والنظم يطلبه والكلمة المجاورة تحن إليه . اقرأ إن شئت قول الله تبارك وتعالى « تلك إذا قسمة ضيزى » ثم ضع بدلا منها كلمة « جائرة » التى ترادفها ثم تحسس

نفسك واستفت حسك أيجد لهذا البدل ما كان يجده من اللذة لتلك ، وأيحدث عنده من النشاط والطرب ما كانت الكلمة الأولى تحدثه ؟ أيشعر بهذا اللحن الموسيقى المنيف الذى يحرك القلوب القاسية وينبه الأذهان الغافلة ويدعوها الى التفكير فى غرابة هذه القسمة ، الى هذا التجاوب العجيب بينها وبين الفواصل الأخرى فى الآيات الكريمة .

إذاً فالغريب قد يكون أليق بالموضع من المستعمل المأنوس ، ومع أن فى الغريب إحياء لجانب من جوانب اللغة فقد تدعو إليه القافية أو الفاصلة أو غرابة الفكرة أو عدم وجود المتعارف أو غير ذلك مما يمر بالشاعر فيلتمسه اختياراً أو يلجأ إليه اضطراراً ، وليس معنى هذا أنى أسوغ الإكثار منه ، ولكننا نأخذ منه بقدر الضرورة وحين نجد أنفسنا مدفوعين إليه ، والمقام هو الحكم الذى يحسن بالأديب أن ينزل على حكمه فلا ضير على أبى تمام فى استعماله إذا سنحت له حالة من تلك الحالات التى فى إيثارها مراعاة لمقتضى الحال كما يقول البلاغيون ، وأما الخروج على أوضاع اللغة وقواعد النحو فالحق أن اللغويين محهورن مختلفون فيما بينهم : يظن الرجل منهم أن اللغة ما انتهى إليه علمه ولا شىء وراء هذا ولبعضهم تحكم يزرى به ويصفه بالقصور العقلى مثل قوله لم تقل العرب هذا ولا تعرف العرب إلا هذا . وما النحاة بأقل منهم فى هذا الباب ، وهؤلاء وهؤلاء لا يصلحون للحكم بين الشعراء ولا يحسنون التمييز بين جيد الشعر ورديئه .

يتحدث الجاحظ عن أبى عمر الشيبانى فيقول : رأيته يكتب أشعاراً ليدخلها فى أبواب التحفظ والتذاكر ، وربما خيل إلى أن أبناء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبداً أن يقولوا شعرا جيدا لمكان أعراقهم من أولئك الآباء ، ولولا أن أكون عيابا ثم للعلماء خاصة لصورت لك فى هذا ما سمعت من أبى عبيدة ومن هو أبعد فى وهمك من أبى عبيدة .

والخصومة من قديم قائمة بين اللغويين والنحاة ، وبين الأدباء والشعراء . والرواة يحدثوننا أن ابن إسحاق الحضرمى استدرك على الفرزدق حين قال :

على عمائمنا تلقى وأرحلنا ... على زواحف نزجيها محاسير

فقال رير بالكسر معرضاً له بالإقواء فى البيت فأصلح الفرزدق قائلا :

على زواحف تزجيها محاسير

ثم هجاه الفرزدق بقوله :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ... ولكن عبد الله مولى مواليا

فعاد ابن إسحاق فقال كان عليه أن يقول مولى موال .

ومآخذ اللغويين والنحويين دونت فيها كتب ، ومنهم من تطاول على تصحيح روايات القرآن فليس عجيباً ألا يسلم منهم أبو تمام .

وكان الشعراء يشعرون بتحذلق هؤلاء وتهافتهم فيبالغون فى السخرية منهم ويصنعون من الشعر ما يعييهم ، والأغانى يحدثنا أن الفرزدق كان يرسل البيت معقداً معاياة لعلماء النحو واستهزاء بهم ، وأحسب أن معقد أبى تمام من هذا الضرب الذى يقصد به العبث بالنحاة . وأما إفراطه فى الاستعارة فهذا من طبيعة الشاعر العبقرى لأنه يجد فى نفسه من المعانى مالا تحيط به حقائق اللغة فيعود بالمجاز ويتوسع فى القول ومؤرخو الأدب الانجليزى يذكرون أن الشاعر الخالد شكسبير كان يفعل ذلك يقولون إن أهم ما يمتاز به أسلوبه هو كثرة الاستعارات فتجد فى الجملة الواحدة استعارتين أو أكثر .

بقى ما ينعونه عليه من غموض المعانى ، وأنا أهجم عليك بغير ما تنتظر : إنى لست من أنصار هذا الوضوح الذى يطيلون الثناء على البحترى من أجله ، ويجعلونه المعيار الذى تقاس به أقدار الأدباء ، إن انكشاف المعانى انكشافا تاما يوجد فى كلام العامة وأشباههم وما وجد فى كلام قط إلا زهد فيه إن القصيدة التى لا أجمع لها نفسى وأنفى من أجلها الخواطر عن ذهنى من الأدب الرخيص الذى كتب عليه الفناء والذى يقرب مأتمه من عرسه ويغلب صوت نعيه على صوت المبشر به إن جمال الصورة الشعرية فى عمقها وفى سفر الفكر بينك وبينها وفى تقليب البصر فى أعطافها ، وما قيمة صورة شعرية لا تشحذ ذهناً ولا تربى ذوقاً ؟ إن النواء الحسناء يغرى بها وتمنعها يهيج نار الشوق إليها ، وبقدر دنوها منك يكون انصرافك عنها . وقد تفهم من الصورة الشعرية غير المعنى الذى أراده الشاعر ، وقد يفهم غيرك غير معناك ، فإن ذلك أدل على تأصلها فى باب البلاغة ، وأظهر لمواطن الفصاحة فيها . يقول أناتول فرانس : لكل صورة شعرية عدة معان ، فأى معنى وجدته كان عندك معناها الحقيقى . والشاعر الفذ هو الذى يعوذ أحيانا بالابهام ليورث الصورة ضربا من الحسن ، كما يلجأ الرسام إلى الظل فى تجميل الصورة ، ولكن على شريطة ألا تحجب محاسنها بل يكون هذا الظل أعرق لها على إظهار كمالها ، وإلى اللقاء مع الآمدى إن شاء الله .

عبد الغنى اسماعيل
أستاذ بكلية اللغة العربية

الأزهر وتاريخنا الدستوري

يعطى بعض المؤرخين صورة خاطئة لتاريخنا القومى، إذ يصورون الشعب فى صورة المستكين المستسلم الذى لا يعرف لنفسه حقاً، وقد أشار إلى هذا الخطأ حضرة الرئيس اللواء محمد نجيب فى خطابه التاريخى الخالد الذى ألقاه عند افتتاح أعمال لجنة الدستور [١] فقال: « لقد كان تاريخ هذا الماضى - ماضى أمتنا - ضحية من ضحايا أعداء تلك الأمة. فلقد أوهموا ناشئتنا وعلموا معلمينا أننا كنا كماً مضيعاً لا يأبه به الحاكمون، ولا يحفلون بوجوده. وهذا كذب صراح أود أن أصححه فى دار النيابة وفى يوم الدستور». والحقيقة أن الشعب المصرى لم يتخلف عن ركب التطور والتقدم، فقد قام وعلى رأسه شيوخ الأزهر - وكانوا رسل الثورة وقادتها - بمقاومة الطغاة فى بسالة نادرة المثال. ويصف حضرة الرئيس فى خطابه المذكور هذه المقاومة بقوله « إن أبناء مصر لم يكفوا عن استكمال حقوقهم ورد العدوان عن دستورهم غير المكتوب: دستور حرية أفرادهم، وشرف عقائدهم، والتزام الحاكم لصالحهم: فالغلاف الخارجى لحياة المصريين فى القرنين الماضيين غلاف الاستسلام والإذعان والمهادنة: غلاف خادع كاذب؛ وأنا باسم الأمة أزيحه من مكانه، بل باسمها أمزقه تمزيقاً ليتضح للعالمين صورة مصر الحرة على حقيقتها ».

ثم أشار حضرة الرئيس فى خطابه التاريخى إلى ثورتين هامتين تعتبران من أسبق الثورات الدستورية العالمية، إحداهما كانت بقيادة أكبر علماء ذلك العصر وهو الإمام أحمد الدردير، والأخرى بقيادة شيخ الأزهر فى ذلك الوقت الشيخ عبد الله الشرقاوى رحمهما الله تعالى.

ثورة الإمام الدردير رحمه الله تعالى [٢] : —

فى يوم من أيام ربيع الاول عام ١٢٠٠ هـ (يناير عام ١٧٨٦ م) نهب حسين بك شفت وجنوده داراً لشخص يدعى أحمد سالم الجزار بالحسينية جهاراً نهاراً ظلماً وعدواناً. فثارت ثائرة الأهالى، وتشاوروا فيما يجب عليهم أن يفعلوه واتفقوا أخيراً على الالتجاء إلى أقوى

---

(١) يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٥٣.

(٢) الجبرتى طبعة بولاق جـ ٢ ص ١٠٣ - ١٠٤.

العلماء شخصية وأوسعهم نفوذا وهو الإمام الدردير ، فاجتمع الأهالى فى اليوم التالى للحادث ويمموا شطر الجامع الأزهر وقصدوا الشيخ وأخبروه بالواقعة . فغضب الشيخ على استهتار الأمراء وتعسفهم ، ونادى فى الجماهير غير هياب ولا وجل : « أنا معكم ، وغداً تجمع أهالى الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم وننهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم ، وأمر الشيخ بدق الطبول على المنارات إيذانا بالاستعداد للقتال ، وترامت الأخبار بين الأهالى فأسرعوا نحو الأزهر للاشتراك فى المعركة ، وكانت أخبار الجماهير الهائجة قد وصلت إلى إبراهيم بك وبلغه تصميم الإمام الدردير على قيادة الشعب ضد الأمراء ، وكان يعلم مقدار ما للشيخ من نفوذ ومكانة عند الأهالى ، فخشى أن يستفحل الأمر ويؤدى الى ضياع سلطته فى مصر ، فأرسل نائبه ومعه أحد الأمراء الى الامام الدردير واعتذر له عما حدث ، ووعد بأن يكف أيدى الأمراء عن الناس . كما قرر توبيخ حسين بك شفت على صنيعه وطلب قائمة بجميع ما نهبه ليأمره برد ذلك الى صاحبه وهكذا وضع هذ الامام قاعدة دستورية هامة وهى احترام الحاكم لإرادة المحكومين .

ثورة الشيخ عبدالله الشرقاوى رحمه الله تعالى وكان شيخاً للأزهر عام ١٢٠٨ هـ [١] .

فى شهر ذى الحجة عام (١٢٠٩ هـ) (١٧٩٥) اشتكى فلاحو قرية من قرى بلبيس الى الشيخ عبد الله الشرقاوى من ظلم محمد بك الألفى ورجاله ، فبلغ الشيخ الشرقاوى الشكوى إلى كل من مراد بك وإبراهيم بك ، وخاطبهما فى كف أذى محمد بك الألفى عن الفلاحين فلم يفعلا شيئا . فما كان من الشيخ الشرقاوى رحمه الله تعالى إلا أن عقد اجتماعا فى الأزهر حضره العلماء وتشاوروا فى الأمر فاستقر رأيهم على مقاومة الأمراء بالقوة حتى يجيبوا مطالبهم ، وقرروا إغلاق أبواب الجامع الأزهر وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت استعدادا للقتال

وفى اليوم التالى : ركب الشيخ الشرقاوى ومعه العلماء وتبعتهم الجماهير وسار الجميع إلى منزل الشيخ السادات يستشيرونه فى بدء المعركة ، وكان قصر إبراهيم بك قريبا من قصر الشيخ السادات ، فراعه احتشاد الجماهير هناك ، وعلم باجتماع العلماء عند الشيخ السادات ، فبادر بإرسال أيوب بك الدفتردار ليسأل عن مرادهم .

(١) نفس المرجع حـ٢ ص ٢٥٨

فقالوا له : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها .

فأجابهم قائلا : لا يمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات.

فقالوا له : هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس ، وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك ، والأمير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ !) .

فقال لهم : حتى أبلغ . وانصرف ولم يعد لهم بجواب .

صمم العلماء فى هذا المجلس على أن يخوضوا المعركة مع الأمراء ، وإما أن يستشهدوا أو ينالوا حقوق الشعب كاملة . وأعلنوا أهالى القاهرة بعزمهم ، فتقاطرت الجماهير صوب الأزهر وباتوا هم والعلماء داخل المسجد وحوله .

هال إبراهيم بك ما بلغه من احتشاد الشعب ومرابطته مع العلماء استعدادا للقتال . فأرسل إلى العلماء يعتذر إليهم ويبرىء نفسه ملقيا التبعة على شريكه فى الحكم مراد بك ، بل ذهب إلى أبعد من هذا إذ يقول « أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطرى ومرادى » وأرسل مراد بك يستحثه لعمل شىء ويخيفه عاقبة الثورة التى توشك أن تنفجر .

وفى اليوم الثالث للثورة توجه والى مصر إلى منزل إبراهيم بك واجتمع مع أمراء المماليك وقرروا إيجاد حل سريع حاسم قبل أن يفلت الزمام فتشتعل الثورة ، وأرسلوا إلى العلماء ليحضروا الاجتماع ، فحضر الشيخ السادات والسيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير وطال الحديث بينهم وكان مداره حول حقوق الشعب ، ولم يستطع ابراهيم بك ولا مراد بك ولا الأمراء المكابرة فى هذه المرة ، فقد كانت القاهرة تغلى كالمرجل وكانت أشبه ببركان يوشك أن يثور وكان الشعب المتكتل فى الخارج يلوح مهددا متوعدا ، وانتهى هذا المجلس التاريخى بموافقة الأمراء والوالى على القرارات[1] الآتية :

أولا : لا تفرض ضريبة إلا إذا أقرها مندوبو الشعب .

ثانيا : أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم .

ثالثا : ألا تمتد يد ذى سلطان إلى فرد من أفراد الأمة إلا بالحق والشرع .

---

(١) ذكر هذه القرارات حضرة الرئيس فى خطابه الذى افتتح به أعمال لجنة الدستور .

وكان القاضي الشرعي حاضرا لحرر (حجة) تضمنت هذه القرارات وقع عليها الوالي وختم عليها ابراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضا وانحلت الازمة . ورجع العلماء يحيط بكل منهم موكب من الأهالي وهم ينادون (حسب ما رسمه ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية) .

ولو تأملنا في هذا النص الذي ساقه مؤرخ مصر الجبرتي ودققنا النظر في قوله (حسب ما رسمه ساداتنا العلماء) لوجدنا أن هذه العبارة الظاهرة تحمل مبدأ دستوريا هائلا : وهو أن الأمة مصدر السلطات .

وقد أشار حضرة الرئيس في خطابه المذكور إلى هذه الحجة بقوله ، وقد توافق رأي أكثر المؤرخين الفرنجة على أن هذه الحجة بمثابة وثيقة (إعلان حقوق الإنسان) سبقت بها مصر غيرها .

وقد طبق وكلاء الشعب وممثلهم العلماء والأعيان هذا المبدأ - مبدأ الأمة مصدر السلطات - على والي مصر خورشيد باشا حين عجز عن ضبط الأمن في البلاد ، إذ عقدوا مؤتمرا وطنيا يوم ١٣ صفر عام ١٢٢٠ هـ وقرروا عزل الوالي ؛ ولما رفض الإذعان لهذا القرار قام العلماء والأعيان والشعب بتنفيذ قرار الأمة بالقوة ودارت رحا الحرب بينهم وبين الوالي وكانت الأوامر خلال المعركة تصدر باسم السيد عمر مكرم والعلماء بصفتهم وكلاء الأمة ، وأجبروه أخيرا على الإذعان لقرار الأمة في ٢٩ جمادى الاولى عام ١٢٢٠ هـ .

هذا وقد سجل التاريخ للعلماء السابقين مواقف مجيدة في الدفاع عن حقوق الشعب نذكر منهم الإمام شمس الدين محمد الحنفي المتوفى عام ٨٤٧ هـ ، والشيخ شمس الدين الديروطي الواعظ بالأزهر الشريف والمتوفى عام ٩٢١ هـ ، وشيخ الإسلام الإمام محمد بن سالم الحفني المتوفى عام ١١٨١ هـ .

نستنتج من هذا كله أن العلماء والشعب خلال صراعهم العنيف في سبيل نيل حقوق الأمة استطاعوا أن يستخلصوا عدة مبادىء كانت تدار بموجبها شئون الحكومة وتحفظ بمقتضاها حقوق الرعية ، حتى انتهى الأمر إلى إعلان حقوق الإنسان وأن الأمة مصدر السلطات ، وتعتبر هذه المبادىء أهم الأصول التي بنيت عليها الدساتير الحديثة .

احمد عز الدين عبد الله خلف الله
المدرس بمعهد دسوق

غرور

من العوارض البارزة والأحداث الظاهرة ما يطوف بالجماعات فيتغلغل فى صفوفها ، ويتمكن بين أفرادها ، ويلم بالأمة فى غزوه المنكر ونزوله الملح ، فتخضع فترة من الزمن لسلطانه ، وتعيش ردحا من الدهر تترنح تحت وطأته . تتمرد عليه حينا وتخبت له أحيانا . تحاول أن تبعد عنه آنا وتستسلم لغواشيه المطبقة وطوفانه المغرق آنا آخر . حتى إذا قوى منها العزم ، واستحصد لديها الحزم ، ونفذت الإرادة ، استطاعت أن تفلت من آصاره وتتخلص من قيوده .

وإلمام الظواهر التى لا تحب ولا تستساغ ، أمر عادى يتسرب إلى الأفراد ويتفشى فى الجماعات ، ما دامت النوازع الإنسانية والأطماع البشرية والأهواء والشهوات تضطرم فى النفس وتفور فى الجسد .

ولكن الذى لا ترضاه العقول السليمة ، ولا يطمئن إليه التفكير الصحيح ، ولا تقره شريعة رب العالمين ، أن نقع فريسة للعوارض المهلكة والأدواء القاتلة ، والأمراض النفسية الخبيثة فلا نحاول التمرد عليها والخلوص من أوزارها .

قد يغفل الضمير أو تغفو المشاعر الإنسانية وتهجع فى النفس قوة المراقبة فيدخل عليها الداء من حيث لا تقدر ، ويتسرب اليها الوهن من حيث لا تشعر . ولكن العاقل الذى يحاسب نفسه لا يلبث أن ينتزعها مما يحل بها من آفة ويتسلط عليها من داء . ولعل هذا أبرز فارق بين البر والفاجر ، فإن البر سريع الإفاءة إلى ربه ، كثير الإقلاع عن ذنبه ، شديد الندم على ما يبدو منه من مخالفة ، أما الفاجر فهو دائما سادر فى لهوه ، ممعن فى غيه لا يوقظه إلا القوارع المجلجلة والمحن العاصفة .

إن الأفراد والجماعات لاتصاب بعلة مميتة وآفة لعينة مقيتة ، تدمر نظامها وتحطم تاجها وتفسد أمرها وتضعف الثقة فيها وتعدم التعاون بينها ، مثل آفة (الغرور) فهو أساس كل شر ومصدر كل فساد وسبب كل هلاك . وما أحبط أعمال الناس وأصارها إلى الإمحال والجدب ومكن بينهم العداوة والبغضاء ودعا إلى الخصام والشحناء وأشاع الذعر والخوف والاضطراب إلا داء الغرور حين يستولى على النفوس ويستبد بالقلوب ، فيحول مودتها إلى عداوة وصفاءها إلى كدر وإخلاصها إلى ضغينة وحسد .

يغتر المرء بجهده وعمله ويخدع جاهلا فى كفايته وقدرته . ويخيل اليه الوهم الكاذب والسراب الخادع والعقل الخائر والتفكير الضحل أن قوته فوق القوى ، وقدرته لا توازيها قدرة . هو فى نفسه عالم يفقه أدق مشاكل العلم وأعقد مسائله ، وهو سياسى يدرك من خفايا السياسة الداخلية والخارجية ما يستعصى على الآخرين ، وهو بين الأدباء أديب بارع الفكر ، رائع الخيال . هو فى كل شىء أشد الناس فهما وأصدقهم حكما وأنفذهم نظراً وأعمقهم غوراً وأسماهم فكراً ، لا يقبل فى ذلك جدلا ولا مناقشة . وبهذه الفكرة الخاطئة والنظرة الباطلة ، والوهم الكاذب لا يمكن أن يلتقى بالناس فى عمل مشترك أو تعاون مفيد . وهل يلتقى فى نظره السقيم الثرى بالثريا أو يجتمع الخامل والعبقرى .

ويدعى إلى سلوك طيب يكون له وللناس فيه خير ، فتأبى عليه نفسه وينفر طبعه ويداخله الحنق والغضب لأن سلوكه فيما يرى أقوم سلوك وأدبه ارفع ومقامه أسمى من أن يتطاول إليه نصح أو توجيه وقبح الله الغرور .

ويراد على الإحسان فى عمله والإجادة فى إنتاجه ، فيستفزه الغضب وتستثيره الحدة لأن عمله أحكم صنعا وأدق أداء وأعظم من أن يتطاول إليه متطاول .

ويفسد فى الأرض ويستسلم لنزوات الشر ودوافع الإثم وتمتد عينه ويده إلى ما حرم الله عليه ، فإذا وجه إليه نقد أخذه الحقد واستبد به الغرور لأنه عند نفسه فوق أن يخضع لنقدات الناقدين .

وهكذا يدخل الفساد على الأمة ويتسرب إليها الداء ويبدأ فيها الشر والعوج ، كل فرد أمة وكل شخص دولة : فهو مستقل فى رأيه مستبد بفكره ، لا سلطان لأحد عليه ثم يجىء

بعد ذلك الضلال فى الرأى والخطأ فى التقدير والتخبط فى السلوك . لأن ما استقر فى النفوس من الغرور قد أفسدها وأظلم آفاقها ، فلم يعد أحد يصغى إلا لما تهتف به شهوته وتضطرم فيه نزوته وينزع إليه هواه .

وهكذا يتداعى بناء المجتمع وتضطرب أركانه وتختل موازينه وتتضاءل قوته وتنحل عروته بما يشيعه الجاهلون من فساد ، وما يأتيه المغرورون من حمق .

إن فى الغرور ادعاء واجتراء : ادعاء يسلب الإنسان وقاره الخلق وحليته النفسية ، واجتراء يثير فى الأنفس الحقد على الناس والضغينة بينهم فيقطع ما اتصل من أسباب المودة ويفسد ما صلح من عوامل الألفة ، ويهدم ما يقوم من رغبة فى التعاون والجهاد فى هذه الحياة .

ولقد أراد الله تعالى لهذه الأمة القرآنية أن تعيش سليمة من الآفات بريئة من الأدواء والعلل ، وأن تربى تربية نفسية لا يداخلها شوب من الفساد ، ولا عامل من الانحلال ، فحذرها الله جل شأنه بما شرع من آداب واستن من سنن ، أن تستسلم لداء أو تخضع لآفة . ولقد قال جل شأنه (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) .

ثم أشار جل شأنه إلى أن مصدر هذه الآفة تأميل فى طول عيش ، أو طمع فى طيبات الحياة وزينة الدنيا ، أو رغبة فى الاستمتاع بنعمة الولد وهكذا فقال : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير) .

يجب أن نعالج ما يعترينا من نقائص ، وما يتفشى بيننا من أوزار ، ويجب أن نربى أنفسنا على ما يلتمع فى تاريخنا من روائع الصور وبارع الأمثلة التى كتبت هذا التاريخ وبنت ذلك المجد . وليعلم أولئك الذين يخفون إلى الاقتداء فى الشر ويسرعون إلى الاحتذاء فى الضرر ، أن الاتباع فى الخير والاقتداء بمن مضوا من سلفنا الصالح يغرس فينا الفضيلة ويسددنا نحو النهج القويم .

لقد كان عمر بن الخطاب حريصاً أشد الحرص على أن يكسر نخوة نفسه ، وأن يستل داء الغرور من كل من يحيط به . فهو الذى أمر المصرى أن يضرب ولد عمرو بن العاص

ثم يضع الدرة على صلعة عمرو ليذهب ما عسى أن يكون قد داخله من خيلاء الحكم وكبرياء السلطان . وكان رضى الله عنه يحاول دائماً أن يقتل ما فى نفسه من نخوة ويطرد ما يمكن أن يساورها من وسواس .

يقول عروة بن الزبير : رأيت عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، وعلى عاتقه قربة ماء . فقلت : يا أمير المؤمنين إنه لا ينبغى لمثلك هذا . فقال : أنه لما أتتنى الوفود سامعة مطيعة مهادنة دخلت نفسى نخوة فأحببت أن أكسرها . ومضى بالقربة إلى حجرة امرأة من الأنصار فأفرغها فى إنائها .

ويروى الأحنف بن قيس أنه كان بصحبة أمير المؤمنين عمر لجاءه رجل فقال : يا أمير المؤمنين إن فلاناً ظلمنى فأعدنى عليه . فرفع درته وضرب بها رأسه وقال : تدعون عمر وهو معرض لكم ، حتى إذا شغل فى أمر المسلمين أتيتموه ، تقولون أعدنى .

فانصرف الرجل متذمراً فقال عمر : على بالرجل . فجىء به إليه ، فألقى إليه الدرة وقال له : اقتص ! فقال : بل أدعه لله وإرادة ما عنده . وانصرف .

يقول الأحنف . ثم جاء عمر فدخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين ثم جلس وقال : يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله ، وضالا فهداك الله ، وذليلا فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس فجاء رجل يستعديك على من ظلمه فضربته . ماذا تقول لربك غدا ؟ فجعل يعاتب نفسه أشد المعاتبة .

ويقول رجاء بن حيوة : كنت ليلة عند عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فضعف المصباح ، فقام رجل ليصلحه فقال : اجلس ، فليس من الكرم أن يستخدم المرء ضيفه .

ثم قام بنفسه فأصلح السراج . فقال رجاء : أتقوم إلى السراج وأنت أمير المؤمنين ؟ فقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز بمثل هذه السير النقية والأخلاق الطاهرة والآداب الكريمة تعز الجماعات وتسعد الأمم .

عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس فى كلية اللغة العربية

الدين في أوربا وعلاقته بالعلم

— ٣ —

كان التيار الذى طبع النصف الأول من القرن التاسع عشر بطابعه — سواء أكان ذلك فى الجانب الدينى أم الأدبى — هو تيار تلك الحركة القوية التى دعيت فى التاريخ باسم الحركة الرومانتيكية ، والتى كانت إحدى نتائج الانقلاب الثورى الفرنسى ، والتى امتد سلطانها إلى أكثر دول الغرب .

ولما كان لا يعنينا الآن من هذه الحركة غير الدين من حيث علاقته بالعلم ، فقد وجب أن نقصر حديثنا اليوم على ذلك . ومجموع القول فى هذا الشأن هو أننا إذا تعقبنا الفكر الدينية فى ذلك العصر ألفينا أن أسسها العامة فى المحيط الثقافى تعتمد على مبادىء « جان جاك رسو » "Jean Jacques Rousseau" الذى يمكن أن يعتبر ضمن طلائع تلك الحركة الرومانتيكية ممن أعدوا القول لذلك الانقلاب كله وهيئوا النفوس لاستقباله . ويمكن أن نوجز أقوال « رسو » فى الديانة بأنها إيمان نابع من داخل النفس ، منبثق من شغاف القلب ، منبجس من أعماق العواطف الإنسانية .

وعلى جملة من القول يمكن حد الدين على حسب قوله بأنه مجموعة من المبادىء التى بلغ الشعور بوجودها أقصى آواجه وإن لم يكن من الممكن التدليل عليها بالبرهان العقلى ، أو تأييدها بالحجة المنطقية القاطعة لأنها لا تعدو كونها وثبات روحانية غير معتمدة على المقدمات العقلية ، ولم تنشئها تأملات نظرية . وموضع هذا الدين هو إرضاء حاجات القلب وقيادة السلوك الخلقى .

ولا جرم أن هذه النظرة إلى الدين تجعله عاطفياً بحتاً وتنتهى به إلى الانفصال نهائياً عن العلم ، بل تجعله ينطق بلغة غير لغة العلم ، ويسير فى الحياة على غير نهجه وبغير أسلوبه ، وبهذا يستطيع كل منهما أن يتجه فى طريقه نامياً متطوراً اتجاه الخطين المتوازيين اللذين لا يلتقيان مهما امتدا .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن العاطفة قد استطاعت أن تساير الديانة المسيحية

مسايرة تختلف مع مسايرة العقل الذى كثيراً ما يبدو متعارضاً معها ، وقد نشأ هذا التعارض من أن مظاهرها تخاطب القلوب والمشاعر أكثر من مخاطبة الفكر ، وتعتمد على الحب والإيثار أكثر من اعتمادها على المتعقلات الفلسفية أو المدركات النظرية . ولا ريب أنها تنتزع — عن طريق هذه الاتصالات العاطفية — كثيراً من النتائج الناجحة المثمرة .

وأيا ما كان فإن آراء « رسو » فى الدين والسياسة والأخلاق والتربية كانت — منذ أواخر القرن الثامن عشر — نقطة البدء التى صدرت عنها الأفكار الحديثة فى أوربا كلها ، بل كانت أساس النهضة الدينية الجديدة التى تبعت الحركة الرومانتيكية التى بعثت الدين من مرقده بعد تلك الصدمة العنيفة التى تلقاها من الثورة الفرنسية ثم حددت موقفه بإزاء العلم .

ومجمل هذا الموقف إذ ذاك هو أن الدين لا يعتمد على العقل ، بل على القلب ، وأن له مبادئه وأسانيده ومنتجاته التى تفرض نفسها فرضاً على العقل باسم سلطان أعلى منه . ولقد انتقل التيار الثقافى فى ذلك العهد بل الحياة كلها من جانب الفكر الذهنى إلى جانب أولئك الذين كانوا — دون أن يأبهوا للعقل الحر ولا للعلم المستقل وأن يعبثوا بعقد صلة بينهم وبين الفلسفة — قد جعلوا يتركون الدين يمتد فى حرية معتمدا على سلطانه الذاتية التى لا تعرف لم ، ولا تعترف بكيف ، وهى القلب والتقاليد والعقيدة ، وكان عمل أولئك القوم يكاد يكون محصوراً فى إنماء القوة الروحية وتفخيمها . ولكى نمثل لهذه الحركة يجب أن نشير إلى كاتبين من زعمائها ، أحدهما فرنسى ، والآخر ألمانى فأما الأول فهو « شاتوبريان » "Chateaubriand" طليعة أدباء فرنسا الذين أيقظوا الحركة الدينية من سباتها واستعادوا لها صحتها التى أنهكتها الثورة ، بل أوشكت أن تأتى عليها ، وذلك لأن هذا اللون من الإيمان قد بدأ فى فرنسا أدبيا قبل كل شىء . ولقد ظهرت طوالعه الأولى فى كتاب « عبقرية المسيحية "Le Génie du Christianisme" تأليف « شاتوبريان » .

ومجمل القول فى هذا السفر أن مؤلفه — صادراً عن مبدأ « جان جاك روسو » وهو سيادة سلطان العاطفة — قد عول على أن يبدل الحياتين : الفردية والاجتماعية اللتين لم تكونا بعد قد أفاقتا من تلك الهزة القاسية التى أصابتهما بها الثورة الفرنسية فزلزلت كيانهما الدينى أن يدخل فيهما كل الطقوس والتقاليد الكاثوليكية فى صورها العملية وأشكالها الواقعية . وليس هذا فحسب ، بل إنه لم ير فى هذه الطقوس وتلك التقاليد إلا ظواهر ثانوية لا يؤيدها

العقل فضلا عن أنها لا تدخل فى نطاقه ألبتة ، وأكثر من ذلك أنه اندفع فى هذه السبيل إلى حد أن وضع تفاصيل هذه الظواهر الخارجية فى مرتبة واحدة مع ما يحتويه الدين من المبادىء الخلقية السامية ، واتخذ من النوعين كليهما الدليل على سماوية عنصره . ومن أسانيد ذلك عنده أن جميع هذه التفاصيل تتجه مباشرة إلى الخيال وتأسر القلب وتسحر الوجدان الإنسانى وتواسيه ، وتهديه وتقويه ، وتنعشه وتحمسه ، وبالإجمال : تترك فيه أعمق الأثر . ومن العبارات التى وردت فى مؤلفاته فى هذا الشأن قوله : إن السبيل التى يجب اتباعها اليوم هى الاتجاه من المعلولات ، إلى عللها ، والتدليل على أنه ليست المسيحية سامية لأنها من عند الله ، بل إنها من عند الله لأنها سامية ، وعلى أن ما يشتمل عليه الناقوس من شعر وجدانى يتجه إلى الشعور مباشرة هو أقوى من حجج الأقيسة المنطقية لأننا نشعر بالأول حيا فى كوامن نفوسنا بينما لا تكترث قلوبنا للثانية .

ومن هذا يتبين المرء أن « شاتوبريان » شاعر حقا ، وأنه لا يكترث أدنى اكتراث بالمعرفة ما دام أن عقيدته وتقاليده التى يعرض بذلك الأسلوب الفصيح البليغ نتائجها الخيرة الساحرة ، وأنه سواء عليه أكانت هذه الثمار نتيجة من أصول موجودة وحقيقة أم كانت مجرد أخيلة عابثة قصدنا بها إرضاء رغباتنا وأحلامنا .

ومهما يكن من شىء فإن التيار الذى كان يقتاد الحركة الرومانتيكية بفرعيها : الدينى والأدبى فى أوروبا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر هو تيار تلك الآراء السالفة التى تتركز فى أن العاطفة هى القاعدة الوحيدة ، وأن الغاية التى يهدف إليها الإنسان الراقى هى أن يشعر بأنه يحيا ، وأن يهب نفسه تماما للشعر والهوى أو شدة الانفعال والحماسة التى تهز النفس ، وأن يفر من المجردات التى لا تعنى إلا العقل المحض .

وهنا ينبغى أن نسائل أشياع هذه المبادىء قائلين : ألا تخشون — إذا وهبتم أنفسكم للعواطف على هذا النحو — أن تضعوا أنفسكم على طرفى نقيض مع العلم ؟ ولا ريب أن الجواب على هذا السؤال هو أن الرومانتيكى الأصيل يجهل أو يتجاهل هذه المشكلة ، فبينما يشتغل العالم بالتحليل والتعليل والاستنباط ، نراه هو يكتفى بأن يحيا ويؤمن ويحب . وأكثر من ذلك أنه هو يعود فيسأل بدوره دهشاً : كيف يجرؤ العلم أن يحاول أن يسلب منه أنيته ؟

وأما ثانى هذين المفكرين فهو « اشلاييرماكير » "Schleiermacher" الألمانى الذى سطع نجمه فى أوائل القرن التاسع عشر والذى ثبت ذلك المبدأ الرومانتيكى فى قلب الدين وإن كان فى صورة أقرب إلى ما بعد الطبيعة منها إلى الأسلوب الأدبى الذى انتحاه « شاتوبريان » . وهاك مجمل آرائه مرسومة فى عباراته .

ليس فى مكنة العقل ولا الإرادة نقلنا إلى المنطقة الدينية لأن الدين ليس نوعاً من المعرفة الموضوعية ، ولا لوناً من القواعد الخلقية المقررة ، وإنما هو حياة ومران . ولهذه الحياة منبعها الخاص فى أعمق جانب من جوانب كينونتنا وهو العاطفة . وليس من الممكن الاتجاه إلى الدين صدوراً عن المعرفة بالدين ، وبعبارة أوضح . لا يمكن اتخاذ معرفة الدين أساساً للتدين ، لأن الدين أمر أولى ينطق به الشعور بادىء ذى بدء . ولأن المرء إذ يشعر بديا بالانفعال الدينى هو يثنى بالبحث عن وسيلة يشرح بها دخيلة نفسه ، وينقب عن برهان يبرر به الشعور أمام عقله ، ثم هو لا يكتفى بذلك ، بل يحاول أن يوضح طبيعة حالته النفسية وأسبابها .

وهكذا ينتهى به بحثه وتأمله إلى العثور على ضالته المنشودة ، وهى شعوره بالعلاقة المطلقة التى تصل المخلوق بالخالق وليست الحياة الدينية شيئاً آخر سوى إنماء هذا الشعور وإشعاعه ، إذ هو الذى يثير الأفراد بهيئة لا يستطيعها العلم ولا تظفر بها الأخلاق . وهذا الشعور لا يمكن شرحه بوساطة الفكر ، ولكن عن طريق الرموز التى هى وحدها القديرة على تقديم ذلك الشرح إلى الوجدان والتى تجعل نقل بيان الانفعالات الدينية إلى الغير أمراً ممكناً .

على أن العلم نفسه لا يستطيع أن يضع أية عقبة فى سبيل خلق الرموز الدينية المختلفة ولا فى سبيل قبولها واعتناقها .

ومجمل القول عند « إشلايير ماكير » هو أن الموجود أسمى من المعرفة وقبلها ، وأن حياة النفس والعاطفة هى أسمى الحقائق ، وأن كل ما يوجد من مظاهر هذه الحياة الروحية من قواعد وطقوس وتعبيرات وكائنات ومادة ليس له من قيمة إلا بمقدار ما يكون رمزاً لتلك الحقيقة التى هى أسمى من كل تعقل .

---

(١) هو أحد الفلاسفة الالهيين الألمان ، وقد ولد فى بريسلو سنة ١٧٦٨ وتوفى فى سنة ١٨٣٤

بان من كل هذا أن العلائق بين العلم والدين كانت - فى النصف الأول من القرن التاسع عشر - إيضاحاً لثنائية كاملة ، فكل من العلم والدين كان مستقلا عن الآخر فى أهم النقط التى تميز كلا منهما على حدة ، فكان العلم يبسط سلطانه على العقل ، بينما يختص الدين العاطفة بخطوته ، وبفضل هذا الاستقلال فى السلطان ، كان من الممكن وجودهما فى وجدان واحد دون منازعة ولا عداء ، بل قل إنهما كانا على وئام . وعن طريق هذا الوئام نفسه كان لكل منهما جميع أنواع الأمن والاطمئنان والسلام والحرية .

بيد أن هذه الهدنة فى الواقع لم تدم إلى منتصف القرن التاسع عشر ، إذ أن مواجهات جديدة لم تلبث أن نشأت بين العلم والدين ، فكان من نتائجها تلك المعارك الحامية الوطيس التى سنراها فيما بعد .

الدكتور محمد غلاب



من نثر شوقى

الوقت آلة الرزق إذا استعمل ، وآفة الرزق إذا أهمل ثقة العاطفة شهر ، وثقة العقل دهر.

من أخل بنفسه فى السر ، أخلت به فى العلانية ، يستريح النائم من قيود الحياة ، كما يتروح السجين ساعة فى فناء السجن الفضائل حلائل ، والرذائل خلائل .

فى الغمر تستوى الأعماق .

الصالحون يبنون أنفسهم ، والمصلحون يبنون الجماعات .

العاقل من ذكر الموت ولم ينس الحياة .

التعبير في الفن

يبنغى أن تعتمد نظريات النقد السليمة على دعامتين هما التقويم والتعبير . ونحن قد لا نستبين الطريقة التى تتخذ بها تجاربنا القالب الذى تصاغ فيه ، فإننا كائنات اجتماعية درجت على التعبير عما يخالجها منذ نشأتها . إلا أنه من الحقائق المعروفة ، أننا نصل إلى كثير من طرق تفكيرنا وشعورنا ، بالوراثة عن آبائنا وأجدادنا . فالتعبير عن هذه الأفكار والمشاعر أبعد غوراً ، وأوغل قدما مما قد يتراءى لنا فى كثير من الأحايين . والعقل البشرى نفسه ، قد اكتسب تركيبه الخاص ، بحيث يتلاءم مع عملية التعبير التى شغلت الإنسان منذ مئات الآلاف من السنين التى مرت عليه خلال تطوره ، بل وقبل ذلك بكثير . بل إن كثيراً من السمات التى تميز عقلنا البشرى ، تعود إلى وظيفته كآلة نستخدمها فى التعبير ...

أما تجاربنا التى تصادفنا فى حياتنا ، فلا بد لها أن تتشكل قبل أن نعبر عنها ، بل إنها لتصاغ فى القالب الذهنى الذى نستطيع به التعبير عنها . وقد كانت قدرة الإنسان على التعبير عن أغراضه ، والإفصاح عن مراميه ، فى مقدمة الأمور التى استغرقت مرحلة طويلة من مراحل الانتخاب الطبيعى .

والفنون هى أسمى قالب يمكن أن ينصرف إليه نشاطنا الفكرى ، وقدرتنا التعبيرية . وعلى هذا الضوء يتضح لنا كثير من الأمور المعقدة الغامضة التى قد تثار حول التراكيب والقوالب الفنية ، والتى منها سبق الشكل والقالب على الفكرة والموضوع ، ومنها أيضاً الموضوعية ، وإقصاء المؤثرات الذاتية ، مما يدعو إليه ويلح فيه علماء الجمال فى الطبيعة والفن . بيد أنه ينبغى لنا اصطناع كثير من الحذر فى نظرتنا للفنان ، فهو قوة معبرة ، قلما ترى نفسها فى هذا الضوء . فهو حين يأخذ فى إبراز تجاربه الذهنية ، لا يلقى إلى جهوده التعبيرية بالا ، ولا يحفل بها قصداً ؛ وحين نسأله عن نتاجه الفكرى ، نجده يراه شيئاً جميلا فى ذاته ، يضفى على نفسه الشعور بالبهجة والارتياح ، ويعبر عما يخالجها من أحاسيس عميقة وعواطف مشبوبة . أما أن نتاجه سوف يقرأ ، ويتلقى منه الكثيرون ما يختلط به من

تجارب ، وما يداخله من مران ، فكل هذه أمور عرضية ، ومسائل فرعية ، لا تعنيه ولا تدخل فى حسابه .

فالفنان لا يتجه قصدا لإتقان التعبير ، بقدر اتجاهه مثلا إلى بلوغ الكمال فى إبراز قصيدته ، أو مسرحيته ، أو تمثاله ، أو لوحته الفنية ، أو غيرها من نتاج فكرى ، يسعى إلى تصويره فى الصورة التى ترتاح إليها نفسه . وهو يرمى إلى تجسيم زاده الفكرى ، ومعينه الذهنى ، وجعل نتاجه مطابقا لتجاربه ، ومتفقا مع مرانه كل الاتفاق ، مما يضفى عليه روعة فنية ، قد يغض منها كثيرا توجيه اهتمامه وعنايته للتعبير وحده ، وليس فى وسع الفنان أن يتريث ليتدبر رأى الجمهور القارىء ، أو الطبقات المثقفة منه خاصة ، فى نتاجه الفكرى ، وهل يقبل عليه ، أو يعرض عنه . وهو يصيب وينهج النهج القويم حين يبتعد بفنه عن هذه الاعتبارات جميعا . فكثيرا ما أدى تركيز انتباه الأديب أو الفنان فى إتقان التعبير ، وفى توجيه نتاجه الفكرى لجمهور قارىء (ونستثنى من ذلك قلة نادرة من الفنانين كان شكسبير مثلا إماما لهم) إلى التهوين من شأنه والغض من نتاجه الفكرى .

ولسنا نبغى بتجاهل الفنان للعنصر التعبيرى الذى ينقل فكرته للقارىء ، لسنا نبغى بذلك أن نهون من قيمته وأهميته ، فإن الجهد الذى يبذله الفنان فى إخراج نتاجه الفكرى سليما متقنا لا بد أن ينتهى به ، فى تضاعيف الطريقة التى يسلكها ، إلى إبراز الجلال الذى ننشده للفن فى مظهريه الفكرة والقالب . بل إننا نستطيع القول مطمئنين ، إن الفنان حين يقصد إلى إبراز ما يخالجه من مشاعر وأفكار ، وحين ينصرف عن العناية بالصورة والاحتفال بها ، فإن تلك الصورة نفسها تكون أروع وأبهى منها ، لو أنه أنفق جل وقته وفكره فى إتقانها وحدها . ذلك أن مقياس الجمال والجلال فى النتاج الفنى ، وبالتالى تأثيره فى القراء ، إنما يكون بقدر ما يشتمل عليه من التوافق والإنسجام بينه وبين ما يعبر عنه الفنان من تجارب ومران .

ولكن الفنان ، مهما بالغ فى الابتعاد عن توجيه نتاجه الفكرى لجمهور قارىء ، ومهما أنكر رغبته فى إثارة غرائز الناس ، والتأثير فيهم بما ينقله إليهم من تجارب ، فإنه لن يجد فى الواقع دليلا واحدا يصرفنا عن النظر للتعبير والنقل للقراء ، كهدف من أهم أهدافه غير المباشرة ، وغاية من أسمى الغايات التى تنتهى إليها مراميه

ولطالما أساء النقاد ، وعلماء الأخلاق ، ورجال التربية ، وعلماء الجمال ، إلى حد بعيد ، فهم الفن ، واستيعاب الدور الذى يمثله بين كافة ألوان النشاط الذهنى للإنسان وليس من اليسير تفسير المدى الذى ذهب إليه كل هؤلاء حين أخطأوا فهم الفن ومراميه ، فمنهم من أرهفت أذواقهم ، ودقت ملكاتهم ، واكتملت مواهب الاستجابة لديهم ، بيد أنهم بلغوا فى إساءة فهم الفن ومراميه مبلغاً كبيرا ؛ ومنهم من يعرف ماهية الفن ، وما ينبغى نحوه ، وهؤلاء جلهم من بين أهل الفن أنفسهم ، غير أنهم أعرضوا عن تفسيره تفسيراً واضحاً جلياً ، وربما وجده الكثيرون منهم شيئاً بالغاً فى الوضوح والجلاء ، ومن ثم لم يكن فى نظرهم ، فى حاجة إلى مزيد من الإيضاح . أما من حاول منهم القيام بتلك المهمة ، فقد خانته اللغة ولم يسعفه التعبير . ولا مراء فى أن العقبة العسيرة التى حالت دائما دون تفسير ألوان الفن واستيعابها ، إنما كانت تكمن دائما فى اللغة والتعبير .

وفى الواقع ، إننا لم نكن يوما ما فى حاجة إلى فهم الفن ، واستيعاب أثره فى حياتنا ، بقدر حاجتنا لذلك فى الوقت الحاضر ... وربما أخذت تلك الحاجة فى الازدياد كلما تقدم بنا الزمن .

وليست الفنون سوى وعاء يودع فيه أهلها أسمى تجاربهم ، وأجدرها بالتسجيل . فهى ثمرات تنضج فى أثمن اللحظات من حياة أشخاص ممتازين ، حين تبلغ سيطرتهم على تجاربهم ، وقدرتهم على توجيهها ، مبلغاً كبيرا ، يعينهم على تمحيص الحياة ، والغوص إلى مكنونها ، وكشف أسرارها والنفاذ إلى أعماقها .

ونحن قد نستطيع نقل تجاربنا البسيطة التافهة ، دون الاستعانة بتلك الأدوات الذهنية الرفيعة ، أما التجارب الدقيقة الخفية الغامضة ، فهى تبدو للكثيرين منا بعيدة عن الوصف عصية على التعبير والنقل ؛ إذ أنها لا تخضع لغير الفن ، الذى تجرى فى قنواته طبيعة مرانية ، ولا تلين إلا للفنان ، الذى يلهو بها كما يلهو الساحر ببضاعته أمام الناس ، فيملك عليهم لبهم ويسلب عقولهم ، ويشغل أسماعهم وأبصارهم .

حمزه محمد الشيخ
ليسانسيه فى الآداب ودبلوم فى الصحافة
من جامعة القاهرة

العلم .. بين الاساتذة والطلاب

في هذه الفترة بين عام دراسي أوشك أن ينقضي ، وبين عام جديد يستقبله المدرسون والطلبة بعد أشهر الاستجمام ، رأيت أن أتحدث إلى إخواني مدرسي المعاهد وأبنائهم الطلبة بما ينبغي للفريقين أن يطيلوا التأمل فيه عندما يفرغون من فترة الاستجمام ، استعداداً لاستئناف عهد جديد في الحياة الدراسية .

إن أجمل ما فهمه المسلمون من معاني « العلم » قول أبي حامد الغزالي فيه : إنه عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن إلى الله ، وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر من الأحداث والأخباث ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته من خبائث الأخلاق .

وهذا الفهم الجميل لمعنى العلم في الإسلام إذا كان ينبغي لمدرسي المعاهد الأزهرية وطلبتها أن يجعلوه دستوراً لهم في حياتهم الدراسية في جميع المعاهد ، فإن أولى ما ينبغي لهم أن يتخذوه دستوراً في هذا العهد الذي أخذ يتجدد فيه نظر الأمة إلى جميع أوضاعها استعداداً لاستئناف حياة سعيدة مباركة النتائج ويانعة الثمرات إن شاء الله .

من المأثور على رسول الرحمة ﷺ أنه كان يقول لأصحابه ـ وهم الطبقة الأولى من طبقة العلم في تاريخ الإسلام ـ : إنما انا لكم مثل الوالد لولده

وإن المدرس في المعاهد الإسلامية ينبغي له أن يستقبل سنته الدراسية المقبلة بهذه الروح العالية وبهذا الأدب الإسلامي الرحيم ، فيكون لطلبته مثل الوالد مع الولد ، روى الذين دونوا ترجمة الإمام الفاتح أسد بن الفرات أنه لما كان يأخذ العلم عن الإمام محمد بن الحسن الشيباني تلميذ الإمام أبي حنيفة ، كان الإمام محمد بن الحسن إذا رأى تلميذه أسد بن الفرات غلب عليه النوم وهو يسهر في تلقي العلم عنه نضح على وجهه رشاشا من الماء ليجدد له نشاطه شفقة منه عليه ورغبة منه في أن ينهض إلى مستوى الإمامة في العلم . ولولا أن محمد بن الحسن

تأدب بأدب الإسلام وعمل بالمبدأ المحمدى فى أن يكون لتلميذه كما يكون الوالد لولده لانتهز فرصة غلبة النوم على تلميذه وأرجأ الدرس إلى الليلة الثانية ، هذا مع ما نعلمه من مقام الإمام محمد بن الحسن فى الدولة وكثرة أعماله العلمية ، لكنه لما كان يعلم أن من أدب الإسلام أن يكون التلميذ من أستاذه بمنزلة الولد من الوالد التزم مع أسد بن الفرات هذا الأدب الرحيم ، وكان من نتيجة نبوغ أسد بن الفرات وقيامه للملة الإسلامية بما لا يقوم بمثله إلا أفذاذ النوابغ من صفوة البشر .

وهذا الشيخ ابن التلمسانى أحد كبار علماء شمال أفريقيا سأله السلطان عن مسألة فقال : « إن تلميذى فلانا يحسن الجواب عنها » فوجه السلطان السؤال إلى تلميذ ابن التلمسانى ، فأحسن الجواب ، فأجازه وأحسن منزلته ، وكان ابن التلمسانى أعلم من تلميذه فيما سأله عنه السلطان لكنه لاعتباره تلميذه بمنزلة ولده أراد أن ينوه به فى حضرة السلطان كالو كان ولده حقا.

والطلبة فى دستور الإسلام عرفوا كيف يقابلون هذا العطف الأبوى من أساتذتهم بما يكافئه من حرمة ومحبة وإجلال . ومن أقدم الأمثلة على ذلك ما رواه الشعبي أن زيد بن ثابت صلى على جنازة ، ثم قربت إليه بغلته ليركبها ، فبادر إليه عبدالله بن عباس فأخذ بزمام البغلة ليساعده على الركوب ، فقال له زيد : خل عنه يابن عم رسول الله ، فأجابه ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء .

وقد حافظ ذرية ابن عباس على هذا الأدب من التلاميذ نحو أساتذتهم بعد أن صار بنو العباس ملوك الدنيا ، فقد نقل برهان الإسلام الزرنوجى فى كتاب تعليم المتعلم ، وهذا الكتاب ترجمة رولاند إلى اللغة اللاتينية وطبعه فى مدينة أوتراخت بألمانيا قبل نحو مائتين وخمسين سنة ، أن أمير المؤمنين هارون الرشيد بعث ابنه إلى الأصمعى ليعلمه العلم والأدب ، فرآه يوماً يتوضأ وابن الخليفة يصب الماء على رجله فعتب الخليفة على الأصمعى لأنه لم يأمره بأن يصب الماء بإحدى يديه ويغسل رجل أستاذه باليد الأخرى ، ورأى أن تقصير ابنه فى ذلك تقصير فى أدب التلميذ مع أستاذه .

وروى الزرنوجى فى هذا الكتاب أيضاً عن شيخه برهان الدين صاحب الهداية أن أحد كبار أئمة بخارى وهو فى حلقة درسه فى المسجد رأى ابن أستاذه يمر أمام باب المسجد فقام له تعظيما لحق أستاذه .

وقد علمنا من سيرة ابن خلدون أنه لما رزىء بوفاة كبار شيوخه (وكان منهم قاضى القضاة محمد بن عبد السلام والرئيس أبو محمد الحضرى والعلامة محمد بن ابراهيم الآبلى) ضاق به وطنه فترك مقامه الوجيه الذى وصل إليه فى قصر الإمارة ورحل عن تونس إلى الجزائر والمغرب الأقصى ، لأن مقام أساتذته كان فى نفسه فوق كل مقام .

وهذه المحبة الصحيحة التى يكنها التلميذ لأستاذه هى التى حملت العالم أحمد بن القاضى على أن يقول فى شيخه المنجورى : «وصارت الدنيا تصغر بين عينى ، كلما ذكرت أكل التراب للسانه ، والدود لبنانه » .

ومن ذلك قول ابن عرفة :ـ

إذا لم يكن فى مجلس الدرس نكتة وإيضاح أشكال بأحسن صورة

الأبيات . فيجيبه تلميذه الأبى بقوله :

يميناً بمن أولاك فى العلم رتبة وزان بك الدنيا بأحسن زينة
لمجلسك الأعلى كفيل بكلها على حينما عنه المجالس ولت

ووقت خروج جنازة أستاذنا الشيخ عمر بن الشيخ من منزله ليصلى عليها فى جامع الزيتونة ذكرت خروجه منه لدرس كتاب المواقف والشيوخ ينتظرونه بموضع الدرس ، وذكرت قول أحد الأساتذة فى قصيدة الفاها عند ختم الكتاب :

إذا عمر بن الشيخ وافى لدرسه تعال التقت دار بملء جفان

ففاضت عيناى بالدموع .

إن هذا الأدب الإسلامى الذى جعل من الطلبة أبناء للأساتذة كفلذات أكبادهم ، وجعل من الأساتذة آباء لتلاميذهم ، يعطفون عليهم أكثر من عطف الآباء على أبنائهم ، هو الأدب اللائق بنا أن نرجع اليه لنجدد فى تاريخنا عهداً سعيداً ، فننعم به ونسعد بنعمته ، والطلبة الذين يكتسبون من دراستهم مثل هذا الأدب ينالون به من السعادة أضعاف ما ينالون به من دراسة العلم مهما تقدموا فيه .

الختـــــــان

نريد عرض بعض المشكلات الجنسية التي تهم الشباب والتي لها وللتوجيهها الوجهة الطبية أثر حسن ، ولكن يمنعنا الحياء لأننا لم نعتد عرض هذه المشكلات على صفحات الصحف والمجلات ، وإن كنا قد اعتدنا معالجتها في الكتب . وقد كدنا نساير هذا الحياء فينا ونمشي على مقتضاه لو لا إلحاح بعض القراء في أن نعالج هذه المشكلات ، وقد رأينا الحاجة ماسة والفائدة مرجوة ، وقـــد استشرنا الدين فرأيناه يقول لا حياء في الدين ، ورأينا من نساء الصحابة من تسأل النبي ﷺ عن أمور قد يستحي منها ، عن خولة بنت حكيم أنها سألت النبي ﷺ عن المرأة تحتلم في منامها ، فقال إذا رأت الماء فلتغتسل .

فاعتزمنا أن نعرض هـــذه المشكلات : كالعادة السرية وموقف الدين منها ، وكالختان في الذكر والأنثى وموقف الدين والعلم منها ، وسنبدأ بالكلام على الختان .

الختان في التاريخ :

قال هيرودت المؤرخ اليوناني القديم إن الختان معروف منذ زمن بعيد في مصر والحبشة ومنه يعلم أن المصريين والحبشة كانوا يمارسون الختان منذ زمن متقدم ، ويقال إن السوريين والفينيقيين أخذوا عادة الختان عن قدماء المصريين .

وفي سفر التكوين الإصحاح السابع عشر الآية التاسعة وما بعدها إلى الآية الرابعة عشرة : أن الله فرضه على إبراهيم وعلى جميع ذريته وجعله علامة الاتفاق والعهد بينه وبينهم .

وهو مذكور أيضاً في قوانين موسى سفر اللاويين الإصحاح الثاني عشر الآية الثالثة وسفر الخروج الثاني عشر الآية ٤٥ و ٤٨ ، وقد حرص عليه اليهود فهم يختنون أطفالهم الذكور في اليوم الثامن بعد ميلادهم .

وكان الختان متبعا في أول عهود المسيحية ثم نبذه الرسل ولم تأخذ به الكنيسة فلم يبق إلا في الحبشة .

وللختان عند اليهود قيمة رمزية إذ أنه عبارة عن عهد مبرم بين الله وإسرائيل يزكيه الدم ، وهو تعبير عن طهارة النفس ، وكان أنبياء اسرائيل يسمونه طهارة القلب ، ووجد الرحالون عادة الختان متبعة في جميع أنحاء إفريقية السوداء ، ويظهر أن شعوب الأزيتكيين في أمريكا القديمة كانوا يعرفونها ، كما أنها مألوفة بين الشعوب الأسترالية الأصلية .

والمسلمون يؤدون عملية الختان بناء عن أمر الرسول بها ، وهم يختتنون فى سن الثامنة وما بعدها من العمر .

والختان فوائد صحية وهو وقاية من أمراض تنشأ عن الالتهاب الجلدى .

والخفاض وختان الانثى ، غير منتشر انتشار ختان الذكور ، وهو معروف بين الساميين والحاميين فى جنوب غرب آسيا وفى إفريقية ، وبين الزنوج فى جنوب إفريقية وشرقها ، وفى غرب السودان ، وعند قبائل أخرى ممن تسمى بالشعوب البدائية فى وسط إفريقيا وفى أستراليا وفى أمريكا ، ويلاحظ أن الآلات التى تستعمل فى الخفاض عند هذه الشعوب الأخيرة هى آلات بدائية مما يدل على أن هذه العادة ترجع إلى أقدم العصور .

الختان عند المسلمين :

هو قطع بعض مخصوص من عضو مخصوص ، قال الماوردى ختان الذكر قطع الجلدة التى تغطى الحشفة والمستحب أن تستوعب من أصلها عند أول الحشفة وأقل ما يجزىء ألا يبقى منها ما يتغشى به ، وقال إمام الحرمين المستحق فى الرجال قطع القلفة وهى الجلدة التى تغطى الحشفة حتى لا يبقى من الجلدة شىء يتدلى ، ونقل عن الرافعى أنه يتأدى الواجب بقطع شىء مما فوق الحشفة وإن قل ، بشرط أن يستوعب القطع تدوير رأسها ، قال النووى وهو شاذ والأول هو المعتمد ، والمستحق من ختان المرأة ما ينطلق عليه الإسم ، وقال الماوردى ختانها قطع جلدة تكون فى أعلى فرجها كالنواة أو كعرف الديك ، ويطلب ألا تستأصل .

مذاهب فقهاء الإسلام فى الختان وأولهم :

وأقوال علماء الفقه فى الختان ثلاثة : الأول أنه واجب فى حق الرجال والنساء ، والثانى أنه سنة فيهما ، والثالث أنه واجب فى الرجال دون النساء . حجة أصحاب القول الأول قوله ﷺ من أسلم فليختتن ، وقوله لأم عطية ، وكانت خافضة أشمى : ولا تنهكى ، وقوله ﷺ : يا نساء الأنصار اختضبن غمسا واختفضن ولا تنهكن وإياكن وكفران النعم .

وهذه الأحاديث طعن فى رجالها حتى قال ابن المنذر : ليس فى الختان خبر يرجع إليه ولا سنة تتبع [1] وحجة أصحاب القول الثانى قوله صلى الله عليه وسلم : الختان سنة فى الرجال

---

(١) وممن ذكر أحاديث الختان ونقد العلماء لها الامام محمد بن على الشوكانى فى نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار ج ١ ص ١١٢ و ١١٣

مكرمة فى النساء ، وقد طعن أيضا فى رجاله ومع كونه لا يحتج به ليس فيه ما يدل على المطلوب لأن السنة فى لسان الشارع أعم من السنة فى اصطلاح الاصوليين ، والحق أنه لم يقم دليل صحيح يدل على الوجوب فى النساء .

وخفاض المرأة موضوع يبحث فيه العالم الشرعى لبيان حكمه فى الشرع ، والعالم بوظائف الأعضاء ليبين وظيفة هذا العضو الذى يقع عليه الخفاض و العالم الاجتماعى ليبين آثار الخفاض الاجتماعية : أهى آثار حسنة أم آثار سيئة .

وعلم وظائف الأعضاء يرى أن هذا العضو حساس وأنه معين على إتمام عملية التخصيب ، وأن قطعه وإنهاكه يبعد الشهوة ، وإتمام العملية من المرأة الذى به تتم عملية الإخصاب ، ومن ذلك يرى بعض علماء الاجتماع أن الخفاض سبب فى انتشار المخدرات فى البلاد التى تزاوله ومنها مصر لأن الزوج يجد شهوته أقرب من شهوتها ، وأنه ينتهى قبل انتهائها ، ويشعر أن هذا يجعل العملية ناقصة تسبب ألما للزوجة وذلك يدعو إلى بغضها فيريد أن يكمل هذا النقص فيه ويجعل موافاة الشهوتين على قدره فيستعين ببعض العقاقير التى شاع خطأ أنها تبطىء موافاة الماء من الرجل وذلك الحشيش والأفيون والمعاجين التى يدخلان فى عناصرها ويزيدون فيقولون :

إذا أريد القضاء على آفة استعمال الحشيش والأفيون والمواد المخدرة فينبغى القضاء على أسبابها وهو خفاض المرأة لتكون المرأة طبيعية ويكون الرجل طبيعياً فلا يحتاج إلى هذه المواد كعنصر مساعد .

وأن على العالم الشرعى بعد ذلك أن يبحث فى نصوص الشرع ويرى هل هذه النصوص ملزمة حتما للخفاض فلا مندوحة عنه ، أم ليست كذلك ففيه مندوحة عنه . قد علمنا أقوال الفقهاء وأقوال رجال العلم فى ختان المرأة ، وعلمنا أن من الفقهاء من قال بأنه مكرمة وليس بواجب ومنهم من قال ليس فى الختان خبر يرجع إليه ولا سنة تتبع .

والعلم يرى أنه يضر بالحياة الزوجية ويؤدى إلى انتشار المخدرات بين الرجال ، فإذا ثبت كل ذلك فأمره سهل جداً فليس على من لم تختتن من النساء من بأس ومن اختتنت فيجب ألا ينهك هذا العضو منها ، وإذا منع فى مصر كما منع فى بعض البلاد الإسلامية كتركيا وبلاد المغرب فلا بأس ، والله الموفق للصواب .

محمد عرفة

عضو جماعة كبار العلماء

في راحة العيد :

الفكاهة في الأدب العربي

إن الضحك خلة إنسانية ، ولذا قال بعض الفلاسفة في تعريف الإنسان : إنه حيوان ضاحك ، كما قال البعض الآخر : إنه حيوان ناطق .

وذلك لأن الضحك ظاهرة تفرد بها دون سائر الحيوان .

أما قهقهة القرد فليست من الضحك إلا في الصورة والصوت ، والببغاء قد تحاكي الإنسان الضاحك كما تحاكي الإنسان المتكلم .

ولكنها جميعاً أصداء وأصوات ليس لها من التمييز المنطقي نصيب .

فالضحك ظاهرة نفسية يعبر بها الضاحك عن حالة عقلية ولكن لماذا يضحك الضاحك ؟ .

لقد بحث كثير من الفلاسفة وعلماء النفس في هذه الظاهرة ، واختلفت آراؤهم في تعليلها .

ففريق يرى أن الضحك حركة جسدية أو عملية جثمانية تنشأ من تحول الإحساس فجأة من الأعصاب إلى العضلات . فإن من المقرر في علم النفس أن التأثر إذا اشتد وألحف على الأعصاب تجاوزها إلى العضلات فظهر عليها في حركة عنيفة أو رفيقة على حسب قوته واشتداده .

فإذا حبس التأثر أو الانفعال في طريقه فجأة . تحول بغير إرادتنا من الأعصاب إلى أسهل العضلات حركة وأسرعها تأثراً وهي عضلات الوجه والشفتين ثم عضلات العنق والرئتين فتتحرك بالابتسام أو بالضحك أو بالقهقهة ، أو بالوقوف والاختلاج عند من يغلبه الضحك وتهتز له عضلات الجسم كله .

والدليل على ذلك عند أصحاب هذا الرأي هو أننا نضحك إذا غلبنا التأثر وتحول من العصب إلى العضل أياً كان الموحي به والباعث عليه ، فنضحك من الغيظ والألم ، ونضحك الضحكة الهستيرية التي يفرج بها المكروب عن أعصابه المكظومة كأنما يخفف عنها بنقل شيء من ضغط الاحساس عليها إلى العضلات .

والفكاهة تضحكنا لأنها تفاجىء التفكير بحالة غير مرتقبة وتعجله عن انتظار النتيجة فى طريقها الممهد المألوف .

ومن أصحاب هذا الرأى (هربرت سبنسر) وهو من فلاسفة القرن التاسع عشر .

ففى كل نكتة أو فكاهة ، شىء من هذا التحول ، ولذلك تعد النكتة أو الفكاهة باردة إذا لم تكن محكمة التلفيق ، متقنة التزييف ، بحيث تهجم على الاحساس هجوما وتفاجىء الذهن مفاجأة .

وهناك مذهب يقول : إن علة الضحك فى الفكاهة هى اختلال فى القياس أو الاطراد على نسق واحد لا يوجب الاطراد . فالفكاهة إنما تنتج من الحقائق المتباعدة والصور المتنافية كقول ابن الرومى فى رجل اصلع :

يأخذ أعلى الوجه من رأسه   أخذ نهارا الصيف من ليله

فقد ألف بين صورتين متباعدتين ، وهما أن صلع الرجل جعل وجهه مغيراً على رأسه آخذاً منه كما أن تزايد نهار الصيف يجىء من تناقص ليله .

والضحك فى رأى (مكدوجل) هو وسيلة ابتكرتها الطبيعة لتنشىء ما يشبه التوازن فى نفسية الإنسان ، فهو مضطر بحكم اجتماعه بسائر الأفراد ، وبحكم ما غرز فى جبلته من ميل نحو مشاركة الغير فى همومه وأحزانه أن يحمل كثيراً من مصائب الناس . ولو كلفه المجتمع من هذا العبء ما يكلفه دون أن يحد منه أو ييسر عليه حمله ، لفدحه ذلك العبء وبهظه .

فكان حتما إذن أن نضحك من غيرنا فى المصائب الصغرى لنحزن معهم فى الكوارث الكبرى .

فإذا خدش القط إصبع الطفل ثار منا الضحك ، أما إذا عضه كلب فهشم أصابعه فإنه يتحرك فى نفوسنا الحزن والأسف .

وإذا أصيب رجل فى وجهه برذاذ من الوحل ضحكنا ، أما إذا أصابته شظايا قنبلة فعرضته للخطر حزنا وأسفنا .

ولعل هذا هو السر فى قوله تعالى ممتنا على خلقه ، مذكرا لهم بفضله ومقدرته « وإنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » .

يقول الجاحظ فى كتابه البخلاء تعليقا على هذه الآية :

فوضع الضحك بازاء الحياة ، ووضع البكاء بازاء الموت ، والله لا يضيف إلى نفسه القبيح ولا يمن على خلقه بالنقص .

والرأى عندى أنه ليس للضحك علة واحدة أو سبب واحد ، فالتماس علة واحدة لجميع الضحك خطأ لا يؤدى إلى رأى صائب . لأن الضحك وإن كان اسمه واحدا إلا أنه ليس بظاهرة واحدة حتى يكون له سبب واحد .

اما الأهداف التى تستعمل لها الفكاهة أو الضحك فكثيرة ، منها :

أولا : أن الفكاهة وسيلة يهون بها الإنسان على نفسه عبء الحاضر كما يدرئ بالنسيان كوارث الماضى ويستعين بالأمل المشرق على ظلمة الغيب المجهول . وليس الإنسان منصرف ولا محيد عن هذه السبل الثلاثة يخفف بها عنت الزمان وقسوة الحدثان . فلولا نعمة النسيان لازدحمت الذاكرة بفوادح الماضى حتى تنوء بحملها . ولولا الأمل لاجتمعت مخاوف المستقبل فيرتد أمامها الإنسان جازعاً فازعاً . ولولا الضحك نواجه به الحاضر لكان لنا من حادثاته ما ينقض ظهورنا ويهد كياننا .

ثانياً : أن الفكاهة أداة اصطنعها المجتمع لتأديب أفراده ، فقد تواضع الناس فى كل جماعة على لون من السلوك لا يجوز للفرد أن يخرج عليه إلا إذا أراد أن يضع نفسه موضع الضحك المتصل ، والفكاهة اللاذعة حتى يرتد إلى حظيرة المجتمع .

فالضحك أو الفكاهة فى هذه الحالة سوط من أسواط التأديب ووسيلة من وسائل الإصلاح .

أنظر إلى قول المتنبى فى رجلين قتلا جرذاً وأبرزاه ليعجب الناس من كبره .

وأيكما كان من خلفه فإن به عضة فى الذنب

فهذه صورة فكهة مضحكة فى هذا البيت : صورة شجار بين رجلين وبين جرذ ، فادعى الشاعر - ليسخر منهما ويستهزىء من نخرهما - أن أحدهما قد عض الجرذ فى ذنبه .

وهنا تختلط الفكاهة بالسخرية ، فينبغى أن نفرق بينهما .

السخرية من العقل ، والفكاهة من القلب ، فالساخر ينال غيره والفكه قد ينال نفسه .

والساخر يترفع ، والفكه يتساوى ويتنزل ، فالسخر من الارستوقراطية ، والفكاهة من الديموقراطية .

وأكثر السخرية سيء خبيث ، وأكثر الفكاهة ودود لطيف .

والسخر يطعن ، والفكاهة تصدم .

على أن من السخرية ما هو رفيق لين يمازجه العطف ويخالطه الرفق وفيه ضحك ، وربما يستخدم فى الأغراض التى تستخدم فيها الفكاهة .

الهدف الثالث من الفكاهة هو أنها تستخدم لونا من ألوان الحجة ، وضربا من ضروب البرهان ، وطريقا من طرق الاقناع . وأوضح مثل لذلك الجاحظ فى كتاباته ، فكان يخلط الحقيقة الجافة بالفكاهة الحلوة ، والجد المسئم بالضحك المؤنس ، والبرهان المقنع بالتهكم الموجع .

لقد توفرت لديه كل أركان الفكاهة السائغة ، والدعابة المسكتة من قصر فى القامة وجحوظ فى العينين ، وسواد فى الوجه ، ودمامة فى الخلقة ، وبشاعة فى المنظر .

وقديما اشتهر بشار بالدعابة المسكتة ، والفكاهة والنكتة اللاذعة المحرجة .

روى صاحب الأغانى عن بعض الكوفيين يقول :

مررت ببشار وهو منبطح على الأرض كأنه جاموسة فقلت له يا أبامعاذ من القائل :

فى حلتى جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا

قال : أنا .

قلت فما حملك على هذا الكذب ؟ والله إنى لأرى أن لو بعث الله الرياح التى أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك .

فقال بشار : من أين أنت ؟

قلت : من أهل الكوفة .

فقال : يا أهل الكوفة ، لا تدعون ثقلكم ومقتكم على كل حال .

دخل يزيد بن منصور الحيرى على المهدى ، وبشار بين يديه ينشده قصيدة امتدحه بها فلما فرغ منها أقبل عليه يزيد ـ وكانت فيه غفلة ـ فقال له : يا شيخ ما صناعتك ؟ .

فقال بشار : أثقب اللؤلؤ .

فضحك المهدى ثم قال لبشار : اعزب ويلك ، أتتنا در على خالى ؟ فقال له : وما أصنع به ؟ يرى شيخا أعمى ينشد الخليفة شعرا ثم يسأله عن صناعته .

أتى الجاحظ يوما ثقيل فقال له : قد سمعت أن لك ألف جواب مسكت ، فعلمنى منها . قال الجاحظ : نعم .

فقال له الثقيل : إذا قال لى شخص يا ثقيل الروح ، فأى شىء أقول له ؟ .

فقال له الجاحظ : قل له صدقت يا هذا ولم تكذب .

وقال الجاحظ مرة : ما أخجلنى أحد مثل امرأة رأيتها فى مدينة العسكر ببغداد ، وكانت طويلة القامة وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها فقلت : أنزلى كلى معنا . فقالت : أصعد أنت حتى ترى الدنيا .

والهدف الرابع من أهداف الفكاهة هو التظرف فحسب .

والهدف الخامس أنها قد تتخذ وسيلة لتحميلها خبيث الآراء وفاسد المعتقدات ، والتوارى وراءها لنشر الخطر من الآراء التى لا تبيح قوانين المجتمع نشرها . ففراراً من العقاب ونجاة من الأذى يلبسون الفكاهة تلك المذاهب ويحملون النكة تلك الآراء .

كما حكى الجاحظ عن الشرقى القطامى أن ابن أبى عتيق لقى عائشة رضى الله عنها على بغلة فقال : إلى أين يا أماه ؟

فقالت له : أصلح بين حيين تقاتلا .

فقال ابن أبى عتيق عزمت عليك إلا ما رجعت ، فما غسلنا أيدينا من يوم الجمل حتى نرجع إلى يوم البغلة .

فهذه حكاية أوردها الشرقى لغله ودغله على وجه النادرة لتحفظ ، ويضحك منها ويتعلق بها من غفل وقلت فطنته ، فيكون ذلك أنجع وأنفع لما أراد من التعرض لقدر أم المؤمنين رضى الله عنها .

ومثل هذه الفكاهات كثيرا ما تصدر من المتزندقين والملحدين والإباحيين الخارجين على قوانين الأخلاق وتقاليد المجتمع .

استأذن أبو العيناء يوما على الوزير صاعد بن مخلد ، فقال له الحاجب : الوزير مشغول فانتظر .

فلما أبطأ أذنه قال للحاجب : ما يصنع الوزير ؟ قال يصلى . فقال صدقت ، لكل جديد لذة . يعيره بأنه حديث عهد بالإسلام ؛ والهدف السادس أن الفكاهة تتخذ وسيلة من وسائل الشفاعات والتوسط فى قضاء الحاجات لما يعقبها من سرور وما يكتنفها من خفة ومرح . فكم من ظريفة من الخطاب ومليحة من الجواب خلصت من الهلاك .

قال الأصمعى :

خرج الحجاج متصيدا فوقف على أعرابى يرعى إبلا وقد انقطع الحجاج عن أصحابه .

فقال : يا أعرابى ، كيف سيرة أميركم الحجاج ؟

فقال الأعرابى : غشوم ظلوم ، لا حياه الله ولا بياه .

قال الحجاج : فلو شكوتموه إلى أمير المؤمنين .

فقال الأعرابى : هو أظلم منه وأغشم ، عليه لعنة الله .

قال الأصمعى : فبينا هو كذلك إذ أحاطت بالحجاج جنوده ، فأومأ إلى الأعرابى فأخذ وحمل .

فلما صار معهم قال : من هذا ؟ قالوا : الأمير الحجاج .

فعلم الرجل أنه قد أحيط به ، فحرك دابته حتى صار بالقرب منه ، فناداه : أيها الأمير .

قال : ما تشاء يا أعرابى ؟

قال : أحب أن يكون السر الذى بينى وبينك مكتوما .

فضحك الحجاج وخلى سبيله .

وفكاهة الأمة مرآة تصور أخلاقها وأسرار مزاجها .

ولأهل مصر شهرة فائقة فى الفكاهات والدعابة لخفة فى الروح وظرف فى النفس وصفاء فى الطبع وبديهة فى الجواب .

كان للمرحوم الأستاذ عثمان لبيب الذى كان أستاذاً للرياضة بدار العلوم حمار يتنقل عليه فى دروب القاهرة وفى الذهاب للقيام بعمله ، فسرقه اللصوص .

فبلغ الخبر المرحوم الأستاذ محمود سلامه صاحب جريدة الواعظ ، فقال يرثى الحمار المسروق مداعباً مفاكها :

قف بسوق الحمير وانظر مليا هل ترى أدهما أغر المحيا

خلفته يد اللصوص صباحا موكفاً ملجماً معداً مهيأ
فخلا اصطبله وأصبح قاعا صفصفاً خاوى العروش خليا
كان يا حسرتا عليه صبوراً قانع النفس راضياً مرضيا
كم ليال على الطوى قد طواها حامداً شاكراً ولم يشك شيا
لا لفقر وضيق عيش ولكن كان فى الزهد راغباً وتقيا
لو أتاح الإله للبهم رسلا كان فى أمة الحمير نبيا
ليت شعرى أين الأمان وهذا جحش عثمان قد عدمناه حيا
كان عونا له إذا رام ظعنا وخليلا لدى المقام صفيا
كان ان قلت (هش) أجابك طوعا وإن قلت (حا) انتضى سمهريا
لك خير العزاء عثمان ، أما سالبوه فسوف يلقون غيا

عبد الوهاب حمودة
أستاذ الأدب العربى ـ كلية الآداب بجامعة فؤاد



أول مدرسة للطب فى أوربا

أول مدرسة أنشئت للطب فى أوربا هى المدرسة التى أنشأها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الأموى فى قرطبة .

وقد امتلأت الأندلس بالمدارس لجميع العلوم فى عهد العرب ، بما لم يكن له نظير فى أى مملكة أوربية أخرى يومئذ .

بل يقال إن جامعة (مونبليه) الطبية فى جنوب فرنسا كان للعرب فضل فى تأسيسها .

نظرات فى كتاب الأموال

فى الفقـــه الإسـلامى

للدكتور محمد يوسف موسى

هذا كتاب فى الفقه وضع على نمط جديد . وهو تذليل سبل الفقه وجمع أطراف مباحثه وتقريبه من لغة القانون ونهج الدراسات الحقوقية فى هذا العصر . وقـد استتبع هذا ذكر آراء الفقهاء ووجهة أنظارهم واختيار أدناها إلى مصالح الناس ، مع ذكر رأى القانون بجانب الفقه ، فكان فى ذلك دراسة ممتعة مفيدة . وكان هذا منهجا مفيدا لما يسمونه « الفقه المقارن »

وأحسب أن « الفقه المقارن » حل محل علم يتصل بالفقه ؛ كان يعنى به قديماً ، وقد وضعت فيه التصانيف العديدة ، وهو علم الخلاف . وأساسه ذكر المسائل الفقهية المختلف فيها ، وذكر الأدلة المذهبية والحجاج لها . وينتصر صاحب الكتاب لمذهبه . وقـد يتم سبيل النصفة ، فلا يبالى أن ينتصر لغير مذهبه . وقـد بقى بعض هـذا فى كتب الحنفية ، فهى تعرض لخلاف الشافعية ، وتطيل فى ذكر حججهم والرد عليها .

ولقد أبان الأستاذ الصديق الدكتور محمد يوسف موسى الباعث له على هـذه الخطة المبدعة فى الفصل الذى جعل عنوانه : « [1] الغرض من دراسة الفقه الإسلامى » . ذلك أنه حدث فى الآونة الأخيرة فى عصرنا أن مال بعض من يوكل إليهم سن القوانين فى مصر إلى جعل الشريعة هى الأساس الأول الذى يبنى عليه التشريع ، بعد إقرار مؤتمر القانون المقارن الذى عقد فى لاهاى سنة ١٩٣٨ باعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع . وقد ذكر فى هذا الصدد أن من العقبات فى هذا الغرض الكريم عسر فهم الشريعة من مصادرها الحالية ، ونأيها عن الطرق المذللة التى جرت عليها دراسة القانون . فانتدب الأستاذ للقيام بهذا العمل النبيل وهو خير من يتولى هذا الأمر ، فقد حذق الثقافة الأزهرية والثقافة الغربية التى هى عماد القانون .

وقد بدأ عمله بدراسة (العقد) فى الفقه الإسلامى . والعقد أساس المعاملات ، وبحوثه متفرقة فى كتب الفقهاء . فعنى المؤلف بجمعها ، وتكوين وحدة متماسكة منها ، حتى يكون الدارس على بينة منها ، وعلى بصيرة فى أحكامها ، وفهم لمراميها .

---

(١) ص ١٥٤ وما بعدها .

وصدر الأستاذ كتابه بمدخل لدراسة الفقه ، ضمنه علماً جماً ، ومعرفة واسعة فى تاريخ التشريع والمذاهب الفقهية ورجالاتها ، وأصول الفقه ، وغير ذلك من الدراسات الجليلة .

ولقد أشاد المؤلف بالفقه الإسلامى ، وأبان عن مآثره ، وجلى من مزاياه وفضله على القانون فى الفصل الذى عقده تحت عنوان « [1]طبيعة الفقه الإسلامى وخصائصه » ، وهو فصل لا يبين فضله إلا بقراءته ؛ فهو عظيم الخطر ، حميد الأثر .

هذا الكتاب إذن حرىّ بحسن الاستقبال ، خليق أن يكرم ويعرف له حقه . وقد نال هذا ، فأحسن الناس استقباله . وعرفوا له مكانته وشأنه .

ومن حسن استقباله أن يدرسه الدارسون ، وينقده الناقدون ، وأن يتناول كل ما فيه من دقيقة وجليلة بالبحث والتمحيص .

وكتبت مجلة الأزهر الجليلة فى جزء شعبان ١٣٧٢ (ص ١٠١٨) عن الكتاب فقرظته ونوهت به ، وأولته حقه من الثناء بما هو أهله .

والكتاب الذى عرض لكبرى المسائل وأجل البحوث والدراسات العالية ينبغى أن تكثر الكتابة عنه ، وتسجل شتى النظرات فيه ، عرفانا بجلاله وخطره .

لهذا لم أر من الحديث المعاد ولا الكلام المكرور أن أعيد النظر فيه وأن أدون نظراتى فى هذا البحث .

وهمّى أن أذكر بعض ما غمض فى الكتاب رغبة فى استجلائه ، أو بعض أشياء أرى فيها غير ما يرى الأستاذ ، وسبيلنا جميعاً إن شاء الله التهدى للحق ، وابتغاء طريقه .

١ — فى ص ٢٢ عرض الأستاذ للسنة ، المصدر الثانى للتشريع بعد القرآن ، ولبيان الرسول عليه الصلاة والسلام للأحكام ، وهو فى هذا يقول : « فكان الرسول إذا سئل عن مسألة أوجدت حادثة تقتضى حكما من الشارع ينتظر الوحى السماوى . فإن نزل بالمراد فيها ، وإلا كان هذا إيذاناً من الله بأنه وكل إلى رسوله أن ينطق بالتشريع اللازم ، ومعلوم أنه لا ينطق عن الهوى ، وأحياناً أخرى كان الرسول يجتهد فى الحكم ثم يصدر رأيه . وهنا لا يقره الله على هذا الرأى إلا إذا كان صوابا » وقد وقفت عند الحالة الثانية ماذا يراد بها ،

(١) ص ١٣٦ .

إن هنا فروضا ثلاثة : أن يوكل اليه التشريع بمقتضى الوحى ، أو بمقتضى اجتهاده ، أو يصدر التشريع من تلقاء نفسه ، لا يعتمد فيه على وحى ولا على اجتهاد .

والفرضان الأولان لا مجال للمصير اليهما ؛ لأنهما الحالة الأولى والثالثة ، والحالة الثانية مباينة لهما ، فلا تدخل فى إحداهما . فالحالة الثانية اذن أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يشرع الأحكام من غير استناد الى وحى ولا اجتهاد ، فهو لا يتلقى الحكم من الوحى ، ولا يقيس على ما جاء من الوحى أو يستلهم روح الشريعة - كما يعبر المؤلف عن الاجتهاد فى بعض الأحيان - وإنما يرتجل الحكم ارتجالا . فهل يريد المؤلف هذا ؟ .

يقول المؤلف فى ص ١٣٨ : « أساس هذا الفقه إذاً هو وحى الله تعالى . هذا الوحى الذى نجده فى كتابه الكريم . وسنة رسوله العظيم الذى لا ينطق عن الهوى » فتراه يجعل السنة راجعة إلى الوحى . وهذا يوافق ما نقله المؤلف فى ص ١١١ عن الأوزاعى إذ يقول « إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديث فإياك أن تقول بغيره ، فإنه كان مبلغا عن الله » ويقول الغزالى فى المستصفى ١٢٩/١ : « إن بعض الوحى يتلى فيسمى كتاباً ، وبعضه لا يتلى وهو السنة » .

وفى الحق أن ما يرد فى السنة من الأحكام قد يرد تطبيقاً لقاعدة سبق تشريعها . وهذا أمره ظاهر ، ولا يقال : إنه ثابت بالاجتهاد ، فأمره أيسر أن يحتاج إلى ذلك . ومن أمثلته ما رواه سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن شراء التمر بالرطب ، فقال النبى ﷺ : أينقص الرطب إذا يبس ؟ قالوا : نعم فنهى عن ذلك . رواه الشافعى فى الرسالة ٣٣٢ ، وهو فى الموطأ .

ومن السنة ما جاء بوحى ظاهر لا مرية فيه ، وذلك كبيان الصلاة وأنها خمس ، فقد أوحى إليه ذلك فى ليلة الإسراء ، كما هو معروف ، ومن ذلك مقادير الزكاة ، وغيرها ، وهذا يطرد فى سائر السنة .

وإذا قيل إن السنة مبينة للكتاب فمرجع البيان للوحى . ويذكر المؤلف فى عدة مواضع أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يستلهم فى البيان روح القرآن ومقاصده ، وذلك كما ذكره مثلا فى ص ٢٧ . ومن البين أن المجمل كالصلاة والزكاة لا يبين باستلهام روح القرآن ومقاصده . بل لا بد فى هذا من البيان الصريح يتلقاه الرسول عليه الصلاة

والسلام من الشارع الحكيم ، وحظه من ذلك التبليغ ، وهذا على حين لا يزال الوحى ينزل لبيان المجمل وتقييد المطلق وتجلية اللبس والإبانة عن الأمر بالحق اليقين ، وهذا هو الذى استقر عليه الفقهاء والأصوليون ودانوا به ، ولزموه مذهبا لهم وإماما .

على أن إعطاء الرسول عليه الصلاة والسلام سلطان التشريع رأى قال به قوم فى بدء البحث فى هذه الأمور ، ورغب الناس عنه ، وصار قولا مهجورا . وقد حكاه الشافعى فى الرسالة [1] إذ يقول : « والوجه الثالث ما سن رسول الله ﷺ فيما ليس فيه نص كتاب . فمنهم من قال : جعل الله له بما افترض من طاعته ، وسبق فى علمه من توفيقه لرضاه ، أن يسن فيما ليس فيه نص كتاب » . وقد احتج الشافعى بعد للقول أن كل ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام بالوحى أو بما يلقى فى روعه .

ونرى هذا الرأى بعد مسألة نظرية جوازية غير واقعية . وقد ذكرها أبو إسحق الشيرازى فى اللمع فى أواخر الكتاب حيث يقول : « ويجوز أن يتعبد الله نبيه ﷺ بوضع الشرع ، فيقول له : افرض وسن ما ترى أنه مصلحة للخلق . وقال أكثر القدرية : لا يجوز . وهذا خطأ ؛ لأنه ليس فى تجويز ذلك إحالة ولا فساد ، فوجب أن يكون جائزا » .

٢ — وفى ص ٢٦ يذكر أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى بين أن المراد بشهر رمضان « الشهر القمرى لا الشمسى ، وأن الصوم يكون من الفجر إلى الغروب » . ورمضان من الشهور العربية القمرية ، وهو فى ذلك غنى عن البيان . ووقت الصوم ورد به البيان فى قوله تعالى : وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل . اللهم إلا أن يرمى المؤلف إلى ما وقع فيه بعض المسلمين من حمل الخيط الأبيض والخيط الأسود على حقيقتهما . وقد رمى بالغفلة وقلة الفطنة . « [2] وروى البخارى ومسلم عن سهل بن سعيد قال : نزلت (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) ولم ينزل (من الفجر) فكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود ، ولا يزال يأكل ويشرب حتى يتبين له رؤيتهما ، فأنزل الله (من الفجر) فعلموا أنه يعنى بذلك بياض النهار » .

---

(١) ص ٩٣ طبعة الاستاذ الشيخ أحمد شاكر .
(٢) تفسير القرطبى ٢ / ٣١٩

٣ — وفى ص ٢٤ فى الحديث عن اجتهاده عليه الصلاة والسلام ندت من الكاتب كلمة وددت لو لم يقع فيها، ولا مرية أنها فلتة لم يلق اليها بالا . وذلك إذ يقول : « فقول الله تعالى . (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ينطوى على أن الرسول لم يصحبه توفيق الله فى اجتهاده وإذنه لمن استأذنه » .

٤ — وفى ص ١٢٠ يذكر عن السنة أنها تجىء فى الاحتجاج بعد الكتاب ، ثم يقول : « فلا يصار إليها إلا عند عدم نص من القرآن يفى بما يريد ، والعهد بالفقهاء أن يستدلوا على الحكم بالكتاب والسنة ، ويتطلبوا السنة فيما جاء به الكتاب ، ويقول الشافعى فى الرسالة : « [1] فلم أعلم من أهل العلم مخالفا فى أن سنن النبى من ثلاثة وجوه ، فاجتمعوا منها على وجهين والوجهان يجتمعان ويتفرعان . أحدهما ما أنزل الله فيه نص كتاب ، فبين رسول الله مثل نص الكتاب » .

٥ — وفى ص ٤٢ يذكر أن عليا رضى الله عنه رد حديثاً رواه معقل بن سنان فى المفوضة التى مات عنها زوجها دون أن يسمى لها مهرا ، وآثر أن يقيس هذه المسألة على الطلاق ، ولم يأخذ بما فى الخبر أن لها مهر مثلها . ويقول المؤلف : « فقدم القياس على خبر الواحد ، وهو مذهب الأحناف ، على حين أن عبد الله بن مسعود لا يرى هذا القياس بل يرى الأخذ بخبر الواحد الذى رواه عن الرسول معقل بن سنان » . ويتضمن هذا الكلام أمرين :

الأمر الأول أن الإمام علياً رضى الله عنه يقدم القياس على خبر الواحد ، وهذا يكاد يكون مخالفا لما استقر عليه الاجماع أن الصحابة كلهم يأخذون بخبر الواحد ، ولا يلجأون الى القياس ما وجدوا خبراً عن الرسول عليه الصلاة والسلام وانما كان همهم أن يستوثقوا من الرواية وتختلف طرقهم فى ذلك .

والمروى عن على رضى الله عنه أنه كان يستحلف من يروى له الخبر عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

ويقول أبو إسحق الشيرازى فى اللمع [2] : « وكان على – كرم الله وجهه – يرجع إلى أخبار الآحاد ، ويستظهر فيها باليمين . وقال : إذا حدثنى أحد عن رسول الله ﷺ أحلفته

(١) ص ٩١ .
(٢) ص ٤٨ .

فإذا حلف صدقته ، إلا أبا بكر . وحدثنى أبو بكر ، وصدق أبو بكر » . وكأن أبا يوسف صاحب أبى حنيفة لم يبلغه خبر على على تمامه ، فهو يقول [1] : « وكان على بن أبى طالب لا يقبل الحديث عن رسول الله ﷺ » .

وقد لاحظ هذا الشيخ الخضرى فكتب فى حاشية كتاب « التشريع الإسلامى » تعقيباً على كلام أبى يوسف [2] « المعروف أنه كان يستحلف الرواة . وقد منا ذلك ، وهو يشير الى ما جاء فى ص ١٢٦ من كتابه ، وهو فى معنى ما رواه أبو إسحق الشيرازى ، وإنما رد على رضى الله عنه خبر معقل لأنه رآه أعرابياً لا يضبط ما يروى . ويذكر صاحب التلويح فى أصول الحنفية أن علياً قال فيه : « ما نصنع بقول أعرابى بوال على عقبيه » فرد خبره لأنه خبر واحد . ولكنه لأنه لم يستأهل أن يكون من أهل الرواية عنده .

ويذكر المؤلف أن القياس فى مسألة المفوضة لا يتفق مع خبر معقل . وهذا بالنظر إلى الطلاق . وهناك قياس أظهر منه ، وهو القياس على الدخول ، فإن الموت والدخول يجتمعان فى إيجاب العدة ، فالموت يوجب المهر كالدخول وهذا ما جاء به خبر معقل . وقد أخذ الحنفية بهذا ؛ كما فى التلويح .

والأمر الثانى أن الحنفية يقدمون القياس على خبر الواحد . وليس هذا صحيحاً على إطلاقه ، فعندهم أن الراوى إذا كان من أهل الفقه والرواية قدم خبره على القياس . ولهم فى هذا تفصيل يعلم من كتبهم . (للبحث بقية)

محمد على النجار

---

(١) انظر الأم للشافعى ٢٠٨/٧ فى سير الأوزاعى .

(٢) ص ٢٠٢ طبعة المكتبة التجارية .

كتب غربية عن الإسلام

١ ـ الدين المقارن : للدكتور ا . س . بوكيه ـ ١٩٥٠ ـ ٣١٩ صفحة

Comparative Religion - by A. C. Bouquet.

يهدف الدكتور بوكيه ـ أستاذ التاريخ والدين المقارن بجامعة كامبردج ـ إلى كتابة قصة واضحة على منهج علمى ، ومن ثم يحاول ـ بنجاح ملحوظ ـ الكتابة من وجهة نظر موضوعية ، وهو لا يكتب هذا الوصف للأديان الكبرى فى العالم للقارئ العادى غير المتخصص فى الموضوع ، فإن مثل هذا القارئ لا يلبث حتى يجد نفسه حائرا أمام كتاباته عن أديان العالم جميعا كما يؤمن بها أصحابها ويمارسون عبادتها .

وقد خص الفصل العاشر من كتابه هذا ، ص ٢٦٤ — ٢٨٣ ، بالكتابة عن الدين الإسلامى ، فتحدث عن الصلاة ، وعن حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو حديث لا يرضى المسلمين ولا التاريخ لتجنيه على الحقيقة وبعده عن الواقع ، ثم يناقش طبيعة الرسالة المحمدية ، والقرآن وتطور الفقه والتعليم فى الإسلام ، وعلى الرغم من ضيق صفحات الكتاب ، فقد بذل المؤلف غاية جهده فى استيعاب الموضوع ؛ كما تحدث عن التصوف الإسلامى فى باب التصوف عامة أكثر من حديثه عنه فى باب الإسلام .

* * *

٢ — أركان الإسلام الخمس : ل . بيفان جونز ـ ١٦ صفحة .

The Five Pillars of Ialam : L. Bevan Jones.

مؤلف هذا الكتيب كان عميدا لمدرسة هنرى مارتن للدراسات الإسلامية بجامعة عليجرة ، ونشرته « جمعية الإخوان الإسلامية » بوصفه العدد الثانى فى سلسلة كتب « أضواء على الإسلام » .

بدأ الكاتب بالتمييز بين « الإيمان » و « الدين » ، ثم تناول كلا من أركان الدين ، فوصفها فى إيجاز شارحا إياها شرحا يستفيد منه غير المسلمين ، والكتيب ـ فى صورته الموجزة ـ وصف واضح للناحية النظرية للدين .

ويلاحظ أن الناشر قد وضع على غلاف هذا الكتيب الإسلامى صورة أحد المعابد الوثنيـــة !

* * *

٣ ــ الإسلام : عقائد وعبادات : أ. س. تريتون ـ ١٩٠ صفحة .

Islam : Beliefs and Practices : A. S. Tritton London - Hutchinsons Un. Library - 1951.

كتاب فى حجم كتب الجيب يعطينا « تقريراً عن أصول الإسلام » مع بيان « بعض المفارقات الواضحة » . أما الكاتب فهو أستاذ اللغة العربية السابق فى مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن .

والكتاب ملئ بمعلومات طريفة فى أسلوب موجز ، وذو أهمية كبيرة لمن له معرفة سابقة بالدين الإسلامى ، نظرا لشدة إيجازه وازدحام الحقائق فيه .

ولما كان المفروض أن يستطيع القارئ التمييز بين وجوه الإسلام الخاصة ، وبين وجوهه العامة ، فإن القارئ الذى يجهلها ، يجد صعوبة فى معرفة أى الفقرات تتحدث عن العادات اليومية وأيها تتحدث عن العادات غير المألوفة .

ويبدأ الكتاب بفصل عن رسالة النبى ، والقرآن ، والأركان الخمس . وعلى الرغم من أن الكتاب يهدف إلى النقد ، إلا أنه مشوب بروح الود . وفهم الأساس التاريخى .

كما يتحدث المؤلف عن : الحديث ، وعقائد الإسلام ، وشرائعه فى إسهاب .

وثمت فصل عن الفرق sects يحوى مادة لا يعرفها الكثيرون من الغربيين ، وعقد لحديثه عن التصوف فصلا استعمل فيه الاصطلاحات الصوفية ، كما ذكرها المتصوفة ، وترجمها إلى الإنجليزية .

ومما يؤخذ عليه فى الأصول السابقة عدم ذكره لمصادر ما اقتبسه من نصوص .

ويتحدث بعد ذلك عن الدولة والعدالة والتعليم والحياة الاجتماعية والنظريات الأخلاقية ، والزواج والرق والخرافات ، ثم بحث موجز عن الحركات الحديثة المقترنة بنشأة « الفرق » الجديدة فى إيران والهند .

وينتهى الكتاب بفهرست للأعلام والمراجع .

ويعلن الأستاذ تريتون - فى نهاية كتابه - تقديره العظيم للإسلام ، وإعجابه الجم بالمسلمين .

٤ — المختار عن القرآن : جورج لامزا صفحاته ٢٠ ، ٣٧٧ سنة ١٩٤٩ م .

The Short Koran-Edited by George M. Lamsa. Chicago - 1949 PP. XX. 377.

إختار مخرج هذا الكتاب آيات معينة من القرآن الكريم ، ورتبها فى ٩١ فصلا ، يحاول أن يعرف العالم الغربى بالدين الإسلامى ، نظرا لازدياد الصلات بين الاثنين عاما بعد عام .

ويذكر محرر الكتاب أنه لم يكن يعرف عن الإسلام شيئا أكثر مما يشاع عنه بين المسيحيين ، حتى شاءت عناية الله أن يظفر بدراسته على يد شيخ مسلم ، ومن ثم عرف الإسلام دين الحق .

وتبحث مقدمة الكتاب فى السيرة النبوية ، والحالة الإجتماعية فى الجاهلية وبعد ظهور الإسلام .

ويذكر الكاتب أن المسيحيين الذين نشأوا حيث ظهر المسيح أقدر على تفهم المسيح من مفكرى الغرب لتباين الثقافات ، ويؤيد حديثه مستشهدا بالأستاذ فوينى حين يقول « إن الكنيسة النسطورية والإسلام يقفان جنبا إلى جنب يقاومان تدخل الثقافة اليونانية فى الشرق . وقد اعتنق الآلاف من أتباع الكنيسة النسطورية فى الشرق الدين الإسلامى بعد أن رأوا فى محمد (صلى الله عليه وسلم) « مصلحا للمسيحية » يحمل الرسالة ضد عبادة الصور ، كما وجدوا أن تعاليم بنى الإسلام عن وحدة الله وعن الصلاة والعبادة هى أقرب إلى تعاليم المسيح من الصورة التى يرسمها المسيحيون الإغريق للمسيحية والتى فرضها عليهم الأباطرة البيزنطيون وجاء الإسلام فكان فى نظرهم ناشرا لضوء المدنية فى العالم كله» .

أما فصول الكتاب فتشمل الآيات المختصة بموضوع واحد بمجموعة من السور المختلفة ، وجعل لكل نبى فصلا واحدا ، فيما عدا المسيح فقد أفرد له سبعة فصول . كما أفرد فصولا تناولت الأمور العامة مثل الملائكة والصلاة والربا وغير ذلك .

واعتمد محرر الكتاب - نظرا لعدم معرفته اللغة العربية - على ترجمة جورج سيل Sale ، فى اختيار الآيات التى تناسب المواضيع التى يتحدث عنها .

أعلام المسلمين

ابن المبـــــــارك

فى بطـون التاريخ وأسفاره نفائس من كنوز المثل العليا فى العلم والأدب ، والزهـد والاستقامة والخلق العظيم جدير بكل طموح أن ينظر فيها ويتزود منها لتدفع به إلى فوق . ومن هؤلاء ذلك الإمام الجليل (عبد الله بن المبارك) .

* * *

لقد كان عبد الله بن المبارك مثال الرجل العالم الجامع لأشتات العالم فى عهده من الحديث والفقه والعربية وأيام الناس . وإن كانت شهرته بالحديث والفقه هى التى بقيت له .

---

٥ ــ القرآن Le Coran : Traduction Par O. Pesle et Ahmed Tidjani. Paris - 1950

ونختتم هـذا الحديث بالـكلام عن ترجمـة فرنسية جديدة للقرآن ظهرت فى باريس سنة ١٩٥٠ نتيجة لتعاون مسلم جزائرى وفرنسى مسيحى . الأول مترجم إدارة الشئون الشريفية ، والثانى أستاذ فى معهد الدراسات العليا فى مراكش . وللترجمة « قاموس قانونى » ذكر فيه أرقام الآيات التى تبحث فى أمور قضائية كالزواج والطلاق والتبنى والبيع والشراء وما شابه ذلك ثم « قاموس جغرافى تاريخى » ذكر فيه أسماء الأعلام والبلدان التى وردت فى القرآن مرتبة ترتيبا أبجديا . وبجانب القاموسين تعليقات مختصرة .

وكتب المقدمة أوكتاف بزل أحد المترجمين . والترجمة أسلوبها جيد ، تعتمد على تفسير البيضاوى ، وإن كانت لا تخلو من أخطاء كثيرة .

ورأى الأزهر فى ترجمة القرآن معروف .

عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب

أعلام المسلمين

ابن المبـــــــارك

فى بطـون التاريخ وأسفاره نفائس من كنوز المثل العليا فى العلم والأدب ، والزهـد والاستقامة والخلق العظيم جدير بكل طموح أن ينظر فيها ويتزود منها لتدفع به إلى فوق . ومن هؤلاء ذلك الإمام الجليل (عبد الله بن المبارك) .

* * *

لقد كان عبد الله بن المبارك مثال الرجل العالم الجامع لأشتات العالم فى عهده من الحديث والفقه والعربية وأيام الناس . وإن كانت شهرته بالحديث والفقه هى التى بقيت له .

---

٥ — القرآن Le Coran: Traduction Par O. Pesle et Ahmed Tidjani. Paris - 1950

ونختتم هـذا الحديث بالـكلام عن ترجمـة فرنسية جديدة للقرآن ظهرت فى باريس سنة ١٩٥٠ نتيجة لتعاون مسلم جزائرى وفرنسى مسيحى . الأول مترجم إدارة الشئون الشريفية ، والثانى أستاذ فى معهد الدراسات العليا فى مراكش . وللترجمة « قاموس قانونى » ذكر فيه أرقام الآيات التى تبحث فى أمور قضائية كالزواج والطلاق والتبنى والبيع والشراء وما شابه ذلك ثم « قاموس جغرافى تاريخى » ذكر فيه أسماء الأعلام والبلدان التى وردت فى القرآن مرتبة ترتيبا أبجديا . وبجانب القاموسين تعليقات مختصرة .

وكتب المقدمة أوكتاف بزل أحد المترجمين . والترجمة أسلوبها جيد ، تعتمد على تفسير البيضاوى ، وإن كانت لا تخلو من أخطاء كثيرة .

ورأى الأزهر فى ترجمة القرآن معروف .

عمر طلعت زهران

أستاذ فى الآداب

ولقد كان على جانب خصيب من الزهد والمروءة والسخاء العجيب ، موطأ الأكناف رحب الذراع مع شجاعة نادرة فى نفس مؤمنة صادقة يجاهد فى الله حق جهاده حتى استوت له شخصية زاحمت شخصيات الملوك والخلفاء . ووضع فى النفوس أسمى من السماء .

ولد ابن المبارك سنة ثمانى عشرة ومائة وتوفى سنة اثنتين وثمانين ومائة ، فهو من أعلام القرن الثانى ، وأفذاذ العصر العباسى الذهبى ، الذى كان يموج بالعلوم والمعارف موجا على اختلافها ، والذى استقرت فيه علوم الشريعة الإسلامية باستقرار الملك والخلافة لآل العباس فظهر الفقه الناضج المرتب على أصوله وتنافس الناس فى سنة النبى ﷺ وهى أعز شىء بعد الكتاب عند المسلمين وهى أساس التفسير والفقه ومطلع شمس الهداية فى أمة محمد ﷺ .

وقد امتاز الموالى فى ذلك العهد بأن الكثرة الكاثرة من حملة ألوية العلم والثقافة كانت منهم لأنهم شاءوا أن ينافسوا العرب بما يرفع الإسلام وهو العلم والخلق . وكان ابن المبارك من هؤلاء الموالى وكانت أمه خوارزمية وأبوه تركيا وكان عبدا لرجل من التجار من همذان ، وعاملا فى بستان .

فقد نشأ إذا نشأة الموالى المتواضعة المنافسة فى عهد عبدت فيه سبل العلم وسهل مشارعه وشجع الخلفاء رجاله بالمال الوفير وإسناد المناصب الخطيرة فى الدولة إليهم . وابن المبارك على استعداد عجيب نادر يمر وهو فى المكتب بخطيب يخطب فيحفظ خطبته ويلقيها كما سمعها .

وقد شغف بالعلم شغفا شديدا وطلبه عند رجاله من أئمة العلم فى مرو وخوارزم وبغداد يرحل إليهم حيثما كانوا يأخذ عنهم ويكتب بين يديهم ويناقشهم ، فتتلمذ لإمام دار الهجرة مالك وأخذ عنه الموطأ ، وتتلمذ لسفيان الثورى وأخذ عنه ما عنده من الفقه والحديث ، وتتلمذ لأعلام تفاخر بهم أمة محمد ﷺ من أمثال الليث بن سعد وشعبة والأعمش والأوزاعى وابن جريج . وكان أكثر أخذه عن سفيان الثورى ومالك بن أنس ، وما زال فى روايته وحفظه . ودرسه وفقهه وانتفاعه بعلمه حتى صار من الأئمة الربانيين فى العلم الموصوفين بالحفظ المذكورين بالزهد . وبلغ من الشهرة والصيت مبلغا جعله لا يزاحم ولا يختلف الناس فى أمره . وساعد على ذلك أدب وطيب نفس . وسخاء وشجاعة وتضحية . وزهد مع الثراء من التجارة التى كان يلجأ إليها يستعين بها على الإحسان والعطاء .

وقد تتلمذ له فى العلم من صاروا أئمة فى عصره وبعد عصره من أمثال سفيان بن عيينة

ويحيى بن معين وابن أبي شيبة ويحيى بن سعيد القطان وعبد الرازق بن همام ويعمر بن بشر وغيرهم من أئمة الدين فى الحديث والفقه .

المحدث : وبلغ من منزلته فى الحديث أنه كتب عشرين ألف كتاب فيه كما نقلوا عنه ، فهب أنها كراسات صغيرة . أو أن فى النقل بعض المبالغة غير أنها تدل على منزلة خطيرة فى السنة والرواية .

ولا عجب إذا كان ذلك الزاهد الحافظ الورع يبلغ فى السنة هذه المنزلة ، وقد روى أن سائلا قال له :

أتحفظ الحديث ؟ فقال : أنا لا أتحفظ . ولكن إذا أعجبنى شيء علق بى .

وقد تناقل الناس عنه بالسنة وحفظه إياها فى عصره حتى حضر يوما عند إمام من أئمة الحديث من ملأ من تلامذته . وهو حماد بن زيد . وكان حماد من العلماء الربانيين المعروفين بالحفظ البارعين فى معرفة الآثر وطرق الروايات وأحوال الشيوخ . فقال أصحاب حماد لحماد : سله أن يحدثنا . فقال حماد : يا أبا عبد الرحمن تحدثهم ؟ فقال عبد الله : سبحان الله يا أبا عبد الرحمن ، أحدث وأنت حاضر ؟ قال : أقسمت لتفعلن . فقال عبد الله : خذوا .

وكان أصحاب الحديث بالكوفة إذا تشاجروا فى حديث قالوا : مروا بنا إلى ذلك الطبيب لنسأله .

وكان أبو أسامة من أئمة الحديث يقول : ابن المبارك فى أصحاب الحديث مثل أمير المؤمنين فى الناس . وشهادات الناس له فى الحديث ومنزلته فيهم معروفة مبسوطة فى كتب الآثر فلا نطيل بها ، وحسبك أن تعلم مبلغ استعداده وتفرغه ونهمه وأن هذا العصر كان عصر إحياء الحديث ورجاله .

الفقيه : كان من الذكاء والقدرة على استنباط الأحكام فى منزلة خولت له أن يكون فقيها يزاحم مالكا وأبا حنيفة ويحتج لمذاهبه بما لا يدفع . وكتب كتبا كانت مراجع للعلماء فى عصره وبعد عصره حتى قال الإمام يحيى بن آدم : كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل فلم أجده فى كتب ابن المبارك أيست منه . وحتى عده عبد الرحمن بن مهدى إماما من أربعة لا يذكر غيرهم فى الفقه ، فهو يقول : الأئمة أربعة : سفيان الثورى ومالك بن أنس -

وحماد بن زيد وابن المبارك . وكان يقدمه على سفيان الثورى ، فقيل له : إن الناس يخالفونك ، فيقول : إنهم لم يجربوا ، ما رأيت مثل ابن المبارك . وجائز أن الناس كانوا يقدمون سفيان لأنه أسبق ، ولأنه من شيوخ عبد الله ، على أن إمامة سفيان وفضله وتقدمه لم يمنعه أن يعترف لتلميذه اعترافا دل على مبلغ فضله ، فقد جاء رجل يسأله عن مسألة ، فقال له سفيان : من أين أنت ؟ قال : من أهل المشرق قال : أو ليس عندكم أعلم أهل المشرق عبد الله بن المبارك ؟ قال : هو أعلم أهل المشرق ؟ قال سفيان : والمغرب . وكان إبراهيم بن شماس يقول : رأيت أفقه الناس ، وأورع الناس ، وأحفظ الناس . فأما أفقه الناس فابن المبارك ، وأما أورع الناس ففضيل بن عياض ، وأما أحفظ الناس فوكيع بن الجراح ، ونحن لا يعنينا أن نبالغ فى وصف العلماء وتقديمهم ، وإنما يعنينا ما فيهم من مثل صالح وقدوة تحفز على النشاط وتفريغ أنفسنا للعلم وكسبه وهو أكثر من أن يحاط به .

الفاضل الزاهد السخى المجاهد : كل أولئك وأكثر منهن قد اجتمعت فى عبد الله بن المبارك فقد بلغ من زهده فى الدنيا وجوده بها . أن كان يتعهد الناس ويلتمس أرباب العثرات فيجبرها ويخفى ذلك ما استطاع ، وقد استفاضت أخباره فى ذلك وعرف الكثير من أمره بعد موته لأنه يرجو تجارة مع الله لن تبور كما أدبته السنة وكما علمه الكتاب الكريم ، وقد دل على ذلك إجماع الناس على حبه وحفاوتهم به . ولقد كان يتجر فى تجارات واسعة وهو صائم الدهر لا لشىء إلا لينفق على الفقراء ولا سيما طلبة العلم ورجال الدين . وليسع رجال التصوف والمنقطعين لله عز وجل ، وهل رأيت رجلا يشهد له المعاصرون من أهل المنافسة فى حكم العادة فيقول قائلهم (الإمام إسماعيل بن عياش) : ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك ، ولا أعلم أن الله خلق خصلة من خصال الخير إلا وقد جعلها فيه . ويستدل لبعض ذلك فيقول : حدثنى أصحابى أنهم صحبوه من مصر إلى مكة فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم . . .

وخرج من بغداد يريد بلداً تسمى (المصيصة [1]) فصحبه الصوفية فأراد أن يكرمهم ويخفى ذلك ما استطاع : قال لهم إن لكم أنفساً تحتشمون أن ينفق عليكم : ياغلام ، هات الطست فألقى على الطاست منديلا ثم قال : يلقى كل منكم تحت المنديل ما معه فجعل الرجل يلقى

(١) هى من ثغور للمرابطة والجهاد بين بلاد الشام وبلاد الروم .

عشرة دراهم والرجل يلقى عشرين فأنفق عليهم إلى (المصيصة) فلما وصل إليها أخذ يقسم ما بقى فيعطى الرجل عشرة ، ويعطى الرجل عشرين ديناراً ، فيقول الرجل : يا أبا عبد الرحمن إنما أعطيت عشرين درهما ، فيقول وما تنكر أن يبارك الله للغازى فى سبيله .

وفى أخباره ما يدل على أنه كان يفعل مثل ذلك أيام الحج . يخرج من مرو وقد اجتمع أصحابه ويأخذ ما مع كل منهم فيضعه فى صندوق ثم يركبهم من مرو إلى بغداد ويطعمهم أطيب الطعام ثم يكسوهم فى بغداد ويخرجهم فى أحسن زى فإذا وصلوا إلى المدينة سأل كل منهم عما يطلب أهله وعياله من المدينة فيشتريه له . ويفعل ذلك فى مكة بعد قضاء الشعائر . فإذا عادوا زخرف لكل منهم بابه وداره ثم صنع لهم وليمة بعد ثلاثة أيام ودفع لكل منهم صرته كما هى من الصندوق . وله فى كتب الأدب والتاريخ أخبار فى قضاء الديون وإقالة العثرات . والانفاق على طلبة العلم والصالحين يخرج استقصاؤها عن القصد والاعتدال .

ويروى البغدادى إجمالا من ذلك يقول فيه إنه كان ينفق على الفقراء كل سنة مائة ألف درهم . وكان يقول للإمام العابدى فى عهد الفضيل بن عياض لولا أصحابك ما تاجرت .

ولما لامه بعض الناس فى تفريقه الأموال فى البلدان قال : إنى أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب بحاجة الناس إليهم احتاجوا فإن تركناهم ضاع علمهم وإن أغناهم بثوا العلم لأمة محمد ﷺ ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم .

أيها القارىء الكريم هذه هى نفس العالم الذى يقال فيه إنه من خلفاء الأنبياء يتعهد الناس بقدر طاقته . ويحسن خلافة محمد ﷺ فى أمته ، فيكون نفاعا ما استطاع .

هذا هو العلم الصحيح النافع الذى يزهد فى الدنيا ويرغب فى الآخرة ويعلم النصح للأمة فأين العلماء ؟ لهذا وغيره من صفات هـذا الإمام العارف بالله والحق يقول عبد الرحمن ابن مهدى : ما رأيت أنصح لهذه الأمة من عبد الله بن المبارك .

فأما شجاعته وجهاده بنفسه فى سبيل الله فقد دلت عليه أخباره فى تاريخه وأنه كان يشهد المعارك ، ويبارز الأعداء مبارزة عالم خبير بالحرب والفروسية .

ومن ذلك ما رواه عبدة بن سليمان المروزى : قال كنا فى سرية مع ابن المبارك فى بلاد الروم فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى البراز فخرج إليه رجل فقتله ، ثم دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فقتله ، ثم دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطاعنه فقتله ، فازدحم الناس عليه فإذا هو يلثم وجهه بكمه ، فأخذت بطرف كمه فإذا هو عبد الله بن المبارك .

وهكذا أيضا تأبى عظمة نفوس العلماء الفضلاء على العلماء الفضلاء إلا أن ينتفعوا بما فى هذا العلم من كنز ثمين فى رفعة شأن الدين والدنيا فلقد كفل السعادة للناس فى كل شىء من أمرهم وليس هو بالوضوء والصلاة وغير ذلك من الأعمال التى تحسنها العامة .

إن الدين معاملة وإنفاق وجلاد وتضحية وإيمان ، وبالله الهداية والتوفيق .

والظاهر أن ابن المبارك كان يتسم بالقدح المعلى فى الجهاد والجلاد ، وقد اشتهر بذلك وكان قدوة صالحة ومثلا للعالم النبيل فى عصره ، حتى روى أن فضيل بن عياض رآه فى المنام فقال : أى الأعمال وجدت أفضل ؟ قال : ما كنا فيه . قال الفضيل : الجهاد والرباط . قال نعم . قال : وأى شىء صنع بك ؟ قال : غفر لى مغفرة ما بعدها مغفرة .

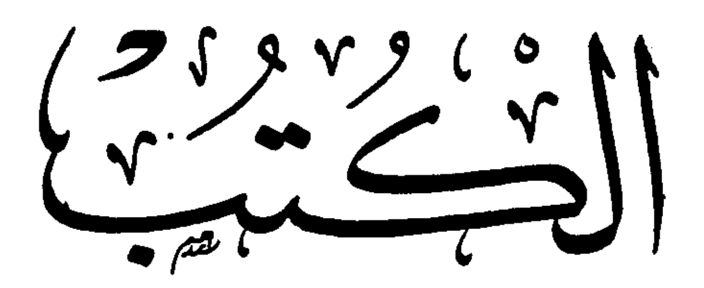
الشخصية : لعلك بعد هذا كله تستطيع أن تدرك مبلغ شخصية ابن المبارك وسمو منزلته فى الناس حتى قال عبد الرحمن الجهضمى قال لى الأوزاعى : رأيت ابن المبارك ؟ قلت : لا قال : لو رأيته لقرت عينك . وقال شعبة لأحد العلماء المعاصرين : رأيت ابن المبارك ؟ قال : نعم ، ما قدم علينا من ناحيتكم مثله . وقال أبو عصمة : شهدت سفيان وفضيل بن عياض وقد مات ابن المبارك ، فقال سفيان لفضيل : يا أبا على أى رجل ذهب ؟ فقال فضيل : يا أبا محمد ، وبقى بعد ابن المبارك من يستحى منه ! وقال عبد الوهاب بن عبد الحكم بلغنى أن هرون الرشيد قال لما مات سفيان : مات سيد العلماء .

وبعد فحسبى أن أنقل لك هذه الحادثة وأختم بها حديثى عن ذلك الإمام :

قدم الخليفة هرون الرشيد الرقة فى مناسبة ، وكان ابن المبارك يسير فى طريقه ، فانجفل الناس خلف ابن المبارك وتقطعت النعال وارتفعت الغبرة . فأطلت أم ولد لأمير المؤمنين من برج لها فقالت : ما هذا ؟ قالوا : عالم من أهل خراسان . فقالت : هذا والله الملك ، لا ملك هرون الذى لا يجمع الناس إلا بشرط .

أيها العلماء والطلبة ويا رجال الدين أجمعين ، هذا والله الملك ، يجمعه الله فى توفر العالم على علمه واعتداده بنفسه . واعتزازه بالله وحده . وفى نصحه للمسلمين . وزهده فى الدنيا ، وفيما يتنافس المنافس فيه بالرياء والنفاق والتزاحم على أبواب الحكام ومن لهم فى الدنيا ، نصيب . فاتقوا الله واطلبوا هذا الملك الذى خول الله لكم ولا تزوروا نعمة الله عليكم فتخسروا الدنيا والآخرة . أسأل الله لى ولكم التوفيق والهداية .

محمود النواوى



ديوان ابن عنين

نشره المجمع العلمى العربى بدمشق — بتحقيق الأستاذ خليل مردم — ٢٧٠ ص قالبين

شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن عنين الأنصارى الدمشقى (٥٤٩ — ٦٣٠) أديب عالم واسع الرواية للشعر وأخبار العرب متمكن من اللغة متقن لها ، كان يستحضر كتاب الجمهرة لابن دريد ، وهو طويل الباع بالنحو ، مشارك فى الحديث والفقه ، ملم بفروع الثقافة الإسلامية لعهده — وكان خفيف الروح كثير الدعابة ماجن ساخر متهكم يؤثر الهزل على الجد ، تعجبه النكتة ولو كان فيها حتفه . وأحب شىء إليه أن يستهزىء بذوى الهيئات والوقار والتزمت من الفقهاء والخطباء والواعظين ، أدرك فى شبابه عصر نور الدين ثم قامت دولة صلاح الدين ، فكان ابن عنين الشاعر سليط اللسان على الناس يغمز الوزراء ويهجو القواد والعلماء حتى بلغت به الجرأة أن عرض بصلاح الدين نفسه فى قوله :

سلطاننا أعرج وكاتبه ذو عمش والوزير منحدب

فضجر منه الناس وسعوا بإخراجه من دمشق إلى حيث يشاء من البلاد ، فخرج منها وهو يقول :

انفوا المؤذن من بلادكم إن كان ينفى كل من صدقا

وطوحت به الرحلة إلى العراق وأذربيجان وخراسان وغزنة وخوارزم وما وراء النهر ثم دخل الهند ، وكانت هذه السياحة الطويلة مدرسة له هذبت من أخلاقه ، وعرفته بقدر بلاده ، وعرف من المقارنة بين ما كان فيه وما صار إليه ، إن الذين كان يهجوهم هم ملح الأرض ومن خيرة الناس ، فانطلق لسانه يقول :

أحن ومن وراء النهر دارى حنين العود أوثقه العراس

وكيف تبيت تطمع فى مديحى رجاء نوالها العجم الخساس
ولو أنى مدحت ملوك قومى تراغت حولى النعم الدخاس
فإن الناس فى طرق المعالى لهم تبع وهم للناس راس

ولم يسعد فى بلاد الشرق إلا بلقاء الفخر الرازى فاستفاد ابن عنين من علمه وهباته ، وأخذ عنه وحضر دروسه ، ثم انقلب إلى الوطن العربى فدخل اليمن والوالى عليها سيف الإسلام أخو صلاح الدين فاحتفى به وأحسن لقاءه . وقال ابن عنين فى سيف الإسلام أحسن شعره . ثم أخذ يتردد بين اليمن ومصر . وفى وفيات الأعيان لابن خلكان وصف لمجالسه فى مصر مع جماعة من الشعراء واحتفالهم به . ثم عاد إلى دمشق وهو لا يرى الدنيا إلا فيها ، ويستصغر كل ما كسبه من مال ومتاع ومعرفة فى جانب الإقامة فيها :

ولو أنى خيرت فى هذه الدنيا لما اخترت غير أهلى ودارى

وسأله الملك المعظم عيسى بن العادل عن عجائب ما رآه فى البلاد فقال له : « كل ما فى الدنيا مفرق ، هو فى بلدك مجموع » ، ولم يكن يحن وهو فى دمشق إلا إلى مصر .

أحن إلى مصر ويا ليت أن لى إذا ذكرت مصر جناحاً أعاره

ومن مصرياته قوله فى انتصار الإسلام على الصليبيين فى ثغر دمياط سنة ٦١٩ وكان الشاعر يومئذ فى السبعين من عمره :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها حتى استجاروا بنا منا

وقد طبع هذا الديوان على ثمانى نسخ مخطوطة إحداها بدار الكتب الظاهرية بدمشق والثانية فى كمبرج ، والثالثة مخطوطة الشاعر أحمد الصافى ، والرابعة والخامسة بمدرسة يحيى بالموصل ، والسادسة بدار الكتب الأهلية بباريس ، والسابعة بدار الكتب المصرية وأصلها من الحجاز . وكل هذه النسخ مرتبة على الأبواب ، والثامنة بدار الكتب المصرية وهى مرتبة على الحروف . وقد بذل الأستاذ الكبير خليل مردم فى تحقيق هـــذا الديوان وتصحيحه والتعليق عليه وكتابة مقدمته والترجمة للشاعر مجهوداً عظيما لا يقل عن مجهود ابن عنين فيما نظمه من أبيات الديوان .

أبو بكر الصديق

تأليف الأستاذ على الطنطاوى - الطبعة الثانية - نشرتها لجنة الشباب المسلم - ٣٢٠ ص قالبين

تساءل المؤلف فى خاتمة كتابه : « من ذا الذى يستوفى فى كتاب واحد سيرة أبى بكر كلها ، وهى أفضل سيرة فى الإسلام بعد سيرة سيد العالمين وخاتم النبيين ، وأكملها وأحفلها بكل جميل وجليل ؟ » ومع ذلك فإن هذا الكتاب فى سيرة أبى بكر أحفل كتاب من حجمه بالنصوص المأثورة فى سيرة هذا الرجل العظيم الذى سلمته الأقدار أعظم أمانات الإنسانية فى أشد مواقفها خطرا ، فكان بما عزم الله له من قتال المرتدين ، وإقامة الأمر على وجهه الأكمل بلا التواء ولا تقصير ولا جزع ، أعظم رجال التاريخ ، على قصر مدة خلافته ، وجلال ما تم فيها مما تغير به وجه الإنسانية واتجاه التاريخ .

ومما امتاز به هذا الكتاب فى سيرة الصديق اعتماده على المصادر الصحيحة وكثرتها ، حتى بلغت مائة كتاب بين مخطوط ومطبوع ، وكان قد طبع للمرة الأولى قبل نحو عشرين سنة ، وأقبل القراء عليه حتى نفدت نسخه من سنين كثيرة ، فأعيد الآن طبعه بالمطبعة السلفية بالقاهرة على نفقة لجنة الشباب المسلم طبعاً أنيقاً معتنى به ، وفى أوله مقدمة بقلم رئيس تحرير هذه المجلة ، فى موضوع التاريخ الاسلامى ، وأنه أغنى تواريخ الأمم فى صحة مصادره ، وأفقرها فى الاستفادة من تلك المصادر ، وفى حسن عرضه بما يعين على بعث الأمة من جديد ، وتوجيه الخلف إلى الوجهة التى كان يتحراها السلف لتتم بهم رسالة الاسلام رسالة القوة والحياة ، فنحث الشباب على مطالعته .

أهداف الصهيونية

تعريب فردريك زريق - نشرته جمعية التمدن الإسلامى - ١٣٠ ص جابر

هذا الكتاب مجموعة ٢٤ محضراً لجلسات مؤتمر قيل إن اليهود عقدوه فى مدينة بال بسويسرا سنة ١٨٩٧ وزعموا أنه مؤتمر حكماء إسرائيل لتصريف دفة الحكم وسير المجتمع فى أوربا وغيرها بحسب خططهم إلى أن يتم المصير الذى رسموه لشعوب الأرض ويحققوا قيام مسيحهم الدجال . والمظنون أن واضع هذه المحاضر يهودى من مدينة كييف اسمه سيكفرا وهو مؤسس جمعية شباب صهيون وجمعية موشى السرية . وقد وقعت المحاضر فى يد أليكس نقولا فنش عميد أشراف شرقى روسيا ، فدفعها إلى سرجيوس نيلوس

الروسى الذى نشرها سنة ١٩٠٥ . ولما شعر اليهود باطلاع غيرهم على هذه المحاضر شكا هرتسل سنة ١٩٠١ من وقوف (الكفار) على أسرار الصهيونية ، ثم جعلوا يتبرأون منها بعد انتشارها سنة ١٩٠٥ . وأول من نقلها إلى الفرنسية عن نشرة سرجيوس نيلوس محرر جريدة (فرنسا القديمة) عقب الحرب العالمية الأولى (١٩ - ١٩٢٠) وبعد ذلك بسنوات قليلة نقلها إلى العربية الخورى أنطون يمين وطبعها فى ٢٤٤ صفحة بعنوان (المؤامرة اليهودية على الشعوب) . والآن أهديت إلينا ترجمة أخرى لها بعنوان (أهداف الصهيونيه) بقلم الأستاذ فردريك زريق نشرتها جمعية التمدن الاسلامى بدمشق . وكانت جريدة منبر الشرق تنشر تباعا ترجمة ثالثة لهذا الكتاب ثم نشرت فى كتاب مستقل . وتعدد ترجمات الكتاب دليل على أهميته .

أمراضنا ومشاكلنا

للأستاذ إحسان النمر — ١٣٠ ص جاير — مطبعة ابن زيدون بدمشق

هو كتاب مقسم إلى أربعة أقسام أولها عن ماضى العرب ، والثانى عن حاضرهم ، والثالث عن عوامل الضعف فى الشعب العربى وأسبابها ، والرابع فيما يراه المؤلف من توجيه للأحياء والتنظيم ، والتعليم والتثقيف ، والعمل للتقدم .

والمؤلف من الأفاضل المفكرين ، وقد ألم فى كتابه بما لا يجده القارىء مجتمعا فى كتب أخرى فنلفت إليه الأنظار .

رائد الشعر الحديث

وهذا كتاب آخر من مظاهر نشاط فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى درس فيه شاعرية الدكتور أحمد زكى أبى شادى وعرض فيه لصور عامة لأبى شادى فى حياته ودعوته وشعره ودراساته الفكرية والأدبية ودراسات المعاصرين له . والكتاب فى أكثر من ٣٠٠ صفحة من قطع هذه المجلة ، ويرى المؤلف أن الموضوع الذى خصص له هذا الكتاب يحتاج إلى تبسط لعله يوفيه بكتاب آخر .

أنباء العالم الإسلامي

الشرق الأوسط فى مؤتمر برمودة :

يؤكدون أن رئيس الولايات المتحدة إيزنهاور سيبحث مع رئيسى الحكومتين البريطانية والفرنسية عند اجتماعه بهما فى برمودا فى هذا الشهر مختلف الشئون التى تتعلق بالشرق الأوسط وتهم العالم العربى . وأن أيزنهاور شخصياً والأميرال راد فورد قائد الأسطول الأمريكى فى الأطلنطى مقتنعان بما اقتنع به دلاس وزير خارجية الولايات المتحدة وأوصى به حكومته من الأخذ بفكرة الرئيس محمد نجيب الخاصة بالاعتماد على ميثاق الضمان الجماعى المعقود بين الدول العربية فى تنظيم الدفاع عن الشرق الأوسط .

وإلى جانب البيان الذى أذاعه دلاس على الرأى العام بعد انتهائه من رحلته فى بلاد الشرق الأوسط وفى باكستان والهند وضع كذلك تقريراً عن هذه الرحلة ، وكل ذلك يدور حول المعانى التى تقدمت الإشارة إليها .

وفى برقية من نيويورك أن بعض الدوائر الصهيونية أبدت دهشتها من قول دالاس « أن الحكومة الأمريكية تشعر بأنه ينبغى لها أن تزيل الشعور العميق بالسخط الذى تشعر به الشعوب العربية نحوها نتيجة لقيام دولة إسرائيل » .

نظام الحكم فى مصر :

سألت مجلة التحرير (العدد ١٩ — ٢١ رمضان) البكباشى جمال عبد الناصر عما يراه بشأن نظام الحكم ، فقال :

« رأيى أن نأخذ بالنظام الجمهورى ، وأن ينص فى الدستور على أن يكون (دين الدولة الرسمى هو الإسلام) كما كان فى الدستور السابق » .

آخر جمعة فى رمضان

كان من التقاليد الحديثة لحكومة مصر أن يؤدى الخديو أو الملك أو من ينوب عنهما صلاة الجمعة الأخيرة من رمضان فى مسجد عمرو بن العاص ، وقد ثبت من البحث عن أصل هذه العادة أنها بدأت من عهد محمد على وذلك أن جامع عمرو احتاج فى زمانه إلى إصلاح فى مبانيه ، وقد تم هذا الاصلاح فى شهر رمضان ، فاحتفل محمد على بذلك بأداء الصلاة يوم الجمعة الأخير من رمضان فى جامع عمرو ، ثم جرت العادة بعد ذلك على أن يؤدى القائم على ولاية مصر صلاة آخر

جمعة من رمضان فى جامع عمرو ، وسميت هذه الجمعة الجمعة اليتيمة لأنها لا جمعة بعدها فى رمضان من السنة .

ولما علم الرئيس اللواء محمد نجيب بأن ذلك من التقاليد المستحدثة ، رأى أن يؤدى صلاة الجمعة من رمضان هذا العام فى الجامع الأزهر لأنه مثابة العلم والعلماء فى الدولة المصرية .

تعديل أنصبة الدول العربية
فى ميزانية الجامعة

عدلت أنصبة الدول الأعضاء فى ميزانية الجامعة العربية ، فأصبح نصيب مصر ٤٠ فى المائة ، والعراق ١٧ ، والمملكة السعودية ١٥ر٥ ، وسوريا ١٣ر٥ ، ولبنان ٦ ، واليمن ٣ ، والمملكة الأردنية ٣ ، وليبيا ٢ فى المائة

حصار إسرائيل :

أقرت اللجنة العليا لمقاطعة إسرائيل - وهى مؤلفة من وكلاء الوزارات - تشريعا يقضى بمصادرة جميع المواد الحربية والغذائية التى تضبط فى قناة السويس فى طريقها إلى إسرائيل وذلك فى حدود القانون الدولى العام .

السياسة المصرية
من سنة ١٩٣٦ إلى ١٩٥١

قرر الدكتور حافظ عفيفى فى شهادته أمام محكمة الغدر يوم آخر مايو أن العهد من سنة ١٩٣٦ امتاز بعدم الاستقرار : وزارات غير مستقرة يصحبها دائما تدخل من الملك فؤاد أم فاروق - ويندر أن تتألف وزارة لم يتدخل فيها الملك برفض وزراء معينين أم بفرض وزراء معينين ، مما كان يؤدى إلى عدم التجانس فى الوزارات . وكان الملك يتدخل فى مسائل لم يكن له حق أكثر من ابداء النصيحة فيها ولم يكن يضغط صراحة على الوزارات لقبول رأيه ، لكن كانت الوزارات ترى أن مسائل كثيرة لا تستحق أن تكون سببا لاستقالتها . فيتنازل بعض الوزراء تدريجا عن آرائهم فيضعف مركز الوزارة ، وربما كان الضغط يقع على الوزارة التى تدين بوجودها وحياتها للملك وكثيرا ما كان للملك طلبات داخلية أو خارجية أو سياسة ، وهذه الطلبات كانت تعرقل أعمال الحكومة .

هذه هى الحالة العامة : عدم استقرار الحكم ، وشل حرية الوزراء فى التصرف ، وتدخل من جانب القصر فى شئون الحكم . كان التدخل بمنع تعيين أشخاص جديرين وصالحين لتولى الوزارة ، بينما يحتل مكانهم وزراء غير صالحين أذكر أن كريم ثابت عين وزيراً ولم يكن هناك مبرر لتعيينه . وكنت رئيساً للديوان ، ولكننى لم أسأل فى هذا ولم يؤخذ رأيى فى هذا التعيين . وأنا لم أعين فى الديوان باختيارى فقد صدر أمر التعيين دون أن يؤخذ رأيى . هو كان حكم قراقوش والا إيه ؟ ! وفى اليوم التالى كان الياس اندراوس قد حل محلى ببنك مصر !

فهرس

المجلد الرابع والعشرين

(لسنة ١٣٧٢ هـ – ١٩٥٣ م)

(أ)

(ف)

مجلة الأزهر

تصدر عن مشيخة الأزهر

في أول كل شهر عربي

سنتها عشرة أعداد

متعهدو المجلة في الخارج

شركة فرج الله .

دار الكتب العربية الشرقية لصاحبها

محمد خوجة	في تونس
محمد على بقميقص	« بنى غازى
مصطفى السراج	« طرابلس الغرب
مكتبة المؤيد	« المنامة ـ البحرين
المكتبة العربية والمكتبة الوطنية	« الرياض

وفي السودان من :

زكى بطليموس	« الخرطوم
غانم محمد	« الدويم
مكتبة دبورة	« العطبرة
مكتبة الصحافة	« بربر

بهذا العدد تنتهى السنة الرابعة والعشرون من مجلة الأزهر

ويصدر العدد الأول من السنة الخامسة والعشرين في أول المحرم سنة ١٣٧٣ هـ

إن شاء الله